رسالة الغفران

للشاعر الفيلسوف أبى العلاء المعرّى

شرح وايجاز

كامل كيلانى

الجزء الاول

ملتزم طبعه ونشره

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر



حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول

إهداء الكتاب

مَوْلَاى :

مُنْذُ أَلْفِ عَامٍ – أَوْ قَرِيبٍ – تَغَنَّى صَاحِبُ الْغُفْرَانِ فِى مَنْثُورِهِ وَمَنْظُومِهِ بِالْمَثَلِ الْأَعْلَى لِلْمَلِكِ الصَّالِحِ ، وَرَاحَ يَنْشُدُهُ – حَيَاتَهُ – عَلَى غَيْرِ طَائِلٍ .

وَالْيَوْمَ يَتَحَقَّقُ لِشَارِحِ الْغُفْرَانِ فِى عَهْدِكَ الزَّاهِرِ – ذَلِكَ الْحُلْمُ الذَّهَبِىُّ الْجَمِيلُ الَّذِى عَزَّ عَلَى مُؤَلِّفِ الْغُفْرَانِ أَنْ يَظْفَرَ بِهِ .

مَوْلَاى :

وَلَقَدْ رَفَعْتُ بِالْأَمْسِ إِلَى سُدَّةِ أَمِيرِنَا الْمَحْبُوبِ – فِى أَوَّلِ نَشَاءَتِهِ الطَّاهِرَةِ – أَوَّلَ لَبِنَةٍ سَوَّيْتُهَا فِى أَسَاسِ مَكْتَبَةِ الْأَطْفَالِ .

وَالْيَوْمَ يُسْعِدُنِى أَنْ أَرْفَعَ إِلَى سُدَّةِ مَلِيكِنَا الْمُصْلِحِ – وَهُوَ فِى مُقْتَبَلِ شَبِيبَتِهِ النَّاضِرَةِ – آخِرَ لَبِنَةٍ أَضَعُهَا فِى صَرْحِ مَكْتَبَةِ الشَّبَابِ .

وَأَنَا فِى هَذِهِ وَتِلْكَ لَا أَتَوَخَّى – بَعْدَ رِضَا اللهِ (سُبْحَانَهُ) – غَيْرَ رِضَاكَ ، رَاجِيًا أَنْ تَظْفَرَ هَذِهِ – مِنْ رِعَايَةِ الْمَلِيكِ – بِمِثْلِ مَا ظَفِرَتْ بِهِ تِلْكَ مِنْ عِنَايَةِ الْأَمِيرِ .

وَحَسْبِى أَنْ أُرَدِّدَ فِى هَذَا الْمَقَامِ مَا أَسْلَفْتُهُ فِى ذَاكَ مِنْ مَوْفُورِ الْوَلَاءِ ، وَصَادِقِ الدُّعَاءِ :

« فَإِذَا قَبِلْتَ هَدِيَّتِى ، وَرَضِيتَ عَنْ هَذَا الْكِتَابْ
أَحْيَيْتَ فِى نَفْسِى الرَّجَاءَ فَأَبْدَعَتْ فِى كُلِّ بَابْ
وَمَلَأْتَ قَلْبِى بِالْيَقِينِ فَلَا أُبَالِى بِالصِّعَابْ »

كامل كيلاني



أبو العلاء كما تخيله شارح الرسالة

مقدمة

« أكتبُ هذا ، و بين يديَّ طبعة لرسالة الغفران ، أذاعها « كامل كيلانى » — منذُ حين — أكتبه ، وأنا أعلمُ أن هذه الطبعة قد ذاعتْ ، واستبق إليها الناس استباقاً لم يكن منتظراً ولا مرجوًّا ، فاغتبط للطبعةِ نفسها ، وعناية « كامل » بها ، ثم أغتبط لما ظفر به من التشجيع على هذا الجد ، وهذه العناية ، ثم أغتبط لأن روح أبى العلاء ، وفلسفته ، ومناهجه — فى الفهم والتفكير — قد أخذت تتغلغل فى طبقات المستنيرين من أهل الشرق العربى ، وليس هذا بالشىء القليل ، وما أشك فى أنه سينتج آثاره الحسنة بعد حين » .

تلك هى نبوءة الأستاذ العميد[1] منذ خمس عشرة سنة ، وقد صدَّق الزمن نبوءته التى أوحاها إليه رواج الطبعة الأولى من هذا السِّفر النفيس ، فقد نفدت الطبعة الثانية كما نفدت الطبعة الأولى فى زمن يسير ، ومضت نسخهما تطوّف فى الآفاق ، فأصبحت كل نسخة منها مدداً فى مكتبة لأديب أو متأدب ، وحقق الشباب المفكر تأميلنا فيه ، ورأى فى هذا السفر الخالد مصداق ما حدثناه به : فنا من الأدب العالى يفخر به الفكر الإنسانى ، ويزهى بروعته الخيال العالمى[2] ، فأقبل على هذه اللذائذ الفكرية المرتقيات — كما يقول شيخ

---

(١) انظر مقدمة الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية التى صدرنا بها الطبعة الثانية من رسالة الغفران ، وقد أعدنا نشرها فى هذه الطبعة الثالثة (ص ٦٦٩ — ٦٧٨) ومما كتبه الاستاذ العميد عن الطبعة الثانية من الغفران فى مقدمة كتاب « صور جديدة من الادب العربى » قوله : وقد راجت رسالة الغفران هذه — فى مصر والشرق العربى ، بل رأيت من المستشرقين — فى أوربا — من يرضى عنها ، ويعجب بها . »

(٢) صدرنا الطبعتين الاولى والثانية بما يلى :

الى الشباب المفكر ، الذى أدرك حقيقة الادب الحى ، وعرف قيمته وأثره فى احياء النفوس ، وانهاض الشعوب .

الى الشباب المفكر الذى اطلع على الآداب الغربية ، فسحرته أنغامها العديدة ، وهاله خضمها الزاخر ، الجياش بشتى احساسات الحياة وخوالجها ومثلها الرائعة ، وعطف على الآداب العربية فأحرج صدره ما فيها من الخلط وسوء الاختيار ، فعزف عنها مزدرياً ناقماً — وله بعض العذر — واندفع متهافتاً على الادب الغربى الذى وجد فيه لكل خالجة وتراً تشجيه أنغامه ، وتملأ فراغ نفسه ، وتحلق بها فى أسمى ملكوت تطمح اليه .

الى هذه الفئة من الشباب ، أقدم هذا الكتاب الذى أرى فيه فناً من الادب العالى ، أجرؤ فأزعم — لا متحمساً للغتنا ، ولا متعصباً لآدابنا ، ولا مجازفاً فى زعمى — أنه لا يقل عن أجل أثر أخرجه أكبر رأس عربى مفكر ، وهنا نمسك القول حذراً من الاسراف والشطط . . . »

المعرة — ونفدت الطبعة الثانية منذ عشر سنوات — أو تزيد — ثم شغلتنى مكتبة الأطفال عن إظهار هذه الطبعة إثر نفاد سابقتها حتى أتاح الله هذه الفرصة ، وقدّر لها الظهور فى هذا الثوب الأنيق .

ولا يَدْهَشَنّ القارئ إذا حدثته بأن إقبال الشباب العربى على هذه الرسالة ، قد أحيا فى نفسى ميت الآمال ، وحفزنى ذلك النجاح إلى إنشاء مكتبة الأطفال . فقد تحقق لى أن الطفل العربى إذا تعهدناه فى أول نشاءته بالتثقيف العربىّ ، ويسّرنا له سبل البيان العربى ، حسن رأيه فى أدبنا ، وصفا تفكيره ، واستقامت فطرته ، وقد أثبتت الأيام صدق ما رأيناه ، ثم بدت فى هذه الأيام بشائر طيبة ، فرأينا طائفة من كرام المربين يقتفون أثرنا فى هذه الطريق وينتهجون ما رسمناه من خطط ومناهج، فحمدنا لهم تلك المحاولات المشكورة، ودعونا لهم بالسداد والتوفيق ، وما زال أملنا معقوداً بنجاحهم القريب ، متى ضاعفوا من عزماتهم وأخلصوا نياتهم ، وتصدى كل منهم لما يحسنه ، واقتصر الميدان على أهله .

ولئن كانت رسالة الغفران حافزة لنا إلى إظهار مكتبة الأطفال ، لقد كانت تلك المكتبة معوّقة لنا عن المبادرة بإظهار هذه الرسالة إثر نفادها .

ولقد آثرت الروية ، واخترت التريث ، ولم أدفع بالكتاب إلى المطبعة إلا بعد أن احتفلت له وحشدت — لتجويده — كل ما أملك ، حتى قربته — ما وسعنى الجهد — من الكمال الفنى المنشود ، رغبة فى أن أجزى بالشكر لأبناء العروبة على ما بذلوه من تقدير وتشجيع . وإن إقبال شبابنا على الآثار العلائية المبْدَعة ، وتزودهم من هذا المنهل الفكرى الصافى ، لدليلا أى دليل ، على أصالة النهضة الأدبية التى يرفع أعلامها أعلام هذا العصر ومفكروه ، وإن فى نفاد الطبقات المتعاقبة من آثار المعرى لفألاً صادقاً — كما قلت فى مقدمة الطبعة الثالثة من « اللزوميات » — يبشر بخير النتائج ، وينبئ بأحمد الغايات .

* * *

ولقد جلونا هذه الطبعة الجديدة وقد أنست بالنص الكامل لرسالة ابن القارح ، وهى الرسالة التى بعث بها صاحبها إلى أبى العلاء ، فأجابه عليها برسالة الغفران[1] .

---

(١) انظر (الجزء الأول ص ٢١ و ٢٢) لترى السبب الذى دعا ابن القارح الى تأليف هذه الرسالة التى حفزت المعرى الى انشاء رسالة الغفران .

وقد أضفنا إليها طائفة صالحة من رسائل المعرى ، فى فقه اللغة ، وفنون الأدب . وضروب شائقة من طريف الحكمة وجميل المودة ، ثم ذيلنا ذلك بترجمه وسيطة لجحيم « دانتى » إذ كان الباحثون قد أفاضوا — لهذا العهد — فى صلتها بغفران « أبى العلاء » .

وقد أخذنا أنفسنا — فى إخراج هذه المجموعة من الرسائل المبدَعة — بأن نقيد نصوصها بالشكل الكامل ، وإن بيان « أبى العلاء » لجدير أن يضبط كله ، إذ كان ذلك الكاتب المتفرد مغربًا فى لفظه وأسلوبه ، على عمق أغراضه ومعانيه .

وما أحوج القارئ — لآثار هذا الفيلسوف الأديب — إلى أن يضاعف يقظته لتفهم معناه البعيد ، ويحبس انتباهه لتقصى مرماه الخفى ، ويجلو فطنته لاكتناه مغزاه المستسر ، ويحشد قواه الفكرية كلها فلا يتوزعها الصواب فى إعراب كلمة أو تصريفها أو وجه سياقها .

وقد يكون ذلك أجمع سهل المقادة ، ميسور التأتى ، هيّن الدرك ، للأديب المتمكن ، ولكنه — على ذلك — شدّ ما يكون حجر عثرة فى طريق الشُّداة من المتأدبين ، فسرعان ما يدركهم الملل ، ويقعد بهم العجز ، ولا يلبثون أن يضجروا بمتابعة القراءة ، وبذلك يفوتهم — على الرغم منهم — أن يستمتعوا بهذه الكنوز الأدبية الجديرة بالجد والمعاناة . واستتبع هذا العمل أن نشرح الألفاظ شرحًا دقيقًا ، ينكشف به المقصود من معانيها فى عرض الكلام .

ويسيرٌ غاية اليسر هذا العمل ، لو أن الكاتب غير أبى العلاء من كتاب الغريب المنصوص عليه صراحة فى المعجمات ، فان امتلاك أبى العلاء لناصية اللغة ونوادرها ، وسعة محفوظة من جزل النظم والنثر ، وتمرسه بمختلف أساليبها ، وغوصه على فرائدها ، وتهدّيه لأبكار المعانى وعيون الكلام ، وتوفقه فى ابتداع الصورة الفنية الرائعة . وحشده أفانين مختلفة من مُعْجب التصاوير وبارع الصيغ ، وتبحره فى التاريخ ، إلى حد أن قال — وصدق — :

« ما مرّ فى هــذه الدنيا بنو زمن   إلا وعندى — من أخبارهم — طرف »

كل أولئك قد أجرى لسانه بالكثير الأكثر من صور ألفاظ تدل — بعــد الروية ، ومد البحث — على غير المعروف الظاهر من معانيها ، مما توسعت به اللغة ، وتشعَّب التصريف ، فصار واجبًا أن نحد المراد من اللفظ فى سياق الجملة حدا دقيقًا ، وأن نفسره

بما يقتضيه ذلك السياق ، معتمدين — فى ذلك — على ما يقع لأيدينا من أجلاد اللغة ، وكتب الألفاظ ، باذلين الوسع فى التحرز والتخير والتحقيق .

*
* *

وقد توخينا — على ذلك — أن نترجم لمن وردت أسماؤهم — فى هذه المجموعة — من الكتاب والشعراء وكلّ ذى فن .

وضاعف الجهد فى هذا الصنيع ، أن أبا العلاء كان بعِلْمه مُدلاً ، ولوفرة معارفهِ مستخدما ، فكان يشير إلى الكاتب أو الشاعر أو العالم باسمه ، وهو معروف بلقبه ، أو ينعته بكنيته ، وهو معروف بنسبته ؛ مما أثبت له فى صدور معاصريه عظيم المنزلة ، وشديد الإعجاب ؛ فلقينا فى كشف هذه المعميات — بالصدر الرحب — بعض العناء . ومما رسمناه لأنفسنا فى الترجمة أن تكون شرحاً لما أشار إليه أبو العلاء حين عرض لأولئك الأعلام ، حتى يَغْنَى القارئ عن المراجعة والاستعانة بغير الكتاب الذى بين يديه ، فيجد كفايته من توضيح الاشارات بأدنى نظر ، وأيسر جهد . ورأينا ألا نخلى هذه المجموعة من دراسة لفلسفة أبى العلاء وتفصيل لآرائه فى الحياة والناس وما وراء الكون ؛ فألزمنا أنفسنا ألا يعرض أبو العلاء لمعنى فلسفىّ ، أو يلمع إلى فكرة من خواص فكره ، إلا ألحقنا بها ما يماثلها فيما نقل عنه ؛ ولا جرم أن شعر أبى العلاء ونثره يفسر بعضه بعضاً ، فهو يلمح إلى الفكرة فى بيت ، ويوضحها فى بيت آخر ، ويزيدها إبانة وتوضيحاً فى متناثر أبيات أخرى . فلا منتدح لمن يتناول بالبحث إحدى نواحى أبى العلاء من أن يستقرى شعره ونثره ، ويتفطن إلى النظائر والأشباه ، وما يتداخل من أفكاره ، وما يرجع من بعضها على بعض ؛ حتى تنفسح أمامه سُبُل الموازنة والمقابلة والترجيح . وفى أضعاف هذه المجموعة حمل لبعض العبء عن الباحثين ، فلقد فصلنا فيها أبواباً من فلسفة أبى العلاء ، وعمَّرْناها بمختلف أقواله فى كل منها ، وكشفنا الغطاء عن مستورها ، وجلوناها مواد مهيأة للفائدة والانتفاع ؛ آملين أن يكون الباحثون بها فى أمْن مِنَ الخطأ فى الحكم ، والخطل فى الاستشهاد .

وثمة جانب من العمل فى هذه المجموعة ما كان أحرانا أن نمسك عن القول فيه ، إذ كان القول أياً كان لا يصف على الحقيقة ما عانيناه منه . ذلك هو جانب التصحيح لنصوص الرسائل التى حفلت هذه المجموعة بها . ويشهد الله لقد تفشاها التحريف والتصحيف ، بل المسخ والتشويه ؛ فأحال الكثير من جملها أعقد من ذنب الضب ؛ سواء فى ذلك الرسائل التى سبق طبعها ، والرسائل التى ظلت مخطوطة حتى إعداد هذه المجموعة للطبع . وقد آلينا على أنفسنا ألا ندخر فى تصحيحها من جهد ولا كد ؛ فصبرنا للجامح حتى سلس ، وتأتّينَا للمستعصى حتى انقاد . وتوسلنا إلى ذلك بما اتسع له الامكان من وسائل المراجعة للكتب ، والتقليب للرأى ، والإذكاء للفطنة ، والحدّ للذهن ، والتوطينِ للنفس — مهما بعدت الشُّقّةُ — على بلوغ الغاية .

وقد انقسمت هذه المجموعة من الرسائل لذلك الجانب من التصحيح إلى قسمين : قسم حوى مباحث من فقه اللغة ، ورواية الشعر ، وعلم الأدب ، فكان من همنا فى هذه المباحث أن نتصيدها فى مظانها ، ثم نعارض ما فى المظانّ بما أُثر عن أبى العلاء ، مستأنسين بما نجد من هذه المباحث فى استقامة الجمل ، وسلامة الألفاظ ، وصحة السياق . فأما القسم الثانى ، فهو نثر أبى العلاء الذى أملاه إنشاء ، لا مرجع عنه إلا إليه ، ولا بديل منه إلا مرآته . فكنا نقف منه موقف الأناة والتروّى ، لا نقنع فى تصويبه بعفو الخاطر ، ولا نرضى فيما يظهر لنا من وجوه التَّصْوِيب بأن يسير الكلام على وجه الصحة ، مؤديا حقّ الإفهام . ولكننا كنا نستعين بما خبرنا من أساليب أبى العلاء ، وما استظهرنا من ألفاظه الدائرة ، وما عرفنا من ديباجته وطابعه فى نسج العبارات . وما نزال فى بحث وتقصّ ، ووزن وتفضيل ؛ حتى تنقشع سحائب التحريف عن لفظ لائق بالنَّسْق ، جارٍ من ألفاظ أبى العلاء على عِرْقٍ ؛ فيأخذ اللفظ مكانه بين ما قبله من الألفاظ وما بعد ، مأخذ الدرة من العِقْد ؛ لا اجتلابَ ثَمّ ولا تكلف ، ولا استكراهَ ولا تَعَسُّف .

وما نحب أن نفيض القول فى تفصيل ما بذلنا من جهد فى إخراج هذه المجموعة الحافلة ، فها هى ذى بين يدى القارئين تصف نفسها بنفسها ، وتدل بيومها على أمسها . وفى مكنة

المنصفين أن يتمثلوا لأنفسهم وهم يقلبون من أوراقها المئين ، أننا وقفنا من كل كلمة فى كل سطر فى كل صفحة منها وقفة التحقيق والتفتيش والتحرى ، فى غير ضنانة بالجهد ، ولا إيثار للدعة . مجتهدين ألا نخرج من فصل إلى فصل قبل إيفائه حقه من العنايه والتعهد ؛ محاذرين فى مباحث التاريخ وعلوم العربية المقتضبة فى مطاوى الرسائل أن ندعها متعبة للراغبين فى البحث ، مضيعة لوقتهم فى الرجوع إلى المصادر ؛ عامدين فى أمثال هذه المباحث إلى إضاءة ما حولها ، والافاضة فى بيانها ، والاستطراد إلى لبابها ، تمكينا للدارس المستقصى من آرابه فى دراسته واستقصائه . واضعين نصب أعيننا ألاَّ يشعر قارئ بحاجة إلى شرح غريب ، أو تفسير غامض ، أو تجلية إشارة ، أو تفصيل مجمل ؛ إلا وجد قضاءها على حبل الذراع .

*
* *

« أما بعد » فهذا جهد — بل جهاد — بذلناه ، لا نريد به إلاَّ وجه الأدب وحده ، وهو — كما قلنا فى مقدمة ديوان ابن زيدون — زكاةُ الأديب ، وإنما امتثلنا مثلال الأسلاف ، الذين بذلوا من ذات أنفسهم لتظل حياة الأدب موصولة على الزمن عصرا بعد عصر ، وجيلا بعد جيل . وما رأينا كالأدب : على صاحبه الغرم إذا أخذ ، وعليه مثل ذلك الغرم إذا أعطى . فالأديب يشقى تعلما ، كما يشقى تعليما ، والأدب يضنى صاحبه فى حاليه ، فهو يُبلى من يخدمه ، كما يُبلى من يستخدمه .

على أننا قد رضينا — من قبل ومن بعدُ — بالشقاء والضنى ، فهل رضى الأدب عما أدينا ونؤدى ؟ ذلك غاية ما نأمله ، فلا والله ما يعنينا من شىء إلا أن نجيب تلك النزعة الفنية الصادقة التى نزلت منا منزل الشغاف — منذ نعومة الظفر — فحببت إلينا الأدب ، وحفزتنا إلى التفانى له وفيه .

فإن بلغنا — بهذا الصنيع — غايةً من الرضا ، فهى حسبنا ، وعند الله ثواب المحسنين .

كامل كيلانى

المأمة

حدث عليّ بن الجهم ، قال :

كان الشعراء يجتمعون — في كل جمعة — في القبة المعروفة بهم في جامع « بغداد » ينشدون الشعر ، ويعرض كل منهم على أصحابه ما يكون قد نظمه بعد مفارقتهم في الجمعة التي قبلها . فبينا أنا في جمعة من تلك الجمع ، ودعبل ، وابن أبي الشيص ، وابن أبي فنن ، والناس مجتمعون ، يسمعون إنشاد بعضهم ، أبصرت شابا في أُخْرَيات الناس جالساً في زي الأعرابي :

فلما فرغ كل منهم وقطع إنشاده ، التفت الشاب إلينا وقال :

« قد سمعت إنشادكم — منذ اليوم — فاسمعوا إنشادي »

فقلنا : « هات » فأنشد : « فحواكَ عينٌ — على نجواك — يا مَذِلُ[1] »

ثم مر فيها منشداً ، حتى أتى قوله :

« تَغايرَ الشِّعرُ فيه — إذْ سَهِرْتُ له — حتى حَسِبتُ قوافيه ستَقتتِلُ »

فعقد « ابن أبي الشيص » — عند هذا البيت — خنصره ، ثم مرّ فيها الشاب إلى أن أتى على آخرها ، ثم أنشد أخرى . فقلنا له : « لمن هذا الشعر ؟ »

فقال : « لمن أنشدكموه » .

فقلنا له : « ناشدناك الله ! من تكون ؟ » قال : « أنا أبو تمام الطائي ! »

قال ابن أبي الشيص : « فرفعنا مجلسه — حينئذ — وعظمناه تعظيما كبيراً . »

---

(١) المذل : هو الذي يفشي السر ، والشطر الثاني قوله : « حتام لا يتقضى قولك الخطل » ، والقصيدة في مدح المعتصم ، ومن أروع ما فيها قوله :

« له رياض ندى ، لم يكب زهرتها خلف ، ولم تتبختر — بينها — العلل »

وقوله : « يحميه لألاؤه ، أو لوذعيته من أن يذال : بمن ، أو : ممن الرجل ؟ »

فهل عرف القارئ : ماذا كان من أثر هذا البيت الرائع[١] الذى عقد « ابن أبى الشيص » خنصره عند سماعه ؟ وكيف أوحت إلى ذهن المعرى قصة هذه القوافى المتَوَثِّبَةِ إلى القتال ؟ لقد وعى أبو العلاء هذا المعنى ، كما وعاه « ابن أبى الشيص » وأصحابه ، وعقد خنصرَه عند سماعه ، وأكبرَ من « أبى تمام » هذا الخيال البارع الذى مثل قوافيه كائناتٍ حيةً ، توشك أن تقتتل لتظفر بشرف الخلود فى شعر أبى تمام ، واختزن المعرى هذه اللفتة البارعة ، كما يختزن القاصُّ الموهوب كل مشهد رائع من مشاهد الحياة ، وكل معنى مُجَوَّد مبتكر ، ليعرضه — أبهى عرض — فى مكانه الجدير به من قَصَصِهِ المتخيَّرِ المُبْدَعِ .

فلما أتيحت للمعرى فرصة الكلام عن « أبى تمام » تمثل قوافيه كائناتٍ حيةً ، توشك — لو علمت نبأ مصابه — أن تولول عليه نادبات[٢] .

ولم يقف خيال المعرى عند تخيلِ هذه القوافى كائناتٍ حيةً ، تأسف وتحزن وتسير فى الجنائز ، فتخيل أبيات لبيد قد تقلت فى الجنة قصوراً فخمة[٣] .

ومتى أعجب المعرى بأبيات « لبيد » فتمثلها قصوراً فاخرة ، فلا عجب إذا دفعه تحقيره الرجز إلى تمثل أبيات الرجاز قد تحولت بيوتاً حقيرة[٤] . ولا غرو أن يتمثل بيت الخنساء فى أخيها صخر ، وقد أصبح — فى الدار الآخرة — حقيقة راهنة ، وبدا أخوها — فى الجحيم — كالجبل الشامخ ، والنار تضطرم فى رأسه ، وهو يقول لأخته : « لقد صح مزعمُك فىَّ » . وإنما يعنى قولها :

« وإن صخراً لتأتمُّ الهُداة به   كأنه عَلَمٌ فى رأسه نار[٥] »

كما يتمثل معلقة امرئ القيس كلها عجوزاً فاجرة ، فيقول فى رسالة الإغريض[٦] :

---

(١) المفهوم من القصة أن هذا البيت كان بدء التعارف بين أبى تمام وابن الجهم ، ثم تمت الألفة بعد ذلك حتى قال فيه أبو تمام .

« إن يُكدِ مطّرف الاخاء ، فإننا   نغدو ، ونسرى فى إخاء تالد
أو يختلف ماء الوصال ، فماؤنا   عذب ، تحدَّر من غمام واحد
أو يفترقْ نسب ، يؤلف بيننا   أدب ، أقمناه مُقامَ الوالد . »

(٢) انظر (ص ٢٦٨) .   (٣) انظر (ص ٨٦) .   (٤) (انظر ص ١٨٩) .
(٥) انظر (ص ١٣٤)   (٦) انظر (ص ٥٨٩)

« وإنّ « قفا نبك » على حسنها وقدم سنها – لتقر بما يبطل شهادة العدل الرّضى، فكيف بالبغى الأنثى ؟ قاتلها الله عجوزاً لو كانت بشرية ، كانت من أغوى البرية »

ثم يتخيل أعمارنا ومنايانا ، كأنهن الآيات فى النثر ، والمنايا فواصلهن ، وكأنهن الأبيات فى الشعر ، والمنايا قوافيهن ، فيقول فى الأولى :

« إن أعمارنا كآى أبينت والمنايا لهن مثل الفواصل »

ويقول فى الثانية :

« وأعمارنا أبيات شعر ، كأنما أواخرها للمنشدين قوافى »

ولا يفوته حين يعرض لذكر أعلام النحو والصرف أن يقول :

« أتت علل المنون فما بكاهم – من اللفظ – الصحيحُ ، ولا العليلُ

ولو أن الكلام يحس شيئاً لكان له – وراءهم – أليل »

ولو شئنا أن نتقصى هذا اللون – وحده – من خيال المعرى – وهو ضروب وأفانين لا تحصى ، لضاق بنا المقام الرحيب ، فكيف بهذه اللمحة العاجلة .

وإنما عنانا – فى هذه الومضة الخاطفة – أن نعرض للقارئ مثلاً من سعة خيال المعرى ، ولوناً من ألوان تفننه وابتداعه ، وانفساح أفقه ، وأصالة الروح القصصى فى نفسه ، وقد اخترنا هذا المثل من بين مئات من أشباهه ونظائره المبثوثة فى نظمه ونثره لنرى القارئ كيف أصبح الخيال القصصى فى نفس المعرى متين الأواصر ، عميق الأغوار ، تكاد كل كل ملاحظة تعن له تتحول قصة ، أو مشهداً من قصة ، أو منظراً من مشهد قصصى ، أو إيحاء بقصة ، أو خلاصة لها ، أو موجزاً لأقصوصة ، أو إشارة – بعيدة أو قريبة – إليها .

وسيانِ – فى عالم الفن الصادق – أن تطول القصة أو تقصر الأقصوصة ، فإن فى البذرة – على ضآلتها – كل عناصر الدوحة السامقة ، ولن يضير المعرى أن يوجز بعد أن أصاب الهدف ولم يخطئ الصميم ، كما لا ينفع غيره أن يسهب ويطيل ما دام قد تنكب السبيل ، ولم يصب الأهداف البعيدة .

ولم يقف خيال أبي العلاء القصصي عند تمثل القوافي كائنات حية ، فلقد طالما تمثل المعرى أشباه ذلك ، فتخيل الزمن كله وليداً لاهياً فقال :

« أظن زماني : كونه وفساده وليداً ببطن الأرض يلهو ويلعب »

كما تمثل الليل والنهار خيطي باطل ، فقال :

« نهار وليـل عوقبا ، أنا فيهما — كأني بخيطي باطل — أتشبث »

وتخيل النجوم — كما تخيل القوافي — كائنات حية ، ثم أبعد في خياله فرآها كالأناسي متنافرة ، متخالفة في أديانها ، بعد أن تمثلها مفعمة بالإحساس موفورة العواطف فقال :

فهل الكواكب مثلنا — في ديننا — لا يتفقن ، فهائد ، أو مسـلم
ولعـل مكة في السماء كمكة وبها نضار ، ويذبل ، ويلملم

ثم تعمق في تصوره ، وأوغل في تخيله ، فقال من قصيدة :

وإن صح أن النيرات محسة فماذا نكِرتم من وداد ، ومن صهر ؟
لعـل سهيلاً ، وهو فحل كواكب تزوج بنتاً للسماك ، على مهر
يقولون : « تأتي فوقنـا مثل ما أتى بنو الأرض ،في حال السرار ، أوالجهر»
فيا ليت شعري ! هل تراع من الردى وتركع نسكا ، بالعشاء وبالظهر
وتكذب ؟ إن المين في آل آدم غرائز جاءت بالنفـاق وبالعهر

ثم قال من قصيدة أخرى :

سـبحان خالقهن لست أقو ل : الشهب كابيـة مع الدهر
لا ، بل أفكر : هل رزقن حجى نجساً يمزن به من الطهر ؟
أم هل لأنثاها الْحَصان ، بذى الت ذكير ، من قربى ومن صهر ؟
أم يخطب العَـوّى السماك ويعـ طيها الذى ترضـاه من مهر ؟

ألا يرى القارئ المنصف أن هذا التفكير الجبار قد اجتاز آفاقاً من الخيال قل أن يرتادها أحدث القصاصين ؟ وكيف يرى القارئ قصة الشيخ أبي هدرش[1] وقصة

(١) انظر جنة العفاريت (ص ١٠٣)

الحورية[1] وما إليهما من روائع القصص العلائى الخلاَّب . وثم لون من الأقاصيص تفيض به رسائل المعرى وأشعاره ، وقد نبهنا إليه فى مواطنه ، نجتزئ منه بقوله[2] :

« وابك على طائر ، رماه فتى ... لاهٍ ، فأوهى بفهره[3] الكتفا
أو صادفته حِبالةٌ نُصِبت ، ... فظل فيها كأنما كُتِفا
بَكَّر يبغى المعاش مجتهداً ... فقُصَّ – عند الشروق – أو نُتِفا
كأنه – فى الحياة – ما فرع الغصـ ... ـنَ ، فغنَّى عليه ، أو هتفا »

ومن يدرى كم قصة رائعة من قصص المعرى لم تصل إلينا لضياعها فيما ضاع من كتبه الكثيرة الخالدة ؟ وثَم أبيات لخص فيها المعرى قصصاً عالمية – قبل أن يولد مؤلفوها – أبرع تلخيص ، كتلك الأبيات الثلاثة التى قدمنا بها ترجمة « جلفر » وقد لخص فى البيتين الأولين قصة « جلفر فى بلاد الأقزام والعمالقة » ثم لخص فى البيت الثالث مغزى القصة وروحها ومرمى مؤلفها البعيد ، حتى خيل إلينا أن « سويفت » – مؤلف هذه القصة – قد استوحى خيال المعرى حين كتبها ، واستلهم قوله :

« زعموا رجالا ، كالنخيل جسومهم ... ومعاشراً ، قاماتهم أشبار
إن يصغروا ، أو يعظموا ، فبقدرة ، ... ولربنا الإعظام والإكبار
يُستصغر الحى الحقير ، وتحته ... أم توَهَّمُ أنه جبـار »

ومن العجائب أننا حين ترجمنا قصة : « القول يبق[4] » لپول إرفييه ، لم نجد مقدمة أجدر بتلخيصها من قول أبى العلاء :

« إن شئت إبليس أن تلقاه منصلتاً ... بالسيف يضرب ، فاعمِد للجماعاتِ
تجدهمُ فى أقاويل مخالفة ... وجه الصواب ، وأسرار مذاعاتِ
يبا كرون بألباب – وإن خلصت – ... معصية ، وبأهواء مطاعاتِ
قالوا ، وقلنا : دعاو ، ما تفيد لنا ... إلا الأذى ، واختصاماً فى المداعاة »

---

(١) انظر (ص ١٠١) (٢) ومن أمثلة ذلك ما تراه فى (ص ٥٨٣ — ٥٨٦) وغيرها من صفحات الكتاب (٣) بحجره (٤) ارجع إلى كتاب : « روائع من قصص الغرب »

ولو شاء « برنارد شو » أن يمهد لقصته : « الزّنجية باحثة عن الله » لما رأى فى تلخيصها أبرع من الأبيات المنسوبة إلى المعرى[(١)] :

« عجبت لكسرى وأشياعه وغسل الوجوه ببول البقر » الخ

*
* *

أما بعد ، فان فى أبى العلاء — من المزايا القصصية الباهرة — ما يكاد يفرده من بين شعراء العربية وكتابها ، وقد كدنا نقول : من بين شعراء الدنيا وكتابها قاطبة . ولا غرو فى ذلك ، فان أكبر ميزات القاص الموهوب موفورة عنده ، تزخر بها نفسه الحاشدة ، « ويتم بها باعه الرحيب » ، فهو — فيما يعرف قراؤه وناقدوه — مستوفز الحس ، واسع الخيال ، رحب الأفق ، شديد التنبه ، وقد عاش فى عصر ازدهرت فيه القصة ، وبلغت شأوًا عظيما . وهو — إلى ذلك — دائم التقليب لوجوه الرأى المتباينة ، كثير المقابلة والموازنة بين فروضها المختلفة وخصائصها المنسجمة والمتفاوتة ، ساحر الأداء ، بارع السخرية ، خلاق معان ، ومستحدث أخيلة . وقل أن تجتمع هذه المزايا كلها فى علَم من أعلام القصة ، إلا سمت به إلى أرفع ذروة فنية .

وقد رأى القارئ — فى هذه اللمحة العابرة — أمثلة من براعته القصصية ، وتطلعه الدائم إلى الرحلات الفكرية ، وعرف كيف سرى بفكره فى مجازات معنوية شاسعة ، يتيه فيها جبابرة العقول . ولم يكن بين المعرى وبين أن يملأ الدنيا قصصا مطولة خالدة ، إلا أن تهيأ له الفرص ، وتخلق لأدبه المناسبات الحافزة ، كمناسبة رسالة الغفران التى أظفرت الأدب العربى منه بهذا الكنز الحافل بأروع الذخائر الفنية العالية ، الباقية — على الدهر — ما بقى الفن وأهله .

كامل كيلانى

---

(١) ارجع إلى هذه الأبيات فى تاريخ : أبى الفداء (ج ٢ ص ١٧٦)

رسالة ابن القارح

بسم الله الرحمن الرحيم

اسْتِفْتَاحًا بِاسْمِهِ ، وَاسْتِنْجَاحًا بِبَرَكَتِهِ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، الْمُبْتَدِئ بِالنِّعَمِ ، الْمُنْفَرِدِ بِالْقِدَمِ ، الَّذِى جَلَّ عَنْ شَبَهِ الْمَخْلُوقِين ، وَصِفَاتِ الْمُحْدَثِين . وَلِىِّ الْحَسَنَات ، الْمُبَرَّإِ مِنَ السَّيِّئَات . الْعَادِلِ فِى أَفْعَالِه ، الصَّادِقِ فِى أَقْوَالِه . خَالِقِ الْخَلْقِ وَمُبْدِيهِ ، وَمُبْقِيهِ — مَا شَاء — وَمُفْنِيهِ .

وَصَلَوَاتُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَبْرَارِ عِتْرَتِهِ وَأَهْلِيهِ ، صَلَاةً تُرْضِيهِ ، وَتُقَرِّبُهُ وَتُدْنِيهِ ، وَتُزْلِفُهُ وَتُحْظِيهِ .

كِتَابِى — أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ مَوْلَاىَ الشَّيْخِ الْجَلِيلِ، وَمَدَّ مُدَّتَهُ، وَأَدَامَ كِفَايَتَهُ وَسَعَادَتَهُ ، وَجَعَلَنِى فِدَاءَهُ ، وَقَدَّمَنِى قَبْلَهُ[1] — عَلَى الصِّحَّةِ وَالْحَقِيقَةِ ، وَبُعْدِ[2] الْقَصْدِ وَالْعَقِيدَةِ ، وَلَيْسَ عَلَى مَجَازِ اللَّفْظِ وَمَجْرَى الْكِتَابَةِ ، وَلَا عَلَى تَنَقُّص وَخِلَابَةٍ ، وَتَحَبُّبٍ وَمُسَامَحَةٍ ، وَلَا كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ — وَقَدْ عَادَ صَدِيقًا لَهُ — : « كَيْفَ تَجِدُكَ ، جَعَلَنِى اللهُ فِدَاكَ ؟ » وَهُوَ يَقْصِدُ تَحَبُّبًا ، وَيُرِيدُ تَمَلُّقًا ، وَيَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ أَسْدَى جَمِيلًا ، يَشْكُرُهُ صَاحِبُهُ إِنْ نَهَضَ وَاسْتَقَلَّ ، وَيُكَافِئُهُ

(١) ارجع إلى ج ٣ ص ١٩٥ (٢) ويمكن أن تكون : جد ، أو : عمد ، ولكل وجه حسن .

عَلَيْهِ إِنْ أَفَاقَ وَأَبَلَّ — عَنْ سَلَامَةٍ تَمَامُهَا بِحُضُورِ حَضْرَتِهِ ، وَعَافِيَةٍ نِظَامُهَا بِالتَّشَرُّفِ بِشَرِيفِ عِزَّتِهِ ، وَمَيْمُونِ نَقِيبَتِهِ وَطَلْعَتِهِ .

حَنِــــينٌ صَادِقٌ

وَيَعْلَمُ اللهُ الْكَرِيمُ — تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ — أَنِّى لَوْ حَنَنْتُ إِلَيْهِ — أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهُ — حَنِينَ الْوَالِهِ إِلَى بِكْرِهَا ، وَذَاتِ الْفَرْخِ إِلَى وَكْرِهَا ، أَوِ الْحَمَامَةِ إِلَى إِلْفِهَا[1] ، أَوِ الْغَزَالَةِ إِلَى خِشْفِهَا[2] ، لَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا تُغَيِّرُهُ اللَّيَالِى وَالْأَيَّامُ ، وَالْعُصُورُ وَالْأَعْوَامُ . لَكِنَّهُ حَنِينُ الظَّمْآنِ إِلَى الْمَاءِ ، وَالْخَائِفِ إِلَى الْأَمْنِ ، وَالسَّلِيمِ[3] إِلَى السَّلَامَةِ ، وَالْغَرِيقِ إِلَى النَّجَاةِ ، وَالْقَلِقِ إِلَى السُّكُونِ — بَلْ حَنِينُ نَفْسِهِ النَّفِيسَةِ إِلَى الْحَمْدِ وَالْمَجْدِ ، فَإِنِّى رَأَيْتُ نِزَاعَهَا إِلَيْهِمَا ، نِزَاعَ الْأُسْتُقُصَّاتِ إِلَى عَنَاصِرِهَا ، وَالْأَرْكَانِ إِلَى جَوَاهِرِهَا .

فَضْــلُ أَبِى الْعَــلَاءِ

فَإِنْ وَهَبَ اللهُ لِى مَلًا[4] مِنَ الْعُمْرِ ، يُؤْنِسُنِى بِرُؤْيَتِهِ ، وَيُعْلِقُنِى بِحَبْلِ مَوَدَّتِهِ ، صِرْتُ[5] كَسَارِى اللَّيْلِ ، أَلْقَى عَصَاهُ ، وَأَحْمَدَ مَسْرَاهُ ، وَقَرَّ عَيْنًا ، وَنَعِمَ بَالًا ، وَكَانَ كَمَنْ لَمْ يَمَسَّهُ سُوءٌ ، وَلَمْ يَتَخَوَّفْهُ عَدُوٌّ ، وَلَا نَهَكَهُ رَوَاحٌ وَلَا غُدُوٌّ .

وَعَسَى اللهُ أَنْ يَمُنَّ بِذَلِكَ — بِيَوْمِهِ ، أَوْ بِثَانِيهِ — وَبِهِ الثِّقَةُ ، وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ — عَلَى التَّدَانِى وَالنَّوَى وَالْبِعَادِ — إِمْتَاعَهُ بِالْفَضْلِ الَّذِى اسْتَعْلَى عَلَى

---

(١) ارجع إلى ج ٣ ص١٩٧ (٢) ولد الظبي أول مايولد (٣) الملدوغ (٤) الملا : المدة من الدهر
(٥) في الأصل : برت

عَاتِقِهِ وَغَارِبِهِ ، فَمَنْ مَرَّ عَلَى بَحْرِهِ الهَيَّاجِ ، وَنَظَرَ فِي لَأْلَاءِ بَدْرِهِ الْوَهَّاجِ ، خَلِيقٌ بِأَنْ يَكْبُوَ قَلَمُهُ بِأَنَامِلِهِ ، وَيَنْبُوَ طَبْعُهُ عَنْ رَسَائِلِهِ ، إِلَّا أَنْ يُلْقِيَ إِلَيْهِ بِالْمَقَالِيدِ ، أَوْ يَسْتَوْهِبَهُ إِقْلِيداً مِنَ الْأَقَالِيدِ ، فَيَكُونَ مَنْسُوباً إِلَيْهِ ، وَمَحْسُوباً عَلَيْهِ ، وَنَازِلاً فِي شِعْبِهِ ، وَأَحَدَ أَصْحَابِهِ وَحِزْبِهِ ، وَشَرَارَةَ نَارِهِ[1] ، وَقُرَاضَةَ دِينَارِهِ ، وَسَمَلَ[2] بَحْرِهِ ، وَثَمَدَ غَمْرِهِ[3] . وَهَيْهَاتَ ! ضَاقَ فِتْرٌ عَنْ مَسِيرٍ . لَيْسَ التَّكَحُّلُ فِي الْعَيْنَيْنِ كَالْكَحَلِ ، خُلِقُوا أَسْخِيَاءَ لَا مُتَسَاخِينَ ، وَلَيْسَ السَّخِيُّ مَنْ يَتَسَاخَى . وَأَخْلَاقُ النَّفْسِ تَلْزَمُهَا لُزُومَ الْأَلْوَانِ ، لِلْأَبْدَانِ ؛ لَا يَقْدِرُ الْأَبْيَضُ عَلَى السَّوَادِ ، وَلَا الْأَسْوَدُ عَلَى الْبَيَاضِ ، وَلَا الشُّجَاعُ عَلَى الْجُبْنِ ، وَلَا الْجَبَانُ عَلَى الشَّجَاعَةِ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْعَرْزَمِيّ[4] :

« يَفِرُّ جَبَانُ الْقَوْمِ عَنْ أُمِّ رَأْسِهِ ... وَيَحْمِي شُجَاعُ الْقَوْمِ مَنْ لَا يُنَاسِبُهْ
وَيُرْزَقُ مَعْرُوفَ الْجَوَادِ عَدُوُّهُ ... وَيُحْرَمُ مَعْرُوفَ الْبَخِيلِ ، أَقَارِبُهْ
وَمَنْ لَا يَكُفُّ الْجَهْلَ عَمَّنْ يَوَدُّهُ ... فَسَوْفَ يَكُفُّ الْجَهْلَ عَمَّنْ يُوَاثِبُهْ »

وَمِنْ أَيْنَ لِلضَّبَابِ ، صَوْبُ السَّحَابِ ، وَلِلْغُرَابِ ، هَدْيُ الْعُقَابِ ؟ وَكَيْفَ ، وَقَدْ أَصْبَحَ ذِكْرُهُ فِي مَوَاسِمِ الذِّكْرِ آذَاناً ، وَعَلَى مَعَالِمِ الشُّكْرِ لِسَاناً[5] . فَمَنْ دَافَعَ الْعِيَانَ ، وَكَابَرَ الْإِنْسَ وَالْجَانَّ ، وَاسْتَبَدَّ بِالْإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ ؛ كَانَ كَمَنْ صَالَبَ — بِوَقَاحَتِهِ — الْحَجَرَ ، وَحَاسَنَ — بِقَبَاحَتِهِ — الْقَمَرَ ، وَهَذَى وَهَذَرَ ، وَتَعَاطَى فَعَقَرَ ، وَكَانَ كَمَحْمُومٍ بُلْسِمَ فَعَفِرَ ، وَنَادَى عَلَى نَفْسِهِ بِالنَّقْصِ فِي الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ ، وَكَانَ كَمَنْ قَالَ مَنْ يَعْنِيهِ ، وَلَا يَشُكُّ فِيهِ :

(١) في الأصل : تياره (٢) السمل : جمع سملة ، وهي الماء القليل ، أو بقية الماء في الحوض . وكان في الأصل : سمك (٣) الثمد : الماء القليل ، والغمر : الماء الكثير (٤) في الأصل : العزرمي
(٥) ارجع إلى ج ٣ ص ١٩٨

«كَناطِحٍ صَخْرَةً، يَوْماً، لِيُوهِنَها فَلَمْ يَضِرْها، وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعِلُ[1]»

***

وَرُوِىَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وَزادَهُ شَرَفاً لَدَيْهِ — قال:

«لَعَنَ اللهُ ذا الْوَجْهَيْنِ، لَعَنَ اللهُ ذا اللِّسانَيْنِ، لَعَنَ اللهُ كُلَّ شَقَّارٍ[2]، لَعَنَ اللهُ كُلَّ قَتَّاتٍ[3]».

فى حلب

وَرَدْتُ «حَلَبَ» ظاهِرَها — حَماها اللهُ وحرسها — بَعْدَ أَنْ مُنِيتُ بِرَبَضِها[4] بالدُّرَخْمِينِ وَأُمِّ حَبَوْكَرَى والفَتَكْرِينَ[5]، بَلْ رُمِيتُ بِآبِدَةِ الْآبادِ، والدَّاهِيَةِ النَّآدِ، فَلَمَّا دَخَلْتُها ولم تَسْتَقِرَّ بَعْدُ بِىَ الدَّارُ[6]، وَقَدْ نَكِرْتُها لِفِقْدانِ مَعْرِفَةٍ[7] وَجارٍ؛ أَنْشَدْتُها باكِياً:

«إِذا زُرْتُ أَرْضاً بَعْدَ طُولِ اجْتِنابِها فَقَدْتُ حَبِيباً وَالْبِلادُ كَما هِيا»

أَبُو الْقَطِرانِ وَوَحْشِيَّةُ

كانَ «أَبُو الْقَطِرانِ» المَرّارُ بْنُ سَعِيدٍ الْفَقْعَسِىُّ[8] يَهْوَى ابْنَةَ عَمِّهِ بِنَجْدٍ، واسْمُها «وَحْشِيَّةُ»، فاهْتَداها[9] رَجُلٌ شامِىٌّ إِلَى بَلَدِهِ، فَغَمَّهُ بُعْدُها، وَساءَهُ فِراقُها، فَقالَ من قَصِيدَةٍ:

---

(1) البيت من معلقة الأعشى، وقبله:

ألست منتهيا عن نحت أثلتنا ولست ضائرها ما أطت الابل

(2) الشقار: الكذاب. (3) القتات: النمام، ومن يسمع أحاديث الناس من حيث لا يعلمون، سواء أنمها أم لم ينمها (4) ربض المدينة: ماحولها (5) الدرخمين، وأم حبوكرى، والفتكرين: أسماء للداهية، والمراد أنه أصيب بالأذى (6) فى الأصل «وبعد لم تستقر بى الدار» (7) معرفة الرجل: الذين يعرفهم من الناس (8) هو شاعر غزل، وقد جاء حديث عنه لأبي العلاء فى ج ٣ ص ٢٠٣ (9) اهتدى العروس إلى بعلها: زفها إليه

«إذا تَركَتْ «وَحْشِيَّةُ» النَّجْدَ لَمْ يَكُنْ   لِعَيْنَيْكَ مِمَّا تَبْكِيَانِ طَبِيبُ
رَأَى نَظْرَةً مِنْهَا فَلَمْ يَمْلِكِ الْبُكَا   مَعَاوِزَ يَرْبُو تَحْتَهُنَّ كَثِيبُ
وَكَانَتْ رِيَاحُ الشَّامِ تُكْرَهُ مَرَّةً   فَقَدْ جَعَلَتْ تِلْكَ الرِّيَاحُ تَطِيبُ»

فَحَصَلْتُ مِنَ الرِّيَاحِ، على الرَّبَاحِ، كَمَا حَصَلَ لِأَبِي الْقِطْرَانِ مِنْ وَحْشِيَّةَ

ذكر أبي العلاء

ثُمَّ . . . . وَثُمَّ . . . . وَثُمَّ . . . .

وَثُمَّ أَجْرَى (. . .)[1] ذِكْرَهُ، مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ جَرَّهُ، وَغَيْرِ مُقْتَضٍ اقْتَضَاهُ. فَقَالَ: الشَّيْخُ بِالنَّحْوِ أَعْلَمُ مِنْ «سِيبَوَيْهِ»، وَ بِاللُّغَةِ وَالْعَرُوضِ مِنَ الْخَلِيلِ. فَقُلْتُ — وَالْمَجْلِسُ يَأْذَنُ[2]: «— بَلَغَنِي أَنَّهُ — أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهُ — يُصَغِّرُ كَبِيرَهُ، وَيُنَزِّرُ كَثِيرَهُ[3]، فَيَصِيرُ تَصْغِيرُهُ تَكْبِيراً، وَتَحْقِيرُهُ تَكْثِيراً، وَهَكَذَا شَاهَدْتُ مَنْ شَاهَدْتُ مِنَ الْعُلَمَاءِ، رَحِمَهُمُ اللهُ أَجْمَعِينَ، وَجَعَلَهُ وَارِثَ أَطْوَلِ أَعْمَارِهِمْ وَأَمَدِّهَا، وَأَنْضَرِهَا وَأَرْغَدِهَا، وَمَا ثَمَّ لَهُ حَاجَةٌ دَعَتْ إِلَى هَذَا . . . قَدْ تَفَتَّحَ النَّوْرُ، وَتَوَضَّحَ النُّورُ، وَأَضَاءَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ.

رِسَالَةُ أَبِي الْفَرَجِ الزَّهْرَجِي[4]

كَانَ أَبُو الْفَرَجِ الزَّهْرَجِيُّ كَاتِبُ حَضْرَةِ نَصْرِ الدَّوْلَةِ — أَدَامَ اللهُ حِرَاسَتَهُ — كَتَبَ رِسَالَةً إِلَيَّ أَعْطَانِيهَا، وَرِسَالَةً إِلَيْهِ — أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهُ — اسْتَوْدَعَنِيهَا، وَسَأَلَنِي إِيصَالَهَا إِلَى جَلِيلِ حَضْرَتِهِ. وَ [أَنْ] أَكُونَ نَافِقَهَا لَا بَاغِيهَا، وَمُعَجِّلَهَا

(١) سقط اسم من ذكر أبا العلاء من النسخة التي وصلت إليه، وغفل عنه ابن القارح في رسالته هذه، فقال أبو العلاء في جوابه «وقد سقط اسم الذي غلا فيّ . . . الخ» انظر ج ٣ ص ٢١١ (٢) أذن له: استمع معجبا، وأذن له أجازه، والمراد أن المجلس أجازه على كلامه. وكان في الأصل: يأزز
(٣) في الأصل: صغيره. ولا يستقيم في الكلام (٤) اقرأ ج ٣ ص ٢١٢

لا مُؤَجِّلها، فسرق عديلي رحلًا لي، الرِّسالةُ فيه، فكتبتُ هذه الرِّسالة أشكو أُموري، وأبثُّ شقوري، وأُطلعهُ طِلعَ عُجري وبُجَري، وما لقيتُ في سفري، مِن أقيوامٍ يدَّعون العِلمَ والأدبَ، والأدبُ أدبُ النَّفس، لا أدبُ الدَّرس، وهم أصفارٌ منهما جميعًا، ولهم تصحيفاتٌ كنتُ إذا رددتُها عليهم نسبُوا التَّصحيفَ إليَّ، وصارُوا إلبًا عليَّ.

الزهرجيّ وابن القارح

لقيتُ أبا الفرج الزَّهرجيَّ بآمِدَ، ومعهُ كُتُبُهُ، فعرضها عليَّ، فقلتُ: كُتُبُكَ هذه يهوديَّة، قد برئَت مِن الشَّريعةِ الحنيفيَّة، فأظهرَ مِن ذلكَ إعظامًا وإنكارًا، فقلتُ له: أنت على المُجرَّبِ، ومثلي لا يهرفُ بما لا يعرفُ، وأبلغُ تيقنْ. فقرأ هو وولدُهُ، وقال: صغَّر الخَبَرَ الخُبْرُ(١). وكتب إليَّ رسالةً يُقرِّظني فيها، بطبعٍ له كريمٍ، وخُلقٍ غيرِ ذميم.

المتنبّي(٢)

قال المُتنبّي: «أذُمُّ إلى هذا الزَّمانِ أُهيلَهُ» صغَّرهُم تصغيرَ تحقيرٍ غيرَ تكبيرٍ، وتقليلٍ غيرَ تكثيرٍ، فنفثَ مصدورًا، وأظهرَ ضميرًا مستورًا، وهو سائغٌ في مجازِ الشِّعرِ، وقائلُهُ غيرُ ممنوعٍ مِن النَّظمِ والنَّثرِ؛ ولكنَّهُ وضعهُ غيرَ موضعِهِ، وخاطبَ بهِ غيرَ مُستحقِّهِ، وما يستحقُّ زمانٌ ساعدهُ بلقاءِ سيفِ الدَّولةِ، أن يُطلقَ على أهلِهِ الذَّمّ، وكيفَ وهو القائلُ يُخاطبُهُ:

«أسيرُ إلى أقطاعِهِ، في ثيابِهِ ... على طِرفِهِ، مِن دارِهِ، بحُسامِهِ»

(١) الخبر: الاختبار (٢) اقرأ ص ٢١٦ ج ٣

وَقَدْ كَانَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يَجْعَلَهُم فِي خِفَارَتِهِ ، إِذْ كَانُوا مَنْسُوبِينَ إِلَيْهِ ، وَمَحْسُوبِينَ عَلَيْهِ .

الزَّمَانُ [١]

وَلَا يَجِبُ أَنْ يَشْكُوَ عَاقِلاً نَاطِقاً إِلَى غَيْرِ عَاقِلٍ وَلَا نَاطِقٍ ، إِذِ « الزَّمَانُ حَرَكَاتُ الْفَلَكِ » إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْأَفْلَاكَ تَعْقِلُ وَتَعْلَمُ وَتَفْهَمُ وَتَدْرِي بِمَوَاقِعِ أَفْعَالِهَا ، بِقُصُودٍ وَإِرَادَاتٍ ، وَيَحْمِلُهُ هَذَا الِاعْتِقَادُ عَلَى أَنْ يُقَرِّبَ لَهَا الْقَرَابِينَ ، وَيُدَخِّنَ الدُّخَنَ ، فَيَكُونَ مُنَاقِضاً لِقَوْلِهِ :

« فَتَبّاً لِدِينِ عَبِيدِ النُّجُومِ وَمَنْ يَدَّعِي أَنَّهَا تَعْقِلُ »

أَوْ يَكُونَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى — فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ — : « مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ ، لَا إِلَى هَؤُلَاءِ ، وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ » وَيُوشِكُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ صِفَتَهُ

رِوَايَةُ الْقُطْرُبُّلِيِّ [٢] وَابْنِ أَبِي الْأَزْهَرِ [٣]

حَكَى الْقُطْرُبُّلِيُّ وَابْنُ أَبِي الْأَزْهَرِ فِي تَارِيخٍ اجْتَمَعَا عَلَى تَصْنِيفِهِ — وَأَهْلُ بَغْدَادَ وَأَهْلُ مِصْرَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَمْ يُصَنَّفْ فِي مَعْنَاهُ مِثْلُهُ لِصِغَرِ حَجْمِهِ ، وَكِبَرِ عِلْمِهِ — أَنَّ الْمُتَنَبِّيَ أُخْرِجَ بِبَغْدَادَ مِنَ الْحَبْسِ إِلَى مَجْلِسِ أَبِي الْحَسَنِ « عَلِيِّ بْنِ عِيسَى » الْوَزِيرِ — رَحِمَهُ اللهُ — فَقَالَ لَهُ : « أَنْتَ أَحْمَدُ الْمُتَنَبِّي ؟ » فَقَالَ : « أَنَا أَحْمَدُ الْمُتَنَبِّي » وَكَشَفَ عَنْ بَطْنِهِ ، فَأَرَاهُ سِلْعَةً فِيهِ [٤] ، وَقَالَ : « هَذَا طَابَعُ نُبُوَّتِي ، وَعَلَامَةُ رِسَالَتِي » فَأَمَرَ بِقَلْعِ جُمْشُكِهِ [٥] وَصَفَعَهُ بِهِ خَمْسِينَ ، وَأَعَادَهُ إِلَى مَحْبِسِهِ .

---

(١) اقرأ ص ٢٢٤ ج ٣ (٢) القطربلي : منسوب إلى قطربل الشهيرة بجودة خمرها
(٣) اقرأ ص ٢١٧ ج ٣ (٤) السلعة : زيادة في البدن كالغدة ، تحرك إذا حركت ، وتكون بين الجلد واللحم ، وهي من حمصة إلى بطيخة (٥) الجمشك نوع من الخفاف انظر معجم « استنجاس »

وَيَقُولُ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ :

« وَتَغْضَبُونَ عَلَى مَنْ نَالَ رِفْدَكُمُ حَتَّى يُعَاقِبَهُ التَّنْغِيصُ وَالْمِنَنُ

كَذَبَ وَاللهِ ! لَقَدْ كَانَ يَتَحَرَّشُ بِالْمَكَارِمِ ، وَيَتَحَكَّكُ بِهَا ، وَيَحْسُدُ عَلَيْهَا أَنْ تَكُونَ إِلَّا مِنْهُ ، وبِهِ !

وَهَذَا غَيْرُ قَادِحٍ فِي طَلَاوَةِ شِعْرِهِ ، وَرَوْنَقِ دِيبَاجَتِهِ .

الزنادقة والملحدون(١)

وَلَكِنِّي أَغْتَاظُ عَلَى الزَّنَادِقَةِ وَالْمُلْحِدِينَ ، الَّذِينَ يَتَلَاعَبُونَ بِالدِّينِ ، وَيَرُومُونَ إِدْخَالَ الشُّبَهِ وَالشُّكُوكِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَيَسْتَعْذِبُونَ الْقَدْحَ فِي نُبُوَّةِ النَّبِيِّينَ ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، وَيَتَطَرَّفُونَ وَيَتَذَاءَبُونَ — إِعْجَاباً بِذَلِكَ الْمَذْهَبِ :

« تِيهُ مُغَنٍّ ، وَظَرْفُ زِنْدِيقٍ(٢) »

بشار بن برد(٣)

وَقَتَلَ الْمَهْدِيُّ بَشَّاراً عَلَى الزَّنْدَقَةِ ، وَلَمَّا شُهِرَ بِهَا وَخَافَ ، دَافَعَ عَنْ نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ :

« يَا بْنَ « نَهْيَا » رَأْسِي عَلَيَّ ثَقِيلٌ وَاحْتِمَالُ الرَّأْسَيْنِ عِبْءٌ ثَقِيلُ

فَادْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ رَبَّيْنِ ، فَإِنِّي بِوَاحِدٍ مَشْغُولُ »

صالح بن عبد القدوس(٤)

وَأَحْضَرَ « صَالِحَ بْنَ عَبْدِ الْقُدُّوسِ » وَأَحْضَرَ النِّطْعَ(٥) وَالسَّيَّافَ ، فَقَالَ : « عَلَامَ تَقْتُلُنِي ؟ » قَالَ : « عَلَى قَوْلِكَ :

---

(١) اقرأ ص ٢٢٦ ج ٣ (٢) اقرأ ص ٢٣٠ ج ٣ (٣) ترجمته فى ص ١٣٧ ج ٢ و ص ٢٢٧ ج ٣

(٤) انظر ص ٢٣٠ ج ٣ (٥) النطع : بساط من جلد

« رُبَّ سِرٍّ كَتَمْتُهُ فَكَأَنِّى أَخْرَسٌ ؛ أَوْ ثَنَى لِسَانِى عَقْلُ
وَلَوَ انِّى أَظْهَرْتُ لِلنَّاسِ دِينِى لَمْ يَكُنْ لِى ـ فِى غَيْرِ حَبْسِى ـ أَكْلُ »

يَا عُدَىَّ اللّٰهِ وَعُدَىَّ نَفْسِهِ :

السِّتْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ ، وَلَا يَلْقَاكَ ـ دُونَ الْخَيْرِ ـ مِنْ سِتْرٍ ! »

فَقَالَ : « قَدْ كُنْتُ زِنْدِيقاً ، وَقَدْ تُبْتُ عَنِ الزَّنْدَقَةِ ! »

قَالَ : « كَيْفَ ؟ وَأَنْتَ الْقَائِلُ :

« وَالشَّيْخُ لَا يَتْرُكُ عَادَاتِهِ حَتَّى يُوَارَى فِى ثَرَى رَمْسِهِ
إِذَا ارْعَوَى عَادَ إِلَى غَيِّهِ كَذِى الضَّنَى عَادَ إِلَى نُكْسِهِ »

وَأَخَذَ غَفْلَتَهُ السَّيَّافُ ، فَإِذَا رَأْسُهُ يَتَدَهْدَأُ[1] عَلَى النِّطْعِ ! . . .

القصار الأعور

وَظَهَرَ فِى أَيَّامِهِ — فِى بَلَدٍ خَلْفَ بُخَارَى وَرَاءَ النَّهْرِ — رَجُلٌ قَصَّارٌ أَعْوَرُ[2] عَمِلَ لَهُ وَجْهاً مِنْ ذَهَبٍ ، وَخُوطِبَ بِرَبِّ الْعِزَّةِ ، وَعَمِلَ لَهُمْ قَمَراً فَوْقَ جَبَلٍ ، ارْتِفَاعُهُ فَرَاسِخُ ، فَأَنْفَذَ الْمَهْدِىُّ إِلَيْهِ ، فَأُحِيطَ بِهِ وَبِقَلْعَتِهِ ، فَحَرَّقَ كُلَّ شَىْءٍ فِيهَا ، وَجَمَعَ كُلَّ مَنْ فِى الْبَلَدِ ، وَسَقَاهُمْ شَرَاباً مَسْمُوماً ، فَمَاتُوا بِأَجْمَعِهِمْ ، وَشَرِبَ فَلَحِقَ بِهِمْ ، وَعَجَّلَ اللّٰهُ بِرُوحِهِ إِلَى النَّارِ !

---

(١) دهدأ الحجر ودهدهه : دحرجه

(٢) ذلك هو ثور بن عميرة ، وقد لقب بالمقنع للوجه الذهبي الذي تراءى به . وقد ادعى الألوهية بطريق التناسخ ، وكان فيما أظهره من دلائله صورة قمر أطلعه فى الجو تشبيهاً وتلبيساً ، ويقال إن ذلك القمر الذى خيله للناس كان من عكس شعاع الزئبق .

الصناديق[1]

وَالصَّنَادِيقُ فِي الْيَمَنِ ، وَكَانَتْ جُيُوشُهُ بالمديخرة وسفهنه، وَخُوطِبَ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَكُوتِبَ بِهَا ، فَكَانَتْ لَهُ دَارُ إِفَاضَةٍ ، يَجْمَعُ إِلَيْهَا نِسَاءَ الْبَلْدَةِ كُلَّهَا وَيُدْخِلُ الرِّجَالَ عَلَيْهِنَّ لَيْلًا .

قَالَ مَنْ يُوثَقُ بِخَبَرِهِ : دَخَلْتُ إِلَيْهَا لِأَنْظُرَ ، فَسَمِعْتُ امْرَأَةً تَقُولُ : « يَا بُنَيَّ ! » فَقَالَ : « يَا أُمَّهْ ، نُرِيدُ أَنْ نُمْضِيَ أَمْرَ وَلِيِّ اللهِ فِينَا ! » وَكَانَ يَقُولُ : « إِذَا فَعَلْتُمْ هَذَا لَمْ يَتَمَيَّزْ مَالٌ مِنْ مَالٍ ، وَلَا وَلَدٌ مِنْ وَلَدٍ ، فَتَكُونُونَ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ[2] » فَغَزَاهُ « الْحُسَيْنُ » مِنْ صَنْعَاءَ ، فَهَزَمَهُ ، وَتَحَصَّنَ مِنْهُ فِي حِصْنٍ هُنَاكَ ، فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ « الْحُسَيْنُ » طَبِيبًا بِمِبْضَعٍ مَسْمُومٍ ، فَفَصَدَهُ بِهِ ، فَقَتَلَهُ .

الوليد بن يزيد[3]

وَالْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ ، أَقَامَ فِي الْمُلْكِ سَنَةً وَشَهْرَيْنِ وَأَيَّامًا ، وَهُوَ الْقَائِلُ :

«إِذَا مِتُّ يَا «أُمَّ الْحُنَيْكِلِ» فَانْكِحِي، وَلَا تَأْمُلِي بَعْدَ الْفِرَاقِ تَلَاقِيَا
فَإِنَّ الَّذِي حُدِّثْتِهِ مِنْ لِقَائِنَا أَحَادِيثُ طَسْمٍ تَتْرُكُ الْعَقْلَ وَاهِيًا

وَرَمَى الْمُصْحَفَ بِالنُّشَّابِ ، وَخَرَّقَهُ ، وَقَالَ :

« إِذَا مَا جِئْتَ رَبَّكَ يَوْمَ حَشْرٍ فَقُلْ : « يَا رَبِّ خَرَّقَنِي الْوَلِيدُ[4] » ! »

---

(١) ارجع إلى ص ٢٣١ ج ٣ (٢) ارجع الى (ج «٣» ص «٢٣٢») (٣) ارجع الى ج ٣ ص «٢٣٦»

(٤) يروى له قبل هذا البيت قوله :

« أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد »

وكان قد فتح المصحف ذات يوم ليتفاءل به فوجد فيه : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد » فاحتدم غضبه . ومزقه وقال هذين البيتين . وفي رواية أخرى : « فقل : يارب مزقني الوليد » ارجع إلى كتابنا « مصارع الخلفاء »

وَأَنْفَذَ إِلَى مَكَّةَ بَنَّاءً مَجُوسِيًّا ، لِيَبْنِيَ لَهُ عَلَى الْكَعْبَةِ مَشْرَبَةً ، فَمَاتَ قَبْلَ تَمَامِ ذَلِكَ . فَكَانَ الْحُجَّاجُ يَقُولُونَ : « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ ، يَا قَاتِلَ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ لَبَّيْكَ » .

وَأَحْضَرَ بُنَابِجَةً مِنْ ذَهَبٍ — وَفِيهَا جَوْهَرَةٌ جَلِيلَةُ الْقَدْرِ — [عَلَى] صُورَةِ رَجُلٍ ، فَسَجَدَ لَهُ وَقَبَّلَهُ ، وَقَالَ : « اسْجُدْ لَهُ يَا عِلْجُ ! » قُلْتُ : « وَمَنْ هَذَا ؟ » قَالَ : « هَذَا مَانِي[1] ، شَأْنُهُ كَانَ عَظِيماً ، اضْمَحَلَّ أَمْرُهُ لِطُولِ الْمُدَّةِ » فَقُلْتُ : « لَا يَجُوزُ السُّجُودُ إِلَّا لِلَّهِ » ، فَقَالَ : « قُمْ عَنَّا » .

* * *

وَكَانَ يَشْرَبُ عَلَى سَطْحٍ — وَبَيْنَ يَدَيْهِ بَاطِيَةٌ كَبِيرَةٌ بِلَّوْرٌ ؛ وَفِيهَا أَقْدَاحٌ ، فَقَالَ لِنُدَمَائِهِ : « أَيْنَ الْقَمَرُ اللَّيْلَةَ ؟ » فَقَالَ بَعْضُهُمْ : « فِي الْبَاطِيَةِ » فَقَالَ : « صَدَقْتَ ، أَتَيْتَ عَلَى مَا فِي نَفْسِي ، وَاللهِ لَأَشْرَبَنَّ الْهَفْتَجَةَ » يَعْنِي شُرْبَ سَبْعَةِ أَسَابِيعَ مُتَتَابِعَةٍ . وَكَانَ بِمَوْضِعٍ حَوْلَ دِمَشْقَ يُقَالُ لَهُ « الْبَخْرَا » فَقَالَ :

« تَلَعَّبَ بِالنُّبُوَّةِ هَاشِمِيٌّ بِلَا وَحْيٍ أَتَاهُ وَلَا كِتَابِ »

فَقُتِلَ بِهَا ، وَرَأَيْتُ رَأْسَهُ فِي الْبَاطِيَةِ الَّتِي أَرَادَ أَنْ يُهَفْتِجَ بِهَا !

---

(١) « مانى » هو زعيم المذهب المانوى ومؤسسه ، ظهر فى أيام سابور بن أردشير وقتله بهرام بن هرمز بن سابور سنة ٢٧٧ م . وهو يزعم أن العالم مصنوع من أصلين قديمين . هما النور والظلمة وأنهما أزليان سرمديان . وأنه ما من شىء الا وهو من أصل قديم . وأن الخير كله من النور ، والشر كله من الظلمة ، وقد أشار المتنبي إلى ذلك فى قوله يمدح كافور الأخشيدى :

« وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب
وقاك ردى الأعداء — تسرى إليهم — وزارك فيه ذو الدلال المحجب »

أبو عيسى بن الرشيد[1]

وَأبُو عِيسَى بْنُ الرَّشِيدِ ، الْقائِلُ :

« دَهَانِىَ شَهْرُ الصَّوْمِ ، لَا كَانَ مِنْ شَهْرِ
وَلَا صُمْتُ شَهْراً بَعْــدَهُ آخِرَ الدَّهْرِ
وَلَوْ كَانَ يُعْدِينِى الْإِمَامُ بِقُدْرَةٍ
— عَلَى الشَّهْرِ — لَاسْتَعْدَيْتُ دَهْرِى عَلَى الشَّهْرِ »

عَرَضَ لَهُ فِى وَقْتِهِ صَرَعٌ ، فَمَاتَ ، وَلَمْ يُدْرِكْ شَهْراً غَيْرَهُ ، وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ !

الجنـــابى[2]

وَالْجَنَّابِىُّ ، قَتَلَ بِمَــكَّةَ أُلُوفاً ، وَأَخَذَ سِتَّةً وَعِشْرِينَ أَلْفَ حِمْلٍ خفاً ، وَضَرَبَ آلَاتِهِمْ وَأَثْقَالَهُمْ بِالنَّارِ ، وَاسْتَمْلَكَ مِنَ النِّسَاءِ وَالْغِلْمَانِ ، مَنْ ضَاقَ بِهِمُ الْفَضَاءُ كَثْرَةً وَوُفُوراً ، وَأَخَذَ حَجَرَ الْمُلْتَزَمِ ، وَظَنَّ أَنَّهَا مَغْنَاطِيسُ الْقُلُوبِ ، وَأَخَذَ الْمِيزَابَ ، قَالَ : « وَسَمِعْتُ قَائِلاً يَقُولُ لِغُلَامٍ دُحْمُسَانٍ[3] طُوَّالٍ ؛ يَرْفُلُ فِى بُرْدَيْهِ ، وَهُوَ فَوْقَ الْــكَعْبَةِ : « يَا رَحْمَةُ ! اقْلَعْهُ وَأَسْرِعْ[4] » (يَعْنِى مِيزَابَ الْــكَعْبَةِ) — فَعَلِمْتُ أَنَّ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ صَحَّفُوهُ ، فَقَالُوا : « يَقْلَعُهُ غُلَامٌ اسْمُهُ « رَحْمَةُ » . كَمَا صَحَّفُوا عَلَى « عَلِيٍّ » — رَضِىَ اللّٰهُ عَنْهُ — قَوْلَهُ : « تَهْلِكُ

---

(١) ارجع الى (ج «٣» ص «٢٣٧») (٢) ارجع الى (ج «٣» ص «٢٣٨»)
(٣) شديد السمرة سمين غليظ (٤) ارجع الى (ج «٣» ص «٢٤٠») .

الْبَصْرَةُ بِالرِّيحِ » فَهَلَكَتْ بِالزَّنْجِ [١]. لأنه قَتَلَ عَلَوِيُّ البَصرة [٢] في مَوْضِعٍ بها يُقَالُ له العَقِيقُ أربعةً وعشرِينَ أَلفاً، عَدُّوهُمْ بالقَصَب، وحُرِّق جامِعُهَا.

*
* *

وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ — يُخَاطِبُ الزَّنْجَ —:

« إِنكُمْ قَدْ أَعِنْتُمْ بِقُبْحِ مَنْظَرٍ، فاشْفَعُوهُ بِقُبْحِ مَخْبَرٍ، اجْعَلُوا كُلَّ عَامِرٍ قَفْراً، وَكُلَّ بَيْتٍ قَبْراً ».

قَالَ لي بدِمَشْقَ « أبو الحسَيْنِ اليزِيدِيّ الوزيرَ » : « على نَسَبِ جَدِّي دَخَلَ، وإياه ادَّعى . . . »

---

(١) هلاك البصرة بالزنج : في سنة سبع وخمسين ومائتين اكتسح الزنج مدينة « البصرة » عنوة وأتوا فيها من صنوف القسوة والبربرية ما يفوق الوصف شناعة ووحشية ! ووقائعهم مفصلة في الطبري وغيره .

وقد أظهر « ابن الرومي » شناعة « الزنج » ووحشيتهم في ميميته الفذة التي وصف فيها دخولهم «البصرة» وما أتوه فيها من الهول ، وهي قصيدة رائعة فياضة بالشاعرية العالية نختار منها قوله :

بينما أهلها بأحسن حال ... إذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع اللي ... ل ، إذا راح مدلهم الظلام
أي هول رأوا بهم ! أي هول ... حق منه يشيب رأس الغلام
إذ رموهم بنارهم عن يمين ... وشمال وخلفهم وأمام
كم أغصوا من شارب بشراب ... كم أغصوا من طاعم بطعام

إلى أن يقول :

عرّجا صاحبي بالبصرة الزهـ ... ـراء ، تعريج مدنف ذي سقام
فاسألاها — ولا جواب لديها ... لسؤال — ومن لها بالكلام
« أين ضوضاء ذلك الخلق فيها ... أين أسواقها ذوات الزحام ؟ »

ثم يقول :

« رب قوم باتوا بأجمع شمل ... تركوا شملهم بغير نظام »

والقصيدة على هذه الوتيرة من دقة الوصف وروعة الأسلوب ، وهي طويلة يجدها القارئ في الجزء الثالث من « ديوان ابن الرومي » من (ص ٤١٩ — ٤٢٧)

(٢) جرى حديث العلوي البصري في (ج «٣» ص «٢٣٩») .

قَالَ « ابُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ عَلِيِّ بْنِ رِزَامٍ الطَّائِيُّ الْكُوفِيُّ » :

« كُنْتُ بِمَكَّةَ – وَسَيْفُ الْجَنَّابِيِّ قَدْ أَخَذَ الْحَاجَّ – وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ قَدْ قَتَلَ جَمَاعَةً – وَهُوَ يَقُولُ : ,, يَا كِلَابُ ! أَلَيْسَ قَالَ لَكُمْ مُحَمَّدٌ الْمَكِّيُّ : « مَنْ دَخَلَهُ[1] كَانَ آمِنًا » أَيُّ أَمْنٍ هُنَا ؟ فَقُلْتُ لَهُ : « يَا فَتَى الْعَرَبِ ! تُؤْمِنُنِي سَيْفَكَ ، أُفَسِّرْ لَكَ هَذَا ؟ » قَالَ : « نَعَمْ » قُلْتُ : « فِيهَا خَمْسَةُ أَجْوِبَةٍ الْأَوَّلُ : « مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا مِنْ عَذَابِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وَالثَّانِي « مِنَ الْفَرْضِ الَّذِي فَرَضْتُ عَلَيْهِ » وَالثَّالِثُ : « خَرَجَ مَخْرَجَ الْخَبَرِ – وَهُوَ يُرِيدُ الْأَمْرَ ، كَقَوْلِهِ : وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ » وَالرَّابِعُ : « لَا يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ فِيهِ ، إِذَا جَنَى فِي الْحِلِّ » وَالْخَامِسُ : « مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : إِنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ، وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » .

فَقَالَ : « صَدَقْتَ ! هَذِهِ اللِّحْيَةُ إِلَى تَوْبَةٍ ؟ » فَقُلْتُ : « نَعَمْ » فَخَلَانِي وَذَهَبَ .

الحــلاج[2]

وَالْحُسَيْنُ بنُ مَنْصُورٍ الْحَلَّاجُ ، مِنْ نَيْسَابُورَ وَقِيلَ مِنْ « مَرْوَ » يَدَّعِي كُلَّ عِلْمٍ ؛ وَكَانَ مُتَهَوِّرًا جَسُورًا ، يَرُومُ إِقْلَابَ الدُّوَلِ ، وَيَدَّعِي فِيهِ أَصْحَابُهُ الْإِلَهِيَّةَ ، وَيَقُولُ بِالْحُلُولِ ، وَيُظْهِرُ مَذَاهِبَ الشِّيعَةِ لِلْمُلُوكِ ، وَمَذَاهِبَ الصُّوفِيَّةِ لِلْعَامَّةِ ، وَفِي تَضَاعِيفِ ذَلِكَ ؛ يَدَّعِي أَنَّ الْإِلَهِيَّةَ قَدْ حَلَّتْ فِيهِ ، وَنَاظَرَهُ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى الْوَزِيرُ ، فَوَجَدَهُ صِفْرًا مِنَ الْعُلُومِ ؛ وَقَالَ : تَعَلُّمُكَ لِطَهُورِكَ وَفَرْضِكَ ، أَجْدَى عَلَيْكَ مِنْ رَسَائِلَ ، أَنْتَ لَا تَدْرِي مَا تَقُولُ فِيهَا ، كَمْ تَكْتُبُ إِلَى

(١) يعنى البيت الحرام (٢) ارجع إلى (جـ «٣» ص «٢٤٢») .

النَّاس : « تبارَكَ ذو النُّورِ الشَّمْشَعانِيِّ الَّذِي يَلمعُ بَعْدَ شعشعَتِهِ » ؟
مَا أحْوجَكَ إلَى أدَبٍ !

***

حَدَّثني أبُو عَلِيّ الفَارِسِيُّ ، قَالَ : « رَأَيْتُ الْحَلَّاجَ وَاقِفاً عَلَى حَلْقَةِ أَبِي بَكْرٍ الشِّبْلِيِّ ، فَنَفَضَ كُمَّهُ فِي وَجْهِهِ وَأَنْشَدَ :

« يَا سِرَّ سِرٍّ يَدِقُّ حَتَّى يَجِلُّ عَنْ وَصْفِ كُلِّ حَيِّ
وَظَاهِراً بَاطِناً ، تَبَدَّى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، لِكُلِّ شَيْءْ
يَا جُمْلَةَ الْكُلِّ لَسْتَ غَيْرِي فَمَا اعْتِذَارِي إِذَنْ إِلَيَّ »

وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْعَارِفَ ، مِنَ اللهِ[1] ، بِمَنْزِلَةِ شعاعِ الشَّمْسِ ، مِنْهَا بَدَا ، وَإِلَيْهَا يَعُودُ ، وَمِنْهَا يَسْتَمِدُّ ضَوْءَهُ — أَنْشَدَنِي « الظَّاهِرُ » لِنَفْسِهِ :

أَرَى جِيلَ التَّصَوُّفِ شَرَّ جِيلٍ فَقُلْ لَهُمُ — وَأَهْوِنْ بِالْحُلُولِ :
أَقَالَ اللهُ — حِينَ عَشِقْتُمُوهُ — كُلُوا أَكْلَ الْبَهَائِمِ وَارْقُصُوا لِي ؟ »

وَحَرَّكَ يَوْماً يَدَهُ ، فَانْتَثَرَ — عَلَى قَوْلٍ — مِسْكٌ ، وَحَرَّكَ مَرَّةً أُخْرَى ، فَانْتَثَرَ دَرَاهِمُ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ — مِمَّنْ يَفْهَمُ — : « أَرِنِي دَرَاهِمَ [غَيْرَ] مَعْرُوفَةٍ — أومِنْ بِكَ ، وَخَلْقٌ مَعِي ، إِنْ أَعْطَيْتَنِي دِرْهَماً ، عَلَيْهِ اسْمُكَ وَاسْمُ أَبِيكَ » فَقَالَ : « وَكَيْفَ هَذَا ، وَهَذَا لَا يُصْنَعُ ؟ » قَالَ : « مَنْ أَحْضَرَ مَا لَيْسَ بِحَاضِرٍ ؛ صَنَعَ مَا لَيْسَ بِمَصْنُوعٍ ! »

وَكَانَ فِي كُتُبِهِ : « إِنِّي مُغْرِقُ قَوْمِ نُوحٍ ، وَمُهْلِكُ عَادٍ وَثَمُودَ » فَلَمَّا شَاعَ أَمْرُهُ ، وَعَرَفَ السُّلْطَانُ خَبَرَهُ — عَلَى صِحَّةٍ — وَقَّعَ بِضَرْبِهِ أَلْفَ سَوْطٍ ، وَقَطْعِ

---

(١) فى الأصل : « العارف ابن الله »

يَدَيْهِ ، ثُمَّ أَحْرَقَهُ بِالنَّارِ ، فِي آخِرِ سَنَةِ تِسْعٍ وَثَلٰثِمَائَةٍ ، وَقَالَ لِحَامِدِ بنِ الْعَبَّاسِ : « أَنَا أُهْلِكُكَ » فَقَالَ حَامِدٌ : « الآنَ صَحَّ أَنَّكَ تَدَّعِي مَا قُرِفْتَ[1] بِهِ ! »

ابن أبي العزاقر

وَابْنُ أَبِي الْعَزَاقِرِ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بنُ عَلِيٍّ الشَّلْمَغَانِيُّ . أَهْلُهُ بِقَرْيَةٍ مِنْ قُرَى وَاسِطٍ تُعْرَفُ بِشَلْمَغَانَ[2] ، وَصُورَتُهُ صُورَةُ الْحَلَّاجِ ، وَيَدَّعِي عَنْهُ قَوْمٌ أَنَّهُ إِلَهٌ ، وَأَنَّ اللهَ حَلَّ فِي آدَمَ ، ثُمَّ فِي شِيث ، ثُمَّ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالأَوْصِيَاءِ وَالأَئِمَّةِ ، حَتَّى حَلَّ فِي الْحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ العسكرى ، وأنه حل فيه . وَكَانَ قَدِ اسْتَغْوَى جَمَاعَةً مِنْهُمْ « ابْنُ أَبِي عَوْنٍ[3] » صَاحِبُ كِتَابِ التَّشْبِيهَاتِ ، وَمَعَهُ ضُرِبَتْ عُنُقُهُ ، وَكَانُوا يُبِيحُونَهُ حُرَمَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ يَتَحَكَّمُ فِيهِمْ ، وَكَانَ يَتَعَاطَى « الْكِيمِيَاءَ » وَلَهُ كُتُبٌ مَعْرُوفَةٌ .

ابن الراوندى[4]

وَكَانَ أَحْمَدُ بنُ يَحْيَي الرَّاوَنْدِي ، مِنْ أَهْلِ « مَرْوِ الرُّوذِ » حَسَنَ السِّتْرِ ؛ جَمِيلَ الْمَذْهَبِ ، ثُمَّ انْسَلَخَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، بِأَسْبَابٍ عَرَضَتْ لَهُ ، وَلِأَنَّ عِلْمَهُ كَانَ أَكْثَرَ مِنْ عَقْلِهِ ، وَكَانَ مَثَلُهُ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

---

(١) أى اتهمت به ، من قولهم قرفه بكذا أى أضافه اليه واتهمه به (٢) فى معجم البلدان : شلمغان بفتح أوله وسكون ثانيه ثم ميم مفتوحة وغين معجمة وآخره نون . ناحية من نواحى واسط الحجاج ، ينسب إليها جماعة من الكتاب منهم أبو جعفر محمد بن على الشلمغانى المعروف بابن أبى العزاقر بفتح العين المهملة والزاى وبعد الألف قاف مكسورة ثم راء مهملة ، وكان يدعى أن اللاهوت حل فيه وله فى ذلك مذهب ملعون . (٣) هو إبراهيم بن محمد بن أبى عون كان يدعى فى ابن أبى العزاقر الالهية فأخذهما ابن مقلة محمد بن على وزير المقتدر فى ذى القعدة سنة ٣٢٢ وقد ذكر صاحب معجم الأدباء قصتهما فى أخبار ابن أبى عون وارجع إلى (ص «٢٥٥» جـ «٣» من هذا الكتاب (٤) ارجع إلى (جـ «٣» ص «٢٦٢»

« وَمَنْ يُطِيقُ مُرِدًّا[1] عِنْدَ صَبْوَتِهِ
وَمَنْ يَكُونُ لِمَسْتُورٍ[2] — إِذَا خَلَعَا[3]

مصنفات ابن الراوندى

صَنَّفَ كِتَابَ :

التَّاج : يَحْتَجُّ فِيهِ لِقِدَمِ الْعَالَمِ ، فَنَقَضَهُ أبو الْحَسَنِ الْخَيَّاطُ .

الزُّمُرُّدِ : يَحْتَجُّ فِيهِ لإِبْطَالِ الرِّسَالَةِ ، نَقَضَهُ الْخَيَّاطُ .

نَعْتِ الْحِكْمَةِ : سَفَّهَ اللهَ ـ تعالى ـ فى تَكْلِيفِ خَلْقِهِ أَمْرَهُ ، نَقَضَهُ الْخَيَّاطُ

الدَّامِغ : يَطْعَنُ فِيهِ عَلَى نَظْمِ الْقُرْآنِ .

الْقَضِيبِ : يُثْبِتُ أَنَّ عِلْمَ اللهِ مُحْدَثٌ ، وَأَنَّهُ كَانَ غَيْرَ عَالِمٍ ، حَتَّى خَلَقَ لِنَفْسِهِ عِلْمًا ، نَقَضَهُ الْخَيَّاطُ .

---

(١) شديد الرغبة ، وفى رواية أخرى «مذك» أى مسن — وهى أجود وأليق (٢) عفيف

(٣) هـذا البيت من قصيدة جميلة لمحمـد بن يسير الأنصارى . وقد ذكرها صاحب الأمالى — وفى النسخة المطبوعة بدار الـكتب : بشير وهو خطأ — فقال :

قال « عبد الله بن محمد بن يسير » البصرى : « علق أبى جارية لبعض الهاشميين . فبعثت إليه أمى تعاتبه . فكتب إليها الأبيات التالية :

لا تتبعن لوعة — إثرى — ولا هلعا ولا تقاسنّ بعـدى — الهم والجزعا
بل ائتسى تجدى — إن ائتسيت — أسا بمثل ما قد فجعت اليوم — قد فجعا

*
* *

ما تصنعين بعين عنك طامحـــة إلى سواك . وقلب عنك قد نزعا ؟
إن قلت : « قد كنت فى ود وتكرمة » فقد صدقت ، ولـكن ذاك قـد منعا
وأى شىء من الدنيـا سمعت به إلا — إذا صار فى غاياته — انقطعا !

*
* *

لم تبق عينا « حسين » عند لحظهما — لغيرها فى فـؤادى بعدهـا طمعا
وهل يطاق مُذِكّ — عند صبوته ؟ ومن يقوم لمستور — إذا خلعا ؟

الْفَرِيدِ : فِي الطَّعْنِ عَلَى النَّبِيِّ ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

الْمَرْجَانِ : فِي اخْتِلَافِ أَهْلِ الإِسْلَامِ .

احتضار ابن الرومى[1]

مثال من طيرته

عَلِيُّ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنِ جُرَيْجٍ الرُّومِيُّ :

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّاجِمُ : دَخَلْتُ عَلَيْهِ فِي عِلَّتِهِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا ، وَعِنْدَ رَأْسِهِ جَامٌ — فِيهِ مَاءٌ مَثْلُوجٌ ، وَخِنْجَرٌ مُجَرَّدٌ ، لَوْ ضُرِبَ بِهِ صَدْرٌ ، خَرَجَ مِنْ ظَهْرٍ — فَقُلْتُ : « مَا هَذَا ؟ » قَالَ : « الْمَاءُ ، أَبُلُّ بِهِ حَلْقِي ، فَقَلَّمَا يَمُوتُ إِنْسَانٌ إِلَّا وَهُوَ عَطْشَانُ ؛ وَالْخِنْجَرُ ، إِنْ زَادَ عَلَيَّ الأَلَمُ ، نَحَرْتُ نَفْسِي » ثُمَّ قَالَ : « أَقُصُّ عَلَيْكَ قِصَّتِي ، تَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى حَقِيقَةِ تَلَفِي ! أَرَدْتُ الانْتِقَالَ مِنَ الْكَرْخِ إِلَى بَابِ الْبَصْرَةِ ، فَشَاوَرْتُ صَدِيقَنَا أَبَا الْفَضْلِ ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الإِفْضَالِ ، فَقَالَ : إِذَا جِئْتَ الْقَنْطَرَةَ ؛ فَخُذْ عَلَى يَمِينِكَ ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْيُمْنِ ، وَاذْهَبْ إِلَى سِكَّةِ النَّعِيمَةِ ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ النَّعِيمِ ، فَاسْكُنْ دَارَ ابْنِ الْمُعَافَى ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْعَافِيَةِ ، فَخَالَفْتُهُ لِتَعْسِي وَنَحْسِي !

فَشَاوَرْتُ صَدِيقَنَا جَعْفَرًا — وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْجُوعِ وَالْفِرَارِ — فَقَالَ : « إِذَا جِئْتَ الْقَنْطَرَةَ ، فَخُذْ عَلَى شِمَالِكَ ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الشُّؤْمِ ، وَاسْكُنْ دَارَ ابْنِ قِلَابَةَ ، وَهِيَ هَذِهِ ، لَا جَرَمَ قَدِ انْقَلَبَتْ بِي الدُّنْيَا . وَأَضَرُّ مَا عَلَيَّ الْعَصَافِيرُ ، فِي هَذِهِ السِّدْرَةِ ، تَصِيحُ « سِيق ، سِيق » فَهَأَنَا فِي السِّيَاقِ ! »

---

(١) ارجع إلى ج ٣ ص ٢٦٥

ثُمَّ أَنْشَدَنِى :

«أَبَا عُثْمَانَ ! أَنْتَ قَرِيعُ قَوْمِكْ ، وَجُودُكَ لِلْعَشِيرَةِ دُونَ لَوْمِكْ
تَمَتَّعْ مِنْ أَخِيكَ ، فَمَا أَرَاهُ يَرَاكَ ، وَلَا تَرَاهُ بَعْدَ يَوْمِكْ»

وَأَلَحَّ بِهِ الْبَوْلُ ، فَقُلْتُ لَهُ : «الْبَوْلُ مُلِحٌّ بِكَ» فَقَالَ :

«غَدًا يَنْقَطِعُ الْبَوْلُ وَيَأْتِى الْوَيْلُ وَالْعَوْلُ
أَلَا إِنَّ لِقَاءَ اللَّـــهِ هَوْلٌ دُونَهُ الْهَوْلُ»

وَمَاتَ مِنَ الْغَدِ . فَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقَوْلُ تَوْبَةً لَهُ مِمَّا كَانَ اعْتَقَدَهُ مِنْ ذَبْحِ نَفْسِهِ ! وَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ : «مَنْ وَجَأَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ حُشِرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَحَدِيدَتُهُ بِيَدِهِ يَجَأُ بِهَا نَفْسَهُ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِى النَّارِ ! مَنْ تَرَدَّى مِنْ شَاهِقٍ حُشِرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَرَدَّى عَلَى مِنْخَرَيْهِ فِى النَّارِ خَالِدًا مُخَلَّدًا ! من تَحَسَّى سُمًّا حُشِرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَسُمُّهُ بِيَدِهِ يَتَحَسَّاهُ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِى النَّارِ !»

أبو تمام[1]

قَالَ الْحَسَنُ بْنُ رَجَاءٍ الْكَاتِبُ : «جَاءَنِى أَبُو تَمَّامٍ إِلَى خُرَاسَانَ ، فَبَلَغَنِى أَنَّهُ لَا يُصَلِّى ، فَوَكَّلْتُ بِهِ مَنْ لَازَمَهُ أَيَّامًا ، فَلَمْ يَرَهُ صَلَّى يَوْمًا وَاحِدًا ، فَعَاتَبْتُهُ ، فَقَالَ : «يَا مَوْلَاىَ ! قَطَعْتُ إِلَى حَضْرَتِكَ مِنْ بَغْدَادَ ، فَاحْتَمَلْتُ الْمَشَقَّةَ ، وَبُعْدَ الشُّقَّةِ ، وَلَمْ أَرَهُ يَثْقُلُ عَلَىَّ ، فَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الصَّلَاةَ تَنْفَعُنِى ، وَتَرْكَهَا يَضُرُّنِى ، مَا تَرَكْتُهَا !» فَأَرَدْتُ قَتْلَهُ ، فَخَشِيتُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى غَيْرِ هَذَا»

المعتصم

وَفِى تَارِيخِ كَثِيرَةٍ : أَنَّهُ أُحْضِرَ الْمَازِيَارُ إِلَى الْمُعْتَصِمِ ، وَقَبْلَ قُدُومِهِ بِيَوْمٍ

(١) انظر ترجمته (فى ٥ جـ ٢ ص ١٤٣)

سَخِطَ عَلَى «الْأَفْشِينِ» لِأَنَّ الْقَاضِىَ ابْنَ أَبِى دُوَادٍ قَالَ لِلْمُعْتَصِمِ : «أَغْرَلُ[1] وَيَطَأُ امْرَأَةً عَرَبِيَّةً ! وَهُوَ كَاتَبَ المازيارَ ، وَزَيَّنَ لَهُ الْعِصْيَانَ» فَأَحْضَرَ كَاتِبَهُ وَتَهَدَّدَهُ الْمُعْتَصِمُ ، فَأَقَرَّ أَنَّهُ كَتَبَ إلى المازيار : «لَمْ يَكُنْ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى الْعَصْرِ بَلِيَّةٌ إِلاَّ أَنَا وَانْتَ وَبَابَكُ ، وَقَدْ كُنْتُ حَرِيصاً عَلَى حَقْنِ دَمِهِ حَتَّى كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ ، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرِى وَغَيْرُكَ ، وَقَدْ تَوَجَّهَ إِلَيْكَ عَسْكَرٌ مِنْ عَسَاكِرِ الْقَوْمِ ، فَإِنْ هَزَمْتَهُ ، وَثَبْتُ أَنَا بِمَلِكِهِمْ فِى قَرَارَةِ دَارِهِ ، فَظَهَرَ الدِّينُ الأَبْيَضُ» فَأَجَابَهُ الْمَازِيَارُ بِجَوَابٍ هُوَ عِنْدَهُ [فِى] سَفَطٍ أَحْمَرَ .

فَجَمَعَ بَيْنَ الْأَفْشِينِ وَالْمَازِيار ، فاعْتَرَف المازيار بِمَا حُكِىَ عَنْهُ ، وَقِيلَ لِلْمُعْتَصِمِ : إِنَّ وَرَاءَ الْمَازِيار مَالاً جليلاً ، فَأَنْشَدَ :

إِنَّ الْأُسُودَ أُسُودَ الْغَابِ هِمَّتُهَا ... يَوْمَ الْكَرِيهَةِ فِى الْمَسْلُوبِ لاَ السَّلَبِ

ذَكَرُوا أن اثْنَيْنِ قتلوا ثلاثةَ آلافٍ وخَمْسمائةِ ذَبّاحٍ بالثياب الحُمْرِ والخناجِرِ الطِّوَال ، وأَنهم وَجَدُوا أسماءَهُمْ فى وَقْعَةٍ وَقْعَةٍ ، وفى بَلَدٍ بَلَدٍ ، وكانوا يأْخُذُونَ من كُلٍّ واحدٍ عَلاَمَةَ خاتَمِهِ أو ثَوْبِهِ أو مِنْدِيلِهِ أو تِكَّتِهِ .

أَتَى الوَادِى فَطَمَّ عَلَى القَرِىِّ !

جعفر بن محمد

قَدْ ظَهَرَ بِالْبَصْرَةِ مَنْ يَدَّعِى أَنَّهُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ — عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ — وَأَنَّهُ مُتَّصِلٌ بِهِ ، وَرُوحُهُ فِيهِ ، وَمُتَّصِلَةٌ بِهِ !

وَلَو اسْتَقْصَيْتُ الْقَوْلَ فِى هَذَا الْفَنِّ لَطَالَ جِدًّا ، وَلَكِنْ :

لاَ بُدَّ لِلْمَصْدُورِ أَنْ يَنْفُثَا ... وَلِلَّذِى فِى الصَّدْرِ أَنْ يُبْعَثَا

---

(1) أى لم يختن ، والأعاجم لا تختتن . والمراد استفظاع أن يتزوج من العربية أعجمى .

بَلْ لَوْ قُلتُ كُلَّ مَا أَعْلَمُهُ، أَكَلْتُ زَادِيَ فِي مَحْبِسِي ، بَلْ كُنْتُ أُنْشِدُ :

أَحْمِلُ رَأْساً قَدْ مَلِلْتُ حَمْلَهُ   أَلاَ فَتًى يَحْمِلُ عَنِّي ثِقْلَهُ [١]

وَأَسْتَرِيحُ إِلَى أَنْ أُنْشِدَ :

لَيْسَ يَشْفِي كُلُومَ غَيْرِي كُلُومِي   مَا بِهِ مَا بِهِ، وَمَا بِيَ مَا بِي

شكوى الزمان

إِنْ شَكَوْتُ الْعَصْرَ وَأَحْكَامَهُ ، وَذَمَمْتُ صُرُوفَهُ وَأَيَّامَهُ ، شَكَوْتُ مَنْ لَا يُشْكِي أَبَدًا ، وَذَمَمْتُ مَنْ لا يُرْضِي أَحَدًا . شِيمَتُهُ اصْطِفَاءُ اللِّئَامِ ، وَالتَّحَامُلُ عَلَى الْكِرَامِ ؛ وَهِمَّتُهُ رَفْعُ الْوَضِيعِ ، وَوَضْعُ الْفَاضِلِ الرَّفِيعِ ؛ إِذَا سَمَحَ بِالْحِبَاءِ [٢] ، فَأَبْشِرْ بِوَشْكِ الِاقْتِضَاءِ . وَإِذَا أَعَارَ ، فَاحْسَبْهُ قَدْ أَغَارَ ؛ فَمَا بَيْنَ أَنْ يُقْبِلَ عَلَيْكَ مُسْتَبْشِرًا ، وَيَتَوَلَّى عَنْكَ مُتَجَهِّمًا مُسْتَشِرًّا ، إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ ، وَاسْتِطَارَةِ الشَّرَرِ . لَمْ يَخْتَرِقْ ذِكْرُ الْوَفَاءِ مَسَامِعَهُ ، وَلَمْ يَمْسَسْ مَاءُ الْحَيَاءِ مَدَامِعَهُ ، ظَاهِرُهُ يَسُرُّ وَيُؤْنِس ، وَبَاطِنُهُ يَسُوءُ وَيُؤْيِس ، يُخَيِّبُ ظَنَّ رَاجِيهِ ، وَيُكَذِّبُ أَمَلَ عَافِيهِ ؛ لَا يَسْمَعُ الشَّكْوَى ، وَيَشْمَتُ بِالْبَلْوَى . قَدْ ذَمَمْتُ سَيِّئًا وَوَقَعْتُ

---

(١) هذا من رجز الشاعرة المبرزة « أم حكيم » وهى من شواعر « الخوارج » وممن يضرب بهن المثل فى الإقدام والشجاعة ، كانت تحمل على الناس وترتجز :

« أحمل رأساً ، قد مللت حمله   وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عنى ثقله ؟ »

وفيها يقول « قطرى بن الفجاءة » ميمته المشهورة :

« لعمرى إنى فى الحياة لزاهد   وفى العيش ـ ما لم ألق أم حكيم ؟

من الخفرات البيض ـ لم ير مثلها   شفاء لذى بث ، ولا لسقيم

لعمرك إنى ـ يوم ألطم وجهها   على نائبات الدهر ـ جد لئيم »

(٢) فى الأصل : الحياء

فِيهِ ، أَنَا كَالْغَرِيقِ يَطْلُبُ مُعْلِقاً ، وَالْأَسِيرِ يَنْدُبُ مُطْلِقاً !

وَأَسْتَحْسِنُ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ جُرَيْجٍ الرُّومِيِّ :

« أَلَا لَيْسَ شَيْبُكَ بِالْمُنْتَزَعْ فَهَلْ أَنْتَ عَنْ غَيِّهِ مُرْتَدِعْ ؟

وَهَلْ أَنْتَ تَارِكُ شَكْوَى الزَّمَانِ إِذَا شِئْتَ تَشْكُو إِلَى مُسْتَمِعْ ؟

فَشَيْبُ أَخِي الشَّيْبِ أُمْنِيَّةٌ إِذَا مَا تَنَاهَى إِلَيْهَا هَلَعْ[1] »

عزوف ابن القارح عن الغوانى

كُنْتُ فِي حَالِ الْحَدَاثَةِ : أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيَّ ، وَأَعَزُّهُمْ عَلَيَّ ، وَأَقْرَبُهُمْ عِنْدِي مَنْزِلَةً ، وَأَجَلُّهُمْ فِي نَفْسِي مَرْتَبَةً — مَنْ قَالَ لِي : « نَسْأَلُكَ[2] اللهَ فِي أَجَلِكَ ، وَجَعَلَ اللهُ لَكَ أَمَدَّ الْأَعْمَارِ وَأَطْوَلَهَا » فَلَمَّا بَلَغْتُ عَشْرَ الثَّمَانِين ، جَاءَ الْجَزَعُ وَالْهَلَعُ ، فَمِمَّ أَرْتَاعُ وَأَلْتَاعُ ، وَاخْلُدُ إِلَى الْأَطْمَاعِ ، وَهُوَ الَّذِي كُنْتُ أَتَمَنَّى ، وَيَتَمَنَّى لِي أَهْلِي ؟ أَمِنْ صُدُوفِ الْغَوَانِي عَنِّي ؟ فَأَنَا وَاللهِ عَنْهُنَّ أَصْدَفُ ، وَبِهِنَّ وَبِأَدْوَائِهِنَّ أَعْرَفُ ، إِذْ لَسْتُ مِمَّنْ يُنْشِدُ تَحَسُّراً عَلَيْهِنَّ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

لِلسُّودِ فِي السُّودِ آثَارٌ تَرَكْنَ بِهَا لُمَعاً مِنَ الْبِيضِ تَثْنِي أَعْيُنَ الْبِيضِ

وَقَوْلَ الْآخَرِ :

وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّسْرَ عَزَّ ابْنَ دَأْيَةٍ وَعَشَّشَ فِي وَكْرَيْهِ جَاشَتْ لَهُ نَفْسِي

---

(١) ومن أجمل ما فى تلك القصيدة قوله :

وطـول البقاء حبيب الفتى ولكن بأى مقيت شفـع ؟

إذا المرء طـالت به مـدة علا الشيب مفرقه أو صلـع

وفى هذه الأبيات تلخيص رائع ، لقصة الخالدين التى يراها القارئ فى الجزء الثالث من رحلات جلفر .

(٢) فى الأصل : نسأل .

وَلاَ أُنْشِدُ لِأَبِى عُبَادَةَ الْبُحْتُرِىِّ :

إِنَّ أَيَّامَهُ مِنَ الْبِيضِ بِيضٌ ... مَا رَأَيْنَ الْمَفَارِقَ السُّودَ سُودَا

وَإِذَا الْمَحْلُ ثَارَ، ثَارُوا غُيُوثاً ... وَإِذَا النَّقْعُ ثَارَ، ثَارُوا أُسُودَا

يَحْسُنُ الذِّكْرُ عَنْهُمُ وَالأَحَادِيـ ... ـثُ إِذَا حَدَّثَ الْحَدِيدُ الْحَدِيدَا

بَلْدَةٌ تُنْبِتُ الْمَعَالِى، فَمَا يَثْـ ... ـغُرُ الطِّفْلُ فِيهِمُ أَوْ يَسُودَا(1)

وَهَذِهِ صِفَةُ مَعَرَّةِ النُّعْمَانِ بِهِ — أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهُ — لاَ خَلَتْ مِنْهُ، وَمِنَ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ وَعِنْدَهُ. فَقَدْ وَجَدْتُ أَهْلَهَا مُعْتَرِفِينَ بِعَوَارِفِهِ، خَلاَ أَبِى الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ خَلَفٍ الْمُمْتِعِ، أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ. فَإِنِّى وَجَدْتُ آثَارَ تَفَضُّلِهِ عَلَيْهِ ظَاهِرَةً، وَلِسَانَهُ رَطْباً بِذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ، وَقَدْ مَلأَ السَّمَاءَ دُعَاءً، وَالأَرْضَ ثَنَاءً.

قريش والنبى

قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلنَّبِىِّ — عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ — : « أَتْبَاعُكَ مِنْ هَؤُلاَءِ الْمَوَالِى، كَبِلاَلٍ وَعَمَّارٍ وَصُهَيْبٍ، خَيْرٌ مِنْ قُصَىِّ بْنِ كِلاَبٍ، وَعَبْدِ مَنَافٍ، وَهَاشِمٍ، وَعَبْدِ شَمْسٍ؟ » فَقَالَ: « نَعَمْ! وَاللهِ لَئِنْ كَانُوا قَلِيلاً لَيَكْثُرُنَّ، وَلَئِنْ كَانُوا ضُعَفَاءَ لَيَشْرُفُنَّ، حَتَّى يَصِيرُوا نُجُوماً يُهْتَدَى بِهِمْ وَيُقْتَدَى، فَيُقَالُ: « هَذَا قَوْلُ فُلاَنٍ، وَذِكْرُ فُلاَنٍ » فَلاَ تُفَاخِرُونِى بِآبَائِكُمُ الَّذِينَ مُوِّتُوا فِى الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَا يُدَهْدِهُ الْجُعَلُ بِمِنْخَرِهِ، خَيْرٌ مِنْ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مُوِّتُوا فِيهَا،

---

(1) يثغر : ينبت ثغره . والبيت من قصيدة للبحترى أولها :

« إنما الغى أن تكون رشيدا ... فانقصا من ملامة ، أو فزيدا

خلياه وجدة اللهو — ما دا ... م رداء الشباب غضا جديدا »

فَاتَّبِعُونِي ، أَجْعَلْكُم أَنْسَاباً . وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَتَقْتَسِمُنَّ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ ! »

فَقَالَ لَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ : « أَبْقِ عَلَيَّ وَعَلَى نَفْسِكَ »

فَظَنَّ — عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَلَامُ — أَنَّهُ خَاذِلُهُ وَمُسْلِمُهُ ، فَقَالَ :

« يَا عَمِّ ! وَاللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي ، وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي ، عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ ، مَا تَرَكْتُهُ »

ثُمَّ اسْتَعْبَرَ بَاكِياً ، ثُمَّ قَامَ ، فَلَمَّا وَلَّى ، نَادَاهُ : « أَقْبِلْ يَابْنَ أَخِي ! » فَأَقْبَلَ ، فَقَالَ : « اذْهَبْ وَقُلْ مَا شِئْتَ ، فَوَاللهِ لَا أُسْلِمُكَ لِسُوءٍ أَبَدًا » فَكَانَ — عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ — يَذْكُرُ يَوْماً ، مَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ الْجَهْدِ وَالشِّدَّةِ ، قَالَ : « لَقَدْ مَكَثْتُ أَيَّاماً ، وَصَاحِبِي هَذَا — يُشِيرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ — بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا الْبَرِيرُ[1] فِي شَعَفِ[2] الْجِبَالِ ! »

صــــبر الصحابة

عاقبة الصبر

وَكَانَ عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ يَقُولُ — إِذَا ذَكَرَ الْبَلَاءَ وَالشِّدَّةَ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا بِمَكَّةَ — : « لَقَدْ مَكَثْنَا زَمَانًا ، مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الْبَشَامِ ، أَكَلْنَاهُ حَتَّى

ومنها :

« إن فى السرب — لو يساعدنا السر ب — شموسا يمشين مشيا وئيــدا

يتــدافعن بالأكف ويعــرضـ ن علينا عوارضـا وخدودا »

إلى أن يقول :

« ذات حسن لو استزادت من الحسـ ن إليــه ، لما أصـابت مزيدا »

(١) البرير : الأول من ثمر الأراك ، وفى الأصل : البربر (٢) فى الأصل : شعب . وشعف الجبال : رءوسها

تَقَرَّحَتْ أَشْدَاقُنَا . وَلَقَدْ وَجَدْتُ يَوْمًا تَمْرَةً ، فَجَعَلْتُهَا بَيْنِى وَبَيْنَ سَعْدٍ ، وَمَا مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَى كُورَةٍ » .

وَكَانُوا يَقُولُونَ — فِيمَنْ وَجَدَ تَمْرَةً ، فَقَسَمَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَاحِبِهِ — : « إِنَّ أَسْعَدَ الرَّجُلَيْنِ مَنْ حَصَلَتِ النَّوَاةُ فِى قِسْمِهِ ، يَلُوكُهَا يَوْمَهُ وَلَيْلَتَهُ ، مِنْ عَدَمِ الْقُوتِ » .

وَكَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — : « لَقَدْ رَعَيْتُ غُنَيْمَاتِ أَهْلِ مَكَّةَ لَهُمْ بِالْقَرَارِيطِ » .

بدء الدعوة

وَابْتِدَاءُ أَمْرِهِ ، أَنَّهُ وَقَفَ عَلَى الصَّفَا ، وَنَادَى : « يَا صَبَاحَاهُ ! »

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ ، فَقَالُوا : « مَا دَهَمَكَ ؟ مَا طَرَقَكَ ؟ »

قَالَ : « بِمَ تَعْرِفُونَنِى ؟ » قَالُوا : « مُحَمَّدٌ الْأَمِينُ »

قَالَ : « أَرَأَيْتُمْ ، إِنْ قُلْتُ لَكُمْ : إِنَّ خَيْلًا قَدْ طَرَقَتْكُمْ فِى الْوَادِى ؛ وَإِنَّ عَسْكَرًا قَدْ غَشِيَكُمْ مِنَ الْفَجِّ ؛ أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِى ؟ » قَالُوا : « اللَّهُمَّ نَعَمْ ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا قَطُّ ! » قَالَ : « فَإِنَّ الَّذِى أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، لَيْسَ لِلَّهِ ، وَلَا مِنَ اللهِ ، وَلَا يَرْضَاهُ اللهُ ! قُولُوا : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ » وَاشْهَدُوا أَنِّى رَسُولُهُ ، وَاتَّبِعُونِى تُطِعْكُمُ الْعَرَبُ ، وَتَمْلِكُوا الْعَجَمَ ، وَإِنَّ اللهَ قَالَ لِى : اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ ، وَابْعَثْ جَيْشًا أَبْعَثْ خَمْسَةً أَمْثَالَهُ ، وَضَمِنَ لِى أَنَّهُ يَنْصُرُنِى بِقَوْمٍ مِنْكُمْ ؛ وَقَالَ لِى : « قَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ » وَضَمِنَ لِى أَنَّهُ يَغْلِبُ سُلْطَانِى سُلْطَانَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ » .

ثم إنه – عليه الصلاة والسلام – غزا تبوك في ثلاثين ألفا، وهذا من قبل الله، الذي يجعل من لا شيء، كل شيء، ويجعل كل شيء، لا شيء، يجمد المائعات، ويميع الجامدات، يجمد البحر، ثم يفجر الصخر. وما مثله في ذلك إلا كمثل من قال: «هذه الزجاجة الرقيقة السخيفة أحك بها هذه الجبال الصلدة الصلبة المنيفة فترضها وتفضها. وهذه النملة الضعيفة اللطيفة، تهزم العساكر الكثيرة» وكذا حقيقة أمره – عليه الصلاة والسلام – حتى لقد قال عروة بن مسعود الثقفي لقريش؛ وكان رسولهم إليه – صلى الله عليه وسلم – بالحديبية: «لقد وردت على النجاشي، وكسرى، وقيصر، ورأيت جندهم وأتباعهم، فما رأيت أطوع ولا أوقر ولا أهيب من أصحاب محمد لمحمد، هم حوله وكأن الطير على رءوسهم، فإن أشار بأمر، بادروا إليه، وإن توضأ، اقتسموا وضوءه، وإن تنخم دلكوا بالنخامة وجوههم ولحاهم وجلودهم.»

وكانوا له بعد موته أطوع منهم في حياته، حتى لقد قال بعض أصحابه: «لا تسبوا أصحاب محمد، فإنهم أسلموا من خوف الله، وأسلم الناس من خوف أسيافهم».

فتأمل كيف استفتح دعوته – وهو ضعيف وحده – بأن هذا سيكون، فرآه العدو والولي، وما كان مثله في ذلك إلا مثل من قال: «هذه الهباءة تصير جبلا يغطى الأرض كلها» ثم أنذر الناس بها، في حال ضعفها!

العبدريّ والنبي

وَجاءَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَوْماً ، لِيَدْخُلَ الْكَعْبَةَ ، فَدَفَعَهُ « عُثْمَانَ ابنُ طَلْحَةَ الْعَبْدَرِيُّ » فَقَالَ : « لاَ تَفعَلْ يا عُثْمَانُ ، فَكَأَنَّكَ بِمِفْتَاحِهَا بِيَدِي ، أَضَعُهُ حَيْثُ شِئْتُ » فَقَالَ : « لَقَدْ ذَلَّتْ يَوْمَئِذٍ قُرَيْشٌ وَقَلَّتْ » قَالَ : « بَلْ كَثُرَتْ وَعَزَّتْ » .

مساوئ الدنيا

وَأَنَا أَسْتَعِينُ بِعِصْمَةِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ ، وَأَجْعَلُهُمَا مُعِينَتَيَّ عَلَى دَفْعِ شَهَوَاتِي ، وَأَشْكُو إِلَيْهِ عُكُوفِي عَلَى الْأَمَانِي ، وَأَسْأَلُهُ فَهْماً لِمَوَاعِظِ عِبَرِ الدُّنْيَا ، فَقَدْ عَمِيتُ عَنْ كُلُومِ غَيْرِهَا بِمَا جَشَمَ[1] عَلَى خَوَاطِرِي مِنَ الشَّغَفِ ، وَلَسْتُ أَجِدُ مِنِّي مُنْصِفاً لِي مِنْهَا ، وَلاَ حَاجِزاً لِرَغْبَتِي فِيهَا عَنْهَا ، وَأَيْنَ وَدَائِعُ الْعُقُولِ ، وَخَزَائِنُ الْأَفْهَامِ ؟

يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ! صَفَحْنَا عَنْ مَسَاوِئِ الدُّنْيَا إِغْمَاضاً لِعَاجِلِ مُوَفَّقِ التَّنْغِيصِ ، تَرْمِي إِلَيْهِ يَدُ الزَّوَالِ ، وَتَكْمُنُ لَهُ الْآفَاتُ !

قَالَ كُثَيِّرٌ :

« كَأَنِّي أُنَاجِي صَخْرَةً — حِينَ أَعْرَضَتْ —
مِنَ الصُّمِّ ، لَوْ تَمْشِي[2] بِهَا الْعُصْمُ زَلَّتِ »

وَأَقُولُ عَلَى مَذْهَبِ « كُثَيِّرٍ » : « يَا دُنْيَا ! فِي كُلِّ لَحْظَةٍ لِطَرْفِي مِنْكِ عِبْرَةٌ ، وَفِي كُلِّ فِكْرَةٍ لِي مِنْكِ حَسْرَةٌ . يَا مُرَنِّقَةَ الصَّفَا ، وَيَا نَاقِضَةَ عَهْدِ الْوَفَا !

---

(١) فى الأصل : جشم وفى اللغة الجشم : الثقل ، فلعله فعل منه ، أى ما ثقل على خواطرى . أو لعل الصواب ما أثبتناه (٢) فى الأصل : تحشى . ويروى : العيس ، مكان : العصم .

مَا وُفِّقَ – لَحْظَةً – مِنْ عَرَجَ نَحْوَكِ ، وَلاَ سَعِدَ مَنْ آثَرَ الْمُقَامَ عَلَى حُسْنِ الظَّنِّ بِكِ ! هَيْهَاتَ يَا مَعْشَرَ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا ! أَلَكُمْ فِي الظَّاهِرِ اسْمُ « الْغِنَى » وَفِي الْبَاطِنِ : أَهْلُ التَّقَلُّلِ لَهُمْ نَفْسُ هَذَا الْمَعْنَى .

كل صفاء إلى كدر

كَمْ مِنْ يَوْمٍ لِي أَغَرَّ كَثِيرِ الأَهِلَّةِ ، قَدْ أَصْحَتْ سَمَاؤُهُ ، وَامْتَدَّ عَلَيَّ ظِلُّهُ ، تُمِدُّنِي سَاعَاتُهُ بِالْمُنَى ، وَيَضْحَكُ لِي بِهَا عَنْ كُلِّ مَا أَهْوَى ، حَتَّى إِذَا اتَّصَلَ بِكُلِّ أَسْبَابِي ، وَامْتَزَجَ سُرُورُهُ بِفَرَحِي وَرُوحِي وَأَتْرَابِي ، نَفِسَتْ عَلَيَّ بِهِ الدُّنْيَا ؛ فَسَعَتْ بِالتَّشْتِيتِ إِلَى أُلْفَتِهِ ، وَالنَّقْصِ إِلَى مُدَّتِهِ ، فَكَسَفَتْ بَهْجَتَهُ كُسُوفًا ، وَأَرْهَقَتْ نَضْرَتَهُ وَحْشَةَ[1] الْفِرَاقِ ، وَقَطَّعَتْنَا فِرَقًا فِي الآفَاقِ – بَعْدَ أَنْ كُنَّا كَالأَعْضَاءِ الْمُؤْتَلِفَةِ ، وَالأَغْصَانِ اللَّدْنَةِ الْمُنْعَطِفَةِ .

حسرة وندم

وَاحَسْرَتِي فِي يَوْمِ يَجْـ ـمَعُ شِرَّتِي[2] كَفَنٌ وَلَحْدُ
ضَيَّعْتُ مَا لاَ بُدَّ مِنْهُ بِالَّذِي لِي مِنْـــهُ بُدُّ

وَأُنْشِدُ قَوْلَ ابْنِ الرُّومِيِّ :

أَلاَ لَيْسَ شَيْبُكَ بِالْمُنْتَزَعْ فَهَلْ أَنْتَ عَنْ غَيِّهِ مُرْتَدِعْ ؟[3]

فَأَقْلَقُ وَأَبْكِي بُكَاءً غَيْرَ نَافِعٍ ، وَلاَ نَاجِعٍ . وَيَجِبُ أَنْ أَبْكِيَ عَلَى بُكَائِي . وَأُنْشِدَ :

---

(١) في الأصل : وحشته (٢) الشرة : النشاط وعنفوان القوة والجلد (٣) ارجع الى ص ٣٨

لِسَانِي يَقُولُ ، وَلاَ أَفْعَلُ   وَقَلْبِي يُرِيدُ ، وَلاَ أَعْمَلُ
وَأَعْرِفُ رُشْدِي ، وَلاَ أَهْتَدِي   وَأَعْلَمُ — لَـٰكِنَّنِي أَجْهَلُ

الخمـــر

عَرَضَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّاسِ كَأْسَ خَمْرٍ ، فَامْتَنَعْتُ مِنْهَا ، وَقُلْتُ : « خَلُّونِي وَالْمَطْبُوخَ عَلَى مَذْهَبِ الشَّيْخِ الْأَوْزَاعِيِّ » وَقُلْتُ لَهُمْ : « عَرَضَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ خَازِمٍ الْخَمْرَةَ ، فَامْتَنَعَ وَأَنْشَدَ :

أَبَعْدَ شَيْبِي أَصْبُو   وَالشَّيْبُ لِلْجَهْلِ حَرْبُ
سِنٌّ وَشَيْبٌ وَجَهْلٌ   أَمْرٌ لَعَمْرُكَ صَعْبُ
يَابْنَ الإِمَامِ فَأَلاَّ   أَيَّامَ عُودِي رَطْبُ[1] ؟
وَإِذْ مَشِيبِي قَلِيلٌ   وَمَنْهَلُ الْحُبِّ عَذْبُ
وَإِذْ شِفَاءُ الْغَوَانِي   مِنِّي حَدِيثٌ وَقُرْبُ
فَالْآنَ — لَمَّا رَأَى بِي الْـ   ـعُذَّالُ مَا قَدْ أَحَبُّوا
وَآنَسَ الرُّشْدَ مِنِّي   قَوْمٌ — أُعَابُ وَأَصْبُو ؟
آلَيْتُ أَشْرَبُ خَمْراً   مَا حَجَّ لِلَّهِ رَكْبُ[2] »

---

(١) ألا بمعنى « فهلا » وفى الأصل : يا ابن إمام (٢) « آليت أشرب » أى : لا أشرب . وفى كتاب الله : تالله تفتأ تذكر يوسف . أى : لا تفتأ ، والقسم الذى يراد به الاثبات لا بد أن يكون جوابه مؤكداً بالنون أو اللام عند قوم ، أو بهما عند قوم آخرين . فاذا خلا الجواب منهما كان ذلك قرينة أن القسم على النفى لا على الاثبات . فان قلت : والله أكرهك . كان المعنى : لا أكرهك ... !

وأقبلت على نفسي مخاطباً، ولها معاتباً، والخطاب لغيرها، والمعنى لها: «لقد أمهلكم، حتى كأنه أهملكم؛ أما تستحيون من طول ما لا تستحيون؟ فكن كالوليد: تقلبه يد اللطف به، على فراش العطف عليه، تصرف إليه المنافع بغير طلب منه، لصغره، وتصرف عنه المضار بغير حذر منه، لعجزه. أما سمعت الرسول عليه الصلاة والسلام، إذ يقول في دعائه: «اللهم اكلأني كلاءة الوليد، الذي لا يدري ما يراد به ولا ما يريد. ألا متعلق والأذيال[1] أذيال دليله؟ ألا معد مطية ورحلا ليوم رحيله؟ يا هياه[2] الدلجة[3] الدلجة! إنه من لم يسبق إلى الماء يظمأ. إنما منعتك ما تشتهي ضنا بك، وغيرة عليك. قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «إذا أحب الله عبدا حماه الدنيا، وأنت تشكوني إذا حميتك، وتكره صيانتي إذا صنتك، ألا لائذ بفنائنا ليعز؟ ألا فار إلينا، لا فار منا؟ يا من له بد من كل شيء، ارحم من لا بد له منك على كل حال. الله يغني بشيء عن شيء، وليس يغني عنه بشيء. فلهذا قال جبريل للخليل: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. الله يستحق أن يسأل وإن أغنى، لأنه لا يغني بشيء عنه[4]. أطعه لتطيعه، ولا تطعه ليطيعك، فتفتر وتمل. من ترك تدبيره لتدبيرنا أرحناه.

جل من لوالب القلوب والهمم بيده، وعزائم الأحكام والأقسام عنده.

---

(١) في الأصل «والأذلال أذيال دليله» (٢) في الأصل: يا هلاه. ولعل الصواب ما أثبتناه. ويا هياه: بمعنى: أقبل. أو لعلها: يا هناه، أي: يا رجل. (٣) الدلجة: السير من أول الليل. والمراد: المبادرة بالسير. (٤) المعنى: ان الانسان مهما عظم غناه لا يستغني عن سؤال الله، لأنه دائما محتاج إليه. والله لا يغني أحداً عنه البتة.

« أنسيتَ ذِكْرَ أحِبَّـةٍ يَنْسَوْنَ ذنبكَ – عِنْدَ ذِكْرِكْ
وَجَفَـوْتَهُمْ ، وَلَطَالَمَا كَانُوا – خِلَافَكَ – طَوْعَ أمْرِكْ
وَصَبَرْتَ عِنْـدَ فِرَاقِهِمْ ، مَا كَانَ عُذْرُكَ عِنْدَ صَبْرِكَ ؟

*
* *

تترُكُ مَنْ إذَا جفوتَهُ ، وَنَسِيتَ ذِكْرَه ، وَتَعَدَّيْتَ حَدَّهُ ، وَتَرَكْتَ نَهْيَهُ ، وَضَيَّعْتَ أَمْرَهُ – وَتُبْتَ إليْهِ ، وَعَوَّلْتَ فِى تفضُّلِهِ عَلَيْكَ عَليْهِ ، وَقُلْتَ : « يَارَبِّ ! » قال لكَ : « لبَّيْك » (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ) إن كَانَ الذُّبَابُ بِوَجْهِك فَأَتَّهِمُكَ ، وَإِنْ قَطَعْتُ أَنَا أَعْضَاءَكَ فَلَا تَتَّهِمْنِى ، أَنْتَ الَّذِى إذَا أَعْطَيْتُكَ مَا أَمَّلْتَ ، تَرَكْتَنِى وَانْصَرَفْتَ . (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ) يَا وَاقِفاً بِالتُّهَمِ : كَمْ كَمْ ؟

أليْسَ يَقُولُ لكَ : « مَا غَرَّكَ بى » فتَقُولَ : « حِلْمُكَ ، وَإلاَّ لَوْ أرْسَلْتَ عَلَىَّ بَقَّةً جَمَعَتْنِى عَلَيْكَ ، إذْ أَرَدْتَ أَنْ تَجْمَعَنِى »

أمِنْ بَعْدِ شُرْبِكَ كَأسَ النُّهَى وَشَمِّكَ رَيْحَانَ أهْلِ التُّقَى
عَشِقْتَ فَأَصْبَحْتَ فِى الْعَاشِقِيـ ـنَ أشْهَرَ مِنْ فَرَسٍ أبْلَقَا
أَدُنْيَايَ – مِنْ غَمْرِ بَحْرِ الْهَوَى – خُذِى بِيَدِى ، قَبْلَ أَنْ أغْرَقَا
أنَا لَكِ عَبْدٌ ، فَكُونِى كَمَنْ – إذَا سَرَّهُ عَبْدُهُ – أعْتَقَا

ميتة فاذوه[1]

كَانَ بِبَغْدَادَ رَجُلٌ كَبِيرُ الرَّأْسِ ، فِيلِىُّ الأُذُنَيْنِ ، اسْمُهُ « فاذوه » رَأْسُهُ فِى الأَزْمِنَةِ الأَرْبَعَةِ مَكْشُوفٌ ، لاَ يَتَوَرَّعُ عَنْ رُكُوبِ مُخْزِيَةٍ ، يُقَالُ لَهُ : « يا فاذوه ! وَيْلَك

(١) اقرأ ص ٣١٣ ج ٣

تُبْ إلى اللهِ » فيقولُ : « يا قَوْمِ ! لِمَ تدْخُلونَ بَيْني وَبَيْنَ مَوْلاى ، وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ » فَكانَ فِي بَعْضِ الشَّوارِعِ يَوْماً ذاهِباً ، وَالشَّارِعُ قَدِ اتَّسَعَ أَسْفَلُهُ وَضاقَ أَعْلاهُ ، وَالْتَقَى جَناحانِ فِيهِ ، فَناوَلَتْ جارَةٌ جارَتَها مِهْراسًا انْسَلَّ مِنْ يَدِها عَلَى رَأْسِ « فاذوه » فَهَرَسَ رَأْسَهُ ، وَخَلَطَ كَخَلْطِ الْهَرِيسَةِ ، وَأَعْجَلَهُ عَنِ التَّوْبَةِ .

وَكانَ لَنا واعِظٌ صالِحٌ يَقُولُ لَنا : « احْذَرُوا مِيتَةَ فاذوه »

قالَ جِبْرِيلُ فِي حَدِيثِهِ : «خَشِيتُ أَنْ يُتِمَّ فِرْعَونُ الشَّهادَةَ والتَّوْبَةَ ، فَأَخَذْتُ قِطْعَةً مِنْ حالِ الْبَحْرِ ، فَضَرَبْتُ بِها وَجْهَهُ »

يَعْنِي : طِينَةً . والْحالُ يَنْقَسِمُ ثَمانِيَةَ أَقْسامٍ ، مِنْها الطِّينُ[1] .

فَكَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ عِنْدَهُ أَنَّ التَّوْبَةَ لا تَصِحُّ مِنْ ذَنْبٍ مَعَ الْإِقامَةِ عَلَى آخَرَ ؟ فَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ . . . .

بدء التعارف

بَلَغَنِي عَنْ مَوْلاىَ الشَّيْخِ — أَدامَ اللهُ تَأْيِيدَهُ — أَنَّهُ قالَ وَقَدْ ذُكِرْتُ لَهُ : « أَعْرِفُهُ جِدًّا[2] ، هُوَ الَّذِى هَجا أَبا الْقاسِمِ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ الْمَغْرِبِيَّ » فَذلِكَ مِنْهُ — أَدامَ اللهُ عِزَّهُ — رائِعٌ لِى ، خَوْفاً أَنْ يَسْتَشِرَّ طَبْعِى ، وَأَنْ يَتَصَوَّرَنِي بِصُورَةِ مَنْ يَضَعُ الْكُفْرَ ، مَوْضِعَ الشُّكْرِ . وَهُوَ بِتَعْرِيفِ التَّنْكِيرِ

(١) يريد أن من معانى الحال : الطين . ومعانيه عنده ثمانية . وفى المعجمات منها أكثر من ذلك فالحال : العجلة التى يدب عليها الصبي . والرماد الحار . والكساء يحتشى فيه . وموضع اللبد من الفرس . والزوجة ، وما تحمله على ظهرك . وكينة الانسان وهو ما كان عليه من خير وشر . والوقت الذى أنت فيه . واللبن . وورق السمر يخبط وينفض فى ثوب ... الخ ... (٢) فى الأصل : جزا . ولعل الصواب ما أثبتناه . أو لعل جزا محرفة عن : « هذا » . فيكون الكلام : أعرفه ، هذا هو ... الخ

أنفعُ لى عِنْدَهُ ، لِجلالَةِ قَدْرِهِ وَدِينِهِ وَنُسُكِهِ . وَأنَا أُطْلِعُهُ طِلْعَهُ ، لِيَعْرِفَ خَفْضَهُ وَرَفْعَهُ ، وَفُرَادَاهُ وَجَمْعَهُ .

ترجمة ابن القارح[1]

دراسته وأساتذته

كُنْتُ أَدْرُسُ عَلَى أَبِى عَبْدِ اللهِ بنِ خَالَوَيْهِ — رَحِمَهُ اللهُ — وَأَخْتَلِفُ إلى دَارِ أبِى الحَسَنِ[2] المَغْرِبِىِّ ؛ وَلَمَّا مَاتَ ابْنُ خَالَوَيْهِ ، سَافَرْتُ إلى بَغْدَادَ ، وَنَزَلْتُ عَلَى أَبِى عَلِىٍّ الفَارِسِىِّ . وَكُنْتُ أَخْتَلِفُ إلى عُلَماءِ بَغْدَادَ : إلى أَبِى سَعِيدٍ السِّيرَافِىِّ ، وَعَلِىِّ بْنِ عِيسَى الرُّمَّانِىِّ ، وَأَبِى عُبَيْدِ اللهِ المَرْزُبَانِىِّ ، وَأَبِى حَفْصٍ الكَتَّانِىِّ صَاحِبِ أَبِى بَكْرِ بْنِ مُجَاهِدٍ . وَكَتَبْتُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم .

وَبَلَّغْتُ نَفْسِى أَغْرَاضَها جَهْدِى ، وَالجُهْدُ عَاذِرٌ

سفره إلى مصر

مقابلة أبى الحسن المغربى

ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إلى مِصْرَ ، وَلَقِيتُ أَبَا الحَسَنِ المَغْرِبِىَّ ، فَأَلْزَمَنِى أَنْ لَزِمْتُهُ لُزُومَ الظِّلِّ ، وَكُنْتُ مِنْهُ مَكَانَ المِثْلِ ، فِى كَثْرَةِ الإنْصَافِ ، وَالحُنُوِّ وَالتَّصَافِ[3] . فَقَالَ لى سِرًّا : « أنا أَخَافُ هِمَّةَ أَبِى القَاسِمِ أَنْ تَنْزُوَ بِهِ إلى أَنْ يُورِدَنَا وِرْدًا لا صَدَرَ عَنْهُ . وَإنْ كَانَتِ الأنْفَاسُ مِمَّا يُكْتَبُ وَيُحْفَظُ ، فَاكْتُبْهَا وَاحْفَظْهَا ، وَطَالِعْنِى بِهَا » فَقَالَ لِى[4] يَوْمًا : « مَا نَرْضَى بِالخُمُولِ الَّذِى نَحْنُ فِيهِ »

---

(١) انظر ج ٣ ص ٣١٣ (٢) فى الأصل : أبى الحسين (٣) فى الأصل : التجاف
(٤) الذى قال له هو أبو القاسم ، ولد أبى الحسن المغربى ، وانظر ترجمته ص ٥٣٠

فَقُلْتُ : « وَأَىُّ خُمُولٍ هُنَا ؟ تَأْخُذونَ مِنْ مَوْلَانَا — خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ — فِي كُلِّ سَنَةٍ سِتَّةَ آلَافِ دِينَارٍ ، وَأَبُوكَ مِنْ شُيُوخِ الدَّوْلَةِ ، وَهُوَ مُعَظَّمٌ مُكَرَّمٌ » فَقَالَ : « أُرِيدُ أَنْ تَصَارَ إِلَى أَبْوَابِنَا الْكَتَائِبُ وَالْمَوَاكِبُ وَالْمَقَانِبُ ، وَلَا أَرْضَى بِأَنْ يُجْرَى عَلَيْنَا كَالْوِلْدَانِ وَالنِّسْوَانِ » فَأَعَدْتُ ذَلِكَ عَلَى أَبِيهِ ، فَقَالَ : « مَا أَخْوَفَنِي أَنْ يَخْضِبَ أَبُو الْقَاسِمِ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ » وَقَبَضَ عَلَى لِحْيَتِهِ وَهَامَتِهِ .

وَعَلِمَ أَبُو الْقَاسِمِ بِذَلِكَ ؛ فَصَارَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَقْفَةٌ !

وَأَنْفَذَ إِلَيَّ الْقَائِدُ أَبُو عُبَيْدِ اللهِ الْحُسَيْنُ بْنُ جَوْهَرٍ ، فَشَرَّفَنِي بِشَرِيفِ خِدْمَتِهِ ، فَرَأَيْتُ الْحَاكِمَ كُلَّمَا قَتَلَ رَئِيساً ، أَنْفَذَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ ، وَقَالَ : « هَذَا عَدُوِّي وَعَدُوُّكَ يَاحُسَيْنُ » فَقُلْتُ : « مَنْ يُرِ يَوْماً ، يُرَ بِهِ ؛ وَالدَّهْرُ لَا يُغْتَرُّ بِهِ » وَعَلِمْتُ أَنَّهُ كَذَا يُفْعَلُ بِهِ

حجج ابن القارح

فَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي الْحَجِّ ؛ فَأَذِنَ ، فَخَرَجْتُ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ[1] ، وَحَجَجْتُ خَمْسَةَ أَعْوَامٍ[2] .

عودته إلى مصر ثم هربه

وَعُدْتُ إِلَى مِصْرَ — وَقَدْ قَتَلَهُ[3] — فَجَاءَنِي أَوْلَادُهُ سِرًّا ، يَرُومُونَ الرُّجُوعَ إِلَيْهِمْ ، فَقُلْتُ لَهُمْ : « خَيْرُ مَا لِي وَلَكُمُ الْهَرَبُ ، وَلِأَبِيكُمْ بِبَغْدَادَ وَدَائِعُ : خَمْسُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ، فَاهْرُبُوا وَأَهْرُبُ » فَفَعَلُوا وَفَعَلْتُ .

(١) هنا سقط ، وتمام الكلام : «سبع وتسعين وثلاثمائة» فلقد ولد ابن القارح فى منتصف المائة الرابعة

(٢) انظر « ج ٣ ص ٣١٤ » (٣) أى أن الحاكم قتل والد أبى القاسم

وَبلَغَنِي قَتْلُهُمْ بدِمَشْقَ — وَأَنَا بطَرَابُلسَ — فَدَخَلْتُ إِلَى أَنْطَاكِيَة ، وَخَرَجْتُ مِنْهَا إِلَى مَلَطْيَة ، وَبِهَا الْمَايِسْطْرِيَّة خَوْلَةُ بنْتُ سَعْدِ الدَّوْلَةِ . فَأَقَمْتُ عِنْدَهَا إِلَى أَنْ وَرَدَ عَلَيَّ كِتَابُ أَبِي الْقَاسِمِ ، فَسِرْتُ إِلَى مَيَّافَارِقِينَ . فَكَانَ يُسِرُّ حَسْواً فِي ارْتِغَاء[1] فَقَالَ لِي يَوْماً مِنَ الأَيَّامِ : « مَا رَأَيْتُكَ ؟ » قُلْتُ : « أَعَرَضَتْ حَاجَةٌ ؟ » قَالَ : « لَا ، أَرَدْتُ أَنْ أَلْعَنَكَ ! » قُلْتُ : « فَالْعَنِّي غَائِباً » قَالَ : « لَا ، فِي وَجْهِكَ أَشْفَى » قُلْتُ : « وَلِمَ ؟ » قَالَ : « لِمُخَالَفَتِكَ إِيَّايَ فِيمَا تَعْلَمُ ! » .

*
* *

وَقُلْتُ لَهُ — وَنَحْنُ عَلَى أُنْسٍ بَيْنِي وَبَيْنَهُ — : « لِي حُرُمَاتٌ ثَلَاثٌ : الْبَلَدِيَّةُ ، وَتَرْبِيَةُ أَبِيهِ لِي ، وَتَرْبِيَتِي لِإِخْوَتِهِ » . قَالَ : « هَذِهِ حُرَمٌ مُهَتَّكَةٌ ، الْبَلَدِيَّةُ نَسَبٌ بَيْنَ الْجُدْرَانِ ؛ وَتَرْبِيَةُ أَبِي لَكَ ، مِنَّةٌ لَنَا عَلَيْكَ ؛ وَتَرْبِيَتُكَ لِإِخْوَتِي ، بِالْخِلَعِ وَالدَّنَانِيرِ » — أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ لَهُ : « اسْتَرَحْتَ مِنْ حَيْثُ تَعِبَ الْكِرَامُ » فَخَشِيتُ جُنُونَ جُنُونِهِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ جُنُونُهُ مَجْنُوناً ، وَأَصَحُّ مِنْهُ مَجْنُونٌ ، وَأَجَنُّ مِنْهُ لَا يَكُون . وَقَدْ أُنْشِدُ :

جُنُونُكَ مَجْنُونٌ وَلَسْتَ بِوَاجِدٍ طَبِيباً يُدَاوِي مِنْ جُنُونِ جُنُونِ

بَلْ جُنَّ جَنَانُه ، وَرَقَصَ شَيْطَانُه :

بِهِ جِنَّـــةٌ مَجْنُونَةٌ غَيْرَ أَنَّهَا إِذَا حَصَلَتْ مِنْهُ أَلَبُّ وَأَعْقَلُ

*
* *

وَقَالَ لِي لَيْلَةً : « أُرِيدُ أَنْ أَجْمَعَ أَوْصَافَ الشَّمْعَةِ السَّبْعَةَ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ ، وَلَيْسَ يَسْنَحُ لِي مَا أَرْضَاهُ » فَقُلْتُ : « أَنَا أَفْعَلُ مِنْ هَذِهِ السَّاعَةِ » قَالَ : أَنْتَ جُذَيْلُهَا

(١) هذا مثل ، ومضربه فيمن يظهر أمراً ويبطن سواه .

الْمُحَكَّكُ، وَعُذَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ » فَأَخَذْتُ الْقَلَمَ مِنْ دَوَاتِهِ، وَكَتَبْتُ بِحَضْرَتِهِ:

لَقَدْ أَشْبَهَتْنِى شَمْعَةٌ فِى صَبَابَتِى … وَفِى هَوْلِ مَا أَلْقَى وَمَا أَتَوَقَّعُ:
نُحُولٌ، وَحَرْقٌ، فِى فَنَاءٍ، وَوَحْدَةٌ … وَتَسْهِيدُ عَيْنٍ، وَاصْفِرَارٌ، وَأَدْمُعُ

فَقَالَ: « كُنْتَ عَمِلْتَ هَذَا قَبْلَ هَذَا الْوَقْتِ؟ » فَقُلْتُ: « تَمْنَعُنِى سُرْعَةَ الْخَاطِرِ، وَتُعْطِينِى عِلْمَ الْغَيْبِ؟ » وَقُلْتُ: « أَنْتَ ذَاكِرٌ قَوْلَ أَبِيكَ لِى وَلَكَ وَلِلْبَبَّىِّ الشَّاعِرِ، وَلِمُحْسِنٍ الدِّمَشْقِىِّ، وَنَحْنُ فِى الطَّارِمَةِ[1]: اعْمَلُوا قِطْعَةً قِطْعَةً. فَمَنْ جَوَّدَ جَعَلْتُ جَائِزَتَهُ كَتْبَهَا فِيهَا. فَقُلْتُ:

بَلَغَ السَّمَاءَ سُمُوُّ بَيْـ … ـتٍ شِيدَ فِى أَعْلَى مَكَانْ
بَيْتٌ عَلَا حَتَّى تَوَا … رَى فِى ذُرَاهُ الْفَرْقَدَانْ
فَانْعَمْ بِهِ، لَا زِلْتَ مِنْ … رَيْبِ الْحَوَادِثِ فِى أَمَانْ

فَاسْتَجَادَ سُرْعَتَهَا، وَكَتَبَهَا فِى الطَّارِمَةِ، وَخَلَعَ عَلَىَّ.

بين المغربى وابن القارح

وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ مَلُولاً، وَالْمَلُولُ رُبَّمَا مَلَّ الْمَلَالَ، وَكَانَ لَا يَمَلُّ أَنْ يَمَلَّ، وَيَحْقِدُ حِقْدَ مَنْ لَا تَلِينُ كَبِدُهُ، وَلَا تَنْحَلُّ عُقَدُهُ. وَقَالَ لِى بَعْضُ الرُّؤَسَاءِ مُعَاتِبًا: « أَنْتَ حَقُودٌ، وَلَمْ يَكُنْ حَقُودًا ». فَقُلْتُ لَهُ: « أَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ، وَاللهِ مَا كَانَ يُخْشَى عُودُهُ، وَلَا تُرْجَى عُودُهُ، وَلَهُ رَأْىٌ يُزَيِّنُ لَهُ الْعُقُوقَ، وَيُعَقِّتُ إِلَيْهِ رِعَايَةَ الْحُقُوقِ؛ بَعِيدٌ مِنَ الطَّبْعِ الَّذِى هُوَ لِلصَّدِّ صَدُودٌ، وَلِلتَّآلُفِ أَلُوفٌ

(١) بيت من خشب كالقبة.

وَدُود؛ كَأَنَّهُ مِنْ كِبْرِهِ قَدْ رَكِبَ الْفَلَكَ، وَاسْتَوَى عَلَى ذَاتِ الْحُبُكِ[1]؛ وَلَسْتُ مِمَّنْ يَرْغَبُ فِي رَاغِبٍ عَنْ وُصْلَتِهِ، أَوْ يَنْزَعُ إِلَى نَازِعٍ عَنْ خُلَّتِهِ».

فَلَمَّا رَأَيْتُهُ سَادِرًا جَارِيًا فِي قِلَّةِ إِنْصَافِي عَلَى غُلَوَائِهِ، مَحَوْتُ ذِكْرَهُ عَنْ صَفْحَةِ فُؤَادِي، وَاعْتَدَدْتُ وُدَّهُ فِيمَا سَالَ بِهِ الْوَادِي:

فَفِي النَّاسِ إِنْ رَثَّتْ حِبَالُكَ وَاصِلُ ... وَفِي الْأَرْضِ عَنْ دَارِ الْقِلَى مُتَحَوَّلُ

وَأَنْشَدْتُ الرَّجُلَ أَبْيَاتًا، أَعْتَذِرُ بِهَا فِي قَطْعِي لَهُ:

فَلَوْ كَانَ مِنْهُ الْخَيْرُ — إِذْ كَانَ شَرُّهُ ... عَتِيدًا — لَقُلْنَا: «إِنَّ خَيْرًا مَعَ الشَّرِّ»

وَلَوْ كَانَ — إِذْ لَا خَيْرَ — لَا شَرَّ عِنْدَهُ ... صَبَرْنَا، وَقُلْنَا: «لَا يَرِيشُ وَلَا يَبْرِي»

وَلَكِنَّهُ شَرٌّ، وَلَا خَيْرَ عِنْدَهُ ... وَلَيْسَ عَلَى شَرٍّ — إِذَا دَامَ — مِنْ صَبْرِ[2]

وَبُغْضِي لَهُ — يَشْهَدُ اللهُ — حَيًّا وَمَيْتًا، أَوْجَبَهُ أَخْذُهُ مَحَارِيبَ الْكَعْبَةِ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ؛ وَضَرْبُهَا دَنَانِيرَ وَدَرَاهِمَ، وَسَمَّاهَا: الْكَعْبِيَّةَ، وَأَنْهَبَ الْعَرَبَ الرَّمْلَةَ، وَخَرَّبَ بَغْدَادَ.

وَكَمْ دَمٍ سَفَكَ، وَحَرِيمٍ انْتَهَكَ، وَحُرَّةٍ أَرْمَلَ، وَصَبِيٍّ أَيْتَمَ.

فضل أبي العلاء

وَأَنَا مُعْتَذِرٌ إِلَى الشَّيْخِ الْجَلِيلِ مِنْ تَقْرِيظِهِ، مَعَ تَفْرِيطِي[3] فِيهِ، لِأَنَّهُ قَدْ شَاعَ فَضْلُهُ فِي جَمِيعِ الْبَشَرِ، وَصَارَ غُرَّةً عَلَى جَبْهَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ. خُلِّدَ ذَلِكَ

---

(١) ذات النجوم، يعني السماء. (٢) قال الوليد بن يزيد:

إذا لم يكن خير مع الشر، لم تجد ... نصيحاً، ولا ذا حاجة حين تفزع

وكانوا — إذا هموا بإحدى هناتهم ... حسرت لهم رأسي، فلا أتقنع

(٣) في الأصل: تقريظي

فِى بَدَائِعِ الْأَخْبَارِ ، وَكُتِبَ بِسَوَادِ اللَّيْلِ عَلَى بَيَاضِ النَّهَارِ . وَأَنَا فِى مُكَاتَبَةِ حَضْرَتِهِ بِمَنْظُومٍ وَمَنْثُورٍ ؛ كَمَنْ أَمَدَّ النَّارَ بِالشَّرَرِ ، وَأَهْدَى الضَّوْءَ إِلَى الْقَمَرِ ، وَصَبَّ فِى الْبَحْرِ جُرْعَةً ، وَأَعَارَ سَيْرَ الْفَلَكِ سُرْعَةً ، إِذْ كَانَ لَا يَحُلُّ النَّقْصُ بِوَادِيهِ ، وَلَا يَطُورُ السَّهْوُ بِنَادِيهِ . وَلَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ رَسَائِلِهِ عَقَائِلَ لَفْظٍ إِنْ نَعَتُّهَا، فَقَدْ عِبْتُهَا ، وَإِنْ وَصَفْتُهَا ، فَمَا أَنْصَفْتُهَا . وَأَطْرَبَتْنِى — يَشْهَدُ اللهُ — إِطْرَابَ السَّمَاعِ . وَبِاللهِ لَوْ صَدَرَتْ عَنْ صَدْرٍ مَنْ خِزَانَتُهُ وَكُتُبُهُ حَوْلَهُ ، يُقَلِّبُ طَرْفَهُ فِى هَذَا ، وَيَرْجِعُ إِلَى هَذَا ؛ فَإِنَّ الْقَلَمَ لِسَانُ الْيَدِ ، وَهُوَ أَحَدُ الْبَلَاغَتَيْنِ — لَكَانَ ذَلِكَ عَجِيبًا صَعْبًا شَدِيدًا . وَوَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عُلَمَاءَ مِنْهُمْ « ابْنُ خَالَوَيْهِ » إِذَا قُرِئَتْ عَلَيْهِمُ الْكُتُبُ ، وَلَا سِيَّمَا الْكِبَارُ ، رَجَعُوا إِلَى أُصُولِهِمْ كَالْمُقَابِلِينَ ، يَتَحَفَّظُونَ مِنْ سَهْوٍ وَتَصْحِيفٍ وَغَلَطٍ . وَالْعَجَبُ الْعَجِيبُ ، وَالنَّادِرُ الْغَرِيبُ ، حِفْظُهُ — أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهُ — لِأَسْمَاءِ الرِّجَالِ ، وَالْمَنْثُورِ ، كَحِفْظِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَذْكِيَاءِ الْمُبَرِّزِينَ الْمَنْظُومَ . وَهَذَا سَهْلٌ بِالْقَوْلِ ، صَعْبٌ بِالْفِعْلِ . مَنْ سَمِعَهُ طَمِعَ فِيهِ ، وَمَنْ رَامَهُ امْتَنَعَتْ عَلَيْهِ مَعَانِيهِ وَمَبَانِيهِ .

ابن خالويه وأبو الطيب اللغوى(١)

حَدَّثَنِى أَبُو عَلِىٍّ الصِّقِلِّىُّ بِدِمَشْقَ ، قَالَ : « كُنْتُ فِى مَجْلِسِ ابْنِ خَالَوَيْهِ ، إِذْ وَرَدَتْ عَلَيْهِ مِنْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ مَسَائِلُ تَتَعَلَّقُ بِاللُّغَةِ ، فَاضْطَرَبَ لَهَا ، وَدَخَلَ خِزَانَتَهُ ، وَأَخْرَجَ كُتُبَ اللُّغَةِ ، وَفَرَّقَهَا عَلَى أَصْحَابِهِ يُفَتِّشُونَهَا ، لِيُجِيبَ عَنْهَا .

(١) أنظر ج ٣ ص ٣١٥ .

وَتَرَكْتُهُ .

وَذَهَبْتُ إِلَى أَبِي الطَّيِّبِ اللُّغَوِيِّ – وَهُوَ جَالِسٌ . وَقَدْ وَرَدَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْمَسَائِلُ بِعَيْنِهَا وَ بِيَدِهِ قَلَمُ الْحُمْرَةِ – فَأَجَابَ بِهِ . وَلَمْ يُغَيِّرْهُ . قُدْرَةً عَلَى الْجَوَابِ .

وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ : قَرَأْتُ عَلَى أَبِي عُمَرَ[1] « الْفَصِيحَ » وَ « إِصْلَاحَ الْمَنْطِقِ » حِفْظًا . وَقَالَ لِي أَبُو عُمَرَ[1] : كُنْتُ أُعَلِّقُ اللُّغَةَ عَنْ ثَعْلَبٍ عَلَى خَزَفٍ . وَأَجْلِسُ عَلَى دِجْلَةَ ، أَحْفَظُهَا وَأَرْمِي بِهَا » .

حافظة ابن القارح

وَأَنَا تَعِبْتُ ، وَحَفِظْتُ نِصْفَ عُمْرِي ، وَنَسِيتُ نِصْفَهُ ، وَذَاكَ أَنِّي دَرَسْتُ بِبَغْدَادَ ، وَخَرَجْتُ عَنْهَا ، وَأَنَا طَرِيُّ الْحِفْظِ ، وَمَضَيْتُ إِلَى مِصْرَ ، فَأَمْرَحْتُ[2] نَفْسِي فِي الْأَغْرَاضِ الْبَهِيمِيَّةِ وَالْأَعْرَاضِ الْمَأْثَمِيَّةِ[3] ، وَأَرَدْتُ – بِزَعْمِي وَخَدِيعَةِ الطَّبْعِ الْمُلِيمِ – أَنْ أُذِيقَهَا حَلَاوَةَ الْعَيْشِ ، كَمَا صَبَرْتُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، وَنَسِيتُ أَنَّ الْعِلْمَ غِذَاءُ النَّفْسِ الشَّرِيفَةِ ، وَصَيْقَلُ الْأَفْهَامِ اللَّطِيفَةِ ، وَكُنْتُ أَكْتُبُ خَمْسِينَ وَرَقَةً فِي الْيَوْمِ ، وَأَدْرُسُ مِائَتَيْنِ ، فَصِرْتُ الْآنَ أَكْتُبُ وَرَقَةً وَاحِدَةً ، وَتَحُكُّنِي عَيْنَايَ حَكًّا مُؤْلِمًا ، وَأَدْرُسُ خَمْسَ أَوْرَاقٍ وَتَكِلُّ !

(١) هو أبو عمر المطرز المنبوذ بغلام ثعلب ، وهو صاحب كتب فى اللغة ، منها : كتاب : المداخل ، مخطوط بدار الكتب (٢) فى الأصل : أمرجت . ويمكن تخريجه (٣) فى الأصل : المؤثمية ، وتصويبه يحتاج إلى تكلف . وانظر ج ٣ ص ٣١٦

أوقات الملل والعزوف عن العلم

ثمَّ دُفِعتُ إلى أوْقاتٍ ليْسَ فِيها مَنْ يرْغبُ في علمٍ ولا أدَب ، بلْ في فِضَّةٍ وذَهَب ؛ فلوْ كُنتُ « إياسًا » صِرْتُ « باقلاً »

وأضعُ كِتاباً عنْ يميني ، وأطلُبُهُ عنْ شِمالي ، وأُريدُ — معَ ضَعْفي — [أنْ] أرْتادَ لِنفْسي معاشًا ، بظهْرٍ غيرِ ظَهير ، بلْ كسيرٍ عقير ، وصُلْبٍ غيرِ صَليب ، إنْ جلسْتُ ، فهُوَ كالدُّمَّل ؛ وإنْ مشيْتُ ، فجُمْلتي دَماميلُ !

ومَعِي بَقِيَّةٌ نَزْرةٌ يسيرةٌ ، مِنْ جُمْلةٍ كثيرةٍ — لوْ وجَدْتُ ثِقةً أعْطيْتُهُ إيَّاها ، لِيعُودَ علَيَّ بما أُرفِّهُ بِهِ جِسْمي مِنَ الحَرَكَةِ ، وقلْبي مِنَ الشُّغْلِ ، وأنا أجِدُ مَنْ أدْفعُها إليْهِ ؛ وبَقِيَ أنْ يرُدَّها إليَّ . . . . . !

فساد الثقة

دَفعَ رَجُلٌ إلى صَديقٍ لهُ جارِيةً ، أوْدعَها عِنْدَهُ ، وذَهبَ في سفَرِه ، فقالَ — بعْدَ أيَّامٍ — لِمَنْ يأْنسُ بِهِ ، وتسْكُنُ نفْسُهُ إليْهِ : « يا أخي ! ذَهبَتْ أماناتُ النَّاسِ ! أوْدعَني صَديقٌ لي جارِيةً ، في حِسابِهِ أنَّها بِكْرٌ ، جرَّبْتُها ، فإذا هِيَ ثَيِّبٌ ! »

سارقة خالها(١)

ومِنْ ظَريفِ الأخْبارِ أنَّ بِنْتَ أُخْتي سرَقَتْ لِي ثلاثةً وثمانينَ دِيناراً ، فلمَّا هدَّدَها السُّلْطانُ — أطالَ اللهُ بقاءهُ ، ومَدَّ مُدَّتَهُ ، وأدامَ سُمُوَّهُ ورِفعتَهُ — وأخْرجَتْ إليْهِ بعْضَها ، قالَتْ : « واللهِ لوْ علِمْتُ أنَّ الأمْرَ يجْري كذا كُنْتُ قتلْتُهُ »

فاعْجَبُوا مِنْ هرِيسَتي وزَبُوني !

---

(١) أنظر ج ٣ ص ٣١٧

وَوَاللهِ لَوْلَا ضَعْفِي وَعَجْزِي عَنِ السَّفَرِ، لَخَرَجْتُ إِلَيْهِ مُتَشَرِّفًا بِمُجَالَسَتِهِ وَمُحَاضَرَتِهِ، فَأَمَّا مُذَاكَرَتُهُ فَقَدْ يَئِسْتُ مِنْهَا، لِمَا قَدِ اسْتَوْلَى عَلَيَّ [مِنَ] النِّسْيَانِ، وَاحْتَوَى عَلَى قَلْبِي مِنَ الْهُمُومِ، وَإِلَى اللهِ الشَّكْوَى لَا مِنْهُ.

وَلَيْسَ يَحْسُنُ أَنْ أَشْكُوَ مَنْ يَرْحَمُنِي، إِلَى مَنْ لَا يَرْحَمُنِي. وَلَيْسَ بِحَكِيمٍ مَنْ شَكَا رَحِيمًا إِلَى غَيْرِ رَحِيمٍ!

أبو بكر الشبلي (١)

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الشِّبْلِيُّ يَقُولُ: «لَيْسَ غَيْرَ اللهِ غَيْرٌ، وَلَا عِنْدَ غَيْرِ اللهِ خَيْرٌ» وَقَالَ يَوْمًا: «يَا جَوَادُ؟» ثُمَّ أَمْسَكَ مُفَكِّرًا، وَرَفَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ قَالَ: «مَا أَوْقَحَنِي! أَقُولُ لَكَ «يَا جَوَادُ» وَقَدْ قِيلَ فِي بَعْضِ عَبِيدِكَ:

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ ... لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُهْ

وَقَدْ قِيلَ فِي آخَرَ:

تَرَاهُ - إِذَا [مَا] جِئْتَهُ - مُتَهَلِّلًا ... كَأَنَّكَ مُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ»

ثُمَّ قَالَ: «بَلَى! أَقُولُ: يَا جَوَادًا فَاقَ كُلَّ جَوَادٍ، وَبِجُودِهِ جَادَ مَنْ جَادَ!»

ابن السماك والرشيد

وَدَخَلَ ابْنُ السَّمَّاكِ عَلَى الرَّشِيدِ: فَقَالَ لَهُ «عِظْنِي» - وَفِي يَدِ الرَّشِيدِ كُوزُ مَاءٍ - فَقَالَ: - «مَهْلًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَرَأَيْتَ إِنْ أَقْدَرَ اللهُ عَلَيْكَ مُقْدِرًا، فَقَالَ: «لَنْ أُمَكِّنَكَ مِنْ شُرْبِهِ إِلَّا بِنِصْفِ مُلْكِكَ.» أَكُنْتَ فَاعِلًا ذَلِكَ؟»

---

(١) انظر «ج ٣ ص ٣٢٤»

قَالَ « نعمْ » قَالَ : « اشْرَبْ — هَنَّأَكَ اللهُ » فلمَّا شَرِبَ ، قَالَ : « أرَأَيْت يَا أمِيرَ المْؤْمِنِينَ ، أنْ لوْ أُسْقِيتَ نَفْسَ هذا [مِنَ] المُقْدَرِ عليك[1] ، فقَالَ : « لَنْ أُمْكِنَكَ مِنْ إخْرَاجِ هَذَا الْكُوزِ إلاَّ بأنْ أسْتَبِدَّ بِمُلْكِكَ دُونَكَ . أكُنْت فَاعِلًا ذَلِكَ ؟ » قَالَ : « نعمْ » قَالَ : « فَاتَّقِ اللهَ فِي مُلْكٍ لا يُسَاوِي إلاَّ بَوْلَةً ! »

نعم الله وآلاؤه

وَكَيْفَ أشْكُو مَنْ قَاتَنِي وَعَالَنِي ، نَيِّفًا وَسَبْعِينَ سَنَةً ؟ كَانَ قَمِيصِي ذِرَاعَيْنِ ، فوَكَّلَ بِي وَالِدَيْنِ حَدِبَيْنِ مُشْفِقَيْنِ ، يَتَنَاهَيَانِ فِي دِقَّةٍ وَرِقَّةٍ وَطِيبَةٍ[2] .

فَلَمَّا صَارَ اثْنَيْ عَشَرَ ذِرَاعًا ، تَوَلاَّهُ هُوَ وَطَعَامِي ، فَمَا أجَاعَنِي قَطُّ وَلاَ أعْرَانِي . « وَالذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ » خَاطَبَ[3] رَبَّهُ بِالأدَبِ فَقَالَ : « وَإذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » فَنَسَبَ الْمَرَضَ إلَى نَفْسِهِ ، لِأنَّهَا تَنْفِرُ مِنَ الأعْرَاضِ وَالأمْرَاضِ . وَكُلُّ شَيْءٍ يَطْرَأُ عَلَى الإنْسَانِ لاَ يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهِ ، مِثْلُ النَّوْمِ وَالْيَقَظَةِ ، والضَّحِكِ وَالبُكَاءِ ، وَالْغَمِّ وَالسُّرُورِ ، والخِصْبِ وَالْجَدْبِ ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ . فَهُوَ مِنْهُ — تَقَدَّسَتْ أسْمَاؤُهُ — ألاَ تَرَى أنَّهُ لاَ يَتَوَعَّدُ عَلَى فِعْلِهِ ، وَلاَ يُعَاقِبُ عَلَيْهِ . وَمَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهِ ، فَهُوَ مِنْهُ ، مِثْلُ أنْ يُرِيدَ الْكِتَابَةَ فَلاَ يَقَعُ مِنْهُ الْبِنَاءُ ، وَيُرِيدُ الْبِنَاءَ ، فَلاَ تَقَعُ مِنْهُ الْكِتَابَةُ . وَمَنْ بِهِ الرَّعْشَة لاَ يَقْدِرُ عَلَى إمْسَاكِ يَدِهِ ، وَمَنْ لَيْسَتْ بِهِ يَقْدِرُ على إمْسَاكِهَا .

---

(١) فى الأصل : أسفت نفس هذا المقدر عليك .　(٢) فى الأصل : دقته ورقته وطيبه .

(٣) أى إبراهيم عليه السلام .

كُنتُ – بِتِنِّيس[١] – وَبيْنَ يدَىَّ إنْسانٌ يقْرأُ ويُحزِّنُ – : « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيخافُونَ[٢] » – وَيبْكِى . نَخَطرَ لِى خاطِرٌ . فقُلْتُ : « أنا بِضِدِّ هَؤُلاءِ القَوْمِ – صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ – أنا لاَ أنْذِرُ . وَلاَ أفِى . وَلاَ أخافُ شَقاءً وَلاَ عَناءً ! » وَلَوْ كُنتُ أخافُ ما أصْبحتُ إلاَّ مَحْمُوماً[٣] ! وكُنْتُهُ !

عودة الى ابى بكر الشبلى

وَحَدَّثنِى مَنْ أثِقُ بِهِ، وَلاَ أتَّهِمُهُ ؛ عَنْ أبِيهِ – وَكانَ زاهِداً – قالَ : « كُنْتُ مَعَ أبِى بَكْرٍ الشِّبْلِىِّ بِبَغْدادَ . فِى الجَانِبِ الشَّرْقِىِّ بِبابِ الطَّاقِ . فَرَأيْنا شاوِياً، قَدْ أخْرَجَ حَملاً مِنَ التَّنُّورِ كَأَنَّهُ بُسْرَةٌ نُضْجًا . وَإلَى جانِبِهِ قَدْ عَمِلَ حَلاوَى فالُوذَجاً، فوَقفَ يَنظُرُ إلَيْهِما، وَهُوَ ساهٍ مُفَكِّرٌ. فقُلْتُ: « يا مَوْلاَىَ ! دَعْنى آخُذُ مِنْ هَذا وَهَذا وَرُقَاقاً وَخُبْزاً . وَمَنْزِلى قَرِيبٌ ، تُشَرِّفُنِى بِأنْ تَجْعَلَ راحَتَكَ اليَوْمَ عِنْدِى » فقالَ : « يا هَذا ، أظَنَنْتَ أنِّى قَدِ اشْتَهَيْتُهُما ؟ . وَإنَّما فِكْرِى فِى أنَّ الحَيَوانَ كُلَّهُ ؛ لاَ يَدْخُلُ النَّارَ إلاَّ بَعْدَ المَوْتِ . وَنَحْنُ نَدْخُلُها أحْياءً !... »

*
* *

يارَبِّ: عَفْوَكَ عَنْ ذِى شَيْبَةٍ وَجِلٍ ... كأنَّهُ – مِنْ حِذارِ النَّارِ – مَجْنُونُ !
قَدْ كانَ أمَّ[٤] أفعالاً مُذَمَّمَةً ... – أيَّامَ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ وَلاَ دِينُ

(١) تنيس كسكين : بلدة بجزيرة من جزائر بحر الروم قرب دمياط تنسب اليها الثياب الفاخرة .
(٢) الآية فى سورة « الدهر » : « يوفون بالنذر ، ويخافون يوما كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام – على حبه – مسكينا ويتيما وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريراً ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ، متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ، ودانية عليهم ظلالها ، وذللت قطوفها تذليلا ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير : قوارير قدروها تقديراً » الخ .
(٣) فى الأصل « ما أصبحت . . محموما » . (٤) أمّ : قصد . وفى الأصل : ذمم . والكلام بها لا يستقيم

ختام الرسالة

تمّتِ الرّسالَةُ، وَالْحَمْدُ لِلّهِ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَخِيرَةِ الآلِ. ما فَرَغْتُ مِن هَذِهِ السَّوْدَاءِ، حَتَّى ثَارَتْ بِيَ السَّوْدَاءُ. وَأَنَا أَعْتَذِرُ مِنْ خَطَلٍ فِيهَا أَوْ زَلَلٍ. فَإِنَّ الْخَطَأَ مَعَ الاِعْتِذَارِ وَالاِجْتِهَادِ وَالتَّحَرِّي، مَوْضُوعٌ عَنِ الْمُخْطِئِ، «وَمَنْ ذَا الَّذِي يُؤْتَى الْكَمَالَ فَيَكْمُلُ[1]» . قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: «رَحِمَ اللهُ امْرَأً أَهْدَى إِلَيَّ عُيُوبِي»

وَأَسْأَلُهُ — أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ — تَشْرِيفِي بِالْجَوَابِ عَنْهَا، فَإِنَّ هَذِهِ الرِّسَالَةَ — عَلَى مَا بِهَا — قَدِ اسْتُحْسِنَتْ، وَكُتِبَتْ عَنِّي، وَسُمِعَتْ مِنِّي. وَشَرَّفْتُهَا بِاسْمِهِ، وَطَرَّزْتُهَا بِذِكْرِهِ. وَالرِّسَالَةُ الَّتِي كَتَبَهَا الزَّهْرَجِيُّ إِلَيَّ كَانَتْ أَكْبَرَ الأَسْبَابِ فِي دُخُولِي إِلَى حَلَبَ.

وَإِذَا جَاءَ جَوَابُ هَذِهِ سَيَّرْتُهَا بِحَلَبَ وَغَيْرِهَا — إِنْ شَاءَ اللهُ — وَبِهِ الثِّقَةُ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) يشير إلى قول ابن الرومي:

«أَعَيَّرتني بالنقص، والنقص شامل، ومن ذا الذي يُعْطى الكمال، فيكمُل؟
فأشهد أني ناقص، غير أنني إذا قِيس بي قوم كثير، فقلّوا»

الجزء الثاني

القسم الأول من الرسالة

الغفران كوميديا إلهية مسرحها الجنة والنار

الغفران كوميديا إلهية مسرحها الجنة والنار

تمهيد

وصلَتِ الرسالةُ[1] التى بحرُها بالحِكَمِ مَسْجُورٌ[2]، ومن قرأها لا شك مَأْجُورٌ[3]، إذْ كانت تأمرُ بِتقيُّلِ الشَّرْعِ[4]، وتعيبُ من تركَ أصلاً إلى فرْعٍ؛ وَغَرِقْتُ فى أمواجِ بدَعِهـا الزاخِرَةِ، وعَجِبْتُ مِنِ اتِّساقِ عقودِها الفاخرَةِ؛ ومثلها من شفعَ ونفعَ، وقرَّبَ عند اللهِ. وفى قدرَةِ رَبِّنا — جلَّتْ عَظَمَتُهُ — أنْ يجعل كلَّ حَرْفٍ مِنْها شبَحَ نورٍ، لايمتزِجُ بِمَقالِ الزورِ؛ وَلعلَّهُ — سبحانه — قد نصبَ لسطورها المُنْجِيَةِ منَ اللهبِ، مَعاريجَ[5] من الفضة أو الذهب، تعرُجُ بها الملائِكةُ من الأرض الراكدةِ إلى السماء، بدليل الآيةِ:

« إليْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ »

وهذه الكلمةُ الطيبةُ كأَنها المَعْنِيَّةُ بقولِهِ: « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابتٌ وَفَرْعُها فى السَّماءِ، تُؤْتِى أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها. »

وفى تلك السطور كَلِمٌ كثيرٌ، كلُّهُ عند البارِئ — تقَدَّسَ — أثيرٌ[6]

---

(١) يعنى رسالة ابن القارح (٢) مملوء (٣) مثاب (٤) تَقَيُّلُ الشرع: اتباعه
(٥) جمع معراج وهو: السلم والمصعد (٦) مقبول، أو مفضل

الفصل الأول

الفـــردوس

وقد غُرِسَ لمولاىَ الشيخ الجليل — إن شاء الله — بذلك الثناء ، شجرٌ فى الجنةِ لذيذُ اجْتناءِ ، كلٌ شجرة منه تأْخُذُ ما بين المشرق إلى المغرب بظلٍّ غاطٍ[1]. والوِلْدانُ المُخَلَّدونَ فى ظلال تلك الشجر قيامٌ وقُعودٌ ؛ يقولون — واللهُ القادرُ عَلَى كل شىء عزيزٍ — : « نحنُ وهذه الشجرصِلَةٌ من اللهِ لِعَلِىِّ بن منصور[2] ، نُخبأُ له إلى نفخ الصور » وتجرى فى أصول ذلك الشجرِ : أنهار تُخْتَلَجُ[3] من ماء الحيوانِ[4] ، وَالكَوْثَرُ يَمُدُّها فى كلِّ أوانٍ ، مَن شَرب مِنها النَّغْبَةَ[5] فلا موتَ ، قد أَمِنَ هنالك الفَوْتَ ؛ وَسُعُدٌ[6] مِنَ اللبن مُتَخَرِّقَاتٌ[7] ، لا تَغَيَّرُ بأَنْ تطولَ الأَوْقاتُ ؛ وَجعافرُ[8] مِن الرَّحيقِ[9] المختومِ ، كما قال عَلْقَمَةُ[10] :

---

(١) ظليل (٢) هو ابن القارح (٣) تُنْتَزَع (٤) الحياة (٥) الجرعة (٦) جمع سعيد ، وهو النهر (٧) متفجرات ، ولعل المعنى تخرقت فيها الرياح : أى ليست راكدة ، أو لعله يعنى أنها متسعة ، من تخرق فى الكرم : اتسع فيه (٨) أنهار صغيرة فوق الجداول (٩) أطيب الخمر

(١٠) علقمـــة الفحـــل

توفى سنة ٥٦١ م

هو علقمة بن عبدة بن النعمان بن ناشرة التميمى ، شاعر جاهلى لم يدرك الإسلام . وقد سمى : علقمة الفحل ، من أجل أن يتميز فى الأخبار من شاعر آخر فى قبيلته يسمى : « علقمـة الخصى ابن سهل » أدرك الإسلام وأسلم . وقيل : إنما سمى الفحل لأنه خلف امرأ القيس على زوجه بعد أن طلقها لتفضيلها علقمة عليه ، حين حكماها فى أيهما أشعر ؛ وهى قصة تروى كثيراً فى كتب الأدب ببعض الاختلاف ، ونحن نثبتها هنا محررة عن الأغانى ، وموشح المرزبانى ، وفيها مثل من حرية النساء ومنزلتهن من الأدب فى الجاهلية :

تَشْفِي الصُّداعَ وَلا يُؤْذِيهِ صَالِبُهَا(١) وَلَا يُخَالِطُ(٢) مِنْهَا الرَّأْسَ تَدْوِيمُ(٣)

لما نزل امرؤ القيس فى طىء، تزوج امرأة منهم يقال لها أم جندب. وكان مُفرَكاً: تبغضه النساء إذا وقع عليهن. فأتى أم جندب من الليل، فأبغضته، فجعلت تقول: «أصبحْ ليلُ، يا خير الفتيان أصبحت، أصبحت، فقم» فقام ينظر، فإذا الليل كهيئته، فقال لها: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: لا شىء! قال: لتخبرنى، قالت: «كرهتك، لأنك ثقيل الصدر، خفيف العجز، سريع الهراقة، بطىء الإفاقة» فلم تزل عنده. فأتاه علقمة بن عبدة، وكان صديقاً له. فقال أحدهما لصاحبه: أينا أشعر؟ فقال هذا: أنا، وقال هذا: أنا؛ فتنازعا وتلاحيا. فقال علقمة: قد رضيت بامرأتك أم جندب حكماً بينى و بينك. فحكماها. فقالت أم جندب لهما: قولا شعراً تصفان فيه الصيد، على قافية واحدة، وروى واحد. فقال امرؤ القيس قصيدته التى مطلعها:

«خليلىَّ مُرَّا بى على أم جُندَبِ نُقَضِّ لبانات الفؤاد المعذب»

فنعت فيها فرسه والصيد، حتى فرغ منها.

وقال علقمة: ذهبتَ من الهجران فى كل مذهب ولم يك حقاً طول هذا التجنب

فقالت أم جندب لامرىء القيس: «فرس ابن عبدة أجود من فرسك. علقمة أشعر منك! قال لها: وكيف؟ قالت: لأنك قلت:

فللسوط أُلهوب، وللساق دِرَّة وللزجر منها وقع أَخْرجَ مِهذَبِ

(ألهوب: يعنى ألهب جريه حين زجره، وللساق درة: أى إذا غُمز در بالجرى. والخرج بياض فى سواد، و به سمى الأخرج وهو ذكر النعام. ومهذب: أى مسرع فى عدوه) فزجرت فرسك بصوتك، وجهدته بسوطك، ومريته فأتعبته بساقك.

وقال علقمة: «فأدركهنَّ ثانياً من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب»

فأدرك فرسه الصيد ثانياً من عنانه، لم يضربه بسوط، ولم يتعبه».

فغضب امرؤ القيس، وقال: ليس كما قلتِ، ولكنك هويته. ثم طلقها. فخلفه عليها علقمة.

وقد غنى ابن سريج لعلقمة أبياتاً مطلعها:

«هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها — إذ نأتك اليوم — مصروم»

وسيمر بك حديثه الخيالى مع ابن القارح فى هذا الجزء. وفيه طائفة من رائع شعره

(١) صالبها: حُمياها (٢) لا يخامر (٣) التدويم: الدُّوار يعقب السكر.

وَيعمِدُ إليها المغترِفُ بكُؤوسٍ من العَسْجَدِ[1] ، وَأَبارِيقَ خُلقت من الزَّبَرْجَدِ ؛ لو رآها أبو زُبَيْدٍ[2] لعلِمَ أنهُ ما تَشَبَّبَ بخيرٍ ، وَهَزِئَ بقوله :

---

(١) الذهب

(٢) أبو زبيد

هو حرملة بن المنذر الطائى ، كان نصرانياً ، ومات على دينه ، وهو ممن أدرك الجاهلية والإسلام ، فعد فى المخضرمين .

واسمه (أبو زبيد) . وقد يسمى (زَبْداً) للتمليح ، قال يخاطب أمه :

نفسى فداء أبى وهب وقَلَّ له   يا أم زبد ، فخلى اليوم أو سيرى

وقد جاء فى الأغانى : يا أم زيد ، وهو تحريف .

ونظير هذا التمليح (الزبير) فقد يسمى (زبرا)

وكانت صفية بنت عبد المطلب أم الزبير بن العوام ترقص ولدها الزبير ، وتنشد :

« كيف رأيت زبرا
أأقطا أو تمـــرا ؟
أم قرشيـاً صقـــرا ؟ »

ويروى أن طول أبى زبيد كان ثلاثة عشر شبراً ، وأنه كان ممن إذا دخل مكة دخلها متنكراً لجماله . وكان من زوار الملوك ، وخاصة ملوك العجم ، عالماً بسيرهم .

وقد اشتهر بوصفه للأسد ، فإنه لقيه أثناء خروجه فى صُيَّابة من أشراف قبائل العرب . فأكثر من وصفه بعد ذلك فى شعره ، حتى لامه قومه ، وقالوا له : قد خفنا أن تسبنا العرب بوصفك له ، فلم يعرض له بعد ذلك حتى مات . وقد قص على عثمان بن عفان قصة لقائه للأسد ، وهى قطعة أدبية من رائع البيان .

وكان أبو زبيد يشرب الخمر ، ونادم الوليد بن عقبة أيام ولايته الكوفة لعثمان بن عفان . فلما شهد الناس على الوليد بالسكر عند عثمان ، عزله عن الكوفة ، فخرج منها ، فقال أبو زبيد من قصيدة طويلة :

« وَأَبَارِيقُ ، مِثْلُ أَعْنَاقِ طَيْرِ الْـــمَاءِ ، قَدْ جيبَ[١] فَوْقَهُنَّ خَنِيفُ[٢] »

ولو نظر إليها عَلْقَمَةُ لَبَرِقَ[٣] وَفَرِقَ[٤] ، وعلِمَ أنه قد طَرِقَ[٥] . ما ابْنُ عَبَدَةَ وما فَرِيقُهُ ؟ قد خسِرَ وَكُسِرَ إبريقُه . نَظْرَةٌ إلى تلك الأَباريقِ خيْرٌ من بنت الكَرْمةِ العاجليَّةِ ، ومن كل رِيقٍ ضَمِنَتْهُ هذه الدارُ الخادعةُ .

ولو بَصُرَ بها عَدِىُّ بن زَيْدٍ[٦] ، لَشُغِلَ عن المُدامِ وَالصَّيْدِ ، واعترف بأَنَّ

من يخنك الصفاء أو يتبدل ... أو يزل مثل ما تزول الظلال
فاعلمَنْ أننى أخوك أخو الو ... د حياتى حتى تزول الجبال
ليس بخلاً عليك عندى بمال ... أبداً ما أقل نعــــلاً قبال
ولك النصر باللسان وبالكــــــف ... إذا كان لليدين مصال

وله مع الوليد أقاصيص ، ويروى أنه أوصى بأن يدفن إلى جنبه .

وترجمته الوافية منثورة فى الجزأين الحادى عشر ، والثالث عشر من الأغانى .

(١) شُق أو قدَّ (٢) ثوب غليظ أبيض من الكتان (٣) تحير ، دهش
(٤) اشتد فزعه (٥) ضعف عقله

(٦) عدى بن زيد العبادى

شاعر جاهلى نصرانى ، قبيلته تميم ، وموطنه الحيرة ؛ دخل الأرياف ، فثقل لسانه .

ومن مختار شعره قوله :

« أعاذل ما يدريك أنــ منيتى ... الى ساعة فى اليوم ، أو فى ضحى الغد
ذرينى ، فإنى إنما لى ما مضى ... أمامى من مال — إذا خفت عودى
وحمت لميقـــات الىّ منيتى ... وغودرت — ان وسدت أولم أوسد —
وللوارث الباقى من المـال . فاتركى ... عتابى ، فإنى مصلح ، غير مفسد »

وقوله من قصيدة أخرى له :

« أيها الشامت المعير بالدهـــــر ! أأنت المبرأ الموفور ؟ »

أباريق مُدامهِ أمرٌ هَيِّنٌ لا يُعـدَلُ بنابتٍ من حَمَصيصٍ[١] ، أو ما حُقِّرَ من خَرْبَصيصٍ[٢] . فأَما الأُقَيْشِرُ السَّعْدِيُّ[٣] ، فإنه قال — ولعله سيندم — :

أَفْنَى تِلادِي[٤] وَمَا جَمَّعْتُ مِنْ نَشَبٍ[٥] قَرْعُ الْقَوَازِيزِ[٦] أَفْوَاهَ الأَبَارِيقِ

الى أن يقول :

« وتبينْ رب الخورنق إذ أشـــرف يوماً ، وللهـــدى تفكير
سره حاله وكثرة ما يمـــلك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه ؛ فقال : « وما غبـــطة حى – إلى الممات – يصير ! »

*
* *

ثم بعد الفلاح والملك والأمـــة وارتهم هناك قبـــور
ثم صاروا كأنهم ورق جف فألـــوت به الصبا والدبور . »

(١) بقلة رملية حامضة (٢) هنة فى الرمل لها بصيص كأنها عين الجراد ، أو نبات له حب يتخذ منه طعام ، والغرض هنا التحقير

(٣) الأقيشر

كنيته أبو معرض . موطنه الكوفة . كان أحمر الوجه فسمى الأقيشر ، وكان خليعاً ماجناً سكيراً ، وهجّاء مقذعاً . يغضب إذا قيل له « يا أقيشر » . ومن أحسن شعره قوله :

« وصهباء جرجانية لم يطف بها حنيف ، ولم تنفر بها ساعة قدر
أتانى بها يحيى ، وقد نمت نومة وقدغابت الشعرى، وقد خفق النسر
فقلت: اصطبحها، أو لغيرى فاهدها فما أنا بعد الشيب – ويحك – والخمر
إذا المرء وفّى الأربعين ، ولم يكن له دون ما يأتى حياء ولا ستر —
فدعه ، ولا تنفس عليه الذى أتى و إن جر أرسان الحياة له الدهر . »

(٤) قديمى (٥) مال (٦) جمع قازوزة وهى قدح الشرب

ما هو وما شرابهُ ؟ تقضَّتْ فى الخائنة آرابُهُ ! لو عاين تلك الأباريق لأيقن أنهُ فُتِنَ بالغرورِ ، وَسُرَّ بغير موجب للسُّرُورِ . وكم على تلك الأنهارِ مِن آنيةِ زَبرْجَدٍ وَياقوتٍ ، بين أصْفرَ وأحمرَ وأزْرَق ، يُخالُ — إن لُمِسَ — أحرَقَ ، كما قال الصَّنَوْبَرِيّ :

تَخَيَّلهُ ساطِعًا وَهْجُهُ فتأبَى الدُّنُوَّ إلى وَهْجِهِ

وفى تلك الأنهارِ أوانٍ على هيئةِ الطيرِ السَّابحةِ[١] ، والغانية عن الماء[٢] السَّائحةِ ، فمنها ما هو على صُوَرِ الكَرَاكِيّ ، وَأُخَرُ تُشاكِلُ المَكَاكِيّ ؛ وعلى خَلقِ طواويسَ وَبطٍّ ، فبعضٌ فى الجاريةِ وبعضٌ فى الشطِّ ؛ يَنبع من أفواهها شَرابٌ ، كأنه — من الرِّقَّةِ — سرابٌ ، لو جرَع منه جرْعةً الحَكَمِيُّ[٣] لحكم بأنه الفوْزُ ، وشهد

---

(١) المائية (٢) البرية

(٣) ترجمة الحكمى « أبى نواس »

سنة ١٤٥ — سنة ١٩٩ هـ

الحسن بن هانئ « الحكمى » ويكنى أبا نواس ، مولده بالأهواز ، ونشأته فى البصرة (انتقل إليها قبل أن يتجاوز الثانية من عمره)

أسلمته أمه الى عطار ، ولكن نفسه كانت لا تميل الى هذه الصناعة ، لميله الشديد الى الشعر ، فكان كثيراً ما يغشى أندية العلم والأدب — حتى مر به الشاعر الماجن الظريف « والبة بن الحباب » — وكان أبو نواس معجباً به على السماع — فصحبه ، وسار معه الى بغداد ، وسنه أكثر من ثلاثين سنه ، فلقى العلماء والشعراء ، حتى نبه اسمه وطار صيته ، وقد اتصل بالرشيد ثم بابنه الامين

ومن مختار شعره قوله فى رثاء الأمين :

طوى الموت ما بينى وبين محمد وليس لما تطوى المنية ناشر
فلا وصل إلا عبرة تستديمها أحاديث نفس — ما لها الدهر — ذاكر

له كلُّ وَصَّافٍ للخمر — من مُحدَث وَعتيقٍ — أن أصنافَ الأشربة المنسوبة إلى الدار الفانية ، كَخمرِ عانة وَأَذرعاتٍ وغزَّة وبيتِ رَاسٍ ، وما جُلِبَ من بُصْرَى ، وما اعتُصِر بصَرْخدٍ أوأرضِ شام ، وما تردد ذكره من كُميتِ بابلَ وَصُرَيْفِينَ ،

لئن عمرت دور بمن لا أحبهم ، لقد عمرت ممن أحب المقابر
وكنت عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لى شىء عليه أحاذر

ومن شعره الذى يمثل نفسه اللاهية الماجنة قوله :

وداهريٍّ سما فى فرع مكرمة من معشر خلقوا — فى الجود — غايات
ناديتــه بعد ما مال النجوم ، وقد صاح الدجاج — يبشرى الصبح — مرات
فقلت — والليل يجلوه الصباح كما يجلو التبسم عن غر الثنيات — :
« يا أحمد المرتجى فى كل نائبة ! قم سيدى ! نعص جبار السموات ! »

٭
٭ ٭

وهاكهـــا قهوةً صفراء صافية منسوبة لقرى هِيت وعانات
صدمتـــه بحميـــاها لأبسطه باللين طوراً ، وبالتشديد تارات
حتى تغنى — وما تم الثلاث له حـــلو الشمائل محمود السجيات :
« ياليت حظى من مال ومن ولد أنى أجالس لُبـــنى بالعشيـات »

ومن غزله فى الأمين قوله[١] :

أصبحت صَبًّا ، ولا أقول بمن من خوف من لا يخاف من أحد
ان أنا فكرت فى هواى له حسبت رأسى قد طار عن جسدى
انى — على ما ذكرت من فرق — لآمِلٌ أن أناله بيـــدى

---

(١) رووا أنه كان يشرب يوماً مع الأمين ، فنشط للسباحة فلبس ثياب ملاح . ولبس كوثر (خادم الأمين) مثل ذلك . ووقعا فى البركة . فنظر أبو نواس الى بدن محمد . فرأى ما لم ير مثله ، فلما كان من غد ، جاء الحسين بن المنذر مسلما عليه . فلما سأله الحسين عن خبره مع الأمين قال له أبو نواس : « ويلك ! رأيت الفتنة ! » ثم حدثه بخبره وأنشد تلك الابيات ، فقال له : « ويحك اتق الله فى رأسك . فانه إن بلغه ذلك قتلك » فأمسك أبو نواس بعد ذلك .

وما عُمِلَ من أجناس المُسْكِرَاتِ وما وُلِّدَ من النَّخِيلِ : إذا كانت تلك النُّطْفَةُ[١] مَلِكَةً ، لا تَصْلُحُ أن تكونَ بِرعاياها مُشتبِكةً[٢] . وَيُعارِضُ تلكَ المُدامةَ أنهارٌ من عسلٍ مُصفًّى ؛ ما كَسَبَتْهُ النحلُ الغادِيةُ الى الأنوارِ ، ولا هو فى مُومٍ[٣] مُتوارٍ ، ولكن قال له العزيزُ القادرُ : « كُنْ » فكانَ .

وَاهاً لذلك عَسلاً لو جعلهُ الشاربُ المَحْرُورُ غِذاءهُ طول الأبد ، ما قُدِّرَ له عَارِضُ مُومٍ[٤] ، ولا لَبِسَ ثوبَ المحمومِ ، وذلك كُلُّهُ بدليلِ الآيةِ : « مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتى وُعِدَ المُتَّقُونَ ، فيها أَنْهارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[٥] وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ » فليتَ شعرِى عنِ النَّمرِ بْنِ تَوْلَبٍ العُكْلِيِّ[٦] ، هل يُقَدَّرُ له أن يذوقَ ذلك الأَرْىَ[٧] ، فيعلَمَ أن شُهْدَ الفانيةِ إذا قِيس إليهِ

---

(١) الماء القليل (٢) متصلة بها أو منسوبة إليها ، والمقصود أن هذه الخمور على جودتها واختلافها لا تمت بصلة إلى خمر الجنة (٣) شمع (٤) مرض شديد الوطأة (٥) آجن : متغير الطعم واللون

(٦) النمر بن تولب العكلى

شاعر جاهلى أدرك الاسلام ، قبيلته عكل ، وقد وفد على النبى ومدحه بشعره ، وكان جواداً ، واسع العطاء ، وهو صاحب البيت المشهور :

أهيم بدعد ما حييت — فان أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدى

وفى رواية أخرى : « فيا ليت شعرى من يهيم بها بعدى ؟ » والبيت ينسب إلى سواه أيضاً وله مجموعة جميلة يرجع إليها من شاء فى جمهرة أشعار العرب « ص ٢١٦ »

(٧) العسل

وُجدَ يُشاكِهُ[١] الشَّرْىَ[٢]، وهو لما وَصف أُمَّ حِصْنٍ[٣] ذَكرَ حُوّارَى[٤] بسمن، وعسلاً مُصفى، قال :

« أَلَمَّ بِصُحْبَتِى وَهُمُ هُجُوعٌ   خيَالٌ طارِقٌ مِنْ أُمِّ حِصْنِ

لَهَا ما تَشْتَهِى عَسَلاً مُصَفًّى   -إذاشاءَتْ-وَحُوَّارَى بِسَمْنِ »

ولو خالط مَنّ[٥] من عسل الجِنانِ ما خلقهُ اللهُ سبحانه فى هذه الدارِ الخادعةِ كَالصَّابِ والمَقرِ[٦]، لَعُدَّ من اللذائذِ المرْتَقِياتِ .

*
* *

وإذا مَنَّ اللهُ — تبارك اسمُهُ — بِوُرُودِ تلك الأنهارِ، صادَ فيها الوارِدُ سمكَ حَلَاوَةٍ — لَمْ يُرَ مِثْلُهُ — لَوْ بَصُرَ بِهِ أَحْمَدُ بنُ الْحُسَيْنِ[٧] لاحتقر الهدية التى

(١) يشابه (٢) الحنظل (٣) حبيبته (٤) دقيق ينقى من لباب البر

(٥) المن : كل طل ينزل من السماء على شجر أو حجر و يحلو و ينعقد عسلا و يجف جفاف الصمغ ، والمن كيل أو ميزان يبلغ رطلين وقيل المن شرعاً مائة وثمانون مثقالاً وعرفاً مائتان وثمانون . والمقصود مكيال صغير (٦) المر

(٧) احمد بن الحسين « المتنبى »

٣٠٣ — ٣٥٤ هـ

اسمه احمد بن الحسين ، لقبه المتنبى ، كنيته أبو الطيب ، ولادته بالكوفة ، وكان أبوه سقاء نشأ أبو الطيب محباً للعلم والأدب ، قوى الحافظة ، فلما ترعرع حمله أبوه الى الشام يتنقل به من باديتها الى حاضرتها ، واستمر فى تلقى العلم ، فأتقن اللغة وتعمق فى معرفة حواشيها وحفظ الكثير من شعر الجاهلية وغيره

نشأ بعيد الهمة ، كبير النفس ، فلم يقنع بالشهرة الأدبية ، بل طمحت نفسه الى السيادة بالفتح ! فدعا الى بيعته قوماً من مريديه من أبناء سنه فبايعوه ، وما كاد يتم له ذلك ، حتى وصل خبره الى والى البلدة ، فقبض عليه وحبسه ؛ ثم أطلقه الوالى بعد حين .

أُهْدِيَتْ إِليهِ، فقال فيها :

فيقال انه خرج الى بنى كلب ، وأقام فيهم وادعى أنه علوى ، ثم ادعى النبوة — وفى هذا كلام كثير ربما عدنا الى مناقشته

قالوا : « ولما شاع أمره بين الناس خرج عليه لؤلؤ ، أمير حمص من قبل الأخشيدية ، فقاتله وأسر من كان معه من بنى كلب وغيرهم من قبائل العرب ، وحبسه فى السجن دهراً طويلاً ، حتى كاد يتلف ، فسئل فى أمره ، فاستتابه وكتب عليه وثيقة ، وأشهد فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه الى الاسلام ؛ وأطلقه . فكان المتنبى كلما ذكر له قرآنه بعد ذلك حاول التنصل من تبعته »

*
* *

ثم اشتهر بالشعر ، فتسابق الملوك الى استدنائه بالجوائز . ومنهم سيف الدولة بن حمدان فقدم عليه المتنبى سنة ٣٣٧ ﻫ ، ومدحه بكثير من غرر قصائده ، ثم وقع بين المتنبى وابن خالويه النحوى المشهور قول فى مجلس سيف الدولة ، فوثب على المتنبى ، فضرب وجهه بمفتاح كان معه فشجه ، ولم يدافع سيف الدولة عنه .

فغضب المتنبى ، ورحل الى مصر . وتقرب من عدو بنى حمدان كافور الإخشيدى سنة ٣٤٦ ﻫ وامتدحه انتقاماً من سيف الدولة ، فأكرمه كافور ، ثم ارتاب فيه لما رأى من كبره وتعاليه ، وقال : « يا قوم ! من ادعى النبوة بعد محمد (صلعم) ، ألا يدعى الملك مع كافور ؟ »

فأم أبو الطيب بغداد ، ثم فارس ، حيث امتدح عضد الدولة ابن بويه الديلمى، فأجزل عطاءه ، وعاد من فارس قاصداً بغداد حيث قتل فى طريقه .

ومن أجمل ما نختاره من شعره قوله :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركن وجوه الخيل عابسة والحرب أقوم من ساق على قدم
بكل منصلت ما زال منتظرى حتى أدلت له من دولة الخدم

أَقَلُّ مَا فِي أَقَلِّهَا سَمَكٌ يَلْعَبُ فِي بِرْكَةٍ مِنَ الْعَسَلِ (١)

وقوله من قصيدة أخرى :

« تمرست بالآفات حتى تركتها   تقول : « أمات الموت أم ذعر الذعر ؟ »
وأقدمت إقـدام الأتى كأن لى   سوى مهجتى ، أو كان لى عندها وتر
ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها   فمفترق جاران دارهما العمـــر
ولا تحسبن المجـــد زقا وقينة   فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك ، وأن تُرى   لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك فى الدنيـــا دويا ، كأنما   تداول سمع المـــرء أنمله العشر »

وفيها يقول :

« ومن ينفق الساعات فى جمع ماله   مخافة فقـــر ، فالذى فعل الفقر »

*
* *

وقوله من قصيدة طويلة :

« يا ساقيّ ! أخمر فى كؤوسكما   أم فى كؤوسكما هم وتسهيد
أصخرة أنا ؟ مالى لا تغيرنى   هذى المدام ، ولا هذى الأغاريد
ماذا لقيت من الدنيا ، وأعجبه   أنى بما أنا باك منـه محسود »

وقد ذكرنا نخبة مختارة من شعره الرائع فى كتاب نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى بمناسبة المقارنة التى عقدناها بينه وبين ابن هانىء الشاعر الأندلسى الذى كان يعاصره ، وفى كتابنا « صور جديدة من الأدب العربى » إلمامة تعنى المستزيد فليرجع إليهما من شاء .

(١) هذا البيت من قصيدة له ارتجلها فى صباه حين أهدى اليه عبيد الله بن خلكان هدية فيها سمك من سكر ولوز من عسل ، وأولها :

« قد شغل الناس كثرة الأمل   وأنت بالمكرمات فى شغل »

ومنهـا :

« هدية ما رأيت مهديها   الا رأيت العباد فى رجل
أقل ما فى أقلها سمك   يسبح فى بركة من العسل »

فأمَّا الأنهارُ الخمْرِيَّةُ ، فتلعبُ فيها أَسْماكٌ — هِيَ على صُوَرِ السَّمكِ — بَحْرِيَّةٌ وَنَهْرِيَّةٌ ؛ فإذا مدَّ المؤمن يدَهُ الى واحدةٍ من ذلك السَّمك شربَ مِن فِيها عذباً لَوْ وَقعتِ الجُرْعَةُ منهُ فى البحرِ الذى لا يَسْتَطِيعُ ماءَهُ الشَّارِبُ ، لَحَلَتْ منهُ أَسَافِلُ وَغوَارِبُ(١) ،

ندامى الفردوس

وَكأنِّى به — وقد استحقَّ تلكَ الرُّتبةَ — وقدِ اصطفَى له ندامَى منْ أُدباءِ الفِردوْسِ ، كأَخِى ثُمَالَةَ(٢) ، وأخِى دَوْسٍ(٣) . . . . .

---

(١) الغارب هو الكاهل ، أو ما بين السنام الى العنق ، والمقصود به هنا سطح البحر

(٢) أخو ثمالة « المبرد »

اسمه محمد بن يزيد ، ويكنى أبا العباس ، وأخا ثمالة ؛ و يلقب بالمبرد ، صاحب كتاب الكامل الذائع الصيت ؛ وهو الذى يقول فيه الشاعر :

سألنا عن ثمالة كل حى ، فقال القائلون : « ومن ثمُاله ؟ »
فقلت : « محمد بن يزيد منهم » فقالوا : « الآن زدتهم جهاله ! »

(٣) أخو دوس « ابن دريد »

٢٢٣ — ٣٢١

اسمه محمد بن الحسن ، كنيته أبو بكر ، وموطنه البصرة — ولد ونشأ بها ، وأخذ من علمائها كالرياشي والسجستانى — ثم غادرها الى عمان أثناء فتنة الزنج التى حدثت بها « ارجع الى ديوان ابن الرومى (ج ٣ من ص ٤١٩ — ٤٢٧) » فأقام بها اثنتى عشرة سنة آخذاً اللغة والشعر عن الأعراب ، ورجع إلى البصرة شاخصاً الى فارس منتجعاً الشاه بن ميكال وولده ، وألف لهما كتاب الجمهرة — فى اللغة — فقلداه الديوان ، وقد أبدع فى مدحهما فى مقصورته الخالدة حين قال من كلام رائع :

. . . .

هما اللذان أثبتا لى أملا ... قد وقف اليأس به على شفا
تلافيا العيش — الذى رنقه ... صرف الزمان — فاستساغ ، وصفا
وأجريا ماء الحيا لى رغداً ، ... فاهتز غصنى بعد ما كان ذوى
هما اللذان سموا بناظرى ... من بعد إغضائى على لذع القذى
هما اللذان عمرا لى جانبا ... من الرجاء ، كان قِدما قد عفا

إلى أن يقول :

إن ابن ميكال - الأمير - انتاشنى ... من بعد ما قد كنت كالشىء اللَّقَى
ومد ضبعىَّ أبو العباس ، من ... بعد انقباض الذرع والباع الوزى

ولما عزلا عن عمالة فارس ، وانتقلا إلى خراسان ، ذهب ابن دريد إلى بغداد سنة ٣٠٨ ﻫ فاحتفى به أهلها ، وأجرى عليه الخليفة « المقتدر » خمسين ديناراً فى كل شهر ، حتى أصيب بالفالج ، ومات سنة ٣٢١ .

ومن الملح التى يرويها عنه بعض من حضر مجالسه ، أنه كان يتضجر ممن يخطىء فى قراءته ، فحضر غلام وضىء ، فجعل يقرأ ويكثر الخطأ — وابن دريد صابر عليه — فتعجب أهل المجلس ، فقال رجل منهم : « لا تعجبوا ، إن فى وجهه غفران ذنوبه » فسمعها ابن دريد ، فلما أراد الرجل أن يقرأ قال ابن دريد : «هات يامن ليس فى وجهه غفران ذنوبه ! » قالوا : « فعجبوا من صحة سمعه مع علو سنه » .

وقال بعضهم فيه :

« من يكن للظباء صاحب صيد ... فعليه بمجلس ابن دريد
إن فيه لأوجها قيدتنى ... عن طِلاب العلا بأوثق قيد »

ويروون عنه أنه كان مولعاً بآلات الطرب ، وقد بلغ من حبه الخمر أن سائلا سأله شيئا ، فلم يجد ما يعطيه إلا دن نبيذ ، فأنكر عليه غلامه أن يتصدق به ، فقال : « ليس عندى سواه » وقرأ قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »

قالوا : وأُهدى إليه بعد ذلك عشرة دنان ، فقال لغلامه : أخرجنا دنا فجاءنا عشرة ! » .

. . . .

وأخبـــاره طويلة وحياته حافلة وشعره رائع ؛ وهو جدير أن يعنى الأدباء بأدبه وتفهم شخصيته الجذابة، عناية خاصة ؛ ومقصورته الطويلة من آيات الشعر العربي . وليس يتسع هذا المقام الضيق إلى التوسع فى ترجمته أو التمثل بشعره الجميل ، غير أننا نكتفى من ذلك بأبيات قلائل تعد بمثابة إشارات إلى خطره العظيم وشاعريته الباهرة ، فمن ذلك قوله — وهو يعد فى رأينا انتباهاً إلى أحد الأسس الثلاثة التى بنى عليها النقادة الفرنسى تين (Taine) نظريته فى تفهم حياة الأدباء ، وهى : « الزمن والبيئة والجنس » — قال :

وكل قرن ناجم فى زمن   فهو شبيه زمن فيـه بدا

ومن أبدع معانيه قوله فى تلك المقصورة أيضاً :

لو كانت الأحـــلام ناجتنى بما   ألقاه يقظان ، لأصمانى الردى
منزلة ، ما خلتهـــا يرضى بها   لنفسه ، ذو أدب ولا حجـــا
شيم سحاب خلب بارقـــه   وموقف بين ارتجـــاء ومنى
فى كل يوم منزل مستوبل   يشتف ماء مهجتى ، أو مجتوى
ما خلت أن الدهر يَثنينى على   ضراء - لا يرضى بها ضب الكدى
أرمق العيش على برض ، فان   رمت ارتشافا، رمت صعب المنتشى

*
* *

أراجعٌ لى الدهر حولا كاملا   إلى الذى عود ، أم لا يرتجى ؟
يا دهر ! إن لم تك عتبى ، فاتئد ،   فان إروادك والعتبى ســـوا
رفـــهْ علىّ طالمـــا أنصبتنى   واستبق بعض ماء غصن ملتحى

وهنا يقول ويبدع :

لا تحسبن يا دهر أنى ضارع   لنكبـة تعرقنى عرق المُـدى
مارستَ من لو هوت الأفلاك من   جوانب الجو عليـــه ما شكا
لـكنها نفثـــة مصدور - إذا   جاش لغام من نواحيها - غما
رضيت قسرا ؛ وعلى القسر رضَى   من كان ذا سخط على صرف القضا

وَابنِ مَسْعَدَةَ المُجَاشِعِيِّ(١)، وَيونُس بنِ حَبِيبِ الضَّبِّيِّ(٢)، فهم — كما جاء فى

إن الجديدين - إذا ما استوليا على جديد - أدنياه للبلى
ما كنت أدرى - والزمان مولع بشت ملموم، وتنكيث قوى -
أن القضاء قاذفى فى هوة لا تستبل نفس من فيها هوى الخ الخ

ونختم هذه المختارات بقوله من قصيدة طويلة، فياضة بالشاعرية العالية :

و بالشعر يبدى المرء صفحة عقله فيعلن منه كل ما كان يكتم
وسيان من لم يمتط اللب شعره فيملك عطفيه وآخر مفحم
جوانب أرجاء البلاد مطلة تبيد الليالى ، وهى لا تتخرم
ألم تر ما أدت الينا وسيرت على قِدم الأيام عاد وجرهُم
هم اقتضبوا الأمثال صعبا قيادها فذل لهم منها الشريس الغشمشم
وقالوا : الهوى يقظان ، والعقل راقد وذو العقل مذ كور، وذو الصمت أسلم
ومما جرى كالوسم فى الدهر قولهم : على نفسه يجنى الجهول ويجرم
وكالنار فى يبس الهشيم مقالهم : ألا إن أصل العود من حيث يقضم
فقد سيروا ما لا يسير مثله فصيح على وجه الزمان وأعجم

وأحب أن يرجع القارىء الى رثائه فى الجزء الثالث من كتاب الأمالى لأبى على القالى (ص ٢٢٩) ليتبين مكانه فى قلوب معاصريه . ولقد أصاب أبو العلاء وأحسن كل الإحسان حين لقبه بشيخ الأزد ، أثناء استشهاده بشعره فى الجزء الثالث من هذا الكتاب ؛ وسيمر بك ذلك فى حينه

(١) الأخفش الأوسط

نحوى ، عالم باللغة والأدب ، أخذ العربية عن سيبويه ، وصنف كتباً كثيرة ، منها : كتاب تفسير معانى القرآن

(٢) يونس بن حبيب الضبى

أخذ الأدب عن أبى عمرو بن العلاء ، وحماد بن سلمة ؛ وغلب عليه النحو ، حتى أخذ عنه أبو زيد الأنصارى النحوى ، وخلف الأحمر

الكتاب العزيز — : « وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ، إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ، لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ »

فَصدْرُ أحمدَ بنِ يحيى[1] هُنَالِكَ قد غُسلَ من الحقدِ عَلَى محمدِ بنِ يزيدَ[2]، فصارا يتصافيانِ ويتوافيانِ ، وأبو بشرٍ عمرُو بنُ عُثمانَ « سيبويْهِ »[3] قد رُحِضَتْ[4] سُوَيداءُ قلبهِ من الضِّغْنِ على علىِّ بنِ حمزةَ الكسائىِّ[5] وأصحابِهِ لِمَا فعلوا بِهِ فى

وقد عرف عنه شدة التعصب لرؤبة بن العجاج ، حتى إنه كان لا يبالى أن يسىء الى بعض ذوى الرفعة والجاه فى سبيل الذود عن أستاذه رؤبة ، ومن أدلة تعصبه له ، أنه سئل يوماً : « من أشعر الناس ؟ » فقال : « العجاج ورؤبة » فقيل : « لم نعن الرجاز » فقال : « هما أشعر أهل القصيد ، و إنما الشعر كلام ، وأجوده أشعره ! »

ومن مؤلفاته كتاب : « معانى القرآن » وكتاب : « اللغات » وكتاب : « الأمثال »

(١) هو المشهور بثعلب النحوى اللغوى ، وكان بينه و بين المبرد منافاة

(٢) هو أبو العباس المبرد « وقد مرت ترجمته فى ص (١٦) »

(٣) سيبويه

توفى سنة ١٨٣ هـ

اسمه عمرو بن عثمان مولى الحارث بن كعب ، وكنيته أبو بشر ، ولقبه سيبويه — وهى كلمة فارسية معناها « رائحة التفاح » — ونشأته بالبصرة ، وقد أصبحت شهرته فى النحو مضرب الأمثال ، وذاع صيته ونبه شأنه ، ولا سيما بعد كتابه الذى ألفه فى النحو واستبق اليه الناس استباقاً ، و بلغ من إجلال شأنه و إكبار خطره أن أبا عثمان المازنى قال فيه : « من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً فى النحو — بعد كتاب سيبويه — فليستحِ ! » وقول أبى العباس المبرد — لكل من أراد دراسة هذا الكتاب — : « هل ركبت البحر ؟ » تعظيماً لشأنه

وسيبويه أشهر من أن يحتاج الى ترجمة أو تعريف (٤) غسلت

(٥) الكسائى (توفى سنة ١٨٩ هـ)

اسمه على بن حمزة ، ولقبه الكسائى ، وأصله فارسى . وهو أشهر نحاة الكوفة ، أخذ عن

مجلس البَرامكةِ، وأبو عُبيدةَ[١] صافِى الطويّةِ لعبدِ الملكِ بنِ قَريبٍ[٢]. «والملائكةُ يدخلون عليهمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدّارِ» وهو معهم كما قال البكرىُّ[٣]:

الخليل بن احمد؛ واستقدمه خلفاء بنى العباس والبرامكة إلى بغداد لتعليم أبنائهم. اشتهر بعدائه لسيبويه وكثرة التعريض به. ومما يذكر لهما منازعتهما فى مسألة الزنبور والنحلة وتعصب الأمين للكسائى — مع أن الحق مع سيبويه — لأنه معلمه. وقد فصلنا هذه القصة فى كتابنا «صور جديدة من الأدب العربى» فلاحاجة لذكرها هنا

(١) أبو عبيدة — توفى سنة ٢٠٩ هـ.

اسمه: معمر، اسم أبيه: المتنبى التيمى، كنيته: أبو عبيدة

انفرد عن بقية الرواة بسعة حفظه لأخبار العرب وأنسابهم وعلومهم وآدابهم، واشتهر بمناظراته مع الأصمعى فى مجلس الرشيد

وكان متعصباً على العرب؛ وكان يرى رأى الخوارج، وكان لحاناً سبّاباً، وقد أولع بالمثالب حتى إنه ألف فيها كتاباً، ولم ينج من طعنه شريف. وكان شديد الثقة بنفسه، وقد بلغ من مغالاته فى الاعتداد بها، ما أثر عنه من قوله: «ما التقى فرسان فى جاهلية أو إسلام إلا عرفتهما وعرفت فارسيهما»

وهذا كلام يدل على الغرور والخيلاء، على أنه حفظ لنا كثيراً من أخبار العرب التى كانت تضيع: لولا ما تركه من المؤلفات العديدة، وإن كان لم يصلنا منها الا النزر اليسير

(٢) الأصمعى — توفى سنة ٢١٤ هـ

اسمه عبد الملك بن قريب، ولقبه الأصمعى، وقبيلته قيس، وموطنه البصرة، وقد قدم إلى بغداد فى أيام الرشيد. كان واسع الرواية، حاضر المحفوظ، متبحراً فى اللغة؛ ولا أدل على ذلك من الكتب التى أفردها خاصة بأسماء الوحوش والإبل والخيل والنبات والشجر، إلى غير ذلك

(٣) أعشى قيس — توفى سنة ٦٢٩ م

اسمه ميمون بن قيس، وكنيته أبو بصير، ولقبه الأعشى، وقبيلته بكر بن وائل، ومسكنه الحيرة، ومن أكبر ما امتاز به شعره أن العرب كانوا يتغنون به — كما كان هو يتغنى بشعره أيضاً —

. . . .

ومن ثَم دعَوه « صناجة العرب » وهو لقب كبير الخطر يدل على ما أحرزه من صيت ورفعة شأن ولعل أكبر عيبه أنه كان — فيما يقول مؤرخو الآداب — أول من سن للشعر طريقاً غير محمودة لتكسبه به ، ونحن ننقم عليه هذه الخلة الممقوتة إذا صحت عنه .

أما شعره فرائع فياض بأسمى العواطف والإحساسات ، وهو يمتاز بموسيقية خاصة وروح خفيفة، وأسلوب مشرق بالحياة والقوة . وقد اشتهر بوصفه للخمر ، وكان يشتريها من نصارى الحيرة الذين كان يكثر التردد عليهم والاختلاط بهم ، ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر فى عقيدته ، فقد قالوا عنه : إنه كان قدرى المذهب ، واستدلوا على ذلك بقوله :

« استأثر الله بالوفاء و بالعد   ل ، وولى الملامة الرجلا »

وهذا بيت جامع دقيق يصح أن يكون خلاصة مذهب فلسفى — على إيجازه !

*
* *

أما خطره ، وأثر شعره فى نفوس معاصريه الجاهليين ، فقد وصل إلى أبعد حد ، فقد كان لا يمدح أحداً إلا رفعه ، وأكبر دليل على ذلك حكايته المشهورة مع المحلق ، فقد كانت القافِيَّةُ التى امتدحه الأعشى بها سبباً فى تزويج بناته الثمانى

ولم يغفل أعداء النبى عن هذه الميزة الباهرة التى امتاز بها شعر الأعشى ، فخشوا أن يسلم فيمدح النبى فيذيع أمره و يقبل الناس على دينه ، وعرفوا من الأعشى حبه المال وحرصه عليه ؛ فعزم أبو سفيان وقومه على إغرائه بالرجوع ورصدوه فى طريقه ، فلما وصل إليهم قالوا له : « أين أردت يا أبا بصير ؟ » فقال : « أردت صاحبكم هذا لأسلم » فقالوا : « إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك، وكلها لك موافق » قال « وما هن ؟ » فقال أبو سفيان بن حرب : « القمار » قال : « لعلى أن أصبت منه عوضاً عن القمار ! ثم ماذا ؟ » قالوا : « الربا » قال : « ما دنت ولا أُدِّنت ! ثم ماذا ؟ » قالوا : « الخمر » قال : « أوه . أرجع إلى صبابة قد بقيت لى فى المهراس فأشربها ! » فقال له أبو سفيان : « وهل لك فى خير مما همت به ؟ » قال : « وما هو ؟ » قال : « نحن وهو الآن فى هدنة ، فتأخذ مائة من الإبل ، وترجع إلى بلدك — سَنَتَك هذه — وتنتظر ما يصير إليه أمرنا ، فإن ظهرنا عليه ، كنت قد أخذت خلفا ،

نَازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحَانِ مُرْتَفِقاً(١) وَقَهْوَةً(٢) مُزَّةً(٣) رَاوُوقُهَا(٤) خَضِلُ(٥)
لَا يَسْتَفِيقُونَ مِنْهَا وَهْيَ رَاهِنَةٌ(٦) إِلَّا « بِهَاتِ » وَإِنْ عَلُّوا ، وَإِنْ نَهِلُوا
يَسْعَى بِهَا ذُو زُجَاجَاتٍ لَهُ نُطَفٌ مُقَلِّصٌ أَسْفَلَ السِّرْبَالِ مُعْتَمِلُ(٧)
ومستجيبٍ(٨) تَخَالُ الصَّنْجَ(٩) يُسْمِعُهُ إِذَا تُرَجِّعُ(١٠) فِيهِ الْقَيْنَةُ الْفُضُلُ(١١)

وأبو عُبَيْدَةَ يُذاكِرُهمْ بوقائعِ العربِ ، وَمقاتلِ الفرسانِ ، وَالأَصمعِيُّ يُنْشِدُهُمْ ما أحسنَ قائِلُهُ .

وتَهَشُّ نفوسهمْ لِلعَبِّ ، فيقْذِفونَ تلك الآنيةَ في أنهارِ الرَّحيقِ ، وَيُصَفِّقُها(١٢) الْماذِيُّ(١٣) المعترضُ أيَّ تصفيقٍ ؛ وتَقْتَرِعُ(١٤) تلك الآنيةُ ، فيُسْمَعُ لها أصواتٌ ، تُبْعَثُ(١٥) بِمثلِها الأمواتُ ، فيقولُ الشيخ : « آه لمصْرَعِ الأعشى ميمونٍ ! ودِدتُ أنه

و إن ظهر علينا ، أتيته » فقال : « ما أكره ذلك » فقال أبو سفيان : « يا معشر قريش ! هذا الأعشى ، لئن أتى محمد أو اتبعه ، ليضرمن عليكم نيران العرب بشعره ، فاجمعوا له مائة من الإبل » ففعلوا ، فأخذها ، وانطلق إلى بلده ، فلما قرب من اليمامة سقط عن ناقته ، فدقت عنقه ، ودفن بها .

(١) متلطفاً — مترفقاً ، وقيل المرتفق هو المتكىء على المرفق (٢) خمراً (٣) لذيذة الطعم — فيها مزازة (٤) إناؤها ، وقيل الراووق هو ما يخرج من ثقب الدن (٥) مبتل — ند ، فهو يترشف نداه (٦) معدة ، دائمة لا تنقطع (٧) النُّطَف واحدها نُطَفَةٌ ، وهو القرط ؛ أما المعتمل فالدائب الخفيف الحركة (٨) قيل هو العود ، تظن أن الصنج أسمعه صوته ، فأجابه العود (٩) نوع معروف من آلات الطرب (١٠) تُصرفه من شدة إلى لين (١١) هي المتفضلة في ثوب واحد أي المتوشحة به مخالفة بين أطرافه على عاتقها — وقيل هي التي عليها ثوب بلا درع أو التي تحت درعها إزار (١٢) يصفقها : يلطمها ، و يمتزج بها . والمعنى أن الماذي الذي يعترض أنهار الرحيق يلطم الآنية ويمتزج بما فيها (١٣) العسل الأبيض (١٤) يصك بعضها بعضاً (١٥) تحيا بعد الموت

ما صدَّتهُ قريشٌ لمَّا توجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم(١)، ولو أنه أسلم لجازَ أن يكونَ بيننا فى هذا المجلِسِ فَيُنْشِدَنا غريبَ الأوْزانِ، مما نُظم فى دار الأحزان، ويُحَدِّثَنا حديثه مع هَوْذَةَ بن عَلِيٍّ(٢)، وعامر بن الطُّفيلِ(٣) وَيزيدَ بنِ مُسْهِرٍ، وغيرهِمْ ممن مدحه أو هجاهُ، وخافه فى الزمن أو رجاهُ» .

---

(١) ذكرنا قصة ذلك عند ترجمة الأعشى فى الصفحتين ٢٢ و ٢٣ من هذا الجزء

(٢) هوذة بن على

كان ملكاً على اليمامة، وكان نصرانياً فأسلم، ثم ارتد، وذلك أنه قال: «إن جعل لى محمد الأمر من بعده أسلمت ونصَرته» فقال النبي (صلعم): «لا، ولا كرمة، اللهم اكفنيه» فمات بعد قليل

(٣) عامر بن الطفيل

فارس قيس، وابن عم لبيد، كان أعور عقيماً. أتى النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال له: «أتجعل لى نصف ثمار المدينة وتجعلنى ولى الأمر من بعدك وأسلم؟» فقال — صلى الله عليه وسلم — : «اللهم اكفنى عامراً واهد بنى عامر» فانصرف وهو يقول: «لأملأنها خيلا جردا ورجالاً مردا، ولأربطن بكل نخلة فرساً» فطعن فى طريقه فمات. ومن مختار شعره قوله:

و إنى و إن كنت ابن فارس عامر   وسيدها المشهور فى كل موكب
فما سودتنى عامر عن وراثة   أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماهـــا، وأتقى   أذاها، وأرمى من رماها بمنكب

ومن أجمل شعره قوله :

قضى الله فى بعض المكاره للفتى   برشد، وفى البعض الهوى، ما يحاذر
ألم تعلمى أنى — إذا الإلف قادنى   إلى الجور — لا أنقاد، والإلف جائر

نزهة ابن القارح

ثم إنه — أدامَ اللهُ تمكينَهُ — يخْطُرُ له حديثُ شيءٍ كان يُسَمَّى « النزْهَة » في الدار الفانيةِ ، فيركبُ نجيباً(١) من نُجُبِ الجَنَّةِ ، خُلق من ياقوتٍ وَدُرٍّ ، في سَجْسَجٍ(٢) بَعُدَ عن الحَرِّ والقُرِّ ؛ فيَسيرُ في الجَنةِ على غير مَنْهج ، ومعهُ شيءٌ من طعام الخُلود ، فإذا رأى نجيبَهُ يَمْلَعُ(٣) بين كُثْبانِ العَنْبَرِ ، رفع صوته مُتمثِّلاً بقولِ البَكْرِيِّ(٤) :

ليْتَ شِعْرِى مَتى تخُبُّ(٥) بنَا النَّا قَة بَينَ العُذَيْبِ فَالصَّيْبونِ(٦)
مُحْقِبًا(٧) زُكْرَةً(٨) وَخُبْزَ رِقَاقٍ وحِبَاقًا(٩) وَقِطْعَةً مِنْ نونِ(١٠)

حــديث الأعشى

فيَهْتِفُ هاتِفٌ : « أتَشْعرُ أيها العبد المغفورُ له ، لِمَنْ هذا الشِّعرُ ؟ »

فيقول الشيخ : « نعمْ ، حدثنا أهلُ ثِقَتِنا عن أهلِ ثِقَتِهِمْ ، أن هذا الشِّعرَ لِمَيْمونِ بنِ قيْسِ بنِ جَنْدَلٍ » فيقول الهاتفُ : « أنا ذلك الرَّجلُ ، مَنَّ اللهُ عَلَيَّ

---

(١) جملا كريماً (٢) جو معتدل (٣) يسير سيراً سريعاً وخفيفاً (٤) هو الأعشى وقد مرت ترجمته فى ص ٢١ و ٢٢ و ٢٣ من هذا الجزء (٥) الخبب : نوع من سير الإبل (٦) العذيب والصيبون مكانان ببلاد العرب (٧) واضعاً فى الحقيبة (٨) زقا صغيراً للخمر (٩) الحباق: الحزمة من القت . وقدشرحها أبو العلاء بقوله : « جرزة البقل » ، ومنه قول الشاعر:

فأتونا بدرمق وحباق وشواء مرعبل وصناب

(١٠) النون : السمك ، ومعنى الأبيات أنه يبدى شوقه الشديد الى ركوب ناقته مسرعة به فى رحلتها نحو العذيب والصيبون ، وقد وضع فى حقيبته زق خمر صغيراً وخبز رقاق وحزمة من القت وقطعة من السمك ، وهذا هو كل زاده الشهى فى تلك الرحلة الجميلة التى يتوق اليها

بعد ما صِرْتُ مِن جهنّمَ على شَفيرٍ ، ويَئِسْتُ من المَغْفرَةِ » فيلتفِتُ إليهِ الشيخ هَشًّا بَشًّا مُرْتاحاً ، فإذا هوَ بشابّ غُرانِق[1] ، وقد صارَ عشاهُ حَوَرًا ، وانْحِناء ظَهْرِهِ قَواماً ، فيقول : « سَحَبتْني الزَّبانيةُ إلى سَقرَ ، فرأيْتُ رَجلًا فى عَرَصاتِ القيامة يَتلألأُ وَجْهُهُ تَلألُؤَ القمر ، والناس يَهتِفونَ بِهِ من كل أوْب[2] : « يا محمدُ ! يا محمدُ ! الشَّفاعةَ ! الشفاعَةَ ! نَمُتُّ بكَذا وَنمُتُّ بكَذا » فصرخْتُ فى أيْدِى الزَّبانيةِ : « يا محمدُ ، أغِثْنِى ، فإنَّ لى بكَ حُرْمَةً ! » فَقال : « يا علِىُّ ! بادِرْهُ فانْظُرْ ما حُرْمتُهُ » فجاء عَلِىُّ بنُ أبى طالبٍ — صلوات الله عليه — وَأنا أُعْتَل[3] كىْ أُلْقَى فى الدَّرْكِ الأسفلِ مِن النارِ ، فَزجَرَهُم عنِّى ، وقالَ : « ما حُرْمَتُكَ ؟ » فقلت : « أنا القائِلُ :

أَلَا أَيُّهـذَا السَّائِلِى أَيْنَ يَمَّمَتْ ... فَإِنَّ لَهَا فِى أَهْلِ يَثْرِبَ مَوْعِـدَا
فَآلَيْتُ لَا أَرْثِى لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ ... وَلَا مِن حَفًى حتى تُلاقى محمَّـدَا
مَتى ما تُناخى عِنْدَ بابِ ابنِ هاشِمٍ ... تُريحى وَتَلْقَىْ مِن فَوَاضِلهِ نَـدَا
أَجِدَّكَ[4] لَمْ تَسْمَعْ وَصاةَ محمَّدٍ ... نَبِىِّ الْإِلٰهِ حينَ أَوْصَى وَأَشْهَدَا
إِذا أَنْتَ لَم تَرْحَلْ بزادٍ مِن التُّقَى ... وَأَبْصَرْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَن قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لا تَكُونَ كَمِثْلِهِ ... وَأَنَّكَ لَم تُرْصِدْ[5] لِمَا كَانَ أَرْصَدَا[6]

---

(١) جميل (٢) الأوب : الطريق ، ومن كل أوب أى من كل طريق أو من كل جهة
(٣) يُجَرّ بعنف (٤) أجدك - بفتح الجيم وكسرها - أى : أبجد منك هذا ، وهو منصوب على نزع الخافض (٥) أرصد الرقيب أى نصبه على الطريق (٦) معنى الأبيات : أيها السائلى أين تذهب بى ناقتى ، إنها ذاهبة إلى يثرب ، إلى محمد بن عبد الله ، وقد أقسمت لا أريحها ولا أشفق عليها مهما تجد من الإعياء والتعب حتى تبلغ أعتاب هذا النبى الكريم ،

وقد كنتُ أُومِنُ باللهِ وبالحِساب ، وَأُصدِّقُ بالبعث وَأنا فى الجاهلية الجَهْلاءِ »

فذهب عَلِىٌّ إلى النبي — صلى اللهُ عليهِ وسلم — فقال : « يا رسولَ الله ، هذا أَعْشى قيسٍ : قد رُوِىَ مدحُهُ فيكَ ، وَشَهِدَ أَنَّكَ نَبِىٌّ مُرْسَلٌ » فقال : « هَلَّا جاءَ فى الدارِ السَّابِقةِ ؟ » فقال عَلِىٌّ : « قد جاءَ ، وَلكنْ صدَّتْهُ قُرَيْشٌ وَحُبُّهُ للْخَمرِ(١) » فشفع لى ، فَأُدْخِلتُ الْجَنَّةَ على أن لا أَشْرَبَ فيها خمراً ، فقَرَّتْ عيْنايَ بذلكَ . وإِنَّ لِى منادِحَ(٢) فى العسلِ وماءِ الحيوانِ(٣) ، وكذلكَ منْ لَمْ يتُبْ منَ الخمرِ فى الدنيا لَمْ يُسْقَهَا فى الآخرةِ

حديث زُهير بن أبى سُلمى

وَينظرُ الشيخُ فى رياضِ الجنةِ ، فيَرَى قصرينِ مُنيفينِ(٤) فيقول فى نفسهِ : « لَابلُغَنَّ هذيْنِ القصريْنِ ، فَأَسأَلُ : لمن هُمَا ؟ » فإذا قرُبَ منهما ، رأى علَى أحدِهِمَا مكتوباً : « هذا القصرُ لزهيْرِ بْنِ أَبى سُلْمَى المُزَنِىّ(٥) » وعَلَى الآخرِ :

فإذا انتهت الى بابه رأت من كرمه وفواضله ما ينسيها كل ما لقيته من الجهد والنصب . وأنت ، ألم يبلغك بر بك ما أوصى به هذا النبي لتدرك السبب الذى حفزنى الى لقائه ، لقد حث على التزود من التقى والعمل بما أتى به من التشريع السامى ؛ و بيّن مآل المتهاونين فى تنفيذ تلك الوصايا الحكيمة ومقدار ما يلحق المفرطين من الندم الشديد حين يرون ما يزف من الخير – فى الدار الآخرة – الى من أطاعه وعمل بنصائحه فى الدار الأولى

(١) ارجع الى ص٢٢و٢٣ (٢) جمع مندوحة ، أى سعة أو غنية (٣) ماء الحياة (٤) عالبين

(٥) زهير بن أبى سلمى

توفى سنة ٦٣١ م أى قبل البعثة بسنة

هو من مزينة — إحدى قبائل مضر — وقد اشتهرت أسرته بالشعر ، واشتهر بمدحه هرم ابن سنان ، كما اشتهر بالتفوّق فى إجادة الحكم ، مع الصدق وعدم المبالغة ، والبعد عن المعاظلة

فى الكلام ، وتجنب حوشى اللفظ ، ومن خير شعره قوله من معلقته :

سألنا فأعطيتم ، وعـدنا فعدتم ، ومن أكثر التسآل - يوماً - سيحرمِ
وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته — أو نقصه — فى التكلمِ
لسان الفتى نصف ، ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
. . . .
سئمت تكاليف الحياة ، ومن يعش ثمانين حولا — لا أبالك — يسأم
وأعلم ما فى اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غـد عَمِ
رأيت المنايا خبط عشواء ، من تصب تمته ، ومن تخطئ يعمر فيهرم
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ، ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه ، يستغن عنه ويذمم
ومن يوف لا يذمم ، ومن يهد قلبه إلى مطمئن البـر لا يتجمجم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يعص أطراف الزجاج ، فإنه يطيع العوالى ، ركبت كل لهذم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يغترب يحسب عدواً صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة - وإن خالها تخفى على الناس - تعلم

وقوله من قصيدة أخرى :

أرونا خطة لا ضيم فيها يسوى بيننا فيها السواء
فإن ترك السواء ، فليس بينى وبينكم - بنى حصن ! - بقاء
فإن الحق مقطعـه ثلاث : يمين ، أو نفار ، أو جلاء

وقوله :

ألا ليت شعرى ! هل يرى الناس ما أرى من الأمر ؟ أو يبدو لهم ما بدا ليا ؟

. . . .

بدا لى أن النـاس تفنى نفوسهم وأموالهم ، ولا أرى الدهر فانيا
وأنى متى أهبط من الأرض تلعة أجد أثراً قبـلى جديداً وعافيا
أرانى – إذا أمسيت – أمسيت ذا هوى فثم – إذا أصبحت – أصبحت غاديا
إلى حفرة أهوى إليهـا مصمة يحث إليهـا سائق من ورائيا

***

بدا لى أن الله حق فزادنى إلى الحق تقوى الله ، ما كان باديا
بدا لى أنى لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئاً إذا كان جائيا
وما إن أرى نفسى تقيها منيتى وما إن تقى نفسى كرائم ماليا

وقوله :

ولا تـكثر على ذى الضغن عتبا ولا ذكر التجرم للذنوب
ولا تسأله عمـا سوف يبدى ولا عن عيبه لك فى المغيب
متى تك فى صديق أو عدو تخبرك الوجوه عن القـلوب

وقوله :

وذى نسب ناء بعيد وصلته بمال ، وما يدرى بأنك واصله
وذى نعمة تممتهـا وشكرتها وخصم يكاد يغلب الحقّ باطله
دفعت بمعروف من القول صائب إذا ما أضل الناطقين مفاصله
وذى خطل فى القول ، يحسب أنه مصيب ، فما يلمم به فهو قائله
عبأت له حلماً وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو باد مقـاتله

وقوله :

إن كنت لا ترهب ذمى ، لمـا تعرف من صفحى عن الجاهل
فاخش سكوتى – إذ أنا منصت فيك لمسموع خنـا القائل
السامع الذم شريك له ومطعم المأكول كالآكل
مقـالة السوء إلى أهلهـا أسرع من منحـدر سـائل

الأَسَدِيّ(١) » فيعجَبُ من ذلك ويقولُ : « هذَانِ ماتَا فى الْجَاهليَّة ، وَلكنْ

ومن دعا الناس إلى ذمه　　ذموه بالحق و بالباطل
فلا تَهِجْ - إن كنت ذا إربة -　　حَرْبَ أخى التجربة العاقل
فإن ذا العقل - إذا هجته -　　هجت به ذا خبل خابل
تبصر من عاجل شداته　　عليك غب الضرر الآجل

وهذه القصيدة تنسب لزهير مرة ، ولمحمد بن حازم الباهلى أخرى

(١) عبيد بن الابرص الأسدى

توفى سنة ٥٥٥ م

قبيلته مضر ، وهو من بنى أسد ، عمر طويلا حتى قتله المنذر بن ماء السماء حين ورد عليه فى يوم بؤسه . وتفصيل ذلك أن المنذر غضب يوما، فقتل نديمين له من بنى أسد ؛ فلما أصبح ندم ، فبنى على قبريهما ضريحين أسماهما : الغريين ، وجعل لنفسه يومين فى السنة يجلس فيهما هناك - أسمى أحدهما يوم النعيم والآخر يوم البؤس ؛ فكان أول من يطلع عليه فى يوم النعيم يعطيه مائة من الإبل ، وأول من يطلع عليه فى يوم البؤس يقتله و يطلى بدمه الغريين . وقد اتفق أن جاءه عبيد فى يوم بؤسه فقتله

ومن مختار شعره قوله :

لكل ذى غيبة إياب　　وغائب الموت لا يؤوب

وقوله :

من يسأل الناس يحرموه　　وسائل الله لا يخيب

وأكثر أبيات معلقته غير جار على الوزن العربى المعروف ؛ واختلال الوزن فيها واضطرابه ظاهران . كقوله :

أفلح بما شئت قد يبلغ بالضع　　ف وقد يخدع الأريب

وقد أشار أبو العلاء إلى ذلك فقال :

وقد يخطىء الرأى امرؤ - وهو حازم -　　كما اختل فى وزن القريض عبيد

رَحْمَةُ رَبِّنا وَسِعَتْ كُلَّ شيء، وسوفَ أَلْتَمِسُ لقاء هذين الرجلين، فأسألهُما: «بم غُفِرَ لهُما؟» فيبتدئُ بزهير، فيجدهُ شابًّا كالزَّهرةِ الجَنيَّةِ، كأنه ما لبس جلباب هرمٍ، ولا تأفَّفَ من البَرَم[1]، وكأنه لم يقل فى الميميَّةِ:

«سَئِمتُ تكاليفَ الحياةِ وَمَنْ يَعِشْ ثمانينَ حولاً - لا أبالَكَ - يسأَمِ»

وَلم يَقلْ فى الأُخرى:

«ألم ترنِى عُمِّرْتُ تِسعينَ حِجَّةً وَعشرًا تِباعًا عِشتُها وَثمانِيا»

فيقولُ: «جَيْرِ، جَيْرِ[2]، أنت أبو كعبٍ وَبُجَيْرْ!» فيقولُ: «نَعمْ» فيقولُ «بِم غُفِرَ لك، وقد كنتَ فى زمان الفترَةِ والناس هَمَلٌ، لا يَحسنُ منهم العملُ؟» فيقول: «كانت نفسى من الباطلِ نفوراً، فصادفتُ مَلِكاً غفوراً؛ وكنتُ موْمناً باللهِ العظيم، ورأيتُ فيما يرى النائمُ جبلاً نزل من السماء فمن تعلق به من سكانِ الأرض سَلِمَ. فعلمتُ أنهُ أمرٌ من أمرِ اللهِ، فأوصيتُ بَنِيَّ وقلت لهم عند الموتِ: «إن قام قائمٌ يدعوكم إلى عبادةِ اللهِ فأطيعوهُ» ولوْ أدركتُ «محمداً» لكنتُ أوَّلَ المؤمنينَ. وقلتُ — فى الميميَّةِ — والسفهُ ضاربٌ بالجرانِ[3] —:

وتعليل هذا الاختلال والاضطراب فى نظرنا، أنه كان - فيما نظن - يوقع القصيدة على نغمة خاصة به، غير تلك التى كان يوقع عليها سواه من العرب، فلو اهتدينا إلى طريقة إنشاده الخاصة، والأسلوب الذى كان يغنى به هذا الوزن الجديد، لما أحسسنا فى معلقته بشىء من الشذوذ الذى نحسه فيها اليوم

ومما يتمثل به من شعره بيته الرائع قوله:

لا أعرفنك بعد الموت تندبنى وفى حياتى ما زودتنى زاداً

(١) الضجر (٢) نعم، نعم (٣) الجران: مقدم عنق الناقة، والضرب بالجران كناية عن الإقامة

فَلاَ تَكْتُمُنَّ اللهَ مَا فِى نُفُوسِكُمْ ... لِيَخْفَى، وَمَهْمَا يُكْتَمِ : اللهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ فِى كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ ... لِيَوْمِ حِسَابٍ، أَوْ يُقَدَّمْ فَيُنْقَمِ [1]

فيقول : أَلَستَ القائلَ :

وَقَدْ أَغْدُو عَلَى ثُبَةٍ [2] كِرَامٍ ... نَشَاوَى [3] وَاجِدِينَ لِمَا نَشَاءُ
يَجُرُّونَ البُرُودَ وَقَدْ تَمَشَّتْ ... حُمَيَّا [4] الْكَأْسِ فِيهِمْ وَالْغِنَاءُ [5]

أفأُطلقتْ لكَ الخمرُ كغيركَ من أصحاب الخلود، أم حُرِّمت عليك مثلما حُرِّمت على أعشى قيسٍ ؟ » فيقولُ زهيرٌ : « إنَّ أَخا قيس أدركَ محمداً ، فوَجبتْ عليه الْحُجَّةُ، لأنه بُعِثَ بتحريم الخمْر وحَظْرِ ما قبُحَ ، وَهَلكتُ أنا والخمر كغيرها من الأشياء ، يشربُها أتباعُ الأنبياء . فلا حجَّةَ علىَّ » فيدعوهُ الشيخُ إلى المنادمة ، فيجدهُ من ظِرَاف الندماء ، فيسأله عن أخبار القدماء .

حديث عبيـــد

ثم ينصرفُ إلى « عَبيدٍ » فاذا هو قد أُعطِىَ بقاءَ التأبيد [6]، فيقولُ : « السلام عليكَ يا أَخا بنى أَسَدٍ » فيقول : « وعليكَ السلام — (وأهلُ الجنة أذكياء) — لعلكَ تريدُ أن تسألَنى بِمَ غُفِرَ لى ؟ » فيقول : « أجَلْ . وإن فى ذلك لعجباً ! »

---

(١) يقول : اتركوا الرياء فلا فائدة منه ، ولا تخفوا ما تضمرون ، فإن الله عليم بذات الصدور ، وهو مُجاز كل إنسان بما يضمره عاجلاً أو آجلاً (٢) جماعة (٣) سكارى (٤) حميا الكأس : سورتها وشدتها ، أو إسكارها وأخذها بالرأس (٥) معنى البيتين : و يا رب مجلس أنس غدوت اليه فنعمت فيه بمنادمة إخوان كرام صفا بهم وقتنا ، واكتمل بجمعهم أنسنا ، ولم ينقصنا شىء من جالبات السرور ، وقد تمكنت سورة الخمر من رءوس هؤلاء الندامى ، فمشوا مترنحين يختالون فى أبرادهم (٦) التأبيد : الخلود

فيقول عبيدٌ: « إنى دخلتُ الهاويةَ، وكنتُ قلتُ فى أيام الحياة:

من يَسألِ الناس يحرموه   وسائلُ اللهِ لا يَخيبُ

وسارَ هذا البيتُ فى آفاقِ البلادِ، فلم يزلْ يُنشَدُ ويَخفُّ عنى العذابُ، حتى أُطلقتُ من القيودِ والأصفادِ؛ ثم كُرِّرَ إلى أن شَمِلتنى الرحمةُ ببركة هذا البيتِ. « وَإنَّ رَبَّنَا لغفُورٌ رَحيمٌ »

فإذا سمعَ الشيخُ ما قال ذانِكَ الرَّجُلان، طَمِعَ فى سلامةِ كثيرٍ مِن أصناف الشعراءِ.

حديث عدى بن زيد[1]

فيقولُ لِعَبيدٍ: « أَلكَ علمٌ بعَدِىّ بنِ زَيْدٍ العِبَادِىّ؟ فيقولُ: « هذا منزلُهُ قريباً منكَ. » فيقِفُ عليهِ، فيقولُ: « كيفَ كانتْ سلامتُكَ عَلَى الصراطِ؟ » فيقولُ: « إنِّى كنتُ عَلَى دِينِ المسيحِ، وَمنْ كانَ مِنْ أَتباعِ الأنبياءِ قبلَ أن يُبْعَثَ « محمَّدٌ » فلا بأسَ عليهِ، وإنما التَّبعةُ عَلَى منْ سجدَ للأَصنامِ ».

فيقولُ الشيخُ: « لقدْ هممتُ أن أَسألَكَ عنْ بيتِكَ الذى استَشهدَ بهِ سِيبَوَيْهِ وهوَ قولُكَ:

أَرَواحٌ مُوَدِّعٌ أَمْ بُكورُ   أَنْتَ فانظُرْ لِأَىِّ حَالٍ تَصيرُ

فإنهُ يَزْعُمُ أَنَّ (أَنْتَ) يجوز أن تُرْفَعَ بفعل مُضمرٍ يفسره قولُكَ: فانْظُرْ، وأنا أستبعدُ هذا المذهبَ ولا أظنُّكَ أردتَهُ » فيقولُ عَدِىُّ بنُ زيدٍ: « دَعْنى مِن هذه الأباطيل! »

---

(١) انظر ترجمته فى ص ٨

« ولكنى كنتُ فى الدار الفانيـةِ صاحبَ قَنَصٍ ، فهل لك أن نَرْكبَ فَرَسَيْنِ من خيلِ الجَنَّة ، فَنبعثَهما على صِيرانها[١] ، وخِيطانِ[٢] نعامِها ، وأسرابِ ظِبائها ، وعاناتِ[٣] حُمُرِها ، فإنَّ للقَنيص لَذَّةً ! » فيقول الشيخ : « إنما أنا صاحبُ قلمٍ ، ولم أَكُن صاحبَ خَيْلٍ ! وما يُؤْمِنُنى إذا رَكِبْتُ طِرْفاً — وأنا كما قال القـائلُ :

لَمْ يَرْكَبوا الخَيْلَ إلا بَعْدَ ما كَبِرُوا ... فَهُمْ ثِقـالٌ عَلَى أَكْتافِها عُنُفُ

أن يَلْحقَنى ما لَحِقَ صاحبَ المُتَجَرِّدَةِ لَمَّا حُمِل على اليَحْموم ؟ ويجوز أن يَقْذِفَنى السَّابحُ[٤] على صخورِ زُمُرُّدٍ ، فيكسرَ لى عَضُداً أو ساقاً ، فأَصيرَ ضُحْكَةً فى أهل الجِنانِ ! » فيبتَسِمُ عَدِىٌّ ، ويقولُ : « وَيْحَكَ ! أما علِمْتَ أن الجَنة لا يُرْهَبُ لديها السَّقَمُ ، ولا تَنْزِلُ بسَكْنِها النِّقَمُ ؟ » فيرْكَبانِ سابحَيْنِ من خَيلِ الجَنةِ ، مَرْكَبُ كلٍّ واحدٍ مِنْهُما لو عُدِلَ بممالِكِ العاجلَةِ مِن أَوَّلها إلى آخِرِها لرَجَحَ بها[٥] ، وزاد فى القيمَةِ عليها ، فإذا نظر إلى صِوارٍ[٦] تَرْتَعُ فى رياض الفِرْدَوْسِ ، صَوَّبَ الشيخ الرُّمْحَ لِأَخْنَسَ[٧] ذَيَّالٍ[٨] ، فإذا لم يبقَ بين السِّنانِ وبينه إلاّ قِيدُ ظُفْرٍ ، قال : « أمْسِكْ — رَحِمَكَ اللهُ — فإنى لَسْتُ من وَحْشِ الجَنة التى أَنْشَأَها اللهُ سبحانه ، ولم تكن فى الدار الزائلةِ ، ولكِنى كنتُ أَرُوضُ فى

---

(١) الصيران جمع صيار وهى لغة فى صوار ، والصوار بالضم (ويكسر) : القطيع من بقر الوحش (٢) جماعات النعام (٣) العانة : القطيع من حمر الوحش (٤) الحصان الذى إذا جرى صار كأنه يسبح (٥) فى اللغة : رجح الشىء الشىء : زاد وزنه عليه . وفيها أيضاً : راجحه فرجحه ، أى وازنه فكان أكبر منه وزناً . ولم نجد رجح به فيما بين أيدينا من كتب اللغة — فلعله تجوّز فى التعدية (٦) جماعة من بقر الوحش (٧) ثور وحشى (٨) طويل الذيل

بعض القِفار، فمرَّ بى رَكْبٌ مؤمنون قد أكْرَى[١] زادُهُم، فصرعونى، واستعانوا بى على السفر، فعوَّضَنى اللهُ بأن أسكنَنى فى الْخُلود». فيكف عنه الشيخ، ويَعْمِدُ لِعِلْجٍ[٢] وَحْشِيّ، ما التَّلَفُ عنده بِخَشِيّ؛ فإذا صار الخِرْصُ[٣] منه بقدر أَنْمُلَةٍ قال: «أَمْسِكْ يا عبدَ اللهِ، فإن اللهَ أنعمَ عَلَىَّ ورفع عنى البُؤْسَ؛ وذلك أنى صادَنى صائدٌ بِمِخْلَبٍ، وكان إهابى[٤] له كالسَّلَبِ[٥]؛ فباعه فى بعض الأمصار، فاتُّخِذَ منه غَرْبٌ[٦]، شُفِىَ بمائهِ الكَرْبُ، وتطهَّرَ بِنَزِيعِهِ[٧] الصالحون، فشمِلَتْنى بركةٌ من أولئك، فدخلْتُ الجنة ارْزَقُ فيها بغير حسابٍ» فيقول الشيخُ: «فينبغى أن تتميَّزْنَ، فمن كان منكُنَّ دخل الفانيةَ، فما يجب أن يختلطَ بوحوش الجنة» فيقولُ ذلك الوَحْشِىُّ: «لقد نَصَحْتنا نُصْحَ الشفيق، وسوف نَمْتَثِلُ ما أمَرْتَ».

حديث الْهُـــذَلى[٨]

وينصرِفُ مولاىَ الشيخُ وصاحبُهُ عَدِىٌّ، فإذا هُما برَجُلٍ يَحْتَلِبُ ناقةً فى إناءٍ من ذَهَبٍ، فيقولانِ: «مَنِ الرَّجُلُ؟» فيقولُ: «أبو ذُؤَيْبٍ الْهُذَلِىُّ»،

---

(١) أكْرَى: زاد ونقص — ضد — والمراد هنا النقصان (٢) العلج: الحمار
(٣) الخرص — بفتح الخاء وكسرها —: السنان أو الرمح القصير (٤) جلدى
(٥) ما يسلبه الرجل من قرنه (٦) الغرب: الدلو العظيمة (٧) ما ينتزع من الماء

(٨) أبو ذؤيب الهذلى

اسمه خويلد بن خالد، وهو شاعر جاهلى إسلامى، خرج مع عبد الله بن الزبير فى غزوة فمات ومما يروونه عنه أنه كان يهوى امرأة من قومه؛ وكان قد وجه رسولاً إليها من قومه يقال له خالد بن زهير، فخانه، فقال:

فيقولانِ : « حَيِيتَ وَسَعِدْتَ ، أَتَحْتَلِبُ مع أَنْهارٍ من لبَنٍ ! » فيقولُ : « لا بأْسَ . إنما خَطرَ لى ذلك ، مِثْلَما خطرَ لكما القَنَصُ ، وإنى ذكَرْتُ قوْلى فى الدهر الأَوَّلِ :

تريدين كيما تجمعيني وخالدا — وهل يجمع السيفان – ويحك – فى غمد
أخالد ! ما راعيت منى قرابة — فتحفظنى فى الغيب أو بعض ما تبدى

ومن غريب المصادفات أن أبا ذؤيب هذا كان قد خان فى هذه المرأة ابن عمه « مالك بن عويمر » فانتهز خالد هذه المناسبة ليعيره بها ، ويتخذ منها تكأة يبرر بها خيانته ، فقال :

فلا تجزعن من سنة – أنت سِرْتَهَا – — وأول راض سنة من يسيرها
وكنت إماماً للعشيرة ، تنتهى — إليك – اذا ضاقت بأمر صدورها
ألم تنتقذها من ابن عويمر — وأنت صفى نفسها ووزيرها ؟

وفى هذه الأبيات تهكم لاذع وسخرية قاتلة ؛ وفيها أيضاً مهارة وافتنان فى إظهار هذا التهكم ، وفيها حجة مفحمة لا تقبل النقض . وأنَّى يتنصل ، و بأى حق يجزع من معاملة الناس بمثل ما عاملهم به ؟ أليس من أصدق الصدق قوله : « وأول راض سنة من يسيرها » ! نعم ولا نحسب القارئ فى حاجة إلى تنبيهه إلى ما فى البيتين الآخرين من الجمال والفن !

ومن مختار شعر أبى ذؤيب قوله لخالد بن زهير هذا ، وهو من أجود الشعر :

فما حمل البختى – عام غياره – — عليه الوسوق برها وشعيرها
بأ كثر مما كنت حملت خالداً ، — وشر أمانات الرجال غرورها !

إلى أن يقول :

فإن حراماً أن أخون أمانة — وآمن نفساً ليس عندى ضميرها
أحاذر – يوماً – أن تبين قرونتى — ويسلمها إخوانها ونصيرها
وما يحفظ المكتوم من سر أهله — إذا عقد الأسرار ضاع كبيرها
من الناس ، إلا ذو وفاء يعينه — على ذاك منه صدق نفس وخيرها

*
* *

رعى خالد سرى ليالى نفسه — توالى على قصد السبيل أمورها

وَإِنَّ حَدِيثًا مِنْكِ لو تَعْلَمِينَهُ جَنَى النَّحْلِ فى أَلْبَانِ عُوذٍ(١) مَطَافِلِ
مَطافِيلَ أَبْكَارٍ حَدِيثٍ نِتاجُها ، تُشَابُ بِماءٍ مِثْلِ ماءِ الْمَفاصِلِ(٢)

فَقَيَّضَ اللهُ بِقُدْرَتِهِ لى هذه النَّاقةَ مُطفِلًا ، فَقُمْتُ أَحْتَلِبُ على العادة . وَأُرِيدُ أن أشوبَ ذلك بِضَرَبِ(٣) نَحْلٍ . » فإذا امْتَلَا إِناؤُهُ من الرِّسْلِ(٤)، كَوَّنَ الْبَارِئُ – جَلَّتْ عَظَمَتُهُ – خَلِيَّةً من الْجَوْهَرِ ، رَتَعَ ثَوْلُها(٥) فى الزَّهَرِ ؛ فَاجْتَنَى ذلك أبو ذُؤَيْبٍ ومزج حليبَهُ ، فيقولُ : « أَلا تَشْرَبانِ ؟ » فيَجْرَعانِ من ذلك الْمِحْلَبِ(٦) جُرَعًا لو فُرِّقَتْ عَلَى أَهْلِ « سَقَرَ » لفازُوا بِالْخُلْدِ ، فيقولُ عَدِيٌّ : « الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانا لِهَذَا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانا اللهُ ، لقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ . وَنُودُوا : أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »

حديث النابغتين

ويمضى فى نُزْهَتِهِ تلك بشابَّيْنِ يَتحادَثانِ ، كلٌّ واحِدٍ مِنْهُما على باب قَصْرٍ من دُرٍّ ، قد أُعْفِيَ من الْبُؤْسِ والضُّرِّ ؛ فيُسَلِّمُ عليهما ويقولُ : « مَنْ أَنْتُما

فلما تراماه الشباب وغيه —وفى النفس منه غدرة وفجورها—
لوى رأسه عنى ، ومال بوده أغانيج خود كان قدما يزورها
تعلقه منها دلال ومقلة تظل لأصحاب السقام تديرها

(١) جمع عائذ، وهى القريبة العهد بالنتاج (٢) ماء المفاصل : هو الماء بين جبلين من رمل ورضراض ، وهو من أصفى أنواع المياه وأعذبها ، ومعنى البيتين : إن لأحاديثك الجميلة لذة عظيمة أجدها فى نفسى ، وعذوبة لا يماثلها إلا عذوبة الشهد امتزج بأصفى ألبان الإبل
(٣) الضرب : العسل (٤) اللبن (٥) الثول : جماعة النحل (٦) إناء اللبن

— رَحِمَكُمَا اللهُ — وقد فعلَ(١) » فيقولانِ : « نَحْنُ النَّابغتانِ : نابغَةُ بني جَعْدَةَ(٢) ونابغةُ بنِي ذُبْيانَ »

(١) أي قد رحمهما الله بإدخالهما الجنة

(٢) النابغة الجعدى — توفى سنة ٥٨ هـ بأصبهان

كنيته أبو ليلى ، ولقبه النابغة الجعدى ، وهو قيس بن عبد الله الجعدى ، شاعر مخضرم ، اشتهر بوصف الخيل و إنكار الخمر فى الجاهلية وهجر الأزلام والأوثان ، وقد عمر فى الاسلام حتى شهد مع علىٍّ وقائع صفين ، وظاهره بيده ولسانه

وشخصية الجعدى من الشخصيات الجذابة ، وشعره جميل يزينه الصدق والدقة وعزة النفس . ومن أجمل ما نختاره منه رائيته المشهورة التى مدح بها النبى (ص) حين وفد عليه ، وفيها يقول :

ولا خير فى حلم ، إذا لم يكن له ... بوادر ، تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل ؛ إذا لم يكن له ... حليم – إذا ما أورد الحلم أصدرا

وهذا أبرع وأشمل من بيت المتنبى الذى اقتبس فيه هذا المعنى فقال :

ووضع الندى – فى موضع السيف – بالعلى ... مضر ، كوضع السيف فى موضع الندى

وما أروع ما قاله الجعدى فى تلك القصيدة :

و إن جاء أمر لا تطيقان دفعه ... فلا تجزعا مما قضى الله ، واصبرا
ألم تريا أن الملامة نفعها ... قليل ، إذا ما الشىء ولى وأدبرا
تهيج البكاء والندامة ، ثم لا ... تغير شيئاً غير ما كان قدرا

إلى أن يقول :

و إنا لقوم ، ما تعود خيلنا ... – إذا ما التقينا – أن تحيد وتنفرا

*
* *

وعند ما تولى معاوية الخلافة ، كتب إلى مروان أن يأخذ أهل النابغة وماله ، فدخل النابغة على معاوية — وعنده مروان — وأنشد أبياتاً ؛ من أروعها وأدلها على إبائه وشجاعته ، وأدقها فى تصوير نفسه العالية وشاعريته الفياضة — قوله :

فيقولُ — ثَبَّتَ اللهُ وَطْأَتَهُ — :

« أَمَّا نابغةُ بنى جَعْدَةَ ، فقد استوْجَبَ ما هو فيه بالْحَنيفِيَّةِ(١) ، وَأَمَّا أنت يا أَبا أُمامةَ(٢) فما أدرى ما جِهَتُكَ ؟ » فيقولُ الذُّبْيانِىُّ(٣) : « إنى كنت مُقِرًّا باللهِ ، وَحَجَجْتُ البيتَ فى الْجاهِلِيَّة ، أَلَمْ تسمعْ قوْلى :

وإن تأخذا أهلى ومالى بظِنة ۞ فإنى لحرّاب الرجال محرب

صبور على ما يكره المرء كله ۞ سوى الظلم، إنى -إن ظلمت- سأغضب

فارتاع معاوية ، والتفت إلى مروان ؛ فقال : « ما ترى ؟ » قال . « أرى ألا ترد عليه شيئاً » قال : « ما أهون والله عليك أن ينجحر هذا فى غار ، ثم يقطع عرضى علىّ ، ثم تأخذه العرب فترويه ، اردُد عليه كل شىء أخذته ! »

وستمر بك تلك المشاجرة « الخيالية » التى وقعت بينه وبين الأعشى فى الجنة ، وهى تمثل شجاراً عنيفاً بين شخصيتين من أكبر شخصيات العرب إذ يقول الأعشى للجعدى :

« .... وان بيتاً مما بنيت ليعدل بمائة من بنائك ! وإن أسهبت فى منطقك . فإن المسهب لحاطب الليل ؛ وإنى لفى الجرثومة من ربيعة الفرس ، وهل جعدة إلا رائدة ظليم نفور ! »

« أتعيرنى مدح الملوك يا جاهل : ولو قدرتَ على ذلك لهجرتَ اليه أهلك وولدك ؟ ولكنك خلقت جباناً لا تدلج فى الظلماء الداجية ، ولا تهجر فى الوديقة الصاخدة » .

فيجيبه الجعدى — مغضباً — :

« اسكت يا ضل بن ضل ، فأقسم إن دخولك الجنة من المنكرات ؛ ولكن الأقضية جرت كما شاء الله ! لحقك أن تكون فى الدرك الأسفل من النار ! ولقد صلى بها من هو خير منك ! ولو جاز الغلط على رب العزة ، لقلت إنك قد غلط بك . . . . الخ الخ »

(١) بالإسلام (٢) يعنى النابغة الذبيانى

(٣) النابغة الذبيانى (توفى سنة ٦٠٤ م)

هو زياد بن معاوية بن ضباب ، ويكنى : أبا أمامة ، وأبا عقرب ، وأبا ثمامة ، كان يضرب له قبة بسوق عكاظ يحكم فيها بين الشعراء ، وكان نديم النعمان وقد مدحه بكثير من القصائد الجميلة

فَلَا لَعَمْرُ الذى قد زُرْتُهُ حِجَجًا(١) وَما هُرِيقَ(٢) عَلَى الأَنْصَابِ(٣) مِن جَسَدِ(٤)
وَالْمُؤْمِنِ العَائِذَاتِ(٥) الطَّيْرَ تَمْسَحُها(٦) رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الغَيلِ وَالسَّعَدِ(٧)

وقولى :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَهَلْ يَأْثَمَنْ ذُو إِمَّةٍ(٨) وَهْوَ طَائِعُ

ثم غضب عليه النعمان لوشاية المنخل الشاعر به فى وصفه المتجردة امرأة النعمان ، فهرب النابغة الى بنى غسان ، ونزل بعمرو بن الحارث الأصغر ، ملك الغساسنة ، فمدحه بقصيدته الشهيرة التى افتتحها بهذه الأبيات الثلاثة الرائعة :

كِلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب
تطاول حتى قلت : « ليس بمنقض وليس الذى يرعى النجوم بآئب »
وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

ثم رضى عنه النعمان ، فعاد اليه . ومن أجمل شعره قوله :

قامت تراءى بين سجفى كلة كالشمس يوم طلوعها بالأسعد
سقط النصيف – ولم ترد إسقاطه – فتناولته واتقتنا باليد

وقوله :

نظرت اليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

وستمر بك طائفة أخرى من شعره وأخباره فى موضعها

(١) الحجج : السنين . ويروى : « فلا لعمر الذى مسّحت كعبته » (٢) أريق وصب (٣) هى الحجارة التى كانوا يذبحون عليها القرابين حول الكعبة ، ومفردها نُصُب (٤) دم (٥) اللائذات أى الطير اللائذات (٦) تتبعها وتمر أيديها عليها بلطف (٧) الغيل والسعد هنا موضعان ؛ وخلاصة معنى البيتين أنه يقسم بالله الذى حج إلى بيته مراراً ، ويقسم بما أريق على حجارة الكعبة المقدسة من دماء القرابين ، وبمن أمَّن طيور تلك الناحية التى يلاطفها ركبان مكة بين الغيل والسعد ؛ ليثبت للنعمان أنه صادق فيما يقول . (٨) الشرعة والدين

بِمُصْطَحِباتٍ مِنْ لَصَافٍ وَثَبْرَةٍ[١] يَزُرْنَ أَلَالًا[٢] سَيْرُهُنَّ تَدافُعُ[٣]

ولم أُدْرِكِ النَّبِيَّ — صلى اللهُ عليهِ وسلم — فتقومَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ بخلافِهِ، وَإِنَّ اللهَ — تَقَدَّسَتْ أَسْماؤُهُ — يغفِرُ ما عظُمَ وَقلَّ

فيقولُ: «يا أبا سَوادَةَ ويا أبا أُمامَةَ ويا أبا لَيْلَى! اجعلوها ساعةَ مُنادَمةٍ، فإنَّ مِن قوْلِ شَيْخِنا العِبادِيِّ:

أَيُّها القَلْبُ تَعَلَّلْ بِدَدَنْ إنَّ هَمِّي فِي سَماعٍ وَأَذَنْ[٤]

وَشَرابٍ خُسْرُوانِيٍّ إذا ذاقَهُ الشيْخُ تَغَنَّى وَارْجَحَنّ[٥]

فَكيف لنا بِأَبِي بَصِيرٍ[٦]؟» فلا تَتِمُّ الكَلِمةُ إلَّا وأبو بَصِيرٍ قد خَمَسَهُمْ[٧]، فيسبِّحون اللهَ وَيُقدِّسونهُ وَيَحْمَدُونهُ على أن جمع بينَهُمْ، وَيَتْلو[٨] هذه الآيةَ: «وهوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ» فإذا أَكَلوا مِن طيِّباتِ الْجَنَّة، وشرِبوا مِن شرابِها الذى خَزَنهُ اللهُ لعبادِهِ المُتَّقِينَ، قال الشيخ: «يا أبا أُمامةَ إنك لَحَصِيفُ[٩] الرَّأْيِ لَبِيبٌ، فكيف حَسَّنَ لكَ لُبُّكَ أن تقولَ للنُّعْمانِ بنِ المُنْذِرِ:

---

(١) لصاف وثبرة ماءان بناحية الشواجن فى ديار ضبة بن أد (٢) جبل بعرفات (٣) المعنى انه يقسم للنعمان ليزيل ما علق بنفسه من الريبة ويمحو منها الأثر السيء الذى خلفته وشايات أعدائه ويؤكد له أنه بار فى قسمه وأنه غير حانث فى يمينه (٤) الددن أو الدد: اللهو أو اللعب. والأذن: الاستماع فى إعجاب (٥) اهتز وتمايل، والمعنى: أله أيها القلب وانس همومك فإنى مولع بسماع الغناء ومعاقرة ذلك الشراب الخسروانى الذى ينسى الشيخ — حين يشربه — وقار شيخوخته فيتمايل من النشوة راقصاً مغنياً. وقد مرت ترجمة العبادى هذا فى ص ٨ (٦) الأعشى، وقد مرت ترجمته فى ص ٢١ (٧) صار خامسهم (٨) أى الشيخ ابن القارح (٩) سديد أو محكم

زَعَمَ الْهُمَامُ بِأَنَّ فَاهَا بَارِدٌ عَذْبٌ، إذا ما ذُقْتَهُ قُلْتَ: ازْدَدِ
زَعَمَ الْهُمَامُ — ولمْ أَذُقْهُ — بأنهُ يُشْفَى بِبَرْدِ لِثَاتِهَا العَطِشُ الصَّدِى[١]

ثم استمرَّ بكَ القولُ حتى أنكرَهُ عليك خاصَّةٌ وعامَّةٌ » فيقولُ النَّابغةُ — بذَكاءٍ وَفَهْمٍ — : « لقد ظَلَمَنى من عابَ عَلَيَّ، ولو أَنْصَفَنى لَعلِمَ أننى احْتَرَزْتُ أشدَّ احْتِرَازٍ، وذلك أن النُّعْمَانَ كَانَ مُسْتَهْتَرًا[٢] بتلكَ الْمَرْأَةِ، فأَمَرَنى أن أذكُرَها فى شعرى، فأَدَرْتُ ذلك فى خَلَدِى، فقلتُ: « إِن وَصَفْتُها وَصْفًا مُطْلَقًا، جازَ أن يكون بغيرها مُعَلَّقًا » وَخَشِيتُ أن أذكُرَ اسْمَها فى النظمِ فلا يكون ذلك موافقًا للملكِ، لِأَنَّ الملوكَ يَأْنَفُونَ من تَسْمِيَةِ نِسَائِهِمْ؛ فرأيْتُ أن أُسْنِدَ الصفةَ إليهِ، فأقولَ: (زَعَمَ الْهُمَامُ) إذ كنتُ لو تركْتُ ذِكْرَهُ لظَنَّ السامعُ أن صِفَتى على المشاهدةِ؛ والأبياتُ التى جاءت بَعْدُ داخلَةٌ فى وَصفِ الْهُمَامِ، فمن تأمَّلَ المعنى وَجدهُ غيرَ مُخْتَلٍّ. وكيف يُنْشِدُونَ: « وَإِذَا نظرتَ رَأَيْتَ أَقْمَرَ مُشْرِقًا » وما بعده؟ » فيقولُ الشيخ: « يُنْشَدُ: وَإِذَا نَظَرْتَ، وَإِذَا لَمَسْتَ، وإذا طَعَنْتَ، وإذا نَزَعْتَ، على الْخِطَابِ » فيقولُ النابغةُ: « قد يَسُوغُ هذا، ولكنَّ الأجْوَدَ أن تجعلوهُ إخبارًا عن الْمُتَكَلِّمِ، لأن قوْلى: « زَعَمَ الهمامُ » يؤدِّى معنى قوْلنا: « قالَ الهمامُ » فهذا أسلمُ، إذْ كَانَ الملِكُ إنما يَحكى

---

(١) الشديد الظمأ؛ والمعنى أن الملك النعمان حكى لنا أن رضاب زوجه المتجردة لذيذ حلو الطعم، كلما ارتشفته ازددت هياماً به واندفاعاً إلى رشفه، فإذا تذوقته وقد أجهدك العطش أزال ظمأك وأثلج صدرك، ذلك هو ما يحكيه لنا المليك أرويه عنه، وإن كنت لم أذقه (٢) متفانياً فى حبها

عن نفسهِ . وإذا جعلتموهُ على الخطابِ قَبُحَ ؛ إنْ نسبتموهُ إلَيَّ فهُوَ مُنْدِيةٌ[١] ، وإنْ نسبتموه إلى النُّعْمَانِ فهُوَ إزْراءٌ وَتنَقُّصٌ »

فيقولُ : « لِلهِ دَرُّكَ يا كوكبَ بنِي مُرَّةَ ! ولقد صَحَّفَ عليكَ أَهلُ الْعِلْمِ مِنَ الرُّواةِ ، وكيف لِي بأَبوَيْ عَمْرٍو الْمَازِنِيِّ وَالشَّيْبَانِيِّ ، وَأَبِي عُبَيْدَةَ ، وَعبدِ الملكِ وغيرِهم من النَّقَلَةِ ، لأسأَلَهُمْ كيف يَرْوُونَ ، وأنت شاهِدٌ ؛ لِتَعْلَمَ أَنِّي غيرُ الْمُتَخَرِّصِ[٢] ولا الوَلَّاغِ[٣] » فلا يَقِرُّ هَذا القولُ في حُذُنَّةِ[٤] أَبِي أُمَامَةَ[٥] إلَّا والرُّوَاةُ أَجْمَعُونَ قد أَحْضَرَهُمُ اللهُ القادرُ من غيرِ مشقَّةٍ نالَتْهُمْ ، ولا كُلْفَةٍ في ذلك أصابَتْهُمْ ؛ فيُسَلِّمُونَ بِلُطْفٍ ورفقٍ ، فيقولُ :

« مَنْ هذه الشُّخُوصُ الْفِرْدَوْسِيَّةُ ؟ »

فيقولونَ : « نحن الرُّوَاةُ الذين شئتَ إحْضَارَهُمْ آنفاً » فيقولُ : « لَا إلٰهَ إلَّا اللهُ ! كَيْفَ تَرْوُونَ قولَ النَّابغةِ في الداليَّةِ : وَإذا نظرتُ . وإذا لَمَسْتُ ، وإذا طعنْتُ ، وإذا نزعْتُ : أَبِفتحِ التاءِ أَمْ بِضَمِّها ؟ » فيقولونَ : « بفتحها » فيقولُ : « هذا شيخُنا أَبو أُمَامَةَ يختارُ الضمَّ ، ويُخبرُ أنهُ حكاهُ عن النُّعْمانِ » فيقولونَ : « هو كما جاء في الكتابِ الكريمِ : « والأَمْرُ إليكِ ، فانظري ماذا تأْمُرِينَ ؟ »

فيقولُ الشيخُ : « مضى الكلامُ في هذا يا أبا أُمَامَةَ ، فأَنْشِدْنا كلمتَكَ التي أولُهَا :

---

(١) المندية : الكلمة يعرق منها الجبين (٢) الكاذب (٣) الذى لا يبالى بالمذام

(٤) أُذُن (٥) النابغة الذبيانى وقد مرت ترجمته فى ص ٣٩

أَلِمَّا عَلَى الْمَمْطُورَةِ(١) الْمُتَأَبِّدَهْ(٢) … أَقَامَتْ بِهَا فِى الْمَرْبَعِ(٣) الْمُتَجَرِّدَهْ(٤)
مُضَمَّخَةٌ بِالْمِسْكِ مَخْضُوبَةُ الشَّوَى(٥) … بِدُرٍّ وَيَاقُوتٍ لَهَا مُتَقَلِّدَهْ
كَأَنَّ ثَنَايَاهَا – وَمَا ذُقْتُ طَعْمَهَا – … مُجَاجَةُ(٦) نَحْلٍ فِى كُمَيْتٍ(٧) مُبَرَّدَهْ
لِيَقْرِرْ بِهَا النُّعْمَانُ عَيْناً، فَإِنَّهَا … لَهُ نِعْمَةٌ فِى كُلِّ يَوْمٍ مُجَدَّدَهْ(٨)

فيقولُ أبو أُمامَةَ: «ما أذكُرُ أنّى سلكتُ هذا القَرِىَّ(٩) قطُّ» فيقولُ مولاى الشَّيْخُ: «إنّ ذلكَ لعجبٌ! فمَنِ الذى تطوَّعَ فنسبَها إليك؟» فيقولُ: «إنها لم تُنْسَبْ إلىَّ على سبيل التطوعِ، ولكنْ على معنى الْغَلَطِ والتَّوَهُّمِ؛ ولعلها لِرجُلٍ منْ بنِى ثَعلبَةَ بنِ سعد» فيقولُ نابغةُ بنِى جَعْدَةَ: «صَحِبَنِى شابٌّ فى الجاهليةِ ونحن نريدُ الحِيرَةَ، فأنْشدَنِى هذه الْقَصيدَةَ لنفسهِ، وذكَرَ أنه ابنُ ثعلبةَ، وصادف قُدُومُهُ شَكَاةً(١٠) من النُّعمانِ، فلم يَصِلْ بها إليهِ» فيقولُ نابغةُ بنى ذُبيانَ: «ما أَجْدرَ ذلك أنْ يكونَ!»

---

(١) الأرض التى أصابها مطر (٢) التى سكنها الوحوش (٣) محل الإقامة فى الربيع (٤) اسم امرأة النعمان (٥) الأطراف، ومخضوبة الشوى أى ملونة أطرافها بالحناء (٦) ريق (٧) خمر (٨) المعنى: عرجا على تلك الارض التى جادها الغيث بسقياه، حيث تقيم المتجردة زوج النعمان التى ينعم بحسنها الدائم التجدد كل يوم والتى تضمخت بالمسك، وخضبت أطرافها بالحناء، وتقلدت بالدر، وماثل طعم ريقها – وإن كنت لم أذقه – شهداً ممزوجاً بخمر بارد. وهذه أبيات تبدو عليها مسحة التكلف والبعد عن الأسلوب الجاهلى لمن ينظر اليها بأدنى تأمل، ونرجح أنها من مختلقات الرواة – وما أكثرها – وهى عندنا تقليد غير متقن لدالية النابغة التى وصف فيها المتجردة زوج النعمان، وقد ورد ذكرها فى ص (٤٢) من هذا الجزء (٩) قَرِىُّ الماء: مسيله. والمراد هنا: الطريق أو المذهب (١٠) الشَّكاة: المرض، أو أهونه

مجلس غنـــاء

ويمُرُّ رَفٌّ[١] من إوَزِّ الجنةِ، فلا يَلبثُ أن يَنزِلَ على تلك الرَّوضة، ويقِفَ وَقوفَ مُنتَظِرٍ لأمرٍ، ومن شأنِ طيرِ الجَنَّةِ أن يتكلَّمَ.

فيقولُ: «ما شأنُكُنَّ!» فيقُلْنَ: «أُلهِمنا أن نسقُطَ في هذه الرَّوْضةِ فنُغَنِّيَ لمن فيها من شَرْبٍ» فيقولُ: «على بركةِ الله القديرِ» فينتَفِضْنَ فيصِرْنَ جَوارِيَ كَواعِبَ، يَرْفُلْنَ[٢] في وَشْيِ[٣] الجنةِ، وبأيديهِنَّ المَزاهِرُ[٤] وأنواعُ ما يُلتَمَسُ به المَلاهي؛ فيَعجَبُ — وحُقَّ له العجب — وليس ذلك ببديعٍ من قدرة اللهِ جلَّتْ عظَمَتُهُ. فيقولُ لإحداهُنَّ على سبيل الامتحانِ: «اعملي قوْلَ أبي أمامةَ — وهو هذا القاعِدُ —:

أَمِنَ آلِ مَيَّةَ رائِحٌ[٥] أو مُغتَدِ[٦] ... عَجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مُزَوَّدِ

ثقيلًا أوَّلَ» فتَصنَعهُ، فتجيءُ به مُطرِبًا، وفي أعضاءِ السامعِ مُتَسرِّبًا؛ ولو نُحِتَ صَنَمٌ من أحجارٍ، ثم سَمِعَ ذلك الصوتَ لرَقَصَ، فيقولُ: «هلُمَّ خفيفَ الثَّقيلِ الأوَّلِ» فتنبعِثُ فيه بنَغَمٍ لو سمعهُ الغَرِيضُ[٧]، لأقرَّ أن ما ترنَّمَ به مريضٌ؛ فإذا أجادَتْهُ، قال: «عليكِ بالثقيلِ الثاني» فتأتي به، فإذا رأى ذلك قال: «سُبحانَ اللهِ! كلما كُشِفَتِ القدرةُ بدت لها عجائبُ، فصيري إلى خفيفِ الثقيلِ الثاني، فإنَّكِ لمُجيدةٌ محسِنةٌ» ثم يقترحُ عليها الرَّمَلَ وخفيفَهُ، وأخاهُ الهزَجَ،

---

(١) سرب (٢) يتخايلن أو يتبخترن (٣) حرير (٤) جمع مزهر، وهو نوع من آلات الطرب (٥) عائد وقت المساء (٦) ذاهب وقت الغداة أي الضحى (٧) المغنى الحاذق. وهو هنا اسم مغن معروف

فإذا تيقن لها حَذَاقَةً ، وعرف منها بالعودِ لَباقَةً ، هَلَّلَ وَكَبَّر ، وَأَطالَ حَمْدَ رَبِهِ وَاعْتَبَرَ ، وقال : « وَيحَكِ ! أَلَمْ تكونى الساعةَ إِوَزَّةً طَائِرَةً ، فمن أَيْنَ لكِ هذا العِلْمَ ؟ لوْ نشأتِ بين مَعْبَدٍ وابْنِ سُرَيْجٍ ، لَمَا هِجْتِ السامعَ بهذا الْهَيْج ! فكيف نَفَضْتِ عنكِ بَلَهَ الإِوَزِّ ؟ » فتقولُ : « وما الذى رَأيتَ من قُدْرَةِ بارِئكَ ؟ إنكَ عَلَى سِيفِ[١] بَحْرٍ ، لا يُدْرِكُ لهُ عِبْرٌ[٢] ، سُبحانَ من يُحيي الْعظامَ وهى رَميمٌ ! »

حديث لبيـــد[٣]

فبينما هم كذلك ، إذ مرَّ شابٌّ . . . .

---

(١) السِّيف : الشاطئ   (٢) العبر : الساحل الآخر

(٣) لبيـــد

توفى سنة ٦٨٠ م .

هو من بنى عامر بن صعصعة ، وأمه عبسية .

عاش نحو ١٤٥ سنة ، أكثرها فى الجاهلية ، وأسلم وهو فى التسعين من عمره ، وصحب النبى (ص) فى هجرته إلى المدينة ، ومات — فى أواخر خلافة معاوية — بالكوفة .

كان بين قبيلته و بنى عبس أخواله عداوة شديدة ، فاجتمع وفداها عند النعمان ابن المنذر ، وكان على العبسيين الربيع بن زياد ، وعلى العامريين ملاعب الأسنة ، عم لبيد ؛ وكان الربيع مقربا عند النعمان يؤاكله وينادمه ؛ فأوغر صدره على العامريين ، فلما دخل وفدهم على النعمان ، أهمله ؛ فخرجوا غضابا ، فسألهم لبيد عن أمرهم — وكان يومئذ صغيراً يرعى إبلهم ويسرحها — فاحتقروه لصغره ، فلما ألح عليهم أشركوه معهم ، فوعدهم بالانتقام لهم ثم هجا الربيع بأبيات مشهورة كرهت فيه النعمان .

*
* *

وقد هجر الشعر فى الإسلام ، واستعاض عنه بقراءة القرآن ، ومن مختار شعره قوله فى رثاء أخيه لأمه ، وكان اسمه أربد — وقد بكى المعتصم حين سمع هذه القصيدة — :

. . . . في يده

بلينا ، وما تبلى النجوم الطوالع ... وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
وقد كنت فى أكناف دارِ مَضنة ... ففارقنى جار بأربد نافع
فلا جزع — إن فرق الدهر بيننا — ... فكل امرئ يوما له الدهر فاجع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ، ... يحور رمادا — بعد ما هو ساطع
وما المرء إلا مضمرات من التقى ... وما المال والأهلون إلا ودائع
وما الناس إلا عاملان ، فعامل ... يتبر ما يبنى ، وآخر رافع
فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ... ومنهم شقى بالمعيشة قانع
أليس ورائى — إن تراخت منيتى — ... لزوم العصا تحنَى عليها الأصابع
أخبّر أخبار القرون التى مضت ... أدبّ كأنى كلما قمت راكع
فأصبحت مثل السيف — أخلق جفنه ... تقادم عهد القَين . والنصل قاطع
فلا تبعدن ، إن المنية موعد ... علينا ، فدان للطلوع وطالع
أعاذل ! ما يدريك — إلا تَظنّيا — ... إذا رحل السفار ، من هو راجع
أتجزع مما أحدث الدهر بالفتى ؟ ... وأى كريم لم تصبه القوارع ؟
لعمرك ، ما تدرى الضوارب بالحصى ... ولا زاجرات الطير ، ما الله صانع

وقوله :

ألا تسألان المرء ، ماذا يحاول ؟ ... أنحب فيقضى ؟ أم ضلال و باطل ؟
حبائله مبثوثة فى سبيله ... ويفنى إذا ما أخطأته الحبائل
إذا المرء أسرى ليلة ، خال أنه ... قضى عملا ، والمرء — ما عاش — عامل
فقولا له — إن كان يقسم أمره — ... ألما يعظك الدهر ؟ أمك هابل !
فتعلم أن لا أنت مدرك ما مضى ... ولا أنت مما تحذر النفس وائل
فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب ... لعلك تهديك القرون الأوائل
فإن لم تجد من دون عدنان باقيا ... ودون معد ، فلتزعك العواذل
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم : ... بلى كل ذى رأى إلى الله واسل

. . . .

ألا كل شيء ما خلا الله — باطل   وكل نعيم — لا محالة — زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم   دويهية تصفر منها الأنامل
وكل امرىء يوما سيعلم سعيه   إذا كشفت عند الإلهَ الحصائل

وقوله من معلقته الرائعة :

أو لم تكن تدرى « نوار » بأننى   وصال عقد حبائل جذامها
تراك أمكنة إذا لم أرضها   أو يعتلق بعض النفوس حمامها
بل أنت لا تدرين كم من ليلة   طلق لذيذ لهوها وندامها
قد بت سامرها ، وغاية تاجر   وافيت إذ رفعت وعز مدامها

*
* *

إنَّا — إذا التقت المجامع — لم يزل   منا لِزَازُ عظيمة جشامها
ومقسم يعطى العشيرة حقها   ومغذمر لحقوقها هضامها
من معشر سنت لهم آباؤهم   ولكل قوم سنة وإمامها
لا يطبعون ولا يبور فعالهم   اذ لا يميل مع الهوى أحلامها
فاقنع بما قسم المليك فإنما   قسم الخلائق بيننا علامها
فضلا وذو كرم يعين على الندى   سمح كسوب رغائب غنامها
وإذا الأمانة قسمت فى معشر   أوفى بأوفر حظنا قسامها
فبنى لنا بيتاً رفيعاً سمكه   فسما إليه كهلها وغلامها
وهم السعاة إذا العشيرة أفظعت   وهم فوارسها ، وهم حكامها
وهم ربيع للمجاور فيهم   والمرملات إذا تطاول عامها

وقوله :

تمنى ابنتايَ أن يعيش أبوهما   وهل أنا إلا من ربيعة أو مضرْ ؟
إذا حان يوماً أن يموت أبوكما   فلا تخمشا وجهاً ، ولا تحلقا شعرَ
وقولا : « هو المرء الذى ليس جاره   مضاعاً ، ولا خان الصديق ولا غدر »

مِحْجَنٌ(١) ياقوتَ ، فيسلِّمُ عليهم ، فيقولونَ : « مَنْ أَنْتَ ؟ » فيقولُ : « أنا لبيدُ ابْنُ رَبيعةَ بْنِ مالكِ بْنِ جعفرِ بْنِ كُلَيْبٍ » فيقولُ : « أَكْرَمْتَ ، أَكْرَمْتَ ، لو قلتَ لَبيدٌ وسَكَتَّ ، لَشُهِرْتَ باسْمِكَ ، فما بالكَ فى مغفرةِ رَبِّكَ ! » فيقولُ : « أنا بِحَمْدِ اللهِ فى عيشٍ قَصَّرَ أن يصِفَهُ الواصفونَ ، لا هَرَمَ ولا بَرَمَ ! »

فيقولُ الشيخُ : « تبارَكَ المَلِكُ القُدُّوسُ ، ومن لا تدرِكُ يقينَهُ الحُدُوسُ(٢) ، كأَنكَ لم تقل فى الدار الفانيَةِ :

« وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا ... وَسُؤَالِ هَذَا النَّاسِ : كَيْفَ لَبِيدُ ؟ »

ولم تَفُهْ بقولك :

« فَتَى أَهْلِكْ فَلاَ أَحْفِلُهُ(٣) ... بَجَلِي(٤) الآنَ مِنَ الْعَيْشِ بَجَلْ
مِنْ حَيَاةٍ قَدْ مَلِلْنَا طُولَهَا ... وَجَدِيرٌ طُولُ عَيْشٍ أَنْ يُمَلْ(٥) »

فأَنشِدْنا ميميَّتَكَ المعلقةَ ، فيقولُ : « هيهاتَ ، إنِّى تركتُ الشِّعْرَ فى الدار الخادعةِ ، ولن أعودَ إليه فى الدار الآخرةِ ، وقد عُوِّضْتُ ما هو خيْرٌ وأَبَرُّ »

فيقولُ : « أخبِرْنى عن قولِكَ :

تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا ... أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وسيمر بك طرف من أخباره وأشعاره فى الرسالة .

(١) العصا المنعطفة الرأس كالصولجان

(٢) الظنون (٣) أى فلا أبالى (٤) بَجَلِي : حسبى وكفانى

(٥) خلاصة معنى البيتين هو : « متى وافانى أجلى لم أكترث له ، فقد طالت حياتى ، فمللت العيش » .

هل أَرَدْتَ ببعضٍ معنى كلٍّ ؟ » فيقولُ لبيدٌ : « كلا . إنما أردتُ نفسى ، وهذا كما تقولُ لِلرَّجُلِ : إذا ذهب مالُكَ ، أَعْطاكَ بعضُ الناس مالاً . وأنت تعنى نفسَكَ فى الحقيقةِ . وظاهرُ الكلام واقعٌ على كل إنسانٍ ، وعلى كل فِرْقةٍ تكون بعضاً للناس »

فيقولُ : « أخبِرْنى عن قولك : « أَوْ يَرْتَبِط » هل مَقْصِدُكَ : إذا لم أَرْضَهَا أو لم يَرتبطْ ؟ أم غرضك أَتْرُكُ المنازلَ أو يرتبط ، فيكون « يَرتبط » كالمحمولِ على قولك تَرَّاكُ أمكنةٍ ؟ » فيقولُ لبيدٌ : « الوجْهَ الأولَ أردتُ »

غنـــاء الحور

ويخطُرُ له غِناءُ الْقِيَانِ بالفُسطاطِ ومدينةِ السلامِ ، ويذكُرُ تَرْجيعَهنَّ بِعيميَّةِ المخبَّلِ السعدىِّ ، فتَندفعُ تلك الجوارى التى نَقلتْهنَّ القدرةُ من خلقِ الطيرِ إلى خلق الْحُورِ ، تُلَحِّنُ قولَ الْمُخَبَّلِ السَّعْدِىِّ :

«ذَكَرَ الرَّبابَ ، وَذِكْرُها سُقْمُ وَصَبا ، وَلَيسَ لمنْ صَبا عَزْمُ
وَإذَا أَلَمَّ خَيـــالُها طَرِفَتْ عَيْنِي فَماءُ شُئُونِها[1] سَجْمُ[2]
كَاللُّؤْلُؤِ الْمَسْجورِ[3] تُوبِعَ فِي سِلْكِ النِّظَامِ فَخانَهُ النَّظْمُ[4] »

فلا يمرُّ حرفٌ ولا حركةٌ إلاّ ويُوقعُ مَسرَّةً لو عُدِلَتْ بمسراتِ أهل العاجلةِ — منذ خلَقَ اللهُ آدمَ إلى أن طوى ذُريتَهُ — لكانت الزَّائدةَ على ذلك زيادة

---

(١) الشئون : مجارى الدموع (٢) مسكوب (٣) المنظوم (٤) تذكَّر الرباب فَشَجاه ذكرها ، وحن اليها فخارت قواه ووهن عزمه ، وألم به خيالها فسحت عيناه بالدموع كما انفرط عقد من اللؤلؤ المنظوم فتساقط متتابعاً

اللُّجِّ المتموِّج على دمعةِ الطفل ، والهضْبِ[١] الشامخ على الهباءَةِ[٢] المُنْتَفِضَةِ.
ويقولُ لِنُدَمائه : « ألا تسمعونَ قولَ السَّعدىِّ[٣] :

« وَتقولُ عاذلَتِي — وليسَ لَهَا بِغَدٍ وَلا ما بَعْدَهُ عِلمُ :

(١) الهضب : المرتفع من الأرض ، أو الجبل المنبسط ، أو كل جبل خلق من صخرة واحدة

(٢) الهباءة : القطعة من الهباء ، وهو الغبار يشبه الدخان و يرى منبثاً فى ضوء الشمس . وقد وهم بعض الكتاب فظن أن المراد بالهباءة هنا : الأرض ، ومنها هباءة غطفان . والصواب ما ذكرنا ، و يؤيده قول المعرى : المنتفضة ، فهذا يقطع الشك

(٣) المخبل السعدى

اسمه ربيعة بن مالك ، وقبيلته بنو شماس من ولد أنف الناقة ، ومما رواه صاحب كتاب « الشعر والشعراء » عن المخبل هذا أنه هجا الزبرقان بن بدر ، وذكر أخته خليدة ، ثم مر بها - بعد حين - وقد أصابه كسر ، وهو لا يعرفها ، فآوته وجبرت كسره ، فلما عرفها قال :

« لقد ضل حلمى فى خليدة ضلة سأعتب نفسى - بعدها - وأتوب
وأشهد - والمستغفر الله - أننى كذبت عليها ، والهجاء كذوب »

وهذا ندم حار يدل على توبة صادقة وضمير شريف يتأثر بالصنيع و يعترف بالجميل ، وقل من الناس من يخلص فى ندمه ، و يعترف بخطئه

ومن خير ما اختاره له «ابن قتيبة» صاحب ذلك الكتاب النفيس «الشعر والشعراء» قوله :

« فإن يك غصنى أصبح اليوم ذاويا وغصنك من ماء الشباب رطيب
فإنى حنى ظهرى حوان تركنه عريشاً ، فمشيى فى الرجال دبيب
وما للعظام الراجفات من البلى دواء ، وما للركبتين طبيب
إذا قال أصحابى : «ربيع ! ألا ترى؟ » أرى الشخص كالشخصين وهو قريب[١]
فلا يعجبنْك المرء ، إن كان ذا غنى ستتركه الأيام — وهو حريب
وكائن ترى - فى الناس - من ذى بشاشة ومن شأنه الإقتار — وهو نجيب

(١) انظر الى افتتان ابن الرومى فى أداء هذا المعنى فى داليته الرائعة التى رثى بها شبابه ، فقال :

وبورك طرفى ، فالشخوص حياله قرائن ، من أدنى مدى ، وهى فرد

« ارجع الى ديوان ابن الرومى « ج ٣ من ص ٣٩٠ — ٣٩٤ » وانظر ص ٦٤ من هذا الجزء

« إنَّ الثَّرَاءَ(١) هوَ الْخلودُ وإنَّ المَرْءَ يَكْرُبُ(٢) يوْمَهُ الْعُدْمُ »
وَلَئِنْ بَنَيْتِ لِىَ الْمُشَقَّرَ(٣) فِى عَنْقَاءَ(٤) تَقْصُرُ دُونَهَا الْعُصْمُ(٥)
لَتُنَقِّبَنْ عَنِّى الْمَنِيَّــــةُ ، إنَّ اللهَ لَيْسَ كَحُكْمِهِ حُكمُ(٦) »

فيقولُ : « إنهُ المِسكينُ قالَ هذه الأبياتَ وبنُو آدمَ فى دارِ المحنِ والبلاءِ ، والوالدةُ تخافُ المنيةَ على الولدِ ، والفقرُ يُرْهبُ ويُتّقَى ، والمالُ يُطلبُ ويُستبقَى . فالحمدُ للهِ الذى أذهبَ عنَّا الْحزَنَ ، إنَّ ربَّنَا لغفورٌ شَكورٌ ، الذى أحلَّنَا دارَ الْمُقامَةِ من فضلهِ ، لا يَمَسُّنَا فيها نصَبٌ ولا يَمَسُّنَا فيها لُغُوبٌ(٧) . فتباركَ اللهُ القُدُّوسُ ، نقَل هؤلاءِ الْمُسْمِعاتِ(٨) ، من زِىِّ رَبَّاتِ الأَجْنحةِ(٩) ، إلى زىِّ ربَّاتِ الأكْفالِ المترجِّحةِ(١٠) ، ثم ألهمهُنَّ بالحكمةِ حفظَ أشعارٍ لم تمْرُرْ قبلُ بمسامِعهنَّ ، فجِئْنَ بها مُتقنةً ، محمولةً على الطرائقِ مُلحَّنةً ! . ولقد كانت الجاريةُ فى الدارِ العاجلةِ إذا تُفرِّستْ فيها النَّجابةُ ، وأُحضرتْ لها الملحِّنةُ لِتُلقِىَ إليها ما تعرفُ

---

(١) فى نسخة اليازجي : « إن الثواء » وهو تحريف ظاهر ! (٢) يدنى أجله ويقرب يومه (٣) هو مكان فى بلاد العرب (٤) سامقة شديدة العلو ، وهى صفة لموصوف محذوف هو كلمة « قنة » (٥) جمع أعصم ، وهو الوعل (٦) معنى الأبيات : تلحانى عاذلتى على كرمى ، لأنها ترى فى الغنى كل معانى الراحة والخلود ، وترى الانسان إذا صفرت يده من المال اسود عيشه وارتبك أمره ، وهذا لعمرى رأى مأفون دفعها إليه قصر نظرها وجهلها بالغد ، ولو أنها رشدت لعلمت أن كل ما فى الدنيا من زخرف وزينة عبث وضلال ، وأن الموت سيختم هذه الحياة الخادعة ، فلا تصده عنا قنة سامقة نلوذ بها فى كنف جبل شاهق ، ولا تفلتنا من قضاء الله حيلة ، و إذن فما قيمة المال ندخره ونبخل به ؟ ؟ ومن لعاذلتى بأن تدرك هذه الحقيقة فتعذرنى وتكف عن لومى ! (٧) اللغوب : شدة التعب والإعياء (٨) المغنيات (٩) الطيور (١٠) النساء

من ثَقيلٍ وخفيفٍ ، تُقيمُ معها الشَّهْرَ والشَّهْرَيْنِ قبلَ أن تُلَقَّنَ بيتاً من الغزلِ أو بيتينِ ، ثم تُعْطَى الْمِائَةَ أوِ الْمِائتَينِ ، فسبحانَ القادرِ ! » .

مشاجرةُ الجعدىِّ والأعْشَى

ويقولُ نابغةُ بني جَعْدَةَ — وهو جالسٌ يَسْتَمِعُ — : « يا أَبَا بَصيرٍ ! أهذه الرَّبَابُ التي ذكرها السَّعْدِيُّ هي رَبَابُكَ التي ذكَرْتَهَا في قولك :

« بِعَاصِي الْعَوَاذِلِ طَلْقِ الْيَدَيْنِ ... يُعْطِي الْجَزِيلَ وَيُرْخِي الْإِزَارَا

فَمَا نَطَقَ الدِّيكُ حَتَّى مَلَا ... تُ كُوبَ الرَّبَابِ لَهُ ، فَاسْتَدَارَا

إِذَا انْكَبَّ أَزْهَرُ[1] بَيْنَ السُّقَا ... ةِ ، تَرَامَوْا بِهِ غَرَبًا أَوْ نُضَارَا[2] »

فيقولُ أبو بَصيرٍ[3] : « قد طالَ عُمْرُكَ يا أَبَا لَيْلَى ، وأَحْسَبُكَ أصابكَ الْفَنَدُ[4] ، فبَقِيتَ على فَنَدِكَ إلى اليوم ! أَمَا عَلِمْتَ أن اللواتى يُسَمَّيْنَ بِالرَّبابِ أكثرُ من أن يُحْصَيْنَ ؟ أَفَتَظُنُّ أن الرَّبَابَ هذه هي التي ذكرها القائلُ :

---

(١) الأزهر : إبريق الخمر ، قال عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعد ما ... ركد الهواجر بالمشوف المعلم

بزجاجة صفراء ذات أسرة ... قرنت بأزهر في الشمال المفدم

أي شربت الخمر بعد أن سكن قيظ الهواجر الشديد ، بالقدح المجلو المنقوش بزجاجة صفراء مخططة قرنتها بإبريق مسدود الرأس بالفدام (٢) الغرب : الفضة ، أو القدح أو الجام الفضي أو الذهب . ومعنى الأبيات أنه حل بساحة كريم ينفق المال غير مصيخ لعذل اللائمات ويمشي متبختراً ، وأنه نادمه وقت السحر فما أذن ديك الصباح حتى دارت الكؤوس ، وكان الندامى لفرط سرورهم بالخمر لا يكاد يوضع إبريق مدامة حتى يترامو به متهافتين على الشراب .

(٣) كنية الأعشى وتقدمت ترجمته في ص ٢١ من هذا الجزء (٤) الخرف : أفن الرأي والضلال

مَا بَالُ قَوْمِكِ يَا رَبَابُ خُزْرًا[١] كَأَنَّهُمُ غِضَابُ
غارُوا عَلَيْكِ ، وَكَيْفَ ذَا كِ وَدُونَكِ الْخَرْقُ[٢] الْيَبَابُ[٣]

أوِ التى ذكرها امْرُؤُ القيْسِ فى قولِهِ :

دار لهنـدٍ والربابِ وفَرْتَنَى ولَمِيسَ، قبل حوادث الأيام »

***

فيقولُ نابغةُ بنى جَعْدَةَ : « أَتُكَلِّمُنى بمِثل هذا الكلامِ يا خليعَ بنى ضُبَيْعَةَ ، وقد مِتَّ كافِراً وأقْرَرْتَ على نفسكَ بالفاحِشةِ ، وأنا لقيتُ النَّبيَّ صلى الله عليهِ وسلمَ ، فأنْشَدْتُهُ كلمتى التى أقولُ فيها :

« بَلَغْنا السَّماءَ مَجْدُنا وَسَناؤُنا[٤] وَإِنَّا لَنَبْغى فوقَ ذلكَ مَظْهَرَا[٥] »

فقال لى : « إلى أيْنَ يا أبا لَيْلَى ؟ » فقلتُ : « إلى الْجَنةِ بك يا رَسولَ الله ! » فقال : « لا يَفْضُضِ اللهُ فاكَ ! »

أَغَرَّكَ أنْ عَدَّكَ بعضُ الْجُهَّالِ رابعَ الشعراء الأرْبعة — وكذب مُفَضِّلُكَ — وإنى لأَطْولُ منك نَفَسًا ، وأكْثرُ تَصَرُّفًا ، ولقد بَلَغْتُ — بعدد البيوتِ — ما لم يَبْلُغْهُ أحدٌ من العرب قبلى ، وأنت لاهٍ بِعَفارَتِكَ[٦] تفترِى على كرائمِ قومكَ ، وإن صَدقتَ نِخزْياً لك ولِمُقارِّكَ[٧] »

---

(١) الخزر : ضيق العين (٢) الأرض الواسعة تنخرق فيها الرياح (٣) اليباب : الخراب حيث لا يقيم أحد ، ومعنى البيتين : « ما الذى أسخط قومكِ فضاقت أعينهم من الغضب والنظر الشزر ، أيغارون عليك من الأعداء والمغيرين و بينك و بين الناس تلك الصحراء الواسعة التى لا يسكنها إنسان وهى وحدها كفيلة بحمايتك منهم ؟ » (٤) رفعتنا (٥) مكاناً نصعد اليه (٦) العفارة : الخبث والنكر ، وهى أيضاً تلقيح النخل و إصلاحه ، والمقصود هنا المعنى الأول ، أى أنك كنت لاهيا بأضاليلك وأعمالك الخبيثة (٧) مُخَالِطكَ

فيغضبُ أبو بصيرٍ، فيقولُ: « أتقولُ هذا، وإن بيتاً مما بَنَيْتُ ليُعْدَلُ بمائةٍ مِن بنائِكَ؟ وإن أَسْهَبْتَ فى منطقِكَ، فإن المُسْهِبَ كحاطِبِ الليلِ. وإنى لَفى الْجُرْثومةِ[1] من ربيعة الفرَسِ، وهل جَعْدَةُ إلا رائِدَةُ ظَليمٍ[2] نفورٍ؟ أتُعَيِّرُنى مدحَ الملوكِ يا جاهِلُ؟ ولو قَدَرْتَ على ذلك لهَجَرْتَ إليه أهلَكَ وولَدَكَ. ولكنك خُلِقْتَ جباناً، لا تُدْلِجُ[3] فى الظلماء الدّاجيةِ، ولا تُهَجِّرُ[4] فى الوَديقةِ[5] الصّاخِدَةِ[6] »

فيقولُ الجَعْدِىُّ: « اسْكُتْ يا ضُلَّ بْنَ ضُلّ، فأُقْسِمُ إن دخولكَ الجنة مِن المُنْكَرات، ولكن الأقضيةَ جرَتْ كما شاء الله! لَحُقَّكَ أن تكونَ فى الدَّرْكِ الأسفل من النارِ، ولقد صَلِىَ بها من هو خيْرٌ منك. ولو جاز الغَلَطُ على ربِّ العِزَّةِ، لقُلْتُ: إنك غُلِطَ بك، ألَسْتَ القائلَ:

« فدَخلْتُ — إذْ نامَ الرّقيبُ — فبِتُّ دُونَ ثِيابِها
حتى إذا ما استَرْسَلَتْ للنَّوْمِ بَعْدَ لِعابِها[7]
قسَّمْتُها نِصْفَيْنِ كُلُّ مُسَوَّدٍ[8] يُرْمَى بها[9]
فَثَنَيْتُ جيدَ غَريرةٍ[10] وَلَمَسْتُ بَطْنَ حِقابِها[11]
كالحُقَّةِ[12] الصَّفْراءِ صا كَ[13] عَبيرُها[14] بِمَلابِها[15]

---

(١) الصميم (٢) ذكر النعام (٣) لا تسير ليلاً (٤) لا تسير فى الهاجرة
(٥) الوديقة: شدة الحر، والمراد هنا وقت الهاجرة والحر الشديد (٦) الشديدة القيظ
(٧) ملاعبتها (٨) سيد (٩) يحرزها، أو يظن به الظنون من أجلها (١٠) الجميلة، أو التى لا تجربة لها (١١) وسطها (١٢) الحقة وعاء من خشب أو عاج (١٣) امتزج — اختلط — لصق (١٤) العبير: أخلاط من الطيب (١٥) الملاب: نوع من العطر أو الطيب قيل هو الزعفران

وَإذَا لَهَا تَامُورَةٌ(١) مَرْفُوعَةٌ لِشَرَابِهَـــا(٢) »

وَاستقلَلْتَ(٣) بنى جعدةَ ، وليَوْمٌ من أيامهم يرجعُ بمساعى قومك ! وَزَعَمْتَنِي جبانًا وَكَذَبْتَ ، لأَنَا أشجعُ منك ومن أبيكَ ، وَأَصْبَرُ على إدلاج الْمُظْلِمَةِ ذات الْاريزِ(٤) ، وأشدُّ إدلاجًا فى الهاجرةِ أُمِّ الصَّخْدَانِ(٥) ! »

ويثِبُ نَابغةُ بنى جعدَةَ على أبى بَصيرٍ ، فيَضْرِبُهُ بكوزٍ من ذهبٍ

فيقولُ الشيخُ — أصلحَ اللهُ بِهِ — : « لاَ عرْبدَةَ(٦) فى الجنانِ ، إنمَا يُعرفُ ذلك بين السِّفْلةِ والهِجَاجِ(٧) ، وإنك يا أبَا لَيْلَى لَمُتَتَرِّعٌ(٨) . ولولا أن فى الكتابِ الكريم : « لا يُصَدَّعُونَ عنهَا ولا يُنْزَفُونَ » لَظَنَنَّاكَ أصابكَ نَزْفٌ فى عقلكَ » . ويُرِيدُ أن يُصلحَ بين الندماء . فيقولُ : « يجبُ أن يُحْذَرَ من مَلَكٍ يَعْبُرُ ، فيرى هذا المجلسَ ، فيرفعُ حديثَهُ إلى الْجَبَّارِ الْأَعظم ، فلا يجُرُّ ذلك إلا إلى ما تكرهانِ .

---

(١) التامورة : الوعاء فيه الخمر أو الإبريق أو الدن (٢) معنى الأبيات : تحينت غفلة الرقيب فدخلت عليها ، وما زلت بها حتى استسلمت للنوم بعد أن أخذت حظها من اللعب ، فطويتها تحتى كما يفعل كل سيد جليل القدر بخليلته التى حامت حوله الظنون من أجلها ، ونعمت بضمها وعناقها ؛ ومتعت نفسى بلمس بطنها وخاصرتها ، فكأنما لمست حقا من العاج امتزج بطيبه زعفرانه ، ثم حضر إبريق الخمر ورفع متهيئاً للشراب (٣) رأيتهم قلة ، فاستخففت بهم . وما أبدع قول السموءل فى مثل هذا المعنى من لاميته المشهورة :

« تعيرنا أنا قليـــل عـــديدنا فقلت لها : « إن الكرام قليل !

وما قل من كانت بقاياه مثلنا شباب تسامى للعلا وكهول

وما ضرنا أنا قليـــل ، وجارنا عزيز ، وجار الأكثرين ذليل ! »

(٤) الصقيع أو البرد الشديد (٥) الصخدان : اليوم الشديد الحر (٦) العربدة : الإيذاء وسوء الخلق (٧) الحمقى (٨) نَزَّاع إلى الشر ، أو مسرع إلى ما لا ينبغى .

واسْتَغْنَى رَبُّنَا أن تُرْفَعَ الأخبارُ إليه ، ولـكن جرى ذلك مجرى الْحَفَظَةِ فى الدار العاجلةِ . أَمَا عَلِمْتُمَا أن « آدَمَ » خرج من الجنةِ بذنْبٍ حَقِيرٍ (١) ! فَغَيْرُ آمِنٍ مَن وُلِدَ أن يُقْدَرَ لهُ مثلُ ذلك ! فسأَلْتُكَ باللهِ يا أَبَا بَصِيرٍ : هل يَهْجُسُ لك تَمَنِّى الْمُدَامِ ؟ » فيقولُ : « كَلاَّ وَاللهِ ، إِنهَا عندى كَمِثْلِ الْمَقِرِ ، لا يَخْطُرُ ذِكْرُها بِالْخَلَدِ ، فالحمدُ للهِ الذى سقانى عنها(٢) السُّلْوَانَةَ(٣) »

☆
☆ ☆

فيقولُ :

« يا أَبَا لَيْلَى ! إن اللهَ — جلَّتْ قدرتهُ — مَنَّ علينا بهؤلاء الْحُورِ الْعِينِ اللواتى حَوَّلَهُنَّ عن خَلْقِ(٤) الْإِوَزِّ ، فَاخْتَرْ لنفسك واحدةً منهُنَّ ، فلتذهبْ معك إلى منزلكَ تُلاَحِنُكَ أَرَقَّ اللِّحَانِ ، وتُسْمِعُكَ ضُرُوبَ الْأَلْحَانِ . »

فيقولُ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ(٥) : « إِنْ أَخَذَ أبو لَيْلَى قَيْنَةً ، وأَخَذَ غَيْرُهُ مثلها ، أَلَيْسَ يَنْتَشِرُ خَبَرُها فى الْجَنَّةِ ؟ فلا يُؤْمَنُ أن يُسَمَّى فَاعِلُو ذلك : أَزْوَاجَ الْإِوَزِّ ؟ » .

فَتُضْرِبُ الجماعةُ عنِ اقتِسامِ أُولئكَ الْقِيَانِ(٦) .

---

(١) ومن أجل هذا الذنب أنحى عليه « المتنبى » بقوله — مخاطباً أبناء آدم :

« أبوكم آدم سن المعاصى وعلمكم مفارقة الجنـان »

(٢) بدلنى منها (٣) العسل (٤) فطرة (٥) مرت ترجمته فى ص ٤٦ من هذا الجزء

(٦) انظر إلى ما فى هذه الجملة الرشيقة من الدعابة الحلوة والفن الدقيق ، فهى تمثل سذاجة القوم وطيبة قلوبهم أبدع تمثيل

حسان بن ثابت(١)

وَيَمُرُّ حسَّانُ بنُ ثَابتٍ ، فيقولونَ : « أَهْلًا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمٰنِ ! أَلا تَحَدَّثُ معنا

---

(١) حسان بن ثابت

توفى سنة ٥٤ هجرية

هو حسان بن ثابت الأنصارى ، وكنيته أبو الوليد ، ولد بالمدينة ، وعاش فى الجاهلية والاسلام ، وتكسب بالشعر ، فقد مدح المناذرة والغساسنة، وازدحمت عنده صلات آل جفنة (من ملوك غسان) الذين غالى فى مدحهم ، وقد بلغ من حبهم إياه أنهم لم ينكروه بعد إسلامه ، بالرغم من نصرانيتهم

أسلم حسان مع الأنصار —حين هاجر الرسول إلى المدينة— فلما اشتد إيذاء قريش للنبى بالهجاء وقال لأصحابه : « ما يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ — لباه حسان قائلا : « أنا لها ! » وضرب بلسانه أرنبة أنفه وقال : « والله ما يسرنى به مقول ما بين بصرى وصنعاء ! والله لو وضعته على صخر لفلقه ، أو على شعر لحلقه ! » فقال له النبى : « كيف تهجوهم ؟ وأنا منهم ! » فقال : « أسلُّك منهم كما تسل الشعرة من العجين ! » فقال : « اهجهم وروح القدس معك ! » ثم وقف شعره على مناصرته ، وانقطع إلى مدحه والنضح عنه .

وقد اشتهر حسان بأنه كان جباناً ، مخلوع القلب ؛ وسترى فى هذه المناقشة «الخيالية» التى دارت بينه و بين ابن القارح ما يؤيد ذلك :

ومن أروع ما قال ، بيته الفذ :

وإنَّ امرأً أمسى وأصبح سالماً من الناس — إلا ما جنى — لسعيد

وقد حكى أحدهم أنه سمعه — فى جوف الليل — وهو ينوه بأسمائه، ويقول : « أنا حسان ابن ثابت ! أنا ابن الفُرَيعة ! أنا الحسام ! » فلما أصبح سأله عن السبب فى ذلك وعما أعجبه ، فقال له حسان : « عالجت بيتاً من الشعر فلما أحكمته ، نوهت بأسمائى ؛ وذكر له ذلك البيت :

ساعَةً ؟ » فَإِذَا جلسَ إليهم قالوا : « أَيْنَ هذه المَشْرُوبَةُ من سَبِيئَتِكَ[١] التى ذكرتَهَا فى قولك :

كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَاس[٢] ... يَكُونُ مِزَاجَهَا عسَلٌ وَمَاءُ
عَلَى أَنْيَابِهَا . أَوْ طَعْمَ غَضٍّ ... مِنَ التُّفَّاحِ هَصَّرَهُ اجْتِنَاءُ
عَلَى فِيهَا ؛ إِذَا مَا اللَّيْلُ قَلَّتْ ... كَوَاكِبُهُ ، وَمَالَ بِهَا الْغِطَاءُ
إِذَا مَا الْأَشْرِبَاتُ ذُكِرْنَ - يوْمًا - ... فَهُنَّ لِطَيِّبِ الرَّاحِ الْفِدَاءُ[٣]

وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح ، فان للبيت روعة وجمالاً لا يقفان عند حد ، وهو إلى ذلك يحوى حكمة أصيلة لا يتردد مفكر فى إكبارها و إكبار الذهن الذى أخرجها !

ومثل حسان ، جدير أن يفخر بهذا البيت الخالد !

وستمر بك فى هذا الحديث بضع أبيات جميلة من شعره .

(١) خمرك (٢) اسم قرية بالشام مشهورة بجودة الخمر ، وهى إحدى الأماكن التى أحرزت شهرة كبيرة فى ذلك ، وهو يصف فى هذه الأبيات ريق امرأة (٣) هذه الأبيات الأربعة من قصيدة طويلة لحسان قالها فى مدح النبى — قبل فتح مكة — وهجا فيها أبا سفيان — قبل أن يسلم — لأنه هجا النبى ، وقد ورد قبل هذه الأبيات قوله :

ديار من بنى الحسحاس قفر ... تعفيها الروامسُ والسماء
وكانت لا يزال بها أنيس ... خِلالَ مُروجها — نَعم وشَاء
فدَع هذا ، ولكن منْ لطيف ... يؤرقنى — إذا ذهب العِشاء
لشعثاء التى قد تيمته ... فليس لقلبه منها شفاء

كأن سبيئة من بيت رأس الخ .

وقد ورد بعدها قوله :

نوليها الملامة إن ألمنا ... إذا ما كان مَغْثٌ أو لِحاء
ونشربها فتتركنا ملوكا ... وأُسداً ، ما ينهنهنا اللقاء

وَيحكَ ! ما اسْتَحْييْتَ أن تذكرَ هذا فى مِدْحَتِكَ رسُولَ الله ؟ »

فيقولُ : « إنه كان أسجحَ خُلقاً مما تظنُّونَ . وَلم أقلْ إلا خيراً ، لم أذكرْ أنّى شَرِبْتُ خمراً ، ولا رَكبتُ — مِمَّا حُظِر — أمراً ، وإنما وصفتُ رِيقَ امرأةٍ : يجوزُ أن تكونَ حِلاً لى ، ويمكنُ أن أقوله على الظن ! وقد شَفع فى أبى بصير بعد ما تهكَّمَ فى مواطن كثيرة ! وما سُمِعَ بأكرم منه . لقد أَفِكْتُ فجلدَنى مع مِسْطَحٍ ، ثم وهب لى أخْتَ مارِيةَ ، فولَدَتْ لى عَبدَ الرَّحمنِ ، وهى خالةُ ولدِهِ « إبراهِيمَ »

وهو[1] — زَيَّنَ اللهُ الآدابَ ببقائِهِ — يَخطُرُ فى ضميره أشْياءَ يريد أن يذكرَها لحسَّانٍ وغيرِهِ ، ثم يخاف أن يكونوا لما طلب غير محسنين ، فيَضْرِبُ عنها إكْراماً للجليس .

ويقول قائل من القوم : « كيف جُبْنُكَ يا أبا عبدِ الرحمنِ ؟ »

فيقول : « ألِى يقال هذا — وقومى أشجعُ العربِ — أراد سِتّةٌ منهم أن يميلوا على أهلِ المَوْسِمِ بأسيافِهِمْ ، وأَجارُوا النَّبِيَّ صلى اللهُ عليهِ وَسلَّمَ ، على أن يُحارِبوا معهُ كلَّ عَنودٍ[2] ، فرمتهم رَبيعَةُ ومُضَرُ وجميعُ العَرَبِ عن قوسِ العَدَاوَةِ ، وَأَضْمَرُوا لهم ضِغْنَ الشَّنَآنِ .

وفى هذه القصيدة يقول بعد أبيات :

« ألا أبلغ أبا سفيانَ عنى ... فأنت مجوَّف نخبٌ هواء
بأن سيوفنا تركتك عبداً ... وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً ، فأجبتُ عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء . » الخ الخ

والقصيدة طويلة مشهورة وهى فى أول ديوانه ، فليرجع إليها من شاء .

(١) أى ابن القارح (٢) جائر عن القصد

وَإن ظهر منى تَحَرُّزٌ فى بعض المواطن ، فإنما ذلك على طريقة الْحَزْمِ ، كما جاء فى الكتاب الكريم : « وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أوْ مُتَحَيِّزاً إلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ »

ويفترقُ أهلُ ذلك المجلسِ ، بعدَ أن أقامُوا فيهِ كعُمُرِ الدنيا أضعافاً كثيرةً .

عُـــورانُ قيس

فبينما هو(١) يطوفُ فى رياض الجنة، لَقِيَهُ خمسَةُ نفرٍ على خمسةِ أَيْنُقٍ، فيقولُ : « ما رأيْتُ أَحْسَنَ من عيونِكُمْ فى أهل الْجِنانِ ، فمن أنتم خَلَّدَ اللهُ عليكمِ النَّعِيمَ ؟ »

فيقولونَ : «نحن عورانُ(٢) قَيْسٍ : تَمِيمُ بْنُ مُقْبِلٍ العَجْلَانِيُّ(٣)، وَعَمْرُو بْنُ أَحْمَرَ(٤) البَاهِلِيُّ ، وَالشَّمَّاخُ مَعْقِلُ بْنُ ضِرارٍ ، وراعى الإِبلِ عُبَيْدُ بْنُ الْحُصَيْنِ النُّمَيْرِيُّ ، وَحُمَيْدُ بْنُ ثَوْرٍ الْهِلالِيُّ »

فيقولُ لِلشَّمَّاخِ بْنِ ضِرارٍ(٥) : « لقد كان فى نفسى أَشْياءُ من قصيدتك التى على الزَّاىِ ، وكلمتك التى على الْجِيمِ ، فأَنْشِدْنيهما لا زِلْتَ مُخَلَّداً كريماً ! »

---

(١) أى ابن القارح (٢) جمع أعور (٣) ستمر بك ترجمته بعد صفحات

(٤) ترجمته فى صفحة ٦٣

(٥) الشماخ معقل بن ضرار

شاعر مخضرم ، رجاز على البديهة ، ميال إلى الهجاء ، ذاع صيته فى وصف القوس والحمر ، وقد بلغ من إعجاب الحطيئة (الشاعر المشهور وستمر بك ترجمته) به ، أنه قال: « أبلغوا الشماخ أنه أشعر غطفان كلها ! » ولعل السر فى إعجاب الحطيئة به هو اشتراكه معه فى النزوع إلى الشر!

والشماخ هذا هو صاحب البيتين المشهورين فى مدح عرابة الأنصارى . وهما قوله :

« رأيت عرابة الأوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين »

فيقولُ: « لقد شغلَنى عنهما النَّعيمُ الدائِمُ، فما أذكرُ مِنْهُما بيتاً وَاحِدًا » فيقولُ لِفَرْطِ حُبِّهِ بالأدَبِ: « لقد غفلْتَ أيها المؤمِنُ وأضعتَ! أما عَلِمْتَ أن كلمتيك أنفعُ لك من ابْنَتيْكَ؟ ذُكِرْتَ بهما فى المواطن، وَشُهِرْتَ عند راكب السَّفَرِ والقاطِنِ. وإِن القصيدةَ من قَصَائِدِ النَّابغةِ لَأَنْفَعُ له من ابْنَتِهِ « عقْرَبَ » ولعل تلك شَانَتْهُ وما زَانتْهُ، وأصابها فى الجاهلية سِباء(١)، وما وفَّرَ لِأَجْلِها الحِباءَ(٢). وإِن شِئْتَ أن أُنْشِدَكَ قصيدَتَيْكَ، فإِن ذلك ليس بِمُتعذِّرٍ علَىَّ » فيقولُ: « انْشِدْنى — صَفَتْ عليك نعمَةُ اللهِ — » فَيُنْشِدُهُ:

« عفا مِن سُلَيْمى بَطْنُ قَوٍّ، فَعالِزُ، فَذَاتُ الغَضَى، فالْمُشْرِفاتُ النَّوَاشزُ(٣) »

فيَجِدُهُ بها غيرَ عَلِيمٍ، ويَسْأَلُهُ عن أشياء منها فيُصَادِفُهُ بها غير بَصِيرٍ. فيقولُ: « شَغلَتنى لذائِذُ الْخُلودِ عن تعهُّدِ هذه المنكَرَاتِ، إِنَّ الْمُتَّقِينَ فى ظِلَالٍ وَعُيُونٍ، وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. إِنَّما كنتُ أَسِقُ(٤) هَذِهِ الأُمُورَ وَأَنا آمُلُ أَن أُقْفِرَ(٥) بِها ناقةً، أَوْ أُعْطَى

---

(١) أسر (٢) العطاء (٣) « بطن قو » و « عاز » و « ذات الغضى » أسماء أماكن ببلاد العرب — والمشرفات النواشز الجبال الشديدة الارتفاع؛ ومعنى البيت: أن كل تلك الأماكن — التى ذكرها — قد أقفرت من سليمى!

وهذا البيت مطلع قصيدة له. قالها فى وصف القوس ومنها قوله:

« وذاق فأعطته من اللين جانباً كفى! ولها — أن يغرق السهم — حاجز
إذا أنبض الرامون عنها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز »

وما أبدع قول ابن الرومى فى تشبيهه برنين القوس:

« تصمى المحب، وتلقَى — الدهر — شاكية كالقوس؛ تصمى المنايا، وهى مرنان »

(٤) أجمع (٥) أعطى وأمنح

كَيْلَ عِيالِى سَنةً ، وَأنا الآنَ فى تفضُّلِ اللهِ ، أَغْتَرِفُ فى مَرافِدِ العَسْجَدِ من أنهارِ اللّبَنِ ، فتارةً ألْبانَ الإبلِ ، وتارةً ألْبانَ البقرِ ، وإنْ شِئْتُ لبنَ الضَّأنِ فإنهُ كثيرٌ جَمٌّ ، وكذلك لبَنُ المعِزِ ؛ وإنْ أَحْبَبْتُ وِرْداً من رِسْلِ الْأَرَاوَى[1] ، فرُبَّ نَهرٍ منهُ كأنهُ دِجْـلَةُ أو الفُراتُ ! وَلقد أرانِى فى دارِ الشِّقْوةِ أجْهَدُ أخْلافَ شِياهٍ لَجِباتٍ[2] لا يَمْتلِئُ مِنْهُنَّ القَعْبُ[3] ! » فيقولُ الشيخُ : « فأَيْنَ عَمْرُو بْنُ أحمرَ[4] » فَيقولُ عَمْرٌو : « هأنذا » فيقولُ : أنْشِدْنى قولكَ :

« بَانَ الشَّبَابُ ، وَأخْلَفَ العَمْرُ   وَتَغَيَّرَ الْإِخْوانُ وَالدَّهْرُ »

فقدِ اختلفَ الناسُ فى تفسيرِ العَمْرِ — بِالْفَتْحِ — فقيلَ : إنكَ أردتَ البقاءَ ،

---

(١) لبن الوعول (٢) قليلة اللبن (٣) القدح الغليظ الضخم

(٤) عمرو بن أحمر

فى الموشح وغيره من كتب الأدب : عمرو بن أحمر .

وقال العسقلانى فى الإصابة : عمرو بن الأحمر الباهلى .

وقال المرزبانى : مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، فأسلم وغزا مغازى فى الروم ، وأصيب بإحدى عينيه هناك . ونزل الشام ، وتوفى على عهد عثمان بعد أن بلغ سناً عالية . وهو صحيح الكلام ، كثير الغريب .

وقال أبو الفرج : قال عمرو بن أحمر فى الإسلام شعراً كثيراً ، ومدح الخلفاء الذين أدركهم وخالد بن الوليد . وكان فى حبسة الشام . ولم يلق أبا بكر ، ومدح عمر فمن دونه .

☆
☆ ☆

قال صاحب الموشح صفحة ٨٠ :

أقوى عمرو فى بيتين متقار بين من أبيات أولها :

ما للكواكب يا عيساء قد جعلت   تزور عنى وتطوى دونى الحجر

فقال فيها :

وكنت أمشى على رجلين متئداً   فصرت أمشى على أخرى من الشجر

وقيلَ : إنكَ أردتَ الوَاحدَ من عُمُورِ الْأَسْنَانِ ، وهوَ اللحْمُ الذى بينَهَا »
فيقولُ عَمْرُو مُتَمَثِّلاً :

ثم قال بعده :

فقد جعلت أرى الشخصين أربعة والواحـــد اثنين مما بورك البصر(١)

وأتبعه بقوله :

وقد جعلت إذا ما قمت يثقلنى ردفى فأنهض نهض الشارب السكر

وقال صاحب الموشح أيضاً فى صفحة ٨٨ :

قال ابن أحمر :

غادرنى سهمـــه أعشى وغادره سيف ابن أحمر يشكو الرأس والكبدا

أراد غادرنى سهمه أعور ، فلم يمكنه ، فقال : أعشى .

قلنا : ولعل ابن أحمر لم يرد التصريح بما أصابه ، ورغب فى تهوينه ، فعدل عن العور إلى العشاء ، لأنه أخف ضرراً ، وأنجح فى الموازنة بين ما فعل به خصمه ، وما فعل هو بخصمه . فإذا حَسُنَ هذا التوجيه ، بطلت نقدة المرزبانى . ولكلٍّ وجهة .

*
* *

ويستشهد اللغويون كثيراً على الألفاظ بشعر عمرو هذا ، وكثيراً ما تجد هناك قولهم : «قال ابن أحمر» وذلك لفصاحة عمرو ، وإكثاره من الغريب فى شعره ؛ فمن ذلك ما فى اللسان فى استشهاده على أن العمور منابت الأسنان ، واحدها عَمْر ؛ بهذا البيت الذى أورد المعرى.

ومن ذلك ما فى الكتاب للصولى ، قال : العرب تسمى أول ليلة من الشهر : النحيرة ، لأن الهلال نحرَها ، أى رؤى فى نحرها ومطلعها ، قال ابن أحمر :

ثم استمر عليها واكف همع فى ليلة نحرت شعبان أو رجبا

---

(١) أخذ ابن الرومى هذا المعنى كما نبهنا على ذلك فى هامش صفحة ٥١ تعليقاً على قول المخبل السعدى : « أرى الشخص كالشخصين وهو قريب »

خُذَا وَجْهَ هَرْشَى(١) أَوْقفاها ، فإنَّهُ ‏ كِلا جَانِبَىْ هَرْشَى لهُنَّ طَرِيقُ

ولم تترُكْ فِىَّ أهوالُ القيـــامَةِ غُبْرًا(٢) لِلإنْشَادِ ، أَمَا سمعتَ الآيَةَ : « يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى الناسَ سُكَارَى ، ومَا هُمْ بِسُكَارَى ، وَلكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ »

وقد شهدْتَ الموقِفَ ، فالعَجَبُ لك إذْ بقِىَ معك شىءٌ من روايتك . »

* * *

فيقولُ الشيخُ : « إنى كنتُ أُخْلِصُ الدُّعاءَ فى أَعقَابِ الصلوَاتِ — قبلَ أن أَنتقلَ من تلك الدارِ — أن يُمَتِّعَنِى اللهُ بِأَدَبِى فى الدنيَا والآخِرَةِ . فَأَجَابَنِى إلى مَا سَأَلتُ ، وهوَ الحميدُ المجيـدُ . »

ثم يذكرُ له أَشْيَاءَ من شعره ، فيَجِدُهُ ، عن الجوَابِ مُسْتَعْجِمًا .

ومن شعر ابن أحمر ما أثبته صاحب الإصابة :

« متى تطلب المعروف فى غير أهله ‏ تجد مطلب المعروف غير يسير
وإن أنت لم تجعل لعرضك جنة ‏ من الذم سار الذم كل مسير »

(١) هرشى : ثنية فى طريق مكة قريبة منها ، والمراد من التمثيل بهذا البيت أن كلا التأويلين صحيح ، فليأخذ من يأخذ بأيهما شاء (٢) غبر كل شىء : بقيته

حكاية تميم بن أُبَىّ

فيقول « أيُّكُمْ تميمُ بْنُ أُبَىّ ؟[1] » فيقول رجلٌ مِنهم : « هَأنذا ! » فيقول : « أَخْبِرْنِى عَن قوْلك :

يَا دَارَ سَلْمَى خَلاءً لَا أُكَلِّفُهَا إِلَّا الْمَرَانَةَ حَتَّى تَسْأَمَ الدِّينَا

مَا أَردتَ بِالْمَرَانَةِ ؟ فقـدْ قِيلَ إِنَّكَ أَردتَ اسْمَ امْرَأَةٍ ! وَقِيلَ هِىَ اسْمُ

---

(١) تميم بن أُبَىّ

فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة : « تميم بن أبى مقبل » . وفى بلوغ الأرب للألوسى : « تميم بن مقبل » . وفى خزانة الأدب : « تميم بن أُبَىّ بن مقبل » . وقال : « وأُبَىّ — بالتصغير وتشديد الياء — » . وهو يوافق ما بين أيدينا من نسخ رسالة الغفران .

*
* *

وتميم هذا شاعر مخضرم ، معدود فى الفحول ، لما أدرك الاسلام كان يبكى أهل الجاهلية . وقد عاش نحو مائة وعشرين سنة .

قال البغدادى : كان تميم يهاجى النجاشى الشاعر ، فهجاه النجاشى ؛ فاستعدى عليه تميمٌ عمرَ رضى الله عنه . فقال : يا أمير المؤمنين ، هجانى ! فقال عمر : يا نجاشى ، ما قلت ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، قلت ما لا أرى فيه عليه بأساً .

وأنشـده :

إذا الله جازى أهل لؤم بذمة فجازى بنى العجلان رهط بن مقبل

فقال عمر : إن كان مظلوماً استجيب له ، وإن لم يكن مظلوماً لم يستجب له .
قالوا : وقد قال أيضاً :

قبيلته لا يغدرون بذمـة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليت آل الخطاب كذلك !
قالوا : فإنه قال :

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال عمر : ذلك أقل للزحام .

قالوا : فإنه قال :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم   وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر : يكفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه !

قالوا : فإنه قال :

وما سمى العجلان إلا لقوله   خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : كلنا عبد ، وخير القوم خادمهم !

قال تميم : فسله يا أمير المؤمنين عن قوله :

أولئك إخوان اللعين وأسوة الـ   ـهجين ورهط الواهن المتذلل

فقال عمر : « أما هذا فلا أعذرك عليه » . فحبسه ، وقيل جلده .

قال الحصرى القيروانى فى زهر الآداب :

كان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم ، إذ كان عبد الله بن كعب جدهم إنما سمى العجلان لتعجيله القرى للضيفان ، وذلك أن حيا من طىء نزلوا به ، فبعث إليهم بقراهم عبداً له ، وقال له : اعجل عليهم . ففعل العبد ، فأعتقه لعجلته .

فقال القوم : ما ينبغى أن يسمى إلا العجلان ، فسمى بذلك . فكان شرفاً لهم ، حتى قال النجاشى هذا الشعر ، فصار الرجل (من رهط بن مقبل) إذا سئل عن نفسه . قال : كعبى . و يرغب عن العجلان .

* * *

ومن غرر شعر تميم ما أنشد له دعبل :

« فأخلفْ وأتلفْ إنما المـــال عارة   وكله مع الدهر الذى هو آكله

وأيسر مفقود ، وأهون هالك   على الحى من لا يبلغ الحى نائله »

ومن شعره :

« خليلىّ لا تستعجلا وانظرا غـــدا   عسى أن يكون الرفق فى الأمر أرشدا »

كلِمة مِنَ الشِّعْرِ وَلا الرَّجَزِ ، وَذلكَ أَنِّى حُوسِبْتُ حِسَاباً شَدِيداً . وَقيلَ لِى : « كُنْتَ فِى مَنْ قاتلَ عَلِىَّ بْنَ أَبِى طَالِبٍ » وَانبرَى إلىَّ النَّجَاشِىُّ الْحَارِثِىُّ ، فَمَا أَفْلَتَ مِنَ اللَّهَبِ حَتَّى سَفَعَنِى(١) سَفَعَاتٍ . وَإِنَّ حِفْظَكَ لَمُبْقٍ عَليكَ ، كَأَنَّكَ لَمْ تَشْهَدْ أَهْوَالَ الحِسابِ ، وَمُنَادِى الْحَشْرِ يقولُ : « أَيْنَ فُلاَنُ ابْنُ فُلاَنٍ » وَالشُّوسُ(٢) الْجَبابِرَةُ مِنَ الْمُلُوكِ تَجْذِبُهُمُ الزَّبَانِيَةُ إِلَى الْجَحِيمِ ، وَالنِّسْوَةُ ذَوَاتُ التِّيجَانِ يَصِرْنَ بِالْأَلْسِنَةِ مِنَ الْوَقُودِ ، فَتَأْخُذُ فِى فُرُوعِهِنَّ وَأَجْسادِهِنَّ ، فَيَصِحْنَ : «هَلْ مِنْ فِدَاءٍ؟ هَلْ مِنْ عُذْرٍ يُقَامُ؟» والشَّبَابُ مِنْ أَوْلَادِ الْأَكَاسِرَةِ يَتَضَاغَوْنَ(٣) فِى سَلَاسِلِ النَّارِ ، وَيقولونَ : « نَحْنُ أَصْحَابُ الْكُنُوزِ ، نَحْنُ أَرْبَابُ الْقَانِيَةِ ، وَلَقَدْ كَانَتْ لنَا إِلَى النَّاسِ صَنَائِعُ وَأَيادٍ ، فَلاَ فَادِىَ وَلَا مُعِينَ ! »

فَهَتَفَ دَاعٍ مِنْ قِبَلِ الْعَرْشِ : « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ، وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ، فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » لَقَدْ جَاءَتْكُمُ الرُّسُلُ فى زَمانٍ بَعْدَ زمانٍ ، وَبَذَلَتْ لَكُمْ مَا وُكِّدَ مِنَ الْأَيْمَانِ ، وقيلَ لَكُمْ فى الْكِتَابِ : «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» فَكُنْتُمْ فِى لَذَّاتِ السَّاخِرَةِ(٤) وَاغِلِينَ(٥) ، وَعَنْ أَعْمَالِ الْآخِرَةِ مُتَشَاغِلِينَ . فَالآنَ ظَهَرَ النَّبَأُ « لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ »

وقد استشهد الرضى فى شرح الكافية على أن سراويل غير منصرف عند الأكثرين بقول تميم يصف الثور الوحشى :

أتى دونهـــا ذَب الرياد كأنه ... فتى فارسىٌّ فى سراويل رامح

(١) لطمنى (٢) الشجعان الجريئون على القتـال (٣) يتضورون ، أو يصيحون صياح الضعفاء المستخذين (٤) الدنيا (٥) ممعنين ومسرفين ، أى منغمسين فى لذائذها

الفصل الثانى

يوم الموقف

حكاية ابن القــــارح

فيقول[١] : « أَنَا أَقُصُّ عَلَيْكَ قِصَّتِي :

لَمَّا نَهَضْتُ أَنتفِضُ مِنَ الرَّيْمِ[٢] ، وَحَضرْتُ حَرَصَاتِ[٣] الْقِيَامَةِ ، ذَكَرْتُ الآيَةَ : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ والرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا » فطَالَ عليَّ الأَمَدُ ، واشتَدَّ الظَّمَأُ ، وأَنَا رجلٌ مِهْيَافٌ[٤] ، فافتَكَرْتُ[٥] فرَأَيْتُ أَمْرًا لَا قِوَامَ لِمِثْلِي بِهِ ، وَلقِيَنِي الْمَلَكُ الْحَفِيظُ بمَا زُبِرَ[٦] لِي مِنْ فِعْلِ الخيْرِ ، فوجدتُ حَسنَاتِي قَليلةً كالنُّفَإِ في الْعَامِ الأَرْمَلِ[٧] ، إلا أن التَّوْبَةَ فِي آخِرِهَا كأَنَّهَا مِصباحُ أَبِيلٍ[٨] ، رُفِعَ لِسَالِكِ السَّبيل .

---

(١) أى ابن القارح (٢) القبر (٣) ساحات (٤) الرجل المهياف : السريع العطش ، كما شرحها المعرى نفسه ، وزاد غيره : أو شديده . ومثله : المهتاف

(٥) فى نسخ الرسالة : افتكرت ، وكذلك يقول أبو العلاء فى لزومياته :

قال افتكار فى الحوادث صادق ... جعل الصعاب من الحذار مذلله :

« هفت الحنيفة ، والنصارى ما اهتدت ... ويهود حارت ، والمجوس مضلله

اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا ... دين ، وآخر دينّ لا عقل له »

أما ما فى المعاجم المعتمدة ، فهو : فكّر فى الشىء وأفكر وفكّر وتفكّر ، وليس فيها افتكر . على أن المعاجم ذكرت أن الفكرة اسم من « الافتكار » كالرحلة من الارتحال .

(٦) كُتب (٧) النفأ : الرياض ، والعام الأرمل : قليل المطر (٨) الأبيل — كأمير — كلمة معربة ، ومعناها رئيس النصارى ، أو الراهب

حديثه مع رضوان

فلمّا أَقَمْتُ فى المَوقفِ زُهاءَ شَهرٍ أو شَهرَيْنِ ، وخِفْتُ من الغرَقِ ، فى العرَقِ ، زَيَّنَتْ لِى النَّفسُ الكاذِبَةُ أنْ أَنْظمَ أبياتاً فى رِضْوانَ ، خازِنِ الجِنَانِ ، عَمِلْتُهَا فى وَزْنِ : « قِفَا نَبْكِ من ذِكْرَى حَبيبٍ وَعِرْفَانِ » وَوَسَمْتُهَا بِرِضْوانَ ، ثُمَّ ضَانَكْتُ[1] النَّاسَ حتَّى وَقَفتُ منهُ بحيثُ يَسْمعُ وَيَرَى ، فَمَا حَفَلَ بِى ، وَلَا أَظُنُّهُ أَبِهَ لِمَا أَقُولُ، فغَبَرْتُ[2] بُرْهَةً نحوَ عَشَرَةِ أَيَّامٍ من أَيَّامِ الفانِيَةِ، ثُمَّ عَمِلْتُ أبياتاً فى وَزْنِ :

بَانَ الْخَلِيطُ وَلَوْ طُووِعْتَ مَا بَانَا ... وَقَطَّعُوا مِنْ حِبَالِ الْوَصْلِ أَقْرَانَا[3]

---

(١) ضايقت . زاحمت (٢) مكثت (٣) الخليط : الركب ، والأقران ، جمع : قرن : ومعناه فى الأصل : الحبل يجمع به البعيران . والمراد فى هذا البيت أنهم قطعوا ما كان يجمع بينه و بين حبيبه من أسباب اللقاء

وهذا البيت مطلع قصيدة لجرير الخَطَفى ، يهجو بها الأخطل ، ومن رقيق أبياتها الغزلية :

قالت : أَلِمَّ بنا إن كنت منطلقاً ... ولا إخالك بعـد اليوم تلقانا

يا طيب هل من متاع تمتعين به ... ضيفاً لكم باكراً يا طيب عجلانا

ما كنت أول مشتاق أخى طرب ... هاجت له غدوات البين أحزانا

يا أم عمرو جـزاكِ الله مغفرة ... ردى على فؤادى كالذى كانا

قد خنتِ من لم يكن يخشى خيانتكم ... ما كنتِ أول موثوق به خانا

لقد كتمتُ الهـوى حتى تهيّمنى ... لا أستطيع لهـذا الحب كتمانا

لا باركَ الله فى الدنيا إذا انقطعت ... أسباب دنياك من أسباب دنيانا

إن العيون التى فى طرفها مرض ... قتلننا ثم لم يحيين قتـلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهنّ أضعف خلق الله أركانا

وَوَسَمْتُهَا بِرِضْوَانَ ، ثم دَنَوْتُ منهُ ، فَفعلتُ كَفِعْلِيَ الأوَّلِ ، فَكَأَنِّى أُحَرِّكُ

وهو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفَى ، وكنيته أبو حزرة .

وقد ولد باليمامة فى خلافة عثمان ، ونشأ بدوياً يرعى غنمه ، وكان هو وأهله فقراء يغلب عليهم الشعر يهجون به أعداءهم ، وقد هجا جرير البعيث ، وهو من قوم الفرزدق ، فانتصر الفرزدق لقومه ، فاشتبك جرير والفرزدق فى مهاجاة دامت عشر سنين

وقد رحل جرير إلى البصرة وظل يهاجى الفرزدق ومن يتدخل فى شأنه كالأخطل ، فاتصل بولاة العراق ، كبشر بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، ثم اتصل بعبد الملك بن مروان ، ومن بعده من خلفاء بنى أمية ، وزاحم الفرزدق على أبوابهم فزحمه .

ويمتاز شعر جرير بمتانة القافية ، والبعد عن التعقيد ، والسلامة من التكلف . وامتاز نسيبه بالرقة والعذوبة ، على أنه لم يعشق قط ، وقد قال : « لو عشقت لنسبت نسيباً تسمعه العجوز فتبكى على شبابها »

وقد قيل : أمدح بيت قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

وأهجى بيت قوله :

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وأغزل بيت قوله :

إن العيون التى فى طرفها حور   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

وأفخر بيت قوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم   حسبت الناس كلهم غضابا

وأبلغ بيت فى التهكم قوله :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا   أبشر بطول سلامة يا مربع

وأخبار جرير لا يتسع لها هذا المقام ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

ثَبيرًا(١) وَالتمِسُ من الْعِضْرِمِ(٢) عبيرًا ، فلَمْ أَزَلْ أَتتبَّعُ الأَوْزانَ التى يُمكِنُ أَنْ يُوسَم بهَا رضوَانُ حتَّى أَفْنيْتهَا ، وَأَنَا لَا أَجِدُ عنده مَغُوثَةً ، ولَا ظَنَنْتُهُ فَهِمَ مَا أَقُولُ، فلمَّا اُسْتَقصَيْتُ الْغرَضَ فَمَا أَنْجَحْتُ، دَعوْتُ بأَعْلَى صوتى: «يا رضوَانُ! يا أَمينَ الْملِكِ الْجبَّارِ الأَعْظمِ عَلَى الْفرَاديس ! أَلَمْ تَسْمَعْ نِدائِى بِكَ ، واسْتغاثتى إِليكَ ؟ » فقالَ : « لقدْ سَمِعْتُكَ تذْكُرُ رضوَانَ ومَا علمْتُ مَقْصِدَكَ ، فما الَّذى تَطْلُبُهُ أَيُّهَا المِسْكِينُ ؟ فأَقولُ : « أَنَا رجلٌ لَا صبْرَ لِى عَلَى اللُّوَابِ(٣) ، وَقدِ اسْتَطَلْتُ مُدَّةَ الْحساب ، وَمعِى صَكٌّ(٤) بالتَّوْبَةِ ، وَهِىَ للذُّنُوبِ كُلِّهَا مَاحِيَةٌ ، وَقدْ مَدحْتُكَ بأَشْعارٍ كَثيرةٍ وَوَسَمْتُهَا باسْمِكَ » فقالَ : « وَمَا الأَشْعارُ ؟ » فقلت : « الأَشْعارُ جَمْعُ شِعْرٍ ، والشِّعْرُ كلامٌ موْزُونٌ تَقبلُهُ الْغرِيزَةُ عَلَى شرَائط إِنْ زادَ أو نقصَ أَبَانَهُ الْحِسُّ ، وكَانَ أَهْلُ الْعاجلَةِ يتقرَّبُونَ بهِ إِلى الْمُلوكِ والسَّادات فجئْتُ بشىءٍ منهُ إِليكَ ، لَعلكَ تأْذَنُ لِى بالدُّخولِ فى هَذَا الْبَابِ ، فَقَدِ اسْتَطَلْتُ ما النَّاسُ فِيهِ ، وَأَنا ضَعيفٌ منِينٌ(٥) ولا رَيْبَ أَنِّى مِمَّنْ يرْجُو الْمَغْفِرَةَ ، وَتَصِحُّ لَهُ بمَشيئَةِ اللهِ تَعالَى » فقال : « إِنَّكَ لَغبِينُ الرَّأْىِ ، أَتأْمَلُ أَنْ آذَنَ لكَ بغَيْرِ إِذْنٍ مِنْ ربِّ الْعِزَّةِ ؟ هيهاتَ هيهاتَ ! وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ(٦) مِنْ مكانٍ بعيدٍ ! »

حديثه مع زُفَرَ

فترَكْتُهُ وَانْصرَفْتُ بأَمَلِى إِلى خَازِنٍ آخرَ يُقالُ لَهُ زُفَرُ ، فَعَمِلْتُ كَلِمَةً وَوَسَمْتُهَا باسْمِهِ ، فى وَزْنِ قَوْلِ لَبيدٍ :

---

(١) اسم جبل (٢) قال أبو العلاء : العضرم : تراب يشبه الجص (٣) العطش قالوا : «إذا طافت الإبل على الحوض ، ولم تقدر على الماء لكثرة الزحام ، فذلك اللواب.» (٤) إذن أو وثيقة (٥) المنين: الضعيف (والقوى) -ضد- والمراد هنا أنه ضعيف (٦) التناول أو الاختلاط

تَمَنَّى ابْنتَاىَ أَنْ يَعِيشَ أبُوهُمَا ... وَهلْ أنَا إلَّا مِنْ رَبِيعَةَ أَوْمُضَرْ[1]

وَقَرُبْتُ منه، فأَنْشَدْتُهَا، فَكَأَنِّى إِنَّمَا أُخَاطِبُ رَكُوداً صَمَّاء، لِأَسْتَنْزِلَ[2] أَبُوداً عَصْمَاء[3]، وَلَمْ أَتْرُكْ وَزْناً مُقَيَّداً ولا مُطلقاً يجوزُ أَنْ يُوسَمَ بزُفَرَ أَلَّا وَسَمْتُهُ بِهِ، فَمَا نَجَعَ، فقلتُ: «رَحِمَكَ اللهُ! كُنَّا فِى الدَّارِ الذَّاهِبَةِ نَتَقَرَّبُ إِلَى الرَّئِيسِ وَالْمَلِكِ بِالْبَيْتَيْنِ وَالثَّلاثَةِ فَنَجِدُ عِنْدَهُ مَا نُحِبُّ، وَقَدْ نَظَمْتُ فِيكَ مَا لَوْ جُمِعَ لَكَانَ دِيوَاناً وَكَأَنَّكَ مَا سَمِعْتَ لِى!» فقالَ: «لا أَشْعُرُ بِالَّذِى حَمَمْتَ[4]، وَأَحْسَبُ هَذَا الَّذِى تَجِيئُنِى بِهِ قُرْآنَ إِبْلِيسَ الْمَارِدِ، ولا يَنْفُقُ[5] عَلَى الْمَلَائِكَةِ، إِنَّمَا هُوَ لِلْجَانِّ، وَعَلَّمُوهُ وَلَدَ آدمَ. فَمَا بُغْيَتُكَ؟» فَذَكَرْتُ لَهُ مَا أُرِيدُ، فقالَ: «وَاللهِ مَا أَقْدِرُ لَكَ عَلَى نَفْعٍ، ولا أَمْلِكُ لِخَلْقٍ مِنْ شَفْعٍ، فَمِنْ أَىِّ الْأُمَمِ أَنْتَ؟» فقلتُ: «مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» فقالَ «صَدَقْتَ. ذَلِكَ نَبِىُّ الْعَرَبِ، وَمِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ أَتَيْتَنِى بِالْقَرِيضِ، لِأَنَّ إِبْلِيسَ اللَّعِينَ نَفَثَهُ فِى إِقْلِيمِ الْعَرَبِ فَتَعَلَّمَهُ نِسَاءٌ ورجالٌ، وَقَدْ وَجَبَ عَلَىَّ نُصْحُكَ، فعليكَ بِصَاحِبِكَ لَعَلَّهُ يَتَوَصَّلُ إِلَى مَا ابْتَغَيْتَ»

فيَئِسْتُ مِمَّا عِنْدَهُ.

---

(١) مر ذكر هذا البيت فى أبيات فى ترجمة لبيد (صحيفة ٤٦ من هذا الجزء)

(٢) فى نسخ الرسالة: لأستنزل، ويصح به الكلام، على أنه قد يكون تحريفاً، صوابه: لأستزل. واستزله: حمله على أن يزل، فيتصيده، وبذلك تتساوق الجملة، إذ تتحقق المقابلة بين الزلل والاعتصام (٣) المراد بالركود الصماء، الأرض الغليظة، أو الجبل. والمراد بالأبود العصماء: البهيمة المتوحشة المستعصمة بالجبل (٤) حممت: قصدت

(٥) يروج

حديثه مع حمزة بن عبد المطلب[1]

فجعلتُ أتخلّلُ العالَمَ ، فإذا أنا برجُلٍ عليه نورٌ يتلألأُ ، فقلت : « مَنْ هذا الرَّجُلُ ؟ » فقيلَ : « هذا حمزةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ صَرِيعُ وَحْشِيّ ، وهؤلاء الذينَ حَوْلَهُ مَنِ اسْتُشْهِدُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فى أُحُدٍ » فقلتُ لِنَفْسِى الْكَذُوبِ : « الشِّعْرُ عِنْدَ هَذَا أَنْفَقُ[2] منهُ عِنْدَ خَازِنِ الْجِنَانِ ، لِأنَّهُ شَاعِرٌ وَإخْوَتُهُ شُعَرَاءُ ، وَكَذَلِكَ أَبُوهُ وَجَدُّهُ ، ولعلّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعدِّ بْنِ عَدْنَانَ إلَّا مَنْ نَظَمَ شَيْئًا مِنْ مَوْزُونٍ ، فَعَمِلْتُ أَبْيَاتًا عَلَى مَنْهَجِ أَبياتِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ[3] التى رَثَى بها حَمْزَةَ ، وَأَوَّلُهَا :

صَفِيَّةُ قُومِى وَلَا تَعجزِى ... وَبَكِّى النِّسَاءَ عَلَى حَمْزَةَ

وَجِئْتُ حَتَّى وَلِيتُ[4] مِنهُ ، فَنَادَيْتُ : « يَا سَيِّدَ الشُّهَدَاءِ ، يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ

---

(١) حمزة بن عبد المطلب هو عم النبى ، وكان أسن منه بأربع سنوات أو أقل ، وقد أسلم فاعتز به الإسلام ، وشهد غزوتى بدر وأحد ، وقتله فى الثانية وحشى بن حرب (٢) أروج – أجدى

(٣) كعب بن مالك

هو كعب بن مالك بن عمرو بن القين البدوى الأنصارى الخزرجى ، وهو أحد رجال الصحابة ، وكان من كبار الشعراء ، مشهوراً فى الجاهلية . فلما جاء الإسلام كان من شعراء النبى صلوات الله عليه ، وشهد الغزوات . ثم كان من شيعة عثمان ، وأغانه يوم الثورة . وكف بصره فى أخريات أيامه . وعاش سبعاً وسبعين سنة

قال روح بن زنباع : أشجع بيت وصف به رجل قومه ، قول كعب بن مالك :

نصِل السيوفَ – إذا قصرن – بخطونا ... يوماً ونلحقها إذا لم تلحق

(٤) أى دنوت وقربت . وليس فيما بين أيدينا من كتب اللغة إلا ، وَلِيَ فلان فلاناً ، أى دنا منه ، فلعل أبا العلاء ضمَّن وَلِيَ معنى دنا . فقال : وَلِيَ منه ، كما يقال : دنا منه . وهو سائغ .

صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ! يا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ! » فلمَّا أَقْبَلَ عَلَيَّ بِوَجْهِهِ ، أَنْشَدْتُهُ الْأَبْيَاتَ ، فقال : وَيْحَكَ ! أَفِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ تَجِيئُنِي بِالْمَدِيحِ ؟ أَمَا سَمِعْتَ الآيَةَ ؟ « لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »

فقلتُ : « بَلَى ، قَدْ سَمِعْتُهَا وَسَمِعْتُ مَا بَعْدَهَا « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ(١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ »

فقالَ : « إِنِّي لَا أَقْدِرُ عَلَى مَا تَطْلُبُ ، وَلَكِنْ أُنْفِذُ مَعَكَ تَوْراً(٢) إِلَى ابْنِ أَخِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، لِيُخَاطِبَ النَّبِيَّ — صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ — فِي أَمْرِكَ » فَبَعَثَ مَعِي رَجُلًا ، فلمَّا قَصَّ قِصَّتِي عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : « أَيْنَ بَيِّنَتُكَ ؟(٣) »

مقابلة أبي على الفارسى(٤)

وَكُنْتُ قَدْ رَأَيْتُ فِي الْمَحْشَرِ شَيْخاً لنا كَانَ يَدْرُسُ النَّحْوَ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ ، يُعْرَفُ بِأَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ ، وَقَدِ امْتَرَسَ(٥) بِهِ قَوْمٌ يُطَالِبُونَهُ وَيَقُولُونَ : « تأَوَّلت

---

(١) غبرة (٢) التَّوْر : الرسول (٣) صحيفة حسناتك

(٤) أبو على الفارسى : ٢٨٨ — ٣٧٧ هـ

اسمه : الحسن ، وكنيته : أبو على الفارسى : واسم أبيه أحمد بن عبد الغفار ، اشتهر فى علم النحو ، وأقام بحلب عند سيف الدولة بن حمدان مدة ، وجرت محاضرات بينه و بين أبى الطيب المتنبى ، وانتقل إلى فارس وصحب عضد الدولة بن بو يه ، وعلت منزلته هناك ومات فى بغداد سنة ٣٧٧ هـ . وقد مر فى ترجمة ابن القارح — فى الجزء الأول — أنه كان تلميذاً لأبى على الفارسى ، وأنه درس عليه النحو ، ومن ثم ترى حسن المناسبة فى هذا الحديث ، إلى روعة الخيال وجمال التمثيل (٥) تعرّضوا له ، ولجُّوا معه

عَلَيْنا وَظَلَمْتَنَا » فلمَّا رَآنِى أَشارَ إِلَىَّ بِيَدِهِ ، فَجِئْتُهُ ، فإِذَا عِنْدَهُ طَبَقَةٌ ، مِنْها يَزِيدُ بنُ الْحَكَمِ الْكِلَابِىُّ[1] وهُوَ يقولُ : « وَيحَكَ ، أَنْشَدْتَ عَنِّى هذا الْبَيْتَ بِرَفْعِ الْمَاء ، يَعْنِى قَوْلَهُ :

« فَلَيْتَ كَفافًا كَانَ شَرُّكَ كُلُّهُ ... وَخَيْرُكَ عَنِّى ما ارْتَوَى الْمَاءَ مُرْتَوِى[2] »

وَلَمْ أَقُلْ إِلَّا الْمَاءَ ، وَكَذَلِكَ زَعَمْتُ أَنِّى فَتَحْتُ الْمِيمَ فى قَوْلِى :

« تَبَدَّلْ خَلِيلًا بِى ، كَشَكْلِكَ شَكْلُهُ ، ... فَإِنِّى خَلِيلًا صَالِحًا بِكَ مَقْتَوِى[3] »

---

(١) يزيد بن الحكم الكلابي

هو يزيد بن الحكم الثقفي ، شاعر جاهلي من بنى كلاب بن ربيعة بن صعصعة . ومن مختار شعره قوله :

دفعناكم بالقول ، حتى بطرتم ... وبالراح ، حتى كان دفعُ الأصابع
فلما رأينا جهلكم غير منته ... وما كان من أحلامكم غير راجع
مسسنا من الآباء شيئا ، وكلنا ... إلى حسب فى قومه غير واضع
فلما بلغنا الأمهات ، وجدتمُ ... بنى عمكم كانوا كرام المضاجع[1]

*
* *

بنى عمنا لا تشتمونا ، ودافعوا ... على حسب – ما فات قيد الأكارع
وكنا بنى عم – نزا الجهل بيننا – ... فكل يوفى حقه غير وادع

وستمر بك — بعد أسطر قلائل — قصيدته الرائعة التى تعد من غرر الشعر العربى

(٢) ما ارتوى الماء مرتوى ، أى دائماً أبداً ، ومعنى البيت : « ليت خيرك يعادل شرك فيكف هذا عني ذاك ، وأصبح آمناً منك أبداً »

(٣) مقتوٍ أى متبدل به ، ومعنى البيت : « اختر لنفسك صديقاً آخر يشبهك وتشبهه ؛ فانى متبدل بك خليلاً صالحاً » وهو يخاطب ابن عمه و يقرعه على سوء سلوكه معه ، و يعلن إليه ضيق ذرعه بما تحمله منه من الإساءة المتكررة ، ونفور طبعه من خطته الجائرة .

---

(١) كرام الأمهات

وَإِنَّمَا قُلْتُ : « مُقْتَوِى » بِضَمِّ الْمِيمِ ! »

وهذا البيت والذى يليـه من قصيدة رائعة له — هى من أجمل الشعر العربى وأجوده وأدقه فى شرح النفوس وتحليلها مع براعة الأداء وقوة الشاعرية — وهى :

تكاشرنى كُرْهاً كأنك ناصـح ... وعينك تبدى أن صـدرك لى دوى
لسانك ماذىٌّ[1] ، وغيبـك علقم ... وشرك مبسوط ، وخـيرك منطوى
فليت كفافاً كان خيرك كله ... وشرك عنى ، ما ارتوى المـاء مرتوى
عدوك يخشى صولتى — إن لقيتُه — ... وأنت عدوى ، ليس ذاك بمستوى
تصافح من لاقيت لى ذا عداوة ... صفاحاً ، وعنى بين عينيك منزوى
أراك إذا لم أهـو أمراً هويتـه ... ولست لما أهوى من الأمر بالهوى
أراك اجتويت الخير منى ، وأجتوى[2] ... أذاك ، فكل يجتوى قرب مجتوى[3]
وكم موطن — لولاى — طحت كما هوى ... بأجرامه من قُلة النيق[4] منهوى
إذا ما ابتنى المجـد ابن عمك لم تعن ... وقلت : « ألا يا ليت بنيانه خوى »
فإنك — إن قيل ابن عمك غانم — ... شج أو عمـيد أو أخو مغلة لوى
تملأت من غيظ علىَّ ؛ فلم يزل ... بك الغيظ حتى كدت بالغيظ تنشوى
وما برحت نفس حسـود حسبتها ... تذيبك ، حتى قيل : هل أنت مكتوى ؟
وقال النطاسيون : « إنك مُشْعَرٌ ... سلالا » ألا بل أنت من حسد دوى
جمعت ، وفحشاً ، غيبـة ونميمة ، ... خصالاً ثلاثا لست عنهـا بمرعوى
أفحشاً وجبناً ، واختناء[5] عن الندى ... كأنك أفعى كدية فر محجوى[6]
فيدحو بك الداحى إلى كل سوأة ... فيا شر من يدحو بأطيش مدحوى
بدا منك غش طال ما قد كتمته ... كما كتمت داء ابنها أم مدّوى[7]

---

(١) عسل أبيض (٢) أكره (٣) كاره (٤) أرفع موضع فى الجبـل ، ومعنى البيت « كم موقف آزرتك فيه لحميتك من التلف ، ولو لم أفعل لهويتَ كما يهوى الشىء من أعلى قمة فى الجبل »

(٥) الاختناء التقبض (٦) منطوى (٧) المدوى الذى يأخذ الدواية ، وهى جلدة رقيقة تركب اللبن ، يقال دوى اللبن يدوى فهو مدو . وأقبل الصبيان على اللبن يدوونه ، أى يأخذون ما عليه من الجلدة . ولأم مدو قصة طريفة ، فانظرها فى الأمالى .

وَإذَا جَمَاعَةٌ مِنْ هذا الجِنْسِ ، كُلُّهُمْ يَلُومُونَهُ عَلَى تَأْوِيلِهِ .

فقلتُ : « يَا قَوْمِ إنَّ هـذِهِ أُمُورٌ هَيِّنَةٌ ، فَلَا تَعْنِتُوا[١] هذَا الشَّيْخَ ، فإِنَّهُ مَا سَفَكَ لَـكُمْ دَمًا ، وَلَا احْتَجَنَ[٢] عَنْـكُمْ مَالًا » .

فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ . وَشُغِلْتُ بِخِطَابِهِمْ ، وَالنَّظَرِ فِي حَوِيرِهِمْ[٣] ، فَسَقَطَ مِنِّى الْـكِتَابُ الَّذِى فِيهِ ذِكْرُ التَّوْبَةِ ، فَرَجَعْتُ أَطْلُبُهُ ، فَمَا وَجَدْتُهُ

حديثه مع على بن أبى طالب[٤]

فأَظْهَرْتُ الْوَلَهَ وَالْجَزَعَ ، فقالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : « لَا عَلَيْكَ[٥] أَلَكَ شَاهِدٌ بِالتَّوْبَةِ ؟ » فقلتُ : « نَعَمْ ! قَاضِى حَلَبَ وَعُدُولُهَا[٦] » فقالَ : « بِمَنْ يُعْرَفُ ذَلِكَ الرَّجُلُ ؟ » فأَقولُ : « بِعَبْدِ الْمُنْعِمِ بنِ عَبْدِ الْـكَرِيمِ ، قَاضِى حَلَبَ — حَرَسَهَا اللهُ — فِى أَيَّامِ شِبْلِ الدَّوْلَةِ » فأَقَامَ هُنَاكَ هَاتِفًا يَهْتِفُ فِى الْمَوْقِفِ : « يَا عَبْدَ الْمُنْعِمِ ابْنَ عَبْدِ الْـكَرِيمِ قَاضِىَ حَلَبَ فِى زَمَانِ شِبْلِ الدَّوْلَةِ ! هَلْ مَعَكَ عِلْمٌ مِنْ تَوْبَةِ عَلِىِّ بنِ مَنْصُورِ بنِ طَالِبٍ الْحَلَبِىِّ ؟ » فلمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ ، فأَخَذَنِى الْهَلَعُ[٧] وَالرِّعْدَةُ ، ثُمَّ هَتَفَ الثَّانِيَةَ ، فلمْ يُجِبْهُ مُجِيبٌ ! فَطُرِحْتُ إِلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ نَادَى الثَّالِثَةَ ، فأَجَابَهُ قَائِلٌ يقولُ : « نَعَمْ قَدْ شَهِدْتُ تَوْبَةَ عَلِىِّ بنِ مَنْصُورٍ ، وَذَلِكَ بِأَخَرَةٍ[٨] مِنَ الْوَقْتِ ، وَحَضَرَتْ مَتَابَهُ عِنْدِى جَمَاعَةٌ مِنَ العدولِ ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ قَاضِى حَلَبَ وَأَعْمَالِهَا . »

---

(١) لا ترهقوه ، وترفقوا به (٢) ضم إلى نفسه (٣) محاورتهم (٤) ستمر بك ترجمته وطرف من أخباره فى الجزء الثالث من هذا الكتاب (٥) لاضير عليك (٦) جمع عدل ، وهو العادل الذى ترضى شهادته (٧) شدة الجزع (٨) جاء أَخَرة ، و بأَخَرَةٍ : أى آخر كل شىء .

فعندَ ذَلِكَ نَهَضْتُ وَقَدْ أَخذَتُ الرَّمَقَ[(١)] ، فَذَكَرْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ — عَلَيْهِ السلامُ — مَا أَلْتَمِسُ ، فأَعْرَضَ عَنِّي ، وَقَالَ : « إِنَّكَ لتَرُومُ مُمْتَنِعاً ، وَلَكَ أُسْوَةٌ بِوَلَدِ أَبِيكَ آدمَ »

وروده الحوض

وَهَمَمْتُ بِالْحَوْضِ ، فَكِدْتُ لَا أَصِلُ إِلَيهِ ، ثُمَّ نَغَبْتُ مِنْهُ نَغَبَاتٍ[(٢)] لَا ظَمَأَ بَعْدَهَا ، وَإِذَا الْكَفَرَةُ يَحمِلُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْوُرُودِ ، فَتَذُودُهُمْ[(٣)] الزَّبَانِيَةُ بِعِصِيٍّ تَضْطَرِمُ نَاراً ، فيَرْجِعُ أَحَدُهُمْ وَقَدِ احْتَرَقَ وَجْهُهُ أَوْ يَدُهُ ، وَهُوَ يَدْعُو بِوَيْلٍ وَثُبُورٍ[(٤)]

حديثه مع فاطمة

فَطُفْتُ عَلَى الْعِتْرَةِ الْمُنْتَخَبِينَ ، فقلتُ : « إِنِّي كُنْتُ فِي الدَّارِ الذَّاهِبَةِ إِذَا كَتَبْتُ كِتَاباً وَفَرَغْتُ منهُ قلتُ فِي آخِرِهِ : « وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَعَلَى عِتْرَتِهِ الْأَخْيَارِ الطَّيِّبِينَ » وَهذِهِ حُرْمَةٌ لِي وَوَسِيلَةٌ »

فقالوا : « مَا نَصْنَعُ بكَ ؟ » فقلتُ : « إِنَّ مَوْلَاتَنَا فَاطِمَةَ[(٥)] — عليها السلامُ — قَدْ دَخلَتِ الْجَنَّةَ مُنذُ دَهْرٍ . وَإِنَّهَا تَخْرُجُ فِي كُلِّ حِينٍ مِقْدَارُهُ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ سَاعَةً منْ سَاعَاتِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ . فتُسَلِّمُ عَلَى أَبِيهَا وَهوَ قَائِمٌ لشَهَادَةِ الْقَضَاءِ . ثُمَّ تَعُودُ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا فِي الْجِنَانِ ، فَإِذَا هِيَ خَرَجَتْ كَالْعَادَةِ فَاسْأَلُوهَا فِي أَمْرِي

---

(١) بقية الروح (٢) جرعا (٣) تطردهم وتدفعهم (٤) هلاك

(٥) فاطمة الزهراء : توفيت سنة ١١ هـ

هي بنت رسول الله صلوات الله عليه ، وقد تزوجها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، فولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب ، وكانت فصيحة عاقلة . وقد توفيت بعد أبيها بستة أشهر ، ويروى عنها بعض الأحاديث النبوية .

بأجمعكم ، فلعلها تسأل أباها فيّ » فلما حان خروجها ، ونادى الهاتف أن غضوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد — صلى الله عليه — اجتمع من آل أبي طالب خلق كثير من ذكور وإناث ممن لم يشرب خمراً ، ولا عرف قط منكراً ، فلقوها في بعض السبيل . فلما رأتهم قالت : « ما بال هذه الزرافة ؟[1] ألكم حال تذكر ؟ » فقالوا : « نحن بخير . إنا نلتذ بتحف أهل الجنة . غير أنا محبوسون للكلمة السابقة ، ولا نريد أن نتسرع إلى الجنة قبل الميقات ، إذ كنا آمنين ناعمين ، بدليل قوله « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها[2] وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون » . وكان فيهم علي بن الحسين[3] ، وابناه محمد[4]

---

(١) الجماعــة (٢) صوتها الخفى

(٣) على بن الحسين : ٣٨ هـ — ٩٤ هـ

هو أبو الحسن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، الملقب بزين العابدين . كان يضرب به المثل فى الحلم والورع ، ولد بالمدينة وتوفى بها . ومن شواهد نبله أنه أحصى بعد موته من كان يقوتهم سراً فإذا هم نحو مائة بيت ، حتى قال بعض أهل المدينة : « ما فقدنا صدقة السر إلا بعد موت زين العابدين . »

(٤) محمد بن على : توفى سنة ١١٤ هـ

هو محمد بن على زين العابدين بن الحسين ، وقد مرت ترجمة أبيه فى هذه الصفحة ويلقب محمد بن على بأبى جعفر الباقر ، وكان ناسكاً عابداً ، ويروى له فى تفسير القرآن آراء وأقوال ، ولد بالمدينة ، وتوفى خارجها ، فنقلت جثته إليها ، ودفن بها .

وَزَيْدٌ[١]، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْأَبْرَارِ الصَّالِحِينَ، وَمَعَ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ امْرَأَةٌ أُخْرَى تَجْرِى مَجْرَاهَا فِى الشَّرَفِ وَالْجَلَالَةِ، فَقِيلَ: «مَنْ هَذِهِ؟» فَقِيلَ: «خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى[٢]» وَمَعَهَا شَبَابٌ عَلَى أَفْرَاسٍ مِنْ نُورٍ، فَقِيلَ: «مَنْ هَؤُلَاءِ؟» فَقِيلَ: «عَبْدُ اللهِ، وَالْقَاسِمُ، وَالطَّيِّبُ، وَالطَّاهِرُ، وَإِبْرَهِيمُ[٣]، بَنُو مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»

---

(١) زيد بن على : توفى سنة ١٢٢ هـ

زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، أقام بالكوفة ، وقرأ على واصل بن عطاء رأس المعتزلة ، واقتبس منه علم الاعتزال ، وخرج على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٠ هـ داعياً إلى العمل بالكتاب والسنة ، ورد المظالم ، والعدل فى القسمة . وكان عامل العراق آنئذ يوسف بن عمر الثقفى ، فكتب يوسف إلى الحكم بن أبى الصلت يأمره بقتال زيد ، ففعل ، ودارت معارك ختمت بقتل زيد ، فحمل رأسه إلى الشام ونصب على باب دمشق . و إلى زيد بن على تنسب الطوائف الزيدية الباقية إلى يومنا هذا فى اليمن وغيرها .

(٢) خديجة بنت خويلد : توفيت قبل الهجرة بثلاث سنين

خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى ، أول زوجة للرسول صلوات الله عليه ، وكانت أسن منه بخمس عشرة سنة ، ولدت بمكة ، ونشأت فى بيت شرف ويسار ، وتزوجت برجل مات عنها ، وكانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام ، فتستأجر لذلك الرجال . وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تجارة لها إلى الشام فربحت ربحا عظيما ، فأرسلت إليه من يعرض عليه زواجه منها ، فلما تزوجها ولدت له القاسم وعبد الله (وهو الطاهر والطيب) وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، وكان بين كل ولدين سنة . ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاها الى الإسلام ، فأسلمت ، ومكثا يصليان سراً إلى أن ظهرت الدعوة الإسلامية . وتوفيت خديجة بمكة .

(٣) هكذا فى جميع النسخ . والذكور من أولاد النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة : عبد الله ، والقاسم ، و إبرهيم . أما الطيب والطاهر فلقبان ، قيل إنهما لقبا عبد الله .

فَقَالَتْ تِلْكَ الْجَمَاعَةُ الَّتِي سَأَلْتُ: «هَذَا وَلِيٌّ مِنْ أَوْلِيَائِنَا قَدْ صَحَّتْ تَوْبَتُهُ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَقَدْ تَوَسَّلَ بِنَا إِلَيْكَ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ ـ فِي أَنْ يُرَاحَ مِنْ أَهْوَالِ الْمَوْقِفِ، وَيَصِيرَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَتَعَجَّلَ الْفَوْزَ»

فَقَالَتْ لِأَخِيهَا إِبْرَهِيمَ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ـ: «دُونَكَ الرَّجُلَ» فَقَالَ لِي: «تَعَلَّقْ بِرِكَابِي» وَجَعَلَتْ تِلْكَ الْخَيْلُ تَخَلَّلُ النَّاسَ؛ وَتَنْكَشِفُ لَهَا الْأُمَمُ وَالْأَجْيَالُ[1]. فَلَمَّا عَظُمَ الزِّحَامُ، طَارَتْ فِي الْهَوَاءِ، وَأَنَا مُتَعَلِّقٌ بِالرِّكَابِ

حديثه مع النبي

فَوَقَفَتْ عِنْدَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: «مَنْ هَذَا الْأَتَاوِيُّ[2]؟» فَقَالَتْ: «هَذَا رَجُلٌ سَأَلَ فِيهِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ» وَسَمَّتْ جَمَاعَةً مِنَ الْأَئِمَّةِ الطَّاهِرِينَ، فَقَالَ: «حَتَّى يُنْظَرَ فِي عَمَلِهِ» فَسَأَلَ فِي عَمَلِي، فَوَجَدَهُ فِي الدِّيوَانِ الْأَعْظَمِ. وَقَدْ خُتِمَ بِالتَّوْبَةِ؛ فَشَفَعَ لِي، فَأُذِنَ لِي فِي الدُّخُولِ

عبور الصراط

فَلَمَّا خَلَصْتُ مِنْ تِلْكَ الطُّمُوشِ[3] قِيلَ لِي: «هَذَا الصِّرَاطُ، فَاعْبُرْ عَلَيْهِ» فَوَجَدْتُهُ خَالِيًا لَا عَرِيبَ[4] عِنْدَهُ، فَبَلَوْتُ نَفْسِي فِي الْعُبُورِ، فَوَجَدْتُنِي لَا أَسْتَمْسِكُ، فَقَالَتِ الزَّهْرَاءُ[5] ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهَا ـ لِجَارِيَةٍ مِنْ جَوَارِيهَا:

فلعله سهو من أبي العلاء، إذ اشتبهت عليه الأسماء بالألقاب، فعد الذكور خمسة. وجل من لا يسهو، فالعصمة لله وحده.

(١) الأجيال: أجناس الناس، كالترك، والروم، والزنج . . . . (٢) الغريب

(٣) جمع طمش، وهو الناس (٤) لا أحد (٥) هي السيدة فاطمة، وقد تقدمت ترجمتها

« يَا فُلَانَةُ ، أَجِيزِيهِ(١) » فَجَعَلَتْ تُمَارِسُنِي(٢) وَأَنَا أَتَسَاقَطُ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ فَقُلْتُ لَهَا : « يَا هَذِهِ ! إِنْ أَرَدْتِ سَلَامَتِي ، فَاسْتَعْمِلِي مَعِي قَوْلَ الْقَائِلِ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ :

« سِتٌّ إِنْ أَعْيَاكِ أَمْرِي فَاحْمِلِينِي زَقَفُونَهْ »

فَقَالَتْ : « وَمَا زَقَفُونَةُ ؟ » قُلْتُ : « أَنْ يَطْرَحَ الإِنسَانُ يَدَيْهِ عَلَى كَتِفِ الآخَرِ ، وَيُمْسِكَ بِيَدَيْهِ ، وَيَحْمِلَهُ وَبَطْنُهُ إِلَى ظَهْرِهِ . أَمَا سَمِعْتِ قَوْلَ الْجَحْجَلُولِ مِنْ أَهْلِ كَفْرِ طَابٍ :

صَلَحَتْ حَالَتِي إِلَى الْخَلْفِ حَتَّى صِرْتُ أَمْشِي إِلَى الْوَرَى زَقَفُونَهْ(٣)

فَقَالَتْ : « مَا سَمِعْتُ بِزَقَفُونَةَ وَلَا الْجَحْجَلُولِ وَلَا كَفْرِ طَابٍ إِلَّا السَّاعَةَ ! » فَتَحْمِلُنِي ، وَتَجُوزُ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ . فَلَمَّا جُزْتُ ، قَالَتِ الزَّهْرَاءُ — عَلَيْهَا السَّلَامُ — : « قَدْ وَهَبْنَا لَكَ هَذِهِ الْجَارِيَةَ ، فَخُذْهَا كَيْ تَخْدُمَكَ فِي الْجِنَانِ. »

حواره مع رضوان

فَلَمَّا صِرْتُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ ، قَالَ رِضْوَانُ : « هَلْ مَعَكَ مِنْ جَوَازٍ ؟ » فَقُلْتُ : « لَا » فَقَالَ : « لَا سَبِيلَ إِلَى الدُّخُولِ إِلَّا بِهِ »

---

(١) اجعليه يجوز ، أى يعبر (٢) تعالجنى (٣) كفر طاب قرية من قرى الشام ، وفيها يقول أبو العلاء فى لزومياته :

أرى كفر طاب أعجز الماء حفره وبالس أغناها الفرات عن الحفر
كذلك مجرى الرزق ، واد به ندى ، وواد به فيض ، وآخر ذو جفر

وبالس قرية بالشام

فَبعِلتُ(١) بِالأمْرِ ، وَعَلَى بَابِ الْجَنَّةِ – مِنْ دَاخِلٍ – شَجَرَةُ صَفْصَافٍ ، فَقُلتُ : « أَعْطِنِي وَرَقَةً مِنْ هَذهِ الصَّفْصَافَةِ ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى الْمَوْقِفِ ، فَآخُذَ عَلَيْهَا جوَازاً » فَقالَ : « لاَ أُخْرِجُ شَيْئاً مِنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ بِإِذْنٍ مِنَ الْعَلِيِّ الأَعْلَى – تَقَدَّسَ وَتبَارَكَ »

فَلَمَّا دَجِرْتُ(٢) بِالنَّازِلَةِ ، قُلتُ : « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، لَوْ أَنَّ لِلأَمِيرِ أَبِي الْمُرَجَّى خَازِناً مِثْلَكَ ، لَمَا وَصَلْتُ أَنَا وَلاَ غَيْرِي إِلَى دِرْهَمٍ مِنْ خَزَائِنِهِ ! »

دخوله الجنـــة

وَالْتَفَتَ إِبْرٰهِيمُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ – فَرَآنِي وَقَدْ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ ، فَرَجَعَ إِلَيَّ ، فَجَذَبَنِي جَذْبَةً حَصَّلَنِي بِهَا فِي الْجَنَّةِ ، وَكَانَ مُقَامِي(٣) فِي الْمَوْقِفِ مُدَّةَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ شُهُورِ الْعَاجِلَةِ ، فَلِذَلِكَ بَقِيَ عَلَى حِفْظِي ، مَا نَزَفَتْهُ(٤) الأَهْوَالُ ، وَلاَ نَهَكَهُ تَدْقِيقُ الْحِسَابِ .

---

(١) وصلت حيرتي وخوفي وسأمي الى حد لم أدر معه ما أصنع

(٢) حرت (٣) إقامتي (٤) ما أذهبته

الفصل الثالث

نَعِيمُ الفِرْدَوْس

حديثه مع حميد بن ثور(١)

وَيَنْصَرِفُ عَنْهُ رَشِيداً إلى حُمَيْدِ بْنِ ثَوْرٍ ؟ فيقُولُ :

« إيهِ يَا حُمَيْدُ ! لقَدْ أَحْسَنْتَ فِي قَوْلِكَ :

أَرَى بَصَرِي قَدْ رَابَنِي – بَعْدَ صِحَّةٍ –   وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا(٢)

وَلَنْ يَلْبَثَ الْعَصْرَانِ(٣) يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ   إذَا طَلَبَا ، أَنْ يُدْرِكَا مَا تَيَمَّمَا(٤)

فَكَيْفَ بَصَرُكَ الْيَوْمَ ؟ » فيَقُولُ : « إِنِّي لَأَكُونُ فِي مَغَارِبِ الْجَنَّةِ، فَأَلْمَحُ الصَّدِيقَ مِنْ أَصْدِقَائِي وَهُوَ بِمَشَارِقِهَا ، وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ مَسِيرَةُ أُلُوفِ أَعْوَامٍ

---

(١) حميد بن ثور الهلالى .

شاعر إسلامى من عامر بن صعصعة ، ينسبون إليه البيت المشهور الذى جرى مجرى المثل ، وهو قوله :

ينام بإحدى مقلتيه ، ويتقى   بأخرى الأعادى ، فهو يقظان نائم

(٢) فى هذا المعنى يقول أبو العلاء فى لزومياته :

يداوى المريض لكيما يصح   وهل صحة الجسم إلا مرض ؟

(٣) الليل والنهار   (٤) تيمَّمَهُ : قَصَدَه ، ومعنى البيتين : ضعف بصرى بعد أن كان صحيحاً ، وكفى بالصحة منذرا بالمرض ، فقد آلى الزمن ليسقمن كل صحيح ، وليس يعجز الزمن الدائر بأيامه ولياليه أن يدرك غايته وشيكا .

لِلشَّمْسِ الَّتِي عَرَفَتْ سُرْعَةَ سَيْرِهَا فِي الْعَاجِلَةِ ، فَتَعَالَى اللهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ بَدِيعٍ[1] »

فَيَقُولُ الشَّيْخُ : « لَقَدْ أَحْسَنْتَ فِي الدَّالِيَةِ الَّتِي فِيهَا — :

تَتَابَعَ أَعْوَامٌ عَلَيْهَا هَزَلْنَهَا وَأَقْبَلَ عَامٌ ، يُنْعِشُ النَّاسَ ، وَاحِدُ »

فَيَقُولُ حُمَيْدٌ : « لَقَدْ شُغِلْتُ بِمَا وَهَبَ لِي رَبِّي الْكَرِيمُ ، وَلَا خَوْفَ عَلَيَّ وَلَا حَزَنَ ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُعْمِلُ فِكْرَهُ السَّنَةَ وَالْأَشْهُرَ فِي الرَّجُلِ قَدْ آتَاهُ اللهُ الشَّرَفَ وَالْمَالَ ، فَرُبَّمَا رَجَعَ بِالْخَيْبَةِ ، وَإِنْ أُعْطِيَ فَعَطَاءٌ زَهِيدٌ ، وَلَكِنَّ النَّظْمَ فَضِيلَةُ الْعَرَبِ »

حديثه مع لبيد[2]

وَيَعْرِضُ لَهُمْ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ ، فَيَدْعُوهُمْ إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَيُقْسِمُ عَلَيْهِمْ لَيَذْهَبُنَّ مَعَهُمْ ، فَيَمْشُونَ قَلِيلًا ، فَإِذَا هُمْ بِأَبْيَاتٍ ثَلَاثَةٍ لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ نَظِيرُهَا بَهَاءً وَحُسْنًا فَيَقُولُ لَبِيدٌ : « أَتَعْرِفُ أَيُّهَا الْأَدِيبُ الْحَلَبِيُّ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ ؟ إِنَّهَا قَوْلِي :

إِنَّ تَقْوَى[3] رَبِّنَا خَيْرُ نَفَلْ[4] وَبِإِذْنِ اللهِ رَيْثِي وَعَجَلْ
أَحْمَدُ اللهَ ، فَلَا نِدَّ لَهُ بِيَدَيْهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلْ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ ، وَمَنْ شَاءَ أَضَلّ[5]

---

(١) البديع — هنا — ما اخترع على غير مثال سابق

(٢) تقدمت ترجمته فى ص ٤٦ (٣) خشية (٤) غنيمة (٥) معنى الأبيات : أربح غنم يصيبه الإنسان هو خشية الله مصرف الأمور ، فله الحمد ، لا كفو له ، بيده الخير ، يهدى من يشاء و يضل من يشاء ، وهو على ما يشاء قدير

صَيَّرَهَا رَبِّى أَبْيَاتًا فِى الْجَنَّةِ أَسْكُنُهَا أُخْرَى الْأَبَدِ »

فَيَعْجَبُ هُوَ وَأُولَئِكَ الْقَوْمُ ، وَيَقُولُونَ : « إِنَّ اللهَ قَدِيرٌ عَلَى مَا أَرَادَ ! »

مأدبة فى الجنـــة

وَيَبْدُو لَهُ(١) أَنْ يَصْنَعَ مَأْدُبَةً فِى الْجِنَانِ ، يَجْتَمِعُ فِيهَا مَنْ أَمْكَنَ مِنْ شُعَرَاءِ الْخَضْرَمَةِ وَالإِسْلَامِ ، وَالَّذِينَ أَصَّلُوا كَلَامَ الْعَرَبِ ، وَجَعَلُوهُ مَحْفُوظًا فِى الْكُتُبِ ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَتَأَنَّسُ بِقَلِيلِ الأَدَبِ ، وَيَخْطُرُ لَهُ أَنْ تَكُونَ كَمَآدِبِ الدَّارِ الْعَاجِلَةِ ، إِذْ كَانَ الْبَارِى لَا يُعْجِزُهُ — جَلَّتْ عَظَمَتُهُ — أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِجَمِيعِ الْأَغْرَاضِ مِنْ غَيْرِ كُلْفَةٍ وَلَا إِبْطَاءٍ ، فَتَنْشَأُ أَرْحَاءٌ(٢) عَلَى الْكَوْثَرِ ، تُجَعْجِعُ لِطَحْنِ بُرِّ(٣) الْجَنَّةِ ، وَإِنَّهُ لَأَفْضَلُ مِنْ بُرِّ الْهُذَلِىِّ(٤) الَّذِى قَالَ فِيهِ :

«لَا دَرَّ دَرِّى(٥) إِنْ أَطْعَمْتُ رَائِدَكُمْ ... قِرْفَ الْحَتِىِّ(٦) وَعِنْدِى الْبُرُّ مَكْنُوزُ(٧) »

بِمِقْدَارٍ تَفْضُلُ بِهِ السَّمَوَاتُ الْأَرَضِينَ

***

وَيَجِسُ(٨) فِى صَدْرِهِ أَرْحَاءٌ تَدُورُ فِيهَا الْبَهَائِمُ ، فَيَمْثُلُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَا شَاءَ مِنَ الْبُيُوتِ فِيهَا أَحْجَارٌ مِنْ جَوَاهِرِ الْجَنَّةِ ، تُدِيرُ بَعْضَهَا جِمَالٌ تَسُومُ فِى عِضَاهِ(٩) الْفِرْدَوْسِ ، وَأَيْنُقٌ ، وَصُنُوفٌ مِنَ الْبِغَالِ وَالْبَقَرِ

---

(١) أى ابن القارح (٢) الأرحاء ، جمع رحى ، وهى المعروفة (٣) قمح (٤) هو أبو ذؤيب ، وقد مرت ترجمته فى ص ٣٥ (٥) لا درّ درى . أى لا كثر خيرى ، ولا زكا عملى . (٦) القرف : القشر ، والحتىّ : قشر الردىء من ثمار شجر الدوم (٧) معنى البيت : لا بارك الله فى مالى إذا أطعمت نازلكم قشر الدوم ، مع وفرة ما لدى من القمح الزائد عن حاجتى (٨) يجس : يقع فى ضميره ، أى يكون فى خاطره على وجه التمنى ، ولعل اللفظ : يهجس ، أى يمر بباله ، والمعنى لا يتغير على كلا اللفظين (٩) شجر ذو شوك

فَإِذَا اجْتَمَعَ مِنَ الطَّحْنِ مَا يُظَنُّ أَنَّهُ كَافٍ لِلْمَأْدُبَةِ ، تفرَّقَ خَدَمُهُ مِنَ الْوِلْدَانِ الْمُخَلَّدِينَ ، فَجَاءُوا بِالْجِدَاءِ وَضُرُوبِ الطَّيْرِ الَّتِي جَرَتِ الْعَادَةُ بِأَكْلِهَا . وَسِيقَتِ الْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ، وَالإِبِلُ ، لِتُعْتَبَطَ ؛ فَارْتَفَعَ يُعَارُ الْمَعِزِ وَثُؤَاجُ الضَّأْنِ وَصِيَاحُ الدِّيَكَةِ لِعِيَانِ الْمُدْيَةِ ، فَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ الَّذِي ابْتَدَعَ خَلْقَهُ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ[1] ، وَصَوَّرَهُ بِلاَ مِثَالٍ

فَإِذَا حَصَلَتِ النُّحُوضُ[2] فَوْقَ الأَوْفَاضِ[3] ، قَالَ : « أَحْضِرُوا مِنَ الْجَنَّةِ الطُّهَاةَ السَّاكِنِينَ بِحَلَبَ عَلَى مَمَرِّ الأَزْمَانِ » فَتَحْضُرُ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ ، فَيَأْمُرُهُمْ بِاتِّخَاذِ الأَطْعِمَةِ ، وَتِلْكَ لَذَّةٌ يَهَبُهَا اللهُ — عَزَّ سُلْطَانُهُ — بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ، وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؛ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ »

فَإِذَا أَتَتِ الأَطْعِمَةُ افْتَرَقَ غِلْمَانُهُ الَّذِينَ كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ لإِحْضَارِ الْمَدْعُوِّينَ ، فَلاَ يَتْرُكُونَ فِي الْجَنَّةِ شَاعِراً إِسْلاَمِيًّا وَلاَ مُخَضْرَماً ، وَلاَ عَالِماً بِشَيْءٍ مِنْ أَصْنَافِ الْعُلُومِ ، وَلاَ مُتَأَدِّباً إِلاَّ أَحْضَرُوهُ ، فَيَجْتَمِعُ خَلْقٌ كَثِيرٌ ، فَتُوضَعُ الْخُونُ[4] مِنَ الذَّهَبِ ، وَالْفَوَاثِيرُ[5] مِنَ اللُّجَيْنِ[6] ، وَيَجْلِسُ عَلَيْهَا الآكِلُونَ ، وَتُنْقَلُ إِلَيْهِمُ الصِّحَافُ[7]

---

(١) الروية : النظر والتفكير ، والمراد أن خَلْقَ الله لم يحتج منه سبحانه إلى جهد ومشقة

(٢) النحوض جمع نَحْض ، وهو المكتنز من اللحم (٣) الأوْفاض جمع وَفَض ، وهو ما يُقْطَعُ عليه اللحم مثل الوَضَم (٤) جمع خوان (بكسر الخاء أو ضمها) وهو ما يوضع عليه الطعام ليؤكل (٥) جمع فاثور ، وهي الأخونة أيضاً ، أو الطسوت (٦) الفضة

(٧) جمع صحفة ، وهي قصعة أقل من الجفنة

مجلس أنس وغنـاء

فَإِذَا قضَوُا الأَرَبَ مِنَ الطَّعَامِ ، جاءتِ السُّقَاةُ بِأَصْنَافِ الأَشْرِبَةِ ، وَالمُسْمِعاتُ بِالأَصْواتِ المُطْرِبَةِ ، وَيقولُ[١] : «عَلَيَّ بِمَنْ فِي الجَنَّةِ مِنَ المُغَنِّينَ وَالمُغَنِّيَاتِ ، مِمَّنْ كَانُوا فِي الدَّارِ العَاجِلَةِ ، فَقُضِيَتْ لَهُ التَّوْبَةُ» . فَتَحْضُرُ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ ، فِيهِمُ الغَرِيضُ ، وَمَعْبَدٌ ، وَابْنُ سُرَيْجٍ ، إِلَى أن يحضُرَ إبْرَهِيمُ المَوْصِلِيُّ ، وَابْنُهُ إِسْحَاقُ

حديث الجرادتين[٢]

فَيَقُولُ قَائِلٌ مِنَ الجَمَاعَةِ ، وَقَدْ رَأَى أَسْرَابَ[٣] قِيَانٍ قَدْ حَضَرْنَ : «مِنَ العَجَبِ أَنَّ الجَرَادَتَيْنِ فِي أَقَاصِي الجَنَّةِ !»

فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ[١] قَالَ : «لَا بُدَّ مِنْ حُضُورِهِمَا» فَيَرْكَبُ بَعْضُ الخَدَمِ نَاقَةً مِنْ نُوقِ الجَنَّةِ ، وَيَذْهَبُ إِلَيْهِمَا — عَلَى بُعْدِ مَكَانِهِمَا — فَتُقْبِلَانِ عَلَى نَجِيبَيْنِ أَسْرَعَ مِنَ البَرْقِ

فَإِذَا حَصَلَتَا عَلَى المَجْلِسِ ، حَيَّاهُمَا وَبَشَّ بِهِمَا ، وَقَالَ : «كَيْفَ خَلَصْتُمَا إِلَى دَارِ الرَّحْمَةِ بَعْدَ مَا خَبَطْتُمَا فِي الضَّلَالِ !» فَتَقُولَانِ: «قُدِّرَتْ لَنَا التَّوْبَةُ ، وَمِتْنَا عَلَى دِينِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ»

---

(١) أى ابن القارح (٢) الجرادتان – فيما زعموا – مغنيتان غنتا لوفد عاد الجرهمى بمكة ، فشغلوا عن الطواف بالبيت ، وسؤال الله فيما قصدوا له ، فهلكت عاد وهم لاهون

(٣) جمع سرب ، أى قطيع من النساء

فيقولُ : « أحْسَنَ اللهُ إليْكُما ، أَسْمِعانا شيْئاً مِنَ القَصِيدةِ الحائيّةِ الَّتي تُرْوَى لِعَبيدٍ مَرّةً ، ولِأوْسٍ أُخْرى ، وما سَمِعْنا قطُّ بِعَبيدٍ ولا أوْسٍ(١). فتُلْهَمانِ أنْ تُغَنّيا بِالْمَطْلُوبِ ، فتُلَحّنانِ :

هَبَّتْ تَلُومُ ولَيْسَتْ ساعَةَ اللّاحِي(٢) ... هَلّاَ انْتَظَرْتِ بِهَذا اللَّوْمِ إصْبَاحِي

قاتَلَها اللهُ : تَلْحاني وقَدْ عَلِمَتْ ... أنّي لِنَفْسِي إفْسادِي وإصْلاحِي

إنْ أشْرَبِ الخَمْرَ أوْ أُرْزَأْ لها ثَمَناً ... فَلا مَحالَةَ يَوْماً أنّني صاحِي

ولا مَحالَةَ مِنْ قَبْرٍ بِمَحْنِيَةٍ(٣) ... أوْ في مَلِيعٍ(٤) كظَهْرِ التُّرْسِ وَضّاحِ

فتُطْرِبانِ مَنْ سَمِعَ ، وتَسْتَفِزّانِ الأفْئدَةَ بالسُّرُورِ .

ويَكْثُرُ حَمْدُ اللهِ — سُبْحانَهُ — كَما أنْعَمَ عَلَى المُؤْمِنِينَ والتّائِبِينَ ، وخَلّصَهُمْ مِنْ دارِ الشِّقْوَةِ إلى مَحَلِّ النَّعيمِ .

---

(١) يعنى أن الجاريتين تغنيانهم بما يطلبون بالرغم من أنهما لم تَسمعا بهذه القصيدة ولا باللذيْن تنسب إليهما من قبل (٢) اللائم (٣) محنية أو محنوة أو محناة ، جمعها محان ، وهى معاطف الأودية (٤) المليع : طريق ضيقة ذاهبة فى الأرض إلى مسافة قريبة ، قاعها أقل من قامة ، أو هو الأرض المستوية ، أو الأرض التى لا نبات فيها

حديث جران العود النميرى

وَيَلتفِتُ ، فَإِذَا هُوَ بِجِرَانِ الْعَوْدِ[١] النُّمَيْرِيِّ ، فَيُحَيِّيهِ وَيُرَحِّبُ بِهِ ، وَيَقُولُ لِبَعْضِ الْقِيَانِ : « أَسْمِعَانَا قَوْلَ هَذَا الْمُحْسِنِ :

حَمَلْنَ جِرَانَ الْعَوْدِ حَتَّى وَضَعْنَهُ ... بِعَلْيَاءَ[٢] فِي أَرْجَائِهَا الْجِنُّ تَعْزِفُ[٣]

وَقُلْنَ : « تَمَتَّعْ لَيْلَةَ النَّأْيِ هَذِهِ ... فَإِنَّكَ مَرْجُومٌ[٤] غَدًا أَوْ مُسَيَّفُ[٥] »

---

(١) جِرَانُ العَوْد

الجِرَان : مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره ، والعَوْد : البعير المسن .

وجران العود لقب هذا الشاعر ، و إنما لقب بذلك لقوله مخاطبا امرأتيه — وقد أغضبتاه :

خذا حــذراً يا جارتىّ ، فاننى ... رأيت جران العود قد كان يصلح

يعنى بذلك أنه كان قد اتخذ سوطا من جران العود يضرب به نساءه فهو يخيفهما به ، وكان قد لقى منهما مكروها ، فقال فى ذلك أبياتا جميلة منها :

ألا لا تغرنْ امرأً نوفلية ... على الرأس بعدى أو ترائب وضّح

الى أن قال :

خذا نصف مالى ، واتركا لى نصفه، ... وبينا بذم ، فالتغــرّب أروح

وأوجز ما يوصف به هذا الشاعر هو كلمة « محسن » التى وصفه بها أبو العلاء ، فان أظهر ميزة لشعره — وهو مجموع فى ديوان صغير مخطوط بدار الكتب — هى الإحسان . وقد اقترحنا فى الطبعتين السابقتين من هذه الرسالة على دار الكتب أن تطبع هذا الديوان النفيس ، فلبت اقتراحنا متفضلة، وأخرجته فى أبهى حلة وأجمل رواء (٢) العلياء : رأس الجبل ، أو المكان العالى ، والمعنى أنهن وضعننى موضعاً لا يوصل إليه (٣) تصوّت (٤) مرمىٌّ بالحجارة

(٥) مقتول بالسيف . ومعنى البيت : قلن لى : « انتهز فرصة هذه الليلة وتمتع بنا ، فربما كانت آخر لياليك من الدنيا ، لأنك قد ترجم غدا بالحجارة ، أو تقتل بالسيف »

وَأَحْرَزْنَ مِنِّى(١) كُلَّ حُجْزَةِ(٢) مِئْزَرٍ لَهُنَّ، وَطَاحَ(٣) النَّوْفَلِىُّ(٤) الْمُزَخْرَفُ

(١) منعن عنى (٢) الحجزة معقد الإزار ، أو موضع التكة من السراويل .

(٣) سقط (٤) شيء من صوف تختمر به نساء العرب ، وقيل : هو ضرب من الحلى يدرنه على رءوسهن تحت الخمار . والنوفلى أيضاً ضرب من الامتشاط ، وهو ما نذهب إليه هنا ، فيكون المعنى أن شعورهن المنسقة المزخرفة قد تهدلت

ويروى هذا البيت قبل سابقه فى النسختين الخطية والمطبوعة من رسالة الغفران ، ولكننا آثرنا رواية الأبيات كما هى فى ديوان الشاعر ، لأن المعنى ينتظم على هذه الصورة ، فالغوانى يبحن له معابثتهن ؛ ويشتد المزح والمغازلة ، حتى تتهدل شعورهن ، فإذا أراد المزيد منعنه ؛ فأحرزن منه حجز مآزرهن بالعفة .

أما تفسير الأبيات على الرواية الأخرى ، فيحتاج إلى تكلف

*
* *

وهذه الأبيات الثلاثة من قصيدة مطولة لهذا الشاعر بلغت فى الإجادة شأواً بعيداً ، وإذا استشهد بعض الأدباء ببضع أبيات قلائل لعمر بن أبى ربيعة أو جميل أو غيرهما ، على وجود شىء من محاولة العرب للشعر القصصى ؛ فإن فى هذه القصيدة وحدها مثلا واضحاً لتلك المحاولة ، لعلنا لا نجد له شبيهاً آخر فى كل ما نقرأ من شعر العرب . وتنيف أبيات هذه القصيدة على السبعين بيتا .

ونحب أن نحيل القارئ إلى ديوان ذلك الشاعر المحسن ، ونكتفى هنا بايراد بضعة أبيات متفرقة منها ؛ تعطى فكرة موجزة عن أغراض القصيدة وهى :

ذكرتَ الصبا فانهلت العين تَذرف وراجعك الشوق الذى كنت تعرف

وكان فؤادى قد صحا ، ثم هاجنى حمائم ورق ، بالمدينـة هتف

*
* *

فَتُصِيبُ الْقَيْنَةُ وَتُجِيدُ

. . . .

وقالت انا والعيس صُعْرٌ من البرى وأحجافها بالجندل الصم تقذف

. . . .

فموعدك الشط الذى بين أهلنا وأهلك ، حتى نسمع الديك يهتف

. . . .

فلما علانا الليــل أقبلت خفية لموعدها ، أعلو الأكام وأظلف

. . . .

فأقبلن يمشين الهوينا تهاديا قِصار الخطا ، منهن راب ومزحف
فلما هبطن السهل واحتلن حيلة ومن حيــلة الإنسان ما يتخوف
حملن جِرَان العود حتى وضعنه بعلياء — فى أرجائها الجن تعزف

. . . .

ولما رأين الصبح ، بادرن ضوءه دبيب قطا البطحاء ، أو هن أقطف
وأدركن أعجازا من الليل بعد ما أقام الصــلاة العابد المتحنف
وما أُبْنَ حتى قلن : « يا ليت أننا تراب، وليت الأرض بالناس تخسف!»
فإن ننج من هذى ولم يشعروا بنا فقد كان بعض الخير يدنو فيصرف
فأصبحن صرعى فى الحجال و بيننا رماح العــدا والجانب المتخوف
يبلغهن الحاج كل مكاتب طويل العصا أو مقعد يتزحف
ومكمونة رمداء لا يحذرونهــا مكاتبــة ترمى الكلاب وتحذف

و يقول فى ختامها

فأصبحت غريد الضحى قد ومقننى بشوق ، ولمات المحبين تشغف

أى أصبحت فرحا طرو با قد شغفن بى ، واللقاء يهتاج الشغف

فَإِذَا أُعْجِبَتِ الْجَمَاعَةُ مِنْ إِحْسَانِهَا وَإِصَابَتِهَا، قَالَتْ: «أَتَدْرُونَ مَنْ أَنَا؟» فَيَقُولُونَ: «لَا وَاللهِ!» فَتَقُولُ: «أَنَا أُمُّ عَمْرٍو الَّتِي يَقُولُ فِيهَا الْقَائِلُ:

تَصُدُّ الْكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو وَكَانَ الْكَأْسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا
وَمَا شَرُّ الثَّلَاثَةِ أُمَّ عَمْرٍو بِصَاحِبِكِ الَّذِي لَا تَصْبَحِينَا(١) »

فَيَزْدَادُونَ بِهَا عَجَباً، وَلَهَا إِكْرَاماً، وَيَقُولُونَ: «لِمَنْ هَذَا الشِّعْرُ؟ أَلِعَمْرِو ابْنِ عَدِيٍّ اللَّخْمِيِّ، أَمْ لِعَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ التَّغْلَبِيِّ؟»

فَتَقُولُ: «أَنَا شَهِدْتُ نَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ: مَالِكاً وَعَقِيلاً، وَصَبَحْتُهُمَا الْخَمْرَ الْمُشَعْشَعَةَ(٢)، لَمَّا وَجَدَا عَمْرَو بْنَ عَدِيٍّ، فَكُنْتُ أَصْرِفُ الْكَأْسَ عَنْهُ، فَقَالَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ، فَلَعَلَّ عَمْرَو بْنَ كُلْثُومٍ حَسَّنَ بِهِمَا كَلَامَهُ، وَاسْتَزَادَهُمَا فِي أَبْيَاتِهِ(٣) »

رقص الحـــور

وَيَذْكُرُ الْأَبْيَاتَ الَّتِي تُنْسَبُ إِلَى الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ، وَالْخَلِيلُ يَوْمَئِذٍ فِي الْجَمَاعَةِ، وَأَنَّهَا تَصْلُحُ لِأَنْ يُرْقَصَ عَلَيْهَا، فَيُنْشِئُ اللهُ الْقَادِرُ بِلُطْفِ حِكْمَتِهِ شَجَرَةً مِنَ الْجَوْزِ، فَتُونِعُ لِوَقْتِهَا، ثُمَّ تَنْفُضُ عَـــدَداً لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللهُ — سُبْحَانَهُ — وَتَنْشَقُّ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُ عَنْ أَرْبَعِ جَوَارٍ يَرُقْنَ الرَّائِينَ، يَرْقُصْنَ

---

(١) صَبَحَه، كمنعه: سقاه صَبُوحاً، وهو ما أصبح عند القوم من شراب

(٢) الممزوجة بالماء (٣) أى فى معلقته المعروفة التى مطلعها:

ألاهبي بصحنك فأصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا

عَلَى الأَبْيَاتِ المَنْسُوبَةِ إِلَى الْخَلِيلِ، وَأَوَّلُهَا:

« إِنَّ الْخَلِيطَ تَصَدَّعْ[1] فَطِرْ بِدَائِكَ أَوْ قَعْ
لَوْلَا جَوَارٍ حِسَانٌ مِثْلُ الْجَآذِرِ[2] أَرْبَعْ
لَقُلْتُ لِلظَّاعِنِ: « اظْعَنْ[3] إِذَا بَدَا لَكَ، أَوْ دَعْ »

فَتَهْتَزُّ أَرْجَاءُ الْجَنَّةِ.

*
* *

وَيَقُولُ: « لِمَنْ هَذِهِ الأَبْيَاتُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمٰنِ؟ » فَيَقُولُ الْخَلِيلُ: « لَا أَعْلَمُ! » فَيَقُولُ: « إِنَّا كُنَّا فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ نَرْوِي هَذِهِ الأَبْيَاتَ لَكَ! » فَيَقُولُ الْخَلِيلُ: « لَا أَذْكُرُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَا قِيلَ حَقًّا » فَيَقُولُ: « أَنَسِيتَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمٰنِ وَأَنْتَ أَذْكَى الْعَرَبِ فِي عَصْرِكَ؟ » فَيَقُولُ الْخَلِيلُ: « إِنَّ عُبُورَ الصِّرَاطِ يَنْفُضُ الْخَلَدَ[4] مِمَّا اسْتُودِعَ! »

*
* *

وَيَعْبُرُ طَاوُسٌ مِنْ طَوَاوِيسِ الْجَنَّةِ، يَرُوقُ مَنْ رَآهُ حُسْنًا، فَيَشْتَهِيهِ أَبُو عُبَيْدَةَ مَصُوصًا[5]، فَيَتَكَوَّنُ كَذَلِكَ فِي صَحْفَةٍ مِنَ الذَّهَبِ. فَإِذَا قَضَى مِنْهُ الْوَطَرَ، انْضَمَّتْ عِظَامُهُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ تَصِيرُ طَاوُسًا كَمَا بَدَا[6]، فَتَقُولُ الْجَمَاعَةُ: « سُبْحَانَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ». هذا كما جاء فى

---

(١) تفرق (٢) جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية تشبه به الحسان لجمال عينيه
(٣) ارحل أو سر، والمعنى: قد تفرق الجمع فماذا أنا صانع بعد نأى من أحب، ولو خلا الركب من هؤلاء الحسان الأربع لتساوى عندى إقامته ورحيله (٤) القلب أو البال أو النفس، والمعنى: أن عبور الصراط ينسى المرء ما علم، من شدة الهول والفزع
(٥) المصوص: طعام من لحم الطير، يطبخ و ينقع فى الخل (٦) أى كما كان

الكتابِ الكريم : وَإِذْ قَالَ إِبْرَهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِي الموْتَى . قَالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَى . وَلَـكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . قَالَ : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ(١) إِلَيْكَ ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا . ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً . وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

وَيَفْتَرِقُ أَهْلُ ذَلِكَ المَجْلِسِ ، وَهُمْ نَاعِمُونَ .

حديثه مع الحوريتين

وَيَخْلُو(٢) بِحُورِيَّتَيْنِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، فَإِذا بَهَرَهُ ما يَرَاهُ مِنَ الْجَمَالِ ، قَالَ : « أَعْزِزْ عَلَيَّ بِهَلَاكِ الْـكِنْدِيِّ(٣) :

---

(١) أحضِرهن وقطِّعهن (٢) أى ابن القارح

(٣) الكندى « امرؤ القيس » : توفى سنة ٥٦٠ م

هو ابن حجر بن عمرو الكندى ، بلده نجد ، وأبوه أحد ملوك بنى أسد .

كان امرؤ القيس ماجناً لاهياً ، فطرده أبوه ، فظل على لهوه وتبطله حتى قتل بنو أسد أباه لظلمه ، فصمم على الأخذ بثأر أبيه ، وحاربهم فقهرهم مراراً ، ولكنه أبى أن يكتفى بما أحرزه من الفوز على أعدائه ، ولم يقنع بما أدركه من الثأر ، وطلبَ المزيد ، فسئم أصحابه وخذلوه ؛ فاستنجد بقيصر ملك الروم على أعدائه ، فاحتفى به ، ولكن وشاية دنيئة من أعداء امرئ القيس غيرت عليه قلب القيصر ، فأهلكه .

ويعده جمهور مؤرخى الآداب أفحل شعراء الطبقة الأولى من الجاهليين ، ويقولون : إنه أول من وصف النساء وشبههم بالظباء والمها ، وإنه أول من ابتكر المعانى الجميلة الدقيقة ، وأجاد الاستعارة والتشبيه ، إلى آخر تلك الأوصاف التى أفاض فى سردها نقاد الأدب الأقدمون

على أن لشعره روعة يشعر بها كل من تذوق الأدب ، وفيه سحر لا تراه إلا فى شعر القليل من فحول الشعراء ، كالأعشى والذبيانى ، وقليل من أضرابهما .

انظر إلى دقته مثلاً فى وصف الليل وتبرمه بطوله - إذ يقول فى معلقته الخالدة :

فيا لك من ليل كأنّ نجومه   بكل مُغار الفَتل شُدَّت بيذبل

وانظر إلى ضيق ذرعه بذلك الليل الذى أمله طوله وأضجره ، فأصبح يترقب طلوع الصباح بفارغ الصبر ، لينقذه من سآمته التى سببها طولِه . ثم التفاتته المملوءة بالفطنة ودقة الملاحظة ، وانتباهه الى أن ذلك الصباح الذى يترقبه بلهف وشوق ليس خيراً من ليله المضجر .

فإنك لتتمثل تلك الصورة جلية شديدة الوضوح فى البيت التالى - على إيجازه — :

ألا أيها الليل الطويل ! ألا انجلِ   بصبح ، وما الإصباح منك بأمثل

☆
☆ ☆

وانظر إلى ابداعه وافتنانه ، وقدرته العظيمة على تحليل أدق خوالجه فى لاميته الساحرة التى يقول فيها :

لقد زعمت « بسباسة » اليوم أننى   كبرت ، وأن لا يحسن اللهو أمثالى
ويا رُب يوم قد لهوت وليلة   بآنسة ، كأنها خط تمثال
تنورتها من أذرعات ، وأهلها   بيثرب ، أدنى دارها نظر عال
نظرت إليها - والنجوم كأنها   مصابيح رهبان ، تُشَبُّ لقُفَّال
سموت إليها بعد ما نام أهلها   سمو حَباب الماء ، حالاً على حال
فقالت : « سباك الله ! إنك فاضحى   ألست ترى السُّمَّار والناس أحوالى ؟ »
فقلت : « يمين الله أبرح قاعداً   ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى »
حلفت لها بالله حِلفة فاجر :   «لَناموا ، فما إن من حديث ، ولا صالى»
فأصبحت معشوقاً ، وأصبح بعلها   عليه القتام - سئ الظن والبال
ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة   كفانى - ولم أطلب - قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مُؤَثَّل   وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى
وما المرء - ما دامت حُشاشة نفسه -   بمدرك أطراف الخطوب ولا آلى

قَوْلَهُ :

وما أجمل قوله فى معلقته :

كأنى غـداة البين ، يوم ترحـلوا — لدى سَمُرات الحى – ناقف حنظل
وقوفاً بهـا صحبى علىّ مطيهـم — يقولون : « لا تهلك أسى ، وتجمل »
وإن شفائى عـبرة مهراقة — فهل عنـد رسم دارس من معول
كدأبك من أم الحُوَيْرِث قبلها — وجارتهـا أم الرباب بمأسـل
إذا قامتا تَضَوّع المسـك منهما — نسيم الصبا جاءت بريّا القرَنفـل
ففاضت دموع العين منى صبابة — على النحر حتى بل دمعى محمـلى
ألا رب يوم لك منهن صـالح — ولا سيما يوم بدارة جلجـل
ويوم دخلت الخدر ، خدرَ عُنَيْزَةٍ — فقالت : «لك الويلات ! إنك مُرْجلى»
تقول – وقد مال الغبيط بنا معاً – : — « عقرت بعيرى يا امرأ القيس، فانزل »
فقلت لها : « سيرى – وأرخى زمامه — ولا تبعدينى عن جناك المعـلل »
أفاطمُ مهلاً ، بعضَ هـذا التدلل — وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
أغركِ منى أن حبّك قاتلى — وأنك مهما تأمرى القلب يفعـل
فمثلك حبلى قـد طرقت ومرضع — فألهيتها عن ذى تمائم مُحْوِلِ
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له — بشق – وتحتى شقها لم يحـوّل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربى — بسهمَيْكِ فى أعشارِ قلبٍ مقتّـل

***

وبيضةِ خـدر لا يرام خبـاؤها — تمتعت من لهو بها غير مُعْجَـل
تسلت عمايات الرجال عن الصبا — وليس فؤادى عن هواك بمُنْسَـلِ

***

وليل كموج البحـر أرخى سدوله — علىّ بأنواع الهمـوم ليبتـلى
فقلت له – لما تمطى بصلبـه ، — وأردف أعجازا ، وناء بكلكل : —

كَدأْبِكَ(١) مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ(٢)
إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ(٣) الْمِسْكُ مِنْهُمَا نَسِيمُ الصَّبَا جَاءَتْ بِرَيَّا(٤) الْقَرَنْفُلِ(٥)

وَأَيْنَ صَاحِبَتَاهُ مِنْكُمَا ، لَا كَرَامَةَ لَهُمَا وَلَا نِعْمَةَ ؟ لَجِلْسَةٌ مَعَكُمَا بِمِقْدَارِ دَقِيقَةٍ مِنْ دَقَائِقِ الدُّنْيَا خَيْرٌ مِنْ مُلْكِ بَنِي آكِلِ الْمُرَارِ وَبَنِي النَّضْرِ بِالْحِيرَةِ . وَآلِ جَفْنَةَ مُلُوكِ الشَّامِ ! »

وَيُقْبِلُ عَلَى كُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يَتَرَشَّفُ رُضَابَهَا ، وَيَقُولُ : « إِنَّ امْرَأَ الْقَيْسِ لَمِسْكِينٌ مِسْكِينٌ ، تَحْتَرِقُ عِظَامُهُ فِي السَّعِيرِ ، وَأَنَا أَتَمَثَّلُ بِقَوْلِهِ :

« ألا أيها الليل الطويل ! ألا انجلِ بصبح ، وما الإصباح منك بأمثل
فيا لك من ليـل ! كأن نجومه بكل مغار الفتل شـدت بيذبل
كأن الثريا علقت فى مصامها بأمراس كتان إلى صم جنـدل »
وقد أغتدى ، والطير فى وكناتها بمنجرد ؛ قيـد الأوابد هيكل
مكر مفـر مقبل مدبر معـا كجلمود صخر حطه السيل من عل

ونختم هذه النخبة بقوله :

إذا قلت : هذا صاحب قد رضيته وقرت به العينان ، بدلت آخرا
كذلك جدى(١) ما أصاحب صاحبا من الناس ، إلا خاننى وتغيرا

وسيمر بك طرف من أخباره وشعره فى هذا الجزء ، فلنكتف بهذا القدر اليسير الآن :

(١) كعادتك (٢) اسم جبل (٣) انتشرت رِفحته (٤) الريا : هى الرائحة الطيبة
(٥) المعنى « عادتك فى حب هذه ، كعادتك من قبل فى حب أم الحويرث وأم الرباب وقد كانتا : يعبق منهما المسك أنى ذهبتا ، كما انتشر عطر القرنفل الذكى ، حملته ريح الصبا » ويوضح هذين البيتين قوله فى البيت الذى قبلهما من معلقته

وإن شفائى عـبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معوّل ؟

---

(١) حظى ، وبختى

كَأَنَّ الْمُدَامَ وَصَوْبَ الْغَمَامِ ... وَرِيحَ الْخُزَامَى وَنَشْرَ الْقُطُرْ
يُعَلُّ بِهِ بَرْدُ أَنْيَابِهَا ... إِذَا غَرَّدَ الطَّائِرُ الْمُسْتَحِرْ[1]

فَتَسْتَغْرِبُ[2] إِحْدَاهُمَا ضَحِكاً؛ فَيَقُولُ: «مِمَّ تَضْحَكِينَ؟» فَتَقُولُ: «فَرَحاً بِتَفَضُّلِ اللهِ! أَتَدْرِى مَنْ أَنَا يَا عَلِىُّ بنَ مَنْصُورٍ؟» فَيَقُولُ: «أَنْتِ مِنْ حُورِ الْجِنَانِ اللَّوَاتِى خَلَقَهُنَّ اللهُ جَزَاءً لِلْمُتَّقِينَ، وَقَالَ فِيكُنَّ: «كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ» فَتَقُولُ: «أَنَا كَذَلِكَ بِإِنْعَامِ اللهِ الْعَظِيمِ! عَلَى أَنِّى كُنْتُ فِى الدَّارِ الْعَاجِلَةِ أُعْرَفُ بِحَمْدُونَةَ، وَأَسْكُنُ فِى بَابِ الْعِرَاقِ بِحَلَبَ، وَأَبِى صَاحِبُ رَحًى، وَتَزَوَّجَنِى رَجُلٌ يَبِيعُ السَّقَطَ[3]، فَطَلَّقَنِى لِرَائِحَةٍ كَرِهَهَا مِنْ فِىَّ؛ وَكُنْتُ مِنْ أَقْبَحِ نِسَاءِ حَلَبَ، فَلَمَّا عَرَفْتُ ذَلِكَ زَهِدْتُ فِى الدُّنْيَا، وَتَوَفَّرْتُ عَلَى الْعِبَادَةِ، وَأَكَلْتُ مِنْ مِغْزَلِى وَمِرْدَنِى[4]، فَصَيَّرَنِى ذَلِكَ إِلَى مَا تَرَى!»

*
* *

وَتَقُولُ الْأُخْرَى: «أَتَدْرِى مَنْ أَنَا يَا عَلِىُّ بْنَ مَنْصُورٍ؟ أَنَا تَوْفِيقُ السَّوْدَاءُ الَّتِى كَانَتْ تَخْدُمُ فِى دَارِ الْعِلْمِ بِبَغْدَادَ، عَلَى زَمَانِ أَبِى مَنْصُورٍ مُحَمَّدِ بنِ عَلِىٍّ الْخَازِنِ، وَكُنْتُ أُخْرِجُ الْكُتُبَ إِلَى النُّسَّاخِ»

---

(١) استحر: أى صاح فى السحر (٢) اسْتَغْرَبَ فى الضحك، واسْتُغْرِبَ — بالبناء للمجهول —: بالغ وأغرق، وكذلك أُغْرِبَ. وهذا هو المقصود، وليس المراد أنها تظهر الغرابة فى صورة الضحك، وإن كان الكلام يحتمله، ولكن الأول أدخل فى باب الفصاحة، وأشبه بأسلوب أبى العلاء فى هذه الرسالة (٣) ردئ المتاع: والخسيس الرذل من كل شىء، وبائعه السقطىّ (٤) المِرْدَن: المغزل

فَيقُولُ : « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ! لقَدْ كُنْتِ سَوْداء ، فَصِرْتِ أَنْصَعَ مِنَ الْـكَافُورِ ! » فتقولُ: «أتعجَبُ مِنْ هذَا ، وَالشَّاعِرُ يَقُولُ لِبَعْضِ الْمَخْلُوقِين :

لَوْ أَنَّ مِنْ نُورِهِ مِثْقَالَ خَرْدَلَةٍ فِى السُّودِ كُلِّهِمِ ، لاَبْيَضَّتِ السُّودُ »

حـــدائق الحور

وَيَمُرُّ مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ ، فَيقُولُ : « يَا عَبْدَ اللهِ ! أَخْبِرْنِى عَنِ الْحُورِ الْعِينِ ، أَلَيْسَ فِى الْـكِتَابِ الْـكَرِيمِ : إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْـكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً ، لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ »

فَيقُولُ الْمَلَكُ : « هُنَّ عَلَى ضَرْبَيْنِ ، ضَرْبٍ خَلَقَهُ اللهُ فِى الْجَنَّةِ لَمْ يَعْرِفْ غَيْرَهَا ، وَضَرْبٍ نَقَلَهُ اللهُ مِنَ الدَّارِ الْعَاجِلَةِ لِمَا عَمِلَ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ »

فَيقُولُ ـ وَقَدْ عَجِبَ مِمَّا سَمِعَ ـ : « فَأَيْنَ اللَّوَاتِى لَمْ يَكُنَّ فِى الدَّارِ الْفَانِيَةِ ؟ وَكَيْفَ يَتَمَيَّزْنَ مِنْ غَيْرِهِنَّ ؟ »

فَيقُولُ الْمَلَكُ : « اُقْفُ أَثَرِى »

فَيَتْبَعُهُ ، فَيَجِىءُ بِهِ إِلَى حَدَائِقَ لاَ يَعْرِفُ كُنْهَهَا إِلَّا اللهُ .

فَيقُولُ الْمَلَكُ : « خُذْ ثَمَرَةً مِنْ هذَا الثَّمَرِ ، فَاكْسِرْهَا ، فَإِنَّ هذَا الشَّجَرَ يُعْرَفُ بِشَجَرِ الْحُورِ »

فَيَأْخُذُ سَفَرْجَلَةً أَوْ رُمَّانَةً أَوْ تُفَّاحَةً ، أَوْ مَا شَاءَ اللهُ مِنَ الثِّمَارِ ، فَيَكْسِرُهَا ، فَتَخْرُجُ مِنْهَا جَارِيَةٌ حَوْرَاءُ عَيْنَاءُ . تَبْرَقُ(١) لِحُسْنِهَا حُورِيَّاتُ الْجِنَانِ ، فَتَقولُ :

---

(١) برق — هنا — : دهش وتحير

« مَنْ أَنْتَ يا عَبْدَ اللهِ ؟ » فَيَقولُ : « أَنا فُلانُ ابْنُ فُلانٍ » فتقولُ :

« إِنّى أُمَنَّى بِلِقائِكَ ، قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللهُ الدُّنْيا بِأَرْبَعَةِ آلافِ سَنَةٍ »

فَعِنْدَ ذلِكَ يَسْجُدُ إِعْظاماً للهِ الْقَدِيرِ ، وَيَقولُ : « هذا كَمَا جاءَ فى الْحَديثِ : أَعْدَدْتُ لِعِبادِى الْمُؤْمِنينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ ، بَلْهَ[1] ما اطَّلَعْتُمْ عَلَيْهِ »

*
* *

وَيَخْطُرُ فى نَفْسِهِ ، وَهُوَ ساجِدٌ ، أَنَّ تِلْكَ الْجارِيَةَ — عَلَى حُسْنِها — ضَاوِيَّةٌ[2] ، فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ مِنَ السُّجُودِ ، وَقَدْ صارَ مِنْ وَرائِها رِدْفٌ يُضاهِى كُثْبانَ[3] عالِجٍ . فَيُهالُ[4] مِنْ قُدْرَةِ اللهِ ، وَيَقولُ : « يا رازِقَ الْمُشْرِقَةِ سَناهَا ، وَمُبْلِغَ السّائِلَةِ مُناهَا ، وَالذى فَعَلَ ما أَعْجَزَ وَهالَ ، وَدَعَا إِلى الْحِلْمِ الْجُهّالَ ! أَسْأَلُكَ أَنْ تَقْصُرَ بَوْصَ[5] هذِهِ الْحُورِيَّةِ على مِيلٍ فى مِيلٍ ، فقد جاز بها قدرُكَ حَدَّ التَّأْمِيلِ ! »

فَيُقالُ لَهُ : « أَنْتَ مُخَيَّرٌ فى تَكْوِينِ هذِهِ الْجارِيَةِ كَمَا تَشاءُ »

فَيَقْتَصِرُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْإِرادَةِ .

---

(١) قال أبو العلاء : « و بله : فى معنى دع ، وكيف » (٢) نحيفة (٣) جمع كثيب وهو التل من الرمل ، وعالج : موضع كثير الرمل ، يضرب به المثل فى الكثرة (٤) يفزع ، ويعظم عليه الأمر (٥) ردف

الفصل الرابع

جنـــة العفـاريت

وَيَبْدُو لَهُ(١) أَنْ يَطَّلِعَ إِلى أَهْلِ النَّارِ ، فَيَنْظُرَ إِلى ماهُمْ فيهِ ، لِيَعْظُمَ شُكْرُهُ عَلَى النِّعَمِ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ — تعالى — : « قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ : إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ يَقُولُ : أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ؟ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(٢) ؟ قَالَ : هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ؟ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ، قَالَ : تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ، وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ »

⁂

فَيَرْكَبُ بَعْضَ دَوَابِّ الْجَنَّةِ وَيَسِيرُ ، فَإِذَا هُوَ بِمَدَائِنَ لَيْسَتْ كَمَدَائِنِ الْجَنَّةِ ، وَلَا عَلَيْها النُّورُ الشَّعْشَعَانِىُّ(٣) ، وَهِىَ ذَاتُ أَدْحَالٍ وَغَمَالِيلَ(٤) . فَيَقُولُ لِبَعْضِ الْمَلَائِكَةِ : « ما هذِهِ يا عَبْدَ اللهِ ؟ » فَيَقُولُ : « هذِهِ جَنَّةُ الْعَفَارِيتِ الذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَذُكِرُوا فى الْأَحْقَافِ ، وَفى سُورَةِ الْجِنِّ ، وَهُمْ عَدَدٌ كَثِيرٌ »

فَيَقُولُ : « لَأَعْدِلَنَّ إِلى هؤُلَاءِ ، فَلَنْ أَخْلُوَ لَدَيْهِمْ مِنْ أُعْجُوبَةٍ » فَيَعُوجُ

---

(١) أى ابن القارح (٢) مجازون (٣) المتألق المنتشر (٤) الأدحال : المصانع تجتمع فيها الماء ، والغماليل : جمع غملول (بضم الغين) وهو الوادى الضيق الكثير الشجر والنبت الملتف ؛ أو الوادى ذو الشجر الطويل القليل العرض الملتف ، أو هو كل مجتمع أظلم وتراكم من الشجر

عَلَيْهِمْ ، فَإِذا هُوَ بِشَيْخٍ جالِسٍ عَلَى بَابِ مَغارَةٍ ، فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ ، فَيُحْسِنُ الرَّدَّ ، وَيَقولُ : « ما جاءَ بِكَ يا إِنْسِيُّ ؟ » فيقولُ : « سَمِعْتُ أَنَّكُمْ جِنٌّ مُؤْمِنُونَ ، فَجِئْتُ أَلْتَمِسُ عِنْدَكُمْ أَخْبارَ الْجِنَّانِ[1] ، وَما لَعَلَّهُ يُوجَدُ لَدَيْكُمْ مِنْ أَشْعارِ الْمَرَدَةِ » فَيَقولُ ذلِكَ الشَّيْخُ : « لَقَدْ أَصَبْتَ الْعالِمَ بِبَجْدَةِ[2] الأَمْرِ ، فَسَلْ عَمَّا بَدا لَكَ »

فَيَقُولُ : « مَا اسْمُكَ أَيُّها الشَّيْخُ ! » فَيَقولُ : « أَنَا الْخَيْتَعُورُ أَحَدُ بَنِي الشَّيْصَبانِ ، وَلَسْنا مِنْ وَلَدِ إِبْلِيسَ ، وَلكِنَّا مِنَ الْجِنِّ الَّذِينَ كانُوا يَسْكُنُونَ الأَرْضَ قَبْلَ وَلَدِ آدَمَ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ »

أشعار الجن

فَيَقُولُ : « أَخْبِرْنِي عَنْ أَشْعارِ الْجِنِّ ، فَقَدْ جَمَعَ الْمَعْرُوفُ بِالْمَرْزُبانِيِّ[3] قِطْعَةً صالِحَةً » فَيَقولُ ذلِكَ الشَّيْخُ : « إِنَّمَا ذلِكَ هَذَيانٌ لا مُعْتَمَدَ عَلَيْهِ ، وَهَلْ يَعْرِفُ الْبَشَرُ مِنَ النَّظِيمِ إِلَّا كَما تَعْرِفُ الْبَقَرُ مِنْ عِلْمِ الْهَيْئَةِ وَمِساحَةِ الأَرْضِ ! وَإِنَّما لَهُمْ خَمْسَةَ عَشَرَ جِنْسًا مِنَ الْمَوْزُونِ ، قَلَّ ما يَعْدُوها الْقائِلُونَ ، وَإِنَّ لَنا لَآلافَ أَوْزانٍ ما سَمِعَ بِها الإِنْسُ ، وَإِنَّما كانَتْ تَخْطُرُ بِهِمْ أُطَيْفالٌ مِنَّا عارِفُونَ ، فَتَنْفِثُ إِلَيْهِمْ مِقْدارَ الضُّوازَةِ[4] مِنْ أَراكِ[5] نَعْمانَ[6] . وَلَقَدْ

---

(١) الجنَّان : جمع جان ؛ والجان : اسم جمع للجن (٢) أى العالم بدخلة الأمر و باطنه

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عمران ، ولد ببغداد ، وتوفى بها سنة ٣٨٤ هـ وهو من أئمة الأدباء ، وله مؤلفات كثيرة ضاع أكثرها ، ومن أنفع مؤلفاته الموجودة : كتاب الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء . وفى فهرست ابن النديم وصف لمؤلفاته ، انظر الجزء الأول ص ١٣٢

(٤) الشظية من السواك (٥) الاراك : شجر يستاك بقضبانه (٦) مكان معروف

نَظَمْتُ الرَّجَزَ وَالْقَصِيدَ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ آدَمُ بِكُورٍ[١] أَوْ كُورَيْنِ ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ مَعْشَرَ الْإِنْسِ تَلْهَجُونَ بِقَصِيدَةِ امْرِئِ الْقَيْسِ : (قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ) وَتُحَفِّظُونَهَا الْحَزَاوِرَةَ[٢] فِي الْمَكَاتِبِ . وَإِنْ شِئْتَ أَمْلَيْتُكَ أَلْفَ كَلِمَةٍ عَلَى هَذَا الْوَزْنِ، عَلَى مِثْلِ : « مَنْزِلِ وَحَوْمَلِ » وَأَلْفاً عَلَى ذَلِكَ الْفَرِيِّ[٣] يَجِيءُ عَلَى : « مَنْزِلُ وَحَوْمَلُ » وَأَلْفاً عَلَى : « مَنْزِلاَ وَحَوْمَلاَ » وَأَلْفاً عَلَى : « مَنْزِلُهُ وَحَوْمَلُهُ » وَأَلْفاً عَلَى « مَنْزِلَهُ وَحَوْمَلَهُ » وَأَلْفاً عَلَى : « مَنْزِلِهِ وَحَوْمَلِهِ » وَكُلُّ ذَلِكَ لِشَاعِرٍ مِنَّا هَلَكَ وَهُوَ كَافِرٌ ، وَهُوَ الْآنَ يَشْتَعِلُ فِي أَطْبَاقِ الْجَحِيمِ »

*
* *

فَيَقُولُ : « أَيُّهَا الشَّيْخُ : لَقَدْ بَقِيَ عَلَيْكَ حِفْظُكَ ! »

فَيَقُولُ : « لَسْنَا مِثْلَكُمْ يَا بَنِي آدَمَ . يَغْلِبُ عَلَيْنَا النِّسْيَانُ وَالرُّطُوبَةُ . لِأَنَّكُمْ خُلِقْتُمْ مِنْ حَمَإٍ[٤] مَسْنُونٍ ، وَخُلِقْنَا مِنْ مَارِجٍ[٥] مِنْ نَارٍ »

فَتَحْمِلُهُ الرَّغْبَةُ فِي الْأَدَبِ أَنْ يَقُولَ لِذَلِكَ الشَّيْخِ : « أَفَتُمِلُّ[٦] عَلَيَّ شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الْأَشْعَارِ ؟ »

فَيَقُولُ : فَإِذَا شِئْتَ أَمْلَلْتُكَ[٦] مَا لاَ تَسِقُهُ[٧] الرِّكَابُ[٨] ، وَلاَ تَسَعُهُ صُحُفُ دُنْيَاكَ ! »

---

(١) مائة وخمسون سنة ، أو مائتان ، أى نحو قرنين (٢) جمع حزور وهو الغلام

(٣) فى النسخة المطبوعة : العرى بالعين . ورأينا أنها محرفة عما أثبتناه هنا ، والفرى : المأخذ والمنحى والطريقة، يقال : هو يَفْرِى فَرِيَّهُ، أى ينحو نحوه (٤) طين أسود (٥) شعلة ساطعة ذات لهب شديد ، أو نار بلا دخان (٦) أمليت عليك (٧) ما لا تحمله (٨) الإبل

فَيَهُمُّ بِأَنْ يَكْتَتِبَ مِنْهُ ، ثُمَّ يَقُولُ : « لَقَدْ شَقِيتُ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ بِجَمْعِ الْأَدَبِ ، وَلَمْ أَحْظَ مِنْهُ بِطَائِلٍ . وَلَسْتُ بِمُوَفَّقٍ إِنْ تَرَكْتُ لَذَّاتِ الْجَنَّةِ وَأَقْبَلْتُ أَنْتَسِخُ آدَابَ الْجِنِّ ، وَمَعِي مِنَ الْأَدَبِ مَا هُوَ كَافٍ . لَا سِيَّمَا وَقَدْ شَاعَ النِّسْيَانُ فِي أَهْلِ أَدَبِ الْجَنَّةِ . فَصِرْتُ مِنْ أَكْثَرِهِمْ رِوَايَةً ، وَأَوْسَعِهِمْ حِفْظًا . وَلِلَّهِ الْحَمْدُ »

وَيَقُولُ لِذَلِكَ الشَّيْخِ : « مَا كُنْيَتُكَ لِأُكْرِمَكَ بِالتَّكْنِيَةِ » فَيَقُولُ : « أَبُو هَدْرَشَ ، أَوْلَدْتُ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا شَاءَ اللهُ ، فَهُمْ قَبَائِلُ ، بَعْضُهُمْ فِي النَّارِ الْمُوقَدَةِ ، وَبَعْضُهُمْ فِي الْجِنَانِ »

فَيَقُولُ : « يَا أَبَا هَدْرَشَ : مَالِي أَرَاكَ أَشْيَبَ ! وَأَهْلُ الْجَنَّةِ شَبَابٌ ؟ »

فَيَقُولُ : « إِنَّ الْإِنْسَ أُكْرِمُوا بِذَلِكَ وَحُرِمْنَاهُ ، لِأَنَّا أُعْطِينَا الْحَوْلَةَ[١] فِي الدَّارِ الْمَاضِيَةِ ، فَكَانَ أَحَدُنَا إِنْ شَاءَ صَارَ حَيَّةً رَقْشَاءَ[٢] ، وَإِنْ شَاءَ صَارَ عُصْفُوراً ، وَإِنْ شَاءَ صَارَ حَمَامَةً ؛ فَمُنِعْنَا التَّصَوُّرَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَتُرِكْنَا عَلَى خَلْقِنَا لَا نَتَغَيَّرُ ، وَعُوِّضَ بَنُو آدَمَ كَوْنَهُمْ فِيمَا حَسُنَ مِنَ الصُّوَرِ ، وَكَانَ قَائِلُ الْإِنْسِ يَقُولُ فِي الدَّارِ الذَّاهِبَةِ : « أُعْطِينَا الْحِيلَةَ ، وَأُعْطِيَ الْجِنُّ الْحَوْلَةَ ! » وَلَقَدْ لَقِيتُ مِنْ بَنِي آدَمَ شَرًّا ، وَلَقُوا مِنِّي كَذَلِكَ . »

---

(١) القدرة على التحول والتقلب (٢) المنقطة بسواد و بياض

صرع فتـــاة

« دَخَلتُ — مَرّةً — دَارَ أُناسٍ أُريدُ أَنْ أَصْرعَ فَتاةً لَهُمْ، فَتَصوّرْتُ فِي صُورةِ عَضَلٍ(١)، فَدَعَوْا لِي الضَّيَاوِنَ(٢)، فلمَّا أَرْهقَتْنِي تحوّلتُ صِلًّا أرْقَم، وَدخلتُ فِي قَطِيلٍ(٣) هُنَاكَ . فلمَّا عَلِمُوا ذلِكَ كَشفُوهُ عنِّي ، فلمَّا خِفْتُ القَتْلَ صِرْتُ رِيحًا هَفَّافَةً ، فَلَحِقْتُ بِالرَّوَافِدِ(٤) ، وَنَفَضُوا تِلْكَ الْخُشُبَ وَالْأَجْذَالَ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا ، فَجَعَلُوا يَتَفَكَّنُونَ(٥)، وَيَقُولُونَ : « لَيْسَ هَاهُنَا مَكَانٌ يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَتِرَ فِيـــهِ ، فَبَيْنَمَاهُمْ يَتَذَاكَرُونَ ذَلِكَ عَمَدْتُ لِكَعَابِهِمْ(٦) فِي

---

(١) جرذ (٢) جمع ضيون ، وهو السنور الذكر (٣) جذع شجرة مقطوع وملقى هناك

(٤) خشب السقف (٥) التفكّن : التعجب والتفكر والتندم ، والمراد أنهم جعلوا يتأسفون على ما فاتهم من الظفر به (٦) الكَعاب : الجارية الناهد ، قال أبو العلاء :

كم هلكت غادة كَعاب — وعُمّرت أمها العجـوز

أحرزها الوالدان خوفا — والقبر حرز لها حريز

يجوز أن تبطىء المنايا — والخلد فى الدهر لا يجوز

وأول هذه الأبيات قوله :

يموت قوم وراء قوم — ويثبت الأول العزيز

ولا يسعنا التمثل بهذه الأبيات دون الإشارة إلى حكاية الذهبي التى أوردها بمناسبة رواية أبي الفتح ، فقد حكى أبو الفتح أنه دخل على أبي العلاء بالمعرة ذات يوم فى وقت خلوة بغير علم منه — وكان يتردد إليه و يقرأ عليه — فسمعه وهو ينشد من قلبه تلك الأبيات السابقة . ثم تأوه مرات ، وتلا : « إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ، وما نؤخره إلا لأجل معدود ، يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقى وسعيد »

الـكِلَّةِ(١)، فلمَّا رَأَتْنِي أصابَهَا الصَّرْعُ، وَاجْتَمَعَ أَهْلُهَا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَجَمَعُوا لَهَا الرُّقَاةَ، وَجَاءُوا بِالأَطِبَّةِ، وَبَذَلُوا الْمُنْفِسَاتِ، فَمَا تَرَكَ رَاقٍ رُقْيَةً إلاَّ عَرَضَهَا عَلَيَّ — وَأَنَا لاَ أُجِيبُ!

وَغَبَرَتِ الأُسَاةُ تَسْقِيهَا الأَشْفِيَةَ، وَأَنَا سَدِكٌ(٢) بِهَا لاَ أَزُولُ؛ فَلَمَّا أَصَابَهَا الْحِمَامُ(٣) طَلَبْتُ لِي سِوَاهَا صَاحِبَةً، ثُمَّ كَذَلِكَ، حَتَّى رَزَقَ اللهُ الإِنَابَةَ، وَأَثَابَ الْجَزِيلَ، فَلاَ أَفْتَأُ لَهُ مِنَ الْحَامِدِينَ!

ثم صاح وبكى بكاء شديداً، وطرح وجهه على الأرض زمانا، ثم رفع رأسه، ومسح وجهه، فقال: « سبحان من هذا كلامه! »

قال أبو الفتح: فصبرت ساعة، ثم سلمت عليه فرد، وقال: متى أتيت؟ فقلت: الساعة. ثم قلت: يا سيدى أرى فى وجهك أثر غيظ، فقال: لا يا أبا الفتح، بل أنشدت شيئاً من كلام المخلوق، وتلوت شيئاً من كلام الخالق، فلحقنى ما ترى! »

قال: « فتحققت صحة دينه وقوة يقينه. » اهـ

ونحن نؤثر ألاّ نعلق على هذه الحكاية بشىء من عندنا الآن، فليس هنا موضع البحث فى عقيدة أبى العلاء

(١) الكلة: ستر رقيق، هو ما يسمى « الناموسية » (٢) ملازم لها لا أفارقها

(٣) الهلاك، ولا يدخلن فى روع القارئ أن أبا العلاء يدور فى خلده لحظة واحدة حدوث مثل هذه الحكاية، وإنما هو خياله الممتع وتهكمه اللاذع، وسخريته الدقيقة، هى التى أملتها عليه، وحسب القارئ — ليعرف رأى أبى العلاء ومنزعه — أن يحفظ له قوله:

فاخش المليك ولا تقعد على رهَب ... إن أنت بالجن فى الظلماء خُشِّيتا
فإنما تلك أخبار ملفقة ... لخدعة الغافل الحوشى، حوشيتا

قصة الجـــنى

حَمِدْتُ مَنْ حَطَّ أَوْزَارِى وَمَزَّقَهَا عَنِّى ، فَأَصْبَحَ ذَنْبِى الْيَوْمَ مَغْفُورَا
وَكُنْتُ آلَفُ مِنْ أَتْرَابِ قُرْطُبَةٍ خَوْداً[١] وَبِالصِّينِ أُخْرَى بِنْتَ يَغْبُورَا[٢]
أَزُورُ تِلْكَ وَهَذِى غَيْرَ مُكْتَرِثٍ فِى لَيْلَةٍ ، قَبْلَ أَنْ أَسْتَوْضِحَ النُّورَا
وَلَا أَمُرُّ بِوَحْشِىٍّ وَلَا بَشَـــرٍ إِلَّا وَغَادَرْتُهُ وَلْهَــــانَ مَذْعُورَا
وَأَرْكَبُ الْهَيْقَ[٣] فِى الظَّلْمَاءِ مُعْتَسِفاً[٤] أَوْ لَا ، فَذَبَّ رِيَادٍ[(٥)] بَاتَ مَغْرُورَا
وَأَحْضُرُ الشَّرْبَ[(٦)] أَعْرُوهُمْ بِآبِدَةٍ يُزْجُونَ عُودًا وَمِزْمَارًا وَطُنْبُورَا[(٧)]
فَلَا أُفَارِقُهُمْ حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ فِعْلٌ يَظَـلُّ بِهِ إِبْلِيسُ مَسْرُورَا
وَأَصْرِفُ الْعَدْلَ[(٨)] خَتْلًا[(٩)] عَنْ أَمَانَتِهِ حَتَّى يَخُونَ وَحَتَّى يَشْهَدَ الزُّورَا
وَكَمْ صَرَعْتُ عَوَاناً[(١٠)] فِى لَظَى لَهَبٍ قَامَتْ تُمَارِسُ لِلْأَطْفَالِ مَسْجُورَا[(١١)]

---

(١) الخود : المرأة الشابة (٢) يغبور اسم لملك الصين ، كما يقال : كسرى لملك فارس ، وقيصر لملك الروم (٣) الظليم ، أى ذكر النعام (٤) سائراً على غير هداية (٥) ثوراً وحشياً

وهذا البيت يمثل للقارئ صورة ممتعة يلذ له أن يتخيلها ، وهى براعة نعرفها فى أبى العلاء الذى لم يفته أن يلائم بين سموق الجنى وطول ذكر النعام فى الشطر الأول من البيت ، و بين ضخامته وعظم الثور الوحشى فى الشطر الثانى ، وليس أبدع من أن يتمثل الإنسان ذلك الجنى راكباً تلك النعامة الهوجاء ذات السوق الخفيفة ، أو ممتطياً ذلك الثور الوحشى مع ضخامة جرمه ، وعنف جريه .

(٦) جمع شارب (٧) نوع من آلات الطرب له عنق طويل ، وستة أوتار من النحاس
(٨) العادل الذى ترضى شهادته (٩) مخادعاً اياه (١٠) العوان : المرأة النصف
(١١) المسجور : اللبن الذى ماؤه أكثر من لبنه ، والمعنى : قامت تعالج تنوراً مسجوراً تطبخ عليه شيئاً لأطفالها ، وفى هــذا البيت صورة مفجعة إذ تتمثل فيه تلك

وَذَادَنِى[١] الْمَرْءُ نُوحٌ عَنْ سَفِينَتِهِ ضَرْباً إِلَى أَنْ غَدَا الظُّنْبُوبُ[٢] مَكْسُورَا
وَطِرْتُ فِي زَمَنِ الطُّوفَانِ مُعْتَلِياً فِي الْجَوِّ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَاءَ مَحْسُورَا[٣]
وَقَدْ عَرَضْتُ لِمُوسَى فِي تَفَرُّدِهِ بِالشَّاءِ[٤] يُنْتِجُ[٥] عُمْرُوساً[٦] وَفُرْفُورَا[٧]
لَمْ أُخْلِهِ مِنْ حَدِيثٍ مَّا ، وَوَسْوَسَةٍ إِذْ دَكَّ رَبُّكَ فِي تَكْلِيمِهِ الطُّورَا[٨]
أَضْلَلْتُ رَأْىَ أَبِي سَاسَانَ[٩] عَنْ رَشَدٍ وَسِرْتُ مُسْتَخْفِياً فِي جَيْشِ سَابُورَا[١٠]

الأم الرؤوم تصرع فى وقت يكون فيه أطفالها فى أشد حاجتهم إليها : فالجنى لا يرى أبلغ فى الأذى من انتهاز تلك الساعة الحرجة !

(١) ردنى (٢) عظم ساق من أمام ، أى أن نوحاً ظل يضربنى لأغادر سفينته ، حتى كسر عظم ساقى ، وفى هذا البيت دقة نحب ألا تفوت القارئ فى كلمة المرء نوح ، مع ملاحظة أن المتكلم جنى يتكلم عن الأنس ، و إن كان أبو العلاء لم يتقيد بهذا فى قوله فى لزومياته :

مضى المرء موسى ، وأضحت يهو د : تتلو مع الدهر أسفارها

(٣) حتى انحسر الماء عن الأرض ، أى انكشف (٤) جمع شاة (٥) ينتج : يلى نتاجها (٦) العمروس : الخروف (٧) الفرفور : الحمل ، وهو يشير بذلك إلى حكاية رعيه الغنم لشعيب — عليه السلام — وهى معروفة ، وقد ورد ذكرها فى القرآن ، فى قوله تعالى : « قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج » وقد أشار موسى — عليه السلام — إلى ذلك حينما سأله الله عن عصاه فقال : « وأهش بها على غنمى » (٨) يشير بذلك إلى قوله : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك ، قال : لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل ، فان استقر مكانه ، فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق ؛ قال : سبحانك ، تبت إليك ، وأنا أول المؤمنين » (٩) ساسان : جد دولة الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفة بالساسانية

(١٠) سابور هو ابن أردشير حفيد ساسان بن بابك ، ثانى ملوك الدولة الساسانية الفارسية

وَسَادَ بهرامُ جُورٍ(١)، وَهْوَ لِى تَبَعٌ ... أَيَّامَ يَبْنِى - عَلَى عِلَّاتِهِ - جُورَا(٢)
فَتَارَةً أَنَا صِلٌّ(٣)، فِى نَكَارَتِهِ، ... وَرُبَّمَا أَبْصَرَتْنِى الْعَيْنُ عُصْفُورَا
نَلُوحُ لِلإِنْسِ حُولًا أَوْ ذَوِى عَوَرٍ ... وَلَمْ نَكُنْ قَطُّ لَا حُولًا وَلَا عُورَا(٤)

***

ثُمَّ اتَّعَظْتُ، وَصَارَتْ تَوْبَتِى مَثَلًا ... مِنْ بَعْدِ مَا عِشْتُ بِالْعِصْيَانِ مَشْهُورَا
حَتَّى إِذَا انْقَضَتِ الدُّنْيَا وَنُودِى إِسْرَافِيلُ: «وَيْحَكَ هَلَّا تَنْفُخُ الصُّورَا؟»
أَمَاتَنِى اللهُ شَيْئًا، ثُمَّ أَيْقَظَنِى ... لِمَبْعَثِى، فَرُزِقْتُ الْخُلْدَ مَسْرُورَا

لغة الجن

فَيَقُولُ(٥): «لِلّهِ دَرُّكَ يَا أَبَا هَدْرَشَ، فَكَيْفَ أَلْسِنَتُكُمْ؟ أَيَكُونُ فِيكُمْ عَرَبٌ لَا يَفْهَمُونَ عَنِ الرُّومِ، وَرُومٌ لَا يَفْهَمُونَ عَنِ الْعَرَبِ، كَمَا نَجِدُ فِى أَجْيَالِ الْإِنْسِ؟»

---

(١) بهرام جور هو ابن يزدجرد ملك الفرس، وهو الذى بنى مدينة جور وتاريخه مفعم بالبطولة والأعمال الجريئة (٢) جور مدينة بفارس بينها و بين شيراز عشرون فرسخا، وهى طيبة النزهة يسير فيها الراحل من كل باب نحو فرسخ فى بساتين وقصور، و إليها ينسب نوع من الورد يعرف بالجورى، وهو شديد الحمرة و يعد أجود أصنافه، وشهرة هذه المدينة بالورد كشهرة هجر بالتمر، ودارين بالمسك، وقطربل بالخمر (٣) حية دقيقة صفراء لا تنفع منها الرقية (٤) يقول: إننى كنت أبدو مرة فى صورة صل كريه المنظر، وأخرى فى صورة عصفور يزدهى الناظر حسنه؛ وكثيراً ما كنا نظهر للأنس فى صورة الحول والعور، على حين أننا أصحاء البصر، ولكننا نختار لأنفسنا الصورة التى يحلو لنا أن نبدو فيها (٥) أى ابن القارح

فَيَقُولُ : « هَيْهَاتَ أَيُّهَا الْمَرْحُومُ ، إِنَّا أَهْلُ ذَكَاءٍ وَفَطَنٍ ، وَلَا بُدَّ لِأَحَدِنَا أَنْ يَكُونَ عَارِفاً بِجَمِيعِ الْأَلْسُنِ الْإِنْسِيَّةِ ، وَلَنَا بَعْدَ ذَلِكَ لِسَانٌ لا يعرفه الأنيس

حديث الرجم

وَأَنَا الَّذِي أَنْذَرْتُ الْجِنَّ بِالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ ، أَدْلَجْتُ فِي رُفْقَةٍ نُرِيدُ الْيَمَنَ ، فَمَرَرْنَا بِيَثْرِبَ ، فَسَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ، فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً . وَعُدْتُ إِلَى قَوْمِي ، فَذَكَرْتُ لَهُمْ ذَلِكَ ، فَتَسَرَّعَتْ مِنْهُمْ طَوَائِفُ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَحَثَّهُمْ عَلَى مَا فَعَلُوهُ أَنَّهُمْ رُجِمُوا عَنِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ بِكَوَاكِبَ مُحْرِقَاتٍ(١) »

فَيَقُولُ : « يَا أَبَا هَدْرَشَ ! أَخْبِرْنِي — وَأَنْتَ الْخَبِيرُ — هَلْ كَانَ رَجْمُ النُّجُومِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ : إِنَّهُ حَدَثَ فِي الْإِسْلَامِ ! »

فَيَقُولُ : « هَيْهَاتَ ! أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الْأَوْدِيِّ :

كَشِهَابِ الْقَذْفِ يَرْمِيكُمْ بِهِ ... فَارِسٌ فِي كَفِّهِ لِلْحَرْبِ نَارُ

وَقَوْلَ ابْنِ حُجْرٍ :

فَانْصَاعَ(٢) كَالدُّرِّيِّ(٣) يَتْبَعُهُ ... نَقْعٌ(٤) يَثُورُ تَخَالُهُ طُنُبَا(٥)

---

(١) يشير الى قوله تعالى فى سورة الجن : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديداً وشهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا »

(٢) انفتل راجعاً مسرعاً ومر (٣) كالكوكب الدرى (٤) غبار (٥) الطنب حبل طويل يشد به سرادق البيت ، والمعنى أنه انفتل بسرعة الشهاب الساقط من السماء ، وقد خلف وراءه غباراً مستطيلا يشبه الحبل الطويل

وَلَـكِنَّ الرَّجْمَ زَادَ فِي أَوَانِ الْمَبْعَثِ(١) ؛ وَإِنَّ التَّخَرُّصَ لَـكَثِيرٌ فِي الإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَإِنَّ الصِّدْقَ لَمُعْوِزٌ قَلِيلٌ ، وَهَنِيئاً فِي الْعَاقِبَةِ لِلصَّادِقِينَ .

وَفِي قِصَّةِ الرَّجْمِ أَقُولُ :

مَكَّةُ أَقْوَتْ مِنْ بَنِي الدَّرْدَبِيسْ(٢) فَمَا لِجِنِّيٍّ بِهَا مِنْ حَسِيسْ(٣)

وَقَامَ فِي الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ(٤) أَزْهَرُ(٥) لاَ يُغْفِلُ حَقَّ الْجَلِيسْ

يَجْلِدُ فِي الْخَمْرِ وَيَشْتَدُّ فِي الْـأَمْرِ وَلاَ يُطْلِقُ شُرْبَ الْكَسِيسْ(٦)

وَيَرْجُمُ الزَّانِيَ ذَا الْعِرْسِ لاَ يَقْبَلُ فِيهِ سُؤْلَةً(٧) مِنْ رَئِيسْ

***

وَكَمْ عَرُوسٍ ، بَاتَ حُرَّاسُهَا كَجُرْهُمٍ(٨) فِي عِزِّهَا أَوْ جَدِيسْ(٩)

---

(١) صرح أبو العلا بهـذا الرأى فى اللزوميات ، فقال :

ولست أقول إن الشهب يوماً لبعث محمـد جعلت رجوما

(٢) حى من أحياء الجن (٣) صوت خفى (٤) قام فى الصفوة من هاشم ، أى قام فى نخبة بنى هاشم ، أى فى خيرهم (٥) مشرق الوجه ، يعنى به النبى صلوات الله عليه

(٦) الكسيس نبيذ التمر ، ومعنى البيت : أنه يحرم كل أنواع الخمر ولا يبيح حتى هذا النوع من النبيذ (٧) شفاعة (٨) جرهم قبيلة كانت فى جهات مكة نزل بينهم إسماعيل

(٩) جديس قبيلة من العرب كانت منازلها باليمامة وكان معهم بنو عمهم طسم ، فطغت طسم على جديس ، حتى كان رئيسها عمليق يدخل بالمرأة من جديس قبل أن يدخل بها زوجها . فلما تزوجت عفيرة وهى من سادات جديس وافتضها عمليق دون بعلها ، خرجت مولولة شاقة جيبها ، كاشفة عن نفسها ، وهى تقول :

لا أحد أذل من جديس أهكذا يفعل بالعروس ؟

فهاجت جديس على طسم بسبب ذلك ، وانتصرت عليها ، وانفردت بالعز دونها ؛ وظلت كذلك الى أن أبادها ملوك اليمن .

. . . .

☆
☆ ☆

(وقد أشار إلى هذه القصة اكثر مؤرخى العرب ، ولا بأس من اختيار القطعة التالية من كتاب مروج الذهب لجمال أسلوبها الروائى وحسن خيالها المتسق . وليقرأها القارئ على أنها أسطورة لها أصل تاريخى — إذا شاركنا فى الاعتقاد بأن أكثرها من عمل الرواة واختراع المحدثين :)

حكاية طسم وجديس

« كان لطسم ملك يقال له « عملوق » وكان ظلوما غشوما لا ينهاه شيء عن هواه مع إصراره و إقدامه على جديس وتعديه عليهم وقهره إياهم ، فلبثوا فى ذلك دهراً وهم أهل مظالم قد غمطوا النعمة وانتهكوا الحرمة ، و بلادهم « اليمامة » أفضل البلاد واكثرها خيراً فى صنوف الشجر والأعناب ؛ وهى حدائق ملتفة وقصور مصطفة ، فلم يزل على ذلك حتى أتته امرأة من جديس يقال لها « هزيلة » بنت مازن ، وزوج لها قد فارقها يقال له « ماشق » فأراد قبض ولده منها فأبت عليه ، فارتفعا الى الملك « عملوق » ليحكم بينهما ، فقالت : « أيها الملك ! هذا الذى حملته تسعا ، ووضعته دفعا ، وأرضعته شفعا ، ولم أنل منه نفعاً ، حتى إذا تمت أوصاله ، واستوفى خصاله ، أراد أن يأخذه قسرا ، و يسلبنيه قهرا ، و يتركنى منه صفرا » قال زوجها : « قد أخذت المهر كاملا ، ولم أنل منه نائلاً ، إلا ولداً خاملاً ، فافعل ما كنت فاعلا » فأمر الملك أن يؤخذ الولد منها و يجعل فى غلمانه ، فقالت هزيلة فى ذلك :

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا   فأبرم حكما فى هزيلة ظالما
لعمرى لقد حكمت لا متورعا   ولا فهما عند الحكومة عالما
ندمت ، فلم أقدر على متزحزح   وأصبح زوجى حائر الرأى نادما

قالوا : « فبلغ الملك قول هزيلة فغضب ، وأمر ألا تزوج امرأة من جديس فتزف الى زوجها حتى تحمل اليه فيفترعها قبل زوجها ، فلقوا من ذلك ذلا طويلا . ولم تزل تلك حالهم حتى تزوجت عفيرة « وقيل الشموس بنت عمار الطسمى أخت الاسود بن عفار » فلما كانت ليلة هديها الى زوجها ، انطلق بها الى « عملوق » الملك ، ليطأها — على عادته — ومعه الفتيات يغنين و يقلن فى غنائهن :

. . . .

ابدأ بعملوق ، وقومى فاركبى

وبادرى الصبح بأمر معجب

فما لبكر بعدكم من مـــذهب

*
* *

فلما دخلت « عفيرة » على « عملوق » افترعها وخلى سبيلها ، فخرجت عفيرة على قومها فى دمائها شاقة جيبها عن دبرها وهى تقول :

« لا أحـــد أذل من جديس   أهكذا يفعل بالعروس ! »

وقالت أيضاً فى تحريض جديس على طسم وأبت أن تمضى الى زوجها — :

أيصلح ما يؤتى إلى فتيـاتـكم   وأنتم رجال فيكم عدد الرمل

. . . .

فإن أنتم لا تغضبوا بعد هذه   فكونوا نساء لا تفروا من الكحل

ودونكم طيب العروس ، فانما   خلقتم لأثواب العروس ، وللغسل

قبيحاً وشيكا للذى ليس دافعا   ويختال يمشى بيننا مشية الفحل

فلو أننـا كنا رجالا ، وكنتم   نساء لكنـا لا نقر على الذل

*
* *

فموتوا كراماً ، واصبروا لعدوكم   بحرب تلظى فى القرام من الجزل

ولا تجزعوا للحرب ياقوم ، إنما   تقوم بأقوام كرام على رجل

فيهلك فيها كل نكس موكل   ويسلم فيها ذو النجابة والفضل

وفى ذلك يقول أخوها :

جاءت تمشى طسم فى خميس   كالريح فى هشهشـة اليبيس

يا طسم ! ما لقيت من جديس   حقا لك الويل ، فهيسى ، هيسى

*
* *

. . . .

فلما سمعت جديس قولها ، اجتمعت عصبا لذلك ، فقــال لهم الأسود بن عفار — وكان فيهم سيدا مطاعا — : « يا جديس ! أطيعونى بما آمركم به وأدعوكم اليه ، ففى ذلك عز الدهر وذهاب الذل »

قالوا : « وما ذلك ؟ » قال : قد علمتم أن هؤلاء — يعنى طسما — ليسوا بأعز منكم ؛ ولكن ملك صاحبكم عليكم وعليهم هو الذى يذعننا اليه بالطاعة ، ولولا ذلك ما كان له علينا من فضل ، ولو امتنعنا منه لكان لنا النصف ! » فقالوا : « قد قبلنا قولك ! ولكن القوم أقراننا وأكثر منا عَددا وعُددا ، فنخاف — إن ظفروا بنا — ألا يقيلونا ! » فقال : « والله يا جديس لتطيعننى فيما آمركم به وأدعوكم اليه ، أو لأتكئن على سيفى فأقتل به نفسى ! » قالوا : « فانا نطيعك فيما قد عزمت عليه » قال : « فانى صانع لعملوق وقومه من طسم طعاما وداعيهم اليه ، فاذا جاءوا إليه منفصلين من الخيل والبغال نهضنا إليهم بأسيافنا فانفردت أنا بالملِك ، وانفرد كل رجل منكم برجل منهم ! » قالوا : « فافعل ما بدا لك ! »

واجتمع رأيهم عليه ، فقالت «عفيرة» لأخيها «الأسود» : «لا تفعل هذا فان الغدر فيه ذلة وعار ، ولكن كابدوا القوم فى ديارهم تظفروا بهم أو تموتوا كراما ! » قال : « لا ، ولكن نمكر بهم فيكون ذلك أمكن لنا من نواحيهم وأبلغ فى الانتقام منهم » وصنع الأسود طعاما كثيراً وأمر قومه فاخترطوا سيوفهم ودفنوها فى الرمل — حيث أعدوا الطعام — ثم قال لهم : « اذا أتاكم القوم يرفلون فى حليهم ، فخذوا أسيافكم ثم تقدموا عليهم قبل أن يأخذوا مجالسهم وابدؤا بالرؤساء ، فانكم — اذا قتلتموهم — لم تبالوا بالسفلة ، ولم يكن بعد ذلك منهم حال تكرهونها » قالوا : « نفعل ما قلت »

ثم دعا الأسود بعملوق الطَّسْمى ومن معه من رؤساء طسم باليمامة ، فأسرعوا بإجابة دعوته ، فلما توافوا إلى المدعاة ، وثبتْ جديس ، فاستثاروا سيوفهم من الرمل ، وشدوا على عملوق وأصحابه ، فقتلوهم حتى أفنوهم عن آخرهم ، ومضوا إلى ديارهم فانتهبوها .

زُفَّتْ إِلَى زَوْجٍ لَهَا ، سَيِّدٍ ... مَا هُوَ بِالنِّكْسِ(١) وَلَا بِالضَّبِيسْ(٢)
غِرْتُ عَلَيْهَا فَتَخَلَّجْتُهَا(٣) ... بِوَاشِكِ الصَّرْعَةِ(٤) قَبْلَ الْمَسِيسْ(٥)
وَأَسْلُكُ(٦) الْغَادَةَ مَحْجُوبَةً(٧) ... فِي الْخِدْرِ ، أَوْ بَيْنَ جَوَارٍ تَمِيسْ(٨)
لَا أَنْتَهِي عَنْ غَرَضِي بِالرُّقَى(٩) ... إِذَا انْتَهَى الضَّيْغَمُ دُونَ الْفَرِيسْ(١٠)
وَأَدْلِجُ(١١) الظَّلْمَاءَ فِي فِتْيَةٍ ... مِلْجِنٍّ(١٢) فَوْقَ الْمَاحِلِ(١٣) الْعَرْبَسِيسْ(١٤)

ولهذه الأسطورة التاريخية الطويلة بداية ونهاية لا يتسع المقام لذكرها ، ونحب أن يطلع عليهما القارئ فى الجزء الأول من كتاب « مروج الذهب » للمسعودى من (ص ٢٤١ — ٢٤٧)

*
* *

وقد ذكر أبو العلاء قبائل « طسم وجديس وجرهم » فى شعره مراراً ، فمن ذلك قوله ، وهو التفاتة تاريخية رائعة :

سيسأل ناس : « ما قريش ومكة ؟ » ... كما قال ناس : « ماجديس وما طسم ؟ »

وقوله فى موضع آخر فى أثناء كلامه عن الترك :

لهم حيل فى حربهم ما اهتدت لها ... جديس ، ولا ساست بها الملك جرهم

وقوله فى ميميته الفذة التى حاور فيها الديك : « ورثتَ هدى التذكار من قبل جرهم »

(١) الرجل الضعيف الدنىء الذى لا خير فيه (٢) الجبان أو الأحمق
(٣) جعلتها تختلج (٤) بعاجل الصرعة (٥) قبل أن يمسها زوجها
(٦) أدخل فيها (٧) وهى مستورة (٨) تتبختر (٩) جمع رقية
(١٠) إذا انتهى الأسد دون ما يفترسه (١١) أسير ليلا (١٢) من الجن ، وهى لهجة لبعض العرب ، يقولون : وقفت ع الماء ، ونحو ذلك . وما تزال هذه اللهجة على ألسن العوام إلى يومنا هذا (١٣) الأرض الجدبة (١٤) الأرض الجافة الغليظة

فِي طَاسِمٍ (١) تَعْزِفُ (٢) جِنَّــانُهُ أَقْفَرَ إِلَّا مِنْ عَفَارِيتَ لِيسْ (٣)
تَحْمِلُنَا فِي الْجِنْحِ (٤) خَيْلٌ، لَهَا أَجْنِحَةٌ ـ لَيْسَتْ كَخَيْلِ الْانِيسْ (٥)
وَأَيْنُقٌ (٦) تَسْــبِقُ أَبْصَارَكُمْ مَخْلُوقَةٌ بَيْنَ نَعَامٍ وَعِيسْ (٧)

* * *

لَا نُسْكَ فِي أَيَّامِنَا عِنْــدَنَا بَلْ نُكْسُ الدينُ، فما إن نَكِيسْ (٨)
فَالْأَحَدُ الْأَعْظَمُ وَالسَّبْتُ كَالْ إِثْنَيْنِ، وَالْجُمْعَةُ مِثْلُ الْخَمِيسْ (٩)
لَا مُجَّسٌ نَحْنُ، وَلَا هُــوَّدٌ، وَلا نَصارَى يَبْتَغُونَ الْـكَنِيسْ (١٠)

---

(١) المفازة لا أثر فيها (٢) تصوت (٣) شجعان « جمع أليس » (٤) وقت الليل (٥) الإنس (٦) نوق (٧) كرام الابل (٨) نُكس الدين فى معنى أخذ من غير وجهه، وأهملت حقائقه، ولا نكيس: لا نفطن، والمعنى أننا لا نفقه شيئا فى أمور الدين

(٩) أشار أبو العلاء الى هذا المعنى مراراً فى لزومياته، فمن ذلك قوله :

لنا جمعــة، والسبت يدعى لأمة أطافت بموسى، والنصارى لها الأحدْ
فهل لبواقى السبعة الزهــر معشر يجلونها — ممن تنسك أو جحد ؟

وقوله :

فما هــذه الأيام إلا نظائر تساوت بها آحادها وسبوتها

(١٠) بديع من أبى العلاء هذا الخيال الصافى الذى يتمثل فيه بعد الجن عن الاهتمام بالاعتبارات الإنْسِيّة

وقد شغل اختلاف الأديان وتباين الملل والنحل مكانا رحبا من نفس أبى العلاء، فأورده فى شعره ونثره بأساليب شتى، ولعل أول ما عرفناه له فى ذلك قوله فى سن مبكرة :

باللاذقيــة فتنــة ما بين أحمد والمسيح
هذا بنــاقوس يــد ق، وذا بمئذنة يصيح

إلى أن يقول ساخراً :

كل يعــزّز دينــه يا ليت شعرى، ما الصحيح ؟

. . . .

ثم قال – فيما بعد – :

نحل غدت مللاً ، فكل شريعة تبدى لمضمر غيرها إكفارها

وقال :

إن الشرائع ألقت بيننا إحَنَا وعلمتنا أفانين العداوات

إلى غير ذلك مما يطول سرده .

*
* *

وبعد أن قلب هذه الفكرة على كل وجه من وجوهها ؛ انتقل من تطبيقها على الإنس إلى تطبيقها على الجن ، ثم إلى تطبيقها على الكواكب ، فمن ذلك قوله :

العالم العالى برأى معاشر كالعالم الهاوى – يحس ويعلم

زعمت رجال : « أن سياراته تسق العقول ، وأنها تتكلم »

فهل الكواكب مثلنا فى دينها لا يتفقن ، فهائد أو مسلم ؟

وفى هذه القصيدة يقول :

ولعل مكة فى السماء كمكة وبها نَضادُ وَيَذْبُل وَيَلَمْلَمَ

فأنت ترى أن فكره لم يقف عند حد الإنس والجن بل تعداهما إلى الكواكب أيضاً ، فود لو يهتدى إلى مذاهبها ونحلها ، إن كان لها مذاهب أو نحل !

وهذا خيال لا نستغربه من شاعر فيلسوف ، دقيق الحس ، عميق الفكر ، يرى فى كل ما يحيط به – من حيوان ونبات وجماد – حياة شاملة ، ويصل به التعمق فى ذلك إلى حد أن يقول :

أظن زمانى كونه وفساده وليداً بترب الأرض يلهو ويعبث

ثم ينظر من الناحية الأخرى من منظار الحقيقة الذى لا يفتأ يطل منه على الكون ، فيقول :

نُمَزِّقُ التَّوْرَاةَ مِنْ هُونِهَا ... وَنَحْطِمُ الصُّلْبَانَ حَطْمَ الْيَبِيسْ (١)
نُحَارِبُ اللَّهَ جُنُودًا لإِبْلِيسَ، أَخِى الرَّأْىِ الْغَبِينِ النَّجِيسْ
نُسَلِّمُ الْحُكْمَ إِلَيْهِ - إِذَا ... قَاسَ - فَنَرْضَى بِالضَّلَالِ الْمَقِيسْ (٢)

٭٭٭

نَزِينُ لِلشَّارِخِ (٣) وَالشَّيْخِ أَنْ ... يُفْرِغَ كِيسًا - فِى الْخَنَا - بَعْدَ كِيسْ
وَنَقْتَرِى (٤) جِنَّ « سُلَيْمَانَ » كَىْ ... نُطْلِقَ مِنْهَا كُلَّ غَاوٍ حَبِيسْ (٥)

هذى الشخوص من التراب كوائن ... فالمرء — لولا أن يُحِسّ — جِدَار

فأنت تراه يرى فى الجماد حياة لاينقصها إلا الإحساس ، وفى الأحياء جماداً لا يمتاز بغير ذلك الإحساس .

٭٭٭

ولا بأس من الإشارة هنا — بمناسبة هذا الاستطراد — إلى قوله :

شر أشجار علمت بها ... شجرات أثمرت ناسا

وقوله :

وهل أعظم إلا غصون وريقة ... وهل ماؤها إلا جنى دماء

وسنفصل ما أجملناه فى هذه النقطة حين نعرض المقارنة بين أبى العلاء المعرى وعمر بن الخيام ، فلنكتف بهذا القدر اليسير الآن .

---

(١) اليبيس : ما يبس من العشب ، والبقول التى تتناثر إذا يبست ، أو هو كل نبات يابس ، ومعنى البيت أننا نحقر التوراة فنمزقها ، ونهزأ بالصلبان فنكسرها كما نكسر النبات اليابس (٢) نسلم حكمنا إلى إبليس ، فنرضى بما يراه لنا من الآراء الضالة (٣) للشاب (٤) نتتبع (٥) محبوس

صُيِّرَ فِي قَارُورَةٍ رُصِّصَتْ(١)   فَلَمْ تُغَادِرْ مِنْهُ غَيْرَ النَّسِيسْ(٢)

(١) طليت بالرصاص (٢) بقية الروح ، والنسيس — أيضاً — عرقان فى اللحم يسقيان المخ ، ومعنى البيتين : أننا نجوب أنحاء البلاد باحثين عن إخواننا من عصاة الجن الغاوين الذين سجنهم نبى الله « سليمان » بسبب عصيانهم ، فى قوارير أحكم سدادها بالرصاص حتى لا يجدوا سبيلا إلى الفرار ، فلم يُبق منهم ذلك الحبس الطويل الا الرمق

« أساطير الجن وسليمان النبى »

وقد شاعت أساطير « سليمان » والجن « ارجع الى كتابنا : أساطير ألف يوم » وانتشرت منذ أقدم أزمنة التاريخ فنسبوا إليه القدرة المطلقة على تسخير الجن ومعرفة لغاتهم المختلفة ، وعزوا إلى خاتمه — المشهور بما عليه من النقش — معجزات لا تحصى ، كما عزوا إلى بساطه قدرة خارقة على الطيران — بما يحمله — فى الجو بسرعة لا يكاد يتصورها العقل

وقد كادت تجمع تلك الأساطير على عدة أمور ، أنضجها الخيال ونسقها التواتر ، فمن ذلك أن « سليمان النبى » كان يهيمن على الجن ويتطلب منهم خدمات شتى تتفاوت صعوبة ويسرا ، وقد يَعِنّ له أمر هام لا يستطيع إنفاذه إلا جنى بعينه يكون مشهوراً بقدرته الخارقة ، فيرسل إليه ، فإذا لبى دعوته فذاك ، وإلا نكل به أو ختم جبهته بالنقش الذى على خاتمه فأحرقه توا ، أو سجنه فى قارورة مرصَّصة أو قمقم من النحاس ، وربما سجنه فى عامود طويل من الصخر بعد أن يوثقه بالسلاسل والأغلال وختمه بخاتمه

وقد اشتهر وزيره الحكيم « آصف بن برخيا » بمساعداته القيمة لسليمان ، على إذلال الجن وإخضاعهم لأوامره

وقد ذاع من تلك الأساطير بين العامة والخاصة شىء كثير ، وافتن الناس فى رواياتها بأساليب شتى وطرق متباينة ، ولهذه الأساطير مصادر عدة ، نخص بالذكر منها — عدا أقاصيص رواة العرب — مصدرين رئيسين نعدهما من أخصب المصادر وأغناها ، وهما « أساطير ألف ليلة وليلة » و « أسطورة سيف بن ذى يزن »

وَتُخْرِجُ الْحَسْنَاءَ مَطْرُودَةً مِنْ بَيْتِهَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ حَدِيسْ

ففى « ألف ليلة وليلة » ترى :

حكاية الصياد والجنى

وموضوعها أن صياداً عائلاً طاعناً فى السن كان من عادته أن يرمى شبكته كل يوم أربع مرات فخرج فى صبيحة يوم حسب عادته وطرح شبكته وصبر إلى أن استقرت فى الماء ثم جمع خيطانها فوجدها ثقيلة فجذبها فلم يقدر على ذلك ، فأخذ يعالجها حتى إذا تمكن من إخراجها وجد فيها حماراً ميتاً فحزن ؛ ثم أخرجه ورمى شبكته مرة ثانية ، فلما جذبها وجدها ثقيلة كما وجدها فى المرة الأولى فأخذ يعالجها حتى استطاع اخراجها فوجد فيها زيراً كبيراً مملوءاً بالرمل والطين فزاد حزنه . ثم أخرج ما فيها ولما ألقاها المرة الثالثة وجذبها وجد بها شقافة وقوارير ، فعجب من سوء بخته ونكد طالعه ، وقبل أن يلقى الشبكة للمرة الرابعة — الأخيرة — توسل إلى الله أن ييسر له ثم سمى باسمه ، وألقى شبكته وصبر إلى أن استقرت فاذا بها أثقل منها فى المرات السابقة فبذل أشد الجهد فى إخراجها حتى تمكن من ذلك بعد عناء شديد . فوجد فيها قمقماً من نحاس أصفر مسدوداً بالرصاص ومطبوعاً بخاتم سليمان النبى فتبدل حزنه سروراً وقال فى نفسه : « سأبيع هذا القمقم فى سوق النحاس لأنه يساوى عشرة دنانير ذهباً ، ولكن لا بد من فتحه لأعلم ما يحتويه »

وأخرج مدية كانت معه ، فعالج بها الرصاص حتى فكه ، ثم أزال غطاء القمقم فتصاعد منه دخان كثيف إلى عنان السماء لم يلبث أن تجمع واكتمل ، ثم رأى الصياد أمامه مارداً هائلاً مروعاً من الجن ، فارتعدت فرائصه ، واضطرب ، ولم يُعد رشده إليه إلا قول الجنى له :

« العفو يا نبى الله سليمان، التوبة ! التوبة ! آمنت بك ، وأطعتك ، ولم أعد أخالف لك قولاً أو أعصى لك أمراً ، فلا تقتلنى فانى تائب نادم على ما فرط منى من العصيان ! »

فعاود الصياد الرمق وقال له: «أين أنت من سليمان النبى أيها الجنى ؟ لقد مات منذ عدة قرون، فما قصتك ؟ وما سبب حبسك فى هذا القمقم ؟ » فلما علم الجنى بموت سليمان النبى التفت إلى

الصياد قائلاً : « سأجازيك على جميلك بالقتل ، ولكنى سأترك لك اختيار ميتتك ! » فقال له الصياد : « أهذا جزاء من أحسن إليك وأخرجك من سجنك ! » فقال له الجنى : « لقد كنت من الجن المارقين ، وقد عصيت سليمان بن داود — واسمى صخر الجنى — فأرسل إلى وزيره آصف بن برخيا فأتى بى مكرهاً وقادنى إليه ذليلاً ، فلما وقفت بين يدى سليمان النبى أمرنى بالدخول فى طاعته ، فأبيت ، فحبسنى فى هذا القمقم وختم علىّ بالرصاص وطبعه بخاتمه المنقوش عليه « الاسم الأعظم » وأمر الجن فألقونى فى وسط البحر ، فمكثت مائة عام وقلت فى نفسى : « كل من خلصنى أغنيته إلى الأبد » ولما مرت الأعوام المائة ولم يخلصنى أحد ، قلت : « كل من خلصنى فى خلال هذا القرن الثانى فتحت له كنوز الأرض » فلم يخلصنى أحد ومرت علىّ أربعمائة أخرى فقلت : « كل من خلصنى قضيت له ثلاث حاجات » — فلما مرت تلك المدة الطويلة كلها ولم ينقذنى أحد تملكنى الغضب الشديد فقلت فى نفسى : « كل من خلصنى — بعد هذا — قتلته ، وتركت له اختيار ميتته ، فأى ميتة تختار أن تموتها الآن ؟ »

فارتمى الصياد على أقدامه متوسلاً إليه أن يعفو عنه ، ولكنه وجد منه الإصرار على قتله فلجأ إلى الحيلة — بعد أن يئس من استعطافه — فقال للجنى : « ولكن لى سؤالاً أرجو أن تجيبنى عليه قبل أن تهلكنى ، وأن تصدقنى فى الإجابة عنه » فقال له الجنى : وما هو ؟ فقال الصياد : « قل لى بحق الاسم الأعظم المنقوش على خاتم « نبى الله سليمان » كيف كنت فى هذا القمقم الضيق — وهو لا يسع يدك ولا رجلك ؟ » فلما سمع الجنى هذا القسم اضطرب ولكنه لم يلبث أن قال له : « ألا تصدق أننى كنت فيه ؟ » فأجابه الصياد : « كلا ، ولن أصدق ذلك أبداً إلا إذا رأيته بعينى » فانتفض العفريت وصار دخاناً فى الجو ، ثم تجمَّع وأخذ يدخل فى القمقم حتى أصبح كله فى داخله — فأسرع الصياد بسد فم القمقم بالسدادة التى كانت عليه من قبل ، فلما رأى الجنى مكر الصياد توسل إليه أن يفك أسره .

ودار بينهما حوار طويل ممتع ، يجده القارىء مفصلاً فى الجزء الأول من كتاب ألف ليلة وليلة ، انتهى بأن أقسم له الجنى أن ينفعه إذا أطلقه ، وقد أطلق وبر للصياد بقسمه .

حَتَّى — إِذَا صَارَتْ إِلَى غَيْرِهِ — عَادَ مِنَ الْوَجْدِ بِجَدٍّ تَعِيسْ

أما أسطورة « سيف بن ذى يزن » فنعدها — على عامية أسلوبها ، وفساد خيالها واضطرابه فى عدة مواضع منها — أغنى المصادر التى عنيت بذكر هذه الخرافة وأشباهها من وصف الجان ، و بيان كفاياتهم وأقدارهم ، وهيمنة السحرة عليهم ، وأثر الطلاسم فيهم ، و إظهار الفروق التى بين طوائفهم ونحلهم المختلفة وما إلى ذلك .

وقد أوسعت تلك القصة لهذا النوع من الأساطير أرحب مكان فيها ، فازدحمت بها ازدحاماً أفردها من بين الأساطير العربية ، ولسنا نعرف فى كل ما قرأناه من القصص العامية — وقد قرأنا كل ما طبع منها بلا استثناء — قصة تعدلها فى هذه الخصلة غناء وخصبا .

فليس بد — لمن أراد أن يكوّن فكرة واسعة عن أساطير السحرة والجان والأرصاد والطلاسم — من أن يقرأ تلك القصة الطويلة الجديرة بالعناية

ومن بين أساطير تلك القصة ما ترويه لنا أسطورة « الرهق الأسود » — وقد ذكرت فى موضعين منها — أولها بمناسبة سفر «سيف بن ذى يزن » الى كنوز « النبى سليمان » وثانيهما بمناسبة حفر « شلالات النيل »

فمثلت لنا ذلك « الرهق الأسود » مارداً عنيداً تخاف الجن كلها سطوته و بأسه ، ولا تكاد تؤثر فيه الأرصاد والطلاسم ، وقد بلغ من عتوه أنه عصى « النبى سليمان » واستخف به و بسلطانه .

ففى ذات يوم كلف « سليمان » — تلبية لرغبة زوجه « بلقيس » — أعوان الجان بعمل شاق لم يستطيعوا القيام به ، فأظهروا له عجزهم عن القيام به ولفتوه إلى قدرة «الرهق الأسود» — دون غيره من الجان — على إتمامه

فكلف وزيره « آصف بن برخيا » باحضاره ، وكان « آصف » يعلم مقدار صلابة هذا الجنى وعناده ؛ فبعث إليه برسالة تركها له أحد الجان عند رأسه — وهو نائم — خوفاً من سطوته ، فلما أفاق قرأ فيها قوله : « إذا لم تحضر إلىّ بعثت إليك الوهم ! »

نُذْكِرُهُ مِنْهَا — وَقَدْ زُوِّجَتْ   ثَغْرًا كَدُرٍّ فِى مُدَامٍ غَرِيسْ

فذهب إلى « آصف » وسأله عن الوهم وأين هو ؟ فاغتنم فرصة حضوره فقيده بطلاسمه التى اشتهر بمقدرته الفائقة على الافتتان فيها — ثم أمره بالقيام بذلك العمل الذى أرغمه عليه إرغاماً

وبينما هو قائم بعمله الشاق — مرت « بلقيس » مصادفة فهام بحبهـا ، ولما رأى « سليمان النبى » طلب إليه أن يزوجه منها ووعده بالإذعان لأوامره كلها إن فعل — فلما علم أنه يعنى زوجه ، أراد أن يطبعه بالنقش الذى على خاتمه ليحرقه ، فاستغاث بالوزير آصف ؛ فاقترح على « سليمان » أن يسجنه فى عامود من الرخام ليشقى بالعذاب طول حياته » فسجنه فى عامود طويل أحكم سـداده بالرصاص وختمه بخاتمه وظل محبوساً حتى أنقذه « سيف بن ذى يزن » . . . . إلى آخر تلك الأسطورة الطويلة التى أوجزناها أشد إيجاز ، وفصلتها قصة «سيف بن ذى يزن» أبرع تفصيل « فى الجزء الثامن ص ٤٥ و ٤٦ وفى الجزء الحادى عشر من ص ٤٤ إلى آخر الجزء ومن أول الجزء الثانى عشر إلى ص ٨ »

ومما هو جدير بالملاحظة فى تلك الأساطير أنها تكاد تنتهى جميعاً باظهار شغف أولئك الجن العصاة بالإساءة إلى من يحسنون إليهم ويهيمون بإطلاقهم ، مما يدل على تأصل روح الشر فى نفوسهم

*
* *

وقد أشار المتنبى إلى ما اشتهر به « سليمان النبى » من معرفة لغات الجن وقدرته على تفهم ألسنتهم المختلفة ، فى نونيته التى مدح بها عضد الدولة وذكر فيها شعب بوان ، فقال :

ملاعب جنـــة ؛ لو سار فيها   « سليمان » لسار بترجمان (١)

وأبدع النابغة فى الإشارة إلى ما اشتهر عن « سليمان » من إذلال الجن واخضاعهم لأوامره ، فقال من معلقته الجميلة أثناء مدحه للنعمان :

---

(١) وهذا البيت هو الثالث من قصيدته التى أولها

مغانى الشعب — طيباً فى المغانى —   بمنزلة الربيع من الزمان
ولـكن الفتى العربى فيهـا   غريب الوجـه واليد واللسان

وَنُسْخِطُ الْمَلْكَ عَلَى الْمُشْفِقِ الْـــمُفْرِطِ فِى النُّصْحِ إِذِ الْمَلْكُ سِيسْ
لاَ أَتَّقِى الْـــبَرَّ لِأَهْوَالِهِ وَأَرْكَبُ الْبَحْرَ أَوَانَ الْقَرِيسْ (١)
نَادَمْتُ قَابِيلَ ، وَشِيْثًا ، وَهَا بِيلَ عَلَى الْعَاتِقَةِ الْخَنْدَرِيسْ (٢)
وَرَهْطَ لُقْمَانَ ، وَأَيْسَارَهُ عَاشَرْتُ مِنْ بَعْدِ الشَّبَابِ اللَّبِيسْ (٣)

***

ثُمَّتَ آمَنْتُ ، وَمَنْ يُرْزَقِ الْ إِيمَانَ يَظْفَرْ بِالْخَطِـــيرِ النَّفِيسْ
جَاهَدْتُ فِى بَدْرٍ ، وَحَامَيْتُ فِى أُحْدٍ، وَفِى الْخَنْدَقِ رُعْتُ الرَّئِيسْ (٤)
وَرَاءَ جِـــبْرِيلَ وَمِيكَالَ (٥) نَحْـ لِى الْهَامَ فِى الْكَبَّةِ (٦) خَلْىَ اللَّسِيسْ (٧)

ولا أرى فاعلاً فى الخير يشبهه ولا أحاشى من الأقوام من أحد
إلا « سليمان » إذ قال الأله له : « قم للبرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن ـ انى قد أذنت لهم يبنون « تدمر » بالصفاح والعمد
فمن أطاعك فانفعه بطاعته كما أطاعك ـ وادلله على الرشد
ومن عصاك ، فعاقبـه معاقبـة تنهى الظلوم، ولا تقعد على ضمد »

ونختم هذا الفصل بقول الأعشى ـ وهو يمثل منحى آخر من اعتقاد العرب فى ذلك — :

ولو كان شىء خالداً ومعمراً لـكان سليمان البرى من الدهر
براه إلهى ، فاصطفاه عبـاده وملـكه ما بين ثريا الى مصر
وسخر من جن الملائك تسعة قياماً لديه يعملون بلا أجـر

(١) البرد الشديد (٢) الخمر (٣) أى الذى أخلق من كثرة اللبس (٤) بدر وأحد والخندق : ثلاث وقائع مشهورة من غزوات النبى صلى الله عليه وسلم وهو يعنى بالرئيس فى واقعة الخندق : أبا سفيان (٥) ميكائيل (٦) الكبة الصدمة بين الخيلين فى الحرب أو الزحمة (٧) يشير بذلك الى ما ورد فى القرآن من محاربة الملائكة فى جانب

وَطَارَ فِي الْيَرْمُوكِ بِي سَابِحٌ ... وَالْقَوْمُ فِي ضَرْبٍ وَطَعْنٍ خَلِيسْ
حَتَّى تَجَلَّتْ عَنِّيَ الْحَرْبُ كَالْـ ... جَمْرَةِ ، فِي وَقْدَةِ ذَاكَ الْوَطِيسْ
وَالْجَمَلُ[1] الْأَنْكَدُ شَاهَدْتُهُ ... بِئْسَ نَتِيجُ النَّاقَةِ الْعَنْتَرِيسْ[2]
وَزُرْتُ صِفِّينَ[3] عَلَى شَطْبَةٍ[4] ... جَرْدَاءَ ، مَا سَائِسُهَا بِالأَرِيسْ[5]
مُجَدِّلاً[6] بِالسَّيْفِ أَبْطَالَهَا ... وَقَاذِفًا بِالصَّخْرَةِ الْمَرْمَرِيسْ[7]
وَسِرْتُ قُدَّامَ عَلِيٍّ غَدَا ... ةَ النَّهْرِ[8] حَتَّى فَلَّ غَرْبُ الْخَمِيسْ[9]
صَادَفَ مِنِّي وَاعِظٌ تَوْبَةً ... فَكَانَتِ اللَّقْوَةُ[10] عِنْدَ الْقَبِيسْ[11]

فَيَعْجَبُ لِمَا سَمِعَهُ مِنْ ذَلِكَ الْجِنِّيِّ ، وَيَكْرَهُ الْإِطَالَةَ عِنْدَهُ ، فَيُوَدِّعُهُ

المسلمين فى تلك الوقائع كقوله تعالى : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » إلى أن يقول : « إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى : إن تصبروا وتتقوا ، ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » وقوله تعالى فى سورة الأنفال « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممددكم بألف من الملائكة مسومين » وقوله تعالى فى سورة الأحزاب « وجنوداً لم تروها »

(١) يعنى أنه شاهد واقعة الجمل (٢) العنتريس : الناقة الغليظة ، ومعنى البيت : « وقد شاهدت ذلك الجمل المشئوم الذى سميت باسمه الموقعة ، فلا كان يوم ولدته أمه فيه ، فانه شر ما نتجته تلك الناقة العنتريس التى خلفته (٣) موقعة صفين التى كانت بين على ومعاوية (٤) فرس معتدلة القوام (٥) الأريس الاكار أى الحراث ، يعنى أن قائدها ليس بالغمر الذى لم يمارس أهوال الحروب (٦) رامياً بالسيف أبطالها الى الأرض (٧) الملساء أو الشديدة (٨) يعنى واقعة النهر (٩) الجيش ، وسمى كذلك لأنه خمس فرق . (١٠) أى الناقة اللقوة ، وهى كل ناقة سريعة القبول لماء الفحل (١١) القبيس أى الفحل القبيس ، وهو كل فحل سريع الإلقاح ، ومعنى البيت : « إن الوعظ صادف استعداداً منه ، وهوى فى نفسه ، فانتصح به ، وأقلع عما كان فيه من الضلال والغىّ . »

حديث الاســـد

وَيحُمُّ(١) فإذا هُوَ بأسَدٍ يَفترِسُ مِنْ صِيرانٍ(٢) الجَنّةِ وَحسِيلِها(٣) فلاَ تَكفيهِ مِائةٌ وَلاَ مِائتَانِ، فيقولُ في نفْسِهِ: «لقَدْ كَانَ الأَسَدُ يَفتَرِسُ الشّاةَ العَجْفاءَ(٤) فيُقيمُ عَلَيْهَا الأيَّامَ، لا يَطْعَمُ سِواهَا شَيْئاً» فيُلهِمُ الأَسَدُ أنْ يَتكلَّمَ — وَقدْ عَرفَ مَا في نفْسِهِ — فيَقُولُ: «يا عَبْدَ اللهِ! أليْسَ أحَدُكُمْ في الجَنّةِ تُقدَّمُ لهُ الصَّحْفَةُ(٥) فيأكُلُ مِنْهَا مِثْلَ عُمْرِ السَّمٰوَاتِ وَالأرْضِ، يَلتَذُّ بِمَا أصَابَ، فلاَ هُوَ مُكْتَفٍ، وَلاَ هِيَ الفَانِيَةُ! وَكَذَلِكَ أنَا أفترِسُ مَا شَاءَ اللهُ، فلاَ تأذَى الفَرِيسَةُ بِظُفْرٍ وَلاَ نَابٍ، وَلكِنْ تَجِدُ مِنَ اللَّذّةِ كَمَا أجِدُ(٦) بِلُطْفِ رَبِّهَا العَزِيزِ!

أتَدْرِي مَنْ أنَا؟ أنَا أسَدُ القَاصِرَةِ الّتِي كَانَتْ فِي طَرِيقِ مِصْرَ، فَلَمّا سَافَرَ عُتْبَةُ بْنُ أبِي لَهَبٍ يُرِيدُ تِلْكَ الجِهَةَ، وَقَالَ النّبيُّ — صَلّى اللهُ عَلَيْهِ —:

---

(١) يسير «أي ابن القارح» (٢) قطعان بقر الوحش (٣) أولاد البقر، مفردها: حسيلة

(٤) الهزيلة (٥) القصعة الكبيرة المنبسطة (٦) انظر الى هذا الاستدراك الجميل، وتأمل كيف احتاط أبو العلاء بهذه الإشارة الدقيقة، فهو لم يفته أن ينبه الى سرور الحيوان فى الدار الآخرة، والتذاذه بما كان يألم له من الذبح والقتل فى الدار الأولى. وبهذه الاشارة لم يتناقض أبو العلاء مع نفسه فى تحريم ذبح الحيوان الذى يرى له مثل ما يرى للإنسان من الحق فى الحياة والتمتع بها، وقد دارت بين أبى العلاء المعرى وداعى الدعاة فى مصر رسائل فى أمر تحريم الحيوان، فانتصر أبو العلاء لهذه الفكرة، وأيدها بالحجج والأدلة القوية، ورد داعى الدعاة عليه «ارجع إلى كتابنا: صور جديدة من الأدب العربى»

« اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلباً مِنْ كِلاَبِكَ » أُلْهِمْتُ أَنْ أَتَجَوَّعَ لَهُ أَيَّاماً ، وَجِئْتُ وَهُوَ نَائِمٌ بَيْنَ الرُّفْقَةِ ، فَتَخَلَّلْتُ (١) بَيْنَ الْجَمَاعَةِ إِلَيْهِ

وَأُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ بِمَا فَعَلْتُ . »

حديث الحطيئة(٢)

. . . . . فَيَذْهَبُ ، فَإِذَا هُوَ بِبَيْتٍ فِى أَقْصَى الْجَنَّةِ ، كَأَنَّهُ

---

(١) دخلت بينهم ، أو خلال دارهم

(٢) الحطيئة

توفى سنة ٥٩ هـ

شاعر جاهلى إسلامى ، اسمه « جرول بن أوس » ، وكنيته « أبو مليكة » ولقبه « الحطيئة » لقب بذلك لقصره وقربه من الأرض ، وهو ينسب نفسه الى قبيلة بنى عبس التى ولد فيها . اشتهر بالعناد والنزوع إلى الشر ، وقد وصفه الأصمعى بأنه : « كان سيء الخلق ، دنيء النفس ، فاسد الدين ، سئولا ملحفاً جشعاً ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلاً دميما قصيراً ، رث الهيئة ، متدافع النسب فى القبائل »

وقد هجا أبا بكر – فيمن هجاه – فقال :

أطعنا رسول الله إذ كان حاضراً فيا لهفتا ! ما بال دين أبى بكر ؟
أيورثها بكراً – إذا مات بعده – وتلك – و بيت الله – قاصمة الظهر !

دفعه طبعه الشرير إلى هجاء أقرب الناس إليه ، فهجا عمه وخاله ، بل أمه وأباه ، بل هجا نفسه أيضاً ، فقال فى هجاء أبيه وعمه وخاله :

لحاك الله ، ثم لحاك حقا أبا ، ولحاك من عم وخال
فنعم الشيخ أنت – لدى المخازى – وبئس الشيخ أنت – لدى المعالى
جمعت اللؤم – لا حياك ربى – وأسباب السفاهة والضلال

حِفْشٌ[١] أَمَةٍ رَاعِيَةٍ، وَفِيهِ رَجُلٌ لَيْسَ عَلَيْهِ نُورُ سُكَّانِ الْجَنَّةِ، وَعِنْدَهُ شَجَرَةٌ قَمِيئَةٌ[٢]، ثَمَرُهَا لَيْسَ بِزَاكٍ[٣]

فَيَقُولُ: «يَا عَبْدَ اللهِ! لَقَدْ رَضِيتَ بِحَقِيرٍ»

فَيَقُولُ: «وَاللهِ مَا وَصَلْتُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ هِيَاطٍ وَمِيَاطٍ[٤] وَعَرَقٍ مِنْ شَقَاءٍ، وَشَفَاعَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَدِدْتُ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ!»

وقال فى هجاء أمه :

تنحى ، واقعدى منى بعيداً ... أراح الله منك العالمينا
ألم أظهر لك البغضاء منى ؟ ... ولكن لا إخالك تعقلينا
أغربالاً ـ اذا استودعت سراً ؟ ... وكانوناً على المتحدثينا
جزاك الله شرا من عجوز ... ولقاك العقوق من البنينا
حياتك ـ ما علمت ـ حياة سوء ... وموتك قد يسر الصالحينا !

وقال فى هجاء نفسه ـ ولعله أصدق ما قال ـ :

أبت شفتاى ـ اليوم ـ إلا تكلما ... بسوء ، فما أدرى لمن أنا قائله
أرى لى وجهاً قبح الله خلقه ... فقبح من وجه ، وقبح حامله

وقوله ـ وهو من أروع الشعر وأحسنه ـ :

يسوسون أحلاماً ـ بعيداً أناتها ... وإن غضبوا ـ جاء الحفيظة والجد
أقلوا عليهم ـ لا أبا لأبيكم ـ ... من اللوم ، أوسدوا المكان الذى سدوا
أولئك قوم ـ إن بنوا ـ أحسنوا البنا ، ... وإن عاهدوا ـ أوفوا ، وإن عقدوا شدوا
وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها ، ... وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا
مطاعين فى الهيجا ، مكاشيف للدجى ، ... بنى لهم آباؤهم ، وبنى الجد
ويعذلنى أبناء سعد عليهم ... وما قلت إلا بالذى علمت سعد

(١) بيت صغير جداً (٢) صغيرة حقيرة (٣) ليس نامياً (٤) هياط ومياط :

فَيَقُولُ : « مَنْ أَنْتَ ؟ » فيَقُولُ : « أَنَا الْحُطَيْئَةُ الْعَبْسِيُّ » فَيَقُولُ : « بِمَ وَصَلْتَ إِلَى الشَّفَاعَةِ ؟ » فيَقُولُ : « بِالصِّدْقِ » فيَقُولُ : « فِي أَيِّ شَيْءٍ ؟ » فَيَقُولُ : « فِي قَوْلِي :

أَبَتْ شَفَتَايَ الْيَوْمَ إِلاَّ تَكَلُّمَا ... بِهُجْرٍ[1] ، فَلَا أَدْرِي لِمَنْ أَنَا قَائِلُهْ ؟

أَرَى لِيَ وَجْهاً قَبَّحَ اللهُ خَلْقَهُ ... فَقُبِّحَ مِنْ وَجْهٍ ، وَقُبِّحَ حَامِلُهْ »

فَيَقُولُ : « مَا بَالُ قَوْلِكَ :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لاَ يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ ... لاَ يَذْهَبُ الْعُرْفُ[2] بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ

لَمْ يُغْفَرْ لَكَ بِهِ ؟ » فيَقُولُ : « سَبَقَنِي إِلَى مَعْنَاهُ الصَّالِحُونَ ، وَنَظَمْتُهُ وَلَمْ أَعْمَلْ بِهِ ، فَحُرِمْتُ الأَجْرَ عَلَيْهِ » فيَقُولُ : « مَا شَأْنُ الزِّبْرِقَانِ بْنِ بَدْرٍ[3] ؟ »

اضطراب ، ومجىء وذهاب ، ودفع وزجر . وأصل الهياط : أشد السوق فى الوِرْد ، والمياط : أشد السوق فى الصَّدَر

(١) يروى : بسوء ، والهجر : فحش من القول وقبيح من الكلام (٢) العرف : المعروف ، وهذا البيت من قصيدته التى هجا بها الزبرقان بن بدر ، وستمر بك بعد أسطر

(٣) الزبرقان بن بدر

أحد أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعامل عمر بن الخطاب ، وقد أحسن إلى الحطيئة وأكرم جواره ، فلم يحل ذلك دون هجاء الحطيئة إياه وممالأة خصمه « بغيض بن عامر » عليه ، فمدح بنى أنف الناقة وهجا الزبرقان بن بدر ، فشكاه إلى عمر[1] بن الخطاب فحبسه ، ثم استعطفه بشعره فأطلقه بعد أن حظر عليه الهجاء والخوض فى أعراض الناس .

---

(١) — كان عمر بن الخطاب يسمع شكوى الناس من الشعراء إذا هجوهم ، ويعنى بذلك عنايته بالمهم من الخصومات والقضايا . ويضاف إلى هذا المثال الذى بين أيدينا قصته مع تميم بن أبى والنجاشى (انظر ص ٦٦ من هذا الجزء) .

فَيَقُولُ الْحُطَيْئَةُ : « هُوَ رَئِيسٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، انْتَفَعَ بِهِجَائِي ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ غَيْرُه بِمَدِيحِي ! »

ولما لم يكن له مورد رزق من غير هذا الباب ، وقّع له « عمر » بثلاثة آلاف درهم ، فكف عن الهجاء ، حتى مات عمر ، فعاد يهجو من يشاء . ومما قاله فى الزبرقان بن بدر :

والله ما معشر لاموا امرأ جنباً ... فى آل لأى بن شماس ، بأكياس
ما كان ذنب بغيض – لا أبا لكم – ... فى بائس جاء يحدو آخر الناس
وقد مدحتكم عمداً لأرشدكم ... كيما يكون لكم متحى وأمراسى
لما بدا لىَ منكم عيب أنفسكم ... ولم يكن لجراحى فيكمُ آسى
أزمعت يأسا متينا من نوالكم ... ولن يرى طاردا للحر كالياس
جار لقوم أطالوا هون منزله ... وغادروه مقيما بين أرماس
ملوا قراه وهرته كلابهم ... وجرحوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

الفصل الخامس

الجحيم

حديث الخَنْسَاء

.... وَيَمْضِي ، فَإِذَا هُوَ بِامْرَأَةٍ فِي أَقْصَى الْجَنَّةِ ، قَرِيبَةٍ مِنَ الْمُطَّلَعِ إِلَى النَّارِ ، فَيَقُولُ : « مَنْ أَنْتِ ؟ » فَتَقُولُ : « أَنَا الْخَنْسَاءُ السُّلَمِيَّةُ (١) ، أَحْبَبْتُ أَنْ أَنْظُرَ

---

(١) الخنساء

توفيت سنة ٢٤ هـ

اسمها تماضر ، واسم أبيها عمرو بن الشريد ، ولقبها الغالب عليها هو « الخنساء » والخنساء — الظبية — وهى من بنى سليم من مضر ، وقد اشتهرت بما قالته فى رثاء أخويها « معاوية وصخر » وفدت فى قومها على النبى فأسلمت ، وأنشدته شعرها فأعجب به ، واستزادها . وحكايتها مع النابغة الذبيانى حين فضلها على حسان مشهورة لا داعى إلى ذكرها

ومما يحكونه عنها أن دريد بن الصِّمّة خطبها إلى أبيها فرحب به ، وسأله أن يتريث ريثما يسأل الخنساء عن رأيها فى زواجها ، لأن لها فى نفسها ما ليس لغيرها . ثم دخل إليها وقال لها : « يا خنساء ! أتاك فارس هوازن وسيد بنى جُشَم — دريد بن الصِّمّة — يخطبك ، وهو من تعلمين » فقالت (ودريد يسمع قولها) :

« يا أبت ! أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح ، وناكحة شيخ بنى جُشَم هامة اليوم أو غد ؟ ! » ثم أنشأت تقول :

أتخطبنى — هبلت — على دريد   وقد طرّدت سيد آل بدر
معاذ الله ينكحنى حَبَرْكَىٰ   يقال : « أبوه من جُشَم بن بكر »
ولو أمسيت فى جشم هَدِيًّا   لقد أمسيت فى دنس وفقر

إِلَى صَخْرٍ . فَاطَّلَعْتُ ، فَرَأَيْتُهُ كَالْجَبَلِ الشَّامِخِ ، وَالنَّارُ تَضْطَرِمُ فِي رَأْسِهِ ، فَقَالَ : « لَقَدْ صَحَّ مَزْعَمُكَ فِيَّ » يَعْنِي قَوْلِي :

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ(١) فِي رَأْسِهِ نَارُ(٢) »

قالوا : فخرج إليه أبوها فقال : « يا أبا قرة ، قد امتنعت — ولعلها أن تجيب فيما بعد » فقال دريد : « قد سمعت قولكما » وانصرف غضبان ، وقال يهجو الخنساء من قصيدة نجتزئ منها بقوله :

« وقاك الله يا ابنة آل عمرو من الأزواج أشباهي ونفسي
فلا تلدي ؛ ولا ينكحك مثلي إذا ما ليلة طرقت بنحس
وتزعم أنني شيخ كبير ، وهل خبرتها أني ابن أمس ؟
تريد شَرَنْبَثَ(١) القدمين شثنا يباشر بالعشية كل كرس(٢)
وما قصرت يدي عن عظم أمر أهم به ، ولا سهمي بنكس
وما أنا بالمزجي — حين يسمو عظيم في الأمور — ولا بوهس

ومن مختار شعر الخنساء قولها :

إن الزمان — وما يفنى له عجب — أبقى لنا ذنباً واستؤصل الراس
إن الجديدين — في طول اختلافهما — لا يفسدان ، ولكن يفسد الناس

وقولها في رثاء « صخر » أخيها :

ألا يا صخر ! — إن أبكيتَ عيني فقد أضحكتني زمناً طويلا
دفعت بك الخطوب — وأنت حي — فمن ذا يدفع الخطب الجليلا
إذا قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسنَ الجميلا

(١) جبل شامخ (٢) انظر إلى ما يحويه هذا التهكم من الدعابة ودقة التصوير ، فقد أراد أبو العلا أن يطلعك على رأيه في نقد هذا البيت ، فلجأ إلى تمثيل هذه الصورة البديعة لترى منها رأيه مجسما واضحاً .

---

(١) غليظ أصابعهما (٢) يعالج البعر والسرجين ومثل ذلك

حديث إبليس

فَيَطَّلِعُ ، فَيَرَى إبْليسَ — لَعَنَهُ اللهُ — وَهُوَ يَضْطَرِبُ فى الْأَغْلالِ وَالسَّلاسِلِ ، وَمَقامِعُ(١) الْحَديدِ تَأْخُذُهُ مِنْ أَيْدِي الزَّبانِيَةِ ! فَيَقولُ : « الْحَمْدُ لِلّهِ

وهذا البيت من قصيدة جميلة للخنساء رثت بها أخاها وقد غنى ابن سريج ببعض أبياتها ، والقصيدة من أجمل شعر الخنساء ، وأولها :

قذى بعينك ! أم بالعين عوار أم ذرفت — إذ خلت من أهلها الدار ؟

وفيها تقول

تبكى « خناس » فما تنفك — ما عمرت — لها عليه رنين ، وهى مفتار
تبكى « خناس » على « صخر » وحق لها — إذ رابها الدهر — إن الدهر ضرار
لا بد من ميتة ، فى صرفها عبر ، والدهر — فى صرفه — حول وأطوار

إلى أن تقول :

لقد نعى « ابن نهيك » لى أخا ثقة كانت ترجم عنه — قبلُ — أخبار
فبت ساهرة للنجم أرقبه حتى أتى — دون غور النجم — أستار

ثم تقول :

قد كان خالصتى من كل ذى نسب فقد أصيب ، فما للعيش أوطار

وتختمها بقولها :

ليبكه مقتر — أفنى حريبته دهر — وحالفه بؤس وإقتار
ورفقة — حار حاديهم بمهلكة — كأن ظلتها فى الطخية القار
لا يمنع القوم — إن سالوه خلعته ولا يجاوزه — بالكيل — مرار

(١) مفردها : مقمعة — وهى عمود من الحديد كالمِحْجَن يضرب به رأس الفيل ، أو خشبة يضرب بها الإنسان ليذل . والأول المراد هنا .

الَّذِى أمْكَنَ مِنْكَ يا عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّ أَوْلِيائِهِ ، لَقَدْ أَهْلَكْتَ مِنْ بَنِى آدَمَ طَوائِفَ لا يَعْلَمُ عددها إلَّا اللهُ ! »

فَيَقُولُ : « مَنِ الرَّجُلُ ؟ »

فَيَقُولُ : « أَنا فُلانُ بنُ فُلانٍ ، مِنْ أَهْلِ حَلَبَ ، كَانَتْ صِناعَتِى الْأَدَبَ ، أَتَقَرَّبُ بِهِ إلى المُلوكِ »

فَيَقُولُ : « بِئْسَ الصِّنَاعَةُ ! إنها تَهَبُ غُفَّةً[1] مِنَ الْعَيْشِ لا يَتَّسِعُ بِها الْعِيالُ ، وَإِنَّها لَمَزَلَّةُ الْقَدَمِ ، وَكَمْ أَهْلَكَتْ مِثْلَكَ ، فَهَنِيئاً لَكَ إِذْ نَجَوْتَ ، وَإِنَّ لِى إِلَيْكَ لَحاجَةً فَإِنْ قَضَيْتَها شَكَرَتْكَ يَدَ الْمَنُونِ[2] »

فَيَقُولُ : « إِنِّى لَا أَقْدِرُ لَكَ عَلَى نَفْعٍ ، فَإِنَّ الآيَةَ سَبَقَتْ فِى أَهْلِ النَّارِ ، أَعْنِى قَوْلَهُ تَعَالَى : « ونادَى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ، قالوا : إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ »

فَيَقُولُ : « إِنِّى لَا أَسْأَلُكَ فى شَىْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ أَسْأَلُكَ عَنْ خَبَرٍ تُخْبِرُنِيهِ : إِنَّ الْخَمْرَ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ فى الدُّنْيا ، وَأُحِلَّتْ لَكُمْ فى الآخِرَةِ ، فَهَلْ يَفْعَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ بِالْوِلْدانِ الْمُخَلَّدِينَ فِعْلَ أَهْلِ الْقَرْيَاتِ[3] ؟ »

فَيَقُولُ : « عَلَيْكَ الْبَهْلَةُ[4] أَما شَغَلَكَ ما أَنْتَ فِيهِ ؟ أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ تَعالَى : « وَلَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيها خالِدُونَ » ؟

فَيَقُولُ : « وَإِنَّ فى الْجَنَّةِ لَأَشْرِبَةً كَثِيرَةً غَيْرَ الْخَمْرِ ، فَما فَعَلَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ ،

---

(١) بُلغة (٢) دائماً أبداً (٣) المراد بأهل القرية قوم لوط ، قال الله تعالى فى سورة الأنبياء : « ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث » وكذلك جاء فى العنكبوت والأعراف والنمل ذكر القرية وأهلها فى الحديث عن قوم لوط (٤) اللعنة



فَإِنَّ لهُ عِنْدِى يَدًا(١) لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ ، كَانَ يُفَضِّلُنِى دُونَ الشُّعَرَاءِ ، وَهُوَ الْقَائِلُ :

إِبْلِيسُ أَفْضَلُ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمٍ فَتَبَيَّنُوا يَا مَعْشَرَ الْأَشْرَارِ
النَّارُ عُنْصُرُهُ(٢) ، وَآدَمُ طِينَةٌ ، وَالطِّينُ لاَ يَسْمُو سُمُوَّ النَّارِ

لَقَدْ قَالَ الْحَقَّ ، وَلَمْ يَزَلْ قَائِلُهُ مِنَ الْمَمْقُوتِينَ ! »

حديثه مع بشار(٣)

. . . فَلَا يَسْكُتُ مِنْ كَلامِهِ ، إِلَّا وَرَجُلٌ فى أَصْنَافِ الْعَذَابِ ،

---

(١) جميلا ومعروفاً (٢) أصله

(٣) بشار بن برد : توفى سنة ١٦٧ هـ ، وعمره نحو ثمانين سنة

اسمه بشار ، واسم أبيه برد ، وأصله فارسى . نشأ بالبصرة ، وكان ضخم الجثة طويل العنق ، مجدور الوجه ، ولد أكمه ؛ جاحظ الحدقتين ، يغشاهما لحم أحمر

نبغ فى أوائل العصر العباسى الأول ، وقال الشعر فى العاشرة من عمره . قيل أنه نظم نحو ١٢٠٠٠ قصيدة لم يبق منها الآن إلا نتف متفرقة

لقى شعره بالبصرة رواجاً مدهشاً فى أيامه ، فرواه كل غَزِل وغَزِلَة ، وتكسبت به كل نائحة ومغنية ، وكان بشار هجَّاء مقذعاً فهابه كل ذى شرف يخشى ثلبه .

وكان منحازاً للعلويين وقت قيام الدولة العباسية ، وحرض على الفتك بالمنصور ، فلما انتصر المنصور ، انحاز اليه بشار وتملقه ، ثم انتقل إلى بغداد ، ومدح العباسيين ، وعاصر المهدى ، ومدح خالدا البرمكى

وكانت عقيدته الدينية مزعزعة ، ويمكن عده من الفلاسفة الحائرين ، وكان يدين بالجبر ، ومن أبدع ما قاله فى ذلك :

طُبعتُ على ما فىّ غيرَ مخيَّر هواى ، ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى ، وأعطى ولم أرد وقصر علمى أن أنال المغيبا

فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا !

وقد هجا يعقوب بن داود — وزير المهدى — حين أعرض عنه ولم يأبه لمديحه — ببيتيه المشهورين :

بنى أميــة ! هبوا ؛ طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود . . .
ضاعت خلافتكم يا قوم ، فالتمسوا خليفــة الله بين الزق والعود !

فأمر المهدى بقتله ضربا حتى مات ، ولم يخرج فى دفنه أحد خوفاً من غضب الخليفة ، ومن أبدع شعره قوله :

وحارب إذا لم تعط إلا ظلامــة شبا الحرب خير من قبول المظالم

وقوله فى القصيدة عينها :

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الخـــوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم ؟

وقوله من قصيدة أخرى :

خليــلىّ ! إن العسر سوف يفيق وإن يسارا فى غـــد لخليق
وما كنت إلا كالزمان — إذا صحا صحوت ، وإن ماق الزمان أموق(١)
لقد كنت لا أرضى بأدنى معيشة ولا يشتكى بخـــلا علىّ رفيق
خليــلىّ ! إن المـال ليس بنافع إذا لم ينل منــه أخ وصديق
وكنت إذا ضاقت علىّ محـــلة تيممت أخرى — ما علىّ مضيق
وما خاب — بين الله والناس — عامل له فى التقى أو فى المحامد ، سوق
ولا ضاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق

ومن لطيف دعاباته — وقد أخطأ بعض مشايخ الأدب المعاصرين فى حسبان ذلك من سخافاته — قوله :

« خليدة » ربة البيت تصب الخل فى الزيت

(١) الموق : الحمق والغفلة

بِكَلاَلِيبَ(١) مِنْ نَارٍ ، وَإِذَا هُوَ بِبَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ قَدْ أُعْطِىَ عَيْنَيْنِ لِيَنْظُرَ بِهِمَا بَعْدَ الْكَمَهِ(٢) لِيَنْظُرَ إِلَى مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ النَّكَالِ

فَيَقُولُ لَهُ : « يَا أَبَا مُعَاذٍ(٣) لَقَدْ أَحْسَنْتَ فِى مَقَالِكَ ، وَأَسَأْتَ فِى مُعْتَقَدِكَ ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِى الدَّارِ الْعَاجِلَةِ أَذْكُرُ بَعْضَ قَوْلِكَ ، فَأَتَرَحَّمُ عَلَيْكَ ، ظَنّاً أَنَّ التَّوْبَةَ سَتَلْحَقُكَ ، مِثْلَ قَوْلِكَ :

ارْجِعْ إِلَى سَكَنٍ تَعِيشُ بِهِ ذَهَبَ الزَّمَانُ وَأَنْتَ مُنْفَرِدُ
تَرْجُو غَداً ، وَغَداً كَحَامِلَةٍ(٤) فِى الْحَىِّ ، لاَ يَدْرُونَ مَا تَلِدُ(٥)

وَقَوْلِكَ :

الْحُرُّ يُلْحَى(٦) وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ وَلَيْسَ لِلْمُلْحِفِ(٧) مِثْلُ الرَّدِّ

وَقلتَ فى هذه القصيدة : « السُّبْدِ » فى بعض قوافيها ، فإن كنتَ أردتَ جمعَ سُبَد ، وهو طائر ، فإن « فُعَلاً » لا يجمعُ على ذلك ، وَإنْ كنتَ سَكَّنتَ الباء ، فقد أسأتَ ، لأنَّ تسكينَ الفتحةِ غيرُ معروفٍ » .

فَيَقُولُ بَشَّارٌ : « يَا هَذَا ! دَعْنِى مِنْ أَبَاطِيلِكَ ، فَإِنِّى لَمَشْغُولٌ عَنْكَ ! »

لهـا عشر دجاجات وديك حسن الصوت !

(١) جمع كُلاَّب : وهو خشبة فى رأسها عُقَّافة من حديد . (٢) الكمه : العمى . وانظر إلى هذا التهكم اللاذع الذى تحويه هذه الجملة ، ففى الدار الأولى حيث البصر من أكبر النعم وألزمها للإنسان يحرم بشار إياه ، ثم يُعْطاه فى الدار الآخرة ليرى عذابه ونكاله ، فيغمض عينيه حتى لا يرى ما هو فيه من الهول !

وقد أشار أبو العلا إلى حرمان بشار نعمة البصر ، فقال فى لزومياته :

والحظ يقسم، عاش بشرٌ ما اشتكى بصراً ، وعُمِّرَ أكمهاً بشار

(٣) كنية بشار (٤) كحبلى (٥) أى أن غداً مجهول، لا يعرف ما يجنه من الأحداث والتصاريف (٦) يلام (٧) المُلِحّ

حديثه مع امرىء القيس(١)

وَيَسْأَلُ عَنِ امْرِىءِ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ، فَيَقُولُ: «يَا أَبَا هِنْدٍ(٢) أَخْبِرْنِي عَنِ التَّسْمِيطِ(٣) الْمَنْسُوبِ إِلَيْكَ، أَصَحِيحٌ هُوَ عَنْكَ؟»

وَيُنْشِدُهُ الَّذِي يَرْوِيهِ بَعْضُ النَّاسِ:

---

(١) مرت ترجمته (فى ص ٩٦ من هذا الجزء) ومر حديث عنه (فى صفحتى ٥ و ٦ من هذا الجزء أيضاً) وقد ذكره المعرى فى لزومياته أكثر من مرة، فمن ذلك قوله:

أين امرؤ القيس والعذارى   إذ مال من تحته الغبيط
له كميتان — ذات كاس   تزبد، والسابح الربيط
يباكر الصيد بالمذاكى   فيأنس الموحش الهبيط
استنبط العرب فى الموامى   بعدك، واستعرب النبيط

وقوله:

مضى «الواقف الكندى» والسقط غابر   وصاحت ديار الحى: «أين لبيد؟»
تولى ابن حجر — لا يعود لشأنه —   وطالت ليال، والمعالم بيد

وإنما سماه «بالواقف» لوقفته المشهورة بسقط اللوى — إذ يقول فى أول معلقته الساحرة:

«قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل»

ففى هذا البيت — كما يقول علماء الأدب — وقف واستوقف، وبكى واستبكى.

(٢) كنية امرىء القيس

(٣) التسميط ضرب من الشعر ينظم مسمّطا — مقسما على أجزاء عروضية مقفاة على غير روى القافية — وقد نحلوا امرأ القيس تسميطاً آخر ذكرناه فى كتابنا «نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى» (فى ص ٢٥٠) — وذكرنا أنه بيّن البعد عن الأسلوب الجاهلى، وأوله:

توهمت من هند معالم أطلال   عفاهن طول الدهر فى الزمن الخالى

يَا قَوْمِ إِنَّ الْهَوَى إِذَا أَصَابَ الْفَتَى
فِى الْقَلْبِ ثُمَّ ارْتَقَى فَهَدَّ بَعْضَ الْقُوَى
فَقَدْ هَوَى الرَّجُلُ

فَيَقُولُ : « واللهِ مَا سَمِعْتُ هَذَا قَطُّ ، وَإِنَّهُ لَقَرِيٌّ لَمْ أَسْلُكْهُ ، وَإِنَّ الْكَذِبَ لَكَثِيرٌ ، وَأَحْسَبُ هَذَا لِبَعْضِ شُعَرَاءِ الْإِسْلَامِ ، وَلَقَدْ ظَلَمَنِى وَأَسَاءَ إِلَىَّ ، أَبَعْدَ كَلِمَتِى الَّتِى أَوَّلُهَا :

أَلَا عِمْ صَبَاحًا[١] أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِى وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِى الْعُصُرِ الْخَالِى

وَقَوْلِى :

خَلِيلَىَّ مُرَّا بِى عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ لِأَقْضِىَ حَاجَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ[٢]

يُقَالُ لِى مِثْلُ ذَلِكَ ؟ وَالرَّجَزُ مِنْ أَضْعَفِ الشِّعْرِ[٣] ، وَهَذَا الْوَزْنُ مِنْ أَضْعَفِ الرَّجَزِ ! » فَيَعْجَبُ لِمَا سَمِعَهُ مِنِ امْرِئِ الْقَيْسِ

مرابع من هند خلت ومصائف يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ، ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السماكين هطال

(١) ليكن صباحك ناعما (٢) ارجع الى ص ٥ و ٦ من هذا الجزء (٣) هذا هو رأى أبى العلاء فى الرجز ، وسيمر بك فى هذه الرسالة ما يقنعك بتحامله الشديد على الرجاز ، وافتنانه فى احتقارهم وتنقصهم ، وسننبه على ذلك فى موضعه ، ونجتزئ هنا الآن ببعض أبيات من لزومياته تستشف منها رأيه فى الرجز والرجاز ، بصراحة لا تدع مجالا للشك ، وهى قوله :

قصَّرت أن تدرك العلياء فى شرف إنّ القصائد لم يلحق بها الرجز

حديثه مع عنترة(١)

. . . . وَيَنْظُرُ ، فَإِذَا عَنْـتَرَةُ

وقوله :

ولم أرق فى درجات الكريم وهل يبلغ الشاعر الراجز ؟

وقوله :

عجزت عن الكسب الذى يجلب الغنى وما أنت عن كسب الدنايا بعاجز !

ومن لم ينل فى القول رتبة شاعر تَقَنَّعَ فى نظم برتبـة راجز !

(١) عنترة العبسى

توفى سنة ٦١٥ م

أبوه عمرو بن شدّاد العبسى ، وأمه زبيدة الحبشية ، كان « عنترة » يرعى الابل والخيل ، ولكنه لم يلبث أن اشتهر بفروسيته ، وذات مرة أغار بعض العرب على عبس ، واستاقوا إبلهم ، ولحقتهم بنو عبس وفيهم عنترة ، فقال أبوه : « كرَّ يا عنترة » فقال : « العبد لا يحسن الكر ، إنما يحسن الحِلاب والصَّرّ » (أى شد ضرع الناقة) فقال : « كر ، وأنت حر ! » فتفانى فى القتال ، حتى هزم القوم ، ونصر قبيلته

سئل يوما : « أأنت أشجع العرب وأشدها ؟ » فقال : « لا ! » قيل : « فبماذا شاع لك هذا فى الناس ؟ » قال : « كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزما ، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزما ، ولا أدخل موضعاً لا أرى لى منه مخرجا ، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة القويّة يطير لها قلب الشجاع فأُثَنِّى عليه فأقتله ! » ومن خير أبياته قوله :

بَكَرت تخوفنى الحتوف ؛ كأننى أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل !

فأجبتها : إن المنيـة منهل لا بد أن أسقى بذاك المنهل

فاقنىْ حياءك — لا أبالك — واعلمى أنى امرؤ سأموت — إن لم أقتل

إن المنية لو تمثـل مثلت مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل

مُتَلَدِّدٌ(١) فى السَّعِيرِ ، فيقولُ : « مَالَكَ يا أخا عَبْسٍ! كَأَنَّكَ لَمْ تَنْطِقْ بِقَوْلِكَ :

وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَ مَا ... رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ
بِزُجَاجَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أَسِرَّةٍ ... قُرِنَتْ بِأَزْهَرَ فى الشِّمَالِ مُفَدَّمِ(٢)

وَإِنِّى إِذَا ذَكَرْتُ قَوْلَكَ : « هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ(٣) » لَأَقُولُ : « إِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ وَدِيوَانُ الشِّعْرِ قَلِيلٌ مَحْفُوظٌ ، فَأَمَّا الآنَ فَلَوْ سَمِعْتَ مَا قِيلَ بَعْدَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ — لَعَتَبْتَ نَفْسَكَ عَلَى مَا قُلْتَ ، وَعَلِمْتَ أَنَّ الأَمْرَ كَمَا قَالَ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ(٤) :

وقوله :

وإذا شربت فإننى مستهلك ... مالى ، وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصّر عن ندى ... وكما علمت شمائلى وتكرمى

وقوله :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر ... للحرب دائرة على ابنى ضمضم
الشاتمىْ عرضى ولم أشتمهما ... والناذرينِ — إذا لم ألقهما — دمى

وقوله :

كيف المزار وقد تربع أهلها ... بعنيزتين وأهلنا بالعيلم

(١) متحير أو متبلد ، يتلفت يميناً وشمالاً ، وهو مأخوذ من صفحتى عنقه

(٢) ارجع إلى تفسيرهما فى ص «٥٣» من هذا الجزء (٣) المتردم : الموضع يُسْتَرْقَع ويُستصلح لما اعتراه من الوهن والوهى ، أى لم يترك الشعراء لى معنى جديداً أقوله بعدهم

(٤) حبيب بن أوس « أبو تمام » (١٨٨ — ٢٣١هـ)

ولد بقرية «جاسم» من أعمال دمشق ، ثم انتقل مع أبيه إلى دمشق ، وكان أبوه يحترف الحياكة ، ولما ترعرع أبو تمام ذهب إلى مصر فكان يسقى الماء بجامع عمرو ، ثم نبغ فى الشعر فغادر مصر متكسباً بشعره ، فأقبل عليه الأدباء ، ووصله ممدوحوه .

فَلَوْ كَانَ يَفْنَى الشِّعْرُ أَفْنَاهُ مَاقَرَتْ[١] حِيَاضُكَ مِنْهُ فِى الْعُصُورِ الذَّوَاهِبِ
وَلَكِنَّهُ صَوْبُ[٢] الْعُقُولِ، إِذَا انْجَلَتْ سَحَائِبُ مِنْهُ أُعْقِبَتْ بِسَحَائِبِ

فَيقولُ : « وَما حَبِيبُكُمْ هَذَا ؟ » فَيقولُ : « شَاعِرٌ ظَهَرَ فِى الْإِسْلَامِ » وَيُنْشِدُهُ شَيْئاً مِنْ نَظْمِهِ ، فَيقُولُ : « أَمَّا الْأَصْلُ فَعَرَبِىٌّ ، وَأَمَّا الْفَرْعُ فَنطَق بِهِ غَبِىٌّ ، وَلَيْسَ هَذَا الْمَذْهَبُ عَلَى ما تَعْرِفُ قَبَائِلُ الْعَرَبِ . » فَيقُولُ — وَهُوَ ضَاحِكٌ مُسْتَبْشِرٌ — : « إِنَّمَا يُنْكَرُ عَلَيْهِ الْمُسْتَعَارُ — وَقَدْ جَاءَتِ الْعَارِيَةُ فِى أَشْعَارٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ ، إِلَّا أَنَّهَا لَا تَجْتَمِعُ كَاجْتِمَاعِهَا فِيما نَظَمَهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ[٣] »

وَلَقَدْ شَقَّ عَلَيَّ دُخُولُ مِثْلِكَ إِلَى الْجَحِيمِ ، وَكَانَ أُذُنِى مُصْغِيَةٌ إِلَى قَيْنَاتِ[٤] الْفُسْطَاطِ وَهِىَ تُغَرِّدُ بِقَوْلِكَ :

أَمِنْ سُمَيَّةَ[٥] دَمْعُ الْعَيْنِ تَذْرِيفُ لَوْ أَنَّ ذَا مِنْكِ قَبْلَ الْيَوْمِ مَعْرُوفُ[٦]

ولما اتصل بأحمد بن المعتصم ومدحه بشعره أجازه بولاية الموصل ، فوليها عامين ، ثم مات . وسيمر بك طرف من أخباره فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

(١) ما جمعته (٢) مطر (٣) هذا هو رأى أبى العلاء فى شعر أبى تمام ، وقد ذكره فى لزومياته فقال :

وجدت عوارىّ الحياة كثيرة كأن بقاء المرء شعر «حبيب» !

(٤) مغنيات (٥) « سمية » هى امرأة أبيه — وكان يحبها — فحرضت عليه أباه ذات يوم ، وادعت أن عنترة راودها عن نفسها ، فغضب عليه غضباً شديداً ، وأخذ يضربه ضربا مبرحا ، فلما رأت ذلك رق له قلبها ، فارتمت عليه تجلله وتحميه ، و بكت لما أصابه ، ففاضت شاعريته بتلك الأبيات .

(٦) معنى البيت : « أحقاً تذرفين علىّ دموعك ؟ وما عودتنى ذلك من قبل ! »

تَجَلَّلَتْنِى(١) إِذْ أَهْوَى الْعَصَا قِبَلِى ... كَأَنَّهَا رَشَأٌ(٢) فِى الْبَيْتِ مَطْرُوفُ(٣)

الْعَبْدُ عَبْدُكُمُ وَالْمَالُ مَالُكُمُ ، ... فَهَلْ عَذَابُكَ عَنِّى الْيَوْمَ مَصْرُوفُ ؟

حديثه مع علقمة

وَيَنْظُرُ ، فَإِذَا عَلْقَمَةُ بنُ عَبَدَةَ(٤) فَيَقُولُ : « أَعْزِزْ عَلَىَّ بِمَكَانِكَ ، مَا أَغْنَى عَنْكَ سِمْطَا لُؤْلُئِكَ(٥) ، لَوْ شَفَعَتْ لِأَحَدٍ أَبْيَاتٌ صَادِقَةٌ لَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ اللهِ — سُبْحَانَهُ — لَشَفَعَتْ لَكَ أَبْيَاتُكَ فِى وَصْفِ النِّسَاءِ ، أَعْنِى قَوْلَكَ(٦) :

---

(١) علتنى أو تكنفتنى (٢) ولد الظبية (٣) باكى العين

(٤) هو علقمة الفحل ، وقد مرت ترجمته فى ص ٥ و ٦ من هذا الجزء (٥) قال أبو العلاء : يعنى قصيدته التى على الباء : « طحا بك قلب فى الحسان طروب » والتى على الميم : « هل ما علمت وما استودعت مكتوم » (٦) معنى الأبيات واضح ، واستحسان أبى العلاء لها إلى هذا الحد ، يدلك على أنها صادفت هوى من نفسه ، وأنه ممن يدينون بهذا الرأى ، وربما مثلت لك هذه الأبيات بعض ما يعتقده فى النساء ؛ فلنذكر لك بهذه المناسبة موجز :

« رأى أبى العلاء فى المرأة »

فنقول : إن كان لأحد أن يسخط على أبى العلاء ، فهو المرأة ، فقد احتقرها ، وأنكر عليها أكثر مزاياها ، وأمعن فى إساءة الظن بها ، وأسرف فى ذلك إسرافا بلغ به أن رأى السعادة فى خلو العالم وهنأ نفسه على أنه خُلق رجلاً ، ولم يُخلق امرأة فقال :

بدء السعادة أن لم تخلق امرأةً ... فهل تود جمادى أنها رجب ؟

ورأى أنها لا تصلح للحياة العامة مطلقاً ؛ تَمَثَّلَهَا غادرة متهالكه على لذاتها ، منهمكة متفانية فى شهواتها ، لا تعرف الوفاء ، ولا تدرك للحب الصادق معنى ، تتجهم للرجل إذا قل ماله ، وتخونه لأتفه الأسباب ، فالنساء عنده : « فوارس فتنة ، أعلام غى » وهن فى رأيه : « باعثات ركابك فى مهالك مقتمات » و « حبال غى ، بهن يضيّع الشرف التليد »

فَإِنْ تَسْأَلُونِى بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِى بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ

---

*
* *

وبهذه العقيدة المتعنتة ، اندفع يشدد عليها الحجاب ، وينهاها عن دخول الحمام ، ويحرم عليها أداء فريضة الحج ، ويحظر عليها الصلاة فى المسجد ، وينصح لها بالعدول عن طلب العلم ، فاذا لم يكن لها بد من طلبه ، فحسبها منه أن تحفظ بضع أبيات يلقنها إياها شيخ أعمى ، نهكه الكبر ، فخانته قواه وارتعشت من الضعف يداه ، وعليها أن تكتفى بهذا القدر اليسير دون أن تحاول الاستزادة ، أو تطمح إلى التعمق فى فهم ما حفظته ، فإن ذهنها الضيق لا يتسع لذلك ، ولا حاجة بها إليه ، أما القراءة والكتابة فإنها مفسدة لها

ولو شئنا سرد كل ما قاله فى ذلك ، لخرجنا عما قصدنا إليه ، ولكن حسبنا أن نجتزئ هنا بقوله :

علموهن النسج والغزل والرد ن وخلوا كتابة وقراءه

فصلاة الفتاة بالحمد والإخلا ص تغنى عن يونس وبراءه

فهو يذهب بهذين البيتين فى التشديد على النساء أكثر مما ذهب إليه عمر بن الخطاب حين أوصى بتعليم النساء سورتى : « يونس وبراءة » لما تحويانه من آيات الزجر والترهيب وقوله :

ولا يُدْنَيْنَ من رجل ضرير يلقنهن آياً محكمات

سوى من كان مرتعشاً يداه ولمته من المتثغمات

وأى غضاضة على الفتاة إذا أخطأت فى اللغة أو لحنت مادامت قد أدت المراد :

فما عيب على الفتيات لحن إذا قلن المراد مترجمات

وليس لأبى العلاء من حسنة تذكرها له المرأة إلا سخطه على وأد البنات — إن كان يصح اعتبار هذا الواجب الإنسانى حسنة — فقد قال :

لا تولدوا ، فإذا أبى طبع ، فلا تئدوا ، وأكرم بالتراب مصاهراً

على أن هذا الرأى هو أقل ما ننتظره من رجل لم تقف به الشفقة عند تحريم أكل

الحيوان على نفسه ، إشفاقاً عليـــه ، بل وصلت إلى حد أن أنــكر على الناس قتل البرغوث ، فقال :

تسريح كفي برغوثاً ظفرتُ به أبرُّ من درهم تعطيه محتاجا

ولم ير فرقاً بين البرغوث الضئيل والملك المتوج العظيم :

لا فرق بين الأَسَكِّ الجونِ أُطلقه وجون كندة أمسى يعقد التاجا

وأخذ يدلل على صحة ذلك ، فقال :

كلاهما يتوقى — والحياة له عزيزة — ويروم العيش مُهتاجا

على أنك ، إذا آنست منه حرارة الدفاع عن قتل البرغوث فى هذه الأبيات ، آلمك ما تلمحه من الفتور ، حين يدافع عن وأد البنات فى قوله : « وأكرم بالتراب مصاهراً » فقد ترى فيه نهياً مشوباً بشيء من التردد والحذر ، بل إن شئت فقل من التماس العذر

*
* *

ولا يذهبن الوهم بالقارئ ، فيحسب أن أبا العلاء كان — مع كل هذا التحامل — يكرهها ؛ أو يقتص منها لِترَةٍ فى نفسه منها ، فقد كان — على العكس من ذلك — شفيقاً رحيما بها ، وإنما دفعه إلى تنقصها وتمنى خلو العالم منها ؛ حدبه العميم على الإنسان . ولما كانت المرأة فى رأيه هى أداة النسل ومجلبته ، وهو لا يرى فى غير انقراض النسل حاسما لشقاء العالم ، فلا جرم خصها بأكبر قسط من سخطه ، ونقم منها وجودها

وأى جرم عند أبى العلاء أفظع هولا من النسل الذى تجلبه النساء :

صحبنك ، فاستفدت بهن وُلْداً أصابك من أذاتك بالسمات

ومن رزق البنين ، فغير ناء بذلك عن نوائب مسقمات

فمن ثكل يهاب ، ومن عقوق وأرزاء يجئن مصممات

وإن تعط الإناث فأى بؤس تبين فى وجوهٍ مقسمات

يُردن بعولة ، ويردن حَلْياً ويلقَيْن الخطوب ملوّمات
ولسن بدافعات يوم حرب ولا فى غارة متغشمات
وقد يفقدن أزواجا كراما فيا للنسوة المتأيمات
يلدن أعاديا ويكنّ عارا إذا أمسين فى المتهضمات

*
* *

فأبو العلاء يكره الزواج لما يعقبه من النسل ، فإذا عقمت المرأة فلا بأس من الزواج منها :

إذا شئت يوما وصلة بقرينة فخير نساء العالمين عقيمها

على أنه إن نقم من المرأة أنها أداة النسل ، فقد برم بالعيش والناس ، ونقم من نسلها حياته أيضاً دون أن يخص الذكر منه أو الأنثى ، فود لو مات المولود ساعة ولادته ليستريح من عناء الحياة ، فقال :

فأف لعصريهم : نهار وحندس وجنسىْ رجالٍ منهم ونساء
وليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء
يقول لها من قبل نطق لسانه : « تفيدين بى أن تُنْكبى وتسائى »

ولا غرو فهو القائل :

هذا جناه أبى علىّ وما جنيت على أحدْ

وهو القائل أيضاً :

على الوُلْد يجنى والد ولو أنّهم ولاة على أمصارهم خطباء

وقد ساعده على سوء ظنه بالمرأة واحتقاره مواهبها ، ما كانت عليه فى عصره من الانحطاط الخلق والضعف النفسى ، وما اكتظت به الآداب العربية التى درسها من تنقص المرأة والافتنان فى ذكر مثالبها (ارجع إلى ديوان ابن الرومى ج ١ ص ٢١)

*
* *

ولا مندوحة هنا من التنبيه على أن رأى شوبنهور الفيلسوف الألمانى لا يختلف كثيراً عن

. . . .

رأى أبى العلاء فى المرأة ، ولا يغيبن عن القارئ اتفاقهما فى المزاج السوداوى الذى كان علة تشاؤمهما معاً

* * *

ونختم هذا الفصل بنخبة موجزة من شعر أبى العلاء فى المرأة والنسل ، تثبت ما ذهبنا اليه ، وتكون مرجعاً عند الحاجة ، و إلى القارئ بعض أشعاره فى المرأة :

أعوذ بالله من ورهاء قائلة للزوج : « إنى إلى الحمام أحتاج »
وهمها فى أمور – لو يتابعها كسرى عليها – لِشِينَ الملك والتاج

* * *

شر على المرأة من حمامها
إرسالك الفاضل من زمامها
ومشيها تضرب فى أكمامها
يفوح ريا الطيب من أمامها
زائرة المسجـــد فى إلمامها
تأثم ، والخيبــة فى ائتمامها
بأحدل – ما عف عن كمامها –
أعاذها الخالق من إمامها
وريقها الشروب فى صمامها
سمام أفعى بان من سمامها
إن نزلت عصماء من شمامها
فلا سقاها الطل من غمامها
إذا احتوى الريم على رمامها

. . . .

لزومها البيت مع اهتمامها
حتى يجيها الوفد من حمامها
وحملها المغزل فى إتمامها
أوفى بما تعقد من زمامها

☆
☆ ☆

إذا بلغ الوليد لديك عشرا · فلا يدخل على الحرم الوليد
فإن خالفتنى وأضعت نصحى · فأنت ـ وإن رُزقت حجى ـ بليد
ألا إن النساء حبال غى · بهن يُضيّع الشرف التليد

☆
☆ ☆

أقل الذى تجنى الغوانى تبرج · يرى العين منها حليها وخضابها
فإن أنت عاشرت الكعاب، فصادها · وحاول رضاها واحذرن غضابها
فكم بكرت تسقى الأمرّ حليلها · من الغار، إذ تسقى الخليل رضابها

☆
☆ ☆

قد أهملت للخياط إبرتها · فصادفت إبرةً لعقربها
فهى تُسقّى الحليب ليلتها · ولم يكن من لذيذ مشربها
وإنما الخَوْد ـ فى مساربها ـ · كربة السم فى تسربها
فلا تكونى مثل التى لدغت · تبدأ فى شرّها بأقربها

☆
☆ ☆

وإلى القارئ نخبة مختارة من شعر أبى العلاء فى النسل، يتبين منها مقدار سخطه ونقمته :

تواصل حبل النسل ما بين آدم · وبينى، ولم يوصل بلامى باء

. . . .

إذا شئت ـ يوما ـ وصلة بقرينة　　فخـــير نساء العالمين عقيمها
لنا طرق فى كل شرق ومغرب　　إلى الموت أعيي راكباً مستقيمها
هى الدار يأتيها من الناس قادم　　يحث على أن يستقل مقيمها [١]

*
* *

على الوُلْد يجنى والد، ولوَ انهم　　ولاة على أمصارهم خطبـــاء
وزادك بعداً عن بنيك، وزادهم　　عليك حقودا، أنهـــم نجباء
يرون أباً ألقـــاهم فى مؤرّب　　من العقد ـ أعيا حله الأرباء

*
* *

وإذا أردتم بالبنين كرامة　　فالحزم أجمع تركهم فى الأظهر

*
* *

كونى الثريا، أو حضار [٢] أو الـــجوزاء، أو كالشمس لا تلد
فلتلك أشرف من مؤنثـــة نجلت، فضاق بنسلها البـــلد

*
* *

أتتك بحَبَلٍ فتـــاة غـدت　　مسائلة عن دواء الحَبَـــل
وقد حسبت من بنـات السهول　　فجاءت بإحدى بنات الجبـــل [٣]

*
* *

أرى حَبَـــلاً حادثاً فى النســا　　ءِ حَبْلَ أذاة بهن اتصـــل
أتى ولد بسِـــجلٍّ العنـــاء　　فيا ليت وارده ما وصـــل

---

(١) يرى القارىء من هذه الأبيات أن علة كره أبى العلاء للزواج هى خوفه من النسل وإشفاقه مما يلاقيه الابناء من مكاره العيش وشقائه وما يتجرعون من غصص وآلام لا تنتهى الا بموتهم، ومتى ضمن الانسان انقطاع النسل فلا بأس له من الزواج، وإذن فخير النساء العقيم.

(٢) نجم يطلع قبل سهيل فيظن انه سهيل　　(٣) فجاءت بحية.

. . . .

وإن أنظــرَتْه خطوب الزما ... نِ عُضّ بناب شديد العَصَــل
وريع من الغِيَرَ الطارقا ... تِ بالرمح صر ، وبالسيف صل
وقال له : « صلّ » داعى الهدى ، ... وقال له ملحد : « لا تصــل »
وشب ، وشاب ، وأفنى الشباب ، ... وسقيا له من خضاب نصــل
ومن بعــد ذاك يجيء الحما ... م فانظر ، على أى شيء حصل !
فيا راحة النفس عنــد الممات ... إن كان هــذا الحساب انفصــل

*
* *

ألا تفكرت قبل النســل فى زمن ... به حلت ، فتدرى أين تلقيــه
ترجو له من نعيم الدهر ممتنعا ... وما علمت بأن العيش يشــقيه
شكا الأذى ، فسهرت الليل ، وابتكرت ... به الفتاة إلى شمطاء ترقيــه
وأمــه تسأل العراف قاضــية ... عنه النذور ، لعــل الله يبقيــه
وأنت أرشــد منها – حين تحمله ... إلى الطبيب يداويه ويسـقيه

*
* *

ضل الذى جعــل ابناً للردى غرضاً ... إن عق ، فهو على جرم يكافيــه

*
* *

ما يأخذ الموت من نفس لمنفــرد ... نفساً سواها إذا ما جال واحتشــدا

*
* *

نادى حشا الأم بالطفل الذى اشتملت ... عليه : « ويحك لا تظهر ومت كمدا »
فإن خرجت إلى الدنيا لقيت أذى ... من الحوادث ، بله القيظَ والجَمَــدَا
وما تخلص يوماً من مكارهها ... وأنت لا بد فيهــا بالغ أمــدا
ورب مثــلك وافاها على صــغر ... حتى أسن ، فلم يحمد ولا حمــدا
لا تأمن الكف من أيامهــا شللا ... ولا النواظر كفًا عنّ ، أو رمــدا

. . . .

فإن أبيت قبول النصح معتدياً ، فاصنع جميلاً ، وراع الواحد الصمدا
فسوف تلقى بها الآمال واسعة – إذا أجزت مدى منها – رأيت مدى
وتركب اللج تبغى أن تفيد غنى وتقطع الأرض لا تلقى بها ثمدا
– وإن سعدت – فما تنفك فى تعب وإن شقيت – فمن للجسم لو همدا ؟
ثم المنايا ، فإما أن يقال : « مضى ذميمَ فعل » وإما : « كوكب خمدا »
والمرء نصل حسام ، والحياة له سَلُّ ، وأصون للهندى أن غمدا
فلو تكلم ذاك الطفل ، قال له : « إليك عنى ، فما أنشئت معتمدا »
فكيف أحمل عتباً – إن جرى قدر علىّ – أدرك ذا جد ، ومن سمدا

*
* *

وليس أجمع لمختلف آرائه الكثيرة فى المرأة والزواج والنسل من تائيته المطولة التى نعدها تشريعه الخاص بالمرأة ، وقد أتى فيها بخلاصة مذهبه فى النساء ، ونحن نجتزئ منها بالأبيات التالية :

ولا ترجع بإيماء سلاما على بيض أشرن مسلمات
ألات الظُّلْمِ جئن بشر ظُلم وقد واجهننا متظلمات
فوارس فتنة ؛ أعلام غىّ لقينك بالأساور مُعْلِمَات

. . . .

ولكن الأوانس باعثات ركابَك فى مهالك مُقْتِمَاتِ

وهنا يعلل لك سبب سخطه عليهن ، وهو تلك الجريمة الشنعاء التى يقترفنها ، وأى جريمة فى رأيه أفظع من جريمة النسل ، وأى هول أكبر من ذلك الهول :

صحبنك ، فاستفدت بهنّ وُلدا أصابك من أذاتك بالسمات
ومن رزق البنين – فغير ناء بذلك عن نوائب مسقمات

. . . .

فمن شكل يهاب ومن عقوق … وأرزاء يجئن مصممات

وإن تعط الإناث ، فأى بؤس … تبين فى وجـــوه مقسمات

يردن بعولة ، ويردن حَلْيا … ويلقين الخطـوب ملوّمات

ولسن بدافعات ــ يوم حرب … ولا فى غارة متغشمات

ودفن ــ والحوادث فاجعات ــ … لإحداهن إحدى المكرُمات (١)

(١) وقد استنتج أحد كبار أساتذة الأدب فى مصر من هذا البيت أن أبا العلاء يرى وأد البنات ويحبذه ، وليس يحتمل البيت هذا التأويل ، فليس أبو العلاء من غلظ القلب وعتوه بحيث يبيح ذلك ، بل ليس أبو العلاء خصما حقيقيا للمرأة فتبيح له الخصومة أن يأمر بوأدها ، وإنما هو مشفق ناصح — برغم ما يبديه لها من النقد العنيف الذى مصدره الحنو والعطف . لا الخصومة واللدد

ولا نحسبنا فى حاجة الى التدليل على ذلك . فان أبا العلاء برم بالعالم كله ، ساخط على كل من فيه من نساء ورجال :

فأف لعصريهم نهار وحندس … وجنسى رجال منهم ونساء

وقد كرر هذا السخط فى كل مناسبة عنت له . فهل دفعه ذلك إلى أن يوصى بابادتهم وإهلاك هذا الناس ؟ كلا بل تمنى لهم الخير الشامل والرفاهية العميمة ، ورثى لما يلاقون من ظلم وأعنات ، ولكنه أوصى بالكف عن إيجاد مخلوقين جدد يعانون ما يعانى آباؤهم من الشقاء والألم ، فأظهر رأيه صريحا فى وجوب الكف عن الزواج ، وقال أكثر من مرة : إن الناس لو رأوا مثل رأيه :

لعطلوا هـذه الدنيـا فما ولدوا … ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها

ولكنه موقن أن للغرائز حكمها وأن صيحته متلاشية فى أجواز الفضاء ، ومن ثم تراه يهمس فى أذنك متلطفا يدعوك الى تزويج ابنتك ، والكف عن تزويج ابنك !

ولكن أبا العلاء لا ينسى الأمر الواقع ولا يستطيع أن يتغافله . فهو يظل يخيفك من الزواج ويهول لك مصاعبه . فاذا أصررت وأبيت الا عنادا ، لانت لك قناته قليلا فأباح لك الزواج — بشرط أن تتخير العقيم من النساء . فاذا اختل هذا الشرط وأولدت ، فيا لهول الخطب والمصاب . ولكن لا بأس من التجمل بعد أن نفذ السهم الذى ليس لاحد حيلة فى رده — وثم يوصيك بتثقيف ابنك وتعليمه بقدر ما يحذرك من تعليم ابنتك ، وقد يتمنى لو أدرك كلا من البنت والولد حمامهما فيقول :

وليت وليدا مات ساعة وضعه … ولم يرتضع من أمه النفساء

ولكنه لا يرى ارتكاب جريمة الوأد الشنعاء ، بل يقول لك : « لا تولد ، فاذا أولدت فلا تئد » ارجع الى ص (١٤٦) وفرق كبير بين تمنى الموت الطبيعى للمولود وبين اقتراف جريمة وأده أو قتله .

. . . .

وقد يفقدن أزواجاً كراما فيـــا للنسوة المتأيمـــات
يلدن أعاديا ، ويكنَّ عارا إذا أمسين فى المتهضمات
. . . .
توهمن الظنون فكن نارا لمـــا أشــمرنه متوهمات
. . . .
وليس عكوفهن على المصلى أمانا من غوارر مجرمات
ولا تحمد حسانك - إن توافت بأيد للســطور مقومات
فحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع مقلمات
سهام - إن عرفن كتاب لِسْنٍ رجعن بما يسوء مسمّمات
ويتركن الرشيد بغير لب أتين لهـــديه متعلمات
وإن جئن المنجم سائلات فلسن عن الضلال بمنْجِمات

*
* *

ليأخذن التلاوة عن عجوز من اللائى فغرن مهتَّمات
يسبحن المليك بكل جنح ويركعن الضحى متأثمات
فما عيب على الفتيات لحن إذا قلن المراد مترجمات
ولا يدنين من رجل ضرير يلقنهن آيا محكمـــات
سوى من كان مرتعشاً يداه ولمتـــه من المتثغمات
وإن طاوعن أمرك ؛ فانه غيدا يزرن عرائسا متيمات
أخذن - كريش طاووس - لباساً ، ومسكا بالضحى متلغمات
وأبعدُهن من ربات مكر سواحر يعتدين معـــزِّمات
يقلن نهيّج الغياب ، حتى يجيئوا بالركاب مزممات
ونعطف هاجر الخلان - كيا يزول عن السجايا المسئمات
وجمع طوائف العمار سهل علينا بالجـــوالب موذمات
زعمن بأن فى مغنى فقـير كنوزاً للملوك مصمتات

حديثه مع عمرو بن كلثوم

فلَيْتَ شِعْرِى : مَا فَعَلَ عَمْرُو بْنُ كُلثُومٍ ؟

فلا يدخلن دارك باختيار فقد ألفيتهن مذممات
وإن خالسن غِرتك ارتقاباً فحق أن يرحن مشتمات

*
* *

وساو لديك أتراب النصارى وعينا من يهود ومسلمات
ومن جاورت من حُنُف وسرب صوابئ ، فلينَّ مكرمات
فإن الناس كلهم سواء وإن ذكت الحروب مضرمات

*
* *

ولا يتأهلنْ شيخ مقل بمعصرة من المتنعمات
فإن الفقر عيب ، إن أضيفت إليه السن — جاء بمعظمات
ولكن عِرس ذلك بنت دهر تجنبت الوجوه محممات
من اللائى — إذا لم يُجْدِ عام تفوقن الحوادث معدمات
من الشمط اغتزلن بكل عود وأفنين السنين مجرَّمات
ويغتفر الغنى وخْطا برأس إذا كانت قواك مسلمات
وواحدة كفتك ، فلا تجاوز إلى أخرى تجىء بمؤلمات(١)
وإن أرغمت واحدة بضر فأجدر أن تروع بمعرمات(٢)
زجاج — إن رفقت به — وإلا رأيت ضروبه متقصمات
وما حفظ الخريدة مثل بعل تكون به من المتحرمات
يحوط ذمارها من كل خطب ويمنعها مصاعب مقرمات
إذا « الغاران(٣) » غرتهما بحل فدينك بالتورع والصمات
فهذا قول مختبر شفيق ونصح للحياة وللمات

---

(١) هنا يوصيك أبو العلاء — بعد أن تزوجت — أن تكتفى بواحدة . ويحذرك من التطلع لأخرى .
(٢) المعرمات : الشدائد (٣) البطن والفرج .

فَيُقَالُ : « هَا هُوَ ذَا مِنْ تَحْتِكَ ، إِنْ شِئْتَ أَنْ تُحَاوِرَهُ فَحَاوِرْهُ[١] »

---

(١) عمرو بن كلثـــوم

(توفى سنة ٦٠٠ م)

اسمه عمرو وكنيته أبو الأسود ، اسم أبيه كلثوم بن مالك بن عتاب ، واسم أمه ليلى بنت المهلهل أخى كليب ، وكانت عزيزة النفس ، كما كان ابنها سيد قومه . واسم قبيلته تغلب .

كان ابن كلثوم من أعز العرب نفساً ، وأشدهم إباء ، وحكايته مع عمرو بن هند مشهورة ، وخلاصتها أن ابن هند قال يوماً لندمائه : « هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمى » ، فأجابوه : « نعم ! أم عمرو بن كلثوم » قال : « ولم ؟ » قالوا : « لأن أباها مهلهل ابن ربيعة ، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها عمرو وهو سيد قومه »

فأرسل ابن هنـد صاحب الحيرة لعمرو بن كلثوم يستزيره وأشراف قومه ، وجلس ابن كلثوم مع ابن هند ، وجلست ليلى مع هنـد (أم ابن كلثوم مع أم ابن هند) وكان ابن هند قد أوصى أمه أن تنحى الخدم إذا دعا بالطرف ، وتستخدم ليلى ؛ ودعا ابن هند بمائدة ، ثم دعا بالطرف ، فقالت هند : « ناولينى يا ليلى ذلك الطبق » فأجابتها : « لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها » فأعادت عليها وألحت ، فصاحت ليلى : « واذلاه ! يا لتغلب ! » فسمعها ابن كلثوم ، فثار الدم فى وجهه ، ونظر إليه ابن هند فعرف الشر فى عينيه ، ووثب ابن كلثوم الى سيف معلق لابن هند فى الرواق فضرب به رأسه ، ونادى فى بنى تغلب ، فانتهبوا ما فى الرواق ، وساقوا نجائبه إلى الجزيرة .

ومن أجمل شعره قوله فى معلقته يصف نساء قبيلته :

يقتن جيادنا ، ويقلن : « لستم بعولتنـــا — إذا لم تمنعونا »
إذا لم نحمهن فلا بقينـــا لخير بعدهن ولا حيينـــا

وقوله يصف المعركة :

متى ننقـل إلى قوم رحانا يكونوا فى اللقاء لها طحينا
يكون ثفالها شرقى نجـــد ولهوتها قضـــاعة أجمعينـا

فَيَقُولُ : « كَيْفَ أَنْتَ أَيُّهَا الْمُصْطَبِحُ(١) بِصَحْنِ الْغَانِيَةِ ، وَالْمُغْتَبِقُ(٢) مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ ! لَوَدِدْتُ أَنَّكَ لَمْ تُسَانِدْ(٣) فِي قَوْلِكَ :

كَأَنَّ مُتُونَهُنَّ مُتُونُ غُـدْرٍ(٤) تُصَفِّقُهَا(٥) الرِّيَاحُ إِذَا جَرِينَا(٦)

وقوله :

ألا لا يعلم الأقوام أنا تضعضعنا وأنا قد ونينا

ألا لا يجلهن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقوله :

فإن قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا

ومن مختار شعره قوله أيضاً :

معاذ الإله أن تنوح نساؤنا على هالك ، أو أن تضج من القتل

قراع السيوف بالسيوف أحلنا بأرض براح(١) ذى أراك وذى أثل

فما أبقت الأيام مِ المال عندنا سوى جذم أذواد محذفة النسل(٢)

ثلاثة أثلاث ، فأثمان خيلنا وأقواتنا ، وما نسوق من القتل(٣)

(١) المصطبح هو الذى يشرب الصبوح أى خمر الغداة ، وهو يشير بذلك إلى قوله فى أول معلقته :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمــور الأندرينا

أى انهضى بقدحك أيتها الساقية ، واسقينا خمر الصباح ، ولا تدخرى شيئاً مما عندك من تلك الخمر التى أحضرت من قرى الأندرين .

(٢) المغتبق هو الذى يشرب الغبوق ، أى خمر العشى (٣) أى لم تأت بالسناد فى شعرك (والسناد فى الشعر هو كل عيب فى القافية قبل الروى) (٤) مخفف غدُر ؛ بضم الدال ، جمع غدير (٥) تضربها (٦) معنى البيت أن متون تلك الدروع

---

(١) أحلنا بأرض واسعة مقفرة لا نبات فيها (٢) لم تبق لنا الأيام الا بقية من الابل مقطوعة النسل (وانما انقطع نسلها بسبب حلولهم فى تلك الأرض المقفرة) (٣) ثلث نشترى به خيولنا وثلث نشترى به أقواتنا ، وثلث نخسره فى قتالنا .

فَيَقُولُ عَمْرُو: « إِنَّكَ لَقَرِيرُ الْعَيْنِ، لَا تَشْعُرُ بِمَا نَحْنُ فِيهِ، فَاشْغَلْ نَفْسَكَ بِتَمْجِيدِ اللهِ، وَاتْرُكْ مَا ذَهَبَ فَإِنَّهُ لَا يَعُودُ، وَأَمَّا ذِكْرُكَ سِنَادِي فَإِنَّ الإِخْوَةَ لَيَكُونُونَ ثَلَاثَةً أَوْ أَرْبَعَةً، وَيَكُونُ فِيهِمُ الْأَعْرَجُ وَالْأَبْخَقُ(١) فَلَا يُعَابُونَ بِذَلِكَ، فَكَيْفَ إِذَا بَلَغُوا الْمِائَةَ فِي الْعَدَدِ؟ »

☆
☆ ☆

فَيَقُولُ: « أَعْزِزْ عَلَيَّ بِأَنَّكَ قُصِرْتَ عَلَى شُرْبِ حَمِيمٍ، وَأُخِذْتَ بِعَمَلِكَ الذَّمِيمِ، مِنْ بَعْدِ مَا كَانَتْ تُسْبَأُ(٢) لَكَ الْقَهْوَةُ(٣) تُقَابِلُكَ بِلَوْنِ الْحُصِّ(٤) ».

وَقَالُوا فِي قَوْلِكَ « سَخِينَا » قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ فَعِلْنَا مِنَ السَّخَاءِ، وَالنُّونُ نُونُ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَالْآخَرُ أَنَّهُ مِنَ الْمَاءِ السَّخِينِ، لِأَنَّ « الْأَنْدَرِينَ » « وَقَاصِرِينَ » كَانَتَا فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ لِلرُّومِ، وَمِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يَشْرَبُوا الْخَمْرَ بِالْمَاءِ السَّخِينِ فِي صَيْفٍ وَشِتَاءٍ »

تشبه متون الغدر اذا صفقتها الرياح أثناء جريها

(١) البَخَق: أقبح العور، وأكثره غمصا (٢) تُشْرَى لك لتشربها (٣) الخمر

(٤) الحُصّ هو الورس، نبت له نوار أحمر يشبه الزعفران، وقد أشار بذلك إلى قوله في معلقته يصف الخمر:

مشعشعة كأن الحُصَّ فيها إذا ما الماء خالطها سخينا

والمشعشعة: الخمر الممزوجة بالماء.

حديثه مع الحارث اليشكرى[١]

وَيَنْظُرُ، فَإِذَا الْحَارِثُ الْيَشْكَرِيُّ، فَيَقُولُ: «بعض الناسِ يُنْشِدُ قَوْلَكَ:

فَعِشَنْ بخَيْرٍ لَا يَضِرْ كَ النَّوكُ مَا أُعْطِيتَ جَدّا

فيجمع بين تحريك الشين وحذف الياء من عاش يعيش، وذلك قليل ردىء.

وَلَقَدْ أَحْسَنْتَ فِى قَوْلِكَ:

لَا تَكْسَعِ[٢] الشَّوْلَ[٣] بِأَغْبَارِهَا[٤] إِنَّكَ لَا تَدْرِى مَنِ النَّاتِجُ[٥]

---

(١) الحارث بن حلزة اليشكرى

توفى سنة ٥٨٠م

قبيلته بكر وائل، اشتهر بين العراق، كان أبرص، وقد اشتهر بمعلقته الرائعة، ومن أجمل أبياتها قوله:

وأتانا من الحوادث والأنباء خطب نعنى به ونساء

أن إخواننا الأراقم يغلون علينا فى قيلهم احفاء

يخلطون البرىء منا بذى الذنب ولا تنفع الخلىّ الخلاء

أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن تصهال خيل — خلال ذاك رغاء

(٢) كَسَعَ الناقة بغُبْرها: ترك فى خلفها بقية من اللبن ليغزر (٣) الشول: الناقة التى شال لبنها أى ارتفع فلم يبق فى ضرعها إلا صبابة منه (٤) الأغْبَارُ: جمع غبر، وهو بقية اللبن فى الضرع (٥) هو الذى ينتج الناقة أى يلى نتاجها، ومعنى البيت: «لا يكن همك تغزير إبلك لتقوية نسلها، فإنك لا تدرى ما تضمره الأيام فربما اختص بنتاجها غيرك» ويلى هذا البيت قوله:

واحلب لأضيافك ألبانها فإن شر اللبن الوالج

أى شر اللبن هو المكسوع الذى يلج فى ظهور النوق، فاحلبها لأضيافك، ولا تكن بخيلا

حديثه مع طَرَفـة

وَيَعْمِدُ لِسُؤَالِ طَرَفَةَ بنِ الْعبْدِ ، فيَقُولُ :

« يا ابْنَ أخِي يا طَرَفَةُ[١] — خَفَّفَ اللهُ عَنْكَ — أتَذْكُرُ قَوْلَكَ :

كَرِيمٌ يُرَوِّى نَفْسَهُ فِى حَيَاتِهِ سَتَعْلَمُ — إنْ مِتْنَاغَداً — أيُّنَا الصَّدِى[٢]

وقال أبو العلاء : (وقد كانوا فى الجاهلية يكسعون[١] ناقة الميت على قبره ، و يزعمون أنه إذا نهض لحشره وجدها قد بعثت له ليركبها ، وهيهات ، بل حشروا عراة حفاةً !)

(١) انظر الى ما تحويه هذه الجملة من الحدب والرفق بطرفة بن العبد الذى مات صغيراً

(٢) يصف نفسه بأنه كريم يروى نفسه بالخمر ، و يفخر بأنه سيموت ريان ، وأن عاذليه فى شربها سيظمأون عند موتهم

طرفة بن العبد

(توفى سنة ٥٥٠ م)

اسمه عمرو ، وطرفة : لقب غلب عليه ، قبيلته بكر بن وائل ، وهو من بنى قيس . كان لاهيا سكيراً فى صباه ، هجا ملك الحيرة فأسخطه وأمر عامله بالبحرين أن يقتله ، وسمى ابن العشرين لوفاته صغيراً ، فقد مات فى السادسة والعشرين من عمره

ومن أروع شعره قوله :

أرى الموت أعداد النفوس ، ولا أرى بعيداً غداً ، ما أقرب اليوم من غد !

وقوله :

لعمرك إن الموت — ما أخطأ الفتى — لكالطِّوَل المُرْخَى[٢] ، وثنياه باليد

متى ما يشأ يوماً يقـده لحتفه ومن يك فى حبل المنية ينقد

---

(١) كسع الناقة — هنا — ضربها بقوائم السيف من أسفل

(٢) الطِّوَل : الحبل تشد به قوائم الدابة ، والمرخى : الممدود المطول

وَقَوْلُكَ :

أَرَى قَبْرَ نَحَّامٍ[١] بَخِيــلٍ بِمَالِهِ كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِى الْبَطَالَةِ مُفْسِدِ[٢]

مَتَى تَأْتِنِى أُصْبِحْكَ كَأْسًا رَوِيَّةً وَإِنْ كُنْتَ عَنْهَا غَانِياً. فَاغْنَ وَازْدَدِ

فَكَيْفَ صَبُوحُكَ الْآنَ وَغَبُوقُكَ[٣] ؟ إِنِّى لَأَحْسَبُهُمَا حَمِيماً !

وقوله :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتا ، ولم تضرب له وقت موعد

وقوله :

وأعلم علماً — ليس بالظن — أنه إذا ذل مولى المرء فهو ذليل

وأن لسان المرء — ما لم تكن له حصاة — على عوراته لدليل

وأن امرأ لم يعف يوماً — فكاهة — لمن لم يرد سوءاً به لجهول

وقوله :

ولا أغــير على الأشعار أسرقها غنيت عنها ، وشر الناس من سرقا

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال — إذا أنشدته — صدقا

وقوله :

قد يبعث الأمر العظيم صغيره حتى تظل له الدماء تصبب

والظلم فرّق بين حيي وائل : بكر تساقيهــا المنايا تَغلِب

والصدق يألفــه الكريم المرتجى والكذب يألفــه الدنئ الأخيب

والإثم داء ليس يرجى برؤه والبر بر ء ليس فيــه معطب

أدوا الحقوق تَفِرْ لكم أعراضكم إن الكريم ، إذا يحرب ، يغضب

(١) بخيل ، حريص على جمع المال وادخاره (٢) معنى البيت : لا أرى أى فرق بين قبر البخيل الذى عنى نفسه بجمع المال وادخاره ، وقبر المفسد المتلاف لماله ، فما قيمة المال إذاً ؟ ولماذا أبقى عليه ولا أمتع نفسى به ؟ (٣) الصبوح : شراب الصباح ، والغبوق : شراب المساء

وَلَقَدْ كَثُرَتْ فِي أَمْرِكَ أَقَاوِيلُ النَّاسِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّكَ فِي مُلْكِ النُّعْمَانِ اعْتُقِلْتَ ؛ وَقَالَ قَوْمٌ : بَلِ الَّذِي فَعَلَ بِكَ مَا فَعَلَ عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ(١) وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ أَثَرٌ فِي الدَّارِ العَاجِلَةِ إِلاَّ قَصِيدَتُكَ الَّتِي عَلَى الدَّالِ(٢) لَكُنْتَ

---

(١) يشير بذلك الى الروايتين الشائعتين عن سبب قتله ، والرواية الثانية فحواها أن طرفة كان قد هجا عمرو بن هند ، فأحفظه ذلك عليه ، وأسرها له فى نفسه ، ثم أرسله مع المتلمس إلى عامله بالبحرين ، بعد أن تلطف بهما ، وأعطى كلا منهما كتاباً ، أوهمهما أن فيه أمراً بصلتهما ، و إنما فيه أمر بقتلهما ، وارتاب المتلمس فى نية ابن هند ، فذهب إلى غلام يقرأ له كتابه ، فلما وجد فيه الأمر بقتله فر ، ونصح لطرفة فلم ينتصح ؛ بل ذهب لطيته حيث لقى حتفه .

(٢) يعنى معلقته الرائعة التى وفق فيها كل التوفيق إلى تمثيل صورة واضحة دقيقة من نفسه المتوثبة إلى غايات الشباب النبيل ، الشديدة الحس بما يحيط بها من الجمال والحسن ، الفياضة بالشاعرية العالية ، التى تلمحها فى أغلب أبياتها — إن لم نقل فى كلها — وهل ترى أنصع من تلك الصورة الجميلة التى يمثل فيها نفسه ، حين يقول :

ألا أيهذا الزاجرى ، أحضرَ الوغى ... وان أشهد اللذات ، هل أنت مخلدى ؟
فان كنت لا تستطيع دفع منيتى ... فدعنى أبادرها بما ملكت يدى
ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى ... وجدِّك ، لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبق العاذلات بشربة ... كُمَيْتٍ ، متى ما تُعْلَ بالماء تُزْبد
وكَرِّى - إذا نادى المضاف - محنباً ، ... كَسِيدِ الغضا — نبهته — المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ... بِبَهْكَنَةٍ ، تحت الخباء المعمد

فانظر إليه كيف يدفع ، باستحالة الخلود ، حجة من يعذله فى اقتحامه الهيجاء ، وتمتعه بلذاته ومن ثم يوجب اقتناص الفرص ، والتمتع بمسرات الحياة ، قبل أن تغتاله يد الموت ، وانظر إلى رغباته الثلاث التى لا يرى للحياة معنى بدونها ، وهى سبقه العاذلات بشربة من

قدْ أبْقَيْتَ أَثَراً حَسَناً »

الخمر الكميت ، واندفاعه فى ساحة الحرب بفرسه التى تشبه الذئب فى سرعة العدو ، لإغاثة اللائذ به ، وتقصيره يوم الغيم ، بالتمتع بامرأة جميلة يغازلها ، فى سرادق مرفوع

وأنظر إلى قوله بعد تلك الأبيات :

كريم يروّى نفسه فى حياته ستعلم ـ إن متناغدا ـ أينا الصدى
أرى قبر نحّام بخيل بما له كقبر غوىّ فى البطالة مفسد
ترى جُثْوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد
أرى الموت يعتام الكرام ، ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العمر كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تَنْقُصِ الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ـ ما أخطأ الفتى ـ لكالطِّوَلِ المُرْخَى ، وثنياه باليد
متى ما يشأ يوماً يقده لحتفه ومن يك فى حبل المنية ينقد
فمالى أرانى وابن عمى مالكا متى أدن منه ينأ عنى ويبعد
يلوم ، وما أدرى علام يلومنى ؟ كما لامنى فى الحى قُرْط بن أعْبَدِ
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند
أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقد
إذا ابتدر القوم السلاح وجدتنى منيعاً إذا بلت بقائمه يدى
فإن مت فانعينى بما أنا أهله وشقى على الجيب يا ابنة معبد
ولا تجعلنّى كامرىء ليس همه كهمى ولا يغنى غنائى ومشهدى
فلو كنت وَغلاً فى الرجال لضرنى عداوة ذى الأصحاب والمتوحد
ولكن نفى عنى الرجال جراءتى عليهم ، وإقدامى ، وصدقى ، ومحتدى
لعمرك ما أمرى على بغُمّة نهارى ولا ليلى علىّ بسرمد
أرى الموت أعداد النفوس ، ولا أرى بعيداً غدا ، ما أقرب اليوم من غد

فَيَقُولُ طَرَفَةُ : « وَدِدْتُ أَنِّى لَمْ أَنْطِقْ مِصْرَاعًا ، وَدَخَلْتُ الْجَنَّةَ مَعَ الْهَمَجِ وَالطَّغَامِ ؛ وَكَيْفَ لِي بِهَدْءٍ وَسُكُونٍ ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ (١) فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً »

حديثه مع أوس بن حجر (٢)

وَيَلْفِتُ عُنُقَهُ يَتَأَمَّلُ ، فَإِذَا هُوَ بِأَوْسِ بْنِ حَجَرٍ ، فَيَقُولُ : « يَا أَوْسُ إِنَّ

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتاً ، ولم تضرب له وقت موعد

وما أبدع وأروع قوله فى هذه المعلقة :

إذا القوم قالوا : «من فتى ؟» خلت أننى عنيت ، فلم أكسل ، ولم أتبلد
فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى وإن تلتمسنى فى الحوانيت تصطد
وإن يلتق الحى الجميع تلاقنى إلى ذروة البيت الشريف المصمد
وما زال تشرابى الخمور ، ولذتى وبيعى وإنفاق طريفى ومتلدى
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد
رأيت بنى غبراء لا ينكروننى ولا أهل هذاك الطراف الممدد

(١) الجائرون أو الحائدون عن الحق

(٢) أوس بن حجر

أوس بن حَجَر بن عتاب ، قالوا : « كان فحل مضر ، حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه » اشتهر بالحض على مكارم الأخلاق ، كما اشتهر بوصف الخمر والسلاح ، ولا سيما القوس ، ومن مختار شعره قوله :

تركت الخبيثَ ـ لم أشارك ولم أذق ـ ولكن أعفَّ الله مالى ومطعمى
فقومى وأعدائى يظنون أننى متى يحدثوا أمثالها أتكلم

وقوله :

ورثنا المجد عن آباء صدق أسأنا فى ديارهم الصنيعا

أَصْحابَكَ لا يُجيبُونَ السَّائِلَ ، فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ جَوابٍ ؟ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ هٰذَا الْبَيْت :

« وَقَارَفَتْ(١) ، وَهِيَ لَمْ تَجْرَبْ ، وَبَاعَ لَهَا
مِنَ الْفَصَافِصِ(٢) بِالنُّمِّيِّ(٣) سِفْسِيرُ(٤) »

إذا الحسب الرفيع تواكلته — بناة السوء ، أوشك أن يضيعا

وقوله – من مرثية جليلة عالية الأسلوب – :

أيتها النفس ! أجملي جزعا — إن الذي تكرهين قد وقعا
إن الذي جمع السماحة والنجـ — ـدة والحزم والقوى جُمَعا
أودى ، وهل تنفع الإشاحة من — شيء لمن قد يحاول النزعا
الألمعيّ الذي يظن بك الظـ — ـنّ كأن قد رأى وقد سمعا
المخلف المتلف المرزأ لم — يمتع بضعف ، ولم يمت طبعا

إلى أن يقول :

ليبكك الشَّرْب والندامة والفتـ — ـيان – طرا – وطامع طمعا
وذات هِدْمٍ عار نواشرُها(١) — تُصْمِتُ(٢) بالماء تولبا(٣) جدعا(٤)

وقوله :

وليس أخوك الدائم العهد بالذي — يذمك – إن ولى – ويرضيك مقبلا
ولكنه النائي – إذا كنت آمنا — وصاحبك الأدنى – إذا الأمر أعضلا

(١) خالطت الجَرْبَى فلم تجرب لقوتها (٢) جمع فِصفصة ، وهي نبات تعلفه الدواب (٣) الفلوس (٤) سائس حاذق ؛ ومعنى البيت : « أن فرسه خالطت الدواب الجربى فلم يصبها جرب ، لأنها من الأفراس القوية التي يشرى لها علفها بالمال سائس حاذق يعنى بأمرها

---

(١) ولتبكك فقيرة ذات كساء خلق عارية الساعدين (٢) تسكت (٣) صغيراً (٤) صبياً سيء الغذاء ، والمعنى أنها تسكت بالماء صغيرها الجائع

فَإِنَّهُ فِي قَصِيدَتِكَ الَّتِي أَوَّلُهَا :

« هَلْ عَاجِلٌ مِنْ مَتَاعِ الْحَيِّ مَنْظُورُ »

وَيُرْوَى فِي قَصِيدَةِ النَّابِغَةِ الَّتِي أَوَّلُهَا :

« وَدِّعْ أُمَامَةَ ، وَالتَّوْدِيعُ تَعْذِيرُ »

وَكِلَاكُمَا مَعْدُودٌ فِي الْفُحُولِ ، فَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ يُحْمَلُ ذَلِكَ ؟ » فَيَقُولُ أَوْسٌ : « قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ نَابِغَةَ بَنِي ذُبْيَانَ فِي الْجَنَّةِ فَاسْأَلْهُ عَمَّا بَدَا لَكَ ، فَلَعَلَّهُ يُخْبِرُكَ ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ يَعِيَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ، فَأَمَّا أَنَا ، فَقَدْ ذَهَلْتُ ، نَارٌ تُوقَدُ ، وَبَنَانٌ يُعْقَدُ[١] ، إِذَا غَلَبَ عَلَيَّ الظَّمَأُ رُفِعَ إِلَيَّ شَيْءٌ كَالنَّهْرِ ، فَإِذَا اغْتَرَفْتُ مِنْهُ لِأَشْرَبَ وَجَدْتُهُ سَعِيرًا مُضْطَرِمًا ، وَلَقَدْ دَخَلَ الْجَنَّةَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنِّي ، وَلَكِنَّ الْمَغْفِرَةَ أَرْزَاقٌ ، كَأَنَّهَا النَّشَبُ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ ! »

فَيَقُولُ : « إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ آخُذَ عَنْكَ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ فَأُتْحِفَ بِهَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَأَقُولَ : قَالَ لِي أَوْسٌ ، وَأَخْبَرَنِي أَبُو شُرَيْحٍ ! »

حديثه مع أبي كبير الهذلي

وَيَرَى رَجُلًا فِي النَّارِ لَا يُمَيِّزُهُ مِنْ غَيْرِهِ ، فَيَقُولُ : « مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الشَّقِيُّ ؟ » فَيَقُولُ : « أَنَا أَبُو كَبِيرٍ الْهُذَلِيُّ عَامِرُ بْنُ الْحُلَيْسِ » فَيَقُولُ : « إِنَّكَ لَمِنْ أَعْلَامِ هُذَيْلٍ ، وَلَكِنِّي لَمْ أُوثِرْ قَوْلَكَ :

أَزُهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَعْدِلِ[٢] أَمْ لَا سَبِيلَ إِلَى الشَّبَابِ الْأَوَّلِ[٣]

---

(١) عقد البنان : شدها ، أى عضها ، كناية عن الندم والتحسر (٢) مصرف

(٣) هذا البيت من قصيدة له عدتها ثمانية وأربعون بيتا ، قالها فى تأبط شرا ، ابن زوجه أميمة ، وكان السبب فى ذلك أنه رأى منه ما يكره ، فشكاه إلى أمه ،

وَقُلْتَ فِى الْأُخْرَى :

أَزُهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَصْرِفِ ... أَمْ لَا خُلُودَ لِعَاجِزٍ مُتَكَلِّفِ

وَقُلْتَ فِى الثَّالِثَةِ :

أَزُهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَعْكَم (١)

فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى ضِيقِ عَطَنِكَ (٢) بِالْقَرِيضِ ، فَهَلاَّ ابْتَدَأْتَ كُلَّ قَصِيدَةٍ بِفَنٍّ ؟ وَالْأَصْمَعِىُّ لَمْ يَرْوِ لَكَ إِلاَّ هَذِهِ الْقَصَائِدَ الثَّلَاثَ » فَيَقُولُ أَبُو كَبِيرٍ الْهُذَلِىُّ : « إِنَّمَا كَلَامُ أَهْلِ سَقَرَ وَيْلٌ وَعَوِيلٌ ، فَاذْهَبْ لِطِيَّتِكَ ! »

فطلبت إليه أن يحتال لقتله ، فخرج به إلى قوم لهم ترة عنده ، حتى إذا تنور نارهم شكا إليه الجوع ، فذهب فوجد عليها لصين معهما إبل ، فقتلهما وعاد بالإبل ، فهاله أمره ، ثم انطلقا ، فلما أقبل الليل ، أناخا الإبل ، وتناوبا حرسها ، فلما نام تأبط شرا ، وظن أبو كبير أن قد غلبه النوم ، نبذ له حصاة ، فهب من نومه ، وقال : « ما هذا ؟ » فقال : « سمعت حسا فى الإبل ؟ » فطاف ، فلم ير شيئا . ثم نام فنبذ له حصاة ، فاستوى وقد تناوم أبو كبير ، وقال : « والله لئن أنبهنى شىء لأقتلنك » فلبث أبو كبير يكاؤه مخافة أن ينبهه شىء فيقتله . وفى ذلك يقول هذه القصيدة الطويلة ، فليرجع إليها من شاء فى الجزء الأول من كتاب أسرار الحماسة ومما نختاره منها قوله :

ولقد سريت على الظلام بمغشم ... جلد من الفتيان غير مثقل

إلى أن يقول :

وإذا رميت به الفجاج رأيته ... يهوى مخارمها هُوِىَّ الأجدل

وإذا قذفت له الحصاة رأيته ... ينزو لوقعتها نُزُوَّ الأخيل

(١) محبس (٢) ضيق باعك

حديثه مع الأخطل

وَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ يَتَضَوَّرُ(١) فَيَقُولُ : « مَنْ هَذَا ؟ » فَيُقَالُ : « الْأَخْطَلُ التَّغْلِبِيُّ(٢) » فَيَقُولُ لَهُ : « مَا زَالَتْ صِفَتُكَ لِلْخَمْرِ ، حَتَّى غَادَرَتْكَ أُكْلاً لِلْجَمْرِ ، فَكَمْ طَرِبَتِ السَّادَاتُ عَلَى قَوْلِكَ :

أَنَاخُوا ، فَجَرُّوا شَاصِيَاتٍ(٣) كَأَنَّهَا رِجَالٌ مِنَ السُّودَانِ لَمْ يَتَسَرْبَلُوا
فَقُلْتُ : اصْبَحُونِي(٤) لَا أَبَا لِأَبِيكُمُ وَمَا وَضَعُوا الْأَثْقَالَ إِلَّا لِيَفْعَلُوا

---

(١) يتأوه من وجع الضرب أو من ألم الجوع

(٢) الأخطل

اسمه غياث بن غيث بن الصلت ، كنيته أبو مالك ، موطنه الحيرة ، قبيلته تغلب ، دينه النصرانية

كان سكيراً مدمناً ، وهجّاء عفيف اللفظ فى هجائه ، تقرب إلى معاوية بعد أن هجى الأنصار — حين أمره معاوية بذلك — فلما أفضت الخلافة إلى عبد الملك زاد تقربه منه ، وبلغ من افتتانه بشعره أن سماه « شاعر بنى أمية » وكان كثير الطرب إلى سماعه

قال له عبد الملك مرة : « ألا تسلم ، فنفرض لك فى الفيء ، ونعطيك عشرة آلاف ؟ » فقال : « وكيف الخمر ؟ » قال : « وما تصنع بها وإن أولها لمر ، وإن آخرها لسكر ؟ » فقال : « أما إذ قلت ذلك ، فإن فيما بين هاتين المنزلتين لمنزلة ، ما ملكك فيها إلا كلعقة من ماء الفرات بالإصبع ! »

فضحك ، وتركه على نصرانيته ، وسهل له الدخول عليه ، حتى كان يدخل بغير إذن .

ومما يروونه عن حماد أنه قال حين سئل عن شعر الأخطل : « وما تسألونى عن رجل حبب شعره إلىّ النصرانية » وهى جملة مملوءة بالملق والرياء !

(٣) زقاقا مملوءة شائلة القوائم ، أو قِرَبا ملئت فارتفعت قوائمها (٤) اسقونى خمر الصباح

فَصَبُّوا عُقَارًا(١) فِي الْإِنَاءِ كَأَنَّهَا — إذا لَمَحُوهَا - جُذْوَةٌ(٢) تَتَأَكَّلُ(٣)
وَجَاءُوا بِبَيْسَانِيَّةٍ — هِيَ بَعْدَ مَا — يُعَلُّ(٤) بِهَا السَّاقِي — أَلَذُّ وَأَسْهَلُ
تَمُرُّ بِهَا الْأَيْدِي سَنِيحًا(٥) وَبَارِحًا(٦) — وَتُوضَعُ بِاللَّهُمَّ حَيِّ(٧) وَتُحْمَلُ
فَتُوقَفُ — أَحْيَانًا — فَيَفْصِلُ بَيْنَنَا — غِنَاءُ مُغَنٍّ أَوْ شِوَاءٌ مُرَعْبَلُ(٨)
فَلَذَّتْ لِمُرْتَاحٍ وَطَابَتْ لِشَارِبٍ — وَرَاجَعَنِي مِنْهَا مِرَاحٌ(٩) وَأَخْيَلُ(١٠)
فَمَا أَلْبَثَتْنَا(١١) نَشْوَةٌ(١٢) لَحِقَتْ بِنَا — تَوَابِعُهَا ، مِمَّا نُعَلُّ وَنُنْهَلُ
تَدِبُّ دَبِيبًا فِي الْعِظَامِ كَأَنَّهُ — دَبِيبُ نِمَالٍ فِي نَقًا(١٣) يَتَهَيَّلُ(١٤)

فَقَالَ التَّغْلَبِيُّ : « إِنِّي جَرَرْتُ الذَّارِعَ ، وَلَقِيتُ الدَّارِعَ ، وَهَجَرْتُ الْآبِدَةَ ، وَرَجَوْتُ ان تُدْعَى النَّفْسُ الْعَابِدَةَ ، وَلَكِنْ أَبَتِ الْأَقْضِيَةُ » فَيَقُولُ : « أَخْطَأْتَ فِي أَمْرَيْنِ : جَاءَ الْإِسْلَامُ ، فَعَجَزْتَ أَنْ تَدْخُلَ فِيهِ ، وَلَزِمْتَ أَخْلَاقَ سَفِيهٍ ، وَعَاشَرْتَ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ ، وَأَطَعْتَ نَفْسَكَ الْغَاوِيَةَ ، وَآثَرْتَ مَا فَنِيَ عَلَى بَاقٍ ، فَكَيْفَ لَكَ بِالْإِبَاقِ(١٥) ؟ »

---

(١) العقار : الخمر ، سميت كذلك لمعاقرتها ، أى لملازمتها الدن (٢) جمرة ملتهبة
(٣) تحترق وتتوهج
(٤) بَيْسان : بلدة بالشام ، والمراد بالبيسانية الخمر المنسوبة إليها ، و يُعَلّ : يسقى بها ثانية
(٥) من الجانب الأيمن (٦) من الجانب الأيسر (٧) أى أنهم حين يضعونها يهللون فرحين بها (٨) مُقَطَّع ، لتصل إليه النار فتنضجه (٩) اشتداد الفرح ، حتى يجاوز الإنسان حده فيتبختر و يختال (١٠) كِبْر (١١) لم تمهلنا (١٢) سكرة
(١٣) كثيب ، أو قطعة من الرمل تنقاد محدودبة (١٤) ينهال (١٥) الهرب والفرار ، والمراد بها هنا النجاة

فَيَزْفِرُ(١) الأَخْطَلُ زَفْرَةً تَعْجَبُ لها الزَّبَانِيَةُ، وَيقولُ: «آهِ عَلَى أَيَّامِ يَزِيدَ أَسُوفُ(٢) عِنْدَهُ عَنْبَرًا، وَأَمْزِجُ مَعَهُ مَزْجَ خَلِيلٍ. وَكَأَنِّى بِالْقِيَانِ الصَّادِحَةِ(٣) بَيْنَ يَدَيْهِ تُغَنِّيهِ:

وَلَهَا بِالْمَاطِرُونَ إِذَا ... أَكَلَ النَّمْلُ الَّذِى جَمَعَا
خِلْفَةٌ حَتَّى إِذَا ظَهَرَتْ ... سَكَنَتْ مِنْ جِلَّقٍ بِيَعَا
فى قِبَابٍ حَوْلَ دَسْكَرَةٍ(٤) ... حَوْلَهَا الزَّيْتُونُ قَدْ يَنَعَا
وَقَفَتْ لِلْبَدْرِ تَرْقُبُهُ ... فَإِذَا بِالْبَدْرِ قَدْ طَلَعَا

وَلَقَدْ فَاكَهْتُهُ فى بَعْضِ الأَيَّامِ وَأَنَا سَكْرَانُ مُلْتَخٌ(٥) فَقُلْتُ:

أَلَا اسْلَمْ — سَلِمْتَ — أَبَا خَالِدٍ ... وَحَيَّاكَ رَبُّكَ بِالْعَنْقَزِ(٦)
أَكَلْتَ الدَّجَاجَ وَأَفْنَيْتَهَا ... فَهَلْ فى الْخَنَانِيصِ(٧) مِنْ مَغْمَزِ(٨)

فَمَا زَادَ فِيَّ عَنِ ابْتِسَامٍ، وَاهْتَزَّ لِلصِّلَةِ».

فَيقُولُ الشَّيْخُ: «مِنْ ثَمَّ أُتِيتَ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ عَانِدٌ، فَعَلَامَ اطَّلَعْتَ مِنْ مَذْهَبِهِ، أَكَانَ مُوَحِّدًا، أَمْ وَجَدْتَهُ فى النُّسْكِ مُلْحِدًا؟»

فَيقُولُ الأَخْطَلُ: «كَانَتْ تُعْجِبُهُ هَذِهِ الأَبْيَاتُ:

---

(١) يخرج نفسه بعد مده إياه (٢) أشم (٣) اللائى يرفعن أصواتهن بالغناء

(٤) قرية عظيمة، أو بناء كالقصر حوله بيوت (٥) مختلط من شدة السكر

(٦) نوع من النبت، قيل: هو الياسمين (٧) جمع خِنَّوْص، وهو ولد الخنزير

(٨) مطعن، ومعنى البيت: أنك أفنيت الدجاج أكلا، فما عليك لو عطفت على الخنازير فأكلتها، أترى فيها مطعنا؟

أخالدَ ! هاتي خبِّريني وأعلني(١) حديثَك ، إنّي لا أُسِرُّ(٢) التَّناجِيا
حديثَ أبي سُفيانَ ، لمّا سَما بها إلى أُحُدٍ(٣) ، حتّى أقامَ البَواكِيا
وكيفَ بَغَى أمراً(٤) عليٌّ ففاتَه وأورثَه الجَدُّ(٥) السَّعيدُ مُعاوِيا
وقُومي فعُلِّيني(٦) على ذاكَ(٧) قَهوةً(٨) تحلّبَها العِيسيُّ كَرْماً(٩) شآمِيا(١٠)

---

(١) جاهري به (٢) لا أكتم (٣) يعني جبل أحد ، وهو يشير بذلك الى انتصار المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم فى واقعة أحد سنة (٦٢٥ م) وكان قائدَ المشركين فيها أبو سفيان ، وكان النصر محققاً للمسلمين فى بدئها ، فلما خالفوا أمر النبي وانتقلوا من مواضعهم، كر عليهم المشركون وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، فيهم حمزة عم النبي، واستطاع العدو أن يخلص الى النبي فيرميه بالحجارة ، ووقع لشقه ، فأصيبت رباعيته ، وشج وجهه ، وكلمت شفته ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ، وسقط فى إحدى الحفر التى حفرها المشركون ليقع فيها المسلمون ، فأخذه « عليّ » بيده ، ورفعه طلحة بن عبيد الله ، وأحاط به جماعة من الأنصار والمهاجرين ، استبسلوا فى الدفاع عنه ، وفى هذه الموقعة أظهرت أم نسيبة بنت كعب ، شجاعة مدهشة وإقداماً يستفز الإعجاب والروعة ؛ فقد كانت تسقى الماء فى أول النهار ، فلما رأت هزيمة المسلمين انحازت الى النبي وتفانت فى الذود عنه ، ضاربة بسيفها مرة ، ورامية عن قوسها أخرى ، حتى أثخنتها الجروح .

وفى نهاية المعركة صعد أبو سفيان رَبْوة ، ونادى المسلمين بأعلى صوته : « أنعمت فعال ، إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، أُعْلُ هُبَلُ ! »

(٤) يشير بذلك إلى أمر الخلافة التى تنازعها معاوية وعلى ، فقتل على دونها ونالها معاوية

(٥) الحظ (٦) اسقيني (٧) نخب ذلك (٨) خمرة (٩) عنباً

(١٠) المعنى : تعالى فحدثيني وأعلني أحاديثك الجميلة، فلست أرضى كتمانها، حدثيني عن هزيمة المسلمين فى أحد ، وانتصار أبي سفيان عليهم ، وولولة باكياتهم على قتلاهم ، وحدثيني عن فشل « على » فى الحصول على الخلافة ، وانتصار معاوية عليه ، وإحرازها دونه ، ثم اسقيني نخب هذه الذكريات المحبوبة خمرة لذيذة ؛ اعتصرها العيسىُّ من عنب شآمى .

إِذَا مَا نَظَرْنَا فِى أُمُورٍ قَدِيمَةٍ وَجَدْنَا حَلَالًا شُرْبَهَا الْمُتَوَالِيَا
فَلَا خُلْفَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ مُحَمَّدًا تَبَوَّأَ رَمْسًا فِى الْمَدِينَةِ ثَاوِيَا[١]

فَيَقُولُ : « عَلَيْكَ الْبَهْلَةُ ! قَدْ ذَهَلَتِ الشُّعَرَاءُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، عَنِ الْمَدْحِ وَالنَّسِيبِ[٢] ، وَمَا شُدِهْتَ[٣] عَنْ كُفْرِكَ وَلَا إِسَاءَتِكَ ! »

*
* *

وَإِبْلِيسُ يَسْمَعُ ذَلِكَ الْخِطَابَ كُلَّهُ ، فَيَقُولُ لِلزَّبَانِيَةِ : « مَا رَأَيْتُ أَعْجَزَ مِنْكُمْ إِخْوَانَ مَالِكٍ ! أَلَا تَسْمَعُونَ هَذَا الْمُتَكَلِّمَ بِمَا لَا يَعْنِيهِ ؟ فَلَوْ أَنَّ فِيكُمْ صَاحِبَ نَحِيزَةٍ[٤] قَوِيَّةٍ ، لَوَثَبَ وَثْبَةً حَتَّى يَلْحَقَ بِهِ فَيَجْذِبَهُ إِلَى سَقَرَ ! »

فَيَقُولُونَ : « لَيْسَ لَنَا عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ سَبِيلٌ ! »

فَإِذَا سَمِعَ مَا يَقُولُهُ إِبْلِيسُ ، أَخَذَ فِى شَتْمِهِ وَلَعْنِهِ ، وَإِظْهَارِ الشَّمَاتَةِ بِهِ ، فَيَقُولُ — عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ — : « أَلَمْ تُنْهَوْا عَنِ الشَّمَاتَةِ يَا بَنِى آدَمَ ؟ وَلَكِنَّكُمْ — بِحَمْدِ اللهِ — مَا زُجِرْتُمْ عَنْ شَىْءٍ إِلَّا وَرَكِبْتُمُوهُ[٥] » فَيَقُولُ : « أَنْتَ الَّذِى بَدَأْتَ آدَمَ بِالشَّمَاتَةِ ، وَالْبَادِئُ أَظْلَمُ ! »

ثُمَّ يَعُودُ إِلَى كَلَامِ الْأَخْطَلِ فَيَقُولُ : « أَأَنْتَ الْقَائِلُ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ :

وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمَضَانَ طَوْعًا وَلَسْتُ بِآكِلٍ لَحْمَ الْأَضَاحِى

---

(١) يقول : إذا تأملنا أقوال القدماء ، لم نجد أحداً منهم يحرم الخمر ، فإذا كان محمد قد تفرد بتحريمها وحده ؛ فها هو ذا محمد قد مات ، فزال بموته الخلف فى شأنها

(٢) التشبيب (٣) لم تدهش ولم تتحير وتشتغل بما أنت فيه (٤) طبيعة

(٥) وفى هذا المعنى يقول أبو العلاء فى لزومياته :

أَلِظُوا بالقبيح وتابعوه ولو أُمروا به لتجنبوه

وَلَسْتُ بِقَائِمٍ كَالْعَيْرِ(١) أَدْعُو قُبَيْلَ الصُّبْحِ : « حَيَّ عَلَى الفَلاَحِ »
وَلَكِنِّي سَأَشْرَبُهَا شَمُولاً(٢) وَأَسْجُدُ عِنْدَ مُنْبَلَجِ(٣) الصَّبَاحِ »

فَيقُولُ : « اجَلْ ، وَإِنِّي لَنَادِمٌ سَادِمٌ ، وَهَلْ أَغْنَتِ النَّدَامَةُ عَنْ أخِي كُسَعٍ(٤) ؟ »

*
* *

وَيَمَلُّ مِنْ خِطَابِ أَهْلِ النَّارِ ، فَيَنْصَرِفُ إِلَى قَصْرِهِ المَشِيدِ، فَإِذا صارَ عَلَى مِيلٍ أَوْ مِيلَيْنِ ، ذَكَرَ أَنَّهُ ما سَأَلَ عَنْ مُهَلْهِلٍ التَّغْلَبِيِّ ، وَلا عَنِ الشَّنْفَرَى وَتَأَبَّطَ شَرًّا ، فَيَرْجِعُ عَلَى أَدْرَاجِهِ ، فَيَقِفُ بِذَلِكَ المَوْقِفِ يُنَادِي : « أَيْنَ عَدِيُّ ابْنُ رَبِيعَةَ ؟ » فَيُقَالُ : « زِدْ فِي البَيانِ » فَيقولُ : « الَّذِي يَسْتَشْهِدُ النَّحْوِيُّونَ بِقَوْلِهِ :

---

(١) الحمار (٢) خمرا باردة (٣) عند إشراق الصباح

(٤) نادم سادم : إتباع ، أو الثانية بمعنى الأولى للتأكيد ، وكُسَع : حى من قيس عيلان ، ومنه غامد بن الحرث الكسعِيّ ، وقد اتخذ قوساً وخمسة أسهم ، وكمن فى مخبأ ليصطاد ، فمر قطيع ، فرمى عَيْراً ، فنفذ السهم فيه ، ثم انطلق فصدم الجبل ، فأورى ناراً ؛ فظن الكسَعِيّ أنه قد أخطأ ، فرمى ثانية وثالثة إلى آخر الأسهم ، وهو يظن أنه لم يصب ، فجزع ، وعمد إلى قوسه فكسرها ، ثم بات ، فلما أصبح نظر فإذا الحمرُ مُطرَّحة مُصرَّعة ، وأسهمه بالدم مضرجة ، فندم ، فقطع إبهامه ، وأنشد :

ندمت ندامة لو أن نفسى تطاوعنى إذاً لقطعت خَمْسِى
تبيّن لى سَفَاهُ الرأى منى – لعمر أبيك – حين كسرتُ قوسى

ويضرب المثل بندامة الكُسَعِيّ ، فيقول الفرزدق :

« ندمت ندامة الكسعى لما غدت منى مطلقةً نوارُ »

والأدب العربى حافل بضرب الكسعى مثلاً لكل نادم .

ضَرَبَتْ صَدْرَها إِلَيَّ وَقالَتْ : « يا عَدِيًّا! لَقَدْ وَقَتْكَ(١) الأَواقِي(٢)! »

وَقَدِ اسْتَشْهَدُوا لَهُ بِأَشْياءَ كَقَوْلِهِ :

وَلَقَدْ خَبَطْنَ(٣) بُيُوتَ يَشْكُرَ خَبْطَةً أَخْوالَنا . وَهُمُ بَنُو الأَعْمامِ

وَقَوْلِهِ :

مَا أُرَجِّي بِالعَيْشِ بَعْدَ نَدَامَى كُلُّهُمُ قَدْ سُقُوا بِكَأْسِ حَلاَقِ(٤)

فَيُقالُ : « إِنَّكَ لَتَعْرِفُ صاحِبَكَ بِأَمْرٍ لا مَعْرِفَةَ عِنْدَنا مِنْهُ ، ما النَّحْوِيُّونَ ؟ وَما الاسْتِشْهادُ ؟ وَما هذا الهَذَيانُ ؟ نَحْنُ خَزَنَةُ النَّارِ ، فَبَيِّنْ غَرَضَكَ تُجَبْ إِلَيْهِ »

---

(١) حفظتك وصانتك عن الأذى (٢) جمع واقية وهى الشيء يتقى به ، ومعنى البيت أنها دقت صدرها داعية أن لا يصيبنى مكروه (٣) ضربهم ضرباً شديداً

(٤) الحلاَق : المنية ، ومعنى البيت : « أى خير فى الحياة بعد أن أفنى الردى كل نداماى »

وهذا البيت من قصيدة المهلهل المشهورة التى يقول فيها :

طفلة مّا ، ابنة المجلل بيضا ء ، لعوب ، لذيذة فى العناق

فاذهبى ما إليك غـــير بعيد لا يؤاتى العناق من فى الوثاق

ضربت نحرها إلى ، وقالت : « يا عديا ! لقد وقتك الأواقى ! »

ما أرجى بالعيش بعـــد نداما ى ، أراهم سقوا بكأس حلاق !

وهكذا يروى البيت الأخير فى كتب الأدب ، مخالفاً لرواية أبى العلاء

حديثه مع مهلهل (١)

فَيَقُولُ : « أُرِيدُ الْمَعْرُوفَ بِمُهَلْهِلٍ التَّغْلَبِيِّ ، أَخِي كُلَيْبٍ وَائِلٍ الَّذِي كَانَ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ » فَيُقَالُ : « هَا هُوَ ذَا يَسْمَعُ حِوَارَكَ ، فَقُلْ مَا تَشَاءُ »

---

(١) مهلهل

اسمه « عدى » واسم أبيه « ربيعة التغلبي » وهو أخو كليب وخال امرىء القيس . موطنه نجد .

يعزو اليه المؤرخون أنه أول من طول القصائد ، وأنه أحد من غنى من العرب فى شعره ، وكان لاهياً حتى لقبه أخوه كليب « زِير النساء » فلما قتل كليب كان المهلهل يعاقر الخمر فاهتاج ، واستحث قومه على أخذ الثار ؛ وجز شَعره وقصر ثوبه ؛ وهجر النساء والقمار والشراب ، وتفرغ للحرب ، ودامت تلك الحرب بين بكر وتغلب أربعين سنة ، وكانت سجالاً بينهما ، ثم اصطلحوا بعد ذلك .

ومن مختار شعره : رائيته الفذة ، وهى أشهر من أن نذكرها ، ومن أجمل ما فيها قوله :

كأنى — إذْ نعى الناعى كليباً — تطاير بين جَنْبَيَّ الشرار
سألت الحى : « أين دفنتموه ؟ » فقالوا لى : « بأقصى الحى دار »
فسرت وقد غشى بصرى عليه كما دارت بشاربها العقار

وقوله من قصيدة أخرى :

يا لبكر ! أنشروا لى كليباً يا لبكر ! أين أين الفرار ؟
يا لبكر ! فاظعنوا أو فحلوا صرح الشر وبان السّرار

وقوله من قصيدة ثالثة :

أليلتنا بذى حُسَمٍ ! أنيرى إذا أنت انقضيت فلا تحورى
فإن يك بالذنائب طال ليلى فقد أبكى من الليل القصير
وأنقذنى بياض الصبح منها لقد أنقذت من شر كبير

فيَقُولُ: «يَا عَدِيُّ بْنَ رَبِيعَةَ ! أَعْزِزْ عَلَيَّ بِوُلُوجِكَ هَذَا الْمَوْلِجَ ! لَوْ لَمْ آسَفْ عَلَيْكَ إلاَّ لِأَجْلِ قَصِيدَتِكَ الَّتِي أَوَّلُهَا :

أَلَيْلَتَنَا بِذِي حُسَمٍ (١) أَنِيرِي   إِذَا أَنْتِ انْقَضَيْتِ (٢) فَلَا تَحُورِي (٣)

لَكَانَتْ جَدِيرَةً أَنْ تُطِيلَ الْأَسَفَ عَلَيْكَ ، وَقَدْ كُنْتُ إِذَا أُنْشِدْتُ أَبْيَاتَكَ فِي ابْنَتِكَ الْمُزَوَّجَةِ فِي « جَنْبٍ (٤) » ، تَغْرَوْرَقُ مِنَ الْحُزْنِ عَيْنَايَ ،

الى أن يقول و يبدع :

كواكب ليلة طالت وغمت   فهذا الصبح راغمة فغوري

و بعد أن غُلب فى الحرب ، وأخذ أسيراً ، ثم عاد إلى أهله — جعَل النساء يستخبرونه ، تسأل المرأة عن زوجها وأبيها وأخيها ، و يسأل الغلام عن أبيه وأخيه ، فقال :

ليس مثلى يخبر الناس عن آ   بائهم قتلوا ، وينسى القتالا
لم أرم عرصة الكتيبة حتى از   تعل الورد من دماء نعالا
عرفته رماح بكر ، فما يأ   خذن إلا لباته والقذالا
غلبونا — ولا محالة يوما   يقلب الدهر ذاك حالا فحالا

(١) اسم مكان (٢) انتهيت (٣) لا ترجعى (٤) يشير بذلك إلى ذهاب مهلهل إلى اليمن بعد أن دامت الحرب المشهورة أربعين عاما ، واصطلح الحيان جميعا ، وأبى مهلهل أن يقيم بينهم حتى لا يرى قاتل كليب ، فسار إلى اليمن ونزل فى «جنب» من بنى مَذحِج ، فخطب إليه أحدهم ابنته ، فأبى أن يفعل فأجبروه على تزويجها ، وساقوا إليه صداقها جلودا من أدَم ، فقال فى ذلك :

أعزز على تغلب بما لقيت   أخت بنى الأكرمين من جُشَم
أنكحها فقدها الأراقم فى جنـ   ـب ، وكان الحباء من أدَم !
لو بأبانين جاء يخطبها   ضرج ما أنف خاطب بدم
ليسوا بأكفائنا الكرام ، ولا   يغنون من عيلة ولا عدم
أصبحت لا منفساً أصبت ، ولا   أبتْ كريماً حرا من الندم

فَأَخْبِرْنِي : لِمَ سُمِّيتَ مُهَلْهِلاً ؟ فَقَدْ قِيلَ : إِنَّكَ سُمِّيتَ بِذَلِكَ ، لِأَنَّكَ أَوَّلُ مَنْ هَلْهَلَ الشِّعْرَ » أَيْ رَقَّقَهُ ، فَيَقُولُ : « إِنَّ الْكَذِبَ لَكَثِيرٌ ، وَإِنَّمَا كَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ امْرُؤُ الْقَيْسِ ، فَأَغَارَ عَلَيْنَا زُهَيْرُ بْنُ جَنَابِ الْكَلْبِيُّ ، فَتَبِعَهُ أَخِي فِي زَرَافَةٍ(١) مِنْ قَوْمِهِ ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ :

لَمَّا تَوَقَّلَ(٢) فِي الْكُرَاعِ(٣) هَجِينُهُمْ(٤) هَلْهَلْتُ(٥) أَثْأَرُ مَالِكاً أَوْ صِنْبِلاَ

فَسُمِّيَ مُهَلْهِلاً ، فَلَمَّا هَلَكَ شُبِّهْتُ بِهِ ، فَقِيلَ لِي مُهَلْهِلٌ »

فَيَقُولُ : « الْآنَ شَفَيْتَ صَدْرِي بِحَقِيقَةِ الْيَقِينِ ! »

حديثه مع الشنفرى(٦)

. . . . . . وَسَأَلَ عَنِ الشَّنْفَرَى الْأَزْدِيِّ فَأَلْفَاهُ قَلِيلَ

---

(١) جماعة (٢) صعّد أو توغّل أو رقى (٣) الكراع : أنف يتقدم الحرة ممتد ، أي جزء خارج ، والحَرَّةُ كل أرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أحرقت بالنار

(٤) قال أبو العلاء : يعنى بالهجين زهير بن جناب (٥) قال أبو العلاء : « قاربت ، ويقال : توقفت »

(٦) الشنفرى
(قالوا : توفى سنة ٥٤٠ م)

اسمه ثابت بن أوس الأزدى ، موطنه اليمن ، وهو شاعر الأزد ، ومن أشهر عدائى العرب . ومعنى الشنفرى : « العظيم الشفتين » ومن أروع شعره قوله لما أسره « بنو سلامان » وأرادوا قتله ، وقالوا له : « أين نقبرك ؟ » — فقد قال :

لا تقبرونى ، إن قبرى محرّم عليكم ، ولكن أبشرى أمّ عامر
إذا احتُمِلَت رأسى – وفى الرأس أكثرى وغودر عند الملتقى — ثمّ — سائرى
هنالك لا أرجو حياة تسرنى سجيسَ الليالى مبسلاً بالجرائر

التَّشَكِّي[١] وَالتَّأَلُّمِ لِمَا هُوَ فِيهِ ، فَيَقُولُ : « إِنِّي لاَ أَرَاكَ قَلِقاً مِثْلَ قَلَقِ أَصْحَابِكَ ! » فَيَقُولُ : « أَجَلْ ! إِنِّي قُلْتُ بَيْتاً فِي الدَّارِ الْخَادِعَةِ ، فَأَنَا أَتَأَدَّبُ بِهِ ، وَذَلِكَ قَوْلِي :

غَوَى فَغَوَتْ ، ثُمَّ ارْعَوَى[٢] بَعْدُ وَارْعَوَتْ
وَلَلْقَبْرُ — إِنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكْوُ — أَجْمَلُ[٣] »

---

(١) قليل التشكى أى قليل التوجع والتأوه ، و بذلك وصفه قرينه تأبط شرا فى قصيدة جميلة منها :

قليـــل التشكى للمهم يصيبه　　كثير الهوى شتى النوى والمسالك

أى قليل التوجع لما يحزنه ، كثير السفر والتحول من مكان إلى آخر ، وستمر بك القصيدة فى ترجمة « تأبط شراً » فى الصحيفة التالية

(٢) كف ورجع عن الجهل

(٣) هذا البيت من لامية « الشنفرى » المشهورة التى نختار منها قوله :

أُديم مطال الجـــوع حتى أُميته　　وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
واستف ترب الأرض كى لا يرى له　　علىّ من الطـــول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذام لم يلف مشرب　　يعـــاش به إلا لدىّ ومأكل
ولكن نفساً حـــرة لا تقيم بى　　على الضيم إلا ريثما أتحـــول

حديثه مع تأبط شرا[1]

وَإِذَا هُوَ قَرِينٌ مَعَ « تَأَبَّطَ شَرًّا » كَمَا كَانَ فِي الدَّارِ الغَرَّارَةِ ، فَيَقُولُ لِتَأَبَّطَ

---

(١) تأبط شرا (توفى سنة ٥٩٠ م)

كان من أشهر عدّائى العرب وأبصرهم وأشدهم كَيْداً ، وكان ينظر إلى الظباء فيعدو وراء أسمنها فلا تفوته ، قالوا : أشهر عدائى العرب الذين لا تلحقهم الخيل : تأبط شراً ، والشنفرى ، وسُلَيْك بن السُّلَكة ، وعمرو بن براق ، وأسير بن جابر »

قالوا : « وكان تأبط شرا أعدى ذى رجلين وذى ساقين وذى عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء فينتقى — على نظره — أسمنها ثم يجرى خلفه ، فلا يفوته حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ثم يشويه فيأكله . » وقد وصف « تأبط شرا » الغيلان فى شعره كما سيمر بك فى الصحيفة التالية . ومن أجمل ما نختاره من شعره قوله يصف صديقه « الشنفرى » من قصيدة له :

قليل التشكى للمهم[1] يصيبه ... كثير الهوى ، شتى النوى[2] والمسالك
يظل بموماة[3] ، ويمسى بغيرها ... جحيشاً[4] ، ويعروري[5] ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح ، من حيث ينتحى[6] ... بمنخرق[7] من شده[8] المتدارك[9]
إذا حاص[10] عينيه كرى النوم ، لم يزل ... له كالئ[11] من قلب شيحان[12] فاتك
ويجعل عينيه ربيئة[13] قلبه ... إلى سله من حد أخلق[14] صائك[15]
إذا هزه فى عظم قرن تهللت ... نواجذ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الأنس الأنيس ، ويهتدى ... بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك[16]

---

(١) المحزن (٢) السفر أو التحول من مكان الى آخر (٣) مفازة واسعة (٤) منفردا (٥) يركب (٦) يميل فى كل وجه (٧) حيث تهب الريح (٨) إسراعه (٩) المتلاحق بعضه ببعض (١٠) حاص: خاط ، والمعنى هنا : «اذا اشتبكت أهداب جفونه وأخذ الكرى بمعاقدها» (١١) حافظ (١٢) حذر . أو شهم غيور على الحرم . والمعنى أن قلبه اليقظ يحرسه حين ينام (١٣) رائدا ، واصل الربيئة الرجل ينتظر العدو على جبل أو مكان عال لئلا يدهم قومه (١٤) أملس مصمت (١٥) لاصق ، والمعنى هنا : أن سيفه مضرج بالدم (١٦) المجرة . وانما سميت كذلك لاجتماع النجوم فيها واشتباك بعضها ببعض . والمعنى أنه يهتدى بالنجوم فى الليل

شَرًّا : « أَحَقٌّ مَا رُوِىَ عَنْكَ مِنْ نِكَاحِ الْغِيلَانِ (١) ؟ » فَيَقُولُ : « لَقَدْ كُنَّا

ومما يروونه عنه أنه لقى — ذات يوم — رجلا من « ثقيف » يقال له : « أبو وهب » كان جبانا أهوج وعليه حلة جيدة ؛ فقال « أبو وهب » لتأبط شرا : « بم تغلب الرجال يا ثابت ، وأنت كما أرى دميم ضئيل ؟ » قال : « باسمى ، إنما أقول ساعة ما ألقى الرجل : أنا تأبط شرا ، فينخلع قلبه ، حتى أنال منه ما أردت ! »

فقال له الثقفى : « أقطُّ ؟ » قال : « قط ! »

قال : « فهل لك أن تبيعنى اسمك ؟ » قال : « نعم ، فبم تبتاعه ؟ » قال : « بهذه الحلة وبكنيتى » قال له : « افعل » ففعل ، وقال له تأبط شرا : « لك اسمى ولى كنيتك » وأخذ حلته وأعطاه طمريه ثم انصرف ؛ وقال فى ذلك يخاطب زوجة الثقفى :

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها   تأبط شرا واكتنيت « أبا وهب » ؟
فهبه تسمى اسمى وسميت باسمه ،   فأين له صبرى على معظم الخطب ؟
وأين له بأس كبأسى وسورتى   وأين له فى كل فادحة قلبى !

(١) ذاع عن « تأبط شراً » لقاء الغيلان ونكاحهم والحرب معهم ، وقد رووا عنه أشعاراً مختلفة فى ذلك وأخباراً هى أقرب إلى الأساطير والخيال منها إلى الحقيقة ، فمن شعره فى الغيلان قوله من قصيدة :

وانى قد لقيت الغول تهوى   بسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها : « كلانا نضو أيْنٍ   أخو سفر ، فخلِّى لى مكانى »
فشدت شدة نحوى ، فأهوى   لها كفى بمصقول يمانى
فأضربها بلا دهش فخرت   صريعا لليدين وللجران
فقالت : « عد » : فقلت لها : « رويداً   مكانكِ ! إننى ثبت الجنان »
فلم أنفك متكئاً عليها   لأنظر مصبحا ، ماذا أتانى
إذا عينان فى رأس قبيح   كرأس الهر مشقوق اللسان
وساقا مُخْدَج ، وشواة كلب   وثوب من عباء أو شنان

فِى الْجَاهِلِيَّةِ نَتَقَوَّلُ وَنَتَخَرَّصُ(١) ، فَمَا جَاءَكَ مِمَّا يُنْكِرُهُ الْمَعْقُولُ(٢) ، فَإِنَّهُ مِنَ الْأَكَاذِيبِ. وَالزَّمَنُ كُلُّهُ عَلَى سَجِيَّةٍ وَاحِدَةٍ(٣) ، فَالَّذِى شَاهَدَهُ مَعَدُّ بْنُ عَدْنَانَ كَالَّذِى شَاهَدَهُ نُضَاضَةُ(٤) وَلَدِ آدَمَ »

فَيَقُولُ الشَّيْخُ : « نُقِلَتْ إِلَيْنَا أَبْيَاتٌ تُنْسَبُ إِلَيْكَ :

أَنَا الَّذِى نَكَحَ الْغِيلَانَ فِى بَلَدٍ ... مَا طَلَّ(٥) فِيهَا سِمَاكِىٌّ وَلَا جَادَا

فِى حَيْثُ لَا يَعْمِتُ الْغَادِى عَمَايَتَهُ ... وَلَا الظَّلِيمُ بِهِ يَبْغِى تَهَبَّادَا(٦)

وَقَدْ لَهَوْتُ بِمَصْقُولٍ عَوَارِضُهَا ... بِكْرٍ تُنَازِعُنِى كَأْسًا وَعِنْقَادًا(٧)

ثُمَّ انْقَضَى عَصْرُهَا عَنِّى وَأَعْقَبَهُ ... عَصْرُ الْمَشِيبِ، فَقُلْ فِى صَالِحٍ بَادَا»

فَاسْتَدْلَلْتُ عَلَى أَنَّهَا لَكَ لَمَّا قُلْتَ : « تَهَبَّاداً »

فَقُلْتُ هَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ فِى الْقَافِيَةِ :

« طَيْفُ ابْنَةِ الْحُرِّ — إِذْ كُنَّا نُوَاصِلُهَا —

ثُمَّ اجْتُنِنْتُ بِهَا بَعْدَ التِّفِرَّاقِ(٨) »

فَلَا يُجِيبُهُ تَأَبَّطَ شَرًّا بِطَائِلٍ

---

(١) نكذب (٢) المعقول : العقل ، كالمجهود بمعنى الجهد ، والمعسور بمعنى العسر ، وما إلى ذلك من المصادر التى جاءت على زنة مفعول . (٣) فى هذا المعنى يقول أبو العلاء فى سقط الزند :

ألا إنما الأيام أبناء واحد ... وهذى الليالى كلها أخوات

فلا تطلبن من عند يوم وليلة ... خلاف الذى مرت به السنوات

(٤) قال أبو العلاء : « النُّضَاضَة : آخر ولد الرجل » (٥) لم يصبها الطل — وهو المطر الضعيف (٦) المعنى : لا يظفر فيها فرخ النعام بالهبيد « الحنظل » ليأكله (٧) عنقودا (٨) التفرق

الفصل السادس

عودة إلى الفردوس

حديثه مع آدم

فَإذَا رَأَى(١) قِلَّةَ الْفَوَائِدِ لَدَيْهِمْ ، تَرَكَهُمْ فِي الشَّقَاءِ السَّرْمَدِ ، وَعَمَدَ لِمَحَلِّهِ فِي الْجِنَانِ ، فَيَلْقَى آدَمَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — فِي الطَّرِيقِ ، فَيَقُولُ : « يَا أَبَانَا ، صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ ، قَدْ رُوِيَ لَنَا عَنْكَ شِعْرٌ مِنْهُ قَوْلُكَ :

نَحْنُ بَنُو الْأَرْضِ وَسُكَّانُهَا ... مِنْهَا خُلِقْنَا وَإِلَيْهَا نَعُودْ

وَالسَّعْدُ لَا يَبْقَى لِأَصْحَابِهِ ... وَالنَّحْسُ تَمْحُوهُ لَيَالِي السُّعُودْ »

فَيَقُولُ : « إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ حَقٌّ ، وَمَا نَطَقَهُ إِلَّا بَعْضُ الْحُكَمَاءِ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَسْمَعْ بِهِ حَتَّى السَّاعَةَ » فَيَقُولُ : « فَلَعَلَّكَ يَا أَبَانَا قُلْتَهُ ثُمَّ نَسِيتَ ، فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ النِّسْيَانَ مُتَسَرِّعٌ إِلَيْكَ ، وَحَسْبُكَ شَهِيدًا عَلَى ذَلِكَ الْآيَةُ الْمَتْلُوَّةُ فِي قُرْآنِ مُحَمَّدٍ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ — : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ ، فَنَسِيَ(٢) وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّكَ سُمِّيتَ إِنْسَانًا لِنِسْيَانِكَ ، وَاحْتَجَّ(٣) عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ فِي التَّصْغِيرِ « أُنَيْسِيَانٌ » وَفِي الْجَمْعِ أَنَاسِيٌّ ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مِنَ النِّسْيَانِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَقَالَ الطَّائِيُّ :

---

(١) أى ابن القارح (٢) وفى ذلك يقول أبو العلاء :

احتج فى الغى بالنسيان والدهم ... وقد غووا ــ بادكار ــ لا أقول : نسوا

(٣) أتى بالحجة

« لاَ تَنْسَيَنْ تِلْكَ الْعُهُودَ، وَإِنَّمَا سُمِّيتَ إِنْسَانًا لِأَنَّكَ نَاسِى »

فَيَقُولُ آدَمُ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — : « أَبَيْتُمْ إِلاَّ عُقُوقًا وَأَذِيَّةً، إِنَّمَا كُنْتُ أَتَكَلَّمُ الْعَرَبِيَّةَ، وَأَنَا فِى الْجَنَّةِ، فَلَمَّا هَبَطْتُ الْأَرْضَ نُقِلَ لِسَانِى إِلَى السُّرْيَانِيَّةِ فَلَمْ أَنْطِقْ بِغَيْرِهَا إِلَى أَنْ هَلَكْتُ، فَلَمَّا رَدَّنِى اللهُ — سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — إِلَى الْجَنَّةِ عَادَتْ عَلَىَّ الْعَرَبِيَّةُ، فَأَىَّ حِينٍ نَظَمْتُ هَذَا الشِّعْرَ، فِى الْعَاجِلَةِ أَمِ الْآجِلَةِ؟ وَالَّذِى قَالَ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ قَالَهُ وَهُوَ فِى الدَّارِ الْمَاكِرَةِ، أَلاَ تَرَى قَوْلَهُ: « مِنْهَا خُلِقْنَا وَإِلَيْهَا نَعُودُ »؟ فَكَيْفَ أَقُولُ هَذَا الْمَقَالَ وَلِسَانِى سُرْيَانِىٌّ؟ وَأَمَّا الْجَنَّةُ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مِنْهَا فَلَمْ أَكُنْ أَدْرِى بِالْمَوْتِ فِيهَا، وَأَنَّهُ مِمَّا حُكِّمَ عَلَى الْعِبَادِ، وَأَمَّا بَعْدَ رُجُوعِى إِلَيْهَا فَلاَ مَعْنَى لِقَوْلِى: « وَإِلَيْهَا نَعُودُ » لِأَنَّهُ كَذِبٌ لاَ مَحَالَةَ، وَنَحْنُ مَعَاشِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَالِدُونَ مُخَلَّدُونَ! »

فَيَقُولُ: « إِنَّ بَعْضَ أَهْلِ السِّيَرِ يَزْعُمُ أَنَّ هَذَا الشِّعْرَ وَجَدَهُ يَعْرُبُ فِى مُتَقَدِّمِ الصُّحُفِ السُّرْيَانِيَّةِ، فَنَقَلَهُ إِلَى لِسَانِهِ، وَهَذَا لاَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ، وَكَذَلِكَ يَرْوُونَ لَكَ — صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ — لَمَّا قَتَلَ قَابِيلُ هَابِيلَ:

تَغَيَّرَتِ الْبِلاَدُ وَمَنْ عَلَيْهَا ... فَوَجْهُ الْأَرْضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحُ

وَأَوْدَى رُبْعُ أَهْلِيهَا فَبَانُوا ... وَغُودِرَ فِى الثَّرَى الْوَجْهُ الْمَلِيحُ

فَيَقُولُ آدَمُ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — : « أَعْزِزْ عَلَىَّ بِكُمْ مَعْشَرَ أَبْنِىَّ! إِنَّكُمْ فِى الضَّلاَلَةِ مُتَهَوِّكُونَ(١)! آلَيْتُ(٢) مَا نَطَقْتُ هَذَا النَّظِيمَ وَلاَ

(١) متهوكون أو متحيرون، أى أنكم واقعون فى الضلالة بغير مبالاة ولاروية، خابطون فيها على غير هدى (٢) أقسمت

نُطِقَ فى عَصْرِى ، وَإِنَّمَا نَظَمَهُ بَعْضُ الْفَارِغِينَ ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ! كَذَبْتُمْ عَلَى خَالِقِكُمْ وَرَبِّكُمْ ، ثُمَّ عَلَى آدَمَ أَبِيكُمْ ، ثُمَّ عَلَى حَوَّاءَ أُمِّكُمْ ، وَكَذَبَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ! »

حديثه مع ذات الصفا

ثُمَّ يَضْرِبُ(١) سائِرًا فى الْفِرْدَوْسِ ، فَإِذَا هُوَ بِرَوْضَةٍ مُؤْنِقَةٍ ، وَإِذَا هُوَ بِحَيَّاتٍ يَلْعَبْنَ ، فَيَقُولُ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ! وَمَا تَصْنَعُ حَيَّةٌ فى الْجَنَّةِ ؟ » فَيُنْطِقُهَا اللهُ — جَلَّتْ عَظَمَتُهُ — بَعْدَ ما أَلْهَمَها الْمَعْرِفَةَ بِهاجِسِ الْخَلَدِ، فَتَقُولُ : « أَمَا سَمِعْتَ فِى عُمُرِكَ بِذَاتِ الصَّفا ، الْوَافِيَةِ لِصَاحِبٍ ما وَفَى ، كَانَتْ تَنْزِلُ بِوَادٍ خَصِيبٍ ، وَكَانَتْ تَصْنَعُ إِلَيْهِ الْجَمِيلَ فِى وِرْدِ الظَّاهِرَةِ(٢) وَالْغِبِّ ، فَلَمَّا ثَمَّرَ بِوُدِّهَا مَا لَهُ ، ذَكَرَ عِنْدَهَا ثَارَهُ ، وَوَقَفَ عَلَى صَخْرَةٍ ، وَهَمَّ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْهَا بِأَخَرَةٍ(٣) ، وَكَانَ أَخُوهُ مِمَّنْ قَتَلَتْهُ — فَضَرَبَهَا ، فَلَمَّا وُقِيَتْ ضَرْبَةَ فَاسِهِ — وَالْحِقْدُ يُمْسِكُ بِأَنْفَاسِهِ — نَدِمَ عَلَى مَا صَنَعَ أَشَدَّ النَّدَمِ ، وَقَالَ لِلْحَيَّةِ مُخَادِعًا : «هَلْ لَكِ أَنْ نَكُونَ خَلِيلَيْنِ ؟ » وَدَعَاهَا بِالسَّفَهِ إِلَى حِلْفٍ ، فَقَالَتْ : « لَا أَفْعَلُ ، إِنِّى أَجِدُكَ فَاجِرًا مَسْحُورًا(٤) تَأْبَى لِى صَكَّةٌ(٥) فَوْقَ الرَّأْسِ ، وَيَمْنَعُكَ مِنْ أَرَبِكَ قَبْرٌ مَحْفُورٌ(٦) .

---

(١) أى ابن القارح (٢) الظاهرة الإبل الواردة كل يوم نصف النهار (٣) آخر كل شىء

(٤) مفسداً مخادعاً (٥) ضربة شديدة (٦) يرجع من يريد التوسع فى هذه القصة إلى ص ٦٨ ج ٣ من كتاب الحيوان للجاحظ وص ٧٧ ج ٢ من مجمع الأمثال وص ٤٨ من ديوان النابغة

وَقَدْ وَصَفَ ذلِكَ نابغةُ بَنِى ذُبْيانَ ، فَقَالَ :

وَإِنِّى لَأَلْقَى مِنْ ذَوِى الضِّغْنِ مِنْهُمُ وَمَا أَصْبَحَتْ تَشْكُو مِنَ الْبَثِّ سَاهِرَهْ
كَمَا لَقِيَتْ ذَاتُ الصَّفَا مِنْ حَلِيفِهَا وَكَانَتْ تُرِيهِ الْمَالَ غِبًّا وَظَاهِرَهْ
فَلَمَّا رَأَى أَنْ ثَمَّرَ اللهُ مَالَهُ[١] فَأَصْبَحَ مَسْرُورًا ، وَسَدَّ مَفَاقِرَهْ[٢]
أَكَبَّ[٣] عَلَى فَأْسٍ يُحِدُّ غُرَابَهَا[٤] مُذَكَّرَةٍ مِنَ الْمَعَاوِلِ بَاتِرَهْ
وَقَامَ عَلَى جُحْرٍ لَهَا فَوْقَ صَخْرَةٍ لِيَقْتُلَهَا أَوْ تُخْطِئَ الْكَفُّ بَادِرَهْ
فَلَمَّا وَقَاهَا اللهُ ضَرْبَةَ فَأْسِهِ وَلِلْبِرِّ عَيْنٌ لَا تُغَمِّضُ نَاظِرَهْ
فَقَالَ : « تَعَالَىْ ، نَجْعَلِ اللهَ بَيْنَنَا عَلَى مَا لَنَا ، أَوْ تُنْجِزِى لِىَ آخِرَهْ[٥] »
فَقَالَتْ : « مَعَاذَ اللهِ أَفْعَلُ[٦] ، إِنَّنِى رَأَيْتُكَ مَسْحُورًا ، يَمِينُكَ فَاجِرَهْ
أَبَى لِىَ قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُقَابِلِى وَضَرْبَةُ فَأْسٍ فَوْقَ رَأْسِىَ فَاقِرَهْ[٧] »

٭ ٭ ٭

وَتَقُولُ حَيَّةٌ أُخْرَى : « إِنِّى كُنْتُ أَسْكُنُ فِى دَارِ الْحَسَنِ الْبَصْرِىِّ ، فَيَتْلُو الْقُرْآنَ لَيْلًا ، فَتَلَقَّيْتُ الْكِتَابَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ .

وَيَهْكُرُ[٨] أزلفه اللهُ مَعَ الْأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ لِمَا سَمِعَ مِنْ تِلْكَ الْحَيَّةِ ، فَتَقُولُ هِىَ : « أَلَا تُقِيمُ عِنْدَنَا بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ ! فَإِنِّى إِذَا شِئْتُ انْتَفَضْتُ مِنْ إِهَابِى[٩] ، فَصِرْتُ مِثْلَ أَحْسَنِ غَوَانِى الْجَنَّةِ ، لَوْ تَرَشَّفْتَ رُضَابِى[١٠] لَعَلِمْتَ أَنِّى أَفْضَلُ

---

(١) نماه وكثره (٢) سد مفاقره أى اغتنى وسد وجوه فقره (٣) أقبل ولزمه
(٤) حدها (٥) نشهد الله على تحالفنا (٦) أى أقسمت لا أفعل (٧) الفاقرة : الداهية التى تكسر الفقار وهو ما تنضد من عظام الصلب من لدن الكاهل الى العجز أى خرزات الظهر ، ومعناها هنا شديدة محطمة (٨) يشتد عجبه (٩) جلدى (١٠) ريق المرشوف

مِنَ الدِّرْيَاقَةِ(١) الَّتِي ذَكَرَها ابْنُ مُقْبِلٍ(٢) في قَوْلِهِ :

سَقَتْنِي بِصَهْبَاءَ دِرْيَاقَةٍ ... مَتَى مَا تُلَيِّنْ(٣) عِظَامِي تَلِنْ(٤)

فَيُذْعَرُ مِنْهَا وَيَذْهَبُ مُهَرْوِلًا في الْجَنَّةِ ، وَيَقُولُ في نَفْسِهِ : « كَيْفَ يُرْكَنُ إِلَى حَيَّةٍ ؟ » فَتُنَادِيهِ : « هَلُمَّ إِنْ شِئْتَ اللَّذَّةَ ، لَوْ أَقَمْتَ عِنْدَنَا إِلَى أَنْ تَخْبُرَ وُدَّنَا وَإِنْصَافَنَا ، لَنَدِمْتَ إِنْ كُنْتَ في الدَّارِ الْعَاجِلَةِ قَتَلْتَ حَيَّةً أَوْ عُثْمَانًا(٥) » فَيَقُولُ : « لَقَدْ ضَيَّقَ اللهُ عَلَيَّ مَرَاشِفَ الْحُورِ الْحِسَانِ إِنْ رَضِيتُ بِتَرَشُّفِ هَذِهِ الْحَيَّةِ » !

عود إلى حوريته

فَإِذَا ضَرَبَ في غِيطَانِ الْجَنَّةِ لَقِيَتْهُ الْجَارِيَةُ(٦) الَّتِي خَرَجَتْ مِنْ تِلْكَ الثَّمَرَةِ ، فَتَقُولُ : « إِنِّي لَأَنْتَظِرُكَ مُنْذُ حِينٍ ، فَمَا الَّذِي شَجَنَكَ(٧) عَنِ الْمَزَارِ ؟ مَا طَالَتِ الْإِقَامَةُ مَعَكَ ، فَأُمِلَّ بِالْمُحَاوَرَةِ مَسْمَعَكَ ! » فَيَقُولُ : « كَانَتْ فِي نَفْسِي مَآرِبُ مِنْ مُخَاطَبَةِ أَهْلِ النَّارِ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ مِنْ ذَلِكَ وَطَرًا عُدْتُ إِلَيْكِ ، فَاتَّبِعِينِي بَيْنَ كُثُبِ الْعَنْبَرِ وَأَنْقَاءِ(٨) الْمِسْكِ » فَيَتَخَلَّلُ بِهَا أَهَاضِيبَ الْفِرْدَوْسِ ، وَرِيَاضَ الْجِنَانِ ، فَتَقُولُ : « أَيُّهَا الْعَبْدُ الْمَرْحُومُ ، أَظُنُّكَ تَحْتَذِي بِي فِعَالَ الْكِنْدِيِّ(٩) في قَوْلِهِ :

---

(١) الدرياقة هنا : الخمر ، وأصل معناها : دواء السم (٢) تقدمت ترجمة ابن مقبل في ص ٦٦ من هذا الجزء ، وهو تميم بن أبيّ بن مقبل ، فراجع إن شئت .

(٣) تجعل عظامي لينة (٤) يقال : لينته ، فلَانَ لي (٥) العثمان : فرخ الثعبان

(٦) ارجع إلى عنوان « حدائق الحور » في ص ١٠١ من هذا الجزء (٧) حبسك أو منعك (٨) جمع نقا ، وهي القطعة من الرمل تنقاد محدودبة (٩) امرىء القيس

فَقُمْتُ بِهَا أَمْشِى ، تَجُرُّ وَرَاءنَا عَلَى أَثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ(١) مُرَحَّلِ(٢)
فَلَمَّا أَجَزْنَا(٣) سَاحَةَ الْحَىِّ(٤) وانْتَحَى بِنَا بَطْنُ(٥) خَبْتٍ(٦) ذِى حِقَافٍ(٧) عَقَنْقَلِ(٨)
هَصَرْتُ(٩) بِفَوْدَىْ رَأْسِهَا(١٠) فَتَمَايَلَتْ عَلَىَّ هَضِيمَ الْكَشْحِ(١١) رَيَّا الْمُخَلْخَلِ(١٢)

فَيَقُولُ : « الْعَجَبُ لِقُدْرَةِ اللهِ ! لَقَد أَصَبْتِ مَا خَطَرَ فِى السُّوَيْدَاءِ(١٣) فَمِنْ أَيْنَ لَكِ عِلْمٌ بِالْكِنْدِىِّ ، وَإِنَّمَا نَشَأْتِ فِى ثَمَرَةٍ تُبْعِدُكِ مِنْ جِنٍّ وَأَنِيسٍ ؟ » فَتَقُولُ : « إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ! »

*
* *

وَيَعْرِضُ لَهُ حَدِيثُ امْرِئِ الْقَيْسِ فِى دَارَةِ جُلْجُلٍ(١٤) ، فَيُنْشِئُ اللهُ

---

(١) المرط : كساء من خز أو صوف ، وقد تسمى الملاءة مرطاً (٢) منقش بنقوش تشبه رحال الابل ، ومعنى البيت أنها حين صحبتنى أخذت تجر مرطها على آثار أقدامنا لتعفيها به فى أثناء سيرنا (٣) قطعنا (٤) فناء الحى أو رحبته (٥) البطن : مكان مطمئن حوله أمكنة مرتفعة (٦) الخبت : الأرض المطمئنة (٧) جمع حقف ، وهو رمل مشرف معوج

(٨) العقنقل : المنعقد المتلبد من الرمل . ومعنى البيت : لما جاوزنا فناء الحى وصرنا الى أرض مطمئنة تحيط بها مرتفعات وتلال من الرمل الخ (٩) جذبت (١٠) جانبى رأسها

(١١) ضامرة الكشح ، وهو منقطع الأضلاع (١٢) المخلخل : موضع الخَلْخَال من الساق ، وريا المخلخل : معناها هنا : كثيرة لحم الساقين ممتلئتهما ، ومعنى البيت : « أنه جذب اليه ذؤابتيها فمالت اليه » ثم أخذ فى وصفها فقال : « إنها ضامرة الكشح ، ممتلئة الساقين »

(١٣) حبة القلب ، أى أصبت ما فى نفسى (١٤) يشير الى قصته مع حبيبته (ابنة عمه عنيزة) والنساء فى دارة جلجل ، وقد ذكر تلك القصة فى معلقته فقال :

ألا ربّ يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل الخ

وقد امتلأت بها كتب الأدب ، فلا حاجة الى ذكرها هنا ، وارجع الى ص ٥ و ٦ و ٩٦ و ٩٧ و ٩٨ و ١٤٠ و ١٤١ من هذا الجزء ليكمل لك حديث امرىء القيس

— جَلَّتْ عظَمَتُهُ — حُوراً يتماقلْنَ[1] فِى نَهْرٍ مِنْ أَنْهارِ الْجَنَّةِ ، وَفِيهِنَّ من تَفَضَّلْهُنَّ ، كَصاحِبَةِ امْرِئِ الْقيْسِ ، فَيترامَيْنَ بِالتَّرْمَدِ — وَإِنَّما هُوَ كَأَجَلِّ طِيبِ الْجَنَّةِ — وَيعقِرُ لَهُنَّ الرَّاحِلَةَ[2] فيأْكلُ وَيأْكُلْنَ مِنْ بَضِيعِها[3] ما لَيْسَ تَقعُ الصِّفَةُ عَلَيْهِ مِنْ إِمْتاعٍ وَلَذاذَةٍ .

جنـــة الرُّجَّـز

وَيَمُرُّ بِأَبْياتٍ لَيْسَ لَها سُمُوقُ[4] أَبْياتِ الْجَنَّةِ ، فيَسْأَلُ عَنْها ، فَيُقالُ : «هذِهِ جَنَّةُ الرُّجَّزِ[5] » فيَقُولُ : « تبارَكَ الْعَـــزِيزُ الْوَهَّابُ ، لَقدْ صَدَقَ الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعالِىَ الْأُمُورِ وَيكْرَهُ سَفْسافَها » وَإِنَّ الرَّجَزَ لَمِنْ سَفْسافِ الْقَرِيضِ[6] قَصَّرْتُمْ أَيُّها النَّفَرُ فَقُصِّرَ بِكُمْ ! »

وَيَعْرِضُ لَهُ رُؤْبَةُ فيَقُولُ : «يا أَبا الْجَحَّافِ ! ما كانَ أَكْلَفَكَ[7] بِقَوافٍ لَيْسَتْ بِالْمُعْجِبَةِ ، تَصْنَعُ رَجَزاً عَلَى الْغَيْنِ ، وَرَجَزاً عَلَى الطَّاءِ ، وَعَلَى الظَّاءِ ، وَعَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحُرُوفِ النَّافِرَةِ ، وَلَمْ تَكُنْ صاحِبَ مَثَلٍ مَذْكُورٍ ، وَلا لَفْظٍ يُسْتَحْسَنُ ! » فَيَغْضَبُ رُؤْبَةُ[8] وَيَقُولُ : « أَلِى تَقُولُ هَذَا ؟ وَعَنِّى أَخَذَ الْخَلِيلُ

وقد أشار أبو العلاء الى هذه الحادثة فى لزومياته ، فى قوله :

أين امرؤ القيس والعـــذارى إذ مال من تحتـــه الغبيط ؟

(١) يسبحن ويغطسن (٢) الراحلة : النجيب الصالح لأن يرحل من الإبل ، والقوى على الأسفار ، وهو يشير بذلك إلى قول امرئ القيس : « ويوم عقرت للعذارى مطيتى »

(٣) لحمها (٤) ارتفاع (٥) الرُّجَّز : جمع راجز (٦) ارجع إلى (ص١٤١و١٤٢) من هذا الجزء ليتضح لك رأى أبى العلاء فى الرجز (٧) أى ما كان أشد حبك وولعك

(٨) رؤبة بن العجاج (توفى سنة ١٤٥ هـ)

هو رؤبة بن عبد الله البصرى التميمى . كنيته أبو محمد ، (وأصل الرؤبة القطعة من

وَكَذَلِكَ أَبُو عَمْرِو بْنُ الْعَلَاءِ ، وَقَدْ غَبَرْتَ[١] فِى الدَّارِ السَّالِفَةِ تَفْتَخِرُ بِاللَّفْظَةِ تَقَعُ إِلَيْكَ ، مِمَّا نَقَلَهُ اولَئِك عَنِّى وَعَنْ أَشْبَاهِى ؟ » فَإِذَا رَأَى مَا فِى رُؤْبَةَ مِنَ الانْتِخَاءِ[٢] قَالَ : « لَوْ شِبْكَ رَجَزُكَ وَرَجَزُ أَبِيكَ لَمْ تَخْرُجْ مِنْهُ قَصِيدَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ ، وَلَقَدْ كُنْتَ تَأْخُذُ جَوَائِزَ الْمُلُوكِ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ ، وَإِنَّ غَيْرَكَ أَوْلَى بِالْأَعْطِيَةِ وَالصِّلَاتِ » فَيَقُولُ رُؤْبَةُ : « أَلَيْسَ رَئِيسُكُمْ فِى الْقَدِيمِ ، وَالَّذِى ضَهَلَتْ[٣] إِلَيْهِ الْمَقَايِيسُ ، كَانَ يَسْتَشْهِدُ بِقَوْلِى وَيَجْعَلُنِى لَهُ كَالإِمَامِ[٤] ؟ »

فَيَقُولُ : « لَا فَخْرَ لَكَ أَنِ اسْتَشْهَدَ بِكَلَامِكَ ، فَقَدْ وَجَدْنَاهُمْ يَسْتَشْهِدُونَ بِكَلَامِ أَمَةٍ وَكْعَاءَ[٥] ، وَكَمْ رَوَى النُّحَاةُ عَنْ طِفْلٍ مَا لَهُ فِى الْأَدَبِ » فَيَقُولُ رُؤْبَةُ : « اجِئْتَ لِخِصَامِنَا فِى هَـذَا الْمَنْزِلِ ؟ فَامْضِ لِطِيَّتِكَ[٦] فَقَدْ أَخَذْتَ بِكَلَامِنَا مَا شَاءَ اللهُ ! » فَيَقُولُ : « أَقْسَمْتُ مَا يَصْلُحُ كَلَامُكُمْ لِلثَّنَاءِ ، تَصُكُّونَ مَسَامِعَ الْمُمْتَدَحِ بِالْجَنْدَلِ ، وَمَتَى خَرَجْتُمْ عَنْ صِفَةِ جَمَلٍ تَرْثُونَ لَهُ مِنْ طُولِ الْعَمَلِ ، إِلَى صِفَةِ فَرَسٍ أَوْ كَلْبٍ ، فَإِنَّكُمْ غَيْرُ الرَّاشِدِينَ ! » — فَيَقُولُ رُؤْبَةُ : « إِنَّ اللهَ — سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — قَالَ « يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ[٧] فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ[٨] » وَإِنَّ كَلَامَكَ لَمِنَ اللَّغْوِ ! »

الخشب يشعب بها الإناء) واسم أبيه العجاج ، اشتهر كما اشتهر أبوه من قبله بالرجز ، وستمر بك ترجمة أبيه فى ص ١٩١

(١) مكثت أو ظللت (٢) التكبر والتعاظم (٣) ضهل إليه : رجع (٤) لعل المراد : الخليل بن أحمد ، فقد وضع مقاييس الشعر (٥) حمقاء ، وقيل الوكعاء هى التى تسقط وجعا

(٦) أى امض لنيتك التى انتويتها ، أو اذهب إلى الناحية التى كنت تقصدها وامض الى سبيلك (٧) اللغو : ما لا يعتد به من الكلام ، أو القول الباطل الذى يصدر لا عن روية وفكر (٨) فعل ما لا يحل

فإذا طالتِ المُخَاطَبَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رُؤْبَةَ ، سَمِعَ العَجَّاجُ(١) ، فجاء يَسْأَلُ المُحَاجَزَةَ(٢)

متاع الخلد

وَيذكُرُ الشَّيْخُ مَا كَانَ يَلْحَقُ أَخَا النَّدَامِ ، مِنْ فُتُورٍ فِي الْجَسَدِ مِنَ المُدَامِ ، فَيَخْتَارُ أَنْ يَعْرِضَ لَهُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْزَفَ(٣) لَهُ لُبٌّ

فَإِذَا هُوَ يَخَالُ فِي العِظَامِ النَّاعِمَةِ دَبِيبَ نَمْلٍ ، أَسْرَى فِي المُقْمِرَةِ عَلَى رَمْلٍ ، فَيَتَرَنَّمُ بِقَوْلِ إِيَاسِ بْنِ الأَرَتِّ :

أَعَاذِلَ : لَوْ شَرِبْتِ الخَمْرَ حَتَّى ... يَظَلَّ لِكُلِّ أَنْمُلَةٍ دَبِيبُ
إِذاً لَعَذَرْتِنِي وَعَلِمْتِ أَنِّي ... — لِمَا أَتْلَفْتُ مِنْ مَالِي — مُصِيبُ

وَيَتَّكِئُ عَلَى مَفْرَشٍ مِنَ السُّنْدُسِ ، وَيَأْمُرُ بِالْحُورِ العِينِ أَنْ يَحْمِلْنَ ذَلِكَ المَفْرَشَ فَيَضَعْنَهُ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ سُرُرِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ زَبَرْجَدٌ أَوْ عَسْجَدٌ فَيُكَوِّنُ البَارِئُ فِيهِ حَلَقاً مِنَ الذَّهَبِ تُطِيفُ(٤) بِهِ مِنْ كُلِّ الأَشْرَاءِ(٥) ، حَتَّى يَأْخُذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الغِلْمَانِ ، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الجَوَارِي المُشْتَبِهَةِ بِالجُمَانِ(٦) ، وَاحِدَةً مِنْ تِلْكَ الحَلَقِ . فَيُحْمَلُ عَلَى تِلْكَ الحَالِ إِلَى مَحَلِّهِ المُشَيَّدِ بِدَارِ الخُلُودِ فَكُلَّمَا مَرَّ بِشَجَرَةٍ نَضَخَتْهُ(٧) أَغْصَانُهَا بِمَاءِ الوَرْدِ قَدْ خُلِطَ بِمَاءِ الكَافُورِ

---

(١) العجاج (توفى سنة ٩٠ هـ)

هو عبد الله بن رؤبة . كنيته أبو الشعثاء . وهو أبو رؤبة الرجاز المشهور وقد مرت ترجمته فى ص ١٨٩ ، وكلاهما نال درجة رفيعة وشهرة واسعة فى الرجز ، وقد ترك كل منهما ديواناً ليس فيه إلا أراجيز (٢) المسالمة (٣) من غير أن يذهب له عقل (٤) تحيط به (٥) الأنحاء ، مفردها شرى (٦) اللؤلؤ (٧) رشته ، كنضحته

وَ بِمِسْكٍ مَا جُنِيَ مِنْ دِمَاءِ الْفُورِ[١] ، بَلْ هُوَ بِتَقْدِيرِ اللهِ الْكَرِيمِ .

*
* *

وَتُنَادِيهِ الثَّمَرَاتُ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، وَهُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَى الظَّهْرِ : « هَلْ لَكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ هَلْ لَكَ ؟ » فَإِذَا أَرَادَ عُنْقُوداً مِنَ الْعِنَبِ أَوْ غَيْرِهِ ، انْقَضَبَ[٢] مِنَ الشَّجَرَةِ بِمَشِيئَةِ اللهِ ، وَحَمَلَتْهُ الْقُدْرَةُ إِلَى فِيهِ ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ يَلْقَوْنَهُ بِأَصْنَافِ التَّحِيَّةِ . وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ !

﴿ تمت رواية الغفران ﴾

وانتهى الجزء الثانى

---

(١) الفور : الظباء (جمع فائر) ومن دمائها يخرج المسك ، قال المتنبي :

فإن تفق الأنام — وأنت منهم — فإن المسك بعض دم الغـــزال

(٢) انقطع

الجزء الثالث

القسم الثانى من الرسالة

الرد على رسالة ابن القارح

القسم الثانى

الرد على رسالة ابن القارح(1)

قال أبو العلاء :

« وقد أطلت فى هذا الفصل(2) ، ونعود الآن إلى الإجابة على الرسالة »

وفاء ابن القارح

فَهِمْتُ قَوْلَهُ : « جَعَلَنِى اللهُ فِدَاءَهُ » لاَ يَذْهَبُ بِهِ إِلَى النِّفَاقِ(3) — وَبَعُدَ ابْنُ آدَمَ مِنَ الْوِفَاقِ — وَهَذِهِ غَرِيزَةٌ خُصَّ بِهَا الشَّيْخُ دُونَ غَيْرِهِ ، وَتَعَايَشَ الْعَالَمُ بِخِدَاعٍ ، وَأَضْحَوْا مِنَ الْكَذِبِ فِى إِبْدَاعٍ(4) .

شيرين وكسرى

لَوْ قَالَتْ شِيرِينُ الْمَلِكَةُ لِكِسْرَى : «جَعَلَنِى اللهُ فِدَاءَكَ» لَخَالَبَتْهُ فِى ذَلِكَ وَنَافَقَتْهُ ، وَإِنْ رَاقَتْهُ وَوَافَقَتْهُ ، عَلَى أَنَّهُ أَخَذَهَا مِنْ حَالٍ دَنِيَّةٍ ، فَجَعَلَهَا فِى النُّعْمَى السَّنِيَّةِ ، وَعَتَبَهُ فِى ذَلِكَ الْأَحِبَّاءُ ، وَجَرَتْ لَهُمْ فِى ذَلِكَ قِصَصٌ وَأَنْبَاءٌ ، وَقِيلَ لَهُ — فِيمَا ذُكِرَ — : « كَيْفَ تَطِيبُ نَفْسُ الْمَلِكِ لِهَذِهِ الْمُومِسِ ؟ »

---

(1) هى رسالة ابن القارح المنشورة بالجزء الأول من هذا الكتاب (2) أى القسم الذى وصف فيه الجنة والنار ، وهو الجزء الثانى من هذا الكتاب (3) يعنى أن ابن القارح قال هذا الكلام مخلصاً فيه غير منافق (4) أى فى افتنان ، وقد امتلأ شعر أبى العلاء ونثره بهذا المعنى وأشباهه ، ومن أدق ما قاله فى ذلك قوله فى لزومياته :

مين يردد ، لم يرضوا بباطله حتى أبانوا — الى تصديقه — طرقا

فَضَرَبَ لَهُمُ الْمَثَلَ بِالْقَدَحِ : جَعَلَ فِي الْإِنَاءِ الشَّعَرَ وَالدَّمَ ، وَقَالَ لِلْحَاضِرِ : « تُجِيبُ نَفْسُكَ لِشُرْبِ مَا فِيهِ ؟ » فَقَالَ : « إِنَّهَا لَا تَطِيبُ ، وَهِيَ بِالْأَنْجَاسِ قَطِيبٌ[1] » . فَأَرَاقَ ذَلِكَ الشَّيْءَ وَغَسَلَهُ ، وَهَذَّبَ وِعَاءَهُ ، وَجَعَلَ فِيهِ — مِنْ بَعْدُ — مُدَاماً ، وَعَرَضَهَا عَلَى النَّدَامَى ، فَكُلُّهُمْ بَهَشَ[2] أَنْ يَشْرَبَ . فَقَالَ : « هَذَا مَثَلُ شِيرِينَ »

غريزة النفـــاق

كَمْ مِنْ شِبْلٍ نَافَقَ أَسَداً ، وَأَضْمَرَ لَهُ غِلاً وَحَسَداً ، وَضَيْغَمٍ نَقَمَ عَلَى فُرْهُودٍ ، وَوَدَّ لَوْ دَفَنَهُ بِالْوُهُودِ .

(وَالْفُرْهُودُ وَلَدُ الْأَسَدِ ، وَهُوَ — آنَسَ اللهُ الْإِقْلِيمَ بِقُرْبِهِ — أَجَلُّ مِنْ أَنْ يُشْرَحَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا أَفْرَقُ مِنْ وُقُوعِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ فِي يَدِ غُلَامٍ مُتَرَعْرِعٍ[3] ، لَيْسَ إِلَى الْفَهْمِ بِمُتَسَرِّعٍ ، فَتَسْتَعْجِمَ عَلَيْهِ اللَّفْظَةُ ، فَيَظَلَّ مَعَهَا فِي مِثْلِ الْقَيْدِ) .

وَكَمْ خَالَبَتِ الذِّئَابُ السِّلَقَ[4] ، وَفِي الضَّمَائِرِ تُكَنُّ الْفِلَقُ[5] !

يَقُولُ الْقَائِلُ : « بِأَبِي أَنْتَ ، جَادَ عَمَلُكَ وَأَتْقَنْتَ ! » وَلَوْ قَدَرَ لَبَتَّ الْوَدَجَ[6] ، وَإِنَّمَا جَامَلَ أَوْ سَدَجَ[7] !

---

(١) ممزوجة (٢) ارتاح له وخف اليه (٣) ناشىء (٤) الإناث من الذئاب (جمع سِلْقة) (٥) الدواهى (٦) عرق الأخدع الذى يقطعه الذابح فلا يبقى معه حياة

(٧) كذب وتقوّل الأباطيل ، ونحو من هذا المعنى قول أبى العلاء فى لزومياته :

إذا جولس الأقوام بالحق ، أصبحوا عـــداة ، فكل الأصفياء على خب

وَلعَلَّ بَعْضَ الْعَتَارِفِ(١) يَلفِظُ إِلَى الْبَائِضَةِ حَبَّةَ الْبُرِّ ، وَيأْنَسُ بِهَا ، وَفى فُؤَادِهِ مِنَ الضِّغْنِ أَعَاجِيبُ !

* * *

وَكَيْفَ يَقُولُ الْخَلِيلُ الْمُخْلِصُ : إِنَّ حَنِينَهُ حَنِينُ وَالِهٍ مِنَ النُّوقِ . وَهِيَ الذَّاهِلَةُ إِنْ حُمِلَ عَلَيْهَا بَعْضُ الْوُسُوقِ ، وَإِنَّمَا تَسْجَعُ ثَلَاثاً أَوْ أَرْبَعاً ، ثُمَّ يَكُونُ سُلُوُّهَا مُتْبعاً . فَأَمَّا الْحَمَامَةُ الْهَاتِفَةُ ، فَقَدْ رَزَقَهَا الْبَارِئُ صِيتاً شَائِعاً ، فَظَلَّ وَصْفُهَا بِالْأَسَفِ ذَائِعاً ، تَنْهَضُ إِلَى الْتِقَاطِ حَبٍّ ، وَتَعُودُ إِلَى جَوْزَلِهَا(٢) ذَاتَ أَبٍّ(٣) ، فَإِنْ هِيَ صَادَفَتْهُ أُكِيلَ بَازٍ ، فَمَا هِيَ إِلَّا مِثْلُ الْحَيَوَانِ ، تَمَلُّ حَالَهَا فِي أَقْصَرِ أَوَانٍ(٤) وَقَدْ زَعَمَ زَاعِمٌ — لَا يُصَدَّقُ — أَنَّ الْحَمَائِمَ فِي هَذَا الْعَصْرِ يَبْكِينَ مُفْقَدًا هَلَكَ فِي عَهْدِ نُوحٍ ، وَإِنَّ دَوَامَهَا عَلَى ذَلِكَ لَدَلِيلُ الْوَفَاءِ(٥) ،

وقوله : يلقاك بالماء النمير الفتى ... وفى ضمير النفس نار تقد !

(١) جمع عتروف أو عتريف ، وهو الخبيث الفاجر الجرىء . والبائضة : الدجاجة

(٢) فرخها (٣) كلأ (٤) كرر أبو العلاء هذا المعنى بصور شتى فى لزومياته . فمن ذلك قوله عن الظبى :

عجبت للظبى ، بانت عنه صاحبة ... لاقت جنود منايا لا تناخيها
فارتاع يوما ، ويوما ، ثم ثالثة ... ومال بعد إلى أخرى يواخيها
ما شد صرف زمان عقدة لأذى ... إلا ومر لياليه يراخيها

(٥) أشار أبو العلاء الى هذا المعنى فى كتابه سقط الزند بقوله :

أبنات الهديل أسعدن أو عد ... ن قليل العزاء بالإسعاد
إيه لله دركن فأنتن ... اللواتى تحسن حفظ الوداد
ما نسيتن هالكا فى الأوان الـ ... ـخالِ أودى من قبل هلك إياد

وَمَا الْعِوَضُ عَنْ خَلِيلِ الصَّفَاءِ ؟ لاَ عِوَضَ وَلاَ نَائِبَ إِلاَّ فِيهِ ، وَكَيْفَ يُعْتَبُ الزَّمنُ عَلَى تجَافِيهِ ، وَإِنَّمَا حُشِيَ بِشَرٍّ وَغَدْرٍ . وَمَا أَقَلَّ صِدْقَ الْأُلاَّفِ ، ولوْ بِيعُوا مِن الذَّهَبِ بآلافٍ !

المعرى يتبرأ من العلم

وَأَمَّا ما ذَكَرَهُ مِنْ حَالِي ، فَطَالَمَا أُعْطِيَ الْوَثَنُ سُعودًا[1] ، وَأَحْلِفُ كَيَمِينِ امْرِئِ الْقَيْسِ :

« فَقُلْتُ : يَمِينَ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا وَلَوْ قطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصالِي »

إِنِّي لَمَكْذُوبٌ عَلَيْهِ ، كَمَا كَذَبتِ الْعَرَبُ عَلَى الْغُولِ . وَكَمَا تَقَوَّلَتِ الْأَمْثَالُ السَّائِرَةُ عَلَى الضَّبِّ ، وَكَمَا تَكَلَّمَتْ على لِسَانِ الضَّبُعِ وَهِيَ خَرْسَاءُ . يُظَنُّ أَنِّي مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ[2] وما أَنَا لَهُ بِالصَّاحِبِ ، وَتِلْكَ لَعَمْرِي بَلِيَّةٌ ،

---

(١) الوثن : الصنم ، ومما نختاره من لزومياته ، فى هذا المعنى ، قوله :

و بالجد زار اللات أهـل ضلالة وعظمت العزى ، وأكرم باجر

وهى أسماء أصنام ثلاثة أولها لثقيف وكان بالطائف ، وثانيها لقريش وكنانة ، وثالثها لقضاعة ومن والاهم

(٢) تبرأ أبو العلا فى مواضع كثيرة من لزومياته ، من مظنـة العلم ، ومن أحسن ما نختاره له فى هذا المعنى قوله :

أقررت بالجهـل ، وادعى فهمـى قوم ، فأمرى وأمرهم عجب

والحق ، أنى وأنهم هـدر لست نجيباً ، ولا هم نجب

وقوله :

الله يشهد أنى جاهل ورَع فليحضر الناس إقرارى و إشهادى

« ورَع : جبان »

وَالْعُلُومُ تَفْتَقِرُ إلى مِرَاسٍ(١) ! وَيُقالُ : إِنَّنى مِنْ أَهْلِ الدِّينِ ، وَلَوْ ظَهَرَ ما وَرَاءَ السَّدِينِ ، ما اقْتَنَعَ لِىَ الْوَاصِفُ بِسَبّ .

وَكَيْفَ يُدَّعَى لِلعِلْجِ الْوَحْشِىِّ ، أَنَّ تَغْرِيدَهُ فى السَّحَرِ أَشْعَارٌ مَوْزُونَةٌ ؟ وَهَلْ يُصَوَّرُ لِعَاقِلٍ أَنَّ الغُرَابَ النَّاعِبَ صَدَحَ بِتَشْبِيبٍ ؟ فَبَعِدَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْحَجَرَ مُتَكَلِّمٌ ، وَأَنَّهُ عِنْدَ الضَّرْبِ مُتَأَلِّمٌ !

وَلَوْ أَنِّى لَا أَشْعُرُ بِمَا يُقَالُ فِىَّ ، لَأَرَحْتُ مِنْ إِنْكَارِى وَتَلَافِىَّ ، وَكُنْتُ كَالْوَثَنِ سَواءٌ عَلَيْهِ أَنْ وُقِّرَ(٢) وَأَنْ أُوقِرَ(٣) ، وَكَالْأَرْضِ السَّبَخَةِ ما تَحْفِلُ أَنْ قِيلَ : « هِىَ مَرِيعَةٌ » ، أَوْ قِيلَ : « بِئْسَتِ الزَّرِيعَةُ(٤) » .

---

(١) ممارسة وشدة (٢) من الوقار (٣) صُدع (٤) من أحسن ما نختاره لأبى العلاء فى هذا المعنى قوله :

ما يحس التراب ثقلا — إذا ديـ ... س — ولا المـاء يتعب الجريانُ

وقوله :

أما الجمـاد ، فانى بت أغبطـه ... إذ ليس يعـلم إما زاد أو محقا
لا يشعر العود بالنـار التى أخذت ... فيه ، ولا الأصهب الدارى إذا سحقا

وقوله :

عز الذى أعفى الجمـاد فمـا ترى ... حجراً يغص بمأكل أو يشرق
متعرياً فى صيفه وشتـائه ... ما ريـع قط للبس يتخرق
لا حس يؤلمـه ، فيظهر مجزعاً ... إن راح يضرب ملطس أو مطرق

إلى أن يقول :

والصخر يلبث لا يفارق مرة ... ذنبا ، ولا هو من حياء مطرق

ولعل هذه الميزة التى ذكرها للجماد فى هذا البيت الأخير ، هى التى جعلته يقول :

أفضل من أفضلهم صخرة ... لا تظلم الناس ولا تكذب

وَكَيْفَ أَغْتَبِطُ إذا تُخُرِّصَ عَلَيَّ ، وَعُزِيَتِ الْمَعْرِفَةُ إِلَيَّ ، وَلَسْتُ آمِنًا فِى الْعَاقِبَةِ فَضِيحَةً ، وَمَثَلِي — إِنْ جَذِلْتُ بِذَلِكَ — مَثَلُ مَنِ اتُّهِمَ بِمَالٍ ، فَسَرَّهُ قَوْلُ الْجَهَلَةِ إِنَّهُ لَخَافُ الْيَسَارِ ، فَطَلَبَ مِنْهُ بَعْضُ السَّلَاطِينِ أَنْ يَحْمِلَ إِلَيهِ جُمْلَةً وَافِرَةً ، فَصَادَفَ أُكْذُوبَةً زَافِرَةً(١) ، وَضَرَبَهُ كَىْ يُقِرَّ ، وَقُتِلَ فِى الْعُقُوبَةِ !

وَقَدْ شَهِدَ اللهُ أَنِّى أَجْذَلُ بِمَنْ عَابَنِى ، لِأَنَّهُ صَدَقَ فِيمَا رَابَنِى ، وَأَهْتَمُّ لِثَنَاءِ مَكْذُوبٍ(٢) ، فَغَفَرَ اللهُ لِمَنْ ظَنَّ حَسَنًا بِالْمُسِىءِ . وَلَوْلَا كَرَاهَتِى حُضُورًا بَيْنَ النَّاسِ ، وَإِيثَارِى أَنْ أَمُوتَ مِيتَةَ عَلْهَبٍ(٣) فِى كِنَاسٍ(٤) ، فَاجْتَمَعَ مَعِى أُولَئِكَ

---

(١) كبيرة (٢) يهتم له : يحزن ، ومما نختاره لأبى العلاء فى هذا المعنى قوله فى لزومياته :

وأزهد فى مدح الفتى عند صدقه فكيف قبولى كاذبات المدائح ؟

وقوله :

إذا كان التقارض من محال فأحسن من مدائحنــــا التهاجى

(٣) العلهب : الظبى (٤) الكناس : بيت الظبى فى الشجر يستتر فيه

العـــــزلة

و إيثار أبى العلاء العزلة معروف بل هو من ألزم صفاته ، وحسبك دليلا على ذلك ، ما لقب به نفسه من أنه « رهن المحبسين » والإفاضة فى الاستشهاد بما قاله فى الترغيب فى العزلة والحث عليها ، إطالة لا فائدة منها ، فلنكتف من ذلك بنخبة قليلة من شعره فى بيان فضلها عنده ، كقوله :

بعدى عن الناس خير من لقائهم وقربهم للحجى والدين أدواء
كالبيت أفرد ، لا إبطاء يدخله ولا سناد ، ولا فى اللفظ إقواء

وقوله متضجراً من التكاليف الثقيلة التى يحتمها عليه الاختلاط بالناس :

لقــاء الناس ألجأنى برغمى إلى حسن التجمل والنفاق

الْجَائِلُونَ ، لَصَحَّ أَنَّهُمْ عَنِ الرُّشْدِ حَائِلُونَ .

ونحب ألّا يفوت القارئ جمال هذا البيت الرائع وهو قوله :

متى ما يأتنى أجلى بأرضى ... فحى على الجنازة للغريب

وقوله معللا ميله الى العزلة وأخذه بها :

ولى مذهب – فى هجرى الأنس – نافع ... إذا القوم خاضوا فى اختيار المذاهب
أرانا على الساعات فرسان غارة ... وهن بنا يجرين جرى السلاهب
ومما يزيد العيش إخلاق ملبس ... تأسّف نفس لم تطق رد ذاهب

وقوله :

اجتنب الناس ، وعش واحداً ... لا تظلم الناس ولا تظلم

وقوله :

تمنيت أنى بين روض ومنهل ... مع الوحش، لا مصراً أحل ولا كفرا

وقوله :

يُقل الأذى والعيب فى ساحة الفتى ... – وإن هو أكدى – قلة الجلساء

وقوله :

بوحدانيـــة العـــلام دِنّا ... فدعنى أقطع الأيام وحدى !

وقوله يؤثر العزلة – حتى بعد الموت – :

إذا حان يومى فلأوسد بموضـــع ... من الأرض لم يحفر به أحد قبرا
هم الناس – إن جازاهم الله بالذى ... توخوه – لم يرحم جهولا ، ولا حبرا
يرى عنتاً فى قرب حى وميت ... من الإنس من جلّى سرائرهم خبرا
فيا ليتنى لا أشهد الحشر فيهم ... إذا بعثوا شعثاً رءوسهم غبرا
إذا تم فيا تؤنس العين مضجعى ... فزدنى – هداك الله – من سعة شبرا

وقوله :

وددت وفاتىَ فى مهمـــه ... به لامع ليس بالمعـــلم

وَأَمَّا وُرُودُهُ «حَلَبَ» — حَرَسَهَا اللهُ — فَلَوْ كَانَتْ تعقل، لفرحت بِهِ فَرَحَ الشَّمْطَاءِ، شَحَطَ سَلِيلُهَا الْوَاحِدُ — وَمَا هُوَ لِحَقِّهَا جَاحِدٌ — وَقَدِمَ بَعْدَ أَعْوَامٍ، فَنَقَعَتْ بِهِ فَرْطَ أُوَامٍ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَعَادَ الْبَارِقَ إِلَى الْغَمَامِ الْوَسْمِيِّ.

الانتحار

وَإِنِّى لَأَعْجَبُ مِنْ تَمَالُئِ جَمَاعَةٍ، عَلَى أَمْرٍ لَيْسَ بِالْحَسَنِ وَلَا الطَّاعَةِ. قد كدت ألحق بِرَهْطِ الْعَدَمِ، مِنْ غَيْرِ الْأَسَفِ وَلَا النَّدَمِ، وَلَكِنَّمَا أَرْهَبُ قُدُومِى عَلَى الْجَبَّارِ، وَلَمْ أُصْلِحْ نَخْلِى بِإِبَارٍ، وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ: «إِنَّ فُلَانًا تَلَطَّفَ حَتَّى قَتَلَ نَفْسَهُ، وَكَرِهَ أَنْ يُمَارِسَ بَدَائِعَ الشُّرُورِ، وَأَحَبَّ النُّقْلَةَ إِلَى مَنَازِلِ السُّرُورِ» فَقَالَ الْحَكِيمُ قَوْلًا مَعْنَاهُ: «أَخْطَأَ ذَلِكَ الشَّابُّ الْمُقْتَبَلُ، هَلَّا صَبَرَ عَلَى صُرُوفِ الزَّمَانِ، فَإِنَّهُ لَا يَشْعُرُ عَلَامَ يَقْدَمُ»

وَلَوْلَا حِكْمَةُ اللهِ — جَلَّتْ قُدْرَتُهُ — وَأَنَّهُ حَجَزَ الرَّجُلَ عَنِ الْمَوْتِ، بِالْخَوْفِ مِنَ الْعَلَزِ(١) وَالْفَوْتِ(٢) لَرَغِبَ كُلٌّ مَنِ احْتَدَمَ غَضَبُهُ، وَكَلَّ عَنْ ضَرِيبَةٍ مِقْضَبُهُ، أَنْ تُتْرَعَ(٣) لَهُ مِنَ الْمَوْتِ كُؤُوسٌ(٤)

---

(١) الاضطراب والهلع (٢) الضياع (٣) تملأ (٤) أبدع أبو العلاء فى صوغ هذا المعنى فى قوله:

أموت به واحدا مفردا ... وأدفن فى الأرض لم تُظْلَم(١)
وأبعد عن قائل: «لا سلمت» ... وآخر قال: «ألا يا اسلم!»
أحاذر أن تجعلوا مضجعى ... إلى كافر — خان — أو مسلم
إذا قال: «ضايقتنى فى المحل» ... قلت: «أساؤا ولم أعلم»

---

(١) تحفر

أبو القطران الأسدى

وَأَمَّا أَبُو الْقَطِرَانِ الْأَسَدِيُّ — وَأَىُّ الْبَشَرِ مِنَ الْخُطُوبِ مُفْدِيٌّ — فَصَاحِبُ غَزَلٍ وَتَبَطُّلٍ ، وَتَوَفُّرٍ عَلَى الْخُرَّدِ وَتَعَطُّلٍ[١] ، وَهُوَ ذَلِكَ الْمُتَهَيِّمُ إِلَى «وَحْشِيَّةَ» ، وَإِنَّمَا وُدُّ الْغَانِيَةِ خِلَابٌ وَخِدَاعٌ ، وَلِلْكَمَدِ فِي هَوَاهُ ابْتِدَاعٌ ، وَلَوْ هَلَكَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ وَالْمَرَّارُ[٢] يَعِيشُ — لَعَدَّ أَنَّهُ بِتَلَفِهَا نَعِيشٌ ، لَا سِيَّمَا بَعْدَ السِّنِّ الْعَالِيَةِ ، وَقُوَّةِ النَّفْسِ الْآلِيَةِ[٣]

وَلَعَلَّ « أَبَا الْقَطِرَانِ » لَوْ مُتِّعَ بِهَذِهِ الْمَذْكُورَةِ مَا يَكُونُ قَدْرُهُ مِائَةَ حِقْبَةٍ[٤] ، عَلَى غَيْرِ الْجَزَعِ وَالرِّقْبَةِ ، لَجَازَ أَنْ يَغْرَضَ مِنَ الْوِصَالِ — إِذَا عَلِمَ أَنَّ حَبْلَهُ فِي اتِّصَالٍ ؛ وَلَوْ نَزَلَ بِهَا شَيْءٌ تَتَغَيَّرُ بِهِ عَنِ الْعَهْدِ ، لَتَمَنَّى أَنْ تُقْذَفَ إِلَى غَيْرِ الْمَهْدِ[٥] ، لِأَنَّ ابْنَ آدَمَ بَخِيلٌ مَلُولٌ ، وَلَوْ أَصَابَهَا الْعَوَرُ ، بَعْدَ أَنْ سَكَنَ عَيْنَهَا الْحَوَرُ ، لَظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ نَبَأٌ لَا يُغْفَرُ وَلَا يُكَفَّرُ !

وَمِنْ أَيْنَ لِذَلِكَ الشَّخْصِ الْأَسَدِيِّ مَا وَهَبَهُ اللهُ لِلشَّيْخِ مِنْ وَفَاءٍ ، وَإِنَّمَا عَاشَرَ « أَبُو الْقَطِرَانِ » أَعْبُدًا فِي الْإِبِلِ وَآمِيًا ، وَلَعَلَّهُ لَوْ صَادَفَ غَانِيَةً تَزِيدُ عَلَى « وَحْشِيَّةَ » بِشِقِّ الْأَبْلَمَةِ[٦] ، لَسَلَاهَا غَيْرَ الْمُؤْلِمَةِ[٧] ، وَإِنَّمَا دَيْدَنُ ذَلِكَ

لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة مخشية ، لاعتراها القوم أفواجا
وكان من ألقت الدنيا إليه أذى يؤمها تاركا للعيش أمواجا

(١) التبطل والتعطل بمعنى واحد وهو البقاء بغير عمل ، وقد قيل : « شر الفتيان المتبطل المتعطل » (٢) هو أبو القطران ، والتعيس : المحمول على النعش (٣) غير المستطيعة (٤) سنة (٥) إلى غير الراحة ، أى لتمنى أن تضيق بها الحال (٦) الأبلمة بقلة ، وشق الأبلمة أى نصفها (٧) من غير أن تؤلمه

الرَّجُل وَنُظَرَائِهِ صِفَةُ نَاقَةٍ أَوْ رَبْعٍ ، وَمَا شَجَرُهُ الْمُغْتَرَسُ بِالنَّبْعِ[1] ، إِذَا جَنَى الْكَمْأَةَ بَجَحَ ، وَخَالَ أَنَّهُ قَدْ نَجَحَ ! وَلَوْ حَضَرَ أَخْوِنَةً حَضَرَهَا « الشَّيْخُ » لَعَادَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

فَلَوْ كُنْتَ عُذْرِيَّ الْعَلَاقَةِ ، لَمْ تَبِتْ بَطِيناً ، وَأَنْسَاكَ الْهَوَى كَثْرَةَ الْأَكْلِ !

وَهُوَ — قَدَّرَ اللهُ لَهُ مَا أَحَبَّ — قَدْ جَالَسَ مُلُوكَ مِصْرَ الَّتِي قَالَ فِيهَا فِرْعَوْنُ : « أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ » وَقَدْ أَقَامَ بِالْعِرَاقِ زَمَناً طَوِيلاً ، وَبِالْعِرَاقِ مَمْلَكَةُ فَارِسَ ، وَهُمْ أَهْلُ الشَّرَفِ وَالظَّرْفِ ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ قَدْ جَالَسَ بَقَايَاهُمْ ، وَاخْتَبَرَ فِي الْمُعَاشَرَةِ سَجَايَاهُمْ ، وَعَاطَوْهُ الْأَكْؤُسَ الَاتِ التَّصَاوِيرِ ، عَلَى عَادِ[2] الْمَرَازِبَةِ وَالْأَسَاوِرِ ، كَمَا قَالَ الْحَكَمِيُّ[3] :

تَدُورُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ فِي عَسْجَدِيَّةٍ حَبَتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ

قَرَارَتُهَا كِسْرَى ، وَفِي جَنَبَاتِهَا مَهًى تَدَّرِيهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ[4]

---

(١) النبع شجر تعمل منه القسى ، وفى ذلك يقول أبو العلاء فى سقط الزند :

وقال « الوليد » : النبع ليس بمثمر وأخطأ ، سرب الوحش من ثمر النبع !

يعنى بالوليد البحترى ، و يرد على قوله :

وعيرتنى خـــلال العدم آونة والنبع عريان ، ما فى عوده ثمر !

(٢) عادات (٣) هو أبو نواس ، وقد مرت ترجمته فى الجزء الثانى (ص ١٠)

(٤) هذان البيتان من قصيدة أبى نواس السينية الرائعة المشهورة وهى :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ، بها أثر منهم — جديد ودارس

مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنىّ و يابس

حبست بها صحبى ، فجددت عهدهم و إنى — على أمثال تلك — لحابس

التقبيل

وَمَا أَشُكُّ أَنَّهُ — أَمْتَعَ اللهُ الآدَابَ بِبَقَائِهِ — لَوْ رُزِقَ مُحَاوَرَةَ أَبِي الأَسْوَدِ — عَلَى عَرَجِهِ وَبُخْلِهِ — لَكَانَتْ مِقَتُهُ لَهُ أَبْلَغَ مِنْ مِقَةِ مَهْدِيّ لِيلاهُ. وَلَوْ كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَذْفَرَ الفَمِ، لَمَا أَمِنْتُ مَعَ كَلَفِهِ(١) بِالأَخْبَارِ، أَنْ يُقَبِّلَهُ شَقَّ البَلْسَةِ(٢)، وَفِي الحَدِيثِ عَنْ عَائِشَةَ — رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهَا: — «كَانَ رَسُولُ اللهِ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — يُقَبِّلُنِي شَقَّ التِّينَةِ» وَرَوَى بَعْضُهُمْ: «شَقَّ التَّمْرَةِ» وَذَلِكَ أَنْ يَأْخُذَ الشَّفَةَ العُلْيَا بِيَدِهِ، وَالسُّفْلَى بِيَدِهِ الأُخْرَى، وَيُقَبِّلَ مَا بَيْنَ الشَّفَتَيْنِ!

فضل الموت

وَأَمَّا مَنْ فَقَدَهُ مِنَ الأَصْدِقَاءِ لَمَّا دَخَلَ حَلَبَ — حَرَسَهَا اللهُ — فَتِلْكَ عَادَةُ الزَّمَنِ، يُبَدِّلُ مِنَ الأَبْيَاتِ المَسْكُونَةِ قُبُورًا، وَإِنَّ رَمْسَ الهَالِكِ لَبَيْتُ الحَقِّ، عَلَى أَنَّهُ يُغْنِي الثَّاوِيَ بِهِ بَعْدَ عَدَمٍ، وَيَكْفِيهِ المَؤُونَةَ(٣). قَالَ الضَّبِّيُّ:

ولم أدر منهم غير ما شهدت به ... بشرقى «ساباط» الديار البسابس
أقمنا بها يوما، ويومين بعده، ... ويوما — له يوم الترحل خامس
تدور علينا الكأس فى عسجدية ... حبتها — بأنواع التصاوير — فارس
قرارتها كسرى، وفى جنباتها ... مهى تدّريها بالقسىّ الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبها ... وللماء ما دارت عليه القلانس

(١) شدة حبه (٢) التينة (٣) يحسن أن نلمع هنا إلى رأى أبى العلاء فى الموت، فنقول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ قَصْرِى حُفْرَةٌ ما بَعْدَها خَوْفٌ عَلَىَّ وَلا نَدَمْ

هذه هى أكبر ميزة للموت ، عند أبى العلاء ، وهى التى حببته فيه ، وربما كان أول ما يسترعى انتباهك فى شعره ، تشاؤمه ، ونظرته إلى العالم بمنظار شديد السواد ، ثم سخطه على الدنيا ، وتبرمه بالحياة التى دفعته إليها المقادير برغمه ، فلاقى فيها من صنوف الأذى والعذاب ، ما كان يكفى بعضه ، لتبغيضه فيها ، ونقمته عليها ، حتى أصبح لا يرى فيها إلا سلسلة آلام طويلة متصلة الحلقات ، لا تبدأ ، بولادة الطفل ، كما زعم ابن الرومى فى قوله:(١)

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها ، وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغد

بل منذ كان جنينا فى بطن أمه :

وما برح الانسان فى البؤس – مذ جرت به الروح – لا مذ زال عن رأسه الغِرس(٢)

ثم لا تنتهى تلك الآلام إلا بموته – وفى هذه الخاتمة شك كبير عند أبى العلاء كما سنبينه ، فلا غرو إذا خص الدنيا ، بأوفر قسط من الذم ، وافتن فى تقبيحها ، حتى لقبها بأم دفر – أى أم نتن – فى أكثر ندائه إياها – وقد جعله مزاجه السوداوى يرى الحياة مأساة مفجعة كل موضع فيها صالح للحسرة والبكاء ، وليس فيها موضع واحد ، يصلح للسرور

وله فى ذلك أشعار كثيرة ، نجتزئ منها بقوله :

أعن باكيا لج فى حزنه وسل ضاحك القوم : « مم ابتهج ؟ »

وقوله :

يسمّى « سرورا » جاهل متخرص بفيه البرى – هل فى الزمان سرور ؟

*
* *

(١) ارجع إلى ص «٣٩٣» ج «٣» من ديوان ابن الرومى

(٢) الغرس : الجلدة الرقيقة التى تخرج على رأس الولد أو الفصيل ساعة يخرج من بطن أمه ، فان تركت قتلته

فَأَزُورُ بَيْتَ الْحَقِّ زَوْرَةَ ماكِثٍ فَعَلَامَ أَحْفِلُ ما تَقَوَّضَ وَانْهَدَمْ

وقد أكثر أبو العلاء من التفكير فى مسألة الموت ، فلا تكاد تخلو من ذكره صفحة من لزومياته ، حتى أصبح من أوليات المسائل التى يدور عليها محور فلسفته ، ولا نعرف له شبيها فى هذه الخلة ، سوى أبى العتاهية الذى نعده — على إكثاره — مقصراً عن شأو أبى العلاء تقصيراً بيناً ، والفرق بين الرجلين فى نظرنا هو فرق ما بين الفيلسوف الصادق الزهد ، والواعظ الذى اتخذ الوعظ ديدنا له .

*
* *

ويمكن الإلمام بآراء أبى العلاء فى الموت — رغم تناقضها — مع الإشارة إلى سبب ذلك فيما يلى :

(١) تارة كان يصل جزعه من الموت إلى أقصاه ، ويرتاع منه ، فتنبعث من نفسه صيحة مفزعة يكاد ينخلع لها قلبه ، فيقول :

يهال التراب على من ثوى فآه من النبأ الهائل !

ثم يصرخ من أعماق نفسه ، وقد تولاه الذهول :

أنبأنا اللب بلقيا الردى فالغوث من صحة ذاك النبأ

أو يقول :

فويهاً وواهاً لسيل المنو ن كم جر عيرا بأحمالها

أو تنبهه فكرة طارئة ، تنتابه فجأة ، فيهب مذعوراً خائفاً فيقول :

يكر الحول بعد الحول عنى وتلك مصارع الأقوام حولى
كأنى بالألى حفروا لجارى وقد أخذوا المعاول وانتحوا لى

وفى البيت الثانى صورة مفزعة تمثل ما ألم به من الهلع والرعب !

(٢) وحيناً يذكر الموت فيتمناه ، ولكنه يخشى ألا تكون فيه الراحة والطمأنينة اللتان أخطأهما فى الحياة ، فيتردد فى تمنيه ويقول :

إن كان نقلى عن الدنيا يكون إلى خير ، وأرحب ، فانقلنى على عجل
وإن علمت مآلى عند آخرتى شراً وأضيق، فانسأ – رب – فى الأجل

وتزداد به الحيرة والارتباك فيقول :

فإن خرجت إلى بؤس فواحربى   وإن نقلت إلى نعمى ، فطوبى لى

وربما خشى أن يسلبه حسه الذى يعتز به ، ويتضاءل بالقياس إليه كل اعتبار آخر ، حتى إنه حرم على نفسه الخمر ضنا أن تذهب به سورتها — كما سنبينه فى حينه — فيقول :

ولو كان يبقى الحس فى فم ميت   لآليت أن الموت فى الفم أعذب

*
* *

وفى هذه الحالة ترى حنينه إلى الموت مقروناً بشىء من الجزع والرهبة منه ! على أنها نوبات فجائية ، تعرض له ، فتنطقه بما استشهدنا به من كلامه .

فأما يقينه الذى لا يفتأ يردده ، ويتغنى به فى أكثر أحايينه ، فهو النزوع إلى تفضيل الموت ، لأنه يرى فيه المنقذ الوحيد من آلام الحياة وأوصابها .

وإليك نخبة مختارة من كلامه تزيدك اقتناعاً بإيمانه الثابت ، وبما ذكره فى رسالته هنا عن الرمس ، من أنه « يغنى الثاوى به بعد عدم ، ويكفيه المؤونة » :

ما أعدل الموت من آت وأستره   فهيجينى ، فانى غير مهتاج
العيش أفقر منا كل ذات غنى   والموت أغنى — بحق — كل محتاج
إذا حياة علينا للأذى فتحت   بابا من الشر ، لاقاه بإرتاج

يغنى الفتى بالمنايا عن مآربه   وتنفخ الروح فى طفل فيفتقر

كأس المنية أولى بى ، وأروح لى   من أن أكابد إثراء وإحواجا

لكون خلك فى رمس أعز له   من أن يكون مليكا عاقد التاج
الملك يحتاج آلافا تناصره   والميت ليس إلى خلق بمحتاج

أصبح فى لحدى على وحدتى   لست إلى الدنيا بمحتاج

كشفى رأسى وافتقارى بها   خير من التمليك والتاج

إن يرحل الناس ولم أرتحل   فمن قضاء لم يفوض إلىّ

قال الرَّاجِزُ :

متى ألق من بعد المنية أسرتى أخبرهم أنى خلصت من الأسر

ومن اليمن للفتى أن يجىء الـــموت يسعى إليه سعياً سريحاً
لم يمارس من السقام طويلا ومضى لم يكابد التبريحا

رقدة الموت ضجعة يستريح الجـــسم فيها والعيش مثل السهاد
تعب كلها الحيـاة فما أعـــجب إلا من راغب فى ازدياد

تدعو بطول العمر أفواهنا لمن تناهى القلب فى وده
يسرّ أن مد بقاء له وكل ما يكره فى مده

دعا لى بالحيـاة ، أخو وداد رويدك إنما تدعو عليّا

وما كان البقاء لى اختيارا لو ان الأمر مردود إليّا

آليت لا ينفك جسمى فى أذى حتى يعود إلى قديم العنصر

عل البلى سيفيد المرء فائدة فالمسك يزداد من طيب إذا سحقا

طال وقوفى وراء جسر وإنما ينظــر العبـــور

عشنا - وجسر الموت قدامنا ـ فشمر الآن لكى نعبره

أقمت برغمى ، وما طائرى براض إذا ألفتـه الوكون

لعل الموت خـير للبرايا وإن خافوا الردى وتهيبوه

تعود إلى الأرض أجسامنا وتلحق بالعنصر الطاهر
ويقضى بنا فرضه ناسك يمر اليدين على الظـــاهر

لعل موتا يريح الجسم من نصب إن العناء بهذا العيش مقترن

متى غدوت ببطن الأرض مضطجعاً فثَمّ أفقد أوصابى وأمراضى

فمالى أخاف طريق الردى وذلك خير طريق سلك
يريحك من عيشة مرة ومال أضيع ، ومال ملك

هنيئاً لطفل أزمع السير عنهم فودع من قبل التعارف ظاعنا

ومسكن الروح فى الجثمان أسقمه وبينها عنه من سقم يعافيه
وما يحس إذا ما عاد متصلا بالترب تسفيه فى الهابى سوافيه
وحبذا الأرض قفراً لا يحل بها ضد تعاديه أو خل تصافيه
« الهابى : تراب القبر »

روح إذا اتصلت بجسم لم يزل — هو وهى — فى مرض العناء المكمد
إن كنت من ريح ، فيا ريح اسكنى أو كنت من نار ، فيا نار اخمدى

بطن البسيطة أعفى من ظواهرها فوسّعا لى ، أهرب من سعاليها

أعفى المنازل قبر يستراح به وأفضل اللبس — فيما أعلم — الكفن

والموت ينسى كمىّ الحرب صارمه ودرعه ، وفتاة الحى مجولها

كم من مصائب فى الأيام فادحة — لولا الحمام — لعدت كلها هدرا

نمضى ونترك البلاد عريضة والصبح أزهر ، والنجوم زواهرا

وكيف أُقضّى ساعة بمسرة وأعلم أن الموت من غرمائى

وانظر الى قوله فى صباه من مرثية أبيه :

وخوف الردى آوى إلى الكهف أهله وكلف نوحا وابنه عمل السفن
وما استعذبته روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده جنتى عدن

ثم انظر إلى قوله فيها :

هنيئاً لك البيت الجديد موسداً يمينك فيه بالسعادة واليمن
مجاور سكن فى ديار بعيدة من الحى ، سقيا للديار وللسكن

وَمِعْصَمٍ ذِى بُرَةٍ[1] لَوَيْتُهُ   لَوْ كَانَ لِلدَّهْرِ بِلًى أَبْلَيْتُهُ
أَوْ كَانَ قِرْنِى وَاحِدًا كَفَيْتُهُ

مادح أبى العلاء

وَأَمَّا الْفَصْلُ الَّذِى ذَكَرَ فِيهِ الْخَلِيلَ ، فَقَدْ سَقَطَ[2] مِنْهُ اسْمُ الَّذِى غَلَا فِىَّ[3] وَقَرَنَ بِالنُّجُومِ الصَّلَافِىَّ[4] . وَمَنْ كَانَ ، فَغَفَرَ اللهُ جَرَائِمَهُ ، وَحَفِظَ لَهُ فِى الْأَبَدِ كَرَائِمَهُ ، فَقَدْ أَخْطَأَ عَلَى نَفْسِهِ — فِيمَا زَعَمَ — وَعَلَىَّ ، وَنَسَبَ — مَا لَا أَسْتَوْجِبُ — إِلَىَّ . وَكَمْ أَعْتَذِرُ وَأَتَنَصَّلُ ، مِنْ ذَنْبٍ لَيْسَ يَتَحَصَّلُ !

وَإِنِّى لَأَكْرَهُ — بِشَهَادَةِ اللهِ — تِلْكَ الدَّعْوَى الْمُبْطِلَةَ ، كَرَاهَةَ الْمَسِيحِ مَنْ جَعَلَهُ رَبَّ الْعِزَّةِ ، فَمَا تَرَكَ لِلْفَتَى مِنْ مَهَزَّةٍ[5] . بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ : أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ

وانظر إلى قوله ، وهو يمثل ناحية أخرى من رأيه فى الموت :

يا مرحبا بالموت من مُتنظَّرٍ   إن كان ثم تعارف وتلاق !

ونختم هذا المختار بتلك المشاجرة الجميلة بينه و بين الدنيا ، وقد أحسن تمثيلها فى البيتين التاليين :

أف لدنياى ، فإنى بها   لم أخل من إثم ومن حوب
قلت لها : « امضى غير مصحوبة »   فقالت : « اذهب غير مصحوب »

(١) البرة : الخلخال (٢) ذكر ابن القارح فى رسالته أن شيخاً مدح أبا العلاء ، ولكنه سها عن ذكر اسمه فى رسالته (٣) غلا فى مدحى (٤) المتمدح بما ليس عنده (٥) حركة

مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قال : سُبْحَانَكَ ! ما يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ ما فِى نَفْسِى ، وَلا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ(١) »

رسالة أبى الفرج الزَّهْرَجى(٢)

وَأَمَّا أَبُو الْفَرَجِ الزَّهْرَجِىُّ ، فَمَعْرِفَتُهُ بِالشَّيْخِ تُقْسِمُ أَنَّهُ لِلْأَدَبِ حَلِيفٌ ، وَلِلطَّبْعِ الْخَيِّرِ أَلِيفٌ ، وَدِدْتُ أَنَّ الرِّسَالَةَ وَصَلَتْ إِلَىَّ ، وَلٰكِنْ مَا عَدَلَ

---

(١) أشار أبو العلاء إلى ذلك فى موضعين من لزومياته ، أولهما قوله :

وقد شهد النصارى أن عيسى … توخته اليهود ليصلبوه
وما أبهوا ، وقد جعلوه ربا … لئلا ينقصوه ويجدبوه

والثانى قوله :

عجباً للمسيح بين أناس … وإلى الله والد نسبوه
أسلمته إلى اليهود النصارى … وأقروا بأنهم صلبوه
يشفق الحازم اللبيب على الطفـــل — إذا ما لداته ضربوه
وإذا كان ما يقولون فى عيســى صحيحاً ، فأين كان أبوه ؟
كيف خلى وليده للأعادى ؟ … أم يظنون أنهم غلبوه ؟

(٢) هو كاتب نصر الدولة ، وقد كتب رسالة إلى أبى العلاء ، وسأل ابن القارح إيصالها إليه ، فوضعها فى رحل له ، فسرقه جاره المسافر معه ، فكتب ابن القارح رسالته المنشورة بالجزء الأول يعتذر إلى أبى العلاء من ضياع الرسالة ، ويشكو إليه أموره وما لقى فى سفره ، وتطرق من ذلك إلى مناسبات أخرى ، فرد عليه المعرى برسالة الغفران — جزى الله السارق عنا خيراً !

ذَلِكَ الْعَدِيلُ[(١)] ! هَلَّا اقْتَنَعَ بِنَفَقَةٍ أَوْ ثَوْبٍ ، وَتَرَكَ الصُّحُفَ عَنْ نَوْبٍ[(٢)] فَأَرِبَ مِنْ يَدَيْهِ ، وَلَا اهْتَدَى فِي اللَّيْلَةِ بِفَرْقَدَيْهِ[(٣)]

لَوْ أَنَّهُ أَحَدُ لُصُوصِ الْعَرَبِ الَّذِينَ رُوِيَتْ عَنْهُمُ الْأَمْثَالُ السَّائِرَةُ ، وَتَحَدَّثَتْ بِهِمُ الْمُنْجِدَةُ وَالْغَائِرَةُ ، لَمَا اغْتَفَرْتُ مَا صَنَعَ بِمَا نَظَمَ ، لِأَنَّهُ أَفْرَطَ وَأَعْظَمَ[(٤)] ، وَقَدْ وُفِّقَ « أَبُو الْفَرَجِ » وَوَلَدُهُ ، لَمَّا دَرَسَ عَلَيْهِ الْكُتُبَ وَحَفِظَ عَنْهُ

أمثال العرب

وَأَمَّا حَلَبُ — حَمَاهَا اللهُ — فَإِنَّهَا الْأُمُّ الْبَرَّةُ ، تُعْقَدُ بِهَا الْمَسَرَّةُ ، وَمَا أَحْسَبُهَا — إِنْ شَاءَ اللهُ — تُظَاهِرُ بِذَمِيمِ الْعُقُوقِ ، وَلَا تُغْفِلُ الْمُفْتَرَضَ مِنَ الْحُقُوقِ .

وَ « وَحْشِيَّةُ[(٥)] » يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْخُ جَعَلَهَا نَائِبَةً عَمَّنْ فَقَدَهُ مِنَ الْإِخْوَانِ ، الَّذِينَ عُدِمَ نَظِيرُهُمْ فِي الْأَوَانِ . وَكَذَلِكَ تَجْرِي أَمْثَالُ الْعَرَبِ ، يَكْنُونَ فِيهَا بِالِاسْمِ عَنْ جَمِيعِ الْأَسْمَاءِ ، مِثَالُ ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُ :

فَلَا تَشْلَلْ يَدٌ فَتَكَتْ بِعَمْرٍو ... فَإِنَّكَ لَنْ تُذَلَّ وَلَنْ تُضَامَا

يَجُوزُ أَنْ يَرَى الرَّجُلُ رَجُلًا قَدْ فَتَكَ بِمَنْ اسْمُهُ « حَسَّانُ » أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ فَيَتَمَثَّلَ بِهَذَا الْبَيْتِ . فَيَكُونُ « عَمْرٌو » فِيهِ وَاقِعًا عَلَى جَمِيعِ مَنْ يَتَمَثَّلُ لَهُ بِهِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ الرَّاجِزِ : « أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمِلْ[(٦)] »

---

(١) هو الذى جاور ابن القارح فى المحمل ، وسرق منه الرحل الذى كانت فيه الرسالة

(٢) يعنى : هلا ترك الصحف مكتفياً بما سرقه من المتاع (٣) يدعو على اللص بأن تسقط آرابه من يديه ، وأن يضل فلا يهتدى بنور الفرقدين « وهما النجمان المعروفان »

(٤) أتى عظيمة (٥) هى التى تمثل بها ابن القارح فى الأبيات التى ذكرها فى رسالته وأولها :

إذا تركت «وحشية» النجد ؛ لم يكن ... لعينيك — مما تبكيان — طبيب

(٦) بعده : « ما هكذا يا سعد تورد الابل ! »

صَارَ ذَلِكَ مَثَلًا لِكُلِّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَمْ يُحْكِمْهُ ، فَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ لِمَنِ اسْمُهُ « خَالِدٌ » أَوْ « بَكْرٌ » أَوْ مَا شَاءَ اللهُ مِنَ الأَسْمَاءِ ، وَيَضَعُونَ فِي هَذَا البَابِ المُؤَنَّثَ مَوْضِعَ المُذَكَّرِ ، وَالمُذَكَّرَ مَوْضِعَ المُؤَنَّثِ ، فَيَقُولُونَ لِلرَّجُلِ : « الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ » وَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يُخْبِرُوا بِأَنَّ المَرْأَةَ كَانَتْ تَفْعَلُ الخَيْرَ ثُمَّ هَلَكَتْ ، فَانْقَطَعَ مَا كَانَتْ تَفْعَلُهُ ، جَازَ أَنْ يَقُولُوا : « ذَهَبَ الخَيْرُ مَعَ عَمْرِو بْنِ حُمَمَةَ » وَهَذَا كَثِيرٌ .

شَكَاةُ الأدباء

وَأَمَّا شَكْوَاهُ إِلَيَّ ، فَإِنِّي وَإِيَّاهُ لَكَمَا قِيلَ فِي المَثَلِ : « الثَّكْلَى تُعِينُ الثَّكْلَى » وَعَلَى ذَلِكَ حَمَلَ الأَصْمَعِيُّ قَوْلَ أَبِي دُؤَادٍ :

وَيُصِيخُ أَحْيَانًا كَمَا اسْ تَمَعَ المُضِلُّ دُعَاءَ نَاشِدْ[1]

كِلَانَا بِحَمْدِ اللهِ مُضِلٌّ ، فَعَلَى مَنْ نَحْمِلُ وَعَلَى مَنْ نَدِلُّ ؟
أَمَّا المَطِيَّةُ فَآلِيَةٌ[2] ، وَأَمَّا المَزَادَةُ فَخَالِيَةٌ !

يَشْكُو إِلَيَّ جَمَلِي طُولَ السُّرَى صَبْرٌ جَمِيلٌ ، فَكِلَانَا مُبْتَلَى

وَلَا أَرْتَابُ فِي أَنَّهُ يَحْفَظُ قَوْلَ الفَزَارِيِّ[3] :

---

(١) الناشد : الطالب ، وهو هنا الباحث عمن ضلّ (٢) مقصّرة بطيئة

(٣) مالك بن اسماء الفزارى

كان آباؤه سادة غطفان ، وحكاية البيتين أن أخاه « عيينة بن أسماء » هوى جارية لأخته « هند بنت أسماء » فاستعان بأخيه « مالك » على أخته ، فقال مالك هذين البيتين .
ومن مختار شعره قوله من قصيدة مشهورة :

أَعُيَيْنَ هَلاَّ — إِذْ بُليتَ بحبها كُنْتَ اسْتَعَنْتَ بِفَارِغِ الْعَقْلِ
أَقْبَلْتَ تَبْغِي الْغَوْثَ مِنْ رَجُلٍ وَالْمُسْتَغَاثُ إِلَيْـهِ فِي شُغُلِ ؟

وَلَمْ يَزَلْ أَهْلُ الْأَدَبِ يَشْكُونَ الْغِيَرَ فِي كُلِّ جِيلٍ ، وَهُوَ يَعْرِفُ الْحِكَايَةَ أَنَّ مَسْلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ أَوْصَى لِأَهْلِ الْأَدَبِ بِجُزْءٍ مِنْ مَالِهِ ، وَقَالَ: « إِنَّهُمْ أَهْلُ صِنَاعَةٍ مَجْفُوَّةٍ » وَأَحْسَبُ أَنَّهُمْ وَالْحِرْفَةَ خُلِقَا تَوْءَمَيْنِ ، وَإِنَّمَا يَنْجَحُ بَعْضُهُمْ ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ تَزِلَّ قَدَمُهُ . وَإِذَا كَانَ الْأَدَبُ عَلَى عَهْدِ بَنِي أُمَيَّةَ يُقْصَدُ أَهْلُهُ بِالْجَفْوَةِ ، فَكَيْفَ يَسْلَمُونَ مِنْ بَاسٍ ، عِنْدَ مَمْلَكَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ ؟ وَإِذَا أَصَابَتْهُمُ الْمِحَنُ فِي أَيَّامِ الرَّشِيدِ ، فَكَيْفَ يُطْمَعُ لَهُمْ بِالْحَظِّ الْمَشِيدِ ؟ وَمَنْ بَغَى التَّكَسُّبَ بِهَذَا الْفَنِّ ، فَقَدْ أَوْدَعَ شَرَابَهُ فِي شَنٍّ[1] ، غَيْرِ ثِقَةٍ عَلَى الْوَدِيعَةِ ، بَلْ هِيَ مِنْهُ فِي صَاحِبِ خَدِيعَةٍ ! . . .

*
* *

وَأَمَّا الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ مِنَ الْمُصَحِّفِينَ ، فَغَيْرُ الْبَرَرَةِ وَلَا الْمُنْصِفِينَ ، وَمَا زَالَ التَّتْفُلُ[2] يَعْرِضُ لِأَذَاةِ الْأَسَدِ ، وَمَا أَحْسَبُهُ يَشْعُرُ بِمَكَانِ الْحَسَدِ .

مَا يَضُرُّ الْبَحْرَ أَمْسَى زَاخِراً أَنْ رَمَى فِيـهِ غُلَامٌ بِحَجَرْ

وحديث ألذه ، هو مما يشتهى السامعون ، يوزن وزنا
منطق عاقل ، وتلحن أحيا نا ، وأحلى الحديث ما كان لحنا
. . . .
حبذا يومنا « بتل بؤد » إذ نُسَقَّى شرابنا ونغنَّى
أينما دارت الزجاجة درنا يحسب الجاهلون أنا جننا
ومررنا بنسوة عاطرات وسماع وقرقف ، فنزلنا

(١) الشن : القربة الخلق الصغيرة (٢) الثعلب

أَوَ كُلّمَا طَنَّ الذُّبَابُ أَرُوعُهُ ؟ إِنَّ الذُّبَابَ — إِذَنْ — عَلَيَّ كَرِيمُ!

وَإِنَّ حُسَّادَ الْبَارِعِ لَكَمَا قَالَ الفَرَزْدَقُ :

فَإِنْ تَهْجُ آلَ الزِّبْرِقَانِ ، فَإِنَّمَا . هَجَوْتَ الطِّوَالَ الشُّمَّ مِنْ آلِ يَذْبُلِ

وَقَدْ نَبَحَ الْكَلْبُ النُّجُومَ ، وَدُونَهَا فَرَاسِخُ تُقْصِي نَاظِرَ الْمُتَأَمِّلِ

أبو الطيب المتنبي[1]

فَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ : « أُذُمُّ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أُهَيْلَهُ » فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مُولَعاً بِالتَّصْغِيرِ ، لَا يَقْنَعُ مِنْهُ بِخُلْسَةِ الْمُغِيرِ ، كَقَوْلِهِ :

مَنْ لِي بِفَهْمِ أُهَيْلِ عَصْرٍ يَدَّعِي أَنْ يَحْسُبَ الْهِنْدِيَّ فِيهِمْ بَاقِلُ

وَقَوْلِهِ : « مقَالِي لِلأُحَيْمِقِ يَا حَلِيمُ »

وَقَوْلِهِ : « وَنَامَ الْخُوَيْدِمُ عَنْ لَيْلِنَا »

وَقَوْلِهِ : « أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضِبْنِي شُوَيْعِرٌ »

وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَوْجُودٌ فِي دِيوَانِهِ ، وَلَا مَلَامَةَ عَلَيْهِ ، إِنَّمَا هِيَ عَادَةٌ صَارَتْ كَالطَّبْعِ ، تُغْتَفَرُ مَعَ الْمَحَاسِنِ وَهَذَا الْبَيْتُ الَّذِي أَوَّلُهُ : « أُذُمُّ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أُهَيْلَهُ » إِنَّمَا قَالَهُ فِي عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سَيَّارٍ بِإِنْطَاكِيَةَ قَبْلَ أَنْ يَمْدَحَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ . وَالشُّعَرَاءُ مُطْلَقٌ لَهُمْ ذَلِكَ ، لِأَنَّ الآيَةَ شَهِدَتْ عَلَيْهِمْ بِالتَّخَرُّصِ وَقَوْلِ الْأَبَاطِيلِ : « أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ؟ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ[2] ؟ »

---

(١) ارجع الى (ج ٢ ص ١٣) (٢) أثار هذا الفصل بعد أن ظهرت الطبعتان الأولى والثانية من هذه الرسالة كثيراً من بحوث النقاد والأدباء ، وحفز جمهوراً منهم إلى الإفاضة فى درس المتنبي دراسات واسعة أُلقى بعضها فى مهرجانه الألفى ، وأودع الكثير منها نخبة صالحة من الكتب التى ظهرت حديثاً .

حكاية القطربلى وابن أبى الأزهر

وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ حِكَايَةِ القُطْرُبُلِىِّ وَابْنِ أَبِى الأَزْهَرِ ، فَقَدْ يَجُوزُ مِثْلُهُ ، وَمَا وَضَحَ أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ حُبِسَ بِالْعِرَاقِ ، فَأَمَّا بِالشَّامِ فَحَبْسُهُ مَشْهُورٌ ، وَحُدِّثْتُ أَنَّهُ كَانَ — إِذَا سُئِلَ عَنْ حَقِيقَةِ هَـذَا اللَّقَبِ — قَالَ : « هُوَ مِنَ النَّبْوَةِ » أَى الْمُرْتَفِعِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَكَانَ قَدْ طَمِعَ فِى شَىْءٍ قَدْ طَمِعَ فِيهِ مَنْ هُوَ دُونَهُ ، وَإِنَّمَا هِىَ مَقَادِيرُ ، يَظْفَرُ بِهَا مَنْ وُفِّقَ ، وَلَا يُرَاعُ بِالْمُجْتَهِدِ أَنْ يُخْفِقَ ، وَقَدْ دَلَّتْ أَشْيَاءُ فِى دِيوَانِهِ أَنَّهُ كَانَ مُتَأَلِّهًا . فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

« وَلَا قَابِلاً إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْماً »

وَقَوْلُهُ :

«مَا أَقْدَرَ اللهَ أَنْ يُخْزِى بَرِيَّتَهُ   وَلَا يُصَدِّقَ قَوْماً فِى الَّذِى زَعَمُوا»

*
* *

وَإِذَا رُجِعَ إِلَى الْحَقَائِقِ ، فَنُطْقُ اللِّسَانِ ، لَا يُنْبِئُ عَنِ اعْتِقَادِ الْإِنْسَانِ ، لِأَنَّ الْعَالَمَ مَجْبُولٌ عَلَى الْكَذِبِ وَالنِّفَاقِ(١) ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُظْهِرَ الرَّجُلُ بِالْقَوْلِ تَدَيُّناً ، وَإِنَّمَا يَجْعَلُ ذَلِكَ تَزَيُّناً ، يُرِيدُ أَنْ يَصِلَ بِهِ إِلَى ثَنَاءٍ ، أَوْ غَرَضٍ مِنْ أَغْرَاضِ أُمِّ الْفَنَاءِ(٢) ، وَلَعَلَّهُ قَدْ ذَهَبَ جَمَاعَةٌ هُمْ فِى الظَّاهِرِ مُتَعَبِّدُونَ ، وَفِيمَا بَطَنَ مُلْحِدُونَ

---

(١) وفى ذلك يقول أبو العلاء فى لزومياته :

أمسى النفاق دروعاً يستجن بها   من الأذى ، ويقوى سردها الحلف

(٢) شنع أبو العلاء فى كثير من أبيات لزومياته على هذه الفئة التى تتخذ الدين دائماً وسيلة لنيل أغراض الدنيا ، ونجتزئ من ذلك بقوله :

إذا كشفتَ عن الرهبان حالهمُ   فكلهم يتوخى التبر والورقا

دعبل بن على (١)

وَمَا يَلحَقُنِى الشَّكُّ فِى أَنَّ دِعْبِلَ بْنَ عَلِيّ لمَ يَكُنْ له دِين ، وَكَانَ يتظَاهَرُ بِالتَّشَيُّعِ ، وَإِنَّمَا غرضُهُ التَّكسُّبُ ، وَلا أَرْتَابُ فِى أَنَّ « دِعْبِلًا » كَانَ عَلَى رَأْىِ الْحَكمِىِّ (٢) وَطبقَتِهِ ، وَالزَّنْدَقَةُ فِيهِمْ فَاشِيَةٌ ، وَمِنْ دِيَارِهِمْ نَاشِيَةٌ

أبو نواس

وَقَدِ اخْتُلِفَ فِى أَبِى نُوَاسٍ ، ادُّعِىَ لَهُ التَّأَلُّهُ ، وَأَنَّهُ كَانَ يَقْضِى صَلَوَاتِ نَهَارِهِ فِى لَيْلِهِ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ كَانَ عَلَى مَذْهَبِ غَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ .

مذاهب جعلوها من معائشهم ،   من يعمل الفكر فيها تعطه الأرقا

وقوله :

وإنما حمل التوراة قارئها   كسب الفوائد ، لاحب التلاوات

وقوله :

كذب لا يزال يطعم خبزا   نص عن آدم وعن قابيل

يمتريه جذلانُ مهتبل الغرّة يبدى حزنا على هابيل

وقوله :

وليس حبر ببدع فى صحابته   إن رام نفعاً بأقوال تقولها

وإنما رام نسوانا تزوجها   — بما افتراه — وأموالاً تموّلها

(١) هو « دعبل » الشاعر المشهور بالهجاء ، وهو الذى يقول فيه أبو العلاء فى لزومياته :

لو نطق الدهر هجا أهله   كأنه « الرومى » أو « دعبل »

(٢) هو أبو نواس ، وقد مرت ترجمته فى (ج ٢ ص ١٠)

سذاجة العرب

وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ جَاءَهَا النَّبِيُّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَهِيَ تَرْغَبُ إِلَى الْقَصِيدِ ، وَتَقْصُرُ هِمَمُهَا عَنِ الْقَصِيدِ ، فَاتَّبَعَهُ مِنْهَا مُتَّبِعُونَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ . فَلَمَّا ضَرَبَ الْإِسْلَامُ بِجِرَانِهِ ، وَاتَّسَقَ مُلْكُهُ ، مَازَجَ الْعَرَبُ غَيْرَهُمْ مِنَ الطَّوَائِفِ ، وَسَمِعُوا كَلَامَ الْأَطِبَّاءِ وَأَصْحَابِ الْهَيْئَةِ وَأَهْلِ الْمَنْطِقِ ، فَمَالَتْ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ .

رسالة آدم

وَلَمْ يَزَلِ الْإِلْحَادُ فِي بَنِي آدَمَ عَلَى مَمَرِّ الدُّهُورِ ، حَتَّى إِنَّ أَصْحَابَ السِّيَرِ يَزْعُمُونَ أَنَّ آدَمَ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — بُعِثَ إِلَى أَوْلَادِهِ ، فَأَنْذَرَهُمْ بِالْآخِرَةِ ، وَخَوَّفَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ ، فَكَذَّبُوهُ ، وَرَدُّوا قَوْلَهُ ، ثُمَّ عَلَى ذَلِكَ الْمِنْهَاجِ إِلَى الْيَوْمِ .

زندقة قريش

وَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ : « إِنَّ سَادَاتِ قُرَيْشٍ كَانُوا زَنَادِقَةً » وَمَا أَجْدَرَهُمْ بِذَلِكَ . وَقَالَ شَاعِرُهُمْ يَرْثِي قَتْلَى بَدْرٍ — وَتُرْوَى لِشَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ اللَّيْثِيِّ : —

أَلَمَّتْ بِالتَّحِيَّـــةِ أُمُّ بَكْرٍ ... فَحَيُّوا أُمَّ بَكْرٍ بِالسَّـــلَامِ
وَكَائِنْ بِالطَّوِيِّ طَوِيِّ بَدْرٍ ... مِنَ الْأَحْسَابِ وَالْقَوْمِ الْكِرَامِ
أَلَا يَا أُمَّ بَكْرٍ لَا تُكَرِّي ... عَلَيَّ الْكَأْسَ — بَعْدَ أَخِي هِشَامِ

وَبَعْدَ أَخِى أَبِيهِ — وَكَانَ قَرْمًا(١) مِنَ الْأَقْرَامِ شُرَّابِ الْمُدَامِ
أَلَا مَنْ مُبْلِغُ الرَّحْمٰنِ عَنِّى بِأَنِّى تَارِكٌ شَهْرَ الصِّيَامِ
إِذَا مَا الرَّأْسُ زَايَلَ مَنْكِبَيْهِ فَقَدْ شَبِعَ الْأَنِيسُ مِنَ الطَّعَامِ
أَيُوعِدُنَا «ابْنُ كَبْشَةَ(٢)» أَنْ سَنَحْيَا، وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءٍ(٣) وَهَامِ ؟
أَتَتْرُكُ أَنْ تَرُدَّ الْمَوْتَ عَنِّى وَتُحْيِينِى إِذَا بَلِيَتْ عِظَامِى ؟

وَلَا يَدَّعِى مِثْلَ هَذِهِ الدَّعَاوَى إِلَّا مَنْ يَسْتَبْسِلُ وَرَاءَهَا لِلْحِمَامِ، وَلَا يَأْسَفُ لَهُ عِنْدَ إِلْمَامِ .

عودة إلى أبى الطيب المتنبى

وَحُدِّثْتُ أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ ، لَمَّا حَصَلَ فِى بَنِى عَدِىٍّ ، وَحَاوَلَ أَنْ يَخْرُجَ فِيهِمْ ، قَالُوا لَهُ — وَقَدْ تَبَيَّنُوا دَعْوَاهُ — : «هَا هُنَا نَاقَةٌ صَعْبَةٌ، فَإِنْ قَدَرْتَ عَلَى رُكُوبِهَا أَقْرَرْنَا أَنَّكَ مُرْسَلٌ » وَأَنَّهُ مَضَى إِلَى تِلْكَ النَّاقَةِ وَهِىَ رَائِحَةٌ فِى الْإِبِلِ ، فَتَحَيَّلَ حَتَّى وَثَبَ عَلَى ظَهْرِهَا ، فَنَفَرَتْ سَاعَةً ، وَتَنَكَّرَتْ بُرْهَةً ، ثُمَّ سَكَنَ نِفَارُهَا ، وَمَشَتْ مَشْىَ الْمُسْمِحَةِ(٤) ، وَأَنَّهُ وَرَدَ بِهَا الْحِلَّةَ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهَا ، فَعَجِبُوا لَهُ كُلَّ الْعَجَبِ ، وَصَارَ ذَلِكَ مِنْ دَلَائِلِهِ عِنْدَهُمْ .

---

(١) سيداً عظيماً (٢) يعنى به النبى صلى الله عليه وسلم و « أبو كبشة » جاهلى كان يعبد الشعرى اليمانية ، وترك دين آبائه ، وهجر عبادة الأصنام ، فاستعادت الجاهلية هذا اللقب للنبى لمخالفته لهم وعزوفه عن عبادة أصنامهم ، ودعوته إياهم إلى الإسلام .

(٣) جثث هامدة (٤) التى تلين بعد استصعاب

وَحُدِّثتُ أيْضًا أنَّهُ كَانَ فِي دِيوَانِ اللَّاذِقِيَّةِ ، وَأَنَّ بَعْضَ الْكُتَّابِ انْقَلَبَتْ عَلَى يَدِهِ سِكِّينُ الْأَقْلَامِ ، فَجَرَحَتْهُ جُرْحًا مُفْرِطًا ، وَأَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ تَفَلَ عَلَيْهَا مِنْ رِيقِهِ ، وَشَدَّ عَلَيْهَا غَيْرَ مُنْتَظِرٍ لِوَقْتِهِ ، وَقَالَ لِلْمَجْرُوحِ : « لَا تَحُلَّهَا فِي يَوْمِكَ » — وَعَدَّ لَهُ أَيَّامًا وَلَيَالِيَ — وَأَنَّ ذَلِكَ الْكَاتِبَ قَبِلَ مِنْهُ ، فَبَرِئَ الْجُرْحُ ، فَصَارُوا يَعْتَقِدُونَ فِي أَبِي الطَّيِّبِ أَعْظَمَ اعْتِقَادٍ ، وَيَقُولُونَ : « هُوَ كَمُحْيِي الْأَمْوَاتِ ! »

وَحَدَّثَ رَجُلٌ كَانَ أَبُو الطَّيِّبِ قَدِ اسْتَخْفَى عِنْدَهُ فِي اللَّاذِقِيَّةِ — أَوْ فِي غَيْرِهَا مِنَ السَّوَاحِلِ — : أَنَّهُ أَرَادَ الِانْتِقَالَ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ ، فَخَرَجَ بِاللَّيْلِ وَمَعَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ ، وَلَقِيَهُمَا كَلْبٌ أَلَحَّ عَلَيْهِمَا فِي النُّبَاحِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ ؛ فَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ لِذَلِكَ الرَّجُلِ وَهُوَ عَائِدٌ : « إِنَّكَ سَتَجِدُ ذَلِكَ الْكَلْبَ قَدْ مَاتَ » فَلَمَّا عَادَ الرَّجُلُ ، أَلْفَى الْأَمْرَ عَلَى مَا ذَكَرَ

وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ أَعَدَّ لَهُ شَيْئًا مِنَ الْمَطَاعِمِ مَسْمُومًا ، وَأَلْقَاهُ لَهُ ، وَهُوَ يُخْفِي عَنْ صَاحِبِهِ مَا فَعَلَ .

اختلاف الخواطر

وَأَمَّا الْقُطْرُبُلِّيُّ وَابْنُ أَبِي الْأَزْهَرِ ، فَمِنَ الزَّوْلِ[1] اجْتِمَاعُهُمَا عَلَى تَأْلِيفِ كِتَابٍ ، وَقَلَّمَا يُعْرَفُ مِثْلُ ذَلِكَ .

وَنَحْوٌ مِنْهُ قِصَّةُ « الْخَالِدِيَّيْنِ » اللَّذَيْنِ كَانَا فِي الْمَوْصِلِ ، وَهُمَا شَاعِرَانِ ، وَقَدْ كَانَا عِنْدَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَانْصَرَفَا عَلَى حَدِّ مُغَاضَبَةٍ ، وَلَهُمَا دِيوَانٌ

---

(١) العجب

يُنْسَبُ إلَيْهِمَا ، لاَ يَنْفَرِدُ فِيهِ أَحَدُهُمَا بِشَيْءٍ دُونَ الآخَرِ إلاَّ فِي أَشْيَاءَ قَلِيلَةٍ ، وَهَذَا مُتَعَذِّرٌ فِي وَلَدِ آدَمَ ، إذْ كَانَتِ الْجِبِلَّةُ عَلَى الْخِلاَفِ وَقِلَّةِ الْمُوَافَقَةِ ، فَأَمَّا أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ شَيْئاً مِنْ كِتَابٍ ثُمَّ يُتِمَّهُ الآخَرُ ؛ فَهُوَ أَسْوَغُ فِي الْمَعْقُولِ مِنْ أَنْ يَجْتَمِعَ عَلَيْهِ الرَّجُلاَنِ

*
* *

وَالَّذِينَ رَوَوْا دِيوَانَ أَبِي الطَّيِّبِ ، يَحْكُونَ أَنَّهُ وُلِدَ سَنَةَ ثَلاَثِمَائَةٍ وَثَلاَثٍ ، وَكَانَ طُلُوعُهُ إلَى الشَّامِ سَنَةَ إحْدَى وَعِشْرِينَ(١) ، فَأَقَامَ فِيهِ بُرْهَةً ثُمَّ عَادَ إلَى الْعِرَاقِ ، وَلَمْ تَطُلْ مُدَّتُهُ هُنَاكَ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْخَبَرِ أَنَّ مَدَائِحَهُ فِي صِبَاهُ إنَّمَا هِيَ فِي أَهْلِ الشَّامِ ، إلاَّ قَوْلَهُ :

« كُفِّي ، أَرَانِي — وَيْكِ — لَوْمَكِ أَلْوَمَا(٢) »

الدهـــر(٣)

وَأَمَّا شَكِيَّتُهُ أَهْلَ الزَّمَانِ إلَيْهِ ، فَإنَّهُ سَلَكَ فِي ذَلِكَ مِنْهَاجَ الْمُتَقَدِّمِينَ

---

(١) المراد أنه طلع إلى الشام حين كانت سنه إحدى وعشرين (٢) تتمة البيت قوله : « هم أقام على فؤاد فأنجما » . ومن أجمل ما فى هذه القصيدة قوله :

وخفوق قلب — لو رأيت لهيبه ... يا جنتى ! لظننت فيه جهنما
وإذا سحابة صد حب أبرقت ... تركت حلاوة كل حب علقما
يا وجه داهية الذى لولاك ما ... أكل الضنى جسمى ورض الأعظما
إن كان أغناها السلو ، فاننى ... أمسيت من كبدى ومنها معدما

(٣) الدهر

أشعار أبى العلاء فى الدهر كثيرة تملأ عدة صفحات من لزومياته ، فلنجتزئ هنا

وَقَدْ كَثُرَ الْمَقَالُ فِي ذَمِّ الدَّهْرِ حَتَّى جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ

بالقليل منها عن الكثير، لإظهار مناحى رأيه المتعددة فى الدهر، وإنما نسردها بلا تعليق رغبة فى الايجاز، وهى قوله:

إن رابنا الدهر بأفعاله   فكلنا بالدهر مرتاب

وقوله:

إذا قيل: «غال الدهر شيئاً» فانما   يراد «اله الدهر» والدهر خادم

وقوله:

ولا عقل للدهر — فيما أرى —   فكيف يعاتب إن أذنبا؟

وقوله:

فلو تكلم دهر كان شاكيهم   كما تراهم على الإحسان يشكونه

وقوله:

صحبنا دهرنا دهراً، وقدما   رأى الفضلاء ألا يصحبوه
وغيظ بنوه منه، وغيظ منهم   فعذب ساكنيه وعذبوه
ومن عاداته فى كل جيل   غذاه أن يقل مهذبوه
أساء بجهله أدبا عليهم   فهل من حيلة فيؤدبوه
وما يخشى الوعيد فيوعدوه   ولا يرعى العتاب فيعتبوه

وقوله:

إن خرف الدهر فهو شيخ   يحق بالهتر والزمانه
أضحى سليما بغير داء   لم تبد فى شخصه ضمانه
أعجم قد بين الرزايا   أو جعل الشر ترجمانه

وقوله:

ويا دهر لحاك الله ما هنأت فرحانك!

وقوله:

حلف الدهر جاهدا   وهو بر — إذا حلف
ليبتن كل عقد   إذا نظمه ائتلف

هُوَ الدَّهْرُ، وَقَدْ عُرِفَ مَعْنَى هَذَا الْكَلاَمِ، وَأَنَّ بَاطِنَهُ لَيْسَ كَظَاهِرِهِ، إِذْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ — عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ — لَمْ يَذْهَبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ الدَّهْرَ هُوَ الْخَالِقُ وَلاَ الْمَعْبُودُ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ: «وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ»

*
* *

وَقَوْلُ بَعْضِ النَّاسِ: «الزَّمَانُ حَرَكَةُ الْفَلَكِ» لَفْظٌ لاَ حَقِيقَةَ لَهُ، وَفِي كِتَابِ «سِيبَوَيْهِ» مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الزَّمَانَ عِنْدَهُ مُضِيُّ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. وَقَدْ حَدَدْتُهُ حَدًّا — مَا أَجْدَرَهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ سُبِقَ إِلَيْهِ — إِلاَّ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ — وَهُوَ أَنْ يُقَالَ: «الزَّمَانُ شَيْءٌ أَقَلُّ جُزْءٍ مِنْهُ يَشْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ الْمُدْرَكَاتِ» وَهُوَ فِي ذَلِكَ ضِدُّ الْمَكَانِ، لِأَنَّ أَقَلَّ جُزْءٍ مِنْهُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَى شَيْءٍ، كَمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الظُّرُوفُ، فَأَمَّا الْكَوْنُ فَلاَ بُدَّ مِنْ تَشَبُّثِهِ بِمَا قَلَّ وَكَثُرَ(١)

---

(١) الزمان

هذا التعريف — هو فى اعتقادنا أدق تعريف فلسفى صحيح عرفناه للزمن، وقد ذكره أبو العلاء فى لزومياته فقال: «وأيسر كون تحته كل عالم»

ومضى فى فكرته فى عجز هذا البيت فبيّن سرعة الزمان، فقال: «ولا تدرك الأكوان جرد صلادم» ثم قسم الأزمان فى البيتين التاليين من هـذه القصيدة إلى ماض اندثر فاستحالت عودته؛ ومستقبل آت سيندثر بعد حين، فقال:

إذا هى مرت لم تعد، ووراءها نظائر، والأوقات ماض وقادم
فما آب منها — بعد ما غاب — غائب ولا يعدم الحين المجدد عادم

وقد ذكر شطر هذا الرأى فى «سقط الزند» فقال:

أمس الذى مر — على قربه — يعجز أهل الأرض عن رده

وَالَّذِينَ قَالُوا : « وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ » وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَالِ ، مِثْلَ الْبَيْتِ الْمَنْسُوبِ إِلَى الأَخْطَلِ — وَذَكَرَهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ لِشَمْعَلَةَ التَّغْلَبِيِّ) وهُوَ :

فَإِنَّ أَمِــيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَفِعْلَهُ　　لَكَالدَّهْرِ — لَا عَارٌ بِمَا فَعَلَ الدَّهْرُ

وَقَوْلِ الآخَرِ :

الدَّهْرُ لَاءَمَ بَيْنَ أُلْفَتِنَــا　　وَكَذَاكَ فَرَّقَ بَيْنَنَا الدَّهْرُ

وَقَوْلِ أَبِي صَخْرٍ :

وذكر العجز منه فى بيته الآخر وهو قوله :

أرى الوقت يفنى أنفسا بفنائه　　ويمحو ، فما يبقى الحديث ولا الرسم

وهذا الرأى ، لا يناقض قوله فى الدليل على قدم الزمن :

أرى زمنـا تقادم غير فان　　فسبحان المهيمن ذى الكمال

*
* *

وبين أن القادم من الزمان « المستقبل » مجهول لا يعرف إلا بعـد مرور الزمن الذى يكشف الغطاء عن أسراره ، فقال :

الساع آنية الحوادث ، ما حوت　　لم يبد إلا بعد كشف غطائها

وقد ذكر هـذا المعنى « پوب » الشاعر الانجليزى ، بصيغة أخرى ، وترجمه الاستاذ العقاد ، وهو :

إنمـا الغيب كتاب صانه　　عن عيـون الخلق رب العالمين

ليس يبدو منــه للناس سوى　　صفحة الحاضر — حينا بعد حين

*
* *

وكثيراً ما شبه أبو العلاء الزمان بالطائر . فمن ذلك قوله :

وما الوقت إلا طائر يقطع المـدى　　فبادره — إذْ كل النهى فى بداره

وقوله :

يبغى التشبث بالأوقات جائزها　　هيهات ! ما الوقت إلا طائر طارا

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ... فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

لَمْ يَدَّعِ أَنَّ أَحَداً مِنْهُمْ كَانَ يُقَرِّبُ لِلأَفْلاكِ الْقَرَابِينَ ، وَلا يَزْعُمُ أَنَّهَا تَعْقِلُ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ شَيْءٌ يَتَوَارَثُهُ الأُمَمُ فِي زَمَانٍ بَعْدَ زَمَانٍ .

شاتم الدهـــر

وَكَانَ فِي عَبْدِ الْقَيْسِ شَاعِرٌ يُقَالُ لَهُ « شَاتِمُ الدَّهْرِ » وَهُوَ الْقَائِلُ :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الدَّهْرَ وَعْراً سَبِيلُهُ ... وَأَبْدَى لَنَا وَجْهاً أَزَبَّ مُجَـــدَّعَا

وَجَبْهَةَ قِرْدٍ - كَالشِّرَاكِ - ضَئِيلَةً ... وَأَنْفاً ، وَلَوَّى بِالْعَثَانِينِ أَخْـــدَعَا

ذَكَرْتُ الْكِرَامَ الذَّاهِبِينَ أُولِي النَّدَى ... وَقُلْتُ لِعَمْرٍو وَالْحُسَامِ : « أَلاَ دَعَا ! »

الزندقة والزنادقة

وَأَمَّا غَيْظُهُ عَلَى الزَّنَادِقَةِ وَالْمُلْحِدِينَ ، فَأَجْرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، كَمَا أَجْرَهُ عَلَى الظَّمَإِ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ ، وَاصْطِلاءِ الشَّمْسِ بِعَرَفَةَ ، وَمَبِيتِهِ بِالْمُزْدَلِفَةِ .

وَلاَ رَيْبَ أَنَّهُ ابْتَهَلَ إِلَى اللهِ — سُبْحَانَهُ — فِي الأَيَّامِ الْمَعْدُودَاتِ وَالْمَعْلُومَاتِ ، أَنْ يُثَبِّتَ هِضَابَ الإِسْلامِ .

وَلَـكِنَّ الزَّنْدَقَةَ دَاءٌ قَدِيمٌ ، وَقَدْ رَأَى بَعْضُ الْفُقَهَاءِ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا ظَهَرَتْ زَنْدَقَتُهُ ، ثُمَّ تَابَ فَزَعًا مِنَ الْقَتْلِ ، لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ . وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ؛ لِأَنَّ الْمُرْتَدَّ إِذَا رَجَعَ ، قُبِلَ مِنْهُ الرُّجُوعُ ، وَلاَ مِلَّةَ إِلاَّ وَلَهَا قَوْمٌ مُلْحِدُونَ !

وَقَدْ كَانَتْ مُلُوكُ الْفُرْسِ تَقْتُلُ عَلَى الزَّنْدَقَةِ ، وَالزَّنَادِقَةُ هُمُ الَّذِينَ يُسَمَّوْنَ « الدَّهْرِيَّةَ » وَلاَ يَقُولُونَ بِنُبُوَّةٍ وَلاَ كِتَابٍ .

بشار بن برد[١]

وَ « بشَّارٌ » إِنَّمَا أَخَذَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِهِ ، وَقَدْ رُوِىَ : إِنَّهُ وُجِدَ فِى كُتُبِهِ رُقْعَةٌ مَكْتُوبٌ فِيهَا : « إِنِّى أَرَدْتُ أَنْ أَهْجُوَ « فُلاَنَ بْنَ فُلاَنٍ الهَاشِمِىَّ » فَصَفَحْتُ عَنْهُ لِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . »

وَزَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ يُشَارُّ « سِيبَوَيْهِ » وَأَنَّهُ حَضَرَ يَوْماً حَلْقَةَ يُونُسَ بْنَ حَبِيبٍ ، فَقَالَ : « هَلْ هُنَا مَنْ يَرْفَعُ خَبَراً ؟ » فَقَالُوا : « لاَ » فَأَنْشَدَهُمْ :

« بَنِى أُمَيَّةَ هُبُّوا مِنْ رُقَادِكُمُ ... إِنَّ الْخَلِيفَةَ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدِ
لَيْسَ الْخَلِيفَةُ بِالْمَوْجُودِ ، فَالْتَمِسُوا ... خَلِيفَةَ اللهِ بَيْنَ النَّاىِ وَالْعُودِ[٢] »

وَكَانَ فِى الْحَلْقَةِ سِيبَوَيْهِ[٣] فَيَدَّعِى بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ وَشَى بِهِ ، وَسِيبَوَيْهِ — فِيمَا أَحْسَبُ — كَانَ أَجَلَّ مَوْضِعاً مِنْ أَنْ يَدْخُلَ فِى هَذِهِ الدَّنِيَّاتِ ، بَلْ يَعْمِدُ لِأُمُورٍ سَنِيَّاتٍ .

⁂

وَحُكِىَ عَنْهُ أَنَّهُ عَابَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ :

« عَلَى « الْغَزَلَى » مِنِّى السَّلاَمُ ، فَطَالَمَا ... لَهَوْتُ بِهَا فِى ظِلِّ مُخْضَرَّةٍ زُهْرِ »

فَقَالَ « سِيبَوَيْهِ » : (لَمْ تَسْتَعْمِلِ الْعَرَبُ « الْغَزَلَى ! »)

فَقَالَ بَشَّارٌ : « هَذَا مِثْلُ قَوْلِهِمْ « الْبَشَكَى » وَ « الْجَمَزَى » وَنَحْوِ ذَلِكَ »

وَجَاءَ « بَشَّارٌ » فِى شِعْرِهِ بِالنِّينَانِ[٤] ، فَيُقَالُ إِنَّهُ أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ ، وَهَذِهِ

---

(١) ارجع الى ترجمته فى (ج ٢ . ص ١٣٨) من هـــذا الكتاب (٢) يروى : « ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا . . . » (٣) ارجع الى ترجمته فى (ج ٢ . ص ٢٠)
(٤) جمع نون ، وهو « الحوت »

أَخْبَارٌ لاَ تَثْبُتُ . وَفِيمَا رُوِىَ فِى كِتَابِ « سِيبَوَيْهِ » أَنَّ « النُّونَ » تُجْمَعُ عَلَى « نِينَانٍ[١] » فَهٰذَا نَقْضٌ لِلْخَبَرِ .

*
* *

وَذَكَرَ مَنْ نَقَلَ أَخْبَارَ « بَشَّار » أَنَّهُ تَوَعَّدَ « سِيبَوَيْهِ » بِالْهِجَاءِ، وَأَنَّهُ تَلَافَاهُ وَاسْتَشْهَدَ بِشِعْرِهِ؛ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْتِشْهَادُهُ بِهِ عَلَى نَحْوِ مَا يَذْكُرُهُ الْمُتَذَاكِرُونَ فِى الْمَجَالِسِ وَمَجَامِعِ الْقَوْمِ . وَأَصْحَابُ « بَشَّارٍ » يَرْوُونَ لَهُ هٰذَا الْبَيْتَ .

« وَمَا كُلُّ ذِى لُبٍّ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ   وَمَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ »

وَفِى كِتَابِ (سِيبَوَيْهِ) نِصْفُ هٰذَا الْبَيْتِ الآخِرِ ، وَهُوَ فِى بَابِ الْإِدْغَامِ لَمْ يُسَمَّ قَائِلُهُ ، وَزَعَمَ غَيْرُهُ أَنَّهُ لِأَبِى الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِىِّ !

*
* *

وَيُقَالُ إِنَّ « يَعْقُوبَ بْنَ دَاوُدَ » وَزِيرَ الْمَهْدِىِّ ، تَحَامَلَ عَلَى بَشَّارٍ حَتَّى قُتِلَ . وَاخْتُلِفَ فِى سِنِّهِ ، فَقِيلَ كَانَ — يَوْمَئِذٍ — ابْنَ ثَمَانِينَ سَنَةً ، وَقِيلَ أَكْثَرَ ، وَاللّٰهُ الْعَالِمُ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ .

وَلَا أَحْكُمُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ مَا ذَكَرْتُ فِيمَا تَقَدَّمَ[٢] ، لِأَنِّى عَقَدْتُهُ بِمَشِيئَةِ اللّٰهِ ، وَإِنَّ اللّٰهَ لَحَلِيمٌ وَهَّابٌ !

*
* *

وَذَكَرَ صَاحِبُ كِتَابِ « الْوَرَقَةِ » جَمَاعَةً مِنَ الشُّعَرَاءِ فِى طَبَقَةِ أَبِى نُوَاسٍ وَمَنْ قَبْلَهُ ، وَوَصَفَهُمْ بِالزَّنْدَقَةِ . وَسَرَائِرُ النَّاسِ مُغَيَّبَةٌ ، وَإِنَّمَا يَعْلَمُ بِهَا عَلَّامُ الْغُيُوبِ . وَكَانَتْ تِلْكَ الْحَالُ تُكْتَمُ فِى ذٰلِكَ الزَّمَانِ خَوْفًا مِنَ السَّيْفِ ،

---

(١) وتجمع أيضاً على « أنوان »   (٢) تخيل أبو العلاء فى الجزء الثانى أن التوبة لم تلحق بشار ، وأنه فى أصناف العذاب ، ارجع الى (ج ٢ ص ١٤٠)

فَالآنَ ظَهَرَ نَجِيثُ(١) الْقَوْمِ وَانْقَاضَتِ التَّرِيكَةُ(٢) عَنْ أَخْبَثِ رَأْلٍ(٣)

نادرة من نوادر الزنادقة

وَكَانَ فِى ذَلِكَ الْعَصْرِ رَجُلٌ لَهُ أَصْدِقَاءُ مِنَ الشِّيعَةِ، وَصَدِيقٌ زِنْدِيقٌ، فَدَعَا الْمُتَشَيِّعَةَ فِى بَعْضِ الْأَيَّامِ، فَجَاءَ الزِّنْدِيقُ، فَقَرَعَ حَلْقَةَ الْبَابِ، وَقَالَ:

«أَصْبَحْتُ جَمَّ بَلَابِلِ(٤) الصَّدْرِ   مُتَقَسَّمَ الْأَشْجَانِ وَالْفِكْرِ»

فَقَالَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ: (وَيْحَكَ! مِمَّ ذَا؟) فَتَرَكَهُ الزِّنْدِيقُ وَمَضَى. فَلَقِيَهُ صَاحِبُ الْمَأْدُبَةِ، فَقَالَ لَهُ: «يَا هَذَا! أَرَدْتَ أَنْ تُوقِعَنِى فِيمَا أَكْرَهُ!» خَوْفًا مِنْ أَنْ يَظُنَّ أَصْدِقَاؤُهُ أَنَّهُ زِنْدِيقٌ، فَقَالَ: «اُدْعُهُمْ ثَانِيَةً، وَأَعْلِمْنِى بِمَكَانِهِمْ» فَلَمَّا حَصَلُوا عِنْدَهُ، جَاءَ الزِّنْدِيقُ فَقَالَ:

«أَصْبَحْتُ جَمَّ بَلَابِلِ(٤) الصَّدْرِ   مُتَقَسَّمَ الْأَشْجَانِ وَالْفِكْرِ»

فَقَالُوا: «وَيْحَكَ مِمَّ ذَا؟» فَقَالَ: «مِمَّا جَنَاهُ عَلَى «أَبِى الْحَسَنِ(٥)»: «عُمَرُ» وَصَاحِبُهُ «أَبُو بَكْرٍ»!» فَفَرِحَ الشِّيعَةُ بِذَلِكَ. وَلَقِيَهُ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ، فَقَالَ: «جُزِيتَ عَنِّى خَيْرًا، فَقَدْ خَلَّصْتَنِى مِنَ الشُّبْهَةِ!».

نادرة أخرى

وَكَانَ يَجْلِسُ فِى مَجْلِسِ الْبَصْرَةِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَكَانَ فِيهِمْ رَجُلٌ زِنْدِيقٌ، لَهُ سَيْفَانِ قَدْ سَمَّى أَحَدَهُمَا «الْخَيْرَ» وَالآخَرَ «الْفَلَحَ(٦)»

---

(١) أى بدا سرهم الذى كانوا يخفونه، ومن أمثالهم: بدا نجيث القوم، أى افتضح سرهم
(٢) انقاضت: انكسرت وانفضّت. والتريكة: بيضة النعام (٣) ولد النعام
(٤) وساوس (٥) يعنى على بن أبى طالب (٦) الفلح: الفوز بما يغتبط به

فإذا سَلَّمَ عَلَيهِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، قالَ : « صَبَّحَكَ الْخَيْرُ ، وَمَسَّاكَ الْفَلَحُ » ثُمَّ يَلْتَفِتُ لِأَصْحابِهِ الذينَ قَدْ عَرَفُوا مَكانَ السَّيفَيْنِ ، فيقُولُ :

« سَيفَانِ كَالْبَرْقِ إِذا الْبَرْقُ لَمَحْ ! » .

عودة إلى أبي نواس[1]

أمَّا قَوْلُ الْحَكَمِيِّ[2] : « تِيهُ مُغَنٍّ وَظَرْفُ زِنْدِيق » فَقَدْ عِيبَ عَلَيهِ هَذا الْمَعْنَى ، وقيلَ إِنَّهُ أَرادَ رَجُلًا مِنْ بَنِي الْحَارِثِ كَانَ مَعْرُوفًا بِالزَّنْدَقَةِ وَالظَّرْفِ ، وكَانَ لهُ مَوْضِعٌ مِنَ السُّلْطَانِ .

صالح بن عبد القدوس

وَأَمَّا صالحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُّوسِ ، فَقَدْ شُهِرَ بِالزَّنْدَقَةِ ، وَلَمْ يُقْتَلْ — وللهِ العلمُ — حَتَّى ظَهرَتْ عَنهُ مَقالَاتٌ توجِبُ ذَلِكَ . وَيُرْوَى لِأَبِيهِ عَبْدِ الْقُدُّوسِ :

« كَمْ أَهْلَكَتْ مَكَّةُ مِنْ زَائِرٍ ... خَرَّبَهَا اللهُ وَأَبْيَاتَهَا

لا رَزَقَ الرَّحْمَٰنُ أَحْيَاءَهَا ... وَأَشْوَتَ[3] الرَّحْمَةُ أَمْوَاتَهَا »

وَلَقَدْ كَانَ لِصَالِحٍ وَلَدٌ ، حُبِسَ عَلَى الزَّنْدَقَةِ حَبْسًا طَوِيلًا ، وَهُوَ الَّذِي يُرْوَى لَهُ :

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا — وَنَحْنُ مِنَ أَهْلِهَا — ... فَمَا نَحْنُ بِالْأَمْوَاتِ فِيهَا وَلَا الْأَحْيَا

إِذَا مَا أَتَانَا زَائِرٌ مُتَفَقِّدٌ ... فَرِحْنَا ، وَقُلْنَا : « جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا ! »

وَأَمَّا رُجُوعُهُ عَنِ الزَّنْدَقَةِ لَمَّا أَحَسَّ بِالْقَتْلِ ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْخَتْلِ .

---

(١) ارجع الى (ج٢ص١٠، وكذلك ص٢١٩من هذا الجزء) (٢) هو أبو نواس (٣) أخطأت

فَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ، فَقَدْ رُوِىَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ ، وَالْخَيْرُ مَعَ السَّيْفِ ، وَالْخَيْرُ فِى السَّيْفِ ، وَالْخَيْرُ بِالسَّيْفِ ! » وَفِى حَدِيثٍ آخَرَ :

« لَا تَزَالُ أُمَّتِى بِخَيْرٍ مَا حَمَلَتِ السَّيْفَ »

وَالسَّيْفُ حَمَلَ صَالِحاً[1] عَلَى التَّصْدِيقِ ، وَرَدَّهُ عَنْ رَأْىِ الزِّنْدِيقِ[2] ! . . . .

الصناديقى

وَأَمَّا الْمَنْسُوبُ إِلَى الصَّنَادِيقِ ، فَإِنَّمَا يُحْسَبُ مِنَ الزَّنَادِيقِ ، وَأَحْسَبُهُ الَّذِى كَانَ يُعْرَفُ بِالْمَنْصُورِ . ظَهَرَ سَنَةَ سَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَأَقَامَ بُرْهَةً بِالْيَمَنِ ، وَفِى زَمَانِهِ كَانَتِ الْقِيَانُ تَلْعَبُ بِالدُّفِّ ، وَتَقُولُ :

« خُذِى الدُّفَّ يَا هَذِهِ وَالْعَبِى ... وَبُثِّى فَضَائِلَ هَذَا النَّبِى
تَوَلَّى نَبِىُّ بَنِى هَاشِمٍ ... وَقَامَ نَبِىُّ بَنِى يَعْرُبِ
فَمَا تَبْتَغِى السَّعْىَ عِنْدَ الصَّفَا ... وَلَا زَوْرَةَ الْقَبْرِ فِى « يَثْرِبِ »

(١) هو صالح بن عبد القدوس الذى مر ذكره (٢) كرر أبو العلاء هذا المعنى فى لزومياته بطرق شتى ، فمن ذلك قوله :

إذا ما ألحدت أمم بجهل ... فقابِلْها بتوحيد السيوف

وقوله :

تمادَوا فى الضلال ولم يتوبوا ... ولو سمعوا صليل السيف — تابوا

وقوله :

أبدى « العتاهىّ » نسكا ... وتاب من ذكر عُتبهْ
والخوف ألزم « سفيا ... ن » أن يغرق كتبه

وأمعن فى التهكم والسخرية فى قوله :

تلوْا باطلا ؛ وجلَوا صارما ... وقالوا : « صدقنا ؟ » فقلنا : « نعم ! »

إِذَا الْقَوْمُ صَلَّوْا ، فَلَا تَنْهَضِي وَإِنْ صَوَّمُوا ، فَكُلِي وَاشْرَبِي

* * *

وَلَا تَحْرِمِي نَفْسَكِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَقْرَبِينَ وَمِنْ أَجْنَبِي (١)

---

(١) المزدكية

هذا الرأى هو رأى جماعة « المزدكيــة » وهم أتباع « المذهب المزدكى » المنسوب الى « مزدك » وهو رجل ادعى النبوة على عهد خسرو قباذ ، والد أنوشروان ، وزعم أن الله بعثه ليأمر « بشيوع النساء والأموال بين الناس كافة ، كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ ، لأنهم كلهم إخوة ، أولاد أب واحد » وكان يتوهم أن ذلك يحسم أسباب المنازعات بينهم ، لأنها إنما تحدث بسبب النساء والمال ، فانقاد قباذ إلى مذهبه ، وأباح له أن يخلو بالملكة زوجه ؛ فترامى ابنه أنو شروان على قدمى قباذ ، باكياً متوسلا إليه ، ليعدل عن ذلك ، وما زال به حتى رجع عن فكرته ، فلما ولى الملك بدأ بقتل مزدك ، انتقاماً منه على ما هم به ، ولم يقبل توسلاته اليه ، وقال له : « لن أنسى نتن قدميك — حين قبلتهما » ثم استأصل أصحابه وشيعته

وفى كتاب الملل والنحـــل للشهرستانى نبذة مفيدة فى بيان هذا المذهب ، فليرجع إليها من شاء

والمنصور الصناديقى هذا ، هو أحد من اعتنقوا ذلك المذهب ودعوا إليه ، وقد جاء ذكره فى رسالة ابن القارح ، وأنه كان يجمع فى دار خاصة ، نساء البلد ورجالها ليلا ؛ ويأمرهم بالاختلاط « حتى لا يتميز مال من مال ، ولا ولد من ولد ! »

* * *

أما رأى أبى العلاء فى المزدكية ، فيدلك على سخطه الشديد عليها قوله :

أقــروا بالإله وأثبتــوه وقالوا : « لا نبى ولا كتاب . . .

ووطء بناتنا حــل مباح » رويدكم ! فقد بطل العتاب

تمادوا فى الضلال — ولم يتوبوا — ولو سمعوا صليل السيف ، تابوا

فَكَيْفَ حَلَلْتِ لِذَاكَ الْغَرِيــــبِ وَصِرْتِ مُحَرَّمَةً لِلْأَبِ ؟
أَلَيْسَ الْغِرَاسُ لِمَنْ رَبَّهُ وَرَوَّاهُ فِي عَامِهِ الْمُجْدِبِ ؟
وَمَا الْخَمْرُ إِلاَّ كَمَاءِ السَّحَا بِ طِلْقٌ، فَقُدِّسْتَ مِنْ مَذْهَبِ !»

فَعَلَى مُعْتَقِدِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ بَهْلَةُ الْمُبْتَهِلِينَ ! وَهَذِهِ الطَّبَقَةُ — لَعَنَهَا اللهُ — تَسْتَعْبِدُ الطَّغَامَ بِأَصْنَافٍ مُخْتَلِفَةٍ !

دعوى الربوبيـــة

وَقَدْ كَانَ بِالْيَمَنِ رَجُلٌ يَحْتَجِبُ فِي حِصْنٍ لَهُ، وَيَكُونُ الْوَاسِطَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ خَادِماً لَهُ أَسْوَدَ، قَدْ سَمَّاه «جِبْرِيلَ» فَقَتَلَهُ الْخَادِمُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ وَانْصَرَفَ، فَقَالَ بَعْضُ الْمُجَّانِ :

« تَبَارَكَ اللهُ فِي عُلَاهُ فَرَّ مِنَ الْفِسْقِ جَبْرَئِيلُ
وَضَلَّ مَنْ تَزْعُمُونَ رَبًّا وَهْوَ عَلَى عَرْشِهِ قَتِيلُ »

وَيُقَالُ : إِنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ مَا كَانَ يُكَلِّفُهُ مِنَ الْفِسْقِ

وَإِذَا طَمِعَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَقْنَعُ بِالْإِمَامَةِ، وَلَا النُّبُوَّةِ، وَلَكِنَّهُ يَرْتَفِعُ صُعُدًا فِي الْكَذِبِ !

☆
☆ ☆

وَلَمْ تَكُنِ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تُقْدِمُ عَلَى هَذِهِ الْعَظَائِمِ ، بَلْ كَانَتْ

وقوله :

شر النساء مشاعات — يكنّ لنا كالأرض — يحملن أبناء مشاعينا

عُقُولَهُمْ تَجْنَحُ إلى رأْيِ الْحُكَمَاءِ ، وَمَا سلَفَ مِنْ كُتُبِ الْقُدَمَاءِ — إذْ كَانَ أكْثَرُ الْفَلاسِفَةِ لا يَقُولُونَ بِنَبِيٍّ ، وَيَنْظُرُونَ إلَى ذَلِكَ بِعَيْنِ الْغَبِيِّ .

ربيعة بن أمية بن خلف الجمحى

وَكَانَ رَبِيعَةُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفِ الْجُمَحِيُّ جَرَى لَهُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ — رَحِمَهُ اللهُ — خَطْبٌ ، فَلَحِقَ بِالرُّومِ ، وَيُرْوَى أَنَّهُ قَالَ :

« لَحِقْتُ بِأَرْضِ الرُّومِ — غَيْرَ مُفَكِّرٍ ... بِتَرْكِ صَلَاةٍ مِنْ عِشَاءٍ وَلَا ظُهْرِ
فَلَا تَتْرُكُونِي مِنْ صَبُوحٍ مُدَامَةٍ ... فَمَا حَرَّمَ اللهُ السُّلَافَ[١] مِنَ الْخَمْرِ
إذَا أُمِّرَتْ[٢] « تَيْمُ بْنُ مُرَّةَ » فِيكُمُ ... فَلَا خَيْرَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ وَلَا مِصْرِ
فَإِنْ يَكُ إِسْلَامِي هُوَ الْحَقَّ وَالْهُدَى ... فَإِنِّي قَدْ خَلَّيْتُهُ لِأَبِي بَكْرٍ ! »

*
* *

وَافْتَتَنَ النَّاسُ فِي الضَّلَالَةِ ، حَتَّى اسْتَجَازُوا دَعْوَى الرُّبُوبِيَّةِ ، فَكَانَ ذَلِكَ تَنَطُّساً[٣] فِي الْكُفْرِ ، وَجَمْعاً لِلْمَعْصِيَةِ ، وَإِنَّمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَدْفَعُونَ النُّبُوَّةَ ، وَلَا يُجَاوِزُونَ ذَلِكَ إِلَى سِوَاهُ .

سُمير بن أدكن

وَلَمَّا أَجْلَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ — رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ — أَهْلَ الذِّمَّةِ عَنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْجَالِينَ . فَيُقَالُ إِنَّ رَجُلًا مِنْ يَهُودِ بَنِي خَيْبَرَ ، يُعْرَفُ بِسُمَيْرِ بْنِ أَدْكَنَ ، قَالَ فِي ذَلِكَ :

---

(١) ما تحلّب وسال قبل العصر ، وهو أفضل الخمر (٢) صارت أميرة (٣) تأنقاً

« يَصُولُ أَبُو حفْص عَلَيْنَا بِدِرَّةٍ(١) ... رُوَيْدَكَ ، إِنَّ المَرْءَ يَطْفُو وَيَرْسُبُ
كَأَنَّكَ لَمْ تَتْبَعْ حُمُولَةَ مَاقِطٍ ... لِتَشْبَعَ ، إِنَّ الزَّادَ شَيْءٌ مُحَبَّبُ
فَلَوْ كَانَ « مُوسَى » صَادِقًا مَا ظَهَرْتُمُ ... عَلَيْنَا ، وَلَكِنْ دَوْلَةٌ ثُمَّ تَذْهَبُ
وَنَحْنُ سَبَقْنَاكُمْ إِلَى الْمَيْنِ ، فَاعْرِفُوا ... لَنَا رُتْبَةَ الْبَادِي الَّذِي هُوَ أَكْذَبُ
مَشَيْتُمْ عَلَى آثَارِنَا فِي طَرِيقِنَا ... وَبُغْيَتُكُمْ فِي أَنْ تَسُودُوا وَتُرْهَبُوا »

* * *

وَمَا زَالَ الْيَمَنُ — مُنْذُ كَانَ — مَعْدِنًا لِلْمُتَكَسِّبِينَ بِالتَّدَيُّنِ ، وَالْمُحْتَالِينَ عَلَى السُّحْتِ بِالتَّزَيُّنِ . وَحَدَّثَنِي مَنْ سَافَرَ إِلَى تِلْكَ النَّاحِيَةِ : أَنَّ بِهِ الْيَوْمَ جَمَاعَةً ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ الْقَائِمُ الْمُنْتَظَرُ ، فَلَا يَعْدَمُ جِبَايَةً مِنْ مَالٍ ، يَصِلُ بِهَا إِلَى خَسِيسِ الآمَالِ .

القـــرامطة

وَحُكِيَ لِي أَنَّ لِلْقَرَامِطَةِ بِالْأَحْسَاءِ بَيْتًا يَزْعُمُونَ أَنَّ إِمَامَهُمْ يَخْرُجُ مِنْهُ ، وَيُقِيمُونَ عَلَى بَابِ ذَلِكَ الْبَيْتِ فَرَسًا بِسَرْجٍ وَلِجَامٍ ، وَيَقُولُونَ لِلْهَمَجِ وَالطَّغَامِ : « هَذَا الْفَرَسُ لِرِكَابِ الْمَهْدِيِّ ، يَرْكَبُهُ مَتَى ظَهَرَ(٢) » ، وَإِنَّمَا

---

(١) سوط يضرب به (٢) وفى ذلك يقول أبو العلاء :

يرقب الناس أن يقوم إمام ... ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذب الظن ، لا إمام سوى العقـ ... ـل مشيراً فى صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرحـ ... ـمة عند المسير والإرساء
إنما هذه المذاهب أسبا ... ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
كالذى قام يجمع « الزنج » بالبصـ ... ـرة « والقرمطىّ » بالأحساء
فانفرد ما استطعت ، فالقائل الصا ... دق يضحى ثقلا على الجلساء

غَرَضُهُمْ بِذَلِكَ خَدْعٌ وَتَعْلِيلٌ، وَتَوَصُّلٌ إِلَى المَمْلَكَةِ وَتَضْلِيلٌ.

وَمِنْ أَعْجَبِ مَا سَمِعْتُ أَنَّ بَعْضَ رُؤَسَاءِ القَرَامِطَةِ فِي الدَّهْرِ القَدِيمِ، لَمَّا حَضَرَتْهُ المَنِيَّةُ، جَمَعَ أَصْحَابَهُ، وَجَعَلَ يَقُولُ لَهُمْ — لَمَّا أَحَسَّ بِالمَوْتِ —: «إِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى النَّقْلَةِ، وَقَدْ كُنْتُ بَعَثْتُ مُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدًا، وَلَا بُدَّ لِي أَنْ أَبْعَثَ غَيْرَ هَؤُلَاءِ» فَعَلَيْهِ اللَّعْنَةُ، لَقَدْ كَفَرَ أَعْظَمَ الكُفْرِ فِي السَّاعَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يُؤْمِنَ فِيهَا الكَافِرُ، وَيَؤُوبَ إِلَى آخِرَتِهِ المُسَافِرُ!

الوليد بن يزيد

وَأَمَّا الوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ، فَكَانَ عَقْلُهُ عَقْلَ وَلِيدٍ، وَقَدْ بَلَغَ سِنَّ الكَهْلِ الجَلِيدِ، وَقَدْ رُوِيَتْ لَهُ أَشْعَارٌ، يَلْحَقُ بِهِ مِنْهَا العَارُ، كَقَوْلِهِ:

«أَدْنِيَا مِنِّي خَلِيلِي ... «عَبْدَلًا» دُونَ الإِزَارِ
فَلَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنِّي ... غَيْرُ مَبْعُوثٍ لِنَارِ
وَاتْرُكَا مَنْ يَطْلُبُ الجَنَّةَ ... يَسْعَى فِي خَسَارِ
سَأَرُوضُ النَّاسَ، حَتَّى ... يَرْكَبُوا دِينَ الحِمَارِ»

فَالعَجَبُ لِزَمَانٍ صَيَّرَ مِثْلَهُ إِمَامًا. وَلَعَلَّ غَيْرَهُ — مِمَّنْ مَلَكَ — يَعْتَقِدُ مِثْلَهُ أَوْ قَرِيبًا، وَلَكِنْ يُسَايِرُ وَيَخَافُ تَثْرِيبًا. وَمِمَّا يُرْوَى لَهُ:

«أَنَا الإِمَامُ الوَلِيدُ مُفْتَخِرًا ... أَجُرُّ بُرْدِي، وَأَسْمَعُ الغَزَلَا
مَا العَيْشُ إِلَّا سَمَاعُ مُحْسِنَةٍ ... وَقَهْوَةٌ تَتْرُكُ الفَتَى ثَمِلَا
أَسْحَبُ ذَيْلِي إِلَى مَنَازِلِهَا ... وَلَا أُبَالِي مَنْ لَامَ أَوْ عَذَلَا
لَا أَرْتَجِي الحُورَ فِي الخُلُودِ، وَهَلْ ... يَأْمُلُ حُورَ الجِنَانِ مَنْ عَقَلَا؟

إِذَا حَبَتْكَ الْوِصَالَ غَانِيَةٌ　　فَجَازِهَا بَذْلَهَا ، كَمَنْ وَصَلَا »

وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمَّا احِيطَ بِهِ ، دَخَلَ الْقَصْرَ وَأَغْلَقَ بَابَهُ ، وَقَالَ :

دَعُوا لِيَ هِنْداً وَالرَّبَابَ وَفَرْتَنَى　　وَمُسْمِعَةً ، حَسْبِي بِذَلِكَ مَالَا

خُذُوا مُلْكَكُمْ ، لَا ثَبَّتَ اللهُ مُلْكَكُمْ　　فَلَيْسَ يُسَاوِي بَعْدَ ذَاكَ عِقَالَا

وَخَلُّوا سَبِيلِي قَبْلَ عَيْرٍ وَمَا جَرَى(١)　　وَلَا تَحْسُدُونِي أَنْ أَمُوتَ هُزَالَا

فَأُلِبَ عَنْ تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ أَيَّ أَلْبٍ ، وَرُؤِيَ رَأْسُهُ فِي فَمِ كَلْبٍ ! كَانَ حَقُّ الْخِلَافَةِ أَنْ تُفْضِيَ إِلَى مَنْ هُوَ بِنُسْكٍ مَعْرُوفٌ ، لَا تَصْرِفُهُ عَنِ الرُّشْدِ صُرُوفٌ . وَلَكِنَّ الْبَلِيَّةَ خُلِقَتْ مَعَ الشَّمْسِ ، فَهَلْ يَخْلُصُ مَنْ سَكَنَ فِي رَمْسٍ ؟

أبو عيسى بن الرشيد

وَأَمَّا « أَبُو عِيسَى بْنُ الرَّشِيدِ » فَإِنْ صَحَّ مَا رُوِيَ عَنْهُ ، فَقَدْ بَايَنَ بِذَلِكَ أَسْلَافَهُ ، وَمَا يَحْفِلُ رَبُّهُ بِالْعَبِيدِ ، صَائِمِينَ لِلْخِيفَةِ وَلَا مُفْطِرِينَ(٢) وَرُبَّمَا كَانَ الْجَاهِلُ أَوِ الْمُتَجَاهِلُ ، يَنْطِقُ بِالْكَلِمَةِ وَخَلَدُهُ بِضِدِّهَا آهِلٌ !

وَإِنَّمَا أَقُولُ ذَلِكَ ، رَاجِياً أَنَّ أَبَا عِيسَى وَنُظَرَاءَهُ ، لَمْ يَتْبَعُوا فِي الْغَيِّ أُمَرَاءَهُ ، وَأَنَّهُمْ عَلَى سِوَى مَا عَلَنَ يَبِيتُونَ ، لَقَدْ وَعَظَهُمُ الْمَيِّتُونَ . . .

وَكَانَ « أَبُو عِيسَى » الْمَذْكُورُ يُسْتَحْسَنُ شِعْرُهُ فِي الْبَيْتَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ ، وَأَنْشَدَ لَهُ الصُّولِيُّ فِي نَوَادِرِهِ :

---

(١) قبل عير وما جرى : أى فى الحال

(٢) ذكر أبو العلاء هذا المعنى فى لزومياته أكثر من مرة . فمن ذلك قوله :

تورعوا يا بنى حواء عن كذب　　فما لكم عند ربٍّ صاغكم خطرُ

لم تجدبوا لقبيح من فعالكم　　ولم يجئكم — لحسن التوبة — المطر

« لِسَانِى كَتُومٌ لِأَسْرَارِهِ وَدَمْعِى نَمُومٌ بِسِرِّى مُذِيعُ
وَلَوْلَا دُمُوعِى كَتَمْتُ الْهَوَى وَلَوْلَا الْهَوَى لَمْ يَكُنْ لِى دُمُوعُ »

فَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ ، فَلَعَلَّهُ يَقَعُ فِى تَعْذِيبِ الدَّهْرِ !

الجَنَّابِى(١)

وَأَمَّا الْجَنَّابِىُّ ، فَلَوْ عُوقِبَ بَلَدٌ بِمَنْ يَسْكُنُهُ ، لَجَازَ أَنْ تُؤْخَذَ بِهِ « جَنَّابَةُ » ، وَلَا يُقْبَلُ لَهَا إِنَابَةٌ ، وَلَكِنَّ حُكْمَ الْكِتَابِ الْمُنْزَلِ أَجْدَرُ وَأَحْرَى ، أَنْ لَا تَزِرَ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى »

فَعَلَيْهِ اللَّعْنَةُ !

---

(١) الجنّابى

٢٨٦ — ٣٣١ هـ

اسمه سليمان بن أبى سعيد الحسن بن بهرام القرمطى ، بلده « جنّابة » من أعمال فارس متصلة بالبحرين ، وكنيته أبو طاهر ، وقد امتلأت كتب التاريخ بخروج « القرامطة » على الخلفاء والملوك وحروبهم معهم ، فلا حاجة الى الافاضة فى ذلك ، وحسبنا أن نلم بتاريخه موجزين :

ظهر فى سنة ٢٨٦هـ بالبحرين ، وانضم اليه عدد من الأعراب والقرامطة ، ثم ارتفع شأنه ، وقويت شوكته ، فقتل من حوله من أهالى تلك القرى ، ولما قرب من نواحى البصرة ، جهز اليه المعتضد بالله جيشاً فهزمه الجنابى ، وقتل الأسرى وأحرقهم ، واستبقى قائده ، ثم أطلقه بعد أيام وقال له : « امض الى صاحبك ، وعرفه ما رأيت » ودخل بغداد فى رمضان تلك السنة ، وحضر بين يدى المعتضد ، فخلع عليه . ودخل القرامطة الشام سنة ٢٨٩هـ وجرت وقائع بين الفريقين ، ثم قتله خادمه سنة ٣٣١ هـ فى الحمام .

وقد مر فى رسالة ابن القارح المنشورة فى الجزء الأول من هذا الكتاب إشارة اليه

العلوى البصرى

وَأَمَّا الْعَلَوِىُّ الْبَصْرِىُّ ، فَذَكَرَ بَعْضُ النَّاسِ أَنهُ كَانَ قَبْلَ خُرُوجِهِ يَذْكُرُ أَنهُ : مِنْ « عَبْدِ الْقَيْسِ » ثُمَّ مِنْ « أَنْمارٍ » وكَانَ اسْمُهُ « أَحْمَدَ » فَلَمَّا خَرَجَ تَسَمَّى « عَلِيًّا » .

وَالْكَذِبُ كَثِيرٌ جَمٌّ ، كَأَنهُ فى النَّظَرِ طَوْدٌ أَشَمُّ ، وَالصِّدْقُ لَدَيْهِ كَالْحَصَاةِ ، تُوطَأُ بِأَقْدَامِ عُصَاةٍ . وَتِلْكَ الأَبْيَاتُ الْمَنْسُوبَةُ إِلَيهِ مَشْهُورَةٌ ، وَهِىَ :

أَيَا حِرْفَةَ الزَّمْنَى ! - أَلَمَّ بِكِ الرَّدَى - أَمالِى خَلَاصٌ مِنْكِ - وَالشَّمْلُ جَامِعُ ؟
لَئِنْ قَنِعَتْ نَفْسِى بِتَعْلِيمِ صِبْيَةٍ - يَدَ الدَّهْرِ - إِنِّى بِالْمَذَلَّةِ قَانِعُ
وَهَلْ يَرْضَيَنْ حُرٌّ بِتَعْلِيمِ صِبْيَةٍ وَقَدْ ظَنَّ أَنَّ الرِّزْقَ فِى الأَرْضِ وَاسِعُ ؟

وَمَا أَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ حَمَلَهُ حُبُّ الْحُطَامِ ، عَلَى أَنْ غَرِقَ فِى بَحْرٍ طَامٍ !

*
* *

وَقَدْ رُوِيَتْ لَهُ أَبْيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى تَأَلُّهٍ ، وَمَا أَدْفَعُ أَنْ تَكُونَ قِيلَتْ عَلَى لِسَانِهِ ، لِأَنَّ مَنْ خَبَرَ هَذَا الْعَالَمَ حَكَمَ عَلَيْهِ بِفُجُورٍ وَمَيْنٍ . وَالأَبْيَاتُ :

« قَتَلْتُ النَّاسَ إِشْفَاقًا عَلَى نَفْسِى كَىْ تَبْقَى
وَحُزْتُ الْمَالَ بِالسَّيْفِ لِكَىْ أَنْعَمَ ، لا أَشْقَى
فَمَنْ أَبْصَرَ مَثْوَاىَ فَلَا يَظْلِمْ إِذاً خَلْقَا !
فَوَاوَيْلِى إِذَا مَا مِتُّ - عِنْدَ اللهِ : مَا أَلْقَى ؟
أَخُلْدًا فِى جِوَارِ اللَّـهِ ؟ أَمْ فِى نَارِهِ أُلْقَى ؟ »

*
* *

وَأَنْشَدَنِى بَعْضُهُمْ أَبْيَاتًا قَافِيَةً طَوِيلَةَ الْوَزْنِ ، وَقَافِيَتُهَا مِثْلُ هَذِهِ الْقَافِيَةِ ، قَدْ نُسِبَتْ إِلَى عَضُدِ الدَّوْلَةِ . وَقِيلَ إِنَّهُ أَفَاقَ فِى بَعْضِ الْأَيَّامِ ، فَكَتَبَهَا عَلَى جِدَارِ الْمَوْضِعِ الَّذِى كَانَ فِيهِ . وَقَدْ نُحِىَ بِهَا نَحْوُ أَبْيَاتِ الْبَصْرِىِّ ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّهَا مُتَكَلَّفَةٌ ، صَنَعَهَا رَقِيعٌ مِنَ الْقَوْمِ ، وَأَنَّ عَضُدَ الدَّوْلَةِ مَا سَمِعَ بِهَا قَطُّ .

***

وَأَمَّا الْحِكَايَةُ عَنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ أَنَّهُمْ صَحَّفُوا رَخَمَةَ ، فَقَالُوا رَحْمَة ، فَلَا أُصَدِّقُ بِمَا يَجْرِى مَجْرَاهَا ، وَالْكَذِبُ غَالِبٌ ظَاهِرٌ ، وَالصِّدْقُ خَفِىٌّ مُتَضَائِلٌ(١) !

وَكَذَلِكَ ادِّعَاءُ مَنْ يَدَّعِى أَنَّ عَلِيًّا — عَلَيْهِ السَّلَامُ — قَالَ : « تَهْلِكُ الْبَصْرَةُ بِالزَّنْجِ » فَصَحَّفَهَا أَهْلُ الْحَدِيثِ بِالرِّيحِ ، لَا أُومِنُ بِشَىْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَكُنْ عَلِىٌّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — مِمَّنْ يُكْشَفُ لَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ . وَفِى الْكِتَابِ الْعَزِيزِ : « لَا يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ » وَفِى الْحَدِيثِ الْمَأْثُورِ : « لَا يَعْلَمُ مَا فِى غَدٍ إِلَّا اللهُ » .

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُخْبِرَ مُخْبِرٌ مُنْذُ مِائَةِ سَنَةٍ أَنَّ أَمِيرَ حَلَبَ — حَرَسَهَا اللهُ — فِى سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ(٢) اسْمُهُ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ، وَصِفَتُهُ كَذَا ، فَإِنِ ادَّعَى ذَلِكَ مُدَّعٍ ، فَإِنَّمَا هُوَ مُتَخَرِّصٌ كَاذِبٌ !

---

(١) يقول أبو العلاء فى هذا المعنى :

والحق يُهمس بينهم ويقام للسوآت منبر

ويقول: إذا قلت المحال : رفعت صوتى وإن قلت اليقين : أطلت همسى !

(٢) من هذا نستنتج أن رسالة الغفران كتبت فى تلك السنة، وقد أشرنا إلى ذلك فى مقدماتنا للرسالة

النجـــوم

وَأَمَّا النُّجُومُ فَإِنَّمَا لَهَا تَلْوِيحٌ لَا تَصْرِيحٌ . وَحُكِيَ أَنَّ الْفَضْلَ بْنَ سَهْلٍ كَانَ يَتَمَثَّلُ كَثِيرًا بِقَوْلِ الرَّاجِزِ :

« لَئِنْ نَجَوْتُ وَنَجَتْ رَكَائِبِي مِنْ غَالِبٍ وَمِنْ لَفِيفِ غَالِبِ
إِنِّي لَنَجَّاءٌ مِنَ الْكَرَائِبِ »

وَأَنَّ غَالِبًا كَانَ فِي مَنْ قَتَلَهُ ، فَهَذَا يَتَّفِقُ مِثْلُهُ . وَأَجْدِرْ بِهَذِهِ الْحِكَايَةِ أَنْ تَكُونَ مَصْنُوعَةً .

فَأَمَّا مَا تَمَثَّلَهُ بِالشِّعْرِ فَغَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ ، وَرُبَّمَا اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ فِي الْوَقْتِ جَمَاعَةٌ يُسَمَّوْنَ بِهَذَا ، فَيُمْكِنُ أَنْ يَقْتَرِنَ مَعْنًى بِلَفْظٍ . عَلَى أَنَّ فِي الْأَيَّامِ عَجَائِبَ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ .

الألمعى

وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ « إِيَاسَ بْنَ مُعَاوِيَةَ » الْقَاضِيَ كَانَ يَظُنُّ الْأَشْيَاءَ ، فَتَكُونُ كَمَا ظَنَّ ، وَلِهَذِهِ الْعِلَّةِ قَالُوا : « رَجُلٌ نِقَابٌ[1] ، وَأَلْمَعِيٌّ » قَالَ أَوْسٌ[2] :

الْأَلْمَعِيُّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ كَأَنْ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا[3]

---

(١) النِّقاب : المتفرس ، الذى يحدث بالغائب (٢) هو أوس بن حجر التميمى ، أحد شعراء الجاهلية ، ارجع الى ترجمته فى ج ٢ ص « ١٦٥ »

(٣) ومما قيل فى هذا المعنى قول بعضهم :

« علـيم بأخبار الخطوب بظنـه كأن له فى اليوم عيناً على غد »

الحـــلاج(١)

وَكَم افتُرِىَ لِلحَلّاجِ – وَالكَذِبُ كثيرٌ – وَجَميعُ ما يُنسَبُ إليْهِ مِمّا لَمْ تَجرِ

وقول آخر :

بصـير بأعقاب الأمور ، كأنما تخاطبه من كل أمر عواقبـه

وقول ثالث :

بصـير بأعقاب الأمور ، كأنما يرى بصواب الظن ما هو واقع

وقول البحترى فى سليمان بن وهب :

كأن آراءه — والحزم يتبعها — تريه كل خفى وهو إعلان
ما غاب عن عينه ، فالقلب يكلؤه ، وإن تنم عينـه ، فالقلب يقظان

(١) الحـــلاج

اسمه الحسين بن منصور ، وكنيته أبو مغيث ، وجده مجوسى ، و بلده « البيضاء » أحد بلاد فارس ، وكانت وفاته سنة ٣٠٩ هـ

نشأ بواسط بالعراق ، واشتهر بصحبته لأبى القاسم الجنيد ، ومن فى طبقته ، كما اشتهر بكفره — و إن بالغ فى تعظيمه بعض الناس — ومن شعره قوله :

لا كنت إن كنت أدرى : « كيف كنت » ولا
لا كنت إن كنت أدرى : « كيف لم أكن »

وقوله المشهور :

ألقاه فى اليم مكتوفاً ، وقال له : « إياك إياك أن تبتـل بالماء »

وكان يكثر من قوله : « ما فى الجبة إلا الله » فسمى « الجبائى » لذلك . وكان يقول « معبودكم تحت قدمى هذا ! » وقد تصدى الإمام الغزالى للدفاع عنه فى فصل طويل عقده فى كتاب (مشكاة الأنوار) اعتذر فيه عن الألفاظ الشديدة التى صدرت منـه ، وعزاها إلى إفراطه فى محبة الله ، واستشهد بقول القائل :

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا نحن روحان ، حللنـا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنـا !

الْعَادَةُ بِمِثْلِهِ ، فَإِنهُ الْمَيْنُ لا أُصَدِّقُ بِهِ . وَمِمَّا يُفْتَعَلُ عَلَيهِ أَنهُ قالَ لِلَّذِين قَتَلُوهُ : « أَتَظُنُّونَ أَنَّكُمْ إِيَّاىَ تَقْتُلُونَ ؟ إِنَّما تَقْتُلُونَ بَغْلَةَ الْمَادِرَانِيِّ » وَأَنَّ الْبَغْلَةَ وُجِدَتْ فِي إِصْطَبْلِهَا مَقْتُولَةً .

وَفِى الصُّوفِيَّةِ — إِلَى الْيَوْمِ — مَنْ يَرْفَعُ شَأْنَهُ ، وَبَلَغَنِي أَنَّ بِبَغْدَادَ قَوْماً يَنْتَظِرُونَ خُرُوجَهُ ، وَأَنَّهُمْ يَقِفُونَ بِحَيْثُ صُلِبَ عَلَى « دِجْلَةَ » يَتَوَقَّعُونَ ظُهُورَهُ(١) .

وَلَيْسَ ذَلِكَ بِبِدْعٍ مِنْ جَهْلِ النَّاسِ ، وَلَوْ عَبَدَ عابِدٌ ظَبْيَ كِنَاسٍ(٢) !

إجـلال القــــرد

قرد زبيدة وقرد يزيد

فَقَدْ نَزَلَ حَظٌّ عَلَى قِرْدٍ ، فَظَفِرَ بِأَكْرَمِ الْوِرْدِ ، وَقالَتِ الْعَامَّةُ : « اسْجُدْ لِلقِرْدِ فِى زَمانِهِ ! »

وفى رسالة ابن القارح طرف من أخباره

(١) كان السبب فى صلبه ، كلام جرى منه فى مجلس « حامد بن العباس » وزير المقتدر بحضرة القاضى أبى عمر ، فأفتى بحل دمه ، وكتب بخطه ذلك ، وكتب معه من حضر المجلس من الفقهاء ، فقال لهم الحلاج : « ظهرى حمىً ، ودمى حرام ، وما يحل لكم أن تتقولوا على ، وأنا اعتقادى الاسلام ، ومذهبى السنة ، وتفضيل الأئمة الأربعة ، الخلفاء الراشدين ، ولى كتب فى السنة ، فالله الله فى دمى ! » ولم يزل يردد هذا القول — وهم يكتبون — حتى أتموا ما هم فيه ، ونهضوا من المجلس وحملوا الحلاج إلى السجن ، ثم جُلد أمام العامة حتى قُتل ، ثم صلب ، ثم قطعت أطرافه ، وجز رأسه ، وأحرقت جثته ، ثم ألقيت فى « دجلة » واتفق أن فاضت مياهها فى تلك السنة فيضاناً كثيراً ، فادعى أصحابه أن سبب ذلك هو سخط الحلاج .

(٢) الكناس : بيت الظبى فى الشجر يستتر فيه

وَأَنَا أَتحَوَّبُ[١] مِنْ ذِكْرِ الْقِرْدِ الَّذِى يُقَالُ إِنَّ الْقُوَّادَ — فى زمن « زُبَيْدَةَ » — كَانُوا يَدْخُلونَ لِلسَّلَامِ عليهِ ، وَأَنَّ « يَزِيدَ بْنَ مِزْيَدٍ الشَّيْبَانِىَّ » دَخَلَ فِى جُمْلَةِ الْمُسْلِمِينَ فَقتَلَهُ .

وَقَدْ رُوِىَ أَنَّ « يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ » كَانَ لَهُ قِرْدٌ يَحْمِلُهُ عَلَى أَتَانٍ وَحْشِيَّةٍ ، وَيُرْسِلُهَا مَعَ الْخَيْلِ فِى الْحَلْبَةِ[٢] .

رجعة إلى الحلاج

وأَمَّا الْأَبْيَاتُ الَّتِى عَلَى الْيَاءِ :

« يَا سِرَّ سِرٍّ يَدِقُّ حَتَّى يَجِلَّ عَنْ وَصْفِ كُلِّ حَىْ
وَظَاهِرًا بَاطِنًا تَبَدَّى مِنْ كُلِّ شَىْءٍ لِكُلِّ شَىْ
يَا جُمْلَةَ الْكُلِّ لَسْتَ غَيْرِى فَمَا اعْتِذَارِى إِذَنْ إِلَىّ ؟ »

فَلا بَأْسَ بِنَظْمِهَا فِى الْقُوَّةِ ، وَلَكِنْ قَوْلُهُ « إِلَىّ » عَاهَةٌ فى الْأَبْيَاتِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ « الْكُلّ » فَإِنَّ إِدْخَالَهُ الْأَلِفَ وَاللَّامَ مَكْرُوهٌ .

وَكَانَ « أَبو علىّ » يُجِيزُهُ ، وَيَدَّعِى إجازَتَهُ عَلَى « سِيبَوَيْهِ » .

فَأَمَّا الْكَلَامُ الْقَدِيمُ ، فَيُفْتَقَدُ فيهِ[٣] (الْكُلُّ) وَ (الْبَعْضُ) .

وَقَدْ أَنْشَدُوا بَيْتًا لِسُحَيْمٍ :

---

(١) أجتنب الحوب ، أى الإثم ، أو أتحرج منه ، وهى أيضاً بمعنى أتوجع باكياً فى جزع وصياح (٢) الخيل تجمع للسباق (٣) قال فى اللسان : « وفى حديث عائشة رضى الله عنها « افتقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم » أى لم أجده ، هو افتعلت ، من فقدت الشىء أفقده إذا غاب عنك »

« رَأَيْتُ الْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ كِلَيْهِمَا   إِلَى الْمَوْتِ، يَأْتِي الموتُ لِلْكُلِّ مُعْمِدَا! »

مذهب الحلول(١)

وَيُنْشَدُ لِفَتًى كَانَ فِي زَمَنِ الْحَلَّاجِ :

إِنْ يَكُنْ مَذْهَبُ الْحُلُولِ صَحِيحاً   فَإِلٰهِي فِي حُـــرْمَةِ الزَّجَّاجِ
عَرَضَتْ فِي غِـــلَالَةٍ بِطِرَازٍ   بَيْنَ دَارِ الْعَطَّـــارِ وَالثَّلَّاجِ
زَعَمُوا لِي أَمْراً — وَمَا صَحَّ — لٰـكِنْ   هُوَ مِنْ إِفْكِ شَيْخِنَا الْحَلَّاجِ

---

(١) مذهب الحلولية — أو مذهب الحلول — هو الادعاء بحلول الله — سبحانه — فى الأشخاص، لأصحاب هـذا المذهب ادعاءات لا يحصيها العد ، فقد ادعى بعضهم أن روح الله حلت فى الأنبياء ، واحداً بعد واحد ، حتى حلت فى أبى هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية ، وادعى غيرهم أنها حلت فى أبى مسلم ؛ وادعى آخرون حلول الله فى الصور الحسان ، فكان « الحلمانية » إذا رأوا صورة حسنة ، سجدوا لها ، واهمين أن الله حل فيها ؛ واستدل بعض هؤلاء على جواز حلول الله فى الأجساد ، بقوله تعالى للملائكة فى آدم : « فاذا سويته ، ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين » وزعموا أن الله إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم ، لأنه خلقه فى أحسن تقويم ، بدليل قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم »

وزعم الحلاج أن من هذب نفسه بالطاعة ، وصبر على اللذات والشهوات ، ارتقى الى مقام المقربين ؛ ولا يزال يصفو و يرتقى فى درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية ، فاذا لم يبق فيه منها حظ ، حل فيه روح الله ، الذى حل فى عيسى بن مريم ، ولم يرد حينئذ شيئاً إلا كان كما أراد ؛ وكان جميع فعله فعل الله تعالى

ولنجتزىء بهذا القدر ، فان فيما أورده أبو العلاء فى هذا الفصل ، وما أورده ابن القارح فى رسالته ، غناء وكفاية

وَهذِهِ الْمَذَاهِبُ قَدِيمَةٌ ، تَنْتَقِلُ فِي عَصْرٍ بَعْدَ عَصْرٍ . وَيُقَال : إِنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ عَلَى مَذْهَبِ الْحُلُولِيَّةِ ، فَلِذَلِكَ ادَّعَى انَّهُ رَبُّ الْعِزَّةِ !

* * *

وَحُكِيَ عَنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي تَسْبِيحِهِ : « سُبْحَانَكَ سُبْحَانِي ، غُفْرَانَكَ غُفْرَانِي ! » وَهذَا هُوَ الْجُنُونُ الْغَالِبُ ، إِنَّمَا مَنْ يَقُولُ هَـذَا الْقَوْلَ مَعْدُودٌ فِي الْأَنْعَامِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

« أَنَا أَنْتَ — بِلَا شَكٍّ — فَسُبْحَانَكَ سُبْحَانِي
وَإِسْخَاطُكَ إِسْخَاطِي وَغُفْرَانُكَ غُفْرَانِي
وَلِمْ أُجْلَدُ يَا رَبِّ إِذَا قِيلَ هُوَ الزَّانِي ؟ »

وَبَنُو آدَمَ بِلَا عُقُولٍ ، وَهذَا أَمْرٌ يُلَقِّنُهُ صَغِيرٌ عَنْ كَبِيرٍ « أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً »

وَيُرْوَى لِبَعْضِ أَهْلِ هذِهِ النِّحْلَةِ :

رَأَيْتُ رَبِّي يَمْشِي بِلَا لَكَةٍ[1] فِي سُوقِ يَحْيَى ، فَكِدْتُ أَنْفَطِرُ
فَقُلْتُ : « هَلْ فِي اتِّصَالِنَا طَمَعٌ ؟ » فَقَالَ « هَيْهَاتَ ، يَمْنَعُ الْحَذَرُ »
وَلَوْ قَضَى اللهُ أُلْفَةً بِهَوًى لَمْ يَكُ إِلَّا السُّجُودُ وَالنَّظَرُ

---

(١) هكذا وجدناها فى جميع النسخ التى ظفرنا بها ، ولعل صوابها : « يمشى بمألكة » أى برسالة .

التنـــاسخ(١)

وَتُؤَدِّى هَـذِهِ النِّحْلَةُ إِلَى التَّنَاسُخِ ، وَهُوَ مَذْهَبٌ عَتِيقٌ ، يَقُولُ بِهِ أَهْلُ الْهِنْدِ ، وَقَدْ كَثُرَ فِى جَمَاعَةٍ مِنَ الشِّيعَةِ ، نَسْأَلُ اللهَ التَّوْفِيقَ وَالْـكِفَايَةَ .

---

(١) التنـــاسخ

هو مذهب القائلين بانتقال الأرواح بعد مغادرة أجسادها ، الى أجساد أخرى ، ويرى بعضهم أن ذلك يحدث ولو لم تكن تلك الأجساد من نوع الأجساد التى فارقتها الروح ، وبهذا الزعم يدين الكثيرون ، منهم القرامطة ، وأحمد بن حائط ، وتلميذه أحمد بن نانوس ، وأبو مسلم الخراسانى ، ومحمد بن زكريا الرازى الطبيب . ومما ذكره الرازى فى بعض كتبه قوله : « لولا أنه لا سبيل إلى تخليص الأرواح عن الأجساد المتصورة بالصورة البهيمية ، إلى الأجسام المتصورة بصور الانسان ، إلا بالقتل والذبح ، لما جاز ذبح شىء من الحيوان البتة »

ويزعمون أن التناسخ هو نوع من العقاب والثواب ؛ فالفاسق السيئ العمل ، يعاقب على ذلك بأن تنتقل روحه إلى أجساد البهائم الخبيثة المرتطمة فى الأقذار، والمسخرة الممتهنة بالذبح !

* * *

وزعم بعضهم أن الله — سبحانه — أبدع خلقه أصحاء سالمين عقلاء بالغين ، فى دار سوى هذه الدار الدنيا ، وخلق فيهم معرفته ، والعلم به ، وأسبغ عليهم نعمـه ، فابتدأهم بتكليف شكره ، فأطاعه بعضهم فى جميع ما أمرهم به ، وعصاه بعضهم فى جميع ذلك ، وأطاعه بعضهم فى بعض دون بعض ، فمن أطاعه فى الكل ، أقره دار النعيم التى ابتدأهم فيها ، ومن عصاه فى الكل أخرجه من تلك الدار إلى دار العذاب ، وهى النار . ومن أطاعه فى بعض ، وعصاه فى البعض آخر ، أخرجه إلى دار الدنيا ، فألبسه هذه الأجساد الكثيفة ، وابتلاه بالبأساء والضراء ، والشدة والرخاء ، والآلام واللذات ، على صور مختلفة من صور الناس . وسائر الحيوانات على قدر ذنوبهم ، فمن كانت معاصيه أقل ، وطاعاته أكثر ، كانت صورته أحسن

وَيُنشَدُ لِرَجُلٍ مِنَ النُّصَيْرِيَّةِ :

وآلامه أقل ، ثم لا يزال يكون فى الدنيا كرة بعد كرة ، وصورة بعد أخرى ، ما دامت معه ذنوبه وطاعاته

*
* *

واستدل من يعتقد بالتناسخ من المسلمين ، على صحة زعمهم بقوله تعالى : « يا أيها الانسان ! ما غرك بربك الكريم ؟ الذى خلقك ، فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك » وبالآية الأخرى : « جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، ومن الأنعام أزواجاً ، يذرؤكم فيه »

واستدل غير المسلمين منهم على صحة مذهبهم ، بأن النفس لا تتناهى ، والعالم لا يتناهى لأمد ، فالنفس منتقلة أبداً ، وليس انتقالها إلى نوعها بأولى من انتقالها الى غير نوعها

*
* *

وأنكرت طائفة أخرى، انتقال الأرواح إلى غير أنواع أجسادها التى فارقتها، بعد أن أقرت انتقالها إلى أنواع أجسادها ، فقالت : « بما أنه لا تناهى للعالم ؛ فوجب أن تتردد النفس فى الأجساد أبداً ، ولكن لا يجوز أن تنتقل إلى غير النوع الذى أوجب لها طبعها الإشراف عليه ، وتعلقها به »

وفى كتابى الملل والنحل لابن حزم والشهرستانى ، فصلان نافعان ، وقد عنى ابن حزم بتفنيد كثير من هذه الآراء و إدحاضها .

*
* *

وقد شاع فى الهند هذا المذهب كما شاع فيها غيره ، منذ أقدم أزمنة التاريخ ، ثم عرفه العرب فى أواخر القرن الأول ، ودان به الشيعة ، كما دانوا بمذهب الحلول والرجعة وغير ذلك من المذاهب القريبة منهما . ولم يأت القرن الرابع حتى انتشرت تلك المذاهب ، وذاع أمرها ، وساعد على انتشارها فتح محمود بن سبكتكين بلاد الهند ، وقد كان ذلك الفتح سبباً فى توثق العلاقات بين المسلمين والهنود ، فكثر تبادل الآراء بينهم ، وانتشرت تجارة الهند بالعراق ، ووفد بعض الهنود إلى مدينة السلام .

« إِعْجَبِي امَّنَا ! لِصَرْفِ اللَّيَالِى . . . .

« رأى أبى العلاء فى التناسخ »

فاذا شئت أن تعرف رأى أبى العلاء فى التناسخ ، أمكنك أن تلمحه فيما تقرؤه له فى هذا الفصل ، من السخرية والتبرم .

ولا ريب أن أبا العلاء ، درس هذا المذهب دراسة حقة ، فلم يرض عنه ، وأبدى ارتيابه فيه ، ثم شفع هذا الارتياب بالرفض الصريح فى أغلب أشعاره

فقد ذكر التناسخ فى صباه ، على سبيل اللهو والتندّر ، وان لم يفته أن يظهر ارتيابه فيه ، فى بيت من قصيدة له ، فى « سقط الزند » ، كتبها إلى إبراهيم بن إسحق مدحاً فيه ، وجواباً على قصيدة بعث بها اليه ، والبيت :

فلو صح التناسخ ، كنت « موسى » وكان أبوك « إسحق الذبيحا » !

ثم أنكره أكثر من مرة إنكاراً صريحاً فى لزومياته ، فقال :

يقولون : « إن الجسم ينقل روحه إلى غيره ، حتى يهذبه النقل »
فلا تقبلن ما يخبرونك ، ضلة ، إذا لم يؤيد ما أتوك به العقلُ

وتهكم بجماعة القائلين بهذا المذهب ، وأمعن فى السخرية منهم ، فقال :

يا آكل التفاح ! لا تبعدن ولا يُقم يومُ ردى ثاكلك
قال النصيرىّ — وما قلته — فاسمع ، وشجع فى الوغى ناكلَكْ
قد كنت فى دهرك تفاحة وكان تفاحك ذا آكلَكْ
وحرفَ هاج لحت فيما مضى وطالما تشكله شاكلَكْ

والبيت الأخير سخرية من مذهب القائلين — ومنهم ابن سعيد العجلى ، وهو أحد من ادعى أنه المهدى المنتظر — « إن الأعضاء على صور حروف الهجاء ، وأن الألف منها مثال القدم ، والعين على صورة العين الخ »

وقد سخر من التناسخ وممن يدينون به ، فى موضع آخر ، فقال :

فما بال هـذا العصر ، ما فيه آية من المسخ ، إن كانت « يهود » رأت مسخا

. . . . جُعِلَتْ أُخْتُنَا « سُكَيْنَةُ » فَارَهْ

وقال بأحكام التناسخ معشر غلوا ، فأجازوا الفسخ فى ذاك والرسخا

فقد قسموا التناسخ الى أربعة أقسام . نسخ ومسخ وفسخ ورسخ ، وقالوا عن الأول : إنه انتقال الروح من جسم إنسانى إلى آخر ، أو إلى جسم إنسانى أرفع منه . وعن الثانى إنه : انتقال الروح إلى البهائم ، وعن الثالث : إنه انتقالها إلى الحشرات . وعن الرابع : إنه انتقالها الى النبات أو الجماد ...

*
* *

و إنما تحفَّظ أبو العلاء فى ارتيابه فى التناسخ أحياناً ، فاحتاط فى بعض أشعاره ، ووقف على الحياد فى بعض آخر ، لارتباط هذه المسألة العويصة بالروح ومآلها . وقد جهل أبو العلاء كنه الروح ومآلها ، فرجم عنها بالظنون والفروض ، على أنه جزم بمآل الجسم ، وعرف غايته وتطوراته ، فقال :

أما الجسوم ، فللتراب مآلها وعييت بالأرواح ، أنى تذهب ؟

و إذ أيقن أن مآل الجسم الى التراب ، فقد افتن فى صيرورته ومآله حين أرسل خياله الى هذه الناحية ، فأبدع فى ذلك ما شاء له الخيال الصافى ، والعقل الراجح الحصيف . قال :

و إذا رجعت إليه صارت أعظمى تربا تهافت فى طوال الأعصر

وقال : خفف الوطء ، ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد

وقال : ولرب أجساد جديرات البَرى بالصون صارت فى طلاء جدار

وقال : لعل مفاصل البنَّاء تضحى طلاء للسقيفة والجدار

وقال : و إن جعلت — بحمد الله — فى خزف يقضى الطهور ، فانى شاكر راضى

جواهر ألفتها قدرة عجب وزايلتها ، فصارت مثل أعراض

وقال : فلا يُمسِ فخَّاراً — من الفخر — عائدٌ إلى عنصر الفخَّار للنفع يضرب

لعل إناء منه يصنع مرة فيأكل فيه — من أراد — و يشرب

و ينقل من أرض لأخرى — وما درى — فواهًا له ! بعد البلى — يتغرَّب !

فَازْجُرِى هَذِهِ السَّنَانِيرَ(١) عَنْهَا وَاتْرُكِيهَا — وَمَا تَضُمُّ الْغِرَارَهْ(٢)

وَقَالَ آخَرُ مِنْهُمْ :

تَبَارَكَ اللّٰهُ كَاشِفُ الْمِحَنِ فَقَدْ أَرَانَا عَجَائِبَ الزَّمَنِ
حِمَارُ شَيْبَانَ ، شَيْخِ بَلْدَتِنَا ، صُيِّرَهُ جَارُنَا أَبُو السَّكَنِ
بُدِّلَ مِنْ مِشْيَةٍ بِحُلَّتِهِ مِشْيَتَهُ فِى الْحِزَامِ وَالرَّسَنِ(٣)

إلى آخر تلك الأبيات التى لا يتسع المقام لذكرها . وقد اتجه فكر « عمر الخيام » إلى هذه الناحية ، فأبدع فيها وأحسن فى رباعياته ، وتمثل أكواباً تألفت من جسوم آدمية ؛ تتحادث وتُنَاقش، كما تمثل كوباً فى يد الخزاف يقص عليه تاريخ حياته ، ووردة عَطِرَة كانت غادة فاتنة، ماتت فاستحال جمالها إلى عطر شذى . وقد امتلأت « رباعياته » بهذه الفكرة ممثلة فى صور شتى ، وحسب القارىء أن نحيله إليها ليرى بنفسه ذلك . فقد كادت هذه الفكرة تصبح محور فلسفة الخيام فى الرباعيات .

*
* *

على أن أبا العلاء لم يرفض التناسخ جملة واحدة ، ولم يجزم ببطلانه جزم المتيقن الواثق فى كل مرة ، بل تردد فيه أحياناً فكاد يقبله ، فاذا رأيته يقول :

تقادم شخص مضى فأحدث منه البدل
وما صح إلا امرؤ تصرف ، ثم انجدل

رأيته يقول فى مكان آخر :

وتقدم الأرض نفوس أتت مخلوقة من أنفس ثاوية

أو يقول : والجسم كالثوب — على روحه ينزع — إذ يخلق ، أو يَنسخ

(١) القطط (٢) الجوالق ، ومعنى البيت : « فأبعدى عنها القطط حتى لا تؤذيها ، ودعيها تأكل من الغرارة ما تشاء » (٣) يقول : « إن روح جارنا حلت فى حمار شيخ بلدتنا ، فأصبح ذلك الجار يمشى فى الحزام والرسن — بعد أن كان يختال فى حلته ! »

وَيُصَوِّرُ لَهُمُ الرَّأْيُ الفَاسِدُ أَبَاجِيرَ[١] وَمُشَبَّهَاتٍ ، فَيَسْلُكُونَ فِي التُّرَّهَاتِ

مذهب التناسخ فى الهند

وَحُكِيَ لِي عَنْ بَعْضِ مُلُوكِ الهِنْدِ ، وَكَانَ شَابًّا حَسَنًا ، أَنَّهُ جُدِرَ ، فَنَظَرَ إِلَى وَجْهِهِ فِي المِرْآةِ وَقَدْ تَغَيَّرَ ، فَأَحْرَقَ نَفْسَهُ ، وَقَالَ : « أُرِيدُ أَنْ يَنْقُلَنِي اللهُ إِلَى صُورَةٍ أَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ ! »

*
* *

وَحَدَّثَنِي قَوْمٌ مِنَ الفُقَهَاءِ ، مَا هُمْ فِي الحِكَايَةِ بِكَاذِبِينَ ، وَلَا فِي أَسْبَابِ النِّحَلِ جَاذِبِينَ : أَنَّهُمْ كَانُوا فِي بِلَادِ مَحْمُودٍ ، وَكَانَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الهِنْدِ ، قَدْ وَثِقَ بِصَفَائِهِمْ ، يُفِيضُ عَلَيْهِمُ الأَعْطِيَةَ لِوَفَائِهِمْ ، وَيَكُونُونَ أَقْرَبَ الجُنْدِ إِلَيْهِ إِذَا حَلَّ أَوِ ارْتَحَلَ ، وَأَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ سَافَرَ فِي جَيْشٍ جَهَّزَهُ ، فَجَاءَ خَبَرُهُ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ ، فَجَمَعَتِ امْرَأَتُهُ لَهَا حَطَبًا كَثِيرًا ، وَأَوْقَدَتْ نَارًا عَظِيمَةً ، وَاقْتَحَمَتْهَا ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ . وَكَانَ ذَلِكَ الخَبَرُ بَاطِلًا ، فَلَمَّا قَدِمَ الزَّوْجُ ، أَوْقَدَ لَهُ نَارًا عَظِيمَةً لِيُحْرِقَ نَفْسَهُ ، حَتَّى يَلْحَقَ بِصَاحِبَتِهِ ، فَاجْتَمَعَ خَلْقٌ كَثِيرٌ لِلنَّظَرِ إِلَيْهِ . وَأَنَّ أَصْحَابَهُ مِنَ الهِنْدِ كَانُوا يَجِيئُونَ إِلَيْهِ فَيُوصُونَهُ بِأَشْيَاءَ إِلَى أَمْوَاتِهِمْ[٢] . هَذَا إِلَى أَبِيهِ ، وَهَذَا إِلَى أَخِيهِ . وَجَاءَهُ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ بِوَرْدَةٍ ، وَقَالَ : « أَعْطِ هَذِهِ فُلَانًا » يَعْنِي مَيِّتًا لَهُ . وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي تِلْكَ النَّارِ .

---

(١) أموراً عظيمة، وأعاجيب (واحدها : بجر ، وجمعها : أباجر ، وجج : أباجير ») قال الشاعر :

فقلت لها : « بجرا » فقالت مجيبتى : « أتعجب من هذا — ولى زوج آخر »

(٢) أشار أبو العلاء إلى ذلك فى لزومياته فقال

تقول الهند : « آدم كان قنا لنا ، فسرى إليـه مُخَبِّبُوه »
أولئك يحرقون الميت نسكا ويشعره لبانا ملهبـوه

وَحَدَّثَ مَنْ شَاهَدَ إِحْرَاقَهُمْ نُفُوسَهُمْ ، أَنَّهُمْ إِذَا لَدَغَتْهُمُ النَّارُ ، أَرَادُوا الْخُرُوجَ ، فَيَدْفَعُهُمْ مَنْ حَضَرَ إِلَيْهَا بِالْعِصِيِّ وَالْخُشُبِ . فَلاَ إِلَٰهَ إِلاَّ اللهُ ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ! ...

ونذكر بهذه المناسبة ، قوله فى تحبيذ ما يفعله الهند من إحراق موتاهم :

فاعجب لتحريق أهل الهند ميتهم ... وذاك أروح من طول التباريح
إن حرقوه ، فما يخشون من ضبع ... تسرى إليه ولا خَفْىٍ وتطريح
والنار أطيب من كافور ميتنا ... غباً ، وأذهب للنكراء والريح

« والخفى : نبش الميت » وقوله :

حرق الهند من يموت ، فما زا ... روه فى روحة ولا تبكير
واستراحو من ضغطة القبر ميتاً ... وسؤال لمنكر ونكير !

وقوله :

إذا حرق الهندىّ بالنار نفسه ... فلم يبق محض للتراب ولا عظم
فهل هو خاش من نكير ومنكر ... وضغطة قبر — لايقوم لها نظم ؟

بل لقد وصل إكباره و إعجابه بذلك ، إلى حد أن فضله على الجهاد ، فقال :

يحرّق نفسه الهندىّ خوفاً ... ويقصر — دون ما صَنَع — الجهاد
وما فعلته عبّاد النصارى ... ولا شرعية صبأوا وهادوا
يقرب نفسه للنار عمداً ... وذلك منه دين واجتهاد

وهنا يحن أبو العلاء إلى الموت حنيناً — كما هى عادته الغالبة عليه — فيقول :

وموت المرء نوم طال جدًّا ... عليه ، وكل عيشته سهاد

وهو أسلوب آخر من فكرته التى أودعها داليته الخالدة فى قوله :

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ ... ـجسم فيها ، والعيش مثل السهاد

وارجع الى ص ٢٠٥ و ٢٠٦ من هذا الجزء ، لتعرف رأى أبى العلاء فى الموت

ابن هانئ الأندلسى

وَفِى النَّاسِ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِالْمَذْهَبِ وَلاَ يَعْتَقِدُهُ، يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ[1]، وَهِىَ أَغْدَرُ مِنَ الْوَرْهَاءِ الزَّانِيَةِ. وَكَانَ لَهُمْ فِى الْمَغْرِبِ رَجُلٌ

---

(١) ردد أبو العلاء هذا المعنى بصور شتى فى كثير من أشعاره ، وأنحى على تلك الطائفة التى اتخذت الدين وسيلة للكسب والنفع . وقد أتينا ببضع أمثلة من ذلك فى ص « ٢١٧ » من هذا الجزء ، و إليك نخبة من أبدع ما نختاره له فى ذلك :

بخيفة الله تعبدتنا … وأنت عين الظالم اللاهى
تأمرنا بالزهد فى هذه الد … نيا ، وما همك إلا هى !

تلاوتكم ليست لرشد ولا هدى … ولكن لكم فيها التكاثر والكبر

وليس حبر يبدع فى صحابته … إن سام نفعاً بأخبار تقوّلها
وإنما رام نسواناً تزوجها … — بما افتراه — وأموالا تموّلها
لا يخدعنك داع قام فى ملأ … بخطبة زان معناها وطوّلها
فما العظات — و إن راعت — سوى حيل … من ذى مقال على ناس تحوّلها

رويدك قد غررت — وأنت حر — … بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحا … ويشربها — على عمد — مساء
يقول لكم : « غدوت بلا كساء » … وفى لذاتها رهن الكساء !

طلب الخسائس وارتقى فى منبر … يصف الحساب لأمة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامة … أمسى يمثل فى النفوس ذهولها

وكم من فقيه خابط فى ضلالة … وحجته فيها الكتاب المنزّل
وقارئكم يرجو بتطريبه الغنى … فآض كما غنى — ليكسب — زلزل

« وزلزل » هذا مُغَنٍّ يضرب به المثل فى اتقان الضرب بالعود

يُعْرَفُ بابْنِ هانِئٍ ، وَكَانَ مِنْ شُعَرَائِهِم الْمُجِيدِينَ ، فَكَانَ يَغْلُو فِي مَدْحِ « الْمُعِزِّ » غُلُوًّا عَظِيمًا ، حَتَّى قَالَ فِيهِ — وَقَدْ نَزَلَ بِمَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ « رَقَّادَة » — :

« حَلَّ بِرَقَّادَةَ الْمَسِيحُ   حَلَّ بِهَا آدَمٌ وَنُوحُ
حَلَّ بِهَا اللهُ ذُو الْمَعَالِي   وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ »

عودة الى الحلاج

وأدلُّ رُتَبِ الْحَلَّاجِ أَنْ يَكُونَ شَعْوَذِيًّا ، لا ثَاقِبَ الْفَهْمِ وَلا أَحْوَذِيًّا[1] ، عَلَى أَنَّ الصُّوفِيَّةَ تُعَظِّمُهُ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ، مَا هِيَ لِأَمْرِهِ شَائِفَة

ابن أبى عون

وَأَمَّا ابْنُ أَبِي عَوْنٍ ، فَإِنَّهُ أَخَذَ فِي لَوْنٍ بَعْدَ لَوْنٍ ، وَقَدْ تَجِدُ الرَّجُلَ حَاذِقًا فِي الصِّنَاعَةِ ، بَلِيغًا فِي النَّظَرِ وَالْحُجَّةِ ، فَإِذَا رَجَعَ إِلَى الدِّيَانَةِ أُلْفِيَ كَأَنَّهُ غَيْرُ مُقْتَادٍ ، وَإِنَّمَا يَتْبَعُ مَا يَعْتَادُ . وَالتَّأَلُّهُ مَوْجُودٌ فِي الْغَرَائِزِ ، وَيُلَقَّنُ الطِّفْلُ النَّاشِئُ مَا سَمِعَهُ مِنَ الْأَكَابِرِ ، فَيَلْبَثُ مَعَهُ . وَالَّذِينَ يَسْكُنُونَ فِي الصَّوَامِعِ ، وَالْمُتَعَبِّدُونَ فِي الْجَوَامِعِ ، يَأْخُذُونَ مَاهُمْ عَلَيْهِ ، كَنَقْلِ الْخَبَرِ عَنِ الْمُخْبِرِ ، لَا يُمَيِّزُونَ الصِّدْقَ مِنَ الْكَذِبِ . فَلَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ أُلْفِيَ أُسْرَةً مِنَ الْمَجُوسِ لَخَرَجَ مَجُوسِيًّا[2] . وَإِذَا الْمَعْقُولُ جُعِلَ هَادِيًا ، نَقَعَ بِرِيِّهِ صَادِيًا . وَلَكِنْ أَيْنَ مَنْ

---

(١) يسوق الأمور أحسن مساق لعلمه بها ، والأحوذى أيضاً : الحاذق المشمر للأمور القاهر لها ، لايشذ عليه شىء (٢) من أبدع ما نختاره لأبى العلاء ، فى هذا المعنى ، قوله فى لزومياته :

وينشأ ناشىء الفتيان منا   على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجا ، ولكن   يعلمه التدين أقربوه
وطفل الفارسى ، له ولاة   بأفعال التمجس دربوه

يَصْبِرُ عَلَى أَحْكَامِ الْعَقْلِ(١) ؟ هيهَاتَ ! عُدِمَ ذَلِكَ فى مَنْ تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ،

---

(١) لو شئنا الاستشهاد بكل ما كتبه أبو العلاء فى النعى على التقليد ؛ والحث على تمجيد العقل ، والاعتزاز به ، والدعوة إلى تحكيمه فى كل شىء ؛ لملأنا صحفاً كثيرة ، لا يسمح لنا بها هذا المقام . فلنجتزىء من ذلك بالقليل عن الكثير ، و إليك ما نختاره له :

اللب قطب ، والأمور له رحى   فيه تدبر كلها وتدار

العقل يوضح للنسـ   ـك منهجاً ، فاحذ حذوه
وليس يظلم قلب   وفيه للب جذوه

كذب الناس ، لا إمام سوى العقـ   ـل مشيراً فى صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرحـ   ـمة عند المسير والإرساء

صدقت ياعقل ، فليبعد أخو سفه   صاغ الأحاديث إفكا أو تأولها

فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة   إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

نكذب العقل فى تصديق كاذبهم   والعقل أولى بإكرام وتصديق

و ينفر عقلى مغضباً إن تركته   سدى ، واتبعت الشافعى ومالكا

والعقل يعجب ، والشرائع كلها   خبر يقلد ، لم يقسه قائس

. . . .

و إذا الرياسة لم تعن بسياسة   عقلية ، خطىء الصواب السائس

قالوا ، فمانوا ، فلما أن حدوتهمُ   إلى القياس ، أبانوا العجز واعترفوا

و إذا ما سألت أصحاب دين   غيروا بالقياس ما رتبوه
لا يدينون بالعقول ، ولكن   بأباطيل زخرف كذبوه

وجاءتنا شرائع كل قوم   على آثار شىء رتبوه

وَمَنْ ضَمِنَهُ فى الرِّمّ رَمْسٌ، إلَّا أنْ يَشُذَّ رَجُلٌ فى الأُمَمِ، يُخَصُّ مِنْ فَضْلٍ بِعَمَمٍ.

وغير بعضهـــم أقوال بعض … وأبطلت النهى ما أوجبـــوه

فاحذر، ولا تدع الأمور مضاعة … وانظر بقلب مفكر متبصـــر

تفكر، فقد حار هذا الدليـــل … وما يكشف النهج غير الفكر

الفكر حبل متى يمسك على طرف … منه، ينط بالثريا ذلك الطـــرف

فكروا فى الأمور يكشف لكم بعـــض الذى تجهلون بالتفكير

فكرى أنت، ربما هدى الإنســـان للمشكلات بالتفكير

إذا كان التقى بلَهًـــا وعِيًّا … فأعيار المـــذلة أتقيـــاء

وما تريك مرائى العين صادقـــة … فاجعل لنفسك مرآة من الفكر

وجدتَ أباك مفترياً حـــديثاً … فأنت على مقص الشيخ تفـــرى

عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا … وأورثوا الدين تقليداً كما وجـــدوا

فما يراعون ما قالوا وما سمعوا … ولا يبالون — من غى — لمن سجدوا

فى كل أمرك تقليـــد رضيت به … حتى مقالك: «ربى واحد أحد»

جاءت أحاديث إن صحت فإن لها … شأناً، ولكن فيهـــا ضعف إسناد

فشاور العقل، واترك غيره هدرا … فالعقل خير مشير ضمه النادى

إذا رجع الحصيف إلى حجاه … تهـــاون بالمذاهب وازدراها

فخذ منها بمـــا أداه لب … ولا يغمسك جهـــل فى صراها

وهت أديانهم من كل وجه … فهل عقل يشد بهـــا عراها؟

هل صح قول من الحاكى فنقبله … أم كل ذاك أباطيل وأسمار؟

أما العقول فآلت أنه كذب … والعقل غرس، له بالصدق إثمار

رُبَّما لقينا مَنْ نظرَ فى كُتُبِ الْحُكَماءِ ، وَتَبِعَ بَعْضَ آثارِ القُدَماءِ ، فألْفَيْناهُ يَسْتَحْسِنُ قبيحَ الأمورِ ، إنْ قدرَ على فظيعٍ رَكِبَهُ ، وَإنْ عرفَ واجباً نَكَبَهُ ، كأنَّ العالَمَ سعَوْا لهُ فى إفقادٍ ، فهُوَ يعتقدُ شرَّ اعتقادٍ ؛ وَإنْ أُودِعَ وَديعةً خانَ ، وَإنْ سُئِلَ عَنْ شهادةٍ مانَ[1] ، وَإنْ وَصَفَ لِعَليلٍ صِفةً ، فما يَحْفِلُ : أَقَتَلَهُ بِما قالَ ، أَمْ ضاعَفَ عليْهِ الأثقالَ ؟ بلْ غرضُهُ فيما يَكْتَسِبُ ، وَهُوَ إلى الْحِكْمَةِ مُنْتَسِبٌ . وَرُبَّ زارٍ بالجهالةِ على أهْلِ مِلَّةٍ ، وَعِلَّتُهُ الباطِنةُ أدهى عِلَّةٍ !

وَإنَّ البَشَرَ لَكَما جاءَ فى الكتابِ العزيزِ : « كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ[2] » وَيَحْضُرُ المَجالِسَ أُناسٌ طاغونَ ، كأنَّهُمْ للرُّشْدِ باغونَ ، وَأولئكَ — عَلِمَ اللهُ — أصْحابُ البِدَعِ وَالمُنْكَرِ .

كَمْ مُتَظاهِرٍ باعتزالٍ ، يَزْعُمُ أنَّ رَبَّهُ — على الذَّرَّةِ — يُخَلِّدُ فى النّارِ[3] ، بَلَهَ الدِّرْهَمَ وَبَلَهَ الدِّينارَ ، وَما يَنْفَكُّ يَحْتَقِبُ[4] مِنَ المآثِمِ عَظائِمَ ، وَيَنْهَمِكُ على العِهارِ وَالفِسْقِ . قَدْ صَيَّرَ الجَدَلَ مَصيدةً ، يَنْظِمُ بِهِ مِنَ الغَيِّ قصيدةً[5] .

*
* *

وَحُدِّثْتُ عَنْ إمامٍ لَهُمْ ، يُوَقَّرُ وَيُتَّبَعُ ، أنَّهُ كانَ إذا جلسَ فى الشَّرْبِ[6] ،

---

(١) مان : كذب (٢) وفى هذا المعنى يقول أبو العلاء :

وفرقتهم على — علاتها — ملل وعند كل فريق أنهم ثقفوا

(٣) ذكر أبو العلاء هذا المعنى فى لزومياته ، فقال :

جنوا كبائر آثام ، وقد زعموا أن الصغائر تجنى الخلد فى النار

وقال : لقد أفلحوا إن كان لم يجر عندهم من الوزر إلا تركهم للمآزر !

(٤) احتقب الشيء : وضعه فى حقيبة ، والمراد : يقترف ويكتسب (٥) ارجع الى ص « ٢٥٤ » من هذا الجزء لتستوفى هذا المعنى (٦) الشَّرْب : مجلس الشراب

وَدَارَتْ عَلَيْهِمُ الْمُسْكِرَةُ ، وَجاءهُ الْقدَحُ ، شَرِبَهُ ، فَاسْتَوْفاهُ ، وَأَشْهَدَ مَنْ حَضَرَهُ عَلَى التَّوْبَةِ ! ......

عبد الله بن ميمون القداح

وَالشِّيعَةُ يَزْعُمُونَ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَيْمُونٍ الْقَدَّاحَ — وَهُوَ مِنْ «باهِلَة» — كَانَ مِنْ عِلْيَةِ أَصْحابِ «جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ» وَرَوَى عَنْهُ شَيْئًا كَثِيرًا ، ثُمَّ ارْتَدَّ بَعْدَ ذَلِكَ . فَحَدَّثَنِى بَعْضُ شُيُوخِهِمْ أَنَّهُمْ يَرْوُونَ عَنْهُ ، وَيَقُولُونَ : «حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ ابْنُ مَيْمُونٍ الْقَدَّاحُ ، كَأَحْسَنِ مَا كَانَ !» أَىْ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ . وَيَرْوُونَ لَهُ :

هَاتِ اسْقِنِى الْخَمْرَةَ يَا سَنْبَرُ ... فَلَيْسَ عِنْدِى أَنَّنِى أُنْشَرُ
أَمَا تَرَى الشِّيعَةَ فِى فِتْنَةٍ ... يَغُرُّهَا مِنْ دِينِهَا «جَعْفَرُ» ؟
قَدْ كُنْتُ مَغْرُورًا بِهِ بُرْهَةً ... ثُمَّ بَدَا لِى خَبَرٌ يُسْتَرُ

وَمِمَّا يُنْسَبُ إِلَيْهِ :

مَشَيْتُ إِلَى جَعْفَرٍ حِقْبَةً ... فَأَلْفَيْتُهُ خادِعًا يَخْلُبُ
يَجُرُّ الْعَلَاءَ إِلَى نَفْسِهِ ... وَكُلٌّ إِلَى حَبْلِهِ يَجْذِبُ
فَلَوْ كَانَ أَمْرُكُمُ صَادِقًا ... لَمَا ظَلَّ مَقْتُولُكُمْ يُسْحَبُ
وَلَا غُضَّ مِنْكُمْ قَتِيلٌ ، وَلَا ... سَمَا «عُمَرٌ» فَوْقَكُمْ يَخْطُبُ

وَالْحُلُولِيَّةُ قَرِيبَةٌ مِنْ مَذْهَبِ التَّنَاسُخِ ، وَحُدِّثْتُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ رُؤَسَاءِ الْمُنَجِّمِينَ(١) مِنْ أَهْلِ «حَرَّانَ» ، أَقَامَ فِى بَلَدِنَا زَمانًا ، فَخَرَجَ مَرَّةً مَعَ قَوْمٍ

---

(١) رأى أبى العلاء فى المنجمين

لأبى العلاء فى المنجمين والعرافين أسوأ رأى ، فهو يحتقرهم وينتقصهم فى كل مناسبة تعن له ، وقد بلغ من سخطه عليهم أن تمنى لو كان له من الأيد والسلطان ما يمكنه من استئصال

يَتَنَزَّهُونَ ، فَمَرَّ وَالثَّوْرُ يَكْرُبُ ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : « لَاشَكَّ فِى أَنَّ هَذَا الثَّوْرَ

شأفتهم ، فقال :

لو كان لى أمر يطاوع لم يشن ظهر الطريق — يدَ الحياة[1] — منجم
يغدو بزخرفه يحاول مكسبا فيدير أَسْطِرْلابَهُ ويرجِّم
وقفت به الورهاء — وهى كأنها عند الوقوف — على عرين تهجم
سألته عن زوج لها متغير ، فاهتاج يكتب بالرقان[2] ويعجم
ويقول : « ما اسمك واسم أمك ؟ إننى بالظن عما فى الغيوب مترجم »
يولى بأن الجن تطرق بيته وله يدين فصيحها والأعجم

إلى آخر تلك القصيدة الجميلة . وإنى أحيل القارىء إليها فى اللزوميات ، وأحب ألاّ تفوته .

وللمعرى فى المنجمين والعرافين أشعار كثيرة ، نختار منها النخبة التالية :

سألتْ مُنجِّما عن الطفل الذى فى المهد : « كم هو عائش من دهره ؟ »
فأجابها : « مائة » ليأخذ درهما وأتى الحمام وليدها فى شهره !

كأن منجم الأقوام أعمى لديه الصحف يقرؤها بلمس

قطع الطريق بهمه ونظيره فى المصر ، فعل منجم ومعزم

شكا الأذى ، فسهرت الليل ، وابتكرت به الفتاة إلى شمطاء ترقيه
وأمه تسأل العراف قاضية عنه النذور ، لعل الله يبقيه
وأنت أرشد منها حين تحمله إلى الطبيب يداويه ويسقيه

لقد بكرت فى خفها وإزارها لتسأل بالأمر الضرير المنجما
وما عنده علم فيخبرها به ولا هو من أهل الحجا فيرجما
يقول : « غداً أو بعده وقع ديمة يكون غياثاً أن تجود وتسجما »

---

(١) يد الحياة : طولها ، أى أبد الدهر (٢) الزعفران

رَجُلٌ كانَ يعرَفُ بخَلَفَ « بحرَّانَ » وجَعلَ يَصيحُ بِهِ : « يا خَلَفُ! » فَيَتَّفِقُ أَنْ يخُورَ ذَلِكَ الثَّوْرُ ، فيَقولُ لِأَصحابِهِ : « أَلا تَرَوْنَ صِحَّةَ ما خبَّرْتُكمْ بِهِ ؟! »

*
* *

وَحُكِيَ لِي عَنْ رَجُلٍ آخرَ مِمَّنْ يَقُولُ بِالتَّناسُخِ ، أَنَّهُ قالَ : « رَأَيتُ فِي النَّوْمِ أَبِي ، وَهُوَ يَقُولُ : « أَبُنَيَّ ! إِنَّ رُوحِي قَدْ نُقِلَتْ إِلَى جَمَلٍ أَعْوَرَ فِي قِطارِ فُلانٍ ، وَإِنِّي قَدِ اشْتَهَيْتُ بِطِّيخَةً » فَأَخَذْتُ بِطِّيخَةً ، وَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ القِطارِ ، فَوَجَدْتُ فِيهِ جَملاً أَعْوَرَ ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ بِالْبِطِّيخَةِ ، فَأَخَذَها أَخْذَ مُريدٍ مُشْتَهٍ »

ويوهم جهال المحلة أنه ... يظل لأسرار الغيوب مترجما
ولو سألوه بالذى فوق صدره ... لجاء بِمَيْنٍ أو أرَمَّ وجمجما
كأن سحاباً عمهم بضلالة ... فليس إلى يوم القيامة مُنجما
إذا قال أهل اللب : « حان انسفاره » ... تداركه غيم سواه فأنجما
فإن كنت قد وفقت ، فانج بوحدة ... وخل البرايا من فصيح وأعجما
ولا تك — فيما يكره القوم — ساعيا ... ولا مسرجا فى نصر غيرك مُلجما

وانظر إلى قوله فى السخط على المنجمات فى قصيدة « المرأة » الرائعة :

وأبعدهن عن ربات مكر ... سواحر يفتدين معرمات
يقلن نهيج الغياب ، حتى ... يجيئوا بالركاب مزممات
ونعطف هاجر الخلان ؛ كيما ... يزول عن السجايا المسمات
وجمع طوائف العمار ، سهل ... علينا بالجوالب موذمات
زعمن بأن فى مغنى فقير ... كنوزا للملوك مصمّات
فلا يدخلن دارك باختيار ... فقد ألفيتهن مـذممات
وإن خالسن غِرّتك ارتقابا ... فحق أن يرحن مشتّمات

أَفَلاَ يَرَى مَوْلاَىَ الشَّيْخُ إلى مَا رُمِىَ بِهِ هَذَا الْبَشَرُ مِنْ سُوءِ التَّمْيِيزِ ؟ .

ابن الراوندى(١)

وَأَمَّا ابْنُ الرَّاوَنْدِىِّ ، فَلَمْ يَكُنْ إلَى الْمَصْلَحَةِ بِمَهْدِىٍّ ، وَأَمَّا تَاجُهُ فَلاَ يَصْلُحُ

---

(١) ابن الراوندى

اسمه أحمد بن يحى بن إسحق الراوندى ، كنيته أبو الحسين ، وهو ينسب إلى « راوند » إحدى قرى أصبهان ، مات فى سن الأربعين فى سنة ٢٤٥ هـ . ، وكان أبوه يهوديًا فأسلم ، فكان اليهود يقولون للمسلمين : « ليفسدنّ عليكم هذا كتابكم ، كما أفسد أبوه التوراة علينا ! »

وكان من متكلمى المعتزلة ، وانفرد بمذاهب نقلها أهل الكلام عنه فى كتبهم ؛ قالوا : « ولم يكن فى زمانه أحذق منه بالكلام ، ولا أعرف بدقيقه وجليله » وكان يلازم أهل الإلحاد ؛ فإذا عوتب فى ذلك ، ادعى أنه يريد معرفة مذاهبهم ، ثم صار بعد ملحداً زنديقاً

وأوجز ما ننعته به ، أنه رجل لا يستقر على مبدأ ، وليس للمبادئ قيمة عنده ، فقد كان مسلماً ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يصنف « كتاب البصيرة » لليهود ، ردا على الاسلام ، نظير أربعمائة درهم دفعوها له ، فلما قبض المال ، رام نقضه ، فلما أعطوه مائة درهم أخرى عدل عن ذلك ! وكان من متكلمى المعتزلة ، فلم يمنعه ذلك من أن يؤلف كتابه الذى سماه : « فضيحة المعتزلة » وقد ألف كتباً أخرى متناقضة ، ولكن أكثرها كان إلحاديا شديد الجرأة .

وقد نيفت كتبه على المائة — ذكر ابن القارح أهمها وأشنعها فى رسالته — وكان له ذوق خاص فى تسمية كتبه ، فقد أطلق اسم « الزمردة » على كتابه الذى دال فيه على فساد الرسالة والرسل ، وازدرى فيه بالنبوات ، وعلل هذه التسمية بأن من خواص الزمرد ، أن الحية — إذا نظرت إليه — ذابت وسالت عيناها ، وكذلك يحدثُ لخصومه حين يقرأون كتابه !

ومما زعمه فيه قوله : « إنا نجد فى كلام « أكثم بن صيفى » شيئاً أحسن من « إنا أعطيناك الكوثر » وإن الأنبياء كانوا يستعبدون الناس بالطلاسم ..... الخ »

أَنْ يَكُونَ نَعْلاً ، وَهَلْ تَاجُهُ(١) إِلاَّ كَمَا قَالَتِ الْكَاهِنَةُ : « أُفَّ وَتُفَّ » مَا تَاجُهُ بِتَاجِ مَلِكٍ ، وَلَكِنْ دُعِيَ بِالْمُهْلِكِ ؛ وَلاَ اتُّخِذَ مِنَ الذَّهَبِ ، وَسَوْفَ يُصَوَّرُ مِنَ اللَّهَبِ !

وَأَمَّا « الدَّامِغُ(٢) » فَمَا إِخَالُهُ دَمَغَ إِلاَّ مَنْ أَلَّفَهُ . . .

بِئْسَ مَنْ نُسِبَ إِلَى « رَاوَنْدَ » إِنَّمَا هَتَكَ قَمِيصَهُ ، وَأَبَانَ لِلنَّاظِرِ خَمِيصَهُ !

القرآن الكريم

وَأَجْمَعَ مُلْحِدٌ وَمُهْتَدٍ ، أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ — صَلَّى اللهُ

وقد ذكر فى كتبه الأخرى آراء لا تقل عن هذه جرأة وشناعة على الأنبياء والدين ، فقد طعن على النبى صلى الله عليه وسلم فى كتابه (الفريد) وطعن على القرآن ، وعاب نظمه فى كتابه (الدامغ) . ومما ورد فيه قوله : « إن الله — سبحانه وتعالى — ليس عنده من الدواء إلا القتل ، فعل العدو الحنق الغضوب ، فما حاجته إلى كتاب ورسول ؟ . . وقال فى وصف الجنة : « فيها أنهار من ابن لم يتغير طعمه » وهو الحليب ، ولا يكاد يشتهيه إلا الجائع ، وذكر العسل ؛ ولا يطلب صرفا . والزنجبيل ، وليس من لذيذ الأشربة . والسندس ، وهو يفترش ولا يلبس . وكذلك الاستبرق ، وهو الغليظ من الديباج ، ومن تخايل بأنه فى الجنة يلبس هذا الغليظ ، و يشرب الحليب والزنجبيل ، صار كعروس الأكراد والنبط ! »

وقد مر بك طرف من أخباره فى رسالة ابن القارح ، وسيمر بك طرف آخر فى فصل آخر من هذا الكتاب ، فلنكتف بهذا القدر هنا .

(١) يعنى كتاب « التاج » الذى ألفه ابن الراوندى يحتج فيه لقدم العالم .

(٢) هو اسم الكتاب الذى ألفه ، وطعن فيه على نظم القرآن .

عَلَيْهِ — كِتَابٌ بَهَرَ بِالْإِعْجَازِ ، وَلَقِيَ عَدُوَّهُ بِالْإِرْجَازِ ، مَا حُذِيَ عَلَى مِثَالٍ ، وَلَا أَشْبَهَ غَرِيبَ الْأَمْثَالِ . مَا هُوَ مِنَ الْقَصِيدِ الْمَوْزُونِ ، وَلَا الرَّجَزِ ، وَلَا شَاكَلَ خِطَابَةَ الْعَرَبِ ، وَلَا سَجْعَ الْكَهَنَةِ . وَجَاءَ كَالشَّمْسِ ، لَوْ فَهِمَهُ الْهَضْبُ لَتَصَدَّعَ . وَإِنَّ الْآيَةَ مِنْهُ — أَوْ بَعْضَ الْآيَةِ — لَتَعْتَرِضُ فِي أَفْصَحِ كَلِمٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْمَخْلُوقُونَ ، فَتَكُونُ فِيهِ كَالشِّهَابِ الْمُتَلَأْلِئِ فِي جُنْحِ غَسَقٍ ، وَالزَّهْرَةِ الْبَادِيَةِ فِي جُدُوبٍ . فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ !

*
* *

وَأَمَّا « الْقَضِيبُ[1] » فَمَنْ عَمِلَهُ أَخْسَرُ صَفْقَةً مِنْ « قَضِيبٍ[2] » ، وَخَيْرٌ لَهُ مِنْ إِنْشَائِهِ ، لَوْ رَكِبَ قَضِيبًا[3] عِنْدَ عِشَائِهِ[4] ، فَقَذَفَتْ بِهِ عَلَى قَتَادٍ[5] ، وَنَزَعَتِ الْمَفَاصِلَ كَنَزْعِ الْأَوْتَادِ :

إِنَّ الطِّرِمَّاحَ يَهْجُونِي لِأَشْتُمَهُ   هَيْهَاتَ ! هَيْهَاتَ ! عِيلَتْ - دُونَهُ - الْقُضُبُ

*
* *

وَأَمَّا « الْفَرِيدُ[6] » فَأَفْرَدَهُ مِنْ كُلِّ خَلِيلٍ ، وَأَلْبَسَهُ — فِي الْأَبَدِ — بُرْدَ الذَّلِيلِ ، وَمَنِ انْفَرَدَ بِعِزِّهِ لَوَقَارِهِ ، فَإِنَّ « فَرِيدَ » ذَلِكَ الْجَاحِدِ يَنْفَرِدُ لِحَقَارَتِهِ ، كَأَنَّهُ الْأَجْرَبُ . وَإِذَا جَذِلَتِ الْغَانِيَةُ بِفَرِيدِ النِّظَامِ ، فَهُوَ

---

(١) هو اسم الكتاب الذى ألفه ابن الراوندى فى إثبات أن الله محدث وأنه كان غير عالم ، حتى خلق لنفسه علماً (٢) هو تمّار بالبحرين يضرب به المثل ، وحكايته أنه اشترى « قوصرّة تمر » وكان فيها بدرة ، فلحقه صاحبها واستردها ، واستخرج البدرة منها ، فقتل (قضيب) نفسه لهفة عليها (٣) ناقة لم تُرض (٤) أى ليلاً ، والناقة التى لم ترض ، إذا مشت بالليل ، تحقق لراكبها الويل . . . ! (٥) شجر صلب له شوك كالإبر (٦) هو اسم الكتاب الذى ألفه ابن الراوندى فى الطعن على النبى صلوات الله عليه

قِلَادَةُ مَآثِمَ عِظَامٍ . وَأَمَّا « الْمَرْجَانُ » فَإِذَا قِيلَ : إِنَّهُ صِغَارُ اللُّؤْلُؤِ ، فَمَعَاذَ اللهِ أَنْ يَكُونَ « مَرْجَانُهُ[1] » صِغَارَ حَصًى ، بَلْ أَخَسُّ مِنْ أَنْ يُذْكَرَ !

ابن الرومى[2]

وَأَمَّا « ابْنُ الرُّومِىِّ » فَهُوَ أَحَدُ مَنْ يُقَالُ : « إِنَّ أَدَبَهُ كَانَ أَكْثَرَ مِنْ

(١) « المرجان » هو اسم الكتاب الذى ألفه ابن الراوندى فى اختلاف أهل الإسلام

(٢) ابن الرومى — ٢٢١ — ٢٨٣ هـ

اسمه على بن العبـــاس بن جريج (أوجور جيس) مولى عبيد الله بن عيسى بن جعفر ، وكنيته أبو الحسن ، و يعرف بابن الرومى (نسبة إلى أصله)

كانت ولادته بعد طلوع فجر يوم الأربعاء لليلتين خلتا من رجب سنة ٢٢١ هـ فى الموضع المعروف « بالعقبة ودرب الختلية » فى دار بازاء قصر عيسى بن جعفر — ووفاته يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ٢٨٣ هـ فدفنوه فى مقبرة البستان . وكانت ولادته وموته فى بغداد .

وعلى ذلك يكون « ابن الرومى » قد أظلته تسع خلافات ، وهى خلافات : « المعتصم[1] » و « الواثق[2] » و « المتوكل[3] » و « المنتصر[4] » و « المستعين[5] » و « المعتز[6] » و « المهتدى[7] » و « المعتمد[8] » و « المعتضد[9] » .

وكان شعره غير مرتب ، رواه « المتنبى » عنه ، ثم جمعه « أبو بكر الصولى » ورتبه على الحروف ، وجمعه « أبو الطيب » وراق بن عبدوس ، وزاد فى جميع النسخ نحو ألف بيت

« سبب موته »

وصل « ابن الرومى » فى الهجو والتصرف بمعانيه وأساليبه ، والإفحاش فى ذلك ، إلى حد

(١) « ٢١٨ — ٢٢٧ هـ » (٢) « ٢٢٧ — ٢٣٢ هـ » (٣) « ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ »
(٤) « ٢٤٧ — ٢٤٨ هـ » (٥) « ٢٤٨ — ٢٥٢ هـ » (٦) « ٢٥٢ — ٢٥٥ هـ »
(٧) « ٢٥٥ — ٢٥٦ هـ » (٨) « ٢٥٦ — ٢٧٩ هـ » (٩) « ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ »

خافه معه معاصروه ، فلم يكد يسلم أحد من خوفه ، حتى لقد خافه « أبو الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب » وزير الإمام « المعتضد » مع ما اشتهر به هذا الوزير من الاستبداد ، والجرأة على سفك الدماء !

اشتهر ابن الرومى بالجرأة على هجاء الأمراء — بلا هوادة ولا رفق — واشتهر الوزير « القاسم » بالميل إلى الانتقام ، وعدم التردد فى قتل من يناوئه و يناصبه العداء ، وكان يخشى فلتات لسان ابن الرومى ، و يعلم أنه لن يسلم من هجائه أو سلاطته يوماً ما . فلما هجاه « ابن الرومى » استشاط غضباً ، وفكر فى قتله انتقاماً منه . فدس إليه « ابن فراس » — وهو ممن أفحش « ابن الرومى » فى هجائهم — فأطعمه « خشكنانه » مسمومة — وهو فى مجلس « القاسم » — فلما أكلها « ابن الرومى » أحس بالسم ، وأدرك المكيدة ، فقام ، فقال له الوزير : « إلى أين تذهب ؟ » فأجابه : « إلى الموضع الذى بعثتنى إليه ! » فقال له : « سلم على والدى » فقال : « ليس طريقى على النار ! »

وخرج من مجلسه ، وأتى منزله ، وأقام أياماً ، ومات

« دقة ابن الرومى وتغلغله فى المعانى »

« يغوص على المعانى النادرة فيستخرجها من مكامنها ، ويبرزها فى أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية » « ابن خلكان »

قال أحد كتاب الانجليز : « ليست الصعوبة التى تعترض الكاتب أو الشاعر هى أن يكتب أو ينظم فى موضوع ما ، ولكنها فى أن يقول كل ما يعنيه بالضبط فى هذا الموضوع ! »

وأبدع الشاعر العربى فى صوغ هذا المعنى ، فقال :

وفضلنى فى القول والشعر أننى   أقول على علم ، وأعلم ما أعنى

*
* *

هذا فى اعتقادنا هو أكبر فارق جوهرى بين الكاتب المجيد أو الشاعر الفحل المطبوع ، وبين غيرهما من الكتاب أو الشعراء الكثيرين ؛ وهذا الفارق هو أول ما نبحث عنه حين نشرع فى

مطايبة مع أبى بكر بن السراج

وَاسْتَعَارَ مِنْ « أَبِي بَكْرِ بنِ السَّرَّاجِ » كِتَابًا ، فَتَقَاضَاهُ بِهِ « أَبُو بَكْرٍ »

تعرف شاعر أو كاتب قديم أوحديث ، و إن هذا الفارق لهو أول ميزة تبدهك من شعر ابن الرومى الحافل بالميزات الكثيرة …

*
* *

خصائص ابن الرومى هى : الدقة التامة فى أداء المعنى الذى قام بنفسه ، واستقصاؤه ، وتحديد ما يعنيه بالضبط ، والغوص على أخفى خفاياه ، والتمشى معه إلى أبعد مداه ، وسبر أقصى أغواره ، و إظهار كل ناحية من مناحيه المختلفة ، فى كلام واضح جلى ، والتوفيق فى الاهتداء إلى كل ذلك ، والوصول إليــه بلا كلفة ولا تعمّل . فهو فطن — دقيق فى فطنته — إلى كل ما تتطلبه صوره الشعرية من الألوان والأصباغ ، ينشر ظلالها وأضواءها ، و يلائم بين ألوانها وأصباغها ، حتى إذا انتهى منها ، وجدتَ ما قام بذهنه من المعانى ماثلاً أمامك فى صورة ناطقة ، مكتملة الحياة ، مشرقة بها فى كل جزء من أجزائها

*
* *

ذلك هو أول ما يسترعى انتباهك حين تقرأ شعر ابن الرومى ، وهو من الصفات التى لازمته فصارت له كالطبع ، واتسم بها تفكيره ، فأصبح نثره — على ندرة ما وصلنا منه — مشتركاً مع شعره فى هذه الميزة الباهرة ، كما ترى ذلك فى الرسالة التالية :

« ترفع عنى ظلمى — إن كنت بريئاً ، وتتفضل بالعفو — إن كنت مسيئاً ؛ فوالله إنى لأطلب العفو من ذنب لم أجنه ، وألتمس الإقالة مما لا أعرفه ، لتزداد تطولاً ، وأزداد تذللاً ، وأنا أعيذ حالى عندك بكرمك من واش يكيدها ، وأحرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها ، وأسأل الله — تعالى — أن يجعل حظى منك ، بقدر ودى لك ، ومحلى من رجائك بحيث أستحق ، والسلام » .

فَقَالَ لهُ « ابْنُ الرُّومِيِّ » : « لَوْ كَانَ « المشترى » حَدَثًا ، لَكَانَ عَجُولاً ! »

تشـــيعه

وَالْبَغْدَادِيُّونَ يَدَّعُونَ أَنَّهُ « مُتَشَيِّعٌ » وَيَسْتَشْهِدُونَ عَلَى ذَلِكَ بِقَصِيدَتِهِ الْجِيمِيَّةِ (١) :

فانظر ملياً، هل ترى فرقاً بين شعره ونثره فى طريقة الأداء وأسلوب التفكير ؟ وهل تتردد لحظة واحدة فى الحكم على هذا الكلام بأنه شعر لا ينقصه إلا الوزن والقافية ؟

هذه — فى نظرنا — هى أكبر ميزات ابن الرومى وأجدرها بالذكر ، فلنكتف بها فى هذه الإلمامة الآن ، تاركين الكلام فى بقية النقط الأخرى — مثل تأثر « المتنبى » بشعره ، وفساد عصره ، وأثر ذلك فى نفسه ، ووجوه الشبه والاختلاف بين تفكيره وتفكير «المعرى» ، والعنت الذى لقيه من معاصريه ، وأثر ذلك فى شعره ، و إقذاعه فى الهجاء ، ورأيه فى الجبر والاختيار ، وعثور جَدّه ، وشراهته ونهمه فى الأكل ، و إطالته القصائد مع المحافظة على الإجادة ، والأمن — فى أكثر الأحيان — من السقط والتكرير ، وما إلى ذلك من المباحث — إلى رسالة خاصة نعدها عن ابن الرومى ، ونرجو أن نوفق فى إظهارها قريباً . ونحب أن يرجع القارئ الى كتابنا « صور جديدة من الأدب العربى » ليقرأ الفصل الذى كتبناه عنه وعنوانه : « ابن الرومى ، كيف أغفله صاحب الأغانى ؟ »

(١) هى قصيدته الخالدة التى رثى بها « أبا الحسين يحيى بن عمر بن حسين بن زيد بن على » وأبدع فيها ما شاء له إبداعه وافتنانه وعبقريته الفذة ، التى يراها القارىء ممثلة فى كل بيت من أبياتها ، والقصيدة هى :

أمامك فانظر : أى نهجيك تنهج ... طريقان شتى ، مستقيم وأعوج
ألا أيهذا الناس : طال ضريركم ... بآل رسول الله ، فاخشوا ، أو ارتجوا
أكل أوان للنبى محمد ... قتيل زكى — بالدماء مضرج ؟
تبيعون فيه الدين شر أئمة ... فلله دين الله ، قد كاد يمرج !
لقد ألحجوكم فى حبائل فتنة ، ... وَلَلْمُلْحِجُوكم فى الحبائل ألحج

* * *

. . . .

بنى المصطفى ! كم يأكل الناس شلوكم ؟ لبلواكم — عما قليل — مُفرّج
أما فيهم راع لحق نبيه ؟ ولا خائف من ربه يتحرّج ؟
لقد عمهوا ما أنزل الله فيكم كأن كتاب الله فيهم ممجمَج
ألا خاب من أنساه منكم نصيبه متاع من الدنيا قليل وزبرِج

***

أبعد المكنّى بالحسين شهيدكم تضىء مصابيح السماء فتُسرج ؟
لنا وعلينا — لا عليه ولا له — تسحسح أسراب الدموع وتنشج
وكيف نبكّى فائزاً عند ربه له فى جنان الخلد عيش مخرفج(١)
وقد نال فى الدنيا سناء وصيتة وقام مقاما لم يقمه مزلّج(٢)
فإلا يكن حيًّا لدينا ، فإنه لدى الله حى ، فى الجنان مزوج
وكنا نرجيه لكشف عماية بأمثاله أمثالها تتبلج
فساهمنا ذو العرش فى ابن نبيه ففاز به ؛ والله أعلى وأفلج(٣)
مضى ، ومضى الفرّاط من أهل بيته يؤم بهم ورد المنية منهج
فأصبحت ، لاهم أنسَوْنى بذكره(٤) كما قال قبلى فى البسوء مؤرّج
ولا هو نسّانى أساى عليهم بلى ! هاجه ، والشجو للشجو أهيج
أبيت — إذا نام الخلىّ — كأنما تبطن أجفانى سَيال(٥) وعوسج

***

أيحيى العلى ! لهفى لذكراك لهفة يباشر مكواها الفؤاد فينضج
أحين تراءتك العيون جلاءها وأقذاءها ، أضحت مراثيك تنسج !
بنفسى — وإن فات الفداء بك الردى — محاسنك اللائى تُمج فتنهج
لمن تستجد الأرض بعدك زينة فتصبح فى أثوابها تتبرج ؟
سلام وريحان وروح ورحمة عليك ، وممدود من الظل سَجسج(٦)

(١) واسع (٢) الناقص المروءة (٣) أغلب (٤) أنسونى بذكره
(٥) السيال (مفرده سيالة) نبات شائك (٦) السجسج : المعتدل ، لا حرّ فيه ولا قُر

. . . .

ولا برح القاع الذى أنت جاره يرف عليه الأقحوان المفلج
ويا أسف ألا ترد تحية سوى أرج من طيب رمسك يأرج
ألا إنما ناح الحمائم بعدما ثويت، وكانت ـ قبل ذلك ـ تهزج!

***

أذم إليك العين أن دموعها تداعى بنار الحزن — حين توهج
وأحمدها — لو كفكفت من غروبها عليك ، وخلت لاعج الحزن يلعج
وليس البكا أن تسفح العين ، إنما أحر البكا أينُ البكاء المولج
أتمنعنى عينى عليك بدمعة وأنت لأذيال الروامس مدرج ؟
فإنى — إلى أن يدفن القلب داءه — لِيقتلنى الداء الدفين ، لأحوج
عفاء على دار ظعنت لغيرها فليس بها للصالحين معرج

***

ألا أيها المستبشرون بيومه أظلت عليكم غمة لا تفرج
أكلكم أمسى : اطمأن مهاده بأن رسول الله فى القبر مزعج ؟
فلا تشمتوا ، وليخسأ المرء منكم بوجه : كأن اللون منه اليرندج
فلو شهد الهيجا بقلب أبيكم ـ غداة التقى الجمعان ـ والخيل تمعج
لأعطى يد العانى ، أو ارتد هاربا ، كما ارتد بالقاع الظليم المهيج
ولكنه ما زال يغشى بنحره شبا الحرب،حتى قال ذو الجهل: «أهوج»
وحاش له من تلكمُ ، غير أنه أبى خطة الأمر الذى هو أسمج
وأين به عن ذاك؟ لا أينَ — إنه إليه بعرقيه الزكيين محرَج
كأنى به — كالليث يحمى عرينه وأشباله — لا يزدهيه المهجهج
كدأب «على» فى المواطن قبله أبو حسن ، والغصن من حيث يخرج
كأنى أراه — والرماح تنوشه شوارع — كالأشطان تدلى وتخلج
كأنى أراه — إذ هوى عن جواده وعفر بالترب الجبين المشجَّج

فَحُبَّ به جسما الى الأرض – إذ هوى – … وحُبَّ بها روحا – إلى الله تعرُج
أأرديتم « يحيى » ولم يطو أيطل … طراداً ، ولم يدبر من الخيل منسج ؟
تأتت لكم فيه منى السوء هينة ؛ … وذاك لكم بالغى أغرى وألهج
تهدّون فى طغيانكم وضلالكم … ويستدرج المغرور منكم فيدرج
أجنوا بنى العباس ! من شنآنكم … وأوكوا على ما فى العياب ، وأشرجوا (١)
وخلوا ولاة السوء منكم وغيهم ، … فأحر بهم أن يغرقوا حيث لججوا
نظار لكم أن يرجع الحق راجع … إلى أهله يوما ، فتشجوا كما شجوا
على حين لا عُذرَى لمعتذريكمُ … ولا لكم من حجة الله مخرج
فلا تلقحوا الآن الضغائن بينكم … وبينهم ، إن اللواقح تنتج
غررتم ، لئن صدقتم أن حالة … تدوم لكمُ ، والدهر لونان أخرج (٢)
لعل لهم فى منطوى الغيب ثائرا … سيسمو لكم ، والصبح فى الليل مولج
بمجر تضيق الأرض من زفراته … له زجل (٣) ينفى الوحوش وهرمج (٤)
إذا شيم بالأبصار أبرق بيضه … بوارق لا يسطيعهن المحمّج (٥)
توامضه شمس الضحى ، فكأنما … يرى البحر فى أعراضه يتموج
له وقدة بين السماء وبينه ، … تلم بها الطير العوافى فتهرَج (٦)
إذا كرّ فى أعراضه الطرف أعرضت … حَراج تحار العين فيها فتَحْرَج (٧)
يؤيده ركنان ثبتان ، رَجلة … وخيل – كأرسال الجراد – وأوثج
عليها رجال كالليوث بسالة … بأمثالها يثنى الأبىّ فيعنج
تدانوا ، فما للنقع فيهم خصاصة … تنفسه عن خيلهم – حين ترهج
فلو حصبتهم بالفضاء سحابة … لظل عليهم حصبها يتدحرج
كأن الزجاج اللهذميات فيهم … فتيل بأطراف الردينى مسرج
يود الذى لاقوه أن سلاحه … هنالك خلخال عليه ودُملج

(١) شدوا على ما فى قربكم بالوكاء : (رباط القربة) وخيطوا رءوسها حتى لا ينفذ شىء مما تحويه
(٢) الأخرج : ذو اللونين (٣) جلبة (٤) أصوات مختلطة (٥) المحدّق الفزع
(٦) تتحير أبصارها من شدة الحر (٧) تفور فيضيق عليها منافذ البصر

. . . .

فيدرك ثأر الله أنصار دينه ، ولله أوس آخرون وخزرج
ويقضى أمام الحق فيكم قضاءه تماماً ، وما كل الحوامل تخدج
وتظعن – خوف السبي – بعد إقامة ، ظعائن ، لم يضرب عليهن هودج
وقد كان في « يحيى » مذمّر خطة وناتجها ، لو كان للأمر مَنتج
هنالكم يشفى تبيّغ جهلكم إذا ظلت الأعناق بالسيف تودج
محضتكم نصحى ، وإنى بعدها لاعنق فيما ساءكم وأهملج

*
* *

مهٍ لا تعادوا غرة البغي بينكم كما يتعادى شعلة النار عَرفج
أفي الحق أن يمسوا خماصا ، وأنتم يكاد أخوكم – بطنةً – يتبعج ؟
تمشون مختالين في حجراتكم ثقال الخطى – أكفالكم تترجرج
وليدهم بادى الضوى ، ووليدكم من الريف ريان العظام خدلّج
تذودونهم عن حوضهم بسيوفكم ويشرع فيه أرتبيل وأبلج
فقد ألجمتهم خيفة القتل عنكم وبالقوم حاج في الحيازم حوّج

*
* *

بنفسى الألى كظتهم حسراتكم فقد علزوا – قبل الممات – وحشرجوا
ولم تقنعوا – حتى استثارت قبورهم كلابكم منها بهيم ودَيْزَج
وعيّرتموهم بالسواد ؟ ولم يزل من العرب الأمحاض أخضر أدعج
ولكنكم زرق ، يزين وجوهكم بنى الروم ! ألوان من الروم نعّج

*
* *

لئن لم تكن بالهاشميين عاهة لما شكلكم – تالله – إلا المعهلج
بآية أن لا يبرح المرء منكم يُكَبُّ على حر الجبين فيعفج
يبيت – إذا الصهباء روّت مُشاشه – يساوره عِلج من الروم أعلج

فيطعنه فى « سبة السوء » طعنة ... يقوم لها من تحته وهو أفحج (١)
لذاك ، بنى العباس ! يصبر مثلكم ، ... ويصبر للموت الكمى المدجّج
فهل عاهة إلا كهذى ، وإنكم ... لأكذب مسؤول عن الحق يلهج
فلا تجلسوا وسط المجالس حسّرا ... ولا تركبوا إلا ركائب تخدَج

***

أبى الله إلا أن يطيبوا وتخبثوا ... وأن يسبقوا بالصالحات ويفلجوا
وإن كنتم منهم وكان أبوكم ... أباهم ، فإن الصفو بالرنق يمزج

***

لعمرى لقد أغرى القلوب «ابن طاهر» ... ببغضائكم ما دامت الريح تنأج
سعى لكم مسعاة سوء ذميمة ... سعى مثلها مستكره الرجل أعرج
فلن تعدموا — ما حنت النيبُ — فتنة ... تحش كما حش الحريق المؤجج
وقد بدأت — لو تزجرون بريحها — ... بوائجها من كل أوب تبوّج

***

بنى مصعب ! ما للنبى وأهله ... عدو سواكم — أفصحوا ، أو فلجلجوا
دماء بنى عباسكم وعليهم ... لكم كدماء الترك والروم تهرج
يلى سفكها العوران والعرج منكم ، ... وغوغاؤكم — جهلاً بذلك — تبهج
وما بكم أن تنصروا أولياءكم ... ولكن هنات فى القلوب تنجنج
ولو أمكنتكم فى الفريقين فرصة ، ... لقد بينت أشياء تلوى وتجنج
إذن لاستقدتم منهما وتر فارس ، ... وإن ولياكم فالوشائج أوشج
أبى أن تحبوهم — يد الدهر — ذكركم ... ليالى لا ينفك منكم متوج

***

وإنى على الاسلام منكم لخائف ... بوائق شتى ، بابها الآن مرتج

(١) ألا ترى إلى ابن الرومى لا يحجم عن الافحاش حتى فى مقام الرثاء ! ! !

هِىَ شَرٌّ مُتَعَجَّلٌ ، وَلِلْأَنْفُسِ أَجَلٌ مُؤَجَّلٌ(١) ، وَكُلُّ ذَلِكَ حَـذَرٌ مِنْ

وفى الحزم أن يستدرج الناس أمركم وحبلهم مستحكم العقـــد مدمج

*
* *

نَظارِ فإن الله طالب وتره بنى مصعب ! لن يسبق الله مدلج

لعل قلوباً قد أطلتم غليلهـــا ستظفر منـــكم بالشفاء ، فتثلج

(١) الطيرة والتشاؤم

أبو العلاء متشائم شديد التشاؤم ، بل هو من أشد من عرفناهم تشاؤماً ، ولكنه — مع تشاؤمه الذى لا يقف عند حد — ليس من جماعة المتطيرين ، بل هو أبعد من عرفناهم عن التطير

و إنما نعني بالتشاؤم ذلك المذهب الذى يسميه الافرنج (Pessimisme) ونرى أن نسميه بالعربية : سخطاً ، ونسمى أصحابه ساخطين، وهو مذهب جماعة المتبرمين بالعالم ، الذين لا يرون فيه إلا شرًا مستطيراً ، لا يستطيعون حمله ، ولا أمل لهم فى دفعة أو تهوينه ، ولا ينظرون إليه إلا بمنظار شديد السواد ، وعلى العكس من ذلك مذهب الرضا ، و يسميه الافرنج (Optimisme) وهو مذهب من يحسنون الظن بالأيام ، وينظرون إلى العالم بمنظار رائق ناصع البياض ؛ فيرون كل ما فيه يدعو إلى الغبطة ، ويرونه سائراً فى طريق التقدم والكمال ، وفى هذا مجلبة رضاهم وارتياحهم ، وقد أشبع « ماكس نورداو » جماعة الساخطين ، سخرية وتعنيفاً ، ورماهم بنقص فى عقولهم ، فى مقالته التى كتبها عن السخط والرضا (Pessimisme & Optimisem) فى كتابه الفلسفى الذى سماه (الغرائب Paradoxes) وهى مقالة جميلة ، نحب ألا تفوت القارىء ، وقد لخصتها مجلة البيان فى سنتها الرابعة فى جزءيها الثانى والثالث ، تلخيصاً لا يخلو من الفائدة والنفع ، لمن لا تتاح له قراءتها كاملة فى الكتب الافرنجية .

أما الطيرة (Manvais Augure) ، ونقيضها الفأل — أو التيمن (Bon Augure) ، فمذهب آخر يختلف فى نظرنا عن مذهب السخط والرضا كل الاختلاف ، فقد يكون الانسان

ساخطاً أو راضياً ولكنه لا يتطير ولا يتفاءل . وعلى العكس من ذلك ، قد يكون من المتطيرين والمتفائلين ، ولكنه فى الوقت نفسه ساخط على الحياة أو راض عنها .

*
* *

و إنما الطيرة مذهب أساسه ربط الحوادث بغير أسبابها الحقيقية ، وتعليل النفس بما لا يفيد ، وترقب المناسبات والمصادفات ، لاستنتاج شىء وهمى لا أساس له من الصحة ، ولا قيمة له — عند العقلاء — و إنما يدعو إليها ، فى نظرنا ، عدم اطمئنان القلب ، وخفة العقل ؛ ولعله لو رجع المرء إلى نفسه يسائلها فى أى ساعاتها تميل إلى التعلل بأشباه هذه الخرافات ، لرأى أن ذلك كثيراً ما يحدث فى أوقات الهلع والذعر من جراء مصاب فادح مُذهل ، تملَّك على الانسان قلبه ، وأطار لبه ، وحرمه طمأنينته ، فجعله كالغريق يتلمس أتفه الأسباب وأقلها غناء ، لينقذ نفسه من الهلاك . فأما فى ساعات اطمئنانه فقلما يأبه لذلك ، اللهم إلا إن كان من هؤلاء الذين أصبح لهم التطير ديدناً وطبعاً ، وهذا غير السخط الذى أساسه سوء الظن ، وشدة الحذر ، والنقمة على الحياة ، والنظر إليها من جانبها الأسود !

*
* *

انظر إلى تطير الأمين — مثلاً — حين حاصره « طاهر » ولم نكن سمعنا بتطيره من قبل — قال « ابراهيم بن المهدى » وكان حينئذ مع الأمين :

« خرج الأمين ذات ليلة يريد أن يتفرج من الضيق الذى هو فيه ، فصار إلى قصر له بناحية « الخلد » ثم أرسل إلىّ فحضرت عنده ، فقال : « ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر فى السماء وضوءه فى الماء على شاطئ « دجلة » ... فهل لك فى الشرب ؟ » فقلت : « شأنك » فشرب رطلاً وسقانى آخر ، ثم غنيته ما كنت أعلم أنه يحبه ، فقال لى : « ما تقول فيمن يضرب عليك ؟ » فقلت : « ما أحوجنى إليه ! »

فدعا بجارية متقدمة عنده ، اسمها « ضعف » فتطيرتُ من اسمها ونحن فى تلك الحال فقال لها : « غنى » فغنت بشعر الجعدى :

كليب لعمرى كان أكثر ناصراً وأيسر جرماً منك ضرج بالدم

فاشتد ذلك عليه، وتطير منه، وقال «غنى غير ذلك» فغنّت :

أبكى فراقكم عينى فأرقها إن التفرق للأحباب بكّاء
ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا — وريب الدهر عدّاء

فقال لها : «لعنك الله ! أما تعرفين من الغناء غير هذا ؟» فقالت : «ما تغنيت إلا ما ظننت أنك تحبه» ثم غنت آخر :

أما ورب السكون والحرك إن المنايا كثيرة الشرك
ما اختلاف الليل والنهار، وما دارت نجوم السماء فى الفلك
إلا لنقل السلطان عن ملك قد زال سلطانه إلى ملك
وملك ذى العرش دائم أبداً ليس بفان ولا بمشترك

فقال لها : «قومى، غضب الله عليك ولعنك !» وكان له قدح من بَلُّور حسن الصنعة، وكان موضوعاً بين يديه — فعثرت الجارية به فكسرته، فقال : «ويحك يا إبراهيم، أما ترى ما جاءت هذه الجارية، ثم ما كان من كسر القدح، والله ما أظن أمرى إلا قد قرب» فقلت : «يديم الله ملكك، ويعز سلطانك، ويكبت عدوك»

فما استتم الكلام حتى سمعنا صوتاً : «قضى الأمر الذى فيه تستفتيان !»

فقال : «يا إبراهيم ! أما سمعت ما سمعت ؟» قلت : «ما سمعت شيئاً» وكنت قد سمعت، قال : «تسمع حسًّا» فدنوت من الشط فلم أر شيئاً - ثم عاودنا الحديث، فعاد الصوت بمثله ؛ فقام من مجالسه مغتما إلى مجلسه بالمدينة

قال : «فما مضى إلا ليلة أو ليلتان حتى قتل ....»

*
* *

فانظر إلى هذه الحكاية المحزنة، وتأمل قليلاً، ألست ترى أن ضعف نفسيهما وحده هو السبب الأكبر فى كل هذه الاستنتاجات ؟ ومثّل لنفسك أن كل ما حدث فى تلك الليلة المروعة قد حدث فى ليلة أنس وطرب، بل فى ليلة عادية - إن شئت - فهل كانا يهتمان به كل هذا الاهتمام؟

. . . .

وهذا الروع الذى أحسه إبراهيم المهدى — حين سمع اسم الجارية « ضعف » هل كان يحس مثله — إذا تبدل الموقف وكان انتصاراً وفوزاً — أو لم تكن هذه الجارية متقدمة عند الأمين ؟ فما له لم يتطير من اسمها قبل هذه المرة ؟

وهل تحسبها غنت إلا ما حسبت أن مولاها يحبه — وكم غنته — هى أو غيرها — مثل هذه الأبيات ، فطرب وانتخى ، ومن يدرى فربما كان الأمين يميل إلى هذا النوع من الشعر المشجى ، وكان هذا الميل مغرياً للجارية على غناء تلك الأبيات ! وتمثل الأمين عاقب مسيئاً بالقتل ، على جرم فرط منه ، فخامره شيء من الندم . وإنه لكذلك — إذ غنته هذه الجارية نفسها هذا البيت بعينه :

كليب لعمرى كان أكثر ناصراً   وأيسر جرماً منك ضرج بالدم

ألم يكن فيه حينئذ راحة يثلج لها فؤاده ، وتمثل الجارية تغنيه هذا البيت قبل أن يقتل ذلك المسىء وهو يفكر فى ذلك ، أكان يتطير منه — إذ ذاك — وأى أثر يكون له فى نفسه حينئذ من سماعه ؟ ألا يكون فيه إغراء بقتل ذاك المسىء ؟

*
* *

وتمثل البيتين الآخرين قد غنتهما الجارية فى موقف غير هذا ، فى موقف غرام مثلاً ، فى ساعة يفكر فيها الأمين فى معشوق له ، مات ولم ينعم به طويلاً ، فكيف يكون أثرهما فى نفسه ، وكيف يتمثل قولها : « إن التفرق للأحباب بكاء ؟ » ولكن تغير الموقف ، فتغير المعنى

واعكس الآية ، فتمثل الأمين — فى مكان المأمون — وأنه قد أوشك أن ينتصر على أخيه ، وأنه قد سمع الأبيات الأخيرة وهو يحاصر مدينته ، فأى أثر يتركه فى نفسه قولها :

« ما اختلف الليل والنهار وما   دارت نجوم السماء فى الفلك

الا لنقل السلطان عن ملك   قد زال سلطانه الى ملك ! »

وهكذا غير الظروف ، وتمثل آثار تلك الأبيات فى نفسيهما ، تجدها مختلفة يصل اختلافها إلى مسافة ما بين الضد والضد أحياناً

. . . .

ثم ماذا فى هذه الجملة التى غمت الأمين : « قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ؟ » ألم يكن فيها متأول حسن — لو شاء ! ألم يسمعها عقب دعاء له بدوام ملكه ، وإعزاز سلطانه ، وكبت عدوه ، فإذا قضى هذا الأمر ، فقد تم له ما أراد ؟ . .

(ارجع الى كتابنا مصارع الخلفاء ، واقرأ فيه مصرع الأمين)

ولكن إخوان هذه الخليقة — كما يقول أبو العلاء — لا يحملون الأشياء الواردة على الحقيقة !

ومن أجمل ما رووه عن التطير والتفاؤل قول الرسول — عليه الصلاة والسلام — : « ثلاثة لا يسلم منهن أحد — الطيرة ، والظن ، والحسد » ، قيل له : « فما المخرج منهن يا رسول الله ؟ » قال : « إذا تطيرت فلا ترجع ، و إذا ظننت فلا تحقق ، واذا حسدت فلا تبغِ »

*
* *

إذا أقررنا ذلك ، سهل علينا أن ندرك ، كيف كان أبو العلاء ساخطاً ، ولم يكن متطيراً .

أما « ابن الرومى » فقد لا يكون شديد السخط على الحياة ، ولكنه كان — على الرغم من ذلك — إماماً من أئمة المتطيرين ، و إذا أضفت هذا الفصل إلى ما فى رسالة ابن القارح ازددت اقتناعاً بطيرته ، وحسبك أن تعلم أنه كان لا يلبس ثيابه الا بعد أن يتعوذ ، فإذا وصل الى الباب نظر من خلال ثقب المفتاح ، فإذا رأى ذلك الأحدب الذى تعود مضايقته ، جالساً ؛ جبن فلم يخرج ، وخلع ثيابه ثانية ، وقد عرف « ابن الرومى » كيف ينتقم منه ، و يثأر لنفسه ، ببيتيه اللذين وسمه بهما آخر الأبد ، وهما قوله :

« قَصُرَتْ أَخَادِعُهُ ، وطَالَ قَذَالُهُ فكأنه متربص أن يُصْفَعَا
وكأنما صُفِعَتْ قَفَاهُ مرةً وأحسَّ ثانيةً لها فتجمَّعَا

ولابن الرومى — فى تطيره — أخبار شتى . منها أن أبا الحسن الأخفش ، غلام المبرد ، كان كثيراً ما يقرع بابه ، فإذا رد عليه ابن الرومى مستفسراً ، أجابهُ : « مرة بن حنظلة » فيتطير من ذلك ، ولا يجسر على الخروج بقية يومه ، وقد هجاه فى ديوانه مراراً هجاء مؤلما مقذعا

. . . .

ولما كان هــذا المقام أضيق من أن يحتمل شيئاً من الإسهاب فى تفصيل هذه النزعات وتحليلها والموازنة بينها ، فإنا نكتفى بهذا القدر على إيجازه — ونشير إلى رأى أبى العلاء فى مذهب المتطيرين والمتفائلين ، وتهكمه اللاذع بأصحابه ، وسخريته الشديدة منهم ، علاوة على ما ترى فى هذا الفصل من حججه الباهرة و براهينه القوية التى دلل بهـا على فساد ذلك المذهب . ثم نتبعها بنخبة مختارة تبين لك نزعة ابن الرومى إلى التطير .

و إليك نخبة من كلام أبى العلاء فى ذلك :

نخبة من شعر أبى العلاء فى الطيرة

تروم قيـاساً للحوادث ضـلة ... وتلك أصـول ليس يجمعها الحصر

تعرض للطـير السوانح زاجـراً ... أما لك من عقل — يكفك — زاجر ؟

أغربانك السُّحْم استقلّت مع الضحى ... سوانح ؟ أم مرت حمـائمك الوُرْقُ ؟

لا تفرحن بفأل — إن سمعت به — ... ولا تَطـيَّر ، إذا ما ناعب نعبا

فالخطب أفظع من سَرَّاء تأملها ... والأمر أيسر من أن تضمر الرعبـا

آليت لا يدرى بمـا هو كائن ... متفـائل بالأمر أو متطـير

كالدار صَبّحها سوى سُكانها ... فثوَوْا بهـا ، وتحمـل المتـدير

زجر الغـراب تطيراً ، ونقيضه ... ديك لأهل الدار أبيض أفرق

شاهدتَ قُبَّرَةً فخفتَ تطـيّراً ... ما كل ميت — لا أبا لك — يقبر

لا يتطـير بناعب أحـد ... فكل ما شاهد الفتى طـيره

وما طـير اليمـين بمبهجاتى ... فأخشى الهم من طـير الشمال

وقد سمى المرء « المزبر » تفاؤلا ... وليس بباق فى الليالى هِزَبْرُها

وما أسر لتعشير الغـراب أسى ... ولا أبكّى خليطا حل نشارا

ولا توهمت أنثى الأنجم امرأة ... ولا ظننت سُهَيْلا كان عشَّـارا

. . . .

أى لا أضمر حزناً إذا سمعت الغراب يصيح عشرة أصوات متتابعة ، ولا أبكى جمعاً ذهب إلى ذلك البلد المسمى « نشارا » ولا أتوهم أن الزهرة امرأة ، كما يفعل العرب ، ولا أن سهيلاً كان عشاراً باليمن

وهل لحق التثريب سكان يثرب ... من الناس ؟ لا ، بل فى الرجال غباء !
وذو نجب — إن كان ما قيل صادقاً — ... فما فيه إلا معشر نجباء !

وانظر إلى سخريته الدقيقة فى قوله :

رآنى — فى الكرى — رجل ، كأنى ... — من الذهب — اتخذت غشاء راسى :
« قلنسوة — خصصت بها — نضارا ... كهرمز ، أو كملك أولى خراس
فقلت — معبراً : — « ذهب ذهابى ... وتلك نباهة لى — فى اندراسى »

. . . .

أقمت — وكان بعض الحزم يوماً — ... لركب السفن أن تلقى المراسى

نخبة مختارة

من شعر ابن الرومى فى الطيرة والفال

وإلى القارئ نخبة مختارة من شعر ابن الرومى تبين منزعه واعتقاده فى الطيرة والفأل :

لا تهاون بطيرة أيها النظار ، واعلم بأنها عنوان
قف — إذا طيرة تلقتك وانظر ... واستمع — ثَمّ — ما يقول الزمان !
قلما غاب من أمورك عنوا ... ن مبين وللزمان لسان[1]

. . . .

لا تصدق عن النبيين ، إلا ... بحديث — يلوح فيه البيان

---

(١) قال ابن رشيق :

« وكان ابن الرومى كثير الطيرة . ربما أقام المدة الطويلة لا ينصرف — تطيراً بسوء ما يراه ويسمعه — حتى إن بعض إخوانه من الأمراء افتقده وأعلم بحاله فى الطيرة ، فبعث إليه خادماً اسمه إقبال ليتفاءل به . فلما أخذ أهبته للركوب . قال للخادم : « انصرف إلى مولاك فأنت ناقص ، ومنكوس اسمك « لا بقا » وابن الرومى القائل : الفأل لسان الزمان ، والطيرة عنوان الحدثان . وله فى ذلك احتجاجات وشعر كثير »

. . . .

قد أتى عن نبينا حبه الفأ ... ل ، مضيئاً بذلك البرهان
فدع الهزل والتضاحك بالطير ... رة ، فالنصح مثمن مجّان
أترى من يرى البشير بشيراً ... يمترى فى النذير ، يا وسنان[1]

*
* *

خبر الله أن مشأمة كا ... نت لقوم ، وخـبر القرآن
أفزور الحديث تقبل ، أم ما ... قاله ذو الجلال والفرقانُ ؟

وقد تفاءلت له ـ زاجراً ... كنيته ، لا زاجراً ثعلبا
إنى تأملت له كنية ... ـ إذا بدا مقلوبها ـ أعجبا
يصوغها العكس « أبا سابع » ... وذاك فأل لم يعـد معطبا
بل ذاك فأل ضامن سبعة ... مثل الصقور استشرفت أرنبا
يأتون من صلب فتى ماجد ... لا كذب الله ولا خيبا
وقد أتاه منهم واحد ... فلينتظر ستة غيبا
فى مدة تغمرها نعمة ... يجعلها الله له تُرتُبا
حتى نراه جالساً بينهم ... أجل من رضوى ومن كبكبا
كالبدر وافى الأرض فى نوره ... بين نجوم سبعة ، فاحتبى
يعدى على الدهر ـ إذا ما اعتدى ... ويؤمن الناس ـ إذا استرهبا

تفاءلت والفأل لى معجب ... فقلت ـ وما أنا بالعابث ـ :
« أبو حسن وأبو مثله ... كِنيًّا أبى حسن ثالث ! »

---

(١) كان ابن الرومى يحتج للطيرة ويقول : « إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة . أفتراه كان يتفاءل بالشىء ولا يتطير من ضده ؟ » ويقول : « إن النبى صلوات الله عليه مر برجل — وهو يرحل ناقة ويقـول : « يا ملعونة » فقال : « لا يصحبنا ملعون » وأن عليا — رضى الله عنه — كان لا يغزو غزاة — والقمر فى العقرب ! »

أحذر أهل الأرض شؤم ابن طالب   فما زال مشحوذاً على من يصاحب
وقد جربت منه على « آل مخلد »   تجارب . ليست مثلهن تجارب
أزيرق مشئوم ، أحيمر قاشر   لأصحابه ، نحس ـ على القوم ـ ثاقب
وهل أشبه المريخ ـ إلا وفعله   لفعل شبيه السوء ـ شبه مقارب
أعوذ بعز الله من أن يضمنى   وإياه فى الأرض البسيطة جانب
شبيه « قدار » بل « قدار » شبيهه   وإن قيل: « كلّيم » وإن قيل: « كاتب »

***

وهل يتمارى الناس فى شؤم كاتب   لعينيه لون السيف ـ والسيف قاضب
ويدعى أبوه « طالباً » وكفاكم   به طيرة ـ أن المنية طالب
ألا فاهربوا من « طالب » و « ابن طالب »   فمن طالب مثليهما ؛ طار هارب !

قل لغراب البين ـ تبا له ـ   إذا تعاطى القول فى مذهب(١)
أو رفع الصوت ـ بشدو له   مثل سقيط الدمق الأشهب
« اسكت ، لحاك الله — من قائل   أجنف عن قصد الهوى أنكب
لا تنطقن الدهـر فى محفل   واغضض على الكثكث والأثلب
أنت غراب ـ خير أحواله   ما لزم الصمت ـ ولم يَنعب
فاترك نعيبا ـ شؤمه راجع   عليك ـ يحدوك إلى معطب
يا بين ، أنت البين فى عزة   بين غراب البين والأخطب(٢)
ينتقل الناس وأحوالهم   وأنت فى الدنيا من الرتّب(٣)
إذا جلا عن منزل أهله   فأنت فى أوتاده الرسّب
أنت أثافيه وآناؤه   يشعب أهلوه ـ ولم تشعب

والقصيدة طويلة يحسن الرجوع اليها فى ديوان ابن الرومى « فى ص ٤٤٧ جـ ٣ »

(١) من أبدع ما قرأناه فى إنصاف الغراب وتبرئته من تهمة التفريق ، قول بعض الشعراء :
والناس يلحون « غرا   ب البين » لما جهلوا
وهل « غراب البين » إلا ناقـة . أو جمل ؟
وما على ظهر « غرا   ب البين » تطوى الرحل ! »
(٢) الصرد   (٣) جمع راتب وهو الثابت

وَكَذلِكَ قَالَتِ الْعَامَّةُ : « الْإِرْجَافُ أَوَّلُ الْكَوْنِ[1] ! »

وَيُقَالُ : إِنَّ النَّبِيَّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — تَمَثَّلَ بِهذَا الْبَيْتِ — وَلَمْ يُتَمِّمْهُ — :

تفَاءلْ بِمَا تَهْوَى يَكُنْ ، فَلَقَلَّمَا يُقَالُ لِشَىْءٍ : « كَانَ » إِلَّا تَحَقَّقَا[2]

وَمَهْمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ اللَّبِيبُ ، فَالْخَيْرُ فِى هَذِهِ الدُّنْيَا قَلِيلٌ جِداً[3] وَالشَّرُّ يَزِيدُ عَلَيْهِ بِأَجْزَاءٍ لَيْسَتْ بِالْمُحْصَاةِ ، وَقَالَ عَلْقَمَةُ :

« وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلْغِرْبَانِ يَزْجُرُهَا عَلَى سَلَامَتِهِ ، لَا بُدَّ مَشْئُومُ »

*
* *

وَكَانَ « ابنُ الرُّومِىّ » مَعْرُوفاً بِالتَّطَيُّرِ ، وَمَنْ ذَا الَّذِى أُجْرِى عَلَى التَّخَيُّرِ ؟ وَقَدْ جَاءَتْ عَنِ النَّبِيِّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ ، تَدُلُّ عَلَى كَرَاهَةِ الِاسْمِ الَّذِى لَيْسَ بِحَسَنٍ ، مِثْلَ مُرَّةَ ، وَشِهَابٍ !

*
* *

---

(١) وقريب من ذلك قول ابن الرومى فى نونيته الجميلة :

وإذا ما ظننت شراً فخفه رب شر يقينــه مظنونه

وكان « ابن الرومى » يقول : « إن الطيرة موجودة فى الطباع ، قائمة فيها ، وإنها فى بعض طباع الناس أظهر منها فى بعض ؛ وإن الأكثر فى الناس — إذا لقى ما يكرهه — قال : « على وجه من أصبحت اليوم ؟ »

(٢) ارجع الى ص « ٢٧٤ » فى هذا الجزء (٣) وفى ذلك يقول أبو العلاء :

نعم ثم جزء من ألوف كثيرة من الخير ، والأجزاء — بعد — شرور

على أن هذا الجزء القليل جداً من الخير ، لقد أنكره أبو العلاء فى مكان آخر ، فقال :

لا أزعم الخير مازجا كدراً بل مزعمى أن كله كدر

وَنَحْوٌ مِنْ حِكَايَةِ ابْنِ الرُّومِيِّ الَّتِي حَكَاهَا النَّاجِمُ(١) مَا حُكِيَ عَنِ امْرَأَةٍ مِنَ الْعَرَبِ أَنَّهَا قَالَتْ لِلأُخْرَى: «سَمَّانِي أَبِي «غَاضِيَةَ» وَإِنَّمَا تِلْكَ نَارٌ ذَاتُ غَضًى، وَتَزَوَّجْتُ مِنْ بَنِي جَمْرَةَ رَجُلًا كَانَ اسْمُهُ «تَوْرَبًا» وَإِنَّمَا ذَلِكَ تُرَابٌ، فَشَمِتَتْ بِيَ الأَتْرَابُ، وَكَانَ اسْمُ أُمِّهِ «سَوَّارَةَ» فَلَمْ تَزَلْ تُسَاوِرُنِي فِي الْخِصَامِ».

فَقَالَتِ الأُخْرَى: «لَكِنْ سَمَّانِي أَبِي «صَافِيَةَ» فَصَفَوْتُ، وَزَوَّجَنِي مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، فَبَكَّرَ عَلَيَّ السَّعْدُ، وَاسْمُ زَوْجِي «مَحَاسِنُ» — جُزِيَ الصَّالِحَةَ — فَقَدْ حَاسَنَ وَمَا لَاسَنَ، وَاسْمُ أَبِيهِ «وَقَّافٌ» — رَعَاهُ اللهُ — فَقَدْ وَقَفَ عَلَيَّ خَيْرَهُ، وَاسْمُ أُمِّهِ «رَاضِيَةُ» رَضِيَتْ أَخْلَاقِي، وَلَمْ تَجْنَحْ إِلَى طَلَاقِي!»

*
* *

وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ خُتَارِمًا(٢)، لَمْ يَزَلْ فِي الْكَثْكَثِ(٣) آرِمًا، إِنْ رَأَى حَمَامَةً فَرِقَ مِنَ الْحِمَامِ(٤) كَمَا قَالَ الطَّائِيُّ:

هُنَّ الْحَمَامُ — فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً(٥) ... مِنْ حَائِهِنَّ — فَإِنَّهُنَّ حِمَامُ

وَإِنْ آنَسَ نَعَامَةً فَمَا يَأْخُذُهَا مِنَ النَّعِيمِ، وَيَجْعَلُهَا بِالْهَلَكَةِ مِثْلَ الزَّعِيمِ! يَقُولُ مِنَ الْفَنَدِ(٦): «أَوَّلُهَا نَعِيٌّ». وَإِنْ نَظَرَ إِلَى عُصْفُورٍ، قَالَ: «عَصْفٌ مِنَ الْحَوَادِثِ بِوُفُورٍ» فَهُوَ — طُولَ أَبَدِهِ — فِي عَنَاءٍ!

*
* *

وَلِهَذِهِ الطَّوِيَّةِ جَعَلَ ابْنُ الرُّومِيِّ «جَعْفَرًا» مِنَ الْجُوعِ وَالْفِرَارِ، وَلَوْ هُدِيَ

---

(١) هي الحكاية التي رواها عثمان الناجم عن ابن الرومي، وذكرها ابن القارح في رسالته

(٢) متطيراً (٣) التراب (٤) الهلاك (٥) العيافة: زجر الطير

(٦) الخطأ في الرأي

صَرَفَهُ إِلَى النَّهرِ الْجَرَّارِ ، لِأَنَّ الْجَعْفَرَ : النَّهْرُ الْكَثِيرُ الْمَاءِ ، وَلَكِنَّ إِخْوَانَ هَذِهِ الْخَلِيقَةِ ، لَا يَحْمِلُونَ الْأَشْيَاءَ الْوَارِدَةَ عَلَى الْحَقِيقَةِ(١)

وَأَرَادَ بَعْضُهُمُ السَّفَرَ فِي أَوَّلِ السَّنَةِ ، فَقَالَ : « إِنْ سَافَرْتُ فِي الْمُحَرَّمِ ، كُنْتُ جَدِيراً أَنْ أُحْرَمَ ، وَإِنْ رَحَلْتُ فِي صَفَرٍ ، خَشِيتُ عَلَى يَدِي أَنْ تَصْفَرَ » فَأَخَّرَ سَفَرَهُ إِلَى شَهْرِ رَبِيعٍ ، فَلَمَّا سَافَرَ مَرِضَ فَلَمْ يَحْظَ بِطَائِلٍ ، فَقَالَ : « ظَنَنْتُهُ مِنْ رَبِيعِ الرِّيَاضِ ، فَإِذَا هُوَ مِنْ رِبْعِ(٢) الْأَمْرَاضِ »

⁂

وَأَمَّا إِعْدَادُهُ الْمَاءَ الْمَثْلُوجَ فَتَعِلَّةٌ ، وَمَا تَنْقَعُ بِالْحِيَلِ غُلَّةٌ ، وَتَقْرِيبُهُ الْخَنْجَرَ تَحَرُّزٌ مِنْ جَانٍ ، وَتُنْقَضُ الْأَقْضِيَةُ وَمَا بَنَى الْبَانِي . وَرُبَّ رَجُلٍ يَحْتَفِرُ لَهُ

---

(١) ومما يرونه عن تطير ابن الرومى ماحكاه عنه « على بن عبد الله بن المسيب » قال : دخل على ، يوم المهرجان ، وقد أهدى إلى عدة من جوارى القيان ، وكانت فيهن صبية حولاء ، وعجوز فى إحدى عينيها نكتة ، فتطير من ذلك ، ولم يظهر لى أمره ؛ وأقام باقى يومه ، فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لى من بعض السطوح فماتت ، وجفاه القاسم الوزير ، فجعل سبب ذلك المغنيتين ، وكتب إلى :

أيها المتْحِفِى بحول وعور ... أين كانت عنك الوجوه الحسان؟
لقد لعمرى ركبت أمراً مهيباً ... ساءنا فيك أيها الخلصان
فتحك المهرجان بالحول والعو ... ر ، أرانا ما أعقب المهرجان
كان من ذاك فقدك أبنتك الحر ... ة مصبوغة بها الأكفان
وتجافى مؤمـــل لى خليل ... لج فيه الجفـــاء والهجران

إلى آخر القصيدة ، وارجع إلى ص « ٢٨٠ » من هذا الجزء ، فلقد أسلفنا نخبة مختارة من شعر ابن الرومى فى الطيرة (٢) حمى الربع : تأخذ يوما وتترك يومين ، ثم تجىء فى اليوم الرابع . وذلك أنها تأخذ فى الأيام الثلاثة ثمانى عشرة ساعة ـ وهى ربع ساعات تلك الأيام الثلاثة ـ فسميت كذلك باعتبار الساعات .

قبْرًا بالشَّامِ ، ثُمَّ يُحْشِمُهُ القَدَرُ بعيدَ الإجْسَامِ ، فيموتُ باليَمنِ أوْ بالهِنْدِ ، وَمَا تدْرِى نفسٌ بأىِّ أرْضٍ تمُوتُ ، إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبيرٌ .

وَكَمَا أنَّ النَّفسَ جهلتْ مَدْفنَ عِظَامِهَا ، فهِىَ الجَاهِلَةُ بالقاطِعِ لِنِظَامِهَا . كَمْ ظَانٍّ أنَّهُ يَهْلِكُ بسيفٍ فهلكَ بحَجَرٍ[(١)] ، وَمُوقِنٍ أن شَجَبَهُ[(٢)] يُقْدَرُ عَلَى مِهَادٍ ، فَألْقتْهُ الأسَلُ[(٣)] ببعْضِ الوِهَادِ .

*
* *

وَالبَيْتَانِ اللَّذَانِ رَوَاهُمَا النَّاجِمُ عَنِ ابنِ الرُّومِىِّ مُقيَّدَانِ ، وَمَا عَلِمْتُ أنَّهُ جَاءَ عَنِ الفُصَحَاءِ هَذَا الوَزْنُ مُقيَّدًا ، إلَّا فِى بيْتٍ وَاحِدٍ ، يتَدَاوَلُه رُوَاةُ اللُّغَةِ ، وَالبيْتُ :

« كَأنَّ القَوْمَ عُشُّوا لحْمَ ضَأْنٍ   فَهُمْ نَعِجُونَ[(٤)] قَدْ مَالَتْ طُلَاهُمْ »

وَهَذَا البَيْتُ مُؤَسَّسٌ ، وَالَّذِى قَالَ ابنُ الرُّومِىِّ بغيْرِ تأسِيسٍ ، وَمَا يَدْرِى النَّاجِمُ[(٥)] — وَلَعَلَّهُ بالفِكْرِ رَاجِمٌ — أفِى الجَنَّةِ حَصَلَ ذَلِكَ الشَّيْخُ أمْ فِى السَّعِيرِ ؟

أبو تمام[(٦)]

وَأمَّا « أبُو تَمَّامٍ » ، فَمَا أمْسَكَ مِنَ الدِّينِ بزِمَامٍ ، فإنْ قُذِفَ فِى النَّارِ « حَبيبٌ[(٧)] » فَمَا تُغْنِى المَدْحُ وَلَا التَّشْبيبُ !

---

(١) وهذا قريب من قوله :

بينا امرؤ يتوقى الذئب عن عرض   أتاه ليث — على العلات — يفترس

(٢) هلاكه   (٣) أطراف السيوف   (٤) المفرد : « نعج » وهو السمين ، أو الذى أكل لحم الضأن حتى ثقل على قلبه ، وطلاهم : أعناقهم   (٥) يعنى : أبا عثمان الناجم

(٦) ارجع إلى ترجمته فى ص « ١٤٣ » فى الجزء الثانى   (٧) هو أبو تمام

مناحة القصائد (١)

وَلَوْ أَنَّ الْقَصَائِدَ لَهَا عِلْمٌ ؛ لَأَقَامَتْ عَلَيْهِ الْمَمْدُودَتَانِ اللَّتَانِ فِي أَوَّلِ دِيوَانِهِ مَأْتَماً ، فَنَاحَتَا عَلَيْهِ كَابْنَتَيْ لَبِيدٍ ، وَقَالَتَا مَا زَعَمَهُ « الْكِلَابِيُّ » فِي قَوْلِهِ :

« وَقُولَا : « هُوَ الْمَيْتُ الَّذِي لَا حَرِيمَهُ ... أَضَاعَ ، وَلَا خَانَ الصَّدِيقَ وَلَا غَدَرْ »

إِلَى الْحَوْلِ ، ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا ... وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرْ »

وَكَأَنِّي بِهِمَا — لَوْ قُضِيَ ذَلِكَ — لَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِمَا الْمَمْدُودَاتُ ، كَمَا تَجْتَمِعُ نِسَاءٌ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، وَلَوْ فَعَلْنَ ذَلِكَ لَبَارَتْهُنَّ « الْبَائِيَّاتُ » بِمَأْتَمٍ أَعْظَمَ رَنِيناً . وَإِذَا كَانَ مَأْتَمُ الْمَمْدُودَاتِ فِي مِائَةٍ مِمَّنْ يُسْعِدُهُنَّ وَيُظَاهِرُ ، وَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَأْتَمُ الْبَائِيَّاتِ فِي آلَافٍ ، لِأَنَّ الْبَاءَ طَرِيقٌ رَكُوبٌ (٢) ، وَالْمَدُّ — فِي الْقَصَائِدِ — سَبِيلٌ مَنْكُوبٌ (٣) . وَمَا نَظَمَهُ عَلَى « التَّاءِ » ، فَإِنَّهُ لَا يُعْجِزُ عَنِ الْإِيتَاءِ ، وَتَجِيءُ الثَّائِيَّتَانِ فِي حَالِكِ اللَّوْنِ — وَإِنَّ الثَّاءَ لَقَلِيلَةٌ فِي شِعْرِ الْعَرَبِ — إِلَّا أَنَّهُمَا تَسْتَعِينَانِ كَلِمَةَ كُثَيِّرٍ :

« حِبَالُ السَّلَامَةِ أَضْحَتْ رِثَاثَا ... فَسَقْياً لَهَا — جُدُداً أَوْ رِمَاثَا »

وَبِأَرَاجِيزِ رُؤْبَةَ (٤) وَمَا كَانَ نَحْوَهَا مِنَ الْقَوَافِي الْمُتَكَلَّفَةِ ، وَالْأَشْعَارِ الْمُتَعَسَّفَةِ ، وَلَهُمَا — فِيمَا نَظَمَ « ابْنُ دُرَيْدٍ (٥) » — أَعْوَانٌ !

فَأَمَّا الدَّالِيَّاتُ وَالرَّائِيَّاتُ وَمَا بُنِيَ عَلَى الْحُرُوفِ الذُّلُلِ ، كَالْمِيمِ وَالْعَيْنِ وَاللَّامِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُنَّ ، فَلَوِ اجْتَمَعَ كُلُّ حَيِّزٍ مِنْهُنَّ ، لَضَاقَ عَنْهُنَّ الصَّدَرُ وَالْإِيرَادُ ،

---

(١) تمثل أبو العلاء قصائد أبي تمام أحياء تندب صاحبها ، كما تمثل من قبل في (ص ٨٦ ، ٨٧ في الجزء الثاني) أبيات لبيد الثلاثة قصورا في الجنة (٢) طريق ركوب ، أي مطروق مذلل (٣) يتنكبه الناس ، أي لا يسلكونه (٤) ارجع الى ترجمته في ص ٨٩ في الجزء الثاني (٥) ترجمته في ص ١٦ في الجزء الثاني

وَزِدْنَ عَلَى مَا ذُكِرَ أَنَّهُ اجْتَمعَ فِي جِنَازَةِ « أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ[1] » مِنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمْ يَجْتَمِعْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا الإِسْلَامِ جَمْعٌ أَكْثَرُ مِمَّا اجْتَمَعَ فِي مَوْتِ أَحْمَدَ ، حُزِرَ[2] الرِّجَالُ بِأَلْفِ أَلْفٍ ، وَالنِّسَاءِ بِسِتِّمِائَةِ أَلْفٍ ، وَاللهُ الْعَالِمُ بِيَقِينِ الأَشْيَاءِ !

وَإِنْ كَانَ « حَبِيبٌ » ضَيَّعَ صَلَوَاتِهِ ، فَإِنَّهُ لَضَالٌّ ، لَا يَبْلُغُ فِيهِ كَيْدُ الْعُدَاةِ ، مَا بَلَغَ مِنْ إِهْمَالِ غَدَاةٍ . وَإِنِّي لَأَضَنُّ بِتِلْكَ الأَوْصَالِ ، أَنْ يَظَلَّ جَسَدُهَا وَهُوَ بِالْمُوقَدَةِ صَالٍ . لِأَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ طَرِيقَةٍ مُبْتَدَعَةٍ ، وَمَعَانٍ كَاللُّؤْلُؤِ يَسْتَخْرِجُهَا مِنْ غَامِضِ بِحَارٍ ، وَيَفُضُّ عَنْهَا الْمُسْتَغْلَقَ مِنَ الْمَحَارِ ، فَلَيْتَهُ كَالْجَعْدِيِّ[3] أَوْ لَيْتَهُ لَحِقَ يَزِيدَ بْنَ مُهَلْهِلٍ ، فَقَدْ وَفَدَ عَلَى النَّبِيِّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَطَرَحَ عَنْهُ ثَوْبَ الْغَيِّ !

المازيار

وَأَمَّا « الْمَازِيَارُ » ، فَحَلَّالٌ بِالسَّفَهِ سَيَّارٌ ، وَحَسْبُهُ مَا يَتَجَرَّعُ مِنَ الْحَمِيمِ ،

---

(١) أحمد بن حنبل

توفى ٢٤١ هـ

نشأته ببغداد ، اشتهر بحفظه وروايته للحديث ، وكان من أصحاب الشافعي ، صنف كتابه « المسند » وجمع فيه من الأحاديث مالم يتفق لغيره ، وكان ورعاً ، حسن الوجه ، يخضب بالحناء خضباً خفيفا

وحدثت فى زمنه المسألة المشهورة ، وهى القول بخلق القرآن ، فدعى إلى الموافقة عليها ، فلم يجب ، فضرب وحبس

ورووا : أنه لما مات حضر جنازته ثمانمائة ألف رجل ، وستون ألف امرأة ، وروى غير ذلك كما يقول أبو العلاء

(٢) أى قدّروا (٣) ارجع إلى ترجمته فى ص ٣٨ فى الجزء الثانى

وَيَحْتَمِلُ مِنَ الْمَقَالِ الذَّمِيمِ ؛ وَقَدْ خَلَّدَ لَهُ فِى الْكُتُبِ مَا يُوجِبُ لَعْنَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

ابو مسلم الخراسانى

وَالْعَجَبُ لِأَبِى مُسْلِمٍ ، حَطَبَ لِنَارٍ أَكَلَتْهُ ، وقَتَلَ فِى طَاعَةِ وُلَاةٍ قَتَلَتْهُ ، وَلَيْسَ بِأَوَّلِ مَنْ دَأَبَ لِسِوَاهُ ، وَأَغْوَاهُ الطَّمَعُ فِيمَنْ أَغْوَاهُ ، وَإِنَّمَا سَهِرَ لِأُمِّ دَفْرٍ [1] ، وَتَبِعَ سَرَابًا فِى قَفْرٍ ، فَوَجَدَ ذَنْبَهُ غَيْرَ الْمُغْتَفَرِ ، عِنْدَ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ « أَبِى جَعْفَرٍ [2] »

***

وَكُلُّ سَاعٍ لِلْفَانِيَةِ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ النَّدَمِ ، فَذَمُّنَا لَهَا يُحْسَبُ مِنَ الضَّلَالِ ، كَمَا تَمَنِّى الْقَنَعَ أَخُو الْإِقْلَالِ ، وَهَذِهِ زِيَادَةٌ فِى النَّصَبِ ، وَفَازَ بِالسَّبْقِ حَائِزُ الْقَصَبِ ، يَذُمُّهَا عَلَى غَيْرِ جِنَايَةٍ — وَلَمْ تَخُصَّ أَحَداً بِالْعِنَايَةِ — بَلْ أَبْنَاؤُهَا فِى الْمِحَنِ سَوَاءٌ ، لَا تُسَاعِفُهُمُ الْأَهْوَاءُ !

أعباء الفقير وأمجاد الغنى

فَرُبَّ حَامِلِ حُزْمَةِ عَضِيدٍ [3] ، يَعْجِزُ ثَمَنُهَا عَنِ الْقُوتِ ، وَيُكَابِدُ شَظَفَ

---

(١) الدنيا — وأبو العلاء يكنيها بهذه الكنية ، ومعناها « أم نتن » ، لنقمته عليها ، فهو لا يكاد يذكر الدنيا إلا كناها بها .

(٢) انظر إلى قول أبى العلاء فى ذلك فى لزومياته :

لو بعث المنصور ، نادى : « أيا مدينة التسليم ؛ لا تسلمى »
« قد سكن القفر « بنو هاشم » وانتقل الملك إلى الديلم »
لو كنت أدرى أن عقباهم كذاك ، لم أقتل أبا مسلم »

ونحب أن يرجع القارئ إلى مصرع « أبى مسلم » فى كتابنا « مصارع الأعيان »

(٣) العضيد : الحطب من الشجر اليابس يقطع بالمعضد

عَيْشٍ مَمْقُوتٍ ، يَلِجُ سُلّاءٌ[١] فِي قَدَمِهِ ، وَيَخْضِبُهُ الشَّائِكُ بِدَمِهِ ، وَهُوَ أَقَلُّ أَشْجَانًا مِنَ الْوَاثِبِ عَلَى السَّرِيرِ . يَنْعَمُ بِرَشَأٍ غَرِيرٍ ، يُجْمَعُ لَهُ الذَّهَبُ مِنْ غَيْرِ حِلٍّ بِإِعْنَاتِ الْأُمَمِ ؛ وَإِذَا مَلَأَ بَطْنَهُ مِنْ طَعَامٍ[٢] وَسَبَحَ فِي بَحْرٍ مِنَ التَّرَفِ ، فَتِلْكَ النِّعَمُ وَلَذَّاتُهُ ، تَحْدُثُ لَهَا أَذَاتُهُ ؛ يَخْتَلِجُهُ الْقَدَرُ عَلَى غُفُولٍ ، وَغَايَةُ السَّفَرِ إِلَى قُفُولٍ .

*
* *

وَمَا يَدْرِي الْعَاقِلُ — إِذَا افْتَكَرَ — أَيُّ الشَّخْصَيْنِ أَفْضَلُ ؟ أَرِيبٌ عُقِدَ عَلَيْهِ إِكْلِيلٌ ، أَمْ أَرْقَشُ ظِلُّهُ فِي الْمُلْكِ ظَلِيلٌ ، كِلَاهُمَا بَلَغَ آرَابًا ، وَأَحَدُهُمَا يَأْكُلُ تُرَابًا ، وَالْآخَرُ يُعَلُّ بِالرَّاحِ ، وَيُجْتَهَدُ لَهُ فِي الْأَفْرَاحِ .

*
* *

وما علمنا النُّسُكَ مُوَقِّيًا ، وَلَا فِي الْأَسْبَابِ الرَّافِعَةِ مُرَقِّيًا . وَالْعَالَمُ بِقَدَرٍ عَامِلُونَ — أَخْطَأَهُمْ مَاهُمْ آمِلُونَ - وَمَا آمَنُ أَنْ تَكُونَ الآخِرَةُ بِأَرْزَاقٍ[٣]

---

(١) شوك النخل ، واحدته سلاءة (٢) وفى هذا المعنى يقول أبو العلاء فى لزومياته :

ساس الأنام شياطين مسلطة ... فى كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهم ... إن بات يشرب خمراً – وهو مبطان

(٣) الجد

ذكر أبو العلاء هذا المعنى على لسان أوس فى (ص ١٦٧ ج ٢) وذكره فى مكان آخر من لزومياته فقال :

والبخت فى الأولى أنال العلا ... وليس فى آخرة بخت
كذاك قالوا ، وأحاديثهم ... يبين فيها الجزل والشخت

وكرره فى قوله :

أأخشى عذاب الله ، والله عادل ... وقد عشت عيش المستضام المعذب
نعم ! ، إنها الأرزاق ؛ والمرء جاهل ... يهذب من دنياه ما لم يهذب

ولأبى العلاء أشعار أخرى كثيرة فى الجد ، نجتزىء منها هنا بقوله :

عَلَى أَنَّ السِّرَّ مُغيَّبٌ ، وَكُلُّنا — فى المُلْتَمَسِ — مُخَيَّبٌ ، وَالْجَاهِلُ — وَفَوْقَ

والسعد يدرك أقواماً فيرفعهم ‏ وقد ينال إلى أن يعبد الحجرا

وشرفت « ذات أنواط » قبائلها ‏ ولم تباين — على علاتها — الشجرا

سيطلبنى رزقى الذى لو طلبتـه ‏ لما زاد ، والدنيا حظوظ و إقبال

لا تطلبن بآلة لك رتبـةً ‏ قلم الأديب ، بغير حظ ، مِغْزَل

سكن السِّماكانِ السماء كلاهما ‏ هـذا له رمح ، وهذا أعزل

إذا صدق الجد افترى العم للفتى ‏ مكارم لاتكرى — و إن كذب الخال

الجد : الحظ ، والعم : الجماعة ، ولا تكرى : لا تنفد ، والخال : المخيلة .

موجز رأى الشعراء فى الحظ

و يحسن فى هذه المناسبة أن نذكر نخبة من آراء الشعراء فى الجد ، و يمكن القول بأن آراءهم جميعاً ، تكاد تجمع على أنه حليف الغباوة ، قال المتنبى :

هو الجد حتى تفضل العين أختها ‏ وحتى يصير اليوم لليوم سـيدا

وما الجمع بين الماء والنار فى يد ‏ بأصعب من أن أجمع الجدَّ والفهما

وقال أبو تمام :

ينال الفتى من دهره ، وهو جاهل ‏ و يكدى الفتى من دهره — وهو عالم

ولو كانت الأرزاق تأتى على الحجا ‏ إذن هلـكت من جهلهن البهائم

وقال الضالى :

إذا جمعت بين امرئين صـناعة ‏ فأحببت أن تدرى الذى هو أحذق

فلا تتفقد منهما غير ما جرت ‏ به لهما الأرزاق حين تفرق

فحيث يكون الجهل ، فالرزق واسع ‏ وحيث يكون العلم ، فالرزق ضيق !

وقال ابن وهبون :

وحيث ترى زند النجابة واريا ‏ فثم ترى زند السعادة كابيا

الْجَاهِلِ — مَنِ ادَّعَى الْمَعْرِفَةَ ، وَاللَّعْنَةُ عَلَى الْكَاذِبِينَ

وقال ابن الخياط :

وما زال شؤم الحظ من كل طالب كفيلا ببعد المطلب المتـداني
وقد يحرم الجلد الحريص مرامه ويعطى مناه العاجز المتوانى

وقال المروزى الضرير :

تنافى العقل والمال فمـا بينهما شكل
فعقل حيث لا مال ومال حيث لا عقل

وقال القاضى الفاضل :

وزيادتى فى الحذق، فهْ ى زيادة فى نقص رزقى!

وقال ابن سناء الملك :

هو الجد خذه إن أردت مسلماً ولا تطلب التعليل ، فالأمر مبهم !

ومما نختاره من شعر ابن الرومى فى « الجد » قوله :

عزت مطالب دنيا كل ذى أدب وهان مطلب دنيا الأحمق الخرق
وقدر الله فيهـا أن يذللها فهان مطلبها للجاهل الحمق
فليس ينفك ذو علم ومجربة من مأكل جشب، أو مشرب رنق
وذو الجهالة منها فى بلهنيـة من مسمع حسن ، أو منظر أنق
تبارك العدل فيها — حين يقسمها بين البرية قسما غير متفق !

وقوله : لا تعجبن لمرزوق أخى هوج حظا تخطى أصيل الرأى طرافا
فخالقُ الناس أعراء بلا وبر كاسى البهائم أو باراً وأصوافا
ما زلت أعرف أهل العجز فى دعة لا يكلفون ، وأهل الكيس كلافا
أما ترى هذه الأنعام قد كفيت فمـا تساوم بالأخفاف أخفافا ؟

وقوله : دنيـا علا شأن الوضـيع بها وهوى الرفيع — يحطه شرفه
كالبحر يرسب فيـه لؤلؤه سَجْـلا ، وتطفو فوقه جيفه

علي بن أبي طالب (١)

أَمَّا الَّذِينَ يَدَّعُونَ فِي « عَلِيٍّ » عَلَيْهِ السَّلَامُ — مَا يَدَّعُونَ ، فَتِلْكَ ضَلَالَةٌ

وقوله :

رأيت الدهر يرفع كل وغد ويخفض كل ذى شيم شريفه
كمثل البحر يغرق فيه حى ولا ينفك يطفو فيه جيفه
أو الميزان يخفض كل واف ويرفع كل ذى زنة خفيفه

ونختم هذا المختار بتلك القصة الجميلة ، التى يحكيها لنا أحد الشعراء عن نفسه ، وهى :

ولما لمست الرزق فانجذ حبله ولم يصف لى من بحره العذب مشرب
خطبت إلى الإعدام إحدى بناته فزوجنيها الفقر — إذ جئت أخطب
فأولدتها الحزن الشقى ؛ فما له على الأرض غيرى والد ، حين ينسب
فلو تهت فى البيداء — والليل مسبل علىّ جناحيه — لما لاح كوكب
ولو خفت شراً فاستترت بظلة لأقبل ضوء الشمس من حيث تغرب
ولو جاد إنسان على بدرهم لرحت - إلى رحلى - وفى الكف عقرب
ولو يمطر الناس الدنانير ، لم يكن بشىء سوى الحصباء رأسى يحصب
وإن يقترف ذنباً ببرقة مذنب فإن برأسى ذلك الذنب يعصب
وإن أر خيراً فى المنام ، فنازح وإن أر شراً ، فهو منى مقرب
أمامى من الحرمان جيش عرمرم ومنه ورائى جحفل حين أركب

وسيمر بك قول ابن الراوندى فى الجد فى ص «٢٩٦» فى هذا الجزء

(١) لبعض الشيعة آراء متطرفة فى على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ودعاوى لا تقف عند حد ، وقد ادعى قوم أنه لم يقتل ، وإنما الذى قتله « ابن ملجم » شيطان تصور للناس فى صورته ، أما على فقد صعد الى السماء ، وسينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه . وهى دعوى تشبه ما قيل فى عيسى .

وادعى قوم أن الله أرسل جبريل إلى على ؛ فذهب إلى محمد خطأ — لشدة الشبه بين

قَدِيمَةٌ ، وَدِيعَةٌ مِنَ الْغَوَايَةِ تَتَّصِلُ بِهَا دِيمَةٌ ، وَقَدْ رُوِىَ أَنَّهُ حُرِّقَ « عَبْدُ اللهِ

النبي والإمام على ، وهذه الفرقة تقول : « العنوا صاحب الريش » أى جبريل

وادعى آخرون أن الله خلق محمداً ، ثم فوض اليه تدبير العالم وتعميره ، فهو الذى خلق العالم دون الله ، ثم فوض محمد تدبير العالم إلى على بن أبى طالب ، فهو المدبر الثالث

وزعم غيرهم أن علياً هو الله ، وشتموا محمداً ، وزعموا أن علياً بعثه ليثنى عليه فادعى الأمر لنفسه

ويدعى فيه قوم آخرون أن الرعد والبرق صوته ، ومن سمع منهم صوت الرعد ، قال : « عليك السلام يا أمير المؤمنين » وفى هذه الطائفة يقول أبو إسحق ابن سويد العامرى :

برئت من الخوارج لست منهم من الحجاج منهم وابن باب
ومن قوم — إذا ذكروا علياً — يردون السـلام على السحاب

ولا يزال كثير من العامة يعتقد إلى اليوم أن علياً راكب ناقة يطير بها فوق السحاب ، ومما نذكره بهذه المناسبة — على سبيل التندر والفكاهة — أن أحد أشياخنا المعممين ، المشتغلين بنظم الكلام ، أراد أن يبتكر . ليقنع الناس بأنه غير عاكف على أساليب التفكير القديمة ، ويدفع عن نفسه معرة الجمود والجهل بحقيقة الشعر الحى ، الذى يتطلبه هذا العصر المملوء بالحياة والتفكير ، فحسب أن كل ما يتطلبه ذلك التطور الفكرى العظيم — من الشاعر — هو أن يستبدل وصف النوق والجياد بوصف قطر البخار والطيارات ، فورط نفسه فى الأخذ بتلك الخرافة ، ودعا الله أن يهبه طيارة يسمو بها الى السحاب ، حتى اذا بلغه حظى بلقيا على بن أبى طالب ، فقال :

« فهب لى ذات أجنحة ، لعلى بها ألقى على السحب الإماما »

فلم يزدنا اقتناعاً بجموده ، ولكنه وفق إلى اثبات فنده وخرفه بهذا البيت الرائع !

*
* *

وقد نسبوا الى « على بن أبى طالب » علم الجفر ، وهو ما يطلقونه على العلم الاجمالى بلوح القضاء والقدر ، المحتوى على ما كان وما يكون كلياً وجزئياً ، وتدعى طائفة أنه وضع الحروف

ابْنُ سَبَأٍ » ، لَمَّا جَاهَرَ بِذَلِكَ النَّبَأِ ! — وَاعْتِقَادُ « الْكَيْسَانِيَّةِ » فِي « مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ » عَجِيبٌ ، لَا يُصَدِّقُ بِمِثْلِهِ نَجِيبٌ !

الهجائية فى جلد الجفر ، وأنه يمكن استخراج — ما يأتى به الغيب — منها بطريقة خاصة ، ويدعون أن هذا علم انفرد به آل البيت ومن ينتمى إليهم ، وأنهم يتوارثونه . وادعى آخرون أن فهم أسرار هذا الجفر مقصور على المهدى المنتظر ، وأنه — دون غيره — يستطيع أن يفقه حقيقة ما فى هذا الكتاب الذى سموه بهذا الاسم ، لأن علياً كتبه حروفاً متفرقة فى ورق مصوغ من جلد البعير ، وقد اشتهر بين الناس ، لاحتوائه ما حدث للأولين والآخرين ، وفيه يقول أبو العلاء :

يقولون : « مسك الجفر » أودع حكمة إذا كتبت أطراسها ملأت جفرا (١) »

ولا يزال بعض العامة يعنى بهذه الخرافات وأشباهها ، ويأخذها بلا تدبر ولا روية .

ونحو من هذه الخرافة ما يروونه عن الخضر ، وعن المسيخ الدجال ، وغير ذلك من الترهات ؛ وقد وقف أبو العلاء قسماً كبيراً من رسالة الغفران واللزوميات ، على محاربة أشباه هذه البدع ، والتشنيع على من يقولون بها . وحسبنا أن نستدل بقوله منددا بتلك الخرافة التى يشيعونها عن الخضر :

يقول الغواة : « الخضر حى » عليهم عفاء ، نعم ليل من الفتن أخضرا
ولو صدقوا ما انفك فى شر حالة يعانى بها الأسفار ، أشعث مغبرا
جنى قائل بالمين ، يطلب ثروة ويعذر فيه من تكسب مضطرا

وقوله منددا بالمهدى المنتظر :

مجوسيـــة وحنيفية ونصرانة ويهـــوديه
تراقب مهديها أن يقوم فتلفى الى الحق مهديه

وقد ندد بظهوره فى مكان آخر — فى (ص ٢٣٥) فى هذا الجزء — فليرجع من شاء

---

(١) جلد الماعز

دعوى الربوبية

وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا بِالْبَصْرَةِ يُعْرَفُ « بِشَابَاسَ » تَزْعُمُ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ أَنَّهُ رَبُّ الْعِزَّةِ ، وَتُجْبَى إِلَيْهِ الْأَمْوَالُ الْجَمَّةُ ، وَيَحْمِلُ إِلَى السُّلْطَانِ مِنْهَا قِسْماً وَافِراً ، لِيَكُونَ — بِمَا طَلَبَ — ظَافِراً .

وَحُدِّثْتُ عَنِ امْرَأَةٍ بِالْكُوفَةِ يُدَّعَى لَهَا مِثْلُ ذَلِكَ .

رجعة الى ابن الراوندي

وَقَدْ سَمِعْتُ مَنْ يُخْبِرُ أَنَّ لِابْنِ الرَّاوَنْدِيِّ مَعَاشِرَ تَذْكُرُ أَنَّ اللَّاهُوتَ سَكَنَهُ ، وَيَخْتَرِصُونَ لَهُ فَضَائِلَ ، يَشْهَدُ الْخَالِقُ وَأَهْلُ الْمَعْقُولِ ، أَنَّ كَذِبَهَا غَيْرُ مَصْقُولٍ ، وَهُوَ — فِي هذَا — أَحَدُ الْكَفَرَةِ ، وَقَدْ أَنْشَدَ لَهُ مُنْشِدٌ :

قَسَّمْتَ بَيْنَ الْوَرَى مَعِيشَتَهُمْ قِسْمَةَ سَكْرَانَ بَيِّنِ الْغَلَطِ
لَوْ قَسَمَ الرِّزْقَ هَكَذَا رَجُلٌ قُلْنَا لَهُ : « قَدْ جُنِنْتَ ، فَاسْتَعِطِ[1] »

وَلَوْ تَمَثَّلَ هَذَانِ الْبَيْتَانِ ، لَكَانَا فِي الْإِصْرِ ، يَطُولَانِ أَرَمَيْ مِصْرَ[2]

أبو جوف

وَقَدْ ظَهَرَ فِي الضَّيْعَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالنَّيْرَبِ ، رَجُلٌ يُعْرَفُ بِأَبِي جَوْفٍ ،

---

(١) أى أدخل السعوط فى أنفك لتفيق ، والسعوط هو ما يدخل الأنف من مسحوق دقيق كالتبغ . ولابن الراوندى فى هذا المعنى ، بيتان آخران ، أقل شناعة من هذين البيتين ، وهما قوله :

كم عاقل عاقل ، أعيت مذاهبه وجاهل جاهل ، تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا !

(٢) أى هرمى مصر

كَانَ يَدَّعِى النُّبُوَّةَ ، وَيُخْبِرُ بِأَخْبَارٍ مُضْحِكَةٍ ، وَكَانَ لَهُ قُطْنٌ فِى بَيْتٍ ، فَقَالَ إِنَّ قُطْنِى لَا يَحْتَرِقُ ، وَأَمَرَ ابْنَهُ أَنْ يُدْنِىَ سِرَاجًا إِلَيْهِ ، فَأَخَذَ فِى الْقُطْنِ ، وَصَرَخَتِ النِّسَاءُ ، وَاجْتَمَعَتِ الْجِيرَةُ .

*
* *

وَحَدَّثَنِى مَنْ شَاهَدَهُ : أَنَّهُ كَانَ يُكْثِرُ الضَّحِكَ مِنْ غَيْرِ مُوجِبٍ ، وَلَا عِنْدَ حَادِثٍ مُعْجِبٍ ؛ فَقِيلَ لَهُ : « لِمَ تَضْحَكُ ؟ » فَقَالَ كَلَامًا مَعْنَاهُ : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَفْرَحُ بِهَيِّنٍ قَلِيلٍ ، فَكَيْفَ مَنْ وَصَلَ إِلَى الْعَطَاءِ الْجَلِيلِ ! »

وَكَانَ بَيِّنَ الْجُنُونِ ، لَيْسَ خَبْلُهُ بِالْمَكْنُونِ ، فَاتَّبَعَهُ الْأَغْبِيَاءُ ، وَكَذَّبَ مَا تَقُولُهُ الْأَنْبِيَاءُ ، حَتَّى قَتَلَهُ وَالِى حَلَب

عودة الى على بن أبى طالب

وَبَعْضُ الشِّيعَةِ يُحَدِّثُ أَنَّ « سَلْمَانَ الْفَارِسِىَّ » كَانَ فِى نَفَرٍ جَاءُوا يَطْلُبُونَ عَلِىَّ بْنَ أَبِى طَالِبٍ — سَلَامُ اللهِ عَلَيْهِ — فَلَمْ يَجِدُوهُ فِى مَنْزِلِهِ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ ، جَاءَتْ بَارِقَةٌ ، تَتْبَعُهَا رَاعِدَةٌ ، وَإِذَا عَلِىٌّ قَدْ نَزَلَ عَلَى إِجَّارِ الْبَيْتِ فِى يَدِهِ سَيْفٌ مَخْضُوبٌ بِالدَّمِ ، فَقَالَ : « وَقَعَ شِجَارٌ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، فَصَعِدْتُ لِأُصْلِحَ بَيْنَهُمَا ! »

أَفَلَا يَرَى هَذِهِ الْأُمَّةَ كَيْفَ افْتَنَّتْ فِى الضَّلَالَةِ ، كَافْتِنَانِ الرَّبِيعِ فِى إِخْرَاجِ الْأَكْلَاءِ ! وَلِلْكَذِبِ سُوقٌ لَيْسَتْ لِلصِّدْقِ . . .

*
* *

وَأَمَّا الَّذِى ذَكَرَهُ مِنْ بُلُوغِ السِّنِّ ، فَإِنَّ اللهَ — سُبْحَانَهُ — خَلَقَ مَقَرًّا وَشُهْدًا ، وَرَغْبَةً فِى الْعَاجِلَةِ وَزُهْدًا ، وَإِذَا اللَّبِيبُ أَنْعَمَ النَّظَرَ لَمْ يَرَ الْحَيَاةَ إِلَّا تَجْذِبُهُ

إلى الضَّيْرِ ، صُبْحٌ يَتَبَسَّمُ وَإِمْسَاءٌ ، كَأَنَّهُمَا سِيدا إِضْراء ، وَالْعُمْرُ ثُلَّةٌ ، وَهُمَا عَلَى السَّارِحِ يُغِيرَانِ ، فَيُفْنِيَانِ السَّائِمَةَ[١] وَيُبِيرَانِ !

الزواج

وَقَدْ تَحَدَّثَ بَعْضُ طُلَّابِ الْأَدَبِ ، أَنَّهُ ذَكَرَ التَّزْوِيجَ – يُرِيدُ الْخِدْمَةَ – فَسَرَّنِي ذَلِكَ ، لِأَنَّهُ دَلَّ عَلَى إِقَامَةٍ بِالْوَطَنِ ، وَفِي قُرْبِهِ الْفَرْحَةُ ، إِذْ كَانَ كَالشَّجَرَةِ الْوَارِفِ ظِلَالُهَا فِي الْهَوَاجِرِ ، والطَّيِّبِ ثَمَرُهَا لِلذَّائِقِ ، وَالْأَرِجِ نَسِيمُهَا لِلنَّاشِقِ . وَهُوَ يَعْرِفُ حِكَايَةَ الْخَلِيلِ عَنِ الْعَرَبِ : « إِذَا بَلَغَ الرَّجُلُ السِّتِّينَ فَإِيَّاهُ وَإِيَّا الشَّوَابِّ ، وَلَكِنِ النَّصَفَ[٢] »

---

(١) وفى هذه المعنى يقول أبو العلاء فى لزومياته :

هل الناس إلا نظير السوام وآجالهم أســد تفترس ؟

(٢) كرر أبو العلاء هذه النصيحة أكثر من مرة فى لزومياته ، فمن ذلك قوله :

إذا ما ابن ستين ضم الكعاب إليــه فقد حلت البهله
هو الشيخ ، لم يرضه أهله ولم يرض فى فعـله أهله
فلا يتزوج أخو الأربعين إلا مجـربة كهله
رأى الشيب فى عارضيه المسـن ، فنعم القرين له الشهله

وقوله : إذا أنت زُوجت العجوز ، على الصبا فأيامها صن عليك وصنبر

وقوله : كأنك – بعد خمسين استقلت لمولدك – البناء ، دنا ليهوى
وإنك – إن تَزَوَّجْ بنت عشر – لأخيب صفقة من شيخ مهو

وحكاية « شيخ مهو » مشهورة ، لا نطيل بذكرها هنا ، فليرجع إليها من شاء ، فى (ص ٣٥٨ جزء ٢) من اللزوميات

وَلَوْ نَشِطَ لِهَذِهِ الْمَأْرُبَةِ ، لَتَنَافَسَتْ فِيهِ الْعُجُزُ وَالْمُكْتَهِلَاتُ ، وَهَلْ هُوَ إِلَّا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

« يَا عَزُّ ! هَلْ لَكِ فِي شَيْخٍ فَتًى أَبَداً ... وَقَدْ يَكُونُ شَبَابٌ غَيْرُ فِتْيَانِ »

فَلَيْسَ بِأَوَّلِ مَنْ تَزَوَّجَ — عَلَى السِّنِّ — عَجُوزاً ، كَمَا قَالَ :

« إِذَا مَا أَعْرَضَ الْفَتَيَاتُ عَنِّي ... فَمَنْ لِي أَنْ تُسَاعِفَنِي عَجُوزُ

كَأَنَّ مَجَامِعَ اللَّحْيَيْنِ مِنْهَا ... — إِذَا حَسَرَتْ عَنِ الْعِرْنِينِ — كُوزُ »

وَيُرْوَى لِلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ ، وَلَمْ أَجِدْهُ فِي دِيوَانِهِ :

وَقَالُوا مَا نَكَحْتَ ؟ فَقُلْتُ خَيْراً ... عَجُوزاً مِنْ عُرَيْنَةَ ذَاتَ مَالِ

نَكَحْتُ كَبِيرَةً ، وَغَرِمْتُ مَالًا ... كَذَاكَ الْبَيْعُ مُرْتَخَصٌ وَغَالِ (١)

وَأَعُوذُ بِاللهِ مِمَّا قَالَهُ الْآخَرُ :

عَجُوزٌ لَوَ انَّ الْمَاءَ يُسْقَى بِكَفِّهَا ... لَمَا تَرَكَتْنَا بِالْمِيَاهِ نَجُوزُ

وَمَا زَالَتِ الْعَرَبُ تَحْمَدُ الْخَيْزَبُونَ وَالشَّهْلَةَ ، وَلَا تَكْرَهُ — مَعَ الشَّرْخِ — الْكَهْلَةَ .

زواج النبي بخديجة

وَقَدْ تَزَوَّجَ النَّبِيُّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ ، وَهُوَ شَابٌّ ، وَهِيَ طَاعِنَةٌ فِي السِّنِّ ، وَقَالَتْ لَهُ أُمُّ سَلَمَةَ ابْنَةُ أَبِي أُمَيَّةَ : « يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنِّي امْرَأَةٌ قَدْ كَبِرْتُ وَمَا أُطِيقُ الْغَيْرَةَ » فَقَالَ : « أَمَّا قَوْلُكِ قَدْ كَبِرْتِ ،

---

(١) نذكر بهذه المناسبة قول بعض الشعراء :

لا تنكحن عجوزاً ، إن دعيت لها ... وإن حبيت على تنكيحها الذهبا

فإن أتوك ، وقالوا : إنها نصف ... فإن أطيب نصفيها الذى ذهبا !

فَأنا أكْبَرُ مِنْكِ ، وَأمَّا الْغَيْرَةُ فَإنِّى سَوْفَ أدْعُو اللهَ أنْ يُزِيلهَا عَنْكِ »

حاجة الشيخ الى الزواج

وَلا أشُكُّ أنه قدِ استَخْدَمَ فى مِصرَ أصْنَافَ جوارٍ ، وَلوْلاَ أنَّ أخَا الـكَبْرَةِ يَفْتَقِرُ إلى مُعِينٍ ، لـكَانَتِ الْحَزَامَةُ أنْ يَقتَنِعَ بِورْدِ الْمَعِينِ ، فَهُوَ يَعْرِفُ قَوْلَ الْقَائِلِ :

« مَا الْعَيْشُ إلَّا الْقفلُ وَالْمِفْتَاحُ وَغُرْفَةٌ تَخْرِقُهَـا الرِّيَاحُ »
« لاَ صَخَبٌ فِيهَا وَلاَ صِيَاحُ »

الخـدم

وَحدَّثَنِى « ابنُ القِنَّسْرِىِّ » الْمُقْرِئُ — : أنَّهُ سَمِعَهُ يَسْألُ عَنْ غُلاَمٍ لِلْخِدْمَةِ . وَرُبَّمَا كَانَ استِخْدَامُ الأَحْرَارِ ، يَمْنَعُ مِنَ الْقَرَارِ ، فَقَدْ قَالَ أَبُو عُبَادَةَ :

أنَا مِنْ « يَاسِرٍ وَيُسْرٍ وَنُجْحٍ » لَسْتُ مِنْ « عَامِرٍ » وَلاَ « عَمَّارِ »
مَا بِأرْضِ الْعِرَاقِ يَا قَوْمِ حُرٌّ يَفْتَدِينِى مِنْ خِدْمَةِ الْأَحْرَارِ ؟

وَأنْ يَخْدُمَ نَفْسَهُ الْوَحِيدُ ، خَيْرٌ مِنْ أنْ يَلِجَ بَيْتَهُ الْعَبِيدُ ، فَطَالَمَا أحْوَجُوا الْمَالِكَ إلَى ضَرْبٍ .

لؤم الخـدم(١)

وَرُبَّ نَازِلٍ مِنْ أَهْلِ الْأدَبِ فِى خَانٍ ، يَخْدُمُهُ صَبِىٌّ هُوَ مِنَ الرِّقِّ حُرٌّ ، وَفِى خِدْمَتِهِ السَّرَقُ وَالضُّرُّ ، إذَا أرْسَلَهُ بِالدَّرَاهِمِ لِيَأتِيَهُ بِالْبِطِّيخَةِ — حِينَ

(١) قال أبو العلاء :

ومن عناء الليالى خادم ضغن إن يُؤمر الأمر يفعل غير ما أُمرا

يَكْثُرُ الْبِطِّيخُ — سَرَقَ فى السَّبِيلِ الْقِطَعَ ، وَانْتَهَى فى الْخِيَانَةِ وَتَنَطَّعَ ، ثُمَّ وَقَفَ بِالْبَائِعِ فَغَبَنَهُ ، فَأَخَذَ صَغِيرَةً مِنَ بِطِّيخ ، ثُمَّ انْصَرَفَ بِهَا لَاعِباً ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَلَقَّفُ بِهَا فى الطَّرِيقِ حَتَّى كَسَرَهَا ، فَاخْتَلَطَ حَبُّهَا بِالْحَصْبَاء .

وَيَجُوزُ أَنْ يَحْمِلَهَا — فى حالِ السَّلامَةِ — وَيَمْضِيَ لِيَسْبَحَ مَعَ الْفِتْيَانِ ، فَإِذَا نَزَلَ فى الْمَاء اخْتَطَفَهَا بَعْضُ الْعَرِمَةِ مِنَ الصِّبْيَانِ ، فَأَكَلَهَا وَهُوَ يَرَاهُ ، لَا يَحْفِلُ بِأَدِيمِهَا إِذْ فَرَاهُ .

وَقَدْ يُرْسِلُهُ بِالْغَضَارَةِ[1] يَلْتَمِسُ لَبَناً ، فَيُقَابِلُ مِنْ سُوءِ الرَّأْيِ غَبَناً ، فَإِذَا حَصَلَ فِيهَا الْهُدَبِدُ[2] ، عَثَرَ فَإِذَا هُوَ عَلَى الصَّحْرَاء مُتَبَلِّدٌ ، وَصَارَتِ الْفَخَّارَةُ خَزَفاً لَا يُرَادُ .

***

وَأَمَّا أَهْلُ بَلَدِى — حَرَسَهُمُ اللهُ — فَإِذَا كَانَ الْحَظُّ قَدْ أَعْطَانِى حُسْنَ ظَنِّ الْغُرَبَاء ، فَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يُعْطِيَنِى تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ مِنَ الرَّهْطِ الْقُرَبَاء ، وَلَكِنَّهُمْ مَعِى كَطُلَّابِ الْخُطْبَةِ مِنَ الْأَخْرَسِ !

التوبة

وَأَمَّا إِشْفَاقُ الشَّيْخِ ، فَتِلْكَ سَجِيَّةُ الْأَنِيسِ ، لَا يَخْتَصُّ بِهَا أَخُو الْجُبْنِ عَنِ الشُّجَاعِ ، وَمِنَ الْقُسُوطِ تَعَرُّضٌ بِالْقُنُوطِ « قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » .

***

كَمْ مِنْ أَدِيبٍ شَرِبَ وَطَرِبَ ثُمَّ تَابَ ، فَقَدْ يَضِلُّ الدَّلِيلُ فى ضَوْء الْقَمَرِ ،

---

(١) القصعة (٢) اللبن الخاثر

ثمَّ يَهْدِيهِ اللهُ ، وَكَم اسْتُنْقِذَ مِنَ اللجِّ غَرِيقٌ فَسَلِمَ .

الفضيل بن عياض

وَقدْ كانَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِياضٍ ، يُسِيمُ فى أَوْبَلِ رِياضٍ ، ثُمَّ حُسِبَ فى الزُّهَّادِ ، وَجُعِلَ مِنْ أَهْلِ الاِجْتِهادِ ، وَرُبَّ خَلِيعٍ وَهُوَ فتًى ، تَصدَّرَ — لمَّا كبِرَ — وَأَفْتَى ، وَمُغَنٍّ بِطُنْبورٍ أَوْ عُودٍ ، قُدِّرَ لهُ تَوَلِّى السُّعُود ، فَرَقِى مِنْبرًا لِلْعِظاتِ !

عمر بن عبد العزيز

وَلَعَلَّهُ قَدْ نَظَرَ فى طَبقَاتِ الْمُغَنِّينَ ، فَرَأَى فِيهِمْ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَمالِكَ بْنَ أَنَسٍ ، هَكَذا ذَكَرَ « ابن خُرْدَاذَبَة » فَإِنْ يَكُ كاذِبًا فَعلَيْهِ كَذِبُهُ !

ابو حذيفة وحماد عجرد

وَالْحَكايَةُ مَعْرُوفَةٌ ، أَنَّ أَبَا حُذَيْفَةَ[١] كَانَ يُشارِبُ حَمَّادَ عَجْرِد وَيُنادِمُهُ ، فَنَسَكَ أَبو حُذَيْفَةَ ، وَأَقامَ حَمَّادٌ فى الْغَىِّ ، فَبلَغَهُ أَنَّ أَبَا حُذَيْفَةَ يَذُمُّهُ وَيَعِيبُهُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ حَمَّادٌ :

إِنْ كَانَ نُسْكُكَ لَا يَتِمُّ … بِغَيْرِ شَتْمِى وَانْتِقَاصِى
فَاقْعُدْ وَقُمْ بِى كَيْفَ شِئْـ … ـتَ مَعَ الْأَدانِى وَالْأَقاصِى
فَلَطَالَمَا زَكَّيْتَنِى … وَأَنَا الْمُقِيمُ عَلَى الْمَعَاصِى
أَيَّامَ تُعْطِينِى وَتَأْ … خُذُ فى أَبَارِيقِ الرَّصاصِ

(١) هو واصل بن عطاء ، تلميذ الحسن البصرى ، وصاحب مذهب الواصلية ، ورئيس تلك الطائفة المعروفة المنسوبة إليه . وكان فى زمن عبد الملك وهشام ابنه ، ومذهبه مبين فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى ، فليرجع إليه من شاء

عمر بن الخطاب

أَلَيْسَ الصَّحَابَةُ — عَلَيْهِمْ رِضْوَانُ اللهِ — كُلُّهُمْ كَانَ عَلَى ضَلَالٍ، ثُمَّ تَدَارَكَهُ الْمُقْتَدِرُ ذُو الْجَلَالِ؟؟

وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ يُرِيدُ مَجْمَعاً كَانُوا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ لِلْقِمَارِ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ أَحَداً، فَقَالَ لَأَذْهَبَنَّ إِلَى الْخَمَّارِ لَعَلِّي أَجِدُ عِنْدَهُ خَمْراً، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ شَيْئاً، فَقَالَ لَأَذْهَبَنَّ وَلَأُسْلِمَنَّ!...

وَالتَّوْفِيقُ يَجِيءُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ!

عودة الى النبى

وَفِيمَا خُوطِبَ بِهِ النَّبِيُّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ —: «وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى»

وَذَكَرَ أَبُو مَعْشَرٍ الْمَدَنِيُّ، فِي كِتَابِ «الْمَبْعَثِ» حَدِيثاً مَعْنَاهُ أَنَّ النَّبِيَّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — ذَبَحَ ذَبِيحَةً لِلْأَصْنَامِ، فَأَخَذَ شَيْئاً مِنْهَا، فَطَبَخَ لَهُ، وَحَمَلَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، وَمَضَيَا لِيَأْكُلَاهُ فِي بَعْضِ الشِّعَابِ، فَلَقِيَهُمَا «زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ» وَكَانَ مِنَ الْمُتَأَلِّهِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَدَعَاهُ النَّبِيُّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — لِيَأْكُلَ مِنَ الطَّعَامِ، فَسَأَلَهُ عَنْهُ، فَقَالَ: «هُوَ شَيْءٌ ذَبَحْنَاهُ لِآلِهَتِنَا» فَقَالَ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو: «إِنِّي لَا آكُلُ مِنْ شَيْءٍ ذُبِحَ لِلْأَصْنَامِ، وَإِنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ —صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ— فَأَمَرَ النَّبِيُّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ بِإِلْقَاءِ مَا مَعَهُ.

تميم بن أوس الدارى

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ — وَقَدْ سَمِعْتُهُ بِإِسْنَادٍ — أَنَّ تَمِيمَ بْنَ أَوْسٍ الدَّارِيَّ[1]

---

(١) نسبة إلى «الدار» وقال أبو العلاء: والدار قبيلة من «لخم»

كَانَ يُهْدِى إِلَى النَّبِيِّ — فِي كُلِّ سَنَةٍ — رَاوِيَةً مِنْ خَمْرٍ ، فَجَاءَ فِي بَعْضِ السِّنِينَ ، وَقَدْ حُرِّمَتِ الْخَمْرُ ، فَأَرَاقَهَا .

أحمد بن حنبل والخمر

وَقَدْ ذُكِرَ عِنْدَ ثَعْلَبٍ ، أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ، وَإِنْ كَانَ شَرِبَ النَّبِيذَ قَطُّ ، وَالنَّبِيذُ — عِنْدَ الْفُقَهَاءِ — غَيْرُ الْخَمْرِ ، فَقَالَ ثَعْلَبٌ : « أَنَا سَقَيْتُهُ بِيَدِي ! »

الخمـــــر

وَإِنَّمَا لَذَّةُ الشَّرْبِ فِيمَا يَعْرِضُ لَهُمْ مِنَ السُّكْرِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ ، لَكَانَ غَيْرُهَا مِنَ الْأَشْرِبَةِ أَعْذَبَ وَأَدْفَأَ[١] ، وَإِنْ كَانَ الشَّيْخُ قَدْ شَرِبَ ، فَلَهُ

---

(١) رأى أبي العلاء في الخمر

يعد أبو العلاء الخمر من اللذائذ ، و يعرف لها مزاياها ؛ ولا يمترى فيما تحدثه فى نفس شاربها من نشوة الفرح والطرب ، و يعلم أن ذلك هو السر فى تهافت النـاس على شربها — على اختلاف العصور والأمكنة .

فهو من أعرف الناس بمزايا الخمر ، وإن كان لم يذق لها طعماً ، وقد قرأ جل ما كتبه عنها شعراء العربية — جاهليين و إسلاميين وعباسيين — ودرسه ، كما درس غيره — فأصبح من أعلم الناس بها — وليس ذلك مستغرباً ، فقد أبْدَعَ أبو العلاء فى أشعاره كثيراً من التشبيهات الرائعة التى تعتمد على البصر

وحسبك ما أتى به من الأوصاف الكثيرة الدقيقة ، فى وصف الدروع وغيرها . ونكتفى من ذلك كله ببيته المشهور ، الذى وصف به سهيلاً فقال :

« وسهيل كوجنة الحب فى اللو ن ، وقلب المحب فى الخفقان »

ولم يقصر « بشار » فى كثير من تشبيهاته عن شأو المبصرين ، و إجادة الأوصاف

التى كان من حقهم أن ينفردوا بها دون سواهم ، وآية ذلك ، بيته الرائع المشهور :

« كأن مثار النقع فوق رءوسنا   وأسيافنا — ليل تهاوى كواكبه »

* * *

إذن فقد كان أبو العلاء يعرف الخمر ، و يدرك مزاياها حقاً ؛ نعم ، وقد تمنى شربها فى كثير من أشعاره ، وود لو أنها أصبحت طلقة محللة ، ولكن لم يفته أن يعقب — فى كل موضع تمناها فيه تقريباً — بالسبب الرئيس الذى يدفعه الى العزوف عنها ، والإحجام عن شربها ، وهو : « إزراؤها باللب » وقد عرفت أن أبا العلاء كان يعتز بالعقل كل الاعتزاز و يجله ، و يفتن فى تقديسه « انظر إلى ص ٢٥٦ فى هذا الجزء » حتى تضاءل أمامه كل اعتبار قيس إليه ، وقد أظهرنا أن من أكبر الأسباب التى أزعجته من لقاء الموت — رغم حنينه الدائم إليه — هو خوفه أن يسلبه الردى ذلك العقل الذى يحرص عليه ، و يضن به . (ارجع إلى ص ٢٠٨ من هذا الجزء)

ولهذا السبب نفسه ، ارتاع من الكبر ، فقال :

وما أتوقّى ، والخطوب كثيرة   من الدهر، إلا أن يحل بى الهتر

و يمكننا أن نتخذ البيت التالى مفتاح فلسفته فى الخمر ، وهو :

ولولا أنها باللب تزرى   لكنت أخا الندامة والنديم

* * *

والخمر — بعد ذلك — قد حرمها الإسلام ؛ ولو حلل شربها ، لما شربها أبو العلاء :

أيأتى نبى يجعل الخمر طلقة   فتحمل ثقلا من همومى وأوزارى ؟

وهيهات!—لوحلت—لما كنت شاربا   مخففة فى الحلم كفة ميزانى

وليس ذلك ببدع على من حرم على نفسه أكل اللحم ، مع إباحة الشرع ذلك .

فهو إذا كان قد دفعته الشفقة على الحيوان ، فلم يأكله ، فقد دفعه الإشفاق على عقله أن يحرم على نفسه الخمر — ولو حللها دينه — وهو لم يحللها بعد !

ومن ثم تدرك السر فى رغبته عنها ، بالرغم من تمنيه إياها أحيانا ، فقد تمناها فى لاميته

بَلْ رُبَّ لَيْلٍ جَمَعَتْ قُطْرَيْهِ لِي   بِنْتُ ثَمَانِينَ — عَرُوسٌ تُجْتَلَى !

التى قالها — وهو بالعراق — وأظهر فيها حنينه ووجده الشديد إلى بلده « المعرة » فقال :

« تمنيت أن الخمر حلت لنشوة   تجهلنى كيف اطمأنت بى الحال
فأذهل أنى — بالعراق — على شفا ،   رزئ الأمانى ، لا أنيس ولا مال
مقل من الأهلين يسر وأسرة   كفى حزنا بَيْنٌ مُشتٌ و إقلال ! »

على أنها أمنية اليائس الذى يفضل الموت على الحياة !

و إليك نخبة مختارة مما قاله فى الخمر ، نستدل بها على ما ذهبنا إليه :

لو كانت الخمر حلا ، ما سمحت بها   لنفسى الدهر ، لا سرًّا ولا علنا

ويهجر طيب الراح خوفا من السكر

هى الراح أهْلاً لطول الهجاء   و إن خصها معشر بالمِدَح
فلا تعجبنْك عروس المدام   ولا يطر بنْك مغن صدح
ومن يفتقد لبـه ساعة   فقد مات فيها بخطب فدح

وقد شرح فى الأبيات التالية ، ما ينجم عن الذهول ، الذى تحدثه الخمر فى نفوس شار بيها ، فقـال :

البابلية باب كل بلية   فتوقينّ هجوم ذاك الباب
جرّت ملاحاة الصديق وهُجره ،   وأذى النديم ، وفرقة الأحباب
هتكت حجاب المحصنات ؛ وجشمت   مهن العميد تهضم الأرباب
وتوهم الشيب المدالف ، أنهم   لبسوا — على كبر — برود شباب
و إذا تأملت الحوادث ، ألفيت   صهب الدنان أعادى الألباب

*
* *

وجماع القول أن أبا العلاء أكثر من ذكر الخمر والتشنيع عليها ، فى أشعاره ، وكما تستطيع أن تفرد لبعض الشعراء — كأبى نواس مثلا — ديوانا فى مدح الخمر ، تستطيع أن تفرد لأبى العلاء كذلك ، ديواناً فى ذمها !

ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ الْقَصِيدَةِ(١)

فَإِنْ أَمُتْ فَقَدْ تَنَاهَتْ لَذَّتِي ... وَكُلُّ شَيْءٍ بَلَغَ الْحَدَّ انْتَهَى

وَمَا أَخْتَارُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ بِقَوْلِ الْحَكَمِيِّ :

قَالُوا: «كَبِرْتَ» فَقُلْتُ: «مَا كَبِرَتْ يَدِي ... عَنْ أَنْ تَسِيرَ إِلَى فَمِي بِالْكَاسِ(٢) ! »

* * *

وَقَدْ آنَ لِمَوْلَايَ الشَّيْخِ أَنْ يَزْهَدَ فِي شِيمَةِ حُمَيدٍ الأَمَجِيِّ، قَائِلِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ :

« شَرِبْتُ الْمُدَامَ فَلَمْ أُقْلِعِ ... وَعُوتِبْتُ فِيهَا ، فَلَمْ أَرْجِعِ

« حُمَيْدُ » الذي أَمَجٌ دَارُه ... أخو الخمر ، ذو الشَّيبة ، الأصلع

عَلَاهُ الْمَشِيبُ عَلَى حُبِّهَا ... وَكَانَ كَرِيمًا فَلَمْ يَنْزِعِ ! »

وَقَالَ آخَرُ :

---

(١) يعنى مقصورة « ابن دريد » المشهورة التى أولها :

يا ظبية أشبه شىء بالمها ... ترعى الخزامى بين أشجار النقا

وقد مر بعض أبياتها فى (ج ٢ ص ١٨ ، ١٩)

(٢) الحكمى : هو أبو نواس ، وقد مرت ترجمته فى (ج ٢ ص ١٠ ، ١١) وهذا البيت من سينيته الجميلة التى يقول فيها :

كيف النزوع عن الصبا والكاس ... قس ذا لنا ، يا عاذلى بقياس !

وإذا عددتُ سنِى « كم هى ؟ » لم أجد ... للشيب عذراً فى النزول براسى

قالوا : « كَبِرتَ » فقلت : « ما كَبِرت يدى ... عن أن تسير إلى فمى بالكاس ! »

صفراء ، زان رواءها مخبورها ... فلها المهذب من ثناء الحاسى

وكأن شاربها — لفرط شعاعها ... بالليل — يكرع فى سنا مقباس

فالراح طيبة ، وليس تمامها ... إلا بطيب خلائق الجلاس !

تُعَاتِبُنِي فِي الرَّاحِ أُمٌّ كَبِيرَةٌ ... وَمَا قَوْلُهَا — فِيمَا أَرَاهُ — مُصِيبُ
تَقُولُ : « أَلَا تَجْفُو الْمُدَامَ ، فَعِنْدَنَا ... مِنَ الرِّزْقِ تَمْرٌ مُكْثِبٌ وَزَبِيبُ ؟ »
فَقُلْتُ : « رُوَيْدًا ، مَا الزَّبِيبُ مُفَرِّحِي ... وَلَيْسَ لِتَمْرٍ فِي الْعِظَامِ دَبِيبُ
فَإِنَّ « حُمَيْدًا » عَلَّهَا فِي شَبَابِهِ ... وَلَمْ يَصْحُ مِنْهَا — حِينَ لَاحَ مَشِيبُ ! »

توبة ابن القارح

وَإِذَا تَسَامَعَتِ الْمَحَافِلُ بِتَوْبَتِهِ ، اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الشُّبَّانُ الْمُقْتَبِلُونَ ، وَالْأُدَبَاءُ الْمُكْتَهِلُونَ ، وَكُلُّ أَشْيَبَ ؛ فَيَقْتَبِسُونَ مِنْ آدَابِهِ ، وَيُصْغُونَ الْمَسَامِعَ لِخِطَابِهِ ، وَجَلَسَ لَهُمْ فِي بَعْضِ الْمَسَاجِدِ بِحَلَبَ ، حَرَسَهَا اللهُ ، فَإِنَّهَا مِنْ بَعْدِ « أَبِي عَبْدِ اللهِ ابْنِ خَالَوَيْهِ » عُطِّلَتْ مِنَ الْأَدَبِ

حديث طالوت

ذَكَرَ مَنْ نَظَرَ فِي كِتَابِ « الْمُبْتَدَا » حَدِيثَ « طَالُوتَ » لَمَّا أَمَرَ ابْنَتَهُ ، وَهِيَ امْرَأَةُ « دَاوُدَ » — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — أَنْ تُدْخِلَهُ عَلَيْهِ — وَهُوَ نَائِمٌ — لِيَقْتُلَهُ ، فَجَعَلَتْ لَهُ فِي فِرَاشِ « دَاوُدَ » زِقَّ خَمْرٍ ، وَدَسَّتْهُ عَلَيْهِ ، وَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ ، وَسَالَتِ الْخَمْرُ ؛ فَظَنَّ أَنَّهَا الدَّمُ ، فَأَدْرَكَهُ الْأَسَفُ وَالنَّدَمُ . فَأَوْمَأَ بِالسَّيْفِ لِيَقْتُلَ نَفْسَهُ — وَمَعَهُ ابْنَتُهُ — فَأَمْسَكَتْ يَدَهُ ، وَحَدَّثَتْهُ مَا فَعَلَتْهُ ، فَشَكَرَهَا عَلَى ذَلِكَ !

عودة الى ذكر الحور

وَإِذَا صَحَّتِ الْأَخْبَارُ الْمَنْقُولَةُ بِأَنَّ أَهْلَ الْآخِرَةِ يَعْلَمُونَ أَخْبَارَ أَهْلِ الْعَاجِلَةِ ؛ فَلَعَلَّ جَوَارِيَهُ الْمُعَدَّاتِ لَهُ فِي الْخُلْدِ ، يَسْأَلْنَ عَنْ أَخْبَارِهِ مَنْ يَرِدُ

عَلَيْهِنَّ مِنَ الصُّلَحاءِ ، فَيَسْمَعْنَ مَرَّةً أَنَّهُ بِالْفُسْطَاطِ ، وَتَارَةً أَنَّهُ بِالْبَصْرَةِ ، وَمَرَّةً أَنَّهُ بِبَغْدَادَ ، وَخَطْرَةً أَنَّهُ بِحَلَبَ ؛ فَإِذَا شَاعَ أَمْرُ التَّوْبَةِ ، وَمَاتَ نَاسِكٌ مِنْ أَهْلِ حَلَبَ ، أَخْبَرَهُنَّ بِذَلِكَ ، فَسُرِرْنَ وَابْتَهَجْنَ ، وَهَنَّأَهُنَّ جَارَاتُهُنَّ !

*
* *

وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ قَدْ سَمِعَ حِكَايَةَ الْبَيْتَيْنِ الثَّابِتَيْنِ فِى كِتَابِ : « الاعْتِبَارِ » :

أَنْعَمَ اللهُ بِالْخَيَالَيْنِ عَيْنًا وَبِمَسْرَاكِ يَا أُمَيْمُ إِلَيْنَا

عَجَبًا ! مَا جَزِعْتِ مِنْ وَحْشَةِ اللَّحْدِ ، وَمِنْ ظُلْمَةِ الْقُبُورِ عَلَيْنَا

رجعة الى الخمر

أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ قَوْمٍ يَحُثُّهُمُ الْمَشِيبُ عَلَى أَنْ يَسْتَكْثِرُوا مِنْ أُمِّ زَنْبَقٍ (١)

قَالَ حَاتِمٌ :

وَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ لَوْ أَنَّ حَاتِمًا أَرَادَ ثَرَاءَ الْمَالِ كَانَ لَهُ وَفْرُ
يُفَكُّ بِهِ الْعَانِى وَيُؤْكَلُ طَيِّبًا وَلَيْسَتْ تُعَرِّيهِ الْقِدَاحُ وَلَا الْيَسْرُ
أَ « مَاوِىَّ » إِنْ يُصْبِحْ صَدَاىَ بِقَفْرَةٍ مِنَ الْأَرْضِ — لَا مَاءٌ لَدَىَّ وَلَا خَمْرُ
تَرَىْ أَنَّ مَا أَهْلَكْتُ لَمْ يَكُ ضَرَّنِى وَأَنَّ يَدِى — مِمَّا بَخِلْتُ — بِهِ صِفْرُ

وَقَالَ طَرَفَةُ :

فَإِنْ كُنْتَ لَا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِى فَدَعْنِى أُبَادِرْهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِى (٢)

وَقَالَ عبدُ اللهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ :

لَا تُطِلْ بِالْكُؤُوسِ مَطْلِى وَحَبْسِى لَيْسَ يَوْمِى يَا صَاحِبِى مِثْلُ أَمْسِى

---

(١) هى الخمر (٢) ترجمة طرفة وحديث معلقته — التى منها هذا البيت — فى ج ٢ ص ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٤

لَا تَسَلْنِي ، وَسَلْ مَشِيبِي عَنِّي مُذْ عَرَفْتُ الْخَمْسِينَ أَنْكَرْتُ نَفْسِي

فَهَذَا حَثَّهُ كَثْرَةُ سِنِيهِ عَلَى أَنْ يَسْتَكْثِرَ مِنَ السُّلَافَةِ، وَمَا حَفِظَ حَقَّ الْخِلَافَةِ! وَأَنَا أَضَنُّ بِهِ(١) أَنْ يَكُونَ كَأَبِي عُثْمَانَ الْمَازِنِيِّ ، عُوتِبَ فِي الشَّرَابِ ، فَقَالَ : « إِذَا صَارَ أَكْبَرَ ذُنُوبِي تَرَكْتُهُ ! »

المعتصم وابراهيم المهدى

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْمُعْتَصِمَ دَعَا إِبْرَاهِيمَ كَعَادَتِهِ ، فَغَنَّاهُ وَبَكَى ، فَقَالَ لَهُ الْمُعْتَصِمُ : « مَا يُبْكِيكَ ؟ » فَقَالَ : « كُنْتُ عَاهَدْتُ اللهَ إِذَا بَلَغْتُ سِتِّينَ سَنَةً أَنْ أَتُوبَ ، وَقَدْ بَلَغْتُهَا . . . . » . فَأَعْفَاهُ الْمُعْتَصِمُ مِنَ الْغِنَاءِ ، وَحُضُورِ الشَّرَابِ !

الهيام بالخمر

وَكَانَ فِي بَلَدِنَا رَجُلٌ مُغْرَمٌ بِالْقَهْوَةِ(٢) فَلَمَّا كَبِرَ رَغِبَ فِي الْمَطْبُوخِ ، وَكَانَ يَحْضُرُ مَعَ نَدَامَاهُ ، وَعِنْدَهُمْ قَدَحٌ وَاحِدٌ ، فَيَشْرَبُ هُوَ مِنَ الْمَطْبُوخِ وَيَشْرَبُ أَصْحَابُهُ مِنَ النِّيءِ ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدَحُ إِلَيْهِ لِيَشْرَبَ ، غَسَلَهُ مِنْ أَثَرِ الْخَمْرِ ، وَشَرِبَ فِيهِ ، فَإِذَا فَرَغَ الْمَطْبُوخُ ، رَجَعَ فَشَرِبَ مِنْ شَرَابِ إِخْوَانِهِ ! . . . .

*
* *

وَأَمَّا مُخَاطَبَتُهُ غَيْرَهُ — وَهُوَ يَعْنِي نَفْسَهُ — فَهُوَ كَقَوْلِهِمْ فِي الْمَثَلِ : « إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَهْ » وَلَا عُنْدَدَ(٣) عَنِ الْجِبِلَّةِ ، يُرِيدُ الْمُتَنَسِّكُ أَنْ يَنْصَرِفَ حُبُّهُ عَنِ الْعَاجِلَةِ ، وَلَيْسَ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ، كَمَا لَا تَقْدِرُ الظَّبْيَةُ أَنْ تَصِيرَ لَبُوءَةً

---

(١) أى بابن القارح (٢) الخمر (٣) فى اللغة : مالى عن ذلك عندد ، كجندب ، وقنفذ ؛ أى مالى عنه بد ، والمعنى : لا سبيل إلى الخلاص من الفطرة التى فطر الناس عليها

وَلَا الْحصَاةُ أَنْ تُتَصَوَّرَ لُؤْلُؤَةً[١] « يُوسُفُ : أَعْرِضْ عَنْ هذَا . وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ »

لَقَدْ عَلِمْتُ ، وَلَا أَنْهَاكَ عَنْ خُلُقٍ ... أَلَّا يَكُونَ امْرُؤٌ إِلَّا كَمَا خُلِقَا[٢]

---

(١) الجبر

كرر أبو العلاء هذا المعنى فى لزومياته ، وهو بلا ريب فى مقدمة من يدينون بالجبر ، ونجتزئ من أشعاره الكثيرة بالأبيات التالية ، للاستدلال بها على يقينه الثابت و إيمانه الذى لا يتزعزع ، بمذهب الجبر ، و إذعانه للقضاء والقدر ، وهى :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ... ولكن بأمر سببته المقادر
وفى الأصل غش ، والفروع توابع ... وكيف وفاء النجل ، والأب غادر ؟
إذا اعتلّت الأفعال جاءت عليلة ... كحالاتها ؛ أفعالُها والمصادر
فقل للغراب الجون – إن كان سامعاً – ... « أأنت على تغيير لونك قادر ؟ »

والعقل زين – ولكن فوقه قدر – ... فماله فى ابتغاء الرزق تقدير

ويجرى قضاء ما لكم عنه حاجز ... فألقوا إلى مولاكم بالمقالد[١]

نهاب أموراً – ثم نركب هولها ... على عنت – مِنْ صاغرين قِماء ![٢]

ونحاذر الأشياء – بعد يقيننا ... ألا يرد الكائنات حذارُ

وجِبِلّة الناس الفساد ، فضلَّ من ... يسمو بحكمته إلى تهذيبها

يتحارب الطبع – الذى مزجت به ... مهج الأنام – وعقلهم ، فيفله

وقيل : نفوس الناس تسطيع فعلها ... وقال رجال : « بل تبيّن جبرها »

ولا ألوم غبيا فى غباوته ... فبالقضاء أتته قلة الفطن

لا تمدحن ولا تذمن امرأ ... فيها ، فغير مقصر كمقصر !

(٢) هذا يشبه قول ذى الإصبع العَدوانى :

---

(١) المقالد كالمقاليد : المفاتيح (٢) أى : يا لنا من صاغرين قماء ، على الحذف .

وَكَثِيرٌ مِنَ الَّذِينَ يَتْلُونَ الآيَةَ : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ، فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » وَهُمْ بِهَا مُصَدِّقُونَ ، وَمِنْ خَشْيَةِ إِلٰهِهِمْ مُشْفِقُونَ ، يَضِنُّونَ بِالْقَلِيلِ التَّافِهِ ، وَلَا يَسْمَحُونَ لِلسَّائِلِ (١) ؛ فَكَيْفَ تَكُونُ حَالُ مَنْ يُنْكِرُ حَدِيثَ الْجَزَاءِ ، وَلَا يَقْبَلُ عَنِ الْفَانِيَةِ حُسْنَ الْعَزَاءِ ؟

أبو طلحة واليهودى

وَقَدْ مَرَّ حَدِيثُ « أَبِي طَلْحَةَ » أَوْ « أَبِي قَتَادَةَ » وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ خَاصَمَ يَهُودِيًّا إِلَى النَّبِيِّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَكَانَ لِأَبِي طَلْحَةَ حَدِيقَةُ نَخْلٍ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْيَهُودِيِّ خُلْفٌ فِي نَخْلَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَقَالَ النَّبِيُّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — لِلْيَهُودِيِّ : « أَتَسْمَحُ لَهُ بِالنَّخْلَةِ حَتَّى أَضْمَنَ لَكَ نَخْلَةً فِي الْجَنَّةِ » وَنَعَتَهَا رَسُولُ اللهِ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — بِنُعُوتِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ : « لَا أَبِيعُ عَاجِلًا بِآجِلٍ ! » فَقَالَ « أَبُوطَلْحَةَ » : « أَتَضْمَنُ لِي يَا رَسُولَ اللهِ كَمَا ضَمِنْتَ لَهُ حَتَّى أُعْطِيَهُ الْحَدِيقَةَ ؟ » فَقَالَ : « نَعَمْ » فَرَضِيَ أَبُو طَلْحَةَ بِذَلِكَ ، وَأَخَذَ الْيَهُودِيُّ وَذَهَبَ إِلَى حَدِيقَتِهِ ، فَوَجَدَ فِيهَا امْرَأَتَهُ وَأَبْنَاءَهُ ، وَهُمْ يَأْكُلُونَ مِنْ جَنَاهَا ، وَجَعَلَ يُدْخِلُ إِصْبَعَهُ فِي أَفْوَاهِهِمْ فَيُخْرِجُ مَا فِيهَا مِنْ تَمْرٍ ، فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ : « لِمَ تَفْعَلُ هَذَا بِبَنِيكَ ! »

كل امرئ صائر يوماً لشيمته ... وإن تخلق أخلاقاً إلى حين

وقريب منه قول الآخر :

لا ترجع الأنفس عن غيها ... ما لم يكن منها لها رادع

(١) افتتن أبو العلاء فى نظم هذا المعنى فقال :

دِنتم بأن سيجازيكم إلهكم ... فما لأفعالكم أفعال إهمال ؟

فَقَالَ : « إِنِّى قَدْ بِعْتُ الْحَدِيقَةَ » فَقَالَتْ : « إِنْ كُنْتَ بِعْتَهَا بِعَاجِلٍ ، فَبِئْسَ مَا فَعَلْتَ ! » فَقَصَّ عَلَيْهَا الْخَبَرَ ، فَفَرِحَتْ بِذَلِكَ .

حرص الناس

وَلَوْ قِيلَ لِبَعْضِ عُبَّادِ هَذَا الْعَصْرِ : « أَعْطِ لَبِنَةً ، لِتُعْطَى فِى الْآخِرَةِ لَبِنَةً مِنْ فِضَّةٍ » لَمَا أَجَابَ . وَلَوْ سُئِلَ أَمَةً عَوْرَاءَ ، يُعَوَّضُ مِنْهَا فِى الْآخِرَةِ بِحَوْرَاءَ ، لَمَا فَعَلَ ؛ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْمُصَدِّقِينَ ! . . . فَكَيْفَ مَنْ غُذِىَ بِالتَّكْذِيبِ ، وَجَحَدَ وُقُوعَ التَّعْذِيبِ ؟

ميتة فاذوه

وَأَمَّا « فاذوه » فَلَقِىَ طَائِرَ الْحَيْنِ ، مُتَكَفِّيًا مِنْ بَيْنِ جَنَاحَيْنِ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، مَا أُعِدَّ الْمِهْرَاسُ لِيُفْضَخَ[1] بِهِ الرَّاسُ ! وَلَكِنْ لِكُلٍّ أَجَلٍ كِتَابٌ ! مَنَّتْهُ نَفْسُهُ التَّوْبَةَ ، فَكَانَتْ كَصَاحِبَةِ امْرِئِ الْقَيْسِ — لَمَّا قَالَ لَهَا :

« مَنَّيْتِنَا بِغَدٍ ، وَبَعْدَ غَدٍ ، حَتَّى بَخِلْتِ كَأَسْوَإِ الْبُخْلِ

أبو الهذيل العلاف

وَيُحْكَى عَنْ « أَبِى الْهُذَيْلِ الْعَلَّافِ » أَنَّهُ كَانَ يَمُرُّ فِى الْأَسْوَاقِ عَلَى حِمَارٍ وَيَقُولُ : « يَا قَوْمِ : احْذَرُوا تَوْبَةَ غُلَامِى ! » وَكَانَ لَهُ غُلَامٌ يَعِدُ نَفْسَهُ التَّوْبَةَ ، فَسَقَطَتْ عَلَيْهِ آجُرَّةٌ ، فَقَتَلَتْهُ . . .

بدء التعارف بين المعرى وابن القارح

وَأَوَّلُ مَا سَمِعْتُ بِأَخْبَارِ الشَّيْخِ ، مِنْ رَجُلٍ وَاسِطِىٍّ ، يَتَعَرَّضُ لِعِلْمِ الْعَرُوضِ ،

---

(١) الفضخ : الكسر ، ولا يكون إلا فى شىء أجوف نحو الرأس والبطيخ . ويقال : فضخ عينه ، أى : فقأها

ذَكَرَ أَنَّهُ شَاهَدَهُ بِنَصِيبِينَ، وَفِيهَا رَجُلٌ يُعْرَفُ بِأَبِي الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ، مُعلماً لِبَعْضِ الْعَلَوِيَّةِ، وَكَانَ غُلَامٌ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ يُعْرَفُ «بِابْنِ الدَّانِ» وَقَدْ اجْتَازَ الشَّيْخُ بِبَلَدِنَا - وَالْوَاسِطِيُّ يَوْمَئِذٍ فِيهِ - وَقَدْ شَاهَدْتُ عِنْدَ أَبِي أَحْمَدَ عَبْدِ السَّلَامِ — رَحِمَهُ اللهُ — كُتُباً عَلَيْهَا سَمَاعٌ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ حَلَبَ، وَمَا أَشُكُّ أَنَّهُ الشَّيْخُ، وَهُوَ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى تَعْرِيفٍ بِالْقَرِيضِ، كَمَا قَالَ الطَّائِيُّ:

تَحْمِيهِ لَأْلَاؤُهُ — أَوْ لَوْذَعِيَّتُهُ — مِنْ أَنْ يُذَالَ بِمَنْ، أَوْ مِمَّنِ الرَّجُلُ؟

أساتذة ابن القارح

وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ لَقِيَهُمْ، فَأُولَئِكَ مَصَابِيحُ النَّاجِيَةِ، وَكَوَاكِبُ الدَّاجِيَةِ، وَإِنَّ فِي النَّظَرِ إِلَيْهِمْ لَشَرَفاً، فَكَيْفَ بِمَنِ اغْتَرَفَ - مِنْ كُلِّ بَحْرٍ وَجَدَ — غُرَفاً؛ وَإِنَّمَا أَقُولُ ذَلِكَ عَلَى الِاقْتِصَارِ، وَلَعَلَّهُ قَدْ نَزَفَ بِحَارَهُمْ بِالْقَلَمِ وَالْفَهْمِ، وَسَهَّلُوا لَهُ مَا صَعُبَ مِنْ جِبَالِ الْعَرَبِيَّةِ

حجج ابن القارح

وَأَمَّا حِجَجُهُ الْخَمْسُ، فَهُوَ — إِنْ شَاءَ اللهُ — يَسْتَغْنِي فِي الْحَشْرِ بِالْأُولَى مِنْهُنَّ، وَيَنْظُرُ فِي الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَجِدُ فِيهِمْ مَنْ لَمْ يَحْجُجْ، فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِمْ بِالْأَرْبَعِ وَكَأَنِّي بِهِ، وَعَمَائِمُ الْحَجِيجِ، يَرْفَعُونَ التَّلْبِيَةَ بِالعَجِيجِ، وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي تَلْبِيَاتِ الْعَرَبِ؛ وَأَنَّهَا جَاءَتْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ: مَسْجُوعٍ لَا وَزْنَ لَهُ، وَمَنْهُوكٍ، وَمَشْطُورٍ . . . !

*
* *

وَكَأَنِّي بِهِ لَمَّا اعْتَزَمَ عَلَى اسْتِلَامِ الرُّكْنِ، وَقَدْ ذَكَرَ قَوْلَ الْقَائِلِ:

ذَكَرْتُكِ وَالْحَجِيجُ لَهُ عَجِيجٌ بِمَكَّةَ، وَالْقُلُوبُ لَهَا وَجِيبُ

فَقُلْتُ — وَنَحْنُ فى بَلَدٍ حَرَامٍ — بِهِ — لِلَّهِ — أَخْلَصتِ الْقُلُوبُ :
« أَتُوبُ إِلَيْكَ يَا رَبَّاهُ — مِمَّا جَنَيْتُ — فَقَدْ تَظَاهَرَتِ الذنُوبُ
فَأَمَّا مِنْ هَوَى « لَيْلَى » وَحُبِّي زِيَارَتَهَا ، فَإِنِّى لاَ أَتُوبُ ! »

وَلَعَلَّهُ قَدْ ذَكَرَ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ فِى الطَّوَافِ :

أُطَوِّفُ بِالْبَيْتِ — فِيمَنْ يَطُوفُ وَأَرْفَعُ مِنْ مِئْزَرِى الْمُسْبَلِ
وَأَسْجُدُ بِاللَّيْلِ حَتَّى الصَّبَاحِ وَأَتْلُو مِنَ الْمُحْكَمِ الْمُنْزَلِ
عَسَى فَارِجُ الْكَرْبِ عَنْ يُوسُفٍ يُسَخِّرُ لِى رَبَّةَ الْمَحْمَلِ

وَذَكَرَ عِنْدَ تَفَرُّقِ النَّاسِ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ :

وَدِّعِى الْقَلْبَ « يَا قَرِيبُ » وَجُودِى لِمُحِبٍّ فِرَاقُهُ قَدْ أَحَمَّا
لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلاَّ أَنْ يَرُدُّوا جِمَالَهُمْ فَتُزَمَّا

وَكَأَنِّى بِهِ وَقَدْ مَرَّ بِأَنْطَاكِيَةَ ، فَذَكَرَ قَوْلَ امْرِىءِ الْقَيْسِ :

عَلَوْنَ بِأَنْطَاكِيَّةٍ فَوْقَ عِقْمَةٍ كَجِرْمَةِ نَخْلٍ ، أَوْ كَجَنَّةِ يَثْرِبِ

أبو الطيب اللغوى

وَأَمَّا أَبُو الطَّيِّبِ اللُّغَوِىُّ ، وَاسْمُهُ « عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ عَلِىٍّ » وَلاَ أَشُكُّ أَنَّهُ قَدْ ضَاعَ كَثِيرٌ مِنْ كُتُبِهِ وَتَصْنِيفَاتِهِ ، لِأَنَّ الرُّومَ قَتَلُوهُ وَأَبَاهُ ، فِى فَتْحِ حَلَبَ . وَكَانَ « ابْنُ خَالَوَيْهِ » يُلَقِّبُهُ « دُحْرُوجَةَ الْجُعَلِ » لِأَنَّهُ كَانَ قَصِيراً . وَقَدْ كَانَ « أَبُو الطَّيِّبِ اللغوىُّ » بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِى الْعَبَّاسِ بْنِ كِلاَبٍ « الْبَكْتَمُرِىِّ » مَوَدَّةٌ وَمُؤَانَسَةٌ ، وَلَهُ يَقُولُ :

يَا عَبْدَ[1] ! إِنَّكَ عِنْدَ الْقَلْبِ جَنَّتُهُ حُبًّا ، وَإِنَّكَ — عِنْدَ الطَّرْفِ — نَاظِرُهُ

(١) يريد « يا عبد الواحد »

وَاذْكُرْ لِرَاعِي الْهَوَى مَا أَنْتَ ذَاكِرُهُ ... أَزْمَعْتَ سَيْراً، فَقُلْ مَا أَنْتَ قَائِلُهُ
اللَّيْلُ يَعْلَمُ أَنِّي الدَّهْرَ سَاهِرُهُ ... لاَ أَشْتَكِي سَهَراً طَالَتْ مَسَافَتُهُ

وَقَدْ كَانَ « أَبُو الطَّيِّبِ » يَتَعَاطَى شَيْئاً مِنَ النَّظْمِ.

وَقَدْ عَلِمَ اللهُ أَنِّي لاَ فِي الْعِيرِ وَلاَ فِي النَّفِيرِ، كُلَّمَا رَغِبْتُ فِي الْخُمُولِ، قُدِّرَ لِي غَيْرُ الْمَأْمُولِ. كَانَ حَقُّ الشَّيْخِ — إِذْ أَقَامَ فِي « مَعَرَّةِ النُّعْمَانِ » سَنَةً — أَلاَّ يَسْمَعَ لِي بِذِكْرٍ، وَلاَ أَخْطُرَ لَهُ عَلَى فِكْرٍ، وَالآنَ قَدْ غَمَرَ إِفْضَالُهُ. وَأَظَلَّنِي دَوْحُ أَدَبِهِ. وَهُوَ كَرِيمُ الطَّبْعِ، وَالْكَرِيمُ يُخْدَعُ، وَمَنْ سَمِعَ جَازَ أَنْ يَخَالَ!

ابن القارح فى مصر

وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ مَيْلِهِ فِي مِصْرَ إِلَى بَعْضِ اللَّذَّاتِ، فَهُوَ يَعْرِفُ الْحَدِيثَ: « أَرِيحُوا الْقُلُوبَ تَعِ الذِّكْرَ » وَقَالَ أُحَيْحَةُ بْنُ الْجُلاَحِ:

صَحَوْتُ عَنِ الصِّبَا، وَاللَّهْوُ غُولٌ ... وَنَفْسُ الْمَرْءِ — آوِنَةً — مَلُولُ

وَقَدْ عَاشَرَ مُلُوكاً وَوُزَرَاءَ، وَقَدْ سَمِعَ أَنْبَاءَ النُّعْمَانِ الأَكْبَرِ، إِذْ فَارَقَ مُلْكَهُ، وَتَعَوَّضَ مِنَ الْحَرِيرِ الْمُسُوحَ، وَإِيَّاهُ عَنَى الْعِبَادِيُّ[1] فِي قَوْلِهِ:

وَتَذَكَّرْ رَبَّ الْخَوَرْنَقِ إِذْ فَكَّرَ يَوْماً، وَلِلْهُدَى تَفْكِيرُ
سَرَّهُ مُلْكُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْلِكُ، وَالْبَحْرُ مُعْرِضاً، وَالسَّدِيرُ
فَارْعَوَى جَهْلُهُ، فَقَالَ: «وَمَا غِبْطَةُ حَيٍّ إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ» ؟

الهنود والخمر

وَالسُّكْرُ[2] مُحَرَّمٌ فِي كُلِّ الْمِلَلِ، وَيُقَالُ: إِنَّ الْهِنْدَ لاَ يُمَلِّكُونَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً يَشْرَبُ مُسْكِراً، لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ مُنْكَراً، وَيَقُولُونَ: يَجُوزُ أَنْ يَحْدُثَ فِي

(١) هو عدى بن زيد، وترجمته فى جـ٢ ص٨ و٩ (٢) ارجع إلى ص٣٠٤ و٣٠٥ و٣٠٦ فى هذا الجزء

الْمَمْلَكَةِ نَبأٌ ، وَالْمَلِكُ سَكْرَانُ » لُعِنَتِ الْقَهْوَةُ !

*
* *

وَيَنْبَغِي أَنْ يُزَهِّدَهُ فِي الصَّهْبَاءِ ، أَنَّ نَدَامَاهُ الْأَكْرَمِينَ أَصْبَحُوا فِي الْأَجْدَاثِ الْعَافِيَةِ ، كَمْ جَلَسَ مَعَ فِتْيَانٍ ، أَتَى عَلَيْهِمُ الزَّمَنُ كُلَّ الْإِتْيَانِ ، فَكَانَ كَمَا قَالَ الْجَعْدِيُّ(١) :

تَذَكَّرْتُ وَالذِّكْرَى تَهِيجُ لِيَ الْهَوَى ... وَمِنْ حَاجَةِ الْمَحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
نَدَامَايَ عِنْدَ الْمُنْذِرِ بْنِ مُحَرِّقٍ ... فَأَصْبَحَ مِنْهُمْ ظَاهِرُ الْأَرْضِ مُقْفِرَا

وَهُوَ يَعْرِفُ الْأَبْيَاتَ الَّتِي أَوَّلُهَا :

خَلِيلَيَّ ! هُبَّا ، طَالَمَا قَدْ رَقَدْتُمَا ... أَجِدَّكُمَا لَا تَقْضِيَانِ كَرَاكُمَا

وَهَلْ يَعْجِزُ أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ الْآخَرُ :

أَمَّا الطِّلَاءُ ، فَإِنِّي لَسْتُ ذَائِقَهَا ... حَتَّى أُلَاقِيَ بَعْدَ الْمَوْتِ جَبَّارَا !

دنانير ابن القارح

وَسَرَّتْنِي فِيئَةُ(٢) الدَّنَانِيرِ إِلَيْهِ ، فَتِلْكَ أَعْوَانٌ ، تَشْتَبِهُ مِنْهَا الْأَلْوَانُ ، وَلَهَا عَلَى النَّاسِ حُقُوقٌ ، تَبِرُّ إِنْ خِيفَ عُقُوقٌ — قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لِمُعَاوِيَةَ : « رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ أَنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ قَامَتْ ، وَجِيءَ بِكَ وَقَدْ أَلْجَمَكَ الْعَرَقُ ! » فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : « هَلْ رَأَيْتَ ثَمَّ مِنْ دَنَانِيرِ مِصْرَ شَيْئًا ؟ ! »

وَهَذِهِ — لَا رَيْبَ — مِنْ دَنَانِيرِ مِصْرَ ، لَمْ تَجِئْ مِنْ عِنْدِ السُّوقِ ، وَلَكِنْ مِنْ عِنْدِ الْمُلُوكِ ، وَلَمْ تَكُنْ مَهْرَ هَلُوكٍ . فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَلَّمَهَا إِلَى هَذَا الْوَقْتِ ، وَلَمْ تَكُنْ كَذَهَبٍ مَخْزُونٍ ، صَارَ إِلَى الْخَمَّارَةِ مَعَ الْمَوْزُونِ ، كَمَا قَالَ :

---

(١) هو نابغة بنى جعدة ، وترجمته فى ج ٢ ص ٣٨ (٢) عودة

وَخَمَّارَةٍ مِنْ بَنَاتِ الْمَجُوسِ ... تَرَى الزِّقَّ — فى بَيْتِهَا — شائِلَا
وَزَنَّا لَهَا ذَهَبًا جامِدًا ، ... فَكَالَتْ لَنَا ذَهَبًا سائِلَا

أُخِذَتْ مِنْ جَوائِزِ كِرَامٍ صِيدٍ ، تارَةً بِالْخِدْمَةِ وَتارَةً بِالْقَصِيدِ ؛ وَلَمْ تَكُنْ فى الْعِيدِيَّةِ مُرَهَّنَاتٍ ، وَلَا — عِنْدَ الْغَرَضِ — مُوَهَّنَاتٍ ! وَهِىَ عِنْدَ الْبَلَهِ وَالْكَيْسِ ، أَجْوَدُ مِنَ الْخَاتَمِ الَّذِى ذَكَرَهُ « ابْنُ قَيْسٍ » ، فقَالَ :

إِنْ خُتِمَتْ ، جازَ طِينُ خاتِمِهَا ... كَمَا تَجُوزُ الْعَبْدِيَّةُ الْعُتُقُ[1]

بائع كميته

وَلَوْ أَخَذَ مِثْلَهَا النَّادِمُ عَلَى بَيْعِ كُمَيْتِهِ ، لَأَسْكَنَتِ الْبَهْجَةَ فى خَلَدِهِ[2] وَبَيْتِهِ ، وَلَمْ يَأْسَفْ أَنْ عُوِّضَ حِمَارًا مِنْ فَرَسٍ ، وَلَوُجِدَ — عَلَى الشَّكْوَى — ذَا خَرَسٍ ، وَلَمْ يَقُلْ :

نَدِمْتُ عَلَى بَيْعِ « الْكُمَيْتِ » وَإِنَّمَا ... حَيَاةُ الْفَتَى هَمٌّ لَهُ وَخَسَارُ
وَلَمَّا أَتَانِى بِالدَّنَانِيرِ سائِمِى ... أَصَاخَتْ ، وَهَشَّتْ — لِلْبِيَاعِ — « نَوَارُ »
وَقَالَتْ : « أَتِمَّ الْبَيْعَ ، وَاشْتَرِ غَيْرَهُ ، ... فَحَوْلَكَ — فى الْمَشْتَا — بَنُونَ صِغَارُ
فَأَنْفَقْتُ فِيهِمْ ما أَخَذْتُ — وَلَمْ يَزَلْ ... لَدَىَّ شَرَابٌ رَاهِنٌ[3] ، وَقُتَارُ[4]
إِلَى أَنْ تَدَاعَى الْجُنْدُ — بِالْغَزْوِ — وَانْجَلَتْ ... غُيُومُ شِتَاءٍ — سُحْبُهُنَّ غِزَارُ
وَأَعْوَزَنِى مُهْرٌ — يَكُونُ مَكَانَهُ — ... كَأَنْ لَيْسَ — بَيْنَ الْعَالَمِينَ — مِهَارُ

---

(١) قال أبو العلاء : « أراد بالعبدية دنانير نسبها إلى عبد الملك بن مروان » وقد ضرب دنانير باسمه ، وفى عهده بنى الحجاج داراً للسكة فى العراق ، فكانت ترسل منها الدنانير المضروبة إلى سائر المملكة الاسلامية (٢) الخلد : القلب (٣) معدّ حاضر (٤) الدخان من المطبوخ ، فهو دليل عليه

وَسَارَ - عَلَى الْخَيْلِ الْمُغذَّةِ - صَاحِبِي، وَسِرْتُ، وَتَحْتِي - لِلشَّقَاءِ - حِمَارُ!

***

وَلِلَّهِ الْمِنَّةُ كَمَا نَجَّاهَا - بِالْقَدَرِ - مِنْ بُكُورٍ، لَيْسَ مَنْ بَكَّرَهُ بِالْمَشْكُورِ، يَحْمِلُ مَعَهُ دَنَانِيرَ، وَلَا يَصْحَبُ مِنَ الْقَوْمِ صَنَانِيرَ (١)، فَيُقِيمُ بِهِمْ فِي الدَّسْكَرِ أَيَّامًا، أَيْقَاظًا - فِي السُّكْرِ - أَوْ نِيَامًا، فَتَفْنَى الذَّهَبَ، قَالَ الْجَعْدِيُّ (٢):

وَدَسْكَرَةٍ — صَوْتُ أَبْوَابِهَا كَصَوْتِ الْمَوَاتِحِ فِي الْحَوْأَبِ (٣)
سَبَقْتُ إِلَيْهَا صِيَاحَ الدُّيُوكِ وَصَوْتَ نَوَاقِيسَ، لَمْ تُضْرَبِ

وقال آخرُ:

وَقَبضةٍ من دَنانيرٍ غدوْتُ بها للدَّسْكَرِيِّ - وحوْلى فتية سُمُحُ
وَلم يزلْ - ثَمَّ - يسقينا، ويأخذُها حتى استقلَّ بما فى الصُّرَّةِ القدحُ!

***

وَدنانيره — بإذن اللهِ — مُقدَّساتٌ، وَإن كانت زائدةً عَلَى الثَّمانينَ، فَقَدْ أَوْفَتْ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ «مُوسَى» الَّذِينَ جاءَ فِيهِمْ: «وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا» وَعَلَى عِدَّةِ الِاسْتِغْفَارِ فِي قَوْلِهِ: «إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ» وَعَلَى عِدَّةِ أَذْرُعِ السِّلْسِلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا، فَاسْلُكُوهُ».

ولوْ كَانَتْ سِنُو «زُهَيْرٍ» مِثْلَهَا، لَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بالسآمةِ، ولوْ أَدْرَكَهُ عُرْوَةُ بْنُ حِزَامٍ، وَهُوَ يقول:

يُكَلِّفُنِي عَمِّي ثَمانِينَ نَاقَةً وَمَالِي يا «عفْرَاءُ» غيْرُ ثمانِ (٤)

---

(١) الصنانير: البخلاء، جمع صِنَّوْر (٢) ارجع الى ترجمته فى (ج «٢» ص ٣٨)

(٣) الدلو (٤) انظر قصيدته الجميلة التى منها هذا البيت فى ذيل الأمالى

لجَازَ أَنْ يرِقَّ لهُ ، فَيُغيثَهُ منْ هذهِ الثمانينَ ببَعْضِها ، أَوْ يَسْمَحَ لهُ بِكُلِّهَا ، لأنهُ كَرِيمُ طَبْعٍ . ولوْ صارَتْ فى يدِ عُرْوَةَ هذهِ الثمانونَ ، لَبلغَ بهَا الأُمْنِيَّةَ ، لِأَنَّ النَّاقَةَ فى ذلكَ الزَّمانِ كانَتْ رُبَّمَا اشْتُرِيَتْ بعَشْرَةِ دَرَاهِمَ . وفى بَعْضِ أَخْبَارِ الفرَزْدَقِ ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ مُلوكِ بَنِى أُمَيَّةَ أَعْطاهُ مِائةً مِنْ إبِلِ الصَّدَقةِ ، فَبَاعَها بِأَلْفٍ وَخَمْسمائةِ دِرْهَمٍ ، بَعْدَ ما عُنِىَ بهِ ، وَزِيدَ فى الثَّمَنِ .

الجمل فى زمن المنصور

وَقدْ مَرَّتْ بهِ الحِكَايَةُ الَّتِى يَذْكُرُها أَصْحَابُ التَّارِيخِ : « أَنَّ الجَمَلَ كانَ يُباعُ فى زمَنِ أبى جَعْفَرٍ المَنْصُورِ بدِرْهَمٍ ، وَأَنهُ صادَرَ قوْماً مِنْ أَصْحابهِ . وَكَانَتْ لَهُمْ نِعَاجٌ ، فَبَاعُوها ثَمانِىَ نِعَاجٍ بِدِرْهَمٍ » هَذا ما وُجِدَ بخَطِّ المَرْزُبَانِىِّ[(١)] فى تارِيخِ ابْنِ شَجَرَة .

فضــــل الذهب

وَهِىَ أَنْصَرُ[(٢)] مِنَ الثَّمانِينَ الَّتِى ذَكَرَها العَلوِىُّ البصرِىُّ فى قوْله :

عَبَرْتُ إِلَيْهِمْ فى ثَمانِينَ فارِسًا ... فَأَدْرَكْتُ مِنْهُمْ بُغْيَتِى وَمُرَادِيَا

لِلَّهِ دَرُّ الذَّهَبِ منْ خَليلٍ[(٣)] ، فإِنهُ يَفِى بِظِلٍّ ظَلِيلٍ ، ما هُوَ — كَغَيْرِهِ — بَالٍ .

---

(١) ترجمته فى ج ٢ ص ١٠٤ (٢) أكثر نصرة (٣) من أجمل ما قرأناه فى وصف الدينار مدحا وذما ، قول « الحريرى » فى مقامته الثالثة فى مدحه :

أكرم به أصفر — راقت صفرته ... جواب آفاق — ترامت سفرته
مأثورة سمعته وشهرته ... قد أودعت سر الغنى أسرته
وقارنت — نجح المساعى — خطرته ... وحببت — إلى الأنام — غرته
كأنما — من القلوب نقرته ... به يصول من حوته صرته
وإن تفانت — أو توانت — عترته !

والدُّرُّ إذا كُسِرَ ذَهَبَتْ قِيمتُهُ، وَرُبَّ ذَهَبٍ فِى سِوَارٍ، جُعِلَ فى خَلْخَالٍ، ثم نُقِل إلى جامٍ أو كاسٍ، وهو — بحسنه — ما تغير لبِشارِ النيرانِ!

ابنـــة أخته

وأما ابنةُ الأُختِ، فإنها أَدلَّتْ على الْخَالِ — إذْ كان أحدَ الوالديْن! ولا تجعلها أخْتاً لِلْهِجْرِسِ لأنه طَالَبَ خَالَه بثار، فلم يقبح ما فعل من الآثار

يا حبذا نضاره ، ونضرته وحبذا مغنـــاته ونصرته
كم آمر ، به استتبت إمرته ، ومترف ـ لولاه ـ دامت حسرته
وجيش هم ـ هزمته كرته ومستشيط ؛ تتلظى جمرته
أسرَّ بجواه ـ فلانت شرته ، وكم أسير أسلمته أسرته
أنقذه — حتى صفت مسرته
وحق مولى أبدعته فطرته ـ لولا التقى ـ لقلت: «جلت قدرته!»

* * *

ثم ذمه — بعد ذلك — فى المقامة نفسها — فقال :

تبًا له ! من خادع مماذق أصفر ـ ذى وجهين ـ كالمنافق
يبدو بوصفين ، لعين الرامق زينة معشوق ، ولون عاشق
لولاه ـ لم تقطع يمين سارق ولا بدت مظلمة من فاسق
ولا اشمأز من بخيل طارق ولا شكا المطول مطل العائق
ولا استُعيذ من حسود راشق وشر ما فيه من الخلائق
أن ليس يغنى عنك فى المضايق ، إلا إذا فر فرار الآبق

* * *

واهاً لمن يقذفه من حالق ، ومن ـ إذا ناجاه نجوى الوامق ـ
قال له — قول المحب الصادق —: « لا رأى فى وصلك لى ، ففارق ! »

« قاتل خاله »

ولكنْ تُشْبه أن تكونَ أختاً لابن مُضَرِّس – حين فاتَتْها الأخُوّة من الهجْرِس !

وهو المعروف بالحُتُوت ، واسمه « تَوْبَة » وكان له أخٌ يقال له : « طارقٌ » فقتله رَهْط خاله ، فرأى أن يقتلَ خالَه ، وقال :

بَكَتْ جَزَعاً أُمِّى « رُمَيْلَةُ » أن رأتْ ... دماً – مِنْ أَخِيهَا – فى المُهَنَّدِ بادِيَا

فَقُلْتُ لَهَا : « لاَ تجْزَعِى ، إنَّ طَارِقاً ... حَمِيمِى ، الذى كان الخليلَ المُصافِيَا »

« وَما كُنْتُ – لَوْ أُعْطِيتُ أَلْفَىْ نَجِيبَةٍ ... وَأَوْلاَدَها – لَغْواً[1] تُساقُ – وَرَاعِيا »

« لِأَرْضَى بِوِتْرٍ مِنْهُمْ – دُونَ أَنْ أَرَى ... دَماً مِنْ « بَنِى عَوْفٍ » عَلَى السَّيْفِ جَارِيا »

« وَمَا كَانَ فِى « عَوْفٍ » دَمٌ لَوْ أَصَبْتُهُ ... لِيُوفِيَنِى – مِنْ طَارِقٍ – غيرَ خَالِيا ! »

أدب الخؤولة

ويجوز أن يكون قد وَشَجَ إلى هذه المرأة شىء من أدبِ الخؤولَة ، فليتق معرَّةَ بيانها ، أكثر من اتقائه خُلسَةَ بنانِهَا !

فهو يعلم أن الشعرَ وَرِثَهُ « زُهَيْرُ بنُ أبى سُلْمىٰ » من خاله « بَشامَةَ بنِ الغَدِير » ولم يكن فى « مُزَيْنة » شعرٌ يُذْكر . وحضره « زُهَيْر » عند الوفاة ، فأراد أن يُعْطِيَه شيئاً من ماله ، فقال « بشامةُ » : « أَمَا يَكْفِيكَ أنى وَرَّثْتُكَ غَرَائِبَ القصيدِ ؟ »

غريزة المرأة

وربما كان فى نِساءِ «حَلَبَ» شَوَاعِرُ ، فلا يأمنُ من أَنْ تَكُونَ هذهِ منهنَّ ، فطالما كنَّ أَجْوَدَ غرَائزَ من رِجَالِهِنَّ !

---

(١) اللَّغو : ما لا يُعَدّ فى الدِّيَة ، قال جرير : « كما أُلغيت – فى الدِّيَة – الحُوارا » والحُوار : ولد الناقة من حين يرضع إلى أن يفطم و يفصل عن أمه .

وَحدَّث رجلٌ ضَريرٌ، من أهل « آمِدَ » يحفظ القرآنَ، ويأنَسُ بأشياءَ مِنَ الْعِلْمِ، أنه كان — وهو شاب — له امرأة مُقَيِّنَةٌ (تُزَيِّنُ النساء فى الأعراس) وكان يُنَجِّمُ على الطريق، وكانت لهُ قُرْعَةٌ(١) فيها أشعارٌ — كَنَحْوِ مَا يَكُونُ فى القُرَعِ — وكان يعتمدُ حِفْظَ تِلْكَ الأشعارِ ويدرسُها فى بَيْتِهِ — ولا غريزةَ لَهُ فى معرفةِ الأوْزَانِ، فيكسِرُ البيتَ، فتقول له امرأتُه الماشطةُ: « ويلى! ما هذا جَيِّدٌ! » فيلاجُّها — ويزعم أنها مخطئةٌ! . . .

فإذا أصبحَ مَضَى، فسأل من يَعْرِفُ ذلك، فأخبره بأن الصوابَ معَها، وعَرَّفَه كيف يجبُ أن يكونَ؛ فإذا لَقِنَهُ عَنْهُ، عاد فى الليلةِ الثَّانيـةِ، فذكرَهُ — وقد أُصْلِحَ — فتقول الماشطةُ: « هذا الساعةَ جَيِّدٌ »

*
* *

وكان لى كَرِىٌّ مِن أهل البادية يعرف بِعُلْوَانَ، وله امرأةٌ، تزعم أنها من « طَىّ » فكان لا يعرف موزونَ الأبياتِ من غيرِهِ، وكانت المرأة تُحِسُّ بذلك، وكانت تتأسَّف على طِفْلٍ مات لَهَا، يقال له: « لاَحِبٌ » وكانت تنشد هذا البيتَ:

« إذا كُنْتُ مِن جرَّا رَجيبكَ مُوجَعاً — فلا بُدَّ — يوْمًا — مِنْ فِرَاقِ حَبِيبِ

فقالت يوماً: « إذَا كنت من جرَّا رَجيب مُوجَعاً » فعلمتْ أن الوزنَ مختلٌّ، فقالت: « إذا كنت من جرَّا رَجيبٍ مُوجَعاً »، فحركت التنوينَ، وأنكرتْ تحريكه بالطبع، فقالت: « إذا كَنت من جرَّا رجيبكَ مُوجَعاً » فأضافته إلى الكاف، فاستقام الوزن واللفظ!

وفى الكتاب العزيز: « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا إنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ، وَإنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا، فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

(١) جراب .

أبو بكر الشبلي

وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ الشِّبْلِيُّ — رحمهُ اللهُ — فلاَ رَيْبَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ ، وأَرْجُو أَنْ يَكُونَ سَالِمًا مِنْ مَذْهَبِ الْحُلُولِيَّةِ ، وَأَنْشَدَنِي لَهُ مُنْشِدٌ :

« بَاحَ مَجْنُونُ عَامِرٍ بِهَوَاهُ   وَكَتَمْتُ الْهَوَى فَفُزْتُ بِوَجْدِي
وَإِذَا كَانَ فِي الْقِيَامَةِ نُودِي :   أَيْنَ أَهْلُ الْهَوَى؟ تَقَدَّمْتُ وَحْدِي! »

فَإِنْ صَحَّ أَنَّ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ لَهُ ، فَلاَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَعْتَرِضَ عَلَيْهِ قَائِلٌ ، فَيَقُولَ : « إِنَّ ادِّعَاءَهُ الانْفِرَادَ مِنَ الْعَالَمِ ، لاَ يُسَلِّمُهُ إِلَيْهِ الْبَشَرُ ، إِنْ كَانَ هَوَاهُ لِلْمَخْلُوقِينَ أَوِ الْخَالِقِ فَلَهُ فِي الْأُمَمِ نُظَرَاءُ كَثِيرٌ »

ختام الرسالة

وأنا أعتذرُ إلى مولاى الشيخ الجليل ، من تأخيرِ الإجابةِ ، فإن عوائقَ الزمنِ منعت من إمْلاءِ السَّوْدَاء ، وأنا مستطيعٌ بغيرى ، فإذا غاب الكاتبُ فلا إملاء ؛ ولا ينكرُ الإطالة علىَّ ، فإن الخالص من النُّضَارِ ، طالما اشْتُرِىَ بأَضْعَافِهِ — فى الزِّنَةِ — من اللُّجَيْنِ ، فكيف إذا كان الثمن من النُّفَيَّاتِ[1] اللائى يوجدن فى الطرق مَرْمِيَّات؟

وعلى حضْرَتِهِ الجليلةِ سلامٌ ، يتبع قرومه[2] فالَهُ[3] ، وتلحق بعُوذه[4] أطْفَالَه .

﴿ تمت رسالة الغفران ، وانتهى الجزء الثالث ﴾

---

(١) جمع نفية وهى ما تنفيه الحوافر من حصى وغيره ، ومعناها هنا الأشياء الحقيرة التافهة   (٢) جمع قرم وهو البعير أو الفحل   (٣) جمع أفيل وهو صغير الإبل

(٤) جمع عائذ وهى الناقة الحديثة العهد بالنتاج .

الجزء الرابع

نصوص ودراسات

مُلقى السَّبيل[1]

١ – كَمْ يَجْنِي الرَّجُلُ وَيُخْطِئُ ، وَيَعْلَمُ أَنَّ حَتْفَهُ لَا يُبْطِئُ :
إنَّ الْأَنَامَ لَيُخْطِئُونَ ، وَيَغْفِرُ اللهُ الْخَطِيئَه

---

(١) قبسنا هذه الرسالة من رسائل البلغاء التى جمعها الأستاذ محمد كرد على بك ، وعنينا بضبطها وشرحها ، ورد المحرف فيها إلى وجهه .

وقد مهد لهذه الرسالة سعادة ناقلها أمير اللواء حسن حسنى عبد الوهاب حاكم نابُل فى تونس ، بمقدمة كتبها فى العاشر من ربيع الأول عام ١٣٢٩ نقتطف منها ما يلى :

« أما النسخة التى اعتمدنا عليها فى النقل فهى محفوظة بمكتبة الاسكريال من بلاد الأندلس تحت نمرة ٤٦٧ ، وهى بخط الراوى لها القاضى الامام الشريف أبى محمد عبد الله ابن القاضى أبى الفضل عبد الرحمن بن يحيي الديباجي العثمانى ، رسمها بالاسكندرية أوائل القرن السادس ، وقد اعتنى برسمها وضبط جملها بطريقة ثابتة مدققة . وهى – فيما اعتقده – أقدم نسخة لملقى السبيل ، ولا يبعد أن تكون هى التى عول عليها أدباء الأندلس فى معارضاتهم لها فقد جاء فى نفح الطيب : أن الحافظ أبا الربيع الكلاعى الأندلسى المتوفى بالجهاد سنة ٦٣٤ هـ . عارض هذه الرسالة بتأليف سماه : « مفاوضة القلب العليل ، ومنابذة الأمل الطويل ، بطريقة المعرى فى ملقى السبيل » . كما تحتوى مكتبة الأسكريال نفسها على كتاب (نمرة ٥١٩) من وضع الكاتب الشهير أبى عبد الله محمد بن أبى الخصال وزير يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين ، عارض به « ملقى السبيل » أيضاً . ومن جهة أخرى يوجد بمقدمة النسخة التى لدينا – وهى كما قدمنا صورة فوتوغرافية من الأصل الأندلسى – كثير من الإجازات تنبئ بقراءة هذه الرسالة على أساتذة متضلعين ، تلتحق رواياتهم بالراسم الأول ، نعنى عبد الله الديباجي . وأقدم توقيع من هذا النمط مؤرخ سنة ٥٦٢ ، وهو مما يستدل به أيضاً على اهتمام الأندلسيين بتآليف المعرى . »

كَمْ يُبْطِئُونَ عَنِ الْجَمِيـــلِ ، وما مناياهم بَطِيئَهْ[1]

٢ — ابْنُ آدَمَ فى سَيْرٍ وَسُرَى ، يَهْجُرُ — بِحِرْصِهِ — الْكَرَى ، وَطَالَمَا كَذَبَ وَافْتَرَى ، لِيَصِلَ إِلَى خَسِيسِ الْقِرَى ، وَإِنَّمَا يَحْصُلُ عَلَى الثَّرَى ، كَأَنَّهُ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَرَى :

أَمَا يُفِيقُ الْمَرْءُ مِنْ سُكْرِهِ   مُجْتَهِدًا فى سَـيْرِهِ وَالسُّرَى[2]
نِمْتَ عَنِ الْأُخْرَى ، فَلَمْ تَنْتَبِهْ[3]   وَفِى سِوَى الدِّينِ هَجَرْتَ الْكَرَى[4]
كَمْ قَائِلٍ ، رَاحَ إِلَى مَعْشَرٍ   أَبْطَلَ فِيمَا قَالَهُ وَافْـتَرَى[5]

---

(١) ألم أبو العلاء بهذا المعنى فى صور شتى ، فقال فى هذه الرسالة (ص ٣٣٧) :

« يجوز أن تبطىء المنايا   والخلد — فى الدهر — لا يجوز »

وقال فى لزومياته :

« همُ أسارى مناياهم ، فما لهمُ   إذا أتاهم أسير لا يفكونه ؟ »

وقال : « أيعلم الليث لما راح مفترساً   بأنه — عن قريب — سوف يفترس ؟ »

(٢) السرى : السير ليلا   (٣) قال أبو العلاء :

فما نفيق من السكر المحيط بنا   إلا إذا قيل : هذا الموت قد جاء

(٤) قال فى وصف الواعظ الكاذب :

« يقول : لقد غدوت بلا كساء   وفى لذاته رَهَنَ الكساء ! »

(٥) قال أبو العلاء :

يغدو إلى المين من قلّت دراهمه   فيجمع المال ما يفرى و يختلق

وقال : طلب الخسائس ، وارتقى فى منبر   يصف الحساب لأمـة لِيَهُولها

وقال : و يكون غير مصدق بقيامة   أضحى يمثل فى النفوس ذهولها

وقال : لا يعجبنْك خطيب قام فى ملإٍ   بخطبة زان معناها وطوّلها

فما العظات — وإن راعت — سوى حيل   من ذى مقال على ناس تحوّلها

عَلَى الْقَـرَا[1] يَحْمِلُ أَثْقَالَهُ ... وَإِنَّمَا يَأْمُلُ نَزْرَ الْقِـرَى[2]
يَفْتَقِرُ الْحَىُّ ، وَيُثْرِى ، وَمَا ... يَصِيرُ إِلَّا جَثْوَةً[3] فِى الثَّرَى
اسْمَعْ ، فَهَـذَا قَائِلٌ صَادِقٌ ... أَرَاكَ عُقْبَاكَ ، فَهَلَّا تَرَى ؟

٣ — يَفْتَقِرُ — إِلَى اللهِ — الْأَرْبَابُ[4] ، وَبِالْكَافِرِ يَحُلُّ التَّبَابُ[5] ، وَتَنْقَطِعُ — بِالْمَوْتِ — الْأَسْبَابُ ، وَفِى الْخَالِقِ تَحَارُ الْأَلْبَابُ[6] :

دَانَتْ — لِرَبِّ الْفَلَكِ — الْأَرْبَابُ ... وَبِالْكُفُورِ[7] يُلْحَقُ التَّبَـابُ
كَمْ قُطِعَتْ — لِمَيْتَةٍ — أَسْبَابُ ... وَافْتَرَقَتْ — بِرَغْمِهَا — الْأَحْبَابُ[8]

---

(١) على الظَّهْرِ (٢) قال المعرى :

و إنما حمل التوراة قارئها ... حبُّ الإناوة ، لا حب التلاوات

(٣) كومة ، يقال : « صار فلان جَثوة من تراب » أى كومة منه ، وقريب منه قوله :

« جاران : ملْك ومسكين، أتى زمن ... عليهما ، فتساوى البؤس والترف! »

(٤) قال أبو العلاء :

« إلٰه الأنام ، ورب الغمام ... لنا الفقر دونك ، والملك لك ! »

(٥) البوار والخسران (٦) قال أبو العلاء :

« تعالى الله ، وهو أجل قدراً ... من الإخبار عنه بالتعالى ! »

وقال : « تعالى الله ، وهو بنا خبير ... قد اضطرت ـ إلى الكذب ـ العقول
نقول ـ على المجاز ـ وقد علمنا ... بأن الأمر ليس كما نقول »

وقال : « و إن إلهى ـ إلٰه السماء ـ ... ورب النجوم ، ورب الفلك
سألت المحدث عن أمره ، ... فما زال يهرف حتى ارتبك »

(٧) الكفور والكفران : ضد الإيمان (٨) قال أبو العلاء :

« حلف الدهر جاهداً ... وهو برٌّ إذا حلف
ليبُتَنّ كل عِقـ ... ـد ، إذا نظمه ائتلف »

وقال : « صاح الزمان ، فعاد الجمع مفترقا ، ... كالضأن لما أحست صوت رئبال »

٤ — النَّفْسُ تَصَرَّفَتْ وَانْصَرَفَتْ ، وَالْأَعْضاءُ تَأَلَّفَتْ ثُمَّ تَلِفَتْ[١] ، وَالْأَقْضِيَةُ — بِحَقٍّ — هَتَفَتْ : ما أُعْفِيَتِ الْمَحَلَّةُ لَكِنْ عَفَتْ ، كَمْ شُفِيَتِ الْمُدْنَفَةُ فَمَا اشْتَفَتْ :

نَفْسُ الْفَتَى — فِى دَهْرِهِ — تَصَرَّفَتْ ، وَانْصَرَفَتْ
تَأَلَّفَتْ أَعْضَاؤُهُ وَافْتَرَقَتْ إِذْ تَلِفَتْ
أَقْضِيَةُ اللهِ دَعَتْ فَأَسْمَعَتْ إِذْ هَتَفَتْ :
مَا أُعْفِيَتْ دِيَارُهُمْ مِنَ الرَّزَايَا ، بَلْ عَفَتْ[٢]
كَمْ شُفِيَتْ[٣] مَرِيضَةٌ — مِنْ مَرَضٍ — فَمَا اشْتَفَتْ

---

(١) قال أبو العلاء :

« جواهر أَلَّفتها قدرة عجب وزايلتها فعادت مثل أعراض »
وقال : « أرى جوهراً حل فيه عرض تبارك خالقنا : ما الغرض »
وقال : « وعزيز علىَّ خلط الليالى رِمَّ أقدامكم برم الهوادى »
وقال : « كم صائن عن قبلة خده سلطت الأرض على خده
وحامل ثقل الثرى جيده وكان يشكو الضعف من عقده »
وقال : « نفس الفتى وليت له جسدا ولكل وال بعده عزل »
وقال : « والجسم للروح دار طالما لقيت هدماً ، وحق لرب الدار تحويل »

(٢) قال أبو العلاء :

« أرواحنا ظَلمت ، فتلك بيوتها دُرُس خوين من الضغائن والحسد »
وقال : « وقد أَهِلَت — بالخنا — دوركم فلا أبعد الله إقفارها »

(٣) أى : كم طلب لها الشفاء .

٥ – مِنْ أَعْظَمِ الْحَدَثِ ، سُكْنَى الْجَدَثِ[١] :

يَدُومُ الْقَدِيمُ إِلَهُ السَّمَاءِ وَيَفْنَى – بِإِقْدَارِهِ – مَا حَدَثْ
وَمَا أَرْغَبَ الْمَرْءَ فِى عَيْشِهِ[٢] وَلَكِنْ قُصَارَاهُ سُكْنَى الْجَدَثْ

٦ – الْعَجَبُ بِجَاهِلٍ مُدَاجٍ ، يَأْسَفُ لِبَيْنِ الْأَحْدَاجِ ، وَيَعْصِى الْمَلِكَ وَاللَّيْلُ دَاجٍ ، وَمَا هُوَ مِنَ الْحَتْفِ بِنَاجٍ :

يَأَيُّهَا الْغَافِلُ الْمُدَاجِى وَلَيْلُهُ – بِالسَّفَاهِ – دَاجِى
كَأَنَّمَا عَيْنُهُ – إِذَا مَا تَحَمَّلَ الْحَىُّ – فِى زُجَاجِ
كَمْ أَعْمَلَ النَّاجِيَاتِ[٣] حِرْصًا وَلَيْسَ مِنْ حَتْفِهِ بِنَاجِ
رَجَا أُمُورًا ، فَلَمْ تُقَدَّرْ وَكُلُّ مَا فِى الْحَيَاةِ رَاجِى[٤]

---

(١) قال أبو العلاء :

« من أعظم الأحداث وضعك غابرا فى الترب ، يأكله تراب أغبر »
وقال : « يهال التراب على من ثوى فآه من النبأ الهائل »

ارجع إلى رأيه فى الموت (ج ٣ ص ٢٠٥) من هذا الكتاب

وقال : « سيموت محمود ، ويهلك آلك ويدوم وجه الواحد الخلاق »
وقال : « تفادى نفوس العالمين من الردى ولا بد للنفس المشيحة من أخذ »

(٢) قال أبو العلاء :

« والنفس آلفة الحياة ، فدمعها يجرى – لذكر فراقها – منهلُّهُ »
وقال : « يُسِيءُ امرؤ منا فيبغض دائماً ودنياك ما زالت تسيءُ وتومَق
أسرَّ هواها الشيخ والكهل والفتى بجهل ، فمن كل النواظر ترمق
وما هى أهل أن يؤهل مثلها بود ولكن ابن آدم أحمق »

(٣) الناجيات : مفردها ناجية ، وهى الناقة السريعة تنجو بمن ركبها (٤) قال أبو العلاء :

« أنشأت تطلب منها غير مسعفة وما لها – أيها الإنسان – أنشيتا »

٧ — إنَّ ابْنَ آدمَ لشَحِيحٌ(١)، سوْفَ يَمْرَضُ — مِنَ الْقوْمِ — صَحِيحٌ، تَعْصِفُ — بِعَقْلِهِ — رِيحٌ، فإذَا هُوَ لَقًى طَرِيحٌ، ثُمَّ يُحْفَرُ لَهُ ضَرِيحٌ، إنَّ ذَلكَ لَهُوَ التَّبْرِيحُ:

يَأيُّهَا الْمُمْسِكُ الشَّحِيحُ ... سَيَمْرَضُ السَّالِمُ الصَّحِيحُ
مَالَكَ: لَمْ تَنْتَفِعْ بِعَقْلٍ؟ ... هَلْ عَصَفَتْ ـ بالْعُقُولِ ـ رِيحُ(٢)؟
إنْ شُيِّدَ الْقَصْرُ ـ فى سُرُورٍ ـ ... فَبَعْـــدَهُ يُحْفَرُ الضَّرِيحُ
يَطَّرِحُ الْهَمَّ بِالْمَنَــايَا ... مَنْ جِسْمُهُ فى الثَّرَى طَرِيحُ(٣)

---

(١) قال: « فَفَرِّق مالك الجمـــا ... وخل الأرض تســبيلا »
وقال: « يود الفتى أن الحياة بسيطة ... وأن شقاء العيش ليس يبيد »
وقال: « تبغى ـ من الآمال ـ ذلة مسعف ... تلك المصاعب أتعبت من راضها »
وقال: « حسبتم ـ يا بنى حواء ـ أمرا ... فجاءكم الذى لم تحسبـــوه »
وقال: « بينا امرؤ يتوقى الذئب عن عرض ... أتاه ليث ـ على العلات ـ يفترس »
وقال: « قر البخيل، فأمسى من تحفظه ... يلقى على الجسم ديناراً فدينارا
يشكو الشتـاء فيرجو أن يدفئه ... أوقد صلاءك، ليس العسجد النارا! »
وقال: « ولبئس نفس المرء نفس حسنت ... فعل القبيح له، فنص شنـارها
ورهاء مفسدة أهانت عرضهـا ... حتى أصيب، وأكرمت دينارها »
وقال: « لُعن الحرص، كم تحكرت قوتاً ... ثم خلفت بره والشــعيرا »

(٢) قال: « يتحارب الطبع الذى مزجت به ... مهج الأنام وعقلهم فيفـــله
ويظل يعمل ما ســناه بنافع ... كالشمس، يسترها الغمام وظله »
وقال: « حجى مثل مهجور المنازل داثر، ... وجهل كمسكون الديار مشــيد
لقد ضل حلم الناس ـ مذ عهد آدم ـ ... فهل هو من ذاك الضلال نشيد؟ »
وقال: « نكذب العقل فى تصديق كاذبهم ... والعقل أولى بإكرام وتصديق »

(٣) قال: « الموت حظ لمن تأهـله ... وليس فى العيش ـ إن تؤمل ـ حظ »

٨ — بَكى عَلَى الْمَيِّتِ — مُواخٍ ، كَأَنَّ أَجلَهُ فِى تَراخٍ ، فَلْتُنْهَ الْباكِيَة عَنِ الصُّراخِ(١) :

فِى اللهِ آخى فَتًى لَبِيبٌ وَأَسْلَمَ الْهَالِكَ الْمُوَاخِى
بَكَى عَلَيْهِ ، فَهَلْ تَراهُ فِى أَجَلٍ دَائِمِ التَّرَاخِى
اُعْتَقِدِ الْحَقَّ ، وَاعْتَمِدْهُ ، لا تَزْرَعِ الْحَبَّ فِى السِّبَاخِ !

٩ — أَمَّا بَصَرُكَ فَحَدِيدٌ ، وَأَمَّا ثَوْبُكَ فَجَدِيدٌ ، وَظِلُّكَ — بِقَضاءِ اللهِ —

وقال : « إذا غدوت - ببطن الأرض - مضطجعاً فثم أفقد أوصابى وأمراضى »
وقال : « لما ثوت فى الأرض — وهى لطيفة — أجسادنا ، أمنت من الأحداث
لم يستريحوا من شرور ديارهم إلا برحلتهم إلى الأجداث »
وقال : « جدث أريح وأستريح بلحده خير من القصر الذى آذى به »
وقال : « أصبح فى لحدى — على وحدتى — لست إلى الدنيا بمحتاج »
وقال : « ما أعدل الموت من آت وأستره فيهيجنى ، فإنى غير مهتاج
العيش أفقر منا كل ذات غنى والموت أغنى — بحق — كل محتاج
إذا حياة علينا للأذى فتحت باباً من الشر لاقاه بإرتاج »
وقال : « لـكونك خلك فى رمس ، أعز له من أن يكون مليكا عاقد التاج
فالملك يحتاج ألآفاً لتنصره والميت ليس — إلى خلق — بمحتاج »

(١) قال أبو العلاء :

« لو يعقلون لهنوا أهل ميتهم ولم تقم لوليد فيهم البُشَر »
وقال : « إذا مات ابنها صرخت بجهل وماذا تستفيد من الصراخ ؟
ستتبعه — كعطف الفاء — ليست بمهل ، أو كثمّ على التراخى »
وقال : « لا تلفين على من مات ملتهفاً فالناشئات — إذا طال المدى — عُجُزُ »

مَدِيدٌ، وَحَوْلَكَ الْعُدَدُ وَالْعَدِيدُ، وَلَكِنَّكَ سِوَاكَ السَّدِيدُ. طَرَقَكَ وَعْدٌ وَوَعِيدٌ، فَهَلْ تُبْدِئُ وَهَلْ تُعِيدُ، أَمْ غَيْرُكَ (١) هُوَ السَّعِيدُ؟ :

أَرَى مَلِكًا (٢) تَحُفُّ بِهِ مَوَالٍ ... لَهُ نَظَرٌ إِلَى الدُّنْيَا جَدِيدُ
ضَفَا بُرْدُ الشَّبَابِ عَلَيْهِ حَتَّى ... مَضَتْ حِقَبٌ، وَمَلْبَسُهُ جَدِيدُ
يَزُولُ الْقَيْظُ - فِي صَيْفٍ وَمَشْتًى - ... وَيَسْتُرُ شَخْصَهُ ظِلٌّ مَدِيدُ
وَفَتْ عُدَدٌ لَدَيْهِ، فَمِنْ دُرُوعٍ ... وَأَسْيَافٍ، يَنُوءُ بِهَا عَدِيدُ
وَكَانَ السَّعْدُ صَاحِبَهُ زَمَانًا ... وَلَكِنْ طَالَمَا شَقِيَ السَّعِيدُ
بَدَا شَخْصُ الْمَنُونِ لِنَاظِرَيْهِ ... وَقِيلَ لَهُ: أَتُبْدِي؟ أَمْ تُعِيدُ؟
تَفَرَّقَتِ الْجُنُودُ، فَمَا حَمَتْهُ (٣) ... وَأُبْطِلَتِ الْمَوَاعِدُ وَالْوُعُودُ

---

(١) فى الأصل : « غريك » فأصلحناه كما ترى

(٢) قال : « كم أمير أُمير فى عاصفات ... بعد ما حاب فى الحياة وحابى »
وقال : « فكم ملك شيد المكرمات ... ونال بها الصيت ، ثم انقرض »

(٣) قال : « تشاد المغانى ، والقبور دوارس ... وما يمنع المطروق باب وحارس »
وقال : « إن دنا من فارس أجل ، ... حار لا يجرى به الفرس
كل من حانت منيته ... لم تدافع دونه حرس »
وقال: « وما منعت عن الملك المنايا ... مقانِبُه ولا متكتبوه »
وقال: « لا يمنع الملك الجبار من قدر ... يغير الحال ، ما أجدى وما جاسا
ولو غدا الكوكب المريخ فى يده ... كالسهم ، واتخذ البرجيس برجاسا »
وقال: « هو الموت ، مثر عنده مثل مكثر ... وقاصد نهج مثل آخر ناكب
ودرع الفتى - فى حكمه - درع غادة ... وأبيات كسرى من بيوت العناكب! »

١٠ – أَمَّا الْعَيْشُ النَّاعِمُ فَيَلَذُّ، وَلَكِنَّ سَبَبَهُ يُجَذُّ:

يَلَذُّ الْفَتَى غَفَلَاتِ الْحَيَاةِ وَلَيْسَ بِمُتَّصِلٍ مَا يَلَذّْ
يَمُدُّ لَهُ الظَّنُّ آمَالَهُ وَلَكِنَّهَا – عَنْ قَلِيلٍ – تُجَذّْ(١)

١١ – الْعَاجِلَةُ سَبِيلٌ مَنْفُوذَةٌ، وَهِيَ – عِنْدَ أَهْلِ الرُّشْدِ – مَنْبُوذَةٌ، وَالْأَنْفُسُ – بِحَقٍّ – مَأْخُوذَةٌ، لَا الدِّرْعُ تَنْفَعُ وَلَا الْخُوذَةُ:

أُنْفُذْ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَا تَلْتَفِتْ فَإِنَّهَا – بِالْعُنْفِ – مَنْفُوذَهْ(٢)
حَازَتْكَ فَانْبُذْهَا إِلَى أَهْلِهَا فَهْيَ لَدَى الْأَخْيَارِ مَنْبُوذَهْ
وَلَا تَمَسَّكْ بِحِبَالٍ لَهَا تُصْبِحُ – فِي كَفَّيْكَ – مَجْذُوذَهْ(٣)
مَأْخُوذَةٌ مَانِعَةٌ فِي الْوَرَى نَفْسٌ – بِحُكْمِ اللهِ – مَأْخُوذَهْ
لَا سَقْيَةٌ أَغْنَتْ، وَلَا رُقْيَةٌ وَلَا تَمِيمَاتٌ وَلَا عُوذَهْ(٤)

١٢ – لَقَدْ هُجِرَتِ الْخُدُورُ، وَغَدَرَ بِهَا الزَّمَانُ الْغَدُورُ، فَإِذَا الْخِدْرُ

---

(١) قال: « فما نفيق من السكر المحيط بنا إلا إذا قيل: هذا الموت قد جاء »
وقال: « ورب نفس أصابت عيشة رغداً لو لم تبت من مناياها على خطر »
(٢) قال: « رأى بنو الحزم أن العيش فائدة، حتى استبانوا، فقالوا: «حبذا التلف»
وقال: « صحبنا دهرنا دهراً، وقِدْماً رأى الفضلاء ألا يصحبوه »
(٣) قال: « فإن حبال العيش ما علقت بها يد الحى، إلا وهى تخشى انقضابها »
وقال: « نهار وليل عوقبا، أنا فيهما كأنى – بخيطىْ باطل – أتشبث »
(٤) قال: « صوارمهم علقت بالكشوح مكان تمائمهم والعوذ
وما يمنع الخائفين الحما م لبس دروعهم والخوذ »

عِوَضُهُ قَبْرٌ(١)، هَلْ يَنْفَعُكَ جَزَعٌ أَوْ صَبْرٌ ؟ .

مِنْ بَارِئِكَ يَجْرِى الْمَقْدُورُ، وَتَفْنَى الشُّهْبُ وَالْبُدُورُ :

تُظْهِرُ أَسْرَارَهَا الْخُدُورُ بِمَا قَضَى الْوَاحِدُ الْقَدِيرُ

كَمْ دَارَ – فِي خَاطِرٍ – ضَمِيرٌ مِنْ فَلَكٍ دَائِبٍ يَدُورُ

وَضَاقَ صَدْرٌ بِمُشْكِلَاتٍ تَضِيقُ – عَنْ مِثْلِهَا – الصُّدُورُ

يَثْبُتُ فَرْدٌ بِلَا نَظِيرٍ(١) وَتَهْلِكُ الشُّهْبُ وَالْبُدُورُ(٢)

١٣ – لَا تَبْرُزِى يَا غَانِيَهْ، فَإِنَّهَا الدَّارُ الْفَانِيَهْ، سَتَرَكِ – بِكِلَّةٍ – وَالِدَاكِ، فَلْتُمْسِكْ – بِالنُّسْكِ – يَدَاكِ.

---

(١) قال : « يعطل منزل، ويزار قبر وما تبقى الديار، ولا القبور »

(٢) وفى رواية : بلا قرين

(٣) قال : « وما أظن المنايا تخطو كواكب جربه
ستأخذ النسر والغفـ ـر والسماك وتربه »
فتشن عن كل نفس شرق الفضاء وغربه
وزرن عن غير بر عجم الأنام وعربه »

وقال : زحل أشرف الكواكب دارا من لقاء الردى على ميعاد

وقال : « إذا نزل المقدار لم يك للقطا نهوض، ولا للمخدرات إباء »

وقال : « والموت ينسى كمى الحرب صارمه ودرعه، وفتاة الحى مِجْوَلها
ويسترد من النفس التى شرفت ما كان فى سالف الأيام خولها »

وقال : «ولنار – المريخ من حدثان الد هر – مطفٍ، وإن علت فى اتقاد
والثريا رهينة بافتقاد الشمـ ـل حتى تعد فى الأفراد »

وقال : « يجوز أن تطفأ الشمس التى وقدت من عهد عاد، وأذكى نارها الملك
فإن خبت فى طوال الدهر جمرتها فلا محالة من أن ينقض الفلك »

اَلْوَرَعُ ذَهَبٌ إِبْرِيزٌ[١] ، وَالْجَدَثُ حِرْزٌ حَرِيزٌ ، قَدْ تَهْلِكُ فَتَاةٌ رُودٌ ، وَتَلْبَثُ مُسِنَّةٌ تَرُودُ :

يَمُوتُ قَوْمٌ وَرَاءَ قَوْمٍ[٢] وَيَثْبُتُ الْأَوَّلُ الْعَزِيزُ

كَمْ هَلَكَتْ غَادَةٌ كَعَابٌ وَعُمِّرَتْ أُمُّهَا الْعَجُوزُ

أَحْرَزَهَا الْوَالِدَانِ خَوْفاً وَالْقَبْرُ حِرْزٌ لَهَا حَرِيزُ

يَجُوزُ أَنْ تُبْطِئَ الْمَنَايَا وَالْخُلْدُ ـ فِي الدَّهْرِ ـ لَا يَجُوزُ[٣]

١٤ — يَا بْنَ آدَمَ : كَمْ تَحْرُسُ وَتَحْتَرِسُ ، وَالْمَوْتُ أُسْدٌ تَفْتَرِسُ . وإِنْ كُنْتَ بِجَبَلٍ أَوْ وَادٍ ، فَإِنَّ الْأَوْدِيَةَ مِثْلُ الْأَطْوَادِ ، يَسْمَعُهَا مِنَ اللهِ دَاعٍ ، جَلَّ رَبُّ الْعَظَمَةِ وَالِابْتِدَاعِ :

أَيَحْتَرِسُ الْمَرْءُ مِنْ حَتْفِهِ وَمَا حَادَ ـ عَنْ يَوْمِهِ ـ الْمُحْتَرِسْ[٤]

---

(١) قال : «ذوو النسك خير الناس فى كل موطن وزيهم ـ بين المعاشر ـ خير زى »

(٢) قال : « وكم درست هذى البسيطة عالما وعالم جيل من عوائده الدرس »

(٣) قال : « كيف يبقى فرع نابتة أصلها ـ فى الموت ـ مفترس ؟ »

وهذا قريب من قول أبى نواس :

« وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب فى الهالكين عريق ! »

وقال المعرى :

« لو كنت كالقمر المنير أو الغزالة ، وهى أكبر

لعلمت أنى للثرى أدعى ، وأنى فيه أُقبر »

(٤) قال : « يهاب الناس إيجاف المنايا وهل حاد القضاء عن الهيُوب ؟ »

هَلِ النَّاسُ إلاَّ نَظِيرُ السَّوَا ـمِ ، وَآجَالُهُمْ أُسُدٌ تَفْتَرِسْ
يَحُلُّ الرُّبَى ، وَيَحُلُّ الْوُهُو دَ ، وَلاَ بُدَّ لِلرَّبْعِ أَنْ يَنْدَرِسْ

١٥ — لاَ تَكُ ذَا طَيْشٍ ، وَاُعْجَبْ لِمَا ذَهَبَ[١] مِنَ الْعَيْشِ . مَا فَعَلَ آدَمُ وَبَنُوهُ ؟ كَمْ أَدْرَكَ الثَّمَرَ مُجْتَنُوهُ . يُبْدِى التَّوَفُّرَ أَخُو الْمَعِيشَهْ ، وَالْجَبَلُ[٢] مِثْلُ الرِّيشَهْ . اَلْمَنْزِلُ لِأَمْرٍ مَعْرُوشٌ ، وَبِالْقَدَرِ تُثَلُّ الْعُرُوشُ :

أَيْنَ مَضَى « آدَمُ » وَ « شِيثُ » وَأَيْنَ — مِنْ بَعْدِهِ — أَنُوشُ[٣]
مَرَّ أَبِي تَابِعًا أَبَاهُ[٤] وَمُدَّ وَقْتٌ ، فَكَمْ أَعِيشُ
لاَ مُلْكَ إلاَّ لِرَبِّ عَرْشٍ تُثَلُّ — عَنْ أَمْرِهِ — الْعُرُوشُ
خَفَّ — مِنَ الْخَوْفِ — كُلُّ طَوْدٍ حَتَّى كَأَنَّ الْجِبَالَ رِيشُ

وقال : « والموت حاس ما تعيَّف آجنا وتضيف الأعراب والأنباطا »
وقال : « يحلف : لا يبقى على واحد وبر — فى إيمانه — الحالف »
وقال : « الناس مثل غمام جاد وابله والناس يدعون—لو أغنى الدعاء— : «قطِ»
وقال : « وتأكلنا أيامنا ، فكأنما تمر بنا الساعات ، وهى أسود »

(١) وفى رواية : « وهب » (٢) لعل الصواب : «والجبل — من الخوف — مثل الريشة»
(٣) قال المعرى :

« لقد نأشَ الأقوامُ فى الدهر مُخْلَصًا وعادوا بلا نجح ، فكيف تنوش
وآدم ولى — عن بنيه — بحسرة ، وودع شيث أهله وأنوش »

ويقال : « أول من خدش الخدوش أنوش »

(٤) قال : « وما الناس إلا خالف بعد سالف كذلك نبت الأرض يتبعه النبت »

تَطِيشُ نَبْلُ الرُّمَاةِ مِنَّــا وَأَسْهُمُ الْحَتْفِ لاَ تَطِيشُ[1]
وَلَمْ يَزَلْ لِلْمَنُونِ جَيْشٌ تُفَلُّ - مِنْ ذِكْرِهِ - الْجُيُوشُ[2]
يَحُثُّ بِالنَّعْشِ حَامِــلُوهُ ، وَشَدَّ مَا سَارَتِ النُّعُــوشُ
لاَ حَبَّــذَا الإِنْسُ وَالْخَطَايَا وَحَبَّــذَا النُّسْكُ وَالْوُحُوشُ

١٦ — الْمَرْءُ - عَمَّا وَجَبَ - نَاكِصٌ ، وَالشَّخْصُ - لِلْحَدَثِ - شَاخِصٌ ، إِنَّ ظِلَّ الْفَانِيَةِ لَقَالِصٌ ، فَهَلْ خَلَصَ - إِلَى اللهِ - خَالِصٌ[3] ؟

إِنَّ دِينَكَ لَوَدِيعَةٌ فِي الْمَحَارِ ، إِنَّمَا يُدْرَكُ بِغَوْصِ الْبِحَارِ .

وَعُدِمَ دِينٌ فِي الْأَنَامِ ، وَكَانَ كَالْحُلْمِ فِي الْمَنَامِ :

مَنِ ادَّعَى النُّسْكَ عَلَى غِرَّةٍ فَقُلْ لَهُ : « مَا صَدَقَ الْخَارِصُ »
وَالنُّسْكُ مِثْلُ النَّجْمِ - فِي بُعْدِهِ - وَالْخَلْقُ - أَنْ يَبْلُغَهُ - نَاكِصُ
كَالدُّرَّةِ الْعَذْرَاءِ[4] ، مَا نَالَهَا إِلاَّ امْرُؤٌ - فِي بَحْرِهَا - غَائِصُ

---

(١) قال : « أما ترين قسيّ الدهر وتّرها رام مصيب أعار النبل تفويقا »
من قصيدة أولها :
« قل للحمامة قد أصبحت شادية فهجت للذاكر المحزون تشويقا
كساك ربك ريشاً تدفعين به قر الشتاء ، وحلى الجيد تطويقا
فهل تراعين من باز على شرف يهدى إليك عن الفرخين تعويقا »
(٢) قال : « ودرع الفتى - فى حكمه - درع غادة وأبيات كسرى من بيوت العناكب »
(٣) قال : « وأقسم ما فى عالم الأرض زاهد بقلب ، ولا الرهبان أهل الصوامع »
(٤) وفى رواية : « الغراء »

فِي لُجَّةٍ قَامِصَةٍ سُفْنُهَا (١) ، وَيُصْرَعُ ٱلْمُسْتَمْسِكُ ٱلْقَامِصُ
تَلْعَبُ ـ بِٱلْأَلْوَاحِ ـ أَمْوَاجُهَا ، كَأَنَّمَا مَرْكَبُهَا رَاقِصُ (٢)
نَحْنُ كَنَبْتٍ ، عَامُهُ مُجْدِبٌ وَمَاؤُهُ مُسْتَنْكَرٌ نَاقِصُ

١٧ - دِينُكَ عَنَّاهُ ٱلْمَرَضُ (٣) ، ضَاعَتِ ٱلنَّافِلَةُ وَٱلْمُفْتَرَضُ ، وَخَدَعَكَ هَذَا ٱلْعَرَضُ ، وَجِسْمُكَ ضَعِيفٌ حَرَضٌ ، لَقَدْ بَعُدَ مِنْكَ ٱلْغَرَضُ ، وَسَوْفَ يُطْلَبُ ٱلْمُفْتَرَضُ :

دِينُكَ مُضْنًى أَصَابَهُ سَقَمٌ وَٱلْخُسْرُ فِي أَنْ يُمِيتَهُ ٱلْمَرَضُ
وَهَلْ تُرَجَّى لَدَيْكَ نَافِلَةٌ مِنْ بَعْدِ مَا ضَاعَ مِنْكَ مُفْتَرَضُ
غَرِضْتَ مِنْ هَذِهِ ٱلْحَيَاةِ ، فَهَلْ غَرَّكَ — فِيمَا تَرُومُهُ — غَرَضُ ؟
تَمِيلُ — مِنْ جَوْهَرٍ — إِلَى عَرَضٍ ، وَالرُّوحُ — فِي جَوْهَرِهَا — عَرَضُ
حَرَّضَكَ ٱلشَّيْبُ أَنْ تَتُوبَ ، فَمَا تُبْتَ ، فَهَلَّا يَذْكُرُ ٱلْحَرِضُ
أَقْرَضْتَ عُمْراً ، فَمَا صَنَعْتَ بِهِ سَوْفَ يَرُدُّ ٱلْأَنَامُ مَا ٱقْتَرَضُوا (٤)

١٨ - فَوْدُكَ عَلَاهُ ٱلشَّمَطُ ، وَٱلْمَرْءُ يُنْقَصُ وَيُغْمَطُ ، كَالطِّفْلِ كَهْلُكَ فَهَلَّا

---

(١) قال : « يموج بحرك ، والأهواء غالبة براكبيه ، فهل للسفن إرساء »
وقال : « تسير بنا هذى الليالى ، كأنها سفائن بحر ما لهن مراسى »
(٢) قال : « ركبنا على الأعمار ـ والدهر لجة ـ فما صبرت للموج تلك السفائن »
(٣) قال :
غدوت مريض العقل والدين ، فالقنى لتسمع أنباء الأمور الصحائح
وسيمر بك حديث هذا البيت فى رسائل داعى الدعاة والمعرى وهى منشورة فى هذا الجزء
(٤) مثل هذا قول القائل :
« وما الناس والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع »

يُقْمَطُ(١) ؟ لَقَدْ عُرِفَ هَذَا النَّمَطُ ، وَالنَّفْسُ تَطْعَنُ وَلاَ تُضْبَطُ ، وَأَجْرُ مَنْ كَفَرَ يَحْبَطُ . أَيْنَ مُوَفَّقٌ لاَ يَغْلَطُ(٢) ، وَالْمَوْتُ — فِي الْعَالَمِ — مُسَلَّطٌ ، وَعَائِدُ الْمُلْكِ لاَ يُقْنَطُ :

إِلاَمَ الْحِرْصُ وَالرَّغْبَـــةُ فِي أَشْيَبَ كَالأَشْمَطْ
وَكَالطِّفْلِ غَدَا الْكَهْلُ ، فَمَا لِلْكَهْلِ لاَ يُقْمَطْ ؟
وَلاَ يَغْضَبْ أَخُو الرِّيبَـــةِ أَنْ يُنْقَصَ أَوْ يُغْمَطْ
فَمَا الْخَاسِرُ إِلاَّ كَا فِرٌ ، أَعْمَالُهُ تَحْبَطْ
بَنِي آدَمَ إِنْ تَعْصُوا فَمَا أَخْسَرَ مَنْ يَقْنَطْ(٣)

---

(١) قال : « حبا الشيخ ـ لا طامعاً في النهوض ـ خلاف الصبي إذا ما حبا »

وقال : « قل للمشيب : يد الأيام دائبة تنقيك ، والمرء من جهل ينقيكا
لو كنت كالجبل الراسى لأودى بالثقل أنك ـ فى رأسى ـ ترقيكا
وكيف يقطع إنسان مدى أجل عليك ، والملك الديان يبقيكا
فلا الأساة ، أطالت فى تفكرها تشفى ضناك ، ولا الكهان ترقيكا
لما صبيت سقيت الوجد منحنيا من الصبيب ، أو الحناء يسقيكا
لاقاك بالخطر مغرور ـ على خطر ـ وكنت بالعطر أولى فى تلقيكا
يقص آثار أقوام أولى سفه وبالمقصين ـ فى النعماء ـ يشقيكا
يا صبغة الله من أعطاك واقية فإن صبغ أناس لا يوقيكا »

(٢) قال : « أين الذى هو صاف لا يقال له لولا كذلك ، أو لولا كذا فيه »

وقال الحريرى :

« من ذا الذى ما ساء قط ومن له الحسنى فقط ؟ »

(٣) يشير إلى الآية الكريمة : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون »

غَبطْتُمْ صَاحِبَ الثَّرْوَ ةِ، وَالزَّاهِدُ لا يُغْبَطْ(١)
أَمَا تَغْلَطُ فِي الدَّهْرِ بِأَنْ تُوجَدَ لا تَغْلَطْ؟

١٩ — أَمَّا دِينُكَ فَمُتَشَظٍّ، وَأَنْتَ — عَلَى الْفَانِيَةِ — مُتَلَطٍّ(٢)، مُتَقَرِّبٌ — بِالْمَيْنِ — مُتَحَظٍّ:

أَصْبَحْتَ فِي غَمْرَةٍ وَلَهْوٍ تَجِيءُ بِالْمَيْنِ كَيْ تُحَظَّى
احْذَرْ عَلَى الدِّينِ مِنْ تَشَظٍّ، فَالدُّرُّ مُلْقًى إِذَا تَشَظَّى(٣)

---

(١) قال: ويحقرون أخا الإعدام بينهم ... وإن أفضل منهم للذى احتقروا
وقال: «فما أتمنى أننى كأجلكم ... ولكن أضاهى المقترين الصعالكا»

(٢) قال: «وحبى للدنيا كحبك خالص ... وفى عنقينا — من هوى — جعلت ربقا»

(٣) قال: «خف يا كريم على عرض تعرضه ... لعائب، فلئيم لا يقاس بكا
إن الزجاجة لما حطمت سبكت ... وكم تحطم من در فما سبكا»
وقال: «واهاً لدنيانا الذميمة منزلا ... لو أن هذا الشخص فيها يترك
وهويتها، فرأيت خلة غادر ... ورضيت أنك فى وصالك تشرك»
وقال: «كلفت بدنيانا التى هى خدعة ... وهل خلة منها أغرّ وأفرك
إذا سمحت عادت لما سمحت به ... وكم أذنبت، والذنب بالأرض يعرك
ولو لم يكن فينا هواها غريزة ... لكان — إذا جر المهالك — يترك»
وقال: «ولم أر إلا أم دفر ظعينة ... تحب — على غدر قبيح — وتفرك»
وقال: «سلوا معشر الموتى الذى جاء وافداً ... إليكم، يخبر، فهو أقربكم عهدا
يحدثكم أن البلاد مقيمة ... على ما عهدتم ذلك الهضب والوهدا
ولم تفتأ الدنيا تغر خليلها ... وتبدله من غمض أجفانها سهدا
تريه الدجى — فى هيئة النور — خدعة ... وتطعمه صابا، فيحسبه شهدا
وقد حملته فوق نعش، وطالما ... سرى فوق عنس، أو علا فرساً نهدا
ولم تترك من حيلة لتغره ... ولم يبق فى إخلاصه حبها جهدا»

لَوْ هَابَ حَرَّ اللَّظى مُسِيءٌ ... مَا اُهْتَاجَ حِرْصًا وَلاَ تَلَظَّى
فَأَبْدِ لِلسَّائِلِينَ لِيناً ، ... وَلاَ تَكُنْ — فِي اُلْجَوَابِ — فَظَّا

٢٠ — اُلْمَرْءُ خَدَعَهُ الطَّمَعُ ، مَرْأًى — فِي الزَّمَنِ — أَوْ مَسْمَعٌ ، يَدْأَبُ الرَّجُلُ وَيَجْمَعُ ، خُلَّبٌ وَمِيضٌ يَلْمَعُ ، وَاُلْعَيْنُ — لِلْحَذَرِ — تَدْمَعُ ، وَالسُّحْبُ — بِالْأَقْضِيَةِ — هُمَّعٌ ، وَفِي اُلآخِرَةِ يَكُونُ اُلْمَجْمَعُ :

غَرَّكَ مَا يَخْدَعُ مِنْ زُخْرُفِ الدُّ ... نيَا ، فَزَادَ اُلْحِرْصُ وَاُلْمَطْمَعُ
عَلِمْتَ أَنَّ الدَّهْرَ — فِي صَرْفِهِ — ... مُفَرِّقٌ عَنْكَ الَّذِى تَجْمَعُ
سَمِعْتَ بِاُلْخَطْبِ وَعَايَنْتَهُ (١) ... هَلْ كَفٌّ (٢) مَا تُبْصِرُ أَوْ تَسْمَعُ ؟
تَدْمَعُ جَفْنَاكَ عَلَى زَائِلٍ ... وَاُلْعَيْنُ — لِلرَّهْبَةِ — لاَ تَدْمَعُ
كَمْ أَوْمَضَ اُلْبَارِقُ فِي عَارِضٍ ... فَأُلْفِيَ اُلْكَاذِبَ إِذْ يَلْمَعُ
سُحْبٌ تَجَلَّى خَالِياً دَجْنُهَا ... عَنْكُمْ ، وَسُحْبٌ — بَعْدَهَا — هُمَّعُ

٢١ — إِنَّكَ — إِلَى الدُّنْيَا — مُصْغٍ ، وَحُبُّهَا — لِلْبَشَرِ — مُطْغٍ ، لَوْ أَنَّكَ — لِشَأْنِهَا — مُلْغٍ ، أَبْغَاكَ — مَا تَأْمُلُهُ — مُبْغٍ :

صَاغَكَ اللهُ لِلْجَمَالِ بِقَلْبٍ ... مُعْرِضٍ عَنْ نَصِيحَةٍ لَيْسَ يُصْغِي
تُكْثِرُ اللَّغْوَ — فِي اُلْمَقَالِ — وَلَوْ وُفْـ ... ـقْتَ — مَا كُنْتَ لِلدِّيَانَةِ مُلْغِي
لَمْ تَزَلْ تَزْجُرُ الطُّغَاةَ ، فَلاَ تَطْـ ... ـغَ ، فَحُبُّ الدُّنْيَا — لِمِثْلِكَ — مُطْغِي
لَوْ بَغَيْتَ الَّذِى أَرَادَ بِكَ اللَّـ ... ـهُ ، لَأَعْطَاكَ فَوْقَ مَا أَنْتَ تَبْغِي

---

(١) فى الأصل : « وعاينت » (٢) فى الأصل : « هل كفك »

٢٢ — طَالَ الْكَلَفُ وَالْكُلَفُ، فَأَيْنَ الْخَلَفُ وَالسَّلَفُ؟ إِنَّ الْعَافِيَةَ هِيَ التَّلَفُ[١]، وَعِنْدَ الْبَارِئِ يَكُونُ الزُّلَفُ.

إِلَامَ تَكْذِبُ وَتَحْلِفُ، وَلِلْإِثْمِ — لَوْ ظَهَرَ — أَكْلَفُ:

كَلِفْتَ — بِدُنْيَاكَ — شَرَّ الْكَلَفْ فَجَاءَتْكَ — مِمَّا صَنَعْتَ — الْكُلَفْ
تَبِعْتَ الْغُوَاةَ وَمَا أَسْلَفُوا، فَهَلَّا أَخَذْتَ بِقَوْلِ السَّلَفْ
وَصَدَّقْتَ نَفْسَكَ — فِي ظَنِّهَا — وَكَمْ قَائِلٍ، مَانَ، لَمَّا حَلَفْ
تُخَلِّفُ مَالَكَ لِلْوَارِثِينَ، وَكَانُوا — بِعِلْمِكَ — بِئْسَ الْخَلَفْ
تُرَجِّي الْحَيَاةَ وَأَسْبَابَهَا، وَتَطْلُبُ — عِنْدَ الْمَلِيكِ — الزُّلَفْ
وَلَوْ ظَهَرَ الْإِثْمُ، لِلنَّاظِرِينَ، لَرَاعَكَ — فِي الْوَجْهِ مِنْهُ — كَلَفْ
نَصَحْتُكَ، فَاذْنَ إِلَى مَنْ يَقُولُ: «تَلَافَ أُمُورَكَ قَبْلَ التَّلَفْ»

٢٣ — قَلْبُكَ مُعَنًّى يَخْفِقُ، يَخَافُ — مِنْ عَاجِلَتِكَ — وَيُشْفِقُ، وَبَارِئُكَ هُوَ الْمُوَفِّقُ.

أَصْبَحْتَ — مِنْ عُمْرِكَ — تُنْفِقُ، تُرَقِّعُ الْعُذْرَ وَتُلَفِّقُ، وَأَنْتَ — فِي مَطْلَبِكَ — مُخْفِقٌ، يَطُولُ تَعَبُكَ فَهَلَّا تَرْفُقُ:

إِنْ خَفَقَ الْبَارِقُ فِي عَارِضٍ، فَالْقَلْبُ — مِنْ رَوْعَتِهِ — يَخْفِقُ
تَأْسَفُ إِنْ أَنْفَقْتَ مَالًا، وَلَا تَأْسَفُ مِنْ عُمْرِكَ إِذْ تُنْفِقُ
تَظَلُّ — مِنْ فَقْدِ الْغِنَى — مُشْفِقًا، وَمِنْ قَبِيحِ الْإِثْمِ لَا تُشْفِقُ

---

(١) قال: «ودعوت ربى بالسلامة جاهداً ليصحنى، فإذا السلامة داء!»
ومثله قول القائل: «يداوى المريض لكيما يصح وهل صحة الجسم إلا مرض؟»
ولعل صواب الجملة هو: «إن العاقبة هى التلف»

مُرْتَفِقاً – فِي وَطَنٍ – حَافِظاً ، تُسَأَلُ مَا هَانَ ، فَلَا تَرْفُقُ
يَعُودُ – عَنْ غَيْمِكَ – مَنْ شَامَهُ وَهْوَ شَدِيدٌ ظَمْؤُهُ مُخْفِقُ

٢٤ – سَبَّحَ إِلٰهَنَا ٱلْفَلَكُ ، وَقَدَّسَ ٱلْبَشَرُ وَٱلْمَلَكُ ، وَٱلْجِسْمُ – فِي ٱلْعَفْرِ – يُسْتَهْلَكُ ، وَٱلْمَرْءُ – بِٱلْعَارِفَةِ – يُمْلَكُ ، وَٱلنَّهْجُ – لِلْآخِرَةِ – يُسْلَكُ :

سَبِّحْ مَعَ الشُّهْبِ كَمَا سَبَّحَ – مِنْ قَبْلُ – ٱلْفَلَكْ
قَدَّسَ إِنْسَانٌ عَلَى الا أَرْضِ ، وَفِي ٱلْجَوِّ مَلَكْ
لَا تَبْكِ لِلْمَيْتِ ، فَكَمْ مَاتَ كَرِيمٌ وَهَلَكْ
مَا خَبَّرَ ٱلْغَابِرُ عَنْ دَفِينِهِ ، أَيْنَ سَلَكْ(١) ؟
مَا لَكَ شَيْءٌ(٢) ، وَإِذَا أَطَعْتَ ، فَالرَّحْمَةُ لَكْ

---

(١) قال أبو العلاء :

« مضى الأنام ، فلولا علم حالهم لقلت قول زهير : أية سلكوا »
وقال : « أسكنى الردى : لا تبعثون رسالة إلينا ، ولستم سامعى كلم الرسل ؟ »
وقال : « لو جاء من أهل البلى ميت سألت عن قوم وأرخت
هل فاز بالجنة عمالها وهل ثوى – فى النار – نو بخت؟ »

وأول من أثار هذه المعانى فيما قرأنا ، هو قس بن ساعدة الإيادى ، فى قولته المشهورة :

« لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها يمضى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إلىّ ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى – لا محا لة – حيث صار القوم صائر »

(٢) قال أبو العلاء :

« فقير كل من فى الأر ض ، إن العبد لا يملك »
وقال : ويقول : « دارى » من يقول « وأعبدى» مه ! فالعبيد لربنا والدار

٢٥ – غَرَّكَ تفصِيلٌ وَجُمَلٌ، وَأَلْحَى خَدَعَهُ الْأَمَلُ، سَعْيُكَ فَسَدَ وَالْعَمَلُ، مَا نفَعكَ حجٌّ وَلاَ رَمَلٌ، كَأَنَّكَ – بَيْنَ الْجُهَّلِ – هَمَلٌ:

مَا زلتَ مَشْغُولاً بِلاَ خَشْيَةٍ — يَغُرُّكَ التَّفْصِيلُ بَعْدَ الْجُمَلْ
تَحْمِلُكَ الْأَرْضُ عَلَى ظَهْرِهَا — وَأَنْتَ سَارٍ فَوْقَ ظَهْرِ الْأَمَلْ
مَا لِي أَرَى عَيْنَيْكَ لَمْ تَهْمُلاَ — كَأَنَّمَا أَنْتَ مُخَلًّى هَمَلْ
مَا يَشْفَعُ الْحُسْنُ لِأَصْحَابِهِ، — إِنْ حَسُنَ الْوَجْهُ وَسَاءَ الْعَمَلْ(١)
رَمَلْتَ(٢) فِي مَكَّةَ – تَبْغِي الْهُدَى – — فَهَلْ نَهَاكَ السَّعْيُ بَعْدَ الرَّمَلْ؟

٢٦ – أَفِي مَسْمَعِكَ حَلَّ الصَّمَمُ، أَمْ لُبَّكَ أَصَابَ اللَّمَمُ، وَتَحْسِمُ لِلأَنِيسِ الْهِمَمُ، وَفِي التُّرَابِ تُطْوَى الرِّمَمُ، وَفِي الْبَاطِنِ تُخَانُ الذِّمَمُ، عَلَى ذَلِكَ تَمُرُّ الْأُمَمُ:

مَا لَكَ لَمْ تُصْغِ إِلَى عَاذِلٍ — أَحَلَّ فِي الْمَسْمَعِ – مِنْكَ – الصَّمَمْ؟
أَعَاقِلٌ(٣) أَنْتَ فَتُلْحَى عَلَى الْـ — عِصْيَانِ، أَمْ مَسَّ حِجَاكَ اللَّمَمْ؟

---

(١) فى هذا إشارة إلى قول القائل:

فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى — فما كل مصقول الحديد يمان

وقول المتنبي:

« مما أضر بأهل العشق أنهم — هووا، وما عرفوا الدنيا، ولا فطنوا
تفنى عيونهم دمعاً، وأنفسهم — فى إثر كل قبيح، وجهه حسن »

(٢) هَرْوَلْتَ

(٣) وفى رواية: « أجاهل أنت فتلحى »، قال بشار:

« الحر يُلحَى والعصا، للعبد، — وليس للملحف غير الرد »

هِمَّتُكَ ٱلْعُلْيَا هَوَتْ فِى الثَّرَى، وَشِيمَةُ الزَّاكِى عُلُوُّ ٱلْهِمَمْ
لَمْ تَفِ بِالذِّمَّةِ لِلحُرِّ، وَٱلْـ حُرُّ مُرَاعٍ وَافِيَاتِ الذِّمَمْ
وَالذِّكْرُ(١) يَبْقَى لِلْفَتَى بُرْهَةً، وَإِنْ تَوَارَتْ ـ فِى التُّرَابِ ـ الرِّمَمْ
تَيَمَّمِ ٱلْخَيْرَ وَلَا تَرْهَبِ الْـ مَوْتَ، فَلِلْمَوْتِ تَصِيرُ ٱلْأُمَمْ

٢٧ – لِلّٰهِ الْكَرَمُ وَٱلْمِنَنُ، وَعَنْ بَارِئِكَ تَزُولُ الظِّنَنُ، لَا يَسْتُرُكَ — مِنَ ٱلْمَوْتِ — ٱلْجُنَنُ، وَبِالْعَاصِفِ يُرَاعُ ٱلْفَنَنُ، لَا تَعْصِمُكَ تِلْكَ الْقُنَنُ:

وَيْحَكَ! لَا تَمْنُنْ عَلَى مُنْعِمٍ عَلَيْهِ، فَٱلْخَالِقُ رَبُّ ٱلْمِنَنْ
فَظُنَّ خَيْراً بِالأَخِلَّاءِ وَالْـ أُلَّافِ، إِنَّ ٱلْخَيْرَ يَجْفُو الظِّنَنْ(٢)
يُجِنُّكَ ٱلْقَبْرُ، فَلَا تُلْفَ كَالْـ مَجْنُونِ يَبْغِى وَاقِيَاتِ ٱلْجُنَنْ
وَٱفْتَنَّ فِى خَوْفِكَ رَبَّ ٱلْعُلَا وَأَنْتَ ـ فِى سَرْحِكَ ـ مِثْلُ ٱلْفَنَنْ
إِنَّكَ قِنٌّ لِمَلِيكٍ، حَوَى الْـ مُلْكَ، فَلَا تَعْصِمُ مِنْهُ ٱلْقُنَنْ
لَتَقْرَعِ السِّنَّ غَداً نَادِماً، إِنْ كُنْتَ ضَيَّعْتَ جَمِيلَ السُّنَنْ

٢٨ – الْمَرْءُ نُهِىَ فَمَا ٱنْتَهَى، مَا زَالَ — فِى ٱلْعَاجِلَةِ — يُزْدَهَى، إِنْ قِيلَ:

---

(١) وقال: «وخمول ذكرك — فى الحياة — سلامة، ودهاك من أمسى بذكرك شاهراً»
وقال: «ولو جرت النباهة فى طريق الـ خمول إلىّ، لاخترت الخمولا»
وقال: «عرفتنى — حتى شهرت — الليالى، ثم صالت علىّ بالتنكير»
وقال: «صروف الليالى إن سمحن لماجد بذكر جميل، عُدن يعصفن بالذكر»

(٢) الظنن: التهم، مفردها ظنة، وهى: التهمة، وقد ورد هذا البيت فى الأصل مختل الوزن، فأصلحناه كما ترى، أما نصه فى المطبوع فهو:

«فظن خيراً بالأخلاء وإلا فالخير يجفو الظنن»

مَا أَحْسَنَ وَمَا أَبْهَى ، فَأَيْنَ صَاحِبُكَ لَمَّا وَهَى ، وَطَالَمَا نَعِمَ وَلَهَا ، وَنَالَ — فِى الْعُمْرِ — مَا اشْتَهَى ، مَا بَيْنَ غِزْلَانٍ وَمَهَى ، دَهَاهُ الزَّمَنُ فِى مَنْ دَهَا ، وَاللهِ عَمَّرَ بِاللُّهَى ، مُصَوِّرُ الْقَمَرِ وَالسُّهَا :

الْمَرْءُ مَعْتُوبٌ عَلَى فِعْلِهِ كَمْ سَمِعَ النَّهْيَ فَأَلَّا[1] انْتَهَى؟
زَايَلَهُ اللَّهْوُ ، وَزَارَ الْبَلَا ، وَطَالَمَا عَايَنْتَهُ مُزْدَهِى
بَاهَى زَمَانًا بِالَّذِى نَالَهُ ثُمَّ أَتَى الْمَوْتُ ، فَأَيْنَ الْبَهَى
وَهَتْ عُقُودٌ كَانَ فِى عَصْرِهِ أَحْكَمَهَا ، لَا عَاقِدٌ مَا وَهَى
مَا شَهَوَاتُ الْحَىِّ إِلَّا أَذًى ، إِنْ نَالَ ـ مِنْ مُدَّتِهِ ـ مَا اشْتَهَى
كَانَ يُرَى فِى غَزَلٍ دَائِمًا مَا بَيْنَ غِزْلَانٍ لَهُ ، أَوْ مَهَى
دَهَاهُ بِالْمَقْدُورِ لَمْ يَدْفَعِ الْـ ـخَطْبَ عَنْ مُهْجَتِهِ إِذْ دَهَى
سَهَا عَنِ الْوَاجِبِ ، فَاغْتَالَهُ مُصَوِّرُ الْبَدْرِ ، وَرَبُّ السُّهَا

٢٩ — أَمَّا صَحْبُكَ فَقَدْ غَوَوْا ، عَبُّوا — فِى الْمَوْرِدِ — فَمَا ارْتَوَوْا ، أَبَادَتْهُمُ الْأَقْضِيَةُ حَتَّى تَوَوْا[2] ، خَلَّوْا — لِلْوَارِثِ — مَا احْتَوَوْا ، طَوَاهُمُ الْقَدَرُ فَانْطَوَوْا ، وَلَاقَتْهُمُ الْآخِرَةُ بِمَا نَوَوْا :

لَا تَغْوَ ـ فِى دُنْيَاكَ ـ مُسْتَهْتِرًا فَإِنَّ أَصْحَابَكَ فِيهَا غَوَوْا
عَنَّ لَهُمْ — فِى سِرْبِهِمْ — مَوْرِدٌ لَوْ كَانَ يُرْوِى مِثْلُهُ لَارْتَوَوْا
نَادَتْهُمُ الْأَقْدَارُ : يَا سَاكِنِى الْأَرْ ضِ : أَلَا تَتْوُونَ ؟ حَتَّى تَوَوْا
خَلَّوْا أَحَادِيثَهُمْ ، وَاحْتَوَى آخِذُ مِيرَاثٍ عَلَى مَا حَوَوْا

---

(١) فألّا : فهلّا

(٢) قال : « ويأتى قضاء ما لكم عنه حاجز فألقوا إلى مولاكم بالمقالد »

أُنْتَشَرُوا — فِي عَيْشِهِمْ — أَعْصُراً ثُمَّ طَوَاهُمْ قَدَرٌ ، فَانْطَوَوْا
فَلْتَحْسُنِ النِّيَّةُ — مِنْ بَعْدِهِمْ — فَالنَّاسُ يُجْزَوْنَ عَلَى مَا نَوَوْا

٣٠ — كُلٌّ غَدَا يَخْدُمُ أَمَلًا ، يُسِيءُ — فِي مَا بَطَنَ — عَمَلًا ، يُصْبِحُ — بِسَيْفِهِ — مُشْتَمِلًا ، يَطْلُبُ[١] رِزْقَهُ مُحْتَفِلًا ، وَالرِّزْقُ لَا يَتْرُكُ مُتَوَكِّلًا[٢] ، لَمْ يُرِدْ فِي الْعَالَمِ حِيَلًا :

مَا فِي الْبَسِيطَةِ مِنْ عَبْدٍ وَلَا مَلِكٍ إِلَّا حَلِيفُ عَنَاءٍ[٣] يَخْدُمُ الْأَمَلَا
يَحُثُّ نَفْسًا عَنِ الْإِحْسَانِ عَاجِزَةً وَقَدْ أَسَاءَ — بِعِلْمِ الْوَاحِدِ — الْعَمَلَا
فَهَلْ تَرَى الدَّهْرَ أُنْثَى ، أَوْ تَرَى رَجُلًا ، يُشَا بِهُ امْرَأَةً — فِي الْخَلْقِ — أَوْ رَجُلَا
يَرُومُ بِالسَّيْفِ رِزْقًا جَاءَ فِي عُنُفٍ مَا كَانَ يَخْطُوهُ — فِي خَفْضٍ — لَوِ اتَّكَلَا
يَبْغِي الْمَعَالِيَ — فِي أَوْفَى مُجَاهَدَةٍ — فَإِنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا لَطَّفَ الْحِيَلَا
يَا سَاكِنِي التُّرْبِ : مَا عِنْدِي لَكُمْ خَبَرٌ ، فَلَيْتَ شِعْرِي عَنِ الْمَقْبُورِ : مَا فَعَلَا[٤] ؟
لَمْ تَأْتِنَا مِنْكُمُ رُسْلٌ مُخَبِّرَةٌ ، وَلَا كِتَابٌ إِلَيْنَا مِنْكُمُ وَصَلَا

٣١ — الْحَيُّ — بَعْدَ الْعِيشَةِ — رَدِي ، وَجَاءَهُ الْقَدَرُ فَمَا فُدِي ، وَشَخْصُهُ — بِالْقَاضِيَةِ — رَدِي ، ثُمَّ لَا يُرْزَقُ النَّهْلَ إِنْ صَدِي . لَكِنَّهُ — عَنْ ذَلِكَ —

---

(١) فى الأصل : « لا يطلب »

(٢) قال : « سيطلبنى رزقى الذى لو طلبته لما زاد ، والدنيا حظوظ و إقبال »

(٣) قال : « أعانن‍ـا الله ، كل فى معيشة يلقى العناء ، فدرّى فوقنا دُبَس »

(٤) قال : « أسكنى الردى لا تبعثون رسالة إلينا ، ولستم سامعى كلم الرسل »

وقد ألممنا بأمثال هذه المعانى فى مناسبات شتى مرت بالقارئ فى هذا الكتاب .

عَدِى ، أَظَلَّتْهُ ٱلعَاجِلَةُ فَمَا هُدِى ، وَجَادَتْهُ ٱلْأَسْمِيَةُ فَمَا نَدِى ، وَقَتَلَتْهُ ٱلْحَادِثَاتُ فَمَا وُدِى :

ٱلْمَرْءُ – فِى أَرْدِيَةٍ لُوِّنَتْ – عَاشَ، وَلَـكِنْ – بَعْدَ هَذَا – رَدِى
فَدَى ٱلْأَسَــارَى زَمَنًا ذَاهِبًا وَجَاءَهُ ٱلْمَوْتُ ، فَأَلَّا[١] فُدِى ؟
فَيَا رَدِىَّ ٱلْعَقْلِ : إِنَّ ٱلْفَتَى لَمْ يَدْفَعِ ٱلْمَقْدُورُ حَتَّى رَدِى
ظَلَّ صَدَاهُ – فِى ٱلثَّرَى – سَاكِنًا وَلَمْ يُصَادِفْ مَنْهَلًا[٢] إِذْ صَدِى
وَنَتْ لَهُ ٱلْأَعْــدَاءُ أَنْ عَايَنَتْ صَاحِبَهَا – عَنْ كُلِّ خَيْرٍ – عَدِى
كَانَ ٱلْهُـدَى يُهْدَى إِلَى قَلْبِهِ – مِنْ سَمْعِهِ – لَوْ أَنَّهُ يَهْتَدِى
جَادَتْ لَهُ أَسْمِيَــةٌ بُرْهَةً ، وعاد يَبْسًا غُصْنُهُ مَا نَدِى[٣]
لَا يُطْلَبُ ٱلثَّأْرُ لِمَيْتٍ ، وَلَا يُودَى[٤] – لَعَمْرُ ٱللهِ – فِى مَنْ وُدِى

---

(١) فألّا : فهلّا

(٢) وفى رواية : « مورداً إن صدى »

(٣) قال : « مرحت كالفرس الذيال آونة ثم اعتراك أبو سعد ، فقد شكلك »
و « أبو سعد » : كنية الشيخوخة .

(٤) يودى : يعطى وليه ديته ، قال أبو العلاء :
« يد – بخمس مئين عسجد – وُديت ما بالها قطعت فى ربع دينار ؟ »

بين المعرى وداعى الدعاة [1]

« علم الإمام ، ولا أقول بظنة
أن الدعاة — بسعيها — تتكسب »
أبو العلاء

— ١ —

تمهيد

أحقاً أن داعى الدعاة لم يحفزه إلى كتابة هذه الرسائل إلى أبى العلاء ، إلا قول « المعرى » من قصيدة له فى اللزوميات :

« غدوتَ مريض العقل والدين ، فالقنى   لتسمع أنباء الأمور الصحائح ؟ »

وأن داعى الدعاة أراد أن يتعرف من أبى العلاء أنباء الأمور الصحائح — كما حاول أن يقنعنا بذلك فى رسائله — ليهتدى بهديه ؟ لقد حاول داعى الدعاة أن يدخل فى روعنا ذلك ، كما حاول الرواة أن يقنعونا بأن هذا البيت وحده هو السبب الذى حفزه إلى كتابتها .

على أننا جديرون أن نتساءل مستفسرين :

« هل دارت بين المعرى وداعى الدعاة رسائل أخرى — غير هذه الرسائل — فقد أخبرنا بعض الرواة أن المعرى كتب إلى داعى الدعاة يقول :

« يد بخمس مئين عسجد وديت   ما بالها قطعت فى ربع دينار ؟ [2]
تناقضٌ مالنا إلا السكوت له   وأن نعوذ بمولانا من النار ! »

فكتب إليه داعى الدعاة يقول :

« عز الأمانة أغلاها ، وأرخصها   ذل الخيانة ، فافهم حكمة البارى ! »

---

(١) قبسنا هذا الفصل من كتابنا : « صور جديدة من الأدب العربى »

(٢) ويقولون : إن ذلك كان بينه وبين ابن حزم

ثم لا يزيد الرواة على هذا الخبر المبتور شيئاً ، فلا يقولون لنا :

« متى كانت هذه المكاتبة ؟ وكيف اقتصرت على هذه الأبيات ، وخلت من عبارات المجاملة والأدب التى نراها فى بقية الرسائل التى دارت بين المعرى وداعى الدعاة ؟

وأين بقيتها إن كان لها بقية ؟ وأية مناسبة دعت « المعرى » إلى التحرش بداعى الدعاة وهو لا يجهل خطره ومكانته الدينية ؟

ومتى أرسل « المعرى » هذين البيتين ؟ أكان ذلك قبل تبادل هذه الرسائل ؟ فكيف لم يشر إليها داعى الدعاة ؟ وما باله يسأل أبا العلاء عن مذهبه ودينه — مستفسراً — بعد أن كاشفه المعرى بهذين البيتين ؟ وما باله يطلب الهدى ممن لا هدى عنده ؟ وما حاجته إلى السؤال بعد أن ظهر السر وانكشف الغطاء ؟

أم أرسل البيتين بعد هذه الرسائل ؟ والرواة يخبروننا بأنها قد انتهت بموته ، فيحدثنا بعضهم أن آخر رسالة وردت من داعى الدعاة إلى المعرى لم تصل إليه ، لأنه انتقل إلى العالم الآخر — وقت وصولها — ويقول بعضهم : « بل مات بوفودها » ويقول بعضهم : « بل عقب ورودها بقليل . »

*
* *

ولعل الأقرب إلى المعقول أن يكون داعى الدعاة قد سمع هذين البيتين من أفواه بعض الناس فى إحدى مجالسه — الخاصة أو العامة — فرد عليها حينئذ بقوله :

« عز الأمانة أغلاها ، وأرخصها ذل الخيانة ، فافهم حكمة البارى . »

وهو بيت — على ما فيه من ركاكة وضعف — قلق القافية ، متكلف ، جدير أن يلحق بنظم الفقهاء .

على أننا لا نستبعد أن تكون هذه الرواية مختلقة من أولها إلى آخرها ، فقد اضطرب رواتها فيها كل الاضطراب ، فزعم بعضهم أنها حدثت بين المعرى وداعى الدعاة . وروى آخرون أنها حدثت للمعرى فى « بغداد » وأن فقهاء بغداد أغروا به إغراء ، وردوا عليه بهذا البيت . وقال آخرون : « بل بعث بهذين البيتين إلى ابن حزم ، فأجابه عليهما بذلك البيت . »

وفى هذا الاضطراب ما يكفى للشك فى أمرهما .

على أن أولى الرسائل التى بعث بها داعى الدعاة إلى المعرى ، تشعرنا بأنهـا كانت فاتحة المكاتبات بينهما .

لمَ كتبت هذه الرسائل ؟

ونعود إلى السؤال الأول ، لنتعرف السبب الذى حفز داعى الدعاة إلى مكاتبة أبى العلاء ، أهو الرغبة الصحيحة فى الاهتداء بهديه — كما يزعم — أم الرغبة فى التحرش به ، والتشنيع عليه ، وكشف مستوره ، وتفسيقه أمام الناس ؟

ونحسب أن نظرة هادئة إلى هذه الرسائل كافية فى إقناعنا بأنها كانت أقرب إلى تحديه والتحرش به ، منها إلى الاستفادة من علمه ورأيه .

فما الذى يحفز الداعى إلى ذلك ؟ أهى غيرته الدينية ؟

كلا ! فلم يكن داعى الدعاة ممن تحفزه الغيرة الدينية إلى مهاجمـة « المعرى » والتحرش به ، فقد كان داعياً للدعاة الذين قال فيهم « أبو العلاء » :

« علم الإمام — ولا أقول بظنـة —   أن الدعاة — بسعيها — تتكسب . »

وقد كانت دعوته من الدعوات الخطيرة ، وكان يسلك فى إذاعتها أخبث الطرق ، فقد كان باطنياً يدعو إلى المذهب الإسماعيلى ، وهو مذهب ينفيه الإسلام ويبرء منه ، وسنوجزه فى آخر هذا الفصل .

فإذا علمنا أن الغيرة الدينية ، لم تكن الباعث على مهاجمة «المعرى» فأى باعث آخر أغرى داعى الدعاة به ؟

لقد كان « أبو العلاء » يمقت النفاق ، ويلعن المتجرين بالدين ، والمتكسبين بالعقيدة ، فيقول :

« والدين متجرُ ميِّت ، فلذاك لا   تلفيه فى الأحياء إلا كاسدا »

وقد امتلأت كتبه ـ واللزوميات خاصة ـ بمثل هذه اللعنات ، ونحن نجتزىء من ذلك بقوله :

« طلب الخسائس ، وارتقى فى منبر   يصف الحساب لأمة ليهولهـا
ويكون غـير مصـدق بقيامة   أضحى يمثل ـ فى النفوس ـ ذهولها . »

وقوله :

« رويدك قد غررت – وأنت ندب – بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحاً ، ويشربها – على عمد – مساء
يقول : لقد غدوت بلا كساء وفى لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين – لا جهة – أساء »

وقد كان داعى الدعاة من تلك الفئة التى تعيش من الاتجار بالدين ، والتظاهر بالورع والتقوى ، وتتخذ من ذلك أحبولة لتصيد الأغرار .

على أن أبا العلاء لم يقتصر على ذم هذه الفئة – على وجه التعميم ، بل ذم الدعاة – على وجه التخصيص ، فقال :

« علم الإمام – ولا أقول بظنة – أن الدعاة – بسعيها – تتكسب »

وقال فى مكان آخر من اللزوميات :

« ضاع دين الداعى فرحت تروم الد ين عند القسيس والشماس . »

وقال فى مكان ثالث :

« لا يعجبنك داع قام فى ملإ بخطبة زان معناها وطولها
فما العظات – وإن راعت – سوى حيل من ذى مقال على ناس تحولها
وإنما رام نسوانا تزوجها – بما افتراه – وأموالاً تمولها . »

وما نحسب مثل هذا التشنيع بالهين وقعه على داعى الدعاة ، وهو صاحب النفوذ العظيم .

*
* *

فإذا تركنا ذلك جانباً ، رأينا أبا العلاء يسخر فى لزومياته أيضاً من الحاكم بأمر الله الفاطمى — بعد موته — ويهزأ علانية من القائلين بعودته ، فيقول :

« مضى « قيل مصر » إلى ربه وخلى السياسة للخائل
وقالوا : « يعود » فقلنا : « يجوز » بقدرة خالقنا الآئل
إذا هب « زيد » إلى طيئ وعاد « كليب » إلى وائل . »

إلى أن يقول :

« وتصغى إلى المين أسماعنا وتصبو إلى زخرف القائل »

وما نحسبه إلا يعنيه حين يقول :

« لو قال سيد غضا بعثت لأمة من عند ربى ، قال بعضهم : نعم »

وقد كرر هذا المعنى فى رسالة الغفران أكثر من مرة[١] . ولا تنس أنه عرض بميمون القداح فى رسالة الغفران أيضاً ، وميمون القداح هو رأس الدولة الفاطمية ، يغضبون له ، و إن كانوا لا يجهرون للناس بالانتماء إليه .

ونحسب أن فى بعض هذا ما يكفى للتحرش بأبى العلاء ، والكيد له ، والرغبة فى تفسيقه أمام الناس .

ولقد حاول « المعرى » أن يترضى داعى الدعاة — بكل ما أوتى من قوة ، وبما سلك من عبارات المجاملة وأدب الخطاب — فلم يفلح ، وأبى « داعى الدعاة » إلا إحراجه و إذاعة رأيه على الناس جهرة ، كأن له تِرَةً عنده .

وقد اتخذ لهذه المناوشة قول أبى العلاء :

« غدوت مريض العقل والدين ، فالقنى لتسمع أنبـــاء الأمور الصحائح . »

تكأة يبرر بها سؤاله ، والتظاهر بالرغبة فى الإفادة من علمه وهديه ، كما زعم .

ولقد كان لهذه الرسائل صيت ذائع ، ودوى عظيم ، وافتن الناس فى أقوالهم ، فقال بعضهم :

« إن داعى الدعاة أفحمه ، ثم دسّ له السم ، فمات . »

---

(١) على أن « المعرى » لم يقتصر على ذم الحاكم وحده ، فقد ذم جميع الولاة والحكام فى مواطن كثيرة ، وكان ذلك مما يغضبهم عليه ، وقد شكا « المعرى » من أن الولاة كانوا يغرون بتعذيبه .

وكيف لا يغرون بتعذيبه والكيد له ، وهو القائل :

« ظلموا الرعية واستباحوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها »

والقائل :

ساس الأنام شياطين مسلطة فى كل مصر من الوالين شيطان »

« من ليس يحفل خمص الناس كلهم إن بات يشرب خمرا ، وهو مبطان »

والقائل :

« يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ، ويقال : ساسه »

ونحن نستبعد أن يكون « داعى الدعاة » قد دس له السم، لأنه لم يكن يعنيه أن يفتك بالمعرى قدر ما يعنيه أن يشنع عليه، ويظهره بمظهر المكابر المائل عن الشريعة .

وقد لجأ « المعرى » إلى كثير من عبارات الثناء التى ألفناها منـــه ، والتى نعتقد أنها كانت من أكبر الأسباب التى حببت فيه سائليه ، وجعلتهم له أنصارا ، فإن أكثر الناس لا يعنيهم الدفاع عن الرأى قدر ما يعنيهم الدفاع عن أنانيتهم ، وإرضاء ذواتهم ، فإذا مدحت أحدهم مجاملا نسى ما جاءك به ، ورجع عما أراده من المخاصمة واللجاج .

وقد ذكر بعض الرواة : أن « المعرى » شرب السم — بعد أن فضحه داعى الدعاة وأمره بالحضور إليه والإقرار أمامه بالإسلام — وهو قول لم يؤيده دليل ، على أنه لو وقع لكان له صدى عظيم ، ولأشار إليه ولو واحد من الشعراء الذين رثوه ، وقد نيفوا على الثمانين شاعراً .

ويقول بعض الناس :

« لعله مات غما بعد أن ظهر أمره ، وهتك ستره . »

ونقول بدورنا :

« ولعل أجله المحتوم قد وافاه حينئذ ، فأوّل الناس هذه المصادفة شتى التأويلات »

ومن حق القارئ أن يعرف من هو داعى الدعاة ، وما هو مذهبه الاسماعيلى الذى وعدنا بالإشارة إليه فى هذا المقال ، حتى يقدر شخصية مناظر أبى العلاء حق قدرها ، ويتبين مرمى فيلسوف المعرة .

أما داعى الدعاة ، فقد كانت رتبته — فى ما يقولون — تلى قاضى القضاة ، وكان يتزيا بزيه ، وكان ينوب عنه أحياناً ، وهو يتناول مائة دينار كقاضى القضاة سواء بسواء .

قالوا : « وكان عالماً بجميع مذاهب أهل البيت ، يقرأ عليه ، ويأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه إلى مذهبهم . وبين يديه من نقباء المعلمين اثنى عشر نقيبا ، وله نواب كنواب الحاكم فى سائر البلاد ، ويحضر إليه فقهاء الدولة ، ولهم مكان يقال له دار العلم ، ولجماعة منهم — على التصدر بها — أرزاق واسعة . »

قالوا : « وكانت وظيفته من مفردات الدولة الفاطمية . »

المذهب الإسماعيلي

أما المذهب الذى نصبوا أنفسهم لإذاعته ، والدفاع عنه، فهو المذهب الإسماعيلى. و يسمون الإسماعيلية بالباطنية لأنهم يقولون : « إن لكل ظاهر من الأحكام الشرعية باطنا ، ولكل تنزيل تأويلا . »

والإسماعيلية — كما قالوا — مرتبة على تسع منازل ، دعوة بعد دعوة ، وسرها محجوب عن غير أهلها ، وقد بالغوا فى تكتمه والاحتفاظ به ، ووضعوا لذلك نظاماً أدق من نظام الماسونية، وأحفظ لأسرارها .

ومن أعجب ما فى الإسماعيلية أنها تنتهى بالاحتكام إلى العقل ، وترك الشرائع والديانات ظهريًا ، على حين أن أصحابها يسلكون فى الوصول إلى هذه النتيجة كل طريق يأباها العقل ، ولا تلائم المنطق الصحيح ، لأنها معتمدة على المغالطات اللفظية ، والمشابهات العرضية ، والبعد عن جواهر الأشياء ، وحقائق معانيها ، وتلمس مواطن السفسطة فيها . والدعاة يبدءون بالتمدح بالشريعة الإسلامية ، والتغنى بفضائل النبى ، ثم يتخذون من ذلك وسيلة إلى بث آرائهم الخبيثة . و بعد أن يخلد إليهم المسترشد بالثقة ، و يلقى إليهم بقياده ؛ يبدءون :

المرتبة الأولى

بتشكيكه فى دينه ، و يعرضون عليه طائفة من المعميات والأسرار الغامضة ، ليزلزلوا بها عقيدته و يقينه الثابتين ؛ فإذا تم لهم ذلك ، ضنوا عليه بكشف هذه الأسرار ، وفك تلك الطلاسم (١) . وثمة يقول له الداعى :

---

(١) وكان يقول له الداعى : « ولا تعجل، فان دين الله أعلى وأجل من أن يبذل لغير أهله، ويجعل غرضاً للعيب » ثم يأخذ عليه عهوداً ومواثيق مستنداً فى ذلك إلى تأويل الآية : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » وما يماثلها من الآيات . ثم يقولون له : « فأعطنا صفقة من يمينك وعاهدنا بالمؤكد من أيمانك وعهودك أن لا تفشى لنا سراً ، ولا تظاهر علينا أحدا ، ولا تطلب لنا غيلة ولا تكتمنا نصحا ، ولا توالى عدواً » ألخ ، فاذا أعطى العهد، قال له الداعى : « أعطنا جعلا من مالك لِقَاء، ما نكشفُ لك من الأسرار . » وحينئذ يقدر الداعى الجعل الذى يراه ، فإن امتنع أمسك عنه .

« يا هذا ، إن الدين لمكتوم ، و إن الأكثر له منكرون ، و به جاهلون ، ولو علمت هذه الأمة ما خص الله به الأئمة من العلم لم تختلف . و إن الآفة التي نزلت بهذه الأمة ، وشتتت الكلمة، وأورثت الأهواء المضلة، هي ذهاب الناس عن أئمة نصبوا لهم، وأقيموا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقيقتها ، و يحفظون معانيها و يعرفون بواطنها . غير أن الناس لما عدلوا عن الأئمة ، ونظروا فى الأمور بعقولهم ، واتبعوا ما حسن فى رأيهم ، وقلدوا سَفِلتهم ، وأطاعوا سادتهم طلباً للدنيا التي هي بأيدى الفسقة الذين يحبون العاجلة ، و يجتهدون فى مكايدة الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى أمته ، وتغيير كتاب الله ، ومعاندة الخلفاء الأئمة . »

وهكذا إلى أن يقول :

« فإن دين محمد ليس — كما عرفته العامة — سهلاً هينا ، بل هو صعب مستصعب ، وعلم خفى غامض ، ستره الله فى حجبه ، وعظم شأنه من ابتذال أسراره . فهو سر الله المكتوم الذى لا يطيق حمله ، ولا ينهض بأعبائه إلا ملك مقرّب ، أو نبى مرسل ، أو عبد امتحن قلبه للتقوى . » فإذا أنس منه إقبالا نقله إلى :

المرتبة الثانية

وفى هذه المرتبة يقرر له أن الله اختار لعباده أئمة يهدونهم إلى الصواب ، و يبينون لهم شريعته التي نصبهم الله لحفظها على ما أراده . فإذا عرف ذلك نقله إلى :

المرتبة الثالثة

فيقرر له أن الله جعل عدد الأئمة سبعة ، كما جعل عدد الكواكب السيارة سبعة[1] ، كما جعل السموات سبعا ، والأرضين سبعا ، ومنافذ الوجه سبعا ، إلى آخر هذه المغالطات .

و يعدون من هؤلاء الأئمة « محمد بن إسماعيل » زعيم مذهبهم ، ولا يلبثون أن يقرروا له أن عنده وحده علم المستورات و بواطن الأمور التي لا يمكن أن توجد عند غيره ، فهو وحده الذى عنده سر الله تعالى وتأويل آياته الخ . و يقررون له أن دعاته هم العارفون بذلك كله من بين سائر طوائف الشيعة لأنهم أخذوا عنه . فإذا أقنعوه بذلك نقلوه إلى :

---

(١) وقد كانوا حينئذ لا يعرفون منها إلا سبعة .

المرتبة الرابعة

وثمة يقرر له الداعى أن عدد الأنبياء الناسخين للشرائع المبدلين لأحكامها سبعة ـ كعدد الأئمة وعدد الكواكب ـ الخ ، وأن كل واحد منهم لا بد له من صاحب يأخذ عنه دعوته، و يظاهره عليها فى حياته، ثم يورثها خلفاً له وهكذا . و يعدون من هؤلاء السبعة : « محمد بن إسماعيل » الذى انتهى إليه علم الأولين والآخرين وعلم بواطن الأمور وكشفها الخ . و يؤكدون له أن الهداية والرشد فى موافقته والحيرة فى العدول عنه . فإذا تم ذلك نقلوه إلى :

المرتبة الخامسة

وفيها يقررون أنه لا بد لكل إمام قائم فى كل عصر من حجج متفرقين فى جميع الأرض وعدتهم اثنا عشر رجلا ـ بعدد بروج الكواكب وشهور السنة ـ لأن الله لم يخلق هذا النظام عبثاً . ثم ينقلونه إلى :

المرتبة السادسة

وفيها يفسرون شرائع الإسلام ـ من صلاة وزكاة وحج وطهارة ـ بأنها رموز وفروض قد وضعت لمصلحة العامة وسياستهم حتى يشتغلوا بها عن بغى بعضهم على بعض ، وأن لهذه الرموز معانى غير ما تدل عليه ظواهرها . و يحقرون له أمر السمعيات و يهونون عليه شأنها طالبين إليه أن يقتصر على الأدلة العقلية وحدها ـ بعد أن يحببوه فى الفلسفة والنظر فى كلام « أفلاطون » و « أرسطو » و « فيثاغورس » وأضرابهم .

ثم ينقلونه بعد أن يثقوا به إلى :

المرتبة السابعة

فيقررون له أن الناصب للشريعة لا يستغنى بنفسه ، ولا بد له من صاحب معه يعرضه ليكون أحدهما : الأصل ، والآخر هو الذى صدر عنه — كالعالم السفلى — الذى صدر عنه ثم ينقلونه إلى :

المرتبة الثامنة

وفيها أن مدبر العالم إنما تقدم على الصادر عنه تقدم العلة على المعلول، وثمة كانت الأعيان كلها ناشئة وكائنة عن الصادر الثانى . وأن السابق — مع ذلك — لا اسم له ولا صفة ولا يعبر عنه ولا يقيد ، فلا يقال : « هو موجود ولا معدوم ، ولا قادر ولا عاجز ، ولا قديم ولا محدث » بل القديم أمره وكلمته ، والمحدث خلقه وفطرته . وأن الثانى يدأب فى أعماله حتى يلحق بمنزلة السابق ، وليس معنى يوم القيامة والقرآن والثواب والعقاب — كما يفهمه العامة — بل هو حدوث أدوار عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب . ثم ينقلونه إلى :

المرتبة التاسعة

وهى نهاية ما يرمى إليه الداعى — بكل ما سلكه من ضروب السفسطة والمغالطات والثرثرة — وفيها يقول للمدعوّ :

« إن كل ما ذكر — من الحدوث والأصول — رموز إلى معانى المبادئ ، وتقلب الجواهر ، وليس الوحى إلا صفاء النفس ، وإن الأنبياء ينظمون الشرائع بحسب حاجة الدهماء ، فهم لا يصلحون للخاصة . أما أنبياء الخاصة فهم الفلاسفة وحدهم . »

ويقولون لهم :

« إن وجود الإمام إنما هو فى العالم الروحانى إذا صرنا إليه بالمعارف والرياضة، وإن ظهوره الآن إنما هو ظهور أمره ونواهيه على لسان أوليائه . »

*
* *

أرأيت من هو داعى الدعاة الذى يتصدى لتفسيق المعرى والتشنيع عليه باسم الدين ؟

أرأيت هذا الرجل الذى ينقض الدين من أساسه ، ثم يعنف « المعرى » جاهداً لأنه خالف الدين مخالفة صريحة حين ترك أكل اللحوم رحمة بالحيوان ؟

« جنوا كبائر آثام ، وقد زعموا أن الصغائر تجنى الخلد فى النار »

ألا ترى إلى هذا الرجل الذى ينطبق عليه قول المعرى :

« يا ظالما عقد اليدين مصليا من دون ظلمك يعقد الزنّار ! »

وقوله :

« بخيفــة الله تعبدتنـــا وأنت عين الظـالم اللاهى »
تأمرنا بالزهد فى هذه الدنـــيا ، وما همك إلا هى ! »

* * *

والآن — بعد أن عرفنا حقيقة هذا الرجل — نفحص فى ضوئها عما حوته الرسائل التى دارت بينه و بين المعرى .

— ٢ —

بين المعرى وداعى الدعاة[١]

« أنا ذلك المريض رأيا وعقلا ،
وقد أتيتك مستشفياً فاشفنى »
« داعى الدعاة »

قلنا فى المقال السابق : إن داعى الدعاة لم يرد مناقشة أبى العلاء للاسترشاد والاستفادة منه ، بل قصد إلى التحرش به قصدا ، ورمى إلى استفزازه و إحراجه وتسوىء سمعته .

وقد لخصنا المذهب الإسماعيلى الذى كان يدعو إليه داعى الدعاة ، ليعرف القارئ أن الغيرة الدينية كانت آخر شئ يدور بخلد داعى الدعاة ، وأن الخصومة الشخصية ، والمآرب السياسية هما وحدهما الحافز الأول والأخير .

وما كان « المعرى » ليجهل خطر داعى الدعاة ومرامى كلماته ، وما كان لينسى أن فى ثنايا تواضعه الذى يذيعه — فى أثناء كلامه — كبرياء وسخرية دونهما كل كبرياء وسخرية .

ولعل القارئ لا يخفى عليه ما يعنيه بقوله :

« أنا ذلك المريض رأيا وعقلا ، وقد أتيتك مستشفياً فاشفنى . »

فهو يقرع « المعرى » ويسخر منه فى صورة المتواضع المسترشد .

وقد جامله « المعرى » فى رسائله بكل ما وسعه طوقه من مجاملة ، وغمره بعبارات الثناء والمديح رغبة فى صد هجماته ، ودفعاً لشره وأذاه ، فما أغنت هذه المجاملات إلا قليلا ، وكان « المعرى » لا يكاد يجيبه عن سؤال إلا زج فى تضاعيف إجابته أمثال هذه الجمل :

« سيدنا الرئيس الجليل ، عصمة المؤمنين ، هدى الله الأمم بهدايته ، وسلك بهم طريق الخير على يده . » « ضوّأ الله الظُّلَمَ ببصيرته ، وأذهب شكوك الأفئدة برأيه » « أيد الله الحق بحياته » « أدام الله قدرته » ، « لا زالت القلوب معمورة بعظاته » « لا زال يُضَوِّئ قلوب المؤمنين . » « جمل الله بحياته الشريعة ، ونصر بحجته الملة . »

---

(١) نشرت بمقتطف شهر نوفمبر سنة ١٩٣٠

فإذا رآه يتمثل ببيت للمتنبى فى إحدى رسائله، أكبر منه هذا وعده تفضلاً منه على المتنبى، وقال: «وأما تمثله ببيت أبى الطيب، فلو بلغه ذلك لابتهج، إذ كان مثله يتمثل بشىء مما نظمه.»

ويبالغ «المعرى» فى مجاملته والتحبب إليه، فيقول:

«ولو ناظر أرسطاطاليس لجاز أن يفحمه، أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه.»

وقد حاول «المعرى» أن يتنصل من الرد عليه — حين رأى ما يرمى إليه — وتعلل بضعفه وشيخوخته، وأنه لو مثل فى حضرة «داعى الدعاة» لعلم أنه لم يبق فيه بقيـة لأن يسأل ولا أن يجيب، لأن أعضاءه متخاذلة، وقد عجز عن الصلاة قائماً، وإنما يصلى قاعداً.»

ثم يقول:

«وإنى لأعجز — إذا اضطجعت — عن القعود، فربما استعنت بإنسان، فإذا همّ بإعانتى وبسط يديه، لينهضنى اضطربت عظامى، لأنهن عاريات من كسوة كانت عليهن، فعرّتهن منها الأوقات المتمادية، وإنما عنيت ما كان من اللحم.[١]»

ويقول:

«وسيدنا الرئيس الأجل صاحب ورع ودين وهداية ينتفع بها المهتدون، ومن استرشد بمثل العبد الضعيف العاجز[٢] فإنما مثله مثل من طلب — فى القتادة — ثمر النخلة، وإنما

---

(١) وقريب من هذا قوله فى رسالة الملائكة:

«وحق لمثلى ألا يسأل، فان سئل تعين عليـه ألا يجيب، فان أجاب، ففرض على السامع ألا يسمع منه، فان خالف باستماعه ففريضة ألا يكتب ما يقول، فان كتب فواجب ألا ينظر فيـه، فان نظره فقد خبط خبط عشواء، وقد بلغت سن الأشياخ، وما صار بيدى نفع من هذا الهذيان، والظعن إلى الآخرة قريب الخ.»

وقوله فى اللزوميات:

«أصبحت كالقوس — حنتها أساورها — وكنت كالسيف أو كالسهم ينصلت.»

(٢) عودنا «المعرى» الافراط فى التواضع، كما عودنا الافراط فى ذم نفسه وتنقصها دائماً، فهو القائل:

«نصحتك لا تغـترر يا أخى ... بى فأنا الرجـل الساقـط
ولو كنت ملق بظهر الطريق ... لم يلتقط مثـلى اللاقـط.»

وهو القائل: «دعيت أبا العلاء وذاك مين ... ولكن الصحيح أبو النزول»

والقائل: «تشابه أنفس الحشرات نفسى ... يكون لهن — بالصيف — ارتباط.»

والقائل: «أقررت بالجهل وادعى فهمى ... قـوم، فأمرى وأمرهم عجب
والحق أنى وأنهم هـدر ... لست نجيبـا ولا هم نجب»

حمل سائله على ذلك حسن الظن الذى هو دليل على كرم الطبع ، وشرف النفس ، وطهارة المولد ، وخالص الخيم .

ومن استرشد بسيدنا الرئيس الأجل المؤيد فى الدين — أجزل الله حظ الإسلام بدوام أيامه — كان كطالب الذهب من معدنه . »

ويقول :

« وهو بكتابه إلىّ متواضع ، ومن أنا حتى يكتب مثله لمثلى ، مثله فى ذلك مثل الثريا كتب إلى الثرى الخ . »

ولكن ماذا يعنى مناظره من ذلك كله ؟ إنه يريد من « المعرى » — كما يقول — جواباً صريحاً يشفى الغلة ، وقد رأى — فى هذه المجاملات — ما يضيع عليه القصد ، فقال فى ختام رسائله : إنه يريد منه الاستدلال ، ورفض الحشمة، وحذف تكلف الخطاب بـ «سيدنا» و «الرئيس» وما يجرى هذا المجرى، لأنه — فيما يزعم — لا يريد أن يتخلل كلامهما شىء من زخارف الدنيا .

وقد طلب إلى «المعرى» أن يكف عن السجع ، حتى لا تضيع المعانى بين شتى أسجاعه ، فقـــال :

« ثم إن قام من الشيخ نشطةٌ لجواب ، أعفانى فيه من قصد الإسجاع ، ولزوم ما لا يلزم ، فإن ملتمسى فيه المعانى لا الألفاظ »

وقد أدرك « المعرى » ما يعنيه داعى الدعاة بهذا الرجاء ، فلم يأل جهداً فى إضاعة قسم كبير من رسالته التالية فى الدفاع عن السجع والانتصار له . وقد أحسن « المعرى » فى دفاعه عن السجع ، وتخير لذلك الدفاع أقوى الحجج والبراهين ، وأيد دفاعه بما استشهد به من الأحاديث والآيات القرآنية ليسد عليه هذه الطريق .

دفاع المعرى عن السجع

على أن السجع كاد يصبح من مقتضيات هذا العصر ولوازمه ، وقد أفلتت من داعى الدعاة عدة سجعات — جاءت عفواً فى رسائله — لتغلب السجع عليه وعلى معاصريه جميعاً .

ولم يكن بدعاً أن يولع « المعرى » بالسجع بعد أن رأيناه يولع بكل قيد — من قيود الحياة — فيرضى لنفسه الحبس، ويحرمها لذات الحياة ونعمها الجثمانية، ويروضها على التزام ما لا يلزم فى الشعر، فيضاعف قيد القافية، إلى آخر ما أخذ به نفسه من هذه القيود.

وقد دافع « المعرى » عن السجع بأن الناس — فى الإسلام — قد استحسنوا السجعات، وكثرت فى خطبهم ومراسلاتهم، فقلما يخطب بخطبة على منبر إلا وفيها سجع، قال:

« وأما خطباء العراق فلهم خطب تكون من أولها إلى آخرها مسجوعة — على الباء أو التاء وغيرها من الحروف — وروى أن بعض الملوك قال لبعض الفقهاء:

« بلغنى أنك تحب السجع. » فقال: « نعم »

وقرأ عليه آيات من قوله تعالى:

« والشمس وضحاها »[1]

*
* *

والفواصل التى جاءت فى الكتاب الأشرف على ضروب، منها ما هو متباعد لا يجرى مجرى السجع، وفيها ما يجرى مجرى المسجوعات، كقوله تعالى:

« والفجر وليال عشر، والشفع والوتر » وكذلك قوله: « ألم تر كيف فعل ربك بعاد[2] »

وقد أبدع « المعرى » ما شاء له ظرفه وكياسته أن يبدع، فقال يداعب داعى الدعاة، ويسخر من الذين يحرمون السجع:

« ولو علمت الحمائم الساجعة أن الله — سبحانه — أو نبيه صلوات الله عليه يكره سجعها على الغصون، لخرست عنه، وتبرأت منه، وكذلك النوق الموصوفة بأنها ساجعات، كما قال « متمم بن نويرة »:

« إذا حنت الأولى سجعن لها معاً »

(١) يشير إلى الآيات الكريمة: « والشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها، ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها الخ. »

(٢) يشير إلى الآيات الكريمة: « ألم تر كيف فعل ربك بعاد؟ إرم ذات العماد، التى لم يخلق مثلها فى البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذى الأوتاد. »

ثم علل النهى عن السجع بقوله :

« و إنما كرهه النبى صلوات الله عليه لأنه كثر فى كلام الكهان . فنهى عنه غير محرم له ، وقد روى عنه كلام مسجوع الخ »

محـور الرسائل

أما المحور الذى دارت عليه الرسائل، فهو سر امتناع «المعرى» عن أكل اللحم ، وقد أحسن « المعرى » ظنه بسائله فى رسالته الأولى ، فلما رأى فى رده عليه ما يبيته له ، رجع على أعقابه ، وراح يتلمس — من المعاذير — كل ما وسعه ، وما زال مناظره يضيق عليه الخناق ، حتى دفع آخر عذر له ، وهو الفقر ، فقال له :

« وقد كاتبت مولاى تاج الأمراء — حرس الله عزه — أن يتقدم بإزاحة العلة فيما هو بُلْغَةُ مثله من ألذ الطعام ، ومراعاته على الإدرار والدوام ، لتتكشف عنه غاشية هذه الضرورة ، و يجرى أمره على أحسن ما يكون من الصورة[(١)] »

ولكن « المعرى » اعتذر عن قبول الزيادة فى رزقه بأبلغ اعتذار وأرق أسلوب ، فقال :

« وأما ما ذكره من المكاتبة فى توسيع الرزق ، فيدل على إفضال ورثه عن أب فأب ، وجد فى أثر جد ، حتى يصل النسب إلى التراب ، فالعبد الضعيف العاجز ما له رغبة فى التوسع ومعاودة الأطعمة — وتركُها صار له طبعاً ثانياً — و إنه ما أكل شيئاً — من حيوان — خمساً وأربعين سنة .

« والشيخ لا يترك أخلاقه   حتى يوارى فى ثرى رمسه »

« وقد عُلم أن السيد الأجل تاج الأمراء ، فخر الملك ، عمدة الإمامة ، وعدة الدولة ومجدها، لو فتحت يأجوج ومأجوج لجاز أن يضمن لهم قرى الأضياف ، وود العبد الضعيف العاجز لو أن قلعة حلب وجميع جبال الشام جعلها الله ذهباً لينفقه تاج الأمراء ، نصير الدولة النبوية — على إمامها السلام ، وكذلك على الأئمة الطاهرين آبائه — من غير أن يصير إلى العبد الضعيف من ذلك قيراط . وهو يستحى من حضرة « تاج الأمراء » أن ينظر إليه

---

(١) وهذه أمثلة من سجعات داعى الدعاة الذى نهى « المعرى » عن السجع .

بعين من رغب فى العاجلة — من بعد ما زهد وهو يرضى أن يلقى الله — جلت قدرته — وهو لا يطالب إلّا بما فعل من اجتناب اللحوم ، فإن وصل إلى هذه المرتبة فقد سُعد . »

*
* *

وليس عجيباً من داعى الدعاة هذا الإصرار ، وما هو بعجيب من أبى العلاء أن يصر على امتناعه وإبائه ، رغم ما فى هذا الإصرار من اسخاط مناظره العنيد .

وكيف يرضى « أبو العلاء » أن يريق دم حيوان ، بعد أن وصل به العطف على كل ذى روح إلى أبعد غاياته ، فأصبح يشفق على البرغوث وينهى عن قتله ، ويدلل على رأيه تدليلاً جدياً — غير عابث ولا هازل — فيقول :

« تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبرُّ من درهم تعطيه محتاجا »

ولماذا :

« كلاهما يتوقى — والحياة له عزيزة — ويروم العيش مهتاجا »

ثم يغضب للغراب ، فيطلب إليه أن يجزى الناس — على ظلمهم — عدواناً بعدوان ، وإساءة بإساءة ، إذ يقول :

« جُرْ يا غراب وأفسد ، لا أرى أحداً إلاّ مسيئاً ، وأى الناس لم يجُرِ
لو كنت حارس أثمار لهم ينعت - وصادفوك - لما أخلوك من حجر »

ويتألم للعصفور يعذبه الوليد القاسى — بلا رحمة ولا شفقة — فيقول :

« وابك على طائر — رماه فتى لاهٍ — فأوهى بفِهره[1] الكتفا
بكَّر يبغى المعاش مغتبطاً فقص — عند الشروق — أو نتفا
كأنه فى الحياة ما فرَع[2] الغصـنَ ، فغنى عليه أو هتفا »

وينهى عن أكل البيض فيقول :

« ولا تأخذ ودائع ذات ريش فما لك أيها الإنسان بِضّنَهْ »

إلى آخر هذه الأمثلة التى امتلأت بها لزومياته .

---

(١) الفهر : الحجر يملأ الكف (٢) علا

ومن أظرف ما يلاحظه المتأمل أن « المعرى » لم يظهر رضاه عن ذبح الحيوان فى الدار الآخرة — فى رسالة الغفران — إلا بعد أن تخيل أن الحيوان يجد فى ذبحه لذة لا تعادلها لذة ، وأنه — بعد أن يذبح — يعود سيرته الأولى ، فإذا عظامه قد اكتسين لحماً ، وسار يتخطر فى مشيته فى الفراديس كما كان يفعل قبل ذبحه .

*
* *

وما لنا نذهب بعيداً ، وقد ألم « المعرى » بفلسفته النباتية فى قصيدته الحائية التى اتخذها داعى الدعاة تكأة يبرر بها هذه المناظرة الحامية الوطيس .

فهو يقول فى هذه القصيدة الرائعة التى لخص فيها شريعته النباتية أبدع تلخيص :

« فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالماً   ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح »

ويدافع عن ذلك بقوله فى رسائله :

« ولا يقدر أحد أن يدفع أن الحيوان البحْرى لا يخرج من الماء إلا وهو كاره ، وإذا سئل المعقول عن ذلك لم يقبح ترك أكله — وإن كان حلالاً — لأن المتدينين لم يزالوا يتركون ما هو لهم حلال مطلق . »

ثم ينهى عن استعمال اللبن فى قوله :

« ... ولا بِيضَ أُمّاتٍ أرادت صريحهُ   لأطفالها دون الغـوانى الصرائح . »

وهو يريد بالبِيض « اللبن »

ويقول فى تبرير رأيه فى رسائله هذه : « وإذا قيل إن الله — سبحانه وتعالى — يساوى بين عباده فى الأقسام ، فأى شىء أسلفته الذبائح من الخطأ حتى يمنع حظها من الرأفة والرفق ؟ »

ثم يقول :

« ولا تفجعن الطير – وهى غوافل –   بما وضعت ، فالظلم شر القبائح . »

وقد دلل « أبو العلاء » على صحة رأيه هذا ، متخذاً من قول الرسول : « أقروا الطير فى وكناتها . » . وما ورد فى القرآن — من النهى عن صيد الحرم — تكأة يبرز بها قصده ، فقال :

« إنه لا لوم عليه إذا طاب التقرب إلى رب السموات والأرضين بأن يجعل صيد الحل آمناً كصيد الحرم ! »

وقد نهى عن استعمال العسل — كما نهى عن استعمال اللبن — فقال :

« ودع ضَرَبَ النحل الذى بكرت له كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته كى يكون لغيرها ولا جمعته للندى والمنائح . »

وعزز هذا الرأى فى رسائله بقوله :

« لما كانت النحل تحارب الشائر عن العسل بما تقدر عليه ، وتجتهد أن ترده عن ذلك ، فلا غرو أن أعرض عن استعماله رغبة فى أن تجعل النحل كغيرها مما يكره ذبح الأكيل ، وأخذ ما كان يعيش به لتشربه النساء كى يبدنّ . »

ولو عرف داعى الدعاة توكيد جمهرة من العلماء أن بعض النحل هادىء وديع لا يحارب الشائر عن العسل كالنحل الكرنيولى والقوقازى ، لاحتج بهذا الرأى على أبى العلاء !

وقد ذكر « أبو العلاء » شيئاً من كلام العرب ليدلل به على صحة رأيه ، ويثبت ما يعانيه الحيوان من الألم ، كقول قائلهم ، يصف ما يلحق الناقة من الألم والوجد إذا فقدت فصيلها :

« فما وجدت كوجدى أم سقب أضلته فرجعت الحنينا . »

وقد قال « المعرى » :

« وإن الضائنة تكون فى محل القوم — وهى حامل — فإذا وضعت وبلغ ولدها شهراً - أو نحوه - اعتبطوه فأكلوه ورغبوا فى اللبن ، وباتت أمه ثاغية ، لو تقدر لسعت له باغية . »

وفى هذه الصورة من الألم والروعة ودقة التصوير ما لا يخفى على القارىء .

*
* *

وقد نظم « المعرى » فى لزومياته قصيدة طويلة يمتدح فيها الديك ويتغنى بفضائله ، وينعى على الصائم أن يفطر على إزهاق روح ، فقال مخاطباً الديك :

« ولو كنتَ لى ما أرهفتْ لك مدية ولا رام إفطاراً بأكلك صائم . »

ونحب أن يمتع القارىء نفسه بقراءة هذه القصيدة الفذة فى لزومياته .

*
* *

ولكن ما لداعى الدعاة وهذه الخيالات الشعرية ، إن الله قد أحل ذبح الحيوان وأكله ، فما قيمة هذه الاعتبارات بعد ذلك ؟ وما بال « المعرى » يستأثر بالزهد فى هذه الطيبات ؟

إنه — بلا شك — رجل معاند جاحد ، ولا بد من إرغامه على أكل اللحم وإحراجه بكل وسيلة ، فإذا عجز داعى الدعاة عن ذلك فلا أقل من أن يظفر من كلامه بسقطة يظهره بها أمام الناس بمظهر المعاند . . . . ثم يقول فى ختام رسائله :

« وقبل وبعد ، فأنا أعتذر عن سر له أذعته ، وزمان بالقراءة والإجابة شغلته ، لأننى — من حيث ما نفعته — ضررته . »

— ٣ —

الخير والشـــر(١)

« تباركت يارب السموات صغتها
فليتك فى سوآتها لم تبارك ! »
« أبو العـلاء »

« أبو العلاء » — كما قلت فى مقدمة اللزوميات — رجل سوداوى المزاج ، ممعن فى السخط على الحياة ، بالغ فى برمه مدى لا يشركه فيه إلا القليل النادر من الفلاسفة المتشائمين .

والمعرى لا ينظر إلى الحياة إلا بمنظار شديد السواد ، فهو يراها طافحة بالشر ، مملوءة بالويلات والمصائب ، مُترَعة بالأحزان والمتاعب ، وهو إن قال :

« نعم ، ثَمَّ جزء من ألوف كثيرة   من الخير ، والأجزاء بعد شرور . »

لم يلبث أن يستكثر على الحياة أن يكون فيها جزء من ألوف كثيرة من الخير ، فيقول :

« لا أزعم الصفو مازجا كدرا   بل مزعمى أن كله كدر . »

وقد ملأ لزومياته بالسخط والتبرم على الحياة ، بعد أن برم بها — فى سقط الزند — فى مناسبات شتى فقال :

« تعب كلها الحياة فما أعـ   جب إلا من راغب فى ازدياد

وقال :

« تدعو بطول العمر أفواهنا   لمن تناهى القلب فى وده
يسر أن مد بقاء له   والشر كل الشر فى مده . »

على أن هذه الفلتات التى نعثر بها أحياناً فى « سقط الزند » قد أصبحت من الدعائم التى بنيت عليها فلسفته فى لزومياته ، فأصبح القارىء لا يكاد يظفر بصفحة واحدة فيها خالية من السخط والنقمة على ما يغمر العالم من شرور وآلام . واللزوميات كلها صاخبة صارخة بهذه المعانى حافلة بالتعبير عنها ، فى سخرية هازئة مَرَّةً ، وفى جد قاس مرة أخرى ، وفى ألم لاذع مرة ثالثة ، وفى يأس مميت فى أكثر الأحايين ، ألا تراه يقول :

(١) نشرت بمقتطف يناير سنة ١٩٣١

« دعا لى بالبقاء أخو وداد   رويدك إنما تدعو علَيَّا
وما كان البقاء لى اختيارا   لوَ ان الأمر موكول إليَّا »

ويقول :

يسمى : « سروراً » جاهل متخرص   - بفيه البرى - هل فى الزمان سرور ؟ »

إلى آخر هذه الأبيات التى امتلأت بها لزومياتهُ كلها .

*
* *

والحق أن « المعرى » لو بعث رسولاً لدعا على قومه دعوة « نوح » - عليه السلام - فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك — إن تذرهم — يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » .

*
* *

وما لنا نتخيل ذلك وقد دعا على الناس هذه الدعوة نفسها ، وأربى عليها إرباء ، فقال من قصيدة ملتهبة عنيفة :

« هل ينظرون سوى الطوفان يهلكهم   — كما يقال — أو الطير الأبابيل[1] »

والمعرى يمقت المرأة لأنها أداة النسل ، وهو لا يرى فى النسل إلا شراً مستطيراً ، ويرى فيه جناية الآباء على الأبناء ، ولو نال الأبناء أقصى مراتب الرفعة :

« على الولد : يجنى والد ولوَ انهم   ولاة — على أمصارهم — خطباء »

ويقرر — فى صراحة — أنه يود أن تخلو الدنيا من ساكنيها ليخلصوا من شرورها ، ويقول إن الناس لو رأوا رأيه :

---

(١) وفى هذه القصيدة يقول « المعرى » :

« مضى الزمان ونفس الحى مولعة   بالشر من قبل هابيل وقابيل
لو غربل الناس كيما يعدموا سقطا   لما تحصل شىء فى الغرابيل
أو قيل للنار : « خصى من جنى » أكلت   أجسادهم وأبت أكل السرابيل »

إلى أن يقول :

« سبحان من ألهم الأجناس كلهم   أمرا يقود إلى خبل وتخبيل
لحظ العيون وأهواء النفوس وإه   واء الشفاه إلى لثم وتقبيل »

« لعطلوا هـــذه الدنيا ، فما ولدوا ولا اقتنوا ، واستراحوا من رزاياها »

وهو يرى الشر متأصلاً فى النفس ، والخير لا يأتى إلا عرضاً ، فيقول :

« ألم تر أن الخـــير يكسبه الحجى طريفاً ، وأن الشر ـ فى الطبع ـ متلد . »

إلى آخر هذه الأبيات التى يضيق المقام عن ذكر القليل منها بله الكثير .

والمعرى يمقت الظلم السائد فى العالم أشد المقت ، و يتألم من فتك القوى بالضعيف ، و يندد بذلك فى كل مناسبة ، وهو يقرر — فى صراحة تامة لا لبس فيها ولا إبهام — أن الطبائع كلها مفطورة على هذا الجور ، مجبرة عليه ، وأن البازى يفترس — بطبعه — القطا ، لأن الله — سبحانه — قد أراد له ذلك :

« ولو لم يرد جور البزاة على القطا مكوّنُهـــا ، ما صاغها بمناسر[1] »

وهو يرى الظلم مركبا فى طبيعة الضعيف والقوى على السواء :

« كادت تساوى نفوس الناس كلهم فى الشر ما بين منبـــوز ونباز
ظلم الحمامة فى الدنيـا — و إن حسبت فى الصالحات — كظلم الصقر والباز »

*
* *

هذه هى وجهة الفلسفة العلائية فى تفهم الخير والشر . فانظر إلى وجهة مناظره — داعى الدعاة — ترها على النقيض منها ، وتجد داعى الدعاة « الذى يتوكأ على عصا العقل » — على حد تعبيره — يحاول إقناع « المعرى » بوجوب أكل اللحم ، فيقرر له نظريات يدين « المعرى » بما يناقضها كل المناقضة .

---

(١) وفى ذلك يقول أيضاً :

« ولو لم يقدر خالق الليث فرسه لطعمه ، لم يعطه الناب والظفرا . »

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام بهذه المناسبة قول « المعرى » :

« سبحان من ألهم الأجناس كلهم أمراً يقود إلى خبـل وتخبيل »

وقوله :

« والله يحمد كلما طـال المدى طمت الشرور وقلت الأخيار »

إلى آخر هذا الحمد الساخر الذى يذكرنا بقول القائل :

« لك الحمد ، أما ما نحب فلا نرى ونتظر ما لا نشتهى ، فلك الحمد ! »

فيقول داعى الدعاة :

« أليس النبـات موضوعاً للحيوان الذى يمتار منه ، و بوجوده وجوده واستقامته فى حفظ أعوانه وولادة مواليده ؟ و إنما يستولى الحيوان على النبات بالقوة الحساسة التى ترجح بها على النبات من حيث كونه نامياً فقط وليس بحساس ، وعلى ذلك فالقوة الإنسانية مستولية على الحيوان استيلاء الحيوان على النبات لرجحانها عليه بالنطق والعقل ، وما ينبغى أن يكون[1] أرأف بها من خالقها »

و يرى داعى الدعاة : « أن الله يريد ذلك ، كما يدل عليه وقوع المشاهدة لجنس السباع وجوارح الطير التى خلقها الله — سبحانه — على صنيعة لا تصلح إلا لنتش اللحم وفسخه ، وتمزيق الحيوان وأكله . و إذا كان هذا الشكل قائم العين فى الفطرة ، كان جنس البشر وسيع العذر فى أكل اللحوم . »

و يقول داعى الدعاة :

« و إما أنه[1] يجد سفك دماء الحيوان خارجاً من أوضاع الحكمة ، وذلك اعتراض منه على الخالق الذى هو أعرف بوجوه الحكمة »

*
* *

فأنت ترى الهاوية السحيقة التى تفصل بين النظريتين ، وترى من ذلك أن « المعرى » لم يكن له بد من تقرير نظريته مع ما فى ذلك من الخطر الجسيم الذى يتهدده حين يقررها .

وقد أفاض « المعرى » فى إقناع مناظره أن الحيوان كله إحساس يقع به الألم ، ثم انتقل إلى المشكلة الخطيرة التى عرض لها داعى الدعاة فى رسائله ، فقال : « إذا بنينا القضية المركبة من مُسند ومسند إليه ، ولها واسطتان إحداهما نافية والأخرى استثنائية ، فقلنـا :

« الله لا يفعل إلا خيراً » أفهذه القضية كاذبة أم صادقة ؟

فإن قيل : « إنها صادقة » رأينا الشرور غوالب ، فعلمنا أن ذلك سر خفى » . ثم ذكر « المعرى » طائفة من الشرور التى لا يستطيع مناظره أن يجحد أنها شرور ،

(١) يعنى المعرى

كموت إبراهيم ولد النبى (صلوات الله عليه) ، وقتل « حمزة » عمه ، وقتل « الحسين » ، وسم « الحسن » وقتلى أُحُد ، وكيف فجع « أبو ذؤيب » فى بنيه السبعة الذين شربوا من لبن قد شربت منه حية ، ثم قاءت فيه ، فهلكوا فى يوم واحد الخ . »

وسأل مناظره :

« أفهذه الأشياء خيرات أم شرور ؟ »

فإن قال قائل : « هى مخوفة منكرة » فقد أبطل القضية التى هى مقدمة ، وإن قال : « القضية المذكورة لا تصح، فالسائل بِسَىِّء الأدب يلح » . وإن قال : « القضية منعكسة » فقد لزمه أن يقول :

« إن الله — سبحانه — يفعل الخير والشر . » فإن أبى ذلك رجع إلى ما يقوله المجوس من أن للعالم خالقين، أحدهما فاعل الخير، والآخر فاعل الشر. ومعاذ الله أن نقول هذه المقالة»

ثم قال « المعرى » : « وللسائل أن يقول : « إن كان الخير لا يريد ربنا سواه ، فالشر لا يخلو من أحد أمرين ، إما أن يكون قد علم به ، و إما أن يكون غير عالم به — ونعوذ بالله من هذه المقالة — فإن كان عالماً به فلا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون مريداً له أو غير مريد ، فإن كان مريداً له فكأنه هو الفاعل . كما أن القائل يقول : « قطع الأمير يد السارق » فالأمير قطعها، إلا أنه لم يل ذلك بنفسه . وإن كان غير مريد له فقد جاز عليه ما لا يجوز على أمير — له فى الأرض نظراء كثير — لأنه إذا فعل فى ولايته شيء لا يرضاه ، نكره أشد نكير ، وأمر بزواله .

هذه هى العقدة التى جهد فى حلها المتكلمون — من أهل الشرائع — فلم يجدوا لها انحلالاً ، وأصبح مقالهم ضلالاً . »

*
* *

ولما أحس « المعرى » أنه قد ضيق على مناظره الخناق ، أخذ يناقشه فى مسألة « الرأفة » التى بنى عليها نظريته ، فقال « المعرى » بجرأة عجيبة :

ويقول القائل : « قد ذكرت الأنبياء أن البارئ — جلّت قدرته — رءوف رحيم ، ونشاهد ما هو — على غير ذلك — دليل ، لأنه لو رأف ببنى البشر لوجب أن يرأف بغيرهم من أصناف الحيوان الذى يجد الألم بأدنى شيء ، ولِمَ يخص الإنس بذلك وهم الذين يجنون الكبائر ، ويقدمون على إتيان الذنوب ؟ وقد رأينا الجيشين المنتسب كل واحد منهما إلى الشرع المنفرد ، وكلاهما فى مدد ، ويقتل بينهما آلاف ، أفهذا محسوب من أى الوجهين ؟ وإذا قيل إن البارئ رءوف رحيم ، فلمَ يسلط الأسد على افتراس نسمة إنسية ؟ ولمَ مات بلدغ الحيات جماعة مشهورة ؟ وما الطير الراضية بلقط الحبة ، الراجعة بها إلى الأحبة ، فسُلّط عليها باز أو صقر ، فمنعها من النقر ؟

وإن القطاة لتدع فراخها ظماء ، وتبتكر لترد ماء ، فيصادفها أجدل ، فينال الظفر بقوته ، ويهلك أفراخها أواماً .

وقال بعض الملحدة فى الآية : « وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمود فما أبقى ، وقوم نوح — من قبل — إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ، والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ما غشّى »

إن كان البارئ — جلت قدرته — خلقهم وهو يعلم أنهم مجرمون ، يحرمون التوبة ولا يرحمون ، فكان ينبغى ألاّ يخلقهم ، وإن كان لا يعلم بما يصيرون إليه فهو كغيره من الفاعلين . وقد يربى الرجل ولداً فيكون عاقاً ، أو يملك عبداً فيخرج معانداً مُشاقاً ، ومعاذ الله أن نقول ذلك ؟ »

*
* *

وقد لخص « المعرى » فى هذه السطور القليلة فلسفته المبعثرة فى أشتات آثاره — واللزوميات خاصة — وأبان بصريح العبارة عما يعتقده اعتقاداً جازماً ، وإن حاول أن ينسب هذه الآراء إلى غيره ، ويقنع داعى الدعاة بأنه راوية لا أكثر ولا أقل . فقد طالما ألفنا منه هذا الأسلوب فى رسالة الغفران واللزوميات وغيرهما من كتبه .

على أن داعى الدعاة قد أدرك غرض « المعرى » إدراكاً صحيحاً ، وبعث إليه يقول :

« أهذه هى أنباء الأمور الصحائح التى يهدى بها من استهدى ؟ وهل زاد السقيم بدوائه هذا إلاّ سقماً ، والأعمى الأصم — فى دينه وعقله — إلاّ عمى وصماً ؟ »

ويقول : « وأما ماتبع هذا الفصل من ذكر فجيعة رسول الله (صلوات الله عليه) بابراهيم ولده ـ عليه السلام ـ وذكر سم الحسن وقتل الحسين الخ الجارى كله على سياقة واحدة ، والاستخبار عن كون ذلك خيراً أو شرا ، فهو داخل فى مضمار التقاسيم المذكورة التى عددتها ، وتركتها فى غواشى ظلماتها . فقد سبق القول : إنه ما حل فى السؤال الأول عقالاً ، بل زاد بهذه الأسئلة تيها وضلالا » .

وأما قوله : اللحوم لا يوصل إليها إلا بإيلام الحيوان الخ ، فقد سبق القول بأنه لا يكون أرأف بها من خالقها ، فليس يخلو كونه عادلاً أو جائراً ، فإن كان عادلاً فانه — سبحانه — يقبض الآكل والمأكول جميعاً ، وذلك مسلم له ، وإن كان جائراً لم ينبغ أن نرجح على خالقنا بعدلنا وجوره .

وأما قوله : « وللسائل أن يقول إن كان الخير هو الذى لا يريد ربنا سواه الخ . »

فأقول فى الجواب : « قيل : إن إنساناً ضاع له مصحف فقيل له :

« اقرأ : والشمس وضحاها ، فإنك تجده ! » فقال : « وهذه السورة أيضاً فيه . . . »

فكذلك أقول : « إن هذا أيضاً من ذاك . وجميعه ظلمات ، فأين النور ؟ وإنما قصدناه للنور ، لنعرف أنباء الأمور الصحائح ! »

— ٤ —

أثر هذه الرسائل فى تسوىء سمعة المعرى

« وقبل وبعـد ، فأنا أعتذر عن سر له أذعته ، وزمان بالكتابة والاجابة شغلته فإننى - من حيث ما نفعته — ضررته . »

« داعى الدعاة »

وهكذا أصدر داعى الدعاة قرار الاتهام من أعلى منصة تشريعية فى ذلك الزمن المنكود ، وأصدر داعى الدعاة حكمه بإدانة المعرى الذى مات قبل أن يبلغه نص الحكم ، فلم يستطع له مناقشة أو استئنافاً بعد أن صار فى عالم الخلود .

وهللت جمهرة النـــاس لهـذا الحكم ، وصفق له طر با الأغرار وذوو المــآرب والحاجات والأحقاد جميعاً .

وقد أصدر داعى الدعاة حكمه فى صيغة الاعتذار ، بعد أن دس فيه الاتهام صريحاً لا موار بة فيه ولا لبس .

داعى الدعاة يعتذر للمعرى عن كشف أسراره و إذاعة عقيدته للملأ — عن غير قصد — وهو الذى لم يكتب رسائله إلا ليصل بكل حرف منها إلى هذه الغاية كما أسلفنا القول .

وبم يعتذر داعى الدعاة ؟ وما هى تلك الأسرار الخطيرة التى كشفها ؟ وأى كلام قاله « المعرى » فى رسائله هذه من غير أن يوجزه مرة و يفصله أخرى فى لزومياته وغفرانه وغيرهما من عيون آثاره ؟

ولكن داعى الدعاة — الذى ظهر عجزه واضحاً فى إقامة دليل واضح يثبت به دعاواه — قد أفلح فى زعمه أنه هتك أستار « المعرى » وأذاع من مستوره ما كان يحرص كل الحرص على إخفائه ، فتوهم البسطاء — من معاصريه وغـير معاصريه على السواء — أن عقيدة « المعرى » زائغة لامحالة . و إلا فغيم كان يسترها ؟ وحسبوا أن « المعرى » كان يخفى عقيدته ، حتى جاء داعى الدعاة فأزاح عنها الأستار وهتك عنها الحجب ، فإذا «المعرى» — الذى يميل إلى التقية — زنديق فاجر .

ومن الذى أصدر هذا الحكم القاسى على « المعرى » ؟ هو رجل له مظهر رائع ومخبر خبيث ، فأما مظهره الرائع فذلك لأنه داعى الدعاة ، الذى تلى رتبته قاضى القضاة والذى يتزيا بزيه فى اللباس وغيره ، وينوب عنه أيضاً ، والذى يحيط علمه بجميع مذاهب أهل البيت ويقرأ عليه ، ويأخذ العهد على من ينتقل من مذهبهم إلى مذهبه ، والذى بين يديه من نقباء المعلمين اثنا عشر نقيباً ، وله نواب كنواب الحاكم فى سائر البلاد ، والذى يحضر إليه فقهاء الدولة وعلماؤها فى مكان يطلقون عليه « دار العلم » ولجماعة منهم — على التصدر بها — أرزاق واسعة ، ووظيفته — كما يقولون — من مفردات الدولة الفاطمية . »

*
* *

هذا هو مظهر داعى الدعاة الذى يطالع جمهرة الناس وسوادهم أخاذاً رائعاً ، وهذا هو جاهه الذى تنخلع أمامه قلوب المتملقين ذوى المنافع ، وتزيغ أبصارهم حين يضىء لهم بريقه وسناه .

أما مخبره ، فقد فصلناه بعض التفصيل فى مقالنا الأول ، وأظهرنا طريقته الخبيثة التى كان يسلكها فى زلزلة عقائد المسلمين ، وسلخهم عن دينهم بما أوتيه من قدرة شيطانية بارعة ، جعلت « المعرى » يعرّض به مراراً فى لزومياته ، مما أثار حقده عليه ، ودفعه إلى مقابلة الشر بالشر والعدوان بالعدوان ، فراح يدبج هذه الرسائل المنمقة ليصل إلى غايته التى كان يتحرق شوقاً إليها — وهى تسوىء سمعة المعرى — وقد نجح فى ذلك كل النجاح .

*
* *

فأنت ترى حقيقة هذا الرجل الذى أفلح فى تسوىء سمعة أبى العلاء ، وترى أنه رجل لا عمل له إلا تضليل الناس ، وزعزعة عقائدهم ، ليبث فيها سموم المذهب الباطنى .

وأنت ترى أن داعى الدعاة هو أجدر من ينطبق عليه قول المعرى :

« جنوا كبائر آثام ، وقد زعموا : أن الصغائر تجنى الخلد فى النار[1] . »

---

(١) وقريب من هذا المعنى قول المعرى :

« يعيب أناس أن قوما تعرضوا بحمامهم نصب العيون الشوازر
لقد أفلحوا إن كان لم يجر عندهم — من الوزر — إلا تركهم للمآزر »

والناس قلما يعنون بحقيقة من يصدر الحكم ، وإن عنوا دائماً بمظهره ورفعة منصبه ، وحسبهم أن يتلقفوا الحكم من القاضي[١] قضية مسلمة — مهما يبعد عن الصواب — حتى يصدر حكم آخر من مقام أرفع ، فينقض سابقه .

على أن الشر أعلق بالنفوس وألصق ، وأكثر إذاعة من الخير ، وللمعرى خصوم يتلمسون له سقطة يملأون بها الدنيا ويقيمونها ويقعدونها . والجمهور لا صبر له على متابعة تفاصيل المناقشة الدقيقة والحكم عليها بنفسه ، وحسب المناظر اللبق أن يزعم لنفسه الفوز ويسجله ، ثم يتظاهر برحمة مناظره ، والأسف على ما لحقه من خذلان ، فينخدع بكلامه الجمهور ، ويعتقد أنه غالب منتصر .

وهذا ما فعله داعي الدعاة .

*
* *

وقد مات « المعرى » قبل أن يقرأ الرسالة الأخيرة ، فلم يستطع أن يفند شيئاً من مزاعم خصمه في الانتصار عليه .

ولقد كان كثير من الناس يشغلون أنفسهم بتعرف عقيدة « المعرى » ويميل بعضهم إلى تكفيره ، كما يميل آخرون منهم إلى حسن الظن بدينه وعقيدته ، حتى جاءت هذه الرسائل فرجحت كفة الاتهام أيما رجحان .

ولسنا نزعم أن هذه الرسائل — هي وحدها — التي سوأت سمعة « المعرى » ، ولكنا نميل إلى الزعم بأنها كانت من أكبر الأسباب التي تضافرت على خلق هذا الجو المكفهر حول عقيدته .

---

(١) وقد أبدع الكاتب الانجليزي الذائع الصيت « برنارد شو » في تحليل هذا الرأي في روايته : « Getting Married » فذكر حواراً بين زوج يريد أن يفسخ عقد الزواج ، وآخر يتشبث بتحريم ذلك ! « لأن ما يعقده الرب لا يحله العبد » فيقول له الزوج : «ولكن القسيس الذي عقد الزواج عبد مثلنا» فيجيبه : « ولكنه يمثل سلطة الرب » وتمتد المناقشة فينفد صبر الزوج ويقول له : « لقد عزل هذا القسيس بسبب تهتكه وسوء سلوكه ، ألا تزال مصراً — بعد ذلك — على أن ما عقده لا يزال ثابتاً لا نستطيع أن ننقضه ؟ »

وقد خدع ياقوت — فى جملة من خدع — بهذه الرسائل، وظهر تحامله على « المعرى » واضحاً فى مناسبات كثيرة، فشتم «المعرى» وسفه آراءه، وقال مرة: « إن المعرى — حمار »

ولما لخص رسائله هذه قال فى مقدمة تلخيصه :

« ونقلها على هذا الوجه يطول ، فلخصت منها الغرض دون تفاصح المعرى وتشدقه »

ولم يقل : « دون تفاصح داعى الدعاة وتشدقه » أو على الأقل : « دون تفاصحهما معاً » فينفى بذلك تهمة التحيز والهوى .

والعجيب أن « ياقوت الرومى » — على فضله — لا يكاد يدع فرصة يذكر فيها اسم « المعرى » دون أن يشتمه أو يتنقصه .

فإذا روى « المعرى » — وهو الحجة الثبت الصادق فى روايته ، الذى عرف بالأمانة والدقة وسعة الاطلاع — بعض أبيات قالها أحد اليهود فى الخليفة « عمر »(١) علق عليها « ياقوت » بقوله :

« وهذا يشبه أن يكون شعر « المعرى » قد نحله هذا اليهودى ، أو أن إيراده لمثل هذا واستلذاذه به من أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه »

أرأيت إلى أى مدى تعسف «ياقوت» فى حكمه واشتط ؟ ولكنه الهوى :

« وآفة الرأى الهوى ، فمن علا على هواه عقله فقد نجا »

---

(١) يعنى قول « المعرى » فى رسالة الغفران — انظر الجزء الثالث ص ٢٣٤ - : « ولما أجلى عمر بن الخطاب أهل الذمة عن جزيرة العرب شق ذلك على الجالين ، فيقال إن رجلا من « يهود خيبر » يعرف بسمير بن أذكن ، قال فى ذلك :

يصول أبو حفص علينا بدرة رويدك ، إن المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة مأقط لتشبع ، إن الزاد شىء محبب
فلو كان موسى صادقا ، ما انتصرتم علينا ، ولكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقناكم إلى المين ، فاعرفوا لنا رتبة البادى الذى هو أكذب
مشيتم على آثارنا فى طريقنا وبغيتكم فى أن تسودوا وترهبوا »

وهذا الخبر — كما يراه القارىء — طبيعى ، والابيات لايستبعد صدورها من يهودى موتور أجلاه الخليفة هو وقومه عن جزيرة العرب . والمعرى يفتتح الخبر بكلمة : « يقال » ثم لا يزيد ، ولكن « ياقوت » لايريد أن يقتنع ، ويأبى إلا اتهام شيخ المعرة بسوء النية والتلفيق .

وقد أورد « ياقوت » — فى كتابه معجم الأدباء — شيئاً من أخبار الزارين على « المعرى » وذكر حين تكلم عن ذى الفضائل (١) ما يأتى :

« قرأت فى ديوان شعره بخطه :

أنشدت لأبى العلاء :

« هفت الحنيفة ، والنصارى ما اهتدت ، ويهود حارت ، والمجوس مضـلله
اثنان أهل الأرض : ذو عقل بـلا دين ، وآخر ديّن لا عقـل له »

فقلت مجيباً له :

« الدين آخـذه وتاركه لم يخف رشـدهما وغيهما
اثنـان أهل الأرض ، قلت : فقل يا شيخ سوء ، أنت أيهمـا ؟ »

*
* *

والبيتان « هفت الحنيفة » لا يفهم منهما هذا الفهم الذى فهمه « ذو الفضائل » وأقره « ياقوت » فأثبته من غير مناقشة . وما أجدر من يتصدى لنقد « المعرى » أن يتقصى معانيه حتى لا يزل قدمه ، فإن « المعرى » كثيراً ما يطرق المعنى بأساليب شتى — يوضح بعضها بعضاً — وكثيراً ما يظهر المعنى خفياً فى بعض عباراته جلياً فى الأخرى ، وليس من الإنصاف أن نفهم كلامه فهماً سطحياً ثم نشنع عليه بعد ذلك من غير حق .

والمعرى لا يريد أن يقول : إن كل متدين لا عقل له ، وإن كل عاقل غير متدين . ولكنه يأسف لأنه يرى أكثر المتدينين مقلدين لا يحكمون العقل ، وأكثر من يحكمون العقل يغالون فلا يأخذون بأسباب الدين ، وقد قال « المعرى » فى لزومياته : « كن ديّناً ولبيباً » وقال فى مكان آخر منهـا :

« إذا كان التقى بلهـا وعيا فأعيار المـذلة أتقيـاء »

وهو يعنى بالحنيفة أتباعها ، فهو يقول : « هفا المسلمون والنصارى واليهود والمجوس وضلوا عن طريق الحق والصواب » وهذا كلام لا غبار عليه ، فهو يرى من الناس دائماً

(١) وهو من أدباء القرن السادس ، توفى سنة ٥٢٨ هـ .

شراً لا خير فيه . وقد قال فى موضع آخر من لزومياته ما يوضح قوله : « هفت الحنيفة » وهو قوله :

« كتاب محمد وكتاب موسى ... وانجيـــل ابن مريم والزبور
هدت أمماً فما قبلت ، وبارت ... نصيحتها ، فكل القوم بور »

إلى آخر هذه الأقوال التى يطول بنا الكلام إذا ذكرناها .

وليس « ياقوت » وحده هو المتحامل على « المعرى » فله مشبهون ونظراء كثيرون ، فقد سمع « ابن أبى كدية » قائلاً ينشد قول « المعرى » :

« ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحق لسكان البرية أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا ... زجاج ولكن لا يعاد له سبك »

فقال ابن أبى كدية :

« كذبت – وبيت الله – حلفة صادق ... سيسبكنا – بعد الردى – من له الملك
ونرجع أجساماً صحاحاً سليمـــة ... تعارف فى الفردوس ، ما عندنا شكُ ! »

والبيتان – على ما فيهما من ضعف وركاكة – يدلان على تعسف فى فهم كلام « المعرى » الذى لم يتعرض فيهما لذكر الآخرة[1] فهو يقول : إن الموت هو آخر الحياة الدنيا ونهايتها ، وإن غرور الناس ينسيهم هذه الحقيقة — على بساطتها — فيجعلهم يتخيلون الموت رحلة هينة قصيرة المدى كما يقول فى بعض أبياته :

« يوصى الفتى عنـد الحمام كأنه ... يروح – ليقضى حاجة – ويعود »

وهو يريد أن يقول لهؤلاء النـاس :

« كلا لن تعودوا إلى الحياة مرة أخرى ، فأقلوا من أطماعكم فى الدنيا ، وحرصكم عليها ،

(١) وقد قال « المعرى » فى معنى البيت الأول :

« أعن باكيـا لج فى حـزنه ... وسل ضاحك القوم : مم ابتهج ؟ »

وقال أيضاً

« يسمى سرورا جاهـل متخـرس ... بفيه البرى ، هل فى الزمان سرور ؟ »

ويوضح معنى البيت الثانى قوله :

« افطر وصم » أو صم وأفطر – جاهدا — ... صـوم المنية مـا له إفطـار . »

فأنتم زجاج لا يعاد له سبك ، ولا أمل لكم فى العودة ، فلا توصوا ، فهى رحلة لا عودة لكم منها . »

وما نريد أن ندافع عن « المعرى » ولكنا نريد أن نبين للقارئ تحامل ناقديه عليه ، وتعسفهم فى نقده .

*
* *

ولقد لقى « المعرى » الأهوال ، وكيلت له التهم — من معاصريه وغيرهم على السواء — وأغرى بعض الولاة بتعذيبه[1] ، واتهمه بعض معاصريه : « بأنه وضع كتاب الفصول والغايات فى معارضة القرآن » ورماه غيرهم بالإلحاد .

وقال « ابن الجوزى » فى كتابه « تلبيس إبليس » ما يأتى : « ومن زنادقة الإسلام من لم يبرح على تعثره ، ففاتته الدنيا والآخرة ، مثل ابن الراوندى والمعرى » .

وقال الذهبى :

« والمعرى صاحب التصانيف المشهورة ، والزندقة المأثورة ، وله رسالة الغفران ، قد احتوت على مُزدكية واستخفاف . »

إلى آخر هذه المزاعم التى يطول بنا الكلام إذا ذكرناها وناقشناها .

وحسبنا أن نقول : إن « المعرى » كان مفتوناً بالقرآن وأسلوبه ، وقد كتب فى رسالة الغفران نفسها أروع وأبلغ ما يكتبه إنسان فى وصف القرآن ، وشنع على من تصدى لمحاكاته ، وقد حمل على « ابن الراوندى » حمله شعواء ، وسفهه كل التسفيه لاستخفافه بالدين ، وتصديه إلى محاكاة القرآن .

وقد فند « المعرى » آراء المزدكية بأبلغ حجة وأقوى بيان ، وندد بإباحتهم — فى رسالة الغفران واللزوميات — بصراحة لا مواربة فيها

---

(١) وفى ذلك يقول :

« كأنى — كل حول — محدث حدثا يرى به — من تولى المصر — إغرابى »

فقال مرة :

« شر النساء مشاعات — يكن لنا   كالأرض — يحملن أبناء مشاعينا »

وقال فى مناسبة أخرى :

« أقروا بالإله وأثبتوه   وقالوا : لا نبي ولا كتاب
ووطء بناتنا[1] حل مباح   رويدكم فقد بطل العتاب
تمادوا — فى الضلال — ولم يتوبوا   ولو سمعوا صليل السيف تابوا »

كلمة ختامية

و بعد ، فقد شغل الناس بعقيدة « المعرى » وفلسفته كما شغلوا بشعر « المتنبى » وشاعريته ، واختلفوا فى ذلك اختلافاً بلغت مسافته من الضد إلى الضد . ولا بدع فى ذلك ، فقد ألف الناس أن يشتغلوا بالعظيم ، و يختلفوا فى تقديره .

*
* *

وقد خلد ذكر « المعرى » — رغم أنف حاسديه — وضاع ذكر داعى الدعاة فى غمار الخاملين والمجهولين ، حتى ليصعب على الباحث المؤرخ أن يتعرّف من هو « أبو نصر هبة الله بن موسى » — ممثل منصب داعى الدعاة — وما هى آثاره العلمية أو الأدبية ، و إن كان من اليسير أن يعرف الكثير عن منصب داعى الدعاة الذى يمثله « أبو نصر » هذا وغيره من الممثلين الدينيين الذين لا خطر لهم ولا قيمة إلا بمناصبهم الرفيعة وجاههم العظيم .

---

(١) يشير « المعرى » بهذا إلى قول هذه الفئة — وقد أثبته « المعرى » فى رسالة الغفران هذه — وروى أن قيانهم كانت تضرب بالدف وتقول :

« خذى الدف يا هذه واضربى   وبثى فضائل هذا النبي
تولى نبي بنى هاشم   وجاء نبي بنى يعرب
فلا تبتغى السعى عند الصفا   ولا زورة القبر فى يثرب
إذا القوم صلوا فلا تنهضى   وإن صوموا فكلى واشربى
ولا تحرمى نفسك المؤمنين   من أقربين ومن أجنبى
فكيف حللت لذاك الغريـ   ـب وصرت محرمة للأب ؟
أليس الغراس لمن ربه   ورواه فى عامه المجدب ؟
وما الخمر إلا كماء السحا   ب طلق ، فقدست من مذهب »

وقد شفع « المعرى » رواية هذه الأبيات — كعادته — بلعن قائلها .

وقد مر هذا كله بالقارىء فى ج ٣ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ — من هذا الكتاب .

رسائل الحيوان

رَوَى يَاقُوتُ فى مُعْجَمِهِ أَنَّ السَّبَبَ فِى إِنْشَاءِ تِلْكَ الرَّسَائِلِ ، وَمَا فِيهَا مِنْ حِوَارٍ وَمُنَاقَشَاتٍ مُمْتِعَةٍ : أَنَّ أَبَا نَصْر بن أَبِى عِمْرَانَ — دَاعى الدعَاةِ بمصر — لَمَّا قَرَأَ قَوْلَ أبى العلاء :

غَدَوْتَ مَرِيضَ الْعَقلِ وَالدِّينِ. فَالْقَنِى ... لِتَسْمَعَ أَنْبَاءَ الْعُقُولِ الصَّحَائِحِ[1]

---

(١) هـذا البيت هو مطلع قصيدته التى نعدها تشريعه الخاص فى أمر الحيوان ، وقد أورد فيها حججه ، وبين الأسباب القاهرة التى دعته إلى تحريم أكل اللحوم على نفسه ، ويلى هذا البيت قوله :

فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالماً ... ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح
ولا بَيْضَ أُمَّاتٍ[1] أرادت صريحَهُ ... لأطفالها — دون الغوانى الصرائح
ولا تفجعنّ الطير — وهى غوافل — ... بما وَضَعَتْ ؛ فالظلم شر القبائح
وَدَعْ ضَرَبَ النحل الذى بكرت له ... كواسب من أزهار نبتٍ فوائح
فما أحرزته — كى يكون لغيرها ، ... ولا جمعته للنَّدَى والمنائح
مسحتُ يدى من كل هذا ، فليتنى ... أبهت لشأنى ، قبل شيب المسائح !
بنى زمنى ! هل تعلمون سرائراً ... علمت ؟ ولكنى بها غير بائح
سريتم على غى ، فهلا اهتديتمُ ... بما خبرتكم صافيات القرائح ؟
وصاح بكم داعى الضلال ، فما لكم ... أجبتم — على مَا خَيَّلَتْ[2] — كل صائح
متى ما كشفتم عن حقائق دينكم ... تكشفتمُ عن مخزيات الفضائح
فإن تَرْشُدُوا لا تخضبوا السيف من دم ... ولا تلزموا الأميال[3] سبر الجرائح

---

(١) أمات الحيوانات : أمهاتها (٢) أى من غير تدبر وروية وقصد (٣) الأميال جمع ميل ، وهو المرود .

كَتَبَ إلى المعَرِّيِّ يَقُولُ لَهُ : أَنَا ذلِكَ المريضُ رَأْياً وعَقْلاً ، وقد أتيتُكَ مُسْتَشْفِياً ، فاشْفِنى »

ودارتْ بينهُما مراسلاتٌ فى ذلك .

قال ياقوتُ : « ولما وَقفْتُ على ذَلِكَ ، اشتهيتُ أنْ أقفَ على صورةِ ما دارَ بينهما على وجهِهِ ، حتى ظَفِرْتُ بِمُجَلَّدٍ ، وفيه عدةُ رسائلَ من أبى نصرٍ هبةِ اللهِ بنِ موسى ابنِ أبى عِمْرانَ إلى المعَرِّيِّ فى هذا المعْنىٰ ، انقطعَ الخطابُ بينهُما على المُسَاكَتَةِ »

قالَ : « وَنقلُها عَلَى الوَجهِ يَطُولُ ، فلخَّصْتُ منهَا الغرضَ ، دون تفاصِيحِ المَعَرِّيِّ وَتَشَدُّقِهِ ! »

وَنحنُ نأسَفُ عَلَى فِقْدَانِ ذلك « المجلد النفيس » الذى نشعرُ بشدةِ الحاجةِ إليهِ ، ونشكر لياقوت تلخيصه الذى حَفِظَ لنا جَوْهرَ الرَّسائِلِ ، وإنْ وَدِدْنا لو أنه نقلهَا كما هِىَ بِلَا إيجاز ، وَلكنَّ بعضَ الشرِّ أهونُ مِن بعضٍ .

وإلى القَارِئ تلكَ الرَّسائلَ كما أوردَها ياقوت[1] :

إلى آخر القصيدة التى يرجع إليها القارئ — إن شاء — فى الجزء الأول من اللزوميات ص (١٨٤ — ١٨٥)

(١) هذا ما أثبتناه فى الطبعة الثانية لهذه المجموعة ، سنة ١٩٢٤ — ١٩٢٥ ، و بعد ذلك ببضع سنين عثر الأستاذ محب الدين الخطيب على نصوص هذه الرسائل فى خزانة المرحوم أحمد تيمور باشا ، فنشرها فى مجلته « الزهراء » ثم ظفرنا بنسخة مخطوطة من مجالس داعى الدعاة ، المعروفة بالمجالس المؤيدية ، ومجموعها سبعمائة مجلس ، ووجدنا فيها نصوص رسائل داعى الدعاة فى المائة السادسة منها ، وهى عند صديقنا العالم الهندى السيد محمد حسن الأعظمى ، نقلها بخطه من الخزانة الإسماعيلية فى مدينة « سورت » بالهند ، فقابلنا المخطوطة بالمطبوعة ، واستدركنا ما فاتها ، ثم ضبطناها ، وعلقنا عليها ، وأصلحنا ما بقى محرفا فيها ، وها هى ذى كاملةً مصححة .

الرسالة الأولى :

من داعى الدعاة

الشهادة لأبى العلاء بالأدب

الشَّيْخُ — أَحْسَنَ اللهُ تَوْفِيقَهُ — النَّاطِقُ بِلِسَانِ الْفَضْلِ وَالْأَدَبِ ، الَّذِى تَرَكَ مَنْ عَدَاهُ صَامِتاً ؛ مَشْهُودٌ لَهُ بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ ، مِنْ كُلِّ مَنْ هُوَ فَوْقَ الْبَسِيطَةِ .

غَيْرَ أَنَّ الْأَدَبَ الَّذِى هُوَ جَالِينُوسُ طِبِّهِ ، وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ غَيْبِهِ ، لَيْسَ مِمَّا يُفِيدُهُ كَبِيرَ فَائِدَةٍ فى مَعَاشِهِ أَوْ مَعَادِهِ ، سِوَى الذِّكْرِ السَّائِرِ بِهِ الرُّكْبَانُ ، مِمَّا هُوَ إِذَا نَشَأَ مَعَ الْمَذْكُورِ بِهِ عَلِمَ أَنَّهُ لَهُ بِمَكَانَةِ الْجَمَالِ وَالزِّينَةِ مَا دَامَ حَيًّا ، فَإِذَا رَمَتْ بِهِ يَدُ الْمَنُونِ مِنْ ظَهْرِ الْأَرْضِ إِلَى بَطْنِهَا ، فَلَا بِحُسْنِ ذِكْرِهِ يَنْتَفِعُ ، وَلَا بِقُبْحِهِ يَسْتَضِرُّ(١) .

وجوب التعلق بالعلم النافع

وَإِذَا كَانَتِ الصُّورَةُ هَذِهِ ، كَانَ مُسْتَحِيلًا مِنْهُ — أَيَّدَهُ اللهُ — مَعَ وُفُورِ عَقْلِهِ ، أَنْ جَعَلَ مَوَادَّهُ كُلَّهَا مُنْصَبَّةً إِلَى إِحْكَامِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّقَعُّرِ فِيهَا ، وَاسْتِيفَاءِ أَقْسَامِ أَلْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا ، وَوَفَّرَ عُمْرَهُ عَلَى مَا لَا نَتِيجَةَ لَهُ مِنْهَا : فَتَرَكَ نَفْسَهُ الْمُتَوَقِّدَةَ نَارُ ذَكَائِهَا خِلْوًا مِنَ النَّظَرِ فى شَأْنِ مَعَادِهِ ؛ وَأَنْ يَمْتَارَ(٢)

---

(١) فى هذا المعنى يقول أبو العلاء :

ولا يبالى الميت فى لحده ‏ ‏ ‏ بذمه شيع أم حمده

(٢) امتار : جَلَبَ المِيرَةَ ، أى الطعام ، والمراد هنا أن يأخذ من العلم ما ينفع .

مِنْ عِلْمِهِ ما هُوَ أنفعُ[١] ، فَيمْكُثُ إذَا ذَهَبَ الزَّبَدُ جُفاءً مِنْ غَيْرِهِ ؛ فَإِذَا هُوَ — حرَسَ اللهُ عِزَّهُ — بِمُقْتَضَى هَذَا الْحُكْمِ ، مُرْتَوٍ مِنْ عَذْبِ مَشْرَبِ هَذَا الْعِلْمِ ، وَإِنَّمَا لَيْسَ يَبُوحُ بِهِ لِضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ السِّيَاسَةِ .

دليل نظره فى الآخرة

وَالدَّلِيلُ عَلَى كَوْنِهِ نَاظِرًا لِمَعَادِهِ ، بِدَقِيقِ النَّظَرِ الَّذِى لا يَكَادُ يَجْرِى مَعَهُ جارٍ فى مَيْدَانِهِ ، سُلُوكُهُ الْمَسْلَكَ الَّذِى سَلَكَهُ فى الزُّهْدِ ، وَقَصْدُهُ[٢] شَظَفَ الْعَيْشِ ، وَتَعَوُّضُهُ عَنْ لَذِيذِ الطَّعَامِ بِالْكَرِيهِ ، وَعَنْ لَيِّنِ اللِّبَاسِ بِالْخَشِنِ ، وَتَعَفُّفُهُ عَنْ أَنْ يَجْعَلَ جَوْفَهُ لِلْحَيَوَانِ مَدْفَنًا ، أَوْ أَنْ يَذُوقَ مِنْ دَرِّهَا لَبَنًا ، وَأَنْ يَسْتَطْعِمَ مِنْ طَعَامٍ اُسْتَكَدَّتْ[٣] عَلَيْهِ فى حَرْثِهِ وَإِنْشَائِهِ . وَلَيْسَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ إِلَّا طَرِيقَةَ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ إِذَا آلَمَهَا ، وَنَالَ نَيْلًا مِنْهَا ، اسْتَوْفَى جَزَاءَ فِعْلِهِ بِهَا .

وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ نُصْبَتَهُ[٤] فى سَلَامَةِ الْبَهِيمَةِ الْعَجْمَاءِ مِنْهُ ، فَكَيْفَ فِى إِيثَارِ سَلَامَةِ الْإِنْسَانِ النَّاطِقِ الْعَاقِلِ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ ؟ وَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدِ امْتَدَّ بِهَذَا الْبَالِ[٥] إِلَى أَقْصَى الشَّوْطِ مِنْ مَيْدَانِ الزُّهْدِ ، وَانْتَهَى فِيهِ إِلَى أَبْعَدِ الْبُعْدِ .

---

(١) فى المخطوطة : ينفع (٢) أى إيثاره وتوخّيه . (٣) استكده الأمر : طلب منه الكدّ . فى المخطوطة : استكدت فى حرثه... (٤) النصبة : السارية ، وتكون للهداية فى الطريق ، وقد قال المطرزى فى تعليل قولك : « جعلت هذا نصب عينى » : « أى منصوبها ، أى مرئيها رؤية ظاهرة بحيث لا ينسى ولا يغفل عنه » وهذا التعليل يصلح للنصبة كما صلح للنصب

(٥) من معانى البال : الحال ، وهو المقصود هنا . وفى المخطوطة : الباب

شهرته بالفضل

وَلَمَّا رَأيْتُهُ — عَلَى ظَهْرِ الْغَيْبِ — قَدْ تَمَيَّزَ بِمَا ادَّعَى النَّاسُ لَهُ مِنَ الْفَضْلِ ، وَشَفَعَهُ بِالزُّهْدِ الْمُشْتَمِلِ عَنْ مَقَرِّ الْفَهْمِ وَالْبَصِيرَةِ ، دُونَ الْجَهْلِ ، مِمَّا يَقُولُهُ جُهَّالُ الزُّهَّادِ ، الَّذِينَ يَهِيمُونَ مِنَ الْعَمَايَةِ فِى كُلِّ وَادٍ . وَسَمِعْتُ دَاعِيَةَ الْبَيْتِ الَّذِى يُعْزَى إِلَيْهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ :

غَدَوْتَ مَرِيضَ الدِّينِ وَالْعَقْلِ ، فَالْقَنِى لِتَعْلَمَ[1] أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ

وَهِىَ تَدْعُو إِلَى الاِسْتِنَارَةِ بِأَنْوَارِهِ ، وَالاِهْتِدَاءِ بِمَنَارِهِ ؛ شَدَدْتُ إِلَيْهِ رَاحِلَةَ الْعَلِيلِ فِى دِينِهِ وَعَقْلِهِ ، إِلَى الصَّحِيحِ الَّذِى يُنْبِئُ أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ ، كَمَا أَهْدَى إِلَىَّ[2] مَا يُوقِظُ مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ مَقْبُولَ النَّصَائِحِ .

وَأَنَا أَوَّلُ مُلَبٍّ لِدَعْوَتِهِ ، مُعْتَرِفٍ بِخِبْرَتِهِ ، مُغْتَرِفٍ مِنْ بَحْرِ إِرْشَادِهِ وَهِدَايَتِهِ . وَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يَكُونَ عِنْدَ آخِرِ[3] وَعْدِهِ بِالتَّبْيِينِ وَالإِيضَاحِ ، وَأَنْ يَتَوَقَّدَ — لِكَشْفِ حَنَادِسِ فِكْرَتِى — تَوَقُّدَ الْمِصْبَاحِ ، وَأَنْ لَا يُوطِئَنِى الْعَشْوَاءَ فَيَسْلُكَ بِى فِى الْمَجَاهِلِ ؛ وَلَا يَعْتَمِدَ — فِى إِيرَادِ مَا يُورِدُهُ — أَنْ يُلْبِسَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ .

وَأَوَّلُ سُؤَالِى — أَدَامَ اللهُ سَلَامَتَهُ — سُؤَالٌ خَفِيفٌ فِيمَا لَيْسَ يَهُمُّ كَثِيرًا ، أَقْصِدُ فِيهِ اعْتِبَارَ[4] فِعْلِهِ بِى فِى الْجَوَابِ ، فَإِنِ اسْتَنْشَقْتُ نَسِيمَ الشِّفَاءِ ،

---

(١) فى اللزوميات : لتسمع . والفرق ليس بالكبير . (٢) فى المخطوطة : فيما يوقظ

(٣) فى المخطوطة : أحسن (٤) المراد بالاعتبار هنا المعرفة والقياس ، والمراد أنه سيختبر قبول أبى العلاء لأسئلته وجوابه عليها

سُقتُ السُّؤالَ إلَى المُهِمّ . وَإنْ تَكُنِ الأُخْرى وَقفْتُ بِحَيْثُ انْتَهَيْتُ .
وَباللهِ التَّوْفِيق :

علة تحريم اللحوم والألبان

أَسْأَلُهُ عَنِ العلَّةِ فى تحْرِيمِهِ عَلَى نَفْسِهِ اللُّحُومَ وَالأَلْبَانَ ، وَكُلَّ ما يَصْدُرُ إِلَى الْوُجُودِ مِنْ مَنَافِعِ الْحيَوَانِ ؛ سُؤَالَ مَنْ يَعْرِفُ بِكَوْنِهَا مَخْلُوقَةً لِلأَشْخَاصِ البَشَرِيَّةِ — مِمَّا هُوَ قَوْلُ أَهْلِ الشَّرَائِعِ — مِنَ الْقَوْلِ ، وَيَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَا الْعَقْلِ .

وَأَقُولُ : أَلَيْسَ النَّبَاتُ مَوْضُوعُهَا لِلحيَوَانِ الَّتِى تَمْتَارُ مِنْهَا ، وَبِوُجُودِهَا وُجُودُهَا[1] وَاسْتِقَامَتُهَا ، فى حِفْظِ أَعْوانِهَا[2] ، وَوِلاَدَةِ مَوَالِيدِهَا ؟ وَإِنَّمَا يَسْتَوْلِى الْحيَوَانُ عَلَيْهَا بِالْقُوَّةِ الْحسَّاسَةِ الَّتِى تَرْجحُ بِهَا عَلَى النَّبَاتِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا نَامِيَةً فَقَطْ ، وَلَيْسَتْ بِحَسَّاسَةٍ ؛ فَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْحيَوَانُ ، لَكَانَ مَوْضُوعُ النَّبَاتِ بَاطِلًا لَا مَعْنَى لَهُ .

وَعَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، فَإِنَّ الْقُوَّةَ الإِنْسَانِيَّةَ مُسْتَوْلِيَةٌ عَلَى الْحيَوَانِ ، اسْتِيلَاءَ الْحيَوَانِ عَلَى النَّبَاتِ ، لِرُجْحَانِهَا عَلَيْهَا بِالنُّطْقِ وَالْعَقْلِ ؛ فَهِىَ مُسَخَّرَةٌ بِجَمِيعِهَا . فَمِنْهَا مَا تَأْكُلُ مِنْ لُحُومِهِ وَأَلْبَانِهِ ، وَمِنْهَا ما تَسْتَنْفِعُ بِجُلُودِهِ وَأَوْبَارِهِ ، وَمِنْهَا ما تَسْتَنْفِعُ بِمَرَائِرِهِ[3] ، وَمِنْهَا ما تَنْتَفِعُ بِأَنْيَابِهِ وَمَخَالِبِهِ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ

---

(١) أى وجود الحيوان موقوف على وجود النبات . وداعى الدعاة يؤنث الحيوان والنبات ، ويجوز هذا ، على أن يكون من باب الحمل على المعنى ، أو باعتبار الأفراد .

(٢) فى المخطوطة : أعيانها (٣) المرائر : القوى والعزائم . والمراد : الحيوانات القوية التى تتخذ للجر والحمل .

ذَلِكَ كَذَلِكَ ، لَكَانَ مَوْضُوعُ الْحَيَوَانِ بَاطِلًا ، عَلَى حَسَبِ ما قَدَّمْنَاهُ مِنْ ذِكْرِ النَّبَاتِ ، وَكَوْنِ مَوْضُوعِهَا — لَوْلَا وُجُودُ الْحَيَوَانِ — بَاطِلًا .

وَإِذَا كَانَ تَرْتِيبُ مَوْجُودَاتِ الْعَالَمِ هَـذَا التَّرْتِيبَ ، فَتَجَافِي الشَّيْخِ — وَفَّقَهُ اللهُ — عَنْ الِانْتِفَاعِ بِمَا هُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ ، إِبْطَالٌ لِتَرْتِيبِ الْخِلْقَةِ ، وَدَفْعٌ فِى وَجْهِ الْمَصْلَحَةِ .

ثُمَّ إِنَّ امْتِنَاعَهُ مِنْ أَكْلِ لُحُومِ الْحَيَوَانِ ، لَيْسَ يَخْلُو الْقَصْدُ فِيهِ مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ تَأْخُذَهُ رَأْفَةٌ بِهَا ، فَلَا يَرَى تَنَاوُلَهَا بِالْمَكْرُوهِ ؛ وَمَا يَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ أَرْأَفَ بِهَا مِنَ اللهِ — سُبْحَانَهُ — الَّذِى خَلَقَهَا وَهَيَّأَهَا لِمَصَالِحِ الْبَشَرِ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : إِنَّ الَّذِى أَطْلَقَ الْقَوْلَ بِأَنَّ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ هُوَ بَعْضُ الْبَشَرِ — يَعْنِى أَصْحَابَ الشَّرَائِعِ — وَأَنَّ الْخَالِقَ ما أَبَاحَ إِرَاقَةَ دَمِ حَيَوَانٍ وَلَا أَكْلَ لَحْمِهِ ؛ كَانَ الدَّلِيلُ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِهِ ، وُقُوعَ الْمُشَاهَدَةِ لِجِنْسِ السِّبَاعِ ، وَجَوَارِحِ الطَّيْرِ ، الَّتِى خَلَقَهَا اللهُ — سُبْحَانَهُ — عَلَى صَنِيعَةٍ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِنَتْشِ اللُّحُومِ وَفَسْخِهَا ، وَتَمْزِيقِ الْحَيَوَانِ وَأَكْلِهَا[1] . وَإِذَا كَانَ هَذَا الشَّكْلُ قَائِمَ الْعَيْنِ فِى الْفِطْرَةِ ، كَانَ جِنْسُ الْبَشَرِ وَسِيعَ الْعُذْرِ فِى أَكْلِ اللُّحُومِ ، وَكَانَ مَنْ أَحَلَّ[2] ذَلِكَ لَهُمْ : مُحِقًّا لَا مُبْطِلًا ، وَصَادِقًا لَا كَاذِبًا .

---

(١) لم يغفل أبو العلاء عن هذا ، فقد قال :

« ولو لم يرد جور البزاة على القطا ‏ مصورها ، ما صاغها بمناسر »

ثم أوغل فى هذا المعنى فقال :

« ظلم الحمامة فى الدنيا — وإن حسبت ‏ فى الصالحات — كظلم الصقر والبازى »

(٢) كان فى المطبوعة : من أجل

فَهَذَا أَحَدُ الْبَابَيْنِ .

وَإِمَّا أَنَّهُ يَجِدُ سَفْكَ دِمَاءِ الْحَيَوَانِ ، وَنَزْعَهَا عَنْ أَزْوَاجِهَا ؛ خَارِجًا مِنْ أَوْضَاعِ الْحِكْمَةِ ؛ وَذَلِكَ اعْتِرَاضٌ مِنْهُ عَلَى الْخَالِقِ — سُبْحَانَهُ — الذى هُوَ أَعْرَفُ بِوُجُوهِ الْحِكْمَةِ .

وَهَذَا الْبَابُ الآخَرُ .

طلب الجواب

وَإِذَا أَنْعَمَ الشَّيْخُ — أَدَامَ اللهُ تَوْفِيقَهُ — وَتَفَضَّلَ ، وَسَاقَ إِلَىَّ حُجَّةً أَعْتَمِدُهَا فى هَذَا الْبَابِ ، رَجَوْتُ كَشْفَ الْمَرَضِ — الذى وَقَعَ اعْتِرَافِى بِهِ فى مُسْتَأْنَفِ السُّؤَالِ — بِمَطْلَعِ صُبْحِ بَيَانِهِ ؛ فَيَكُونُ قَدْ غَرَسَ مِنِّى غَرْسًا زَكِيًّا ، وَهَدَانِى صِرَاطًا سَوِيًّا . وَيَزْدَادُ — بِمَكَانِهِ ذَلِكَ — فى مَوَالِجِ الْخَيْرِ وُلُوجًا ، وَفِى مَعَارِجِ اكْتِسَابِ فَضِيلَةِ الشُّكْرِ وَالْأَجْرِ عُرُوجًا . بِمَشِيئَةِ اللهِ وَعَوْنِهِ .

الرسالة الثانية :

من أبي العــــلاء

قَالَ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ :

أَوَّلُ مَا أَبْدَأُ بِهِ أَنِّى أَعُدُّ سَيِّدَنَا الرَّئِيسَ الْأَجَلَّ الْمُؤَيَّدَ فِي الدِّينِ — أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ، وَأَدَامَ عَلَاءَهُ — مِمَّنْ وَرِثَ حِكْمَةَ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَعُدُّ نَفْسِيَ الْخَاطِئَةَ مِنَ الْأَغْبِيَاءِ. وَهُوَ — بِكِتَابِهِ إِلَيَّ — مُتَوَاضِعٌ، وَغَيْرُ شَرَفِهِ الْخَاضِعُ(١)؛ بَلْ هُوَ مَعَ النُّجُومِ جَارٍ، لَا يَفْتَقِرُ لَيْلُهُ إِلَى الْإِفْجَارِ. وَاللَّفْظَةُ مِنْ كَلَامِهِ، تَقْضِي عَلَى كُلِّ مَنْ خَالَفَ بِمَلَامِهِ، وَقَدْ حَضَرَتْنِي فِيمَا نَطَقَ بِهِ دَقَائِقُ، هُنَّ لَدَى الْكَشْفِ حَقَائِقُ.

تواضع أبي العلاء

وَمَنْ أَنَا حَتَّى يَكْتُبَ إِلَيَّ؟ مَثَلُهُ فِي ذَلِكَ مَثَلُ الثُّرَيَّا الطَّالِعَةِ كَتَبَتْ إِلَى الثَّرَى، وَهُوَ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَرَى. وَقَدْ عَلِمَ اللهُ أَنَّ سَمْعِيَ ثَقِيلٌ، وَبَصَرِي عَنِ الْأَبْصَارِ كَلِيلٌ(٢). قُضِيَ عَلَيَّ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعٍ، لَا أُفَرِّقُ بَيْنَ الْبَازِلِ وَبَيْنَ الرُّبَعِ(٣)؛ ثُمَّ تَوَالَتْ مِحَنِي، حَتَّى أَشْبَهَ شَخْصِي الْعُودَ الْمُنْحَنِيَ؛ وَمُنِيتُ فِي أُخْرَى الْعُمُرِ بِالْإِقْعَادِ، وَعَدَانِي عَنِ النَّهْضَةِ عَادٍ!

---

(١) خضع : تطامن ، فالشرف الخاضع : غير السامى (٢) وفى رواية : نقيل ، والنقيل : الغريب ، والمعنى يستقيم بشىء من التحيّل ، أى غريب عن الإبصار (٣) البازل : الجمل الذى يكون فى تاسع سنيه ، والرُّبع — كصرد — الذى ينتج فى الربيع ، وهو أول النتاج

شهرة أبي العلاء

وَأَمَّا اشْتِهَارُ اسْمِي، فَقَدْ شَهِدَ اللهُ — جَلَّتْ عَظَمَتُه — أَنِّي لا أَرْغَبُ فِيهِ، إِذْ نَفْسِي — لَدَيَّ — حُقَّتْ بِالتَّسْفِيهِ. وَالذَّمُّ فِي ذَلِكَ لِغَيْرِي، لِأَنَّهُ يَظُنُّ ظُنُونًا كَاذِبَةً، لا تَزَالُ عَنْ صِدْقٍ عَازِبَةً[1]. وَالْكَرِيمُ الصَّادِقُ يَقِيسُ سَجِيَّاتِ الْعَالَمِ عَلَى سَجَايَاهُ، فَيَظُنُّ الْمُبْطِئَةَ مِنْ نَجَايَاهُ[2].

عذر أبي العلاء

فَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ سَيِّدُنَا الرَّئِيسُ الْأَجَلُّ الْمُؤَيَّدُ فِي الدِّينِ — لَا زَالَ مُفْحِمًا لِلْمُخَالِفِ، وَنَاصِرًا لِلْمُوَالِي الْمُؤَالِفِ — فَالْعَبْدُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ يَذْكُرُ لَهُ مِمَّا عَانَاهُ[3] طَرَفًا، لَعَلَّ عُذْرَهُ يُمْسِي مُعْتَرَفًا.

فَأَقُولُ: إِنَّ اللهَ — عَزَّتْ عَظَمَتُهُ — حَكَمَ عَلَيَّ بِالْإِزْهَادِ، فَطَفِقْتُ مِنَ الْعُدْمِ فِي جِهَادٍ. وَتَعَرَّضْتُ لِلدُّنْيَا الْخَادِعَةِ تَعَرُّضَ نَاكِلٍ[4] عَاجِزٍ، لَيْسَ لِخُطُوبِهَا[5] بِالْمُنَاجِزِ، فَرَمَحَتْنِي كَرَمْحِ الشَّمُوسِ[6]، وَقَالَتْ لِي: عَلَيْكَ بِالرُّمُوسِ. وَنَادَتْ: صَاحِبِي سِوَاكَ، وَلَنْ أَبْلُغَ هَوَاكَ!

وَانْصَرَفْتُ كَمَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ: مُكْرَهٌ أَخُوكَ لَا بَطَلٌ، وَحَظِّي مِنَ الْحُلِيِّ الْعَطَلُ. فَغَفَلْتُ بُرْهَةً ثُمَّ أَبِهْتُ[7]، وَنَبَّهَنِي الْفِكْرُ فَانْتَبَهْتُ.

---

(١) عازبة: بعيدة (٢) نوق نجايا: سِراع، جمع: نَجِيَّة، ويقال أيضاً: ناجية.

(٣) فى معجم ياقوت: عاياه. (٤) الناكل، الضعيف. وفى المطبوعة: نكل.

(٥) كان فى المطبوعة، والمخطوطة: خطوتها. والمعنى لا يستقيم بها، فأصلحناها بما ترى.

(٦) الفرس الشَّمُوس: التى تمنع ظهرها. (٧) أَبِهَ للشيء: نسيه، ثم تفطَّن له.

وَهُوَ[١] يَجِلُّ أَنْ أَكُونَ سَائِلاً لَهُ أَوْ مَسْئُولاً، بَلْ هُوَ الأَيْكُ أَتْبَعُهُ سَؤُولاً[٢]. وَلَكِنِّي أَحْكِي الْمَسْئَلَةَ عَنْ غَيْرِي، وَإِنْ كُنْتُ أَبْتَغِي بِهَا مَيْرِي.

احساس الحيوان

وَأَمَّا قولُ العَبْدِ الضَّعِيفِ :

غَدَوْتَ مَرِيضَ الدِّينِ وَالْعَقْلِ، فَالْقَنِي لِتَسْمَعَ أَنْبَاءَ الأُمُورِ الصَّحَائِحِ

فَإِنَّمَا خَاطَبَ بِهِ مَنْ غَمَرَهُ الْجَهْلُ، لَا مَنْ هُوَ لِلرِّيَاسَةِ عَلَمٌ وَأَهْلٌ.

وَقَدْ عَلِمَ — جَمَّلَ اللهُ الْحِكْمَةَ بِبَقَائِهِ — أَنَّ الْحَيَوَانَ كُلَّهُ حَسَّاسٌ، يَقَعُ بِهِ الأَلَمُ، وَحَالُهُ فِي ذَلِكَ يُعْلَمُ.

اختلاف القدماء

وَقَدْ سَمِعَ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ شَيْئاً مِنَ اخْتِلَافِ الْقُدَمَاءِ، يَكُونُ — فِيمَا سَمِعَهُ سَيِّدُنَا الرَّئِيسُ الأَجَلُّ الْمُؤَيَّدُ فِي الدِّينِ — لَا فَتِيءَ إِلَى الْمَنَارِ[٣] هَادِياً، وَعَلَى مَنِ احْتَذَاهُ لِلْمَصْلَحَةِ حَادِياً — جُزْءاً مِنْ أَجْزَاءٍ تُجَاوِزُ فِي الْعَدَدِ الأُلُوفَا، وَيُوجَدُ يَقِينُهَا مَأْلُوفَا.

قضية الخير والشر

فَأَوَّلُ مَا يُبْدَأُ بِهِ أَنَّ قَائِلاً مِنَ الْبَشَرِ لَوْ قَالَ: إِذَا بَنَيْنَا[٤] الْقَضِيَّةَ الْمُرَكَّبَةَ مِنَ الْمُسْنَدِ وَالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، وَلَهَا وَاسِطَتَانِ، إِحْدَاهُمَا نَافِيَةٌ وَالأُخْرَى اسْتِثْنَائِيَّةٌ، فَقُلْنَا: « اللهُ لَا يَفْعَلُ إِلَّا خَيْراً » أَفَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ كَاذِبَةٌ أَمْ صَادِقَةٌ؟

---

(١) أى داعى الدعاة (٢) كان بالأصل: مؤولاً (٣) يشير إلى الحديث: « إن للإسلام صُوًى ومناراً كمنار الطريق » (٤) فى المطبوعة: تبينا، والسياق يدل على أنه يركب قضية على قياس المنطق، فأصلحنا اللفظ بما ترى

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّهَا صَادِقَةٌ ؛ رَأَيْنَا الشُّرُورَ غَوَالِبَ ، وَلِلْخَيْرَاتِ الْمُلْتَمَسَةِ قَوَالِبَ . فَعَلِمْنَا أَنَّ ذَلِكَ سِرٌّ خَفِيٌّ ، لَا يَشْعُرُ بِهِ إِلَّا الْحَفِيُّ[١] .

وَفِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ : « وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ، يَقُولُوا : هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ، يَقُولُوا : هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ . قُلْ : كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ؟ » فَإِنْ قَالَ الْقَائِلُ : قَدْ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ السَّفَرَ ، قَالَ : « اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ » أَفَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَعَوَّذَ مِنْهَا خَيْرَاتٌ أَمْ شُرُورٌ ، لَا يَكْمُلُ بِهَا السُّرُورُ ؟

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : هِيَ مَخُوفَةٌ مُنْكَرَةٌ ، فَقَدْ أَبْطَلَ الْقَضِيَّةَ الَّتِي هِيَ مُتَقَدِّمَةٌ ، لِأَنَّهَا — لِمَا سَلَفَ — طَرُودٌ مُعْدِمَةٌ .

وَإِنْ قَالَ : الْقَضِيَّةُ الْمَذْكُورَةُ لَا تَصِحُّ ، فَالسَّائِلُ بِسَيِّءِ الْأَدَبِ يُلِحُّ .

فاعل الشر

فَإِنْ قَالَ : الْقَضِيَّةُ مُنْعَكِسَةٌ ، وَهِيَ بَعْدَ بَحْثٍ مُنْتَكِسَةٌ . فَقَدْ لَزِمَهُ أَنْ يَقُولَ : إِنَّ اللهَ — سُبْحَانَهُ — يَفْعَلُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ . فَإِنْ أَبَى ذَلِكَ ، رَجَعَ إِلَى مَا يَقُولُهُ الْمَجُوسُ مِنْ أَنَّ لِلْعَالَمِ خَالِقَيْنِ : أَحَدُهُمَا : بُرْدَانُ ، وَهُوَ فَاعِلُ الْخَيْرِ ، وَالْآخَرُ : أَهْرُمُنُ ، وَهُوَ فَاعِلُ الشَّرِّ .

وَمَعَاذَ اللهِ أَنْ نَقُولَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ ؛ بَلْ نُكْرِمُ شَرْعَنَا ، وَنَبْسُطُ — فِي اتِّبَاعِهِ — ذَرْعَنَا .

---

(١) الْحَفِيُّ : كَغَنِي ، الْعَالِمُ ، يتعلم باستقصاء ، ويلحف فى السؤال

الحزن على الراحلين

وَلَمَّا تُوُفِّيَ إبْرَاهِيمُ[١] — عَلَيْهِ السَّلَامُ — بَكَى عَلَيْهِ، فَقِيلَ: يا رَسُولَ اللهِ، أَنْتَ تَنْهَانَا عَنِ الْبُكَاءِ. فَقَالَ: « تَدْمَعُ الْعَيْنُ، وَيَخْشَعُ الْقَلْبُ، وَلَا تَقُولُ ما يُسْخِطُ الرَّبَّ، وَإِنَّا عَلَيْكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ ».

أَفَمَوْتُ إِبْرَاهِيمَ مِمَّا كَانَ النَّبِيُّ — عليهِ السَّلَامُ — يَرَاهُ خَيْرًا أَمْ شَرًّا ؟

وَيَقولُ الْقَائِلُ الْمُجْتَرِئُ: أَفَمَا كَانَ مِنْ قَتْلِ الْحُسَيْنِ وَسَمِّ الْحَسَنِ، الْمُشَرِّدِ عَنِ الْعَيْنِ طَيِّبَ الْوَسَنِ، أَخَيْرًا أَمْ شَرًّا ؟ فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُ خَيْرٌ. فَعَلَامَ نَلْعَنُ الْقَاتِلَ فِى صُبْحٍ وَمَسَاءٍ، وَنَزْعُمُ أَنَّ سُفُنَهُ فِى الْمَآثِمِ ذَوَاتُ إِرْسَاءٍ ؟

وَلِلْبَارِى — عَزَّتْ قُدْرَتُهُ — أَسْرَارٌ، وَقَفَ دُونَهَا الْأَبْرَارُ. وَلَعَلَّ هٰذِهِ الْأَشْيَاءَ مُخْفَاةٌ، إِلَى أَنْ تَقْبِضَ الْحَيَّ وَفَاةٌ.

شهداء الفتح

وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قُتِلُوا يَوْمَ أُحُدٍ، شَأْنُهُمْ مُشْكِلٌ، وَالنَّظَرُ فِى حَدِيثِهِمْ يُشْكِلُ[٢]. أَفَقَتْلُ حَمْزَةَ[٣] حُسِبَ مِمَّا يُحْمَدُ، أَمْ هُوَ عَبْرَةٌ لِلْعَيْنِ وَرَمَدٌ ؟ وَالْحَدِيثُ الْمَشْهُورُ أَنَّ الْغُزَاةَ لَمَّا رَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، بَكَتِ النِّسَاءُ عَلَى قَتْلَاهَا، فَقَالَ (ص): « لَكِنْ حَمْزَةُ لَا بَوَاكِيَ لَهُ! » فَصَارَ النِّسَاءُ يَبْدَأْنَ بِبُكَاءِ حَمْزَةَ، ثُمَّ يَنْتَقِلْنَ إِلَى مَنْ فَارَقَهُنَّ.

وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِىُّ:

صَفِيَّةُ قُومِى وَلَا تَعْجِزِى   وَبَكِّى النِّسَاءَ عَلَى حَمْزَةِ

---

(١) ولد النبي صلوات الله عليه   (٢) أشكل الأمر: غمض والتبس.

(٣) مر حديث عنه فى ص ٧٤ من الجزء الثانى من هذا الكتاب

وَلا تَترُكِى أَنْ تُطيلِى الْبُكا ... عَلَى أَسَدِ اللهِ فِى الْهَزَّةِ

وَالْبُكاء إِنَّما يَحْدُثُ مِنَ الْحُزْنِ ، وَإِنَّ الأَيَّامَ لَكَثيرَةُ الْمِحَنِ !

هجران اللحوم

وَلَمْ يَزَلْ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الدِّينِ يَرْغَبُ فِى هِجْرانِ اللُّحُومِ ، لِأَنَّهَا لا يُوصَلُ إِلَيْهَا إِلَّا بِالْإِيلامِ لِحَيَوَانٍ، يَفِرُّ مِنْهُ فِى كُلِّ أَوانٍ .

وَإِنَّ الضَّائِنَةَ(١) لَتَكُونُ فى مَحَلِّ الْقَوْمِ وَهِىَ حامِلٌ ، فَإِذَا وَضَعَتْ وَبَلَغَ وَلَدُها شَهْرًا أَوْ نَحْوَهُ ، اُعْتَبِطَ فَأُكِلَ نَحْضُهُ(٢) ، وَرَغِبُوا فى اللَّبَنِ ، وَلَمْ يَعْتَدُّوا ذلِكَ مِنَ الْغَبَنِ . وَباتَتْ أُمُّهُ ثاغِيَةً(٣) ، لَوْ تَقْدِرُ لَسَعَتْ لَهُ باغِيَةً !

حنين الحيوان فى شعر العرب

وَقَدْ تَرَدَّدَ فى كَلامِ الْعَرَبِ ذِكْرُ ما يَلْحَقُ الْوَحْشِيَّةَ مِنَ الْوَجْدِ ، وَتَرَدُّدُها مِنَ الْغُلَّةِ بِغَوْرٍ وَنَجْدٍ . وَكَذلِكَ وَلَدُ النَّاقَةِ إِذا فَقَدَتِ الْفَصِيلَ ، ذَكَرَتْهُ غَداتَها وَالْأَصِيلَ . كَما قالَ الْقائِلُ :

فَما وَجَدَتْ كَوَجْدِى أُمُّ سَقْبٍ(٤) ... أَضَلَّتْهُ فَرَجَّعَتِ الْحَنِينَا

وَلا شَمْطاءُ لَمْ يَتْرُكْ شَقاها ... لَها — مِنْ تِسْعَةٍ — إِلَّا جَنِينَا

وَقالَ الآخَرُ :

فَما وَجْدُ أَظْآرٍ(٥) ثَلاثٍ رَوائِمٍ ... أَصَبْنَ مَجُورًا مِنْ جِوارٍ وَمَصْرَعا

---

(١) الأنثى من الضأن ، وفى النسخة المطبوعة : الضانية . ولا وجه لها (٢) نحضه : لحمه

(٣) ثغت الغنم : صوّتت . وكان فى النسخة المطبوعة : ناغية . والأولى ما أثبتناه

(٤) السقب : ولد الناقة ، أو ساعة يولد (٥) الأظآر جمع : ظئر ، وهى العاطفة على ولد غيرها ترضعه .

يُذَكِّرْنَ ذَا الشَّجْوِ الْحَزِينَ بِشَجْوِهِ ... إِذَا نَاحَتِ الْأُولَى ، سَجَعْنَ لَهَا مَعَا
بِأَوْجَدَ مِنِّى ، يَوْمَ فَارَقْتُ مَالِكًا ... فَأَصْبَحْتُ مَحْزُونًا لِذَاكَ مُفَجَّعَا

وَقَالَ الآخَرُ :

كَأَنَّ قُتُودَ رَحْلِى يَوْمَ ضَمَّتْ ... حَوَالِبَ غُرَّزًا وَمِعًى جِيَاعَا
عَلَى وَحْشِيَّةٍ خَلَجَتْ خُلُوجًا ... وَكَانَ لَهَا طَلًا طِفْلٌ فَضَاعَا
فَكَرَّتْ عِنْدَ فِيقَتِهَا إِلَيْهِ ... فَأَلْفَتْ عِنْدَ مَرْبَضِهِ السِّبَاعَا
لَعِبْنَ بِهِ .. فَلَمْ يَتْرُكْنَ إِلَّا ... إِهَابًا قَدْ تَمَزَّقَ أَوْ كُرَاعَا

شَبَّهَ نَاقَتَهُ — فِى سُرْعَتِهَا وَتَرَدُّدِهَا — بِالْوَحْشِيَّةِ الْمَفْجُوعَةِ بِوَلَدِهَا ، لِأَنَّهَا نِهَايَةٌ فِى الْأَسَفِ وَالْقَلَقِ .

التفجع على الأبناء

وَقَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ الْهُذَلِىُّ[1] :

أَوْدَى بَنِىَّ ، وَأَعْقَبُونِى حَسْرَةً ... بَعْدَ الرُّقَادِ ، وَعَبْرَةً مَا تُقْلِعُ
فَالْعَيْنُ بَعْدَهُمُ كَأَنَّ حِدَاقَهَا ... سُمِلَتْ بِشَوْكٍ ، فَهِىَ عُورٌ تَدْمَعُ

أَفَهَذَا خَيْرٌ أَمْ شَرٌّ ؟

وَقَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ أَيْضًا :

فَدَعْ عَنْكَ هَذَا وَلَا تَبْتَهِجْ ... لِخَيْرٍ ، وَلَا تَبْتَئِسْ عِنْدَ ضُرّ
وَخَفِّضْ عَلَيْكَ مِنَ الْحَادِثَا ... تِ ، وَلَا تُلْفَيَنَّ كَئِيبًا بِشَرّ
فَإِنَّ الرِّجَالَ إِلَى الْحَادِثَا ... تِ ، فَاسْتَبْقِنَ[2] أَحَبَّ الْجَزُرْ

---

(١) ترجمته وحديث عنه فى ص ٣٥ و ٣٦ من الجزء الثانى من هذا الكتاب .

(٢) كان بالأصل : فاستبقين

أَبَعْدَ ابْنِ عَجْرَةَ – لَيْثِ الْعَرِيـــنِ – أَمْسَى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ ذَا نَفَرْ

وَهُمْ سَبْعَةٌ – كَعَوَالِى الرِّمَا حِ – حِسَانُ الْوُجُوهِ، لِطَافُ الأُزُرْ

فَيُقَالُ : إِنَّ ابْنَ عَجْرَةَ قُتِلَ لَهُ سَبْعَةُ بَنِينَ فِى وَقْتٍ وَاحِدٍ .

وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ أَبَا ذُؤَيْبٍ كَانَ لَهُ سَبْعَةُ بَنِينَ ، فَشَرِبُوا مِنْ لَبَنٍ قَدْ شَرِبَتْ مِنْهُ حَيَّةٌ ، ثُمَّ قَاءَتْ فِيهِ . فَهَلَكُوا فِى يَوْمٍ وَاحِدٍ .

علم الله بالخير والشر

وَلِلسَّائِلِ أَنْ يَقُولَ : « إِنْ كَانَ الْخَيْرُ لَا يُرِيدُ رَبُّنَا – عَزَّتْ قُدْرَتُهُ – سِوَاهُ ، فَالشَّرُّ لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ عَلِمَ بِهِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ غَيْرَ عَالِمٍ بِهِ – وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ هَذِهِ الْمَقَالَةِ – فَإِنْ كَانَ عَالِمًا بِهِ ، فَلَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُرِيدًا لَهُ ، أَوْ غَيْرَ مُرِيدٍ .

فَإِنْ كَانَ مُرِيداً ، فَكَأَنَّهُ الْفَاعِلُ ، كَمَا أَنَّ الْقَائِلَ يَقُولُ : قَطَعَ الأَمِيرُ يَدَ السَّارِقِ ، فَالأَمِيرُ قَطَعَهَا ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَلِ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ .

وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُرِيدٍ لَهُ ، فَقَدْ جَازَ عَلَيْهِ مَا لَا يَجُوزُ مِثْلُهُ عَلَى أَمِيرٍ ، لَهُ فِى الأَرْضِ نُظَرَاءُ كَثِيرٌ ، لِأَنَّهُ إِذَا فُعِلَ فِى وِلَايَتِهِ شَىْءٌ لَا يَرْضَاهُ ، نَكِرَهُ أَشَدَّ النَّكِيرِ ، وَأَمَرَ بِزَوَالِهِ عَنْ غَيْرٍ[1] .

هَذِهِ الْعُقَدُ قَدْ جَهِدَ فِى حَلِّهَا الْمُتَكَلِّمُونَ – مِنْ أَهْلِ الشَّرَائِعِ – فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا انْحِلَالاً ، وَأَصْبَحَ مَقَالُهُمْ ضَلَالاً .

الرأفة بالحيوان

وَيَقُولُ الْقَائِلُ : قَدْ ذَكَرَتِ الأَنْبِيَاءُ – عَلَيْهِمُ السَّلَامُ – أَنَّ الْبَارِئَ

---

(١) كذا فى الأصل . ولم نعرف له وجهاً .

ـ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ ـ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، وَنُشَاهِدُ ما هُوَ ـ عَلَى غَيْرِ ذلكَ ـ دَليلٌ ، لِأَنهُ لَوْ رَأَفَ بِبَنِي آدَمَ ، لَوَجَبَ أَنْ يَرْأَفَ بِغَيْرِهِمْ مِنْ أَصْنَافِ الْحَيَوَانِ ، الَّذِي يَجِدُ الْأَلَمَ بِأَدْنَى شَيْءٍ . وَلِمَ يَخُصُّ الإِنْسَ بِذَلِكَ ؟ وَهُمُ الذين يَجْنُونَ الْكَبائِرَ ، وَيُقْدِمُونَ عَلَى إِتْيانِ الذُّنوبِ ؟

وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الْوَحْشَ الرَّاتِعَةَ ، يَدْنُو إِلَيْهَا الْفَارِسُ ، فَيَطْعَنُ الْعَيْرَ وَالْأَتَانَ ، وَرُبَّمَا كَانُوا جَمَاعَةً ، فَصَادُوا الْأُتُنَ وَالْأَعْيارَ ، وَهُنَّ ما أَسْدَيْنَ إِليهِمْ أَذَاةً ، وَلا اُشْتَكَوْا مِنْهُمْ شَذَاةً[1] . وَلَمْ يَقْنَعُوا بِالْكَافِي الْعَاجِلِ ، دُونَ ما قُدِّرَ فِي الآجِلِ .

وَلِأَيِّ حَالٍ اسْتَوْجَبَ مَنْ يَفْعَلُ بِهَا هَذَا الرَّأْفَةَ ، وَهِيَ لَمْ تَشْرَبْ مِنَ الْمَآثِمِ بِذَنُوبٍ[2] ، وَلَمْ تُحِسَّ مَا يُكْتَبُ مِنَ الذُّنُوبِ ؟

تقاتل الإنسان

وَقَدْ رَأَيْنَا الجَيْشَيْنِ المُنْتَسِبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى الشَّرْعِ الْمُنْفَرِدِ ، يَلْتَقِيَانِ وَكِلاهُمَا فِي مَدَدٍ ، وَيُقتَلُ بَيْنَهُمَا آلافُ عَدَدٍ .

أَفَهَذَا مَحْسُوبٌ مِنْ أَيِّ الْوَجْهَيْنِ ، فَلَيْسَ عِنْدَ النَّظَرِ بِهَيِّنٍ ؟

حياة أبي العلاء

فَلَمَّا رَأَى العَبْدُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ اخْتِلافَ الْأَقْوَالِ ، وَأَيقَنَ بِنَفَادٍ وَزَوَالٍ . وَبَلَغَ ثَلاثِينَ عَاماً ، سَأَلَ رَبَّهُ إِنْعَاماً ، فَرَزَقَهُ صَوْمَ الدَّهْرِ ، فَلَمْ يُفْطِرْ فِي السَّنَةِ

---

(١) الأذاة ، والشذاة : الأذى (٢) الذنوب : الدَّلْو

ولا الشَّهرَ . إلا فِي الْعِيدَيْنِ ، وَصَبَرَ عَلَى تَوَالِي الْجَدِيدَيْنِ . وَلَزِمَ الإمْسَاكَ عَنِ المآكِلِ ، إلّا أنْ يَلحقَهُ المرضُ ، فيخَافَ معهُ الْحَرَضَ . وظَنِّ اقْتِناعَه بِالنَّبات ، يُثْبَتُ لَهُ فِي الْعَاقِبَةِ جَمِيلَ الإثْبَاتِ . وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ . وفي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ : « إنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُم فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يَضِلُّ ، وَما لَهُم مِنْ نَاصِرِينَ » .

* * *

وَقَدْ عَلِمَ سَيِّدُنَا الرَّئِيسُ الأَجَلُّ الْمُؤَيَّدُ فِي الدِّينِ — لَا بَرِحَ كَوْكَبًا يَفْزَعُ إلَيْهِ الْحَائِرُ ، وَنُوراً يَهْتَدِي بِهِ السَّارِي وَالسَّائِرُ — أَنِّي إلَى إرْشَادِهِ أَفْقَرُ مِنْهُ إلَى إرْشَادِي ، وَقَدْ أَسْلَفَ إلَيَّ الأَيَادِي .

وَالْعَبْدُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ يَسْأَلُ أَنْ يَشْفَعَ يَدًا بِيَدٍ ، لِيَعُمَّ نَفْعُهَا فِي الأَبَدِ . وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ نَظَرَ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَمَا حُكِيَ عَنْ جَالِينُوس وَغَيْرِهِ مِنِ انْتِقَادٍ ، يَدُلُّ عَلَى حَيْرَةِ الاعْتِقَادِ[1] .

فتك الحيوان بالإنسان

وَإذَا قِيلَ : إنَّ الْبَارِيَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ، فَلِمَ يُسَلِّطُ الأَسَدَ عَلَى افْتِرَاسِ نَسَمَةٍ إنْسِيَّةٍ ، لَيْسَتْ بِالْمُفْسِدَةِ وَلَا الْقَسِيَّةِ ؟ وَلِمَ مَاتَ بِلَدْغِ الْحَيَّاتِ جَمَاعَةٌ مَشْهُورَةٌ ، مَا هِيَ بِالزَّلَلِ مَهُورَةٌ[2] ؟

---

(١) كان بالأصل (من اعتقاد ، يدل على خيرة الانتقاد) وهو كلام لا يستقيم ، وقد أصلحناه بما ترى ، فلم نزد ولم ننقص ، إلا فيما كان من رد « خيرة » إلى حيرة ، وتقديم كلمة « انتقاد » ووضع كلمة الاعتقاد مكانها . فاستقام الكلام . (٢) هاره بكذا : ظنه به . فالمهورة بالزلل : التي يُظَن منها هذا . أي أنها معروفة بالحذر والسداد

وَقَدْ قَالَ الْقَائِلُ — بَعْدَ أَنْ وَصَفَ رَجُلاً بِشَجَاعَةٍ وَإِقْدَامٍ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ اللِّئَامِ الْأَفْدَامِ[١] — :

« فَمَضَى ، وَأَدْرَكَهُ الْحِمَامُ بِقَفْرَةٍ فِي رَأْسِ صِلٍّ كَالْهِرَاوَةِ أَعْصَلِ[٢] »

وَقَالَ الْهُذَلِيُّ :

« كَحَيَّةِ جُحْرٍ فِي وِجَارٍ مُقِيمَةٍ تَنَمَّى لَهَا سُوقُ الْمُنَى وَالْجَوَالِبُ »

تفاتل الطير

وَمَا الطَّيْرُ الرَّاضِيَةُ بِلَقْطِ الْحَبَّةِ ، الرَّاجِعَةُ بِهَا إِلَى الْأَحِبَّةِ . فَسُلِّطَ عَلَيْهَا بَازِيٌّ أَوْ صَقْرٌ ، فَمَنَعَهَا مِنَ النَّقْرِ ؟ وَإِنَّ الْقَطَاةَ لَتَدَعُ فِرَاخَهَا ظِمَاءً ، وَتَبْتَكِرُ لِتَرِدَ مَاءً . تَحْمِلُهُ إِلَيْهَا فِي الْقِرْبَةِ ، وَتَرْجِعُ بِهِ إِلَى الذُّرْبَةِ ؛ فَيُصَادِفُهَا دُونَ الْمُدْهُنِ[٣] أَجْدَلُ ، مَا هُوَ بِصَيْدِهَا مُبْدَلٌ . فَيَنَالُ الظَّفَرَ بِقُوتٍ ، مَا هُوَ عَلَيْهِ بِالْمَمْقُوتِ . وَيَهْلِكُ أَفْرَاخُهَا أُوَامًا ، أَفْرَادًا فِي الْغَمْضِ لَا تُوَأَمًا .

أَلَحِقَتِ الرَّأْفَةُ بَازِيًا أَوْ كُدْرِيَّةً ، فَأَخَذَتْ غَضْبًا أَوْ دَرِيَّةً[٤] ؟ « وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ » .

خلو العصاة

وَقَالَ بَعْضُ الْمُلْحِدَةِ — وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ أَحَدَ الْمُعْتَرِضِينَ ، الَّذِينَ هُمْ

---

(١) الفَدْم : العاجز الغبيّ . والجمع : أفدام

(٢) الصل : الحية ؛ والهراوة : العصا ؛ والأعصل : المعوجّ في صلابة .

(٣) المدهن : مستنقع الماء ، أو كل موضع حفره سيل (٤) أي ختلاً

للسُّخْطِ مِنَ الْمُتَعَرِّضِينَ(١) — فى الْكِتَابِ الْعَزِيزِ : « وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ، وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ، وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ، وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ، فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ » . إِنْ كَانَ الْبَارِئُ — جَلَّتْ قُدْرَتُهُ — خَلَقَهُمْ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ مُجْرِمُونَ ، يُحْرَمُونَ التَّوْبَةَ وَلَا يُرْحَمُونَ . فَكَانَ يَنْبَغِى أَلَّا يَخْلُقَهُمْ ؛ لِأَنَّ خَلْقَهُمْ أَدَّاهُمْ إِلَى الْعَذَابِ ، وَالتَّجَرُّعِ مِنَ الصَّابِ(٢) . وَإِنْ كَانَ لَا يَعْلَمُ بِمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ ، فَهُوَ كَغَيْرِهِ مِنَ الْفَاعِلِينَ .

وَقَدْ يُرَبِّى الرَّجُلُ وَلَداً ، فَيَكُونُ عَاقًّا ؛ أَوْ يَمْلِكُ عَبْدًا ، فَيَخْرُجُ مُعَانِدًا مُشَاقًّا .

وَمَعَاذَ اللهِ أَنْ نَقُولَ ذَلِكَ ، بَلْ نُسَلِّمُ ، وَنَتْلُو الْآيَةَ : « مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا » .

وَقَدْ أَقْدَمَ الْكَفَرَةُ عَلَى أَعْظَمِ خَطْبٍ ، وَحَطَبُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ أَشْأَمَ حَطَبٍ .

إيمان أبى العلاء بالبعث

وَفِى الْكِتَابِ الْأَشْرَفِ : « أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُ ، قَالَ : مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ . قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

وَهَذِهِ حُجَّةٌ بَالِغَةٌ فِى أَنَّ خَلْقَهَا مُبْتَدَعَةً ، أَبْعَدُ مِنْ إِنْشَائِهَا مُرْتَجَعَةً .

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ : « الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا ، فَإِذَا أَنْتُمْ

(١) كانت فى الأصل : « الذين هم للسخط معترضين » وهو لا يستقيم معنى وإعراباً . فأصلحناه بما ترى (٢) الصاب ، جمع : صابة ، وهى الشجر المر .

مِنْهُ تُوقِدُونَ » فَتَبَارَكَ اللهُ الْعَظِيمُ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يُحْرِقَ بِوَرَقَةٍ خَضْرَاءَ ، مَنْ فَوْقَ الرَّاكِدَةِ وَالْغَبْرَاءِ « أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »

أُشْهِدُ اللهَ الَّذِى بِإِذْنِهِ نَشَأَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، أَنِّى مُقِرٌّ بِالْقُدْرَةِ عَلَى الرَّجْعَةِ ، وَالْخَوْفِ مِنَ الْآخِرَةِ . أُحَافِظُ عَلَى صَلَاتِى وَأَصُومُ ، وَأَعْتَصِمُ لَعَلِّى مَعْصُومٌ .

وَأَبْرَأُ مِنْ قَوْلِ الْكَافِرِ (١) :

أَلَمَّتْ بِالتَّحِيَّةِ أُمُّ بَكْرٍ ، فَحَيُّوا أُمَّ بَكْرٍ بِالسَّلَامِ
وَكَائِنْ بِالطَّوِىِّ : طَوِىِّ بَدْرٍ مِنَ الشِّيزَى تُكَلَّلُ بِالسَّنَامِ
أَلَا يَا أُمَّ بَكْرٍ لَا تَكُرِّى عَلَىَّ الْكَأْسَ بَعْدَ أَخِى هِشَامِ
وَبَعْدَ أَخِى أَبِيهِ ، وَكَانَ قَرْمًا مِنَ الْأَقْوَامِ شَرَّابَ الْمُدَامِ
أَلَا مَنْ مُبْلِغُ الرَّحْمٰنِ عَنِّى بِأَنِّى مُفْطِرٌ شَهْرَ الصِّيَامِ
إِذَا مَا الرَّأْسُ زَايَلَ مَنْكِبَيْهِ فَقَدْ شَبِعَ الْأَنِيسُ مِنَ الطَّعَامِ
أَيُوعِدُنَا « ابْنُ كَبْشَةَ » أَنْ سَنَحْيَا ، وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءٍ وَهَامِ ؟
أَيَتْرُكُ أَنْ يَرُدَّ الْمَوْتَ عَنِّى ؟ وَيُحْيِينِى إِذَا بَلِيَتْ عِظَامِى

*
* *

وَلَعَنَ اللهُ الْقَائِلَ — وَيُقَالُ إِنَّهُ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ [أَوِ (٢)] ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ — :

---

(١) قال أبو العلاء : تروى لشداد بن الأسود الليثى . وارجع إلى (ص ٢١٩ ج ٣) من هذا الكتاب ، فهناك اختلاف فى الرواية (٢) أضفنا هذا الحرف ، ولم يكن فى الأصول

أَدْنِيَا مِنِّى خَلِيلِى : « عَبْدَلاً[1] » دُونَ الإِزَارِ
فَلَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنِّى غَيْرُ مَبْعُوثٍ لِنَارِ
سَأَرُوضُ النَّاسَ حَتَّى يَرْكَبُوا دِينَ الْحِمَارِ
وَاتْرُكَنْ مَنْ يَطْلُبُ الْجَنَّةَ يَسْعَى فى خَسَارِ

وَهَذَانِ الْبَيْتَانِ يَؤُوبَانِ لِرَجُلٍ يُقَالُ لَهُ : « الْوَلِيدُ » قِيلَ : هو الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقِيلَ : هُوَ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيد . وَأَيُّهُمَا كَانَ ، فَقَدْ أَقْدَمَ عَلَى الْهَاوِيَةِ ، بِنَفْسٍ لَيْسَتْ لِمَا حُمِدَ بِالنَّاوِيَةِ ، وَلاَ مِنْ لَهِيبِ جَهَنَّمَ بِالنَّاجِيَةِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ[2] كُتِبَ لَهُ مُصْحَفٌ ، فَلَمَّا كَمَلَ نَظَرَ فِيهِ ، فَاتَّفَقَ أَنْ خَرَجَتْ لَهُ الآيَةُ ، وَهِىَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : « وَاسْتَفْتَحُوا وخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » فَمَزَّقَهُ ، وَقَالَ[3] :

« أَتُوعِدُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ؟ فَهَا أَنَذَاكَ جَبَّارٌ عَنِيدُ
إِذَا لاَقَيْتَ رَبَّكَ يَوْمَ حَشْرٍ فَقُلْ : « يَا رَبِّ ! : مَزَّقَنِى الْوَلِيدُ »

وَالْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ كَانَ لَحَّانًا لَحْنًا لاَ يَقْدِرُ صَاحِبُهُ أَنْ يَنْظِمَ مِثْلَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ .

انكار أبى نواس للبعث

وَوَيْلٌ لِلْحَكَمِىِّ[4] إِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ مَا يُقَالُ إِنَّهُ وُجِدَ فِى بَيْتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ مَكْتُوبًا ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ :

---

(١) كان فى الأصل المطبوع : « عند لا » وارجع الى (ص ٢٣٦ ج ٣) من هذا الكتاب .

(٢) المشهور أنه الوليد بن يزيد (٣) ارجع إلى مصرع الوليد فى كتابنا : « مصارع الخلفاء » (٤) هو أبو نواس ، وقد مرت ترجمته فى (ج ٢ ص ١٠ و ج ٣ ص ٢١٨)

« بَاحَ لِسَانِي بِمُضْمَرِ السِّرِّ   وَذَاكَ أَنِّي أَقُولُ بِالدَّهْرِ
وَلَيْسَ — بَعْدَ الممات — حَادِثَةٌ   وَإِنَّمَا الْمَوْتُ بَيْضَةُ الْعُقْرِ »

ديك الجن

وويحٌ لِعَبْدِ السَّلَامِ بْنِ رِعْيَانَ الْمُلَقَّبِ بِدِيكِ الْجِنِّ ، إِنْ كَانَ مَاتَ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى قَوْلِهِ :

«هِيَ الدُّنْيَا — وَقَدْ وُعِدُوا بِأُخْرَى —   وَتَسْوِيفُ الظُّنُونِ مِنَ السَّوَافِ
فَإِنْ يَكُ بَعْضُ مَا قَالُوهُ حَقًّا ،   فَإِنَّ الْمُبْتَلِيكَ هُوَ الْمُعَافِي »

حديث سب الدهر

فَأَمَّا قَوْلُ النَّبِيِّ — صلى اللهُ عليه وسلَّم — : « لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ » فَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ الَّذِي يَقْضِي عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي تَسْجُدُ لَهُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، وَتَشْهَدُ بِهِ كُلُّ الْمَخْلُوقَاتِ .

وَلَمْ تَزَلِ الْعَرَبُ تَذُمُّ الدَّهْرَ فِي قَدِيمٍ وَحَدِيثٍ .

قَالَ الشَّاعِرُ :

« الدَّهْرُ أَبْلَانِي وَمَا أَبْلَيْتُهُ   وَالدَّهْرُ غَيَّرَنِي وَمَا يَتَغَيَّرُ
وَالدَّهْرُ قَيَّدَنِي بِقَيْدٍ مُبْرَمٍ   وَمَشَيْتُ فِيهِ ، فَكُلُّ يَوْمٍ يَقْصُرُ »

فَقَالَ مَنْ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ اللهَ — تَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ — يَفْعَلُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، فَمُطْلَقٌ أَفْضَلُ أَمْ مُقَيَّدٌ ، مَوْسُومٌ بِالنُّوَبِ مُمَيَّدٌ ؟ بَعْدَ مَا كَانَ يَفْرِي الْفَرِيَّ ، وَيُحْسَبُ السَّرِيَّ . وقال نَفَرُ بْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ جَدُّ الطِّرِمَّاحِ الطَّائِيِّ :

« أَلَا قَالَتْ بَهِيثَةُ : مَا لِنَفرٍ أَرَاهُ غَيَّرَتْ مِنْــهُ الدُّهُورُ
فَقُلْتُ : وَأَنْتِ قَدْ غُيِّرْتِ بَعْدِى[١]، وَكُنْتِ كَأَنَّكِ الشِّعْرَى العَبُورُ »

أَفَخَيْرٌ لِلمَرْأَةِ أَنْ تَكُونَ كَالْوَاحِدَةِ مِنَ الشِّعْرَيَيْنِ ، أَمْ كَوْنُها عَجُوزًا تَعْجِزُ عَنْ حَمْلِ الْمِدْرَيَيْنِ[٢] ؟

فقر أبى العلاء

وَمِمَّا حَثَّنِى عَلَى تَرْكِ أَكْلِ الْحَيَوَانِ أَنَّ الذى لِى فى السَّنَةِ نَيِّفٌ وَعِشْرُونَ دِينارًا ، فَإِذا أَخَذَ خادِمى بَعْضَ ما يَجِبُ ، بَقِىَ ما لا يُعْجِبُ . فاقْتَصَرْتُ عَلَى فُولٍ وَبُلْسُنٍ[٣]، وَما لَا يَعْذُبُ بِالْأَلْسُنِ .

فَأَمَّا الآنَ ، فَإِذا صارَ إِلَىَّ مَنْ يَخْدُمُنِى ، [وهو[٤]] عِنْدِى وَعِنْدَهُ هَيِّنٌ ، فَما حَظِّى إِلَّا الْيَسِيرُ الْمُتَعَيِّنُ .

وَلَسْتُ أُرِيدُ فى رِزْقِى زِيادَةً ، وَلا أُوثِرُ لِسُقْمِى عِيادَةً . وَأُضْمِرُ مِنْ عُقْبَاىَ الْحَذَرَ ، وَذَكَرْتُ ما ذَكَرْتُهُ لِأُعْذَرَ .

وَالسَّلامُ .

---

(١) قريب من هذا قول الشاعر :

« وقد زعمت أنى تغيرت بعدها ومن ذا الذى — يا عز — لا يتغير »

(٢) المدرى : المشط (٣) البُلْسُنُ : العدس ، أو حبٌّ آخر يشبهه (٤) هذه الكلمة ليست فى الأصول

الرسالة الثالثة :

من داعى الدعاة

حُوشِيَ الشَّيْخُ – أدامَ اللهُ سَلامَتَهُ – مِنْ أَنْ يَكُونَ – مِمَّنْ فَطِنَ فِى مَرَضِ دِينِهِ وَعَقْلِهِ لِعِلَّتِهِ ، وَأَجَابَ دَعْوَةَ الدَّاعِى مِنْهُ بِالْبَيْتِ الشَّائِعِ عَنْهُ لِنَيْلِ شِفاءِ غُلَّتِهِ – يَزِيدُهُ عِلَّةً[1] إلَى عِلَّتِهِ ، وَقَدْ ضَمِنَ لَهُ الصِّحَّةَ ؛ وَضَيْقَةً إلَى ضَيْقَتِهِ ، مِنْ حَيْثُ أَمَّلَ[2] الْفُسْحَةَ . إذَنْ يَكُون كَمَا قَالَ الْمُتَنَبِّى :

أَظْمَتْنِى الدُّنْيَا ، فَلَمَّا جِئْتُها مُسْتَسْقِياً ، مَطَرَتْ عَلَىَّ مَصَائِبَا

خلق النبات للحيوان ، والحيوان للإنسان

كَانَ سُؤَالِى لَهُ – حرسه الله – فِى شَىْءٍ يَخْتَصُّ بِنَفْسِهِ ، فِى هَجْرِهِ مَا يَشُدُّ الْجِسْمَ ، مِنَ اللَّحْمِ الَّذِى يُنْبِتُ اللَّحْمَ .

وقلتُ : إنَّ الْمَوْجُودَ مِنْ تَرْتِيبِ الْخِلْقَةِ ، أَنَّ النَّبَاتَ مَخْلُوقَةٌ لِلْحَيَوان ، وَالْحَيَوانَ الْعَجْمَاءَ مَخْلُوقَةٌ لِمَنَافِعِ الإنْسَانِ . وَأَنَّهُ إنْ أَنْكَرَ مُنْكِرٌ أَنَّ اللهَ تَعَالَى فَسَحَ فِى ذَبْحِهَا ، والتَّنَاوُلِ مِنْ لَحْمِهَا ؛ قُلْنَا لَهُ : إنَّ الدَّلِيلَ عَلَى بُطْلانِ قَوْلِهِ ، مَا نَرَاهُ مِنْ بَعْضِ أَجْنَاسِ خَلِيقَتِهِ[3] سِباعاً وَطَيْرًا . وَكَوْنَهُ مَخْلُوقاً[4] لِفَسْخِ

---

(١) كان بالأصل : يزيده إلى علته علة ، فجعلناها كما ترى ، ليستقيم نسق السجع المرصع

(٢) فى المخطوطة : « من حيث أهل الفسحة » (٣) فى المطبوعة : كلمة « الحيوان » مكان كلمة : « خليقته » (٤) فى المخطوطة : وكونها مخلوقة

اللَّحْمِ(١) وأَكْلِهِ ، وَالانْتِفَاعِ بِهِ(٢) ؛ فَبِالْحَرِىِّ أَنْ يَكُونَ لَنَا السَّبِيلُ عَلَى مَا نَأْكُلُ مِنْ لُحُومِهِ ، وَنَنْتَفِعُ بِأَصْوَافِهِ وَأَوْبَارِهِ .

وَنَحْنُ أَفْضَلُ مِنَ السِّبَاعِ وَجَوَارِحِ الطَّيْرِ .

وَإِنَّ الَّذِى يَمْتَنِعُ أَنْ يَمَسَّهُ بِسُوءٍ ، مَا يَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ أَرْحَمَ وَأَرْأَفَ بِهِ مِنَ الصَّانِعِ سُبْحَانَهُ .

قضية الخير والشر

فَقَالَ(٣) فِى الْجَوَابِ : « إِنَّ قَائِلاً مِنَ الْبَشَرِ لَوْ قَالَ : إِذَا بَنَيْنَا الْقَضِيَّةَ الثَّنَوِيَّةَ ، فَقُلْنَا : « اللّٰهُ لَا يَفْعَلُ إِلَّا خَيْرًا » - فَهٰذِهِ الْقَضِيَّةُ كَاذِبَةٌ أَمْ صَادِقَةٌ ؟

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ(٤) : « إِنَّهَا صَادِقَةٌ » فَقَدْ رَأَيْنَا الشُّرُورَ غَوَالِبَ ، وَلِلْخَيْرَاتِ الْمُلْتَمَسَةِ قَوَالِبُ . . .

إِلَى قَوْلِهِ(٥) : « رُوِىَ عَنِ النَّبِىِّ (ص) أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ — إِذَا أَرَادَ السَّفَرَ — : « اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ ، فِى الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ » فَهٰذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِى تَعَوَّذَ مِنْهَا النَّبِىُّ (ص) خَيْرَاتٌ أَمْ شُرُورٌ ؟

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : « لَا(٦) ، بَلْ هِىَ مَخُوفَةٌ مُنْكَرَةٌ » فَقَدْ أَبْطَلَ الْقَضِيَّةَ الْأُولَى أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ إِلَّا خَيْرًا . وَإِنْ قَالَ : « إِنَّ قَضِيَّةَ الْخَيْرِ وَحْدَهُ لَا تَصِحُّ » فَالسَّائِلُ — إِذَا سَأَلَهُ — يُسِئُ الْأَدَبَ وَيُلِحُّ . فَإِنْ أَبَى أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّرَّ جُمْلَةً ،

---

(١) فى المطبوعة : « اللحوم » (٢) فى المطبوعة : « وأكلها والانتفاع بها »

(٣) أى أبو العلاء فى جوابه المتقدم (٤) فى المخطوطة : « فإن قيل »

(٥) أى إلى قول أبى العلاء فى رسالته السابقة (٦) لم ترد كلمة « لا » فى المطبوعة

كَانَ مَرْجِعُهُ إِلَى قَوْلِ الْمَجُوسِ فِي إِثْبَاتِ خَالِقَيْنِ : أَحَدُهُمَا يَفْعَلُ الْخَيْرَ، وَالآخَرُ يَفْعَلُ الشَّرَّ » . .

وَقَوْلِ الشَّيْخِ – أَيَّدَهُ اللهُ – بَعْدَ اقْتِصَاصِ ذَلِكَ كُلِّهِ : « وَمَعَاذَ اللهِ أَنْ نَقُولَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ، بَلْ نَلْزَمُ شَرْعَنَا، وَنَبْسُطُ – فِي اتِّبَاعِهِ – ذَرْعَنَا ! . . . »

رد داعى الدعاة

فَأَقُولُ مُجِيباً : أَهَذِهِ « أَنْبَاءُ الأُمُورِ الصَّحَائِحِ » الَّتِي يَهْدِي بِهَا مَنِ اسْتَهْدَى، وَيُجْدِي بِمِثْلِهَا عَلَى مَنِ اسْتَجْدَى؟ وَهَلْ زَادَ السَّقِيمَ بِدَوَائِهِ هَذَا إِلاَّ سَقَماً، وَالأَعْمَى الأَصَمَّ فِي دِينِهِ وَعَقْلِهِ[1] إِلاَّ عَمًى وَصَمَماً ؟

وَقَوْلُهُ بَعْدَ تَقْسِيمِ هَذِهِ الْمَقَالاَتِ : « وَمَعَاذَ اللهِ أَنْ نَقُولَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ، بَلْ نَلْزَمُ شَرْعَنَا .. » أَفَشَرْعُنَا دَاخِلٌ فِي جُمْلَةِ هَذِهِ التَّقَاسِيمِ، أَمْ خَارِجٌ عَنْهَا ؟ فَإِنْ كَانَ دَاخِلاً فِيهَا، فَأَيُّ أَقْسَامِهَا أَوْلَى بِالاتِّبَاعِ عَلَى رَأْيِهِ – حَرَسَهُ اللهُ – فَنَتَّبِعُهُ ؟ وَإِنْ كَانَ خَارِجاً عَنْهَا فَمَا هُوَ ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ هُوَ[2] ؟

عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ كُلَّهَا[3] – مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا – بِنَجْوَةٍ عَنْ سُؤَالِي الأَوَّلِ، وَمَعْزِلٍ عَنْهُ، وَلاَ مُنَاسَبَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ .

وَأَمَّا مَا تَبِعَ هَذَا الْفَصْلَ مِنْ ذِكْرِ فَجِيعَةِ رَسُولِ اللهِ – صلوات الله عليه – بِإِبْرَاهِيمَ وَلَدِهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَذِكْرِ سَمِّ الْحَسَنِ، وَقَتْلِ الْحُسَيْنِ، وَقَتْلِ حَمْزَةَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ . الْجَارِي كُلُّهُ عَلَى سِيَاقَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَالاسْتِخْبَارِ عَنْ كَوْنِ جَمِيعِ

---

(١) زيدت هنا فى المخطوطة جملة : « كما هو قال » (٢) ليس فى المطبوعة كلمة : « شىء »

(٣) ليست كلمة « كلها » فى المطبوعة

[ذَلِكَ] خَيْرًا أَوْ شَرًّا ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي مِضْمَارِ التَّقَاسِيمِ الْمَذْكُورَةِ ، الَّتِي عَدَّدَها[(١)]، وَقَدْ تَرَكَهَا فِي غَوَاشِي ظُلُمَاتِهَا .

وَقَدْ سَبَقَ الْقَوْلُ فِي أَنَّهُ مَا حَلَّ — فِي السُّؤَالِ الْأَوَّلِ — مِنَ الشُّبْهَةِ عِقَالًا، بَلْ زَادَ — بِهَذِهِ الْأَسْئِلَةِ — تِيهًا وَضَلَالًا .

ايلام الحيوان

وَأَمَّا الْقَوْلُ : إِنَّ[(٢)] اللُّحُومَ لَا يُوصَلُ إِلَيْهَا إِلَّا بِإِيلَامِ الْحَيَوَانِ ، وَإِتْيَانُهُ بِأَشْعَارِ الْعَرَبِ فِي حُرْقَةِ النَّاقَةِ الْمُفَجَّعَةِ بِفَصِيلِهَا ؛ فَقَدْ سَبَقَ الْجَوَابُ : لَا يَكُونَنَّ[(٣)] أَرْأَفَ بِهَا مِنْ خَالِقِهَا . فَلَيْسَ يَخْلُو مِنْ كَوْنِهِ عَادِلًا أَوْ جَائِرًا : فَإِنْ كَانَ عَادِلًا فَإِنَّهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ يَقْبِضُ أَرْوَاحَ الْآكِلِ وَالْمَأْكُولِ جَمِيعًا ، وَذَلِكَ مُسَلَّمٌ لَهُ . وَإِنْ كَانَ جَائِرًا ، لَمْ يَنْبَغِ أَنْ نَرْجَحَ[(٤)] عَلَى خَالِقِنَا بِعَدْلِنَا وَجَوْرِهِ .

علم الله بالخير والشر

وَأَمَّا قَوْلُهُ : « وَلِلسَّائِلِ أَنْ يَقُولَ : إِنْ كَانَ الْخَيْرُ هُوَ الَّذِي لَا يُرِيدُ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ سِوَاهُ ، فَالشَّرُّ لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ عَلِمَ بِهِ أَوْ لَا ، فَإِنْ كَانَ عَلِمَ بِهِ فَلَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُرِيدًا لَهُ أَوْ غَيْرَ مُرِيدٍ ، فَإِنْ كَانَ مُرِيدًا لَهُ[(٥)] فَكَأَنَّهُ الْفَاعِلُ ؛ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُرِيدٍ ، فَفِعْلُ مَا لَا يُرِيدُهُ الْأَمِيرُ فِي وِلَايَتِهِ مَذْمُومٌ ، فَكَيْفَ فِي وِلَايَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ ؟ »

---

(١) جاء فى المطبوعة : « عددتها ، وتركها فى غواشى ظلماتها ، فقد سبق القول » وجاء فى المخطوطة ما أثبتنا نصه للقارئ (٢) فى المطبوعة : « فى أن » (٣) فى المطبوعة : « فقد سبق القول [بأنه] لا يكون » (٤) فى المطبوعة: « نرجع » (٥) ليست كلمة « له » فى المطبوعة

فَأَقُولُ فِى الْجَوَابِ : قِيلَ[١] : إِنَّ إِنْسَانًا ضَاعَ لَهُ مُصْحَفٌ ، فَقِيلَ لَهُ : اقْرَأْ : «وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا» فَإِنَّكَ تَجِدُهُ ، فَقَالَ : «وَهَذِهِ السُّورَةُ أَيْضًا فِيهِ...» فَكَذَلِكَ أَقُولُ : إِنَّ هَذَا أَيْضًا مِنْ ذَاكَ ؛ وَجَمِيعُهُ ظُلُمَاتٌ ، فَأَيْنَ النُّورُ ؟ وَإِنَّمَا قَصَدْنَاهُ لِلنُّورِ ، لِنَعْرِفَ أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ ، كَمَا قَالَهُ .

صوم أبى العلاء

وَأَمَّا قَوْلُهُ — حَرَسَهُ اللهُ — : « إِنَّهُ[٢] لَمَّا رَأَى اخْتِلَافَ الْأَقْوَالِ ، وَأَيْقَنَ بِنَفَادٍ وَزَوَالٍ ؛ سَأَلَ رَبَّهُ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَهُ صَوْمَ الدَّهْرِ ، فَلَمْ يُفْطِرْ إِلَّا فِى الْعِيدَيْنِ[٣] ؛ وَلَزِمَ الْإِمْسَاكَ عَنِ الْمَأْكَلِ ؛ وَظَنَّ اقْتِنَاعَهُ بِالنَّبَاتِ ، يُثْبِتُ لَهُ فِى الْآخِرَةِ جَمِيلَ الْإِثْبَاتِ[٤] » . فَمَا صَحَّ لِى أَنَّ الرَّبَّ الَّذِى سَأَلَهُ أَنْ يَرْزُقَهُ صَوْمَ الدَّهْرِ ، هُوَ الَّذِى يُرِيدُ الْخَيْرَ وَحْدَهُ ، وَلَا يُرِيدُ الشَّرَّ [أَوِ الَّذِى يُرِيدُ الشَّرَّ وَحْدَهُ[٥]] أَوِ الَّذِى يُرِيدُهُمَا جَمِيعًا ، وَالصَّوْمُ فَرْعٌ عَلَى أَصْلٍ[٦] ؛ مِنْ شَرْعٍ يَأْتِى بِهِ رَسُولٌ ، وَالرَّسُولُ يَتَعَلَّقُ بِمُرْسِلٍ ، وَقَضِيَّتُنَا فِى الْمُرْسِلِ مُشْتَبِهَةٌ : يَبْعَثُ رَسُولًا ؛ فَيُرِيدُ أَنْ يُطَاعَ أَمْ لَا يُطَاعَ ؟ فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُطَاعَ ، فَهُوَ مَغْلُوبٌ عَلَى إِرَادَتِهِ ، فَمَنْ لَا يُطِيعُهُ[٧] أَكْثَرُ ؛ وَإِنْ كَانَ يُرِيدُ

---

(١) فى المخطوطة : « ما قيل » (٢) ليست كلمة : « إنه » فى المطبوعة (٣) ليست فى المطبوعة جملة : « سأل ربه تعالى أن يرزقه صوم الدهر ، فلم يفطر إلا فى العيدين »

(٤) فى المخطوطة : « ينبت له جميل الإنبات » (٥) زيدت هذه الجملة فى المطبوعة وكتب فى الهامش : « إن الزيادة من معجم الأدباء » (٦) فى المخطوطة كلمة « الأصل »

(٧) فى المطبوعة : « لأن من لا يطيعه » ، وفى المخطوطة : فمن لا يطيعه . وكذلك عند ياقوت

أنْ لا يُطاعَ ، فَإرْسالُهُ إيَّاهُ مُحالٌ ، وطَلَبُهُ حُجَّةً عَلَى الضُّعفاءِ لِيُعَذِّبَهُمْ .

فَإنْ كانَ مَوْضوعُ صَوْمِهِ عَلَى هذا ، فَلَمْ يَفعَلْ شَيْئاً ، وَ إنْ كانَ عَلى غَيْرِهِ مِمَّا هُوَ جَلِيٌّ وَاضِحٌ ؛ فَهُوَ الذى أَطْلُبُهُ ، وَمِنْ أجْلِهِ شَدَدْتُ رَاحِلَتِى إلَيْهِ .

اقتناع أبى العلاء بالنبات

وَأَمَّا اقْتِناعُهُ بِالنَّباتِ لِثَباتٍ فى الآخِرَةِ[١] ؛ فَالنَّباتُ المُخْتَصُّ لِلْحَيَوانِ العَجْماءِ[٢] الَّتى مِنْ أجْلِها خُلِقَ النَّباتُ ، وَلَيْسَ لَهَا فى الآخِرَةِ قَدَمٌ وَلاَ ثَباتٌ !

وَأَمَّا مَا اقْتَصَّهُ مِنْ أمْرِ جالِينُوسَ فى اعْتِقادِ حَيْرَةِ الأُمَمِ ، وَقَوْلِ مَنْ قالَ : — « إنَّ البَارِئَ رَءُوفٌ رَحِيم ، فَلِمَ سُلِّطَ الأَسَدُ عَلَى ما يَفتَرِسُ ؟ »

فَهذا كُلُّهُ داخِلٌ فى ضِمْنِ ما أَوْرَدْناهُ[٣] ، وَغَيْرُ خارِجٍ عَنْ حُكْمِهِ[٤] .

وَ إنَّما الْهَرَبُ إلَيْهِ لِهَذِهِ الجِهَةِ ، لَوْ لَمَعَ[٥] سَنا بَرْقِ إرْشادِهِ ، وَفاءً لِلْبَيْتِ[٦] الذى قالَهُ بِمِيعادِهِ[٧] .

خلق الله للعصاة

وَأَمَّا حِكايَتُهُ قَوْلَ بَعْضِ المُلْحِدِينَ ، وَاسْتِعاذَتُهُ بِاللهِ تَعالَى أنْ يَكُونَ مِنَ المُعْتَرِضِينَ فى قَوْلِ اللهِ تَعالَى : « وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الأُولَى ، وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى »

---

(١) لم ترد كلمة « لثبات » فى المخطوطة (٢) جاء فى المطبوعة كلمة : « للعجماء » بدلاً من : « العجماء » (٣) جاء فى المطبوعة كلمة : « ما أورناه »

(٤) جاء فى المطبوعة : « وغير محتاج عن حكمه » (٥) فى المطبوعة « لو لمحت »

(٦) أى إنما نهرب إلى أبى العلاء فى تفسير هذه المشكلات ، وفقاً لقوله : فالقنى لتسمع أنباء الأمور الصحائح (٧) فى المطبوعة : « وفاء للبيت من الشعر الذى بميعاده »

الآيات . . إنْ كَانَ الْبَارِئُ — سُبْحَانهُ — خَلقهمْ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ مُجْرِمونَ ، وَللتَّوْبَةِ وَالإنابَةِ يُحْرَمُونَ . فَكانَ الأَوْلَى بهِ — وَهُوَ الرَّءُوف الرَّحيمُ — أَلَّا يَخْلُقهُمْ ، لِئَلَّا يُعذِّبَهُمْ . وَإِنْ كَانَ لَا يَعْلَمُ ، فَهُوَ — كَأَمْثَالِنَا — مِمَّنْ يَفعَلُ الشَّيْءَ وَلا يَدْرِى مَا يَكُونُ مِنْهُ .

وَقَوْلُ الشَّيْخِ بعْدَهُ : « مَعاذَ اللهِ أَنْ نَقولَ ذلكَ ، بَلْ نُسَلِّمُ ، وَنَتْلُو الآيَة : « مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً » فَلَيْسَ الْمُلْحِدُ إذا قالَ : إنَّ السُّكَّرَ حُلْوٌ ، وَالْخَلَّ حامِضٌ ، لَا يُقبَلُ مِنهُ لِكَوْنهِ مُلحِدًا .

وَقَوْلُهُ يَقْتَضِى جوَابًا ، فَإِنْ كَانَ عِنْدَ الشَّيْخِ — أَيَّدَهُ اللهُ — جوَابٌ[١] . فَهُوَ الَّذِى نَبْغِى أَوَّلاً ؛ فَقَوْلُهُ : « مَعاذَ اللهِ أَنْ نَقُولَ ذَلِكَ ، بَلْ نُسَلِّمُ » فَمَا التَّسْلِيمُ فِى هَذَا الْمَوْضِعِ إلَّا التَّسْلِيمُ لِلْمُلْحِدِ ، لَا شَيْءَ غَيْرُهُ !

القول بالرجعة

وَأَمَّا تَفْنِيدُهُ لِرَأْىِ مَنْ لَا يَرَى رَأْىَ الرَّجْعَةِ ، وَلَا يُؤْمِنُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » وَقَوْلُهُ : « إنَّ هَذِهِ حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ ، لِأَنَّ خَلْقَهَا مُبْتَدَعَةً ، أَبْعَدُ مِنْ إنْشَائِهَا مُرْتَجَعَةً » وَإِشْهَادُهُ اللهَ — تَعَالَى — عَلَى نَفْسِهِ بِكَوْنِهِ مُقِرًّا بِالرَّجْعَةِ ، وَلِلْخَوْفِ مِنَ الآخِرَةِ ، يُحَافِظُ[٢] عَلَى صَلَاتِهِ وَصَوْمِهِ ؛ وَيَبْرَأُ مِنْ قَوْلِ الْكَافِرِ وَلَوْمِهِ :

أَلَمَّتْ بِالتَّحِيَّةِ أُمُّ بَكْرٍ فَحَيُّوا أُمَّ بَكْرٍ بِالسَّلَامِ

---

(١) فى المخطوطة : « فإن كان عند الشيخ جواب » (٢) فى المطبوعة : « محافظ »

إلى قوله[١] :

أَلَا مَنْ مُبْلِغُ الرَّحْمٰنِ عَنِّى ... بِأَنِّى مُفْطِرٌ شَهْرَ الصِّيَامِ

أَيُوعِدُنَا ابنُ كَبْشَةَ أَنْ سَنَحْيَا ... وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءٍ وَهَامِ ؟

وَيلعنُ مَنْ قَالَ – أيضاً[٢] – فِي آخرِ أَبْيَاتِهِ :

سَأَرُوضُ النَّـــاسَ حَتَّى ... يَرْكَبُوا دِينَ الْحِمَـــارِ

وَالَّذِى قَالَ أَيْضًا يَسُبُّ الْمُصْحَفَ وَيُخَاطِبُهُ :

إِذَا لَاقَيْتَ رَبَّكَ يَوْمَ حَشْرٍ ... فَقُلْ : يَارَبِّ ! مَزَّقَنِى[٣] الْوَلِيدُ

وَمَا يَجْرِى هَذَا الْمَجْرَى .

فَمَنِ الَّذِى اتَّهَمَهُ بِشَىْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَاشَاهُ ؟ وَمَا الَّذِى أَوْجَبَ الْإِذْكَارَ بِكُفْرِيَّاتِ شِعْرِهِمْ[٤] وَاقْتَضَاهُ ؟

وَمَا كَانَتْ بِهِ حَاجَةٌ إِلَى اسْتِطْرَادِ ذِكْرِهِمْ ، وَإِنْشَادِ شِعْرِهِمْ .

سب الدهر

وَأَمَّا رِوَايَتُهُ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ : « لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ ، فَإِنَّ اللّٰهَ هُوَ الدَّهْرُ » وَتَفْسِيرُهُ لِلْخَبَرِ بِكَوْنِ الَّذِى يَقْضِى عَلَيْكُمْ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ الَّذِى تَسْجُدُ لَهُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، وَتَشْهَدُ بِهِ كُلُّ الْمَخْلُوقَاتِ » فَهُوَ جَالِينُوسُ طِبِّ اللُّغَةِ[٥] ، وَيَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ هَذَا تَفْسِيرٌ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُ الْخَبَرِ ، فَمِنْ أَيْنَ ؟ وَإِلَى أَيْنَ ؟ وَإِنَّمَا هُوَ الْمَقْصُودُ لِيُخْرِجَ مِنَ التِّيهِ ، لَا لِأَنْ يَمْرَحَ فِيهِ[٦] .

---

(١) ليست هذه الكلمة فى المطبوعة (٢) ليست كلمة : « أيضاً » فى النسخة المطبوعة

(٣) فى المخطوطة كلمة : « خرقنى » (٤) فى المخطوطة كلمة : « أشعارهم »

(٥) فى المخطوطة زيدت كلمة : « العربية » والمعنى أن أبا العلاء فى اللغة كجالينوس فى الطب

(٦) فى المخطوطة : « لا أن يموج فيه . »

فقر أبى العلاء

وَأَمَّا خَتْمُهُ الرِّسَالَةَ بِقَوْلِهِ : « إِنَّ الَّذِى حَثَّهُ عَلَى تَرْكِ أَكْلِ الْحَيَوَانِ أَنَّ الَّذِى لَهُ فِى السَّنَةِ نَيِّفٌ وَعِشْرُونَ دِينَارًا يَصِيرُ إِلَى خَادِمِهِ مُعْظَمُهَا ، وَيَبْقَى لَهُ أَيْسَرُهَا ؛ فَالضَّرُورَةُ تَدْعُو إِلَى مُدَافَعَةِ نَفْسِهِ بِالْفِطَامِ عَنْ لَذِيذِ الطَّعَامِ ، وَالِاقْتِصَارِ بِهَا عَلَى جَرِيشَةٍ » .

فَجِسْمُهُ — مِنَ الْفَضْلِ وَالْأَدَبِ — لِلْفَوَائِدِ يَنْبُوع ، وَحِمَاهُمَا(١) — مَا دَامَ بَاقِياً ثَابِتاً — مَمْنُوع ، وَمَحْمِلُ مَؤُونَةِ الْقَدْرِ الَّذِى يَطْعَمُهُ لَوْ كَانَ ثَقِيلاً لَوَجَبَ تَحَمُّلُهُ ، فَكَيْفَ وَهُوَ الْخَفِيفُ مَحْمِلُهُ ؟ .

وَقَدْ كَاتَبْتُ مَوْلَاىَ تَاجَ الْأُمَرَاءِ ثِمَالَ بْنَ صَالِحٍ(٢) — حَرَسَ اللهُ عِزَّهُ — أَنْ يَتَقَدَّمَ بِإِزَاحَةِ الْعِلَّةِ — فِيمَا هُوَ بُلْغَةُ مِثْلِهِ — مِنْ أَلَذِّ الطَّعَام ، وَمُرَاعَاتِهِ بِهِ عَلَى الْإِدْرَارِ وَالدَّوَام . لِتَنْكَشِفَ عَنْهُ غَاشِيَةُ هَذِهِ الضَّرُورَةِ ، وَيَجْرِى أَمْرُهُ فِى مَعِيشَتِهِ عَلَى أَحْسَنِ مَا يَكُونُ مِنَ الصُّورَةِ .

وَهَذَا بَابٌ يَنْتَجِزُ بِمَشِيئَةِ اللهِ وَعَوْنِهِ .

ثُمَّ إِنْ قَامَ مِنَ الشَّيْخِ — حَفِظَهُ اللهُ — نَشْطَةٌ لِجَوَابٍ يَكْتُبُهُ عَنْ هَذَا التَّعْلِيق ، أَعْفَانِى فِيهِ مِنْ قَصْدِ الْإِسْجَاعِ ، وَلُزُومِ مَا لَا يَلْزَمُ ؛ فَإِنَّ مُلْتَمَسِى فِيهِ الْمَعَانِى لَا الْأَلْفَاظُ

وَالسَّلَامُ .

---

(١) فى المخطوطة : « وحماها »

(٢) ليس فى المطبوعة كلمة : « مولاى » ولا : « ثمال بن صالح »

الرسالة الرابعة :

من أبى العـــلاء

سَيِّدَنَا الرَّئيسَ الأَجَلَّ ، الْمُؤَيَّدَ فى الدِّينِ ، عِصْمَةَ المؤمنين ، هَدَى اللّٰهُ الأُمَمَ بِهِدَايتهِ ، وَسَلَكَ بهِم طُرُقَ الْخَيْرِ عَلَى يَدِهِ :

طلب الرشد

فقَدْ بَدَأَ الْمُعْتَرِفُ بِجَهْلِهِ ، الْمُقِرُّ بِحَيْرَتِهِ ، وَالدَّاعِى إِلَى اللّٰهِ — سُبْحَانَه — أَنْ يَرْزُقَهُ ما قَلَّ مِن رَحْمَتِهِ ؛ فى أَوَّلِ ما خاطَبَهُ بهِ — أَنْ ذَكَرَ اعْتِقَادَهُ فى سَيِّدِنا الرَّئِيسِ الأَجَلِّ ، الْمُؤَيَّدِ فى الدِّينِ — ضَوَّأَ اللّٰهُ الظُّلَمَ بِبَصِيرَتِهِ ، وَأَذْهَبَ شُكُوكَ الأَفْئِدَةِ بِرَأْيِهِ — وَما نَفْسُهُ عليهِ مِنَ الذِّلَّةِ وَالْحَقْرِيَةِ عِنْدَهُ ، وَأَنهُ يَحْسَبُهَا ساكِنَةً فى بَعْضِ السَّوَامِ .

وَعَجِيبٌ أَنَّ مِثْلَهُ يَطْلُبُ الرُّشْدَ مِمَّنْ لا رُشْدَ عِنْدَهُ ، فَيَكُونُ كالْقَمَرِ الذى هُوَ دائِبٌ فى خِدْمَةِ رَبِّهِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، يَطْلُبُ الْحَقِيقَةَ مِنْ أَقْوَرَ بِفَلَاةٍ ، يَرِدُ الْمَاءَ عَلَى الصَّائِدِ ، وَيُصِيبُ قَلْبَهُ بِسَهْمٍ !

قصيدة أبى العلاء

وَقَدْ ذَكَرَ — أَيَّدَ اللّٰهُ الْحَقَّ بِحَيَاتِهِ — بَيْتًا مِنْ أَبْيَاتٍ عَلَى الْحَاءِ ذَكَرَهَا وَلِيُّهُ ، لِيَعْلَمَ غَيْرُهُ ما هُوَ عَلَيهِ مِنَ الاجْتِهَادِ فى التَّدَيُّنِ ، وَمَا حِيلَتُهُ فى الآيَةِ : « مَنْ يَهْدِ اللّٰهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا » .

أسرار الله

وَالْأَبْيَاتُ أَوَّلُهَا :

غَدَوْتَ مَرِيضَ الدِّينِ وَالْعَقْلِ فَالْقَنِى لِتَسْمَعَ أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ

وَهُوَ — أَدَامَ اللهُ قُدْرَتَهُ — يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ — سُبْحَانَهُ — لَهُ أَسْرَارٌ لَا يَقِفُ عَلَيْهَا إِلَّا الْأَوْلِيَاءُ ، وَأَنَّ الْمَعْقُولَ لَهُ فِى الْعَالَمِ عَمَلٌ عَظِيمٌ ، لَا يَصِلُونَ إِلَى الْمَنْفَعَةِ إِلَّا بِهِ ، وَهُوَ يَدُلُّهُمْ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ — عَزَّ سُلْطَانُهُ — وَعَلَى جَمِيعِ مَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ مِنْ مَأْكُولٍ وَمَشْرُوبٍ وَمَلْبُوسٍ ، وَيَدُلُّهُمْ عَلَى طَلَبِ الْمَعَايِشِ ، وَالسَّعَةِ فِى الْأَرْزَاقِ .

كراهة السمك للخروج من الماء

وَبَعْدَ هذا الْبَيْتُ :

فَلَا تَأْكُلَنْ مَا أَخْرَجَ الْمَاءُ ظَالِمًا وَلَا تَبْغِ قُوتًا مِنْ غَرِيضِ الذَّبَائِحِ

وَإِذَا سَلَّمَ الْمُسْلِمُ أَنَّ الْبَارِئَ — تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ — لَهُ سِرٌّ خَفِيٌّ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ وَمَنْ أَخَذَ عَنْهُمْ مِنَ الْأَئِمَّةِ . وَلَا يُقَدِّرُ أَحَدٌ أَنَّ الْحَيَوَانَ الْبَحْرِىَّ لَا يَخْرُجُ مِنَ الْمَاءِ إِلَّا وَهُوَ كَارِهٌ لِلْخُرُوجِ ، وَإِذَا سُئِلَ الْمَعْقُولُ عَنْ ذَلِكَ لَمْ يُقَبِّحْ تَرْكَ أَكْلِهِ وَإِنْ كَانَ حِلًّا ، لِأَنَّ الْمُتَدَيِّنِينَ لَمْ يَزَالُوا يَتْرُكُونَ مَا هُوَ لَهُمْ مُطْلَقٌ .

وَقَدْ رُوِىَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ ، أَنَّهُ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ حَتَّى تَقَرَّحَتْ قَدَمَاهُ ، فَقِيلَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، لِمَ تَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فَقَالَ : أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟

رحمة الحيوان

وَأَبْيَض[1] أُمَّاتٍ أَرَادَتْ صَرِيحَهُ لِأَطْفَالِهَا دُونَ الْغَوَانِي الصَّرَائِحِ

وَمَشْهُورٌ فِي الأُمَمِ أَنَّ الْأُمَّ إِذَا ذُبِحَ وَلَدُهَا وَجَدَتْ عَلَيْهِ وَجْداً عَظِيماً، وَسَهِرَتْ لِذَلِكَ اللَّيَالِيَ، وَقَدْ أُخِذَ لَحْمُهُ، وَتَوَفَّرَ عَلَى أَصْحَابِ أُمِّهِ مَا كَانَ يَرْضَعُ مِنْ لَبَنِهَا.

فَأَيُّ ذَنْبٍ لِمَنْ تَحَرَّجَ عَنْ ذَبْحِ السَّلِيلِ، وَلَمْ يَرْغَبْ فِي اسْتِعْمَالِ اللَّبَنِ، وَلَيْسَ يَعْتَقِدُ فِيهِ ذَلِكَ، وَلَا يَزْعُمُ أَنَّهُ مُحَرَّمٌ، وَإِنَّمَا تَرَكَهُ اجْتِهَاداً فِي التَّعَبُّدِ وَرَحْمَةً لِلْمَذْبُوحِ، رَغْبَةَ أَنْ يُجَازَى عَنْ ذَلِكَ بِغُفْرَانِ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ اللهَ — سُبْحَانَهُ — سَاوَى بَيْنَ عِبَادِهِ فِي الْأَقْسَامِ، فَأَيُّ شَيْءٍ أَسْلَفَتْهُ الذَّبَائِحُ مِنَ الْخَطَأِ، حَتَّى تُمْنَعَ حَظَّهَا مِنَ الرَّأْفَةِ وَالرِّفْقِ؟

ظلم الطير

وَلَا تَفْجَعَنَّ الطَّيْرَ وَهِيَ غَوَافِلٌ بِمَا وَضَعَتْ، فَالظُّلْمُ شَرُّ الْقَبَائِحِ

وَقَدْ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ صَيْدِ اللَّيْلِ، وَذَلِكَ أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «أَقِرُّوا الطَّيْرَ فِي وُكُنَاتِهَا» وَالْإِسْلَامُ وَرَدَ بِأَنْ لَا يُضَارَّ طَائِرٌ وَلَا سِوَاهُ.

وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ — يَا سَيِّدَنَا الرَّئِيسَ الْمُؤَيَّدَ فِي الدِّينِ، عِصْمَةَ الْمُؤْمِنِينَ، لَا زَالَتِ الْقُلُوبُ مَعْمُورَةً بِعِظَاتِهِ — مَا هُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْ سِوَاهُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً

---

(١) قال أبو العلاء — بعد ذكر البيت — : «والمراد بالأبيض : اللبن»

فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ » وَقَالَ فِي آخِرِ الْآيَةِ : « وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ » .

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا : أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ، أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ، إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ » .

*
* *

فَإِذَا سَمِعَ مَنْ لَهُ أَدْنَى حِسٍّ بِهَذَا الْقَوْلِ ، فَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ إِذَا طَلَبَ التَّقَرُّبَ إِلَى رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِأَنْ يَجْعَلَ صَيْدَ الْحِلِّ كَصَيْدِ الْحَرَمِ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَيْسَ بِمَحْظُورٍ .

دفاع النحل عن نفسها

وَدَعْ ضَرَبَ النَّحْلِ الَّذِي بَكَرَتْ لَهُ ... كَوَاسِبَ مِنْ أَزْهَارِ نَبْتٍ فَوَائِحِ

لَمَّا كَانَتِ النَّحْلُ تُحَارِبُ الشَّائِرَ عَنِ الْعَسَلِ بِمَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَتَجْتَهِدُ فِي أَنْ تَرُدَّهُ مِنَ الْجَانِينَ ، فَلَا غَرْوَ إِنْ أَعْرَضَ عَنِ اسْتِعْمَالِهِ رَغْبَةً فِي أَنْ يَجْعَلَ النَّحْلَ كَغَيْرِهَا ، تَكْرَهُ[1] مِنْ ذَبْحِ الْآكِلِ ، وَأَخْذَ مَا كَانَ يَعِيشُ بِهِ ، لِيَسُرَّ بِهِ النِّسَاءَ — كَيْ يَبْدُنَّ[2] — وَغَيْرَهَا مِنْ بَنِي آدَمَ .

وَقَدْ وَصَفَتِ الشُّعَرَاءُ ذَلِكَ ، فَقَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ الْهُذَلِيُّ ، يَصِفُ مُشْتَارَ الْعَسَلِ :

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ ، لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا ، ... وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَامِلِ

---

(١) في الأصل : « ما تكره » (٢) يصبحن بادنات سمينات

وَقالَ أَيْضًا :

فَلمَّا جلَاهَا بالْأُيَامِ تفرَّقَتْ ثُبَاتٍ ، عَلَيهَا ذُلُّهَا وَاكْتِئَابُهَا(١)

وَالْأُيَامُ : الدُّخَانُ ، وَقيلَ : عُودٌ فيهِ نَارٌ يَدْخُلُ فى مَوْضِعِ النَّحْلِ لِيَهْرُبَ .

وَقالَ سَاعِدَةُ بْنُ جُؤَيَّةَ :

قَليلُ مَتَاعِ المَالِ ، إلَّا مَسَابِيًا وَأَخْرَاجها ، تُغْنَى بِهَا ، وَتُقِيمُهَا

فَمَا بَرِحَ الإِنْسَانُ حَتى وَضَعْنَهُ إلى الثَّوْلِ ، يُبْقى حبَّها وَيَئُومُهَا(٢)

تقشف على

وَرُوِىَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبى طَالِبٍ — صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيهِ — حِكَايَةٌ مَعْنَاهَا : أَنَّهُ كَانَ لَهُ دَقِيقُ شَعِيرٍ فى وعَاءٍ يُخْتَمُ عَلَيْهِ ، فَإِذَا كَانَ صَائِمًا أَفْطَرَ عَلَى شَىْءٍ مِنْ ذَلِكَ الدَّقيقِ ، وَكَانَ أَوَّلَ مَا يَطْعَمُ . فاطَّلَعَ عَلَى ذَلِكَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ ، فَقالَ لِجَارِيَةٍ لَهُ : « أَمَا تَتَّقُونَ اللهَ فى هَـذا الشَّيْخِ ؟ » فَقَالَتْ : « وَمَا نَصْنَعُ بِهِ ؟ هُوَ الذى يَخْتَارُ ذَلِكَ ! »

* * *

وَقَدْ كَانَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — يَصِلُ إلَى غَلَّةٍ كَثِيرَةٍ ، وَلَـكِنَّهُ يَتَصَدَّقُ بِهَا ، وَيَقْتَنِعُ أَشَدَّ اقْتِنَاعٍ .

وَرُوِىَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ أَنَّهُ قَالَ فِى بَعْضِ خُطَبِهِ : « إِنَّ غَلَّتَهُ تَبْلُغُ — فِى السَّنَةِ — خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَـــارٍ . ورُوِىَ أَنَّهُ قُدِّمَ إِلَيْهِ خَبِيصٌ فِى

(١) الأُيام : التدخين على النحل لتخرج ، فيُشْتَارَ عسلها . وثبات : جماعات

(٢) قال أبو العلاء : « يئومها : أى يدخل الأيام فى بيتها »

الكُوفَةِ ، فَقَالَ : « هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَكَلَهُ ؟ فَقَالُوا : « لَا » فَأَمَرَ بِرَفْعِهِ .

تقشف المجتهدين

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُجْتَهِدِينَ – مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَئِمَّةِ – يَقْصُرُونَ نُفُوسَهُمْ ، وَيُؤْثِرُونَ مَا يَفْضُلُ مِنْهُمْ لِأَهْلِ الْحَاجَةِ . وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » فَحَسْبُهُمْ مِنَ الشَّرَفِ مَا ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ حَمِيدِ الِانْتِفَاعِ ، وَالْإِيثَارِ بِالْقَلِيلِ .

استرشاد أبي العلاء بداعي الدعاة

وَقَدْ قُلْتُ فِي مُخَاطَبَةِ سَيِّدِنَا الرَّئِيسِ الْأَجَلِّ الْمُؤَيَّدِ فِي الدِّينِ ، عِصْمَةِ الْمُؤْمِنِينَ – لَا زَالَ ضِيَاءُ قَلْبِهِ يُضِيءُ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ – : إِنِّي هِبْتُ حَضْرَتَهُ الْجَلِيلَةَ ، وَنَسَبْتُ الِاسْتِرْشَادَ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي رُتْبَةً ، لِأَدْخُلَ فِي الْمَنْفَعَةِ بِجَوَابِهِ .

التنفل والزيادة في الفضائل

وَقَدْ سَأَلْتُ مَنْ يُسْتَرْشَدُ أَنْ يُسْأَلَ عَنْ قَضَايَا خَمْسٍ ، لَمْ يُجِبْ مِنْهَا عَنْ وَاحِدَةٍ ، وَعَدَلَ سَيِّدُنَا الرَّئِيسُ الْأَجَلُّ الْمُؤَيَّدُ فِي الدِّينِ إِلَى الْإِيمَاءِ بِأَنَّ مَنْ تَرَكَ أَكْلَ اللَّحْمِ ذَمِيمٌ .

وَلَوْ أُخِذَ بِهَذَا الْمَذْهَبِ ، لَوَجَبَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَلَّا يُصَلِّيَ صَلَاةً إِلَّا مَا افْتُرِضَ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ إِذَا زَادَ عَنْ ذَلِكَ أَدَّاهُ إِلَى كُلْفَةٍ .

وَاللهُ – تَبَارَكَ اسْمُهُ – لَا يُرِيدُ ذَلِكَ .

وَلَوَجَبَ أنَّ الَّذِي يَكُونُ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ، إذَا أَخْرَجَ عَنِ الذَّهَبِ رُبْعَ الْعُشْرِ، لَا يَحْسُنُ بِهِ أَنْ يَزِيدَ عَلَى ذَلِكَ.

وَقَدْ بَعَثَ النَّاسَ عَلَى النَّفَقَاتِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، كَقَوْلِهِ – تَعَالَى جَدُّهُ – : «وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ، فَيَقُولَ: رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ».

وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ». وَالْمُرَادُ بِالْقَرْضِ، مَالَا يَجِبُ عَلَى الرَّجُلِ مِنْ إِخْرَاجِ الزَّكَاةِ، لِأَنَّ زَكَاتَهُ دَيْنٌ لِلْمَسَاكِينِ عَلَيْهِ.

وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ عَبِيدٌ أَطْعَمَ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ وَتَرَكَ بَقِيَّةَ الْعَبِيدِ، فَاقْتَنَعَ أَحَدُ الْعَبِيدِ بِبَعْضِ مَا رُزِقَ، وَأَطْعَمَ بَاقِيَهُ لِلْعَبِيدِ الَّذِينَ لَمْ يَطْعَمُوا شَيْئًا، وَاسْتَعَانَ بَعْضَهُمْ عَلَى مَآرِبَ تُؤَدِّيهِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ، كَإِتْيَانِهِ بِالْمَاءِ الطَّهُورِ، وَتَعَمُّدِهِمْ مَا دَنِسَ مِنْ لِبَاسِهِ بِالْغَسْلِ؛ لَمْ يَكُنْ ذَمِيمًا فِي ذَلِكَ، وَلَمْ يَسْتَحِقَّ مِنْ مَوْلَاهُ الْعُقُوبَةَ.

مرض أبي العلاء وضعفه

وَالْعَبْدُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ قَدِ افْتَقَرَ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ، وَلَوْ مَثَلَ فِي حَضْرَتِهِ السَّامِيَةِ لَعَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِيهِ بَقِيَّةٌ لِأَنْ يُسْأَلَ وَلَا أَنْ يُجِيبَ، لِأَنَّ أَعْضَاءَهُ مُتَخَاذِلَةٌ. وَقَدْ عَجَزَ عَنِ الصَّلَاةِ قَائِمًا وَإِنَّمَا يُصَلِّي قَاعِدًا. وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَكَيْفَ لَهُ أَنْ يَكُونَ يَصِلَ إِلَى أَنْ يَدِبَّ عَلَى عُكَّازٍ، أَوْ يَتْبَعَ مَنِ اتَّفَقَ لَهُ مِنْ قَائِدٍ، كَمَا قَالَ أَعْشَى بَكْرٍ :

« إِذَ كَانَ هَادِى الْفَتَى — فِى الْبِلَا　　دِ — صَدْرُ الْقَنَاةِ، أَطَاعَ الْأَمِيرَا
وَهَابَ الْعِثَارَ — إِذَا مَا مَشَى —　　وَخَالَ السُّهُولَةَ وَعْثاً وُعُورَا »

وَكَيْفَ لِلْعَبْدِ الضَّعِيفِ الْعَاجِزِ أَنْ يَكُونَ إِذَا مَشَى يَعْثُرُ، لِأَنَّهُ لَا يَعْثُرُ إِلَّا وَهُوَ عَلَى الْمَشْىِ قَادِرٌ، وَكَيْفَ لَهُ أَنْ تَكُونَ حَالُهُ كَحَالِ لَبِيد لَمَّا قَالَ :

« أَلَيْسَ وَرَائِى إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِى　　رُكُوبُ الْعَصَا تُحْنَى عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ[(١)]
أُخَبِّرُ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِى مَضَتْ،　　أَدِبُّ كَأَنِّى — كُلَّمَا قُمْتُ — رَاكِعُ »

كَيْفَ لِى بِهَذِهِ الرُّتْبَةِ ؟ وَلَٰكِنْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالنَّزَوَانِ، كَمَا قَالَ صَخْرُ ابْنُ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ :

« أَهُمُّ بِأَمْرِ الْحَزْمِ — لَوْ أَسْتَطِيعُهُ —　　وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالنَّزَوَانِ
وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ كَأَنَّهَا　　مُعَرَّسُ يَعْسُوبٍ بِرَأْسِ سِنَانِ »

وَإِنِّى لَأَعْجِزُ — إِذَا اضْطَجَعْتُ — عَنِ الْقُعُودِ، فَرُبَّمَا اسْتَعَنْتُ بِإِنْسَانٍ،

---

(١) من أبرع ما قرأناه فى هذا المعنى قول الشاعر :

« حنتنى حانيات الدهر، حتى　　كأنى خاتل يدنو لصيد
قليل الخطو، يحسب من رآنى　　— ولست مقيداً — أنى بقيد »

وقول ابن حمديس يصف عصاه :

كأنها — وهى فى كفى — أهش بها　　على الثمانين عاماً، لا على غنمى

وقول المعرى :

« مرحت كالفرس الذيَّال — آونة —　　ثم اعتراك أبو سعد، فقد شكلك

وهو يعنى بأبى سعد : الشيخوخة .

فَإِذَا هَمَّ بِإِعَانَتِي وَبَسَطَ يَدَيْهِ لِيُنْهِضَنِي ، اِضْطَرَبَتْ عِظَامِي ، لِأَنَّهُنَّ عَارِيَاتٌ مِنْ كِسْوَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِنَّ ، فَعَرَّتْهُنَّ مِنْهَا الْأَوْقَاتُ الْمُتَمَادِيَةُ .

وَإِنَّمَا عَنَيْتُ مَا كَانَ عَلَيْهِنَّ مِنَ اللَّحْمِ .

تمثل داعى الدعاة ببيت لأبى الطيب

وَأَمَّا تَمَثُّلُهُ بِبَيْتِ أَبِي الطَّيِّبِ ، فَلَوْ بَلَغَهُ ذَلِكَ لَابْتَهَجَ ، إِذْ كَانَ مِثْلُهُ يَتَمَثَّلُ بِشَيْءٍ مِمَّا نَظَمَهُ ، وَقَدْ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَمْدَانَ لَمَّا سَمِعَهُ يُنْشِدُ بَيْتَيْنِ مِنْ شِعْرِ النَّابِغَةِ — أَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّ الْأَوَّلَ مِنْهُمَا :

« وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ » — :

*
* *

« سَمِعْتُكَ مُنْشِداً بَيْتَيْ زِيَادٍ ، نَشِيداً — مِثْلَ قَائِلِهِ — كَرِيماً
فَمَا أَنْكَرْتُ مَوْضِعَهُ ، وَلَكِنْ غَبَطْتُ — بِذَاكَ — أَعْظُمَهُ الرَّمِيمَا »

وَلَوْ بَلَغَهُ هَذَا الْخَبَرُ لَكَانَ سُرُورُهُ بِهِ أَعْظَمَ مِنْ سُرُورِهِ بِتَمَثُّلِ ابْنِ حَمْدَانَ ، لِأَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ كَانَ صَاحِبَ سَيْفٍ ، وَسَيِّدُنَا الرَّئِيسُ الْأَجَلُّ صَاحِبُ وَرَعٍ وَدِينٍ ، وَهِدَايَةٍ يَنْتَفِعُ بِهَا الْمُهْتَدُونَ

الاسترشاد بأبى العلاء

وَمَنِ اسْتَرْشَدَ بِمِثْلِ الْعَبْدِ الضَّعِيفِ الْعَاجِزِ ، فَإِنَّمَا مَثَلُهُ مَثَلُ مَنْ طَلَبَ فِي الْقَتَادَةِ ثَمَرَ النَّخْلَةِ ، وَإِنَّمَا حَمَلَ سَائِلَهُ عَلَى ذَلِكَ حُسْنُ الظَّنِّ الَّذِي هُوَ دَلِيلٌ عَلَى كَرَمِ الطَّبْعِ ، وَشَرَفِ النَّفْسِ ، وَطَهَارَةِ الْمَوْلِدِ ، وَخَالِصِ الْخِيمِ .

وَمَنِ اسْتَرْشَدَ بِسَيِّدِنَا الرَّئِيسِ الْأَجَلِّ الْمُؤَيَّدِ فِى الدِّينِ — أَجْزَلَ اللّٰهُ حَظَّ الْإِسْلَامِ بِدَوَامِ أَيَّامِهِ — كَانَ كَطَالِبِ الذَّهَبِ مِنْ مَعْدِنِه(١) .....

توسيع رزق أبى العلاء

فَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنَ الْمُكَاتَبَةِ فِى تَوْسِيعِ الرِّزْقِ عَلَىَّ ، فَبَذْلُ إِفْضَالٍ وَرِثَهُ عَنْ أَبٍ فَأَبٍ ، وَجَدٍّ فِى أَثَرِ جَدٍّ ، حَتَّى يَصِلَ النَّسَبُ إِلَى التُّرَابِ الَّذِى خَلَقَ اللّٰهُ مِنْهُ آدَمَ ﷺ ، كَمَا قَالَ الْأَسَدِىُّ :

« فَضَلْنَا النَّاسَ : أَنَّا أَوَّلُوهُمْ ، وَأَنَّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ فِينَا
أَبًا فَأَبًا — إِذَا نَحْنُ انْتَسَبْنَا — إِلَى أَنْ يَبْلُغَ الْإِنْسَانُ طِينَا »

وَأَمَّا الْعَبْدُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ ، فَمَا لَهُ رَغْبَةٌ فِى التَّوَسُّعِ وَمُعَاوَدَةِ الْأَطْعِمَةِ ، وَتَرْكُهَا صَارَ لَهُ طَبْعًا ثَانِيًا ، وَلَهُ — مَا أَكَلَ شَيْئًا مِنْ حَيَوَانٍ — خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَالشَّيْخُ لَا يَتْرُكُ عَادَاتِهِ حَتَّى يُوَارَى فِى ثَرَى رَمْسِهِ

وَأَرْجُو أَلَّا يَكُونَ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ أَحَدَ الْجَاهِلِينَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ الشَّاعِرُ :

مَا يَبْلُغُ الْأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ مَا يَبْلُغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

أمير حلب فى عهد أبى العلاء

وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ السَّيِّدَ الْأَجَلَّ(٢) تَاجَ الْأُمَرَاءِ ، فَخْرَ الْمُلْكِ ، عُمْدَةَ الْإِمَامَةِ ،

---

(١) فى المطبوعة بعد ذلك : « فى النيل ومشبهه » و يظهر أن هنا سقطا

(٢) تقدم فى الرسالة السابقة أن اسمه « ثمال بن صالح »

وَعُدَّةَ الدَّوْلَةِ وَمَجْدَها وعِزَّها ، ذا الفَخْرَيْنِ ، أعزَّ اللهُ نَصْرَهُ — يُضِيفُ أوْلادَ سَامَ وَمَنْ وَلَدهُ أخُوهُ حامُ ، وَكَذلكَ نَسْلَ يافِث ، وَلَوْ فُتِحَتْ يأجُوجُ وَمأْجُوجُ لَجَازَ أنْ يَضْمَنَ لَهُمْ قِرَى الأَضْيافِ .

وَوَدَّ العَبْدُ لَوْ أنَّ قَلْعَةَ حَلَبَ — حَمَاها اللهُ — وَجَميعَ جِبالِ الشَّامِ ، جَعَلَهَا اللهُ القَادِرُ ذَهَباً ، لِنفقَةِ السَّيِّدِ الأَجَلِّ تاجِ الأُمَرَاءِ ، خَلَّدَ اللهُ إمَارَتَهُ في نَصْرِ الدَّوْلَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى إمَامِهَا السَّلامُ ، وَكَذلكَ عَلَى الأئمَّةِ الطَّاهِرِينَ آبائِهِ — مِنْ غَيْرِ أنْ يَصِيرَ إلى العَبْدِ الضَّعيفِ العَاجِزِ مِنْ ذلكَ قيراطٌ .

زهد أبي العلاء في العاجلة

وَهُوَ يَسْتَحِي مِنْ حَضْرَةِ تاجِ الأُمَرَاءِ ، أدَامَ اللهُ جَلالَتَهُ ، أنْ يَنْظُرَ إلَيْهِ بِعَيْنِ مَنْ رَغِبَ في العَاجِلَةِ مِنْ بَعْدِ مَا زَهِدَ ، وَقَدْ رَضِيَ أنْ يَلْقَى اللهَ — جَلَّتْ قُدْرَتُهُ — وَهُوَ لا يُطَالَبُ إلَّا بِمَا فَعَلَ ، مِنَ اجْتِنَابِ اللُّحُومِ ، فَإنْ وَصَلَ إلى هٰذِهِ الرُّتْبَةِ فَقَدْ سَعِدَ .

سجع أبي العلاء

وَفَهِمْتُ ما نَهَى عَنْهُ مِنَ اجْتِنَابِ السَّجْعِ ، وَقَدْ أدَّبَنِي بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهُ القَائِلُ لَمَّا ذَكَرَ الجَنِينَ : « أرَأَيْتَ مَنْ لا شَرِبَ وَلا أكَلَ ، وَلا صَاحَ وَلا اسْتَهَلَّ ؛ ألَيْسَ مِثْلُ ذلكَ بَطَلٌ — وَيُرْوَى : يُطَلُّ — » فَقَالَ ﷺ : « أسَجْعاً كَالجَاهِلِيَّةِ ؟ »

الابتهاج للسجع

عَلَى أَنَّ النَّاسَ فى الإِسْلامِ قَدِ استَحْسَنُوا السَّجعاتِ ، وَكَثُرَتْ فى خُطَبِهِمْ وَمُرَاسَلاتِهِمْ ، فَقَلَّما يُخْطَبُ بِخُطْبَةٍ عَلَى مِنْبَرٍ إِلَّا وَفِيهَا سَجْعٌ .

وَأَمَّا خُطَبَاءُ الْعِرَاقِ فَمِنْهُمْ خُطَبٌ تَكُونُ — مِنْ أَوَّلِهَا إِلى آخِرِهَا — مَسْجُوعَةً عَلَى الْبَاءِ أَوِ التَّاءِ أَوْ غَيْرِهَا مِنَ الْحُرُوفِ .

وَرُوِىَ أَنَّ بَعْضَ الْمُلُوكِ قَالَ لِبَعْضِ الْفُقَهَاءِ : بَلَغَنِى أَنَّكَ تُحِبُّ السَّجْعَ . فَقَالَ : نَعَمْ . وَقَرَأَ عَلَيهِ آيَاتٍ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا » ! . . . .

فواصل القرآن

وَالْفَوَاصِلُ الَّتِى جَاءَتْ فى الْكِتَابِ الأَشْرَفِ عَلَى ضُرُوبٍ : مِنْهَا مَا هُوَ مُتَبَاعِدٌ لا يَجْرِى مَجْرَى السَّجْعِ ، وَفِيهِ مَا يَجْرِى مَجْرَى الْمَسْجُوعَاتِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ »

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ »

وَإِذَا جَاءَتِ الْكَلِمَاتُ مُخْتَلِفَاتِ الإِعْرَابِ — بَعْضُهَا مَرْفُوعٌ ، وبَعْضُهَا مَنْصُوبٌ ، وبَعْضُهَا مَخْفُوضٌ — فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَرَى ذَلِكَ سَجْعاً ، وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُدْخِلُهُ فِى بَابِ الْمَسْجُوعِ . فَإِذَا اخْتَلَفَتْ أَوَائِلُ الْكَلِمَاتِ فِى الضَّمِّ وَالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ ، فَفِيهِ اخْتِلافٌ كَاخْتِلافِهِمْ فِى الإِعْرَابِ

سجع الحمائم

وَلَوْ عَلِمَتِ الْحَمَائِمُ السَّاجِعَةُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ ، أَوْ نَبِيَّهُ ﷺ ، يَكْرَهُ سَجْعَهَا

عَلَى الغُصُونِ ، لَخَرِستْ عَنْهُ ، وَتبَرَّأَتْ مِنْهُ ، وَكَذَلِكَ النُّوقُ الْمَوْصُوفَةُ بِأَنهَا سَاجِعاتٌ ، كَمَا قَالَ تَمِيمُ بْنُ نُوَيْرَةَ :

إِذَا حَنَّتِ الْأُولَى سَجَعْنَ لَهَا مَعًا

كراهة الرسول للسجع

وَإِنَّمَا كَرِهَهُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — لِأَنَّهُ قَدْ كَثُرَ فِي كَلَامِ الْكُهَّانِ ، فَنَهَى عَنْهُ غَيْرَ مُحَرِّمٍ لَهُ ، وَقَدْ رُوِىَ عَنْهُ كَلَامٌ مَسْجُوعٌ فِى حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ ، مِنْهُ قَوْلُهُ — لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الْمَرْعَى وَالْمَاءِ — : « خَيْرُ الْمَاءِ الشَّبِمُ ، وَخَيْرُ الْمَرْعَى السَّلَمُ . إِذَا سَقَطَ صَارَ دَرِينًا ، وَإِذَا خُبِطَ جُعِلَ لَجِينًا (١) »

فطنة داعى الدعاة

وَسَيِّدُنَا الرَّئِيسُ الْأَجَلُّ الْمُؤَيَّدُ فِى الدِّينِ — لَا زَالَتْ حُجَّتُهُ بَاهِرَةً ، وَدَوْلَتُهُ غَالِبَةً — كَمَا قَالَ زُهَيْرٌ :

« لَعَمْرُ أَبِيكَ مَا هَرِمُ بْنُ سَلْمَى ... بِمَلْحِيٍّ إِذَا اللُّؤَمَاءُ لِيمُوا
وَلَا سَاهِى الْفُؤَادِ وَلَا عَيِيُّ اللِّـ ... ـسَانِ ، إِذَا تَشَاجَرَتِ الْخُصُومُ »

وَكَمَا قَالَ ثَعْلَبَةُ بْنُ صُعَيْرٍ المَازِنِىُّ :

« وَلَرُبَّ قَوْمٍ ظَالِمِينَ — ذَوِى شَذًى — ... تَغْلِى صُدُورُهُمُ بِهِتْرٍ هَاتِرِ
لُدٍّ ، ظَأَرْتُهُمُ عَلَى مَا سَاءَهُمْ ... وَخَسَأْتُ بَاطِلَهُمْ بِحَقٍّ ظَاهِرِ »

وَلَوْ نَاظَرَ أَرِسْطَاطَالِيسَ لَجَازَ أَنْ يُفْحِمَهُ ، وَأَفْلَاطُونَ لَنَبَذَ حُجَجَهُ خَلْفَهُ .
وَاللهُ يُجَمِّلُ بِحَيَاتِهِ الشَّرِيعَةَ ، وَيَنْصُرُ بِحُجَّتِهِ الْمِلَّةَ . وَالسَّلَامُ

---

(١) شَبِمَ الماء : برد . فخير الماء ما كان بارداً . والسلم : شجر من العضاه . والدرين : ما بَلِيَ من الحشيش . واللجين : العلف المتخذ من الورق المدقوق المخلوط بدقيق أو شعير .

الرسالة الخامسة :

من داعى الدعاة[1]

مَا فَاتَحْتُ الشَّيْخَ — أَحْسَنَ اللهُ تَوْفِيقَهُ — بِالقَوْلِ إلاَّ مُفَاتَحَةَ مُتَنَاكِرٍ، مُؤْثِرٍ لِأَنْ لَا يَخْفَى مِنْ أَيْنَ جَاءَهُ السُّؤَالُ ، فَيَكُونُ الْجَوَابُ بِاسْتِرْسَالٍ وَرَفْضِ حِشْمَةٍ، وَحَذْفِ تَكَلُّفِ الْخِطَابِ بِسَيِّدِنَا ، وَالرَّئِيسِ، وَمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى ، إِذْ كَانَ حُكْمُ مَا نَتَجَارَى فِيهِ مُوجِباً أَنْ لَا يَتَخَلَّلَهُ شَيْءٌ مِنْ زَخَارِفِ الدُّنْيَا ، وَلِأَنَّنِي أَعْتَقِدُ أَنَّ « سَيِّدِي » — بِالْحَقِيقَةِ — مَنْ تَسْتَقِلُّ دُونَ يَدِهِ يَدِي أَخْذاً مِنْهُ لِلدُّنْيَا ، أَوْ تَمْتَارُ نَفْسِي مِنْ نَفْسِهِ اسْتِفَادَةً مِنْ مَعَالِمِ الْأُخْرَى .

فَلَا أَدْرِي كَيْفَ انْعَكَسَتِ الْحَالُ ، حَتَّى صَارَ الشَّيْخُ — أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهُ — يُخَاطِبُنِي بِسَيِّدِنَا وَالرَّئِيسِ، وَلَسْتُ مُفَضَّلاً عَنْهُ فِي دُنْيَا وَلَا دِينٍ ، بَلْ شَادٌّ رَاحِلَتِي إِلَيْهِ لِاسْتِفَادَةٍ ؛ إِنْ وَرَدْتُ مَوْرِدَهَا ، أَوْ صَادَفْتُ نَهْلاً أَوْ عَلاً مِنْهَا ، قَابَلْتُهَا بِالشُّكْرِ لِنِعْمَتِهِ ، وَالإِسْجَالِ عَلَى نَفْسِي بِسِيَادَتِهِ .

معرفة داعى الدعاة للناس

وَبَعْدُ فَإِنِّي أُعْلِمُهُ — أَدَامَ اللهُ سَلَامَتَهُ — أَنَّنِي شَقَقْتُ بَطْنَ الأَرْضِ مِنْ أَقْصَى دِيَارِي إِلَى مِصْرَ ، وَشَاهَدْتُ النَّاسَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ :

إِمَّا مُنْتَحِلاً لِشَرِيعَةٍ صَباً[2] إِلَيْهَا ، وَلَهِجَ بِهَا إِلَى الْحَدِّ الَّذِي إِنْ قِيلَ لَهُ مِنْ أَخْبَارِ شَرْعِهِ : إِنَّ فِيلاً طَارَ ، أَوْ جَمَلاً بَاضَ ، لَمَا قَابَلَهُ إِلاَّ بِالْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ ، وَلَكَانَ يُكَفِّرُ مَنْ يَرَى غَيْرَ رَأْيِهِ فِيهِ ، وَيُسَفِّهُهُ وَيَلْعَنُهُ !

---

(١) قالوا : وقد مات أبو العلاء قبل أن يصل اليه هذا الكتاب (٢) صبأ إلى الشيء : مال

فَالعقلُ عِنْدَ مَن هَذِهِ سَبيلُهُ فِي مَهْوَاةٍ وَمَضْيَعَةٍ ، فَلَيْسَ يَكادُ يَنبَعِثُ لِأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ الَّتِي يَنتَحِلُهَا لَمْ يُطَوَّقْ طَوْقَهَا ، وَلَمْ يُسَوَّرْ سِوَارَهَا إِلَّا بَعْدَ لُمُوعِ نُورِ الْعَقْلِ مِنْهُ ، فَكَيْفَ يَصِحُّ تَوْلِيَتُهُ أَوَّلاً وَعَزْلُهُ آخِراً ؟ وَلِمَ لَا يَتَسَاوَى طَرَفَاهُ وِلَايَةً ، أَوْ يَتَسَاوَى طَرَفَاهُ عَزْلاً ؟ « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » .

أَوْ مُنْتَحِلاً لِلْعَقْلِ يَقُولُ : « إِنَّهُ حُجَّةُ اللهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ » مُبْطِلاً لِجَمِيعِ مَا النَّاسُ فِيهِ ، مُسْتَخِفّاً بِأَوْضَاعِ الشَّرَائِعِ ، مُعْتَرِفاً مَعَ ذَلِكَ بِوُجُوبِ الْمُسَاعَدَةِ عَلَيْهَا ، وَعِظَمِ الْمَنْفَعَةِ بِمَكَانِهَا ، لِكَوْنِهَا مَقْمَعَةً لِلْجَاهِلِينَ . وَلِجَاماً عَلَى رُءُوسِ الْمُجْرِمِينَ الْمُجَازِفِينَ . لَا عَلَى أَنَّهَا ذَخِيرَةٌ لِلْعُقْبَى ، أَوْ مَنْجَاةٌ فِي الدَّارِ الْأُخْرَى .

سماعه بأبي العلاء

فَلَمَّا رَمَتْ بِيَ الْمَرَامِي إِلَى دِيَارِ الشَّامِ وَمِصْرَ ، سَمِعْتُ عَنِ الشَّيْخِ — وَفَّقَهُ اللهُ — بِفَضْلٍ فِي الْأَدَبِ وَالْعِلْمِ ، قَدِ اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الْأَقَاوِيلُ ، وَوَضَحَ بِهِ الْبُرْهَانُ وَالدَّلِيلُ . وَرَأَيْتُ النَّاسَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِدِينِهِ مُخْتَلِفِينَ ، وَفِي أَمْرِهِ مُتَبَلْبِلِينَ : فَكُلٌّ يَذْهَبُ فِيهِ مَذْهَباً ، وَيَتْبَعُهُ مِنْ تَقَاسِيمِ الظُّنُونِ سَبَباً .

أقوال الناس في أبي العلاء

وَحَضَرْتُ مَجْلِساً جَلِيلاً أُجْرِيَ فِيهِ ذِكْرُهُ ، فَقَالَ الْحَاضِرُونَ فِيهِ غَثّاً وَسَمِيناً . فَحَفِظْتُهُ بِالْغَيْبِ ، وَقُلْتُ : إِنَّ الْمَعْلُومَ مِنْ صَلَابَتِهِ فِي زُهْدِهِ يَحْمِيهِ مِنَ الظِّنَّةِ

وَالرِّيَبِ . وَقَامَ فِي نَفْسِي أَنَّ عِنْدَهُ مِنْ حَقَائِقِ دِينِ اللهِ سِرًّا ، قَدْ أَسْبَلَ عَلَيْهِ مِنَ التَّقِيَّةِ سِتْرًا ، وَأَمْرًا تَمَيَّزَ بِهِ عَنْ قَوْمٍ يُكَفِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا .

داعية البيت

وَلَمَّا سَمِعْتُ الْبَيْتَ :

غَدَوْتَ مَرِيضَ الدِّينِ وَالْعَقْلِ فَالْقَنِي   لِتَسْمَعَ أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ

وَثِقْتُ مِنْ خَلَدِي فِيمَا حَدَسْتُ عُقُودَهُ ، وَتَأَكَّدْتُ عُهُودَهُ . وَقُلْتُ : إِنَّ لِسَانًا يَسْتَطِيعُ بِمِثْلِ هَذِهِ الدَّعْوَى نُطْقًا ، وَيَفْتِقُ مِنْ هَذَا الْعَظِيمِ رَتْقًا ، لَلِسَانٌ صَامِتٌ عِنْدَهُ كُلُّ نَاطِقٍ ، وَنَاطِقٌ مِنْ ذِرْوَةِ جَبَلٍ مِنَ الْعِلْمِ شَاهِقٍ .

فَقَصَدْتُهُ قَصْدَ مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — لِلطُّورِ أَقْتَبِسُ مِنْهُ نَارًا ، وَأُحَاوِلُ أَنْ أَرْفَعَ بِالْفَخْرِ مَنَارًا ؛ بِمَعْرِفَةِ مَا تَخَلَّفَ عَنْ مَعْرِفَتِهِ الْمُتَخَلِّفُونَ ، وَاخْتَلَفَ فِي حَقِيقَتِهِ الْمُخْتَلِفُونَ .

فَأَدْلَيْتُ دَلْوِي بِالْمَسْأَلَةِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي سَأَلْتُ ، تَرَقِّيًا مِنْ دُونٍ إِلَى فَوْقٍ ، وَتَدَرُّجًا مِنْ صَغِيرٍ إِلَى كَبِيرٍ .

جواب أبي العلاء

فَكَانَ جَوَابُهُ أَنَّهُ يَصْغُرُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِلاسْتِرْشَادِ مَحَلًّا ، وَأَنْ يَشُدَّ إِلَيْهِ شَادٌّ فِيهِ رَحْلًا ، فَقُلْتُ : هَذَا زِيَادَةٌ فِي فَضْلِهِ ، وَمَا يَجُوزُ صُدُورُ مِثْلِهِ عَنْ مِثْلِهِ . ثُمَّ انْتَهَى إِلَى الْإِحَالَةِ عَلَى كَوْنِ النَّاسِ — مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ وَتَأَخَّرَ — فِي وَادِي الْحَيْرَةِ تَائِهِينَ ، وَبِأَذْيَالِهَا مُتَعَثِّرِينَ .

فَمِنْ قائلٍ يَقُولُ : إِنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ . وَمُجِيبٍ يُجِيبُهُ : هَلْ كَانَ مَا يَسْتَعِيذُ مِنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكُلٌّ مُسْتَعَاذٍ مِنْهُ خَيْرًا أَوْ شَرًّا ؟ فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَالاسْتِعَاذَةُ مِنْـهُ بَاطِلَةٌ ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا وَاللهُ مُرِيدُهُ ، فَالاسْتِعَاذَةُ مِنْهُ فُضُولٌ وَزِيَادَةٌ فى الْمَعْنَى .

وَسُؤَالِ مَنْ يَسْأَلُ : هَلْ كَانَ سَمُّ الْحَسَنِ وَقَتْلُ الْحُسَيْنِ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - خَيْرًا أَوْ شَرًّا ؟ فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَاللَّعْنَةُ عَلَى الْقَاتِلِ مِنْ أَىِّ جِهَةٍ ؟ وَإِنْ كَانَ شَرًّا وَاللهُ مُرِيدُهُ ، زَالَ اللَّوْمُ عَنِ الْقَاتِلِ .

وَقائلٍ يَقُولُ : إِنَّ الْخَيْرَ مِنَ اللهِ ، وَالشَّرَّ مِنْ غَيْرِهِ .

وَمُجِيبٍ يُجِيبُهُ بِالْجَوَابِ ، الَّذِى يَقْطَعُ بِهِ الأَسْبَابَ .

وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَطَالَ الْخِطَابَ بِهِ مِنْ أَشْعَارِ الْمُلْحِدَةِ وَأَقْوَالِهِمْ .

جواب داعى الدعاة

فَكَانَ جَوَابِى لَهُ — أَدَامَ اللهُ سَلَامَتَهُ — أَنِّى مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرْتَهُمْ هَرَبْتُ إِلَيْكَ ، وَتَطَارَحْتُ عَلَيْكَ . وَإِنَّ كَلَامَهُمْ - قَبْلَ أَنْ عَلَّلْتَـهُ - عَلِيلٌ ، وَهُوَ عَلَى مَسَامِعِ الْقَبُولِ مِنِّى ثَقِيلٌ . فَافْتَحْ لِى — إِلَى مَا عِنْدَكَ — بَابًا ، وَافْسَحْ لِى مِنْ لَدُنْكَ جَنَابًا . فَلَمْ يَفْعَلْ .

المناقشة فى أكل اللحوم

ثُمَّ خَاطَبْتُهُ عَلَى امْتِنَاعِهِ مِنْ أَكْلِ اللُّحُومِ ، فَاحْتَجَّ بِكَوْنِهِ مُتَحَرِّجًا مِنْ قَصْدِهَا — أَعْنِى الْبَهَائِمَ — بِالْمَضَرَّةِ وَالإِيلَامِ ، مُتَعَفِّفًا عَنْهَا لِهَذِهِ الْجِهَةِ . فَقَطَعْتُ لِسَانَ حُجَّتِهِ بَعْدَ تَبَاهِيهَا .

وَقلتُ : إذَا كَانَ اللهُ سَلَّطَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ يَأكُلُهُ ، وَهُوَ أَعْرَفُ بِوُجُوهِ الحِكْمَةِ، وَأرْأفُ بِالْخَلِيقَةِ ؛ فَلا يَكُنْ أرْأفَ بِهَا مِنْ رَبِّهَا ، وَلا أعْدَلَ فِيهَا مِنْ خالِقِهَا .

ذكر أبى العلاء لعجزه وضعفه

ثُمَّ عَدَلَ إلَى ذِكْرِ قُصُورِ يَدِ الاسْتِطَاعَةِ دُونَ ذَلِكَ ، إذْ كَانَ الْقَدْرُ الَّذِى هُوَ لَهُ فِى السَّنَةِ مَصْرُوفاً — إلَى مَنْ تَوَلَّى خِدْمَتَهُ — أكْثَرُهُ ، وَخالِصًا لَهُ أقَلُّهُ .

امتناعه من قبول المعونة

فَقَطَعْتُ الْحُجَّةَ فِى هَذَا الْبَابِ أيْضًا ، وَعَيَّنْتُ لَهُ عَلَى جِهَةٍ كَرِيمَةٍ مِنَ الَّذِينَ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أذًى ، [ما] يَقُومُ بِقَدْرِ كِفَايَتِهِ مِنْ أطْيَبِ مَا يَأكُلُونَ ، وَأزْكَى مَا — فِى الْبُيُوتِ — يَدَّخِرُونَ .

فَتَجَافَتْ نَفْسُهُ — وَقَاهَا اللهُ السُّوءَ — عَنْ هَذَا الْبَابِ أيْضًا . وَكَتَبَ فِى الْجَوَابِ الثَّانِى بِأنَّهُ لاَ يُؤْثِرُهُ ، وَلاَ يَرْغَبُ فِيهِ ، وَلاَ يَخْرِقُ عَادَتَهُ الْمُسْتَمِرَّةَ فِى التَّرْكِ .

طلب الرشد

وَابْتَدَأ يَقُولُ : إنِّى أطْلُبُ الرُّشْدَ مِمَّنْ لاَ رُشْدَ عِنْدَهُ ، وَإنَّ الْبَيْتَ — الَّذِى قَالَهُ — مِمَّا جَعَلْتُهُ مَحَجَّةً إلَى اسْتِقْرَاءِ طَرِيقَتِهِ وَمَذْهَبِهِ — إنَّمَا أرَادَ الإعْلاَمَ بِاجْتِهَادِهِ فِى الدِّينِ ، وَمَا حِيلَتُهُ فِى الآيَةِ الْمُنَزَّلَةِ : « مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا »

فَجمعَ بيْنَ المُتَضَادَّيْنِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ . إِنْ كَانَتِ الآيَةُ حَقًّا ، كَانَ الاجْتِهَادُ بَاطِلًا .

وَقَالَ : إِنَّ لِلَّهِ — سُبْحَانَهُ — أَسْرَاراً لاَ يَقِفُ عَلَيْهَا إِلاَّ الأَوْلِيَاءُ ، فَنَحْنُ عَلَى ذَلِكَ نَدُورُ ، وَعَلَى بَابِ مَنْ هُوَ عِنْدَهُ نَطُوفُ .

فَإِنْ قُلْنَا : إِنَّهُ — حَرَسَهُ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِهِ — بِدَعْوَى صِحَّتِهِ فِي دِينِهِ وَعَقْلِهِ ، وَمَرَضِ النَّاسِ ، عَلَى مُوجِبِ قَوْلِهِ فِي بَيْتِهِ[1] . قَالَ : لَا رُشْدَ عِنْدِي !

فَنَظْمُهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى يُخَالِفُ نَثْرَهُ ، وَنَثْرُه يُخَالِفُ نَظْمَهُ ، فَكَيْفَ الحِيلَةُ ؟

صحة الدين والعقل

ثُمَّ قَالَ : إِنَّ الْبَيْتَ الْمَقُولَ :

غَدَوْتَ مَرِيضَ الدِّينِ وَالْعَقْلِ ، فَالْقَنِي

يُؤَدِّي مَعْنَاهُ إِلَى الْبَيْتِ الثَّانِي :

فَلاَ تَأْكُلَنْ مَا أَخْرَجَ الْمَـــاءُ ظَالِمًا

فَكَأَنَّ مَرَضَ الْعَقْلِ وَالدِّينِ مِنْ جِهَةِ أَكْلِ اللُّحُومِ ، وَشُرْبِ الأَلْبَانِ ، وَتَنَاوُلِ الْعَسَلِ . فَمَنْ تَرَكَ هَذِهِ المطَاعِمَ كَانَ صَحِيحاً فِي دِينِهِ وَعَقْلِهِ .

وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ مَصَحَّةَ الْأَدْيَانِ وَالْعُقُولِ لاَ تَقُومُ بِذَلِكَ .

---

(١) فى الأصل : « نيته » ولا معنى لها ، وهى محرفة عن « بيته » أى البيت الذى هو مطلع قصيدة أبي العلاء : غدوت مريض الدين والعقل . . . الخ ، وهوالمحور الذى دارت عليه الرسائل بين داعى الدعاة والمعرى

وَلاَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْبَيْتُ الثَّانِى نَاسِخًا لِحُكْمِ الْأَوَّلِ.

فَيَكُونُ مَحْصُولُ دَعْوَاهُ فِى فَقْرِ النَّاسِ إِلَى أَنْ يُصَحِّحَ عَقْلَهُمْ وَدِينَهُمْ، أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: لاَ تَأْكُلُوا اللَّحْمَ، وَلاَ تَشْرَبُوا اللَّبَنَ!

كراهة السمك للخروج من الماء

وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنَّ الْحَيَوَانَ الْبَحْرِيَّ كَارِهٌ لِأَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْبَرِّ؛ وَأَنَّهُ لَيْسَ يَقْبُحُ فِى الْعُقُولِ تَرْكُ أَكْلِهِ وَإِنْ كَانَ حَلاَلاً، لِأَنَّ الْمُتَدَيِّنِينَ لَمْ يَزَالُوا يَتْرُكُونَ مَا هُوَ لَهُمْ طِلْقٌ مُبَاحٌ.

فَمَا مِنْ حَيَوَانٍ بَرِّيٍّ وَلاَ بَحْرِيٍّ هُوَ أَجَلُّ مِنَ هَـذَا الإِنْسَانِ الْحَيِّ الْعَاقِلِ النَّاطِقِ، وَهُوَ كَارِهٌ لِأَنْ يَأْكُلَهُ شَيْءٌ. وَالدُّودُ يَأْكُلُهُ فِى قَبْرِهِ!

فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ صَادِراً عَنْ مَوْضِعِ حِكْمَةٍ، كَانَ مَا ذَكَرَهُ مِنَ الْحَيَوَانِ الْبَرِّى وَالْبَحْرِيِّ جَارِياً فِى مِضْمَارِ هَذَا مِثْلاً بِمِثْلٍ، وَإِنْ كَانَ مَعْدُولاً بِهِ عَنْ وَجْهِ الْحِكْمَةِ، كَانَ مُحَالاً أَنْ يَكُونَ صَانِعِى سَفِيهاً، وَأَكُونَ — أَنَا مَصْنُوعُهُ — حَكِيماً.

تنفل النبي وتعبده

وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى إِلَى أَنْ تَقَرَّحَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ فِيهِ، فَقَالَ: «أَفَلاَ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْداً شَكُوراً؟» فَمَا هَذَا مِمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ فِى شَيْءٍ.

وَالإِنْسَانُ لَهُ أَنْ يُصَلِّيَ مَا شَاءَ مِنَ الصَّلَوَاتِ فِى الْأَوْقَاتِ الَّتِى تَجُوزُ فِيهَا الصَّلاَةُ، عَلَى أَلاَّ يَزِيدَ فِى الْفَرَائِضِ، وَلاَ يَنْقُصَ مِنْهَا.

وَهَذَا الْكَلاَمُ شَرْعِيٌّ، وَكَانَتِ الْقَضِيَّةُ فِى التَّكَلُّمِ عَلَى الْعَقْلِيَّاتِ

ترك الحلال

وَأمَّا قَوْلُهُ : إِنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَرَّمَ صَيْدَ الْحَرَمِ ، وَإِنَّ لِغَيْرِهِ أَنْ يُحَرِّمَ صَيْدَ الْحِلِّ ، تَقَرُّباً إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ . فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُحَلِّلَ أَوْ يُحَرِّمَ غَيْرَهُ

تقشف على

وَأمَّا قَوْلُهُ إِنَّ عَلِيًّا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا قُدِّمَ لَهُ الْخَبِيصُ ، سَأَلَ : هَلْ أَكَلَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُ ؟ فَقَالُوا : لَا . فَرَفَعَهُ ، وَلَمْ يَأْكُلْهُ . فَهَذِهِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ لَا لَهُ .

فَإِنَّ النَّاسَ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُفَارِقْ أَكْلَ اللَّحْمِ ، وَلَمْ يَهْجُرْهُ دَهْرَهُ ، وَذَلِكَ بِالضِّدِّ سَوَاءٌ .

وَلَوْلَا أَنَّهُ - حَرَسَهُ اللهُ - لَمْ يَسْتَظْهِرْ عَلَيَّ بِالشَّرِيعَةِ ، وَلَمْ يُجَاوِزْ نُصْبَةَ الْعَقْلِ ، لَصُنْتُهُ عَنْ هَذَا الْجَوَابِ الَّذِي عَسَى أَنْ يَشْغَلَ سِرَّهُ !

وَيَعِزُّ عَلَيَّ ذَلِكَ .

شكوى أبي العلاء من الضعف

وَأمَّا مَا شَكَاهُ مِنْ ضَعْفِهِ ، وَقُصُورِ حَرَكَتِهِ . وَقَوْلُهُ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِيهِ بَقِيَّةٌ لِأَنْ يُسْأَلَ ، وَلَا أَنْ يُجِيبَ :

فَمَا هُوَ - حَرَسَهُ اللهُ - عَلَى عِلَّاتِهِ مِنَ الضَّعْفِ وَالْقُوَّةِ ، إِلَّا مِنْ مَحَاسِنِ الزَّمَانِ ، وَمِمَّنْ سَارَتْ بِذِكْرِ فَضْلِهِ الرُّكْبَانُ

إِلَّا أَنَّه - عَلَى عُدْوَانِ الدَّهْرِ عَلَيْهِ - عَدَا عَلَى نَفْسِهِ بِحِرْمَانِهَا مَلَاذَّ دُنْيَاهَا ، فَإِنْ وَثِقَتْ نَفْسُهُ بِمَلَاذَّ يَعْتَاضُ عَنْهَا ، مِمَّا هُوَ خَيْرٌ وَأَبْقَى مِنْهَا ؛ فَمَا خَسِرَتْ صَفْقَتُهُ ، وَقَامَ مِصْدَاقُ قَوْلِهِ بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّمِ ذِكْرُهُ ؛ وَإِنْ كَانَ تَوَسَّمَ بِمِيسَمِ الشُّحِّ ، بِمَنْعِ الْمُنْتَجِعِينَ ، وَرَدِّ السَّائِلِينَ .

وَإِنْ كَانَ شَقَّ عَلَى نَفْسِهِ عَنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ ، كَمَا يَدَّعِيهِ الآنَ خَوْضاً مَعَ الْخَائِضِينَ ، وَتَحَيُّرًا مَعَ الْمُتَحَيِّرِينَ ؛ فَقَدْ أَضَاعَهَا وَجَنَى عَلَيْهَا ، وَادَّعَى فِي الْبَيْتِ الْمُقَدَّمِ ذِكْرُهُ مَا لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ .

وَالْغَرَضُ — فِي السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ — الْفَائِدَةُ ؛ فَإِذَا عُدِمَتْ ، فَقَدْ خَفَّفَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يَتَكَلَّفَ جَوَاباً .

فى الأسجاع

وَأَمَّا الْأَسْجَاعُ ، وَمَسْأَلَتِي التَّخَلِّيَ عَنْهَا ، فَمَا كَانَتْ إِلاَّ شُحًّا بِالْمَعَانِي أَنْ يَصِلَ تَتَبُّعَهَا[1] . وَلَكِنِّي إِذَا تَتَبَّعْتُ فَضْلَهُ — بِمُصَنَّفَاتِهِ فِي الْأَدَبِ وَالشِّعْرِ — وَجَدْتُ فِي أَرْضِهِ مُرَاغَماً[2] كَثِيراً . وَمِنْ أَيْنَ لِي أَنْ أَظْهَرَ عَلَى مَكْنُونِ جَوَاهِرِ عُلُومِ دِينِهِ ، كَظُهُورِي عَلَى مُصَنَّفَاتِ أَدَبِهِ وَشِعْرِهِ ؟

اعتذار داعى الدعاة

وَقَبْلُ وَبَعْدُ ، فَأَنَا أَعْتَذِرُ عَنْ سِرٍّ لَهُ — أَدَامَ اللهُ سَلاَمَتَهُ — أَذَيْتُهُ[3] ، وَزَمَانٍ مِنْهُ بِالْقِرَاءَةِ وَالْإِجَابَةِ شَغَلْتُهُ ، لِأَنِّي — مِنْ حَيْثُ مَا نَفَعْتُهُ — ضَرَرْتُهُ .

وَاللهُ — تَعَالَى — يَعْلَمُ أَنِّي مَا قَصَدْتُ بِهِ غَيْرَ الاِسْتِفَادَةِ مِنْ عِلْمِهِ ، وَالاِغْتِرَافِ مِنْ بَحْرِهِ .

وَالسَّــــلاَمُ .

---

(١) إى إبقاء على المعانى ، ورغبة فى أن يصل أبو العلاء متابعتها ؛ فلا تعوقه المحافظة على السجع عن المتابعة والاسترسال فى أدائها . (٢) مذهباً أو مهرباً (٣) فى معجم ياقوت : « أذعته » .

رسالة الملائكة

تمهيد(١)

لَيْسَ مَوْلَاىَ الشَّيْخُ — أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ — بِأَوَّلِ رَائِدٍ ظَعَنَ فِي الْأَرْضِ

---

(١) فى الطبعة الثانية لرسالة الغفران التى قدمناها للطبع سنة ١٩٢٤ وظهرت لجمهور القراء سنة ١٩٢٥ — أثبتنا موجزاً لرسالة الملائكة ، نقلا عن النسخة المطبوعة من هذه الرسالة ، وقد عالجنا فى هذا الموجز تصحيح ما تفشاه من التحريف فى اللفظ والأسلوب .

وقد توخينا — فى هذه الطبعة الثالثة — أن ننشر النص الكامل لرسالة الملائكة ، فراجعنا ما وصلت إليه أيدينا من نسخها المطبوعة والمخطوطة ، وأصلحنا ما أمكن مما بقى فيها من تحريف ، وفصلنا موضوعاتها تفصيلا يجلو ما فيها من بحوث فى اللغة ، وضبطناها بالشكل الكامل كما صنعنا فى رسالة الغفران وملقى السبيل والرسائل التى دارت بين داعى الدعاة وأبى العلاء . وقد شرحنا من ألفاظها ما تمس حاجة القارئ إلى شرحه ، وعلقنا على بعض موادها العلمية تعليقات يسيرة .

ولعلنا بهذا قد مهدنا لرسالة الملائكة مكاناً بين الرسائل اللغوية الفريدة ، تتحقق به أمنية العلماء والباحثين فيها ، ورجاؤهم منها . والله الموفق .

الْعَازِبَةِ (١)، فوجدها مِنَ النَّبَاتِ قفرًا؛ وَلَا آخِرِ شَائِمٍ ظَنَّ الْخَيْرَ بِالسَّحَابَةِ، فَكَانَتْ مِنْ قَطْرٍ صِفْرًا!

جَاءَتْنِي مِنْهُ فَوَائِدُ، كَأَنَّهَا فِي الْحُسْنِ بَنَاتُ مَخْرٍ (٢)، مُتَمَثِّلًا بِبَيْتِ صَخْرٍ:

لَعَمْرِي! لَقَدْ نَبَّهْتِ مَنْ كَانَ نَائِمًا   وَأَسْمَعْتِ مَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ

إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ، وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ...

تبرؤه من مظنة العلم

وَكُنْتُ فِي عُنْفُوَانِ الشَّبِيبَةِ أَوَدُّ أَنَّنِي مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَسَجَنَتْنِي عَنْهُ سَوَاجِنُ (٣)، غَادَرَتْنِي مِثْلَ الْكُرَةِ رَهْنَ الْمَحَاجِنِ (٤)؛ فَالْآنَ مَشَيْتُ رُوَيْدًا، وَتَرَكْتُ «عَمْرًا» لِلضَّارِبِ وَ«زَيْدًا (٥)»!

وَمَا أُوثِرُ أَنْ يُزَادَ فِي صَحِيفَتِي خَطَأٌ (٦) فِي النَّحْوِ، فَيَخْلُدَ آمِنًا مِنَ الْمَحْوِ....

---

(١) عَزَبَتِ الأرض: لم يكن بها أحد، مخصبة كانت أو مجدبة، والمراد أن الرائد حلَّ فى أرض غير مأهولة، بغية تمَيرها، فإذا هى ممحلة لا نبات بها.

(٢) تسمى: بنات مخر، و بنات بخر، و بنات بحر، وهى سحائب يجئن — قبل الصيف — منتصبات رقاقاً.

(٣) سجنه عن الأمر: حبسه عنه، والمراد أنه شغلته عن العلم الشواغل.

(٤) المحاجن: الصوالج، واحدها: محجن (٥) إشارة إلى المثل النحوى السائر: «ضرب زيد عمرا» (٦) وفى نسخة «خَطٌّ»

لا كذب مع الشيب

وَإذَا صَدَقَ فَجْرُ اللِّمَّةِ[١]، فَلَا عُذْرَ لِصَاحِبِهَا فِي الْكَذِبِ، وَمَنْ لِمُعَذَّبِ الْعَطَشِ بِالْعَذِبِ[٢]؟ وَصِدْقُ الشَّعَرِ فِي الْمَفْرَقِ، يُوجِبُ صِدْقَ الْإِنْسَانِ فِي الْفَرَقِ[٣]؛ وَكَوْنُ الْحَالِيَةِ بِلَا خُرْصٍ[٤]، أَجْمَلُ بِهَا مِنَ التَّخَرُّصِ[٥]؛ وقِيَامُ النَّادِبَةِ بِالْمَنَادِبِ[٦]، أَحْسَنُ بِالرَّجُلِ مِنَ الْقَوْلِ الْكَاذِبِ.

الثناء على صاحبه

وَهُوَ — أَدَامَ اللهُ الْجَمَالَ بِهِ — يَلْزَمُهُ الْبَحْثُ عَنْ غَوَامِضِ الْأَشْيَاءِ، لِأَنَّهُ يُعْتَمَدُ بِسُؤَالِ رَائِحٍ وَغَادٍ، وَحَاضِرٍ — يَرْجُو الْفَائِدَةَ — وَبَادٍ؛ فَلَا غَرْوَ أَنْ كَشَفَ عَنْ حَقَائِقِ التَّصْرِيفِ، وَاحْتَجَّ لِلتَّنْكِيرِ وَالتَّعْرِيفِ؛ وَتَكَلَّمَ فِي هَمْزٍ وَإِدْغَامٍ، وَأَزَالَ الشُّبْهَةَ عَنْ صُدُورِ الطَّغَامِ.

حياة أبي العلاء

أَمَّا أَنَا فَحِلْسُ[٧] الْبَيْتِ، إِنْ لَمْ أَكُنِ الْمَيْتَ فَشَبِيهٌ بِالْمَيْتِ، لَوْ أَعْرَضَتِ الْأَغْرِبَةُ عَنِ النَّعِيبِ، إِعْرَاضِي عَنِ الْأَدَبِ وَالْأَدِيبِ؛ لَأَصْبَحَتْ لَا تُحْسِنُ[٨] نَعِيباً، وَلَا يُطِيقُ هَرِمُهَا زَعِيباً[٩].

---

(١) اللمة — بكسر اللام — الشعر المجاوز شحمة الأذن، والمراد بصدق الفجر: تفشى الشيب (٢) ماء عذب — ككتف — مطحلب، غير صاف (٣) الفرق: الفزع الشديد.

(٤) الخرص — بالضم ويكسر — حلقة الذهب والفضة، أو حلقة القرط، أو الحلقة الصغيرة من الحلى. (٥) الكذب والادعاء. (٦) المنادب: المآتم.

(٧) يقال: فلان حلس بيته، إذا لم يبرح مكانه. (٨) وفى الأصل: لا تحسّ.

(٩) زعب الغراب: نعب

مسائل الصرف

وَلَمَّا وَافَى شيخُنا أبو فُلَان بتِلْكَ المَسَائِلِ، أَلْفَيْتُهَا فِى اللَّذَّةِ كأَنَّهَا الرَّاحُ، يستفِزُّ مَنْ سمِعها المِرَاحُ؛ وَكَانَتِ الصَّهْبَاءُ الجُرْجَانِيَّةُ طَرَقَ بِهَا عَمِيدُ كُفْرٍ، بَعْدَ مَيْلِ الجَوْزَاءِ وسُقُوطِ الغَفْرِ (١). وَكَأَنَّ عَلَى مُحَيَّاهَا، جُلِيَتْ إِلَيْنَا الشَّمْسُ وَإِيَاهَا (٢) — فَلَمَّا حَلَّتِ النَّدِىَّ، ذَكَرْتُ مَا قَالَ الأَسَدِىّ (٣):

فَقُلْتُ: اصْطَبِحْهَا أَوْ لِغَيْرِى فَأَهْدِهَا فَمَا أَنَا بَعْدَ الشَّيْبِ وَيْبَكَ (٤)! وَالخَمْرُ
تَجَالَلْتُ عَنْهَا فِى السِّنِينَ الَّتِى مَضَتْ فَكَيْفَ التَّصَابِى بَعْدَ مَا كَلَأَ العُمْرُ؟

وَمَا رَغْبَتِى فِى كَوْنِى كَبَعْضِ الكِرْوَانِ (٥)، تَكَلَّمَ فِى خَطْبٍ جَرَى، وَالظَّلِيمُ يَسْمَعُ وَيَرَى، فَقَالَ الأَخْفَشُ أَوِ الفَرَّا: أَطْرِقْ كَرَا (٦)، إِنَّ النَّعَامَةَ فِى القُرَى!

شيخوخة أبى العلاء

وَحَقُّ مِثْلِى أَلَّا يُسْأَلَ، فَإِنْ سُئِلَ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ أَلَّا يُجِيبَ؛ فَإِنْ أَجَابَ فَفَرْضٌ عَلَى السَّامِعِ أَلَّا يَسْمَعَ مِنْهُ؛ فَإِنْ خَالَفَ بِاسْتِمَاعِهِ فَفَرِيضَةٌ أَلَّا يَكْتُبَ مَا يَقُولُ، فَإِنْ كَتَبَ فَوَاجِبٌ أَلَّا يَنْظُرَ فِيهِ؛ فَإِنْ نَظَرَ فَقَدْ خَبَطَ خَبْطَ عَشْوَاءَ!

---

(١) قال القاموس: « الغفر: منزل للقمر ثلاثة أنجم صغار. »

(٢) قال القاموس فى باب الألف اللينة: « إيا الشمس — بالكسر والقصر — نورها وحسنها» وكان فى الأصل: على بجباها، فأصلحناه (٣) هو الأقيشر، وقد مرت هذه الأبيات مع ترجمة له فى الجزء الثانى من هذا الكتاب (ص ٩) وله ترجمة وافية فى الجزء العاشر من الأغانى، وكان فى الأصل: « فلما جلبت الهدى » (٤) ويبك: ويحك، وتروى: ويحك و(ويلك) (٥) الكِرْوان — بكسر الكاف — جمع كروان بفتحها (٦) الكرا: ذكر الكروان، « وأطرقْ كرا »: مثل يضرب لمن يخدع بكلام يلطف له، ويراد به الغائلة.

وَقَدْ بَلَغْتُ سِنَّ ٱلْأَشْيَاخِ ، وَمَا حَارَ[١] بِيَدِى نَفْعٌ مِنْ هٰذَا ٱلْهَذَيَانِ ؛ وَالظَّعْنُ إِلَى ٱلْآخِرَةِ قَرِيبٌ . . . .

حديثه مع ملك الموت

أَفَتَرَانِى أُدَافِعُ مَلَكَ ٱلْمَوْتِ ، فَأَقُولُ :

أَصْلُ مَلَكٍ : مَأْلَكٌ[٢] ، وَإِنَّمَا أُخِذَ مِنَ ٱلْأَلُوكَةِ ، وَهِىَ : الرِّسَالَةُ ، ثُمَّ قُلِبَ .

وَيَدُلُّنَا عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُمْ فِى ٱلْجَمْعِ : ٱلْمَلَائِكَةُ ، لِأَنَّ ٱلْجُمُوعَ تَرُدُّ ٱلْأَشْيَاءَ إِلَى أُصُولِهَا .

---

(١) حَارَ الشىء : رجع ، أى لم تبق فى يدى فائدة من هذا العلم

(٢) أصل ملك : مألك ، وهو مَفْعَلٌ من الأَلُوك ، وهى الرسالة ؛ ثم قلبت الهمزة فى مألك إلى موضع اللام ، وقدمت اللام ؛ فقيل : مَلْأَك ؛ ثم خففت الهمزة — أى حذفت — لكثرة الاستعمال ؛ بأن ألقيت حركتها على الساكن الذى قبلها ، فقيل : ملَك .

على أنه قد يستعمل « مَلْأَك » متمماً بلا حذف . إلا أن الحذف أكثر .

ومن شواهد عدم الحذف قول أبى وَجْزَة :

فلستَ لإنسىّ ولكن لِمَلْأَكٍ ... تَنَزَّلَ من جوّ السماء يَصُوبُ

وأما « ملائكة » فهى جمع مَلْأَكَة ، وقد رُدَّ فى الجمع ما حذف فى المفرد ، وهو مَلَك ودخول الهاء فى ملائكة ، كدخولها فى القشاعمة والصياقلة وما إليهما ، فليست الهاء هنا لعجمة ولا لنسب .

وقد استعمل العرب « الملائك » بلا هاء . قال أمية بن أبى الصَّلْت :

وكأن برقعَ والملائكَ حوله ... سَدِرٌ تواكله القوائم أَجْرَدُ

وَأَنْشَدَ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

فَلَسْتَ لِإِنْسِيٍّ ، وَلَـكِنْ لِمَلْأَكٍ   تَنَزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ[١]

فَيُعْجِبُهُ مَا سَمِعَ ، فَيُنْظِرُنِى سَاعَةً لِاشْتِغَالِهِ بِهَا .

فَإِذَا هَمَّ بِالْقَبْضِ ، قُلْتُ :

وَزْنُ مَلَكٍ عَلَى هَذَا : مَعَلٌ ، لِأَنَّ الْمِيمَ زَائِدَةٌ[٢] .

وَإِذَا كَانَ الْمَلَكُ مِنَ الْأَلُوكَةِ ، فَهُوَ مَقْلُوبٌ مِنْ « أَلَكَ » إِلَى « لَأَكَ » وَالْقَلْبُ فِى الْهَمْزِ وَهَمْزِ الْعِلَّةِ مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَهْلِ الْمَقَايِيسِ .

فَأَمَّا جَبَذَ وَجَذَبَ ، وَلَقَمَ الطَّرِيقَ وَلَمَقَهُ ، فَهُوَ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ : قَلْبٌ ، وَالنَّحْوِيُّونَ لَا يَرَوْنَهُ مَقْلُوبًا ، بَلْ يَرَوْنَ اللَّفْظَيْنِ : كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْلٌ فِى بَابِهِ .

وزن الملائكة

فَوَزْنُ الْمَلَائِكَةِ — عَلَى هَذَا — : مَعَافِلَةٌ ، لِأَنَّهَا مَقْلُوبَةٌ عَنْ : مَآلِكَة ، يُقَال : أَلِكْنِى إِلَى فُلَانٍ .

قَالَ الشَّاعِرُ :

أَلِكْنِى إِلَى قَوْمِى السَّلَامَ رِسَالَةً   بِآيَةِ مَا كَانُوا ضِعَافًا وَلَا عُزْلًا[٣]

---

(١) ينسب هذا البيت لأبى وجزة ، وينسب إلى علقمة ، وينسب إلى غيرهما . ويرويه الأعلم بتاء المخاطبة ، ويقول فى شرحه : « يا بنت الإنس فى أخلاقك ، أشبهت الملائكة فى طهارتك وفضلك ، فكأنك لملك ولدك » ثم قال : « ويصوب : ينزل » وفى نسخة : « لمألك » (٢) وفى نسخة : « مفَل » (٣) البيت لعمرو بن شأس . وصلته :

ولا سَيِّئِى زِيٍّ إذا ما تَلَبَّسوا   إلى حاجة يوماً مُخَيَّسَةً بُزْلَا

وَقالَ الْأَعْشَى فِي الْمَأْلُكَةِ :

أَبْلِغْ يَزِيدَ بَنِي شَيْبَانَ مَأْلُكَةً أَبَا ثُبَيْتٍ أَمَا تَنْفَكُّ تَأْتَكِلُ(١)؟

فَكَأَنَّهُمْ فَرُّوا مِنَ الْمَأْلُكَةِ مِنَ ابْتِدَائِهِمْ، ثُمَّ بَحَثُوا بَعْدَهَا بِالْأَلِفِ، فَرَأَوْا أن مَجِيءَ الْأَلِفِ أَوَّلًا أَخَفُّ، كَمَا فَرُّوا مِنْ شَأَى إِلَى شَاءَ، وَمِنْ نَأَى إِلَى نَاءَ؛ قَالَ عُمَرُ بنُ أَبِي رَبِيعَةَ :

بَانَ الْحُمُولُ فَمَا شَأَوْنَكَ نَقْرَةً وَلَقَدْ أَرَاكَ تُشَاءُ بِالْأَظْعَانِ(٢)

وَأَنْشَدَ أَبُو عُبَيْدَةَ :

أَقُولُ، وَقَدْ نَاءَتْ بِهِمْ غُرْبَةُ النَّوَى نَوًى خَيْتَعُور؛ لَا تَشِطُّ دِيَارُكِ

وقال فى شرحهما الأعلم الشنتمرى :

« وصف أنه تغرب عن قومه بنى أسد، فحمّل رجلا إليهم السلام، وجعل آية كونه منهم ومعرفته بهم، ما وصفهم به من القوة على العدو، ووفادتهم عليه بأحسن الزى .

ومعنى : ألكنى، بلغ عنى، وكن رسولى، وهو من الألوكة، وهى الرسالة؛ والآية : العلامة، والعُزْل الذين لا سلاح معهم، واحدهم : أعزل، ومعنى « تلبسوا » : ركبوا وغشوا، والمخيسة : المذللة بالركوب، يعنى الرواحل، والبزل : المسنة . واحدها بازل، وهو جمع غريب»

وقال أبو العلاء :

« أَلِكْنِي إلى من له حكمة أَلِكْنِي إليه، أَلِكْنِي، أَلِكْ ! »

(١) أبو ثبيت : تصغير أبى ثابت، وهو : يزيد بن مسهر الشيبانى، وقد هجاه الأعشى أيضاً فى قوله :

« أبا ثابت : لا تعلقنك رماحنا أبا ثابت، واقعد فإنك طاعم »

(٢) ينسب البيت إلى الحرث بن خالد المخزومى، ويروى :

مر الحمول . . . .

وشأونك — هنا — : أحزنك

جـــواب الملك

فَيَقُولُ المَلَكُ :

مَن ابْنُ أَبِى رَبِيعَةَ ؟ وَمَا أَبُو عُبَيْدَةَ ؟ وَمَا هَذِهِ الأَبَاطِيلُ ؟
إِنْ كَانَ لَكَ عَمَلٌ صَالِحٌ ، فَأَنْتَ السَّعِيدُ ، وَإِلاَّ فَاخْسَأْ وَرَاءَكَ !

وزن عزرائيل

فَأَقُـولُ :

فَأَمْهِلْنِى سَاعَةً ، حَتَّى أُخْبِرَكَ بِوَزْنِ « عِزْرَائِيلَ » وَأُقِيمَ الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّ الْهَمْزَةَ فِيهِ زَائِدَةٌ

* * *

فَيَقُولُ الْمَلَكُ :

هَيْهَاتَ ! لَيْسَ الْأَمْرُ إِلَيَّ ، « إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ » !

حديث منكر ونكير

أَمْ تُرَانِى أُدَارِى[1] مُنْكَراً وَنَكِيراً ، فَأَقُولُ :

كَيْفَ جَاءَ اسْمَا كُمَا عَرَبِيَّيْنِ مُنْصَرِفَيْنِ ، وَأَسْمَاءُ المَلاَئِكَةِ كُلُّهَـــا مِنَ الْأَعْجَمِيَّةِ ؛ مِثْلُ : إِسْرَافِيلَ ، وجِبْرَائِيلَ ، وَمِيكَائِيلَ ؟

فَيَقُولاَنِ :

هَاتِ حُجَّتَكَ ، وَخَلِّ الزُّخْرُفَ عَنْكَ !

---

(١) وفى نسخة : « إذ أرى منكراً ونكيراً »

وزن جبرائيل وميكائيل

فأقولُ – مُتقرِّباً إليهما – : « كانَ ينبغِي لَكُما أنْ تعرِفا ما وزْنُ جبْرائيل[١] وميكائيل[٢] على اختلافِ اللُّغاتِ ، إذْ كانا أخوَيْكُما في عِبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ »

فلا يَزِيدُهما ذلكَ إلاّ غيْظاً ، ولوْ علِمْتُ أنَّهما يرْغبانِ في مِثْلِ هذهِ العِللِ ، لأعدْتُ لهُما شيْئاً كثيراً مِنْ ذلكَ

وزن موسى

ولقُلْتُ : « ما ترَيانِ في وزْنِ مُوسَى ، اسْمِ كليمِ اللهِ الّذي سألْتُماهُ عنْ دِينِهِ وحُجّتِهِ ، فأبانَ وأوْضحَ ؟ فإنْ قالا : « مُوسَى أعْجَميٌّ ، إلاّ أنَّهُ يُوافِقُ مِنَ العرَبيّةِ على وزْنِ مُفْعَلٍ وفُعْلَى ، أمّا مُفْعَلٌ إذا كانَ مِنْ بناتِ الواوِ مِثْلِ أوْسَيْتُ وأوْرَيْتُ ، فإنّكَ تقولُ : مُوسَى ، ومُورَى

وإنْ كانَ مِنْ ذواتِ الهمْزِ ، فإنّكَ تُخفِّفُ ، حتّى تكونَ الواوُ خالِصَةً مِنْ مُفْعَلٍ ، تقولُ : آنيْتُ الفسادَ ، فهُوَ مُؤْنًى . وإنْ خفَّفْتَ ، قُلْتَ : مُونَى ، قالَ الحُطَيْئَةُ :

وآنَيْتُ العَشاءَ إلَى سُهَيْلٍ — أوِ الشِّعْرَى – فطالَ بيَ الإناءُ

---

(١) من معاني الجبر : الرجل ، والعبد ، وأضيف إلى إيل ومعناه الربوبية ، فكأنه : عبد الله ، فهو أعجمي معرب ، وفيه لغات : جَبْرَئِيلُ ، و : جِبْرِيلُ ، و : جَبْرَئِلُ ، و : جَبْرَائِلُ ، و : جَبْرَائِيلُ ، و : جَبْرَئِلٌ ، وجَبْرَالُ ، و : جِبْرَالُ ، و : جَبْرَيِلُ ، و : جَبْرَيِلُ ، و : جَبْرَيِيلُ ، و : جَبْرِينَ .

(٢) يقال فيه ، ميكائين ، على البدل .

وَحَكَى بَعْضُهُمْ هَمْزَ مُوسٰى إِذَا كَانَ اسْمًا ، وَزَعَمَ النَّحْوِيُّونَ أَنَّ ذَلِكَ لِمُجَاوَرَةِ الْوَاوِ الضَّمَّةَ، لِأَنَّ الْوَاوَ إِذَا كَانَتْ مَضْمُومَةً ضَمًّا لِغَيْرِ إِعْرَابٍ ، أَوْ غَيْرِ مَا يُشَاكِلُ الْإِعْرَابَ ، جَازَ أَنْ تُحَوَّلَ هَمْزَةً ، كَمَا قَالُوا : أُقِّتَت . وَوُقِّيت وَحَمَامٌ وُرْقٌ وَأُرْقٌ ، وَوُشِّحَت وَأُشِّحَت . قَالَ الْهُذَلِيُّ :

ابَا مَعْقِلٍ إِنْ كُنْتَ أُشِّحْتَ حُلَّةً أَبَا مَعْقِلٍ فَانْظُرْ لِسَهْمِكَ : مَنْ تَرْمِي ؟

وقال حُمَيْدُ بْنُ ثَوْرٍ الْهِلَالِيُّ :

وَمَا هَاجَ هَذَا الشَّوْقَ إِلَّا حَمَامَةٌ دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ[1] نَوْحَةً وَتَرَنُّمَا

مِنَ الْأُرْقِ حَمَّاءِ العِلَاطَيْنِ[2] بَاكَرَتْ عَسِيبًا أَشَمَّا مَطْلَعَ الشَّمْسِ أَسْحَمَا

وَقَدْ ذَكَرَ الْفَارِسِيُّ هَذَا الْبَيْتَ مَهْمُوزًا :

أَحَبُّ الْمُؤْقِدِينَ إِلَيَّ مُؤْسَى وَحَرْزَةُ لَوْ أَضَاءَ لِيَ الوَقُودُ

وَعَلَى مُجَاوَرَةِ الضَّمَّةِ جَازَ الْهَمْزُ فِي سُؤْقٍ جَمْعِ سَاقٍ فِي قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ كَذَلِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَمْعَ عَلَى فُعُلٍ ، مِثْلَ أُسُدٍ فِيمَنْ ضَمَّ السِّينَ ، ثُمَّ هُمِزَتِ الْوَاوُ ، وَدَخَلَهَا السُّكُونُ ، بعد أَنْ ذَهَبَ فِيهَا حُكْمُ الْهَمْزِ ، وَإِذَا قِيلَ : إِنَّ مُوسٰى : فُعْلَى ، فَإِنْ جُعِلَ أَصْلُهُ الْهَمْزَ وَافَقَ فُعْلَى ، مِنْ : مَأَسَ بَيْنَ الْقَوْمِ ، إِذَا أَفْسَدَ بَيْنَهُمْ . قَالَ الْأَفْوَهُ :

إِمَّا تَرَىْ رَأْسِيَ أَزْرَى بِهِ مَأْسُ زَمَانٍ ذِي انْتِكَاسٍ مَؤُوسْ

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فُعْلَى مِنْ مَاسَ[3] يَمِيسُ، فَقُلِبَتِ الْيَاءُ وَاوًا لِلضَّمَّةِ، كَمَا

---

(١) دعت ذكر القمارى . (٢) الأرق : الورق (جمع ورقاء) والحماء : السوداء والعلاطان : الرقمتان تراهما فى أعناق القمارى . وقد مرت ترجمة حميد فى الجزء الثانى

(٣) ماس : تحرك ، وتهادى .

قَالُوا : الكُوسَى من الكَيْسِ . وَلَوْ بَنَوُا الفُعْلَى مِنْ قَوْلِهِمْ : هَذَا أَعْيَشُ مِنْ هَذَا وَأَغيظُ مِنْهُ ، فَقَالُوا : العُوشَى والغُوظَى .

فَإِذَا سَمِعْتُ ذَلِكَ مِنْهُمَا ، قُلْتُ : «لِلَّهِ دَرُّكُمَا ! لَمْ أَكُنْ أَحْسِبُ أَنَّ المَلَائِكَةَ تَنْطِقُ بِمِثْلِ هَذَا الكَلَامِ ، وَتَعْرِفُ أَحْكَامَ العَرَبِيَّةِ . »

وزن الإرْزَبة

فَإِنْ غُشِيَ عَلَيَّ مِنَ الخِيفَةِ ، ثُمَّ أَفَقْتُ وَقَدْ أَشَارَا إِلَيَّ بِالْإِرْزَبَةِ[1] ، قُلْتُ : تَبًّا رَحِمَكُمَا اللهُ ! كَيْفَ تُصَغِّرَانِ الإِرْزَبَّةَ ، وَتَجْمَعَانِهَا جَمْعَ تَكْسِيرٍ ؟

فَإِنْ قَالَا : أُرَيْزِبَّةٌ وَأَرَازِبٌّ بِالتَّشْدِيدِ . قُلْتُ : هَذَا وَهْمٌ ، إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ أُرَيْزِبَةٌ ، وَأَرَازِبُ بِالتَّخْفِيفِ .

فَإِنْ قَالَا : كَيْفَ قَالُوا : عُلَابِيٌّ ، فَشَدَّدُوا[2]

---

(١) المِرْزَبَةُ ، والإِرْزَبَّةُ : عُصَيَّة من حديد . قال ابن منظور : إذا قلت : المرزبة بالميم خففت الباء ، ثم قال : والمرزبة المطرقة الكبيرة التي تكون للحداد .

(٢) العُلابيُّ — جمع علباء البعير — أي عصب عنقه ، وفي الأصل : « علانيَّة » وهو محرف .

وقد جاء بالأصل بعد هذه الكلمة قوله :

« كما قال القريعي :

وذي نجوات طامح الطرف جاوبت حوالي ، فلوى من علابيّه مرى »

وعلق عليه السيد الراجكوتي بما يلي :

القريعي — وفي أخرى — العريفي ، وكلاهما نكرة لم تتعرف ، وقد ورد في معجم الأدباء (جـ ٥ ص ٢٧٦) اسم شاعر يدعى العريفي العنسي (بالنون)

قُلْتُ : لَيْسَ الْيَاءُ كَغَيْرِهَا مِنَ الْحُرُوفِ . فَإِنَّهَا — وَإِنْ لَحِقَهَا التَّشْدِيدُ — فَفِيهَا عُنْصُرٌ مِنَ اللِّينِ .

فَإِنْ قَالَا : أَلَيْسَ قَدْ زَعَمَ صَاحِبُكُمْ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ الْمَعْرُوفُ بِسِيبَوَيْهِ أَنَّ الْيَاءَ إِذَا شُدِّدَتْ ذَهَبَ مِنْهَا اللِّينُ ، وَأَجَازَ فِي الْقَوَافِي طُبْيًا مَعَ طَيّ (١) . قُلْتُ : وَقَدْ زَعَمَ ذَلِكَ ، إِلَّا أَنَّ السَّمَاعَ عَنِ الْعَرَبِ لَمْ يَأْتِ فِيهِ نَحْوُ مَا قَالَ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ نَادِرًا قَلِيلًا .

علم الملائكة

فَإِذَا عَجِبْتُ مِمَّا قَالَاهُ ، أَظْهَرَا لِي تَهَاوُنًا بِمَا يَعْلَمُهُ بَنُو آدَمَ . وَقَالَا : لَوْ جُمِعَ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْأَرْضِ عَلَى اخْتِلَافِ اللُّغَاتِ وَالْأَزْمِنَةِ ، مَا بَلَغَ عِلْمَ وَاحِدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَعُدُّونَهُ فِيهِمْ لَيْسَ بِعَالِمٍ ! . . . .

الثوم والفوم

فَأُسَبِّحُ اللهَ وَأُمَجِّدُهُ ، وَأَقُولُ : « قَدْ صَارَتْ لِي بِكُمَا وَسِيلَةٌ ، فَوَسِّعَا لِي فِي الْجَدَثِ ، إِنْ شِئْتُمَا بِالثَّاءِ ، وَإِنْ شِئْتُمَا بِالْفَاءِ (٢) ، فَإِنَّ إِحْدَاهُمَا تُبْدَلُ مِنَ

ثم قال تعليقاً على هذا البيت :

قوله : ذى نجوات ، فى أخرى : ذى نخوات ؛ وقوله جاذبت ، فى أخرى : جاذبت ؛ وقوله : علابيّه ، فى أخرى علانيه — وهو تحريف — وقوله : مرى فى أخرى مدى ، أو مدلى ، وأكثر هذه الروايات مصحف قد حرت فيه اهـ . »

(١) فى بعض النسخ : « ظبأ مع ظى » وفى أخرى : « طيا مع طى » .

(٢) من الأقوال فى « الفوم » أنها لغة فى الثوم . قال ابن سيده : « وأراه على البدل » وقال ابن جنى : « ذهب بعض أهل التفسير فى قوله تعالى : وفومها وعدسها ، إلى أنه أراد

الأُخْرى ، كما قالوا : معاثير ومعافير ، وأَفافِيُّ وأثافِيُّ ، وفُومٌ وثُومٌ[١] .

وكيف تقرآن — رحمكما الله — هذه الآية : « وثُومِها وعدسِها » — بالثاء كما في مُصْحَف عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ، أم بالفاء كما في قراءةِ النّاس ؟ وما الذي تختاران في تفسيرِ الفُوم ؟ أهو الحِنْطَةُ كما قال أبو مِحْجَن الثَّقَفِيُّ :

قد كُنْتُ أَحْسَبُني كأَغْنَى واجدٍ قدمَ المدينةَ مِنْ زِراعةِ فُومِ

أم الثُّومُ الذي له رائحةٌ كريهةٌ ؟ وإلى ذلك ذهب الفرّاء ، وجاء في الشِّعْرِ الفَصيحِ . قال الفرزدقُ :

مِنْ كُلِّ أَغْبَرَ كالرّاقودِ حُجْزَتُهُ إذا تعشّى عتيقَ التَّمْرِ والفُومِ[٢]

الثوم ، فالفاء على هذا عنده بدل من الثاء ، والصواب عندنا أن الفوم : الحنطة ، وما يختبز من الحبوب »

وقال الزجاج محتجًا لهذا الرأى : « ومن قال الفوم ههنا الثوم ، فإن هذا لا يعرف ، ومحال أن يطلب القوم طعاما لا بُرَّ فيه ، وهو أصل الغذاء »

ولكن اللحيانى يقول : « الثوم والفوم للحنطة » و بذلك يبطل النزاع

(١) روى ابن منظور عن بعض أهل اللغة أنه قال : « العرب تبدل الفاء ثاء ، فيقولون : جدف ، وجدث ، للقبر . ويقولون : وقع فى عافور شر ، وعاثور شر » والعاثور : المَهْلَكَة من الأرضين ، وهى : العافور أيضاً ، وجمعها معافير ، ومعاثير . والأثافيُّ (بالتشديد) ، والأثافى (بالتخفيف) ، مفردها أُثفِيَّة : ما يوضع عليها القدر . وثَفَّى القدر تثفية : وضعها على الأثافىّ ، وأثفاها : جعل لها أثافىّ

(٢) الراقود : الدّن . وحجزة الإزار : معقده ، والجمع حُجَز ، قال جران العود :

فأحرزن منى كل حُجْزَة مئزر لهن ، وطاح النوفلىّ المزخرف

الريم بمعنى القبر

فَيَقُولَانِ، أَوْ أَحَدُهُمَا: «إِنَّكَ لَمُهَدَّمُ الْحَوْلِ، وَإِنَّمَا يُوَسِّعُ لَكَ فِى رَيْعِكَ عَمَلُكَ». فَأَقُولُ لَهُمَا: «مَا أَفْصَحَكُمَا! لَقَدْ كُنْتُ سَمِعْتُ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَنَّ الرَّيْمَ: الْقَبْرُ، وَسَمِعْتُ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

إِذَا مُتُّ فَاعْتَادِى الْقُبُورَ فَسَلِّمِى عَلَى الرَّيْمِ، أُسْقِيتِ السَّحَابَ الْغَوَادِيَا

وَكَيْفَ تَبْنِيَانِ — رَحِمَكُمَا اللهُ — مِنَ الرَّيْمِ مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ: أَتَرَيَانِ فِيهِ رَأْىَ الْخَلِيلِ وَسِيبَوَيْهِ، فَلَا تَبْنِيَانِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ؟ أَمْ تَذْهَبَانِ إِلَى مَا قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ مَسْعَدَةَ، فَتُجِيزَانِ أَنْ تَبْنِيَا مِنَ الْعَرَبِىِّ مِثْلَ الْأَعْجَمِىِّ؟»

فَيَقُولَانِ: «تُرْبًا لَكَ، وَلِمَنْ سَمَّيْتَ! أَىُّ عِلْمٍ فِى وَلَدِ آدَمَ؟ إِنَّهُمُ الْقَوْمُ الْجَاهِلُونَ!»

واحد الزبانيــة

وَهَلْ أَتَوَدَّدُ إِلَى مَالِكٍ، خَازِنِ النَّارِ، فَأَقُولَ:

«رَحِمَكَ اللهُ، أَخْبِرْنِى: مَا وَاحِدُ الزَّبَانِيَةِ؟ فَإِنَّ بَنِى آدَمَ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ. يَقُولُ بَعْضُهُمْ: الزَّبَانِيَةُ لَا وَاحِدَ لَهُمْ مِنْ لَفْظِهِمْ. وَإِنَّمَا يُجْرَوْنَ مُجْرَى السَّوَاسِيَةِ، أَىِ الْقَوْمِ الْمُسْتَوِينَ فِى الشَّرِّ. قَالَ:

سَوَاسِيَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ كَأَنَّمَا بُطُونُهُمُ مِنْ كَثْرَةِ الزَّادِ أَوْطُبُ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: وَاحِدُ الزَّبَانِيَةِ: زِبْنِيَةٌ؛ وَقَالَ آخَرُونَ: وَاحِدُهُمْ: زِبْنِىٌّ، أَوْ زَبَانِىٌّ.»

تصريف غسلين

فَيُعبِّسَ لِمَا سَمِعَ وَيَكْفهِرَّ. فَأَقُولَ: «يَا مَالِ![1] رَحِمَكَ اللهُ، مَا تَرَى فِي نُونِ غِسْلِينٍ[2]، وَمَا حَقِيقَةُ هَذَا اللَّفْظِ؟ أَهُوَ مَصْدَرٌ كَمَا قَالَ بَعْضُ النَّاسِ، أَمْ وَاحِدٌ، أَمْ جَمْعٌ أُعْرِبَتْ نُونُهُ تَشْبِيهاً بِنُونِ مِسْكِينٍ، كَمَا أَثْبَتُوا نُونَ قِلِينَ وَسِنِينَ فِي الْإِضَافَةِ، وَكَمَا قَالَ سُحَيْمُ بْنُ وَثِيلٍ:

وَمَاذَا يَدَّرِي الشُّعَرَاءُ مِنِّي   وَقَدْ جَاوَزْتُ حَدَّ الأَرْبَعِينِ؟

فَأَعْرَبَ النُّونَ.

تصريف جهنم

وَهَلِ النُّونُ فِي جَهَنَّمَ[3] زَائِدَةٌ؟ أَمَّا سِيبَوَيْهِ فَلَمْ يَذْكُرْ فِي الْأَبْنِيَةِ

---

(١) أى: يا مالك، فهو ترخيم. (٢) اختلف علماء اللغة فى اشتقاق لفظ غسلين، واختلفوا فى معناه. فقيل فى لفظه: إن الياء والنون فيه زائدة، كما زيدت فى عِفِرّين، وقيل: غسلين فعلين من الغسل. ويرى الأصمعى أنه يعرب بالحركات. وقد ورد هذا اللفظ فى قول الله تعالى: «فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ، وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ، لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ» فقيل فى تفسيره أقوال شتى. منها: أنه ما يسيل من جلود أهل النار كالقيح وغيره، أو ما انغسل من لحومهم ودمائهم، أو ما أنضجت النار من لحومهم فسقط فأكلوه. ومنها: أن الغسلين والضريع شجر فى النار، أو طعام من طعام أهلها. ومنها: أن غسلين معناه: شديد الحر. فيكون المعنى: لا يأكلون إلا طعاما شديد الحرارة. وفى كتب اللغة والتفسير كلام كثير، نكتفى منه بما أثبتناه. (٣) من الأقوال فى جهنم ما قاله الجوهرى من أنه ملحق بالخماسى بتشديد الحرف الثالث منه، ويمنع من الصرف للعلمية والتأنيث. وقال غيره: هو عربى من قولهم: بئر جُهِنام وجهنم: بعيدة القعر، فسميت به نار الآخرة لبعد قعرها. والقول الذى عليه كثير من اللغويين — وهو الأقرب إلى الصواب — أنها كلمة أعجمية، وهى معرب كهنام بالعبرانية.

فَعَنَلاً إِلَّا قَلِيلاً ، وَجَهَنَّمُ اسْمٌ أَعْجَمِىٌّ . وَلَوْ حَمَلْنَاهُ عَلَى الاشْتِقَاقِ لَجَازَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْجَهَامَةِ فِى الْوَجْهِ ، وَمِنْ قَوْلِهِمْ : تَجَهَّمْتُ الأَمْرَ ، إِذَا جَعَلْنَا النُّونَ زَائِدَةً ، وَاعْتَقَدْنَا زِيَادَتَهَا فِى هَجَنَّفٍ وَأَنَّه مِثْلُ هِجَفٍّ ، وَكِلاَهُمَا صِفَةُ الظَّلِيمِ ، قَالَ الْهُذَلِىُّ :

كَأَنَّ مُلاءَتَىَّ عَلَى هِجَفٍّ(١) تَفِرُّ مَعَ الْعَشِيَّةِ لِلرِّئَالِ

وَقَالَ جِرانُ الْعَوْدِ(٢) :

يُشَبِّهُهَا الرَّائِى الْمُشَبِّهُ بَيْضَـــةً غَدَا فِى النَّدَى عَنْهَا الظَّلِيمُ الْهَجَنَّفُ

وَقَالَ قَوْمٌ : رَكِيَّةٌ جِهِنَّام ، إِذَا كَانَتْ بَعِيدَةَ الْقَعْرِ . فَإِنْ كَانَتْ جَهَنَّمُ عَرَبِيَّةً ، فَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مِنْ هَذَا .

وَزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُ يُقَالُ : أَحْمَرُ جِهِنَّامٌ ، إِذَا كَانَ شَدِيدَ الْحُمْرَةِ .

وَلاَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ اشْتِقَاقُ جَهَنَّمَ مِنْهُ .

تصريف سقر

فَأَمَّا سَقَرُ(٣) فَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا فَهُوَ مُنَاسِبٌ لِقَوْلِهِمْ : سَقَرَتْهُ ، إِذَا آلَمَتْ دِمَاغَهُ . قَالَ ذُو الرُّمَّةِ(٤) :

---

(١) الهجف : الظليم : ذكر النعام ، وكذلك الهجنف . (٢) مرت ترجمته فى (جـ ٢ ص ٩١) (٣) السَّقْر : حر الشمس وأذاه ، والساقور : الحر ، والحديدة تحمى ويكوى بها . والصَّقْر — أيضاً — : شدة وقع الشمس . وأكثر معانى سقر مذكورة فى صقر . فهى مما يتعاقب فيه السين والصاد . (٤) ذو الرمة : ولد عام ٧٧ هـ . وتوفى عام ١١٧هـ وهو أبو الحارث غيلان بن عقبة العدوى المضرى ، شاعر من فحول الطبقة الثانية فى عصره .

قال أبو عمرو بن العلاء — على عادة نقاد عصره — : « فتح الشعر بامرئ القيس ، وختم بذى الرمة »

إِذَا دَانَتِ الشَّمْسُ اتَّقَى سَقَرَاتِهَا ... بِأَفْنَانِ مَرْبُوعِ الصَّرِيمَةِ مُقْبِلِ

وَالسِّينُ وَالصَّادُ يَتَعَاقَبَانِ فِي الْحَرْفِ إِذَا كَانَ بَعْدَهُمَا قَافٌ أَوْ خَاءٌ أَوْ غَيْنٌ أَوْ طَاءٌ تَقُولُ: سَقَبَ وَصَقَبَ [١]، وَسَوِيقٌ وَصَوِيقٌ، وَبَسَطَ وَبَصَطَ، وَسَلَغَ الْكَبْشُ وَصَلَغَ [٢].»

فَيَقُولَ مَالِكٌ: «مَا أَجْهَلَكَ! وَأَقَلَّ تَمْيِيزَكَ! مَا جَلَسْتُ هُنَا لِلتَّصْرِيفِ، وَإِنَّمَا جَلَسْتُ لِعِقَابِ الْكَفَرَةِ وَالْقَاسِطِينَ!»

مخاطبة المثنى بلفظ الواحد

وَهَلْ أَقُولُ لِلسَّائِقِ وَالشَّهِيدِ – اللَّذَيْنِ ذُكِرَا فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: «وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ» –: «يَا صَاحِ! أَنْظِرَانِي»! فَيَقُولَانِ: «تُخَاطِبُنَا مُخَاطَبَةَ الْوَاحِدِ، وَنَحْنُ اثْنَانِ»؟ فَأَقُولُ: «أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ مِنَ الْكَلَامِ. وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: «وَقَالَ قَرِينُهُ هَـذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ، أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ [٣]». فَوَحَّدَ الْقَرِينَ وَثَنَّى فِي الْأَمْرِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وشعره فى الغزل و بكاء الأطلال شديد الوعورة. وقد ذاع عشقه، وعرفت حبيبته «ميّةُ» به بتغزله فيها.

(١) سقبت الدار وصقبت: قربت (٢) صلغ الكبش وسلغ: خرج نابه، وكباش صوالغ وسوالغ. (٣) قال الثعالبى فى سفره: «سر العربية»، وهو القسم الثانى من فقه اللغة: «تقول العرب: افعلا ذلك، والمخاطب واحد كما قال الله عز وجل: «ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد» وهو خطاب لمالك خازن النار. وكما قال الأعشى:

«وصلّ على حين العشيات والضحى ... ولا تعبد الشيطان، والله فاعبدا»

ويقال: إنه أراد «والله فاعبدن» فقلب النون الخفيفة ألفاً. وكذلك فى قوله عز وجل: «ألقيا فى جهنم ...»

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَا بْنَ عَفَّانَ، أَنْزَجِرْ وَإِنْ تَدَعَانِي، أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعاً

وَكَمَا قَالَ امْرُؤُ الْقَيْس (١) :

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ لِنَقْضِيَ حَاجَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ
أَلَمْ تَرَ أَنِّي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقاً وَجَدْتُ لَهَا طِيباً وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ (٢)

هَكَذَا أَنْشَدَهُ الفَرَّاءُ. وَبَعْضُهُمْ يُنْشِدُ : أَلَمْ تَرَيَانِي .. .

وَأَنْشَدَ أَيْضاً :

فَقُلْتُ لِصَاحِبِي لاَ تَحْبِسَانَا بِنَزْعِ أُصُولِهِ وَاجْتَزَّ شِيحَا

فَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْخُرُوجَ مِنْ مُخَاطَبَةِ الْوَاحِدِ إِلَى الاِثْنَيْنِ، أَوْ مِنْ مُخَاطَبَةِ الاِثْنَيْنِ إِلَى الْوَاحِدِ — سَائِغٌ عِنْدَ الْفُصَحَاءِ .

حديث رضوان

وَهَلْ أَجِيءُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ جَهَابِذَةِ الْأُدَبَاءِ، قَصَرَتْ أَعْمَالُهُمْ عَنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَلَحِقَهُمْ عَفْوُ اللهِ، فَزُحْزِحُوا عَنِ النَّارِ؛ فَنَقِفُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَنَقُولَ : «يَا رِضْوَ (٣) ! . لَنَا إِلَيْكَ حَاجَةٌ»

---

(١) مرت ترجمة امرىء القيس فى الجزء الثانى ص ٩٦ (٢) قال الوزير أبو بكر عاصم ابن أيوب فى شرحه لديوان امرىء القيس : «أخذ المتنبى هذا المعنى فأحسن فيه، قال :

أتت زائراً ما خامر الطيب ثوبها وكالمسك من أردانها يتضوع»

(٣) رضو : مرخم رضوان، قال أبو العلاء :

«يا رضو لا أرجو لقا ءك، بل أخاف لقاء مالك»

وقد اتبع أبو العلاء طريقة ترخيم الأسماء فى شعره، على عادة العرب فى ذلك، ومن قوله :

«يا صاع، لست أريد صاع مكيلة فأضيفه، لكن أرخم صاعدا»

وَيَقُولَ بَعْضُنَا: « يَا رِضْوُ! فَيَضُمَّ الوَاوَ. فَيَقُولَ رِضْوَانُ: « مَا هَـٰذِهِ الْمُخَاطَبَةُ الَّتِي مَا خَاطَبَنِي بِهَا قَبْلَكُمْ أَحَدٌ. »

فَنَقُولَ: « إِنَّا كُنَّا فِي الدَّارِ الأُولَى نَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ، وَإِنَّهُمْ يُرَخِّمُونَ الَّذِي فِي آخِرِهِ أَلِفٌ وَنُونٌ، فَيَحْذِفُونَهُمَا لِلتَّرْخِيمِ. وَلِلْعَرَبِ فِي ذَلِكَ لُغَتَانِ يَخْتَلِفُ حُكْمَاهُمَا. قَالَ أَبُو زُبَيْدٍ(١):

يَا عُثْمَ! أَدْرِكْنِي فَإِنَّ رَكِيَّتِي ... صَلَدَتْ فَأَعْيَتْ أَنْ تَفِيضَ بِمَائِهَا

حاجة أهل الجنة إلى العربية

فَيَقُولَ رِضْوَانُ: « مَا حَاجَتُكُمْ »؟ فَيَقُولَ بَعْضُنَا: « إِنَّا لَمْ نَصِلْ إِلَى دُخُولِ الْجَنَّةِ، لِتَقْصِيرِ الْأَعْمَالِ؛ وَأَدْرَكَنَا عَفْوُ اللهِ، فَنَجَوْنَا مِنَ النَّارِ. فَبَقِينَا بَيْنَ الدَّارَيْنِ ....

وقال:

أفهم أخاك بما تشاء ولا تُبَلْ ... يا حارِ قلت هنـاك، أو: يا حارُ
غرض الفتى الإخبار عما عنده ... ومن الرجال بقوله سحار

وقال:

« يا كند: ما خلت السُّكُونَ تحركت ... بعد السُّكون ولا أخوها السكسك »

وقد جرى العرب على هذا، قال الشاعر:

يا حارِ لا أُرْمَيَنْ منكم بداهية ... لم يلقها سوقة قبلى ولا مَلِك

وقال آخر:

« فيا حارِ إنا لو تساط دماؤنا ... تزايلن حتى ما يمس دم دما »

وهذا البيت أعنف ما قرأناه فى وصف الحقد وتغلغله، وقريب منه قول الشاعر:

« ولو أنا على صخر ذبحنا ... جرى الدميان بالخبر اليقين »

(١) مرت ترجمته فى هذا الكتاب (ج ٢ ص ٧) — وعثم: يريد عثمان

وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَنْ تَكُونَ وَاسِطَتَنَا إِلى أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَإِنَّهُمْ لا يَسْتَغْنُونَ عَنْ مِثْلِنَا . وَإِنَّهُ لَقَبِيحٌ بِالْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَنالَ هَذِهِ النِّعَمَ ، وَهُوَ إِذَا سَبَّحَ اللهَ لَحَنَ . وَلا يَحْسُنُ بِسَاكِنِ الْجِنَانِ أَنْ يُصِيبَ مِنْ ثِمَارِهَا فى الْخُلُودِ ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُ حَقَائِقَ تَسْمِيَتِهَا .

تصريف الكمثرى

وَلَعَلَّ فى الْفِرْدَوْسِ قَوْماً لَا يَدْرُونَ : أَحُرُوفُ الْكُمَّثْرَى كُلُّهَا أَصْلِيَّةٌ ، أَمْ بَعْضُهَا زَوَائِدُ ؟

وَلَوْ قِيلَ لَهُمْ : مَا وَزْنُ كُمَّثْرَى ، عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ التَّصْرِيفِ ؟ لَمْ يَعْرِفُوا فُعَّلَى .

وَهَذَا بِنَاءٌ مُسْتَنْكَرٌ ، لَمْ يَذْكُرْ سِيبَوَيْهِ لَهُ نَظِيرًا .

وَإِذَا صَحَّ قَوْلُهُمْ لِلْوَاحِدَةِ : كُمَّثْرَاةٌ ، فَأَلِفُ كُمَّثْرَى لَيْسَتْ لِلتَّأْنِيثِ .

وَزَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ أَنَّ الْكَمْثَرَةَ : تَدَاخُلُ الشَّىْءِ بَعْضِهِ فى بَعْضٍ ، فَإِنْ صَحَّ هَذَا ، فَمِنْهُ اشْتِقَاقُ الْكُمَّثْرَى(١) .

تصريف السفرجل

وَما يَجْمُلُ بِالرَّجُلِ مِنَ الصَّالِحِينَ أَنْ يُصِيبَ مِنْ سَفَرْجَلِ الْجَنَّةِ ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ : كَيْفَ تَصْغِيرُهُ وَجَمْعُهُ ؟ وَلا يَشْعُرُ إِنْ كَانَ يَجُوزُ أَنْ يُشْتَقَّ مِنْهُ فِعْلٌ

---

(١) من اللغويين من يرى أن الكمثرى غير عربية ، ومنهم من يرى أنها عربية مشتقة ، ومن هؤلاء صاحب القاموس ، إذ يقول : « الكمثرة اجتماع الشىء وتداخل بعضه فى بعض ، والكمثرى منه ، والواحدة كمَّثْراة ، والجمع كُمَّثْرَيات » .

أَمْ لَا ؟ وَالْأَفعالُ لا تُشْتَقُّ مِنَ الْخُماسِيَّةِ . لِأَنَّهُمْ نَقَصُوهَا عَنْ مَرْتَبَةِ الأسماءِ ، فَلَمْ يَبْلُغُوا بِها بَنَاتِ الْخَمْسَةِ . مِثْلَ : إِسْفَرْجَلَ يَسْفَرْجِلُ اسْفِرْجَالاً .

تصريف السندس

وَهَذَا السُّنْدُسُ الَّذِي يَطَؤُهُ الْمُؤْمِنُونَ وَيَفْرُشُونَهُ ، كَمْ فِيهِمْ مِنْ رَجُلٍ لَا يَدْرِي : أَوَزْنُهُ فُعْلُلٌ أَمْ فُنْعُلٌ ؟

وَالَّذِي نَعْتَقِدُ فِيهِ أَنَّ النُّونَ زَائِدَةٌ ، وَأَنَّهُ مِنَ السُّدُوسِ ، وَهُوَ الطَّيْلَسَانُ الْأَخْضَرُ ، قالَ الْعَبْدِيُّ :

وَدَاوَيْتُهَا حَتَّى شَتَتْ حَبَشِيَّةً ... كَأَنَّ عَلَيْهَا سُنْدُسًا وَسُدُوسَا

وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ سُنْدُسٌ فُعْلُلاً ، وَلَـكِنَّ الِاشْتِقَاقَ يُوجِبُ ما ذُكِرَ(١).

تصريف طوبى

وَشَجَرَةُ طُوبَى : كَيْفَ يَسْتَظِلُّ بِها الْمُتَّقُونَ وَيَجْتَنُونَهَا آخِرَ الْأَبَدِ ، وَفِيهِمْ كَثِيرٌ لَا يَعْرِفُونَ : أَمِنْ ذَوَاتِ الْوَاوِ هِيَ أَمْ مِنْ ذَوَاتِ الْيَاءِ(٢) ؟

وَالَّذِي نَذْهَبُ إِلَيْهِ — إِذا حَمَلْنَاها عَلَى الِاشْتِقَاقِ — أَنَّهَا مِنْ ذَوَاتِ الْيَاءِ .

---

(١) هذا قول أبي العلاء و بعض اللغويين ؛ ولكن هناك قولاً بأنه معرب ، وليس بعربي ، وقد قال الفيروزابادي : السندس بالضم ضرب من رقيق الديباج معرب بلاخلاف .

قلنا : وليست كلمة (بلاخلاف) هنا يراد بها أن اللغويين متفقون على هذا، ولكنه يراد بها تأكيد رأيه، و إظهار الثقة به (٢) طوبى ، وطيبى : اسم شجرة فى الجنة ؛ و يرى بعض الأئمة أنها اسم الجنة بالهندية ، فليست الكلمة على هذا بعربية ، و بذلك يرتفع هذا النزاع الشديد فى اشتقاقها.

لِأَنَّا إِذَا بَنَيْنَا فِعْلًا وَنَحْوَهُ مِنْ ذَوَاتِ الْوَاوِ قَلَبْنَاهَا يَاءً، فَقُلْنَا: عِيدٌ، وَقِيلٌ، وَهُمَا مِنْ عَادَ يَعُودُ، وَقَالَ يَقُولُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَلَعَلَّ قَوْلَهُمْ: طَابَ يَطِيبُ، مِنْ ذَوَاتِ الْوَاوِ، وَجَاءَ عَلَى مِثَالِ حَسِبَ يَحْسِبُ، وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ قَوْمٌ فِي قَوْلِهِمْ: تَاهَ يَتِيهُ، وَهُوَ مِنْ: تَوَهْتُ.

قِيلَ لَهُ: يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ:

طَيَّبْتُ الرَّجُلَ، وَلَمْ يَحْكِ أَحَدٌ: طَوَّبْتُهُ.

وَالْمُطَيَّبِينَ: أَحْيَاءٌ مِنْ قُرَيْشٍ اخْتَلَفُوا، فَغَمَسُوا أَيْدِيَهُمْ فِي طِيبٍ(١).

فَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ الطِّيبَ مِنْ ذَوَاتِ الْيَاءِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: هَذَا أَطْيَبُ مِنْ هَذَا.

فَأَمَّا حِكَايَةُ أَهْلِ اللُّغَةِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: أَوْبَةً وَطَوْبَةً، فَإِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى مَعْنَى الإِتْبَاعِ، كَمَا يَعْتَقِدُ بَعْضُ النَّاسِ فِي قَوْلِهِمْ: حَيَّاكَ اللهُ وَبَيَّاكَ، أَنَّهُ إِتْبَاعٌ(٢)، وَأَنَّ أَصْلَ بَيَّاكَ: بَوَّاكَ، أَيْ بَوَّأَكَ مَنْزِلًا تَرْضَاهُ.

---

(١) لما أراد بنو عبد مناف أخذ ما فى أيدى بنى عبد الدار من الحجابة والرفادة واللواء والسقاية، وأبت بنو عبد الدار — عقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا، ثم خلطوا أطياباً، وغمسوا أيديهم فيها، وتعاقدوا؛ ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً، فسموا: المطيَّبين.

وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفاؤها حلفاً آخر مؤكداً، فسموا: الأحلاف.

وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — من المُطيَّبين.

(٢) يقال: إن آدم عليه السلام قتل ابنه، فمكث مائة سنة لا يضحك، فقيل له: حياك الله و بياك.

وَأمَّا قَوْلُهُمْ للآجُرِّ: طُوبٌ، فَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا صَحِيحًا، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اشْتِقَاقُهُ مِنْ غَيْرِ لَفْظِ الطيبِ ، إلاَّ عَلَى رَأْي أَبِي الْحَسَنِ سَعِيدِ بْنِ مَسْعَدَةَ ، فَإِنَّهُ إِذَا بَنَى فُعْلاً مِنْ ذَوَاتِ الْيَاءِ يَقْلِبُهُ إِلَى الْوَاوِ ، فَيَقُولُ : الطُّوبُ وَالعُوشُ . فَإِنْ كَانَ الطُوبُ الآجُرُّ اشْتِقَاقُهُ مِنَ الطِّيبِ؛ فَإِنَّمَا أُرِيدَ بِهِ — وَاللهُ أعْلَمُ — أنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي يُبْنَى بِهِ طَابَتِ الإِقَامَةُ فِيهِ . وَلَعَلَّنَا لَوْ سَأَلْنَا مَنْ يَرَى طُوبَى فِي كُلِّ حِينٍ : لِمَ حُذِفَ مِنْهَا الأَلِفُ وَاللاَّمُ ؟ لَمْ يُحِرْ فِي ذَلِكَ جَوَابًا ! .

وَقَدْ زَعَمَ سِيبَوَيْهِ أَنَّ الفُعْلَى الَّتِي تُؤْخَذُ مِنْ أَفْعَلَ مِنْكَ ، لاَ تُسْتَعْمَلُ إلاَّ بِالأَلِفِ وَاللاَّمِ أوِ الإِضَافَةِ ، تَقُولُ: هَذَا أَصْغَرُ مِنْكَ ، فَإِذَا رَدَدْتَهُ إِلَى الْمُؤَنَّثِ، قُلْتَ : هَذِهِ الصُّغْرَى ، أَوْ صُغْرَى بَنَاتِكَ .

وَيَقْبُحُ عِنْدَهُ أَنْ يُقَالَ:صُغْرَى، بِغَيْرِ إِضَافَةٍ وَلاَ أَلِفٍ وَلاَمٍ وَقَالَ سُحَيْمٌ[(١)]:

وقد اختلف اللغويون فى تفسير كلمة « بياك » .

فقيل : إنها أضحكك

وقيل : إنها قربك ، أو جاء بك .

وقيل : إنها بوّأك . كما قال المعرى .

وقيل : إنها إتباع لحياك . فلا معنى لها فى ذاتها . وقد ذكرت هذه الأقوال معجمات اللغة. ومنع بعض الأئمة أن يكون هذا إتباعاً ، لأنه معطوف على حياك بالواو ، والاتباع لا يكاد يكون بالواو . (انظر باب الاتباع فى المزهر للسيوطى ، والمخصص لابن سيده)

(١) هو سحيم ، عبد بنى الحسحاس ، شاعر مخضرم ، كان أسود شديد السواد ، لأنه حبشى ، وكان ينطق الحاء هاء ، فيقول أهسنت والله ، يريد : أحسنت والله ! . . .

وقد أنشد رسول الله — صلوات الله عليه — قول سحيم :

الحمد لله حمداً لا انقطاع له   فليس إحسانه عنا بمقطوع

ذَهَبْنَ بِمِسْوَاكِى وَغَادَرْنَ مُذْهَباً   مِنَ الصَّوْغِ فِى صُغْرَى بَنَانِ شِمَالِيَا

وَقَرَأَ بَعْضُ القُرَّاءِ : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنَى » عَلَى فُعْلَى بِغَيْرِ تَنْوِينٍ . وَكَذَا قَرَأَ فِى الْكَهْفِ : « إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنَى » عَلَى فُعْلَى بِغَيْرِ تَنْوِينٍ .

فَذَهَبَ سَعِيدُ بْنُ مَسْعَدَةَ ، أَنَّ ذَلِكَ خَطَأٌ لَا يَجُوزُ وَهُوَ رَأْىُ أَبِى إِسْحَاقَ الزَّجَّاجِ ، لِأَنَّ « الْحُسْنَى » عِنْدَهُمَا — وَعِنْدَ غَيْرِهِمَا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ — يَجِبُ أَنْ تَكُونَ بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ ، كَمَا جَاءَ فِى مَوْضِعٍ : « وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى » وَكَذَلِكَ : « الْيُسْرَى » و : « الْعُسْرَى » لِأَنَّهَا أُنْثَى أَفْعَلَ مِنْكَ .

فقال : « أحسن وصدق ، و إن الله يشكر مثل هذا ، ولئن سدد وقارب إنه لمن أهل الجنة »

وكان عبد الله بن أبى ربيعة قد اشتراه ، وكتب إلى عثمان بن عفان : « إنى قد ابتعت لك غلاماً شاعراً حبشيًّا » فكتب إليه عثمان : « لا حاجة لى به ، فاردده ، فإنما قصارى أهل العبد الشاعر : إن شبع أن يشبب بنسائهم ، و إن جاع أن يهجوهم ! »

وقد صدق حدس عثمان ! . . . . فإن سحيما لما اشتراه أبو معبد شبب بينته عميرة ، وفحش ، وشهرها ، فأحرقه أبو معبد بالنار .

وقيل فى موته غير ذلك من الأخبار ، وكلها تجتمع على أنه قتل أخذاً بثأر عرض مزقه ، وشهر به . و يروى أنه لما قُدِّم ليقتل ، قال :

شدوا وثاق العبد لا يفلتكم   إن الحياة من الممات قريب

فلقد تحدّر من جبين فتاتكم   عرق على ظهر الفراش وطيب !

وكذلك يروى أنه لما انطلق به سيده ليقتله ، رأته امرأة كان بينه وبينها شىء ، فضحكت ، فقال :

إن تضحكى منى فيارب ليلة   تركتك فيها كالقباء المفرّج !

وترجمته طويلة ممتعة ، فارجع إليها إن شئت فى الجزء الأول من خزانة الأدب

وَقَدْ زَعَمَ سِيبَوَيْهِ أَنَّ أُخْرَى مَعْدُولَةٌ عَنِ الْأَلِفِ وَاللَّامِ .

وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ حُسْنَى مِثْلَهَا .

وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ : « وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى » وَفِيهِ : « لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى » . قَالَ عُمَرُ ابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ :

وَأُخْرَى أَتَتْ مِنْ دُونِ نُعْمٍ ، وَمِثْلُهَا نَهَى ذَا النُّهَى لَوْ يَرْعَوِي أَوْ يُفَكِّرُ

فَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ تُعْدَلَ حُسْنَى عَنِ الْأَلِفِ وَاللَّامِ ، كَمَا عُدِلَتْ « أُخْرَى » .

وَ « أَفْعَلُ مِنْكَ » ، إِذَا حُذِفَتْ مِنْهُ « مِنْ » بَقِيَ - عَلَى إِرَادَتِهَا - نَكِرَةً ، أَوْ عُرِّفَ بِاللَّامِ . وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ « مِنْ » وَبَيْنَ حَرْفِ التَّعْرِيفِ .

تصريف الحيوان

وَالَّذِينَ يَشْرَبُونَ مَاءَ الْحَيَوَانِ فِي النَّعِيمِ الْمُقِيمِ : هَلْ يَعْلَمُونَ مَا هَذِهِ الْوَاوُ الَّتِي بَعْدَ الْيَاءِ ؟ وَهَلْ هِيَ مُنْقَلِبَةٌ كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ ؟ أَمْ هِيَ عَلَى الْأَصْلِ كَمَا قَالَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ؟

تصريف الحور

وَمَنْ هُوَ مَعَ الْحُورِ الْعِينِ خَالِدًا مُخَلَّدًا : هَلْ يَدْرِي مَا مَعْنَى الْحُورِ[1] ؟

---

(١) قال الفيروزابادي : الحَوَر — بالتحريك — : أن يشتد بياضُ بياض العين ، وسوادُ سوادِها ، وتستدير حدقتها ، وترق جفونها ، ويبيض ما حواليها .

وقال أبوعمرو بن العلاء : الحَوَر أن تسودّ المقلة كلها مثل أعين الظباء والبقر ، وليس فى بنى آدم حور ، وإنما قيل للنساء : حور العين ، على التشبيه .

أما الأصمعى فقد قال : لا أدرى ما الحور ! . . . . . وقال الفيومى صاحب المصباح ناقلا عن مختصر العين : ولا يقال للمرأة حوراء ، إلا إذا كانت بيضاء .

فيقُول بعْضهُم: هُوَ البيَاضُ، ومِنهُ اشتِقاقُ الحُوَارَى[١] مِنْ الخُبْزة، والحَوارِيّين إذا أُرِيدَ بِهِمُ القصّارُون[٢]، والحَوارِيّاتُ إذا أُرِيدَ بِهِنّ نِساءُ الأمْصار.

وقالَ قوْمٌ: الحَوَرُ في العيْنِ أنْ تكُونَ كُلُّها سوْداء، وذلِكَ لا يكُونُ في الإنْسِ، وإنَّما يكُونُ في الوُحُوش.

وقالَ آخَرُونَ: الحَوَرُ شِدَّةُ سوادِ العيْنِ، وشِدَّةُ بياضِها.

وقالَ بعْضُهُم: الحَوَرُ: سعَةُ العيْنِ، وعِظَمُ المُقْلَة.

وهلْ يجُوزُ — أيُّها المُتمتّعُ بالحُورِ العِينِ — أنْ يُقالَ: حِيرٌ، كما يُقالُ: حُورٌ؟ فإنَّهُم يُنْشِدُونَ هذا البيْتَ بالياء:

إلى السَّلَفِ المَاضِى وآخَرَ واقِفٍ   إلَى رَبْرَبٍ حِيرٍ حِسَانٍ جآذِرُه

وإذا صحّتِ الرِّوايةُ في هذا البيْتِ بالياء، قدَحَ ذلِكَ في قوْلِ منْ يقُولُ: إنَّما قالُوا: الحِيرُ إتْباعاً للعِينِ، كما قالَ الرَّاجِزُ:

هلْ تعْرِفُ الدَّارَ بأعْلَى ذِى القُورْ   قدْ درَسَتْ غيْرَ رَمادٍ مكْفُورْ

مُكْتَئِبِ اللَّوْنِ مَرُوحٍ مَمْطُورْ   أزْمانَ عيْناءُ سُرُورُ المسْرُورْ

حَوْراءُ عيْناءُ مِنَ العِينِ الحِيرْ[٣]

---

(١) الحوارى — بضم الحاء وتشديد الواو وفتح الراء — الدقيق الأبيض، وهو لباب الدقيق. ويسمى: السميذ، وهو فى استعمال الناس الآن: «السميط».

(٢) الحوارِىّ: الناصر، أو ناصر الأنبياء، وسمى الحواريون كذلك لأنهم كانوا قصّارين، أو لأنهم كانوا يحوّرون الثياب أى يبيضونها. والأقوال فى هذه الكلمة مختلفة. وقد استعملت كلمة الحوارى بمعنى الناصر فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الزبير بن العوام ابن عمتى، وحوارىّ من أمتى» (٣) استشهد أبو العلاء بالشطرين الأولين من هذه الأرجوزة فى مقدمة لزوم ما لا يلزم على أن من منازل الردف أن يكون بينه وبين انقضاء البيت حرف واحد، وذلك فى الشعر المقيد، فالواو — فى «القور» و «مكفور» — هى الردف.

جمع الاستبرق وتصغيره

وَكَيْفَ يَسْتَجِيزُ مَنْ فَرْشُهُ مِنَ الْإِسْتَبْرَقِ أَنْ يَمْضِيَ عَلَيْهِ أَبَدٌ بَعْدَ أَبَدٍ ، وَهُوَ لَا يَدْرِي : كَيْفَ يَجْمَعُهُ جَمْعَ التَّكْسِيرِ ؟ وَكَيْفَ يُصَغِّرُهُ النَّحْوِيُّونَ ؟

يَقُولُونَ فِي جَمْعِهِ : أَبَارِق ، وَفِي تَصْغِيرِهِ : أُبَيْرِق[١]

وَكَانَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ يَزْعُمُ أَنَّهُ فِي الْأَصْلِ سُمِّيَ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي ، وَذَلِكَ الْفِعْلُ اسْتَفْعَلَ مِنَ الْبَرَقِ ، أَوْ مِنَ الْبَرْقِ .

وَهَذِهِ دَعْوَى مِنْ أَبِي إِسْحَاقَ .

وَإِنَّمَا هُوَ اسْمٌ أَعْجَمِيٌّ عُرِّبَ .

نســـبة العبقرىّ

وَهَذَا الْعَبْقَرِيُّ الَّذِي عَلَيْهِ اتِّكَاءُ الْمُؤْمِنِينَ : إِلَى أَيِّ شَيْءٍ نُسِبَ ؟ .

فَإِنَّا كُنَّا نَقُولُ فِي الدَّارِ الْأُولَى : إِنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَقُولُ : إِنَّ عَبْقَرَ بِلَادٌ يَسْكُنُهَا الْجِنُّ ، وَأَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا شَيْئًا جَيِّدًا ، قَالُوا : عَبْقَرِيٌّ ، أَيْ كَأَنَّهُ عَمَلُ الْجِنِّ ، إِذْ كَانَتِ الْإِنْسُ لَا تَقْدِرُ عَلَى مِثْلِهِ .

ثُمَّ كَثُرَ ذَلِكَ حَتَّى قَالُوا سَيِّدٌ عَبْقَرِيٌّ ، وَظُلْمٌ عَبْقَرِيٌّ[٢] ، قَالَ ذُو الرُّمَّةِ :

حَتَّى كَأَنَّ حُرُوفَ الْقُفِّ أَلْبَسَهَا — مِنْ وَشْيِ عَبْقَرَ — تَجْلِيلٌ وَتَنْجِيدُ

---

(١) الاستبرق هو الديباج الغليظ ، وهو — كما قال أبو العلاء — أعجمى ، أصله معرب : اسْتَرْوَه ، ويقال إنه ديباج يعمل بالذهب ، أو ثياب حرير صفاق . ويقال غير ذلك ، وهى على أى حال نوع من الثياب الحريرية .

(٢) قال فى القاموس : « العبقرى : الكامل من كل شىء » وهو يؤيد قول أبى العلاء

وَقَالَ زُهَيْرٌ :

بِخَيْلٍ عَلَيْهَا جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ جَدِيرُونَ يَوْماً أَنْ يَنَالُوا وَيَسْتَعْلُوا

وَإِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ عَارِفِينَ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ، قَدْ أَلْهَمَهُمُ اللهُ الْعِلْمَ بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ — فَلَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْ مَعْرِفَتِهِ الْوِلْدَانُ الْمُخَلَّدُونَ. فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَقَعْ إِلَيْهِمْ. وَإِنَّا لَنَرْضَى بِالْقَلِيلِ مِمَّا عِنْدَهُمْ أَجْراً عَلَى تَعْلِيمِ الْوِلْدَانِ! . . . . »

شغل أصحاب الجنة

فَيَبْسِمُ إِلَيْهِمْ رِضْوَانُ، وَيَقُولُ: «إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ[1]؛ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ». فَانْصَرِفُوا رَحِمَكُمُ اللهُ؛ فَقَدْ أَكْثَرْتُمُ الْكَلَامَ فِيمَا لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ. وَإِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ أَبَاطِيلَ زُخْرِفَتْ فِي الدَّارِ الْفَانِيَةِ، فَذَهَبَتْ مَعَ الْبَاطِلِ. »

فَإِذَا رَأَوْا جِدَّهُ فِي ذَلِكَ، قَالُوا: «رَحِمَكَ اللهُ! نَحْنُ نَسْأَلُكَ أَنْ تُعَرِّفَ بَعْضَ عُلَمَائِنَا الَّذِينَ حَصَلُوا فِي الْجَنَّةِ بِأَنَّا وَاقِفُونَ عَلَى الْبَابِ نُرِيدُ أَنْ نُخَاطِبَهُ فِي أَمْرٍ.

فَيَقُولُ رِضْوَانُ: «مَنْ تُؤْثِرُونَ أَنْ أُعْلِمَ بِمَكَانِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِينَ غُفِرَ لَهُمْ؟ »

دعوة الخليل

فَيَتَشَاوَرُونَ طَوِيلاً، ثُمَّ يَقُولُونَ: «عَرِّفْ بِمَوْقِفِنَا هَذَا الْخَلِيلَ بْنَ أَحْمَدَ الْفُرْهُودِيَّ[2].

(١) فَكِهَ الرجل فهو فاكِهٌ: طابت نفسه، وضحك بشراً وسروراً (٢) أو الفَرَاهِيدِيّ، وقد مر حديثه فى (ج ٢ ص ٩٤ و ٩٥) والمعرى: يصفه هناك بأنه: أذكى العرب!

فَيُرْسِلُ إِلَيْهِ رِضْوَانُ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، فَيَقُولُ: «عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ قَوْمٌ قَدْ أَكْثَرُوا الْقَوْلَ، وَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُخَاطِبُوكَ».

فَيُشْرِفُ عَلَيْهِمُ الْخَلِيلُ، فَيَقُولُ: «أَنَا الَّذِى سَأَلْتُمْ عَنْهُ، فَمَاذَا تُرِيدُونَ؟»

فَيَعْرِضُونَ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا عَرَضُوا عَلَى رِضْوَانَ.

فَيَقُولُ الْخَلِيلُ: «إِنَّ اللهَ — جَلَّتْ قُدْرَتُهُ — جَعَلَ مَنْ يَسْكُنُ الْجَنَّةَ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ، نَاطِقًا بِأَفْصَحِ اللُّغَاتِ، كَمَا نَطَقَ بِهَا يَعْرُبُ بْنُ قَحْطَانَ، أَوْ مَعَدُّ بْنُ عَدْنَانَ، لاَ يُدْرِكُهُمُ الزَّيْغُ وَلاَ الزَّلَلُ. وَإِنَّمَا افْتَقَرَ النَّاسُ — فِى الدَّارِ الْغَرَّارَةِ — إِلَى عِلْمِ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ، لِأَنَّ الْعَرَبِيَّةَ الْأُولَى أَصَابَهَا تَغْيِيرٌ؛ فَأَمَّا الْآنَ فَقَدْ رُفِعَ عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ الْخَطَإِ وَالْوَهَمِ. فَاذْهَبُوا رَاشِدِينَ إِنْ شَاءَ اللهُ».

فَيَذْهَبُونَ، وَهُمْ مُخْفِقُونَ فِيمَا[1] طَلَبُوهُ.

عود إلى جواب الرسالة

ثُمَّ أَعُودُ إِلَى مَا كُنْتُ مُتَكَلِّمًا فِيهِ قَبْلَ ذِكْرِ الْمَلَائِكَةِ:

مَنْ أَهْدَى الْبَرِيرَةَ إِلَى نُعْمَانَ[2]، وَأَرَاقَ النُّطْفَةَ عَلَى الْفُرَاتِ، وَشَرَحَ الْقَضِيَّةَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ[3]؛ فَقَدْ أَسَاءَ فِيمَا فَعَلَ. وَدَلَّنِى كَلَامُهُ عَلَى أَنَّهُ بَحْرٌ يَسْتَجِيشُ مِنِّى ثَمَدًا[4]، وَجَبَلٌ يَسْتَضِيفُ — إِلَى صُخُورٍ — حَصًى، وَغَاضِيَةٌ[5] مِنَ

(١) كان بالأصل «مما» (٢) البرير، والبريرة: الأول من ثمر الأراك، ونعمان: واد وراء عرفة، يسمى: نعمان الأراك. لكثرة ثمره فيه (٣) المراد به علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، وكان ألمعيًّا عادلاً، فليس بحاجة إلى أن تشرح له قضية، وفى المثل: «قضية ولا أبا حسن لها» وأصله أن عمر كان يقول: «أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن!»

(٤) الثمد — بالسكون ويحرك — الماء القليل (٥) الغاضية: العظيمة من النيران.

النِّيرَانِ تَجْتَلِبُ إلى جِمَارِهَا سَقْطًا[١]. وَحَسْبُ تِهَامَةَ ما فِيهَا مِنَ السَّمُرِ[٢]!

وَسُؤَالُ الشَّيْخِ مَوْلَاىَ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ:

فَهَذِى سُيُوفٌ يَا عَدِىُّ بْنَ مَالِكٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ أَيْنَ بِالسَّيْفِ ضَارِبُ؟

لَا هَيْثَمَ اللَّيْلَةَ لِلْمَطِىِّ، قَضِيَّةٌ وَلَا أَبَا حَسَنٍ لَهَا؛ وَشَكَاةٌ، فَأَيْنَ الْحَارِثُ ابْنُ كَلَدَةَ[٣]؟ وَخَيْلٌ لَوْ كَانَ لَهَا فَوَارِسُ. «وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ»!

عود إلى براءته من مظنة العلم

وَالْوَاجِبُ أَنْ أَقُولَ لِنَفْسِى: وَرَاءَكِ أَوْسَعُ لَكِ[٤]، فِى الصَّيْفِ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ، وَلَا يَكْذِبُ الرَّائِدُ أَهْلَهُ. وَلَوْ كَانَ مَعِى مِلْءُ السِّقَاءِ، لَسَلَكْتُ فِى الْأَرْضِ الْمَقَّاءِ[٥].

وَسَوْفَ أَذْكُرُ طَرَفًا مِمَّا أَنَا عَلَيْهِ غَرِيبٌ فِى الْعَامَّةِ مِنْ شَبَّ إِلَى دَبَّ[٦]

آراء الناس فى أبى العلاء

يَزْعُمُونَ أَنَّنِى مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَأَنَا مِنْهُ خِلْوٌ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ. وَمَنْزِلَتِى إِلَى الْجُهَّالِ، أَدْنَى مِنْهَا إِلَى الرَّهْطِ الْعُلَمَاءِ. وَلَنْ أَكُونَ مِثْلَ الرَّبْدَاءِ:[٧] أَزْعُمُ فِى الْإِبِلِ أَنَّنِى طَائِرٌ، وَفِى الطَّيْرِ أَنِّى بَعِيرٌ سَائِرٌ!

---

(١) ما سقط من الشرر بين الزند قبل أن يستحكم الورى، وهو لاخير فيه، وقد أسمى أبو العلاء ديواناً له: «سَقْطَ الزَّنْد» (٢) السمر: شجر يكثر فى تهامة (٣) هو طبيب العرب، فإليه الشكاة من العلة (٤) أى ليس لك فى هذا شيء، يراد به الزجر (٥) المقاء: البعيدة الأطراف (٦) أى طول حياتى: شباباً وشيبة (٧) الربداء: النعامة

وَالتَّمْوِيهُ خُلُقٌ ذَمِيمٌ . وَلَـكِنِّى ضَبٌّ لَا أَحْمِلُ وَلَا أَطِيرُ ، وَلَا ثَمَنِى فِى الْبَيْعِ خَطِيرٌ . أَقْتَنِعُ مِنَ الْحِيلَةِ بِالسَّحَاءِ(١) ، وَأَلُوذُ مِنْ بَنِى آدَمَ فِى مَسَاءٍ وَضُحَاءٍ .

وَإِذَا خَلَوْتُ فِى بَيْتِى تَعَلَّلْتُ ، وَإِنْ فَارَقْتُ مَأْوَاىَ ضَلَلْتُ .

ذَكَرَ ابْنُ حَبِيبٍ أَنَّهُ يُقَالُ فِى الْمَثَلِ : « أَحْيَرُ مِنْ ضَبٍّ » ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا فَارَقَ بَيْتَهُ فَأَبْعَدَ ، لَمْ يَهْتَدِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ .

وَقَدْ عَلِمَ اللهُ — تَعَالَتْ قُدْرَتُهُ — أَنِّى لَا أَبْتَهِجُ بِأَنْ أَكُونَ فِى الْبَاطِنِ أَسْتَحِقُّ تَثْرِيباً ، وَأُدْعَى فِى الظَّاهِرِ أَرِيباً ؛ وَمَثَلِى مَثَلُ الْبِيعَةِ(٢) الدَّامِرَةِ ، تُجْمِعُ طَوَائِفُ مِنَ الْمَسِيحِيَّةِ أَنَّهَا تُبْرِئُ مِنَ الْحُمَّى أَوْ مِنْ كَذَا ؛ وَإِنَّمَا هِىَ جُدُرٌ قَائِمَةٌ ، لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ مِلْطَسِ(٣) الْهَادِمِ ، وَالْمِسْيَعَةِ(٤) بِيَدِ الْهَاجِرِىِّ(٥) ؛ وَسِيَّانِ عِنْدَهَا صِنُّ الْوَبْرِ(٦) ، وَمَا يُعْتَصَرُ مِنْ ذَكِىِّ الْوَرْدِ ! . . .

وَلَيْسَ بِدْعاً مَنْ كُذِبَ عَلَيْهِ ، وَادُّعِىَ لَهُ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ .

تكذيب المادحين

وَقَدْ نَادَيْتُ بِتَكْذِيبِ الْقَالَةِ(٧) ، نِدَاءَ مَنْ خَصَّ وَعَمَّ ؛ وَاعْتَرَفَ بِالْجَهَالَةِ ، عِنْدَ مَنْ نَقَصَ وَأَمَّ(٨) . وَاعْتَذَرْتُ بِالتَّقْصِيرِ إِلَى مَنْ هَزَلَ وَجَدَّ . وَقَدْ حُرِّمَ

---

(١) أى بالقشر دون اللباب وكان بالأصل : « بالحيلة والسحاء » (٢) البيعة : معبد النصارى ، وجمعه : بِيَع (٣) الملطس ، والملطاس : المعول الغليظ لكسر الحجارة . وجمع الأول : ملاطس ، وجمع الثانى : ملاطيس . (٤) المسيعة : حديدة أو خشبة مملسة يُطَيَّن بها . وكان فى الأصل : « المبيعة » (٥) الهاجرى : البنّاء . (٦) الوبر : حيوان يشبه السنور إلا أنه أصغر منه ، وصنه : بوله ، وهو منتن الرائحة (٧) القالة : القول الذى قيل فى شأنه ، أو جمع : قائل (٨) أمّ القوم : صار إماماً لهم . فالمعنى أنه اعترف عند أئمة القوم وعامتهم . ويجوز أن تكون : نقص وأتم ، أو : نقص وتمّ

عَلَىَّ الْكَلامُ فِى هَذِهِ الْأَشْياءِ ، لِأَنِّى طَلَّقْتُهَا طَلاقاً بَائِناً لاَ أَمْلِكُ فِيهِ الرَّجْعَةَ . وَذلِكَ لِأَنِّى وَجَدْتُهَا فَوارِكَ[١] ، فَقابَلْتُ فَرَكَها بالصَّلَفِ . وَأَلقَيْتُ الْمَرامِى[٢] إلَى النَّازِعِ ، وَخَلَّيْتُ الْخُطَبَ لِرُقاةِ الْمَنَابرِ .

وَكُنْتُ فى عِدادِ الْهَمَلِ[٣] ، أَجِدُ — إذا زَاوَلْتُ الْأَدَبَ — كَأَنَّى عَارٍ يَتَعَمَّمُ[٤] . أَوْ أَقْطَعُ الْكَفَّيْنِ يَتَخَتَّمُ ! . . . .

وَيَنْبَغِى لَهُ — أَدَامَ اللهُ تَمْكِينَهُ — إِنْ ذَكَرنِى عِنْدَهُ ذَاكِرٌ ، أَنْ يَقُولَ : دُهْدُرَّيْنُ ! سَعْدُ الْقَيْنُ[٥] !

إِنَّمَا ذَلِكَ أَجْهَلُ مِنْ صَعَلِ الدَّوِّ[٦] ، خَالٍ كَخُلُوِّ الْبَوِّ[٧] . . . .

---

(١) الفوارك : النساء يبغضن أزواجهن ، والمعنى أن هـذه المسائل كانت — فيما يقول تواضعاً — لا تلين له ولا تسلس ، أو أنها تذهب عنه كلما حصَّلها . (٢) إما أن تكون جمع مرمى ، وهو آلة الرمى ، و إما أن تكون جمع مرماة ، وهى السهم الصغير الضعيف . (٣) وفى الأصل « وكنت فى عِدَادِ المهلة » و يجوز أن تكون أيضاً : « وكُتِبْتُ فى عداد الهَمَل ، أو : الهامِلَةِ ، أو : الهَمْلَى . » (٤) فى بعض الأصول : ينضم

(٥) هذا مثل ، ودهدرين : اسم للباطل وللكذب ، ودهدرين ، سعد القين : أى بطل « سعد » الحداد بألَّا يجد من يستخدمه فى عمل له ، لاشتغال الناس بما نزل بهم من قحط ، و يقال : إن أصله أن قينا « حداداً » ادعى أن اسمه سعدٌ زمانا ، ثم تبين كذبه ، فقيل ذلك له ، أى جمعت باطلا إلى باطل يا سعد الحـــداد . وقيل فى أصل الكلمة : « دهدرين » إنها فارسية ، كان يقولها ذلك الحداد الفارسىّ حين يغادر بقعة إلى بقعة ، ومعناها الوداع . وقيل غير ذلك (٦) صعل الدو : الظليم فى الصحراء يترك بيضه ، ثم ينسى مكانه . (٧) البو : جلد الحوار يحشى تبناً ، فيقرب من أم الفصيل ، فتعطف عليه ، فتدر .

تقاعد أبى العــــلاء

وَلَوْ كُنْتُ فى جِنِّ الْعُمْرِ كما قِيلَ ، لَكُنْتُ قَدْ أُنْسِيتُ أَوْ نَسِيتُ . لِأَنَّ حَدِيثِي لَا يُجْهَلُ فى لُزُومِ عَطَنِ الضَّيِّقِ . وَانْقِطَاعِى عَنِ الْمَعَاشِرِ ذَهابَ الشَّيِّقِ[1] .

وَلَوْ أَنَّى كَمَا يُظَنُّ ، لَفَعَلْتُ كَمَا اخْتَرْتُ ، وَبَرَزْتُ لِلْأَعْيُنِ فَمَا اسْتَتَرْتُ .

وَهُوَ يَرْوِى الْبَيْتَ السَّائِرَ لِزُهَيْرٍ :

« وَالسِّتْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ ، وَلَا يَلْقَاكَ – دُونَ الْخَيْرِ – مِنْ سِتْرِ »

وَإِنَّمَا يَنَالُ الرُّتَبَ مِنَ الآدَابِ مَنْ يُبَاشِرُهَا بِنَفْسِهِ ، وَيُفْنِى الزَّمَنَ بِدَرْسِهِ . وَيَسْتَعِينُ الزِّهْلِقَ[2] ، وَالشُّعَاعَ الْمُتَأَلِّقَ . لَا هُوَ الْعَاجِزُ ، وَلَا هُوَ الْمُحَاجِزُ :

وَلَا جَثَّامَةٌ فِى الرَّحْلِ مِثْلِى وَلَا بَرِمٌ – إِذَا أَمْسَى – نَؤُومُ[3]

علة السؤال

وَمِثْلُهُ لَا يَسْأَلُ مِثْلِى لِلْفَائِدَةِ ، بَلْ لِلِامْتِحَانِ وَالْخِبْرَةِ . فَإِنْ سَكَتُّ جَازَ أَنْ يَسْبِقَ إِلَىَّ الظَّنُّ الْحَسَنُ ، لِأَنَّ السُّكُوتَ سِتْرٌ يُسْبَلُ عَلَى الْجَهُولِ .

وَمَا أُحِبُّ أَنْ يَفْتَرِىَ عَلَىَّ الظُّنُونَ ، كَمَا افْتَرَتِ الْأَلْسُنُ فى ذِكْرِهَا أَنِّى مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ .

---

(١) أى انقطاع المشتاق إليها (٢) الزهلق : السراج ما دام فى القنديل ، وموضع النار من الفتيل (٣) الجثامة : البليد ، أو النوّام ؛ من جثم : إذا لزم مكانه فلم يبرح . ويروى : « ولا خيامة »

وَأَحْلِفُ بِخَزْوَةِ[١] الْكَذُوبِ : لَأَنْ أَرُمَّ[٢] صَابَةً أَوْ مَقِرًا ، آثَرُ لَدَىَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ فِى هَذِهِ الصِّنَاعَةِ كَلِمَةً !

رمية من غير رام

وَقَدْ تَكَلَّفْتُ الْإِجَابَةَ . فَإِنْ أَخْطَأْتُ ؛ فَمَنْبِتُ الْخَطَإِ وَمَعْدِنُهُ ، غاوٍ تَعَرَّضَ لِمَا لَا يُحْسِنُهُ !....

وَإِنْ أَصَبْتُ ، فَمَا أَحْمَدُ عَلَى الْإِصَابَةِ :

رُبَّ دَوَاءٍ يَنْفَعُ ، وَصَفَهُ مَنْ لَيْسَ بِآسٍ[٣] ؛ وَكَلِمَةُ حُكْمٍ تُسْمَعُ ، مِنْ حَلِيفِ وَسْوَاسٍ[٤] !

---

(١) خزوة الكذوب : خزيه . وكان بالأصل : « بمروة الكذوب » وفى نسخة : « بحروة »　(٢) أرم : آكل . قالوا : ومنه الحديث : « البقر تَرُمُّ من كل شجر »

(٣) الآسى : الطبيب　(٤) يقول : « رب دواء ناجع وصفه غير طبيب ، وكلمة حكيمة فاه بها غير أريب » .

رِسالةُ الشّياطِين(١)

ترحيب

الطَّرَبُ مُؤْتَاب ، وَالْخيالُ مُنْتَاب(٢) ، وَالشَّوْقُ — فِي الصُّدُورِ — وَاقِع ، وَإِنْ أَضْحَتِ الدِّيَارُ بَلاَقِع .

مَا هٰذا الزَّوْرُ(٣) الطَّارِقُ ، الَّذِي وَمَضَ كَأَنَّهُ بَارِقٌ ، يَذْكُرُ أُمَمًا خَالِيَة ، كَانَتْ — بِالْأَدَبِ — حَالِيَة :

---

(١) بعث المعرى بهذه الرسالة المعجبة الفريدة جواباً عن كتاب رجل يعرف بأبى الحسين أحمد بن عثمان النُّكَتِيّ البصرى . وألم فيها أبرع إلمام بشياطين الشعراء ، فأطلقنا عليها اسم : رسالة الشياطين ، ونشرناها بعد رسالة الملائكة ، لقرب الشبه بينهما ، ووثاقة الصلات بين أغراضهما . ففى رسالة الملائكة عرض المعرى — كما رأى القارئ — لطائفة من أمهات المسائل الصرفية ، وفى هذه الرسالة عرض لبعض هذه المسائل ، وأضاف إليها طائفة من المعلومات العروضية وغيرها ، فى أبرع صورة ، وأبهى حلة . وجرى فيها على عادته فى الترقى من مناسبة إلى أخرى ، متلطفاً فى الوصول إلى أهدافه البعيدة .

وكان النُّكَتِيّ قد حرف اسم المعرى ، وقصر كنيته ، فدعاه محمدا — وهو أحمد — وقال : أبو العلا — بالقصر — فوجد أبو العلاء — فى هذه الهنة اليسيرة — مجالاً لافتنانه و إبداعه

(٢) مؤتاب : مُلابِسٌ ، ومنتاب : يزور مرة بعد أخرى (٣) الطيف

أَنَّى اهتَدَيْتَ لِتَسْلِيمٍ عَلَى دِمَنٍ بِـ « الْغَمْرِ » غَيَّرَهُنَّ الْأَعْصُرُ الْأُوَلُ !

فَمَرْحَباً بِكِتَابِ الشَّيْخِ — أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ — مَا ائْتَلَفَ مُتَحَرِّكٌ وَسَاكِنٌ، وَاخْتَلَفَتِ الْأَزْمِنَةُ وَالْأَمَاكِنُ.

عَلَى أَنَّهُ — كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ اسْمُهُ —: « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ[1]، أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ، فَأَرْسِلُونِ ».

جِنِّيٌّ أَمْ مَلَكٌ ؟

لَقَدْ بَهَرَ بِنَثِيرٍ وَنَظِيمٍ، فَسُبْحَانَ رَبِّهِ الْعَظِيمِ، يَزِيدُ — فِي الْخَلْقِ — مَا يَشَاءُ، إِنَّ اللهَ — عَلَى كُلِّ شَيْءٍ — قَدِيرٌ.

أَسَيِّدِي الشَّيْخُ : جَرِيرٌ ؟ فَهُوَ أَنْسَبُ النَّاسِ !

أَمِ الْفَرَزْدَقُ ؟ فَالسَّلَامُ عَلَيْهِ، إِنْ كَانَ أَبَا فِرَاسٍ[2] ....

فَلَيْتَ شِعْرِي : مَنْ يَقُولُ الْمَنْظُومَ فِي خَاطِرِهِ ؟ أَجِنِّيٌّ تَمَرَّدَ ؟ أَمْ مَلَكٌ بِالْعِبَادَةِ تَفَرَّدَ ؟ قَدْ حِرْتُ فِي ذَلِكَ !

*
* *

خَلَدُهُ مَأْهُولٌ بِالْقُرْآنِ، فَلَا يَسْلُكُ عِفْرِيتٌ فِي صَدْرِهِ ؛ وَالْمَلَائِكَةُ لَا تَنْطِقُ بِمِثْلِ شِعْرِهِ، وَلَا نَعْلَمُ أَحَداً رَوَى شِعْراً عَنِ الْمَلَائِكَةِ.

---

(١) بعد حين ، قال تعالى : « ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة » أى : إلى حين . (٢) كنية الفرزدق

مَنَاحَةُ الجِنِّ على عُمَرَ

فَأَمَّا الجِنُّ فَقَدْ وَرَدَ عَنْهَا مَا يَعْلَمُهُ. مِنْهُ أَنَّ كَثِيراً مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ رَوَوْا أَنَّ الْجِنَّ نَاحَتْ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَتْ:

قَضَيْتَ أُمُوراً ثُمَّ خَلَّفْتَ بَعْدَهَا ... بَوَائِجَ فِي أَكْمَامِهَا لَمْ تُفَتَّقِ[1]

فَزَعَمُوا أَنَّ هٰذِهِ الأَبْيَاتَ سُمِعَتْ قَبْلَ قَتْلِ عُمَرَ.

وَهِيَ فِي الْحَمَاسَةِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى الشَّمَّاخِ.

وَقَدْ ذَكَرَ رِوَايَةَ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي كِتَابِهِ الْمَوْضُوعِ لِغَرِيبِ حَدِيثِ النَّبِيِّ (ص) وَالصَّحَابَةِ رَحِمَهُمُ اللهُ. وَرَوَى أَصْحَابُ السِّيَرِ أَنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ مَالَ إِلَى سُبَاطَةِ[2] قَوْمٍ فَبَالَ. ثُمَّ مَالَ مَيِّتاً، وَأَنَّ الْجِنَّ قَالَتْ:

قَدْ قَتَلْنَا سَيِّدَ الْخَزْ ... رَجِ سَعْدَ بْنَ عُبَادَهْ
فَرَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْنِ ... فَلَمْ نُخْطِئْ فُؤَادَهْ

فِي أَشْبَاهٍ لِهٰذَا لَا تُحْصَى.

ملائكة الشعراء

وَلَهُ — أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ — أَنْ يَحْتَجَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ (ص) لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ — لَمَّا أَمَرَهُ بِإِجَابَةِ شُعَرَاءِ قُرَيْشٍ — : « رُوحُ الْقُدُسِ مَعَكَ! ».

فَلْيَدَّعِ أَنْ يَقُولَ: « إِنَّ حَسَّانَ وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُ مِنْ قَالَةِ الْحَقِّ، تُعِينُهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى ذَلِكَ ».

---

(١) البوائج: الدواهي. والمعنى، أن عمر بن الخطاب، ترك — بعد موته — معضلات ودواهي لم يدرك الناس خطرها بعد، لأنها لم تتفتح عن أكمامها. (٢) السباطة: الكناسة تطرح في أفنية البيوت، والموضع الذي يرمى فيه التراب والأوساخ.

لِلّهِ سيِّدِي الشَّيْخُ ؛ لَقَدْ نثرَ ، فَمَا عثرَ ؛ وَشعرَ ، فَكأَنَّ فِكْرَهُ كاللَّهبِ لمَّا اُسْتعرَ ؛ وَلوْ رجزَ ، لما عَجزَ .

شيَاطِينُ الشعْرَاء

لَقَدْ أَهْدَى إلَيَّ رِياضاً أَرِجَة ، لاَ تَزَالُ الْأَلْبَابُ بهاَ مُعرِّجَة : مِنْ طَوِيلٍ فَرَعَ بِوَزْنِهِ ، وَكَامِلٍ كَملَ فِي حُسْنِهِ ؛ وَوَافِرٍ (١) ، يُجْعَلُ تعِلَّةَ الْمُسَافِرِ ، كمَا قَالَ الأَوَّلُ :

« بِهَا تُنْفَضُ الأَحْلاَسُ (٢) — وَالدِّيكُ نَائِمٌ —
وَتُعقَــدُ أَنْسَاعُ (٣) الْمَطِيِّ ، وَتُطْلَقُ »

وَلاَ يُنْكِرُ — أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ — مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ أَمْرِ الْجِنِّ — فقد عَلِمَ أَنَّهُ مَشْهُورٌ عِنْدَ الْعرَبِ أَنَّ لِكُلِّ شَاعِرٍ شَيْطَانًا يقُولُ الشِّعْرَ عَلَى لِسَانِهِ . وَلاَ شَكَّ أَنَّهُ قَدْ رَوَى قَوْلَ الرَّاجِزِ :

« إِنِّي — وَإِنْ كُنْتُ صَغِيرَ السِّنِّ ، وَكَانَ فِي الْعَيْنِ نُبُوٌّ عَنِّي —

---

(١) الطويل والكامل والوافر من أبحر الشعر ، وهى معروفة . وفرع ، أى علا ، قال أبو العلاء :

وابك على طائر رماه فتى لاهٍ ، فأوهى — بفهره — الكتفا
بكر يبغى المعاش — مجتهداً — فقص — عند الشروق — أو نتفا
كأنه — فى الحياة — ما فرع الغصـ ن ، فغنى عليه ، أو هتفا

يقول : كأن هذا الطير — الذى قذفه الفتى بحجره — لم يعل الغصن ولم يغرد عليه فى حياته .

(٢) الأحلاس : ما تجلل به الدواب من أثواب (٣) الأنساع : الحبال تشد بها رحال الأبل ، قال أبو العلاء فى سقط الزند :

يا ناق : سيرى ، فقد أفنت أناتك بى صبرى ، وحلمى ، وأحلاسى ، وأنساعى

فَإِنَّ شَيْطَانِي أَمِــيرُ الْجِنِّ[١] يَذْهَبُ بِي – فِي الشِّعْرِ – كُلَّ فَنِّ »

وَقَدْ زَادَ ادِّعَاؤُهُمْ لِذَلِكَ ، حَتَّى سَمَّوا الشَّيَاطِينَ بِأَسْمَاءٍ يَعْرِفُونَهَا بَيْنَهُمْ ؛ قَالَ الْأَعْشَى :

« دَعَوْتُ خَلِيلِي : « مِسْحَلاً » ، وَدَعَوْا لَهُ

جِهِنَّامَ[٢] ، بُعْــدًا لِلْغَوِيِّ الْمُذَمَّمِ »

فَزَعَمُوا أَنَّ « مِسْحَلاً » شَيْطَانُ الْأَعْشَى .

وَقَدْ رَوَوْا أَخْبَارًا – فِي ذَلِكَ – كَثِيرَةً ، لَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ قَدِ اطَّلَعَ عَلَيْهَا .

شَيْطَانُ ابنِ دُرَيْد

وَحَدَّثَنَا صَدِيقُهُ « أَبُو الْقَاسِمِ الْمُبَارَكُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ » – رَحِمَهُ اللهُ – عَنْ « أَبِي عَبْدِ اللهِ بْنِ خَالَوَيْهِ » عَنِ « ابْنِ دُرَيْدٍ » حَدِيثًا مَعْنَاهُ مَا أَذْكُرُهُ : وَهُوَ أَنَّ « أَبَا بَكْرِ بْنَ دُرَيْدٍ » ذَكَرَ لِأَصْحَابِهِ أَنَّهُ رَأَى – فِيمَا يَرَى النَّائِمُ – أَنَّ قَائِلاً يَقُولُ : « لِمَ لَا تَقُولُ فِي الْخَمْرِ شَيْئًا ؟ » . فَقَالَ : « وَهَلْ تَرَكَ أَبُو نُوَاسٍ مَقَالاً ؟ » . فَقَالَ لَهُ : « أَنْتَ أَشْعَرُ مِنْهُ حَيْثُ تَقُولُ :

---

(١) قريب من هذا قول القائل :

« إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر »

(٢) الجهنام : البعيد القاع ، وقد مرت هذه اللفظة بالقارىء فى رسالة الملائكة حين عرض المعرى لتصريف جهنم ، وأنها أعجمية ، أو مشتقة من : بئر جهنام ، أى بعيدة القعر . فارجع إليها إن شئت فى ص (٤٥٥) من هذا الجزء

وَحَمْرَاءَ قَبْلَ ٱلْمَزْجِ ، صَفْرَاءَ بَعْدَهُ ... أَتَتْ بَيْنَ ثَوْبَيْ نَرْجِسٍ وَشَقَائِقِ
حَكَتْ وَجْنَةَ ٱلْمَعْشُوقِ صِرْفًا فَسَلَّطُوا ... عَلَيْهَا مِزَاجًا فَٱكْتَسَتْ لَوْنَ عَاشِقِ »

فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ : « مَنْ أَنْتَ ؟ » . فَقَالَ : « أَنَا شَيْطَانُكَ[١] » . وَسَأَلَهُ عَنِ ٱسْمِهِ . فَقَالَ : « أَبُو زَاجِيَةَ » وَخَبَّرَهُ أَنَّهُ يَسْكُنُ بِالْمَوْصِلِ

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ٱلْجِنَّ تَطُولُ أَعْمَارُهُمْ ، حَتَّى إِنَّ ٱلْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَكُونُ قَدْ لَقِيَ نُوحًا ، وَيَلْقَى ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢] ..... !

فَإِنْ كَانَ ٱلشَّاعِرُ مِنْهُمْ يَنْتَقِلُ مِنْ رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ . فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَدِ ٱنْتَقَلَ إِلَيْهِ — أَدَامَ ٱللَّهُ عِزَّهُ — صَاحِبُ ٱلنَّابِغَةِ[٣] أَوِ ٱلْكِنْدِيِّ[٤] ، فَمَا ذَلِكَ بِبَدِيعٍ وَلَا بَدِيٍّ[٥] .

أَبُو زَاجِيَة

وَقَدْ مَرَّ فِي أَسْفَارِهِ بِالْمَوْصِلِ : وَأَغْلَبُ ظَنِّي أَنَّ « أَبَا زَاجِيَةَ » عَلِقَ بِهِ ، وَرَغِبَ فِي صُحْبَتِهِ . لِأَنَّهُ ذَكَرَهُ بِصَاحِبِهِ ٱلْأَزْدِيِّ[٦] . وَلَا مِرْيَةَ فِي أَنَّهُ قَدْ أَسْلَمَ ،

---

(١) زعموا أن اسم شيطان امرىء القيس هو : لافظ بن لاحظ ، وشيطان النابغة الذبيانى : هاذر بن ماذر ، وشيطان الكميت : مُدرِك بن واغم .

وأطلقوا اسم : « الهوبر » على شيطان الشعر الجيد ، واسم : « الهوجل » على شيطان الشعر الردىء

(٢) ارجع إلى الفصل الممتع الذى خص به المعرى مزايا الجن وعجائبهم وأشعارهم ، فى الجزء الثانى من هذا الكتاب (ص ١٠٣ وما بعدها)

(٣) يعنى : « هاذر بن ماذر » شيطان النابغة الذبيانى

(٤) يعنى « لافظ بن لاحظ » شيطان امرىء القيس

(٥) عجيب .

(٦) أى ابن دريد

وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَرْغَبْ فِى اسْتِصْحَابِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ لِكِتَابِ اللهِ — جَلَّ سُلْطَانُهُ — عَالِمٍ بِلُغَةِ الرَّسُولِ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — مُتَظَاهِرٍ بِالصِّيَانَةِ وَحُسْنِ الْمَذْهَبِ، مُذْ كَانَ فِى الْمَهْدِ، إِلَى أَنْ هَمَّ بِرُمَيْحِ أَبِى سَعْدٍ(١).

أَوَ لَيْسَ قَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ — حَدِيثٌ مَعْنَاهُ أَنَّ الإِنْسَانَ لَا يَخْلُو مِنْ شَيْطَانٍ مُوَكَّلٍ بِهِ، قِيلَ : « وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ ».

قَالَ : « وَلَا أَنَا، وَلَكِنِّى أُعِنْتُ عَلَيْهِ، فَأَسْلَمَ . . . ».

وَكَيْفَ لَا يُسْلِمُ صَاحِبُهُ(٢) — أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ — وَقَدْ أَمْلَى فِى تَفْسِيرِ سُورَةِ الإِخْلَاصِ كِتَابًا نُسْخَتُهُ عِنْدَ أَبِى بَكْرٍ الْمُؤَدِّبِ، أَدَامَ اللهُ سَلَامَتَهُ؟

غريزة الشاعر

وَأَنَا أُقَسِّمُ الأُمُورَ فِى كَيْفِيَّةِ نِظَامِهِ لِلأَوْزَانِ : أَيَعْرِضُ أَفَانِينَ الْقَرِيضِ، عَلَى ضُرُوبِ الأَعَارِيضِ؟ أَمْ يَقُولُهَا بِغَرِيزَةٍ، غَيْرِ مُؤْتَشِبَةِ النَّحِيزَةِ(٢)؟ فَإِنْ كَانَ يَبْنِى الْبَيْتَ كَمَا بَنَاهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ بِطِبَاعٍ(٣)، لَا يَعْرِفُ مَكَانَ تَوْجِيهٍ يُذْكَرُ وَلَا إِشْبَاعٍ. فَكَيْفَ نَافَى الْعِىَّ، وَلَمْ يَكُفَّ السُّبَاعِىَّ(٤)؛ وَقَدْ كَفَّتْهُ فُحُولُ الشُّعَرَاءِ؟

---

(١) الرُّمَيْح : العُصَيَّة . وأبو سعد : كنية الشيخوخة أو الهرم، قال أبو العلاء :

« ربيت شبلا، فلما أن غدا أسدا عدا عليك، فلولا ربه أكلك
مرحت كالفرس الذيَّال — آونة — ثم اعتراك أبو سعد، فقد شكلك »

(٢) أى الجنى المصاحب للنكتى المرسل إليه كتاب أبى العلاء (٣) بطبع خالص لا تعقيد فيه (٤) بسليقة (٥) أى لم يحذف النون من مفاعيلن المؤلفة من سبعة أحرف، وقد أسهب المعرى فى تفصيل الأوزان وما يعتورها من آفات وعلل، فضربنا عنها صفحاً

وَإِنْ كَانَ – أدامَ اللهُ عِزَّهُ – يَقُولُ الشِّعْرَ بِقِيَاسِ الْعَرُوضِ ، فَكَيْفَ تَفرَّعَ[١] هٰذِهِ الْأَوْزَانَ الَّتِي هِيَ سَلِيمَةٌ قَوِيمَةٌ ؛ وَلَمْ يَجْرِ عَلَيْهِ مَا جَرَى عَلَى رَزِينٍ الْعَرُوضِيِّ لَمَّا مَدَحَ الْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ بِقَصِيدَتِهِ الْكَافِيَةِ الَّتِي أَوَّلُهَا :

« قَرَّبُوا جِمَالَهُمْ لِلرَّحِيلِ غُدْ وَةً : أَحِبَّتُكَ الْأَقْرَبُوكَ »

وَقَدْ شَاهَدْنَا بَعْضَ مَنْ يَقُولُ الشِّعْرَ بِالْعَرُوضِ ، رُبَّمَا رَكِبَ وَزْنَ قَصِيدَةِ الْمُرَقِّشِ[٢] ، وَعِنْدَهُ أَنَّ غَرَائِزَ النَّاسِ الْيَوْمَ لَا تَنْفِرُ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ .

وَأَحْسَبُهُ – جَمَّلَ اللهُ بِهِ – قَدْ جَمَعَ بَيْنَ طَبْعٍ كَالْبَحْرِ الْخِضَمِّ ، وَعِلْمٍ اكْتَسَبَهُ جَمٍّ .

أهْلُ البَصْرَة

وَدَلَّنِي كِتَابُهُ عَلَى أَنَّهُ يَحْسَبُنِي قَدْ أَضَعْتُ وُدَّهُ ، وَتَنَاسَيْتُ فِي طُولِ الزَّمَانِ عَهْدَهُ ... إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ !

عَرَّفَنِي بِنَفْسِهِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، وَقَدْ صَحَّ مَعِي أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ السَّاكِنَةِ فِي خَلَدِهِ ، وَتِلْكَ أَجَلُّ مِنَ الْبَصْرَةِ بَلَدِهِ . وَهَلِ الْبَصْرَةُ إِلَّا حِجَارَةٌ بِيضٌ ، يَطَؤُهَا إِنْسٌ وَرَبِيضٌ[٣] ؟ أَلَيْسَ قَدْ رُوِيَ قَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ :

لضيق صفحات الكتاب المحدودة ، فمن شاء الاستزادة فليرجع إلى رسائل المعرى المطبوعة وإلى مقدمة لزومياته . وقد عرض لهذا فى رسالة أخرى ، فقال :

« .... ولست أطوى وداده طىّ الضرب الأول من المنسرح ، ولا أقبضهُ قبض عروض الطويل ، ولا أقطعهُ قطع الوَتِدِ ، ولا أجعله كالسبب المضطرب ، يقع به الزحاف والعلة اللازمة ، ولكنى أصونه من التغير ، كما صين الروىّ عن إقواء أو إكفاء ، وأدوم على الإخلاص والصفاء ... الخ .

(١) تَفَرَّعَ الرجل الشئَ : ركبه ، والمراد هنا من التفرع : المعالجة والمعاناة (٢) يعنى المرقش الأصغر (٣) الأغنام ورعاتها

إذَا سَاقِيَانَا أَفْرَغَا فِي إزَائِهِ عَلَى قُلُصٍ بِالْمُقْفِرَاتِ حِيَامِ[١]
« تَدَاعَيْنَ ـ بِاسْمِ الشِّيبِ[٢] ـ فِي مُتَثَلِّمٍ جَوَانِبُهُ مِنْ بَصْرَةٍ وَسِلَامِ »

... وأَهْلُ « الْبَصْرَةِ » — سَلَّمَهُمُ اللهُ — يُنسبُونَ إلى قِلَّةِ الْحَنِينِ ، أَلَيْسَ قَدْ مَرَّتْ بِهِ هَذِهِ الْحِكَايَةُ ؟ وَهِيَ أنهُ وُجِدَ عَلَى حَجَرٍ مَكْتُوبٍ :

« مَامِنْ غَرِيبٍ ـ وَإِنْ أَبْدَى تَجَلُّدَهُ ـ إِلَّا سَيَذْكُرُ ـ عِنْدَ الْعِلَّةِ ـ الْوَطَنَا »

وَقَدْ كُتِبَ تَحْتَهُ : « إِلَّا أَهْلُ الْبَصْرَةِ !.... » .

فَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ سَجِيَّتُهُمْ مَعَ أَهْلِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ ، فَكَيْفَ بِالَّذِينَ عَرَفُوهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمْ ؟

تحريفُ الِاسْمِ

وَالدَّلِيلُ عَلَى مَا قُلْتُ أَنَّهُ — أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ — لَمْ يُثْبِتِ اسْمِي .

جَعَلَنِي : « مُحَمَّدًا » وَاسْمِي : « أَحْمَدُ » .

فَإِنِ احْتَجَّ بِأَنَّ هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ سَوَاءٌ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى :

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ... »

وَلِقَوْلِهِ — فِي مَوْضِعٍ آخَرَ — :

« بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ، اسْمُهُ أَحْمَدُ . »

فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً ، لِأَنَّهُ قَالَ :

---

(١) على نياق عِطَاش (٢) الشِّيب : حكاية أصوات مشافر الإبل عند الشرب ، والمتثلم : الحوض . والبصرة ، والسلام : نوعان من الحجارة .

« اسْمِى فى السَّماءِ أَحْمَدُ ، وَفى الأرْضِ مُحَمَّدٌ . »

فَإنْ قَالَ قَائِلٌ :

« إنَّ الْعَرَبَ قَدْ يَكُونُ لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ الاِسْمَانِ وَالثَّلاثَةُ »

وَاحْتَجَّ بِقَوْلِ دُرَيْدِ بْنِ الصِّمَّةِ :

تَنَادَوْا ، فَقَالُوا : « أَرْدَتِ الْخَيْلُ فَارِسًا »
فَقُلْتُ : « أَعَبْدُ اللهِ ذَلِكُمُ الرَّدِى ؟ »

وَقَالَ فِيهَا :

« فَإنْ تُنْسِنَا الأَيَّامُ وَالْعَصْرُ تَعْلَمُوا
— بَنِى قَارِبٍ — أَنَّا غِضَابٌ بِمَعْبَدِ[1] »

فَإنَّ ذَلِكَ لا يَخْلُو مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ :

إمَّا أَنْ يَكُونَ لِلرَّجُلِ اسْمَانِ ، وَلَسْتُ كَذَلِكَ !

وَإمَّا أَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ غَيَّرَ اسْمَهُ ضَرُورَةً .

تغيير الأسماء

وَلَو كَانَ غَيَّرَ اسْمِى فِى النَّظْمِ — دُونَ النَّثْرِ — لَكَانَ عُذْرُهُ فِى ذَلِكَ مُنْبَسِطًا ، لِأَنَّ الشُّعَرَاءَ الجِلَّةَ يُغَيِّرُونَ الأَسْمَاءَ ، قَالَ الْحُطَيْئَةُ :

« وَمَا رَضِيتَ لَهُمْ حَتَّى رَفَدْتَهُمُ مِنْ وَابِلٍ رَهْطِ بسطامٍ بِأَصْرَامِ
فِيهِ الرِّمَاحُ ، وَفِيهِ كُلُّ سَابِغَةٍ قَضَّاءَ ، مُحْكَمَةٍ ، مِنْ نَسْجِ سَلاَّمِ »

(١) أى غاضبون منه ، حاقدون عليه . و «معبد» و «عبد الله» علمان على شخص واحد.

أَرَادَ : « سُلَيْمَانَ » عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَهَذَا تَغْيِيرٌ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ ، لَا يُسْلَكُ بِهِ مَسْلَكَ غَيْرِهِ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : « عَالِيَةُ وعُلَيَّةُ » وَ « فَاطِمَةُ وَفُطَيْمَةُ » فِي الْقَصِيدَةِ الْوَاحِدَةِ ، يَعْنُونَ امْرَأَةً بِعَيْنِهَا .

ترخيم التصغير(١)

وَلَا مَجْرَى قَوْلِهِمْ : « أَبُو قَابُوس ، وأَبُو قُبَيْسٍ » لِلنُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ(٢) ، و « زَبَّارٌ وَالزُّبَيْرُ » يَعْنُونَ : « الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ » ، لِأَنَّ هَذَا تَرْخِيمُ التَّصْغِيرِ ، وَهُوَ قِيَاسٌ مُطَّرِدٌ ، قَالَ الْقُطَامِيُّ :

« أَمْسَتْ « عُلَيَّةُ » يَرْتَاحُ الْفُؤَادُ لَهَا وَلِلرَّوَاسِمِ — فِيمَا دُونَهَا — عَمَلُ »

وَقَالَ فِيهَا :

« أَلَمْحَةٌ — مِنْ سَنَا بَرْقٍ — رَأَى بَصَرِى
أَمْ وَجْهُ عَالِيَةَ اخْتَالَتْ بِهِ الْكِلَلُ ؟ »

وَقَالَ الْمُرَقِّشُ :

« أَفَاطِمَ لَوْ أَنَّ النِّسَاءَ بِبَلْدَةٍ ، وَأَنْتِ بِأُخْرَى ، لَاتَّبَعْتُكِ هَائِمَا(٣)

---

(١) عرض المعرى لهذا البحث مرة أخرى فى رسالة الأخرسين (ص٥٢٢) فليرجع إليها القارئ ليتابع هذا المبحث ، بأسلوب المعرى البارع (٢) قال النابغة الذبيانى فى معلقته المعروفة :

« نبئت أن أبا قابوس أوعدنى ولا قرار على زأر من الأسد »

(٣) قصة المرقش مع فاطمة بنت المنذر معروفة ذائعة ، وقد ذكرها الأغانى فى الجزء الخامس (ص ١٨٣ طبعة الساسى المغربى) فليرجع إليها من شاء ، وفى هذه القصيدة يقول المرقش ويتناهى فى الإبداع :

« صحا قلبه عنها ، على أن ذكرة – إذا خطرت – دارت به الأرض قائماً »

وَإِنِّى لَأَسْتَحْيِى فُطَيْمَةَ ، جَائِعًا   خَمِيصًا ، وَأَسْتَحْيِى فُطَيمةَ طَاعِمَا »

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ حَسَّانَ الشَّيْبَانِىُّ :

أَلَا — يَا أُمَّ عَمْرٍو — لَا تَلُومِى   إِذَا اجْتَمَعَ النَّــدَامَى وَالْمُدَامُ

أَفِى بَكْرَيْنِ ، نَالَهُمَا سَــوَافٌ   تَأَوَّهُ طَلَّتِى ، مَا إِنْ تَنَــامُ(١)

وَهَلْ أَحْيَا — هُدِيتِ — أَبَا قُبَيْسٍ   عَمُودُ الْمُلْكِ ، وَالنَّعَمُ الرُّكَامُ(٢)

بَنَى بِـ « الْغَمْرِ » أُكَيْدَ مُكْفَهِرًّا(٣)   تُغَرِّدُ — فِى جَوَانِبِهِ الْحَمَــامُ »

فَإِنَّمَا يُرِيدُ بِأَبِى قُبَيْسٍ : أَبَا قَابُوسَ .

وَزَعَمَتِ الرُّوَاةُ أَنَّهُ كَانَ لِصَفِيَّةَ ابْنَةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَلَدَانِ : « الزُّبَيْرُ » « وَالسَّائِبُ » ، وَكَانَ السَّائِبُ يَعُقُّهَا ، فَقَالَتْ فِيهِ :

يَشْتُمُنِى « السَّائِبُ » مِنْ خَلْفِ الْجُدُرْ   لَٰكِنْ « أَبُو الطَّاهِرِ » « زَبَّارٌ » أَبَرّ

مُبَــذِّرٌ لِمَالِهِ ، بَرٌّ ، غُفُرْ

فَالزُّبَيْرُ تَرْخِيمُ « الزَّبَّارِ » — فِى التَّصْغِيرِ — فَرَدَّتْهُ إِلَى أَصْلِهِ .

---

(١) يقول : أمن أجل فتيين من الجمال أصابهما الرَّدى ، تتوجع زوجتى ولا تنام حزناً عليهما   (٢) الرُّكَام : المتراكمة ، يقول : هل منعت هذه النعم — على كثرتها — عن النعمان بن المنذر منيته ؟ وفى هذا المعنى يقول المعرى :

« وما منعت — عن الملك — المنايا   مقانبــه ، ولا مُتَــكَتِّبُــوه »

ويقول آخر :

« ولئن بنيت لى المُشَقَّرَ — فى   عَنْقَـاء تقصر دونها العُصْمُ

لتنقــبن عنى المنيـــة إنَّ   الله ، ليس كحكمه حكم »

ويقول طرفة :

« فإن كنت لا تسطيع دفع منيتى   فدعنى أبادرها بما ملكت يدى »

(٣) قصرا منيعا

اسمـــاء الآباء

وَلاَ نَدْفعُ أَنَّ الشُّعَراء قَدْ سَمَّوُا الرَّجُلَ بِاسْمِ أَبِيهِ – عَلَى سَبِيلِ الضَّرُورَةِ – أَلَيْسَ قَالَ الرَّاجِزُ :

صَبَّحْنَ – مِنْ « كَاظِمَةَ » – الْحِصْنَ الْخَرِبْ
يَحْمِلْنَ « عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ »

وَقَالَ « أَوْسُ بْنُ حُجْرٍ » :

فَهَلْ لَكُمُ فِيهَا إِلَيَّ ، فَإِنَّنِي بَصِيرٌ بِمَا أَعْيَا النِّطَاسِيَّ : « حِذْيَمَا »

يُرِيدُ : « ابْنَ حِذْيَمٍ »

*
* *

وَقَالَ « ذُو الرُّمَّةِ[1] » ، وَذَكَرَ يَوْمَ « الْكُلاَبِ[2] » الثَّانِي :

« عَشِيَّةَ فَرَّ الْحَارِثِيَّانِ ، بَعْدَ مَا قَضَى نَحْبَهُ – فِي مُلْتَقَى الْخَيْلِ – هَوْبَرُ »

وَإِنَّمَا يُرِيدُ : « ابْنَ هَوْبَرٍ » ، يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ « عُمَرَ بْنِ لَجَإٍ » :

« وَنَحْنُ ضَرَبْنَا – بِالْكُلاَبِ – « ابْنَ هَوْبَرٍ »
وَجَمْعَ بَنِي الرَّيَّانِ حَتَّى تَبَدَّدَا . »

---

(١) الرُّمَّة : القطعة من الحبل ، و به كنى هذا الشاعر ، وتقول : أخذت الشيء برُمته أى جميعه ، وأصل هذا المثل : أن رجلا باع بعيراً وفى عنقه حبل ، فقيل : « أدفعه برُمته » ثم صار كالمثل فى كل ما يؤخذ ولا ينقص منه شيء . (٢) اسم مكان ، وقد صار علما على يوم من أيام الجاهلية حدثت وقائعه فيه .

التماسُ العـــذرِ

وَأَنَا أُتَسَامَحُ لَهُ – أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ – بِهَذِهِ ، وَأَعُدُّهَا زَيْناً لاَ شَيْناً ، إِذْ كَانَتْ قَذَاةً فِي بَحْرٍ مُزْبِدٍ ، بَلْ أَثَرَ سُجُودٍ فِي جَبْهَةِ مُتَعَبِّدٍ !

وَلَهُ أَنْ يَقُولَ :

« إِنَّهُ تَشَبَّثَ بِالْكُنْيَةِ ، فَاسْتَغْنَى بِهَا عَنِ الاِسْمِ . »

أَمَّا أَنَا ، فَحَفِظْتُ اسْمَهُ وَنَسَبَهُ وَكُنْيَتَهُ ، وَلَمْ أَنْسَ أَيَّامَهُ وَلا مُذَاكَرَتَه .

وَقَدْ جَعَلْتُ جَوَابَ كِتَابِهِ نَائِباً مَنَابَ الاِجْتِمَاعِ مَعَهُ ، فَلاَ يُنْكِرْ عَلَيَّ الإِسْهَابَ فِي الْمُحَاوَرَةِ ، وَالإِكْثَارَ مِنَ الْمُفَاوَضَةِ .

جَفوة البَصْرِيِّين

وَمَا عِبْتُ عَلَى أَهْلِ « الْبَصْرَةِ » قِلَّةَ الْتِفَاتِهِمْ إِلَى الأَوْطَانِ ، وَإِنَّمَا وَصَفْتُهُمْ بِقُوَّةِ الْقُلُوبِ وَالأَكْبَادِ ، لِأَنَّ الْعَرَبَ تَصِفُ نُفُوسَهَا بِذَلِكَ . أَلَيْسَ قَدْ بَلَغَهُ قَوْلُ « قَتَادَةَ بْنِ مسلمةَ الْحَنَفِيِّ » :

يُبْكَى عَلَيْنَا ، وَلاَ نَبْكِي عَلَى أَحَدٍ لَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَاداً مِنَ الإِبِلِ »

ضروراتُ النظمِ

وَقَدْ تَفَقَّدْتُ مَوْضِعاً آخَرَ فِي مَنْظُومِهِ – أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ – وَلَيْسَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الاِنْتِقَادِ ، بَلْ عَلَى مِنْهَاجِ الْمُذَاكَرَةِ الصَّادِرَةِ عَنْ حُسْنِ اعْتِقَادٍ .

قَدْ بَرَّأَ النَّظْمَ مِنَ الضَّرُورَاتِ الصَّدْرِيَّةِ وَالْعَجُزِيَّةِ وَالْحَشْوِيَّةِ ، وَلَمْ يَحْذِفِ التَّنْوِينَ ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

«كَفَانِي - مَا خَشِيتُ - «أَبُو فِرَاسٍ(١)»
وَمِثْلُ «أَبِي فِرَاسٍ» كَفَى ، وَزَادَا .»

وَلاَ حَذَفَ الْيَاءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ الْحَذْفِ ، كَمَا قَالَ الأَعْشَى :

«وَأَخُو الغَوَانِ(٢) - مَتَى يَشَأْ - يَصْرِمْنَهُ
وَيَصِرْنَ أَعْــدَاءً ، بُعَيْدَ وِدَادِ»

وَكَمَا قَالَ خِفَافُ :

«كَنَوَاحِ(٣) رِيشِ حَمَامَةٍ نَجْدِيَّةٍ وَمَسَحْتُ بِاللِّثَتَيْنِ عَصْفَ الإِثْمِدِ(٤)»

وَلاَ رَخَّمَ - فِي غَيْرِ النِّدَاءِ - كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

«أَوْدَى «ابْنُ جُلْهُمَ(٥)» : عَبَّادٌ» بِصِرْمَتِهِ(٦)
إِنَّ «ابْنَ جُلْهُمَ» أَمْسَى حَيَّةَ الْوَادِي(٧)»

وَقَالَ زُهَيْرٌ :

«خُذُوا حَقَّكُمْ - يَا آلَ عِكْرِمَ(٨) - وَاذْكُرُوا
أَوَاصِرَنَا ، وَالرَّحْمُ(٩) - بِالْغَيْبِ - تُذْكَرُ»

وَقَالَ الآخَرُ :

«إِنَّ «ابْنَ حَارِثَ» - إِنْ أَشْتَقْ لِرُؤْيَتِهِ ،
أَوْ أَمْتَدِحْهُ - فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ عَلِمُوا»

---

(١) لقب الفرزدق الشاعر (٢) حذف الشاعر ياء «الغواني» لضرورة الوزن
(٣) حذف الشاعر ياء «نواحي» - جمع ناحية - لضرورة الوزن (٤) الكحل .
(٥) أصله : «ابن جُلْهُمَة» وقد رخمه الشاعر في غير النداء ، وهو قبيح وقد ضبط أبو العلاء هذا الاسم بضم الجيم في أول كتابه : «عبث الوليد» (٦) الصِّرْمة : القطعة من الإبل نحو الثلاثين في بعض الأقوال (٧) حية الوادي : الداهية الخبيث (٨) أصله : «عكرمة» وقد رخمه الشاعر (٩) القرابة

وَلاَ حَذَفَ - مِنَ الاِسْمِ مَا يُخِلُّ بِهِ ، كَمَا قَالَ لَبِيدٌ :

« دَرَسَ المنَا ، بِمُتَالِعٍ ، فَأَبَانِ[1] »

يُرِيدُ : « الْمَنَــازِلَ »

وَكَمَا قَالَ « عَلْقَمَةُ » :

« كَأَنَّ إِبْرِيقَهُمْ ظَبْيٌ بِرَابِيَةٍ ، مُنَطَّقٌ قُضُبَ الرَّيْحَانِ مَفْغُومُ[2]

أَبْيَضُ، أَبْرَزَهُ- لِلضِّحِّ[3] - رَاقِبُهُ[4] مُقَلَّدٌ بِسَبَا الْـكَتَّانِ ، مَفْدُومُ[5] »

يُرِيدُ : « بِسَبَاسِبِ[6] الْـكَتَّانِ » .

وَكَمَا أَنْشَدَ « ابنُ الأَعْرَابِيِّ » :

أُنَاسٌ تَنَــالُ الْمَاءَ قَبْلَ شِفَاهِهِمْ

لَهُمْ وَارِدَاتُ الْغُرْضِ شُمُّ الْأَرَانِبِ[7] »

أَرَادَ : « الْغُرْضُوفَ »

وَلاَ عَوَّضَ مِنَ الصَّحِيحِ حَرْفاً مُعْتَلاًّ ، كَمَا قَالَ الرَّاجِزُ :

« وَمَنْهَلٍ لَيْسَتْ لَهُ حَوَازِقُ[8] وَلِضَفَادِي جَمِّهِ نَقَانِقُ[9] »

---

(١) متالع ، وأبان : جبلان (٢) مملوء (٣) للشمس (٤) حارسه

(٥) موضوع عليه الفِدام ، وهو مصفاة تجعل على فم الإبريق ليصفى به ما فيه

(٦) سباسب الكتان ، الستائر المصنوعة منه . (٧) الوارد : الطويل ، تقول : فلان وارد الأرنبة ، أى : طويل الأنف ، والغرضوف : مارن الأنف ، والأرانب (جمع أرنبة) : وهى طرف الأنف . يعنى أنهم طوال الغراضيف ، شم الأنوف (٨) الحازِقَةُ ، والحزاقة : الجماعة من الناس وغيرهم (٩) الجم : معظم الماء ، يقول : ولضفادع ماء هذا المنهل نقيق

وَكَمَا قَالَ ٱلآخَرُ :

« لهَا أَشَارِيرُ[١] مِنْ لَحْمٍ تُتَمِّرُهُ[٢] ... مِنَ ٱلثَّعَالِى وَوَخْزٌ[٣] مِنْ أَرَانِيهَا »

أَرَادَ : ٱلأَرَانِبَ ، وَٱلثَّعَالِبَ

وَلاَ سَكَّنَ ٱلْحَرَكَةَ فِى غَيْرِ مَوْضِعِ ٱلتَّسْكِينِ ، كَمَا قَالَ ٱلآخَرُ :

« إِذَا أَعْوَجَجْنَ قُلْتُ : صَاحِبْ قَوِّمْ ... - فِى ٱلدَّوِّ - أَمْثَالَ ٱلسَّفِينِ ٱلْعُوَّمْ[٤] »

وَكَمَا أَنْشَدَ سِيبَوَيْهِ لِٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ :

« فَالْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ ... إِثْماً مِنَ ٱللهِ وَلاَ وَاغِلِ[٥] »

وَلاَ بَنَى ٱلِاسْمَ غَيْرَ بِنْيَتِهِ ، أَعْنِى ٱلأَسْمَاءَ ٱلشَّائِعَةَ .

فَأَمَّا ٱسْمِى فَقَدْ سَبَقَ فِيهِ مَا سَبَقَ ، وَإِنَّمَا عَنَيْتُ مِثْلَ مَا قَالَ بَعْضُهُمْ :

« كَأَنَّ فَاهَا عَبْقُرٌ بَارِدٌ ... أَوْ رِيحُ رَوْضٍ مَسَّهُ تَرْشَاشُ رَكْ[٦] »

وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى قَوْلِ بَعْضِ ٱلنَّاسِ : « عَبْقَرٌ » عَلَى مِثَالِ : « جَعْفَرٍ » .

وَأَمَّا « عَبْقُرٌ » — عَلَى هَذِهِ ٱلْهَيْئَةِ — فَبِنَاءٌ مُسْتَنْكَرٌ ، لَمْ يَذْكُرْهُ « سِيبَوَيْهِ » فِى ٱلأَبْنِيَةِ .

---

(١) الأشارير (جمع إشرارة) والإشرارة — هنا — : القطعة من القديد (٢) تتمره : تقطعه إرباً إرباً (٣) الوخز : القليل من كل شىء (٤) يقول : إذا اعوججن قلت يا صاحبي قوّمها من المفازة ، كما تقوم السفائن العائمة فى الماء (٥) يقال : وغل فى الشىء : ذهب وأبعد ، ووغل على القوم فى شرابهم : دخل عليهم فشرب معهم من غير أن يدعى .

(٦) الرّك : المطر القليل .

كنية المعرى واسمه

فَمَنْ هجَرَ هَذِهِ الضَّرُورَاتِ وَغيرَهَا — مِمَّا لَوْ ذَكَرْتُهُ لطَالَ بِهِ الْكِتَابُ : كالتقْدِيم ، وَالتأْخِيرِ ، وَالْفرْقِ بَيْنَ الْمُضَافِ والْمُضَافِ إلَيْهِ..... فَكَيْفَ اسْتجَازَ أَنْ يَقصِرَ كُنْيَةَ صَدِيقِهِ ؟

أَمَّا السِّمَةُ فَغيَّرَهَا، وأَمَّا الْكُنْيَةُ فقَصَرَها(١)، فإِنَّا لِلهِ ، وإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ ! هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ ، لَيْسَ هُوَ مِنْ ضَعْفِ الشَّاعِرِ ، وَلا وَهَنِ الْقَائِلِ ، وَلَكِنَّهُ مِنْ سُوءِ الْحَظِّ لِمَنْ خُوطِبَ ، والاتِّفَاقِ الرَّدِىءِ لِمَنْ سُمِّىَ وَذُكِرَ .

عتاب المعرى

وَلا يَقُلْ سيِّدِى الشَّيْخُ ، أَدامَ اللهُ عِزَّهُ :

«قَدْ قصرَتِ الشُّعَرَاءُ — قَدِيمُها ومُوَلَّدُها ، وأَوَّلُها السَّالِفُ وآخِرُها ، وَفَصِيحُها الطَّبِيعِىُّ ومُتَكَلِّفُها .»

فإِنَّهُ ، لَوْ كَانَ اسْتعْمَلَ ضَرُورَةً غيْرَ تِلْكَ ، لقُبِلَتْ حُجَّتُهُ ، وَلَكِنَّهُ أَلْغى الضَّرُورَاتِ بأَسْرِهَا ، وَرَفَضَ الْعيُوبَ فلَمْ يَسْتعْمِلْهَا .

وَإِنَّمَا تَغوَّثْتُ(٢) مِنْ ذَلِكَ ، لأَنِّى قَصِيرُ الْهِمَّةِ ، قَصِيرُ الْيَدِ ، مَقْصُورُ النَّظَرِ (أَى مَكْفُوفٌ) مَقْصُورٌ(٣) فى الْبَيْتِ (أَى لَازِمٌ لَهُ) فَكَأَنِّى

(١) السمة : الاسم ، وقد غير اسم المعرى فأطلق عليه اسم محمد بدلاً من أحمد ، وقصر كنيته فقال : « أبو العلا » بدلاً من « أبى العلاء » (٢) طلبت الغوث (٣) قصره فى بيته : حبسه ، والمقصور : المحبوس فى البيت ، لا يخرج ، ومنه : « حور مقصورات فى الخيام » وكذلك القصيرة ، قال الشاعر :

وأنت التى حببت كل قصيرة ... إلىّ ، ولم تشعر بذاك القصائر
عنيت قصيرات الحجال ، ولم أرد ... قصار الخطا ، شر النساء البحاتر

مَحْبُوسٌ فيهِ ، فمَا كَفَانى ذَلِكَ معَ قِصَرِ الْجِسْمِ ، حَتَّى يُضَافَ إِلَيْهِ قِصَرُ الاِسْمِ . لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ !

لَوْ كُنْتُ أَطْوَلَ مِنْ ظِلِّ الرُّمْحِ ، لَصِرْتُ أَقْصَرَ مِنْ سَالِفَةِ الذُّبَابِ [١] ، قَدْ كِدْتُ أَمْصَحُ [٢] فى الأَرْضِ كَمَا تَمْصَحُ الظِّلَالُ ، مِثْلَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

«وَأُبْتُ ، إِلَى أَنْ يَنْبُتَ الظِّلُّ بَعْدَمَا ... تَقَاصَرَ ، حَتَّى كَادَ فى الأَرْضِ يَمْصَحُ [٣]»

لَوْ كُنْتُ أَطْوَلَ الأَسْمَاءِ ، وَهُوَ الْمَصْدَرُ الَّذِى فِعْلُهُ عَلَى سِتَّةِ أَحْرُفٍ ، مِثْلُ : اِحْرِنْجَامٍ وَاسْتِخْرَاجٍ — فَحُذِفَ مِنِّى — لِكُلِّ صِنْفٍ مِنْ هٰذَا الْقِصَرِ — حَرْفٌ ، لَمْ يَبْقَ مِنِّى شَىْءٌ !

فروضٌ عروضيةٌ

أَوْ كَانَ أَرْفَعَ مَنَازِلى أَنْ أَبْقَى عَلَى حَرْفَيْنِ : الأَوَّلُ مُتَحَرِّكٌ ، وَالثَّانى سَاكِنٌ — وَذٰلِكَ أَقْصَرُ الأَصْوَاتِ الَّتِى لَا يُمْكِنُ النُّطْقُ بِأَقَلَّ مِنْهُ — لَكُنْتُ أَصِيرُ سَبَبًا [٤] مُضْطَرِبًا ، فَيُدْرِكُنِى الْقَبْضُ وَالْكَفُّ وَالْقَصْرُ ، وَيَجْتَرِئُ عَلَىَّ الشُّعَرَاءُ ، فَأُحْذَفُ فى الْمَوْضِعِ الَّذِى يَتَأَتَّى فِيهِ حَقٌّ لى مُتَعَارَفٌ بَيْنَ النَّاسِ ، كَمَا قَالَ أَبُو دُوَادٍ :

«أَكُلَّ امْرِئٍ تَحْسَبِينَ امْرَأً ، ... وَنَارٍ تَحَرَّقُ — بِاللَّيْلِ — نَارَا»

---

(١) سالفة الذباب : صفحة عنقه ، وهى من الصغر بحيث لا تكاد ترى بالعين المجردة ، والذباب أيضاً : ذباب الرمح أى طرفه الذى يضرب به ، والرأى الأول هو الصحيح المعروف

(٢) فى القاموس : مَصَحَ الظِّلّ : قصر ، والأمصح . الظل الناقص الرقيق .

(٣) يمصح — هنا — يذهب (٤) يعنى سبباً من أسباب العروض

وَالفقْدُ الْمُسْتَأْصَلُ أَرْوَحُ مِنَ الْحَيَاةِ فِى هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ !

وَلَوْ كُنْتُ السُّبَاعِىَّ الَّذِى فِى الْكَامِلِ، ثُمَّ قُصِرْتُ هَذَا الْقَصْرَ لَكُنْتُ جَدِيراً أَنْ أَصِيرَ الْحَرْفَ الَّذِى يَكُونُ بِهِ الضَّرْبُ السَّابِعُ — مِنَ الْكَامِلِ — مُذَالاً [1].

وَلَوْ كُنْتُ سُبَاعِىَّ الرَّمَلِ ، ثُمَّ صُنِعَ بِى ذَلِكَ ، لَكَانَتِ الْبَقِيَّةُ مِنِّى تَسْبِيغاً [1] فِى الرَّابِعِ .

فَأَمَّا خُمَاسِىُّ الْبَسِيطِ ، فَلَوْ كُنْتُهُ — ثُمَّ صُنِعَ بِى مِثْلُ هَذَا — لَذَهَبْتُ الْبَتَّةَ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنِّى مَا يَكُونُ ذَيْلاً لِلثَّالِثِ . . . .

فروض صرفية

وَهَبْنِى اسْماً خُمَاسِيًّا . فَيُرَخَّمُ تَرْخِيماً أَوَّلاً ، ثُمَّ تَرْخِيماً ثَانِياً — عَلَى الْقِيَاسِ ، لَا عَلَى السَّمَاعِ — ثُمَّ ثَالِثاً — فِى رَأْىِ الْأَخْفَشِ وَالْفَرَّاءِ ، دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ — ثُمَّ يَجِبُ أَنْ يُكَفَّ بَعْدَ ذَلِكَ وَلَا يُحْذَفَ مِنْهُ شَىْءٌ فِى كُلِّ الْمَذَاهِبِ .

اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَتَأَوَّلَ فِى الْمَذْهَبِ الَّذِى حَكَاهُ «أَبُو عُبَيْدَةَ» عَنِ الْعَرَبِ ، مِنْ أَنَّ بَعْضَهُمْ يَقُولُ : «أَلَا تَا ؟ »

فَيَقُولُ الْآخَرُ : « بَلَى فَأَلَا ؟ »

يُرِيدُ : « أَلَا تَذْهَبُ ؟ » وَ : « بَلَى ، فَأَذْهَبُ . »

---

(١) المذال — من البسيط والكامل — ما زيد على آخر وتده المجموع حرف ساكن ، كأن ذلك الحرف بمنزلة الذيل من القميص ، وإن كان آخره سبباً قيل له : « التسبيغ » ويختص بفاعلاتن الواقع ضرباً لمجزوء الرمل

وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ قَوْلُ الرَّاجِزِ :

« قَدْ وَعَدَتْنِي « أُمُّ عَمْرٍو » أَنْ تَا تَدْهَنَ رَأْسِي ، وَتُفَلِّيَنِي وَا
وَتَمْسَحَ الْعَنْقَاءَ حَتَّى تَنْتَا[١]

حروف الجر وحروف المعانى

وَلَعَلَّ سَيِّدِي الشَّيْخَ — أَدَامَ اللّٰهُ عِزَّهُ — ظَنَّ أَنِّي مُكَنِّي بِعَلَى الَّتِي هِيَ حَرْفُ خَفْضٍ ، مِنْ قَوْلِكَ : « عَلَى زَيْدٍ مَالٌ »

وَلَوْ كُنْتُ كَذٰلِكَ لَوَجَبَ أَنْ يُقَالَ : « أَبُو عَلَى » بِغَيْرِ أَلِفٍ وَلَامٍ ، لِأَنَّ هٰذِهِ الْحُرُوفَ — إِذَا خَرَجَتْ مِنْ أَبْوَابِهَا — صَارَتْ مُتَعَرِّفَةً تَعْرِيفَ الْأَعْلَامِ ، مِثْلَ : « زَيْدٍ وَعَمْرٍو » ، وَهِيَ ضِدُّ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ ، لِأَنَّ تِلْكَ — فِي بَابِهَا — بِغَيْرِ أَلِفٍ وَلَامٍ ، فَإِذَا خَرَجَتْ لَحِقَتْهَا عَلَامَةُ التَّعْرِيفِ ، فَقِيلَ الْبَاءُ وَالتَّاءُ وَالثَّاءُ ، فَإِذَا عَدِمَتْ ذٰلِكَ ، فَهِيَ نَكِرَاتٌ .

وَعَلَى وَأَخَوَاتُهَا لَيْسَتْ كَذٰلِكَ ، وَمَا عَنَيْتُ حُرُوفَ الْخَفْضِ وَحْدَهَا ، بَلْ جَمِيعَ حُرُوفِ الْمَعَانِي ، أَلَيْسَ قَدْ رُوِيَ بَيْتُ أَبِي زُبَيْدٍ :

لَيْتَ شِعْرِي وَأَيْنَ مِنِّيَ لَيْتٌ إِنَّ لَوًّا وَإِنَّ لَيْتًا عَنَاءُ

وَقَالَ النَّابِغَةُ :

أَلَا يَا لَيْتَنِي — وَالْمَرْءُ — مَيْتُ وَمَا تُغْنِي مِنَ الْحَدْثَانِ لَيْتُ[٢]

---

(١) يعنى بالعنقاء : فرسه الطويلة العنق ، والمعنى : « وتمسح فرسى حتى تنتهى »

(٢) وقال الشاعر :

« ليت وهل ينفع شيئاً لَيْتُ ؟ ليتَ شبابا بوع فاشتريت »

وَقَالَ ٱلنَّمِرُ :

بَكَرَتْ فِى ٱلصُّبْحِ تَلْحَانَا فِى بَعِيرٍ ضَلَّ أَوْ حَانَا[1]
عَلِقَتْ « لَوًّا » تُكَرِّرُهُ إِنَّ « لَوًّا » ذَاكَ أَعْيَانَا !

وَلَعَلَّهُ – أَدَامَ ٱللهُ عِزَّهُ – يَتَأَوَّلُ أَنَّ ٱلْأَلِفَ وَٱللَّامَ دَخَلَتْ عَلَيْهَا كَمَا دَخَلَتْ عَلَى « ٱلْعَمْرِو » فِى قَوْلِ أَبِى ٱلنَّجْمِ :

« خَلَّصَ أُمَّ ٱلْعَمْرِو مِنْ أَسِيرِهَا »

وَكَمَا دَخَلَتْ عَلَى « ٱلْأَوْبَرِ » فِى قَوْلِ ٱلْقَائِلِ :

« وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُؤًا وَعَسَاقِلاً ، وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ بَنَاتِ ٱلْأَوْبَرِ[2] »

وَكَمَا قَالَ :

« وَجَدْنَا « ٱلْيَزِيدَ بْنَ ٱلْوَلِيدِ » مُبَارَكًا ، شَدِيدًا – بِأَحْنَاءِ[3] ٱلْخِلَافَةِ – كَاهِلُهْ »

وَإِنَّمَا ٱلْكَلَامُ :

« أُمُّ عَمْرٍو » وَ « يَزِيدُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ » و « ابْنُ أَوْبَرَ » لِضَرْبٍ مِنَ ٱلْكَمْأَةِ ، كَمَا أَنْشَدَ « أَبُو حَاتِمٍ » عَنِ « ٱلْأَصْمَعِىِّ » :

بوع يعنى : بيع ، وقال ابن الرومى :

يا ليت شعرى ، وليت غير مجدية إلا استراحة قلب وهو أسوان
لأى أمرٍ – مُرادٍ بالفتى – جمعت تلك الفنون ، فضمتهن أفنان
تجاورت فى غصون ، لسن من شجر لكن غصون لها وصل وهجران
تلك الغصون اللواتى فى أكِمَّتها نعم و بؤس ، وأفراح وأحزان »

(١) حان : هلك (٢) الأكمؤ (جمع كَمْء) ، والعساقل (جمع عسقول) و بنات أو بر ، كلها أنواع لنبات واحد ، فالأكمؤ : لونها أغبر ، والعساقل : لونها أبيض ، و بنات أو بر هى صغارها على لون التراب (٣) و يروى : بأعباء

وَمِنْ جَنَى الْأَرْضِ: مَا تَأْتِى الرِّعَاءُ بِهِ　　مِنِ ابْنِ أَوْبَرَ، وَالْمَغْرُودِ، وَالْفِقَعَهْ[١] »

وَلَـٰكِنَّ هَـٰذِهِ مَوَاضِعُ ضَرُورَاتٍ .

وَزَعَمُوا أَنَّ الشَّاعِرَ قَالَ : « الْيَزِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ مُبَارَكًا » ، فَاجْتَرَأَ عَلَى مَجِىءِ الْأَلِفِ وَاللَّامِ فِى : « يَزِيدَ » لَمَّا جَاءَتَا فِى « الْوَلِيدِ » ، فَكَانَ الْمَعْرُوفُ ثَبَاتَهُمَا فِيهِ .

فرض جديد

وَإِنْ كَانَ — أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ — تَأَوَّلَ : أَنِّى مُكْنِىٌّ بِـ « عَلَا » ، الَّذِى هُوَ فِعْلٌ مَاضٍ ، فَهُوَ — فِى التَّعْرِيَةِ مِنَ التَّعْرِيفِ بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ — مِثْلُ الْأَوَّلِ .

أَلَيْسَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ الْقُلَاخِ :

« أَنَا الْقُلَاخُ بْنُ الْقُلَاخِ بْنُ جَلَا :　　أَبُو خَنَاثِيرَ ، أَقُودُ جَمَلَا[٢] » .

---

(٤) الرعاء (جمع راع) ، وابن أوبر ، والمغرود ، والفقعة ، كلها ضروب من الكمأة ، وقد أشار «ابن مالك» فى ألفيته الخالدة إلى دخول الألف واللام اضطراراً على لفظ «أوبر» فقال :

وقد تزاد لازماً ، كاللات　　والآن والذين ، ثم اللات

ولاضطرار : كبنات الأوبر　　كذا ، وطبت النفس يا قيسُ السَّرى »

وهو يعنى باللات الأولى اسم صنم كان يعبد بمكة .

وقد أشار المعرى إلى كلمة أوبر — فى لزومياته — إشارة ظريفة فقال :

« زعم الفلاسفة الذين تنطسوا :　　أن المنية ، كسرُها لا يجبر

قالوا : « وآدم مثل أوبر ، والورى　　كبناته ، جهل امرؤ ما أوبر ! »

كل الذى تحكون عن مولاكم　　كذب أتاكم عن يهُودَ يحبر

رامت به الأحبار كسب معيشة　　فبغوه ، والعمل القبيح يتبر »

(١) الخناثير : الدواهى

وقال « سُحَيْمُ بْنُ وَثِيلٍ الرِّيَاحِيُّ » :

أَنَا ابْنُ جَلاَ وَطَلاَّعُ الثَّنَايَا[١] مَتَى أَضَعِ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِى

وَلَيْسَ فِى قَوْلِ الْفَرَزْدَقِ حُجَّـةٌ لِدُخُولِ الْأَلِفِ وَاللَّامِ عَلَى الْأَفْعَالِ حَيْثُ قَالَ :

مَا أَنْتَ بِالْحَـكَمِ التُّرْضَى حُكُومَتُهُ وَلاَ الْأَصِيلِ وَلاَ ذِى الرَّأْىِ وَالْجَدَلِ

وَلاَ فِى قَوْلِ « طَارِقِ بْنِ دَيْسَق » :

وَيَسْتَخْرِجُ الْيَرْبُوعُ مِنْ نَافِقَائِهِ[٢] وَمِنْ بَيْتِهِ ذِى الشَّيْخَةِ[٣] الْيَتَقَصَّعُ[٤]

لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ لاَ يَرَى هٰذِهِ الرِّوَايَةَ شَيْئاً ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهَا صَحِيحَةٌ ، فَإِنَّمَا يَحْمِلُهَا عَلَى الضَّرُورَةِ .

اللَّهُمَّ إِلاَّ أَنْ يَزْعُمَ — أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ — أَنَّ هٰذَا جَارٍ مَجْرَى قَوْلِ النَّحْوِيِّينَ فِى الدُّئِلِ[٥] إِذَا كَانَ عَلَى مِثَالِ فُعِلٍ ، لِأَنَّ « سِيبَوَيْهِ » لَمْ يَذْكُرْ هٰذَا الْمِثَالَ فِى الْأَمْثِلَةِ الثُّلاَثِيَّةِ ، وَهُوَ اسْمٌ مَشْهُورٌ . فَزَعَمَ الْمُحْتَجُّونَ فِى ذٰلِكَ : أَنَّ قَوْلَهُمْ بِهٰذِهِ الدُّوَيْبَّةِ : « الدُّئِلُ » كَانَ — فِى الْأَصْلِ — فِعْلاً ، كَأَنَّهُ دُئِلَ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : « دَأَلَ الْمَاشِى دَأَلاَناً[٦] ، وَهٰذَا مَكَانٌ مَدْؤُولٌ فِيهِ . » ثُمَّ سُمِّىَ بِهِ وَهُوَ فِعْلٌ ، وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ الْأَلِفُ وَاللَّامُ لَمَّا وُضِعَ اسْماً لِلْجِنْسِ .

---

(١) الجبال والعقبات (٢) باب جحره (٣) رملة بيضاء ببلاد أسد (٤) اليتقصع أى الذى يتخذه له قاصعاء ، ومعنى القاصعاء : المدخل وهـذا البيت يروى لذى الخِرَقِ الطُّهَوِىّ ، ويروى : ومن جحره بالشيخة .... (٥) دويبة تشبه ابن عرس

(٦) الدألان : المشى فيه ضعف

وَهٰذَا يُشْبِهُ قَوْلَهُمْ لِخَرَزَةٍ مِنْ خَرَزِ ٱلنِّسَاءِ : « ٱلْيَنْجَلِبُ » كَأَنَّهَا سُمِّيَتْ بِقَوْلِهِمْ : « يَنْجَلِبُ » وَهُوَ يَنفعِلُ مِنْ جَلَبْتُ ، كَأَنَّهَا تَجْلِبُ بِهَا زَوْجَهَا إِلَى مَا تُرِيدُ .

قَالَتِ ٱمْرَأَةٌ مِنَ ٱلْعَرَبِ :

« أَخَـذْتُهُ بِالْيَنْجَلِبْ فَلَمْ يَرِمْ(١) ، وَلَمْ يَغِبْ
وَلَمْ يَزَلْ عِنْدَ الطُّنُبْ »

وَهَذَا قَلِيلٌ مِنْ كَلَامِهِمْ .

بين عمر وابن عباس

وَأَنَا أُجِيبُ سَيِّدِي الشَّيْخَ إِلَى هَذَا التَّأْوِيلِ ، وَلَا أَتْرُكُ — لِلْعَتْبِ — سُلَّمًا إِلَى تَفَضُّلِهِ ، وَلَا لِلتَّقَوُّلِ سَبِيلًا عَلَى مِنَّتِهِ ، وَكَيْفَ ؟ وَقَدْ غَلَا فِي وَصْفِي ، وَأَعْطَانِي مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ مَوْضِعِي .

أَلَيْسَ قَدْ بَلَغَهُ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ عَنْ « عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ » رَحِمَهُ اللهُ — أَنَّهُ خَرَجَ لَيْلَةً يَمْشِي ، وَيَدُهُ عَلَى كَتِفِ « ابْنِ عَبَّاسٍ » فَقَالَ :

أَنْشِدْنِي لِأَشْعَرِ شُعَرَائِكُمْ »

فَقَالَ لَهُ « ابْنُ عَبَّاسٍ » : « وَمَنْ هُوَ ؟ »

قَالَ : « الَّذِي لَا يُعَاظِلُ(٢) بَيْنَ الْبَيْتَيْنِ ، وَلَا يَتَّبِعُ حُوشِيَّ الْكَلَامِ ، وَلَا يَمْدَحُ الرَّجُلَ إِلَّا بِمَا فِيهِ . »

يَعْنِي : « زُهَيْرَ بْنَ أَبِي سُلْمَى . »

---

(١) لم يغادر مكانه (٢) عاظل — في القافية — ضَمَّنَ

إسرافُ الشعراء

فَسَيِّدِي الشَّيْخُ قَدْ أَخَذَ بِخَلَّتَيْنِ مِنْ هَذِهِ الثَّلاثِ : لَمْ يُعَاظِلْ بَيْنَ الْبَيْتَيْنِ، وَلاَ اتَّبَعَ حُوشِيَّ الْكَلامِ ؛ وَقَدْ مَدَحَنِي بِمَا لَيْسَ فِيَّ.

وَلَكِنَّهُ — فِي ذَلِكَ — عَلَى مَذْهَبِ الْخُطَبَاءِ وَالشُّعَرَاءِ !

وَزَعَمَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ — فِي كِتَابِهِ الثَّانِي مِنَ الْكُتُبِ الْأَرْبَعَةِ — أَنَّ الْكَذِبَ لَيْسَ بِقَبِيحٍ فِي صِنَاعَةِ الشِّعْرِ وَالْخَطَابَةِ ، وَلِذَلِكَ اسْتَجَازَتِ الْعَرَبُ أَنْ تَقُولَ فَتُفْرِطَ ، وَتُسْرِفَ — فِي الشَّيْءِ — فَتُغْرِقَ ، قَالَ الشَّاعِرُ فِي وَصْفِ السَّيْفِ :

« تَرَى ضَرَبَاتِهِ — أَبَدًا — خَطَايَا[1] إِلَى أَنْ يَسْتَبِينَ لَهُ قَتِيلُ »

وَقَالَ النَّمِرُ بْنُ تَوْلَبٍ :

أَبْقَى الْحَوَادِثُ مَا أَبْقَيْنَ مِنْ نَمِرٍ أَسْبَابَ سَيْفٍ قَدِيمٍ إِثْرُهُ بَادِ
تَظَلُّ تَحْفِرُ عَنْهُ إِنْ ضَرَبْتَ بِهِ بَعْدَ الذِّرَاعَيْنِ وَاللِّيتَيْنِ[2] وَالْهَادِي

وَفِي كِتَابِهِ — أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ — شَكْوَى رَعْشَةٍ، وَمَا أَعْرِفُ سَبَبًا يُؤَدِّي إِلَى ذَلِكَ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ الْإِفْرَاطُ فِي دَرْسِ الْعِلْمِ ، فَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ :

أَرْعَشَتْنِي الْخَمْرُ مِنْ إِدْمَانِهَا وَلَقَدْ أُرْعِشْتُ مِنْ غَيْرِ كِبَرْ

---

(١) خطايا : مخطئة غير مصيبة (٢) الليتان : صفحتا العنق ، والهادى : العنق ، وجمعه هوادى ، قال المعرى يخاطب ناقته :

« ولا يهولنك سيف للصباح بدا فإنه — للهوادى — غير قطاع »

وقال فى داليته الخالدة :

« وعزيز علىّ خلط الليالى رمّ أقدامكم برمّ الهوادى »

وَهُوَ – إِنْ شَاءَ اللهُ – يَعِيشُ أَكْلَأَ الْأَعْمَارِ ، مِنْ غَيْرِ تَمَارٍ[١] . لَا يَفْتُرُ لَهُ فِي الْأَدَبِ نِيَّةٌ ، وَلَا تُنْقَضُ مِنْهُ ثَنِيَّةٌ[٢] . بَلْ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مِثْلَ « أَبِي لَيْلَى : نَابِغَةِ بَنِي جَعْدَةَ[٣] » ، فَإِنَّهُ الَّذِي يَقُولُ :

« فَمَنْ يَكُ سَائِلاً عَنِّي فَإِنِّي ... مِنَ الْفِتْيَانِ فِي زَمَنِ الْخِتَانِ
مَضَتْ مِئَةٌ لِعَامٍ وُلِدْتُ فِيهِ ... وَعَشْرٌ بَعْدَ ذَلِكَ وَاثْنَتَانِ
وَقَدْ أَبْقَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنِّي ... كَمَا أَبْقَتْ مِنَ السَّيْفِ الْيَمَانِي »

فضل الغربة

وَسَمِعْتُهُ ذَمَّ الْغُرْبَةَ فِي كِتَابِهِ – أَوْ عَرَّضَ بِذَمِّهَا – وَلِمَ فَعَلَ ذَاكَ ، أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ ؟ أَلَا يَرْضَى الرَّجُلُ أَنْ يَسْتَنَّ بِسُنَّةِ « مُوسَى » – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ – كَمَا قِيلَ فِيهِ : « وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ، قَالَ : عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ . »

أَنَسِيَ دُخُولَهُ إِلَى الْمَسَاجِدِ فِي أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ ، وَإِفْضَاءَهُ إِلَى الْمَدَائِنِ[٤] مِنْ بَعْدِ الْفَلَوَاتِ ؟ أَمَا يَذْكُرُ ، وَقَدْ مَرَّ بِهِ – فِي كِتَابِ الْمَجَازِ لِأَبِي عُبَيْدَةَ – قَوْلُ الرَّاجِزِ :

« يَا حَبَّذَا الْقَمْرَاءُ[٥] وَاللَّيْلُ السَّاجْ[٦] ... وَطُرُقٌ مِثْلُ مُلَاءِ النَّسَّاجْ[٧] »

---

(١) بلا امتراء (٢) سنّ من أسنانه (٣) مرت ترجمته فى (ج ٢ ص ٣٨)
(٤) و بلوغه المدائن (٥) القمراء : الليلة القمراء (٦) الساكن ، قال تعالى : « والليل إذا سجا » (٧) الملاء : جمع ملاءة ؛ أى مثل الملاء التى ينسجها الناسج

فَطَرِبَ لِهٰذَا الْبَيْتِ، حَتَّى شَوَّقَ الْحَاضِرِينَ إِلَى رُكُوبِ السَّفَرِ، وَالتَّعْرِيسِ عَلَى الْعَفَرِ[١].

وَالْغُرْبَةُ، بِهَا تُحَلُّ الْأُرْبَةُ، وَطَالَمَا أَضْحَى الْغَرِيبُ، وَهُوَ — مِنْ إِدْرَاكِ الْغَرَضِ — قَرِيبُ.

وَكَيْفَ بِهِ إِذَا أَضَافَ — إِلَى بُلُوغِهِ مَحَابَّهُ — مُشَاهَدَةَ أَهْلِ الْأَدَبِ فِي الْأَمْصَارِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَمُنَاظَرَتَهُ الْمُتَحَقِّقِينَ بِالْعِلْمِ فِي الْمَسَائِلِ الْمُؤْتَنِفَةِ؟.

على ظهـــر ناقة

وَكَيْفَ بِهِ إِذَا سَامَرَ الْفَرْقَدَ، وَبَاتَ بِلَيْلَةِ ابْنِ أَنْقَدَ[٢]؟.

أَلَا يَشْتَاقُ إِلَى تَحَامُلِ اللَّهِيدِ[٣]، وَحَادٍ يَهْتِفُ بِهِيدِ[٤]؛ وَرَاءَ قَلَائِصَ[٥] كَقَلَائِصِ النَّجْمِ، لَا تَسْأَمُ عُيُونُهَا مِنَ السَّجْمِ؛ أَخْفَافُهَا — بِالدَّمِ — رَاعِفَةٌ، وَنَسَاؤُهَا[٦] — بِالدَّمِيلِ — مُسَاعِفَةٌ . . .

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، كَانَ رَحْلُهُ عَلَى حَرْفٍ ضَامِرٍ[٧]، لَا تَعْهَدُ — سِوَى الْحُدَاةِ — مِنْ سَامِرٍ، تَسْتَنُّ — فِي السَّرَابِ — كَالنُّونِ[٨]، وَتَنْظُرُ بِعَيْنِ مَجْنُونٍ، مَا دَرَّتْ — قَطُّ — عَلَى فَصِيلٍ، وَلَا أَبَسَّ الْعَبْدَانِ بِهَا — لِلْحَلْبِ — فِي السَّحَرِ وَلَا الْأَصِيلِ . . . .

---

(١) أى النزول على الأرض للاستراحة من عناء السير (٢) أى بات بليلة القنفذ — ساهراً لا ينام، والعرب تزعم أن القنفذ لا ينام الليل كله (٣) المتعب (٤) كلمة يهتف بها الحداة لزجر الإبل (٥) القلائص النوق الفتية (٦) عروق من الورك إلى الكعب (٧) ناقة (٨) تسير فى السراب كأنها الحوت، قال ابن دريد يصف النوق فى مقصورته:

« يرسبن فى بحر الدجى، وبالضحى يطفون — فى الآل — إذا الآل طفا »

على ظهـــر جواد

أَوْ يَكُونُ عَلَى طِرْفٍ أَعْوَجِيٍّ[١]، مَا هُوَ — لِعِثَارٍ — بِالنَّجِيِّ[٢]، كَأَنَّ جِسْمَهُ مِنْ عَسْجَدٍ، وَحَوَافِرَهُ مِنَ الزَّبَرْجَدِ؛ تَحْسَبُ غُرَّتَهُ كَوْكَبَ لَيْلٍ، وجِرَاءَهُ[٣] أَتِيَّ السَّيْلِ، لا يُفْقِرُ مَنْ رَكِبَ إِلَى: «هَابٍ وَهَبٍ[٤]»، بَلْ يَحْتَدِمُ بِشَدٍّ مُلْهَبٍ.

يُسَامِي الْمُلْجِمَ بِعُنُقٍ جِذْعِيٍّ[٥]، وَيُبَارِي الشَّمَالَ[٦] بِحَسَبٍ غَيْرِ دَعِيٍّ، فَكُلَّمَا عَرَضَ رَبْرَبٌ[٧] أو إِجْلٌ، فَلَهُ — مِنْ ذَاكَ الْفَرَسِ — حِجْلٌ[٨]. فَهُوَ زَادٌ لِلرَّكْبِ غَرِيضٌ[٩]، قُوتُهُمْ عَلَيْهِ — فِي الْبَيْدَاءِ — قَرِيضٌ. وَهُوَ لِعِلْجِ الْعَانَةِ عَدُوٌّ، يَرُوعُهُ بِهِ الْغُدُوُّ. كَأَنَّهُ أَجْدَلُ[١٠] هَوَى مِنْ نِيقٍ[١١]، أَوْ يَنْظُرُ بِعَيْنَيْ سَوْذَنِيقٍ[١٢]. يَتْرُكُ النَّعَامَةَ يَتِيمَةَ الرَّالِ[١٣]، وَيَتَكَبَّرُ عَنْ نِقَالِ الْأَجْرَالِ. وَتَلْمَحُ فَارِسَهُ عُيُونُ الْأَعْدَاءِ، كَالنَّجْمِ بِالْأُفُقِ بَدَا لِاهْتِدَاءِ. لا تُشْرَعُ إِلَيْهِ أَسِنَّةُ الرِّمَاحِ، وَلَا يُدْرِكُ بِسِوَى الطَّرْفِ اللَّمَّاحِ[١٤].

---

(١) جواد ندب كريم (٢) سريع، أى أنه لا يسرع إلى العثار (٣) ركضه

(٤) كلمتان لزجر الخيل (٥) طويل كجذع الشجرة (٦) ريح الشمال (٧) قطيع من المها، أى: بقر الوحش، قال ابن الرومى:

و إذا قامت إلى ملعبهـــا　　كمهاة الرمـــل فى ربربها

سألت أردافها أعطافها　:　هل رأت أوطأ من مركبها ؟ »

(٨) قيد (٩) غريض: طرى، وقد مر بالقارئ قول المعرى فى قصيدته التى حفزت داعى الدعاة إلى مراسلته: « ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح » (١٠) صقر

(١١) النِّيق: أعلى الجبل. قال يزيد بن الحكم الكلابى:

« وكم موقف - لولاى - طحت، كما هوى　　بأجرامه من قـــلة النيق منهوى »

(١٢) شاهين (١٣) الرأل: ولد النعامة (١٤) البصر الحديد يرى إلى أبعد مدى.

على ظـــهر بغل

فإنْ عَداهُ ذٰلِكَ ، فَجِهازُهُ عَلَى مُذَرَّعٍ شَحَّاجٍ [١] ، بِمِثْلِهِ يُبلغ قَضاءُ الْحاجِ . قُوبِلَ بَيْنَ الْعَيْرِ [٢] وَالْفَرَسِ ، وَأُغِيرَ خَلْقُهُ إِغارَةَ الْمَرَسِ [٣] . بِنَظِيرِهِ تُطْوَى الْأَرْضُ النَّطِيَّةُ ، وَتُرامُ الطِّيَّةُ [٤] .

شاهِدُهُ عَلَى ذٰلِكَ قَوْلُ ابْنِ الرُّقَيَّاتِ :

« خَلَّفُوا أَرْسُنَ الْجِيادِ وَسارُوا   قارِنِيها بِشاحِجاتِ الْبِغالِ » . . .

على ظهر حمار

وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَقْتَنِعَ مَنْ لَهُ صِيتٌ فِي السَّماءِ ، بِأَنْ يَرْكَبَ قَصِيرَ الْأَظْماءِ [٥] . وَكَمْ خَيْرٍ ، وُصِلَ إِلَيْهِ بِالْعَيْرِ ؛ وَكَمْ راكِبِ حِمارٍ ، أَفْضَلُ مِنْ راكِبِ جَوادٍ غَيْرِ ائْتِمارٍ [٦] .

قالَ اللّٰهُ جَلَّ اسْمُهُ : « وَانْظُرْ إِلَى حِمارِكَ ، وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ » .

المطيـة الأطلحية [٧]

وَلا بَأْسَ أَنْ يَسْلُبَ اللّٰهُ الرَّجُلَ حُلَّةَ الْأَغْنِياءِ ، فَيَلْبَسَ — بِتَفَضُّلِ اللّٰهِ —

---

(١) يقول : فان عز عليه أن يظفر بذلك الطرف الأصيل فى ترحاله ، فليسافر على بغل شحَّاج ، والشحيج صوت البغل ، و يقال للبغل : «ابن شحَّاج» (٢) الحمار (٣) أى أنه غير رهل الجسم ، وأن خلقه محكم . يقال : أغار الحبل ، إذا شد فتله (٤) يقول : بمثل هذا البغل القوى يطوى من الأرض بعيدها ، وتحقق لراكبه أمنيته

(٥) الأظماء (جمع ظِمْء) والظِّمْء : ما بين الشربتين ، قالوا : والحمار سريع العطش ، فهو - لذلك - قصير الأظماء (٦) يعنى جوادا عاصياً لا يأتمر بأمر راكبه (٧) يعنى العصا ، سميت لذلك لأنها من شجر الطلح ، وهو يعنى بذلك ركوب رجليه ، أى السير راجلا

حُلَلَ ٱلْأَنْبِيَاءِ . فَيَسْتَعِينَ عَلَى ٱلسَّفَرِ بِمَطِيَّةٍ أَطْلَحِيَّةٍ ، لَيْسَتْ بِٱلْمَلُومَةِ وَلَا بِٱلْمَلْحِيَّةِ . إِذَا حَلَّ فِي ٱلْمَنْزِلِ أَغْنَتْهُ عَنِ ٱلْمَلَإِ[١] ، بِغِنَائِهَا عَنْ مَاءٍ وَكَلَإٍ . وَهِيَ فِي ٱلتَّلَفِ ، قَرِيبَةُ ٱلْخَلَفِ[٢] . حَبَّذَا تِلْكَ مَطِيَّةً[٣] !

قَالَ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ :

« وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى؟ قَالَ : هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي[٤] . وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى » .

وَإِنَّمَا حَمِدْتُ ٱلْغُرْبَةَ ، وَذَكَرْتُ — بَعْدَ ذَلِكَ — مَشَقَّةَ ٱلسَّفَرِ ، لِأَنَّ ٱلْمَكَارِمَ قُرِنَتْ بِٱلْجَهْدِ ، وَٱلْخُطْبَانَ[٥] جُعِلَ سُلَّمًا إِلَى ٱلشُّهْدِ ، وَقَدْ قَالَ ٱلْأَوَّلُ :

«لَا تَحْسَبِ ٱلْمَجْدَ تَمْرًا — أَنْتَ آكِلُهُ — لَنْ تُدْرِكَ ٱلْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ ٱلصَّبِرَا[٦] »

خاتمة الرّسالة

قَدْ أَطَلْتُ — أَطَالَ ٱللهُ بَقَاءَ سَيِّدِي ٱلشَّيْخِ — وَمَنْ أَطَالَ ، خَالَفَ ٱلْأَبْطَالَ ، وَهَذَا أَوَانُ : « أَخْتَصِرُ ، وَأَقْتَصِرُ »

---

(١) الناس (٢) يسهل إحضار بديلها إذا تلفت

(٣) قال أبو العلاء فى مدح العصا :

والعصا للضرير خير من القا ئد فيه الفجور والعصيان

وسيمر بك حديث عن العصا فى رسالة الأخرسين (ص ٥٢٠)

(٤) من أبرع ما قرأناه فى وصف العصا ، قول ابن حمديس :

« كأنها — وهى فى كفى — أهش بها على الثمانين عاما ، لا على غنمى »

(٥) الحنظل (٦) أكثر الشعراء من صوغ هذا المعنى فى صور شتى، نذكر منه قول المعرى:

« ألم تر أن المجد تلقاك — دونه — شدائد ، من أمثالها وجب الرعب ؟ »

إِنَّمَا أَجَبْتُهُ بِنَثِيرٍ دُونَ نَظِيمٍ ، لِأَنِّى مُنْذُ سَنَوَاتٍ ، قَدْ أَعْرَضْتُ عَنْ تِلْكَ الْهَنَوَاتِ .

أبو حمـــزة

وَأَمَّا صَدِيقُنَا « أَبُو حَمْزَةَ[1] » رَحِمَهُ اللهُ ، فَقَدْ نَقَلَهُ اللهُ — جَلَّ اسْمُهُ — مِنْ دَارِ الشَّقَاءِ ، إِلَى دَارِ النَّعِيمِ وَالْبَقَاءِ ، وَقَدْ رَوَّضَ جَدَثَهُ[2] عَاماً بَعْدَ عَامٍ ، وَصَارَ جَسَدُهُ — لِلْأَرْضِ الْمُلْتَهِمَةِ — مِثْلَ الطَّعَامِ .

تحيـــةُ الختام

وَأَنَا وَالْجَمَاعَةُ نَبْعَثُ إِلَى سَيِّدِى الشَّيْخِ — مَعَ رَاكِبِ الطَّرِيقِ ، وَنَسِيمِ الرِّيحِ الْخَرِيقِ[3] ، وَالْعَقِيقِ الْمُومِضِ[4] ، وَالْخَيَالِ الْمُتَعَرِّضِ — سَلَاماً تَأْرَجُ رِحَالُ الرُّفْقَةِ إِذَا اسْتَوْدَعَتْهُ ، وَتَبْتَهِجُ قُلُوبُ النَّفَرِ إِنِ الْآذَانُ مِنْهُمْ سَمِعَتْهُ !

وَحَسْبِيَ اللهُ وَحْدَهُ .

---

(١) يعنى أبا حمزة التنوخى الذى رثاه المعرى بقصيدته السائرة التى مطلعها :

غير مجد فى ملتى واعتقادى   نوح باك ولا ترنم شادى

(٢) جعل قبره كالروض   (٣) الدائمة الهبوب   (٤) البرق اللامع

رِسَالَةُ الأخْرَسَيْن

توصيـــة

أُنْهِي إلى حَضْرَةِ أُسْتَاذِي ، أَنَّ أَوْلِياءَهُ : « بَنِي عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدِ ابْنِ سلامَةَ » ، قَدْ كَثُرَ لَهُ دَاعِيهِمْ، وَوَعَى الثَّنَاءَ – بِكَرَمِهِ – وَاعِيهِمْ ، وَهُمْ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ ، وَالصَّدَقَةُ – لِبَعْضِهِمْ – أَثِيرَةٌ .

خرس الخلخالين

وَفِيهِمْ رَجُلَانِ ، ما اغْتَابَا – قَطُّ – وَلَا يَغْتَابَانِ ، وَلَا كَذَبَا وَلَا يَكْذِبَانِ ، ما نَطَقَا بِكَلِمَةٍ ذَمِيمَةٍ ، وَلَا فَاهَا – مَعَ الْبَشَرِ – بِالنَّمِيمَةِ .

يُوصَفَانِ صِفَةَ الْخَلْخَالَيْنِ ، وَقَدْ نَظَرَا – مِنَ النَّصَفَةِ – إِلَى خَالَيْنِ (٢) ، وَإِذَا نُعِتَتِ الْكَرِيمَةُ رَبَّةُ الْحَرَسِ ، قِيلَ : « خَلْخَالُهَا مُبِينُ الْخَرَسِ » .

---

(١) تركنا شرح هذه الرسالة المُبدعة للمعرى ، وتحاشينا ــ جهدنا ــ أن نفصل بينه و بين القارئ بشيء من شروحنا ، على أننا ذيلنا ما عن لنا من الملاحظات القليلة بكلمة : « الشارح » لنميز بين الشرحين (٢) النصفة : الإنصاف والعدل ، والخال : البرق ، والسحاب لا يخلف مطره ، والرعاية ، وما توسمت من خير . قال الحريرى : « أنجز حر ما وعد ، وسح خال إذ رعد . » « الشارح »

قَالَ الشَّاعِرُ :

« وَبِالرَّمْلِ ـ مِنْ أَنْقَاءِ « يَبْرِينَ » ـ رَبْرَبٌ ،

بَعِيدٌ ـ مِنَ الرَّامِينَ ـ خُرْسٌ خَلَاخِلُهْ »

خرس الحجلين

وَهَذَانِ يُشْبِهَانِ حِجْلَيِ الْمَرْأَةِ الَّتِي نَسَبَ بِهَا « زِيَادٌ » ، فَقَالَ وَلَهُ — عَنِ الْقَوْلِ — ذِيَادٌ[1] :

« عَلَى أَنَّ حِجْلَيْهَا ـ وَإِنْ قُلْتُ : أُوسِعَا ـ

صَمُوتَانِ ، مِنْ مَلْءٍ ، وَقِلَّةِ مَنْطِقِ »

خرس الدار

وَكِلَاهُمَا — عَلَى الْفَطَنِ[2] وَالْكَيْسِ — كَالدَّارِ ذَكَرَهَا « امْرُؤُ الْقَيْسِ » ، فَقَالَ :

«أَلَمْ تَرَ أَمِّ الدَّارَ الْكَثِيبَ بِعَسْعَسَا[3] كَأَنِّي أُنَادِي ـ أَوْ أُكَلِّمُ ـ أَخْرَسَا »

الصحيح الأخرس

وَمِنْ غَيْرِ تَخَرُّصٍ وَلَا مَيْنٍ ، يُذَكِّرَانِ كَذِكْرِ الْقَلَمَيْنِ ، لِأَنَّ الْقَلَمَ يُقَالُ لَهُ : «الصَّحِيحُ الْأَخْرَسُ[4] » ، وَمِنْ أَبْيَاتِ الْمَعَانِي :

«هَلْ تَذْكُرَانِ : إِذِ الْمَوَدَّةُ ـ بَيْنَنَا ـ سِيَّانِ ، مِنْ شَجَرِ الْوِدَادِ الْأَمْلَسِ

إِذْ سِرُّكُمْ عِنْدَ الصَّدِيقِ ، وَسِرُّهُ يُهْدَى إِلَيْكَ مِنَ الصَّحِيحِ الْأَخْرَسِ»

---

(١) الذياد : الطراد والدفع ، أى : له ما يدفعه عن هذا القول (٢) الفطنة «الشارح»

(٣) يروى : ألمّا الربع القديم بعسعسا «الشارح» (٤) لعلها: «الفصيح الأخرس» «الشارح»

خَرَسُ الفتيينِ(١)

يَكُونَانِ عِنْدَ كُلِّ إنْسَانٍ ، كَالْفَتَيَيْنِ : لِأَنَّهُمَا — فِي طُولِ الْأَبَدِ — أَخْرَسَانِ ، وَيُنْشَدُ :

---

(١) يعنى بالفتيين الليل والنهار ، وقد أكثر من ذكرهما فى نثره ونظمه ، فلنجتزئ من ذلك بقوله :

« فلك دائر ، أبى فتيـــاه ونيـــة ، أو يفرق الفتيان »

وقال :

هما الفتيـــان ، استوليـــا بتعاقب ... وما لهما اب ، فكيف يشطان ؟
إذا مضيا لم يرجعـــا ، وتلاهمـــا ... نظيران بالمستودعات ملطّان
وكلّ غنى يسلبان من الغِنى ... وكل كمىّ — عن جـــواد — يحطان
وكم نزلا فى مهمـــه ، وتحمـــلا ... — بغير حسيس — عن جبال وغيطان
وما حمـــلا رحلين طوراً ، فيؤنسا ... إذا حفـــز الوَشْكُ الرِّحال يئطان
ويَبْـتريان العظم والنحب ذائباً ... لينتقيـــاه ، والأديم يعطـــان
وقد خطرا — فَحْلين — لو زال عنهما ... غطـــاء ، لكانا — بالوعيد — يغُطان
وما برحا — والصمت من شيمتيهما — ... يقصان فينـــا عبرة أو يخطان
وقد شهرا ســـيفين فى كل معشر ... يقـــدّان ما همَّا به ، أو يَقُطَّان

وقال :

« كأنى نبت مرّ يوم وليـــلة ... علىّ — وكانا مُنفِضين — فجـــزّانى
هما بدويان الطـــريقَ تعرضـــا ... وبرْدِىَ — من نسج الشبيبة — بـــزّانى
قويان عزّانى عليـــه ، وأوقعـــا ... بغيرى ما بى أوقعـــاه ، فعـــزّانى
وما ضيّقاً أرضى ، ولكن أراهما ... إلى الضنك — من وجه البسيطة — لزّانى
وما أكلا زادى ، ولكن أكلتُه ... وقد نبهانى — للسُّرى — واستفزانى
ولم يرضيا إلا بنفسى من القِرى ، ... ولو صنتُه — عن طارقٍ — لأخزانى

« وَالْأَخْرَسَانِ تَعَادَيَا ، وَتَتَابَعَا بِهَلاكِ آلِ مُحَرِّقٍ ، وَالْمُنْذِرِ »

وما هاج ذكرى بارق نحو بارق ولا هزّنى شوق لجارة هِزّان
بل الفتيان : اعتاد قلبى أذاهما يشيمان أسياف الردى ، ويهزان
عزيزان بالله الذى ليس مثله ، يذِلّان — فى مقداره — ويُعزّان
وكم فتكا والحس قد بان عنهما بأهل وهود ، أو جبال ، وحُزّان
وما تركا تُركَ القِبَابِ ، وغادرا — برمحين ، أو جُرْزَين — أسرة جُرْزان
سلا غاب تَرْجٍ والانَيْعم : « كم ثوى بذاك وهذا ، من أسُودٍ ، وخِزّان »

وقال :

« أرى فَتَيَيْ دنياك — إن حَرِجَ الفتى — فما إن هما فى مأثم حَرِجان
وكم من رحيب يُلقيان مُلاءة عليه ، وضنك ضيّق يلجان
جديدان ، لما يبليا بتقادم ، ولا بأكف القوم ينتسجان
إذا حزن الأصحاب ، لم يحزنا لهم ، فأنّى — بضد الحزن — يبتهجان »

وقال :

أُمْسِى — وأَمْسِىَ فى شحط — وإنّ غدى ، وإنّ يومى — بلا ريب — لأمْسان
إنّ الفَتِيَّين — بالفتْيان فى لعب — كلٌّ أحَسَّ ، وما لا يحِسان
ويوديان بما قالوا ، وما صنعوا ، حتى إساءة قوم مثل إحسان
والله يخلف أزماناً بمشبهها كما يبدل إنساناً بإنسان
تُلْقِى المقادير — فى آنافهم — خطما يَقُدْنهم — لمناياهم — بأرسان
أذوين آل زهير ، وارتعين بنى نبت ، وحَسَّين موتاً رهط حَسّان »

وقال :

كم عبد الفتيان الخلق عن عُرُضٍ بذلة ، وهما — لله — عبدان
أما الجديدان — من ثوبى ، ومن جسدى — فبليان ، ولا يبلى الجديدان
بُرد الشباب ، وبرد الناسج : ابتذلا وهل يدوم — على البُرْدين — بردان »

« الشارح »

يُشيرانِ إشارَةً تفْهَم، وَيُحْكَمُ بِهَا فَلاَ تُتْهَم، كَمَا قَالَ «الْوَلِيدُ بْنُ عُبَيْدٍ»[١]:

«تَحْسَبُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا ءِ، لَهُمْ — بَيْنَهُمْ — إِشَارَةُ خُرْسِ»

وَحَقُّ السُّلْطَانِ — أَعَزَّ اللهُ نَصْرَهُ — عَنْ مِثْلِهِمَا يُوضَعُ وَيُبْطَلُ، إِذْ كَانَا مِمَّنْ شُبِّهَ بِهِ «الْأَخْطَلُ»، لَمَّا فَرِقَ مِنْ عِدَاهُ، وَتَوَقَّعَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ رَدَاهُ، فَقَالَ:

«إِذَا طَلَعَ الْعَيُّوقُ وَالنَّجْمُ، أَوْلَجَتْ هَوَادِيَهَا بَيْنَ السِّمَاكَيْنِ وَالْقَلْبِ
يَحِدْنَ بِنَا عَنْ كُلِّ حَيٍّ، كَأَنَّنَا أَخَارِسُ، عَيُّوا بِالْكَلَامِ وَبِالنَّسَبِ[٢]»

---

(١) يعني البحترى، وهذا البيت من سينيته المعروفة التى وصف بها إيوان كسرى، وأولها:

«صنت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن ندى كل جبس»

«الشارح»

(٢) قال: «أخارس»، وإنما المنهاج الواضح: خُرْس، لأن الأخرس نعت، وباب النعت أن يجمع على «فعْل». فإن جاء «أفاعلُ» - فى هذا الجنس - فهو شاذ قليل.

فأما قولهم: الأحامرة — يعنون الجيل، والأحامرة — يعنون الخمر واللحم والزعفران، فإنهم أقاموا الصفة مُقام الموصوف، فقالوا: «أهلكَ الناسَ الأحمران»، يعنون: الخمر واللحم، والمعنى: الشيئان الأحمران، وهذا الشعر يُختلف فى قائله، أعنى قوله:

«إن الأحامرة الثلاثة أهلكتْ مالى، وَكنتُ بهنَّ قِدماً مولعا
الخمر، واللحم الطرِيُّ، وأطَّلِي بالزعفران، فلن أزالَ مُرَدَّعا»

فإن حُملَ الجيش — على ما نُطِقَ فى الكتيبة — فكأنهما فى المخاطبة خميسان حيَّانِ، وكأنهما فى الأرض رميسان، لأن الميت يوصف بالخرَس، ومنه قول القائل:

«وقفتُ فحييت ابن ليلى مُلاوَة، فلم أُلْفِ إلاّ أخرسا، لا يُكلّم»

وإنما قيل للكتيبة: «خرساء»، تشبيهاً بالصخرة، أىْ هى صلبة مثلها، لا تجيب إلى ما يُسأل، إذ كانت الصخور طالما أنبَتِ الملاطس، فيراد أن الكتيبة لا يقدر لها على كسر.

وقيل: «إنما قيل لها خرساء لأن الأصوات لا تفهم فيها، فكأنها لا تنطق».

النـــاقة الخرساء

وَلَهُمَا شَبَهٌ بِالنُّوقِ الْكُتُمِ ، فى الْهَوَاجِرِ وَفى اللَّيَالِى الْعُتُمِ[١] .
وَيَكونَانِ عَلَى قِلَّةِ غَبَنٍ ، كَبَعْضِ مَا يَخْثُرُ مِنَ اللَّبَنِ ، يُقَالُ : « جَاء بِإِدْلَةٍ خَرْسَاء[٢] ..... لَا تَتَخَضْخَضُ فِى الْإِنَاء ، فَيُسْمَعُ لهَا صَوْتٌ . »

وذلك مثل ما قال الأَفْوه :

« زَجِلُ الأَصْوَاتِ حتى ما به ليْسَ شَتَّى حِزَقِ القوم شِعارُ »

(١) يقال : « ناقة خرساء » : إذا كانت لا تَرْغو ، قال « أبو زُبَيْد » :

« عرفَتْ ناقتى الشَّمائل منى فَهِىَ — إلاَّ تَبغماً — خَرْسَاء »

ويقال لها أيضاً : « الُخرْسِىّ » ، قال الشاعر :

« مهلاً أبيت اللعن لا تأخذنها فَتَجْشَم خُرساها من العُجْمِ منطقاً »

وخرساء — بالمد — أنثى أخرس ، لا يراد به التفضيل ولا يتصل به من كذا ، « والُخرْسىُ » مُقَدَّرَة على قولهم : هذا أخرس من هذا : أى أَشَدُّ خَرَساً منْهُ .

(٢) والإِدْلَةُ : اللبن الحامض . خرساء ، أى : خاثرة ، لا تتخضخض فى الإناء ، فيسمع لها صوت ، قال الشاعر :

« جاءت « زُبَيْنَةُ » — إذ تهوَّر ليلها — بالزَّوْل — من إدْلاتها الخُرْسِ
بخلت بمَعْبُوطِ السَّوام على فتى حلو الشمائل ، ليسَ بالنِّكس »

يقال : « إدْلَة وإدِلات — بكسر الدال — وإدَلات بفتحها ، وإدْلات بسكونها .

ولما كان التصويت يسمى : « نطقاً » وإن كان غير مفهوم سمى تركه خرَساً ، لأنهم يجعلون أصوات الدَّجاج نطقاً ، قال لبيد :

« فصَدَّها منطق الدجاج مع الصبـ ح ، وصوت الناقوس ، إذ ضُرِبا »

وجعلوا الدَّلالة على الشىء كالنطق ، كما قال :

« أَخْبَرَتْ عن فَعَالك الأرضُ ، واستَنْـ طَق منهـــا اليبابَ والمعمورا »

وكذلك قول الراجز :

وَهَذَانِ الرَّجلانِ كَتِمْثَالَيْ عاجٍ ، لَيْسَ لَهُمَا — بِالْكَلِمِ — مِنْ مَعَاجٍ ، قَالَ :

« عِنْدِي — مثالكَ — لُعْبَةٌ عاجِيَّةٌ لَـكِنَّها خَرْسَاء ، لا تَتَـكَلَّمُ »

وَيُسَمَّى الدَّنُّ : « خَرْساً » ، قَالَ « الْجَعْدِيُّ » :

« خَرِسٌ كَجَوْزِ الْحِمَارِ جَرَّدَهُ الْبَيْطارُ[1] ، لا نَافِسٍ وَلاَ هَزِمِ »

فَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا — فِي الأَصْلِ ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْخَرَسِ ، كَأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنَّهُ صُلْبٌ لاَ عَيْبَ فِيهِ ، شُبِّهَ بالصَّخْرَةِ الْخَرْسَاء . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَهُ بِهَذَيْنِ تَنَسُّبٌ ، وَلَيْسَ فِيه — لِلْمَآثِمِ — تَكَسُّبٌ ؛ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ رَاحٍ تُودَعُ فِيهِ ، وَإِنْ هِيَ لَعِبَتْ بِلُبِّ السَّفِيهِ ، وَمَا عَلِمَ : أَأُخِذَ مِنْهُ أَرْيٌ أَمْ خَمْرٌ ؟ لَقَدْ خَفِيَ عَلَيْهِ الأَمْرُ .

وَلاَ ذَنْبَ عَلَيْهِ إِنْ شُرِبَ مَا سُبِئَ مِنْـهُ ، فَجَرَتْ هُنَاكَ عَرَابِدُ وَهَنَوَاتٌ ، لاَ تَدْرُسُ أَذَاها السَّنَوَاتُ .

مَا دَرَى الدَّنُّ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ خَمْرٌ شَرِبَهَا الْقَائِلُ :

« شَرِبْتُ الْخَمْرَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي كَذَاكَ الْخَمْرُ تَلْعَبُ بِالْعُقُولِ »

وَلاَ شَعَرَ « حَنْتَمٌ »[2] حِينَ خَرَجَتْ مِنْهُ مُدامةٌ تَفَوَّقَهَا الَّذِي اصْطَبَحَ ، فَقَالَ :

« سَقَانِي خَلِيلاَيَ مِنْ قَرْقَفٍ فَأَصْبَحْتُ أَحْسِبُ « رَضْوَى » « ثَبِيرَا »

أَرُومُ الْـكَوَاكِبَ بِالرَّاحَتَيْنِ وَأَطْمَعُ فِي أَنْ أَنَالَ الصَّبِيرَا[3] »

مستأســد ذِبَّانُهُ فى غَيْطَلٍ يقول للرائد : « أعشبتَ ، انْزِلِ . »

(١) يشبه الدن بوسط الحمار بعد أن جرده البيطار من ثوبه ونزع عنه شعره « الشارح »

(٢) الحنتم : الجرة الخضراء ، أو : الدن « الشارح »

(٣) الصبير : السحاب « الشارح »

زواج الخرســـاء

وَيُرْوَى أَنَّ رَجُلاً مِنَ الْعَرَبِ خَطَبَ – إِلَى آخَرَ - ابْنَةً لَهُ ، فَقَالَ الْمَخْطُوبُ إِلَيْهِ : « قَدْ زَوَّجْتُكَ خَرْسَاءَ اللِّسَانِ ، خَرْسَاءَ الدُّمْلُجِ ، خَرْسَاءَ الْخَلْخَالِ » .

فَقَالَ : « قَدْ تَزَوَّجْتُ ، وَرَضِيتُ » .

فَلَمَّا زُفَّتْ إِلَيْهِ ، وَجَدَ بِلِسَانِهَا الْخَرَسَ ، فَذَكَرَ لِأَبِيهَا ذَلِكَ ، قَالَ : « أَلَمْ أُخْبِرْكَ : أَنَّهَا خَرْسَاءُ اللِّسَانِ ؟ »

قَالَ : « ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُرِيدُ : أَنَّهَا قَلِيلَةُ الْكَلَامِ وَالصَّخَبِ ، لَا أَنَّهَا عَاجِزَةٌ عَنِ النُّطْقِ » .

فَتَرَافَعَا إِلَى بَعْضِ الْقُضَاةِ ، فَحَكَمَ عَلَيْهِ بِتَمَامِ التَّزْوِيجِ ، لِأَنَّ الْخَرَسَ لَيْسَ مِنَ الْعُيُوبِ الَّتِي يُرَدُّ بِهَا النِّكَاحُ .

وَأَقَامَتْ عِنْدَهُ ، فَوَلَدَتْ لَهُ أَوْلَاداً نُجَبَاءَ ، فَقَالَ :

وَإِنَّ بَنِي الْخَرْسَاءِ أَمْطَارُ شَتْوَةٍ ... إِذَا الْعَامُ أَزْرَى بِالْبَخِيلِ الْمُزَنَّدِ
هُمُ النَّفَرُ الْحَامُونَ فِي مَوْقِفِ الْوَغَى ... وَهُمْ خُطَبَاءُ الْحَيِّ فِي كُلِّ مَشْهَدِ

*
* *

وكان رجلٌ من « كَعْبِ بنِ وَبْرَةَ » جالساً مع قَوْمِه ، فجعلوا يتحدَّثون وهو ساكتٌ ، فقال له بعضهم : « بحقٍّ ما سُمِّيتُمْ : خُرْسَ الْعَرَبِ [1] ! »

فَلِهَذَا الْمَعْنَى ، اغْتَرَّ الْخَاطِبُ بِقَوْلِ الْقَائِلِ : « زَوَّجْتُكَ خَرْسَاءَ اللِّسَانِ »

---

(١) يعني أنهم قليلو الكلام .

خراسان

وَلَوْ كَانَتْ « خُرَاسَانُ » — هَذَا الْبَلَدُ — عَرَبِيَّةً ، لَوَجَبَ أَنْ يَكُون اشْتِقَاقُهَا مِنَ الْخَرَسِ ، لِأَنَّ الْعَرَبَ لَا تَفْهَمُ كَلَامَ أَهْلِهَا ، فَكَأَنَّهُمْ خُرْسٌ ، وَكَذَلِكَ الْفُرْسُ .

وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ ، لَجَازَ أَنْ يُعْزَى هَذَانِ الرَّجُلَانِ إِلَى « خُرَاسَانَ » .

وَقَدْ قَالُوا فِي النَّسَبِ إِلَيْهَا : خُرَاسَانِيٌّ ، وَخُرْسَانِيٌّ ، وَخُرَاسِيٌّ ، وَخُرْسِيٌّ (١) .

القيد الأخرس

وَيُوصَفُ الْقَيْدُ بِأَنَّهُ أَخْرَسُ — عَلَى مَعْنَى الْخَلْخَالِ — وَذَلِكَ أَنَّهُ ضَيِّقٌ ، فَهُوَ مِنَ الْحَرَكَةِ خَالٍ . قَالَ :

« أَلَمْ تَرَيَانِي وَالْعُقَيْلِيَّ دَائِباً ، نَرُوحُ وَنَغْدُو ، فِي خَلَاخِيلِنَا الْخُرْسِ

(١) فأما خراسانيٌّ : على التمام ، وأما خُرْسَانِيٌّ ، فلأنهم قالوا : خُرْسَان ، وينشد لبشار بن برد :

« بُنَيَّتِي ، ليس بها ظَبْظَابُ في السر منْ «خُرْسانَ» لا تُعاب
زُيِّن منها النَّحْـــر والرَّهاب

يقال : ما به ظَبْظَابٌ : أي داء ، والرَّهاب : مجال القلادة ، ويقال : الرَّهابَة : العظم الدقيق الذي يشرف على المعدة .

وأما خُراسيٌّ ، فعلى حذف الألف والنون ، لأنهما زائدتان . وأما خُرْسِيٌّ فعلى حذفِ كلِّها .

وقلما تجيء « خراسان » في أشعار الجاهلية ، و إنما تجيء في أشعار العرب بعد الإسلام كما قال مالك بن الرَّيب :

« لعمري لئن غالت خراسانُ هامتي لقد كنت - عن بَابَيْ خراسانَ - نائيا

رَهِينَىْ ثَوَاءٍ — بَعْدَ طُولِ إِقَامَةٍ — عَلَى غَرَضٍ مِنَّا بِمَنْزِلِنَا الشَّأْسِ(١) »

فَكَأَنَّ هَاتَيْنِ النَّسَمَتَيْنِ قَيْدَانِ ، مَا لَهُمَا بِالنُّطْقِ يَدَانِ .

طعام النُّفساء

وَقَالُوا : «خَرَسْتُ النُّفَسَاءَ» ، إِذَا عَمِلْتُ لَهَا طَعَامًا ، وَهِىَ : الْخُرْسَةُ ، وَالْخُرْسُ .

قَالَ الرَّاجِزُ :

« كُلَّ الطَّعَامِ تَشْتَهِى رَبِيعَهْ : الْخُرْسَ ، وَالْإِعْذَارَ ، وَالنَّقِيعَهْ(٢) »

وَقَالَ بَعْضُ الْعَرَبِ ، فِى صِفَةِ الرُّطَبِ :

« لَيْسَ الصَّقْرُ فِى رُءُوسِ الرَّقْلِ ، الرَّاسِخَاتِ فِى الْوَحْلِ ، الْمُطْعِمَاتِ فِى الْمَحْلِ ، بُلْغَةَ الْكَبِيرِ ، وَصُمْتَةَ الصَّغِيرِ .

وَخُرْسَةُ « مَرْيَمَ » — عَلَيْهَا السَّلَامُ — كَالزَّبِيبِ ، إِنْ تَرَكْتَهُ غَرِثْتَ ، وَإِنْ أَكَلْتَهُ ضَرِسْتَ(٣) » .

---

(١) ولا بد — هاهنا — فى الشأس — من همز ، لأجل القافية . (٢) فالخرس : طعام النفاس ، والإعذار : طعام الختان ، والنقيعة : طعام الغائب يقدم ، أو البناء يُتَمّ ، وقال الهذلىّ :

« إذا النُّفَساء لم تُخَرَّس ببِكرها غلاماً ، ولم يسكت بحِتْرٍ قطيعها »

وقال قوم : « الخرسة : ما تُطعمه النُّفَساء ، والخُرْس ، ما يُطعمه الناس المدعُوُّون لذلك .

(٣) الصَّقر : الدبس الذى يكون فى الرطب ، والرَّقْلُ : النخل الطِّوال .

وقوله : « خرسة مريم » لأن فى الكتاب العزيز : « وهزى إليك بجذع النخلة تَسَّاقطْ عليك رطباً جنيًا ، فكلى واشربى وقرّى عَيْناً . »

وبعض الناس يَضْرَس — إذا أكل الزبيب — قال الشاعر :

قَرَوْنَا زبيباً لم يزل فى ضروسنا له قادح ، حتى مضى الليل أجمع

البكر : الخــــروس

وَيُقَالُ لِلْبِـكْرِ إذا وَلَدَت : « خَرُوسٌ » أىْ : تَفْتَقِرُ إِلَى أَنْ تُتَّخَذَ لها خُرْسَةٌ إلى أنْ يَدِرَّ لَبَنُهَا ، إِذْ كَانَتْ أَقَلَّ لَبنًا مِنَ الْعوَانِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

« سَأَلْتُ بَنِي لَأْيٍ ، فَأَلْفَيْتُ خَيْرَهُمْ قَلِيلاً ، كَدَرٍّ من خَرُوسِ الْأرَانِبِ »

الأخرس والخرساء : الحية

وَيُقَالُ لِلْحَيَّةِ الذَّكَرِ : « أَخْرَسُ » وَالأُنْثَى : « خَرْسَاء » ، فَكَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ : أَنَّهُ لا يُجِيبُ الرُّقَاةَ ، وَلِذَلِكَ وَصَفُوهُ : بالصَّمَمِ ، والصَّمْتِ ، والسُّكوتِ .

وَمِنْ أَبْيَاتِ الْمعَانِي :

« أَلَمْ تَرَ لِلسِّــيفِيِّ قَرَّبَ نَفْسَهُ
لِخَضْرَاءَ فِيهَا مَوْجُهَــا وَقَسِيبُهَا[1]
فَصَارَ ، وَدُونَ الدُّرِّ خَرْسَاءُ ، لَمْ يَكُنْ
لِيَشْفِيَ مِنْهَا مَنْ تُصِيبُ ، طَبِيبُهَا »

وَهَذَانِ الأَخَوَانِ لَيْسَا كَالصِّلَّيْنِ ، وَلَـكِنَّهُمَا لِلْجَارِ الْمُصَاقِبِ إِزَاءَ الْخِلَّيْنِ .

وإنما قيل لهذا الطعام : « خرسة » لأن النفساء إذا أكلته درّ لبنها ، فأرضعت ولدها ، فلم يبك ، فكأنه إذا صمت : أخرس .

(١) السِّيفِيُّ : رجل من أهل سيف البحر ، أى : ساحله ، والقسيب : صوت الماء .

وهم يزعمون : « أن الدُّرة تكون عندها حية موكلة بها »

وهذا من أحاديث الأعراب ، فيدعون أنها ربما لدغت الغواص . وقال آخر :

« ما تزدرى من حيــة جبلية سُكاتٍ ، إذا ما عض ليس بأدْرَدا »

امثـــال الخرس

وَيُقَالُ فِى الْمَثَلِ : « رُبَّ خَرَسٍ ، أَنْجَى مِنْ فَرَسٍ (١) »

ويقالُ : « رُبَّ خَرَسٍ ، أَنْفَعُ مِنْ مَرَسٍ (٢) » .

ويقالُ : « عُدْ بالْجَرَسِ ، إلَى الْخَرَسِ (٣) » .

وَيُقَالُ : « الْخَرَسُ ، أَهْلَكَ الْحَرَسَ (٤) » .

وقال الأسَدِىّ :

وكم دون بيتك من صفصف ومن حنش جَاحِـرٍ فى مَـكا
أصمّ ، صموتٍ ، طويلِ السُّبَا تِ ، أجْرَدَ ، ذى حُمَةٍ كالرّشا

(١) وكان أصل ذلك أن قوماً قُتل منهم رجل ، فطلبوا قاتله ، فوجدوا أخويه ، وكان أحدهما أخرس ، فلم يقتلوه . وركب الآخر فرساً لينجو عليه فأدركه الطلب فَقُتِـل ، فقيلت تلك المقالة (٢) وأصل ذلك أن امرأة أَيِّماً كان لها مَرَس ، أى : حبل شديد الفتل ، فكانت تعيره السُّقَاةَ و يسقون أينقاً لها ، وكان فى الحىّ امرأة خرساء ، فبدأ السقاة بسقى ذَوْدِها على سبيل الرحمة ، وتركوا أينق صاحبة المرس ، فقالت هذا الكلام .

(٣) أصل هـذا أن رجلاً كان يؤذى آخر ، فيحوجه إلى شكيته ، فقـال : « عد بالجرس ، إلى الخرس » .

أى : إنك لو لم تحملنى على الكلام لم أتكلم ، إذ كان الجرس لا يصوّت إلاّ إذا حركه غيره .

(٤) وهذا يحتمل وجهين : أحدهما أن يكونوا ناموا ، ففُقِدت أصواتهم ، فظفر بهم عدوهم . والآخر أن يكونوا حرسوا ملكاً استيقظ بالليل ، ففقد أصواتهم ، فسأل عنهم ، فوجدهم سكارى ، فأمر بقتلهم .

الخطيب الأخرس

وَكَانَ – لِبَعْضِ النَّاسِ – جَارٌ أَخْرَسُ فَتُوُفِّيَ ، فَرَآهُ فِي النَّوْمِ ، فَجَعَلَ يُومِئُ إِلَيْهِ – كَمَا كَانَ يَفْعَلُ فِيمَا سَلَفَ – فَأَجَابَهُ بِلِسَانٍ طَلْقٍ :

« يَا فُلَانُ ، صِرْتُ بَعْدَكَ مِنْ خُطَبَاءِ الْجَنَّةِ ، كُلَّمَا مَضَتْ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ سَاعَةً مِنْ سَاعِ الدُّنْيَا ، نُصِبَتْ لَنَا مَنَابِرُ مِنَ الْيَاقُوتِ ، فَنُمَجِّدُ عَلَيْهَا اللهَ ، وَيُقَالُ لَنَا : « هَذَا بِمَا أَمْسَكْتُ أَلْسِنَتُكُمْ فِي دَارِ الْغُرُورِ »

فَنَحْنُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

« خُطَبَاءُ عَلَى الْمَنَابِرِ ، فُرْسَا نٌ عَلَيْهَا ، وَقَالَةٌ غَيْرُ خُرْسِ »

دعاء الأخرس

وَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الصَّالِحِينَ :

« لَأَنْ يَدْعُوَ لِي رَجُلٌ أَخْرَسُ ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَدْعُوَ لِي أَلْفُ خَطِيبٍ عَلَى أَلْفِ مِنْبَرٍ ، لِأَنَّ ذَلِكَ يُومِئُ إِلَى اللهِ – سُبْحَانَهُ – بِلِسَانٍ مَا أَفِكَ ، وَلَا قَالَ الْبُهْتَانَ ، وَأُولَئِكَ جَدِيرُونَ أَنْ يَكُونُوا كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ :

« يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ »

الجارُ الأخرس

وَكَانَ لِرَجُلٍ أَخٌ عَلَى غَيْرِ مِنْهَاجِ الْخَيْرِ ، وَكَانَ لَهُ جَارٌ أَخْرَسُ ، فَكَانَ يَجْلِسُ إِلَى جَانِبِهِ ، وَيُتَرْجِمُ عَنْهُ مَا يُرِيدُ .

فَهَلَكَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الذَّمِيمُ ، فَرَآهُ أَخُوهُ فِي النَّوْمِ ، فَقَالَ :

« مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ ؟ »

قَالَ : « غَفَرَ لِى »

قَالَ : « بِمَاذَا ؟ وَقَدْ كُنْتَ أَحَدَ الْقَاسِطِينَ ؟ »

قَالَ : « بِالتَّرْجَمَةِ عَنْ أَبِى نُمَيْرٍ »

يَعْنِى ذَلِكَ الْأَخْرَسَ .

عصا الأعمى

وَقِيلَ لِرَجُلٍ مَكْفُوفٍ :

« لِمَ تُؤْثِرُ عَصَاكَ عَلَى قَائِدٍ يَقُودُكَ ، مِنَ النَّاسِ ؟ »

قَالَ : « لِأَنَّهَا مُقْهِيَةٌ[1] ، لَا تَطْعَمُ وَلَا تَشْرَهُ ، وَلَا تُقَابِلُنِى بِمَا أَكْرَهُ[2] ! »

مُسْتَحِقُّ الصدقة

وَمَرَّ بَعْضُ الْمُتَعَبِّدِينَ بِأَخْرَسَ ، وَأَعْمَى ، وَمُقْعَدٍ .

فَقَالَ لِصَاحِبِهِ :

« هَلْ مَعَكَ شَىْءٌ لِلصَّدَقَةِ ؟ »

قَالَ : « مَعِى دِرْهَمٌ »

قَالَ : « أَعْطِهِ الْأَخْرَسَ ، فَإِنَّهُ أَحَقُّ الثَّلَاثَةِ بِهِ » .

وَهَذِهِ قِصَّةٌ قَلَّمَا يَتَّفِقُ مِثْلُهَا .

---

(١) أقهى الرجل : امتنع من الطعام . « الشارح » (٢) مر فى رسالة الشياطين حديث عن العصا ، ومدح أبى العلاء لها ، و إيثارها على القائد (ص ٥٠٤) « الشارح »

المكفوفون

أنا مَكْفوفُ الْعَيْنَيْنِ ، أَتكلَّمُ فِي مَكْفوفِ اللِّسانَيْنِ ، وَلَوْ وَجَدْتُ مُقْعَدًا يَتَوَجَّهُ إِلَى « حلَبَ » – حَرَسَهَا اللهُ – فسَأَلْتُهُ أَنْ يَحْمِلَ هَذِهِ الرِّسَالَةَ لِتَكُونَ الْأَشْبَاهُ مُتَوالِيَةً ، وَالْأَشْكالُ مُتَتالِيَةً ، فَيَكُونَ مَثَلُها مَثَلَ قَوْلِ طَرَفَة :

« تَذْكُرُونَ إِذْ نُقَاتِلُكُمْ لا يَضُرُّ مُعْدِماً عَدَمُهْ[1] »

وَقَوْلِ « الرَّبِيعِ بْنِ زِيَادٍ » :

« أَفَبَعْدَ مَقْتَلِ مَالِكِ بْنِ زُهَيْرٍ تَرْجُو النِّسَاءُ عَوَاقِبَ الْأَطْهارِ[2] »

وَقَوْلِ الشَّنْفَرَى :

« أَرَى أُمَّ عَمْرٍو أَزْمَعَتْ ، فَاسْتَقَلَّتِ وَمَا وَدَّعَتْ جَارَاتِها ، إِذْ تَوَلَّتِ[3] . »

أم بشار وأولادها

وَنَكُونَ كَبَشَّارٍ وَأَخَوَيْهِ ، لِأَنَّ أُمَّهُ تَزَوَّجَتْ ثَلاثَةً ، فَوَلَدَتْ مِنْهُمْ ثَلاثَةً : فَبَشَّارٌ : أَكْمَهُ ، وَالْآخَرُ : أَصَمُّ ، وَالثَّالِثُ : أَعْرَجُ !

أبناء الفأر

وَفِي الْفَأْرِ ثَلاثَةُ أَصْنافٍ ، يُخْلَقْنَ ذَوَاتِ عَاهَاتٍ :

فَالْخُلْدُ : أَكْمَهُ . والزَّبَابَةُ : صَمَّاءُ[4] . وَالْقَزْلاءُ[5] : فَأْرَةٌ تُخْلَقُ عَرْجَاءَ .

---

(١) لأنه يسمّى : مكفوفاً (٢) لأنه يسمى : مُقْعَداً (٣) لأن الفرّاء يزعم أن التاء حرف أخرس . (٤) قال الحارث بن حلزة :

« ولقد رأيت معاشراً قد جمّعوا مالاً وَوُلْدا
وهم زَباب حائرٌ لا تَسْمعُ الآذان رَعْدَا »

(٥) والقزل : العرج .

المكدُّون الثلاثة

وَيُرْوَى أنَّهُ كَانَ بِالْبَصْرَةِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ « سَعِيدٌ » مَكْفُوفٌ ، وَآخَرُ يُقَالُ لَهُ : « جَعْدٌ » أخْرَسُ ، فَكَانَا يَجْلِسَانِ عَلَى بَابِ المَسْجِدِ مُتعرِّضِينَ لِلصَّدَقَةِ ، وَمَعَهُمَا رَجُلٌ مُقْعَدٌ .

فَكَانَ الْمُكَدُّونَ يَقُولُونَ :

« غَلَبَنَا عَلَى الصَّدَقَةِ : « سُعَيْدٌ » و « جُعَيْدٌ » و « قُعَيْدٌ[1] » !

---

(١) عرض المعرى لتصغير الترخيم فى رسالة « الشياطين » (ص ٤٨٥)
ثم عرض لهذا الموضوع ، فى هذا الموضع من الرسالة ، فقال :
غلبنا على الصدقة سُعَيْدٌ ، وجُعَيْدٌ ، وقُعَيْدٌ .
فسُعَيْدٌ ، ترخيم سَعِيدٍ فى التصغير ، وإذا صغر — بغير ترخيم — قيل : سُعَيِّد .
وقُعَيْدٌ ، ترخيم مُقْعَد — فى التصغير أيضاً — ولو صُغِّر بغير ترخيم لقيل : مُقَيْعِدٌ .
وإنما جاز ذلك لَمَّا أخرج من حال الصفات إلى حال الأسماء ، لأن هذا الباب يكثر فى الأعلام ، ويقل فى الصفات .

فيقولون :

« قُبَيْسٌ » فى « قابُوسَ » ، و « ثُبَيْتٌ » فى « ثابت » ، قال الأعشى :

« أبا ثَابِتٍ : لا تَعْلَقَنْكَ رِمَاحُنَا   أبَا ثَابِتٍ ، واقعد ، فإنك طاعم »

يعنى بأبى ثبيت : يزيد بن مُسْهِرٍ الشيبانىَّ .

وقال ، وهو يعنى هذا الرجل فى الأخرى :

أبلغ يزيد بنى شيبان مألكة ،   أبا ثبيت . أما تنفك تَأْتَكِلُ

وأبو قابوس : النعمان بن المنذر ، يجعلونه فى الشعر : أبا قبيس — على هذا النحو — قال الشيبانىّ :

اللغة الربعية

وَيُقَالُ عَلَى اللُّغَة الرَّبَعِيَّةِ :

خَرْسَ(١) الرَّجُلُ ، ولِلاثْنَيْنِ خَرْسَا ، ولِلْجَمِيعِ : خَرْسُوا ، ولِلْمَرْأَةِ : خَرْسَتْ ، ولِلمرأتين : خَرْسَتَا(٢) .

وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ : « هُوَ أخْرَسُ ، أمْرَسُ »(٣) .

وَيُقَالُ لِلْحَجَرِ والْجَبَلِ : « أخْرَسُ ، أخْرَسُ »(٤) .

« وهل أحيا — هَبِلْتِ — أبا قُبَيْسٍ عَمُودُ المُلْكِ ، والنَّعَمُ الرُّكَامُ ؟ »

وأهل البصرة يجيزون ترخيم التصغير فى الصفات ، وأهلُ الكوفة يأبَوْن ذلك إلا فى الأسماء الأعلام .

ومعنى ترخيم التصغير : أن الزَّوائِدَ تحذف من مُكَبَّرِ الاسم .

فإذا قالوا : « رَجُلٌ مستَحِثٌ » :

جَازَ — على قول أهل البصرة — أن يُصَغَّرَ مُسْتَحِثٌ — فى الترخيم — فيقالَ : « هذا رجُلٌ حُثَيْثٌ . »

فإذا سَمَّوْا رجلا بمُسْتَحِثٍّ ، جَازَ أنْ يُقَالَ فِي تَرْخِيمِ تَصْغِيرِهِ : « حُثَيْثٌ » فى المذهبين . »

(١) (بسكون الراء) (٢) فإذا قالوا : خَرِسْنَ النساء ، لم يجيزوا إسكان الراء ، لأن السين ساكنة ، ولا يجمع بين ساكنين فى هذا الموضع .

وأنشد المُفَجَّعُ فِي التَّرْجُمانِ :

« صاح الغراب ببين من أحبته صَمَّ الغُراب وخَرْسَ ، ماذا يَنْثُرُ ؟ »

وقال آخر :

« هبتَا تعذلان فى الرَّاح ، هلا خَرْسَتَا قبل هَبَّةٍ لِلْمَلامِ ! »

(٣) إتباع ، كما قالوا : « عطشان نطشان » و « حسَن بسَن » (٤) فأخرس ، لأنه لا ينطق ؛ وأخْرس ، أى : قد مَرَّ عليه حَرْسٌ من الدهر ، وهى برهة طويلة .

فضل الخرس

وَمِنْ فضَائِلِ الخَرَسِ ، إِجْمَاعُ الأُمَمِ عَلَى حَمْدِ الصَّمْتِ(١) ، حَتَّى قَالَ الْقَائِلُ :
« الصَّمْتُ حُكْمٌ ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُهْ »
فَالْأَخْرَسُ قَدْ أَجْبَرَهُ اللهُ — تَعَالَى — عَلَى أَنْ يَتْرُكَ الْكَلامَ ، فَقَدْ صَارَ إِلَى مِثْلِ حَالِ الصَّامِتِ .

يقال : خَرِسَ ، وأخْرُسَ في الجميع .

وهذا البيت ينسب إلى امرىء القيس :

« لمن طلل داثر عهده تقادم في سالف الأخْرُس »

وقال آخر :

« وعلمٍ أخْرَسَ فوق عَنْزِ »

يعني — بالعلَم — حجارة تنصب يُهْتَدى بها ، والعَنْز : الأكمة السوداء .

(١) مما قاله المعري في مدح الصمت ، وهو كثير :

« رأيت سكوتي متجراً ، فلزمته إذا لم يفد ربحاً ، فلست بخاسر »

ومما قاله العرب في مدحه — وهو أكثر من أن يحصيه مستقص — قول ابن دريد :

« وقالوا : الهوى يقظان ، والعقل نائم وذو القول مذكور ، وذو الصمت أسلم »

ورحم الله القائل :

« ما إن ندمت على سكوتي - مرة - ولقد ندمت على الكلام مراراً »

وأبا نواس القائل :

« مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام
إنما العاقل من ألجم فاه بلجام » « الشارح »

وَإذَا لَمْ تَفْهَمِ الْعَرَبُ كَلَامَ الْعَجَمِىِّ، فَهُوَ — عِنْدَهُمْ — : «أَخْرَسُ»، قَالَ الْهُذَلِىُّ:

«يَمْشِى — بَيْنَنَا — حَانُوتُ خَمْرٍ مِنَ الْخُرْسِ الصَّرَاصِرَةِ القِطَاطِ[1]»

طلب العناية

وَإذَا طُلِبَتِ الْعِنَايَةُ مِنْهُ، فَتِلْكَ بَلَاغَةٌ تُلْتَمَسُ مِنْ «سَحْبَانَ»، وَطَالَمَا صَدَعَ بِالْقَوْلِ وَأَبَانَ.

وَبَعْضُ النَّاسِ، إذَا طُلِبَ نَفْعُهُ، وَرُجِىَ — عِنْدَ الْمَلِكِ — شَفْعُهُ، وُجِدَ كَمَا قَالَ الْكَلْبِىُّ:

«مَا كُنْتُ إذْ طَلَبَتْ يَدَاىَ بِكَ الْغِنَى إِلَّا كَطَالِبِ خُطْبَةٍ مِنْ أَخْرَسِ»

مزرعة الخرس

وَهَذِهِ الْمَزْرَعَةُ الَّتِى يَتَكَلَّمُ فِيهَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، تُعْرَفُ «بِبَلَوْنَسَ».

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا الِاسْمَ رُومِىٌّ، وَمِنْ شَأْنِ الرُّومِ أَنْ يَزِيدُوا السِّينَ فِى آخِرِ كَلَامِهِمْ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ الْعَرَبِ:

«إنَّ السِّينَ — فِى الرُّومِيَّةِ — كَالتَّنْوِينِ فِى الْعَرَبِيَّةِ، إِلَّا أَنَّ السِّينَ أَقْوَى وَأَشَدُّ، فَإِذَا حُذِفَتِ السِّينُ مِنْ هَذَا الِاسْمِ، بَقِىَ: «بَلَوْنَ[2]»، وَقَدْ بُلِىَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ بِهَذِهِ الْخَرِبَةِ، كَمَا بُلِىَ «ذُو الرُّمَّةِ» بِـ«مَيَّةَ». وَلَوْ حُمِلَتْ عَلَى

---

(١) قوله: «حانوت خمر» أى: صاحب حانوت خمر، والقطاط: الجعاد الشَّعَر، يقال: «رجل قطَط، وشعرٌ قطَط». (٢) من: بلاه الله، يبلوهُ، إذا اختبره

الْعَرَبِيَّةِ ، لَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ اشْتِقَاقُهَا مِنْ : « أَبْلَسَ[١] » ، فَإِذَا عَدَاهَا مَعْنَى الْيَأْسِ ، فَلَعَلَّهَا مِنَ الْبَلَاسِ[٢] . فَإِنْ عَدَاهَا ذَلِكَ فَهِيَ مِنَ الْبُلْسُنِ[٣] ، عَلَى أَنْ تُجْعَلَ نُونُهُ زَائِدَةً — وَإِنَّهُ لَطَعَامٌ ضَارٌّ ، مَا هُوَ بِالْمُعْجِبِ وَلَا السَّارِّ .

*

* *

وَيُحْكَمُ عَلَى نُونِ « بَلَوْنَسَ » بِالزِّيَادَةِ ، إِذَا أُدْخِلَتْ فِي الْعَرَبِيَّةِ ، لِأَنَّ مِثَالَهَا فُقِدَ فِي الْأُصُولِ ، كَمَا حُكِمَ عَلَى نُونِ : « كَنَهْبُلٍ » بِذَلِكَ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْكَلَامِ مِثْلُ « سَفَرْجُلٍ »

أصل الكلمة

وَمِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَزِيدُ السِّينَ بَعْدَ كَافِ التَّأْنِيثِ ، فَيَقُولُ : « ضَرَبْتُكِس » فَإِنْ قَالَ الْأُسْتَاذُ : « إِنَّهَا مِنَ الْبَلَسِ — وَهُوَ التِّينُ — فَإِنَّ اللهَ — سُبْحَانَهُ — لَا يُجْرِي عَلَى لِسَانِهِ إِلَّا مَا حَسُنَ ، إِذَا مِيلَ — عَنِ الْجَمِيلِ — الْأَلْسُنَ .

وَإِنْ أُخِذَتْ مِنَ الْبَلَسِ ، فَمَا هُوَ بِطَائِلٍ وَلَا حَمِيدٍ ، وَلَا فِي الثَّمَرَةِ بِالْعَمِيدِ ؛ إِنْ فَقَدَ الشَّجَرَةَ — شَهْرًا — سَاسَ[٤] ، وَقَالَ لِلْمُلْتَمِسِهِ : « لَا مِسَاسَ » .

وَالْغَالِبُ عَلَى هَذِهِ الْمَزْرَعَةِ أَنَّهَا مِنْ « إِبْلِيسَ » وَإِنَّمَا هُوَ نِفَاقٌ وَشِقَاقٌ . أَوِ الْبَلَسُ : وَإِنَّمَا هُوَ حُرْقَةٌ وَإِحْرَاقٌ . وَمِمَّنْ يَنْتَفِعُ بِهَا ضَالُّ الْعَقْلِ ، وَزَمِنٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى النَّقْلِ .

---

(١) أبلس ، إذا يئس (٢) وهى مُسُوح خشنة تكون بناحية المدينة ومكة (قال الشارح : البلاس للمفرد ، والجمع : بُلُس)

(٣) وهو العدس (٤) وقع فيه السوس « الشارح »

مُقعـــد الفراخ

فَلَيْتَهُ كَانَ كَمُقْعَدِ الفِرَاخِ ، يَنْهَضُ وَلَوْ بَعْدَ تَرَاخٍ، وَالفَرْخُ يُسَمى : « مُقْعَداً » ، أوْ « قعيداً » ، قَالَ « ذُو الرُّمَّةِ » :

« إِلَى مُقْعَدَاتٍ تَنْفُضُ الرِّيحُ – إنْ جَرَتْ
عَلَيْهَا – حَصَاداً مِنْ يَبِيسِ الفُلاَفِلِ »

* * *

وَأَمَّا قَوْلُ الرَّاجِزِ :

« أَبُو سُلَيْمَانَ وَرِيشُ المُقْعَدِ ، وَضَالَةٌ مِثْلُ الجَحِيمِ المُوقَدِ[1]

فَإِنَّهُ يُرْوَى بِفَتْحِ الرَّاءِ ، وَ « رِيشِ » بِكَسْرِهَا[2] .

الثـــدى المقعد

وَلَيْسَ مَنْ أَقْعَدَ مِنَ الرَّعِيَّةِ بِمَنْزِلَةِ مُقْعَدِ الثُدِيِّ ، يُوصَفُ مِنَ الفَتَاةِ الهَدِيِّ ، كَمَا قَالَ النَّابِغَـةُ :

« وَالبَطْنُ ذُو عُـكَنٍ خَمِيصٌ لَيِّنٌ وَالنَّحْرُ تَنْفُجُهُ بِثَدْيٍ مُقْعَدِ »

السنام المقعد

وَلَا كَالمُقْعَدِ مِنَ السَّنَامِ ، إِذْ هُوَ – عَلَى الـكَلاءِ – نَامٍ ، كَمَا قَالَ :

« إِنا كُفِينا رَحِيلَ الضَّيْفِ عَنْ سُخُطٍ، بِمُقْعَدَاتٍ كَأَطْفَـــالِ الأَحَابِيشِ »

---

(١) ويروى : وصيغة مثل الجحيم الموقد « الشارح » (٢) فإذا رُوِيَ بالفتح ، فالـمُقْعَد : رجل كان يبرى السهام ، قال الشاعر :

« إن تطْعَنُوا بالزاعِبِيّ ، فَعِنْدَنا مِلْءُ الكنائن ، راشَهُنَّ المقعد »

و إذا رُوِيَ : « وَرِيشُ » – بالكسر – احتَمَل أن يكون الفرْخ والرجل جميعاً .

وَهَذَا كَالْبَيْتِ الْمَنْسُوبِ إِلَى ابْنَةِ « لَبِيدِ بْنِ رَبِيعَة » :

« بِمُدْفَأَةٍ كَأَنَّ عَلَى ذُرَاهَا رِجَالاً — مِنْ بَنِى « حَامٍ » قُعُودَا »

وَكُلُّ مَا وُصِفَ بِأَنَّهُ قَاعِدٌ ، فَلاَ يَمْتَنِعُ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ مُقْعَدٌ ، لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ :

« الْقَاضِى قَاعِدٌ لِلْحُكْمِ »

وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : « مُقْعَدٌ » ، لِأَنَّ غَيْرَهُ أَقْعَدَهُ .

قاعـــد النخـــل

وَكَذَلِكَ الْقَاعِدُ مِنَ النَّخْلِ الَّذِى لَهُ جُذُوعٌ ، يَحْتَمِلُ أَنْ يُقَالَ : « مُقْعَدٌ » لِأَنَّ الَّذِى غَرَسَهُ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : « أَقْعَدَهُ » كَأَنَّهُ غَرَسَهُ .

الأضـــداد

وَذَكَرَ « التَّوَّزِىُّ » — فِى الْأَضْدَادِ — : أَنَّهُ يُقَالُ : « قَعَدَ » فِى مَعْنَى : « قَامَ » وَهَذَا لَا يَمْتَنِعُ فِى الْقِيَاسِ ، إِلَّا أَنَّ لَهُ أَصْلاً يَرْجِعُ إِلَيْهِ . وَلَا يُرَادُ بِهِ : الْقِيَامُ — عَلَى الْحَقِيقَةِ — وَلَكِنَّهُ مُسْتَعَارٌ ، كَمَا يُقَالُ : « قَدْ قَامَ الْأَمِيرُ بِأَمْرِ الْبَلَدِ » .

لَيْسَ يُرِيدُونَ بِهِ إِلَّا النَّهْضَةَ ، لَا الِانْتِقَالَ مِنْ حَالِ الْجُلُوسِ إِلَى حَالِ الْقِيَامِ .

فَأَمَّا قَوْلُ الشَّاعِرِ :

« قُلْتُ لِبَيْضَاءَ يَهُودِيَّةٍ : أَلَا أَصْبَحِينِى قَهْوَةً تُرْعَــدُ
كَرْمِيَّةً — لَيْسَتْ بِنَخْلِيَّةٍ — صَهْبَاءَ ، مِمَّا حُلِبَ الْمُقْعَدُ »

فَقِيلَ : أَرَادَ بِالْمُقْعَدِ : « الدَّنَّ » ، وَقِيلَ : « أَرَادَ : عُنْقُودَ الْعِنَبِ ، إِذَا ضَخُمَ ، وَاعْتَمَدَ عَلَى الْأَرْضِ . »

***

وَلَوْ كَانَ لِقَوْلِ الْأَعْشَى :

وَمُصَابُ غَادِيَةٍ كَأَنَّ تِجَارَهَا   نَشَرَتْ عَلَيْهِ بَزَّهَا وَرِحَالَهَا

مَا شَاءَ اللهُ — مِنَ الثَّمَرِ وَالْغَلَّةِ — لَمْ تَعْرِضْ لِأَخْذِهِ : « قِفَا نَبْكِ » لِأَنَّهَا مَلِكَةٌ ، وَلِأَنَّهُ مُقْعَدٌ .

واجبات السلطان

وَالسُّلْطَانُ الْمَنْصُورُ الْمُؤَيَّدُ — خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ — تَجِبُ عَلَيْهِ أَنْوَاعُ صَدَقَاتٍ ، وَهُوَ قَائِمٌ بِهَا — فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ — وَالْفُقَهَاءُ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ مَا سَقَتْهُ السَّمَاءُ ، فِيهِ الْعُشْرُ ، وَمَا سُقِيَ بِالسَّانِيَةِ(١) فَفِيهِ نِصْفُ مَا سُقِيَ بِالسَّحَابِ .

وَلَمْ تَزَلِ السَّلَاطِينُ تَكْرَهُ أَنْ تَنْزِعَ الشَّيْءَ مِنْ أَيْدِي أَهْلِ الْمِحَنِ اللَّازِمَةِ وَهَؤُلَاءِ الْجَمَاعَةُ يَسْأَلُونَ السُّلْطَانَ : أَنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ مِنْ جَاهِهِ ، وَيَقُولُونَ مَا قَالَ إِخْوَةُ « يُوسُفَ » لِلْعَزِيزِ :

« أَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ، وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ » !

---

(١) السانيـــة : الغَرْب مع أدواته (أى : الدلو العظيمة) ، والناقة يُستقى عليها من البئر ، يقال : « أذل من السانية » ومنه المثل : « سير السوانى سفر لا ينقطع » .

« الشارح »

بين المعرى والمغربى

ابو القاسم المغربى

قلما اجتمع لأحد من أولى الأمر — فى زمن المعرى — مثل ما اجتمع للوزير أبى القاسم من خصوم وأنصار ، وأصفياء وحساد ، فقد اختلف معاصروه فيه أيما اختلاف (١) ، ولقى من صنوف المدح والهجاء ، مقدار مالقى من ألوان الشدة والرخاء .

ولقد نشأ الوزير أبو القاسم من أسرة تالدة المجد (٢) ، باذخة السلطان ، أنجبت صفوة

---

(١) وصفه أحد المؤرخين فقال : « كان ملولا حقودا ، لا تلين كبده ، ولا تنحل عقده ، ولا يحنى عوده ، ولا ترجى وعوده ، وله رأى يزين له العقوق ، ويبغض إليه رعاية الحقوق ، كأنه — من كبره — قد ركب الفلك ، واستولى على ذات الحبك » . يعنى السماء ذات النجوم . وقد وصفه ابن القارح فقال : « وكان أبوالقاسم ملولا ، والملول ربما مل الملال ، وكان لا يمل أن يمل ، ويحقد حقد من لا تلين كبده ، ولا تنحل عقده الخ » إلى أن يقول : « ويقضى له — شهد الله — حيا وميتا أوجبه أخذ محاريب الكعبة : الذهب والفضة ، وضربها دنانير ودراهم ، وسماها : الكعبية ، وأنهب العرب الرملة ، وضرب بغداد ، وكم دم سفك ، وحريم انتهك ، وحرة أرمل ، وصبى أيتم الخ » مما يراه القارئ فى رسالة ابن القارح المنشورة فى الجزء الأول من هذا الكتاب . وقد اتهمه بعض معاصريه بأنه كان ينسب فى الأزد ويتعصب بقحطان على عدنان وللانصار على قريش ، قالوا : « وكان غاليا فى ذلك مع تشيعه » ونسبوا إليه أبياتاً تبرأ منها وجحدها ، وكانت تلك الأبيات سبباً فى نفور « القادر » منه . فكأنما بلاه الله — كما بلى صفيه أبا العلاء — بالدساسين والمتخرصين . وقد رماه القدر العاتى — وهو فى مصر — بمنافسه الوزير النصرانى منصور بن عبدون ، قالوا : « وكان نصرانيا خبيثا ، وبينه وبين أبى القاسم ووالده عداوة قديمة — لأن أبا القاسم صرف به عن ديوان السواد ، فواصل أبو القاسم الوقيعة فيه ، وكان منصور هذا يعتمد فيهم مثل ذلك ، إذ كان الناظر فى الدواوين بمصر ، حتى تقدم الحاكم إلى السياف أن يقتل أبا الحسن (والد أبى القاسم) ومحمد بن المغربى ، ففعل الخ » وكان ذلك فى سنة ٤٠٠ هـ .

(٢) قال المقريزى :

« استقدم العزيز ابن المغربى إلى مصر ، ولم يزل بها حتى مات العزيز بالله .

وقام من بعده الحاكم بأمر الله أبو على منصور .

فكان هو وولده أبو القاسم حسين من جلسائه .

فلما شرع الحاكم بأمر الله فى قتل رجال الدولة من القواد والكتاب والقضاة .

قبض على علىّ ومحمد ابنى المغربى وقتلهما ، ففر منه أبو القاسم حسين بن على بن المغربى إلى حسان بن مفرج ابن الجراح ، فأجاره ، وقلد الحاكم « يا رجتكين » الشام .

نخافه ابن الجراح لكثرة عساكره .

من سراة الأعيان والوزراء ، وقد استقدم أباه « العزيزُ بالله » إلى مصر ، ولم يزل بها حتى

فحسن له ابن المغربى مهاجته .

فطرق « يا رجتكين » فى مسيره — على غفلة — وأسره .

وعاد إلى الرملة ، فشن الغارات على رساتيقها ، وخرج العسكر الذى بالرملة ، فقاتل العرب قتالا شديداً وكادت العرب أن تنهزم ، لولا أن ثبتها ابن المغربى ، وأشار عليهم باشهار النداء باباحة النهب والغنيمة ، فثبتوا ونادوا فى الناس ، فاجتمع لهم خلق كثير ، وزحفوا إلى الرملة فملكوها .

وبالغوا فى النهب والهتك والقتل ، فانزعج الحاكم انزعاجاً عظيما ، وكتب إلى مفرج بن جراح يحذره سوء العاقبة ، ويلزمه باطلاق « يا رجتكين » من يد « حسان » ابنه ، وإرساله إلى القاهرة .

ووعده على ذلك بخمسين ألف دينار .

فبادر ابن المغربى لما بلغه ذلك إلى حسان ، وما زال يغريه بقتل يارجتكين حتى أحضره وضرب عنقه .

فشق ذلك على مفرج ، وعلم أنه فسد ما بينهم وبين الحاكم .

فأخذ ابن المغربى يحسن لمفرج خلع طاعة الحاكم والدعاء لغيره ، إلى أن استجاب له .

فراسل أبا الفتوح الحسن بن جعفر العلوى أمير مكة يدعوه إلى الخلافة ، وسهل له الأمر ، وسير إليه بابن المغربى يحثه على السير .

وجرأه على أخذ مال تركة بعض المياسير ، ونزع المحاريب الذهب والفضة المنصوبة على الكعبة ، وضربها دنانير ودراهم ، وسماها الكعبية .

☆

☆ ☆

وخرج ابن المغربى من مكة ، فدعا العرب — من سليم ، وهلال ، وعوف بن عامر — ثم سار به وبمن اجتمع عليه من العرب حتى نزل الرملة .

فتلقاه بنو الجراح ، وقبلوا له الأرض ، وسلموا عليه بإمرة المؤمنين .

ونادى — فى الناس — بالأمان ، وصلى بالناس الجمعة .

فامتعض الحاكم لذلك .

وأخذ فى استمالة حسان ومفرج وغيرهما ، وبذل لهم الأموال ، فتنكروا على أبى الفتوح .

وقلد أيضاً مكة بعض بنى عم أبى الفتوح ، فضعف أمره .

وأحس من « حسان » بالغدر ، فرجع إلى مكة ، وكاتب الحاكم واعتذر إليه ، فقبل عذره .

☆

☆ ☆

أما ابن المغربى ، فانه لما انحل أمر أبى الفتوح ، ورأى ميل بنى الجراح إلى الحاكم ، كتب إليه :

وأنت — وحسبي أنت — تعلم أن لى ... لساناً أمام المجد ، يبنى ويهدم
وليس حليماً من تباس يمينه ... فيرضى ، ولكن من تعض فيحلم

فسير إليه أمانا بخطه .

مات العزيز ، وقام من بعده الحاكم بأمر الله ، فكان أبو القاسم ووالده من جلساء الحاكم وأصفيائه .

وكان أبو القاسم شديد الطموح ، بعيد الهمة ، كأنما عناه المتنبى بقوله :

« أريد – من زمنى ذا – أن يبلغنى   ما ليس يبلغه من نفسه الزمن »

وقد مر بالقارىء قوله لابن القارح (١) :

« ما نرضى بالخمول الذى نحن فيه » .

وتوجه ابن المغربى — قبل وصول أمان الحاكم إليه — إلى بغداد .
وبلغ القادر بالله خبره ، فاتهمه بأنه قدم فى فساد الدولة العباسية .
فخرج إلى واسط ، واستعطف القادر فعطف عليه . وعاد إلى بغداد .
ثم مضى إلى قرواش بن المقلد – أمير العرب — وسار معه إلى الموصل ، فأقام بها مدة .
وخافه وزير قرواش فأخرجه إلى ديار بكر ، فأقام عند أميرها نصير الدولة أبى نصر أحمد بن مروان الكردى وأقام هناك مدة طويلة فى أعلى حال وأجل رتبة وأعظم منزلة ، ثم كوتب بالمسير إلى الموصل ليستوزره صاحبها ، فسار عن ميافارقين وديار بكر إلى الموصل ، فتقلد وزارتها وتردد إلى بغداد فى الوساطة بين صاحب الموصل وبين السلطان أبى على ابن سلطان الدولة أبى شجاع بن بهاء الدولة بن بويه .
واجتمع برؤساء الديلم والأتراك ، وتحدث فى وزارة الحضرة ، حتى تقلدها بغير خلع ولا لقب ولا مفارقة الدراعة فى شهر رمضان سنة خمس عشرة وأربعمائة .
فأقام شهوراً ، وأغرى رجال الدولة بعضهم ببعض ، وكانت أمور طويلة آلت إلى خروجه – من الحضرة – إلى قرواش .
قال المقريزى :
« فتجدد للقادر بالله فيه سوء ظن ، بسبب ما أثاره من الفتنة العظيمة بالكوفة ، حتى ذهبت فيها عدة نفوس وأموال .
ففر إلى أبى نصر بن مروان ، فأكرمه وأقطعه ضياعاً ، وأقام عنده ، فكوتب من بغداد بالعود إليها .
فبرز عن ميافارقين يريد المسير إلى بغداد ، فسم هناك .
وعاد إلى المدينة فمات بها لأيام خلت من شهر رمضان سنة ثمان عشرة وأربعمائة .
ومولده بمصر ليلة الثالث عشر من ذى الحجة سنة سبعين وثلثمائة .

(١) ارجع إلى رسالة ابن القارح المنشورة فى الجزء الأول من هذا الكتاب . وقد وصف أبا القاسم بعض المؤرخين فقال : « كان أبو القاسم أسمر شديد السمرة ، عالماً ، بليغاً ، مترسلا ، متفنناً فى كثير من العلوم الدينية والأدبية والنحوية » . قال : « وكان مشاراً إليه فى قوة الذكاء والفطنة ، وسرعة الخاطر والبديهة ، عظيم القدر ، صاحب سياسة وتدبير ، وحيل كثيرة ، وأمور عظام . دوخ الممالك ، وقلب الدول ، وسمع الحديث ، وروى ، وصنف عدة تصانيف » .

فقال له ابن القارح : « وأى خمول هنا ؟ تأخذون من مولانا – خلد الله ملكه – فى كل سنة ستة آلاف دينار ، وأبوك من شيوخ الدولة ، وهو معظم مكرم » .

فقال أبو القاسم : « أريد أن تصار إلى أبوابنا الكتائب والمقانب ، ولا أرضى بأن يُجْرى علينا ، كالولدان والنسوان ! » .

فلما أعاد ابن القارح كلام أبى القاسم على أبيه ، ارتاع وقبض على لحيته وهامته من الذعر ، لجرأة ولده ، وقال :

« ما أخوفنى أن يخضب أبو القاسم هذه من هذه » .

وقد صح تكهّن أبيه، إذْ كان فى طموح أبى القاسم مصرع أبيه وعمه وأخويه وتشتيت أسرته.

وهنا نترك القول للمؤرخ البارع الثقة ، ابن خلكان، ليتم لنا قصة هذا الوزير الخطير، قال :

« وكان الوزير من الدهاة العارفين .

ولما قتل الحاكم – صاحب مصر – أباه وعمه وأخويه[(١)] ، وهرب الوزير ، وصل إلى الرملة ، واجتمع بصاحبها المتغلب عليها حسان بن مفرج و بنيه و بنى عمه ، وأفسد نياتهم على الحاكم – صاحب مصر المذكور – ثم توجه إلى الحجاز ، وأطمع صاحب مكة فى الحاكم ، ومملكة الديار المصرية .

وعمل – فى ذلك – عملا ، قلق الحاكم – بسببه – وخاف على ملكه – (وقصته فى ذلك طويلة) – إلى أن أرضى الحاكم بنى الجراح ، ببذل الأموال لهم . واستمالهم إليه .

وكان صاحب « مكة » ، وهو : أبو الفتوح الحسن بن جعفر العلوى ، قد استدعوه ، ووصل إليهم ، و بايعوه بالخلافة ، ولقبوه بالرشيد – بتدبير أبى القاسم المذكور – فلم يزل الحاكم يعمل الحيل حتى استمال بنى الجراح إليه ، وانتقض أمر أبى الفتوح، وهرب إلى مكة.

وقصد الوزير « أبو القاسم » العراق – هارباً من الحاكم ، ومفارقاً لبنى الجراح – وقصد فخر الملك : أبا غالب بن خلف الوزير .

*
* *

ورفع خبره إلى الإمام : القادر بالله ، فاتهمه بأنه ورد لإفساد الدولة العباسية .

---

(١) فعل ذلك فى الثالث من ذى القعدة سنة أربعمائة .

وراسل « فخرَ الملك » فى إبعاده ، فاعتذر عنه فخر الملك ، وقام فى أمره .

واتفق انحدار « فخر الملك » من بغداد إلى واسط ، فأخذ أبا القاسم ـ فى جملته ـ وأقام معه بواسط ، على جملة من الرعاية ، إلى أن توفى فخر الملك مقتولاً .

وشرع الوزير : « أبو القاسم » فى استعطاف قلب الإمام : « القادر بالله » والتنصل مما نبذ به ، حتى صلح له بعض الصلاح .

وعاد إلى بغداد ، وأقام قليلاً ، ثم أصعد إلى الموصل .

*
* *

واتفق موت أبى الحسن بن أبى الوزير ، كاتب معتمد الدولة « أبى المنيع قرواش » : أمير بنى عقيل ، فتقلد كتابته موضعه .

ثم شرع « أبو القاسم » يسعى فى وزارة الملك : « مشرف الدولة البويهى » ولم يزل يعمل السعى ، إلى أن قبض على الوزير : مؤيد الملك أبى علىّ .

فكوتب الوزير : « أبو القاسم » بالحضور من الموصل إلى الحضرة ، وقلد الوزارة من غير خلع ، ولا لقب . وأقام كذلك حتى جرى من الأحوال ما أوجب مفارقة « مشرف الدولة » بغداد .

فخرج معه منها ، وقصدا أبا سنان غريب بن محمد بن مقن ، ونزلا عليه .

وبينما هو على ذلك ، إذ عرض له إشفاق من مخدومه : « مشرف الدولة » دعاه إلى مفارقته .

*
* *

فانتقل بعد ذلك إلى أبى المنيع : « قرواش » - بالموصل - وأقام عنده .

ثم تجدد من سوء رأى الإمام القادر فيه ، ما ألجأته الضرورة — بسبب ما كوتب به قرواش — إلى مفارقته ، والإبعاد عنه .

*
* *

وقصد أبا نصر بن مروان ، بميافارقين ، وأقام عنـده — على سبيل الضيافة — إلى أن توفى .

وقيل : إنه لما توجه إلى ديار بكر ، وزر لسلطانها : أحمد بن مروان — المقدم ذكره — وأقام عنده إلى أن توفى فى ثالث عشر شهر رمضان سنة ثمانى عشرة وأربعمائة .

*
* *

وكانت وفاته بميافارقين ، وحمل إلى الكوفة بوصية منه .

وله — فى ذلك — حديث يطول شرحه ، ودفن بها فى تربة مجاورة لمشهد الإمام على بن أبى طالب .

رسائل «أبى القاسم»

لم نظفر من رسائل المعرى لأبى القاسم إلاَّ برسالتين طويلتين ، ورقعة موجزة ، ولم نظفر من رسائل أبى القاسم إلى المعرى إلاَّ برسالة واحدة يراها القارئ فى ختام هذا الفصل .

وقد عرفنا من رسائله أن الوزير أبا القاسم قد صحب المعرى زمناً حين كان الوزير مع أبيه فى حلب (وهى قريبة من المعرّة) وأنه قد سحر ببيان المعرى ، كما فتن المعرى بألمعيته . حتى إذا وصل أبو القاسم إلى مصر بعث إلى صفيه المعرى بأشواقه ، وأهدى إليه باكورة تواليفه ، وهو : «مختصر إصلاح المنطق[1]» .

والرسائل التى دارت بين الصديقين تمثل الحب والإكبار ، وتدل على الوفاء والصفاء ، وقد

---

(١) وقد وجد بخط والد الوزير المغربى — على ظهر مختصر إصلاح المنطق الذى اختصره ولده الوزير ما مثاله :

« ولد — سلمه الله ، وبلغه مبالغ الصالحين — فى أول وقت طلوع الفجر من ليلة صباحها يوم الأحد ، الثالث عشر من ذى الحجة سنة سبعين وثلثمائة ، واستظهر القرآن وعدة من الكتب المجردة فى النحو واللغة ، ونحو خمسة عشر ألف بيت من مختار الشعر القديم ، ونظم الشعر ، وتصرف فى النثر ، وبلغ من الخط إلى ما يقصر عنه نظراؤه — من حساب المولد والجبر والمقابلة — إلى ما يستقل بدونه الكاتب ، وذلك كله قبل استكماله أربع عشرة سنة .

واختصر هذا الكتاب ، فتناهى فى اختصاره ، وأوفى على جميع فوائده ، حتى لم يفته شىء من ألفاظه .

وغير من أبوابه — ما أوجب التدبير تغييره ، للحاجة إلى الاختصار ، وجمع كل نوع إلى ما يليق به .

ثم ذكرت له نظمه — بعد اختصاره — فابتدأ به ، وعمل منه عدة أوراق فى ليلة — وكان جميع ذلك قبل استكماله سبع عشرة سنة ، وأرغب إلى الله فى بقائه ، ودوام سلامته . »

دافع المعرى عن صديقه بعد مماته فى رسالته إلى ابن القارح[١]، دفاع الصديق الحبيب . فقال :

« وأما صديقه الذى جُدِب عند السَّبْر[٢]، فهو يعرف المثل : « أعرِضْ عن ذى قبر » . إذا حَجَز ـ دون الشخص ـ تراب ، فقد تقضّت الآراب . مَن لِيمَ فى حياته ، استحق المعذرة فى مماته .

ولعله نطق ـ بما نطق ـ فى معنى انبساط ، ولا هو بالكلم ساطٍ ، ومن غفر ذنب حيّ وهو يُلحِقُ به الأذاة ، فكيف لا يغفر له ـ بعد الميتةِ ـ وقد عَدِم منه الشذاة ؟

وسلام على رمس من مخالِس ، يُعْدَل بألف تسليمة فى المجالس ، وهو يعرف ما قالوه فى معنى البيت : « وآتى صاحبى حيث ودَّعا » أى : أزور قبره .

وقال :

« والمثل السائر : « على أهلها تجنى براقش » .

وذكر الصُّولىُّ : أنه دخل على المتّقى — بعد ما قتلَ بنو حمدانَ مُحمَّدَ بن رائق — فسأله عن أبيات نَهْشَل بن حَرِىّ :

ومَوْلًى عصانى ، واستبد برأيه كما لم يطع — بالبقّتين — قصير

فلما رأى ما غِبّ أمرى وأمره وناءت — بأعجاز الأمور — صدور

تمنّى — نئيشاً[٣] — أن يكون أطاعنى ، وقد حدثت — بعد الأمور — أمور »

وقال :

« وما زال الشبان — المحسون من أنفسهم بالنهضة — يبغون ما شرف من المراهص[٤] ، وكيف بالسلامة من الواهص[٥] ، والمثل السائر : رأى الشيخ خير من مشهد الغلام .

---

(١) سجل المعرى هذه الآراء فى رسالة الغفران عام ٤٢٤ أى بعد وفاة الوزير أبى القاسم بست سنوات تقريبا .

(٢) جدب عند السبر ، أى : « عيب عند الاختبار » .

(٣) قال المعرى : « يقال : « فعل كذا نئيشاً » أى بعد ما فات ، قال الشاعر :

إنك يا قطين — ولست منهم — لألأم مالك عقباً وريشاً

تناءت منكم « عدس بن زيد » فلم تعرفكم إلا نئيشاً »

(٤) المراهص : المنازل والمراتب ، (جمع مرهصة) يقال : « كيف مرهصة فلان عند الملك ؟ » وقيل : المراهص : المراتب ، ولم يسمع واحدها (٥) القاصم

وربما سار الطالب سورة ، فواجهت من القدر زورة ، إن الغفّة(١) من العيش ، لتغني المجتهد عن البرى والريش ، ولكن لا موئل من القضاء المحتوم ، وآهٍ من عُمرٍ — بالتلف — مختوم :

وسَوْرة علم لم تُسَدَّدْ ، فأصبحت وما يُتمارى أنها سَوْرة الجهل »

وذكر أبو العلاء صديقه ابن القارح بفضل والد الوزير أبى القاسم عليه ، وعلى الأدب والأدباء ، فقال :

« وأما انحيازه إلى أبى الحسن(٢) — رحمه الله — فقد كان ذلك الرجل سيداً ، ولمن ضعُفَ — من أهل الأدب — مؤيداً ، ولمن قوِىَ منهم وادًّا ، ودونه — للنُّوَبِ — مُحادًّا ، وكان كما قال القائل :

« وإذا رأيت صديقه وشقيقه لم تدر : أيهما ذوو الأرحام ؟ »

وكما قال الطائى :

كلٌّ شِعب كنتم به آلَ وَهْبٍ : فهو شِعبى ، وشِعْبُ كلِّ أديب »

* * *

ولقد غمر المعرى صديقه أبا القاسم بسيل من المجاملة والتودد والإعجاب فى رسائله ، ولكنه سجل رأيه فيه بين ثنايا هذه المظاهرات البلاغية الصاخبة . فقال — فى رسالته الإغريضية — إنه : « يجمع بين اللفظ القليل ، والمعنى الجليل ، جمع الأفعوان — فى لعابه — بين القِلّة ، وفقد البِلّة ! »

فلما مات أبو القاسم أبدع المعرى فى رثائه حين بلغه نعيه ، ولم يرث فى لزومياته غيره . فقال :

ليس يَبْقَى الضَّرْبُ الطَّوِيلُ — عَلَى الدَّهْـرِ — وَلاذُو الْعُبالَةِ الدِّرْحَايَـهْ(٣)
يا أبا الْقَاسِمِ الْوَزِيرَ تَرَحَّلْـتَ ، وَخَلَّفْتَنِى ثِفَالَ(٤) رَحَايَهْ

---

(١) البلغة من العيش ، قال الشاعر : « وغفة من قوام العيش تكفينى » (٢) يعنى انحياز ابن القارح إلى الوزير أبى الحسن والد الوزير أبى القاسم المغربى . (٣) يقول : ليس يبقى على حدثان الدهر الندب الخفيف ، ولا الغليظ القصير . وقد كان أبو القاسم — على سمرته الشديدة — ندبا ، بساطا فى الجسم .
(٤) الجلدة التى توضع أسفل الرحى

وَتَرَكْتَ الْكُتْبَ الثَّمِينَةَ لِلنَّا س ، وَمَا رُحْتَ عَنْهُمُ بِسِحَايَه[1]
لَيْتَنِى كُنْتُ — قَبْلَ أَنْ تَشْرَبَ المَوْ تَ أَصِيلاً — شَرِبْتُهُ بِضُحَايَهْ
إنْ نحتكَ المَنُونُ — قَبْلُ — فَإِنِّى مُنْتَحاهَا ، وَإِنَّهَا مُنْتَحايَهْ
أُمُّ دَفْرٍ[2] تَقُولُ — بَعْدَكَ — لِلذَّا ئِقِ : « لاَ طَعْمَ لِى ، فَأَيْنَ فَحَايَه ؟[3] »

***

إنْ يَخُطَّ الذَّنْبَ الْيَسِيرَ حَفِيظَا كَ ، فَكَمْ مِنْ فَضِيلَةٍ مَحَّايَه[4]

شعر أبى القاسم

وإلى القارئ أمثلة من شعر أبى القاسم المغربى :

(١) أقول لها ، والعيس تحدُج للسرى : أعِدِّى ـ لفقدى ـ ما استطعت من الصبر
سأُنفق رَيْعان الشبيبة آنفاً ، على طلب العلياء ، أو طلب الأجر
أليس من الخُسْران أن لياليا تمر ـ بلا نفع ـ وتُحْسَب من عمرى ؟
(٢) إنى أبثك من حديثى ، والحديثُ له شجونُ :
غيَّرتُ موضع مرقدى ليلاً ، ففارقنى السكونُ
قل لى : « فأوَّلُ ليلة — فى القبر — كيف تُرى أكون ؟ »
(٣) أرى الناس ـ فى الدنيا ـ كراع تنكَّرت مراعيه ، حتى ليس فيهن مرتَعُ
فماء بلا مرعى ، ومرعى بغير ما ، وحيث ترى ماء ومرعى ، فمَسْبَعُ
(٤) وأوصى أن يكتب على قبره :
كنت ـ فى سَفْرة الغواية والجهلِ — مقيما ، فحان منى قدوم
تبت من كل مأثم ، فعسى يمحى — بهذا الحديث — ذاك القديم
بعد خَمْس وأربعين لَقَدْ ما طلت ، إلاَّ أن الغريم كريمُ

---

(١) لم تظفر منها بالقشر بله اللباب (٢) كنية الدنيا (٣) يقول : إن الدنيا لا طعم لها إذا خلت من أبى القاسم ، فإنه لها كالتوابل للطعام ، إذا خلا منها فقد طعمه . (٤) يشير بهذا البيت إلى قول أبى القاسم :
« تبت من كل مأثم ، فعسى يمحى — بهذا الحديث — ذاك القديم »

رسالة أبى القاسم

[عرضنا على القارئ نماذج من شعر أبى القاسم المغربى الرائع ، فالآن نعرض عليه نموذجاً من نثره ، وهو رسالته التى بعث بها إلى المعرى وأخيه ، وجمع فيها بين منثوره ومنظومه ، فقال] :

هَذِهِ — أطَالَ اللهُ تعالَى لِسَيِّدَىَّ الشَّيْخَيْنِ ، فِى سُبُوغِ النِّعْمَةِ الْبقَاء ، وَأَدام لَهُمَا فِى ذِرْوَةِ الْمَجْدِ الارْتِقَاء ، وَجَعَل لَهُمَا مِنْ كُلِّ سُوءِ الفِدَاءَ وَالْوِقَاء — نَفْثَةُ مَصْدُورٍ ، وَضَجْرَةُ مَأْسُورٍ ، بَعَثَتْهُمَا صَبَابَةُ هَوًى ، تُذْكِيهِمَا نَارُ الْغَرَامِ فِى صَبَابَةِ لِقَاء :

« بَقِيَّةُ شِلْوٍ كَسَّرَ الْبَيْنُ عَظْمَهُ ، وَمَزَّقَ جِلْداً ، كَانَ يَسْتُرُ مَا بَقِى
أَقَامَ ، فَلاَ تِلْكَ الْخَوَافِى تُطِيعُهُ نُهُوضًا ، ولاَ تِلْكَ الْقَوَادِمُ تَرْتَقِى »

وَلاَ بُدَّ لِلْمَصْدُورِ أَنْ يَنْفُثَ ، وَلاَ غَرْوَ لِلْمَأْسُورِ أَنْ يَتَلَهَّثَ .

وَجُمْلَتُهَا أَنِّى كَتَبْتُ ، وَمَالِى جَارِحَةٌ ، إلاَّ وَهِىَ جَرِيحَةُ حُبِّهِمَا ؛ وَلاَ جَانِحَةٌ ، إلاَّ وَهِىَ جَانِحَةٌ إِلَى قُرْبِهِمَا ، وَلاَ قَلْبٌ إلَّا وَهُوَ — كَيْفَمَا تَرَدَّدَ وَتَقَلَّبَ — فِى مَرْضَاتِهِمَا ، وَلاَ نَفَسٌ إلاَّ وَهُوَ — كَيْفَمَا تَصَعَّدَ وَتَصَوَّبَ — فِى مُوَالاَتِهِمَا .

☆
☆ ☆

فَاللهُ يَحْرُسُ عَلَىَّ ، مُوقِدَىْ جَزْلِ الْغَضَى بَيْنَ جَنْبَىَّ ، وَمُوفِدَىْ جَيْشِ الصَّبَابَةِ — كُلَّ يَوْمٍ — إلَىَّ ، اللَّذَيْنِ إِنْ قَابَلْتُ بِهِمَا الْمُرُوَّةَ ، طَلَعَ سَعْدُهَا ؛ أَوْ وَاجَهْتُ بِهِمَا الْفُتُوَّةَ ، أَسْفَرَ مُرْبَدُّهَا ، وَسُرَّ مُكْمَدُهَا :

« أُرَدِّدُ فِيهِمَا فِكَراً فَتَرْجِعُ — حُسَّراً — فِكَرِى
كَذَاكَ الشَّمْسُ تَثْنِى الْعَيْنَ ، مُغْشَاةً عَنِ النَّظَرِ »

فإذا هاجت بلابلى ذكراهما، واشتقت أن أراهما، ولم أجد عوضاً عن سواهما:

« أرومُ – بالذِّكر – شفاءَ الذى يُقلقُنى من لوعةِ الذِّكرِ
ولستُ بالحاصلِ إلاَّ على إطفاءِ جمرٍ، بلظى جمرِ
وعلَّةُ الكونِ – إذا طُولبت بالجرى فى الإفسادِ – لم تجرِ »

مثَّلتُ نفسى لديهما، وقرَّرتُ مكانى بين أيديهما:

وخلوتُ أجتلبُ الرُّقادَ، لعلَّنى ألقى خيالاً منهما، فأراهما
فإذا عدمتُ النومَ، لُذتُ بفكرتى فانجاب لى – من ليلتى – فجراهما
وإذا سُئلتُ: « بمن تهيمُ صبابةً؟ » قلتُ: « اللَّذانِ هما، اللَّذانِ هما، هما! »

الموفيانِ بعهدى بالغيبِ، والسَّاترانِ – لما فىَّ – من عيبٍ؛ المُحسنانِ بى إذا أسأتُ، والمُصيبانِ – فى أمرى – إذا أخطأتُ:

« دليلاىَ – إن جارَ بى مُهتدٍ وعوناىَ، إن خذلَ النَّاصرُ
ولولا تردُّدُ فكريهما لما كانَ لى – فى الدُّجى – سامرُ »

من أجتلى غررَ محاسنهما، من جبهاتِ الدَّهرِ؛ وأقتبسُ بهجتيهما؛ من صفحاتِ العصرِ؛ وأُطالعُ طلعتيهما، من مرآةِ التَّخيُّل؛ وأشاهدُ سمتيهما، بعينِ التذكُّرِ والتَّأمُّلِ. ولا غروَ إن قربَ الودُّ، إذا بعدَ العهدُ؛ ولا ضيرَ إن تناءت الأشباحُ، إذا تدانت الأرواحُ:

« ولكن إذا حاسبتُ نفسى، تأمَّلتْ، فلم ترَ إلا فكرةً قلَّما تُجدى
فلا القلبُ يلقى غيرَ ما كانَ من أسًى ولا العينُ ترعى غيرَ ما كانَ من وجدِ

وَإِنِّى لَجَافِى الْبُعْدِ ، وَالْبُعْدُ قَاتِلِى وَشَاحِذُ حَدِّ الْبَيْنِ ، وَالْبَيْنُ لِى مُرْدِى
فَوَا أَسفَا ، مَنْ ذَا أَلُومُ عَلَى النَّوَى ؟ وَمِنْ قِبَلِى كَانَ الْفِرَاقُ ، وَمِنْ عِنْدِى
وَكَمْ قَدْ أَقَلْتُ الدَّهْرَ مِنْ خَطَإٍ ثِنًى ، فَهَلَّا أَقَالَ الدَّهْرُ مِنْ خَطَإٍ فَرْدِ
فَنَفَّثَ مِنْ كَرْبٍ ، وَفَرَّجَ مِنْ أَسًى ، وَجَمَّعَ مِنْ شَتٍّ ، وَقَرَّبَ مِنْ بُعْدِ »

وَهَيْهَاتَ ! هُوَ الَّذِى يَسُوءُ بَادِرًا ، وَيَسُرُّ نَادِرًا ؛ وَيُحْسِنُ مُبْتَدِيًا ، وَيَسُوءُ آخِرًا :

« وَيَجُودُ ، ثُمَّ يُجِيدُ أَخْذَ صِلَاتِهِ مُسْتَدْرِكًا خَطَأَ الْجَمِيلِ ، فَمُدْرِكَا
وَإِلَى الزَّمَانِ أَذُمُّ مَا أَلْقَاهُ — مِنْ غِيَرِ الزَّمَانِ — وَأَسْتَنِيمُ إِلَى الْبُكَا
وَإِذَا شَكَوْتُ إِلَيْهِ سُوءَ صَنِيعِهِ لَمْ يُشْكِنِى ، فَإِلَيْهِ مِنْهُ الْمُشْتَكَى ! »

فَعَسَاهُ أَنْ يَسْمَحَ بِاجْتِمَاعٍ ، لَا يَنْقُضُهُ ارْتِدَاعٌ ؛ وَتَلَاقٍ ، لَا يُكَدِّرُهُ افْتِرَاقٌ . وَلَوْلَا مَا أَرْجُوهُ مِنْ عَوْدِهِ إِلَى مَا عَوَّدَ ، مِنْ جَمْعِ الْفَرِيقَيْنِ ، وَلَمِّ ذَاتِ الْبَيْنِ ؛ لَمِتُّ كَمَدًا ، وَلَمْ أُطِقْ — عَلَى مَا أُقَاسِيهِ — جَلَدًا .

*
* *

فَأَمَّا حَالِى وَمَا أَنَا عَلَيْهِ ، فَجُمْلَتُهَا أَنِّى أُصْبِحُ وَأُمْسِى فِى غُلِّ التَّدْبِيرِ ، وَأَرُوحُ وَأَغْدُو فِى سِجْنِ الْمَقَادِيرِ ؛ هَدَفًا لِسِهَامِ اللَّيَالِى وَالْأَيَّامِ ، وَغَرَضًا لِأَسِنَّةِ الْأَحْوَالِ وَالْأَعْوَامِ ؛ أَجِدُ مَا لَا أُرِيدُ ، وَأُرِيدُ مَا لَا أَجِدُ :

« وَلَيْتَنِى — مِنْ زَمَانِى — خَرَجْتُ رَأْسًا بِرَأْسِ
فَلَمْ يَنَلْنِى بِخَيْرٍ ، وَلَمْ يُصِبْنِى بِبَأْسِ
وَكُنْتُ أُصْبِحُ حُرًّا ، بَيْنَ ارْتِجَاءٍ وَيَأْسِ »

وَهُما يَريَانِ ذلِكَ فِي اضْطِرابِ خَطَى، وَرُجُوعِ أَلفاظِي — شَيْئاً فَشَيْئاً — إلَى حُطًى، فَإِذَا هُما صَرَفَا التَّأَمُّلَ إلَىَّ، وَأَقْبلا — بِكُلِّيَةِ فَهْمَيْهِما — عَلَىَّ، وَجَدانِي :

« وَقَدِ اسْتَحالَ الْهَمُّ بِي، فَتَخالُنِي — مِنْ طُولِ مَا أَجِدُ الْجَوَى — مَسْرُورَا

وَقَدِ انْطَوَتْ مِنِّى الضُّلُوعُ عَلَى هَوًى لَوْ كَانَ مَحْسُوسًا، لَكَانَ سَعِيرَا »

*
* *

وَأَخْلَقُ بِمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ، أَنْ يَتَساوَى — عِنْدَهُ — الصِّحَّةُ وَالسَّقَمُ ؛ وَأَحْرَى بِمَنْ كَانَ هَذَا نَعْتُهُ، أَنْ يَتَماثَلَ عِنْدَهُ الرَّاحَةُ وَالْأَلَمُ :

« بِأَىِّ فُؤادٍ أُقَاسِى الْهُمُومَ وَفِى أَىِّ جَفْنٍ أُحِسُّ السُّهادَا ؟

وَمَا تَرَكَ الدَّمْعُ لِى مُقْلَةً وَلَا خَلَّفَ الْبَيْنُ — عِنْدِى — فُؤادَا »

وَأَنَا — مَعَ كَمَالِ هَذِهِ الأَحْوَالِ — أُخَاشِنُ الْحَجَرَ، وَأُحاسِنُ الْقَمَرَ، وَأُفاضِلُ الْهِجانَ بِالْهُجَنِ، وَأُفَضِّلُ الْغَثَاثَةَ عَلَى السِّمَنِ :

«أَتَعاطَى نَزْحَ الرَّكِيِّ[1] وَإِنْ قَصَّرَ عَنْ أَنْ يَنالَ مَاءَ رِشاءُ

وَلَعَهْدِى بِفِكْرَتِى وَهْىَ تَنْجابُ بِهَا — عَنْ صَباحِهَا — الظَّلْماءُ

غَيْرَ أَنِّى، وَإِنْ تَعاوَرَنِى الْهَمُّ، وَشَاءَ الزَّمانُ مَا لَا أَشَاءُ

فَرَمانِى مُسْتَيْقِنًا أَنَّ قَلْبًا — بَيْنَ جَنْبَىَّ — صَخْرَةٌ صَمَّاءُ

لَا أُبالِى : أَطَالَ لَيْلِى، أَمْ يَوْمِى ؟ كِلَا الرُّتْبَتَيْنِ عِنْدِى سَوَاءُ

وَالْمُغادِى : هُوَ الْمُراوِحُ مِنْ هَمِّى، وَهَذَا الصَّباحُ : ذَاكَ الْمَساءُ

---

(١) الرَّكِيّ : اسم جنس للبئر، الواحدة رَكِيَّةٌ، والجمع رُكِيٌّ

وَإِذَا الْعَيْنُ لَمْ تُعَايِنْ سِوَى السُّــوءِ ، فَسِيَّانِ ظُلْمَةٌ وَضِيَــاءُ

وَابْنِيَ الْهَمُّ ، لا ابْنُهُ أنَا ، إذْ كُــلُّ ابْنِ هَمٍّ : بَلِيَّــةٌ عَمْيَاءُ ! »

وَهَذَا قَوْلٌ أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْهُ ، وَأَسْأَلُ التَّجَاوُزَ عَنْهُ ، وَأَنْ يَجْمَعَنَا عَلَى حَالٍ تَسُرُّ الصَّدِيقَ ، وَتَكْمِدُ الْعَدُوَّ ، بِمَنِّهِ وَيُمْنِهِ ، إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ .

رسالة أبى العلاء

وقد بعث أبو العلاء بالرقعة التالية إلى صديقه أبي القاسم ، رداً على إحدى رسائله ، وهى تدل على أن المغربى قد استدعاه إليه . فأجابه المعرى معتذراً ، فقال :

كُلَّمَا هَمَّ خَبَرِى بِالْهُمُودِ ، وَأَشْرَفْتُ عَلَى الْخُمُودِ ، نَعَشَنِى اللهُ بِسَلَامٍ — يَرِدُ مِنْ حَضْرَتِهِ — يَجْعَلُ أَثَرِى كَالرَّوْضَةِ الْحَزْنِيَّةِ (١) ، والبَارِقَةِ الْمُزْنِيَّةِ (٢) .

وَلَوْ كُنْتُ عَنْ نَفْسِى رَاضِياً ، لَشَرَّفْتُهَا بِزِيَارَةِ حَضْرَتِهِ ، وَلَكِنِّى عَنْهَا غَيْرُ رَاضٍ ، وَمَا أَقْرَبَنِى إِلَى انْقِرَاضٍ (٣) .

وَإِنَّمَا أَنَا قَضِيضُ التِّمْرَادِ (٤) ، وَمُتَخَلِّفُ الْمُرَادِ (٥) ، قَدْ عُدِدْتُ فِى انَاسٍ قِيلَ فِيهِمْ :

---

(١) الروضة الحزنية : هى الروضة تنبت فى الحَزْن (وهو ما غلظ من الأرض)

(٢) السحابة الماطرة (٣) هلاك وفناء (٤) التِّمْراد : برج صغير للحمام فى بيت الحمام لمبيضه ، فإذا جعلت نسقاً بعضها فوق بعض فهى التماريد ، وهو يعنى بقضيض التمراد : فرخ الحمام (٥) أى مقصر عن الغاية .

وهذا هو الاسلوب الذى درج عليه المعرى فى الاعتذار إلى كل من يستدعيه من الأمراء والوزراء وأعيان الدولة ، وقريب منه قوله معتذراً لمن استدناه إلى حضرة الأمير عزيز الدولة :

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ ، وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

فإِنْ نَعِمْتُ أَوْ شَقِيتُ ، فَدُعَائِي مُتَّصِلٌ — بِحَضْرَتِهِ — مَا بَقِيتُ !

وإنما ذكرت ذلك لينتهي إلى حضرة السيد عزيز الدولة ـ أعزه الله نصره ـ أني تخلفت عن خدمته بمرض ، منع من أداء المفترض ، وإن الذكر — للرَّجُل — ليطير ، وغيرُه الخطير . كم من شجرة شاكَةٍ ظلها ليس برحب ، وثمرها غير عذب ، اسمها السَّمُرَة ، وكنيتها : «أُمُّ غَيْلان» تذكر في آفاق البلاد . وغيرها من أشجار الثمار ، إن ذِكرُ نُكّرٌ ، والإرماء لا توجبه للشيء الأسماء . رب أسود كريه الرائحة ، يسمى كافوراً أو عنبرا ، وقبيح الصورة — من البشر — يدعى هلالاً أوقمراً !

وكيف يتأدى إليَّ العلم وأنا رجل ضرير ، وكفى من شر سماعه .

ونشأت في بلد لا عالِم فيه ، وإنما تشبث النامية بالجوازع ، ولم أكن صاحب ثروة ، فكيف الحداء بغير بعير ؟.. »

إلى أن يقول :

« والسيد عزيز الدولة ـ أعز الله نصره ـ يعين الكسير بالجبر ، فكيف يأمر بإخراج ميت من قبر ؟ ولو كنت بارئا من هذا العلة ، لخشيت أن أصح ، فأفتضح ، لأني ما أُنصفت ، إذ وُصفت . الخ »

رسالة المنيح (١)

فاتحة

إنْ كانَ لِلآدابِ — أطالَ اللهُ بقاءَ سيِّدِنا — نَسيمٌ يَتَضوَّعُ، ولِلذَّكاء

---

(١) المنيح : من قداح الميسر ، وهو قِدْح بلا نصيب ، أو هو قِدْحٌ يُسْتعار تيمنا بفوزه ، أو قِدح له سهم مما لا نصيب له إلا أن يمنح صاحبه شيئاً . وهو أحد سهام الميسر الثلاثة التى لا نصيب لها ، أو هو السهم الثامن من سهام الميسر العشرة ، وقد كتب للسبعة الأولى منها الفوز ، وللثلاثة الباقية الخيبة .

وقد أَلِف العرب فى جاهليتهم أن يقامروا بقداح الميسر العشرة على جَزور يشتريه أحد أغنيائهم يقطعونه ثمانى وعشرين قطعة متساوية، ثم يتساهمون عليها بقداح عشرة يطلقون عليها اسم الأزلام ، ويكتبون على كل قدح منها اسمه ، وهى : الفذ ، والتوأم ، والرقيب ، والحلس ، والنافس ، والمسبل ، والمعلى ، فللأول نصيب واحد وللثانى نصيبان وهكذا حتى يصلوا إلى السابع فيظفر بسبعة أنصباء . أما الثلاثة الباقية ، وهى : « المنيح ، والسنيح ، والوغد ، فليس لها من الأنصباء شىء . وكانوا يضعون هذه القداح العشرة فى خريطة ثم يحركها أحد العدول بيده ، ثم يخرج القِدح الأول باسم رجل بعينه ، والثانى باسم آخر ، وهكذا ، ثم يعطى كل واحد منهم نصيبه ، فمن خرج له قدح غارِم — غير فائز — وجب عليه أن يدفع ثمن الجزور كله .

نارٌ تُشْرِقُ وَتَلمعُ . فقَدْ فَعَمَنا[١] — عَلَى بُعْدِ الدَّارِ — أَرَجُ أَدَبِهِ ، وَمَحَا اللَّيْلَ عَنَّا ذَكَاؤُهُ بِتَلَهُّبِهِ ؛ وَخَوَّلَ الْأَسْمَاعَ شُنُوفاً[٢] غَيْرَ ذَاهِبَةٍ ، وَأَطْلَعَ — فِي سُوَيْدَاوَاتِ[٣] الْقُلُوبِ — كَوَاكِبَ لَيْسَتْ بِغَارِبَةٍ .

نفاسة الكتاب

وَذَلِكَ أَنَّا — مَعْشَرَ أَهْلِ هَذِهِ الْبَلْدَةِ — وُهِبَ لَنَا شَرَفٌ عَظِيمٌ ، وَأُلْقِيَ إِلَيْنَا كِتَابٌ كَرِيمٌ ؛ صَدَرَ عَنْ حَضْرَةِ السَّيِّدِ الْحَبْرِ ، وَمَالِكِ أَعِنَّةِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ ؛ قِرَاءَتُهُ نُسْكٌ ، وَخِتَامُهُ — بَلْ سَائِرُهُ — مِسْكٌ : « وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ . »

أُجِلَّ عَنِ التَّقْبِيلِ ، فَظِلَالُهُ الْمُقَبَّلَةُ ؛ وَنُزِّهَ أَنْ يُبْتَذَلَ ، فَنُسَخُهُ[٤] الْمُبْتَذَلَةُ . وَإِنَّهُ عِنْدَنَا لَكِتَابٌ عَزِيزٌ .

وكان الفائزون يفرقون أنصباءهم على الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام ، ولا يختصون أنفسهم بشيء منها .

وقد ألف العرب هذه العادة — قبل أن يحرمها عليهم الإسلام — فأطلقوا فى جاهليتهم على كل من لا يدخل فى تلك المقامرات اسم : « البرم » أى اللئيم الذى لا مروءة له .

وقد أشار أبو العلاء — فى لزومياته — إلى هذه القداح ، فقال :

« يُغنيك قَطْرٌ بَلَّ منك الصدى — فى العيش — أن تزداد قَطْرَ بُلُ
والفذّ يكفيك ، إذا فاتك الرّ قيب ، والنافس ، والمسبل »

(١) ملأ خياشيمنا (٢) الشنوف : الأقراط تعلق فى الآذان (٣) حبات القلوب .

(٤) النسخ : ما ينسخ من الكتاب ، وهى دون الأصل نفاسة وشرفاً ، قال ابن الرومى هاجياً :

« لِمْ أنت أصيد تزهوه نظافته ولم أبوك عليه الذل والوسخ ؟

وَلَوْلَا الْإِلَاحَةُ(١)، عَلَى مَا ضُمِّنَ مِنَ الْمَلَاحَةِ . وَالْخَشْيَةُ عَلَى دُجَى مِدَادِهِ مِنَ التَّوَزُّعِ ، وَنَهَارِ مَعَانِيهِ مِنَ التَّشَتُّتِ وَالتَّقَطُّعِ ؛ لَعَكَفَتْ عَلَيْهِ الْأَفْوَاهُ بِاللَّثْمِ ، وَالْمَوَارِنُ(٢) بِالْانْتِشَاءِ(٣) وَالشَّمِّ ، حَتَّى تَصِيرَ سُطُورُهُ لَمًى(٤) فِى الشِّفَاهِ ، وَخِيلَانًا(٥) عَلَى مَوَاضِعِ السُّجُودِ مِنَ الْجِبَاهِ .

حكم الأزلام

وَلَوْلَا مَا حَظَرَهُ الدِّينُ مِنَ الْقِمَارِ ، وَعَابَهُ مِنْ رَأْىِ الْجَهَلَةِ الْأَغْمَارِ ؛ وَأَنَّ شَرِيعَةَ الإِسْلَامِ ، اعْتَرَضَتْ دُونَ إِجَالَةِ الْأَزْلَامِ(٦) ؛ لَضَرَبْنَا عَلَيْهِ بِالسَّبْعَةِ الْفَائِزَةِ ، وَالثَّلَاثَةِ الَّتِى لَيْسَتْ — لِحَظٍّ — بِالْحَائِزَةِ .

وَمَعَاذَ الْأَحْلَامِ(٧) أَنْ يَطْمَئِنَّ خَلَدُ الْمُنَافِسِ الشَّحِيحِ ، إِلَى أَحْكَامِ النَّافِسِ وَالْمَنِيحِ(٨) . وَإِنَّمَا كَانَتْ أَوْلِيَاءُ سَيِّدِنَا — جَعَلَ اللهُ لِشَانِئِهِ كَوْكَبَ الرَّجْمِ ، وَحَادِىَ النَّجْمِ(٩) — تَيْسِرُ(١٠) عَلَى إِقَامَةِ الصَّحِيفَةِ فِى الْمَنَازِلِ لِلْأُنْسِ الْمَطْلُوبِ ،

فقال : لا تَلْحَيَنَّا — فى تفاوتنـا — فإننا كُتب ، آباؤنا — نسخ !
وقال أيضاً — وفى الأمثال متسع — : قد يُخرج النخلة الموصوفة السبخ »

(١) الحذر والخوف (٢) الأنوف (٣) الشم (٤) سمرة مستملحة فى الشفتين

(٥) جمع خال ، وهو النكتة السوداء فى الجلد ، علامة الحسن ، قال الشاعر :

وبين الخد والشفتين خال ... كزنجى أتى روضاً صباحا
تحير فى الزهور ، فليس يدرى ... أيجنى الورد ؟ أم يجنى الأقاحا ؟

(٦) سهام الميسر (٧) العقول (٨) سهمان أولها فائز والآخر لا نصيب له .

(٩) كوكب نحس ، وهو الدبران ، والعرب تتشام به (١٠) تقامر لاعبة بالقداح العشرة : (الأزلام)

لاَ عَلَى مَقَادِيرِ السِّحَاءِ(١) مِنْ ذٰلِكَ الطِّرْسِ(٢) المَكْتُوبِ .

وَأَحْسَبُهُمْ يُوقِعُونَ عَلَيْهَا السُّهْمَةَ(٣) الْوَاقِعَةَ عَلَى كَفَالَةِ الْبَتُولِ(٤) ، وَالْحَاكِمَةَ فِى السَّفَرِ بَيْنَ صَوَاحِبِ الرَّسُولِ(٥) .

فَيَاشَرَفَهُ مِنْ صَكٍّ بِالْفَخْرِ ، يُنْجَحُ بِهِ عَلَى النُّظَرَاءِ حِيرِىَّ الدَّهْرِ(٦) ؛ مُوَشَّحاً بِكُلِّ شَذْرَةٍ أَعْذَبَ مِنْ سُلَافِ الْعُنْقُودِ ، وَأَحْسَنَ مِنَ الدِّينَارِ الْمَنْقُودِ ؛ فَجَاءَ كَلَوَائِحِ الْبُرُوقِ ، أَوْ يُوحَ(٧) عِنْدَ الشُّرُوقِ .

وَلَمْ يَزَلْ لِوَلِيِّهِ إِلَى جَنَابِهِ جَنَبُ الْفَانِيَةِ ، إِلَى عَيْشِ الْغَانِيَةِ(٨) ؛ وَأَنْضَاءِ الإِعْلَالِ ، إِلَى إِفْضَاءِ الإِبْلَالِ(٩) .

شوق المعرى

وَلَوْ أَنَّ شَوْقَهُ إِلَى حَضْرَتِهِ الْجَلِيلَةِ تَمَثَّلَ ، فَمَثَلَ ؛ وَتَجَسَّمَ ، حَتَّى يُتَوَسَّمَ(١٠) ؛ لَمَلأَ ذَاتَ الطُّولِ وَالْعَرْضِ ، وَشَغَلَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ . وَلَمْ يَكْتَفِ حَتَّى يُكَلِّفَ الْخَطْوَةَ ، أَنْ تَسَعَ صَهْوَةً(١١) ، وَالرَّاحَةَ ؛ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ السَّاحَةِ .

---

(١) أجزاء القرطاس ، يقول : « وما نريد أن نقسم الصفحة ثمانى وعشرين قطعة ، ثم نجيل عليها الأزلام ليظفر كل فائز منا بنصيب من هذا الكتاب النفيس » (٢) الكتاب

(٣) القرعة (٤) البتول : مريم عليها السلام ، وهو يشير إلى الاقتراع على كفالتها وفوز زكريا — عليه السلام — بهذه الغاية . ارجع إلى تفسير الآية الكريمة : « إذ يلقون أقلامهم ، أيهم يكفل مريم » (٥) يعنى اقتراعه صلى الله عليه وسلم بين أزواجه كلما هم بالسفر

(٦) أبد الدهر (٧) الشمس (٨) شوق العجوز إلى عودة الصبا (٩) تلهف من نهكهم المرض وأنضتهم العلة على الشفاء منها (١٠) يُرى (١١) الصهوة : المطمئن من الأرض ، تأوى إليه ضوال الإبل

وَبَلَغَ وَلِيَّهُ السَّلَامُ الَّذِى لَوْ مَرَّ بِسلِمَةٍ وَارِيَةٍ ، لَأَغْدَقَتْ(١) ؛ أَوْ سَلَمَةٍ(٢) عَارِيَةٍ ، لَأَوْرَقَتْ ؛ فَحَمَلَ فُؤَادِى مِنَ الطَّرَبِ عَلَى رَوْقِ الْيَعْفُورِ(٣) ، بَلْ فَوْقَ جَنَاحِ الْعُصْفُورِ .

سحر الكيمياء

فَكَأَنَّمَا رَفَعَنِى الْفَلَكُ ، أَوْ نَاجَانِى الْمَلَكُ . جَذَلًا بِمَا لَوْ جَازَ تَبَدُّلُ الْغَرِيزَةِ ، وَتَحَوُّلُ النَّحِيزَةِ(٤) ؛ لَنَقَلَنِى مِنْ آلِى(٥) الْعَامَّةِ ، إِلَى عَالِى السَّامَّةِ(٦) : نَقْلَ الْكِيمِيَاءِ مَا خَالَطَ مِنَ الْمُزَّأَبَقِ الْجَائِزِ ، إِلَى جُمْلَةِ النُّضَارِ(٧) الْمُتَمَايِزِ .

وَكِدْتُ لَوْلَا اشْتِمَالُ الْمَخَاوِفِ عَلَى هَذِهِ الْمَحَلَّةِ ، وَاشْتِغَالُ الضَّمَائِرِ بِقَبَسِ الْغُلَّةِ ؛ أَحْسَبُ سَلَامَهُ : السَّلَامَ الَّذِى ذَكَرَهُ الْبَارِئُ — جَلَّ اسْمُهُ — فِى قَوْلِهِ : « ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ » .

أَفَبَلَدُنَا جِنَانٌ ، أَمْ وَضَحَ لِأَهْلِهَا الْغُفْرَانُ ؟ أَمْ نُشِرُوا بَعْدَ مَا قُبِرُوا ، أَمْ جُزُوا الْغُرْفَةَ(٨) بِمَا صَبَرُوا ؟ فَهُمْ يُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا .

---

(١) أى : لو مرّ بزندٍ وارٍ تقتدح منه النار لندى ذلك الزند الوارى وابتل (٢) شجرة

(٣) قرن الغزال (٤) الطبع (٥) الآلى : المتخلف والمقصر (٦) السامة : الخاصة

(٧) الذهب الخالص ، وهو يشير إلى النظرية التى كانت متعارفة فى عصره ، وهى تحويل الكيمياء النحاس إلى ذهب ، وقد أشار إليها ابن الرومى فى هجائه أبا الصقر ، فقال :

« عجب الناس من أبى الصقر إذ وُلـ ـىَ — بعد الإجارة — الديوانا
ولعمرى ما ذاك أعجب من أن كان علجا فصار من شيبانا
إن للحظ كيمياء — إذا ما مس كلباً — أحاله إنسانا
يفعـــل الله ما يشاء كما شا ء ، متى شاء ، كائناً ما كانا »

(٨) السماء السابعة ، يعنى : الجنة .

بلاغـة معجزة

وَإِنْ نَالوا بِمَنِّهِ أَوْصَافَ الْأَتْقِيَاءِ الْأَبْرَارِ ، فَقَدْ نَزَلَتْ بِهِمْ خَلَّةٌ مِنْ خِلالِ الْأَشْقِيَاءِ الْكُفَّارِ . وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ بِأَسَدِ الْبَلاغَةِ افْتُرِسُوا ، وَبِأَسْبَابِهَا عُقِدَتْ أَلْسِنَتُهُمْ عَنِ الْجَوَابِ فَخَرِسُوا . فَكَأَنَّمَا قِيلَ لَهُمْ : هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ . وَإِنَّمَا غَرِقُوا فِي لُجِّ التِّبَانَةِ[1] ، فَصَمَتُوا ؛ وَسَمِعُوا صَوَاعِقَ الْإِبَانَةِ ، فَخَفَتُوا ؛ فَقَلَمُ كَاتِبِهِمْ عُودُ النَّاكِتِ[2] ، وَجَوَابُ بَلِيغِهِمْ حَيْرَةُ السَّاكِتِ .

عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ رَامُوا تَصْرِيفَ الْخِطَابِ فَصُرِفُوا ، وَعَرَفُوا مَكَانَ فَضْلِهِ فَاعْتَرَفُوا ، وَتَرَاءَوْهُ مِنْ مَبَارِكِ الْعُرُوجِ ، فَلَمَحُوهُ فِي مَآرِكِ الْبُرُوجِ[3] . وَاسْتَنْهَضَتْهُمُ الْهِمَمُ إِلَى مُدَانَاتِهِ فَعَجَزُوا ، وَوَعَدُوا هَوَاجِسَهُمُ التَّبَلُّدَ فَأَنْجَزُوا . وَلَنْ تُوجَدَ آثَارُ النُّوقِ ، فِي أَوْكَارِ الْأَنُوقِ[4] ؛ فَهُمْ يَتَأَمَّلُونَ وَمِيضَهُ الْآلِقَ[5] ، وَيَحْمَدُونَ الْإِلٰهَ الْخَالِقَ ، عَلَى مَا مَنَحَهُ سَيِّدَهُمْ مِنَ الاقْتِدَارِ ، بِدَقِيقِ الْأَفْكَارِ ، عَلَى إِعَادَةِ الْيَمِّ[6] كَالْغَدِيرِ الْمُسَمَّى بِالْغَدْرِ ، وَإِلْحَاقِ السُّهَى[7] بِالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ . وَلَمْ يَزَلِ الْمَاشِي الْعَازِمُ ، أَسْرَعَ مِنْ رَاكِبِ الرَّازِمِ[8] .

---

(١) الفطنة (٢) الحائر ينكت الأرض بعود أو قلم من شدة حيرته (٣) العروج : قطعان الإبل . والمآرك : المواضع . يقول : إنهم لمحوا مكان فضله وهم فى مبارك الإبل ، فرأوه يحل منازل الشمس و بروجها (٤) العقاب (٥) المتألق (٦) البحر (٧) كوكب صغير ، وقد أشار إليه المعرى فى لاميته الشهيرة ، فقال :

« وقال السهى للشمس : أنت ضئيلة   وقال الدجى للصبح : لونك حائل
وطاولت الأرضُ السماء سفاهة   وعير قسًّا ـ بالفصاحة ـ باقل »

(٨) العازم : القوى العزيمة ، والرازم : البعير الخائر العزم ، المهزول الجسم

الطبع الصادق

فَكَيفَ بِمَنِ ٱمْتَطَى عَزْمُهُ كَتِدَ[١] ٱلرِّيحِ ، وَحَكَمَ لَهُ سَعْدُهُ بِالسَّعْيِ ٱلنَّجِيحِ ؛ وَخَصَّهُ بارِئُهُ — تقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ — بِطَبْعٍ رَاضَ ، صِعَابَ ٱلْأَغْرَاضِ ، حَتَّى ذَلَّلَهَا ، وَأَبَسَ[٢] بِوُحُوشِ ٱللُّغَاتِ فَأَهَّلَها . فَصَارَ حَزْنُ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ — إِذَا نَطَقَ بِهِ — سَهْلًا ، وَرَكِيكُهُ — إِنْ أَيَّدَهُ بِصَنْعَتِهِ — قَوِيًّا جَزْلًا . فَمَثَلُهُ مَثَلُ جَارِسَةِ ٱلْكَحْلَاءِ[٣] تَسْمَحُ بِٱلْمَسَائِبِ ٱلْمِلَاءِ ؛ تَطْعَمُ ٱلْغَرَبَ[٤] ، وَتَجُودُ بِٱلضَّرَبِ ؛ وَتَجْنِي مُرَّ ٱلْأَنْوَارِ ، فَيَعُودُ شُهْداً عِنْدَ ٱلِاشْتِيَارِ . وَكَٱلْهَوَاءِ فِي مَذْهَبٍ لَا أَعْتَقِدُهُ ، وَقَوْلٍ سِوَايَ مَنْ يُسَدِّدُهُ[٥] : يَجْتَذِبُ أَجْزَاءَ ٱلْبُخَارِ ، فَيَسْقِي مَنْ تَحْتَهُ عَذْبَ ٱلْأَمْطَارِ . وَمَنْ لَنَا بِأَنَّ ٱللَّفْظَ ٱلْمَشُوفَ[٦] ، يُمَثَّلُ عَلَيْهِ ٱلتَّمْثِيلَ عَلَى ٱلْحُرُوفِ ؛ فَتَكَلَّفَ أَلْبَابُنَا ٱقْتِضَابَ ٱلْعَسِيرِ ، وَرُكُوبَ مَا لَيْسَ بِيَسِيرٍ ، فَعَسَاهَا تُبَلُّ[٧] بِفِقْرَةٍ زَاهِرَةٍ ، أَوْ تَظْفَرُ بِٱسْتِخْرَاجِ لُؤْلُؤَةٍ فَاخِرَةٍ . عَلَى أَنَّهُ مِنَ ٱلْعَنَاءِ سُؤَالُ ٱلْبَرِمِ ، وَرِيَاضَةُ ٱلْهَرِمِ . وَهَيْهَاتَ بَعُدَتْ مَحَالُّ

---

(١) الكتد : مجتمع الكتفين (٢) ذللها وراضها (٣) جارسة الكحلاء : النحلة تجرس الشجر ، أي : تجنيه لتمجه ضَرَباً ، والضرب : العسل ، وفى هذا المعنى يقول المعرى من قصيدته إلى صديقه أبى الخطاب :

« ردت لطافته ، وحدة ذهنه وحش اللغات أوانسا بخطابه
والنحل يجنى المرَّ — من نوْر الرُّبى — فيعود شُهداً فى طريق رُضَابه »

(٤) المسائب الملاء : أوعية العسل المملوءة . والغرب : نبت مر (٥) ليت المعرى قال : « وكالهواء فى مذهب أعتقده ، وقولٍ سواى من لا يسدده » ليساير بذلك الحق ، ويرضى الصحيح . (٦) المصقول المجلوّ (٧) تشفى

اُلْغفْرِ الطَّالِعِ[١] ، عَنْ مَزَالِّ الْغُفْرِ[٢] الظَّالِعِ[٣] ؛ وَأَعْجزَ الْبَارِقُ ، يدَ السَّارِقِ ؛ وَجلَّتِ الشُّمُوسُ ، عَنْ سُكْنَى الرُّمُوسِ .

وَلَو اجْتَهَدَ الْخزَزُ[٤] — مَدَى عُمْرِهِ — مَا أَشْبَهَ ضَغِيبُهُ[٥] زَئِيرَ الْأَسَدِ ، وَلَنْ يَصِيرَ سَوْطُ بَاطِلٍ[٦] — فِي الْقُوَّةِ — كَالْمَسَدِ . وَلَوَدِدْتُ لَوْ رُزِقَ لَامُهُ[٧] ، مَا رُزِقَ كَلَامُهُ ؛ لِينَالَ خُلُودَ الزَّمَانِ ، وَتُعْطِيَهُ الْحَوَادِثُ أَوْكَدَ أَمَانٍ . فَإِنَّهُ أَوْلَى النَّاسِ ، بِإِضَاءَةِ النِّبْرَاسِ ؛ إِذْ كَانَ فِي زَكَاءِ[٨] الْهِمَّةِ مَغْرِسُهُ ، وَبِأَجْذَالِ[٩] الْحِكْمَةِ مُذْ نَشَأَ تَمَرُّسُهُ ؛ حَتَّى عَلَا مِنْهَا سَرَاةَ الْمِنْبَرِ ، وَرَكِبَ طَالِبُهُ أُصُولَ السَّخْبَرِ[١٠] .

عجز المنافسين

وَقَدْ كَانَ — فِيمَنْ مَضَى — قَوْمٌ جَعَلُوا الرَّسَائِلَ ، كَالْوَسَائِلِ ؛ وَتَزَيَّنُوا بِالسَّجْعِ ، تَزَيُّنَ الْمُحُولِ بِالرَّجْعِ[١١] . ما رَقُوا فِي دَرَجَتِهِ ، وَلَا وَضَعُوا قَدَمًا عَلَى مَحَجَّتِهِ[١٢] ؛ لَـٰكِنَّهُمْ تَعَاوَنُوا ، فَمَا تَبَايَنُوا ؛ وَتَنَاضَلُوا ، فَلَمْ يَتَفَاضَلُوا . وَلَوْ طَمِعُوا

---

(١) منازل النجم الطالع (٢) ولد الوعول (٣) الأعرج (٤) الأرنب

(٥) الضغيب : صوت الأرنب (٦) سوط باطل : حبل منسوج من ضوء الشمس ، يراه الرائى من كوة أشبه شىء بالهباء (٧) اللام : الشخص ، قال أبو العلاء :

« تواصل حبل النسل ما بين آدم وبينى ، ولم يوصل بلامِىَ باء »

أى لم توصل أنثى بشخصى ، يعنى أنه لم يتزوج قط (٨) نماء (٩) الأعواد (١٠) شجر طويل ينثنى من أصوله ، فيضرب به المثل لمن ينكث عهده ، فيقال : « ركب فلان أصول السَّخْبَر » أى : غدر . (١١) أى تزين الأراضى المحلة الجدباء بالمطر ، قال تعالى : « وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزَّتْ وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » وفى رواية : «تزين المُحْوِلِ بالرَّجْعِ» والمحول : الطفل ابن سنة ، والرجع : الوشم (١٢) منهاجه

فِي ٱلْوُصُولِ ، إِلَى مِثْلِ هَذِهِ ٱلْفُصُولِ ؛ لَٱخْتَارُوا ٱلرَّتَبَ ، عَلَى ٱلرُّتَبِ[١] ؛ وَرَضُوا ٱعْتِسَافَ ٱلسَّبِيلِ ، وَٱرْتِعَاءَ ٱلْوَبِيلِ[٢] ؛ لِيُدْرِكُوا بِطَلَبِهِمْ مَا أَدْرَكَهُ عَنْ غَيْرِ جِدٍّ ، وَٱغْتَرَفَهُ مِنْ بَدِيهِهِ ٱلْعِدِّ[٣] .

وَكُلُّهُمْ لَوْ شَاهَدَهُ لَرَضِيَ بِأَنْ يُدْعَى ٱلسُّكَيْتَ[٤] فِي حَلْبَةٍ سَيِّدُنَا فِيهَا سَابِقُ ٱلرِّهَانِ ، وَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ زُجًّا[٥] فِي قَنَاةٍ هُوَ مِنْهَا مَوْضِعُ ٱلسِّنَانِ .

وَلَمَّا وَرَدَتْ مَعَ عَبْدِهِ مُوسَى تِلْكَ ٱلْغَرَائِبُ ٱلْمُؤْنِسَةُ ، وَٱلْقَلَائِدُ ٱلْمُنْفِسَةُ ؛ كَانَتْ بِمَنْزِلَةِ ٱلْآيَاتِ ٱلتِّسْعِ ٱلَّتِي أَلْقَاهَا ٱلرَّحْمٰنُ ، عَلَى ٱبْنِ عِمْرَانَ[٦] : أَبْطَلَتْ كَيْدَ ٱلسُّحَّارِ ، وَعَصَفَتْ بِهَشِيمِ ٱلْأَشْعَارِ . وَوَرَدَ فِي ٱلْوَاحِهِ عَصَوَانِ[٧] : ٱلْمِيمِيَّةُ ، وَٱلْوَاوِيَّةُ ؛ فَوَجَدَ فِي وَطَنِهِ أَشْبَاحَ أَوْزَانٍ تُتَخَيَّلُ ، وَأَنْقَاءَ[٨] أَذْهَانٍ تَتَهَيَّلُ ؛ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ .

---

(١) أى لآثروا شظف العيش على رفيع المناصب (٢) اعتساف السبيل : السير على غير هدى ، قال أبو العلاء على لسان « الخيتعور » الجنى الذى مر بك فى الجزء الثانى :

وأركب الهيق فى الظلماء معتسفاً ... أو لا ، فذبَّ رِيادٍ بات مغروراً

والارتعاء : الرعى ، والوبيل : المرتع الوخيم

(٣) الذى لا ينقطع فيضه ولا ينضب معينه (٤) العاشر من خيل السباق ، وهو آخر فرس يجيء فى الحلبة (٥) حديدة فى أسفل الرمح ، قال زهير بن أبى سلمى :

« ومن يعص أطراف الزِّجاج ينلنه ... يطيع العوالى ، ركبت كل لَهْذَمِ »

(٦) أشار المعرى إلى ذلك فى سقط الزند فقال :

« نَبِيٌّ من الغربان ، ليس على شرع ... يخبرنا أن الشعوب إلى صدع

أصدقه فى مرية ، وقد امترت ... صحابة موسى بعد آياته التسع »

(٧) قصيدتان (٨) الأنقاء : كثبان الرمال .

مَا خَبَّرَ عَبْدُهُ حَتَّى اُخْتَبَرَ، وَلاَ عَبَّرَ إِلَّا بَعْدَ مَا اُعْتَبَرَ[١]. شَاهَدْنَا فِيمَا سَمِعْنَاهُ: الْمَعْنَى الْحَصِيرَ[٢]، فِي الْوَزْنِ الْقَصِيرِ؛ كَصُورَةِ كِسْرَى فِي كَأْسِ الْمَشْرُوبِ[٣]، وَتِمْثَالِ قَيْصَرَ فِي الْإِبْرِيزِ الْمَضْرُوبِ[٤]؛ لَمْ يُزْرِ بِهِ ضِيقُ الدَّارِ، وَقِصَرُ الْجِدَارِ. إِنْ تَغَزَّلَ، فَحَنِينُ الْعُودِ؛ أَوْ تَجَزَّلَ[٥]، فَهَدِيرُ الرُّعُودِ.

همـــة العظيم

وَإِنْ كَانَ — أَدَامَ اللهُ شَرَفَ الدُّنْيَا بِهِ — اُسْتَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ مَا اُسْتَكْبَرْنَاهُ، وَاُسْتَنْزَرَ[٦] مِنْ أَدَبِهِ الَّذِي اُسْتَغْمَرْنَاهُ[٧]؛ فَالسِّرْبُ الْوَحْشِيُّ[٨] يَعْجَبُ مِنْ وُقُوفِ الْأَجْدَلِ[٩]، عَلَى شُرُفَاتِ الْمِجْدَلِ[١٠]؛ وَهُوَ غَيْرُ حَافِلٍ بِمَا أَتَى، وَلاَ مُعْتَقِدٍ أَنَّهُ اُسْتَعْلَى. وَإِنْ كَانَ فِي وَانِيَةِ آدَابِنَا بَقِيَّةُ إِرْقَالٍ[١١]، وَلاَنِيَةِ أَفْهَامِنَا خَفِيَّةُ صِقَالٍ؛ فَسَوْفَ تَنْتَفِعُ وَهُوَ — أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ — ذَرِيعَةُ الاِنْتِفَاعِ، وَتُضِيءُ بِمَا أَهْدَى إِلَيْهَا مِنَ الشُّعَاعِ؛ إِضَاءَةَ الصُّفْرِ[١٢]، بِمَا قَابَلَ مِنَ النَّيِّرَاتِ الزُّهْرِ. وَقَدْ يُرَى خَيَالُ الْجَوْزَاءِ، عَلَى رِفْعَتِهَا؛ فِي أَضَاةِ الْمَعْزَاءِ[١٣]، مَعَ ضَعَتِهَا. وَيُورِقُ الْعُودُ، بِبَرَكَةِ السُّعُودِ؛ وَتَفِيضُ الرَّدْهَةُ[١٤]، عَنْ نَوْءِ الْجَبْهَةِ[١٥].

---

(١) أى لم ينطق إلا بعد روية وتدبر (٢) الحصير: المستوعب، من: حصره: استوعبه. وقد أشار إلى هذا مرة أخرى فى رسالة الإغريض فقال: يجمع بين اللفظ القليل والمعنى الجليل، جمع الأفعوان فى لُعابِهِ بين القلة وفقد البلة (٣) يشير إلى عادة الفرس التى جروا عليها فى تصوير كسرى على كؤوسهم (٤) يشير إلى صورة قيصر على الدينار

(٥) نطق بالجزل الفخم من الألفاظ (٦) استصغر (٧) ما استكثرناه (٨) جماعة الغزلان (٩) الصقر (١٠) القصر العالى (١١) إن كان فى آدابنا الفاترة مجال للإسراع

(١٢) النحاس (١٣) الأضاة: الماء أو: مستنقع الماء، والمَعزاء: الأرض الصُّلبة

(١٤) الحفرة (١٥) الجبهة: منزل من منازل القمر

فخـــر المعرة

وَلَوْ تفوَّهَ بِمَقَالٍ ، جامِدٍ ؛ وَهمَّ بِاُخْتِيَالٍ ، هَامِدٍ ؛ لَنَشَرَتِ المَعَرَّةُ صُحُفَ الافْتِخَارِ[1] ، وَسَحَبَتْ ذَيْلَ الْعَظَمَةِ وَالاسْتِكْبَارِ ؛ عُجْباً أَنَّ فِكْرَهُ يَلحظُها لَحْظ السَّاهِى السَّامِدِ ، وَإِنْ كَانَ لا يَلفِظُ بذِكْرِهَا لَفظَ الْجَامِدِ الْعَامِدِ . وَإِنَّمَا هُوَ فِى الرَّحِيلِ عَنْهَا كَجِسْمٍ ذِى رُوحٍ ، نُقِلَ مِنَ الْغِرْقِئِ[2] إلى اللُّوحِ[3] . وَهِىَ بَعْدَهُ كَقَسِيمَةِ الْوَسِيمَةِ[4] : ذَهَبَ عِطْرُهَا ، وَبَقِىَ نَشْرُهَا . وَإِنَّمَا شَرُفَتْ عَلَى مَا سِوَاهَا ، وَطَالَتْ عَنِ الْبِلادِ دُونَ مَا وَالاهَا[5] ؛ لإقَامَتِهِ بِهَا فِى تِلْكَ الأَيَّامِ ، وَإِنَامَتِهِ عَنْ أَهْلِهَا نَوَاظِرَ أَزَامٍ[6] . فَعُرِفَتْ عِنْدَ ذلِكَ بِهِ ، وَنَالَتْ خِيرَهَا[7] مِنْ حَسَبِهِ ؛ كَمَا تَنَالُ كُلُّ دَارٍ يَحُلُّهَا .

منازل القمر

وَإِنَّمَا المَنَازِلُ الَّتِى يَنزِلُهَا ، كَالشُّهُبِ الشَّامِيَّةِ وَالْيَمَانِيَةِ ، الْمُوفِيَةِ عَلَى الْعِشْرِينَ بِثَمَانِيَةٍ[8] : نَزَلَ بِهَا الزِّبْرِقَانُ[9] فَاشْتَهَرَتْ ، وَنَسَبَتِ الْعَرَبُ إِلَيْهَا كُلَّ سَحَابَةٍ أَمْطَرَتْ .

---

(١) المعرة : بلد المعرى ، وقد أشار إليها فى قوله :

« يعيرنا لفـــظ المعرة ، أنه من العرّ ، قوم فى العلا غرباء
وهل لحق التثريب سكان يثرب من القوم ، لا ، بل فى الرجال غباء
وذو نجب - إن كان ما قيل صادقاً - فما فيـــه إلا معشر نجباء »

(٢) الغرقئ : القشرة الرقيقة داخل البيضة ، أى : الغلالة بين قشرتها الظاهرة و بياضها

(٣) الهواء (٤) حُق العطر للحسناء (٥) ما جاورها (٦) سنة الأزمة والجدب

(٧) الخِير : السؤدد والشرف (٨) يعنى منازل القمر الثمانية والعشرين (٩) القمر

وَكَمْ فِى أَدِيمِ الْخَضْرَاءِ(١) ، مِنْ أَشْبَاحٍ مُضِيئَةٍ زَهْرَاءَ ، أُجْتَنِبَهَا فِى السَّيْرِ فَخَمَلَتْ ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَيْهَا قَطْرُ سَحَابَةٍ هَمَلَتْ وَرَأْىُ عَبْدِهِ أَنَّ ضَرْبَةَ اللَّازِمِ ، عَلَى الْمُتَأَدِّبِ الْحَازِمِ ؛ اتِّخَاذُ آثَارِهِ — عَاشَ حَاسِدُهُ بِالْخُلُقِ الشَّكِسِ ، وَالْجَدِّ الْمُنْعَكِسِ — مَشَاهِدَ لِلْأَدَبِ مَحْضُورَةً ، وَمَحَافِلَ بِالْمُذَاكَرَةِ مَعْمُورَةً ، كَمَا يَتَّخِذُ تَقِيُّ الْخَلَفِ ، مَوَاطِئَ زَكِيِّ السَّلَفِ : مَوَاقِفَ يَتَخَيَّرُهَا ، لِطَهَارَتِهَا ؛ وَمَسَاجِدَ يَتَدَيَّرُهَا(٢) ، لِأَثَارَتِهَا(٣) . وَإِنَّمَا فُضِّلَ الطُّورُ بِالْكَلِيمِ(٤) ، وَالْمَقَامُ(٥) بِإِبْرٰهِيمَ . وَلَقَدْ سَمَوْنَا بِمُجَاوَرَتِهِ ، قَبْلَ مُحَاوَرَتِهِ : سُمُوَّ الْيَثْرِبِيِّ(٦) ، بِجِوَارِ النَّبِيِّ .

وَلَعَلَّ الْمَعَرَّةَ قَدْ نَظَرَتْ أَصَحَّ النَّظَرِ ، وَفَكَّرَتْ فِيمَا لَا يَنْتَقِضُ مِنَ الْفِكَرِ ؛ فَعَلِمَتْ أَنَّهُ عِقْدٌ لَا يَصْلُحُ لِمُقَلَّدِهَا(٧) ، وَسِوَارٌ يَرْتَفِعُ — لِجَلَالَتِهِ — عَنْ يَدِهَا ؛ وَتَاجٌ لَا يُطِيقُ حَمْلَهُ مَفْرِقُهَا ، وَجَوْنَةٌ(٨) يَشْرَقُ بِذُرُورِهَا مَشْرِقُهَا .

وَهُوَ — أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهُ — مِثْلُ مَا نُقِلَ مِنَ الْمَحَارِ ، إِلَى مَفْرِقِ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ .

المغانى الأولى

وَمَغَانِيهِ الْأُولَى كَالشَّجَرَةِ ، بَعْدَ اجْتِنَاءِ الثَّمَرَةِ ؛ وَالصَّدَفَةِ بِغَيْرِ جَوْهَرَةٍ ؛ وَالْكِنَانَةِ ، الْخَالِيَةِ مِنَ السِّهَامِ ؛ وَالْعَنَانَةِ(٩) ، الْجَالِيَةِ فِى الْجَهَامِ(١٠) . وَلَمْ يَخَفَ

---

(١) السماء (٢) يسكنها (٣) لشرفها (٤) أى شرف جبل طورسيناء بمقدم موسى — عليه السلام — إليه (٥) مقام إبرهيم بالكعبة ، وهو الحجر الذى كان يقف عليه وهو يرفع القواعد من البيت (٦) ساكن يثرب (٧) المُقَلَّد : مكان القلادة من العنق (٨) شمس (٩) السحابة (١٠) السحاب الذى أريق ماؤه

عَلَيْنَا أَنَّ الْغَيْثَ مِنَ الدُّجُونِ[١] ، فى مِثْلِ السُّجُونِ ؛ وَأَنَّ مَوْضِعَ الزَّهْرَةِ ، أَعْلَى الْعَبْهَرَةِ[٢] ؛ وَأَنَّ الْقَمَرَ ، لَمْ يُخْلَقْ لِلسَّمَرِ . وَلَيْسَ لِلْمُسْتَعِيرِ أَنْ يَحْسَبَ الْعَارِيَةَ هِبَةً ، وَلَا يَظُنَّ رَدَّهَا إِلَى الْمُعِيرِ مَثْلَبَةً[٣] . لٰكِنْ شَرَفٌ لِلصُّعْلُوكِ ، الْعَارِيَّةُ مِنَ الْمُلُوكِ .

وَقَدْ أَفَادَتْ هٰذِهِ الْبُقْعَةُ الصِّيتَ الْبَعِيدَ ، وَانْقَادَتْ لَهَا أَزِمَّةُ الْجَدِّ السَّعِيدِ ؛ لَيَالِيَ أَمِنَتْهَا الْمَكَارِمُ عَلَيْهِ ، وَاسْتَوْدَعَتْهَا الْبَرَاعَةُ حِدَّةَ أَصْغَرَيْهِ[٤] . فَظَعَنَ وَأَرَجُهُ مُقِيمٌ ، وَارْتَحَلَ وَلِلثَّنَاءِ تَخْيِيمٌ . فَهِيَ كَشَهْرَيْ رَبِيعٍ سُمِّيَا مَعَ الشُّهُورِ ، فى أَوَائِلِ الدُّهُورِ . ثُمَّ انْتَقَلَا مِنَ الْجِدَّةِ[٥] ، إِلَى الشِّدَّةِ ؛ وَكَانَ مَعَهُمَا جُمَادَيَانِ فَصَارَتَا بَعْدَ الْجَمْدِ ، إِلَى الْوَمَدِ[٦] . وَأَبَتِ الْأَلْقَابُ ، التَّغَيُّرَ بِمَرِّ الْأَحْقَابِ ؛ فَنَفِدَتِ الرُّسُومُ[٧] ، وَخَلَدَتِ الْوُسُومُ . وَلَوْلَا جَفَاءُ التُّرْبَةِ وَالْأَحْجَارِ ، عَنِ التَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِ الْجَارِ ؛ لَأَصْبَحَتْ سَاحَتُهَا لِلتَّأَدُّبِ مُخْتَارَةً ، وَالْفَصَاحَةُ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهَا مُمْتَارَةً[٨] . فَقَدْ قِيلَ إِنَّ أَصْلَ الطِّيبِ عَنْ عَبَدَةِ الْأَبْدَادِ[٩] ، أَنَّ آدَمَ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — هَبَطَ فى تِلْكَ الْبِلَادِ ؛ وَلٰكِنْ أَبَى الْجُلْمُودُ ، قَبُولَ الطَّبْعِ الْمَحْمُودِ ، وَعُذِرَتِ الْكَابِيَةُ[١٠] فى الْهُمُودِ . وَالْإِنْسُ بِاجْتِذَابِ الْخَلِيقَةِ أَخْلَقُ ، وَحَوَاسُّهُمْ بِطِلَابِ الْفَضِيلَةِ أَوْلَى وَأَلْيَقُ . فَلَوْلَا تَذَبَّهُوا وَقَدْ نُبِّهُوا ، وَأَشْبَهُوا الْمَرْئِيَّ إِذْ تَشَبَّهُوا .

---

(١) الغيم (٢) زهرة النرجس أو الياسمين (٣) منقصة (٤) قلبه ولسانه .
(٥) النضرة (٦) شدة الحر مع سكون الريح (٧) عفت الآثار (٨) مجلوبة
(٩) الأصنام (١٠) الكابية ، أى : النار الكابية ، المغطاة بالرماد

وَما هَمَّ ٱبْنُ دَايَةَ ، بِصَيْدِ ٱلْجُدَايَةِ[١] . فَكَيْفَ يَلْتَقِطُ ٱلْقَارَ[٢] ، بِٱلْمِنْقَارِ ؟ وَيَسْتُرُ ٱلْقِرْوَاحَ[٣] ، بِٱلْجَنَاحِ ؟ أَمْ كَيْفَ يُمَدُّ الطِّرَافُ[٤] مِنَ ٱلنِّسْعِ[٥] ؟ وَيُقَدُّ ٱلنِّجَادُ[٦] مِنَ ٱلشِّسْعِ[٧] ؟ هٰذَا مَا لَا يَكُونُ ، وَلَا تَسْبِقُ إِلَيْهِ ٱلظُّنُونُ !

وَٱلظُّلْمُ ٱلْبَيِّنُ ، وَٱلْخَطْبُ ٱلَّذِي لَيْسَ بِهَيِّنٍ ؛ تَكْلِيفُ ٱلْقُطْبِ ٱلنَّابِتِ[٨] ، مُدَانَاةَ ٱلْقُطْبِ ٱلثَّابِتِ ؛ وَإِلْزَامُ نَسْرِ ٱلْحَافِرِ[٩] ، مَرَامَ ٱلنَّسْرِ ٱلطَّائِرِ . وَإِذَا غَلَا ٱلْمِرْجَلُ[١٠] ، مِنْ عَدْوِ ٱلْأَرْجَلِ[١١] ؛ وَخَلَا ٱلْفَقِيرُ ، بِٱلْوَقِيرِ[١٢] ؛ فَإِنَّمَا ذَاكَ ٱتِّفَاقٌ ، لَا إِحْقَاقٌ ؛ وَغَايَةٌ ، لَيْسَ وَرَاءَهَا نِهَايَةٌ . وَقَدْ ضَمَّ ٱلْمِسَانَّ وَمِهَارَهُ مَيْدَانُ ٱلْقِيَاسِ[١٣] ، وَشَمِلَ ٱلْخَشَاشَ[١٤] وَجَوَارِحَهُ جَوُّ ٱلْمِرَاسِ ؛ فَسَبَقَ ٱلْغَذَوِيُّ[١٥] ، وَٱقْتَنَصَ ٱلْقُمْرِيُّ .

اتفاق الأسماء واختلاف الصفات

وَإِنْ قِيلَ فُلَانٌ أَدِيبٌ ، وَفُلَانٌ أَرِيبٌ ؛ فَإِنَّ وِفَاقَ ٱلْأَسْمَاءِ ، لَا يَمْنَعُ ٱلْفِرَاقَ عِنْدَ ٱلرِّمَاءِ[١٦] : ٱلْعَرَادَةُ[١٧] ، سَمِيَّةُ ٱلْجَرَادَةِ ؛ وَٱلذُّبَابُ ، سَمِيُّ طَرَفِ ٱلْقِرْضَابِ[١٨] ؛

---

(١) أى أن الغراب لا يهم بصيد الغزالة (٢) الآكام (٣) الناقة الطويلة القوائم
(٤) قبة أو بيت من الجلد (٥) حزام الناقة وجمعه أنساع (٦) حمائل السيف
(٧) سير النعل، وهو زمام بين الإصبع الوسطى والتى تليها (٨) الشجيرة (٩) ظفر الجواد
(١٠) المرجل: القدر (١١) الأرجل - من الدواب - ما كان فى إحدى رجليه بياض
(١٢) القطيع من الغنم ، وقيل : صغارها ، وقيل : الغنم بكلبها وحمارها وراعيها
(١٣) المسان (جمع مسن) أى هرم . والمهار جمع مهر ، والقياس : المباراة ، يقول : وقد جمعت حلبة السباق بين الكبار والصغار من الجياد (١٤) الخشاش من الطير ما لا قدرة له على الصيد كالعصافير وما إليها (١٥) الصغير من الخيل (١٦) الترامى بالسهام ، والمراد : المناجزة (١٧) العرادة : انثى الجراد ، تسمى بها الفرس
(١٨) القرضاب : السيف ، وطرف القرضاب يسمى الذباب أيضا

وَقَدْ تُدْعَى الثُّمَامَةُ(١)، جَلِيلَةً ؛ وَبَعْضُ الْهَامَةِ، قَبِيلَةً(٢) ؛ وَلَيْسَ كُلُّ مُثَوِّبٍ(٣)، مُبَشِّراً ؛ وَلاَ كُلُّ مُتَثَائِبٍ، مُؤَشَّراً . أَعْرِضْ شَاوٌ لاَ يُتَعَلَّقُ بِنَصَبِهِ(٤)، وَعَنْ أَمَدٍ لاَ يُتْعَبُ فِي طَلَبِهِ ؛ وَإِنَّمَا يُحْكَمُ بِثَمَرِ الْجَبَّارِ(٥)، لِمَنْ أَصْلَحَهُ فِي وَقْتِ الْإِبَارِ(٦) ؛ وَيَصِيدُ ظَلِيمَ(٧) الْمَقَاءِ(٨)، مَنْ زَهِدَ فِي ظَلِيمِ السِّقَاءِ(٩).

نَامَ وَاللهِ اللَّاغِبُ(١٠)، وَأَدْلَجَ الرَّاغِبُ.

تَسْأَلُنِي أُمُّ وُهَيْبٍ جَمَلاَ ... يَمْشِي رُوَيْداً، وَيَكُونُ الْأَوَّلاَ !

* * *

فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الْغَدَاةَ كَنَاظِرٍ ... مَعَ الصُّبْحِ فِي أَعْقَابِ نَجْمٍ مُغَرِّبِ

وَلَيْسَ حُسْنُ الظَّاهِرِ لِلْمُتَظَاهِرِ، وَلاَ الْبَهَارُ بِالْبَاهِرِ ؛ وَمِنَ الزُّورِ، ادِّعَاءُ الْمِشَاءِ لِلنَّزُورِ(١١). وَإِنْ جَنَّتِ(١٢) الرِّيَاضُ، فِي الْأَنْوَاضِ(١٣). وَاعْتَمَّ الْعَقِيقُ(١٤)، بِالشَّقِيقِ ؛ فَإِنَّ الْأَبَارِقَ(١٥)، لَمْ تُبْسَطْ بِالنَّمَارِقِ(١٦) ؛ وَالْقَرِيَّ(١٧)، لَمْ يُفْرَشْ بِالْعَبْقَرِيِّ(١٨).

---

(١) النبتة الضعيفة (٢) الهامة : الرأس ، والقبيلة إحدى قبائله ، وهى القِطَع المشعوب بعضها من بعض فى الرأس (٣) المثوب : المشير بطرف ثوبه ليبشر بنبإٍ سار . وربما فعل ذلك طالباً النجدة (٤) مؤشّر : محزز الأسنان فى أطرافها ، والعرب تمدح بهذا والنصب : الغاية (٥) النخل العالى (٦) التلقيح (٧) ذكر النعام (٨) الأرض الواسعة (٩) لبن يشرب قبل أن يبلغ الرّوب (١٠) المجهود المتعب (١١) أى : ومن الكذب أن تدعى للمرأة القليلة الولد أنها كثيرة الأولاد (١٢) جنت : أزهرت (١٣) الأنواض : مسايل المياه من المواضع المرتفعة إلى السهول (١٤) الوادى (١٥) جمع أبرق ، وهو : ما غلظ من الأرض فيه حجارة ورمل وطين (١٦) الوسائد الصغيرة (١٧) مسيل الماء (١٨) نوع من البُسُط

هَدْىُ أبى القاسم

وَنَحْنُ عَلَى شَحَطِ الْمَعَانِ[١]، وَاعْتِرَاضِ السُّهُوبِ دُونَنَا وَالرِّعَانِ[٢] ؛ لا نَعْدَمُ مِنْ قِبَلِهِ تَثْقِيفَ المَائِلِ ، وَالإِرْشَادَ إِلَى المَنَارِ المَاثِلِ[٣] ؛ بِكِتَابِ حِكْمَةٍ يُوفِدُهُ ، وَعَهْدِ بَصِيرَةٍ يَعْهَدُهُ ؛ وَالمُشْتَرِى وَالزُّهَرَةُ وَإِنْ نَأَيَا ، يُبَلِّغَانِ المَحَابَّ مَنْ تَوَلَّيَا ؛ فِى زَعْمِ الْمُنَجِّمِينَ ، وَبَعْضِ الْفَلاَسِفَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ .

نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ هٰذِهِ المَقَالَةِ ، وَنَسْتَكْفِيهِ الإِيغَالَ فِى طُرُقِ الْجَهَالَةِ ؛ وَلٰكِنَّ المَثَلَ مَضْرُوبٌ ، وَالْخَلْقَ مُدَبَّرٌ مَرْبُوبٌ[٤] .

وَإِنْ ضَرَبَ أَرْوَاقَ التَّئِيَّةِ[٥] ، بِمِصْرَ ؛ وَاسْتَخَفَّ مِنَ الأَشْغَالِ السَّنِيَّةِ ، كُلَّ إِصْرٍ[٦] ؛ فَمَزَالُنَا[٧] — بِإِذْنِ اللهِ — مِمَّا يَرْعَاهُ ، وَمَزَارِعُهَا أَحَدُ مَا يَكْلَؤُهُ وَيَتَوَلاَّهُ . فَالسَّيَّارُ الْفَرْدُ[٨] عِنْدَهُمْ يَشْتَمِلُ بِوِلاَيَتِهِ عَلَى الأَقْطَارِ المُتَنَائِيَةِ ، وَيَنْتَظِمُ بِهَا أَقَالِيمَ ضِدَّ المُتَسَاوِيَةِ .

وَكُلُّ خَالِصِ السَّامِ[٩] ، وَقَدِيمِ سُمِىِّ[١٠] الْحُسَامِ ؛ وَأَخِى حُشَاشَةٍ مِنَ اللُّبِّ يَسْتَنْجِدُهَا ، وَفَرَاشَةٍ مِنَ التَّمِييزِ يَسْتَرْفِدُهَا ؛ مُذْ رَأَى رَيِّقَ[١١] سَامِهِ ، وَاجْتَلَى

---

(١) على تنائى الدار (٢) السهوب : السهول ، والرعان : رءوس الجبال (٣) الماثل : القائم

(٤) شبيه بهذا المعنى قوله :

« عش مجبراً ، أو غير مجبر فالخلق مربوب مدبر »

(٥) أى حلَّ ونزل (٦) ثِقْل (٧) قرانا ومنازلنا (٨) أحد الكواكب السبعة

(٩) الذهب (١٠) السُّمىُّ — هنا — : الصيت (١١) الريّق — من كل شىء — أفضله

— بِالتَّدَبُّرِ — رَوْنَقَ حُسَامِهِ ؛ كَالسَّرَطَانِ[١] فِي انْقِطَاعِ الصَّوْتِ النَّابِسِ ، وَزُحَلَ[٢] فِي الْمِزَاجِ الْقَارِسِ . فَعِيُّهُمْ[٣] أَطْوَلُ مِنْ رِدَاءِ الْعَرُوسِ ، وَوَعْيُهُمْ أَبْكَأُ[٤] مِنْ دَرِّ الْخَرُوسِ[٥] . فَلَيْتَهُمْ كَذَوَاتِ الْأَصْوَاتِ الْمُتَنَصِّفَةِ[٦] ، وَالنَّاطِقِينَ بِأَسَلٍ[٧] مُنْحَرِفَةٍ ؛ فَإِنَّ الْعُجْمَةَ ، لَأَسْهَلُ مِنَ الْبُكْمَةِ ؛ وَالْحُبْسَةَ أَقَلُّ ضَرَراً مِنَ الْخُرْسَةِ ؛ وَتَمَنِّي الْفَائِتِ ، كَمُحَاوَلَةِ إِحْيَاءِ الْمَائِتِ . وَمَنْ يَجْعَلُ الرَّبْوَةَ[٨] رُوبَةً[٩] ، وَالسَّبْتَ عَرُوبَةً[١٠] ؟ وَضَائِعٌ أَدَاءُ الْفُرُوضِ قَبْلَ دُخُولِ الْأَوْقَاتِ ، وَالْإِحْرَامُ بَعْدَ مُجَاوَزَةِ الْمِيقَاتِ .

وَإِنْ كَانَ مَا اخْتُلِسَ مِنْهُمْ لَا قِيمَةَ ، لَهُ فِي النَّقِيمَةِ[١١] ؛ وَلَا إِشَارَةَ ، إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الشَّارَةِ[١٢] ؛ فَارْتِيَاحُ اللَّاقِطَةِ ، بِسَاقِطَةِ النَّقْدِ ؛ كَارْتِيَاحِ الْمَاشِطَةِ ، بِوَاسِطَةِ الْعِقْدِ[١٣] . وَلَا يُزَيِّنُ لِأُمِّ السَّمْجَةِ ، مَقْتَهَا حُسْنُ الْبَهْجَةِ ؛ وَلَكِنْ تَحْنُو عَلَيْهَا طُولَ الْحَيَاةِ ، وَتَحْزَنُ لِفَقْدِهَا عِنْدَ الْمَمَاتِ .

---

(١) السرطان : حيوان من خلق الماء لا صوت له (٢) زحل كوكب مشهور أكثر المعرى من ذكره ، فى شعره ونثره ، وقال فى داليته المشهورة :

« زحل : أشرف الكواكب دارا ، من لقاء الردى على ميعاد ،
ولنار المريخ — من حدثان الدّهر — مطف — وإن علت فى اتقاد
والثّريّا رهينــة بافتراق الشّمل ، حتى تعد فى الأفراد »

(٣) عجزهم (٤) أقل لبناً (٥) البكر إذا وضعت البطن الأول ، وهى — حينئذ — أقل الناس لبناً ، وقد مر ذلك فى رسالة الأخرسين (٦) الحيوان الأعجم (٧) جمع أسلة ، وهى طرف اللسان ، يريد : العجم (٨) المرتفع من الأرض (٩) المنخفض من الأرض (١٠) جمعة (١١) النقيمة : الخلد والنفس (١٢) أهل الفطنة والكياسة (١٣) الواسطة : أنفس جوهرة فى العقد ، قال ابن الرومى :

« توخى حمام الموت أوسط صبيتى فلله : كيف اختار واسطة العقد ؟ »

وَجَوْرُ نَحْرُ الأَفِيلِ[١]، إِذَا لَمْ يَسْتَقِلَّ بِعِبْءِ الْفِيلِ؛ وَهَدْمُ سَخِيفَاتِ الدُّورِ، إِذَا فَرَعَتْهَا[٢] مُنِيفَاتُ الْقُصُورِ؛ وَكَسْرُ الْمِرْمَاةِ[٣]، لِقِصَرِهَا عَنِ الْقَنَاةِ[٤]؛ وَدَفْنُ النَّابِ[٥]، إِذَا لَمْ تَلْحَقْ بِالشَّوَابِّ.

إجلال التقديس

وَلَوْلَا ذَلِكَ لَوَجَبَ تَرْكُ النَّغَمِ[٦]، إِلَّا مَا كَانَ: كَ« لا، ونَعَمْ»؛ يُخْبَرُ بِهِ عَنِ الْإِرَادَةِ، وَيُمْنَعُ قَلِيلُهُ مِنَ الزِّيَادَةِ. وَالحَرَمَ — إِجْلَالاً لِمَا قَالَ — سَجْعُ الْكَلِمَتَيْنِ، وَتَقْفِيَةُ الْبَيْتَيْنِ. وَقَدْ كَانَتِ الْمُتَحَمِّسَةُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا[٧]، وَسَدَنَةُ الْأَوْثَانِ عَلَى أَوَّلِيَّتِهَا: لَا تَتَّخِذُ بَيْتاً مُرَبَّعاً، إِجْلَالاً لِلْكَعْبَةِ وَتَوَرُّعاً. وَهَلْ طَالِبُ ذَلِكَ — سِوَاهُ — إِلَّا كَمُفْنِي الشَّبِيبَةِ، فِي نَسْجِ السَّبِيبَةِ[٨]؟ وَمُضِيعِ الشَّرْخِ[٩]، فِي الْتِمَاسِ الْبَرَمِ[١٠] وَالْمَرْخِ[١١]؟ وَالسَّحَمِ[١٢]، لَا يَقْطَعُ الْوَحَمَ؛ وَالنَّشَمِ[١٣]، لَا يُحْسَبُ مِنَ الرَّشَمِ[١٤]. وَكُلُّهُمْ — غَيْرَهُ — يُنْفِقُ مِنْ رَأْسِ مَالٍ نَزْرٍ، وَلَا يُحْكِمُ — عَلَى مَدِّهِ — بِالْجَزْرِ؛ وَلَكِنْ يَنْفَدُ الثَّغْبُ، بِالنُّغَبِ[١٥]؛

---

(١) الأفيل: الصغير من الإبل، أو: هو ولد الناقة إذا فصل عن أمه (٢) علتها

(٣) السهم الصغير (٤) القناة: الرمح، قال المتنبي:

« كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء – فى القناة – سنانا »

(٥) الناقة المسنة (٦) يعنى: الكلام (٧) المتحمسون فى دينهم من عرب الجاهلية

(٨) السبيبة: الشقة من الثياب، وهى أيضاً: الخصلة من الشعر (٩) وقت الشباب

(١٠) ثمر العضاه (١١) المرخ: شجر كثير النار (١٢) السحم: نبت

(١٣) شجر تعمل منه القسىّ (١٤) أول ما يظهر من النبت

(١٥) الثغب: ذوب الجمد، أو هو: الغدير فى ما غلظ من الأرض، والنُّغَبُ: الجرع من الماء، يقول: إن ماء الثغب تفنيه الجرعات

وَيفْنَى الشَّمعُ ، بخفيَّاتِ اللُّمَعِ ؛ وَهُمْ فِى هٰذَا الصُّقْعِ ، كَأَسْنَانِ الْمَسَارِحِ(١) ، وَنَوَاجِذِ الْقُمْرِ الْقَوَارِحِ(٢) : تَنكُبُهُمُ الْفَوَائِدُ تَنَكُّبَ السَّهْمِ الْعَائِرِ ، وَالرَّكْبِ الْجَائِرِ :

« بِنَاحِيَةٍ ، أَمَّا الْعَدُوُّ فَنَازِلٌ ، مُطِيفٌ بِهَا فِى مِثْلِ دَائِرَةِ الْمُهْرِ »

يَحُولُ فِيهَا الْجَرِيضُ(٣) ، دُونَ الْقَرِيضِ ؛ وَالْحِذَارُ ، دُونَ أَدَاءِ الاعْتِذَارِ . فَقَدْ أَدْمَى الْخُفَّ ، وَطْءُ الْقُفِّ(٤) ؛ وَذَهَبَ الْخَارِبُ(٥) ، بِذِى الْغَارِبِ(٦) . وَإِنَّمَا هُوَ رِفْقٌ ثُمَّ اقْتِسَارٌ ، وَلَيْسَ بَعْدَ السَّلَبِ إِلَّا الإِسَارُ ؛ فَهُمْ يَتَوَقَّوْنَ كِفَّةَ الْحَابِلِ ؛ وَيَتَوَقَّعُونَ رَشْقَ النَّابِلِ ؛ عَلَى أَنَّ الْقَارِبَ(٧) ، أَخُو الشَّارِبِ ؛ وَالْهُبَعَ(٨) ، طَرِيدُ الرُّبَعِ(٩) .

مَا أَقْرَبَ طَسْماً مِنْ جَدِيسَ(١٠) ، وَأَدْنَى الْبَازِلَ(١١) مِنَ السَّدِيسِ(١٢) !

---

(١) الأمشاط ، يقول : إنهم كأسنان المشط ، كما يقال أيضاً ، كأسنان الحمار ، أى أنهم مستوون فى الذم كما تستوى تلك الأسنان فى الحجم (٢) القمر القوارح : الحمير

(٣) الريق يغص به ، وهو مثل يضرب للأمر تحول العوائق دون إنجازه ، وقد قاله عبيد بن الأبرص قبيل هلاكه (٤) يقول : « أدمى باطن القدم مشيها على ما غلظ من الأرض » (٥) سارق الإبل (٦) الغارب : هو ما قدام السنام (٧) السائر الذى لم يبق بينه و بين الماء إلا ليلة (٨) الفصيل يولد فى آخر النتاج (٩) الفصيل الذى ينتج فى الربيع ، وهو أول النتاج (١٠) قبيلتان مر بالقارئ ذكرهما فى الجزء الثانى فى التعليق على قصيدة الجنى ، وقد قال المعرى :

« سيسأل ناس : ما قريش ومكة ؟ كما قال ناس : ما جديس وما طسم ؟ »

(١١) البازل من الإبل ما بزل نابه أى ظهر ، و يكون ذلك فى التاسعة من عمره، قال الشاعر :

« عذرت البزل إذ هى غالبتنى فما بالى و بال ابنى لبون ؟ »

(١٢) السديس : أصغر من البازل بعام واحد .

ذعرُ المعـــرَّة

لَا يَزَالُونَ يُمَارِسُونَ جَابَةً[١]، تَنْفِي ٱلنَّجَابَةَ[٢]؛ نَفْيَ ٱلدَّبَرِ[٣]، لِلْوَبَرِ؛ وَٱلسَّبُعِ، لِأُبْنِ ٱلضَّبُعِ؛ وَيَبِينُ ٱلزَّلَلُ، فِيهِمْ مِنْ خَوْفِ ٱلشَّلَلِ[٤]؛ كَمَا بَانَ ٱلْقَلَحُ[٥]، مِنْ وَرَاءِ ٱلْفَلَحِ[٦].

فَقَلِيلُ ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ يُسْتَطْرَفُ، وَيُسْتَغْرَبُ وَلَا يَكَادُ يُعْرَفُ؛ كَالشُّنُوفِ[٧]، عَلَى ٱلْأُنُوفِ؛ وَٱلْحِقَابِ، فِي وَسَطِ ٱلْعُقَابِ؛ وَٱلْوَدَعِ، فِي عُنُقِ ٱلصَّدَعِ[٨]؛ وَٱلْفُوَرِ[٩]، بَيْنَ أَهْلِ ٱلْكُفُورِ. لِأَنَّ سَالِمَهُمْ هَامَةُ ٱلْيَوْمِ أَوْ غَدٍ[١٠]، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَا خَافَ فَكَأَنْ قَدْ.

وَلَوْ رَحَلُوا، قَبْلَ أَنْ يُوحَلُوا؛ وَتَوَكَّلُوا، عَلَى ٱللهِ — فِي ٱلْمَسِيرِ — قَبْلَ أَنْ يُوكَلُوا؛ لَنَفَعَ ٱلْفِرَارُ، ٱلْفُرَارَ[١١]؛ وَٱسْتَرَاحَ ٱلْفَقَارُ[١٢]، إِلَى وَضْعِ ٱلْأَوْقَارِ[١٣].

وَكَمْ مُصَابَرَةُ ٱلذَّرِعِ، لَابِسَ ٱلذَّرِعِ[١٤]؛ وَٱلْبِرِّ[١٥]، ٱلْهِرَّ؟!

وَإِنْ كَانَ دُونَ كَسْبِ ٱلْعَتَادِ، مُمَارَسَةُ خَرْطِ ٱلْقَتَادِ؛ فَقَتَدُ[١٦] ٱلْمَالِعِ[١٧]، أَوْطَأُ مِنَ ٱلْعَتَدِ[١٨] ذِي ٱلْقَالِعِ؛ وَٱلْمَرْقَدُ، جَافٍ عَلَى ٱبْنِ أَنْقَدَ[١٩]. وَإِنَّمَا يَشْدُو

---

(١) أى : يمارسون عيشاً غليظاً خشناً (٢) كرامة الحسب (٣) قرح فى ظهور الإبل يمنع إنبات الوبر (الشعر) (٤) الهلاك (٥) صفرة الأسنان (٦) شق فى الشفة السفلى (٧) الأقراط (٨) الحمار الفتى ، أو هو الوعل (٩) الظباء (١٠) وشيك الهلاك (١١) الفُرار : ولد البقرة الوحشية (١٢) سلسلة الظهر (١٣) الأثقال (١٤) الذرع : ولد البقرة الوحشية ، ولابس الدرع : الذئب (١٥) البر : الفأرة (١٦) خشب الرحل (١٧) الناقة السريعة (١٨) الفرس المعد للجرى (١٩) القنفذ .

— بِالتَّرَنُّمِ — شَادِيهِمْ ، وَيَغْدُو — فى أُولَى الدَّعْوَى — غَادِيهِمْ ، بَيْنَ أُنَاسٍ يَقظَةُ أَحَدِهِمْ أَقْصَرُ مِنْ لَحْظَتِهِ ، وَسِنَتُهُ أَطْوَلُ مِنْ سَنَتِهِ ، وَحِلْيَةُ الدَّوَاةِ ، لَدَيْهِ أَحْلَى الأَدْوَاتِ ، وَحُسْنُ الْيَرَاعَةِ ، أَحْسَنُ الْبَرَاعَةِ .

فَإِذَا جَاءَ بَعْضُهُمْ بِسَمَارٍ[١] ، وَمَارَى — بِتَفْضِيلِهِ — مُمَارٍ ، فَقَدْ سَجَدَ السَّفْسَافُ[٢] ، لِإِسَافٍ[٣] ، وَأَهْدَى الْهَنَمُ[٤] ، لِلصَّنَمِ . وَالسُّرْفَةُ[٥] ، تَتَّخِذُ — لِمَنْفَعَتِهَا — الْغُرْفَةَ ، وَرُبَّمَا عَنَتِ الْقَرَارَةُ[٦] ، بِالْعَرَارَةِ[٧] ، وَجُعِلَ الْخُمَارُ ، عَلَى وَجْهِ الْحِمَارِ .

وَلَيْسَ الضَّرِيعُ[٨] ، بِالْمَرْعَى الْمَرِيعِ[٩] ، عَلَى أَنَّ التَّفْكِيرَ ، قَبْلَ التَّكْبِيرِ . وَالْخِطْبَةُ[١٠] ، ثُمَّ الْخُطْبَةُ[١١] .

فَأَمَّا بِحَضْرَةِ سَيِّدِنَا — بَقِيَ ، وَوُقِيَ ؛ حَتَّى يَلِبَ[١٢] الْهَجْرُ[١٣] ، إِلَى ضِيَاءِ

---

(١) اللبن المشوب بالماء ، ويراد به هنا : الخلط فى الحديث (٢) السفساف : الردئ من كل شىء ، قال ابن الرومى :

« أشعرى سفساف ؟ فلمَ يجتبونه و إن لم تكن هذى ، فلِمْ لا أُثوَّب ؟ »

وقال :

« ويح القوافى ! مالها سفسفت حظى ؟ كأنى كنت سفسفتها »

(٣) إساف : اسم صنم يزعمون أن عَمْرَ بن لحى قد وضعه على الصفا (٤) التمر

(٥) دويبة سوداء الرأس حمراء الجسد تتخذ لنفسها بيتاً مربعاً من حطام العيدان الدقيقة وتضم بعضها إلى بعض بلعابها وتدخله فتموت فيه (٦) عنت ، أى أنبتت ، والقرارة : المطمئن من الأرض (٧) واحدة العرار ، وهو نبت طيب الريح ، قال الشاعر :

تمتع من شميـــم عرار نجد فما بعـــد العشية من عرار

(٨) نبات يابس خبيث ينبت على وجه الماء لا ينتفع به (٩) الخصب (١٠) طلب الزواج (١١) خطبة العقد بين الزوجين (١٢) يدنو ، أو يدخل (١٣) نصف النهار

الْفَجْرِ، وَلُوبَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، مِنَ الْقَصْرِ[١] — فَمَا يَسَعُهُمْ غَيْرُ الِاسْتِمَاعِ، وَالتَّسْلِيمِ بَعْدَ الْإِجْمَاعِ.

فَإِنْ ذُكِرَ لَهُ — أَدَامَ اللَّهُ تَأْيِيدَهُ — أَنَّ حَافِرَ الْقَلِيبِ، أَنْبَطَ الْمَحْضَ الْحَلِيبَ[٢]، وَأَنَّ الرَّسَلَ[٣]، حَلَبَ الْعَسَلَ، وَأَنَّ نَجْلًا مِنْ رَاحٍ[٤]، ظَهَرَ فِي هَجْلٍ بَرَاحٍ[٥] — فَعَارِضَتُهُ[٦]، أَعْلَمُ بِالْمُعَارَضَةِ؛ وَإِرْبَةُ أُرْبَتِهِ[٧]، أَقْدَرُ عَلَى الْمُنَاقَضَةِ. حَسْبُ التُّرْبَةِ، نُطْفَةٌ تَشْفِي الْكُرْبَةَ، وَالنَّاقَةِ، عُلْبَةٌ[٨] عِنْدَ الْإِفَاقَةِ[٩]، وَالْجَمْجَمَةِ[١٠]، النِّيَابَةُ عَنِ السَّحَابَةِ الْمُثْجِمَةِ[١١].

سرور الشاكر

وَذِكْرُهُ عَبْدَهُ بِمَا يُشْبِهُ مِنَّتَهُ صَنِيعَةٌ يَضِيقُ عَنْهَا بَاعُ الشُّكْرِ، وَأَبْعَثُ وَهِيَ مِنِّي عَلَى ذُكْرٍ، غَرَسَتِ السُّرُورَ فِي سَرِيرَتِي، وَعَلَّمَتِ النَّفَاسَةَ نَفْسِي، وَخَلَّدَتِ الْغِبْطَةَ فِي خَلَدِي؛ إِلَى أَنْ أُمْسِيَ خَبِيَّ الرَّامِسِ[١٢]، وَنَجِيَّ هِنْدِ الْأَحَامِسِ[١٣]. هَضْبَ، حِسِّي بَعْدَ مَا نَضَبَ[١٤]، وَبَغَشَ، نَسِيسِي — وَقَدْ نَسَّ — فَانْتَعَشَ[١٥]،

---

(١) آخر النهار (٢) يشير إلى استحالة أن يحدثه محدث بأنه قد حفر بئراً فأخرج منها لبناً خالصاً (٣) الإبل (٤) ينبوعاً أو نبعاً من الخمر (٥) هجل : سهل مطمئن من الأرض وبراح : متسع لا زرع فيه ولا شجر (٦) قدرته على المنطق والجدال (٧) قوة عقله وفطنته (٨) قدح من خشب يحلب فيه (٩) الراحة بين الحلبتين (١٠) البئر تحفر في الأرض السبخة أو الغليظة (١١) التي يكثر مطرها ويدوم (١٢) أي حتى يوارينى الرمس أي الجدث، والرامس : الدافن (١٣) هند الأحامس : هي المنية (١٤) أي أن حسى قد أمطر وفاض بعد أن غاض ماؤه (١٥) بغشه المطر : أصابه منه شيء، والنسيس : بقية النفس، ونس : يبس.

وَعَرَتْنِي الْأَرْيَحِيَّةُ(١) ، الْمُشْتَقَّةُ مِنَ الرِّيَاحِ الْعَرِيَةِ(٢) ، فَمَلَأَتِ الصَّدْرَ ، وَأَمَرَتْنِي بِمُجَاوَزَةِ الْقَدْرِ ، لأنَّ الْجَنُوبَ ، تُهَيِّجُ نَقْعَ الْجَبُوبِ(٣) ، وَالشَّمَالَ ، تُحَرِّكُ سَاكِنَ الرِّمَالِ ، حَتَّى عَاتَبْتُ الضَّمِيرَ ، وَالْتَفَتُّ إِلَى السِّرِّ الْخَمِيرِ(٤) ، فَقُلْتُ : السِّمَةُ(٥) ، فِي الْقَسَمَةِ(٦) ، أَزْيَنُ مِنَ الْأَشَرِ(٧) ، لِلْبَشَرِ ، وَطَالَ مَا عَصَفَ ، النَّسِيمُ فَقَصَفَ .

احلام البهجة

وَلَنْ أَكُونَ كَالْغُبَارِ ثَارَ مِنَ الْمَلَاطِسِ ، فَزَارَ الْمَعَاطِسَ(٨) ! أَسَكْرَانُ أَنَا أَمْ هَكْرَانُ(٩) ؟ إِنْ كُنْتُ انْتَشَيْتُ ، فَالثَّمَلُ(١٠) ، يُقَوِّي الْأَمَلَ ؛ أَوْ أَغْفَيْتُ ، فَالْوَسَنُ ، يُرِي الْحُلْمَ الْحَسَنَ . هَذَا مَعَ إِحَاطَةِ الْيَقِينِ أَنَّ الْغَذْمَةَ(١١) ، لَا تُشَدُّ مِنْهَا الْوَذَمَةُ(١٢) ، وَأَنَّ الْبَرَقَ(١٣) ، لَا يَسْتَحِقُّ كُسْوَةَ السَّرَقِ(١٤) ، وَأَنَّ الْبَدِيعَ(١٥) ، لَا يُمْلَأُ مِنْ رِسْلِ الصَّدِيعِ(١٦) . تَزِيدُ الْمَرَارَةِ ، بِسُقْيَا الْمُرَارَةِ(١٧) ،

---

(١) هزة الارتياح والفرح (٢) الباردة (٣) الجبوب : الأرض ، يعنى أن ريح الجنوب تثير غبار الأرض وتهيجه (٤) المستور الخفىّ (٥) السمة : الوسم : أثر الكىّ وفى الكتاب الكريم : « سَنَسِمُه على الخرطوم » أى على أنفه (٦) الوجه (٧) البطر

(٨) الملاطس : الفؤوس تكسر بها الحجارة والصخور ، والمعاطس : الأنوف ، قال المعرى :

« قد يرفع الله الوضيع بنكبة   كالنقع ، زار معاطسا بملاطس
فاذهب لشأنك فى الأمور ، ولا تبت   كالنكس : يجنح من حذار العاطس »

(٩) نائم (١٠) السُّكر (١١) ضرب من النبت (١٢) سيور تشد بها الدلو (١٣) الحمَل (١٤) الشقق من الحرير (١٥) الزق الجديد (١٦) لبن الوعل الفتى (١٧) نبت مرٌّ ، فهو يُسْقى الماء العذب ، فينمو مرًّا .

وَرِىُّ الْمَقِرِ [١] ، لا يَخْلَعُ عَلَيْهِ لَوْنَ الشَّقِرِ [٢] ، وَمَنْ أَنا حَتَّى يَصِفَنِي بِالنِّقَالِ [٣] ، وَيَزِنَ بِي الثِّقَالَ ، الْبَرِيرُ [٤] ، يُسَوِّدُ فَمَ الغَرِيرِ [٥] ، وَأَنَّى بِالنُّؤُورِ [٦] لِلنَّوَارِ [٧] ، وَصِوَارُ الطِّيبِ [٨] لِلصُّوَارِ [٩] ؟ هَلْ أَدَبِى فِى أَدَبِهِ ، إِلاَّ كَالْقَطْرَةِ ، فِى الْمَطْرَةِ ، وَالنَّحْلَةِ ؛ عِنْدَ النَّخْلَةِ ؟

القوة والضعف

وَإِنَّمَا صَاحِبُ الدِّرْهَمَيْنِ ، غَنِيٌّ عِنْدَ صَاحِبِ الدِّرْهَمِ ، وَالْأَفْطَسُ أَشَمُّ فِى تَخَيُّلِ الْأَكْشَمِ [١٠] . فَأَمَّا شَدَّادُ بْنُ عَادٍ ، وَعَاقِرُ الْجِيَادِ [١١] ، فَالْبَدِىُّ ، تَوَهُّمُهُمَا الثَّرَاءَ الْيَدِىَّ [١٢] ، عِنْدَ جَالِبِ الْعَضَدِ [١٣] ، وَبَائِعِ الْخَضَدِ [١٤] .

فَضَاقَ ذَرْعِى فِى جَزَاءِ مَا تَطَوَّلَ بِهِ ، ضِيقَ ذَرْعِ النَّمْلَةِ ، بِاتِّخَاذِ الشَّمْلَةِ ، وَالْحُمْنَانَةِ [١٥] ، بِثَقْبِ الْجُمَانَةِ [١٦] ، فَلَيْتَهُ — أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ — اطَّلَعَ مِنْ عَبْدِهِ عَلَى كَنِينِ الاعْتِقَادِ ، وَجَنِينِ السَّوَادِ [١٧] ، فَيَعْلَمَ أَنَّ الرُّوعَ [١٨] ، وَجَوَانِحَ الضُّلُوعِ ، مُفْعَمَةٌ لَهُ بِالإِعْظَامِ ، مُتْرَعَةٌ [١٩] بِمَحَبَّتِهِ إِتْرَاعَ الْجَامِ [٢٠] . لا لِأَنَّهُ جَعَلَ حَصَاتِى كَثَبِيرٍ [٢١] ، وَخَلَطَ عِثْيَرِى بِالْعَبِيرِ [٢٢] ، وَلا لِأَنَّ سَيِّدَنَا الرَّئِيسَ الْأَجَلَّ وَالِدَهُ ،

---

(١) الصبر (٢) شقائق النعمان (٣) ضرب من سير الخيل (٤) ثمر الأراك

(٥) الفتى من الظباء (٦) دخان الشحم وهو : النيلج (٧) الظبية النافرة

(٨) رائحته (٩) القطيع من بقر الوحش (١٠) مقطوع الأنف (١١) شداد هو بانى إرم ذات العماد ، وعاقر الجياد هو سليمان عليه السلام (١٢) البدى : العجيب ، واليدى : الواسع (١٣) ما يقطع من الشجر (١٤) ما يؤخذ من أطراف العيدان الرطبة بالمعضد

(١٥) الحمنانة : الصغيرة من القراد (١٦) اللؤلؤة (١٧) يعنى سواد القلب

(١٨) القلب (١٩) مملوءة (٢٠) إناء من فضة يشرب فيه الخمر (٢١) أى : لا لأنه يجعل عقلى راجحا رجحان جبل ثبير (٢٢) العثير : الغبار ، والعبير : الزعفران ، أو أخلاط من الطيب

أَدَامَ اللهُ سُلْطَانَهُ : سَبَقَ ، مِنَ الْإِفْضَالِ بِمَا رَبَقَ(١) ، وَقَدَّمَ ، مِنْهُ مَا كَانَ نَشْرُهُ السَّدَمَ(٢) ، وَلَكِنْ لَمَّا أُوتِيَ أَقَالِيدَ(٣) الْحِوَارِ ، وَنَطَقَ بِفُرُودِ حَضَارِ(٤) ؛ وَعَلِمْتُ أَنَّهُ فِي صَاغِيَةِ الْأَدَبِ(٥) ، كَتُبَّعٍ فِي طَاغِيَةِ الْعَرَبِ ، لَهِجْتُ بِحُبِّهِ لَهَجَ السُّوقَةِ ، بِحُبِّ الْمَلِيكِ الرُّوقَةِ(٦) ، إِذَا أَخَذَ بِالْفَضْلِ ، وَحَكَمَ بِالْقَضَاءِ الْفَصْلِ ، وَنَصَحْتُ لَهُ نُصْحَ الْهُدْهُدِ لِسُلَيْمَانَ ، وَشَيَّعْتُ مَا أَذْكُرُ مِنْ نُبْلِهِ بِالْأَيْمَانِ . أَصِفُ وَكُلُّ وَصْفِي صَحِيحٌ ، وَأَحْلِفُ وَحَلِفِي تَسْبِيحٌ ، حَتَّى اسْتَجْهَلَنِي الَّذِي لَا يَعْلَمُ ، وَتَكَلَّمَ فِي تَضْلِيلِي مَنْ تَكَلَّمَ ، لِأَنِّي مَا اقْتَنَعْتُ بِتَفْضِيلِهِ عَلَى الْأَحْدَاثِ ، دُونَ سُكَّانِ الْأَجْدَاثِ ، وَلَا غَلَبْتُهُ عَلَى الْغَابِرِ ، دُونَ الْكَابِرِ ؛ وَلَكِنْ وَجَبْتُ(٧) الشَّخِيرَ(٨) ، وَرَجَبْتُ(٩) الطِّرْفَ(١٠) الْأَخِيرَ .

أصالة الفضل

وَلَيْسَ النَّصْرُ ، بِقِدَمِ الْعَصْرِ ، وَلَا التَّجْوِيدُ ، بِذَهَابِ أَبَدِ الْأَبِيدِ(١١) ، الرَّوِيُّ(١٢) بَعْدَ التَّوْجِيهِ(١٣) ، وَأَخْدَرُ(١٤) أَقْدَمُ مِنَ الْوَجِيهِ(١٥) . وَإِنْ كَانَتِ السِّيَرُ ،

---

(١) بما قيد أى بما طوق عنق (٢) السدم : الديدن ، يقول إنه — أى المعرى — تخذ ديدنا له إذاعة ما أسداه إليه أبو الوزير المغربى من أياد ونعم (٣) مفاتيح (٤) فرود النجم : التى تطلع فى آفاق السماء . وحضار : نجم . يريد : هذا النجم وما يتبعه من الكواكب

(٥) أهل الأدب (٦) الشاب الرائق الحسن (٧) حقرته وألزمته السكوت

(٨) الحمار (٩) عظمت وأكبرت (١٠) الجواد الأصيل الكريم الأبوين

(١١) أبد الأبيد : طول الدهر (١٢) الرَّوِيُّ : الحرف الذى تبنى عليه القصيدة

(١٣) التوجيه حركة ما قبل الرَّوى فى الشعر المقيد (١٤) وأخدر : حمار أليف توحش فنزا على أتن وحشية فنسبت إليه حمر الوحش . (١٥) الوجيه : اسم فرس من كرام خيل العرب . وصدق المتنبى : بجبهة العير يفدى حافر الفرس .

بِغَيرِ غِيَرٍ، وَالْخَبَرُ فَاقِداً لِلْحَبَرِ، فَالْحَبَّةُ بَعْدَ الحِبَّة، وَالضِّيَاءُ تَالِى الْكُهْبَة[1]، وَمَا جَحَدَ أَحَدٌ ضُحَاهُ، وَلا وَحَى مَخْلُوقٌ مِثْلَ مَا وَحَاهُ. وَلَكِنْ لِلْمُهَجِ، بِالْفَارِطِ لَهَجٌ، وَالإِحَادَةُ، عَنِ الْعَادَةِ، تَخْلِطُ الْمُورَ، بِالتَّامُورِ[2]، وَتُبَاشِرُ ظَلامَ اللُّوبِ[3]، بِظَلامِ الْقُلُوبِ، وَقَدْ أَنْكَرَ مَنْ أَعْظَمَ الْعُزَّى وَاللاتَ، مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الآيَاتِ. فَلَمْ أَفْتَأْ — وَاللّٰهُ شَهِيدٌ — أَصْبُغُ الأَفَقَ، بِالشَّفَقِ، وَأَدْبُغُ الأَدِيمَ، بِالسَّدِيمِ[4]. حَتَّى أَصْبَحَ الْيَافِعُ، النَّافِعُ، وَالْهِمُّ، الْمُذْرَهِمُّ[5]، وَمَنْ بَيْنَهُمَا مِنْ وَارِفٍ فِى السِّنِّ، وَكَهْلٍ مُقْسَئِنٍّ — أَحَدَ رَجُلَيْنِ: إِمَّا عَالِمٍ، فَهُوَ مِنَ الْجَهْلِ سَالِمٌ، وَإِمَّا بَلِيدٍ، اهْتَدَى بِالتَّقْلِيدِ. وَهُوَ — أَدَامَ اللّٰهُ قُدْرَتَهُ — الْفَرْعُ الَّذِى نَبَعَ مِنْ أَصْلِ ذَاكَ. فَسَمَقَ[6] إِلَى السِّمَاكِ، وَحَفِظَ التُّؤَمَ[7]، قَبْلَ أَنْ يَلْفِظَ بِالْمَكْتُومِ، وَلَمْ يَزَلْ ضَبُّ[8] الآفِنِ[9]، لِعَبِّ[10] الصَّافِنِ[11]،

---

(١) الحبر: يراد به هنا الكذب. والحَبة: حبة القمح. والحِبَّة: بذرة العشب. والكهبة: الظلمة — يقول: إذا صحت الأخبار المنقولة وخلت من أكاذيب المتخرصين، فان بذرة العشب سبقت حبة القمح، لأن الحيوان رعى العشب قبل أن يخلق الناس، وكذلك أشارت تلك الأخبار إلى أن الظلمة سبقت النور، فلم تُفَضِّلْ بذرة العشب ولا الظلمة بالسبق.

(٢) المور: التراب أو الغبار، والتامور: دم القلب (٣) اللوب: الأرضون السود ذات الحجارة السوداء (٤) الأفق: الجلود ما دامت فى الدباغ. والسديم: الضباب. والمعنى أنه ظل يعمل المستحيل (٥) الفانى الذى سقطت أسنانه من الشيخوخة (٦) ارتفع وعلا (٧) التوم (جمع تومة) وهى اللؤلؤة الكبيرة يريد: لآلئ العلم والأدب (٨) الضب: الحلب بكلتا اليدين (٩) الآفن: الذى يحلب فلا يبقى فى الضرع شيئاً من اللبن (١٠) العبُّ (١١) الصافى — هنا — الرجل يصف قدميه، يريد القائم الذى لم يحلب

وَإِهْوَاءِ الرَّادِسِ[١] ، لِإِرْوَاءِ الْقَادِسِ[٢] . حَتَّى الْتَأَمَتِ اللأْمَةُ[٣] ، مِنَ الزَّرْدِ ، وَتَأَلَّفَتِ الْغَمَامَةُ ، مِنَ الْقَرَدِ[٤] . وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِاسْتِرْفَادِ حَضْرَتِهِ الْبَهِيَّةِ مِنْ بَدَائِعِهِ مَا يَفْضُلُ الْمَالَ . وَيَكُونُ الْجَمَالَ ، فَعَدَانِي عَنْ ذَلِكَ إِعْظَامِي لَهُ وَاسْتِحْقَارِي نَفْسِي ، وَارْعَوَتْ بِي الْهَيْبَةُ إِلَى إِرْمَامِي[٥] وَكَفِّي .

وعدٌ كريمٌ

وَأَبَى اللهُ أَنْ يَكُونَ التَّفَضُّلُ إِلَّا مِنْ قِبَلِهِ ، فَوَعَدَ التَّشْرِيفَ بِمَا سَنَحَ مِنَ الْمَنْثُورِ وَالْمَنْظُومِ ، فَلِلْقُلُوبِ إِلَى وَعْدِهِ هُيَامُ الظَّامِيَةِ، إِلَى النُّطْفَةِ الطَّامِيَةِ ، وَلَا تَزَالُ تَقْتَضِينَاهُ اقْتِضَاءَ الْمُدْنَفِ الْعَافِيَةَ ، وَالْبَيْتِ الْقَافِيَةَ ، وَمَنْ لِلْعَفَرِ ، بِالذَّفَرِ[٦] ، وَالْقَفْرِ ، بِإِلْمَامِ السَّفْرِ[٧] ؟ وَأَقْدَمْتُ عَلَى خِدْمَةِ حَضْرَتِهِ بِالْمُكَاتَبَةِ لِأُنْهِيَ إِلَيْهَا مَا أَنَا عَلَيْهِ ، لَا تَكَثُّرًا بِرَصْفِ الْمَنْطِقِ عِنْدَهُ ، وَهَلْ أَبْلُغُ أَنْ أُدْعَى فِي تَأْلِيفِ الْقَوْلِ عَبْدَهُ ؟ وَقَدْ تُقْبَلُ صَلَاةُ الْأُمِّيِّ ، وَيُسْمَعُ دُعَاءُ الْأَعْجَمِيِّ .

وَنَقْدُهُ — أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهُ — يَكْبُرُ عَنْ تَصَفُّحِ أَمْرِي ، وَتَجَاوُزُهُ يَسْتُرُ زَلَلِي وَعَثْرِي . لِأَنَّ الْمُدْيَةَ ، لَا تَصِلُ إِلَى ضَبِّ الْكُدْيَةِ[٨] ، إِلَّا بَعْدَ التَّبْرِيحِ ، بِذَوَاتِ التَّسْرِيحِ[٩] ، وَالْإِتْيَانِ ، عَلَى مَالِ الْفِتْيَانِ . وَاللهَ أَسْتَجِيرُ مِنْ كَلِمَةٍ ، كَطَوْقِ

---

(١) الرادس : الذى يلقى بالحجر فى حوض الماء أو فى البئر ليرفع الماء ، أو يسبر غورها ويتعرف هل فيها ماء (٢) القادس : الحجر يقسم به الماء بين الإبل فى الحوض أى إرواء إبل القادس (٣) الدرع (٤) السحب الصغيرة تتألف منها الغمامة الكبيرة (٥) سكوتى (٦) العفر : التراب ، والذفر الرائحة الذكية النشر . (٧) يقول : وأنى للمفازة المجدبة المقفرة من النبات والماء أن يحل بها المسافرون . (٨) الضب : معروف ، والكدية : الأرض الغليظة (٩) يعنى ما يسرح فى المرعى من ماشية و إبل

اُلْعِكْرِمَةِ[١]، يُحْسَبُ لَهَا كَالزِّينَة ، وَكَأَنَّهُ مِنْ حِدَادِ اُلْحَزِينَةِ . فَقَدْ حَلَّيْتُها بِعَبقَرٍ[٢]، وَخَلَّيْتُهَا تُرْعَدُ مِنَ اُلْقُرّ[٣]، مِنْ دُونِهَا يَظْهَرُ اُلضِّفْدِعُ ، تَحْتَ اُلشِّبْدِعِ[٤]، وَيُحْكَمُ بِاُلْجِلْسَامِ[٥]، عَلَى الأَجْسَامِ . وَاُلْعِنَايَةُ ، بِجَارِمِ اُلْجِنَايَةِ ، تَمْنَعُ اُلرَّوَاجِبَ[٦]، مِنَ اُلْبَتِّ بِاُلْحُكْمِ اُلْوَاجِبِ .

وَأُتْبِعُ قَوْلِى لِمَا مَضَى ، وَأُشَيِّعُهُ إِذَا اُنْقَضَى ، بِأَنْ أَقُولَ : إِنْ كُنْتُ أَوْطَأْتُ نَفْسِى فِى تَفْضِيلِهِ عِشْوَةً ، أَوْ بَغَيْتُ عَلَى إِظْهَارِ اُلْحَقِّ رِشْوَةً ، فَمُنِيتُ بِاُلْحَاصِبِ[٧]، وَاُلْعَذَابِ اُلْوَاصِبِ[٨].

لَيْلُ اُلْخَرِصِ[٩]، أَنْعَمُ مِنْ لَيْلِ اُلْمُتَخَرِّصِ[١٠]، وَنَهَارُ اُلْكَاذِبِ ، أَبْأَسُ مِنْ نَهَارِ اُلْعَاذِبِ[١١].

غناؤه عن المدح

وَغَنَائِى فِى تَقْرِيظِهِ عَنِ اُلْمَيْنِ ، وَمُسَاوَاةِ اُلْقَيْنِ[١٢]، غَنَاءُ اُلْوَصِيفِ[١٣]، عَنْ لُبْسِ اُلنَّصِيفِ[١٤]، وَاُلْغُلَامِ ، عَنِ اُلْاُخْتِضَابِ بِاُلْعُلَامِ[١٥]،

---

(١) الحمامة (٢) عبقر وحبقر : البَرَد وحب الغمام ، ويقال : أبرد من حبقر .
(٣) البرد (٤) الشبدع : اللسان ، والضفدع غدة صلبة تظهر تحت اللسان
(٥) الجلسام : البرسام ، وهو التهاب يعرض للحجاب الذى بين الكبد والقلب
(٦) الرواجب : مفاصل الأصابع والمراد : الأيدى (٧) الريح تحمل الحصباء أى الحصا
(٨) الدائم (٩) الذى يعانى ألمى الجوع والبرد (١٠) الكاذب (١١) العاذب : الممسك عن الطعام والشراب (١٢) القين : يعنى به «سعد القين» حداد كان كذاباً . وقد مر بك حديثه فى أواخر رسالة الملائكة (١٣) الغلام دون المراهق (١٤) النصيف : الخمار أو العمامة (١٥) العلام : الحناء

وَأَنَا عَلَى إِسْهَابِي كَخَابِطِ الظَّلْمَاءِ ، وَبَاسِطِ الْيَدِ الْجَذْمَاءِ(١) .

وَلَوْ جِئْتُ مِنَ الزَّرَقِ(٢) بِكُرٍّ(٣) ، مَا كَافَأْتُ عَلَى الْفَرِيدَةِ مِنَ الدُّرِّ(٤) .

وَلَيْسَ سِرْبُ الْقَطَا وَإِنْ كَثُرَ ، بِمُقَاوِمِ الْبَازِي وَلَوْ لَطُفَ وَصَغُرَ . وَمِنَ الْغَبَاوَةِ مُبَاهَاةُ الشَّمْسِ بِسِرَاجٍ ، وَمُوَاهَاةُ عَطَالَةَ بِالزُّجَاجِ(٥) .

وَإِنَّ أَدَبِي لَيَنْظُرُ إِلَى أَدَبِهِ نَظَرَ جَرْبَاءِ الْعُنُوقِ ، إِلَى جَرْبَاءِ الْعَيُّوقِ(٦) ، وَأَيْنَ الْمَاءُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَمَوْقِعُ السَّيْلِ ، مِنْ مَطْلِعِ سُهَيْلٍ ، وَالنَّعَائِمُ(٧) الشَّارِدَةُ ، مِنَ النَّعَائِمِ(٨) الصَّادِرَةِ وَالْوَارِدَةِ .

وَتَاللهِ أُسَاجِلُ(٩) — بِثَمَدِي(١٠) — بَحْرَهُ ، وَلَنْ يَهْلِكَ امْرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَهُ .

وَالسَّــــلَامُ .

---

(١) باسط اليد الجذماء : أى اليد المقطوعة ، وقد مر بك فى رسالة الملائكة قوله : « أجد — إذا زاولت الأدب — كأننى عار يتعمم ، أو أقطع الكفين يتختم » وهو يجرى فى هذا وأمثاله على أسلوبه فى المجاملة والتواضع (٢) الزرق : ضرب من الخرز (٣) الكر : مكيال ، قالوا : «وهو نحو أربعين أردبا» (٤) شبيه بهذا قوله فى ختام رسالة الغفران « ولا ينكر على الإطالة ، فان الخالص من النضار ، طالما اشترى بأضعافه — فى الزنة — من اللجين ، فكيف إذا كان الثمن من النفيّات ، اللائى يوجدن فى الطرق مرميات . » (٥) واهاه : كاسره وغالبه . وعَطَالَة : جبل ، يقول : « كمن يحاول أن يضعف الجبل و يوهنه بزجاجة »

(٦) الجرباء : المصابة بالجرب ، والعنوق : الإناث من ولد المعزى قبل أن تستكمل الحول ، وجرباء العيوق : السماء (٧) جمع نعامة وهى الحيوان المعروف (٨) أحد منازل القمر صورته شبيهة بصورة النعامة (٩) جواب القَسَم محذوف ، أى : لا أساجل . ومن مثله قول امرئ القيس :

فقلت : يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى : لا أبرح . . . (١٠) الثمد : الماء القليل

رِسَالَةُ الإِغْرِيضِ (١)

حكمة أبى القاسم

اَلسَّلَامُ عَلَيْكِ أَيَّتُهَا الْحِكْمَةُ الْمَغْرِبِيَّةُ ، وَالْأَلْفَاظُ الْعَرَبِيَّةُ .

أَىُّ هَوَاءٍ رَقَاكِ ؟

وَأَىُّ غَيْثٍ سَقَاكِ ؟

بَرْقُهُ كَالْإِحْرِيضِ (٢) ، وَوَدْقُهُ (٣) مِثْلُ الْإِغْرِيضِ .

---

(١) الإغريض : الطّلع ، وهو : أول حمل النخل ، ورسالة الإغريض ، أو : الرسالة الإغريضية ، قد بعث بها المعرى — كما أسلفنا — إلى أبى القاسم المغربى ، لما أنفذ إليه مختصر إصلاح المنطق ، وقد وصف المعرى فى هذه الرسالة فضل أبى القاسم وبراعته التى تجلت فى هذا المختصر ، وأثنى عليه ، ونبه على كثرة فوائده ، وفى هذه التسمية إشارة لَبِقَة إلى أن باكورة أبى القاسم — التى ألفها وهو لم يبلغ السابعة عشرة من عمره — هى أشبه شىء بالإغريض ، وهو أول ثمر يجود به النخل ، وقد أسمى أبو العلاء أول دواوينه « سقط الزند » وهو ما يسقط من النار إذا قدح الزند ، قبل استحكام الورى ، وعنى بذلك أنه باكورة عمله

(٢) الإحريض : العصفر (٣) قَطْره

حَلَلْتِ الرَّبْوَةَ[١] ، وَجَلَلْتِ عَنِ الهَبْوَةِ[٢] .

أَقُولُ لَكِ مَا قَالَ أَخُو نُمَيْرٍ[٣] ، لِفَتَاةِ بَنِى عُمَيْرٍ[٤] :

« زَكَا لَكِ صَالِحٌ ، وَخَلَاكِ ذَمٌّ وَصَبَّحَكِ الْأَيَامِنُ ، وَالسُّعُودُ »

قصة الغراب الحجازى

لَأَنَا آسَفُ عَلَى قُرْبِكِ ، مِنَ الْغُرَابِ الْحِجَازِيِّ ، عَلَى حُسْنِ الزِّيِّ ، لَمَّا أَقْفَرَ ، وَرَكِبَ السَّفَرَ ؛ فَقَدِمَ جِبَالَ الرُّومِ فِي نَوٍّ ، أَنْزَلَ الْبِرْسَ[٥] مِنَ الْجَوِّ . فَالْتَفَتَ إِلَى عِطْفِهِ — وَقَدْ شَمِطَ[٦] — فَأَسِيَ ، وَتَرَكَ النَّعِيبَ أَوْ نَسِيَ[٧] .

---

(١) الربوة : المرتفع من الأرض ، حيث تزكو الثمرات ويُؤتِى الزرع ضعفى أُكُلِهِ ، وقد مر بالقارئ فى رسالة المنيح قول المعرى : « الروضة الحزنية » وهو يعنى بها مثل هذا المعنى أيضاً

(٢) الغبار (٣) يعنى الراعى الشاعر المعروف صاحب البيت المشهور :

« ألا ليت اللحى كانت حشيشاً فنعلفها خيول المسلمينـا »

(٤) فتاة بنى عمير هى هند معشوقة الراعى الشاعر التى يخاطبها و يدعو لها فى هذا البيت الذى تمثل به المعرى .

(٥) النو : يراد به المطر ، والبِرْس : القطن ، و يراد به هنا الثلج الذى يشبه به ، يقول : إن أسفى على زمن القرب أشد من أسف الغراب الحجازى الذى ندم على فقدانه جمال هيئته ، لما جاب القفار حتى بلغ جبال الروم وتساقطت عليه الأمطار من الجو جليداً أشبه بالقطن

(٦) يقول : إن الغراب الذى لا يشيب أبداً ، قد علا عطفه الشيب (٧) أشار المعرى إلى هذا المعنى إشارة أخرى فى رسالة الملائكة ، فقال : « لو أعرضت الأغربة عن النعيب ، إعراضى عن الأدب والأديب ، لأصبحت لا تحسن نعيباً ، ولا يطيق هرمها زعيبا . »

وَهبَطَ الْأرْضَ فَمَشَى فِي قَيْدٍ[1] ، وَتَمَثَّلَ بِبَيْتِ دُرَيْدٍ :

صَبَا ـ مَا صَبَا ـ حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَلَمَّا عَلَاهُ ، قَالَ لِلْبَاطِلِ : «أُبْعُدِ[2]»

---

(١) يعنى مشية الغراب ، التى تخيل لرائيه أنه مقيد ، ورحم الله القائل :

حنتنى حانيات الدهر حتى كأنى خاتل يدنو لصيد

قريب الخطو ، يحسب من رآنى – ولست مقيداً – أنى بقيد »

(٢) يقول : « وقد حاول ذلك الغراب الحجازى أن يعود إلى وطنه ، فحال دون أمنيته خوفه من شماتة أعدائه وسخريتهم ، لحلول الشيب به ، فاستسلم الغراب للحزن والأسى ، وظل فى غربته حتى لقى حمامه » .

وقد أولع المعرى بأمثال هذه التشبيهات القصصية النادرة ، وامتاز عن الكثيرين من كتاب العربية وشعرائها بهذا اللون المشرق من البيان الخلاب ، وقد ذاعت روائعه فى هذا الباب ، وخلدت بدائعه فى هذا الفن ، فازدان بها الأدب العربى نثراً ونظماً ، وقد مرت بالقارئ مناجاته للديك فى قصيدته التى أولها :

« أيا ديكُ : عُدَّت ـ من أياديك صيحةٌ بعثت بها مَيْت الكرى وهو نائم »

وسيرى القارئ طُرفاً رائعة من تشبيهاته القصصية بعد صفحات قليلة حين عرض لبنات الهديل ، وقد قبسنا نخبة من أشعاره (ص ٢٧٩ جـ ٣) حين عرضنا «للتشاؤم والتفاؤل» و إلى القارئ طائفة قليلة أخرى مما قاله المعرى فى الغراب من رسالة طريفة ، قال :

« ولما كان اليوم الذى ورد فيه كتابه المشتمل على حسن الظن بوليه – على ما لا يستوجبه ، عكفَتْ علىَّ الغربانُ مبشرات ، مثلثات للنعيب ومُعَشِّرات .

لو أنس إلىَّ ابن دَأية لم أخلِه – إن رغب فى الحُلِيّ – من حِجل ، فى الرِّجْل ، أو تقليد ، يقع بالجيد ؛ ولضمخت جناحه مسكا وعنبراً ، ولكسوته وَشْياً وحَبَراً ، على أنه يختال من لون الشبيبة ، فى أجمل سبيبة .

وَأَرَادَ الْإِيَابَ ، فِي ذَلِكَ الْجِلْبَابِ ، فَكَرِهَ الشَّمَاتَ ، فَكَمِدَ حَتَّى مَاتَ .

يا غراب : لغيرك — بعدها — التراب ، إن قضى الله نبذت لك ما تؤثر من الطعام ، إتاوة فى كل يوم لا فى كل عام » .

وقال :

وما أُسِرُّ — لتعشير الغراب — أسى ... ولا أبكِّى خليطاً حلّ تعشارا

وقال :

جر يا غراب وأفسد ، لن ترى أحداً ... إلا مسيئاً ، وأى الناس لم يجر
وخذ من الزرع ما يكفيك عن عُرُضٍ ... وحاول الرزق فى العالى من الشجر
وما ألومك ، بل أوليك معذرة ... إذا خطِفت ذُبال القوم فى الحجر
فآل حواء راعوا الأسد مخدرة ... ولم يغادوا بسلم ربة الوجر
ومن أتاهم بظلم ، فهو عندهم ... كجالب التمر مغتراً إلى هجر
هم المعاشر ضاموا كل من صحبوا ... من جنسهم ، وأباحوا كل محتجر
لو كنت حافظَ أثمار لهم ينعت ... وصادفوك ، لما أخلوك من حجر

وقال :

يدعو الغراب أناس : « حاتماً » سفها ... لأنه بفراق عندهم حَتَما
هذا التكذب ، ما للجون معرفة ... ولا يبالى : أنال المدح أم شُتما
السيد البر ، من لا يستجيز أذى ... ولا يبوح بسر عنده كُتِماَ
الغامرُ الطارقَ المحتاجَ نائله ... أو ابن مَرية من أُمَّاته يَتِما
لا يرفع الصوت بالقول الهراء ضحى ، ... ولا يدب — إلى جاراته — عتَما

والبيت الأول من هذه القصيدة يذكرنا بقول القائل :

والناس يلحون غرا ... ب البين لما جهلوا

وَرُبَّ وَلِيٍّ أَغْرَقَ فِى الْإِكْرَامِ ، فَوَقَعَ فى الْإِبْرَامِ ، إِبْرَامِ السَّأَمِ[(١)] ، لا إِبْرَامِ السَّلَمِ[(٢)] .

دعـــاء

حَرَسَ اللهُ سَيِّدَنا حَتَّى تُدْغَمَ الطَّاءُ فِى الْهَاءِ[(٣)] ، فَتِلْكَ حِرَاسَةٌ بِغَيْرِ انْتِهَاء . وَذَلِكَ أَنَّ هَذَيْنِ ضِدَّانِ ، وَعَلَى التَّضَادِّ مُتَبَاعِدَانِ : رِخْوٌ ، وَشَدِيدٌ ، وَهَاوٍ ، وَذُو تَصْعِيدٍ ، وَهُمَا فِى الْجَهْرِ وَالْهَمْسِ ، بِمَنْزِلَةِ غَدٍ وَأَمْسِ .

وَجَعَلَ اللهُ رُتْبَتَهُ الَّتِى كَالْفَاعِلِ وَالْمُبْتَدَا ، نَظِيرَ الْفِعْلِ فى أَنَّهَا لا تَنْخَفِضُ أَبَداً ، فَقَدْ جَعَلَنِى : إِنْ حَضَرْتُ عُرِفَ شَانِى ، وَإِنْ غِبْتُ لَمْ يُجْهَلْ مَكَانِى ،

وما غراب البين إلا ناقة ، أو جمـــل
وما على ظهر غراب الـ بين تطوى الرحـــل

وقال المعرى :

فقل للغراب الجون ، إن كان سامعاً : « أأنت على تغيير لونك قادر ؟ »

وقال فى قصيدته التى ودع بها أهل بغداد :

« نبى — من الغربان — ليس على شرع ، يخبرنا : أن الشعوب إلى صدع
أصدقه — فى مِرْية — وقد امترت صحابة موسى بعـــد آياته التسع »

وقال فى قصيدته التى رثى بها الشريف الرضى ، يصف الغراب :

« من شاعر — للبين — قال قصيدة يرثى الشريف على روىّ القاف »

(١) الإملال والإضجار (٢) السَّلَم : شجر العضاه ، الواحدة : سَلَمَة ، وأبرم السلم : ظهر بَرَمُه (٣) يشير إلى أن الطاء لا تدغم فى الهاء أبداً ، فهو يدعو له بالسلامة إلى أبد الآبدين ، ومثل هذه الدعوة قوله فى رسالة أخرى : « حتى يستغنى فرض الحج عن طَوَاف ، وقريضٌ عن قَوَاف . »

كَمَا فِى النِّدَاءِ[١]، وَالْمَحْذُوفِ مِنَ الِابْتِدَاءِ، إِذَا قُلْتَ: «زَيْدُ أَقْبِلْ»، وَ«الْإِبِلُ الْإِبِلُ[٢]»، بَعْدَ مَا كُنْتُ كَهَاءِ الْوَقْفِ، إِنْ أُلْقِيتُ فَبِوَاجِبٍ، وَإِنْ ذُكِرْتُ فَغَيْرُ لَازِبٍ[٣].

إِنِّى وَإِنْ غَدَوْتُ فِى زَمَنٍ كَثِيرِ الدَّدِ[٤]، كَهَاءِ الْعَدَدِ، لَزِمَتِ الْمُذَكَّرَ، فَأَتَتْ بِالْمُنْكَرِ[٥]، مَعَ إِلْفٍ يَرَانِى فِى الْأَصْلِ، كَأَلِفِ الْوَصْلِ[٦]، يَذْكُرُنِى بِغَيْرِ الثَّنَاءِ، وَيَطَّرِحُنِى عِنْدَ الِاسْتِغْنَاءِ.

وَحَالٍ كَالْهَمْزَةِ، تُبْدَلُ الْعَيْنَ[٧]، وَتُجْعَلُ بَيْنَ بَيْنَ، وَتَكُونُ تَارَةً حَرْفَ لِينٍ، وَتَارَةً مِثْلَ الصَّامِتِ الرَّصِينِ[٨]، فَهِىَ لَا تَثْبُتُ عَلَى طَرِيقَةٍ، وَلَا تُدْرَكُ لَهَا صُورَةٌ فِى الْحَقِيقَةِ.

---

(١) يعنى « يا » التى تحذف فى النداء للاستغناء عنها، كما تقول: « فلانُ » تناديه بغير « يا » وكما قال أبو سفيان: « يوم بيوم بدر، اعْلُ هُبَلُ » فحذف « يا » مستغنياً عنها، والمعرى يقول إنه أصبح معروفاً — إن حضر أو غاب — كما عرفت « يا » فى النداء، إذا ذكرت أو أسقطت (٢) يعنى تلك هى الإبل، فحذف المبتدأ لأنه معروف، قال ابن مالك فى ألفيته الخالدة :

وفى جواب: « كيف زيد؟ » قل: « دنف
فزيدٌ استُغْنِى عنه إذ عرف »

(٣) يعني أن ذكرها ليس فرضاً محتوماً (٤) اللهو (٥) يشير إلى أن هاء العدد إذا لزمت المذكر أنثت (من ثلاثة إلى عشرة) قال ابن مالك :

« ثلاثة بالتاء قل للعشرة فى عد ما آحاده مذكره »

(٦) يشير إلى أن ألف الوصل تأتى بها فى أول الكلمة لتمكنك من النطق بالساكن، فإذا سبقتها حركة استغنيت عنها وطرحتها من الكلام.

(٧) يشير إلى إبدال الهمزة عيناً فى بعض اللغات (٨) يعنى: الحروف غير اللينة

وَنوائِبَ أَلْحقَتِ الْكَبِيرَ ، بِالصَّغِيرِ ، كأَنَّهَا تَرْخِيمُ التَّصْغِيرِ[1] ، رَدَّتِ الْمُسْتَحْلِسَ إِلَى حُلَيْسٍ ، وَقَابُوسًا إِلَى قُبَيْسٍ[2] .

لَأَمُدُّ صَوْتِي بِتِلْكَ الْآلاَءِ ، مَدَّ الْكُوفِيِّ[3] صَوْتَهُ فِي هَؤُلَاءِ ، وَأُخَفِّفُ عَنْ سَيِّدِنَا الرَّئِيسِ الْحَبْرِ ، تَخْفِيفَ الْمَدَنِيِّ[4] مَا قَدَرَ عَلَيْهِ مِنَ النَّبْرِ[5] .

*
* *

إِنْ كَاتَبْتُ فَلَسْتُ مُلْتَمِسَ جَوَابٍ ، وَإِنْ أَسْهَبْتُ فِي الشُّكْرِ فَلَسْتُ طَالِبَ ثَوَابٍ ، حَسْبِي مَا لَدَيَّ مِنْ أَيَادِيهِ ، وَمَا غَمَرَ مِنْ فَضْلِ السَّيِّدِ الْأَكْبَرِ أَبِيهِ .

دعوات عروضية

أَدَامَ اللهُ لَهُمَا الْقُدْرَةَ مَا دَامَ الضَّرْبُ الْأَوَّلُ مِنَ الطَّوِيلِ صَحِيحاً ، وَالْمُنْسَرِحُ خَفِيفاً سَرِيحاً[6] ، وَقَبَضَ اللهُ يَمِينَ عَدُوِّهِمَا عَنْ كُلِّ مَعْنٍ ، قَبْضَ الْعَرُوضِ مِنْ أَوَّلِ وَزْنٍ[7] ، وَجُمِعَ لَهُ الْمَهَانَةُ إِلَى التَّقْيِيدِ ، كَمَا جُمِعَا فِي ثَانِي

---

(١) ارجع إلى رسالة الشياطين ورسالة الأخرسين لتكمل ما قاله المعرى فى ترخيم التصغير

(٢) يعنى أن تصغير الترخيم تحذف فيه حروف الزيادة (٣) يعنى بالكوفىّ : « حمزة ابن حبيب » (٤) المدنىّ هو « نافع » الذى روى عنه « عثمان بن سعيد المعروف بورش » : أن حركة الهمزة فى مثل « هل أتى » و « قد أفلح » تنقل إلى لام « هل » ودال « قد » ثم تحذف من الكلام (٥) الهمز (٦) السريح : السهل (٧) ألف المعرى أمثال هذه التشبيهات العروضية فقال فى بعض رسائله : « وخبرى فى الائتناف ، لقبُ الجزء السالم من الزحاف ، ولسانى بشكره كثير الحركة فى كل أوان ، كأنه الكامل من الأوزان » وقد عرض المعرى لأمثال هذا فى رسالة الشياطين ، فارجع إليها إن شئت .

الْمَدِيدِ ، وَقُلِمَ قَلْمَ الْفَسِيطِ(١) ، وَخُبِلَ كَسُبَاعِىِّ الْبَسِيطِ ، وَعَصَبَ اللهُ الشَّرَّ بِهَامَةِ شَانِئِهِمَا وَهُوَ مَخْزُوٌّ ، عَصْبَ الْوَافِرِ وَهُوَ مَجْزُوٌّ ، بَلْ أَضْمَرَتْهُ الأَرْضُ إِضْمَارَ ثَالِثِ الْكَامِلِ ، وَعَدَاهُ أَمَلُ الآمِلِ .

وَسَلِمَ سَيِّدَانَا — أَعَزَّ اللهُ نَصْرَهُمَا — وَمَنْ أَحَبَّاهُ وَقَرَّبَاهُ ، سَلَامَةَ مُتَوَسِّطِ الْمَجْمُوعَاتِ(٢) ، فَإِنَّهُ آمِنٌ مِنَ الْمُرَوِّعَاتِ ، فَقَدِ افْتَنَنْتُ فِى نِعَمِهِمَا الرَّائِعَةِ ، كَافْتِنَانِ الدَّائِرَةِ الرَّابِعَةِ(٣) ، وَذَلِكَ أَنَّهَا أُمُّ سِتَّةٍ مَوْجُودِينَ ، وَثَلَاثَةٍ مَفْقُودِينَ(٤) .

ثُرَيَّا سهيل

وَأَنَا أَعُدُّ نَفْسِى مُرَاسَلَةَ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْجَلِيلَةِ عِدَةَ ثُرَيَّا اللَّيْلِ(٥) ، وَثُرَيَّا سُهَيْلٍ(٦) ، هٰذِهِ الْقَمَرَ ، وَتِلْكَ عُمَرَ ، وَأُعَظِّمُهُ فِى كُلِّ وَقْتٍ ، إِعْظَامًا فِى مِقَةٍ(٧) ، وَبَعْضُ الإِعْظَامِ فِى مَقْتٍ .

---

(١) الفسيط : قلامة الظفر (٢) المجموعات ، يعنى : الأوتاد من الشعر (٣) الدائرة الرابعة هى أكثر الدوائر أجناساً لأنها تشتمل على تسعة أجناس (٤) يعنى ستة مستعملة ، وثلاثة مهملة (٥) يعنى الثريا المعروفة ، وقد ذكرها المعرى فقال فى داليته الباقية :

« والثريا رهينة بافتقاد الشـ ـمل حتى تظل كالأفراد »

(٦) ثريا سهيل هى امرأة معروفة من قريش، تزوج منها سهيل بن عبد العزيز بن مروان ، وقد أشار إلى قصتها عمر بن أبى ربيعة ، فقال :

« أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله ، كيف يلتقيان ؟
هى شامية ، إذا ما استقلت ، وسهيل — إذا استقل — يمانِ »

(٧) حب

قُبَّةُ أبي القاسم

فَقَدْ نَصَبَ – لِلْآدَابِ – قُبَّةً[١]، صَارَ الشَّأْمُ فِيهَا، كَشَامَةِ المَعِيبِ[٢]، وَالْعِرَاقُ كَعِرَاقِ[٣] الشَّعِيبِ[٤].

أَحْسَبَ[٥] ظِلَالُهَا مِنَ الْبَرْدَيْنِ[٦]، وَأَغْنَتِ الْعَالَمَ عَنِ الْهِنْدَيْنِ[٧]: هِنْدِ الطِّيبِ، وَهِنْدِ النَّسِيبِ؛ رَبَّةِ الْخِمَارِ[٨]، وَأَرْبَابِ قِمَارٍ[٩]؛ أَخْدَانِ التَّجْرِ[١٠]، وَخَدِينَةِ الْهَجْرِ[١١]

---

(١) شبه أبا القاسم المغربى بالنابغة الذبيانى الذى كانت تضرب له قبة فى سوق عكاظ حيث يحكم بين الشعراء، وقد حفلت بأخباره كتب الأدب. (٢) الشامة – فى الجسد – هى الخال (والجمع شامٌ وشامات) ورجل أشيم: بجسده شامة، والمعرى يعنى أن القبة التى أقامها أبو القاسم قد انتظمت الآداب كلها فأصبحت فيها الشأم كالخال الذى يشوه منظر الجسم (٣) العراق الأول معروف وهو البلد، والعراق الثانى: الجلد المَثْنِىّ المخروز فى أسفل المزادة (٤) الشعيب: المزادة، أو: السِّقاء البالى. (٥) كفى (٦) يعنى: الغداة والعشى (٧) يعنى بالهندين: الهند، البلد المعروف الذى ينسب إليه أجود أنواع الطيب، وهند الحبيبة، التى يتغزل فيها الشعراء (٨) يعنى بربة الخمار: هند الحبيبة (٩) قمار: البلد الذى ينسب إليه العود القمارىّ الطيب الرائحـــة، وهو من بلدان الهند (١٠) يعنى بأخْدان التجر: التجّار الذين يتجرون فى ذلك الطيب القِمارىّ (١١) يعنى هند الحبيبة التى مرّ بالقارىء ذكرها.

قصة ذات الطوق

مَا حَامِلَةُ طَوْقٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَبُرْدٍ — مِنَ الْمُرْتَبَعِ [1] — مَكْفُوفِ الذَّيْلِ ،

---

(١) ذات الطوق ، هى : الحمامة، وهو يعنى بالطوق من الليل : الطوق الأسود فى عنقها ، و يعنى بقوله : « برد من المرتبع » : ثوباً ملوّناً كأنه من وشى الربيع . و « مكفوف الذيل » من (كُفة القميص) : وهو ما استدار حول الذيل ، وقيل : كل ما استطال كحاشية الثوب .

وقد وعدنا القارئ — منذ صفحات قليلة — حين عرضنا لقصة الغراب الحجازى أن نعرض لبعض آراء المعرى وتشبيهاته فى الحمامة ، و إلى القارئ ما وعدنا به .

قال فى بعض رسائله :

« ما ذات طوق لا تنزعه ، و بُرد — من الربيع — ليست تخلعه ، جاد الوسمى لها فأرنَّت ، و بكت شجوها لا تَغَنَّت ، عاليةً ذؤابة فنن غَضٍّ ، فهى لا فى السماء ولا فى الأرض ، تكرر القيل ، وتنطق الخفيف والثقيل ، بأشوق إلى هديلها ، منى إلى مشاهدته ، ولا آسف على خليلها ، من قلبى على فائت خدمته .

و إن عققت نفسى بترك المكاتبة عقوق الضب ولده ، والسارق يده ، فإنما ذلك لهمٍّ واغل ، وخطب شاغل ، وتوخيا للتخفيف ، وتنكبا عن التكليف .

و إنى لأصَبُّ إلى لقائه صبابة العَوْد إلى وطنه ، وذى الشجن إلى شجنه ، وأحن — فى خلال ذلك — إلى مناجاته ، حنين الشوارف ، إلى السِّقاب ، والهوائف، إلى ورود النقاب .

ورحم الله القائل :

« فما وجــــدت كوجدى أم سقب أضلتـــــه ، فرجعت الحنينـــا »

وقال من رسالة أخرى :

« ما حمامة ذات طوق ، يضرب بها المثل فى الشوق ، كانت فى وكر مصون ، بين الشجر والغصون ، تألف أبناء جنسها رِيداً ، فيتراسلان تغريداً ، مسكنها نعمان الأراك ، تأمن به غوائل الأشراك ، وتمر — فى بكرتها — بالبيت الحرام ، لا تفرق لمكان صائد ولا رام ،

. . . .

فغرّها القدر ، إذلم ينفع الحذر ، فخرجت من الأرض المحرمة ، فأصبحت وهى جد مغرمة ، صادها وليد فى الحل ، ما حفظ لها من إلّ ، وأودعها سجنا للطير ، ومنعها من كل مير ، فإذا رأت — من خصاص القفص — بواكر الحمام ، ظلت تمارس جرع الحمام ، تسأل بطرفها أخاها : « ما فعل — بعدها — فرخاها ؟ » ، فيقول : « أصبحا ضائعين ، قد سترهما الورق عن كل عين . »

فُرَيْخَانِ يَنْضَاعَانِ فِى الْفَجْرِ كلما أَحَسَّا دَوِىَّ الريح ، أو صَوْتَ ناعب

بأشوق إلى المعيشة النضرة ، منى إلى تلك الحضرة » .

وقال فى رسالة :

« وشوقى — إلى حضرته الجليلة — شوق حمامة ، أُسرت باليمامة ، صيدت فى يوم دجن ، فوقعت — من القفص — فى سجن ؛ إلى أوطانها النجدية ، غير المفتكّة ولا المفديّة ، فارقت الأخدان فما رجعت ، فكلما لمع صبح سجعت » .

وقال فى لزومياته :

عجبا للقَطا — من الكُدْر والجُو ن — غدت فى عنائها المتواصلْ
لقطت حبّةً وجاءت بها الأفـ ـراخ ثم استقت لها فى الحواصل
من بلاد بعيدة ، لسراب الـ ـهجر فيها لوامعٌ كالمناصلْ
فأغاثت — بوِردها — مودَعات فى هجول ، تقل فيها الصلاصل
هاتفاتٍ ، قد مزق الحرّ عنها الـ أُهُبَ ، أو همّ أن يميزَ المفاصل
راعها أجدل — من الطير أو با زٍ ، فمودٍ — قبل الوصول — وواصل
صاليات ، وما لها من صلاة صائمات — بغير نُسْكٍ — تواصل
ثم باد المَصيد من بعدُ — والصا ئد ، لا شىءَ — غير ذلك — حاصل
فاتق الله ، وافعل الخير ، فالمو ت حسام — يَفرى البرية — فاصل

. . . .

لا تغير هـــذا البياض ، فإن تأ ... بَ ، فلا تجـزعنّ إن قيل : ناصل
إن أعمارنا كآىٍ أُبيِّـنَت ، ... والمنايا لهن مثل الفواصـــل »

وقال :

« قل للحمامة : قـد أصبحت شادية ... فهجت — المذاكر المحزون — تشويقا
كساك ربك ريشا ، تدفعــين به ... قُرّ الشتاء ، وحلى الجيـــد تطويقا
فهل تُراعين من باز — عَلَى شَرَف — ... يهــدى إليك عن الفرخين تعويقــا
أما ترين قِسِىّ الدهـــر ، وتَّرها ... رام مصيبٌ ، أعار النبـــل تفويقا
يغنيك وكرك عن بيت يزيّنـــه ... غاوٍ — من القوم — إذهابا وتزويقا »

وقال :

« رجزت — بتسبيح المليك — حمامة ... بالشام توطن ، أو تحـل حجازا
والطير — مثل الأنس — تعرف ربهـا ... وترى بهـا الشعـــراء والرجازا
فِيهن مِسْهابٌ يُعَدُّ ، وناطـــق ... ترك المقال ، وآثر الإيجـــازا
فاسأل حجاك ، إذا أردت هـــداية ... واحبس لسانك أن يقول مجازا »

وقال :

« كادت تساوى نفوس الناس كلهم ... فى الشر ، ما بين منبـــوز ونبّاز
ظلم الحمامة فى الدنيا — وإن حُسِبت ... فى الصالحات — كظلم الصقر والباز »

وقال فى سقط الزند :

« بلاد ، للحمامـــة أن تغنى ... بهـــا ، ولمن تأسف أن ينـوحا »

وقال :

« يابنات الهديل : أسْعِدْن ، أو عِدْ ... نَ قليـــل الرجاء بالإسعاد »

وقال :

« كحمائم ظَلَمَت ، فنادى أجدل : ... إن كـنت ظالمة ، فإنى أظـلم »

أَوْفَتِ الْأَشَاءَ، فَقَالَتْ — لِلْكَئِيبِ — مَا شَاءَ(١).

تُسْمِعُهُ غَيْرَ مَفْهُومٍ، لا بِالرَّمَلِ وَلَا بِالْمَزْمُومِ(٢). كَأَنَّ سَجِيعَهَا قَرِيضٌ، وَمُرَاسِلَهَا الْغَرِيضُ(٣)؛ فَقَدْ مَادَ — لِشَجْوِهَا — الْعُودُ، وَفَقِيدُهَا لا يَعُودُ. تَنْدُبُ هَدِيلاً(٤) فَاتَ، وَأُتِيحَ لَهُ بَعْضُ الْآفَاتِ.

بِأَشْوَقَ إِلَى هَدِيلِهَا، مِنْ عَبْدِهِ إِلَى مُنَاسَمَةِ أَنْبَائِهِ(٥)؛ وَلَا أَوْجَدَ عَلَى إِلْفِهَا، مِنْهُ عَلَى زِيَارَةِ فِنَائِهِ.

هَاتِفُ الْحَمَامِ

وَلَيْسَ الْأَشْوَاقُ، لِذَوَاتِ الْأَطْوَاقِ(٦)، وَلَا عِنْدَ السَّاجِعَةِ، عَبْرَةٌ مُتَرَاجِعَةٌ. إِنَّمَا رَأَتِ الشَّرَطَيْنِ، قَبْلَ الْبُطَيْنِ، وَالرِّشَاءَ(٧)، بَعْدَ الْعِشَاءِ، فَحَكَتْ صَوْتَ الْمَاءِ فِي الْخَرِيرِ، وَأَتَتْ بِرَاءٍ دَائِمَةِ التَّكْرِيرِ.

ولا بأس أن نختم هذا الفصل بقول المعرى فى بعض الطير الذى يصلح الشجر، المسجل له لفتة زراعية بارعة، وانتباهة علمية نادرة، إذ يقول:

«عجبت لطير — بلطف المليك — مخلوقة لصلاح الثمر
تنقّبه مولعات به ولو لم تزره تهاوى فمرّ
تحل محلا لها ثانيا وتترك منزلها قد دمر»

(١) الأشاء: صغار النخل، يقول: إن الحمامة لما بلغت الشجر هتفت للمحزون بما تهش لسماعه نفسه (٢) الرمَل: لحن من ألحان الموسيقى. وكذلك المزموم (٣) الغريض: المغنى المعروف الذائع الصيت (٤) الهديل: جد الحمائم — فيما يزعمون — يُنسبن إليه، فيقال لهن: «بنات الهديل» وقد أجمعت الأساطير على هلاكه فى زمان «نوح» وزعمت أن الحمائم تبكيه إلى اليوم. (٥) مناسمة أنبائه: تنسُّم أخباره. (٦) الحمام (٧) الشَّرَطان والبُطَين والرِّشاء: من منازل القمر، قالوا: والشرطان: نجمان، قيل: هما أول منازل القمر، وهما معترضان من

فَقَالَ جَاهِلٌ : «فَقَدْتُ حَمِيماً ، وَثَكِلَتْ وَلَداً قَدِيماً» ، وَهَيْهَاتَ يَا بَاكِيَةُ : أَصْبَحْتِ ، فَصَدَحْتِ . وَأَمْسَيْتِ ، فَتَنَاسَيْتِ .

لَا هَمَامِ ، لَا هَمَامِ [١] . مَا رَأَيْتُ أَعْجَبَ مِنْ هَاتِفِ الْحَمَامِ : سَلِمَ فَنَاحَ ، وَصَمَتَ وَهُوَ مَكْسُورُ الْجَنَاحِ !

إِنَّمَا الشَّوْقُ لِمَنْ يَدَّكِرُ فِى كُلِّ حِينٍ ، وَلَا يُذْهِلُهُ [٢] مُضِىُّ السِّنِينَ .

بلاغة أبى القاسم

وَسَيِّدُنَا — أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ — الْقَائِلُ النَّظْمَ فِى الذَّكَاءِ [٣] : مِثْلَ الزَّهَرِ ، وَفِى الْبَقَاءِ [٤] : مِثْلَ الْجَوْهَرِ . تَحْسَبُ بَادِرَتَهُ : التَّاجَ ، ارْتَفَعَ عَنِ الْحِجَاجِ [٥] ، وَغَابِرَتَهُ : الْحِجْلَ ، فِى الرِّجْلِ .

يَجْمَعُ بَيْنَ اللَّفْظِ الْقَلِيلِ ، وَالْمَعْنَى الْجَلِيلِ ، جَمْعَ الْأُقْحُوَانِ — فِى لُعَابِهِ — بَيْنَ الْقَلَّةِ ، وَفَقْدِ الْبِلَّةِ [٦] .

خَشُنَ ، فَحَسُنَ ، وَلَانَ ، فَمَا هَانَ . لِينُ الشَّكِيرِ [٧] ، يَدُلُّ عَلَى عِتْقِ

الشمال إلى الجنوب ، وقيل : هما نجمان — من الحَمَل — وهما قرناه ، يقال : «طلع الشَّرَطان» وذلك فى أول الربيع ، و إلى الجانب الشمالى منهما كوكب صغير ، ومنهم من يَعُدّه معهما ، فيقول : هذا المنزل ثلاثة كواكب ، و يسميها الأشراط . والبُطَيْنُ : منزل من منازل القمر وهو ثلاثة كواكب صغار مستوية التثليث ، كأنها أثافىّ ، وهُو بطن الحَمَل . والرِّشاء : كواكب كثيرة صغار على صورة السمكة .

(١) لا أهم بذلك ولا أفعله . (٢) لا ينسيه (٣) فى سطوع الرائحة ، وانتشار الطِّيب . (٤) البقاء : الخلود (٥) الحجاج : العظم ينبت عليه الحاجب . (٦) البِلَّة الشفاء ، و يقال : « فإن النكسة بعد البِلة ، شرّ أدواء العلة » (٧) الشكير : الشعر فى أصل عرف الفرس كأنه زَغَب ، وما ولى الوجه والقفا من الشعر

الْمِخْضِيرِ (١) . وَحَرَشُ (٢) الدِّينَارِ ، آيَةُ كَرَمِ النَّجَّارِ (٣) .

فَصُنُوفُ الأَشْعَارِ — بَعْدَهُ — كَأَلِفِ « السَّلْمِ (٤) » يُلفَظُ بِهَا فِى الْكَلَامِ . وَلَا تَثْبُتُ لَهَا هَيْئَةٌ بَعْدَ اللَّامِ . خَلَصَ مِنْ سَبْكِ النَّقْدِ خُلُوصَ الذَّهَبِ ، مِنَ اللَّهَبِ . وَاللُّجَيْنِ (٥) ، مِنْ يَدِ الْقَيْنِ (٦) . كَأَنَّهُ لَآلٍ ، فِى أَعْنَاقِ حَوَالٍ (٧) . وَسِوَاهُ لَطٌّ (٨) ، فِى عُنُقِ ثَطٍّ (٩) . مَاخَانَتْهُ قُوَّةُ الْخَاطِرِ الْأَمِينِ ، وَلَاعِيبَ بِسِنَادٍ (١٠) وَلَا تَضْمِينٍ (١١) . وَأَيْنَ النَّثْرَةُ ، مِنَ الْعَثْرَةِ (١٢) . وَالْفَرْقَدُ (١٣) ، مِنَ الْغَرْقَدِ (١٤) ؟

---

(١) الفرس الشَّديد العَدْوِ . (٢) خشونة (٣) الأصل . (٤) هى الألف التى تظهر فى النطق ولا تثبت فى الكتابة ، إذا قلت : هذا ، والرحمن ، وهؤلاء ، وقد عنى أبو العلاء أن ألف السلام تسقط إذا كتبت من رسم المصحف ، ولكنها تثبت فى النطق (٥) الفضة

(٦) الحداد ، أو : الصائغ (٧) نساء لابسات حليهن (٨) قلادة من حب الحنظل

(٩) الثط ، والأثط : الثقيل البطن ، أو الكوسج الذى لحيته على ذقنه لا على العارضين ، أو الذى لا شعر فى وجهه ، يقال : « كسج الرجل ، أى لم تنبت له لحية »

(١٠) السناد من عيوب القافية ، قال أبو العلاء :

« بعدى عن الناس خير من لقائهم وقربهم — للحجى والدين — أدواء
كالبيت أُفرِدَ ، لا إيطاء يدخله ولا سناد ، ولا فى اللفظ إقواء »

(١١) عيب من عيوب الشعر ، وهو أن يتم البيت دون أن يتم المعنى .

(١٢) النثرة : من منازل القمر . والعثرة : العثار ، أو الزلة (١٣) الفرقد : واحد الفرقدين ، وهما النجمان المعروفان . قال أبو العلاء :

« وكيف تنام الطير فى وُكناتها وقد نصبت — لِلفَرْقَدَيْن — الحبائل ؟ »

(١٤) الغرقد : نوع من الشجر ، واحدته : غرقدة ، وهو العوسج الذى هجاه ابن الرومى فقال :

« عذرنا النخل فى إبداء شوك يذود به الأنامل عن جناه
فما للعوسج الملعون ، أضحى له شوك ، بلا ثمر نراه
فلا يتسلحن لدفع كفٍّ ، كفاه لؤم مجناه ، كفاه »

وَالسَّاعِى فى أَثَرِهِ فَارِسُ عَصَا بَصِيرٍ ، لَا فَارِسُ عَصَا قَصِيرٍ[1] .

خاطر الألمعى

وَأَنَا ثَابِتٌ عَلَى هٰذِهِ الطَّوِيَّةِ[2] ثَبَاتَ حَرَكَةِ الْبِنَاءِ ، مُقِيمٌ تِلْكَ الشَّهَادَةَ بِغَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ . غَنِيٌّ عَنِ الْأَيْمَانِ فَلَا عَدَمَ[3] ، مُقْسِمٌ عَلَى مَا قُلْتُ فَلَا حِنْثَ[4] وَلَا نَدَمَ . وَإِنَّمَا تُخْبَأُ الدُّرَّةُ ، لِلْحَسْنَاءِ الْحُرَّةِ . وَيُجَادُ بِالْيَمِينِ ، فِى الْعِلْقِ[5] الثَّمِينِ . مَا أَنْفَسَهُ خَاطِرًا امْتَرَى الْفِضَّةَ ، مِنَ الْقِضَّةِ[6] .

---

(١) عصا بصير ، أى عصا الأعمى ، و « عصا قصير » ، عصا : اسم فرس ، وقصير هو ابن سعد اللخمى ، وهو صاحب جذيمة بن الأبرش ، وكان لجذيمة هذا فرس يقال له « العصا » قالوا : فلما أحاط أعداؤه به تعرض له قصير بالعصا لعله يركبها فينجو عليها ، حتى إذا يئس « قصير » من ذلك ، نجا « قصير » على ظهرها . قالوا : فنظر اليها جذيمة وهى تجرى بقصير ، فقال : ياضل ما تجرى به العصا !

(٢) الطوية : النية (٣) أى فلا حاجة بى إلى الإقسام (٤) الحنث : الخُلْف فى اليمين

(٥) العلق : النفيس ، وجمعه أعلاق ، قال ابن زيدون :

« يا عِلْقِىَ الأخطر ، الأسنى ، الحبيب إلى
قلبى ، إذا ما اقتنى الأحباب أعلاقا
كان التجازى بمحض الوُدِّ — مذ زمن —
ميدان أنس ، جرينا فيه أطلاقا
فاليوم — أحمدَ ما كنا لعهدكم —
سلوتمُ ، وبقينا نحن عشاقا »

وقال الحريرى فى بعض مقاماته :

« أبيت اللعن ، إن سكاب عِلْق نفيس ، لا يعار ولا يباع »

(٦) امترى الفضة من القِضَّة ، أى : استخرج الفضة من صغار الحصى .

وَالْوَصَاةَ(١)، مِنْ مِثْلِ الْحَصَاةِ . وَرُبَّمَا نَزَعَتِ الْأَشْبَاهُ ، وَلَمْ يُشْبِهِ الْمَرْءُ أَبَاهُ . وَلَا غَرْوَ لِذٰلِكَ : اَلْخَضِرَةُ ، أُمُّ اللَّهِيبِ(٢) ، وَالْخَمْرَةُ ، بِنْتُ الْغِرْبِيبِ(٣) .

مزايا أبي القاسم

وَكَذٰلِكَ سَيِّدُنَا ، وَلَدٌ مِنْ سِحْرِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، حِكْمَةٌ لِلْحُنَفَاءِ(٤) الْمُتَدَيِّنِينَ وَكَمْ لَهُ مِنْ قَافِيَةٍ تَبْنِي السُّودَ(٥) ، وَتَثْنِي الْحَسُودَ : كَالْمَيْتِ ، مِنْ شُرْبِ الْعَاتِقَةِ الْكُمَيْتِ ، نُشُورُهُ(٦) قَرِيبٌ ، وَحِسَابُهُ تَثْرِيبٌ(٧) .

أَيْنَ مُشَبِّهُو النَّاقَةِ بِالْفَدَنِ(٨) ، وَالصَّحْصَحِ(٩) بِرِدَاءِ الرَّدَنِ(١٠) ؟

وَجَبَ الرَّحِيلُ ، عَنِ الرَّبْعِ الْمُحِيلِ(١١) . نَشَأَ — مِنْ بَعْدِهِمْ — وَاصِفٌ ،

---

(١) الوصاة : النخلة تنبت من النواة (٢) الخضرة أم اللهيب ، يعنى أن الشجر الأخضر تخرج منه النار ذات اللهيب (٣) الغربيب : العنب الأسود .

(٤) الحنفاء : المسلمون ، سموا كذلك ، لأنهم مالوا عن الأديان الأخرى التى سبقتهم .

(٥) السود : السؤدد ، وهو الشرف والرفعة (٦) يريد : صحوه .

(٧) تثريب : لوم وتفنيد . (٨) الفدَن : القصر المشيد ، يقال : فَدَّنَ الإبَل تفدينا أى : سمّنها وصيّرها كالفدَن ، قال عنترة :

« فوقفْتُ فيها ناقتى ، وكأنَّها فَدَنٌ ، لأقضى حاجــة المُتَلَوِّم »

(٩) الصَّحْصَحُ ، والصَّحْصَاح ، والصَّحْصَحان : ما استوى من الأرض وجَرد ، يقال : « سرنا فى صَحْصَحٍ من الأرض و صَحْصَحان » وجمعه صحاصح (١٠) رداء الرَّدَن : ثوب الخزّ ، قال الأعشى :

« فأفنَيْتُهــا ، وتعالَلْتُهــا على صَحْصَحٍ ، كرداء الرَّدَن »

(١١) الربع المُحِيل : الربع المتغيّر ، يقول : أين أولئك المشبهون والواصفون ليروا براعة هذا الواصف البارع ، فيقلعوا عن تلك التشبيهات التى أصبحت كالربع المحيل ، ويأخذوا — كما أخذ — بأسباب التجديد .

غُودِرُوا لَهُ كَالْمَنَاصِفِ(١) . إِذَا سَمِعَ الْخَافِضُ(٢) صِفَتَهُ لِلسَّهْبِ الْفَسِيحِ(٣) ، وَالرَّهْبِ الطَّلِيحِ(٤) ، وَدَّ أَنَّ حَشِيَّتَهُ(٥) بَيْنَ الْأَحْنَاءِ(٦) ، وَخَلُوقَهُ(٧) عَصِيمُ(٨) الْهِنَاءِ(٩) ، وَحَلَمَ بِالْقُودِ ، فِي الرُّقُودِ(١٠) ، وَصَاغَ بُرَى(١١) ذَوَاتِ الْأَرْسَانِ ،

---

(١) المناصف : الخدم ، يعنى أن أولئك الوصاف بعد أن جاء هذا السيد العظيم قد أصبحوا له — لما أوتيه من بلاغة وسحر — كالخدم . (٢) الخافض : الناعم بعيشة رغد (٣) يعنى : الفلاة الواسعة (٤) الرهْب : الناقة المعيبة التى أضناها السير وهزلها السفر حتى بدت — من هزالها — عظاما . والطليح : المعيبة المذمومة (٥) حشيته : وسادته (٦) الأحناء (جمع حنو) وهى خشب الرّحْل (٧) الخلوق : ضرب من الطيب . يريد : طيبه (٨) العصيم : البقية (٩) الهناء : القار الذى يطلى به البعير ليشفى من الجرب . والمعنى : أن الخافض الناعم المترف إذا قرأ وصف أبى القاسم للسهب الفسيح والناقة السقيمة المهزولة عشق ذلك السهب وتلك الناقة — لبلاغة الواصف — وَوَدّ أن يجعل نومه بين خشب رحلها ، ويتخذ طيبه من القار الذى يطلى بها .

وقريب من هذا المعنى قول أبى العلاء أيضاً :

« وأبغضتُ فيك النخلَ ، والنخلُ مُثمِرٌ وأعجبنى — من حبّك — الطَّلح والضال »

فهو يؤثر الطلح والضال على النخل ، كما يؤثر ذلك المترف الناعم ركوب الناقة المهزولة والتطيب بالهناء الذى تطلى به الجرب من النوق على ما ألف من عيش ناعم وطيب ذكى النشر

(١٠) القود (جمع أقود) ، وهو الذلول من البعران ، أو هو الطويل العنق مع تطامن ، والرقود : النوم . يعنى أنه — لهيامه بما سمع من بلاغة الواصف — يبيت يحلم بتلك النوق فى رقاده

(١١) البرى (جمع بُرة) وهى حلقة من نحاس ونحوه — من جواهر الأرض — توضع فى أنف البعير . قال ابن دريد فى مقصورته الرائعة :

« أَلِيَّــةً باليعْمَــلات : يرتمى بهــا النَّجَــاء ، بين أجواز الفــلا
خُوصٍ كأشباح الحنــايا ، ضُمَّرٌ ، يَرْعُفْنَ — بالأمشاج — من جذب الْبُرى

مِنْ بُرَى[١] اَلْبِيضِ اَلْحِسَانِ ، شَنَفاً[٢] لِدُرِّ اَلنُّحُورِ ، وَعُيُونِ اَلْحُورِ ، وَشَعَفاً[٣] بِدَرٍّ بَكِيٍّ[٤] ، وَعَيْنٍ مِثْلِ الرَّكِيِّ[٥] ، وَإِعْرَاضاً عَنْ بُدُورٍ ، سَكَنَّ فِي اَلْخُدُورِ ؛ إِلَى حُولٍ[٦] ، كَأَهِلَّةِ اَلْمُحُولِ . فَهُنَّ أَشْبَاهُ اَلْقِسِيِّ[٧] ، وَنَعَامِ السِّيِّ[٨] .

يَرْسُبْنَ فى بحر الدجى ، وَبالضحى يطفون — فى الآلِ — إذا الآل طفا »

وهو يعنى بذوات الأرسان : النوق والبعران

(١) البُرَى (جمع بُرَة) وهى — هنا — السِّوَار ، أو : الخلخال ، أو الدملج ، قال الراجز :

« اليوم يبنى — لدويد — بيتُهُ يارب وجـه حسن رأيتـهُ
ومعصم — ذى بُرَةٍ — لَوَيْتُهُ ، لو كان للدهر بِلًى ، أبليتـه
أو كان قِرْنى واحـدًا كُفِيتُه

(٢) الشَّنَف : البغض . يقال : « شَنَفْتُ له » إذا أبغضته (٣) الشعف : شدة الحب والوجد يقال : شعفه الحب ، أى : أحرقه وفى نسخة : شغفاً (٤) الدَّرُّ : اللَّبَن ، والبَكِيُّ : القليل (٥) الرَّكِيُّ : الآبار ، مفردها رَكِيَّة (وهى البئر) قال الحريرى فى إحدى مقاماته : « حُمْتَ على رَكِيَّةٍ بَكِيَّةٍ » يعنى : حُمْتَ على بئر قليلة الماء . وقد مر بك — فى رسالة أبى القاسم إلى أبى العلاء — قوله :

« أتعاطى نَزْحَ الرَّكِيِّ ، وإن قَصَّـ ـرَ عن أن ينـالَ ماءَ رِشاه »

وهو يعنى بقوله : « وعين مثل الرَّكِيِّ » أن عينها غائرة كالبئر ، قالوا : « وتشبه عين البعير — إذا غارت لطول السفر — بالبئر »

(٦) الحول : النياق التى لم تحمل ولم تلد (مفردها حائل) قالوا : « والحيال محمود فى الناقة التى تطلب للسفر » وأهلة المحول ، أى أهلة الجدب ، وهى أخفى من غيرها لاغبرار الأفق إذا أمحل الناس (٧) منحنيات كالأقواس (٨) السى : أرض ببلاد العرب يكثر فيها النعام . قالوا : والعرب تشبه النياق بالنعام .

وَإِنْ أَخَذَ فى نَعْتِ الْخَيْلِ فَيَا خَيْبَةَ مَنْ سَبَّهَ الأوَابِدَ بِالتَّقْيِيدِ[(١)]، وَشَبَّهَ الْحَافِرَ بِقَعْبِ[(٢)] الْوَلِيدِ، نَعْتاً غَبَطَ بِهِ الْهَجِينَ[(٣)] الْمَنْسُوبُ، وَالْبَازِىُّ الْيَعْسُوبَ[(٤)]، إِذْ رُزِقَ مِنَ الْخَيْرِ، مَا لَيْسَ لِكَثِيرٍ مِنْ سِبَاعِ الطَّيْرِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَى الصِّغَرِ، سَمِىُّ بَعْضِ الْغُرَرِ. وَقَدْ مَضَى حَرْسٌ[(٥)]، وَخَفَتَ جَرْسٌ[(٦)]. وَلِلْقَالِعِ[(٧)]، أَبْغَضُ طَالِعٍ، وَالأَزْرَقُ، يُجَنِّبُكَ عَنْهُ الْفَرَقُ[(٨)]. فَالآنَ سَلِمَتِ الْجُبْهَةُ[(٩)] مِنَ الْمَعْضِ[(١٠)]، وَشَمِلَ بَعْضَهَا بَرَكَاتُ بَعْضٍ. فَأَيْقَنَ النَّطِيحُ[(١١)]، أَنَّ رَبَّهُ لاَ يَطِيحُ[(١٢)]، وَالْمَهْقُوعُ[(١٣)]، نَجَا رَاكِبُهُ مِنَ الْوُقُوعِ.

---

(١) سبّه: أذهل، وفى نسخة: شبه. والأوابد: الوحوش، و إنما وصفوها بذلك لأنها تعيش آبادا طويلة، وهو يشير إلى قولة امرئ القيس المشهورة:

« وقد أغتدى — والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل »

وهذا التعبير « قيد الأوابد » أى حبسها مما استحسنه نقاد العرب، وعدوه من مفاخر امرئ القيس، ولكنه إذا قورن ببلاغة أبى القاسم — فيما يرى المعرى — عد من المخزيات

(٢) القعب: القدح الصغير، و يشبه به حافر الفرس، قال امرؤ القيس:

لها حافر: مثل قعب الوليد ركب فيه وظيف عجر

(٣) الهجين: الذى ولدته برذونة من جواد عربى، قالوا: « والهجنة – فى الناس والخيل – إنما تكون من قبل الأم » (٤) اليعسوب: النحلة وذكر الجراد والجعل، واليعسوب أيضا اسم للبياض الذى فى وجه الفرس إذا استطال ورق وقارب الأنف، و يسمى غرة أيضا

(٥) زمن (٦) صوت (٧) دائرة فى جسم الفرس تحت اللبد وهى مكروهه فى الفرس (٨) إشراف إحدى الوركين على الأخرى وهو مكروه فى الفرس أيضا

(٩) الخيل (١٠) ما يغضب أو تسوء ذكراه، تقول: « معضت الرجل وأمعضته، إذا ذكرته بما يغضبه » (١١) الفرس فى جبهته دائرتان وهو مكروه (١٢) لا يهلك

(١٣) المهقوع — من الخيل — ما كان به دائرة بعرض زوره، يتشاءم بها

فَلَنْ يُحْرَبَ[١] ، قَائِدُ الْمُغْرَبِ[٢] ، وَلَنْ يُرْجَلَ[٣] ، سَائِسُ الْأَرْجَلِ[٤] . وَالعَابُ[٥] ، وَإِنْ لَحِقَ الْكَعَابَ[٦] ، نَاكِبٌ ، عَنْ نَاقِلَاتِ الْمَرَاكِبِ . وَقَالَتْ خَيْفَانَةُ[٧] امْرِئِ الْقَيْسِ : « الدُّبَّاءَةُ[٨] ، لِرَاعِي الْمَبَاءَةِ[٩] ، والْأُثْفِيَّةُ[١٠] ، لِلْقِدْرِ الْكَفِيَّةِ » نَقْمًا[١١] عَلَى جَاعِلِ عُذَرِهَا كَقُرُونِ الْعَرُوسِ[١٢] ، وَجَبْهَتِهَا :

---

(١) لن يصيبه الحرب وهو الهلاك (٢) المُغْرَب : أقبح البياض، يصفون به الجواد الذى ابيض وجهه ورأسه ، وهومما يتطير به (٣) لن يُرجل : لن يترجل عن فرسه (٤) الأرجل (من الدواب) ذو الترجيل ، وهو : بياض فى إحدى رجلى الدابة ، وهو مكروه ينفرون منه إذا لم يجمع إلى ذلك بياض غرته (٥) العاب : العيب (٦) الكعاب : الجارية الناهد

(٧) الخيفانة : الفرس الضامر ، المخطف البطن ، قالوا : « وأصل هذا الوصف فى الجراد » يقال : « جرادة خيفانة » إذا كان فيها لونان ، وقال بعضهم : « الخيفانة : الضامرة » وإنما استعمل هنا على سبيل التشبيه (٨) الدُّبَّاءة (واحدة الدُّباء) وهو : القَرْعُ . وتشبه الفرس الأنثى بالدباءة وهى القرعة ، أو النخلة الطويلة الملساء ، ولا يشبه بها الفرس الذكر لأن الإناث من الخيل توصف بدقة المقاديم وطول العنق ، فلذلك تُشَبَّهُ بالدُّبَّاءة . وهو يعنى بذلك قول امرئ القيس :

« وأركب — المرّوع — خيفانة كسى وجهها سعف مُنْتَشِرْ
إذا أقبلت ، قلت : « دُبَّاءَةٌ — من الخضر — مغموسة فى الغُدُرْ »
وإن أدبرت ، قلت : « أُثْفِيَّةٌ ململمة ليس فيها أَثر »

(٩) المباءة : المنزل ، قالوا : « وإنما سمى بها المنزل ، لأن أهله يبوءون إليه ، أى : يرجعون »

(١٠) حجر من الحجارة التى توضع عليها القدر (١١) مصدر : نقم منه ، إذا أنكر عليه وعابه (١٢) العُذَر ، (جمع عذرة) وهى : الناصية ، أو : الخصلة من الشعر ، والشعر على كاهل الفرس . وقرون العروس : ذوائبها

كَمُحَذَّفِ[١] التُّرُوسِ[٢] .

وأَنَّى لِلْكِنْدِيِّ[٣] ، قَوَافٍ كَهَجْمَةِ السَّعْدِيِّ[٤] :

« إِذَا اصْطَكَّتْ — بِضِيقٍ — حُجُرَتَاهَا[٥]

تَلَاقَى الْعَسْجَدِيَّةُ واللَّطِيمُ[٦] »

البلاغة الساحرة

فَالْقَسِيبُ[٧] ، فِي تَضَاعِيفِ النَّسِيبِ ، والشَّبَابُ ، فِي ذَلِكَ التَّشْبِيبِ ، لَيْسَ رَوِيُّهُ[٨] بِمَقْلُوبٍ ، وَلَكِنَّهُ مِنْ إِرْوَاءِ الْقُلُوبِ ، وَقَدْ جَمَعَ أَلِيلَ[٩] مَاءِ

---

(١) المُحَذَّف : المصنوع ، أو المتقن ، يقال : « حذف الصانع الشيء » أي : « سواه تسوية حسنة » وحذّف شعره : طَرَّره ، وسوّاه ، وهو أن يأخذ من نواحيه حتى يستوى ، ومن ذلك قولهم : « فلان محذَّف الكلام » (٢) التروس (جمع تُرس) وهو المجن ، والمعرى يشير بهذا إلى قول امرئ القيس فى القصيدة نفسها :

« لها جبهـة كسراة المجـ ـنِّ ، حذَّفها الصانع المقتدر »

يعنى بسراة المجن : ظهر الترس . (٣) الكندى هو : امرؤ القيس (٤) الهجمة : ما بين الستين إلى المائة من الإبل ، والسعدىّ منسوب إلى سعد بن زيد مناة .

(٥) الحجرة : الناحية ، وحجرتاها ، يعنى بهما : جانبيها (٦) العسجد واللطيم : فحلان تنسب إليهما الإبل ، والعسجد معناه : الذهب ، ومعنى اللطيم : المسك ، أى الإبل التى تحمل الذهب والمسك (٧) القسيب : صوت الماء الجارى (٨) الروىّ : الحرف الذى تبنى عليه القصيدة (٩) الأليل : الصوت ، وماء الصبا : رونقه ونضارته

الصَّبَا ، وَصَلِيلَ[١] ظِماءِ الظُّبَا[٢] . فَالْمِصْرَاعُ كَمِرْآةِ الْغَرِيبَةِ ، حَكَتِ الزِّينَةَ وَالرِّيبَةَ ، وَأَرَتِ الْحَسْنَاءَ سَنَاهَا ، وَالسَّمْجَةَ مَا عَنَاهَا[٣] .

*
* *

فَأَمَّا الرَّاحُ ، فَلَوْ ذَكَرَهَا لَشَفَتْ ، مِنَ الْهَرَمِ ، وَانْتَفَتْ ، مِنَ الْكَرْمِ ، إِلَى الْكَرَمِ ، وَلَمْ تَرْضَ دِنَانُ الْعُقَارِ ، بِلِبَاسِ الْقَارِ[٤] ، وَنَسْجِ الْعَنَاكِبِ ، عَلَى الْمَنَاكِبِ ، وَلَكِنْ تُكْسَى — مِنْ وَشْيٍ — ثِيَابًا ، وَيُجْعَلُ طِلَاؤُهَا زِرْيَابًا[٥] .

وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ ذَكَرَ خَيْمَةً يَغْبِطُ الْمِسْكُ جَارَهَا مِنَ الشِّيَامِ[٦] ، وَيَوَدُّ سَعْدُ الأَخْبِيَةِ[٧] أَنَّهُ سَعْدُ الْخِيَامِ .

مختصر إصلاح المنطق

وَوَقَفْتُ عَلَى مُخْتَصَرِ إِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ الَّذِي كَادَ بِسِمَاتِ[٨] الأَبْوَابِ ، يُغْنِي

---

(١) الصليل : صوت السيوف (٢) والظُّبَا (جمع ظُبَة) وهى حد السيف قال السموأل :

« تسيل — على حدّ الظُّبَاة — نفوسنا ، وليست — على غير الظُّبَاة — تسيل »

والمعرى يقول : « إن صاحبه قد جمع فى شعره بين العذوبة والقوة ، فالتقى فيه صوت ماء الصبا ، وصوت السيوف الظامئة إلى القتال » .

(٣) الغريبة : المغتربة عن وطنها ، وإنما ضربت الأمثال بمرآتها — فى الصفاء — لأنها تكثر من تعهدها والعناية بأمرها ، فليس لها فى غربتها غيرها من ناصح يَصْدُقها الخبر ، ويريها مفاتنها ومساويها ، ويصف لها زينتها وريبتها ، ويريها مواضع جمالها ، ومواطن قبحها .

(٤) لباس القار : الذى تطلى به الدّنان . (٥) الزرياب : ماء الذهب .

(٦) الشيام : التراب (٧) سعد الأخبية : منزل من منازل القمر ، يقول : إن أبا القاسم لما وصف الخيمة شرّفها ورفع من قدرها ، فأصبح المسك يحسد ما جاورها من التراب ، وود القمر لوحل فيها بدلا من حلوله فى منزلته السماوية (٨) سمات الأبواب : علاماتها

عَنْ سَائِرِ الْـكِتَابِ ، فَعَجِبْتُ كُلَّ الْعَجَبِ مِنْ تَقْيِيدِ الأَجْمَالِ(١) ، بِطِلَاءِ(٢) الأَحْمَالِ ، وَنَقْلِ قَلْبِ الْبَحْرِ ، إِلَى قَلْتِ النَّحْرِ(٣) ، وَإِجْرَاءِ الْفُرَاتِ ، فِى مِثْلِ الأَخْرَاتِ(٤) .

شَرَفاً لَهُ تَصْنِيفاً شَفَى الرَّيْبَ ، وَكَفَى مِنِ ابْنِ قُرَيْبٍ(٥) ، وَدَلَّ عَلَى جَوَامِعِ اللُّغَةِ بِالإِيمَاءِ ، كَمَا دَلَّ الْمُضْمَرُ(٦) عَلَى مَا طَالَ مِنَ الأَسْمَاءِ ، أَقُولُ فِى الإِخْبَارِ : « أَمَرْتُ أَبَا عَبْدِ الْجَبَّارِ » ، فَإِذَا أَضْمَرْتُهُ ، عُرِفَ مَتَى قُلْتُ : « أَمَرْتُهُ » .

وَأَبَلَ(٧) مِنَ الْمَرَضِ وَالتَّمْرِيضِ ، بِمَا أَسْقَطَ مِنْ شُهُودِ الْقَرِيضِ ، كَأَنَّهُمْ فِى تِلْكَ الْحَالِ ، شَهِدُوا بِالْمُحَالِ ، عِنْدَ قَاضٍ ، عَرَفَ أَمَانَتَهُمْ بِالانْتِقَاضِ ، عَلَى حَقِّ عِلْمِهِ بِالْعِيَانِ ، فَاسْتَغْنَى فِيهِ عَنْ كُلِّ بَيَانٍ .

شواهد الإصلاح

وَقَدْ تَأَمَّلْتُ شَوَاهِدَ إِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ ، فَوَجَدْتُهَا عَشَرَةَ أَنْوَاعٍ ، فِى عِدَّةِ

---

(١) الأجمال (جمع : جمل) (٢) الطلاء : الخيط ، يقول : إننى عجبت كيف استطاع أن يقيد الجمل القوى بتلك الخيوط التى لا يقيد بها الا الحمل الضعيف .

(٣) القَلْت : النقرة فى الجيد ، و إنما سميت كذلك تشبيها لها بقلت الصخرة ، وهى النقرة يجتمع الماء فيها (٤) الأخرات (جمع خَرْت) وهو ثقب الإبرة ، أو ثقب الأذن ، يقول: وعجبت كيف جمع كل هذه الفوائد فى مثل هذا المختصر الصغير ، فهو بذلك كان كمن قدر على وضع البحر فى نقرة النحر ، وجمع ماء الفرات فى مثل ثقب الأذن (٥) ابن قريب هو : الأصمعى ، وقد مرت بك ترجمته فى الجزء الثانى من هذا الكتاب

(٦) المضمر : الضمير (٧) أبل : شفى .

إِخْوَةِ الصِّدِّيقِ[١] ، لَمَّا تَظَاهَرُوا عَلَى غَيْرِ حَقِيقٍ ، وَتَزِيدُ عَلَى الْعَشَرَةِ بِوَاحِدٍ ، كَأَخٍ لِيُوسُفَ لَمْ يَكُنْ بِالشَّاهِدِ[٢] .

وَالشِّعْرُ الأَوَّلُ[٣] وَإِنْ كَانَ سَبَبَ الأُثْرَةِ ، وَصَحِيفَةَ الْمَأْثُرَةِ[٤] ، فَإِنَّهُ كَذُوبُ الْقَالَةِ ، نَمُومُ الإِطَالَةِ .

وَإِنَّ «قِفَا نَبْكِ[٥]» — عَلَى حُسْنِهَا ، وَقِدَمِ سِنِّهَا — لَتُقِرُّ بِمَا يُبْطِلُ شَهَادَةَ الْعَدْلِ الرِّضَى[٦] ، فَكَيْفَ بِالْبَغِيِّ الأُنْثَى[٧] ؟ قَاتَلَهَا اللهُ عَجُوزاً لَوْ كَانَتْ بَشَرِيَّةً ، كَانَتْ مِنْ أَغْوَى الْبَرِيَّةِ .

رجز الضب

وَقَدْ تَمَادَى بِأَبِي يُوسُفَ[٨] — رَحِمَهُ اللهُ — الاِجْتِهَادُ ، فِي إِقَامَةِ الأَشْهَادِ[٩] ، حَتَّى أَنْشَدَ رَجَزَ الضَّبِّ[١٠] ، وَإِنَّ مَعَدًّا — مِنْ ذَلِكَ — لَجِدُّ مُغْضَبٍ . أَعَلَى

---

(١) يعنى يوسف الصديق — عليه السلام — وقصته مع إخوته ذائعة معروفة .

(٢) يعنى بنيامين أخا يوسف الصديق ، فهو لم يشهد ما فعله إخوته به (٣) الشعر الأول ، يعنى : شعر الأوائل القدماء ، وهم شعراء الجاهلية (٤) المأثرة : المكرمة المتوارثة ، والمفخرة التى تُؤْثَرُ وتُروَى (٥) يعنى معلقة امرئ القيس المعروفة ، وأولها :

« قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسِقْط اللوى ، بين الدَّخول فحومل »

(٦) الرِّضَى : العَدْل من الشهود ، وهو مصْدَر على معنى اسم المفعول (٧) البغىّ الأنثى ، يعنى بها معلقة امرئ القيس ، لأنها جمعت كثيراً من أفانين الفحش

(٨) يعنى صاحب كتاب إصلاح المنطق : أبا يوسف يعقوب بن السِّكِّيت

(٩) الأشهاد : الشواهد والأمثلة (١٠) رجز الضب معروف ذائع ، وقد وضعه بعض قصاصى العرب على لسانه ، وزعموا أن الضب هو قائل هذا الرجز ، وقد اشتهى أن يرد العراد والصليان ، (والعراد : نوع من الحمض ، والصليان : نبت تأكله الإبل والحمير الوحشية) فقال :

فَصاحَتِهِ يُسْتعَانُ بِالْقَرْضِ ؟ وَيُسْتَشْهَدُ بِأَحْناشِ[١] الأَرْضِ ؟ ما رُؤْبَةُ[٢] عِنْدَهُ فى نَفِيرٍ[٣] ، فَما قَوْلُكَ فى ضَبٍّ دَامِى الأَظَافِيرِ[٤] ؟

كتاب ابن السِّكِّيتِ

وَمَنْ نَظَرَ فِى كِتابِ « يَعْقُوبَ » وَجَدَهُ كَالْمُهْمَلِ ، إِلاَّ بَابَ فَعْلٍ وفَعَلٍ ، فَإِنَّهُ مُؤَلَّفٌ عَلَى عِشْرِينَ حَرْفاً ، سِتَّةٍ مُذْلَقَةٍ[٥] ، وَثَلاثَةٍ مُطْبَقَةٍ[٦] ، وَأَرْبَعَةٍ مِنَ الْحُرُوفِ الشَّدِيدَةِ[٧] ، وَوَاحِدٍ مِنَ الْمَزِيدَةِ[٨] ، وَنَفِيثَيْنِ[٩] : الثَّاءِ والذَّالِ ، وَآخَرَ مُتَعَالٍ[١٠] ، وَالأُخْتَيْنِ : الْعَيْنِ وَالْحَاءِ[١١] ، والشِّينِ مُضَافَةً إِلَى حَيِّزِ الرَّاءِ .

« أصبح قلبى صردا   لا يشتهى أن يردا
إلا عــرادا عـردا ،   وصلّيــانا بردا »

(١) أحناش الأرض : حشراتها ، والمعنى أن « معد بن عدنان » رأس البلاغة العربية شديد الغيظ والحنق على استشهاد « ابن السكيت » صاحب إصلاح المنطق ، برجز الضب — وهو من أحناش الأرض — على فصاحته ، وفى هذا من الغض بشأنه ما لا يغتفره له .

(٢) رؤبة : هو الراجز المعروف ، وقد مرت بك ترجمته فى الجزء الثانى حين عرض المعرى لجنة الرجّاز (٣) النفير : الكفء ، تقول : « ما هو بنفير فلان » أى أنه ليس بكفئه فى المنافرة (٤) يقول : إذا كان معد بن عدنان لا يرى فى « رؤبة ابن العجاج » — الذى يستشهد بكلامه نقاد العرب ورواتهم — كفئاً له ، فكيف بالضب الحقير ، يتخذ مما يجرى على لسانه شاهداً على فصاحة معد بن عدنان ؟ (٥) يعنى أحرف : الراء واللام والنون والفاء والباء والميم (٦) يعنى أحرف « الصاد والضاد والطاء » ، قالوا : « والظاء من حروف الإطباق، ولكن يعقوب لم يؤلف عليها فى هذا الباب» (٧) يعنى أحرف : « الجيم والدال والكاف والتاء » (٨) يعنى حرف السين (٩) أحرف النفث هى : « الثاء والذال والظاء » (١٠) يعنى حرف القاف ، لأنه من حروف الاستعلاء

(١١) هما من حروف الحلق

فَرَحِمَ اللهُ «أَبَا يُوسُفَ» ، لَوْ عَاشَ لَفَاظَ كَمَداً[١] ، أَوِ احْفَاظَّ[٢] حَسَداً . سَبَقَ ، ابْنُ السِّكِّيتِ ، ثُمَّ صَارَ السُّكَيْتَ[٣] ؛ وَسَمَقَ[٤] ، ثُمَّ حَارَ وَتِدًا لِلْبَيْتِ[٥] .

فضل الموجز

كَانَ الْكِتَابُ[٦] تِبْرًا فِي تُرَابِ مَعْدِنٍ ، بَيْنَ الْحُتِّ[٧] وَبَيْنَ الْمُتَدِّنِ[٨] ، فَاسْتَخْرَجَهُ سَيِّدُنَا وَاسْتَوْشَاهُ[٩] ، وَصَقَلَهُ فِكْرُهُ وَوَشَّاهُ ، فَغَبَطَهُ النَّيِّرَاتُ عَلَى التَّرْقِيشِ[١٠] ، وَالْآلِ النَّقِيشِ[١١] .

فَهُوَ مَحْبُوبٌ لَيْسَ بِهَيْنٍ ، عَلَى أَنَّهُ ذُو وَجْهَيْنِ ، مَا نَمَّ قَطُّ وَلَا هَمَّ[١٢] ، وَلَا نَطَقَ وَلَا أَرَمَّ[١٣] ، فَقَدْ نَابَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الصَّمِيمِ ، مَنَابَ مِرْآةِ

---

(١) فاظ كمداً : مات حزناً وأسًى (٢) يقال : «احفاظَّتِ الجيفة» أى : «انتفخت».

(٣) السُّكَّيْتُ والسُّكَيْتُ : هو آخر فرس يجىء فى حلبة السباق (٤) سمق : علا ، وارتفع (٥) حار : رجع ، الوَتِد : ما رُزَّ فى الأرض أو الحائط من خشب ، وفى الأمثال : «أذل من عَيْرٍ أو وَتِدٍ ، قال الشاعر :

«وما يقوم على ضيم يراد به إلا الأذلّان : عير الحىّ ، والوَتِدُ»

هذا على الخسف مربوط برمته وذا يدق ، فلا يرثى له أحد »

(٦) يعنى كتاب «ابن السكيت» (٧) الحُتُّ : التراب اليابس والرمل الخشن

(٨) المتدِّن : اللين (٩) يقول : «فخلص التبر من التراب، ونفى القشر واستبقى اللباب ، فأصبح الكتاب بعد تلخيصه ذهباً خالصاً من كل شائبة» (١٠) يعنى : حسدته الكواكب النيرة على بهائه وزينته (١١) النقيش : المنقوش ، والآل : الشخص (١٢) يعنى : «ما نمَّ ، ولا همَّ بالنميمة» (١٣) أرم : سكت ، يعنى أنه : لم ينطق ولم يسكت

الْمُنَجِّمِ(١) فِى عِلْمِ التَّنْجِيمِ(٢)، شَخْصُهَا ضَئِيلٌ مَلْمُومٌ، وَفِيهَا الْقَمَرَانِ وَالنُّجُــــومُ(٣).

تكرار اللفظ

وَأَقُولُ – بَعْدُ – فِى إِعَادَةِ اللَّفْظِ: «إِنَّ حُكْمَ التَّأْلِيفِ فِى ذِكْرِ الْكَلِمَةِ مَرَّتَيْنِ، كَالْجَمْعِ فِى النِّكَاحِ(٤) بَيْنَ أُخْتَيْنِ، الأُولَى: حِلٌّ يُرَامُ، وَالثَّانِيَةُ: بَسْلٌ(٥) حَرَامٌ». كَيْفَ يَكُونُ فِى الْهَوْدَجِ لَمِيسَانِ(٦)؟

---

(١) المنجم: الفلكى (٢) يعنى بالتنجيم: علم الفلك (٣) أبدع ابن الرومى فى صوغ هذا المعنى بأسلوب آخر، فى هجائه لابن الخبازة، إذ يقول:

«كضمير الفؤاد يلتهم الدُّنـ   يا جميعاً، وتحويه دفتا حيزوم.»

(٤) الزواج (٥) البسل: الحرام. (٦) لميس: اسم محبوبة، والمعنى:

«كيف يجمع المرء – فى هودجه – حبيبتين؟»

ولميس: اسم يطلق على الحبيبة كما تطلق ليلى وزينب ودعد ولبنى ولبينى وبثينة، وكلهن من ذوات الأسماء التى يشبب بها. فأما لميس، فحسبنا منها قول الراجز:

«يا ليتنى وأنت يا لميس   فى بلدة ليس بها أنيس
إلا اليعافير، وإلا العيس»

وقول المعرى:

يا رب لا أدعو «لميس» كما دعا   «أوس» ولا دعوى «زهير»: «حار»

وهو يعنى بأوس: ابن حُجْر بن عتاب الشاعر الجاهلى. ويشير إلى قوله

«تنكرت منا – بعد معرفة – لميس»

أما «حار» الذى أشار إليه المعرى، فهو قول الشاعر:

يا حار: لا أرمين منكم بداهية   لم يلقها سوقة – قبلى – ولا ملك

. . . .

وأما زينب فقد أشار إليها المعرى فى (صفحة ٣٥٥ ج ١) من اللزوميات فى قوله :

لزينب يحلو جَنِيُّ أمر وقد علقت كفها بالقمر

وقوله (فى ج ١ ص ٢٠٦ من اللزوميات) ، وفيه إشارة إلى زينب ودعد :

« وزينب إن أصابتها المنايا فهند — من وسائقها — ودعد »

وأما ليلى فهى مضرب الأمثال فى الشعر العربى ، وحسبنا أن نجتزئ بقول الشاعر :

تداويت من ليلى — بليلى — من الهوى ، كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

وقول المجنون :

أليس وعدتنى — يا قلب — أنى — إذا ما تبت عن ليلى — تتوب
فها أنا تائب عن حب ليلى فمالك ، كلما ذكرت ، تذوب »

وأما دعد فحسبنا منها شاعر اليتيمة :

« لهفى على دعد ، وما خلقت إلا لطول تلهفى دعد
وإذا المحب شكا الصدود ، ولم يعطف عليه فقتله عمد
وإذا صبرت لجهد نازلة فكأنه ما مسك الجهد »

وقول المعرى :

« خذ حساما — سعد — أو قلما وخذى — يا دعد — عرناسا »

والعرناس من آلات الغزل . وأما لبنى ، فحسبنا منها قول قيس بن ذريح :

« فيا قلب خبرنى — إذا شطت النوى بلبنى وصدت عنك — ما أنت صانع ؟
أتصبر للبين المشت مع الجوى أم أنت امرؤ ناسى الحياء ، فجازع ؟
وقد نشأت فى القلب منكم محبة كما نشأت فى الراحتين الأصابع »

وأما لبينى ، فحسبنا منها قول « صرّدر » :

وقد كشف الغطاء ، فما نبالى أصرحنا بذكرك أم كنينا

وَفى السَّبَّةِ خَمِيسانِ[١]؟ يا أُمَّ الْفَتَيَاتِ : حَسْبُكِ مِنَ الْهُنُودِ[٢]، وَيا أَبَا الْفِتْيَانِ : شَرْعُكَ[٣] مِنَ السُّعُودِ[٤]. عَلَيْكِ أَنْتِ بِزَيْنَبَ وَدَعْدٍ ، وَسَمِّ أَيُّها الرَّجُلُ

نسائل عن ثمامات بحزْوى ، وبانُ الرمل يعــلم من عَنَينا
ولو أنا ننادى : « يا سليمى » لقالوا : « ما عنيت سوى لبينى » !

وأما بثينة فحسبنا منها قول جميل :

وإنى لأرضى — من بثينة — بالذى لَوَ أبْصَرَهُ الواشى ، لقرت بلابله
بلا ، وبألا أستطيع ، وبالمنى ، وبالأمل المرجــوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العَجْلى ، وبالحول تنقضى أواخره — لا نلتقى — وأوائله .

وأما عزة ، فحسبنا منها قول كثير :

وقد زعمت أنى تغيرت بعدها ومن ذا الذى — يا عز — لا يتغير ؟

(١) السَّبَّة : البرهة من الزمن ، وقد خصصها المولدون بأيام الأسبوع — كما فى محيط المحيط — فالمعنى على هذا أن الأسبوع لا يجتمع فيه يوما خميس ، بل يوم خميس واحد .
وقد يكون المراد من السبة ما أريد بها فى قول ابن الرومى :

فيطعنه فى سبة السوء طعنة : يقوم لها — من تحته — وهو أفحج

وقد مر بالقارئ هذا البيت فى جيميته فى الجزء الثالث فى آخر ص ٢٧٢ من هذا الكتاب
ويراد من الخميسين : الرمحان (وقد سمى الرمح خميساً لأن طوله خمس أذرع) .
وفى هذا إشارة إلى قول الشاعر :

تريدين كيما تجمعينى وخالدا وهل يجمع السيفان ويحك فى غمد ؟

(٢) يقول : حسبك يا أم الفتيات أن تسمى إحدى بناتك « هنداً » ثم تسمى غيرها من الأخوات أسماء أخريات ، أما أن تسمّى — من بناتك — هندين ، فذلك سخف وفساد ذوق . (٣) شرعك : حسبك (٤) يقول : « وحسبك يا أبا الفتيان أن تسمى واحداً من أبنائك سعداً ، أما أن تسمى ولديك سعدين فذلك رأى سقيم ، فإن الأسماء كثيرة » . وهو ينتقد — بهذا المثال — ما وقع فى كتاب « يعقوب » من تكرار الكلمة مرتين .

بِسِوَى سَعْدٍ ، مَا قلَّ أَثِيرٌ ، وَالأَسْماءُ كَثِيرٌ .

مَثَلُ يَعْقُوبَ مَثَلُ خَوْدٍ[١] كَثِيرَةِ الْحُلِيِّ ضَاعَفَتْهُ عَلَى التَّرَاقِ[٢]، وَعَطَّلَتِ الْخَصْرَ وَالسَّاقَ !

ورود الكتاب

كَانَ يَوْمُ قُدُومِ تِلْكَ النُّسْخَةِ يَوْمَ ضَرِيبٍ[٣] ، حَشَرَ الْوَحْشَ مَعَ الإِنْسِ ، وَأَضَافَ الْجِنْسَ إِلَى غَيْرِ الْجِنْسِ ، وَلَمْ يَحْكُمْ عَلَى الظِّبَاءِ ، بِالسِّبَاءِ[٤] ، وَلاَ رَمَى الآجَالَ[٥] . بِالأَوْجَالِ . وَلَكِنَّ الأَضْدَادَ تَجْتَمِعُ ، فَتَسْتَمِعُ ، وَتَنْصَرِفُ بِلَذَّاتٍ ، مِنْ غَيْرِ أَذَاةٍ .

*
* *

وَإِنَّ عَبْدَهُ « مُوسَى » لَقِيَنِي نِقَاباً[٦] ، فَقَالَ : هَلُمَّ[٧] كِتَاباً ، يَكُونُ لَكَ شَرَفاً ، وَلِوَلاَئِكَ[٨] فِي حَضْرَةِ سَيِّدِنَا — أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ — مُعْتَرِفاً .

فَتَلَوْتُ عَلَيْهِ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ : « إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى ، وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى[٩] » .

وَأَحْسَبُهُ رَأَى نُورَ السُّؤْدُدِ ، فَقَالَ — لِمُخَلَّفِيهِ[١٠] — مَا قَالَ « مُوسَى »

---

(١) الخود : الفتاة الحسناء الناعمة الجسم ، وقيل : الحيية . (٢) التراق : أعلى الصدر ، قال تعالى : « حتى إذا بلغت التراق ، وقيل : من راق ، وظن أنه الفراق . » (٣) الضريب : الثلج ، والجليد ، والصقيع (٤) بالأسر (٥) الآجال : قطعان الغزلان أو : بقر الوحش ، والأوجال : المخاوف (٦) مصادفة على غير موعد (٧) هاك . (٨) ولحبك . (٩) أضحى : أصابته الشمس بحرّها . (١٠) لمن تركهم خلفه .

– عَلَيْهِ السَّلَامُ – لِأَهْلِهِ : « إِنِّى آنَسْتُ نَاراً ، لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ[١] أَوْ أَجِدُ – عَلَى النَّارِ – هُدًى . »

الأخلاق الباهرة

فَلَيْتَ شِعْرِى : مَا يَطْلُبُ ؟ أَقَبَسَ ذَهَبٍ ؟ أَمْ قَبَسَ لَهَبٍ ؟

بَلْ يُتَشَرَّفُ بِالأَخْلَاقِ الْبَاهِرَةِ ، وَيُتَبَرَّكُ بِالأَحْسَابِ الطَّاهِرَةِ :

« بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى ، يَقْتَبِسْنَ لَهَا   جَزْلَ الْجِذَى ، غَيْرَ خَوَّارٍ وَلَا دَعِرِ[٢] »

☆
☆ ☆

وَقَدْ آبَ – مِنْ سَفْرَتِهِ الأُولَى – وَمَعَهُ جُذْوَةٌ مِنْ نَارٍ ، إِنْ لُمِسَتْ ، فَنَارُ إِبْرَهِيمَ[٣] ، أَوْ أُونِسَتْ ، فَنَارُ الْكَلِيمِ[٤] ، وَاُجْتُنِىَ بَهَاراً[٥] حُيِّتْ بِهِ الْمَرَازِبَةُ[٦] « كِسْرَى » ، وَحُمِلَ فِى فَكَاكِ الأَسْرَى ، وَأَدْرَكَ « نُوحاً » مَعَ الْقَوْمِ ، وَبَقِىَ غَضّاً[٧] إِلَى الْيَوْمِ ، وَمَا أُنْتُجِعَ[٨] « مُوسَى » إِلاَّ الرَّوْضَ الْعَمِيمَ ، وَلَا أُتْبِعَ إِلاَّ أَصْدَقَ مُغِيمٍ[٩] .

---

(١) شعلة   (٢) الحواطب (جمع حاطبة) يعنى : باتت الحواطب يحتطبن لليلى . ويجمعن لها الجزل ، أى الغليظ من الحطب . والجذى جمع جذوة ، وهى القطعة الجزلة الملتهبة من الخشب ، أو . العود فيه نار ، والخوار : الضعيف ، والدَّعِر : الذى يدخن ولا تذكو ناره.

(٣) نار إبرهيم ، يعنى أنها برد وسلام .   (٤) الكليم ، هو : موسى الكليم ، وقصته معروفة .   (٥) البهار : نبت طيب الرائحة .   (٦) المرازبة : أعيان الفرس ورؤساؤهم .

(٧) أى لا زال محتفظاً بنضارته إلى اليوم   (٨) انتجع : ذهب يطلب الكلأ .

(٩) المغيم : السحاب يؤذن بالمطر .

مَقدَمُ الزُّهيرىّ

وَوَرَدَ عَبْدُهُ « الزُّهَيْرِىُّ » مِنْ حَضْرَتِهِ الْمُطَهَّرَةِ ، كَأَنَّهُ زَهْرَةُ بَقِيعٍ[١] ، أَوْ وَرْدَةُ رَبِيعٍ ، كَثِيرَةُ الْوَرَقِ ، طَيِّبَةُ الْعَرَقِ .

وَلَيْسَ هُوَ — فِى نِعْمَتِهِ — كَالرِّيمِ[٢] ، فِى ظِلَالِ الصَّرِيمِ[٣] ، وَالْجَابِ[٤] ، فِى السَّحَابِ الْمُنْجَابِ[٥] ، لِأَنَّ الظَّلَامَ يُسْفِرُ[٦] ، وَالْغَمَامَ يَنْسَفِرُ[٧] .

وَلَكِنَّهُ مِثْلُ النُّونِ فِى اللُّجَّةِ[٨] ، وَالْأَعْفَرِ تَحْتَ جِرْبَةَ[٩] .

المعرى والأدب

وَقَدْ كُنْتُ عَرَّفْتُ سَيِّدَنَا — فِيمَا سَلَفَ — أَنَّ الْأَدَبَ كَعُهُودٍ[١٠] فِى أَثَرِ عُهُودٍ ، أَرْوَتِ النِّجَادَ[١١] فَمَا ظَنُّكَ بِالْوُهُودِ[١٢] ؟ وَأَنَّى نَزَلْتُ مِنْ ذَلِكَ

---

(١) البقيع : المكان الفسيح ، فيه أُروم الشجر من ضروب شتى (٢) الريم : الغزال الأبيض . (٣) الصريم : الليل (٤) الجاب : الأسد ، أو : حمار الوحش (٥) المنجاب : المنكشف (٦) يسفر : ينجاب ، ينكشف (٧) ينحسر (٨) النون فى اللجة : الحوت فى البحر (٩) الأعفر تحت جربة : الظبى تحت السماء . وقد مر بك قول المعرى فى لزومياته :

« وما أظن المنايا تخطو كواكب جربه
ستأخذ النسر ، والغفـ ـر ، والسماك ، وتربه »

فهو بقوله : « كواكب جربه » ، يعنى : كواكب السماء ، وجربة — من أسماء السماء — معرفة ، لا تدخلها ألف ولام (١٠) أمطار (١١) النجاد (جمع نجد) ، وهو ما ارتفع من الأرض (١٢) الوهود : الوديان ، مفردها : الوهد ، وهو الوادى ، أو هو : كل ما انخفض من الأرض

الْغَيْثِ[١] بِبَلَدٍ طَسْمٍ[٢]، كَأَثَرِ الْوَسْمِ[٣]، مَنَعَهُ الْقِرَاعُ[٤]، مِنَ الْإِمْرَاعِ[٥].

يَا بُؤْسَ بَنِي سَدُوس[٦]. الْعَدُوُّ حَازِبٌ[٧]، وَالْكَلَأُ عَازِبٌ[٨].

يَا خِصْبَ بَنِي عَبْدِ الْمَدَانِ[٩]، ضَأْنٌ فِي الْحُرْبُثِ[١٠] وَضَأْنٌ فِي السَّعْدَانِ[١١].

فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ أَتْعَبْتُ الْأَظَلَّ[١٢]، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا الْحَنْظَلَ، فَلَيْسَ فِي اللَّبِيدِ[١٣]، إِلَّا الْهَبِيدُ[١٤]، جَنَيْتُهُ مِنْ شَجَرَةٍ اُجْتُثَّتْ[١٥] مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ.

---

(١) الغيث : المطر (٢) الطسم : الدارس . (٣) الوسم : الكى ، فإذا وقع فى الجلد لم ينبت عليه وبر أو غيره . يقول : إن بلده دارس ممحل لا ينبت فيه شىء ، فهو كأثر الكى فى الجلد لا ينبت عليه شىء .

(٤) القراع : المقارعة ، وهى الحرب ، قال الشاعر :

« ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب »

(٥) الإمراع : الخصب ، يقول : إن توالى الحروب قد حالت بين رفاهية بلده و إخصابه

(٦) هذا مثل ، و بنو سدوس قبيلة من العرب من ذهل بن شيبان (٧) قريب

(٨) بعيد (٩) هذا مثل ، و بنو عبد المدان من بنى الحرث بن كعب .

(١٠) الحربث : نبت مبسوط ، له ورق طوال ، رقاق، وهو طيب الرائحة ، يزيل بخر الفم

(١١) السعدان : نبات ترعاه الإبل (١٢) الأظل : باطن القدم ، أو باطن الخف ، أو بطن الإصبع . (١٣) اللبيد : العِدْل ، أو : الجوالق الصغير (١٤) الهبيد : حَبُّ الحنظل ، وقد مر بك قول تأبط شراً :

فى حيث لا يعمِت الغادى عمايته ولا الظليم به يبغى تهبادا

(١٥) استؤصلت

لَبَنُ الْإِبِلِ عَنِ الْمُرَارِ(١) مُرٌّ، وَعَنِ الْأَرَاكِ(٢) طَيِّبٌ حُرٌّ.

المعرى والنشب

هَذَا مَثَلِي فِى الْأَدَبِ، فَأَمَّا فِى النَّشَبِ(٣)، فَلَمْ تَزَلْ لِى — بِحَمْدِ اللهِ، وَبَقَاءِ سَيِّدِنَا — بُلْغَتَانِ(٤): بُلْغَةُ صَبْرٍ، وَبُلْغَةُ وَفْرٍ(٥)، أَنَا — مِنْهُمَا — بَيْنَ اللَّيْلَةِ الْمَرْعِيَّةِ(٦)، وَاللَّقُوحِ الرِّبْعِيَّةِ(٧): هَذِهِ عَامٌ، وَتِلْكَ مَالٌ وَطَعَامٌ(٨).

*
* *

وَالْقَلِيلُ سُلَّمٌ إِلَى الْجَلِيلِ، كَالْمُصَلِّى يُرِيغُ الضَّوْءَ(٩)، بِإِسْبَاغِ الْوُضُوءِ(١٠)، وَالتَّكْفِيرَ، بِإِدَامَةِ التَّعْفِيرِ(١١)، وَقَاصِدِ بَيْتِ اللهِ لِغَسْلِ الْحُوبِ(١٢)، بِطُولِ الشُّحُوبِ(١٣).

---

(١) شجر مرّ، إذا رعته الإبل قلعت مشافرها، ومرت ألبانها.

(٢) الأراك: شجر طيب الرائحة، قالوا: «وأطيب ألبان الإبل ابن الأَوَارِك، وهى: الإبل التى ترعى الأراك، وهو نبت طيّب.» والمعرى يقول لأبى القاسم: «إننا لم نرع — فى بلدتنا المعرة — إلا أخبث مرعى من مراعى الأدب، فكيف يزكو بياننا ويطيب أدبنا وتنضج ثمارنا» (٣) النشب: المال (٤) البُلغة: ما يتبلغ به من العيش (٥) وفر: مال

(٦) الليلة المرعية: الساهرة التى ترعى كواكبها (٧) الناقة التى تنتج فى أول الربيع. قالوا: اللقوح: الناقة التى تنتج، فهى لقوح شهرين أو ثلاثة، ثم هى — بعد ذلك — لبون

(٨) هذه، يعنى ليلة السهر، فهى تشبه فى طولها العام، وتلك، يعنى: نوقه التى تنتج فى أول الربيع، فهى له مال وطعام (٩) يُرِيغ الضَّوء: يطلب الضَّوْء، أى: النور

(١٠) إسباغ الوضوء: تعميم الماء فى الوضوء حتى يستوفى كل عضو حقه من الماء

(١١) يعنى كطالب الغفران والتكفير عن ذنوبه، يطيل تمريغ وجهه فى التراب ليمحو أوزاره

(١٢) الحوب: الذنب أو: الإثم (١٣) الشحوب: الاصفرار من جوع أو سفر أو ضنى

سَبَأُ بْنُ يَعْرُب

وَأَنَا – فِى مُكَاتَبَةِ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْجَلِيلَةِ ، وَالْمَيْلِ عَنْ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْأَجَلِّ : وَالِدِهِ ، أَعَزَّ اللهُ سُلْطَانَهُ – كَسَبَإِ بْنِ يَعْرُبَ ، لَمَّا ابْتَهَلَ فِى التَّقَرُّبِ ، إِلَى خَالِقِ النُّورِ ، وَمُصَرِّفِ الْأُمُورِ : نَظَرَ ، فَلَمْ يَرَ أَشْرَقَ – مِنَ الشَّمْسِ – يَدًا ، فَسَجَدَ لَهَا تَعَبُّدًا .

مدائح الشعراء

وَغَيْرُ مَلُومٍ سَيِّدُنَا لَوْ أَعْرَضَ عَنْ شَقَائِقِ النُّعْمَانِ الرَّبْعِيَّةِ (١) ، وَمَدَائِحِهِ الْيَرْبُوعِيَّةِ (٢) ، مَلَلًا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ الْمُضَافِ إِلَى هَذَا الاِسْمِ (٣) ؛ فَغَيْرُ مُعْتَذِرٍ (٤) ، مَنْ أَبْغَضَ – لِأَجْلِهِمْ – بَنِى الْمُنْذِرِ .

وَهُمْ (٥) – إِلَى حَضْرَتِهِ السَّنِيَّةِ – رَجُلَانِ : سَائِلٌ ، وَقَائِلٌ .

أَمَّا السَّائِلُ ، فَأَلَحَّ ، وَأَمَّا الْقَائِلُ ، فَغَيْرُ مُسْتَمْلَحٍ .

---

(١) شقائق النعمان الربعية ، أى : التى تنبت فى الربيع ، والمعرى بهذه الإشارة يُوَرِّى بلباقته وحذقه أبدع تورية ، فهو من معرة النعمان يهدى أزهار بيانه ويشبهها بشقائق النعمان ، ويلتمس لأبى القاسم العذر فى إعراضه عن الشقائق النعمانية ، لأنها تذكره بهذه الشقائق . قالوا : « وكان النعمان يعجبه هذا الضرب من النبت ، ويحمى منابته ، فينسب إليه »

(٢) المدائح اليربوعية ، هى مدائح نابغة بنى ذبيان التى خص بها النعمان بن المنذر ، والنابغة من بنى يربوع ، فلهذا نسب المعرى مدائحه إلى قبيلته (٣) البلد المضاف إلى هذا الاسم : يعنى اسم النعمان ، فإن معرة النعمان مضافة إليه (٤) فغير معتذر : أى ليس فى حاجة إلى الاعتذار ، لأن عذره واضح بين (٥) يعنى بنى وطنه من قاطنى المعرة

وَقَدْ سَتَرَتْ نَفْسِي عَنْهَا سَتْرَ الْخَمِيصِ[١]، بِالْقَمِيصِ، وَأَخِي الْهِتْرِ[٢]، بِسُجُوفِ[٣] السِّتْرِ، فَظَهَرَ لِي فَضْلُهُ الَّذِي مَثَلُهُ مَثَلُ الصُّبْحِ — إِذَا لَمَعَ — تَصَرَّفَ الْحَيَوَانُ فِي شُؤُونِهِ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ الْيَرْبُوعُ[٤]، وَبَرَزَ الْمَلِكُ مِنْ أَجَلِّ الرُّبُوعِ، وَقَدْ يُولَعُ الْهِجْرِسُ[٥]، بِأَنْ يَجْرِسَ[٦]، فِي الْبَلَدِ الْجُرْدِ[٧]، قُدَّامَ أَسَدٍ وَرْدٍ[٨].

خاتمـــة الرسالة

وَإِنِّي خُبِّرْتُ أَنَّ تِلْكَ الرِّسَالَةَ الْأُولَى عُرِضَتْ بِالْمَوْطِنِ الْكَرِيمِ، فَأَوْجَبَ ذَلِكَ رَحِيلَ أُخْتِهَا، مُتَعَرِّضَةً لِمِثْلِ بَخْتِهَا، وَكَيْفَ لَا تَنْقَعُ[٩]، وَفِي الْيَمِّ[١٠] تَقَعُ؟ وَهِيَ بِقَصْدِ سَيِّدِنَا فَاخِرَةٌ[١١]، وَلَوْ نُهِيَتِ الْأُولَى لَانْتَهَتِ الْآخِرَةُ[١٢].

---

(١) الخميص : الضامر البطن من الجوع (٢) الهِتْر : الخبل والخرف ، قال أبو العلاء فى لزومياته :

« وما أتوقّى ، والخطوب كثيرة — من الدهر — إلاّ أن يحلَّ بى الهتر . »

(٣) السجوف : الأستار (٤) جنس من الفأر (٥) الهجرس : ولد الثعلب ، ويقال فى الأمثال : « أجبن من هِجرس » زعموا أنه لا ينام إلا وفى يده حجر ، مخافة الذئب أن يأكله . (٦) يجرس : يصوّت أو يتكلم . يقول : لا غرو إذا خاطبتك وجرؤت على مراسلاتك ، فقد يولع ولد الثعلب — على جبنه وضعفه — بأن يصوت أمام الأسد

(٧) الجرد : المُمْحِل أو الدارس (٨) أسد ورد : هصور (٩) أى : كيف لا تُرْوِى الظمأ ؟ (١٠) اليم : البحر أو النهر (١١) فاخرة : مفتخرة ، مزهوّة

(١٢) نُهيت : مُنعت ، أو : زجِرَت ، يقول : ولو زجرنى مولاى حين بعثت إليه بالرسالة الأولى ، لما جرؤت على إلحاق هذه الرسالة الثانية بها .

الكوميديا الإلهية

تمهيد

إذا باهت الأمم بأمجاد شعرائها، واعتزت بتراثها الفكرى الخالد، فتاهت انجلترا بشكسبير، وألمانيا بجوته، وفرنسا بڤولتير، وأسبانيا بسرڤانتيس، وأمة العرب بالمعرى، فإن إيطاليا لتباهي فاخرة معتزة بشاعرها العالمي الفذ « دانتي اليجييرى[1] » مؤلف: « الكوميديا الإلهية » التي توفر النقاد — في السنوات الأخيرة — على درسها والموازنة بينها و بين رسالة الغفران، وكتبوا في ذلك مقالات مستفيضة، وألفوا كتباً ينتصرون فيها لآرائهم، وهم بين مؤيد ومنكر.

ولقد حفزنا هذا النضال إلى تلخيص هذه « الكوميديا الإلهية »، ليرى فيها الباحث العربي المنصف رأيه، ويوازن بينها و بين الغفران ما وسعته الموازنة، دون أن يضطر إلى تقليد غيره من النقاد فيما أبرموه من أحكام حاسمة متباينة.

---

(١) ولد هذا الشاعر العظيم عام ١٢٦٥ فى مدينة « فيرنتسيه » « Firenze » من أعمال مقاطعة توسكانى، ومات فى مدينة: « رافنا » Ravenna فى عام ١٣٢١ م.

وقد لقبوه بخالق اللغة الايطالية، لأنه أول من برع فى تأليفه بها، وكان الخاصة - إذا ألفوا — كتبوا باللاتينية، فاذا تحدثوا لجئوا إلى لغتهم العامية، وهى اللغة الايطالية، فلما ألف دانتى « رسالته الإلهية » باللغة الايطالية، كانت خطوة جريئة موفقة، شجعت غيره من أفذاذ الخاصة على محاكاته، وثم أصبحت الايطالية لغة الكتابة والحديث جميعاً.

وقد أطلقوا عليه اسم « هوميروس إيطاليا » كذلك، لأن رسالته الإلهية أكسبت إيطاليا مثل ما أكسبته إلياذة هوميروس من فخر لليونان.

وقد نشأ « شاعر الطليان » ميالا إلى الثقافة الدينية فتزود منها — فى حياته الأولى — ما وسعه أن يتزود، ودرس — فى نشأته — علوم النحو والجغرافية، وألم بمبادىء الهندسة والفلك والحساب، ثم تعلم المنطق، ومارس اللغة اللاتينية وقرأ مؤلفات « فرجيل » شاعر اللاتين وأعجب بخياله الرائع أيما إعجاب، وكان يطرب للموسيقى، ويعرف من مبادئ الرسم، ولكن براعته تجلت فى التفقه فى الدين والبراعة فى الشعر.

وقد أحب وهو فى التاسعة من عمره، فكان هذا الحب مصدر إلهام وتعذيب، ولقى من جرائه أفانين من الويل، وسما بنفسه ذلك الحب إلى آفاق عالية من الخيال المعجب. ففى عام ١٢٧٤ لقى « بياتريس » فهام بها

ولئن ضاقت بهذا الأثر النفيس الطبعتان : « الأولى والثانية » من رسالة الغفران ، لقد وجدنا فى هذه الطبعة الثالثة بضع صفحات تكفى لرسم صورة صحيحة مجملة يستعين بها الباحث على تتبع دراسات النقاد المستفيضة والحكم — لها أو عليها — بما هى جديرة به من رفض أو قبول .

منذ النظرة الأولى ، وكان كلاهما فى التاسعة من عمره ، وخامرت قلبه غشية الحب ، فأصبح كما يقول شاعرنا العربى :

« وإنى لتعرونى — لذكراك — هزة كما انتفض العصفور ، بلله القطر »

وأصبح — منذ ذلك اليوم — وكأنما عناه القائل :

« فما هو إلا أن أراها — فجاءة — فأبهت ، حتى ما أكاد أجيب »

ثم التقيا فى المرة الثانية وهما فى الثامنة عشرة — من سنيهما — فحيته بياتريس ، فخيل إليه أن قد ظفر بالخلود .

ولقد حاول « دانتى » أن يسلو هواها ، أو يتعزى عن حبها ، فاندفع فى تيار العبث والمجون ، لعله ينساها ، فلم يزده ذلك إلا غراما بها :

« ولما أبى إلا جماحا فـؤاده ولم يسل عن « ليلى » بمال ولا أهل
تسلى بأخـرى — غيرها — فاذا التى تسلى بها ، تغرى بليلى ، ولا تسلى »

وقد جزع دانتى لموت حبيبته بياتريس فى ريعان شبابها وهى فى الرابعة والعشرين من عمرها ومرض لذلك مرضاً شديداً ، ولم ينسها طول حياته الحافلة بالمصاولة والنضال والنفى والتشريد .

ولم يكن دانتى موفقاً فى حياته السياسية ، فقد تألبت عليه عزة نفسه وكيد أعدائه وأعداء وطنه فشردوه وصادروا أملاكه ، ثم أصدروا عليه حكماً بالإحراق حياً إذا ظفروا به .

وانتهى به المطاف إلى مدينة « رافنا » حيث لقى من رعاية أميرها : « جويد نوفيللو » ما لم يلقه من أحد ، وكان دانتى حينئذ قد بلغ الخامسة والخمسين من عمره . ولولا عطف هذا الأمير على هذا الشاعر ورعايته إياه لمات كمداً ، فقد فوجئ — وهو فى رافنا — بنفى ولديه وتشريدهما عن أرض الوطن انتقاما منهما لما يدينان به من عقيدة سياسية سامية .

ولم يكد دانتى يستقر به المقام حتى بدأ فى نظم رسالته الإلهية ولم يكد يتمها حتى وافاه حمامه فى العام الذى أتمها فيه ، أعنى عام ١٣٢١ وكانت حمى الملاريا قد ألحت عليه بالسقم حتى أودت به .

أما أمير « رافنا » فلم يأل جهدا فى تعهد شاعر الطليان بالرعاية والعناية ، فكان يزوره دائما ويواسيه فى مرضه ، حتى إذا اقتربت منيته طفق يهذى — وهو على فراش الموت — هذيان المحموم ويردد اسم حبيبته « بياتريس » ويتوعد خصومه وأعداءه الألداء ، وينذر البابا « بونيفاشيو » بالويل والثبور .

وقد فاضت روحه فى سبتمبر عام ١٣٢١ ومن حوله ولداه وابنته يبكون لفقده مر البكاء .

الملاءمة

تعرّف هذه القصـــة ، أعنى جحيم دانتى ، بأنها أروع الفواجع الإنسانية العالمية حوادث ، و إن قل قراؤها ، لصعوبة نظمها وغموض معانيها ، فهى تدق وتلتوى على القارئ المسرع ، فينفر — وقد تملكه الضجر — من متابعة دانتى فى رحلته الطويلة بين أجواز سقر .

على أن وعورة مسلكها ، وصعوبة الوصول إلى فهمها ، لا تقللان من عظمتها ، فإنها — على ذَيْنِكَ — من عيون الآثار الفنية الخالدة التى تماثل روائع « شكسبير » و « ملتون » فى قوة الخيال و براعته .

والكوميديا الإلٰهية ، تصف السماء والجحيم والأعراف (المَطْهَر) فى أسلوب تخيره الشاعر ، وآثر أن يكون رؤية حالم يقص ما شهد من حياة الأرواح بعد موتها ، متخذاً — من ذلك — رموزاً لما يحتاج إليه الإنسان من قبس روحى و إرشاد معنوى ، وهداية سماوية ، ليظفر بالنجاة والسعادة فى المَعَاد .

و يجدر بنا — قبل أن نصحب دانتى فى رحلته الخيالية خلال مناطق الجحيم — أن نذكر أن الجحيم — كما صورها دانتى — جياشة بالحياة ، ماثلة للقارئ حقيقة راهنة لا يتطرق إليها شك ، واضحـــة التقسيم كأنما نقشت فصولها وحوادثها نقشا لا يمحوه — من الذاكرة — كائن كان ، وقد أصبحت هذه الرحلة — لوفرة ما فى أسلوبها من حياة مجلوّة فى أوضح بيان — تماثل رحلات « رو بنسن كروزو » ، ورحلات « جلفر » .

ولقد أنشأ « دانتى » من مناظر الجحيم الهائلة صوراً خالدة لا تمحوها الأحداث من الخاطر ، ولا يعفى آثارها النسيان ، بل تظل ممثّلة فى الذهن أروع تمثيل .

وقد مثل لنا جحيمه على هيئة حفرة عظيمة هائلة ، تشبه مخروطاً مقلوباً ، رأسه فى مركز الأرض ، وجوانبه تنقسم إلى طبقات عدة ، كل واحدة تحت الأخرى ، متناقصة حجومها كلما تدرجت إلى أسفل ، واقتربت من رأس المخروط ، حيث يحبس جمهور الأئمة الموغلين فى الخطيئة فى الدرك الأسفل من النار .

وتبدأ القصة بتصوير « دانتى » وهو ضال فى غابة مظلمة حيث يقابله « ڤرچيل » وهو فى حالك اليأس ، ويعده بإنقاذه مما هو فيه من آلام ، ثم يقوده إلى الجحيم ليريه كيف يعذب العصاة ، فإذا بلغا بابها قرأ دانتى عليه الكلمات التالية :

« من هنا يذهب زائرى إلى مدينة الأوصاب ، ومن بابى هذا يدخل إلى حيث يلقى النكال السرمدى والعذاب الأبدى ، وعن طريقى يلحق بمن حقت عليهم اللعنة ، وكتب عليهم الهلاك.

لقد شيد الخالق العلىّ بنائى ، إحقاقاً للحق ، وانتصافاً للعدالة ، وصنعتنى يد القوة الإلٰهية والحكمة الأبدية السامية والحب الإلٰهى السرمدى ، فأوجدتنى منذ القدم لأبقى خالدة أبد الآبدين ، ولم يسبق وجودى غير القديم الأزلى . فاترك — أيها الداخل — كل أمل » .

*
* *

وما كاد الشاعر يدخل باب الجحيم — فى رفاقة صاحبه ڤرچيل — حتى رأى الظلام الحالك تنبعث من أجوازه الأنات والصيحات المنكرة ، مترددة فى هواء لاتتخلله النجوم ، فبكى دانتى من هول ما رأى ، وقد أبصر أرواح الأنانيين والكسالى وغيرهم تلسعها الزنابير ، فتدوى صيحات الألم بمختلف اللغات مقرونة بحركات المعذبين فى ذلك الجو الخانق الموبوء ، وترتطم الأيدى — بعضها ببعض — وتدور نفوس الأئمة دورات أبدية لا تنتهى ، وقد خيل إلى رأيهم أن الظلام يلطخ الهواء ، فيشبه الرمل تذروه الرياح .

ثم يعبران السهل إلى أن يصلا إلى نهر « كيرُنْتيه » ، نهر الأسى وينبوع الأحزان ، حيث تزدحم الجماهير وتتكدس فى مركب شيخ الزبانية ليذهب بهم إلى الشاطئ الآخر ، ويقتدح الشرر من عينى ذلك الزبنى الشيخ فتبدوان كأنهما مجلتان من اللهب ، فيتهافت الناس على مركبه ذعراً ورعباً .

ها هو ذا يقبل عاويا صاخبا ، وهو شيخ طاعن فى السن ، قد كست الشيخوخة شعره بياضاً ، وهو يصيح لاعناً : هلم أيتها الأرواح الخبيثة الخاطئة ، هلم أيها العصاة إلى الويل والثبور ، إلى اليأس الذى لا يتطرق إليه الرجاء ، إلى حيث لا ترون السماء ، إلى حيث الظلام الأبدى ، إلى حيث تسكنون فى شواظ من اللهب وقارس من الزمهرير .

ويخر « دانتى » صريع الإغماء ، ويسلمه الفزع إلى نوم عميق ، ثم يجاجل رعد قاصف فيفيق «دانتى» من سباته ، فيرى أرواح العصاة قد عبرت نهر « اكيرونتى » وذهبت إلى الدرك الأول من النار .

وثَمّ يلقى « دانتى » أرواح العظماء من الوثنيين الذين عاشوا حياة نبيلة ، ولكنهم لم يدخل الإيمان فى قلوبهم ، ومن هذه الطائفة « هوميروس » و « هوارس » و « أوفيد » فيرحبون بدانتى أكرم ترحيب ويعدونه واحداً منهم . ثم يسفل إلى الدرك الثانى من الجحيم ، فيلمح — عند دخوله — « مينوس » قاضى سقر وهو عظيم الجثة له مثل وجه الكلب ، فيشهد عقاب العشاق المذنبين تعصف بهم الزوابع العاصفة أيما عصف ، فيعلو صراخهم المحزن مرة أخرى ، وتتردد أصواتهم المولولة الشاكية فى أذنيه حيثما حل . ويخبو كل ضوء ، وتحل مكانه التأوهات والأنين والصخب ، فيخيل إليه أن بحراً هائجاً مز بدا تعنف بأواذيه الأعاصير ، ويمتزج سعير الجحيم الملتهبة بهياج الأرواح المتدافعة الغاضبة ، وقد تملكها الضجر ، والعواصف تحملها إلى آخر مدى الهلاك ، حتى إذا بلغته علت أصواتها ، واشتد نحيبها ، وتصاعدت لعناتها الكافرة لخالق السماء .

وثَمّ رأى الشاعران — دانتى وفرجيل — « سميراميس » و « كليو بطرة » ثم تطلعا إلى أعلا فرأيا « فرنشسكا رمينى » وحبيبها « پاولو » الذى خلد على المدى ، وقد أفضت بحديثها إلى دانتى ، وقصت عليه كيف باغتهما زوجها ، وكيف ذبحها وعاشقها معاً . ثم رأيا « حنا الأعرج » : حاكم رمينى وهو يغمى عليه مما يتجرع من صنوف النكال والأذى .

وقالت « فرنشسكا » :

« لقد استولت علينا نشوة الفرح والابتهاج ونحن نقرأ قصة العاشق « لانشالوتو » منفردين لا ثالث معنا ، وما زلنا نقرأ حتى قرأنا فى ذلك السفر كيف قبل العاشق المتيم ثغر معشوقته ، فقبل ثغرى صاحبى هذا ، وقد انتظمته رجفة الوجل ، ثم سقطنا إثر هذه القبلة جثتين هامدتين ، وكان ذلك المصرع آخر عهدنا بالكتاب . »

ثم يرى « دانتي » نفسه — بعـد أن يعود إلى رشده — فى الدرك الثالث حيث يرقد ذوو الشره ملطخين بالوحول يُمطَرون وابلاً هتوناً من البرد والجليد، وقد وقف على حراستهم « شو بيروس » أحد الزبانية الغلاظ الأكباد، وهو على هيئة كلب كبير الجرم، ذى أفواه ثلاثة، تنبح وتزمجر جميعاً، وتمزقهم تمزيقاً.

ثم ينتقل « دانتي » و « ڤرچيل » إلى مدينة الشيطان فى أول الدرك الرابع من الجحيم، فيريان « پلوتوس » أحد الزبانية يحرس المبذرين والبخلاء الذين أنفقوا أعمارهم فى اكتناز المال وجمعه، وهم يقضون أوقاتهم فى الجحيم مرهقين بالصخور الكبيرة يدحرجونها بلا وناء، حتى إذا التقى الجمعان : المبذرون والبخلاء، وتقابلا صفين، لام كلا الفريقين صاحبه على ما اقترف من إثم وعصيان، فصاح أولئك يسألون أصحابهم : « كيف أسرفتم ؟ » فيجيبوهم « وكيف بخلتم ؟ »

ثم رأيا — فيما بعد — جمهرة منغمسة فى الوحول، وقد أنشب كل منهم أسنانه وأظافره فيمن يقابله، وهؤلاء هم جماعة الأشرار الذين استسلموا للغضب والحماقة.

ثم وصلا فى النهاية إلى قاعدة برج مرتفع على ذروة قلعة حصينة شامخة، ورأيا اللهب المستعر داخل مدينة « ديتى » أو « مدينة الشيطان » : مثوى المتكبرين والخبثاء.

ثم اعتليا مركب الشيخ « فليجياس » — أحد الزبانية — بعد إباء منه شديد، وعبرا تلك البحيرة القذرة، حتى بلغا الشاطىء الآخر.

فأبصرا النار المؤججة المتوهجة، ورأيا جمهرة عظيمة من الزبانية تحرس الأبواب والأسوار، وبدت أمام عيونهما بعض ربات الجحـيم، فرأيا ثلاث نساء مضرجة أوجههن بالدماء مطوقة أعناقهن وغدائرهن بالأفاعى تمزقهن تمزيقاً، وكنَّ يصحن غاضبات : « هلمى إلينا يا « ميدوسا » لنمسخك حجراً ».

ثم قدم عليهما ملاك رسول يسرع الخطى فوق البحيرة — بحيرة ستيجة — فلا يبلل الماء قدميه، وهو يفسح لهما الطريق ويُنَحِّى عنهما تلك الوحوش المفترسة.

ورأيا أمواج البحيرة المفزعة صاخبة عكرة، وقد جلجلت أواذيها وارتفعت، كما تهب العاصفة الهوجاء على الغابة الكثيفة فتقصف أشجارها وتكتسح ما يعترضها من حيوان و إنسان.

وما كاد الشاعران يدخلان المدينة حتى وجدا سهلين قد اكتظت أرضاهما بقبور وأجداث كثيرة ، لا غطاء لها ، والنار متصاعدة من أثنائها ، ممتزجة بأنات الخاطئين .

*
* *

وقد رأيا فى أحد هذه القبور « فاريناتا » المتكبر ، رافعاً رأسه وقد بدا كأنما يحتقر الجحيم ، هابطاً فى الدرك السابع ، جاثما فى صندوق تكتنفه الصخور . ثم يسيران حتى يبلغا نهر الدماء حيث يعذّب الطّغاة والظّلَمة القساة القلوب ، وهم جماعة الغاصبين الذين استمرأوا الاستبداد والتسلط .

ورأيا — فى الدرك السابع — غابة موحشة أشجارها نابتة من جماعات المنتحرين ، الذين أصبحت أرواحهم أشجاراً حالكة خشنة عاجزة عن النمو ، أثمارها أشواك سامة يتغذى بها الطيور والوحوش البشعة .

ووراء هذه الغابة سهل منبسط فسيح ، يغطيه رمل متقد يكتنفه نهر الدم ، ويتأجج منه السعير ، وتجرى مياهه حمياً يشوى البطون .

وما زال الساريين حتى بلغا شلالا فى خليج ، وكان « دانتى » ممنطقاً بحزام ، فأمره ڤرچيل أن يحله ، ثم ألقى به فى هوة ، فلاح لهما — حينئذ — شبح مفزع متوحش ، وهو يسبح فى الهواء المظلم ، فعرفا أنه « جيريون » ذلك الوحش الهائل الغلاب المنتصر على كل عقبة ، طلاع الثنايا ، ومخترق الجدران ، وعابر الجبال ، ومصدر البلايا والرزايا التى حاقت بالعالم الأرضى ، وكان وجهه وجه إنسان ، وجسمه جسم ثعبان .

ثم وصلا إلى الدرك الثامن حيث الفاسقون والمُلقّون والمتجرون بالدين منغمسة رءوسهم فى الأدناس والأرجاس فى حفر ضيقة عميقة ، وأقدامهم تحترق كما تحترق المصابيح فوق مستوى الصخور ، ثم رأيا مدعى النبوة وقد التوت أعناقهم خلف ظهورهم . ثم رأيا أرواح المختلسين تكتنفها الشياطين ذوو الأجنحة السوداء وقد دُججوا بالأشواك .

ثم رأيا المرائين فى الهوة التالية وقد طليت قلانسهم بالرصاص ، ورأيا اللصوص يتحولون ثعابين ، وإلى جانبهم الذين يغشون فى نصحهم وهم ملتهبون يرقصون كالذباب المشتعل .

ثم رأيا الخونة والخوارج تمزق أجسادهم الجراح المفزّعة ، ومن بينهم ذلك الذى ثار ضد هنرى الثانى ملك انجلترا وقد شد شعر رأسه ، وعانى من ألوان العذاب ما عانى .

ثم ذهب الشاعران إلى الدرك التاسع فسمعا صوت أتون عظيم يشبه الرعد ، وسرعان ما رأيا ثلاثة من القردة تقف على الحافة السفلى من جهنم ، وقد جلس أحدهم على قاعدة الخليج ، وهى بحر من الجليد الخالد تظهر على حفافيه أشباح المعذبين كأنها ذباب بلورى الشكل .

فوقفا أسفل سافلين فى الحفرة المظلمة تحت قدم مارد جبار ، وأخذ « دانتى » ينعم النظر وإذا بصوت ينبعث متألماً : « انظر كيف تسير ، وحذار أن تطأ الرءوس : رءوس إخوانك التاعسين » .

فالتفت فرأى تحت قدمه بحيرة ، وقد ظهر سطحها الجامد : أقرب إلى الزجاج منه إلى الماء .

ثم رأيا فى الدرك الأسفل من النار روحين جامدين فى حفرة واحدة ، أحدهما يأكل جمجمة الآخر كما يفعل الكلب ، ثم يرفع أسنانه ، ليقص على الشاعرين قصته المفزعة الهائلة :

إنه « إيجولينى » الذى انتهت حياته فى حصن الجوع حيث لقى مصرعه جائعاً ، وإن قصة موت ولديه لهى إحدى الفواجع الهائلة التى تثير إشفاق كل عاطفة فى الدنيا ، وزميله فى مرقد الثلج هو « دوجيرو » الذى أرسله مع أولاده إلى حصن الجوع ، وقضى فيهم ذلك القضاء الوحشى الجائر .

ثم وصلا إلى آخر مكان فى الجحيم حيث رأيا عظماء الخونة والمخادعين ، ورأيا إبليس — رئيس الشياطين — ملتقماً فى أفكاكه الثلاثة الضخمة ثلاثة من الأئمة المجرمين ، ومرسلا من أجنحته عاصفة من الزمهرير لو مرت على بحر لجمد .

ثم خرجا من ظلام الجحيم تاركين خلفهما الآلام والمصائب ، حتى وصلا إلى الأعراف حيث رأيا أضواء النجوم بعد انقطاعها عنهما خلال تلك الرحلة .

الفصل الأول

ضـــــلال دانتى فى الغابة

ما كدت أبلغ — من طريقى فى الحياة — منتصفها [١] ، حتى رأيتُنِى — ذاتَ يوم — أجوس خلال غابة مظلمة [٢] ، بعد أن ضللت الصراط المستقيم .

شد ما يستولى علىّ الخوفُ الراعب كلما ذكرت هذه الغابة ، أو عنّ لى أن أصف ما لقيت — فى أثنائها — من وحشة وهول مُتَجدِّدَين ، تهون مرارة الموت إذا قيست إليهما .

على أن هذه الرحلة المفزّعة لم تخل من فائدة أفدتها ، ونعمة أصبتها ، و إنى لقاصٌّ عليك نبأها :

أما كيف وَلِجْتُ هـذه الغابةَ — على وجه التحقيق — فذلك ما يَدِق عن فهمى ، ويَجِلّ عن إدراكى ، فقد كانت عيناى مثقلَتيْن — حينئذ — بالنوم ، وكان الكرى يعقد أجفانَهما حين ضللتُ سواء الطريق .

على أننى بلغتُ — آخرَ الأمر — سفح رابية فى نهاية ذلك الوادى المفزّع الهائل ، الذى ملأ قلبى ذُعْراً . وما كدت أبلغ تلك الرابية حتى لمحت ذروتها وقد انتظمتها أشعة الشمس ، ذلك الكوكب الذى ينير لكل إنسان سبيله ، وتُبَصِّرُهُ أضواؤه بطرائق الحياة . وثَمَّ هدأ روعى قليلاً ، وذهب عن نَفْسِى بعض ما ساورها من فزع فى هذه الليلة المؤلمة التى أمضيتها

---

(١) يرى شراح الرسالة أن دانتى إنما يعنى بقوله : « منتصف طريق الحياة » : سن الخامسة والثلاثين قالوا : وهذا يذكرنا بما قاله الشاعر « لى بنكيه » فى مؤلف نثرى له ، يقرر فيه أن سن الخامسة والثلاثين هى — على العموم — نصف الحياة الإنسانية التى يحياها الانسان ، فقد ولد دانتى فى عام ١٢٦٥ ، وأدرك الخامسة والثلاثين فى عام ١٣٠٠ ، فهو قد افترض حينئذ — أنه قد بدأ سياحته فى ليلة ٢٤ — ٢٥ من مارس عام ١٣٠٠م . أى فى ليلة الجمعة المقدسة ، وكانت مدة سياحته كلها ستة أيام ، فقد غادر « دانتى » الفردوس يوم الأحد .

(٢) يؤخذ من أقوال الشراح : أن « الغابة المظلمة » تدل فى وقت واحد — على الحال الروحية لنفس حرمت نور السماء ورحمة الله ، ثم تدل على الحال السياسية التى كانت تعانيها إيطاليا فى ذلك العهد ، وكانت قد بلغت أقصى غايات الاضطراب والفوضى من جراء الحرب الأهلية الطاحنة التى وقعت بين الجيلف والجبلين وقد اضطربت حياة دانتى بسببها ولقى من عنت النفى والتشريد والاضطهاد ما أفعم نفسه ألماً ويأساً .

فى الغابة الموحشة . وكنت حينئذ أشبه شىء بالغارق نجا من مغالبة الأمواج ، و بلغ الشاطىء بعد أن أشرف على التلف و يئس من الحياة ، فأدار وجهه صوب الماء الذى كاد يغرقه و يودى بحياته ، وهو لا يصدق بنجاته من خطره وقسوته .

وهكذا تلفتت إلى الوراء روحى — التى كاد يزهقها الرعب — لتشهد هـذا الممر الذى لم يطرقه حَىٌّ من الأناسِىّ قط . وما كاد جسمى المتعب المنهوك يخْلد إلى الراحَة - شيئاً - حتى استأنفت السير فى طريقِ المقفر المخيف ، وأنا أتئِد فى خطواتى ، وأحركُ إحْدَى قدمَيَّ إلى الأمام ، بعد أن أُثبِّتَ الأُخْرى تثبيتاً[1] .

الوحوش الثلاثة[2]

و إنى لأخطو — فى أول هـذه الطريق — إذ لاح لى فَتًى — من فِتيان النِّمِرَة — جم النشاط سريع الحركة ، يكسو جسمه جلد أرقط ، وقد اعترضنى فى طريقِ ووقف حيث هو ، فلم يتقدم خطوة إلىَّ ، ولكنه حال بينى و بين الصعود إلى الذِّروة ، فتلفتُّ - مراتٍ - لأرجع أدراجى ، وأعود من حيث أتيت .

وكانت أولى ساعات الصباح ، وقد قَدِمَتِ الشمس وفى صحبتها الكواكب التى كانت تكتنفها منذ شاء الله أن يغمر الكون بحبه الإلهى ، فخلق له تلك المصابيح السماوية المتألقة . وثم رأيت فى جلد ذلك النمر من زاهى الألوان ما أتاح لى فرصة للرجاء التأميل . ولكن أملِي لم يطل عمره ، فقد بدا أمامى أسد ترمى عيناه بالشرر ، فامتلأ قلبى خوفاً وهو يتقدم نحْوِى شامخ الرأس ، بادِىَ الطَّوَى ، شديد الهِياج ، يبث الرعب والفزع حوله حتى لترتاع الرياح وترتعد من سطوته وخطره .

---

(١) تأول الشراح معنى هذه الفقرة لغموضها فى الأصل وتلمسوا لها وجوها مختلفة من المعانى ، ولكن جهورهم يجمع على أن دانتى إنما أراد أن يعبر عن سير المبطىء الوجل ، الذى لا يخطو خطوة جـديدة إلا بعد لأى ، ولا يتقدم إلى الأمام إلا بشق النفس .

(٢) أراد شاعر الطليان أن يرمز للصفات المعنـوية والأدبية بالوحوش الثلاثة : « النمر ، والأسد ، والذئبة » فالنمر يدل على الحسد ، والأسد على الـكبر وحب العظمة ، والذئبة على الدناءة والخسة ، وهى الرذائل الثلاث التى تعترض الانسان فى طريقه إلى الخير .

وقد اتخذ « دانتى » من هذه الوحوش رموزاً سياسية كذلك ، تدل على الدول الثلاث (من الجيلف) فى ذلك العصر ، وقد عدها الشاعر حجر عثرة فى طريق السعادة الوطنية لايطاليـا .

ثم جاءت — فى إثْرِه — ذئبة بادية الهُزَال ، تلوح على سماتها كل أمارات الشره والخِسَّة والشراسة التى نكبت سوَاد الجنس الإنسانىّ .

ولقد فزَّعنى منظر هذه الذئبة أيما تفزيع ، فانتظم الخوف جسمى ، وتملكنى الاضطراب — من هول ما ينبعث من عينيها ، ورأيتنى أندفع إلى الوراء — صوب الغابة الحالكة التى قدمت منها — فخاب ما أملته وفقدت الرجاء فى النجاة من الهاوية إلى الأبد ، وأصبحت — حينئذ — كمن فقد فى لحظة واحدة ، كل ما ادخره جاهداً ، وأضاع كل ما كسب ، فاستولى عليه الأسى ، وتملكه اليأس المميت .

وهكذا رأيت ذلك الحيوان الشَّكْس يدفعنى — شيئاً فشيئاً — إلى حيث يخبو ضوء الشمس (١) ، ويحْدِرُنى صوب الهاوية ، وإنى لكذلك إذ لاح — فجْأة — أمام عينىّ شبح رجل مهزول ، يلوح لرائيه كأنما هو نِصْف ميت لطول ما ألف من الصمت (٢) .

وما كدت أراه فى تلك الصحراء الفسيحة ، حتى أَهَبْتُ به مُغَوِّثاً : « حنانَيْكَ أيها القادمُ ، هلّ لنجدتى رحمةً بى — كائناً من كُنْتَ — : شبحَ خَيَالٍ ، أو حقيقة إنسان ! » .

---

(١) حيث يخبو ضوء الشمس ، أو على الأدق « حيث تصمت الشمس » يعنى بذلك « فى أبعد مستقر مظلم من الهاوية »

(٢) لعل دانتى أراد بهذه الصورة أن يلمع إلى ما آلت إليه منظومات « فرجيل » — فى ذلك العصر — وما نسج عليها من نسيان وإغضاء طوال القرون الهمجية الماضية .

الفصل الثانى

حديث « ڤِرْچيل »

فأجابنى :

« لقد كنتُ — فيما سلف من الزمان — انسانا ، أما الآن فلا ! ولقد كان أبواى من لمبارديا ، وكانت « منتوفا(١) » وطناً لهما .

أما أنا فوُلِدْتُ فى عهد « يوليوس(٢) » ، وعُمِّرتُ — بعد وفاته — زمنا طويلاً ، فقَدِمْتُ « رُومةَ » فى عهد « أغسطس الطيب(٣) » أيام كان يسودها الزائفون من الآلهة الخادعين ،

وقد كنت — ثمة — شاعرا ، ولطالما تغنيت بتاريخ هذا العادل : « ابن أنكيزى » الذى قدم من « طوريا(٤) » بعد أن أكلت النار « إيليون » العظيم(٥) .

حوار « دانتى » و « ڤرچيل »

ولكِنْ خبِّرْنى ما خَطْبُك ؟ وما بالك تستسلم لهذا الحزن الراعب ؟ ولماذا تحاول أن تعود أدراجك من هذه الغابة المقفرة ؟

وماذا يعوقك أن تُصعِّد فى الجبل ، فتبدأ — بذلك — سعادتك ، وتتاح لك فرصة بهيجة ؟ »

فقلت له وقد امتزج الرّعب والاحترام ، فى نفسى :

« أأنت ڤرچيل ؟ أأنت الشاعر الطَّرّاف ؟ أأنت مصدر تلك البدائع ، و ينبوع هاتيك الطُّرَف ؟ حَيِيتَ يا فخر الشعراء ، ومصباحهم المتألق المنير .

---

(١) منتوفا مدينة معروفة من أعمال مقاطعة لمبارديا

(٢) كانت ولادته قبل الميلاد بمائة عام ، ولقى مصرعه قبل الميلاد بأربعة وعشرين عاما .

(٣) أغسطس الطيب ، أو أغسطس الصالح ، أو أغسطس قيصر ، هو امبراطور رومة الذى ولد فى عهده المسيح .

(٤) يعنى : أمير ترويا وهى مدينة تاريخية ، وكانت حاضرة لترواده وقد حرقها اليونان بعد أن حاصروها زهاء عشرة أعوام (١١٩٣ — ١١٨٣ ق.م) وانتهى حصارهم باحراقها وتدميرها يشير إلى ضلال مركبه فى البحر — بعد احتراق بلده ، قالوا : ثم انتهى به المطاف ، وحل فى « لاتسيو » وكان من نسله مؤسس « مملكة رومة »

(٥) يعنى بذلك : « إينيه » أمير ترويا ، وهو بطل أنشودة فرجيل .

لقد وقفت حياتى على درس آثارك ، وَمَحضتُكَ الوُدَّ ، وتملك حبك قلبى كله . فأنت أستاذى ، وأنت هادىَّ ، ومصدر الوحى لشاعريتى ، وأنت مُلهِمِى هذا الأسلوب الرائع من البيان العجيب ، الذى شرّف اسمى وفضّلنى على النظراء[١] .

أعِنِّى أيها الحكيم علىَ هذا الحيوان الماثل أمامى ، حتى لا يضطرنى إلى النكوص على عَقِبَىَّ ، فقد انتظمت الرعدة والاضطراب عروق ورئتىَّ جميعا » .

فأجابنى « ڤرچيل » — وقد رأى بكائى وجزعى — :

ألا يرضيك أن أهديك طريقا أخرى ، تنجيك من هذا المكان الموحش ؟ وتخلصك من هذا الحيوان الراعب الذى سبب إزعاجك و بكاءك ، فإنه لن يدع إنسانا يمر فى طريقه ، دون أن يُرْدِيَه ويفترسه ، فهو يجمع إلى شراسة الطبع الشّكِسِ ، نهم الجائع المفترس ، الذى يزداد سغباً كلما انتهى من التهام فريسة .

والرأى عندى — لخيرك ومصلحة نفسك — أن تتبعنى وتتخذ منى دليلا لك وهاديا ، لأخرجك من هذا المكان إلى عالم الخلود .

وسترى — فى طريقك إلى الخلد — وتسمع أنات اليائسين ، وعويل البائسين ، من أرواح القدامى الهائمة المتألمة ، حيث يكابدون من العذاب المميت القاتل ألواناً .

ثم ترى جمهرة أخرى من سكان الجحيم ، فتلمح فى أساريرهم غبطة الآمل[٢] — على ما يكابدون من آلام فيها — لأن ثقتهم بالفوز ، عاجلا كان أو آجلا ، والحلول فى دار السعادة — حيث تنعم أرواح الذين سُعِدُوا — تهون عليهم ما يلقون فى الجحيم .

* * *

فإذا بلغت هذه الغاية ، وتاقت نفسك إلى المزيد ، وأرادت السموّ إلى ما فوقها ، لتبلغ هذه الدار السعيدة ، فإنى تاركك إلى روح أجدر منى بهذه المرتبة وأخلق ، يسمو بك إلى تلك الآفاق العالية .

---

(١) الأسلوب الرائع الذى يعنيه دانتى هو أسلوبه الذى قبسه من أستاذه « فرجيل » وبثه فى مقطوعاته وقصائده التى نظمها قبل أن يؤلف « الكوميديا الالهيــة » .

(٢) يعنى أرواح من فى الأعراف ، وهم بمنزل بين الجحيم والفردوس ، وسيمر بهم دانتى فى صحبة فرجيل فاذا بلغا هذه الغاية ، قدمت عليه حبيبته « بياتريس » وسارت معه إلى الفردوس . وهذه الفتاة تمثل فيها دانتى السلطة الروحية ، كما تمثل فى فرجيل : السلطة العقلية ، وجعله رمزاً لها .

فقد حكم عليّ خالق العالم ألا أدخل جنته ، لأننى جهلت شأنه ، وتمردت على شريعته .

فقلت له :

« أقسمت عليك بالله — الذى جهلته واحتجبتْ عنك معرفتهُ — أن تسرع فتنقذنى من هذا الحرج الذى أكابد ، وتنجينى من هذا الشر الذى أعانى .

هلم ، فخذ بيدى إلى حيث وعدتنى ، حتى تبلغ بى — يا سيدى — باب السماء ، بعد أن أمر على أولئك التاعسين الذين أرهقهم الألم . »

وثمة مشى ڤرچيل ، ومشى دانتى فى أثره .

وهنا خشى دانتى أن تخونه قواه الضعيفة ، فلا يقوى على متابعة هــذه الرحلة المضنية ، فطَمْأنهُ « ڤرچيل » ، وقوّى من عزمه حين أفضى إليه بسر مَقْدَمِه عليه ، فقال ڤرچيل :

« لقد كنت فى ساحة الغفران (١) ، و إذا بسيدة من فضليات النساء ، يُشرق نور السعادة على وجهها ، وهى تناديني بصوت ملائكى :

« لقد بلغ صديق العزيز الشاطىء الصحراوى ، وضل فى طريقه إلىّ — بعد أن خذله الحظ — فامضِ متفضلاً إلى نجدته و إنقاذه .

إن أسمى « بياتريس » وقد جئت إليك من دار النعيم يدفعنى حُبّبِهِ ، و يحفزنى وُدِّيه ، إلى استنجادك ، فماذا أنت صانع ؟ فإننى شديدة الرغبة فى التعجيل بالعودة إلى مكانى من الفردوس الأعلى »

فقلت لها :

« لبيكِ ، فإنى منجز كل ما تشائين . »

ثم أسرعتُ إليكَ مبتدراً ، لأنقذكَ مما أنت فيه ، تلبية لأمر بياتريس .

وثم يطغى الفرح على دانتى لما سمعه من بهيج الأنباء ، فيعلن لصاحبه استعداده — لاحتمال كل شىء — فى سبيل متابعته والإذعان لمشيئته ، ثم يقول :

« سر أمامى — يا سيدى — ولتكن إرادتنا واحدة مشتركة بيننا ، فأنت لى مرشد ودليل ، وأنت لى مَوْلى وأستاذ » .

---

(١) يعنى حيث تلتقى أرواح الصالحين الذين برئوا من الأرجاس والدنايا ممن لم تصل إليهم الرسالة .

الفصل الثالث

على باب الجحيم

ورأيت الكلماتِ التَّالية مكتوبة بأحرف قاتمة على باب الجحيم :

« من هنا يدخل الإنسان إلى مدينة الأوصاب والشقاء ، ومن هذا الباب يذهب إلى حيث النكالُ السَّرمدى ، وعن طريق يلحق بمن كتبت عليهم اللعنة ، وحق عليهم الهلاك .

لقد شيد الخالق العَلِيُّ بنائى ، إحقاقاً للحق ، وانتصافاً للعدالة ، وصنعتى يد القوة الإلٰهية ، والحكمة الأبدية السامية ، والحب الإلٰهى السرمدىّ .

لقد وُجِدْتُ منذ القدم ، كُتِبَ لى الخلود ، ولم يَسْبِقْ وجودى غير القديم الأزلىّ .

فاترك — أيها الداخل من هذا الباب — كل أمل(١) » .

آلام العصاة

فلما قرأت هذه الجملة المؤنسة ، قلت لهادىَّ « ڤرچيل » وقد تملكنى الوجل :

« شدّ ما يفزعنى فحوى هذه الكلمات القاتمة ! »

فقال لى فى لهجة حازمة حصيفة :

« ما أجدرك أن تنضو لباس الخوف عنك ، فلا تدع للخور والجبن منفذاً يتسربان منه إلى نفسك .

---

(١) متى فقد الانسان الأمل ، فقد فقد كل شىء ، ورحم الله الطغرائى القائل :

« أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش ، لولا فسحة الأمل »

وقد أشار بعض شراح الرسالة إلى اقتباس الشاعر الانجليزى العظيم « ملتن » طرفا من هذا المعنى فى القسم الأول من كتابه الخالد : « الفردوس المفقود » إذ يقول : « ولن يعاوده الأمل قط ، ذلك الأمل الذى لا يخلو منه مكان »

ونحب أن نذكر القارىء بقول مهيار الديلمى ، فقد وفق إلى هذا المعنى الرائع أبرع توفيق حين قال :

« أعلل فيك قلبا ضاق حتى غدا : ما للمنى فيه مجال »

لقد بلغنا المكان الذى حدثتك به ، حيث ترى أرواح من أضلهم الهوى ، وأطاش ألبابهم فأفقدهم الأمل فى لقاء الله » .

ثم وضع فرچيل يده فى يدى ، ووجهه يفيض بشراً وحبوراً ليشد من أزرى ، و يقوى من عزمى ، فسرّى بذلك عن نفسى شيئاً ، ثم أدخلنى ذلك المكان المحفوف بالأحاجى والأسرار .

*
* *

وثَمّ تصاعدت الأنات ، وعلت التنهدات ، ودوّت — فى أطباق الجحيم — صرخات الألم المفزعة ، حيث لا يطلع نجم ، ولا يبزغ كوكب ، فاستولى علىّ الهم ، واستسلمت للبكاء .

لقد عرفت كيف يكون اختلاط الألسن ، فقد اضطربت اللغات المختلفة ، وارتفعت أصوات اللعنات الرهيبة ، وسمعت جمجمة المعذبين المرهقين ، والألم يبرح بهم كل مُبَرِّح ، فتصعد أصوات الغضب مقرونه بحركات الأيدى ، ممتزجة بالصخب والهياج ، مُدوِّية فى هواء سَقَر ، ذلك الهواء المظلم الحالك الذى لا يعرف للزمن حسابا ، فيخيّلُ إليك عاصفةً من الرمال تزجيها ريح صرصر عاتية .

*
* *

وثَمّ قلت ، وقد اضطرب رأسى ، واختَلَطْتُ(١) :

« أىّ ضجيج أسمع ، أيها الأستاذ ؟ ومن يا ترى هؤلاء المعذبون الذين أناخ عليهم البؤس بكلكله ، وغمرهم الشقاء والعذاب ؟ »

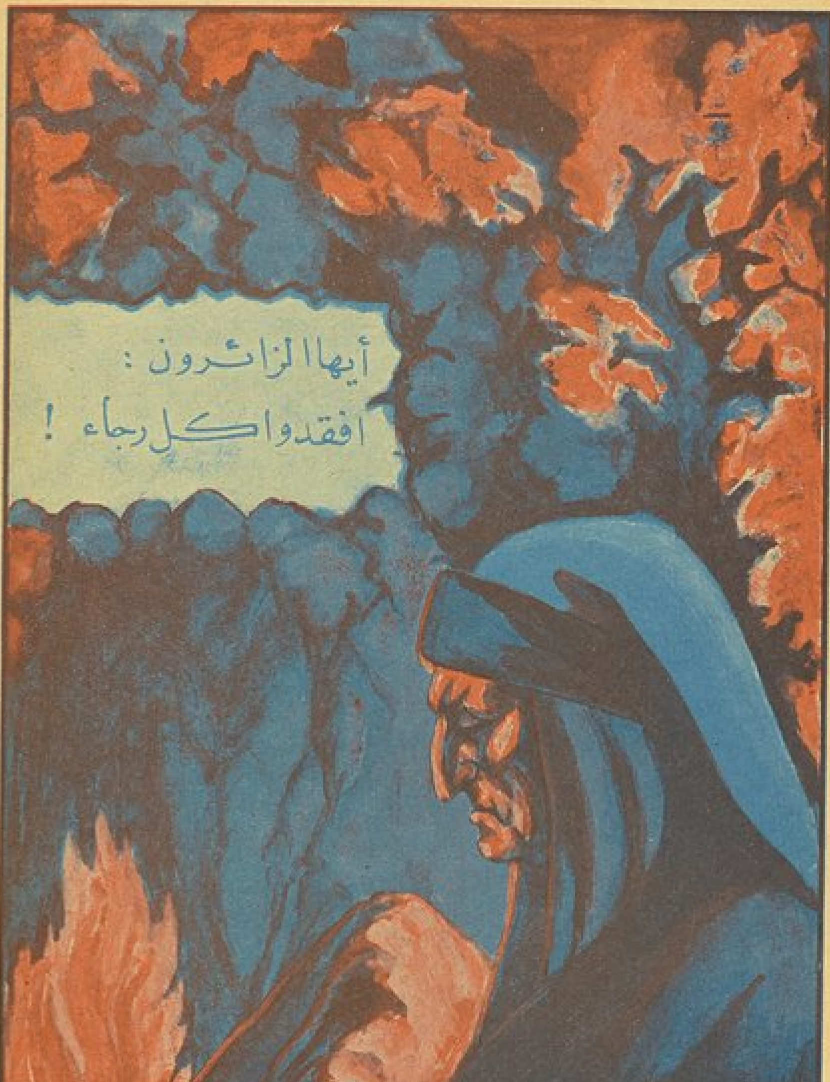
فقال لى :

« إنها أصوات التاعسين ، منبعثة من قلوب مكلومة ، ونفوس حزينة ، هى نفوس من عاشوا ، لا يقترفون إثماً ، ولا يقدِّمُونَ خيْراً .

ومن بين هؤلاء طائفة من الملائكة الذين وقفوا بنَجْوة — من الخالق — وقفة المتردد الحائر ، فلم يعلنوا إخلاصهم ، ولم يجهروا بعصيانهم .

---

(١) يعنى أن عقله قد اضطرب من شدة الخوف ، فلم يستطع أن يفقه شيئا مما يكتنفه .


أيها الزائرون :
افقدوا كل رجاء !
MORELLI

فلفظتهم السماء ، حتى لا يسكنوها فيقل رواؤها و بهجتها ، ولفظتهم أعماق الجحيم ، حتى لا يفيضوا على المتوغلين فى المعصية ، الممعنين فى الإثم شيئاً من رُوائهم . ورأيت سواداً ضخماً من الهالكين الخائرى العزم ، وما كنت أحسب أن عدد الموتى يبلغ هذا المقدار[١] ، وقد عرفت من أستاذى ڤرچيل أنهم جماعة المترددين الذين لم يعملوا صالحاً فيلحقوا بالصالحين ، ولا سيئاً فيلحقوا بالمجرمين ، ورأيتهم عراة الأجسام ، ملطخة وجوههم بالدماء ممزوجة بعبراتهم ، من أثر الزنابير اللاسبة والبعوض الفتاك . وقد تجمع عند أقدامهم دود ، مُرَوِّع المنظر ، يمتص تلك الدماء .

نهـــر كيرُنتيه

ثم وصل السائحان إلى شواطىء « نهر كيرُنْتيه » الذى يكتنف الجحيم ، فأقبل الشيخ « كيرنتيه » — من فوره — فى مركبة — وهو شيخ من زبانية الجحيم — وعنفهما غاضباً ، ثم قال :

« الويل لكما والثبور عليكما ، أيها الروحان الشريران ! ألا لا يتسربَنَّ الأمل إلى نفسيكما ، ولا يخامِرَنَّ الرجاء قلبكما فى أن تظفرا برؤية السماء ، هَلُمَّا لأذهب بكما فى حلك الظلمات الأبدية » .

ثم التفت الشيخ « كارون » إلى « دانتى » الشاعر ، وقال :

« وأنت أيها الروح الحىّ ، اعتزل ـ من فورك ـ أرواح الموتى وتنحَّ عن طريقها ! »

فقال له ڤرچيل :

« صَهٍ يا : كيرُنْـتِيه فانها إرادة السماء نُنَفِّذُها ، فلا تَدْخل فى ما لا يعنيك .

فارعوى الشيخ كارنتيه ، وكفَّ عن اعتراضه ، ولكن الشرر كان يتطاير من نظراته الحاقدة ...

---

(١) قال أبو العلاء :

« إن صح ما قال رسطاليس - من قدم - وهب من مات ، لم يجمعهم الفلك »

ورأينا على الشاطئ أرواحا أخرى جدَّ مُتْعَبَةٍ ، وقد حالت ألوانها ، واصطكت أسنانها ، حين سمعت ذلك الوعيد المحزن المميت ، وهى تولول لاعنة صاخبة ، حائرة النظرات .

ثم أقلع المركب بتلك الأرواح ، والشيخ « كارنتيه » يجمعهم فيه و يضرب بمجدافيه كل من توانى أو نكص على عقبيه ، فترتمى تلك الأرواح متهافتة على الزورق بإرادة إلهية غلابة قاهرة ، تبدل إحجامهم تقدماً واندفاعاً .

*
* *

ثم دوّت رعود قاصفة وجلجلت فى أجواز الجحيم — فأفاق دانتى من سباته و إذا هو وصاحبه فى «اليمبوس» وهو الدائرة الأولى التى تحف بالهاوية ، فلم يسمعا غير تنهدات منبعثة من وادى الجحيم ، حيث رأيا أطفالا ماتوا قبل أن يظفروا بالتعميد .

ثم انحدرا إلى أسفل ، فرأيا نوراً يخترق ظلمات سقر ، فتضىء جوانبها ، وثَمَّ شهدا حكماء العصور الغابرة السحيقة ، ورأيا أفاضل الوثنيين الصالحين الذين لم ينقص فضلهم إلاَّ شىء واحد ، هو جهلهم حقيقة الدين المسيحى .

ورأى « دانتى » من بين هؤلاء الفضلاء ـ « هوميروس » و « سقراط » و « أفلاطون » ومن إليهم من أفذاذ المفكرين ، وقد التفتوا إلى « دانتى » وحيوه أكرم تحية ، فابتهج أستاذه فرجيل لما ظفر به تلميذه من تكريم أولئك الأعلام .

ثم سار الشاعران قاصدين إلى الدائرة الثانية ، وما كادا يبلغان منها الوصيد حتى رأيا الشيخ «مينوس» يقضى قضاءه ـ ولا راد لحكمه ـ بين الأثمة والعصاة ، ثم ينفذ حكمه فيهم بما يراهم أهلاً له من العقوبة على ما اقترفوا من آثام ، و يلقى بهم فى الدَّرْك الجدير بخطاياهم من سقر .

وما كادا يتركانه و يبتعدان عن حكومته الراهبة حتى ذهبا إلى حيث تعذب الأرواح التى أضلها الهوى ، فنبذت العقل ظهر يا واستسلمت لشهواتها الجامحة .

وقد رأى من بين هؤلاء سميراميس وكليو بطرة وهيلين وأخيل ومن إليهم وقد عصفت بهم عواصف مُسعَّرة .

ولكن شبحين من تلك الأشباح المعذبة قد استرعيا بصر الشاعر ، واستوليا على ذهنه ، فشغله التفكير فى أمرهما عن كل ما عداه .

وما كان هذان الشبحان إلا « فرنشيسكا دار يمينى » وعشيقها « باولو » .

وقد كاد يغمى على الشاعر « دانتى » لفرط حزنه على هذين الشبحين ، فلما اقتربا منه سألهما محزوناً :

« خبرانى أيها الروحان الحائران ، أى جرم اقترفتما فحق عليكما هذا العقاب ؟ »

فأجابته « فرنشيسكا » :

لقد أحببت « باولو » هذا الذى تراه ، ولكنهم زوجونى من سيد آخر غاية فى الدمامة ، وهو شقيقه السيد « جانشوتو » الذى يجمع إلى قماءة الجسم دمامة الخلق .

فبقيت وفية لهذا الحبيب حتى وشى بنا خادم ، فبعث بقصتنا إلى السيد جانشوتو ، فقدم إلينا على عجل ، وفاجأنا ونحن فى أسعد ساعة تذوقناها ، ولقى كلانا حتفه على يديه

***

ثم سار الشاعران حتى بلغا الدائرة الثالثة حيث يعذب الأنانيون ذوو الشره الذين استولت عليهم الشهوات ، فرأيا الأمطار تهمى عليهم سيولاً جارفة، ثم تتجمع من تحتهم بركاً ومستنقعات ورأيا الشيخ « شر بيرو » ذا الأفواه الثلاثة والرءوس الثلاثة ينبح العصاة نباحاً عالياً منكر الصوت ، ويخمشهم بمخالبه الحادة فيضطرهم من شدة العذاب إلى محاكاته فى نباحه المزعج .

وقد رأى شاعرنا « دانتى » — من بين هؤلاء المعذبين — صديقه « شيا كو » الذى جمع إلى وفرة الغنى ألمعية الخاطر ، ولكنه — على هاتين الميزتين — قد شغل فى حياته الدنيا بلذائذ الأطعمة والأشربة المرتقيات ، وكان « شيا كو » بادى الحزن ، شديد الألم مما أغرق فيه بنو وطنه من المنازعات الدائمة ، وقد كاشف صديقه « دانتى » بما يؤمن به لهم من سيئ المنقلب ، ووخيم العاقبة .

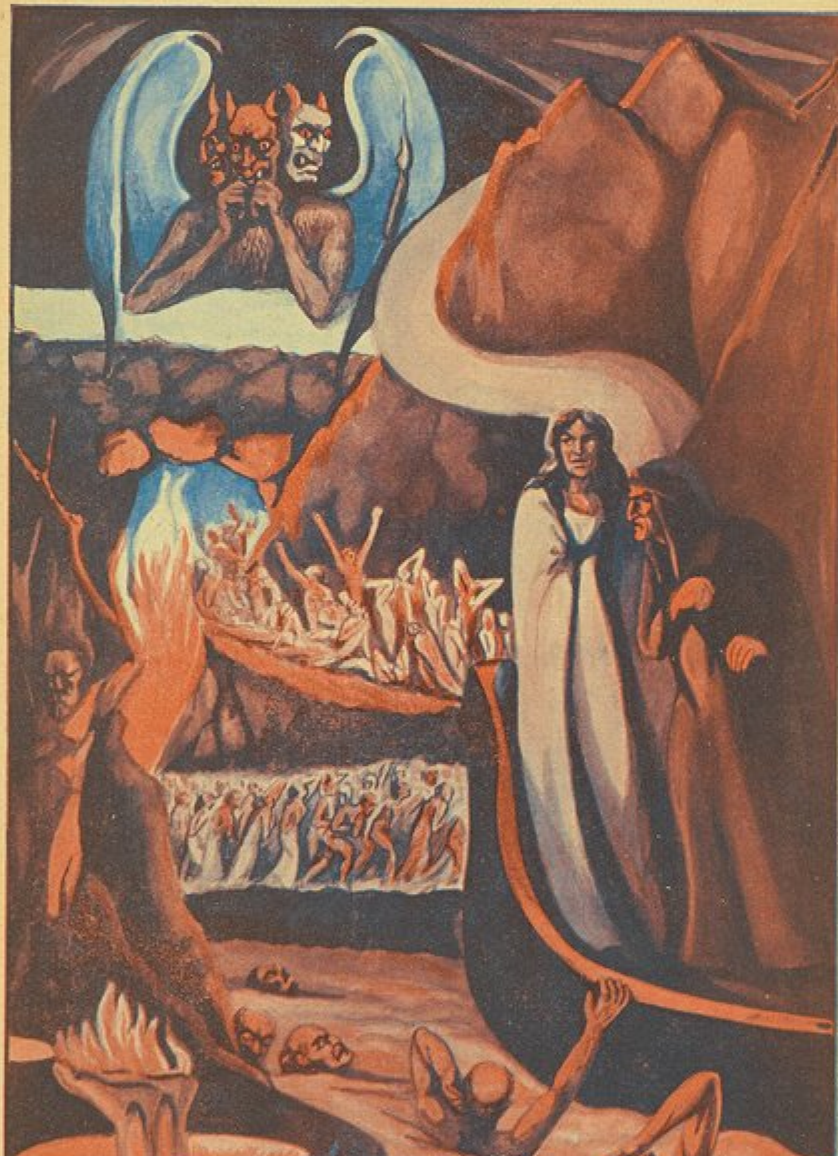
وقد سأله « دانتى » عن مكان « فاريناتا » و « تِجّايو » وكانا من أعيان السراة الذين وهبوا نفوسهم للوطن ، فقال له « شيا كو » :

« ستراهما — يا صاح — فى درك أسفل من هذا الدرك » .

ثم سار الشاعران حتى بلغا الدرك الرابع من الجحيم ، فأبصرا الزِّبْنِيَّ العتيد ، الشيخ « بلوتو » يُصَيِّح بالآثمة ، ويجمجم قولاً لم يدركا له معنى ، وهو ينكل بالمسرفين والبخلاء جميعاً ، وهم فى صفين متقابلين ، كل صف فى نصف دائرة تجاهَ النصف الآخر ، وقد تنابذوا بالألقاب ، وصاح البخلاء فى وجوه المسرفين : « لماذا أسرفتم ؟ » فأجابهم المسرفون : « ولماذا بخلتم بالمال ؟ » . وقد كابدوا جميعاً من عذاب الجحيم ما لا يحيط به الوصف .

وسار الشاعران فى طريقهما ، فأبصرا مستنقعاً قذراً مملوءاً بالوحل ، وقد انغمس فيه المذنبون وتدافعوا متناحرين ، فأنشب كل واحد منهم أسنانه فى آخر ، فسأل « دانتى » مرشده : « من هؤلاء ؟ » فقال : « إنهم الحمقى والمستسلمون للحقد ، والذين عجزوا عن أن يكظموا غيظهم فى الدنيا ، فباءوا فى الآخرة بخسران مبين ! »

وسارا فى طريقهما تارِكَيْنِ تلك الهاوية ، وما زالا سائرين حتى بلغا سفح برج هائل فى الجحيم .


Morelli

الفصل الرابع

ورأى الشاعران زورقاً صغيراً ينطلق نحوهما فى الماء ، كما ينطلق السهم فى الهواء ، وقد استقله الشيخ « فلاجياس » وفى يده مجداف واحد يسير به ذلك الزورق ، فصاح فى « دانتى » قائلاً : « لقد بلغتَ مُسْتَقَرَّكَ أيها الروح الشقى ، لتلقى ما أنت جدير به من النكال » .

فقال « فرجيل » : « كف عن صياحك أيها الزِّبْنِيُّ ، فلن نلبث معك أكثر من الزمن الذى يكفى لعبور هذا المستنقع » . فاشتد بالشيخ الزِّبْنِيِّ غضبه لضياع فرصة تعذيبهما من يده ، ودفع المرشدُ « دانتى » إلى الزورق ، ليعبرا نهر « ستيجه » ، وقد رأى فى طريقه شبح كومة من الوحل ، تقول له : « من أنت أيها القادم على الجحيم قبل الأوان ؟ » فقال « دانتى » : « لئن قَدِمْتُ على الجحيم الآن ، لقد أزمعت الرحيل وشيكا ، فأخبرنى : روح من أنت أيها الشكل المُفَزِّع الراعب ؟ » فأجابه الشبح : « أنا المذنب الهالك الشقى ! » و بسط ذلك الروح ذراعه إلى الزورق فدفعه فرجيل من حيث جاء ، وقال له : « عد أدراجك مع رفاقك من كلاب الإنسانية . » فأسرع الشبح إلى « دانتى » وطوق عنقه بذراعيه وقبل وجهه وهو يقول : « بورك فيك أيها الروح المجيد . »

أما هذا الشبح المختنق فى الوحل فقد كان « فيليپو أرجنتينى[١] . »

فقال « دانتى » لمرشده : « لوَدِدْتُ — يا أستاذى أن أرى هذا الشبح يختنق فى الوحل قبل أن نخرج من هذه البحيرة » فقال له مرشده : « لن نبلغ الشاطىء قبل أن يتحقق لك هذا المأرب . وما كاد يتم قوله حتى اجتمعت أرواح الهلكى على ذلك الأثيم تعذبه وتغرقه فى الوحل ، وتُصَيِّح به شامتة : « فيليپو أرجنتينى » وهو ثائر تصطك أسنانه غيظا ، و يتلوى جسده كِبراً وعُتُوًّا .

(١) هو سرى من أعيان فلورنسا ، وقد كان مضرب الأمثال فى عصره فى العجرفة والقسوة والكبرياء

فتركه الشاعران وسارا حتى بلغا أسوار مدينة « ديته » فرأيا جمهرة من الشياطين تحاول أن تصدهما عن السير فى طريقهما ، ولكن فرجيل استطاع أن يبلغ بتلميذه المدى — بعد أن قهر تلك الشياطين الصاخبة الهائجة التى كانت تصيح غاضبة : « من ذلك الحى الذى يقتحم عالم الهالكين غير هيَّاب ولا وَجِل ؟ » .

وما سار الشاعران قليلاً حتى لاح لهما ثلاث ربَّاتٍ ، من زبانية سقر ، لهن أشكال النساء ، وفى أعناقهن أصلال خضر تطوقها ، وفى غدائرهن مِثْلها حيَّات هائلة ، وفى ثنايا شعورهن جمهرة من صغار الحيات ، وكلٌّ تخمش صدورهن وتُصَيِّحُ بالشاعرين متوعدةً وقدم عليهما — حينئذ — ملك من السماء يجتاز نهر ستيجه فلا تبتل قدماه ، فطرد تلك الأرواح الشريرة وفسح لهما الطريق ، بعد أن أشار بعصاه إلى الباب فانفتح ، وأذن لهما بدخول مدينة « ديته » فرأيا « الملحدين والأبيقوريين[١] » فى قبور من اللهب ، ثم سمع « دانتى » صوتاً منبعثاً من بعض هاتيك القبور ، وهو يقول :

« أيها التشكانىُّ الحىُّ القادم علينا من الدنيا ! قف بربك فى هذا المكان فقد عرفت أنك من أبناء هذا الوطن النبيل العظيم الذى أبى لى سوء حظى إلا أن أعُقَّه ، فلم أكن من أبنائه البررة . »

فاستولى الجزع على شاعرنا « دانتى » وسأل مرشده : « أى صوت هذا ؟ » فقال له : « لا عليك ، فهو صوت فاريناتا[٢] وقد خرج من قبره ليحدثك ، فعد إليه لا تخش أى شىء . »

فعاد إليه « دانتى » فرآه شامخ الرأس ، كأنما يزدرى الجحيم ، ولا يأبه لما يلقى فيها من عذاب ، ثم قال « لدانتى » فى لهجة العظيم القوى : « من آباؤك وأسلافك القدماء ؟ » .

---

(١) الأبيقوريون هم الفئة المنسوبة الى « أبيقور » الفيلسوف اليونانى المعروف وأتباعه وتلاميذه لا يعتقدون بالآخرة ولا يؤمنون بغير اللذة فى الحياة . وقد عاش هذا الفيلسوف قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون

(٢) « فاريناتا » هو زعيم الجبليين ورئيس حزب أسود فى مدينة « فيرنزة » وهو الذى استطاع بمساعدة الجبليف طرد أسرة دانتى ، ولكن بعد انتصار منتابرتى فى سبتمبر سنة ١٢٦٠ وقد اقترح عليه أنصاره أن يدمر «فلورنسه» فثارت وطنيته حيال هذا الاعتداء . ولذلك نشعر أن فيه مزيجا من الحقد والشهامة

فكاشفه دانتى بكل شىء ولم يخف عليه أمراً ، فرآه يرفع حاجبيه كأنما يريد أن يعيد إلى ذهنه ذكريات مطوية سحيقة ، ثم قال له : « لقد كانوا من خصومى وخصوم آبائى وحزبى ، وقد أمعنوا فى الإساءة إلينا بلا رحمة ، فلم أتوان عن تشتيت شملهم — مرتين — وتمزيقهم كل ممزّق . »

فقال له « دانتى » :

« لئن أفلحت فى طردهم ، لقد عادوا — بعد أن غُلبوا — مرتين ، أما آباؤك فلم يعرفوا هذا الفن كما عرفناه [1] »

ثم بدا من مدخل تابوت مفتوح شبح آخر ظهر منه رأسه وذقنه ، ولعله كان جاثيا على ركبتيه .

***

وعند مدخل الدائرة السابعة شرع « فرجيل » يصف لرفيقه أقسام الجحيم الأخرى التى لم يرها بعد ، وقال له : « إن الدائرة السابعة يعذب فى أولى طبقاتها ذوو الشراسة والعنف ، والطبقة الثانية منها تحوى أهل الغش ، والثالثة مقصورة على الخوَنة »

وقد رأى دانتى فى هذه الدائرة الشيطان « مينوتورو [2] » قائماً على حراسة الدرك ، وهو وحش مخوف الهيئة ، نصف جسمه على هيئة ثور ، والنصف الآخر على هيئة إنسان .

ورأى فى هذه الدائرة أيضاً فئة من القساة الغلاظ الأكباد .

ونظر «دانتى» تحت قدميه ، فرأى نهراً من الدم يغرق فيه كل من عقّ — فى حياته — أحد أقربائه ، أو أغلظ له قلبه .

ثم رأى فى الحلقة الثانية من ذلك الدرك غابة موحشة مقفرة وليس فيها غير أشجار

---

(١) يريد « دانتى » أن يقول إن الجبليين ما كانوا يعرفون السر الذى مكن الجيلف من العودة إلى المدينة التى أقصوا عنها إقصاء ، وربما عنى الشاعر بهذا الكلام نفسه ، فان من المعروف أنه كان على عكس أهله ، فان « فاريناتا » قد استطاع أن يطرد « الجيلف » ، وعاد « دانتى » فصار من متحمسى « الجيلف » الملتهبين فى نصرتهم .

(٢) « مينوتورو » ومعناه : عجل مينو ، وقد مر ذكره فى قصة « بطل أثينا » التى قبسناها للاطفال ، وهى إحدى القصص التى حوتها « أساطير العالم للأطفال » .

ملتوية حالكة السواد ، ثمارها الأشواك السامة ، وأطيارها وحوش غريبة الأشكال أنصافها الأولى أنصاف نساء ، وأنصافها الأخرى أنصاف طيور ، وسمع دانتى صرخات مؤلمة منبعثة من تلك الغابة الراهبة المخيفة ، فسأل مرشده عن مصدرها ، فقال له : « اكسر غصناً من هذه الأشجار » فلما كسره « دانتى » صرخ به جذع الشجرة محزوناً ، وقال : « شد ما قسوت علىّ ، لقد كنا — كما أنتم — أناسىّ أحياء ، ثم حق علينا عقاب الله ، فمسخنا أشجاراً جرداء ، فما كان أجدرنا بالشفقة منك ولو كنا أرواح أفاع » .

وقد تملك الفزع « دانتى » حين سمع تلك الصيحات ؛ ورأى الدم يتدفق من ذلك الغصن المهجور . فقال فرجيل للغصن وهو يشير إلى دانتى : « لو استطاع هذا أن يؤمن بما وصفته فى أشعارى[1] من قبل أن يمس غصنك — أيها الروح المجروح — لما مد يده إليك . على أننى — أنا نفسى — لم يكن ليدور الآن فى خلدى أن روحا إنسانياً يختبىء فى شجرة ، و إنى لنادم على ما أسلفت إليه من اقتراح ، إذ أشرت عليه بكسرك ، وكنت سبباً فى ما لقيت — أيها الغصن — من ألم . »

فقال الغصن : « لقد هون علىّ اعتذارك كل ما لقيت من تعذيب ، فهل تأذن لى أنت ورفيقك — فى أن أحدثك بعض حديثى العجيب :

أنا الشاعر بطرس « دِلّافينيه » صاحب « فردريك الثانى[2] » وناصحه الأمين ، وقد أسلمنى مفتاح قلبه ، وأسلس لى قياده ، فأصبحت موضع سره ، وأمين دخلته ، وكان بيدى مفاتح قلبه ومغالقه ، أديرها متلطفاً كيف أشاء ، ووفق ما أريد ، دون أن أشعره — لفرط لباقتى — بما ظفرت به من هيمنة عليه ونفوذ .

---

(١) يعنى : لو أن « دانتى » قد استطاع أن يصدق ما قصصته فى احدى قصائدى ، حين ذكرت أن إنسانة قد تحولت الى شجرة ، لما مس ذلك الغصن بسوء » وهو يعنى بذلك قصته التى قصها عن العذراء « دافنيه » التى تحولت الى شجرة غار .

(٢) كان بيردللا فينى جور سكنسول عظيما ؛ وكان من أوفر أهل زمانه ذكاء ، وهو المستشار الامين للامبراطور فريدريك الثانى ، ولكن حدث أن أوقع به بعض رجال الحاشية ، فعزوا اليه تهما باطلة فغضب عليه مولاه ، وحكم بأن تفقأ عينه ، فلم يجد بداً من الانتحار ، وقد عزا « دانتى » وجوده فى الجحيم الى انتحاره ، وقد كان يعجب به وبولاه .

وقد استطعت — بلطف حيلتى — أن أتفوق فى حاشيته على كل منافس إياى فيه ، ومزاحم لى عليه ، وقد أكسبتنى مهارتى وحذقى كل ثقته ، وكنت شديد اليقظة دائم الحذر ، فلم أهنأ براحة ليلاً ولا نهاراً .

ولكن ما جبل عليه القدماء — من الحسد — وهو جماع الرذائل المتفشية فى أعوان الملوك ، قد أثار علىّ حفائظ المقربين ، وألهب علىّ قلوبهم ، فشوهوا كل مزية من مزاياى ، وقبحوا كل حسنة من حسناتى ، فكدروا صفو الامبراطور لى ، فانقلبت كل محاسنى عيوباً ، فلم أطق غضبه ونكاله ، ولم أر غير الانتحار وسيلة للخلاص من ذلك المقت والسَّخَطِ . »

*
* *

وسار الشاعران حتى ابتعدا عن الغابة ، ولقى « دانتى » فى طريقـه — حين التفت إلى الوراء — طائفة من الأرواح تنظر إليهما نظرات كليلة متعبة ، كأنها نظرات الخياط الطاعن فى السن إلى سم الخياط . قال « دانتى » : « وقد عرفنى واحد من تلك الأرواح — وأمسك بطرف معطفى ، وهو يصيح بى هاتفا . فشخصت ببصرى إلى وجهه المحترق ، فعرفت وجهه — رغم احتراقه — فقلت له : « أأنت هنا يا سيدى برونينو[1] ؟ » فقال : « لا يغضبنك أن أعوقك عن السير شيئاً ، لأفضى إليك ببعض حديثى » فقلت له : « لك ما تريد ، ولو شئتَ أن أجلس إليك لما ترددت فى قبول مشيئتك ، إذا أقرها صاحبى ومرشدى فرجيل . »

فقال له الشبح : « لا سبيل إلى الوقوف فإن من يقف لحظة تضاعف له مائة عام ، فامض إلى أسفل وأنا ماض على أثرك ، وممسك بمعطفك حتى أتم حديثى فأعود إلى هذه الزرافة من الناس الذين حق عليهم الشقاء الأبدى » ثم قال : « أى قدَر أتاح لك القدوم علينا قبل أن تحين ساعتك الأخيرة ؟ ومن ذا الذى أرشدك إلى هذه الطريق ؟ فأجابه « دانتى » :

---

(١) كان « الفلورنتى برونينو لاتينى » عالما فى الفراماطيق ، وقد عاش من سنة ١٢٢٠ الى سنة ١٢٧٤ ؛ وكان دانتى من تلاميذه . ولما طلب اليه أن يغادر فلورنسة سنة ١٢٦٠ بعد هزيمة حزب الجيلف ذهب الى باريس وأقام بها وكتب بالفرنسية أهم مؤلفاته ، وهو : « الـكنز » ولقد تصور دانتى وجوده فى الجحيم لأنه من الجيلف .

« لقد ضللت طريقى فى أحد الوديان ، وكاد يحين حينى ، وكان ذلك صباح أمس حين أدرت ظهرى لهذه الحياة ، فلاح لى هذا المرشد وقادنى إلى هنا . »

فقال الشبح :

« لقد تكهنت لك وأنا حى ، ولا أزال على رأى كهانتى إلى الآن ، وهى أنك إذا درجت على سجيتك ولم تخالف طبعك النبيل ، فإنك بالغ أوج المجد ، فلا تنزلق مع هذا الشعب الأحمق الجاحد من أبناء « فيرنته » الذى يأبى إلا أن يعاديك لاستقامة فطرتك ونُبل أرومتك ، وهو عداء طبيعى دائم بين الشر والخير ، فإن شجرة التين إذا اكتنفتها أشجار العوسج(١) لم تدع لها طريقاً للإثمار ! فحذار أن تدنسك أقذارهم ، أو تعلق بك أرجاسهم . إن حزبى البيض والسود ليحترقان شوقاً إلى اكتسابك فى صفيهما لتناصر كل واحد منهما على الآخر ؛ ولكن إباء نفسك لن يحقق لكل منهما هذه الأمنية الخرقاء . »

فقال « دانتى » : « أرجو أن أحقق رجاءك فىّ ، فقد نقشت فى ذهنى صورتك الأبوية العزيزة ، ولم أنس نصائحك الثمينة ، ولن أنساها ما حييت ، فلقد علمتنى كيف يظفر الإنسان بالخلود ، ولا زلت إلى اليوم أردد هذه النصائح ، وأذيعها بين سواد الناس . »

---

(١) لابن الرومى أبيات فى العوسج ، وقد مرت بالقارئ فى هذا الكتاب .

الفصل الخامس

واستأنف الشاعران سيرهما ، بعد أن طافا ما شاءا فى الدرك السابع من سقر ، ورأيا القساة وغلاظ الأكباد ، وعرفا من بينهم طائفة من بنى الوطن . ولما أرادا الوصول الى الدرك الثامن ، استدعى ڤيرچيل وحشا راعب الخِلقة ، مفزّع الهيئة ، اسمه « چيرونه » وهو رمز الغش والخديعة ، ورأى دانتى لهذا الوحش وجه إنسان وجلد أفعى رائع الألوان ، فركب الشاعران ذلك الوحش الجَهْمَ ليهوى بهما إلى الدرك الثامن ، وما كادا يبلغانه حتى رأياه مؤلفا من عشر حلقات .

وكان أول ما استقبلهما دائرة « ماليبولجه » وبها ينتهى الدرك السابع من سقر ، وكلها من الحجارة القاتمة وهى أشبه بالحديد منها بالحجارة ، وإلى يمين السائر فى وسط ذلك الميدان اللعين ، تلوح بئر واسعة الفوهة سحيقة القاع ، وقد هبط بهما « چيرونه » كما أسلفنا حتى بلغ بهما قرارة الدرك . فرأيا فيه من ألوان العصاة والمعذبين ، وطرق التنكيل بهم ما لا يخطر ببال .

ولمح « دانتى » جمهرة من العُراة فى قاع الدرك ، وطائفة من الشياطين والأبالسة ذوى القرون ، وفى أيديهم سياط يلهبون بها الآثمة والعصاة ، وقد بدت قرون الأبالسة وسياطهم التى يحثثون بها المذنبين ليسرعوا فى خطاهم . وخشيت أن تفوتنى الفرصة فلا أعرف شيئاً مما رأيت فى ذلك المكان السحيق ، فسألت أحد الخاطئين : « من أنت ؟ » وكان ينكس رأسه ، ليخفى وجهه من شدة الخجل ، ولكننى عرفته على الرغم من ذلك ، فقلت له : « ما أراك — إذا لم أكن مخدوعا — إلا « فِنِديكو كاشيانيميكو[1] » ، فماذا جاء بك إلى هذا العذاب المقيم ؟ »

فقال : « على الرغم منى أن أفضى إليك بسر شقائى ، وعلى كره منى أبوح لك بدخلتى ، بعد أن أعاد إلى نفسى كلامك الصريح ذكريات العالم الفانى :

---

(١) كان « فنديكو كاشيا نيميكو » — وهو من أهل « بولونى » — مشهورا باقتراف كل رجس فى سبيل الشر ، فلم يحجم عن سوأة منافية للشرف ، مجاراة لأهوائه ومطامعه ، وقد أغرى أخته ببيع عرضها للمركيز « فيرارا » من أجل المال .

« لقد أسلمت « چيز و بِلّلا » إلى المركيز ، فى سبيل المال ، وأنت أعرف بما اشتهرنا به من البخل والشح . »

وما كاد يتم جملته حتى ألهبه أحد الشياطين بسوطه قائلاً :

« اذهب أيها الساقط الدنس ، فليس فى هذا المكان أعراض تتجر فيها . »

وفى الحلقة الثانية رأيت بركا مظلمة قذرة قد انغمست فيها طائفة من العصاة تنحى على أبدانها ضرباً بالأيدى من شدة الألم ، ورأيت واحداً ممن تغطيهم تلك الأقذار فلم أستطع أن أتبينه ، ولكنه صاح بى محنقاً : « تبا لك من فضولى ، ما الذى استرعى بصرك منى ، وحولى كثير من ذوى الرجس » فقلت له : « ألست يا صاحبى « ألِسْيو إنْتِرْمِينِيه ؟ » فقال لى محسوراً : « إنما جاء بى إلى هذا الدرك ما ألفته من الملق والمداهنة . »

ورأيا فى الحلقة الثالثة جماعة ممن اتجروا بالدين ، وكانت رءوسهم مدلاة إلى أسفل وأقدامهم إلى أعلى وهى ملتهبة ، وكل واحد منهم فى حفرة ضيقة مستديرة الفوهة .

ثم رأيا فى الحلقة الرابعة معذباً يقاسى من جُرَع العـذاب ألوانا ، فقال له دانتى : « من أنت أيها الروح المعذب ؟ »

ولم يكن هـذا الروح إلا نيقولا أورسينى(١) ، فصاح — قائلاً — : « هل جاءوا بك إلى هذا الدرك يا بونيفاشيو(٢) » وهل قضيت وطرك من تلك الأموال الطائلة التى بذلتَ قصارى جهدك فى الظفر بها ، وهل أفلحتَ فى إغراء تلك المرأة الجميلة ؟

ألاَ ما أسرع ما انقضى وطرك من تلك الأموال الطائلة التى لم تتورع عن استلابها — بعد أن بذلت قصارى جهدك فى استمالة تلك الغادة الحسناء — ورحت تستولى على تلك الكنوز بكل وسيلة من وسائل الملق والخداع ! »

---

(١) هذا هو البابا « نيقولا الثالث » وهو من أسرة أورسينى الرومانية الشهيرة وقد مات سنة ١٢٨٠ وكان عطفه على الجيلف سببا فى عقابه فى الجحيم فى نظر دانتى الجيلينى ، على أن دانتى وإن يكن قد قسا على بعض الباباوات فى عصره ، وهم خصوم حزبه السياسى ، لقد كان يبدى الاحترام الأوفى للسلطة الباباوية من وجهتها الدينية (٢) خيل لنقولا أن الذى يحدثه هو خليفته على العرش البابوى « بونيفاشيو » الثامن الشهير الذى لم يمت إلا سنة ١٣٠٣ والمرأة الجميلة التى يتكلم عنها الآن هى « البابوية » .

فدهش دانتى لهذه المفاجأة ، وأذهله ما سمع من كلام لا يفقه له معنى ، فقال له فرجيل : « قل له إنك شخص آخر غير من يعنيه بقوله هذا »

فأجاب دانتى كما لقنه مرشده فرجيل ، وثم تملكه الغيظ ، وتصلبت قدماه من الحنق ، وتنهد شاكيا ، ثم قال : « فماذا يعنيك من أمرى إذن ؟ وأى شأن من شئونى تريد أن تسألنى عنه ؟ أتريد أن تعرف ماهيتى ؟ إذن فاعلم أننى كنت ممن يرتدون الطيالس الطوال[١] أما أسرتى فهى أسرة أورسينى ، ولقد حرصت على تنمية موارد الثروة التى تنعم بها أسرتى ، فلزمت الشح والتقتير ، حتى ظفرت بثروة طائلة ، ارتفعت بها أسرتى فى الدنيا وهويتُ بها إلى قرار الجحيم فى الآخرة . وقد سبقنى فى اقتراف جريمة البخل جمهرة تعذب الآن فى أسفل هذه الحفرة السحيقة ، ومتى جاء الراعى[٢] الذى حسبتك إياه ، هويت إلى أسفل واحتل هو مكانى ، حتى يقدم زائر جديد[٣] فيهوى الراعى إلى القرار ، ويحل الزائر مكانه ، وهكذا .

وما زال الشاعران ينتقلان فى ردهات الجحيم من طبق إلى طبق ، حتى بلغا الحلقة الرابعة حيث رأيا الكذبة المتكهنين والعرافين الذين ادعوا الاستئثار بالغيب ورءوسهم متجهة إلى الخلف ، وليس لهم سير فى الجحيم إلا سير القهقرى ، ورأيت دموع بعض هؤلاء العصاة تتساقط من أعينهم فلا تقع إلا على ظهورهم . أولئك الذين أرادوا أن ينظروا المستقبل ، فأصبحوا فى الآخرة لا ينظرون إلا الخلف .

***

ثم سار الشاعران إلى الحلقة الخامسة فرأياها قاتمة عابسة ، وسمعا ولولة الباكين صاعدة من أعماقها ، وقد لطخهم القار الغالى ، وقد علم دانتى أن السماسرة يعذبون فى تلك الحلقة .

ثم يستأنفان السير حتى يبلغا الحلقة السادسة حيث يريان المعذبين وقد برح بهم الضنى وعلت رءوسهم قبعات مرصّصة[٤] ، ولكنها قد طليت بالذهب الوهاج ، فأصبح لها لمعان يكاد يخطف الأبصار ، وقد ناءوا بحملها عاجزين .

فقال دانتى لمرشده : « لعلنا نظفر ببعض من نعرف بين هؤلاء الخاطئين ، فأجِلْ يا سيدى لحاظك فيمن يكتنفنا »

---

(١) يعنى أنه كان « بابا » (٢) يعنى بالراعى الذى ينتظر مقدمه : البابا « بونيفاشيوس » الثامن وقد ولى أمر العرش البابوى (من عام ١٢٩٤ إلى ١٣٠٣) (٣) يعنى بالزائر الجديد « كليانوس الخامس » الذى مات عام ١٣١٤ وقد نقل الكرسى الرسولى فى عهده إلى « أفنيون » (٤) أى صب فيها الرصاص .

وسمع أحد المعذبين هذا الحديث ، وقد عرف من لهجته التسكانية أن قائله من أبناء وطنه ، فصاح قائلاً : « قفا أيها الزائران فلعلنى طلبة هذا الرجل » فالتفت فرجيل إلى تلميذه وقال : « تريث فى مشيتك ولا تعجل ، حتى تتسق خطاك مع خطى هذا المتئد » .

قال دانتى :

« فوقفت ، وأسرع اثنان بكل ما فى طوقهما من السرعة بغية اللحاق بى ، وقد أدركت أنهما يسرعان — على الرغم من بطئهما الشديد — لما كان يلوح على وجهيهما من أمارات الجهد والضنى لما ينوءان بحمله من أثقال . وما كادا يقطعان تلك المسافة القليلة حتى أنعما النظر فىّ ، ولم ينبسا ببنت شفة ، ثم نظر أحدهما إلى الآخر وقال :

« يظهر من حركات فم هذا أنه من الأناسى الأحياء ، وإلا فأى ميزة أكسبته الخلاص من حمل هذه القبعات الثقيلة التى أُرغمنا على حملها فى هذا الدرك من الجحيم ؟ » ثم قالا لى : « أيها التُّسكانىُّ ! خبرنا من أنت أيها القادم لزيارة معهد الأشرار من الأشقياء المحزونين ، ولا يَثنِكَ الزهْوُ عن أن تقول لنا : من أنت ؟ »

فقلت لهما : « لقد ولدت فى مدينة «فيرنتسة» الكبيرة ونشأت على نهر «أرنو» الجميل ، وما زلت من أهل هذا الوطن إلى اليوم ، فإنى لا أزال حيا كما تريان ، ولكن خبرانى من أنتما ، فإنى لأرى عبرات الألم تسيل غزيرة على خدودكما ، وما أدرى مصدر هذا الشقاء ، ومبعث هذا العناء . »

فأجابنى أحدهما : « ألا ترى إلى هذه القبعة المذَهَّبة ؟ فاعلم أنها ليست غير رصاص مصبوب شديد الثقل ، ولقد نشأنا — فى الدار العاجلة — أخوين دائمى الفرح ، ناعمى البال ، وكنا من أصل «بولونى» ، أما اسمى فهو « كاتالانو » واسمى أخى هذا : «لُدِرنجو[1]»

---

(١) كلاهما من نبلاء « بولونى » ومن اعضاء جمعية أخوية يطلق عليها اسم « جماعة الاخوان الفرحين » وفى عام ١٢٦٦ منحها الفلورنتيون لقب « بودستا » وقد وقع الاختيار على « لدرنجو » لأنه من الجبليين وعلى « كاتولونا » لأنه من الجلف ، ولكن حكومتهما — على ذلك كله — لم تجد سبيلا إلى التوفيق بين الحزبين . فآثر هذا الحاكمان — بعد أن أخفق سعيهما فى التوفيق — أن ينضويا خفية وخداعا تحت راية حزب الجلف ، وقد كان هذا الغش سبباً فى حقد « دانتى » عليهما ، لأنهما خانا ما ارتبطا به أمام الشعب من عهد وثيق

وقد وقع اختيار أمتكم على كِلَيْنَا جميعا ، وكان العرف يقضى بتخير واحد منا فقط ليكون أقدر على صون السلام ، وحفظ الأمن فى المدينة ، ولكنكم آثرتم أن يلى أمركم اثنان ، فكان ماذا ؟ لقد تجلت آثارنا رائعة فى تخريب غردنجول(١) ! »

فاستأنفت قائلاً : « لقد كانت سيئاتكما التى اقترفتماها أيها الأخَوَانِ . . . » ولم أستطع — بعدئذ — إتمام الحديث فقد قطعه علىّ منظر مفزّع ، إذ بصرت أمامى بآثم من الخاطئين الذين حقت عليهم لعنة الله ، وهو يصلب على الأرض مشدوداً إلى أوتاد ثلاثة . وما كاد نظرى يقع عليــه حتى زفر محزوناً وتنهد متألماً ، فقال لى الشقيق « كاتالانو » حين رأى من ذلك المصلوب ما رأى :

« أتعرف من هذا المعذب الماثل أمامك ؟ إنه « قيافا » الذى أسدى نصيحته للفريسيين بأن يختاروا رجلاً واحداً ينكّلون به ليكون فدية للشّعب كله ، وقد لقى جزاءه على خطيئته الشنعاء ، وأصبح كما تراه الآن عارياً تطؤه أقدام العصاة ، وهو ملقى فى عرض الطريق كما تشهد ، وقد بلغ به الضعف كل مبلغ ، فأعجزه أن يشعر بمن بجانبه ، لما هو فيه من ذهول و إرهاق . وهكذا لقى صهره أيضاً . وها هوذا تراه مطروحاً فى هذه الحفرة ، كما لقى سائر أفراد ذلك المجلس الذى أنفذ كلمة الجائر ، وقد كان اليهود يعدونهم بذراً ضاراً غير صالح .

***

وفى الحلقة السابعة يعذب اللصوص أشــد العذاب ، وتنهشهم الثعابين والأصلال الهائلة ، وقد رأينا — من بينهم — واحداً من « توسكانيا » يدعى « فانى بوتشى » وهو من « پستويه » وكان قد تكهن — فى حياته — لدانتى بهزيمة مقبلة تحل بالحزب الأبيض الفلورنتى . وقد أبصر دانتى جمهرة من « الفلورنتيين » الذين اتهموا باستغلال الجمهور ، وقُضِىَ على هؤلاء الأنذال جميعاً بالحَوْلة الدائمة من رجال إلى ثعابين ، ومن ثعابين إلى رجال ، وهكذا دواليك أبد الآبدين ، ودهر الخالدين .

(١) « غردنجول » من أحياء « فلورنسا » حيث تقيم أسرة « اوبرتى » الجبلينية وقد نهب هذا الحى وخرب فى عهد هذين الحاكمين البولونيين .

الفصل السادس

قال « دانتى » : « افرحى يا فيرنزة وابتهجى ، فقد بلغتِ من العظمة مبلغاً جسيماً ، فخفقت أجنحتكِ فى البر والبحر ، كما انتشر صيتك فى أطباق الجحيم ! كيف لا ، وقد رأيت بين الهالكين من اللصوص خمسة مِن أهلك ، فاعترانى من الخجل والغم ما لا يوصف ، وأيقنت أنك محزونة لهذا الخزى المبين . ولئن صح ما يقولون ، من أن أحلام الصبح تعبر عن الحقيقة الراهنة وتنبئ بصدق ما يقع للحالم من أمور وشيكة الحدوث ، لَتَجِدِنَّ — إذن — بعد قليل مصداق ما تمناه لك « براتو[1] » ومن لف لفه من أعدائك الألداء ، ولَتُورِدَنَّكِ شرور أبنائك وآثامهم موارد الحتف والهلاك ، ولئن عجل الله بوقوع هذه الكوارث التى كتبها عليك ، لقد أحسن إلىّ بذلك ، فإن التعجيل بوقوع البلاء المقدور أهون من ترقبه ، ولو تأخر حدوث الكوارث حتى أطعن فى السن ، لضاعف ذلك من ألمى فى زمن الشيخوخة ، أما الآن فإنى أقدر على احتمال وقعها ، وتجرع غصصها المؤلمة .

*
* *

وفى الحلقة الثامنة رأينا طائفة من الأنفس الخاطئة يكتنف كل واحدة منها عمود من اللهب ، فسألت مرشدى عن هذه الألسنة اللهبية المستعرة ، فقال : « إن فى أثناء هذه الأعمدة الملتهبة أرواحاً تصطلى بنارها » فقلت له : « لقد أيقنت بما تقول ، فمن ترى فى هذه النيران من العصاة ؟ وما هذا اللهب المرتفع الذى يلوح — فى أثنائه — رأسان منقسمان » فقال مرشدى : « فى أثناء هذا اللهب ، ترى « عولس » و « ديوميد[2] » وقد لقيا ما هما جديران به من النكال ، ولم يفترقا فى العذاب ، كما لم يفترقا — من قبل — حين حاق بهما الغضب ، وحقت عليهما اللعنة . ها هما ذان يندمان محزونين على ما اقترفا من

---

(١) « براتو » مدينة صغيرة بجوار « فيرنزة » وقد كانت فى عهد « دانتى » حاقدة على وطنه كغيرها من مدن « تسكانيا » الأخرى .

(٢) تمكن « عولس » و « ديوميد » اللذان أوفدهما اليونانيون من الدخول على « أخيل » الشاب بعد أن سلكا إلى ذلك طريق الحيلة والمكر ، وقد كان متخفيا فى زى امرأة ومقيا ببلاط الملك « ليكوميد »

إثم وخداع ، إذ مكرا بخصومهما واخترعا ذلك الجواد الخشبي ، فخدعا به أعداءهما خداعا مبيناً ، وإن كانا سبباً فى إنجاب تلك البذرة النبيلة من الرومان[١] .

ثم رأينا لهيباً آخر يخرج من فيه صوت غليظ ، خيل إلينا منه أننا نسمع خوار العجل الصقلى[٢] ، وإذا به صراخ « جويدو دى مُنْتَفِلْترو » الذى ولد فى « منتفلترو » ، ومات نادما فى « أسيز » حيث دفن فيها بالبازيليك ، فقلت له : « تحدث إلىّ ، فإنى رومانىّ مثلك ، وخبرنى ماذا يخفيك فى القاع ؟ » فقال ذلك الروح المعذب :

« لقد نشأت رجل حرب وطعان ، ثم ختمت حياتى بالاندماج فى سلك الرهبان ، ولولا سوء حظى الذى أوقعنى فى جريمة الغش مرة ثانية ، لظفرت بالفوز ، وإليك قصتى :

لقد وهبنى الله مزايا الثعلب ، وحرمنى مزايا الأسد ، فقد ذاع صيتى — فى العالم الأول — بما عرفت به من أفانين الخداع والغش ، حتى أصبحت بذلك مضرب الأمثال .

فلما اقترب أجلى ، لجأت إلى الرهبان ، ووطنت نفسى على أن أحيا حياة الزاهدين ، وأعيش عيشة النسك طمعاً فى عفو الله وغفرانه ، ولكن سوء حظى أبى لى إلا الارتكاس فى الخطيئة ، فقد أرغمنى أمير الفريسيين على أن أهديه طريق الخداع والغدر ليفتك بطائفة من المسيحيين ، فلم أجرؤ على مخالفة أمره ، واضطررت — بعد تردد — أن أهديه أسوأ سبيل للخداع حتى ظفر بخصومه . فلما قضيت نحبى جاء القديس « فرنسوا » ليرفعنى إلى السماء ، فاعترضه أحد الزبانية السود ، وخطفنى منه قائلاً : « لقد غش فى النصيحة ، فحقت عليه اللعنة ، وكان من الهالكين . »

* * *

ثم سرنا إلى الحلقة التاسعة حيث يعذب الداعون الى الشقاق والخلاف ، والحاملون ألوية العصيان الأهلى والدينى والخلق ، وذوو البدع الضارة .

---

(١) كان « عولس » و « ديوميد » قد فكرا مع غيرهم من أقطاب اليونانيين فى فتح « طروادة » وقد نجحت حيلتهم بفضل الجواد الخشبي الذى اختبأ فيـه المقاتلون ، وقد عنى « دانتى » بهذه الجملة أن العنصر الرومانى الذى انحدر من « إينيه الطروادى » يرجع أصله إلى هذه الخدعة التى كانت مقدمة لتدمير «طروادة»

(٢) يعنى « عجل مينو » وقد فصلنا قصته فى أسطورة « بطل أثينا » وهى إحدى « أساطير العالم للاطفال » التى أظهرتها مطبعة المعارف وهذا العجل النحاسى ، قد أهداه صانعه إلى أحد الولاة فى صقلية ليعذب مخالفيه بالنار فيه ، فكان أول ما فعله ذلك الطاغية ان أصلى الصانع بناره فى ذلك العجل الذى صنعته وكانت هذه أول تجربة أقنعت الوالى بنفاسة هذه الهدية وصلاحيتها لتنفيذ آرابه الشريرة .

ورأينا كيف شوهت أجزاؤهم وقطعت تقطيعاً، وكيف فصلت بعض تلك الأجزاء عن بعض، جزاء لهم على ما فرقوا بين الناس، وعقاباً على ما بذروا من شقاق.

فلما بلغنا الحلقة العاشرة حيث يعاقب المزيفون، سمعنا أنينهم وتفجعهم وشممنا الرائحة المنتنة منبعثة من مقرهم، ورأينا من بينهم «جريفولينو» و«كابوكيو» وقد مال أحدهما على الآخر، بعد أن نخر البرص فى أجزائهما، وأبلاها الحكّ الدائم، فقد كانا ينشبان أظافرهما فى لحمهما فيهرثانه من شدة الحك، كأنما يقطّعانه بسكين، فلما سألتهما عن أمرهما انفصل كل منهما عن الآخر، ثم قال «جريفولينو»: «لقد حق على العذاب لأننى اتخذت من الكيمياء وسيلة لتزييف الأحجار الكريمة فى الدار العاجلة»، وقال «كابوكيو»: «أما أنا فقد ضربت بى الأمثال - كما عرفتَ - فى الغش والتزييف وقلب حقائق الأشياء.»

ورأينا روحا شديد الهياج، ثائر الثائرة، فلما سألت عنه عرفت أنه روح «ميرا» العاهرة[1].

ورأينا هالكاً حَبَنْطَى وهو يلهث من انتفاخ بطنه وشدة ظمئه إلى الماء، وقد علمت أن هذا الخاطئ هو «آدم دى بريشا» الذى زيف النقود التى سكتها جمهورية «فيرنزه[2]»، فلما سألته عن أمره قال لى محزوناً: «لقد ظفرت فى حياتى بكل ما اشتهته نفسى من لذائذ الأطعمة والأشربة، ثم حرمت الآن كل شىء، وأصبحت تتمثل لى تلك الحقول النضيرة، وما تحويه من جنات وعيون، فأتشهى قطرة واحدة من تلك الأمواه العذبة لأبلّ بها ريقى فلا أجد إلى ذلك سبيلاً، وقد احترق جوفى من شدة الظمأ»، فقلت له:

«خبرنى من هذان التاعسان المتجاوران اللذان ينبعث منهما هذا الدخان؟»

فقال: «لقد وجدتهما هنا أول ما جئت، ومنذ رأيتهما إلى الآن لم أشهد لهما حركة، وما أظنهما يتحركان طوال الأبد، أحدهما هى تلك المخلوقة الخائنة التى اتهمت «يوسف الصديق[3]» بأنه اشتهاها، والآخر هو «سينون»[4] الماكر المخادع، يونانىّ طروادة. وقد أرهقتهما الحمى وألهبت جوفيهما، فأذهلتهما من شدة العذاب الأليم.»

---

(١) هى بنت ملك قبرص التى هامت جنوناً بعشق أبيها، ثم دفعتها الشهوة الجامحة إلى تدبير مؤامرة خسيسة لقضاء وطرها، فاتفقت مع مربيتها على أن تظفرها بأربتها فى جنح الظلام الحالك، ولكن أمرها قد عرف بعد أن تم لها ما أرادت، فهربت إلى الشرق حيث مسخت شجرة من النوع الذى يطلق عليه الايطاليون اسم شجرة «ميرا» (٢) وقد أحرق بفيرنزه عام ١٢٨١ م (٣) هى زوجة «فوطيفار»

(٤) سينون اليونانى الذى جاء ذكر خدعته فى الالياذة وهو الذى أقنع الطرواديين بقبول الجواد الخشبى فى مدينتهم «طيرويا»

فضجر أحد الخاطئين بما سمع ، وقد آلمه ما جابهه به « آدم دى بريشا » من أسلوب مهين ، فضرب بطنه المنتفخ بجُمْع يده ، فدوّى بطنه كما يُدَوّى الطبل ، وأجابه « آدم » على اعتدائه بصفعة قوية على وجهه ، وهو يقول : « لئن عجزت عن الحركة بجسمى ، فما عجزت يدى عن صفعك ؟ » فأجابه الشيخ الآخر : « لا غرو أن يكون ذلك منك أيها المعذب فى النار ، فقد كانت يدك فى تزييف النقود أسرع منها فى ضربى » فقال له : « الحق ما تقول ، ولقد كنتَ مزيفاً فى شهادتك يوم دعيت فى طروادة إلى تقرير الحقيقة »

فقال « سينون » : « لئن زيفتُ القول لقد زيَّفْتَ النقود مرات ، ولئن ارتكبتُ هنة واحدة ، لقد اقترفتَ من الآثام ما لم يقترفه أى ملعون سواك ! » فقال « آدم » : « أذكر الجواد الخشبى إذ حلفت كاذباً أنك مخلص ، وقد علم الناس جميعا سوء ما اقترفت من إثم شنيع » فقال سينون اليونانى : « ما أجدرك بما تكابده من حُرَق الظمأ الذى يبقر بطنك ويجفف لسانك . »

فقال « آدم » : « ما أجرأك على الفحش فى القول . ولئن أجهدنى العطش ، لأنت جدير بما فى رأسك من هذيان الحمى »

* * *

قال « دانتى » :

وكنت أصغى إلى ملاحاتهما بكل ما فى وسعى من انتباه ، فقال لى مرشدى « فيرچيل » هازئاً : « هل وعيت ما سمعت من حديث ؟ لعلِّى كَدُرْتُ عليك » .

فشعرت بالخجل ، وانعقد لسانى من الذهول ، وأحس مرشدى ما أنا فيه من الحرج فقال لى : « لا تسرف فى الخجل ، وهوّن عليك ما تعانيه ، فإن قليلا مما بدا عليك من الندم يكفى لغفران أضعاف ما اقترفت من ذنب ، فلا عليك ، وما أجدرك أن تسرى عن نفسك ، ولعل فى هذا درسا ينفعك ، فتذكر موقفى منك كلما سمعت مثل هذه الملاحاة المزرية ، فان الرغبة فى سماع هُجر القول تزرى بصاحبها وتحط من قدره[1] »

---

(١) قال المثل العربى : « حسبك من شر سماعه » ، وقال الشاعر : « فسامع الذم شريك له »

الفصل السابع

انتهى الشاعران من زيارة أطباق الجحيم ، وأتما تجوالهما فى الدرك الثامن، ورأيا ما حواه من حلقات عشر، ثم اجتازاه إلى الدرك التاسع ، وعلى حراسته طائفة من المردة الجبابرة .

قال « دانتى » : وقد حسبت أن أبراجاً تلوح لعينىّ ، فقلت لمرشدى : « ترى أى مدينة هذه التى تلوح لنا أبراجها ؟ » فقال « ڤرجيل » : « أشد ما يخطىء الإنسان فى الحكم على الأشياء إذا بعدت عن ناظره ، كما أخطأت أنت فى توهمك أن ما تراه أمامك أبراج ، وهى ليست إلا أجساد طائفة من العمالقة ، ومن عجب أن ما يبدو من أجسادهم لا يزيد على أنصاف قاماتهم ، أما الأنصاف الأخرى فهى غائرة فى آبار سحيقة» فلما قاربتهم ظهر لى صدق ما حدثنى به أستاذى ، وما كدت أنعم النظر فى أحدهم حتى حمدت الله على أن قرض هذا الجنس الجبار الجسم الذى لا يقدر البشر على رد غاراته ، ودفع أذيَّاته ، فإن ما وُهِبَه العملاقُ من العقل الإنسانى مع القوة يطغيه و يغريه بالفتك ، و يطلق لرغباته الجامحة العنان ، حتى لا يقدر على دفعه أحد . أما الحيوانات البرية والبحرية الهائلة من أمثال الفيلة والحيتان الكبيرة الجرم ، فقد خفف من أذاها وقلل من بطشها أنها حرمت العقل والتدبير .

ولقد استولت علىّ الدهشة والعجب حين رأيت أن نصف هذا العملاق لا يقل عن سبعة أمتار دون احتساب رأسه الضخم العظيم ، وقد جمجم قولاً لم أفهم منه شيئاً ، فسألت مرشدى عن أمره ، فقال لى : « هذا هو العملاق الشرير الذى أوحى ببناء برج بابل ، وكانت فكرته الخبيثة سبباً فى اضطراب الألسن وتفرق اللغات إلى اليوم . وها أنت ذا تراه يجمجم ألفاظاً لا يفهمها كائن كان » .

ثم رأينا عملاقاً آخر ، وقد علمت أنه النمروذ الذى أراد أن يبلغ الأسباب ، أسباب السموات ، فهو مقيد فى الأغلال كما تراه الآن .

ثم قابلنا العملاق الهائل « أنتيو » وقد رجا منه مرشدى «ڤرجيل» أن يُبلغنا أعمق درك فى الجحيم ، فانحدر بنا إلى أعماق بئر سحيقة ، جوها زمهرير لا توصف شدته وأذيَّته ، وقد رأينا فى ذلك الدرك التاسع بركة من الجليد مقسمة أقساما أربعة ، حيث يعذب فى الدائرة الأولى منها كل من لم يصلوا الرحم وخانوا الأهل والأقارب ، وفى الثانية يعاقب كل من جحد

وطنه وخان بلده ، وفى الثالثة الغادرون الذين خانوا الصداقة وجحدوا الأصدقاء ، وفى الرابعة ناكرو الجميل الذين جزوا الإحسان بالاساءة ، وكفروا بنعمة من أسدوا إليهم حسن الصنيع .

ففى الحلقة الأولى ، بينا أسير مع مرشدى فى مكان منخفض ، إذا بصوت مستغيث خائف يصيح بى قائلاً : «حذار أن تخطو بعد هذا ، وتبين موطئ قدمك ، حتى لا تطأ رءوس أبناء جنسك من المعذبين الخاطئين » فأنعمت النظر ، فرأيتنى ماشياً على سطح البحيرة الجليدى ، وهو أقرب إلى الزجاج الصفيق منه إلى الماء الرقراق .

وقد رأيت محدثى ورفاقه غائصين فى ذلك الجليد بحيث لا يبدو منهم غير وجوههم ، وقد اصطكت أسنانهم من شدة الزمهرير ، وكان الخطاة يسكبون العبرات ، فلا تلبث أن تتحول ستاراً صفيقا من الجليد .

وما كدت أبلغ منتصف الحلقة ، حتى وطئت قدمِى وجه أحد العصاة ، وما أدرى كيف تم ذلك ؟ وهل كانت مصادفة أم قضاء وقدراً ، أم كانت مشيئة الله قد ألهمتنى ذلك للعظة والاعتبار ؟ فصيَّح الخاطئ محزونا باكيا : « ما بالك تسحق رأسى ؟ أجئت هنا لتزيد فى قصاصى وتضاعف من عذابى ؟ أم أردت الانتقام منى بما يُربى على خيانتى[1] ؟ »

فقلت لمرشدى : « تريَّث — يا سيدى — هنيهة حتى أحسم الشك فى أمر هذا الروح ، ثم عجل بسيرك ما شئت ! » فوقف دليـلى ، وتمادى ذلك الروح فى التأفف والسخط بشناعة شديدة ، فقلت له : « من أنت أيها المتسخِّط الشتَّام ؟ » فقال لى : « بل خبرنى من أنت أيها القادم إلى هـذا الدرك السحيق من الجحيم ، وعرفنى ماهيتك أيها الضارب وجوه التاعسين فى قسوة وعنف ، حتى لحسبتك من أشداء الأحياء فى الدار الأولى ؟ » فقلت له : « ما عدوت الصواب فى أمرى ، فإنى ما زلت حيا ، وسأذيع اسمك فى قصيدى — إذا كنتَ راغبا فى الشهرة — وأكتب لك خلود الذِّكرِ متى عدت إلى العالم الأول » فقال : « بل أريد عكس ما تقول ، فاعزب عنى ، واذهب لطيتك ، ولا تزد بهذا القول آلامى وأحزانى ، فإنك لا تحسن التمليق والمداهنة فى هذا المستنقع السحيق ! »

---

(١) يعنى : هل أردت أن تجعل تكفيرى عن خيانتى أشد قسوة من تلك الخيانة نفسها التى اقترفتها فى « منتابرتى » ؟

فأمسكت بجلدة عنقه ، وصحت فيه قائلاً : « لا معدى لك عن إخبارى باسمك ، وإلا انتزعت من جلدة رأسك ما فيها من شعرات ! » فقال : « ما دمت تنزع شعرى ، فافعل ، وأيقن أننى لن أخبرك بشىء من أمرى ، ولو أهويت على رأسى بألف ضربة » .

وكنت قد لففت شعره على يدى ، وانتزعت منه أكثر من خصلة ، وهو يعوى مُصَيِّحًا وقد خفض من عينيه ونكس من رأسه حتى لا أتبينه . فصاح به مذنب آخر: « ماذا أصابك « يا بوكا[١] . » ألا تكف عن الصياح ؟ ما كفاك صرير أسنانك ، حتى تزعجنا بصوتك المنكر ، فأى شيطان مسك ؟ »

فقلت له وقد عرفت حقيقة أمره : « لا حاجـــة بى إلى حديثك أيها الخبيث الخائن ، وإنى مذيع عنك — فى الدار الأولى — ما عرفته من أنبائك فى هذه الجحيم » فقال : « اذهب حيث شئت ، وارو من أنبائى ما أردت ، ولكن لا تنس أن تسجل عار هذا الذى كشف لك أمرى ، وأفضى إليك باسمى ، متى عدت إلى مقرك الأول ، انظر إليه تجده محزوناً يبكى نقود الفرنسيين التى أخذها منهم جزاء على خيانته ، فحدِّث بنى الدُّنيا أنك شاهدت فى درك الجحيم « دويرا[٢] » يعذب فى أطباق الجليد . وإذا شئتَ غيره ، فهاك « بِكيِيرا[٣] » الذى قطع أهل « فيرنزة » حلقه جزاء له على فعلته . »

ثم ذكر أسماء جمهرة من الخونة ، وسرنا فى طريقنا حتى رأينا شبحين يطلان من ثقب واحد وقد لاح الرأسان بحيث يخيل لرائيهما كأن أحدهمـــا قبعة للآخر ، فقد رأيت رأس أحدهما فوق رأس الآخر وهو يقضمه فى شره كما يقضم الجائع الخبز وينشب مخالبه فى مكان التقاء المخ والقفا » فذكرت قصة « تيديه » الذى لم يقنع بافتراس « ميناليب[٤] » بل جره الغضب إلى أن يفعل بجمجمة خصمه مثل ما يفعل هذا الغاضب الحانق .

---

(١) « بوكشا دجلى أباتى » كان من أهل فيرنزة ، وقد قطع فى معركة « منتابرتى » ذراع حامل العلم ، وخانه بذلك وهو من حزبه وشيعته ، ولم يأل جهداً فى هزيمة ذلك الحزب الذى انتسب له .

(٢) يعنى « بيوزو دى دويرا » وهو سيد كريمونى ، خان جبليين لمبارديا ليحصل على مال « جونى دى منفور » الرئيس الفرنسى جزاء ما اقترفه من خيانة وإثم . (٣) كان « تيشودى بكييرا » كردنالا قد بعثه البابا « اسكندر الرابع إلى فيرنزة ، وقد ثار عليه الشعب وفتك به ، لاشتباههم فى أنه سيسلم المدينة للجبليين ، وقد صلبوه عقوبة له على ذلك . (٤) بعد أن قتل « تيديه الكالودونى » خصمه « ميناليب الطيبى » دفعه الغضب والحنق إلى حد بعيد ، فأنشأ يأكل جمجمته من شدة غيظه منه .

فقلت له : « خبرنى أيها الهائج الذى جره الغضب إلى الوحشية ، أفصح لى عن سبب هذا الهياج ومصدر هذه الثورة الجامحة الفاتكة ؟ لعلى أتبين لك عذراً فيما تفعل ، وأتعرّف مبعث شكايتك من خَصمك ، ثم خبرنى أى خطيئة اقترفتَ فى الدار العاجلة ، فحق عليك هذا العقاب ؟ »

فرفع الخاطئ فاه عن رأس فريسته ، ومسحه فى شعر ذلك الرأس الذى أكل مؤخرته ، ثم التفت إلىّ قائلاً : « أتريد أن تعيد إلى ذهنى تلك الذكريات الأليمة المحزنة ، فتجدد فى نفسى ذلك الألم المفرط الذى ينقبض له قلبى ، وتزهق منه روحى ؟ على أن عزائى عن هذا الألم القاتل أن حديثى عن هذا الخائن سيفضح لك من أمره ويكشف لك من مخازيه ، ما يبرر تمثيلى به . ولايهولنك أننى أتكلم وأبكى فى وقت واحد ، فإن الذكريات جد مؤلمة : لستُ أعرف من أنت ، وما أدرى كيف قدِمْتَ علينا فى هذا الدرك من الجحيم ؟ ولكن يبدو لى من جرسك ولهجتك أنك من أهل فيرنزة ، فاعلم أننى كنت — فى الدار العاجلة — الكونت « أجْلينو » أما هذا الدنئ فهو « روچيرى » رئيس الأساقفة ، وإنى لقاص عليك السبب الذى جمع بيننا فى هذا الدرك السحيق من النار . لقد أمكنته الفرصة منى ، وتم له القبض على ، لفرط ثقتى به ، وأبت له خيانته وخبث طويته إلا أن يتنكر لى ، أعظم ما أكون ولاء له واستيثاقاً منه ، ثم أنفذ فىّ قضاءه ، وتم هلاكى على يديه كما عرفتم ذلك فى الحياة الدنيا ، ولكن الشىء الذى لم تعرفوه ، والأمر الذى خفيت عنكم تفاصيله هو : كيف أمعن فى القسوة ، وإلى أى مدى أساء إلىّ هذا الرجل : لقد حبسنى فى « حصن الجوع[1] » وإنما أطلقتم عليه هذا اللقب لأننى هلكت وأولادى فيـه جوعا ، ولقد أبصرت القمر — من خلال نافذة غرفتى الصغيرة — عدة أهلة متعاقبة ، فعلمت أن قد مضى علىّ فى سجنى

(١) كان الكنت « أجلينى دلا جيرار دسكا » أحد نبلاء « بـيز » وقد استولى على هذه المدينة بوسيلة خائنة ، وذات يوم اختلف مع شريكه فى خيانته الاسقف (روجيه) وكان صفيه المجتبى ، فكاد له الأسقف حتى أوقعه فى الفخ وقبض عليه وعلى ولديه ، واثنين من أولاد شقيقه ، وبعد أن لبثوا فى السجن سبعة أشهر فى أحد بروج (بـيز) ، صدر أمر الأسقف (روجيه) ذا صباح بالقاء مفاتيح البرج فى (لارنو) فتم له ما أراد ، وهلـكوا جوعا .

عدة أشهر . ثم رأيت حلما راعباً، هتك من الغيب ستره[١]، وما كدت أستيقظ قبيل الصبح حتى سمعت أولادى يبكون فى رقادهم ، ويطلبون منى خبزاً . فاسمع قصتى فإنك إن لم تتفجع وتنتحب مما أفضى به إليك ، فلن يثيرك بعد ذلك شىء من مبكيات الحياة وفجائع الناس .

لقد استيقظنا — كما حدثتك — ثم دنت الساعة التى ألِفوا أن يقدموا لنا الطعام فيها ، وقد ساورنا الشك فى ذلك اليوم ، لأن كل واحد منـــا قد رأى تلك الرؤيا عينها ، ثم صح ما توقعناه ، وسمعنا صرير الباب الخارجى أعنى باب البرج الراهب وهو يغلق علينا ، فنظرت إلى وجوه صغارى دون أن أنبس ببنت شفة ، وتحجرت الدموع فى عينى ، فلم أذرف دمعة واحدة ، فقد جل مصابى عن البكاء ، واستولى على الألم والانزعاج فى أعماق نفسى . أما أولادى فقد استسلموا للبكاء ، ثم قال لى « أنسلمو » — ولدى الصغير — : « ما بالك يا أبتاه تنظر إلينا هذه النظرات الحائرة المزعجة؟ » فلم أجبه بكلمة واحدة ، ولم أذرف دمعة واحدة .

ثم طلعت شمس اليوم التالى على الكون ، ونفذ منها شعاع ضئيل إلى سجننا الموحش ، وتبينت وجهى على قسمات تلك الوجوه الأربعة ، فعضضت يدى متألماً ، فحسب أولادى أننى أهم بأكلها من السغب ، فهبوا — من فورهم — واقفين ، ثم قالوا : « ألا ليتك تأكل من لحمنا ، لتطفئ سورة الجوع ، فإنك أنت قد كسوتنا هذه اللحوم التاعسة ، فهى ملك لك ، لأنك واهبها ، ولك أن تنزعها متى شئت . » فلجأت الى السكينة ، واعتصمت بالهدوء ، حتى لا أزيدهم ألماً على آلامهم ، وظللنا صامتين طوال ذلك اليوم واليوم الذى وليه . فتبا للحياة ، وواهًا من قسوة العالم الأرضى ، فما أدرى لماذا لا تنشق الأرض فتهوى بمن عليها إلى جوفها ، قبل أن أرى مصارع أبنائى دون أن أملك لمناياهم دفعاً .

ولما جاء اليوم الرابع ، جاء ولدى « جادو » وانبطح على الأرض عند قدمى ، ثم قال وهو خائر القوى ، واهن العزم : « هل من سبيل إلى معونتك يا أبتاه ؟ »

ثم فاضت روحه صاعدة إلى السماء . ثم شهدت مصارع الثلاثة الباقين واحداً فى أثر الآخر فى اليومين الخامس والسادس ، فَغَشِىَ بصرى عليهم من فرط الأسى والحزن . ولبِثْتُ يومين

(١) هنا يقص الكنت (أجلينى) على الشاعر (دانتى) حلمه الذى رأى فيه عدوه الأسقف (روجيه) وهو يستولى عليه وعلى أولاده ، وقد تمثل له فى الحلم على هيئة ذئب وتمثل ولديه وولدى شقيقه على هيئة ذئاب صغيرة ، وقد أغرى بهم الأسقف جمهرة من الكلاب تنهشهم وتمزق لحومهم .

أناديهم — بعد موتهم — فلا أسمع لندائى جواباً ولا أحس لهم نأمة ، ثم ألحّ علىّ الجوع ، وبرّح بى الظمأ ، فأسلمت روحى بعد عذاب أليم . »

*
* *

وما كاد « الكونت » ينتهى من حديثه حتى احتدمت عيناه غيظاً ، واندفع إلى الجمجمة التاعسة يمسك بها بين يديه ، ويغرز فيها أنيابه حتى تبلغ منها العظام ، وقد لاحت أسنانه قوية محددة كأنما هى أنياب كلب ، ثم صاح يقول لاعناً مُحْنَقاً :

« واهٍ منك يا « پيزى » ! واخجلتاه لسكانك أيهذا البلد الجميل الذى يرن — فى أنحائه وأفيائه — الْجَرْس الإيطالىُّ ، ولعنة الله على أهليك وجيرتك ما داموا متباطئين فى عقابك على ما أسلفتِ إلىّ من قسوة وأبلغت إلىّ من عقوق وكفران ! ألا ليتَ جبلَىْ : « كَبْرِيا » و « جُرجُونا[1] » ينطبقان فيقفلان باب نهر « الأرنو » — عند مصبه — ليطغى عليك ماؤه ، فيغرق كل من فيك ، ويهلك أبناءك وساكنيك ، لأن الكونت « أُجْلينو » إذا كان قد أسلف خيانة إليك ، واشتهر عنه أنه قد باع حصونك وأسلم قلاعك ، لقد كان وحده جديراً بالعقاب . أما بنوه الأبرياء فأى ذنب أسلفوه إليك حتى استحقوا ذلك القصاص الراعب المُفَزِّع ؟ وما بال طفولتهم الطاهرة لم تشفع لهم عندك ؟ »

*
* *

قال « دانتى » :

ثم انتقلنا إلى المِنْطَقَةِ « البَطْلَمِيَّة[2] » ، حيث تتجمد عَبرات المذنبين وترتدّ إلى عيونهم ، فتضاعف من آلامهم .

وقد حادثت — من بينهم — « البريجو[3] » ، فقال لى : « إنه يلقى من أهوال الجحيم ما يلقى جزاء له على غدره بخصميه ، كما حدثنى أن جسده لا يزال حيا فى الدار الأولى حيث يحل فيه أحد الأبالسة حتى يحين يومه ، فيموت . أما روحه فإنه انتقل — قبل موت الجسد — إلى هذا الدرك من النار ، ليعجّل له العذاب .

---

(١) جبلان قريبان من مدينة « بيزى » ، الواقعة على نهر « أرنو » . (٢) نسبة الى بطلميوس حاكم « أريحا » ، وقد غدر بضيفه وولدى ضيفه ، وقتلهم — بعد أن أكلوا طعامه — تقتيلا ، ومزق أجسادهم بلا رحمة (٣) هو راهب معروف بقتل خصمين له بعد أن احتال على دعوتهما الى الطعام فى بيته .

الفصل الثامن

ثم انتهى بالشاعرين « دانتى وفرچيل » المطاف إلى « منطقة يَهوذا » وهى آخر منطقة فى أقصى درك سحيق من دركات الجحيم ، وقد غطيت كلها بالجليد الصفيق بحيث يكتنف المعذبين فيها من العصاة ، وقد خصت بعقاب الخونة الذين خاسوا بعهودهم ، وآثروا أن يغدروا بمن أحسنوا إليهم ، وقد حل فى هذه المنطقة — واسمها مدينة الويل[1] — الخاطئ الأكبر : « إبليس »

قال « دانتى » : وقد أوصانى مرشدى بالشجاعة والصبر حين اقتربنا من ذلك المكان ، ولا تسلنى — أيها القارئ — عما أحسسته من الزمهرير ، فانعقد لسانى من الهول ، وجمد الدم فى عروقى من فرط الفزع ، فإن كل بيان — مهما علا — ليعجز عن وصف شىء منه ، وإن كل تعبير — مهما دق — تافه حقير إذا تصدى لوصف هذا الهول . لقد كنت — حينئذ — فى منزل بين الحياة والموت ، وحسبك بمن حرم الموت والحياة جميعاً ، ومثل لنفسك — ما دمت على شىء من التفكير ، وما دامت لك مُسكة من عقل — كيف تكون حالى فى ذلك المأزق الحرج ؟

لقد رأيت امبراطور مملكة الويل قد غاص فى الجليد إلى منتصف صدره ، ثم ظهر — من الجليد — ما بقى من جسمه بعد ذلك . ولئن كان البون الشاسع بينى وبين من وصفت — للقارئ — من العمالقة ، يحول دون الموازنة بيننا . لقد كان الفرق بين أولئك المردة من العمالقة و بين ذراعى هذا الخاطئ الأكبر ، بحيث لا تجوز النسبة بينهم و بينه ، ولا يدنو قياسهم بالنسبة إلى تين الذراعين .

ولقد كان هذا الخاطئ أول ما كان جميلاً ، فلما حقت عليه اللعنة — بعد أن ثار على مشيئة خالقه — أصبح راعب الهيئة ، مُفزّع الخلقة ، جديراً بأن تصدر عنه الكوارث والنكبات ، ولشدّ ما استولت علىّ الدهشة حين رأيته يلوح لعينىّ وفى رأسه وجوه ثلاثة ، الوجه الأول الأمامىّ أحمر ، والوجهان الآخران — وقد ركبا على جانبى الرأس ، وثبتّا على كتفيه —

---

(١) أطلق عليها (دانتى) اسم (ديتيه) وقال انها عاصمة الجحيم ، وقد آثرنا هذه التسمية العربية لها

أحدهما أبيض ممزوج بالصفرة ، والثانى أسود ، شبيه بوجوه قاطنى منابع النيل(١) ، وقد اجتمعت هذه الثلاثة فى أعلا الرأس ، وبرز — على كل وجه منها — جناحان كبيران ، كأجنحة الطيور ، وقد خيلت لرائيها أنها قلاع سفائن هائلة لم أر — فى حياتى — مثلها ضخامة وعظماً . ولم يكن فى تلك الأجنحة ريش ، فقد كانت أشبه شىء بأجنحة الخفافيش ، رقة وشكلا وتركيبا ، وكان روحه يديرها ، فتنبعث منها تيارات هوائية ثلاثة غاية فى الشدة ، فيجمد منها نهر الجميم(٢) ، وكان ذلك الروح الخاطئ يبكى بأعينه الست فتنحدر عبراته الدامية حتى تصل إلى أذقانه الثلاثة مختلطة بما يلقاها من دماء مزبدة مفزّعة . وقد رأيت أنيابه المحدّدة الكبيرة الجرم وهى بارزة من أوجهه الثلاثة ، كما برزت أظفاره كأنها المخالب ، ليفترس بها جميعاً من أوقعه سوء طالعه فى قبضته . وقد رأيت فى كل فم من أفواهه الثلاثة ، عاصياً من الأشقياء ينشب « إبليس » فيه أنيابه القوية بعد أن يمزّق جسمه بأظافيره ، فيمزق جلده الذى يغطى السلسلة الفقرية ، ثم يسحقه بماضغيه وهما كالطاحونة .

وقد رأينا فى أحد أفواهه الثلاثة « يهودا الأسخريوطى(٣) » وقد اختفى رأسه بين أنياب « إبليس » وظهرت ساقاه وهما تتحركان فى الخارج مما يكابده من الآلام .

ورأينا فى الفم الثانى روح « بروتس » وهو يعذب أشد العذاب ، دون أن ينبس ببنت شفة .

كما رأينا فى الفم الثالث « كاسيوس(٤) » الضخم .

وكان الليل — حينئذ — قد أرخى سدوله فرأينا مغادرة الجحيم ، بعد أن رأينا كل شىء .

ختـــام

---

(١) يعنى أهل (أثيوبيا) .

(٢) أطلق (دانتى) على هذا النهر : اسم (الدوكيت) وهو نهر تصفه الأساطير بأنه نهر الجحيم وقد أطلقنا عليه اسم الحميم ، وفى القرآن فى صفة أهل النار : « لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، إلا حميماً وغساقاً » وفيه : « ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم » .

(٣) هو تلميذ المسيح الذى خان عهده ، وباعه لأعدائه لقاء دراهم معدودة .

(٤) بروتس وكاسيوس : هما قاتلا يوليوس قيصر ومؤلبا جموع الرومان ضده .

دراسات النقاد

كان من صنيعنا فى الطبعة الثانية لرسالة الغفران أننا ذيلناها بجملة صالحة مما كتب الباحثون فى أدب أبى العلاء ، وعقيدته ، وفلسفته ، وخصائصه فى نظمه ونثره . فلما صحت العزيمة على إخراج هذه الطبعة ، كان فى النية والأمنية أن نفتح الباب على مصراعيه لكل ما جرت به الأقلام حديثاً عن أبى العلاء ، ودرساً له فى غفرانه . فلقد تفتحت له الأذهان فى هذه الأيام ، وعرف قراء الأدب له مكانته الجدير بها . فأردنا أن تكون هذه الطبعة من الكتاب «مجموعة علائية» تبلغ الغاية ، وتشتمل على الممتع المعجب من آرائه فى الحياة واللغة والأدب . كما تشتمل على الصفوة من آراء النقاد فى صاحب تلك الآراء . ولكننا لم نكد نبدأ فى إنفاذ ما اعتزمناه ، حتى هالنا الأمر ، إذ وجدنا هذه البحوث والدراسات تخرج — إن خرجت — مئين أوراقاً ، فليس يسعها إلا سفر ضخم أو سفران . على حين أننا لم نحبس عليها أكثر من صفحات معدودة ، فلقد آثرنا أن نفسح المجال للنصوص من رسائل أبى العلاء وما يتصل بها ، مما كان مخطوطاً أو فى حكم المخطوط ، فذلك أنفع للقارئ ، وأحق بإيثاره . إلا أننا مع هذا لم نجد بدًّا من نشر أمثلة قليلة مما أخرج الكتاب المعاصرون ، دون أن نحمل من تبعة ما قيل من الآراء شيئاً ، فنحن إنما ننشرها لأصحابها ، لا نبالى أن تكون موافقة لآرائنا أو مخالفة لها . ونفتتح ذلك بترجمة لابن القارح بقلم أحد معاصريه ، وترجمة لأبى العلاء كنا كتبناها من قبل ونشرناها فى الطبعتين الأولى والثانية :

ترجمة ابن القارح (١)

هو شيخ من أهل الأدب شاهدناه ببغداد راوية للأخبار ، وحافظاً لقطعة كبيرة من اللغة والأشعار ، قؤوماً بالنحو ، وكان ممن خدم أبا على الفارسى فى داره — وهو صبى ، ثم لازمه وقرأ عليه — على زعمه — جميع كتبه وسماعاته ، وكانت معيشته التعليم بالشام ومصر .

وكان يحكى أنه كان مؤدِّباً لأبى القاسم المغربى الذى وزّر ببغداد — لقّاه الله سيء أفعاله — كذا قال ، وله فيه هجو كثير — وكان يذمه و يعدد معايبه

(١) بقلم « ابن عبد الرحيم » أحد معاصرى ابن القارح وقد ذكر هذه الرواية ياقوت فى معجمه

وشعره يجرى مجرى شعر المعلمين ، قليل الحلاوة ، خالياً من الطلاوة ، وكان آخر عهدى به بتكريت فى سنة ٤٦١ ، فإنا كنا مقيمين بها واجتاز بنا ، وأقام عندنا مدة ، ثم توجه إلى الموصل ، و بلغتنى وفاته من بعد . وكان يذكر أن مولده بحلب سنة ٣٥١ ولم يتزوج ولا أعقب ، وجميع ما أورده من شعره مما أنشدنيه لنفسه[١] .

وسئل يوماً أن يجيز قول الشاعر :

لعل الذى تخشاه يوماً — به تنجو ويأتيك ما ترجوه من حيث لا ترجو

فقال :

فثق بحكيم لا مرد لحكمه فما لك فى المقدور دخل ولا خرج

وحدثنى ، قال :

« كنت أؤدِّب ولدى الحسين بن جوهر القائد بمصر ، وكان مختصين بالحاكم وآنسين به ، فعملت قصيدة وسألت المسمى منهما جعفراً — وكان من أحسن الناس وجهاً ، و يقال إن الحاكم كان يميل إليه — أن يوصلها ، ففعل وعرضها عليه ، فقال : « من هذا ؟ » فقال : « مؤدِّبى »

قال : « يعطى ألف دينار »

واتفق أن المعروف بابن مقشر الطبيب كان حاضراً ، فقال : « لا تثقلوا على خزائن أمير المؤمنين ، يكفيه النصف » فأعطيت خمسمائة دينار ، وحدثنى ابن جوهر بالحديث .

وكانت القصيدة على وزن منهوكة أبى نواس أقول فيها :

إن الزمان قد نصر بالحاكم الملك الأغر

وهى طويلة[٢] ، واتفق أن الطبيب المذكور لحقته بعد هذا بأيام شقفة — وهى التى

---

(١) وذكر له ابن عبد الرحيم نخبة من شعره ، لا نرى التطويل بذكرها ويمكن الرجوع اليها فى الجزء الخامس من معجم الادباء لياقوت من ص ٤٢٥ — ٤٢٧ (٢) ومنها — وهى من أدب الصنعة : —

فى كفه عضب ذكر فقد عدا على القصر
من غرة على الغرر يمضى كما يمضى القدر
فى سرعة الطرف نظر أو السحاب المنهمر
بادر انفاق البدر بدراً — إذا لاح — بهر

تسمى « التراقى » ويقال لها « قلة النسر » أيضاً فمات منها ، وكان نصرانياً ، فقلت :

لما غدا يستخف رَضوى	تِيهاً وكِبراً لجحد ربه

أصماهُ صرف الرَّدَى ، بسهم	عاجَلهُ قبل وقت نحبه

بشقفــةٍ بين مَنكبيهِ	رشاؤها فى قليب قلبه »	اﻫ.

☆
☆ ☆

ذلك ما قاله ابن عبد الرحيم ، ولنا أن نقول : إن هذا شعر مملوء بالصنعة ، لا روح فيه ، وهى سِمة ظاهرة فى كل ما قرأناه من شعر ابن القارح إذا استثنينا القليل منه ، كإجازته قول الشاعر :

لعـل الذى تخشاه يوماً به تنجو	ويأتيك ما ترجوه من حيث لا ترجو

وليس إعجابنا بذلك كبيراً .

وموجَز القول أن ابن القارح ذكى — لا أكثر ولا أقل ، ولكن ذكاءه سطحى يشركه فيه الكثيرون ، فهو ليس مفكراً عميقاً ولا هو واسع الاطلاع ، ولكنه ثرثار طيب القلب ، وربما كان أوجز ما يقال فيه أنه معلم صالح للوظيفة التى مارسها ، وهى تأديب أولاد الملوك فى عصره ، وهذه صناعة لا تتطلب من الذكاء أكثر مما نراه فى ابن القارح .

موجز ترجمة أبى العلاء

(١) اسمه : أحمد ، وكنيته : أبو العلاء واسم أبيه ، « عبد الله بن سليمان المعرى » واسم بلد : معرة النعمان ، وهى قرية صغيرة فى شمال سوريا بين « حلب » و « حمص »

(٢) ولد قبل مغيب شمس يوم الجمعة وهو الثامن والعشرون من ربيـع الأول سنة ثلاث وستين وثلثمائة هجرية — وهى توافق سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة للمسيح

(٣) وفى السنة الرابعة من حياته (٣٦٧ ﻫ) أصيب بالجدرى ، فكاد يودى بحياته ، ولم يغادره حتى ذهب بعينه اليسرى وغشى اليمنى بالبياض ، ثم بالعمى ، وبهذه الحادثة تمت أول نكبة أعدها له الزمن ، فكان لها فى حياته أكبر الأثر

(٤) ذهب إلى الدراسة فى حلب بعد أن أتم الدراسة على أبيه — وكانت حلب فى زمنه مكتظة بأفاضل العلماء ورجال الأدب ، ممن دعاهم سيف الدولة فى زمنه ، وأغدق عليهم النعم ، فملؤا حلب عِلما ، فى زمنه و بعد موته ، فانتفع بعلمهم أبو العلاء

(٥) ثم سافر إلى « إنطاكية » ووعى ما شاء من نفائس الكتب التى وجدها فى مكتبتها الشهيرة ، وكان بها كثير من الروم ، الذين شاهد أبو العلاء صولتهم واعتزازهم بها

(٦) ثم سافر إلى « طرابلس » الشام ، ومر باللاذقية فى طريقه ، فنزل بدير فيها ، وأخذ — عن راهب فيه — كان دارسا لعلوم الفلسفة وغيرها كثيراً من الآراء ، واشتدت الصلة بين أبى العلاء و بين النصارى واليهود ، حتى تمكن من درس دينهم ومناقشتهم فيه ، ثم عاد إلى معرة النعمان

(٧) ومات أبوه وهو فى الرابعة عشرة من عمره سنة ٣٧٧ هـ فرثاه بنونيته المعروفة فى سقط الزند ، وهى تمثل شعره فى صباه

(٨) ثم رحل إلى « بغداد » سنة ٣٩٨ وذاع بها صيته ، واطلع على مكاتبها الشهيرة ، واشترك فى المجامع العلمية والأدبية العامة والخاصة

(٩) ثم دعاه إلى مغادرة « بغداد » مرض أُمه وفقره — مع أنفته من التكسب بشعره وأدبه — فتركها فى رمضان سنة ٤٠٠ هـ ، واحتفل بتوديعه أهل « بغداد » وحزنوا على فراقه أشد الحزن

(١٠) وإنه لفى طريقه إلى « المعرة » إذ وافاه نعى أمه ، فتمت نقمته على الدنيا، وكانت تلك النكبات الفادحة التى لقيها فى حياته ، أكبر باعث له على الأخذ بقانونه الصارم الذى سنه لنفسه ، وهو اعتزال الناس

(١١) وقد حاول تنفيذ هـذا القانون ، فلم يوفق إلى ذلك ، لالتفاف الطلاب حوله ، و إقبال الكثيرين من المعجبين به على زيارته ، ووفودهم إليه من بلاد نائية ليتلقوا عنه العلم

(١٢) وكان له وقف يحصل منه كل عام على ثلاثين ديناراً يعطى خادمه نصفها و ينفق على نفسه النصف الآخر ، وكان فقيراً متقشفاً زاهداً لا يمدح أحداً طمعاً فى مال أو جاه ؛ يأكل الشعير و يلبس الصوف الغليظ

(١٣) وهو أول من خط للشعر العربى طريقاً جدية فلسفية خاصة به ، وملأ شعره بأسمى المبادىء الاجتماعية والأدبيـة العالمية ، التى انفرد بها — دون سواه — من بين شعراء العربية جميعاً

(١٤) نيّف أبو العلاء على الثمانين سـنة ، ثم أودت به علة لازمته أياماً ثلاثة ، وكان موته فى اليوم العاشر من ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربعمائة

مؤلفات أبى العلاء

أما مؤلفاته فعديدة قيمة، ولكن أكثرها قد فقد لسوء الحظ ولم يبق لنا منها إلا سقط الزند، ويحتوى شعره فى عهد الشباب — وليس فيـه إلا بضع قصائد بلغت الذروة فى الإجادة ، أما الباقى فأكثره متكلف سخيف أفسدته المبالغات والتقليد ، وقد اعترف بذلك فى مقدمته. وكتاب اللزوميات ، ويعد فى نظرنا أنفس ديوان عربى ، ويشمل جمهور الفلسفة العلائية الرائعة ، رغم ذلك القيد الثقيل الذى أخذ به نفسه ، وهو مضاعفة القافية ، وديوان الدرعيات ، وهو خاص بوصف الدروع ، ورسائله التى أثبتنا طائفة منها فى هذه المجموعة ، ورسالة الغفران ، والجزء الأول من الفصول والغايات ، وكتاب « الأيك والغصون » الذى نيفت أجزاؤه على المائة ، وقد فقد كله ، ولا يعلم إلا الله وحده مقدار الخسارة العظيمة ، بل النكبة الفادحة التى ألمت بالأدب العربى من جراء فقد هذا الكتاب الذى أخرجه ذلك الرأس المفكر العظيم ، ولسنا نرتاب فيما قالوه عن محتوياته ، فإن الذى يجيب صاحباً له برسالة كرسالة الغفران ، ويقول فى مقدمة لزومياته : « كان من سوالف الأقضية أنى أنشأت أبنية أوراق توخيت فيها صدق الكلمة الخ »

إن رجلاً يفعل ذلك ، لا نستبعد عليه — إذا قصد إلى التأليف — أن يخرج للعالم مثل ذلك الكتاب الجليل الشأن !

رسالة الغفران (١)

ولعل أمتع ما كتبه أبو العلاء هو « رسالة الغفران » التى تعد بحق أنفس أثر له — بعد ديوان اللزوميات .

و إنما أطلق عليها اسم « الغفران » لأن الفكرة الرئيسية التى دفعته إلى إنشائها — وقت إجابته على رسالة ابن القارح — هى مناقشة من فازوا بالمغفرة ، ومن حرموها فى الدار الآخرة ؛ ومما يسترعى انتباهك فيها ، سؤاله — وكثيراً ما كان يوجهه إلى الفريق الناجى : « بم غفر لك ؟ » فيجيبه كل واحد منهم بما نجاه من العذاب ، و يشرح له السبب فى دخوله الفردوس ، و يصف له كيف يتمتع به ، وكيف ينعم ببدائعه .

وسؤاله الذى كان يوجهه إلى الفريق الثانى — وهو من حقت عليه اللعنة ، وكتب عليه الشقاء — : « لم لم يغفر لك قولك كذا ؟ » فيجيبه أكثرهم عن السبب ، و يشرحون له ما يقاسون من ألم وعذاب ، و يصمت بعضهم لاشتغالهم بما هم فيه من نكال وغصص .

وهكذا ألم بطائفة من الحوادث والأسباب ، ومزج الرواية بالدعابة ، والجد بالفكاهة ، والأدب والفلسفة بالنقد الصائب والسخرية الدقيقة .

*
* *

وليس هذا الخيال ، أو تلك الفكرة الفنية التى انتظمت الكتاب فأفردته من بين الآثار الأدبية التى كتب لها الخلود — مما يستغرب من مثـــل أبى العلاء ذى العقل الراجح ، والبصيرة النفاذة ، والخيال الواسع .

نعم وليس تمثل البعث والنشور ، ونعيم الفردوس ، وتعذيب الأشقياء فى الجحيم من الأفكار الطارئة التى سببتها رسالة « ابن القـارح » أو نبهتها فيه ، ولكنها فكرة متأصلة فى قرارة نفسه ، نبتت ونمت وتوشجت أصولها ونضج ثمرها فى قلبه نحو نصف قرن ،

---

(١) كتب هذه الرسالة فى سنة ٤٢٤ ﻫ كما مر بك فى الجزء الثالث — وهذا من استنتاجنا الخاص — وقد بعث بها إلى على بن منصور الحلبى ، الملقب بدوخلة ، والمعروف بابن القارح ، رداً على رسالة كتبها لأبى العلاء ، وألح عليه فى ختامها أن يشرفه بالرد عليها .

ورسالة ابن القارح طويلة تحتوى أخبار الكثير من العلماء والأدباء هذا إلى ما اكتظت به من عبارات المدح والاطراء التى صاغها فى شكر أبى العلاء . وقد مرت بك فى أول هذا الكتاب

فاختلطت بلحمه ، وسيطت بدمه ، وهيمنت على مشاعره منذ حداثة نشأته — حتى أصبحت — من أهم مصادر الفلسفة العلائية .

ولعل أول محاولة رأيناها له — فى اكتناه البعث والتردد فى قبول الروايات والأخبار المتناقلة ، قوله فى مستهل حياته الأدبية ، وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، فى نونيته التى رثى بها أباه ، والتى يقول فيها :

« فياليت شعرى ! هل يخف وقاره إذا صار أحد فى القيامة كالعهن ؟
وهل يرد الحوض الروى — مبادراً مع الناس ؟ أم يأبى الزحام ، فيستأنى[(1)] »

*
* *

وإنك لتلمح الشك يساور نفسه ، التى تتطلع إلى اليقين ، فلا تظفر به ، وتتلمس الحقيقة فلا تصل إليها ، فترجع يائسة حائرة — بعد أن وجدت كل معين ناضباً ، وكل ماء سراباً ، وإنك لتجد حيرة من قتل الفكرة بحثاً وقلبها على كل وجه من وجوهها ، وناحية من نواحيها ، فلم يظفر بطائل ، وزاد تفاقم الشك فى نفسه الفتية ، فأصبح يتلمس ما يسد به ذلك الفراغ الذى كان يملؤه اليقين فلا يجده . كل ذلك نتمثله واضحاً ، فى قوله من تلك القصيدة :

جهلنا ، فلم نعلم — على الحرص — ما الذى يراد بنا ، والعلم لله ذى المن
إذا غيب المرء ، استسر حديثه ولم تخبر الأفكار عنه بما يغنى
تضل العقول الهبرزيات رشدها ولم يسلم الرأى القوى من الأفن

---

(١) الا ترى اليه كيف لاءم فى هذين البيتين بين روعة الموقف ووقار أبيه ، وكيف تردد فى أن هذا اليوم العصيب الذى تتبدل فيه طبائع الناس من الرزانة إلى الخفة ، ومن العطف على سواهم إلى الاهتمام بانفسهم لشدة الهول والفزع ؛ فيصد المرء عن أبيه وأمه وأخيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه ، أنظر إليه كيف ارتاب فى أن هذا اليوم المفزع الهائل مبدل من تؤدة أبيه ورزانته التى عرفها فيه

انظر إليه كيف لاءم بين هاتين الفكرتين المتنافرتين وكيف جمع بين تمثيل الهول والرعب ، وتمثيل الرزانة والتؤدة !

وأحب أن أنبه إلى وصف يوم الموقف فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ، وكيف يتدافع الناس إلى ورود الحوض ، ليطفئوا غلة العطش الذى أهلكهم ، وكيف يذودهم الواقفون على الحوض ، ليمنعوهم من الوصول إليه !

. . . .

طلبت يقيناً من جهينـــة عنهم ولم تخبريني يا جهين سوى الظن
فإن تعهـــديني لا أزال مسائلاً فإني لم أعط الصـحيح ، فأستغني

وهكذا ظل أمر البعث والنشور ، والجنة والنار ، من أكبر شواغل هذا العقل الممحص الكبير ، فاكتظت كتاباته وأشعاره بالإشارة إلى ذلك ولم تكد تمر به فرصة ، دون أن يشير إليه إشارة قريبة أو بعيدة ، واضحة أو خفية ، هازئة أو جادة ، ساخرة أو مقررة (١)

---

(١) شعر أبي العلاء في البعث

نكتفي باختيار النبذة التالية من أشعاره الكثيرة التي تناول فيها هـــذه الفكرة ، وهي — على ما في بعضها من تناقض ظاهري — لا تـكاد تختلف في جوهرها :

زعموا أنني سـأرجع شرخا كيف لي ! كيف لي ! وذاك التماسي
وأزور الجنـــان أحبر فيها بعد طول الهمود في الأرماس !

***

هي النفس تهوى الرحب في كل منزل فكيف بها ، إن ضاق في الأرض قبرها
أتتني أنبـاء كثير شجونها لهـا طرق ، أعيا على الناس سبرها
هفا — دونها — قس النصارى ، وموبذ الـ مجوس ؛ وديان اليهود ، وحبرها
وخطوا أحاديثاً لهم في صحائف لقد ضاعت الأوراق فيها وحبرها
تخالفت الأشيـاء في عقب الردى وتلك بحـار ليس يدرك عبرها

***

أما القيامة ، فالتنازع شـائع فيهـا ، وما لخبيئها إصحـار
والجهل أغلب — غير علم أننا نفنى ، ويبقى الواحد القهـار

***

وأعجب ما نخشـاه دعوة هاتف : « أتيتم ، فهبوا يا نيام ! إلى الحشر »
فيـا ليتنا عشنا حياة بلا ردى — يد الدهر — أو متنا مماتا بلا نشر

***

لو كان جسمك متروكا بهيئته — بعد التلاف — طمعنا في تلافيه
كالدن ! عطل من راح تكون به — ولم يحطم — فعادت مرة فيـه
لـكنه صار أجزاء مقســمة ثم استمر هبـاء في سوافيـه

ولم يكن يرى حلا لهذه المشكلة المستعصية الحل ، إلا وسيلة واحدة مستحيلة التحقيق ،

*
* *

ويذكر أن فى الأيام يوماً يقوم من التراب مغيبوه
وما يحدث ! فإنا آل عصر قليل فى المعاشر منجبوه

*
* *

ويقال : إن الله — جل جلاله — يوما ! يطهر أرضه بالنار »

*
* *

من للدفين بأن يفرج لحده عنه ! فينهض — وهو أشعث أغبر
والدهر يقدم ، والمعاشر تنقضى والعجز تصديق بمين يخبر
زعم الفلاسفة الذين تنطسوا أن المنية كسرها لا يجبر
قالوا : « وآدم مثل أوبر؛ والورى كبناته ، جهل امرؤ ما أوبر ؟ »
كل الذى تحكون عن مولاكم كذب أتاكم عن يهود يحبر
رامت به الأحبار نيل معيشة فى الدهر ، والعمل القبيح يتبر

*
* *

ان يصحب الروح عقلى بعد مظعنها للموت عنى ، فأجدر أن ترى عجبا
وإن مضت فى الهواء الرحب هالكة هلاك جسمى فى تربى ، فواشجبا

*
* *

خذ المرآة واستعرض نجوما تمر بطعم الأرى المشور
تدل على الحمام — بغير شك — ولكن لا تدل على النشور

*
* *

تحطمنا الأيام — حتى كأننا زجاج ، ولكن لا يعاد له سبك

*
* *

قال المنجم والطبيب ، كلاهما : «لا تحشر الأجسام» قلت : «إليكما»
« إن صح قولكما ، فلست بخاسر ، أو صح قولى ، فالخسار عليكما ! »

*
* *

فليت الفتى كالبدر جدد عمره يعود هلالا — كلما فنى الشهر
ولم تر بطن الأرض يلقى لظهرها رجالا ، كما يلقى إلى بطنها الظهر

*
* *

حياة كجسر ، بين موتين : أول وثان ، وفقد الشخص أن يعبر الجسر

*
* *

والفقر موت ، غير أن حليفه يرجى له بتمول إنشار

بعيدة الحدوث ، ولكنها أمنية — على كل حال — من الأماني التي لا بأس من تحدث

*

أعلم أني — إذا حييت قذى ✻ وأنني — بعد ميتتي مدر
كم من رجال جسومهم عفر ✻ تبنى بهم ، أو عليهم الجدر

*

رب روح كطائر القفص المسجون ، ترجو بموتها التسريحا
فرحوكم بباطل — شيمة الخمر — فهلا ، لا أوثر التفريحا
كيف لي أن أكون في دارى الأخرى ، معافى من شقوة مستريحا
عجباً لي ! أعصى من الجهل عقلي ✻ ويظل السليم عندي جريحا !

*

لا نعلم الموتى تهم بكرة ✻ لكن أحياء تروم لحاقا

*

يكر موتانا إلى الحشر — إن ✻ قال لهم بارئهم : « كروا »
يخلف منا آخر أولا ✻ كأننا السنبل والبر

*

لعلك منجزى أغبار ديني ✻ إذا قمنا من الأجداث غبرا

*

ومتى شاء الذي صورنا ✻ أشعر الموتى نشوراً فنشر

*

أيها الملحد ! ، لا تعص النهى ✻ فلقد صح ، قياس ، واستمر
إن تعد في الجسم يوما روحه ✻ فهو كالربع خلا ، ثم عمر

*

قد يمكن البعث — إن نادى المليك به — ✻ وليس منا لدفع الشر إمكان

*

إذا ما أعظمي كانت هباء ✻ فإن الله لا يعييه جمعى

خلاصة رأى أبي العلاء التي تخرج بها بعد قراءة أشعاره في البعث والنشور ، هي أن الله أقدر كل شيء ، وأن قدرته التي أنشأت الانسان من العدم إنشاء غير عاجزة — بلا شك — عن إنشائه مرة ثانية وثالثة ورابعة — متى أرادت — ولكن القدرة شيء والارادة شيء آخر ! فقد تقدر على الشيء ولا تريده أو تريده ولا تقدر عليه !

النفس بها ، وإن كانت جد واثقة من قلة غنائها . تلك الوسيلة هى استفسار من ماتوا عما لاقوه من عذاب أو نعيم فى عالمهم الثانى ، ليضع بذلك آخر حد لتضارب الآراء ، وتناقض الأخبار ، فى هذه المشكلة المستحيلة الحل ، وثم لجأ إلى الأمانى — و إن لم تسعفه الأمانى — فود لو يتاح له الظفر بسؤال أحد الهالكين ، واستفساره عما لقيه — بعد الموت — لتنتهى بإجابته شكوكه وحيرته انتهاء حاسما ، فقال :

لو جاء من أهل البلى مخبر　　سألت عن قوم ، وأرخت
« هل فاز بالجنة عمالها ؟　　وهل ثوى فى النار نو بخت ؟ »

وقال :

« أسكنى الثرى ! لا تبعثون رسالة　　إلينا ! ولستم سامعى كلم الرسل !
ولم تسل نفسى عنكم باختيارها ،　　ولكن طول الدهر يذهل أو يسلى ! »

وقال :

« داران . أما هذه فمسيئة　　جدًّا ، ولا خبر لتلك الدار
ما جاء منها وافد متسرع ،　　فنقول للنبأ الجديد : « بدار »

وقال :

« فهل قام من قبره ميت　　يعيب على النفس إخفارها
يقول : « جنينا ذنوباً لنا　　وجدنا المهيمن غفارها »

إلى آخر تلك الأبيات التى لا حاجة بنا إلى استقصائها .

*
* *

ولكنه بعد أن سئم هذه التمنيات التى رددها كثيراً . — بلا طائل — لجأ إلى نوع آخر من الأمانى المجدية « وهو الخيال » وما أوسع عالمه ، إذا ضاق بالإنسان عالم الحقائق !

وقد انتهز لذلك مناسبتين :

أولاهما : رسالة سائل — لم يحفظ لنا التاريخ اسمه — بعث بها إليه مستفسراً عن بعض المسائل الصرفيــة .

وثانيتهما : رسالة على بن منصور الملقب بدوخلة المشهور بابن القارح وهى الرسالة المنشورة بالجزء الأول من هذا الكتاب :

فكان جوابه على الأولى « رسالة الملائكة » وعلى الثانية « رسالة الغفران » .

وفى « رسالة الملائكة[١] » قد انتهز المعرى مناسبة كل لفظة سأله المستفهم عنها ، للخروج منها إلى ما يناسبها من لقاء عزرائيل إلى محاسبة الملكين إلى النفخ فى الصور إلى دخول الجنة .

وفى « رسالة الغفران » قد انتهز فرصة الثناء على رسالة « ابن القارح » وإطراء كلماتها للتوصل إلى غايته التى رمى إليها ، فتمثل الملائكة ترفع كلمها الطيب إلى السماء ، واتخذ من قوله — تعالى — : « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » وسيلة إلى تمثل الأشجار قد غرست فى الفردوس ، بعدد كلمات تلك الرسالة ، لأنها جميعها مما ينطبق عليه معنى الآية التى كأنما كانت تعنيها بهذا الوصف .

وساقه ذكر أشجار الجنة إلى ذكر أنهارها ، وما فيها من الخمر ، ثم إلى تنزه ابن القارح فيها ، وتمتعه بنعيمها الخالد وتعرفه بأهلها ، ثم جره ذلك إلى وصف دخوله ، ودخول غيره من المغفور لهم جنان الخلد ، ثم جره ذلك إلى زيارة أهل النار ، وسؤالهم عن السبب الذى جرهم إلى هذه العقبى السيئة ، وهكذا إلى آخر أغراض الرسالة .

وبعد أن فرغ من ذلك القسم الممتع ، عاد إلى الرد على رسالة ابن القارح[٢]

*
* *

فأما « رسالة الملائكة » فقد يخيل إلينا أنها كتبت قبل « رسالة الغفران » لأنها — على جمال أسلوبها ، وتفرد خيالها — مقتضبة إذا قسناها إلى « رسالة الغفران » ، أو هى — إن شئت — إنما كانت تمهيداً للفكرة الفنية التى قامت عليها الرواية .

أما « رسالة الغفران » فهى — فى اعتقادنا — أوضح وأدق وأبرع صورة شعرية قرأناها عن العالم الثانى ، وأحوال الناس فيه ، وهى كما قلنا من قبل :

« فن من الأدب العالى ، لا يقل عن أجل أثر أخرجه أكبر رأس غربى مفكر . . . . ! »

كامل كيلانى

---

(١) رسالة الملائكة منشورة فى الجزء الرابع من هذا الكتاب (٢) وقد أفردنا للقسم الأول من رسالة الغفران الجزء الثانى من هذا الكتاب وللقسم الثانى الجزء الثالث منه

الخيال فى رسالة الغفران

— ١ —

إن رسالة الغفران نمط وحدها فى آدابنا العربية وأسلوب شائق ونسق طريف من النقد والرواية وفكرة لبقة لا نعلم أن أحداً سبق المعرى إليها ، اللهم إلا إذا استثنينا محاولات لوسيان فى الأولمب والهاوية ، وفذلكة جامعة لأشتات من نكات النحو واللغة ، ذلك تقدير حق موجز لرسالة الغفران . أما أن ينظر إليها كأنها نغمة من نغمات الوحى الشعرى على مثال ما نعرف من القصائد الكبرى التى يفتن فى تمثيلها الشعراء والقصص التى يخترعونها اختراعا، أو ينظر إليها كأنها عمل من أعمال توليد الصور و إلباس المعانى المجردة لباس المدركات المحسوسة فليس ذلك حقا ، وليس فى قولنا هذا غبن للمعرى أو بخس لرسالة الغفران ، كلا ولا هو مما يغضب المعرى أن يقال هذا القول فى رسالته .

عباس محمود العقاد

— ٢ —

. . . أعجبت إذن بكتاب العقاد ، على أن شيئاً فى الكتاب أعجبنى بنوع خاص ، وهو هذه الفصول التى كتبها عن أبى العلاء عامة ، وعن رسالة الغفران خاصة . لم أكد أرى هذه الفصول حتى حرصت على قراءتها حرصا شديداً لأنى — كما تعلم — شديد الصلة بأبى العلاء ، وأحب أن أرى آراء الناس فيه وأن أتبين مقدار ما بين هذه الآراء و بين آرائى من قرب أو بعد .

أول هذه الفصول يتناول حزن أبى العلاء وتشاؤمه . وليس ينكر أحد أن أبا العلاء كان حزينا غالياً فى الحزن ومتشائماً مسرفا فى التشاؤم ، والناس جميعا أحرار فى أن يحزنوا وأن يتشاءموا كأبى العلاء ، أو أن يبتهجوا و يبتسموا كأصحاب اللذة ، أو أن يتوسطوا بين الأمرين ، الناس أحرار ، وهم لم ينتظروا أن نقول لهم هذا ليكونوا أحراراً وليذهبوا فى الحياة أحد هذه المذاهب الثلاثة . و إذن للعقاد أن يحزن كما يحزن أبو العلاء ، أو أن يبتهج كما يبتهج أبو نواس ، أو أن يتخذ بين الأمرين مكانا وسطا ، فالأمر فى هذا راجع الى الطبيعة

والمزاج قبل أن يرجع الى العقل والتفكير ، ولكن الذى أخالف العقاد فيه مخالفة شديدة هو زعمه فى فصل آخر أن أبا العلاء لم يكن صاحب خيال حقا فى رسالة الغفران ، هذا نكر من القول لا أدرى كيف تورط فيه كاتب كالعقاد ! نعم أن العقاد كاتب ماهر يحسن الاحتياط لنفسه ، فهو — بعد أن أنكر الخيال على أبى العلاء — عاد فاثبت له منه حظا قليلا ، ولكنه يستطيع أن يخدع بهذا الاحتياط قارئا غيرى ؛ أما أنا فلن انخدع له ، فهو ينكر على أبى العلاء أن يكون شاعراً عظيم الحظ من الخيال فى رسالة الغفران « سنة سوده ! » كما يقول العامة ، وهل يعلم العقاد أن « دانت » إنما صار شاعراً نابغة خالداً على العصور والأجيال واثقا من إعجاب الناس جميعا ، بشىء يشبه من كل وجه رسالة الغفران هذه ؟ أستغفر الله ! إن من الأور بيين الآن من يزعم أن شاعر فلورنسا قد تأثر بشاعر المعرة قليلا أو كثيراً .

وما الخيال ؟ أما إذا كان ملكة تمكن الكاتب أو الشاعر من أن يخترع شيئا من لا شىء ، أو يؤلف شيئا من أشياء لا ائتلاف بينها ؛ فلم يكن أبو العلاء على حظ من الخيال ، لأنه لم يخترع فى رسالة الغفران شيئا من لا شىء ولم يؤلف بين متناقضات . ولكنا نعلم أن علماء النفس لا يسمون هذه الملكة خيالا وانما يسمونها وهما ، وهم ينبئوننا أن الخيال لا يخترع شيئا من لا شىء وانما يستمد صوره ونتائجه من الأشياء الموجودة ؛ يؤلف بينها تأليفا غريبا يبهر النفس و يفتنها ، و إذا كانوا صادقين — ونحسبهم صادقين — فحظ أبى العلاء من الخيال فى رسالة الغفران لا حد له .

ليس لأبى العلاء حظ من الخيال ! واذن فماذا يلذنا من رسالة الغفران ؟ ولم يعجبنا حوار هؤلاء الشعراء والعلماء وذكر الجنة والنار وما فيهما ؟ أليس لأن خيال أبى العلاء الخصب القوى قد استطاع أن يؤلف بين هذا كله تأليفا غريبا قيما لذيذاً . لم يكن أبو العلاء ملزما أن يخترع الشعراء والعلماء والجنة والنار فـ « دانت » لم يخترع « فرجيل » ولم يخترع الجحيم ولم يخترع الأشخاص الذين لقيهم فيه وانما أستمدهم جميعاً من الأدب القديم أو من الدين المسيحى ، ومع ذلك فهو صاحب خيال ؛ وخياله هذا مصدر مجده الخالد . لا تقل أن حظ أبى العلاء من الخيال قليل بل قل إن حظه من الخيال عظيم جداً قيم جداً خليق بالخلود لأنه الخيال المنتج حقا ، هو الخيال الذى تجده عند « دانت » والذى تجده عند « أناتول فرانس » عند « اناتول فرانس » بنوع خاص ، وما أقوى الشبه بين أناتول فرانس وأبى العلاء ، ليس بين

الرجلين ألا فرق واحد وهو أن تشاؤم الكاتب العربى محزن مظلم ، وتشاؤم الكاتب الفرنسى مبتسم مشرق ، ومن غريب الأمر أن من الفرنسيين من ظلم أناتول فرانس على هذا النحو الذى يظلم عليه العقاد أبا العلاء ، انخدع بعض النقاد الفرنسيين بكثرة ما يروى أناتول فرانس عن قدماء اليونان والرومان وأهل القرون الوسطى فقالوا إن الرجل لا شخصية له وإنما هو يجمع آثار غيره لا أكثر ولا أقل . ويكاد العقاد يقول هذا فى رسالة الغفران لأن أبا العلاء ملأها بما رواه عن الشعراء والعلماء والفلاسفة وما أخذ عن رجال الدين ، ولكن غير العقاد خليق بأن يتورط فى مثل هذا الخطأ ، فسر البلاغة — ولقد كدت أقول الاعجاز — أقوى وأظهر فى رسالة الغفران من أن يغفله أديب كالعقاد . أرى أن العقاد قد وفق التوفيق كله الى فهم السخرية العلائية فى رسالة الغفران ، ولعلى أول من سبق الى ذكر هذه السخرية ولعلى لقيت فى سبيل هذه السخرية العلائية شيئا من العنت والأذى . ولكنى كنت أحب أن يذهب العقاد فى تحليل هذه السخرية العلائية الى أقصى ما تنتهى إليه حرية البحث ، فلم يكن أبو العلاء ساخراً من الناس فى حياتهم العادية ولا فى آمالهم وأعمالهم وحدها ، وانما رسالة الغفران مثل قوى شنيع للسخر بما كان للناس من مثل أعلى فى الدين ، فهو لا يسخر من شهواتهم ولذاتهم ، وانما يسخر من دينهم ويقينهم . والذى أحب أن يلتفت اليه قارئ رسالة الغفران ليس هو هذه السخرية التفصيلية عند ما يعرض أبو العلاء لإوز الجنة أو بقرها أو عند ما يعرض للخصومة بين الشعراء ، وانما هى هذه السخرية الجميلة العامة المنكرة التى تمثل — الله عز وجل — كأنه قد فرغ للذات أهل الجنة وشهواتهم يديرها ويدبرها ، لا عمل له الا هذا ، ولا تفكير له الا فى هذا .

إن الذى يقرأ رسالة الغفران ويفقه ما فيها من سخرية لا يستطيع أن يسلم بأن أبا العلاء كان مسلما حقا . وقد أفهم أن يتجنب العقاد مثل هذا البحث لأن فيه شيئا من الحرج ، ولكنى أحب أن يكون الناس جميعاً مثلى يكرهون إنصاف الحقائق ويؤثرون العلم والتاريخ على كل شىء ! أنا معجب بما كتب العقاد عن أبى العلاء !

طه حسين

رسالة الغفران[1]

أعود اليوم إلى الكتابة عن أبي العلاء بعد عشر سنين مضت على درسى له وكتابتى عنه[2] ، وأشعر بأن ذلك الدرس وتلك الكتابة محتاجان إلى شىء كثير جدا من الاصلاح والتنقيح ، ومن الإضافة والتفصيل ، ولكنى أعترف أيضاً بأن رأيى فى الرجل لم يتغير ، بل بأنى كلما قرأت أبي العلاء ازددت يقيناً برأيى فيه ، وحكمى عليه ، وتحققت أن كثيراً من نواحيه الأدبية والفلسفية قد فاتتنى ، أو عميت علىّ حين كنت أقرؤه منذ عشر سنين ، وإن رجلاً واحداً مهما يكن قوياً ماهراً فى البحث متقناً له لن يستطيع أن يتفهم وحده أبا العلاء ويظهر الناس على دخيلة نفسه ، وعلى وجوه مذاهبه فى الأدب والفلسفة وغيرهما من فروع الحياة المختلفة للعقل والشعور .

ليس ذلك بالشىء اليسير لرجل واحد ، بل لا بد من أن يتعاون عليه رجال مختلفون ، كلهم قوى فى مادة من مواد العلم ، وكلهم ماهر فى منهج من مناهج البحث .

يجب أن يفرغ الأدباء المجودون لأدب أبى العلاء ، ويجب أن يفرغ الفلاسفة المتقنون لفلسفة أبى العلاء ، ويجب أن يتقسم الأدباء فيما بينهم أدب أبى العلاء ، فيفرغ قوم لشعره العادى ، وآخرون لشعره الفلسفى ، ويفرغ قوم لنثره العادى ، وآخرون لنثره الفلسفى . ويجب أن يتقسم الفلاسفة فلسفة أبى العلاء فيفرغ قوم لفلسفته الدينية ، وآخرون لفلسفته النفسية والخلقية والاجتماعية ، وآخرون لفلسفته الطبيعية وهلم جرًّا .

ثم يجب أن يفرغ علماء النحو واللغة لعلم أبى العلاء بالنحو واللغة وما يتصل بهما . وعلى هذه القاعدة يستطيع كل هؤلاء الباحثين أن يخلصوا من درس أبى العلاء إلى نتائج — إن لم تكن مقنعة مزيلة للشك — فهى مرضية مشجعة على الأمل .

ولست أدرى أيتاح لأبى العلاء نفر من الأدباء والعلماء والفلاسفة يفرغون لدرس أدبه وعلمه وفلسفته على هذا الوجه الذى أشرت إليه ؟

---

(١) تثبت هنا مقدمة الطبعة الثانية وهى بقلم الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية

(٢) كان هذا فى أول عام ١٩٢٥ أما اليوم فقد مر عليه نحو ثلاثة وعشرين عاما

ولكنى أعلم أن هناك شيئاً أغتبط به ، وأظن أن الذين يحبون أبا العلاء سيغتبطون به أيضاً ، وهو أن الناس قد بدأوا يعنون بأدب أبي العلاء عناية جديدة قيمة لم يكن لهم بها عهد قبل هذا العصر الذى نحن فيه .

بدءوا يقرءونه و يتفهمونه و يتساءلون عن آرائه وأغراضه ووجه الصواب فى فلسفته ، و بدءوا يستبقون إلى كل ما يكتب عنه و يقال فيه ، فهم ظمئون حقاً إلى درس أبي العلاء وفهمه ، و إذا أحس الجمهور حاجة من الحاجات العقلية فهو واجد اليوم أو غداً أو بعد غد من الباحثين من يرضى هذه الحاجة و يشفيها ، وقد بدأ الجمهور الظمىء إلى فهم أبي العلاء يجد من ينقع غلته ، و يرضى حاجته ، و يعينه على فهم أبي العلاء ، فأخذ كتاب يدرسون الرجل و ينشرون آرائه و يتفقهون تفسيره وتحليله ، والخير كل الخير أن بعض الكتاب والباحثين أخذوا يدرسونه على الوجه المنتج النافع فلا يتناولونه من كل وجه ، ولا يعمدرن إليه من كل ناحية ، ولا يطمعون فى أن يدرسوه كله أو يفسروه كله ، و إنما يتناولون وجهاً واحداً من وجوهه ونحوا واحداً من أنحائه ، فيدرسونه الدرس المفصل الجديد و يخرجون نتيجة هذا الدرس للناس سهلة سائغة ، بل محببة لذيذة .

*
* *

أكتب هذا و بين يدى طبعة لرسالة الغفران أذاعها « كامل كيلانى » منذ حين ، أكتبه وأنا أعلم أن هذه الطبعة قد ذاعت ، واستبق إليها الناس استباقاً لم يكن منتظراً ولا مرجواً ، فأغتبط للطبعة نفسها وعناية « كامل » بها ، ثم أغتبط لما ظفر به من التشجيع على هذا الجد وهذه العناية ، ثم أغتبط لأن روح أبي العلاء وفلسفته ومناهجه فى الفهم والتفكير ، قد أخذت تتغلغل فى طبقات المستنيرين من أهل الشرق العربىّ ، وليس هذا بالشىء القليل ، وما أشك فى أنه سينتج آثاره الحسنة بعد حين ، وسيعرف الناس بعد حين أبا العلاء ، وسيتعاونون على فهمه ، وستنشأ فى هذا الشرق العربى — حول اسم أبي العلاء وآثاره — الجماعات الأدبية والفلسفية ، على نحو هذه الجماعات التى تنشأ فى أوربا حول أسماء النابغين وآثارهم .

أغتبط بهذا كله ، وأنتظر آثاره ونتائجه

على أنى لم أتعود الإسراف فى المدح ، ولا أريد أن أعود الناس منى هذه الخصلة ، وإنما تعودت القسوة فى النقد وتعودها الناس منى ، ولست أخالف هذه العادة فى هذه الكلمة .

فأنا أثنى على هذه الطبعة التى قرأتها ، ولكنى لا أطلق الثناء إطلاقاً ، ولا أرسله إلى غير حد ، وإنما أريد أن أعرف لصديقى « كامل » عمله وعنايته — دون مبالغة ولا إسراف — وأحسبه لا يطمع منى فى مبالغة ولا إسراف ، فهو لم يذع من رسالة الغفران طبعة علمية نقدية على نحو ما يذيع العلماء الأوربيون من آثار القدماء — وإن كان قد مهد لذلك تمهيداً حسناً بما تراه فى الجزء الثانى — وإنما قصد إلى شىء آخر يخالفه كل المخالفة

*
* *

أراد أن يخدم أبا العلاء فيذيع آراءه ، وأراد أن يخدم هذا الجيل فيظهره على آراء أبى العلاء . وليس هذا بالشىء الهين ، فليس فهم أبى العلاء مقدوراً لمن أحسن القراءة والكتابة ، وليس فهم أبى العلاء مقدوراً لمن ألم بأطراف من النحو والأدب والفلسفة ، وإنما فهم أبى العلاء مقدور — فى عسر وشدة — لمن أتقنوا أدب العرب وفلسفتهم ، وألموا بمناهج البحث الحديث

وهؤلاء ليسوا كثيرين فى الشرق العربى ، ولعل إحصاءهم أيسر شىء . قليلون هم جداً ، لا يستحقون أن تعنى بهم عناية تكلفك الوقت والقوة والمال ، فأنت واثق بأن عملك — على نفعه وجلال خطره — لن ينتهى إلى ما تريد من خير ، ولو أنك أردت أن تعنى بهؤلاء فتدرس لهم درساً علمياً دقيقاً صحيحا لكان من الحق عليك أن تتجنب الطبعات المستقلة التى تكلفك مالاً — لن يرد إليك — وأن تكتفى بالمحاضرات يشهدها نفر قليل ، أو بمقالات تنشرها فيما يسمونه المجلات والصحف الدورية ، وأنت تثق بأن قراءها لن يتجاوزوا عدد أصابع اليد

*
* *

لم يعن « كامل » بهؤلاء ، وإنما عنى بغيرهم من المستنيرين فى الشرق العربى ، وهم كثيرون تختلف حظوظهم من العلم وإتقانه ، ولكنهم يشتركون جميعاً فى العجز عن فهم أبى العلاء ، إذا لم يسهل لهم تسهيلا ، وييسر لهم تيسيراً ، ولا سيما رسالة الغفران هذه ، فلست أعرف فى الآداب العربية كلها (لا أستثنى من ذلك شيئاً) أثراً يعدلها ثروة وخصباً وفلسفة ، كما أنى لست أعرف فى الآداب العربية كلها أثرا يعدلها صعوبة وعسراً وغموضا .

هى كنز نفيس ، ولكن قامت دونه ألوان الصعوبات وضروب المشاق التى لا حد لها ، وأنا أزعم أن الذين يستطيعون أن يبدؤا قراءة هذا الكتاب ثم يستطيعون أن يمضوا فيه إلى ثلثه ونصفه قليلون جداً .

ذلك أن أبا العلاء كان — كما تعلم — من أشد الناس إيثاراً للغريب وتهالكا عليه ، ثم كان أبو العلاء إلى هذا — فيما أعتقد أنا — يتكلف الغريب ويتعمده ليصد عامة الناس وجهالهم (سواء فى ذلك العلماء وغير العلماء) عن قراءته والظهور على ما فيه . وكأن أبا العلاء كان لا يكتب لعصره ، وكأنه كان يحس أن عصره خليق ألا يكتب له ، وكأنه كان يكتب لهذا العصر الحديث الذى نحن فيه ، وللعصور التى ستليه ، وكأنه كان يخشى على آثاره الأدبية أن يفهمها أهل زمانه فيفسدوها ويشوهوها ويحولوا بيننا وبين فهمها ، وكأنه إنما أقام من الغريب وقواعد النحو والصرف والعروض والقافية طلاسم وأرصاداً شغل بها أهل عصره عن هذا الكنز ، حتى لا يصلوا إليه ، وحتى تسلم لنا نحن خلاصته فنترك للقدماء نحوهم وصرفهم وغريبهم وعروضهم وقوافيهم ، ونفرغ لخلاصة هذا الكنز من فلسفة فى الخلق والجماعة والدين .

*
* *

وإلاّ فكيف تستطيع أن تفسر هذا الإغراب الذى لم يكن يدعو إليه شىء إلا خصلة واحدة — أبو العلاء أبعد الناس عنها ، وأقلهم منهم حظاً ، وهى خصلة الغرور والإعجاب بالنفس ؟ نعم ، الرجل المغرور وحده ، الرجل الذى يريد أن يظهر الناس على أنه أعلمهم باللغة ، وأرواهم للغريب ، وأحفظهم للنادرة ، وأفقههم بضروب العلم ، هذا الرجل وحده يتكلف ما تكلفه أبو العلاء من الإغراب ، والإسراف فى الإغراب ونحن نعلم علماً - لا شك فيه — أن أبا العلاء كان أشد الناس تواضعاً وأعظمهم زهداً فى ثناء ، وأقلهم حظاً من غرور

*
* *

فهو إذن لم يرد أن يثنى عليه ابن القارح ، ولا أمثال ابن القارح ، بما فى هذه الرسالة من علم وأدب ومن غريب ونادرة . وأحسب (أستغفر الله) بل أثق بأن أبا العلاء إنما أراد أن يسخر من ابن القارح وأمثال ابن القارح ، وأن يلهيهم عن نفسه ورأيه وفلسفته بما كانوا يتهالكون عليه من نحو وصرف وعروض وقافية وغريب ونادرة ودينٍ ، فحشا لهم

الرسالة حشواً من هذا كله ، ولكن دون هذا كله ما لم يفقهه القوم ولم يفطنوا له ، ولو فقهوه وفطنوا له لكان لأبى العلاء شأن غير شأنه ، ولكان لهم شأن غير شأنهم أيضا .

*
* *

نعم مر أبو العلاء فى عصره ولم يفهم الناس منه شيئا ، فهموا قشره وجهلوا لبه ، فهموا منه ما كانوا يفهمون من ابن خالويه وأبى على الفارسى وغيرهما من الرواة والنحويين ، فهموا منه اللغة والأدب والنحو وما يتصل بذلك ، ولم يفهموا شيئاً آخر .

أليس عجيباً أن الذين كانوا يقرءون اللزوميات ويروونها ، إنما كان يعجبهم منها ما فيها من غريب وإغراب ؟ ولولا أبيات فيها صريحة لا تحتاج إلى تأويل ، لما التفت أحد إلى أن للرجل آراء فى الفلسفة أو فى الدين .

أليس غريباً أن كتاباً كرسالة الغفران ينشر أيام أبى العلاء ، فلا يحدث ثورة فى الرأى ولا اضطراباً فى العقيدة ، بل ولا حركة فى الأدب ؟ وإنما يتلقاه الناس على أنه أثر من هذه الآثار اللفظية ، فيه غريب وسجع ورواية وما يشبه ذلك مما كانوا يحبون ويألفون ؟

*
* *

قلت ، وما زلت أقول ، إن أبا العلاء لم يكتب لعصره وإنما سخر من عصره وازدراه ، وإن عصره لم يفهمه ولم يشعر به ، وإنما رأى فيـــه عالما من العلماء وأستاذاً من الأساتذة لا أكثر ولا أقل .

فأما الذين كتب لهم أن يفهموا أبا العلاء ويقدروه فهم أهل هذا الجيل ، والذين سيأتون من بعـــدهم .

*
* *

وكيف يستطيع أهل هـذا الجيل أن يفهموا أبا العلاء ، إذا لم يعمد القادرون إلى هذه الطلاسم والارصاد فيزيلوها كلها أو بعضها ؟ فأهل هذا الجيل — مع الأسف الشديد — لم يدرسوا رؤبة ولا العجاج ولا أمثالها ، وهم ضعاف كل الضعف إذا عرضت لهم هذه الألفاظ التى اعتادها أبو العلاء ، فكيف إذا عرضت لهم هذه الألفاظ التى تكلفها ؟

لم يكن بد أن تنشر عليهم من رسالة الغفران صورة سهلة سائغة ، وهى التى نشرها « كامل افندى » فلم يكره أن ينالها بشىء من الحذف والاقتضاب لا يغير أغراضها ، ولا

يؤثر فى أصلها ولا فى صورتها ، و إنما يزيل عنها بعض هذه الطلاسم والأرصاد التى أشرت إليها ! وهو إن ساء طائفة النقاد الاخصائيين فى البحث اللغوى والأدبى ، فلا أشك فى أنه يسر غيرهم من جمهور المتأدبين والمستنيرين .

ولكن ما رسالة الغفران هذه ؟ !

لقد حدثتك عنها كثيراً — دون أن ألم بها إلماماً — وكيف أن ألم بها — وهى فى حاجة إلى كتاب خاص يفرد لها إفراداً ؟

رسالة الغفران هى آية الأدب العربى المنثور ، لا من حيث أنها آية فى البلاغة أو الفصاحة اللفظية ، ولا من حيث أنها مثل ينبغى أن يحتذيه الكتاب و يتأثره المقلدون ، ليس حظها من هذا كله عظيما ! بل أنا أكره أن يكتب الناس اليوم كما كتب أبو العلاء فى رسالة الغفران ، وهى — مع ذلك كله — آية الأدب العربى ، لا أستثنى منه شيئا ، لا أستثنى منه شعراً ولا نثراً ، ولا أستثنى منه قديماً ولا حديثاً ، لا أستثنى منه شيئا ما .

هى آية الأدب العربى ، كما أن صاحبها آية كتاب العرب ، هى آية التفكير العربى ، هى آية الخيال العربى ، هى آية السخرية العربية ، هى آية الحرية العربيـة ، هى آية العرب فى هذا كله .

لا أغلو فى ذلك ولا أسرف ، بل أعترف بأنى دون ما أريد .

شبهها قوم بحديث « دانت » وربما وفقوا فى هذا التشبيه ، وزعم قوم أن « دانت » تأثر بها فى حديثه ، ولعلهم قاربوا الصواب فى هذا الزعم ، ولكن هذا كله لا يعنينى الآن ، و إنما يعنينى حين أضع كتابا خاصا لدرس هذه الرسالة درسا علميا . كل هذا لا يعنينى الآن ، و إنما الذى يعنينى أن أحداً من كتاب العرب وشعرائهم لم يسبق أبا العلاء إلى هذا الفن من الكتابة والفهم والخيال ولم يلحقه فيه ، و إنما انفرد به أبو العلاء انفراداً فى كل هذه الآداب وفى كل هذه الحضارات التى عاشت هذه القرون المتصلة وأزهرت فيها هذا الإزهار الغريب

نعم ، رسالة الغفران هى آية الأدب العربى من هذه الجهات كلها قصة غريبة لا تقع فى الأرض و إنما تقع فى السماء ، وليس الغرض منها الفكاهة وحدها ولا النقد وحده وليس الغرض منها كفراً ولا إيماناً ، و إنما هذا كله هو الغرض من هذه الرسالة .

أراد أبو العلاء أن يتفكه وأراد أبو العلاء أن ينقد وأراد أن يكفر وأراد أن يؤمن ولست أحتاط فى لفظ ولا أتحرج من معنى ، و إنما أريد أن أكون حرا فيما أفهم وفيما أقول ، فالحرية وحدها هى السبيل إلى فهم أبى العلاء ، وقد أراد أبو العلاء هذا كله ، أراد أن يتفكه فتفكه إلى غير حد ، وأراد أن ينقد فنقد فى غير رحمة ، وأراد أن يكفر فكفر بغير حساب ، وأراد أن يؤمن فآمن فى غير شك .

أراد هذا كله ووفق إلى هذا كله أحسن توفيق ، ويكفى أن تقرأ من هذه الرسالة شيئاً وتفهمه لتؤمن بصدق ما أقول . كفر أبو العلاء وآمن فى هذه الرسالة . كفر بما أجمع الناس عليه من سنة ودين ، وآمن بما وقف عليه حياته كلها من عقل ونقد .

هذه الرسالة هى آية السخرية العربية ، وأحسبها آية من آيات السخرية الإنسانية كلها ، فليس من السهل ولا من اليسير أن تحلل هذا الفن من السخرية الدقيق المعجز الذى تجده فى هذا الكتاب .

تقرأ الكتاب فلا تشك فى أن صاحبه من أشد الناس إيمانا بالله ، واقتناعا بالإسلام ، وتصديقا لما روى علماؤه من الأخبار والآثار ، ولكن اقرأه فى بصيرة وفهم ، وكن حراً حين تقرؤه — كما كان حراً حين كتبه — تجده أشد الناس سخرية بالدين وأعظمهم استهزاء بما آمن الناس به واطمأنوا إليه من الحياة الأخرى . لا يذكر الرجل من حياة الجنة والنار شيئا إلا استدل عليه بآية من القرآن وأثر من الحديث ، ولكن ما رأيك فى أنك لا تستطيع أن تمنع نفسك من الضحك والإغراق فى الضحك عند ما تقرأ هذا الاستدلال نفسه ، عند ما تقرأ هذه الآية الكريمة التى يوردها أو هذا الحديث الشريف الذى يستدل به ؟

لا تستطيع أن تقرأ هذا دون أن تضحك وتغرق فى الضحك .

*
* *

أفتظن أن هذا الكاتب الذى يضحكك حين يتلو عليك آيات الكتاب الكريم أو يروى لك نصوص الحديث الشريف ، قد كان جاداً فيما كتب أو مؤمناً فيما كان يقص عليك ؟ كلا لم يكن جادًا ولم يكن مؤمناً ، و إنما كان مازحاً ، وقد كان منكراً وكان مستهزئاً وكان ساخراً من صاحبه ابن القارح وأمثاله ، ولكنه كان ماهراً وكان على حظ من الفن لا حد له ولا شبيه ، فاستطاع أن يهزأ وأن يمزح دون أن يأخذه الناس بشىء من هزئه ومزحه .

وهل التفت الناس ؟ وهل التفت ابن القارح نفسه إلى ما هذا الكتاب من هزء ومزح ؟ وما فائدة الأرصاد والطلاسم إذا لم تشغل عامة الناس عن سخريته ومزحه ؟

*
* *

أريد أن ألتمس مشبهاً لأبي العلاء فى هذا العصر الحديث وأن يكون الشبه بينه وبين أبي العلاء صادقاً قوياً لا يحتمل الشك ولا الجدال ، أريد ذلك فلا أجد فيه مشقة ولا عسراً وإنما أجده يسيراً لذيذاً يعين على فهم أبي العلاء وتشخيصه من الوجهة الأدبية الفنية .

أتدرى من هوهذا الذى أشبه به أبا العلاء ؟ هو الكاتب الفرنسى المعروف «أناتول فرانس» الذى احتفل الناس منذ حين فى الأرض كلها ببلوغه الثمانين من عمره ، هو الذى يشبهه أبو العلاء شبهاً لا يحتمل الشك ، هو الذى يفسر شخصية أبي العلاء الأدبية ، ولكن شخصيته فى رسالة الغفران لا فى اللزوميات .

فلأبي العلاء (يجب أن نعترف بذلك) شخصيتان متناقضتان تناقضاً منكراً : إحداهما باسمة وديعة رقيقة رفيقة تعطف على الناس وتسخر منهم فى رفق ولين ، تسخر منهم لأنها تحبهم ، وتهزأ بهم لأنها تعطف عليهم ، لا تلومهم ولا تؤذيهم ، وإنما تبسم لهم وتضحك منهم ، وهى فى الوقت نفسه تمسحهم وتتلطف لهم . هذه هى شخصية أبي العلاء فى رسالة الغفران .

وله شخصية أخرى مظلمة ، هذه عابسة مغضبة تتطاير شرراً وتضطرم غيظاً وحقداً ، تسخر من الناس ، ولكن سخرية مرة قاسية لا حد لمرارتها ولا لقسوتها[1] . هذه هى شخصية أبي العلاء فى أكثر شعره فى اللزوميات .

فأما شخصيته الأولى فتشبه شخصية « أناتول فرانس » وأما شخصيته الثانية فتستطيع أن تقيسها إلى ما شئت من شخصيات المتشائمين فى العصر القديم ، وفى العصر الحديث أيضاً .

*
* *

فلنقف عند هذه الشخصية الباسمة الوديعة ولنحللها إلى أصولها ودقائقها ، فما هى هذه الشخصية ؟ وبم تمتاز ؟ بشيئين اثنين : الشك من جهة ، والرحمة من جهة أخرى . نعم الشك فى أديان الناس وعاداتهم وقواعدهم الخلقية والاجتماعية والسياسية ، الشك فى كل هذا

---

(١) لعل أصدق وأوجز ما يمثل تلك الشخصية العابسة المغضبة قوله :

وجوهكم كلف ، وأفواهكم عدى   وأكبادكم سود ، وأعينكم زرق !

وازدراؤه واطراحه ، ثم الرحمة التى لا حد لها والرفق بالناس ، والايمان بأنهم مضطرون بحكم طبائعهم الضعيفة ، و بحكم تضليل المضللين وشعوذة المشعوذين ، و بحكم الظروف الأخرى التى ليس لهم عليها سلطان ، مضطرون إلى أن يخضعوا لكل هذه الأشياء ، و يتأثروا بها فى حياتهم العامة والخاصة على اختلاف فروعهما .

هم مضطرون لا متعمدون ، فهم إذن مظلومون لا آثمون ، ومتى كان المظلوم خليقا باللوم ؟ ومتى كان المضطر خليقا بالتعنيف ؟ ولم تلومهم ؟ ولم تعنفهم ؟ وأنت واثق بأنك لن تغيرهم ولن تصلح من أمرهم ، وكل ما تستطيع أن تطمع فيه هو أن تهدى منهم نفراً قليلين لهم حظ من ذكاء وفطنة وأنت لا تستطيع أن تهدى هؤلاء النفر القليلين بالشدة ولا بالعنف ، و إنما اللين وحده سبيلك إلى هذا .

الابتسامة والدعة ورقة الحاشـــية والافتنان فى الحديث المبتسم الوديع كما كان يفعل « سقراط » فى حواره .

*
* *

الشك والرحمة ! هما العنصران اللذان يكونان شخصية أبى العلاء فى رسالة الغفران ، وهما اللذان يكونان شخصية « أناتول فرانس » .

فإذا أردت أن تتم هاتين الشخصيتين ، فأضف إليهما عنصرين آخرين ، أحدهما العلم الواسع بفنون اللغة والأدب ودقائقهما ، واتخاذ هذا العلم وسيلة إلى ما تريد وستاراً لما تريد ، والثانى الفن الأدبى والتفوق فى تصريف الكلام على وجوهه المختلفة .

*
* *

هذه الخلال الأربع هى التى تكون شخصية هذين الرجلين . ولقد أود أن تقرأ لأناتوس فرانس : « ثورة الملائكة » و « جريمة سلفتر بونار » و « الآلهة عطشى » و « جنة أبيقور » وغيرها من آثاره المختلفة لتصل إلى هذه النتيجة ، وهى أن أناتول فرانس رجل شاك رحيم عالم نابغ فى فن الكتابة . ولتشعر بأنه فى شكه ورحمته وفى استهزائه وسخريته يذهب مذهب أبى العلاء نفسه ، فهو دائماً عالم من علماء اللغة والآثار ، ماهر فى فن الكتب وتصحيح النسخ الخطية القديمة وما يتصل بذلك ، وهو يحدثك بهذه الفنون كما يحدثك أبو العلاء فى النحو والصرف والعروض والقافية والغريب ، ولكنه يحدثك بهذه الأشياء

ليحدثك بأشياء أخرى هى الاستهزاء بالناس وما تواضعوا عليه ، والسخر من الناس وما آمنوا به والرحمة للناس والعطف عليهم وكذلك يفعل أبو العلاء حين يتحدث إليك بما يتحدث به إليك فى رسالة الغفران من نحو وأدب ولغة ودين ، لا يريد من ذلك شيئاً ، وإنما يريد شيئاً آخر ، هو أن يذكر حمق الناس وغرورهم وانخداعهم وجهلهم ، ثم يضحك منهم راثياً لهم مشفقاً عليهم من هذا كله .

أتريد أن أضرب لك الأمثال ؟ ولكن أتظن أن المقدمات تتسع لضرب الأمثال؟ ولم أضرب لك المثل وأنا أقدم لك الكتاب كله ، فانظر إليه تقتنع بما أقول . انظر إلى الملاحاة بين الأعشى ونابغة بنى جعدة إذ يزعم أحدهما لصاحبه أن دخوله الجنة يوشك أن يكون غلطاً ، لولا أن الله لا يغلط . وانظر إلى قصة ابن القارح يوم القيامة وما يكون بينه و بين رضوان وزفر من حراس الجنة ، ثم ما يكون بينه و بين حمزة وعلى وفاطمة ، ثم إلى قصته وهو يعبر الصراط . وانظر إلى أحاديث الشيخ مع أهل النار ، ومع إبليس و بشار والأخطل بنوع خاص . وانظر إلى الحور ، وأخباره مع الحور ومداعبته للحور . وانظر إلى الحيات و إلحاح الحيات عليه فى أن يمكث عندهن حيناً . وانظر إلى قصص الجن وأحاديثهم . وانظر إلى قصص الصيد وشأنه مع هذه الحيوانات التى أدخلت الجنـــة لأسباب مضحكة ، ثم انظر إلى هذه الصورة التى تدور عليها هذه القصة كلها ، وهى هذه التى تمثل الله — عز وجل — تمثيلاً لا يرضاه مؤمن حقا ، ولكنها لا تخالف الظاهر من نصوص الدين ، فالله لا عمل له فى هذه القصة إلا أن يقدم لأهل الجنة ما يشتهون ؟ وماذا يشتهون ؟ إنهم ليشتهون أشياء لا تخلق بهم ولا تخلق بالله — عز وجل — ولكن الظاهر بنصوص الدين لا يخالف الظاهر من قصة أبى العلاء . وفى هذا مقنع للذين لا يتأولون ولا يتحرجون ، ولكن فى هذا مقنعاً للذين يفهمون و يفقهون .

*
* *

ثم إنى لم أحدثك إلا عن جزء من أجزاء الرسالة ، لم أحدثك عن الجزء العلمى ولن أحدثك عن هذا الجزء العلمى ، كما أنى لم أحدثك كما كنت أحب عن القسم الخيالى من هذه الرسالة ، و إنما ألممت إلماماً وأشرت إشارات موجزة ، والخير كل الخير أن تحدثك الرسالة عن نفسها ، فاقرأها وأنا واثق بأنك سترى رأيى فيها وفى أبى العلاء . . . .

طه حسين

ابو العـلاء المعرى (١)

فضله — ورعه — عبقريته — رسالة الغفران — السبب فى اختصارها

الفكر الإنسانى بصيص من النـور الإلهى الفائض على الوجود ، والمفكرون مصابيحه ينعكس منهم على من دونهم فيهتدون به فى سلوك دياجير هذه الحيـــاة ، فلولا هم لخبط السارون فى متاهاتها ، لا يهتدون إلى غاية ، ولا ينتهون من وجودهم إلى نهاية ، لذلك ألقى فى روع الناس ، حتى وهم فى أحط درجات التعقل ، إكبـار المفكرين وتعظيمهم ، وتلقف أقوالهم وآرائهم ، ورب أمة رزقت واحداً منهم فنقلها من الظلمات إلى النور ، بعد أن عاشت قبله أجيالاً تتقلب فى كسف من دونها كسف ، ولا تعرف الوجود ولا يعرفها الوجود

*
* *

أبو العلاء المعرى واحد من أولئك المفكرين ، عرفه صاغة الكلام شاعراً من المبرزين ، وعده نقدة الأفهام حكيما من المقدمين ، فوجد هؤلاء وهؤلاء منه ما يبلغ أقصى ما تتطلع إليه نفس من تصوير و إبداع ، وخيال واختراع ، وسريان فى سرائر الكائنات ، واستجلاء لحقائق الموجودات .

إلا أن فضل أبى العلاء لم يظهر فى عصر من العصور أجلى وأكمل مما ظهر فى عصرنا هذا ، عهد الأبحاث والشكوك ، عهد المذاهب والمقالات (٢) ، حيث اشتجرت العقول ، وتناحرت الآراء ، وثارت أعاصير الريب ، فاكتسحت أمامها أصولاً راسخة من عقائد صحبت الإنسان منذ عهده الأقدم ، فكان لظهور فضل أبى العلاء فى هـذا المضطرب الهائل المذاهب ، والمزدحم الرائع للفلسفات — بعد ما كابدت من حرارة الكفاح ما كابدت — أثر عميق فى نفوس المعاصرين ارتفع الرجل به إلى المكانة التى يجب أن تكون له بين السابقين الأولين .

نعم ، لقى أبو العلاء من الذين يصدهم ظواهر الألفاظ دون بواطنها ، ما يلقاه كل مفكر خلص من أغلال التقليد ، فاتهمه من لا يفهمه بالإلحاد والزندقة ، وقولوه ما لم يقله من الشعر المزرى بالأديان ، الحاط من كرامة مؤسسيها ، وتصدى كثير من أئمة المتأدبين لتبرئته مما نسب إليه ، فكان من أثر ذلك أن تكون حول اسمه جو غريب حمل الكثيرين من أهل

---

(١) تثبت هنا مقدمة الطبعة الأولى وهى بقلم الأستاذ محمد فريد وجدى (٢) المذاهب

الورع على كراهية شعره ، حتى إن مصحح المطبعة الأميرية تحرج منذ أربعين سنة من تصحيح لزوميات أبى العلاء ، وكان ناشرها يطبعها هناك ، فجاءت كثيرة الأخطاء من جراء ذلك ، أين هذا من تزاحم الأدباء والمفكرين فى أوربا على ورود مناهل رجالاتهم الأعلام وعنايتهم بجمع كل شاردة وآبدة من أقوالهم وآرائهم ؟

لم يعن الغربيون بنبغائهم من أهل العبقرية هذه العناية باعتبار أنهم لا يخطئون ولا يخلطون . أو أنهم ملهمون ومحدثون ، بل باعتبار أنهم مفكرون أحرار ، لا يتقيدون بالمذاهب ، ولم يخضعوا عقولهم لغاصب ، فحلقوا من عالم المعانى فى جو خلص من شوائب الحيوانية ، فقطفوا من حقائقه أزاهر أودعوها نظمهم ونثرهم مختلطة بهنات مما يلازم الطبيعة الأرضية

فالمكبون على رشحات أقلامهم إنما يتنسمون من خلال أسطرها نسمات تلك الأزاهر فتفعمهم برياها الشذى ، وتحيي أنفسهم بروحها العلوى

فلو أراد ناقد معاصر أن يجمع سخافات أمثال شيكسبير ودانتى وڤولتير وڤيكتور هوجو لملأ منها أسفاراً ، ولكن ليس هذا من العدل فى شىء إذ يكون هذا الناقد قد قصر نظره عن ظاهر الكلام . ولم يتنور الروح المودعة فيه ، فحرم نفسه أحوج ما يكون إليه

*
* *

بهذه العين يجب أن ينظر للنابغين والعبقريين ، وبهذه النهمة يجب أن يعنى بما دونوه فى الطروس من منثورهم ومنظومهم ، وأبو العلاء واحد من هؤلاء ، بل من أبعدهم غوراً ، وأملئهم سجلاً ، وأعذبهم مورداً ، وأعجبهم حالاً

لسنا بسبيل إيراد تاريخ صاحب رسالة الغفران ، غير أننا نقول . إنه كان كفيف البصر — ككثيرين قبله وبعده من النوابغ — وكان مع عراقته فى الشعر ، وتصرفه فى فنونه ، لم يقله مكتسباً ، فلم يقبل جائزة عليه قط ، وكان مكتفياً بغلة وقف له تبلغ ثلاثين ديناراً ، كان يعطى خادمه منها نصفها ، ويقنع بنصفها الآخر طول سنته .

أعجب من هذا كله وأدل على فضله ونزوعه عن قذر هذا العالم ومظالمه ، تقزز نفسه عن أكل اللحم ، وتأثمه من قتل الحيوان بعد الأربعين من عمره ، فماش بعدها نيفاً وأربعين سنة

لم تمس شفتاه جثة كائن حى ، حتى إنه لما مرض المرضة التى مات فيها نصحه طبيبه بأكل فروج للتقوّى به فى زعمه . فأبى أبو العلاء أن يستبقى حياته بإزهاق روح ، فعمد أهله إلى فروج فذبحوه دون أن يعلم هو ذلك ، ثم قدموه إليه ، فلما تناوله أدركه نفور منه وألقاه من يده، فأخبروه بأنهم إنما فعلوا ذلك طلباً لشفائه . فمد يده ثانية وأمسك الفروج وقال كأنه يخاطبه : « مسكين أيها الفروج أمنوا شرك فذبحوك ، ولو كانوا خافوا بأسك لهابوك[1] » ثم رمى به ولم يتناول منه شيئا .

---

(١) يروون أنه مرض ، فوصفوا له الدجاج ؛ فامتنع ، وألحوا عليه حتى أظهر الرضى ، فلما قدم اليه ولمسه بيده جزع وقال : « استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا لى شبل الأسد: » ثم أبى أن يطعمه

عطف أبى العلاء على الحيوان

وزهد أبى العلاء وعطفه على الحيوان وعزوفه عن أكل اللحم وصرامته فى اتباع هذا القانون مما لا يحتاج إلى تنبيه اليه ، فقد اكتظت أشعاره بالرحمة والشفقة حتى أنه رثى لقتل البرغوث — كما رأيت ذلك فى بعض موضوعات الكتاب السابقة — ولعل أجمل ما خاطب به الحيوان قوله :

فيا طائر ائمنى ، ويا ظبى ! لا تخف ... شذاى — فما بينى وبينكما فرق

وقوله فى التوجع والأسف على ما يصيب الحيوان الضعيف من الأذى :

وابك على طائر رماه فتى ... لاه ، فأوهى بفهره الكتفا
أو صادفته حبالة نصبت ... فظل فيها كأنما كتفا
بكر يبغى المعاش — مجتهداً ، ... فقص عند الشروق — أو نتفا
كأنه فى الحياة ما فرع الغصـ ... ـن ، فغنى عليه أو هتفا

ومن أجمل ما قاله فى العطف على الحمامة ، قوله :

قل للحمامة : « قد أصبحت شادية ... فهجت للذاكر المحزون تشويقا
كساك ربك ريشا ، تدفعين به ... قر الشتاء ، وحلى الجيد تطويقا
فهل تراعين من باز — على شرف — ... يهدى اليك — عن الفرخين — تعويقا؟
أما ترين قسىّ الدهر ، وترها ... رام مصيب ، أعار النبل تفويقا ؟
يغنيك وكرك عن بيت يزينه ... غاو من القوم ، إذهابا وتزويقا »

مثل هذه النفس لا تحرم نوراً علوياً ، ولا تمنع عروجاً سماوياً ، فلا عجب إن عثرنا فى

وانظر إلى نقمته على الانس لايذائهم الحيوان ، وحضه الغراب الذى ينسبون إلى طبعه اللؤم والميل إلى الأذى على مقابلتهم بالمثل فى قوله :

جر يا غراب! وأظلم ، لا أرى أحداً ... إلا مسيئا ، وأى الناس لم يجر ؟
فخذ من الزرع ما يكفيك عن عرض ... وحاول الرزق فى العالى من الشجر
وما ألومك ، بل أوليك معذرة ... إذا خطفت ذبال القوم فى الحجر
فآل حواء راعوا الأسد مخدرة ... ولم يغادوا بسلم ربة الوجر
هم المعاشر ضاموا كل من صحبوا ... من جنسهم ، وأباحوا كل محتجر

وما أبدع ما ختم به هذه الأبيات الجميلة ؛ وما أسد حجته فى نصرة مذهبه إذ يقول :

لو كنت حافظ أثمار لهم ينعت ... ثم اقتربت ، لما أخلوك من حجر

وإذا تساوى العرف والنكر عند الناس ، وكان لا بد لهم من الايذاء فأجدر بالشر أن يدفع بالشر ، وبالاساءة أن تقابل بمثلها !

وما أجمل قوله فى قصيدة أخرى :

ولا تأخذ ودائع ذات ريش ... فما لك أيها الانسان بضنه

*
* *

ولعل أبرع ما قرأناه لأبى العلاء فى حوار الحيوان ميميته الرائعة التى قالها فى حوار الديك ، وافتتحها بقوله :

أيا ديكُ ! عدت من أياديكَ صيحة ... بعثت بها ميت الكرى وهو نائم

إلى أن يقول :

ونعم أذين المعشر ابن حمامة ... إذا سجعت للذاكرين الحمائم

وما أحسن قوله فى هذه القصيدة :

وفيك — اذا ما ضيع النكس غيرة ... تصان بها المستصحبات الكرائم
وجود — بموجود النوال — على التى ... حميت — وان لم تستهل الغمائم
يزان لديك الطعن فى حومة الوغى ... إذا زينت — للعاجزين — الهزائم

إلى أن يقول :

ونؤثر بالقوت الحليلة — شيمة ... كريمَة — ما استعملتها الأرائم

وهكذا يفتن أبو العلاء فى وصفه إلى أن يقول — وقد أفعم قلبه بالرحمة والحنان على الديك :

ولو كنت لى — ما أرهفت لك مدية ... ولا رام إفطاراً بأكلك صائم

شعر أبي العلاء ونثره على لطائف وجدانية لا تتنزل على سواه من عبيد بطونهم ، وأسرى مشاعرهم ، ولا غرو بعد هذا أن حصل له من الشهرة والإقبال فى العصر الأخير عصر النقد والتحليل أكثر مما كان له وهو بين ظهرانى معاصريه ، والمحيطين به لالتقاط الدرر من فيه

*
* *

وإن أجمل ما كتبه ، وأجمعه لآرائه فى الدين والعلم والأخلاق ، وفى أساليب الشعر وفنونه ورجاله وعيونه ، آيته الموسومة برسالة الغفران فقد صورت من نفسه ما لم يصوره شعره للدهماء فى الشعر حوائل من الأوزان والقوافى ولزوم ما لا يلزم ، تجعل معانيه بعيدة المنال وتنور الروح المودعة فيه من أشق المحاولات ، ولكن النثر — لخلوه من هذه الحوائل — تتجلى فيه روح صاحبه بأجلى مظاهرها ، وتتبين أغراضه بأقل كلفة ، وإن كان دون الشعر من حيث التأثير فى النفس ، والسطوة بالعواطف . فرسالة الغفران من هذه الوجهة طلبة كل محب لاستشراق روح أبي العلاء . ولكن يحول دون هذه الفائدة العظمى أنه أكثر من غريب اللغة وأطال فى سرد عبارات غامضة ، أو ضرب أمثال شاردة ، أو ذكر مالا يعنى إلا العربى القح فى ذلك العهد . ونحن نعطى قارئنا مثالاً من ذلك . قال :

ولم يغسل ماء ، كى تمزق حلة — حبتك بأسناها العصور القدائم
ولا عمت فى الخمر التى حال طعمها — كأنك فى غمر من السيل عائم
ولاقيت عندى الخير تحسب عيلا — ينافيك قول سيء وشتائم
فإن كتب الله الجرائم ساخطا — على الخلق لم تكتب عليك الجرائم

والقصيدة طويلة لا يتسع المقام لأكثر مما ذكرناه منها ، فليرجع إليها من شاء فى الجزء الثانى من كتاب اللزوميات « من ص ٢٢٣ الى ص ٢٢٦ »

*
* *

ولا يفوتنا — قبل أن نختم هذه الكلمة — أن ننبه القارئ إلى رسائل أبي العلاء التى كتبها رداً على داعى الدعاة فى مصر لعلاقتها بهذا الموضوع ، فقد أظهر فيها الأسباب الرئيسية التى دعته إلى تحريم أكل اللحم ، وهى فى هذا الجزء

ونذكر بهذه المناسبة أن الأستاذ فريد وجدى نباتى لا يأكل لحم الحيوان ، فهو يشرك أبا العلاء فى هذه الخلة ، ولعل هذا الاتفاق هو السر فى إعجاب الأستاذ بهذه الحكاية الى هذا الحد ونحن نشارك الأستاذ فى إعجابه بنبل أبي العلاء وزهده ، ولكن هذا الاعجاب لن يكون — فى لحظة من اللحظات — مغريا لنا بالعزوف عن أكل لحم الحيوان !

« قد علم الحبر الذى نسب إليه حبريل ، وهو فى كل الخيرات سبيل ، أن فى مسكنى حماطة ما كانت قط أفانيه ، ولا النا كزة بها غانية » .

وقال :

«وأن فى طمرى لحضبا وكل بأذاتى ، لو نطق لذكر شذاتى ، ما هو بساكن فى الشقاب ، ولا بمتشرف على النقاب ، ما ظهر فى شتاء ولا صيف ، ولا مر بجبل ولا خيف الخ الخ ».

*
* *

فالرسالة فى مثل هذا المعرض يصعب على الأكثرين قراءتها ومزاولتها والاستفادة مما حوته من آراء مسددة ، وأحكام عادلة ، ونظرات ثاقبة ، ولو أحصينا عدد من قرأ هذه الرسالة من جملة المتأدبين لما ألفيناهم يجاوزون العشرة فى المائة ، وهذا حرمان يألم منه طلاب الأدب العالى .

فبتوفيق من الله ألهم الفاضل الألمعى « كامل افندى كيلانى » أن يلخص هذه الرسالة على أسلوب تبرز به أغراض أبى العلاء كاملة دون أن يحول بينها و بين القارىء ما أحيطت به من المترادفات الغامضة ، والشؤون المحلية الخاصة ، مما جعل الرسالة عبئاً ثقيلاً على المعاصرين يكد أذهانهم و يكل عزائمهم و يقف بهم عند حد منها لا يتعدونه ، ومن محاسن هذا العمل المشكور الذى نسجله لأديبنا الشاب بالإعجاب ، أنه جاء من حسن الاتساق ، وتناسب الأجزاء ، وتوافر الأغراض ، بحيث يخيل للقارىء أنه يقرأ رسالة أبى العلاء قبل أن تتناولها يد التلخيص ، وأعجب من هذا أنه لم يزد فيها حرفاً ، ولا من أغراضها غرضا ، فهى من هذه الوجهة أحسن ما رأينا فى هذا الباب .

*
* *

أما فوائد هذا العمل فلا نخالها تخفى على أحد ، فمنها سهولة تداول هذه الرسالة ، وعموم الإنتفاع بها ، وتيسر تكرارها .

وهى فوائد لا أستطيع أن أحد مداها من النفع العام ، ولا أن أوفى مسببها الشكر على على جليل خدمته ، فالله يتولى مثو بته ، و يجزل مكافأته ، و ينفع بعمله هذا طلاب العربية ، وعشاق الفنون الأدبية ، إنه أكرم مسئول . . .

محمد فريد وجدى

فهرست

الجزء الأول

رسالة ابن القارح

الجزء الثاني

رسالة الغفران — القسم الأول

الفصل الأول

الفردوس

الفصل الثانى

يوم الموقف

الفصل الثالث

نعيم الفردوس

الفصل الرابع

جنة العفاريت

الفصل الخامس

الجحيم

الفصل السادس

عوده إلى الفردوس

الجزء الثالث

القسم الثانى من رسالة الغفران — الرد على رسالة ابن القارح

الجزء الرابع

نصوص ودراسات

٣ — رسالة الملائكة

٤ — رسالة الشياطين

٥ — رسالة الأخرسين

بين المعرى والمغربى

٦ — رسالة المنيح

٧ — رسالة الأغريض

٨ — الكوميديا الإلهية

الفصل الأول

الفصل الثانى

بقية الفصول

دراسات النقاد